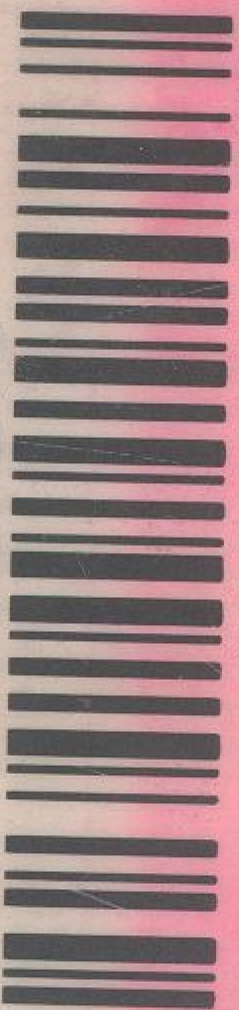



د. رمسيس عوض

اليهود

والأدب الأمريكي المعاصر

حلمي التوني 98





سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٥ - رجب - نوفمبر ١٩٩٨

NO - 575 - NO - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا١٧٠ ليرة - لبنان٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

اليهود والأدب الأمريكى المعاصر

بقلم

د . رمسيس عوض

دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

١ – دور المجلات اليهودية الثقافية :

ليس من شك فى أن يهود أمريكا فى يومنا الراهن يحتلون مكانة بارزة فى الأدب الأمريكى الحديث . وهم لا ينكرون أنهم يحتلون هذه المكانة العالية بل يتحدثون عنها بفخر واعتزاز . وهم بذلك يدخلون الطمأنينة فى نفوس المواطنين الأمريكان ويشعرونهم بأنهم شركاء لهم فى هــذه المواطنة ، وأنهم لم يعودوا غرباء كما كان الحال عليه فى الماضى . ويهود أمريكا يملكون مراكز أبحاث خاصة بهم تعمل على ترسيخ اقتناع اليهودى الأمريكى بأنه جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع الأمريكى . وإنى استقى هذه الدراسة من كتابات ومباحث اليهود الأمريكان أنفسهم التى تنشرها مراكز الدراسات اليهودية فى الولايات المتحدة . وفى هذه الدراسات نعرف الأسماء اليهودية اللامعة فى مجال النقد الأدبى فى أمريكا اليوم أمثال ليونيل تريلنج (Lionel Trilling) وفيليب راهف (Philip Rahv) وألفريد كازين(Alfred Kazin) ولسلى فيلدر (Les lie Ficlder) وأرفنج هاو (Irving Howe) . وأيضا لمعت فى الرواية الأمريكية الحديثة والمعاصرة كوكبة من أشهر الروائيين اليهود الأمريكان مثل الشاعر ديلمور (Delmore) وشوارتز (Schwartz) وشاؤول بيلو (Saul Bellow) ونورمان مالر (Norman Mailer)

وفيليب روث (Philip Roth) . وبنهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) بات من الواضح أن هذه الأسماء قد استقرت فى صميم الأدب الأمريكى ، وأصبحت رافدا جوهريا من روافده . وهو رافد بدأ فى العشرينات من القرن العشرين وخاصة فى فترة الكساد العظيم الذى اجتاح الغرب والعالم كله فى الثلاثينات ثم تعمق فى العقد الخامس بعد قيام هتلر بإبادة اليهود إبادة جماعية وسعى هؤلاء اليهود الحثيث لاقامة دولة اسرائيل . ويمكن القول بأن الخمسينات توجت بنجاح الجهود التى بذلها اليهود فى مطلع القرن العشرين لاثبات وجودهم فى ساحة الأدب الأمريكى منذ أن أنشأوا مجلة مينورا (The Menorah Jounal) فى العشرينات والبارتيزان ريفيو (Partisan Review) ومجلة «التعليق» (Commentary)التى بدأت فى أواخر الأربعينات واستمرت حتى عام ١٩٧٠ تقريبا. وإذا كان الرعيل الأول من الكُتّاب اليهود غرباء على الأدب الأمريكى فإن الرعيل الثانى منهم استوعب الثقافة الأمريكية استيعابا كاملا وتخلى نهائيا عن شعوره بالتقوقع فى شرنقة الفكر اليهودى الصرف وخرج من هذه الشرنقة ليلتحم إلتحاما كاملا بالثقافة الأمريكية . ولا غرو فقد أصبح يتلقى نفس التعليم الذى يتلقاه الأمريكى ويعيش نفس حياته ويشاركه نفس

أفكاره ومشاعره . ولم تعد هويتهم اليهودية تهمهم بقدر اهتمامهم بتمثل الحياة الغربية واستيعابها . ومما لا شك فيه أن تمثلهم الكامل للحياة الأمريكية بوجه خاص والغربية بوجه عام يرجع إلى حد ما إلى رغبتهم فى تجنب المشاعر العادية للسامية فضلا عن تجنب ما قد يلحق بهم كأقلية من أضرار اقتصادية .

ومن أبرز مظاهر التمثيل اليهودى الكامل للحياة الأمريكية إنشاء جمعية عام ١٩٠٦ فى جامعة هارفارد تهدف إلى اندماج اليهود فى المجتمع الأمريكى وتحمل هذه الجمعية اسم جمعية مينورا بجامعة هارفارد . وليس أدل على نجاحها من أنها أقامت فى العشرينات أماكن للعبادة مخصصة لليهود فيما لا يقل عن ثمان عشرة كلية أمريكية . ومن المهم أن نذكر أن هذه الجمعية الجامعية أنشأت عام ١٩١٥ مجلة ثقافية وعلمانية خطيرة الأثر تعرف بمجلة مينورا التى كان هنرى هيروتيز (Henry Hurwitz) أول من تولى رئاسة تحريرها حتى وفاته عام ١٩٦١ . والجدير بالذكر أن هذه المجلة توقفت فى العام التالى لوفاته وقد سعت هذه المجلة لتجنيد جميع الموارد اليهودية لدعم الجهود التى يبذلها اليهود للاسهام فى إثراء الحياة الفكرية الأمريكية ، ناهيك عن تعميق هويتهم الأمريكية .

وصل نشاط مجلة مينورا الثقافى ذروته فى الخمس عشرة سنة

الأولى من إنشائها ثم أخذ نشاطها يخبو بمرور الزمن . ورغم ذلك فقد لعبت هذه المجلة دورا بارزا فى التحام اليهود بالأمريكان والتحام الأمريكان باليهود الأمر الذى مكن اليهود الأمريكان من الاحتفاظ بطابعهم الثقافى المميز دون أن يذوبوا ذوبانا كاملا فى بوتقة الثقافة الأمريكية . وهكذا تخلى اليهود عن عزلتهم التقليدية وباحساسهم المتفرد عن بقية خلق الله دون أن يفقدوا كيانهم النفسانى . واستطاعت مجلة مينورا تحقيق الأهداف الثلاثة التى وضعتها نصب عينها : (أولا) إلقاء الضوء على الماضى اليهودى واستعادته في ضوء علم النفس الحديث ، (ثانيا) مناقشة حياة اليهود ومشاكلهم فى الولايات المتحدة والعالم مناقشة حرة ومفتوحة أمام جميع الاتجاهات والتيارات ، (ثالثا) العمل على نشر الأعمال الخلاقة للكُتَّاب والفنانين اليهود فى كل المجالات .

وبعد هنرى هيروتيز تولى اليهودى ألبرت كوهين رئاسة تحرير هذه المجلة ، تخرج كوهين فى جامعة ييل فى الثامنة عشرة من عمره . وكان يحلم بأن يصبح أستاذا للأدب الانجليزى . ولكن هذا لم يتحقق لأن أقسام الأدب الانجليزى بالجامعات الأمريكية آنذاك كانت مقتنعة بعدم قدرة اليهود على الاضطلاع بهذه المهمة . ويذهب أول مقال نشره كوهين فى مجلة منيورا عام ١٩٢٣ إلى

ضرورة انخراط اليهود فى المجتمع الثقافى والفكرى الأمريكى حتى لا يصبحوا جزيرة منعزلة عنه . وقد أوتيت هذه الدعوة التى بدأت فى العشرينات ثمارها فى عقد الخمسينات .

ورغم أن كوهين لم يكن أديبا بمعنى الكلمة فإنه تمتع بموهبة فذة فى اكتشاف الأدباء واستطاع أن يستكتب فى فترة رئاسته تحرير المجلة كوكبة من ألمع النقاد والمفكرين أبرزهم الناقد المعروف ليونيل تريلنج Lionel Trillling إلى جانب ألبرت هالبر Albert Halper وتس سلسنجر Tess Slesinger وكليفتون فاديمان Clifton Fadiman وآخرين فضلا عن أنه نجح فى استكتاب عدد كبير من ألمع نجوم الكتابة السياسية فى الثلاثينات .وتدل الرسائل المتبادلة بين كوهين رئيس تحرير مجلة مينورا وبين ازيدور شنيدر Isodor Schneider على أن جميع المشتركين في تحرير المجلة كانوا على وعى تام بالدور الذى يلعبونه فى ادماج اليهود فى المجتمع الأمريكى . والجدير بالذكر أن اهتمام ازيدور شنيدر بالاشتراكية والأدب كان يفوق اهتمامه بهويته اليهودية . والتفت الرجل منه حوله إلى أقرانه اليهود الذين يتحدثون اللغة الانجليزية فوجد أنهم يحتلون مكانة هامشية وتافهة فى تيار الحياة الأمريكية الأمر الذى جعله يعلق آماله على الانتاج الأدبى والفكرى ليهود روسيا وشرق

أوربا الذين يتحدثون اللغة الخاصة بهم المعروفة باليديش Yid-dish وهى لغة تنحدر من الألمانية الدارجة وليس من العبرية . وأحس شنيدر بالفخر الشديد لأن اينشتين وماركس وفرويد كانوا من اليهود .

ولكن من الخطأ أن نظن أن مجلة مينورا اقتصرت على أقلام اليهود فقط فقد استطاعت اجتذاب غير اليهود إليهم . وكانت كتابات كوهين أحسن تعبير عن التغير الملموس الذى طرأ على اليهودى فى أمريكا فقد إلتحم بالفكر الأمريكى دون أن يفقد هويته اليهودية . ولهذا قبله المجتمع الأمريكى فى الخمسينات كجزء لا يتجزء من هذا المجتمع .

ويشرح الناقد ليونيل تريلنج هذه الروح اليهودية الجديدة قائلا إنها لا تربطها بالدين اليهودى أية رابطة بل هى مجرد اعتزاز اليهودى بانحداره من أصل يهودى وعدم الخجل منه مقرونا بالادراك أن اليهود ليسوا فوق مصاف البشر ويشاركون بقية افراد المجتمع الأمريكى سخافاتهم وتعقيداتهم .

أسهم ليونيل تريلنج اسهاما غزيرا بكتاباته فى مجلة مينورا فى الفترة من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣١ . وكانت كل مقالاته فى مينورا تدور حول دور اليهودى فى الأدب . غير أن رأيه فى الانتاج

الأدبى اليهودى لم يكن عاليا . فهو يهاجم بشدة الأدب الذى انتجه اليهود آنذاك وهو يحمل بشدة على رواية لودفيج لويسون Ludwig Lewisohn «الحصاد العشوائى» Random Harvest قائلا إن هذا الروائى أخفق فى إنتاج الشعر مثلما أخفق فى إنتاج الخيال . وعاب تريلنج أيضا على مسرحية لويسون «آدم» وروايته الأخرى «ستيفن اسكوت» Stephen Escott وميل هذين العملين إلى الدعاية الفجة المتمثلة فى الإعلاء من احساس اليهودى بيهوديته . يقول تريلنج إن هذا المؤلف آثر التضحية بالمزايا الفنية الأصيلة من أجل ترك أثر عاطفى مباشر وسريع ، وهو يضيف أن لويسون عاجز عن خلق الشخصيات ولكنه ناجح ومقنع فى وصف المفاهيم والمؤسسات . وكذلك ينحى تريلنج على الشاعر لويس انترماير Louis Unter-meyer فى ديوانه الشجيرة المحترقة Bush Burning فيقول إنه ليس شاعرا جيدا أو أمريكيا جيدا أو حتى يهوديا جيدا بل هو شاعر ردىء ودعى ، وكذلك لم تسلم رواية اليهودى روبرت ناثان Robcrt Nethen «هناك سماء أخرى» There is another Heoven من الانتقاد فقد قال تريلنج إن مؤلفها يبالغ أكثر من اللازم فى تبسيطه للحياة والفضيلة . وأيضا قال هذا الناقد إن الرواية التى ألفها الناقد الموسيقى بول روزنفيلد Paul Rosenfeld بعنوان «ولد

فى الشـمس» Boy in the Sun فـاشلة فـشـلا ذريعـا بسـبب انصـراف بال مـؤلفـهـا إلى الموسـيـقى الأمـر الذى انعكس بالسلب والطراوة على أسلوبه النثرى غير أن جميع أحكام تريلنج النقدية لم تكن بهذه القسوة ، فقد وصف رواية تشارلس روزنيكوف Charles Roznikoff« بجوار مياه مـانهاتن » By the Waters of Manhat- ten بالعظمـة والأصـالة وبأنها تتـفـوق على مثـيلاتـهـا بين الروايات اليهودية .

تأثر تريلنج فى لاحق أيامه بالأفكار الراديكالية والثـورية حتى مقالاته النقدية الباكرة تنم عن ادراك للجوانب الاجتماعية النفسية التى ينطوى عليها الأدب الروائى . وتدل منـاقشـتـه لكتـاب حناة و . لندن Hannah . London الذى يضم بين دفتيه مستنسـخات من بورتريهات اليـهود الأمريكان الأوائل على فخره بما يحرزه الكتاب من نبوغ اليهود وتميزهم . غير أنه عاب على صاحبة الكتاب أنـها تجنح إلى المجـردات والفكر المطلق الذى يصـور لهـا اليـهـودى بالعظمـة المطلقة والامتياز المطلق .. وكان آخر ما نشره تريلنج فى مجلة مينورا ذلك العرض المتحمس لرواية «النجاح»Success التى ألفها ليون فيتشفانجر Lion Feucht wanger فى ألمانيا عن الظلم . وبلغ به الاعجاب بهذه الرواية إلى الحد الذى جعله يقول عنها إنها تكاد تبلغ الكمال فى نجاحـها وإنها تبنى التاريخ على نحو جميل .

ويدل نقده لهذه الرواية إلى تأصل البعد الاجتماعي والسياسي فيه فهو يعتبر الأدب سلاحا لمقاومة الشر والجشع والغباوة في هذا العالم وهذا معناه أنه لا يعتبر الأدب مجرد متعة جمالية أو واحة للهروب من قبح وبشاعة الحياة . والرأى عنده أنه لا جناح على الفنان إذا دافع في فنه عن السلوك السياسى القويم وهاجم الظلم والجور فليس في اشتمال الأدب على الدعاية السياسية ما يعيب .

والجدير بالذكر أن الفترة التى تولى فيها كوهين رئاسة تحرير مجلة مينورا اتسمت بالجنوح إلى اليسار فى الفكر والسياسة . وساعد على ذلك الكساد العظيم الذى اجتاح العالم فى فترة الثلاثينات . وعبرت مادة المجلة آنذاك بوضوح عن تعاطفها على المبادىء الشيوعية الأمر الذى أقض مضجع ممولى المجلة الأثرياء والذين دفعتهم محافظتهم وخوفهم على مصالحهم إلى تشديد النكير على رئيس التحرير كوهين فصارت حياته لا تطاق ، واضطر إلى الاستقالة فانفرط عقد مجموعة الكُتَّاب اليساريين الموهوبين الذين التفوا حول المجلة . وبعد أن أصدر كوهين العدد الأخير منهافى يونية عام ١٩٣١ توقفت المينورا عن الصدور ثم تعثرت وعجزت عن الظهور بانتظام حتى نهاية عام ١٩٦٢ . وبعد انفضاض جماعة كوهين اليسارية عن المجلة أخذوا فى الانخراط

في معترك الحياة السياسية الأمريكية من منطلق يسارى عاطف على الفكر الشيوعي ولكنه رافض للشمولية والديكتاتورية الستالينية . ولهذا احتدم النزاع بينهم وبين غلاة الشيوعيين ونحن نطالع تسجيلا عدائيا لحياة هذه الجماعة فى الرواية التى ألفتها تس سبسنجر Tess Spesingerعام ١٩٣٤ بعنوان «المالكين لعقولهم أو غير الملتزمين The unpossessed. وسخرت سبسنجر من استغراق أفراد هذه الجماعة في الكلام الذى لا ينتهى والاكتفاء بهذا السيل المنهمر من الكلمات دون الفعل وعبر تريلنج عن استهجانه لمدلول الرواية فقد كتب عند إعادة طباعتها يقول إن المؤلفة أرادت بكتابها أن تبين عجز جماعة المينورا عن وضع المثل العليا التى يتظاهرون بالايمان بها موضع التنفيذ . يقول تريلنج فى دفاعه عن هذه الجماعة أنها تهدف حقا إلى إصلاح المجتمع الأمريكي وليس صحيحا أنهم أولاد زنا ولقطاء عاجزون عن الانجاب كما تصفهم الرواية . ولكن الأيام أثبتت أن تريلنج لم يكن محقا تماما فقد انسحب من معترك السياسة الراديكالية نفر من أعضاء الجماعة بعد انقضاء عدة سنوات على انضمامهم إليها .

ورغم ذلك لعبت جماعة مينورا دورا بارزا فى تطور الأدب الأمريكى فى فترة رئاسة كوهين تحرير المجلة وبفضل نشاطها

استطاع يهود أمريكا النفاذ إلى قلب الأدب الأمريكي والثقافة الأمريكية . وبمضى الزمن انبعثت بذرة الأمركة التي وضعها كوهين في المثقفين اليهود لتطرح ثمارها عندما تولى هذا الرجل رئاسة تحرير مجلة «التعليق» وذلك بعد مرور أربعة عشر عاما على انسحابه من رئاسة تحرير مينورا . والجدير بالذكر أن ليونيل تريلنج استطاع أن يحقق ما عجز سلفه إليوت كوهين عن تحقيقه فقد أصبح تريلنج أستاذا للادب الأنجليزى في جامعة كولومبيا . فضلا عن أن صيته كناقد أدبى طبق الآفاق وترك بصماته الواضحة على الجيل التالى له .

وترجع أهمية جماعة مينورا الحقيقية إلى أنها أثبتت للمجتمع الأمريكي أن الكاتب اليهودى يمكن أن يكون يهوديا راديكاليا وصاحب اتجاهات أدبية في سياق أمريكى منسجم وأن يصهر يهوديته وراديكاليته وأدبه في بوتقة الثقافة الأمريكية ، وفى فترة الثلاثينات اصطبغ النشاط الأدبى لجماعة مينورا بصفة السياسة اليسارية . ولما كان السواد الأعظم من الكُتَّاب الشبان آنذاك من اليهود كان من الطبيعى أن يستمدوا مادتهم من واقع بنيتهم وتجربتهم اليهودية ، وجاءت الحركة النازية في المانيا لتضع مشكلات اليهود في صدارة الاهتمامات الأمريكية وخاصة لأن

عـدوى النازية الألمانيـة وعـداوة السـامـيـة انتـقلت إلى نفـر من الأمـريكان . ولكن المضمون اليـهودى لهذه الكتـابات اليـهودية كان فى العادة أقل فى أهميته من مضمونيها السياسى والأدبى الأمر الذى يؤكـد - كـمـا أسلفنا - انصـهـار اليـهـود فى بوتقـة الحـيـاة الفكرية والثقافية الأمريكية .

وبعد اختفاء مجلة مينورا انتقلت هذه الراديكالية السياسية اليهودية إلى مجلة أخرى هى البارتيزان ريفيو التى تأسست عام ١٩٣٤ كامتداد لنادى جون ريد Gohn Reed فى نيويورك الموالية للحـزب الشـيـوعى . وتولى إدارة هذه المجلة الجـديدة اثنان من اليـهود هما وليم فيلبس William Phillips وفـيليب راهف Philip Rahv. ولكن الشقاق ما لبث ان دب بينهمـا وأنصـارهم فى جانب والحزب الشيوعى فى جانب آخر . وكانت نتيجة هذا الشقاق أن انفصلت مجلة البارتيزان ريفيو عن الحزب الشـيوعى الأمـريكى لتـصـدر مسـتـقلة عنه . ورغم أن هذه المجلة احـتـفظت بميـولهـا اليسارية ردحا من الزمن فإنها آثرت الانصراف عن السياسة إلى التجديد فى القوالب الأدبية على نحو ما فعل ت . س . إليوت وإزرا باوند فى الشـعـر وجـيـمس جـويس وفـرانز كـافكا وفـيـودور دسـتـيـوفسكى فى الرواية . وبذلك توارت الهوية اليـهـودية رغم أن عددا كبيرا من كتاب البارتيزان ريفيو كانوا من اليـهود . غير أن

بعضهم سار على نفس الدرب الذى انتهجته مجلة مينورا وهو الدرب المؤدى إلى تمثل الحياة الأمريكية والاندماج فيها . غير أن العنصر اليهودى ما لبث أن عاد إلى الظهور بوضوح فى مجال الحقل الأدبى عند انشاء مجلة يهودية ثالثة هى «التعليق» عام ١٩٤٥ أى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة .

ولم يشترك كوهين فى تحرير البارتيزان ريفيو فى حين أن ليونيل تريلنج أسهم فيها بنصيب وافر مقيما بذلك همزة وصل بين المجلة الأولى مينورا والمجلة الثالثة البارتيزان ريفيو . ولعبت هذه المجلة الثانية دورا بارزا فى تطور كثير من الكتاب اليهود الذين أحدثوا تغييرا هائلا فى الأدب الأمريكى نفسه فى عقد الخمسينات. وفى تلك الفترة اتجهت مجلة البارتيزان ريفيو الى الحداثة الأدبية . ومع ذلك ظلت سياستها يسارية ماركسية ولكنها معادية للديكتاتورية الستالينية متجهة فى نهاية الأمر الى التروتسكية .

وعند ظهور مجلة البارتيزان ريفيو كانت المدرسة الأدبية الأمريكية المعروفة بمدرسة المذهب الانسانى (وهى مدرسة تقليدية محافظة تزعمها إرفنج بابيت Irving Babbitt وبول المر مور Paul Elmer Moore) قد اندحرت أمام حداثة هذه المجلة الجديدة وتم هذا الاندحار على أيدى مجموعة من المتمردين على القديم وعلى

النظام الاجتماعى القائم وهو تمرد تزعمه بروكس Brooks مؤلف «بلوغ امريكا سن الرشد» America's Coming of Age وأبرز الروائيين فى فترة العشرينات بالاضافة الى جماعة الشكليين ثم أنصار النقد الجديد New Criticism فيما بعد والنقد الاجتماعى للأدب (يتصدرهم ادموند ويلسون) والحركة الأدبية المناصرة للماركسية وبعد انهزام انصهار مدرسة المذهب الاجتماعى المحافظة على أيدى هذه الشيع جميعا لم يكن هناك مناص من أن يدب الانقسام بين هذه الشيع المتباينة . وكانت نتيجة هذا الانقسام أن مجلة البارتيزان ريفيو بعد نبذها للحزب الشيوعى واستقلالها عنه تحولت إلى منبر أدبى للماركسية غير المتزمتة ، ثم ما لبثت أن توارت هذه الصبغة الماركسية ليحل محلها جنوح نحو التجريب والحداثة الأدبية . والجدير بالذكر أن مجلة البارتيزان ريفيو لم تكن فى يوم من الأيام من أنصار المدرسة الشكلية أو النقد الجديد اللتين أظهرتا عزوفا عن أية قراءة سياسية للنصوص الأدبية وما أن ظهرت مجلة «التعليق» (نحو عام ١٩٤٥) حتى بدأت تأخذ مكان سابقتها البارتيزان ريفيو وامتلأت صفحات هاتين المجلتين بأقلام عدد كبير من اليهود الأمريكان إلى جانب كتابات الأدباء من غير اليهود .

وتدل «المناظرة» التى تحـمل عنوان «تحت سن الأربعين» والمنشورة عام ١٩٤٤ في «السجل اليهودى المعاصر» Contempo rary Jewisls Record على مدى ما وصل إليه الكاتب اليهودى من تغلغل فى الحياة الثقافية الأمريكية فقد جاء فى «سجل اليهودى المعاصر» أن الكاتب اليهودى فيما مضى لم يكن له أدنى وجود فى الأدب الأمريكى . ولكن الوضع اختلف تماما فى الأربعينات فقد احتل الأدباء اليهود الصدارة فى هذا الأدب . واشترك فى هذه المناظرة الهامة عدد من الكتاب اليهود أمثال ميوريل روكسر Mu-riel Rukeyser والفريد كازين وديلمور وشوارتز وليونيل تريلنج وألبرت هالبر وهوارد فاست Howard Fast واسحق روزنفليد Isaac Rosanfeld . وتأرجح اعتراف هؤلاء الأدباء بمدى تأثرهم بأصولهم اليهودية فمنهم (مثل شوارتز) من اعترف بتأثره بها فى قصد واعتدال ومنهم من رفض قطعيا أنه تأثر بيهوديته مثل ليونيل تريلنج الذى قال أنه سوف يستاء شديد الاستياء لو أن أحدا نسب فضائل كتاباته أو عيوبها إلى أصله اليهودى كانت هذه المناظرة بمثابة نقطة تحول فى تأمرك يهود أمريكا ، كما كانت إيذانا بمقدم عهد جديد زالت فيه الحواجز التى تعترض سبيل التحاق اليهود بالجامعات والمعاهد العليا الأمريكية، كما تقف فى طريق اشتغالهم

بالأعمال الأخرى صحيح أن قدرا من عداوة السامية ومن المفاهيم التقليدية عن اليهود ظل كامنا فى نفوس وعقول بعض الأمريكان . ولكن هذا لم يحل بحال من الأحوال دون نجاحهم فى الالتحام بأغلبية المجتمع الأمريكى بل إنهم أصابوا ما أصابه الأمريكان أنفسهم من ثراء . وهكذا اكتسب الدين اليهودى نفس الشرعية التى تتمتع بها كل من البروتستانتية والكاثوليكية .

لقد أسهمت «المناظرة» المنشورة عام ١٩٤٤ بالإضافة إلى إنشاء مجلة «التعليق» فى نوفمبر ١٩٤٥ بنصيب وافر فى تحقيق الالتحام اليهودى بالثقافة الأمريكية . ورغبة منها فى توثيق عرى هذا الالتحام قررت اللجنة اليهودية الأمريكية استبدال المجلة اليهودية الخالصة «السجل اليهودى المعاصر» بمجلة «تعليق» التى تتسع لليهود وغير اليهود على حد سواء ، كما تتسع لمناظير اجتماعية وسياسية وثقافية أرحب بهدف تعميق اشتراك اليهود فى الحياة الثقافية والفكرية الأمريكية . وعينت هذه اللجنة محرر مينورا السابق أليوت كوهين رئيسا لتحرير مجلة «التعليق» الحديثة الصدور . غير أن هذا الرجل قد تغير إذ تخلى عن سالف ثوريته وراديكاليته ونذر قلمه لمناهضة الستالينية . وفى عام ١٩٦٧ عين نورمان بودهورتيز Norman podharetz خلفا له كرئيس تحرير

مجلة «تعليق» ليسير على نفس الدرب الذى سلكه سلفه فى محاربة الشيوعية . وفى فترة رئاسته لمجلة «تعليق» فعل أليوت كوهين نفس ما فعله عندما كان مسئولا عن تحرير مجلة «مينورا» فقد استطاع مرة أخرى أن يجتذب إليه جماعة موهوبة من الكتاب والدارسين وأن يستأنف مناقشاته الحية التى بدأها فى مجلة مينورا حول ارتباط الحياة اليهودية بالحياة الأمريكية الأوسع، والجدير بالذكر أن مجلة «تعليق» انضمت إلى زميلتها «بارتيزان ريفيو» فى خلق أثر عميق خلال فترة الستينات ليس فى الحياة اليهودية وحدها بل فى الحياة الثقافية والفكرية والأكاديمية الأمريكية نفسها .

وفى شهرى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٤٨ قامت مجلة البارتيزان ريفيو بنشر مناظرة أخرى بعنوان «حالة الكتابة الأمريكية» شارك فيها ثلاثة كتاب يهود وستة كتاب من غير اليهود، ولم يعن أى منهم بالحديث عن الكتابات اليهودية الحديثة فى أمريكا كشىء مستقل عن الثقافة الأمريكية باستثناء الناقد ليسلى فيدلر الذى تطرق فى كتاباته إلى يهودية الروائى المعروف فرانز كافكا ، ثم عرض لرواية يوليسيس التى ألفها جيمس جويس فقال إن الفنان واليهودى فى هذه الرواية يسعى كل منهما إلى الوصول إلى الآخر ، ولكن سعيهما يبوء بالفشل ويبتعد الواحد منهما تماما

عن الآخر . واشار فيدلر إلى قرب ظهور جماعة من الكتاب اليهود الذين لم يتجاوزوا الثلاثين من العمر وهم ديلمور وشوارتز والفريد كازين وكارل شابيرو واسحق روزنفيلد وبول جودمان وشاوول بيلو. وأضاف فيلدر أن الكاتب اليهودى يلعب دور الوسيط لصالح الأدب الأمريكى بين ولاء ين متعارضين هما الولاء لأوربا والولاء لأمريكا.

كان فيلدر على وعى بالمشاكل التى تتضمنها الكتابات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمر الذى حفزه إلى أن يكتب مقالا فى مايو ١٩٤٩ فى مجلة «تعليق» ليطرح السؤال التالى : «ماذا نفعل إزاء فاجين - صورة اليهودى الشرير فى الأدب الغربى؟» . وفاجين اليهودى كما نعلم هو رئيس العصابة فى رواية تشارلس ديكنز الشهيرة «أوليفر تويست» . يقول فيدلر إن هناك فى الأدب الانجليزى تراثا عن صورة اليهودى الشرير انتقل من تشوسر وشكسبير واليوت وإزرا باوند إلى الروائيين المحدثين جراهام جرين و د . هـ لورانس . ويطرح فيدلر هذا السؤال : كيف تؤثر هذه الصورة المعارضة للسامية فى الأدب الإنجليزى فى موقف اليهودى من هذا الأدب ؟ . يقول فيدلر إنه بالنظر إلى أن اليهودى المثقف لا يملك أن ينبذ هذا التقليد الأدبى أو يشيح بوجهه عنه فإنه يقترح الحل الآتى لهذه المشكلة - مشكلة الأسطورة السائدة فى الأدب

الانجليزى على حد تسمية فيدلر لها . ويعنى بها هذا التحامل المتوارث ضد اليهودى فى هذا الأدب . وجد فيدلر أن الحل لهذه المشكلة يقتضى من الكاتب اليهودى اقتراح اسطورة أو مجموعة أساطير مضادة فإذا كان الأدب الانجليزى يذهب إلى أن اليهودى شرير فإنه ينبغى على اليهودى أن يستبدل هذه الأسطورة المعادية للسامية بأسطورة أو أساطير أخرى غير معادية للسامية مثل تصوير اليهودى المغترب كفنان .

وليس من شك أن إبادة هتلر الجماعية لليهود زادت من حدة إحساس اليهود بهذه المشكلة . وإدراكا منها بمدى خطورتها نشرت مجلة «تعليق» مناظرة جديدة فى سبتمبر - اكتوبر ١٩٤٩ بعنوان «الكاتب اليهودى والتقليد الأدبى الانجليزى ، طرحت فيه المجلة التساؤل : «كيف يمكن للكاتب اليهودى الذى يعمل فى إطار التقليد الأدبى الانجلو - أمريكانى فى أن يواجه صورة اليهودى الأسطورية أو شبه الأسطورية فى مثل هذا التقليد ، ولكن لم يدر بخلد السواد الأعظم من كتاب اليهود المشتركين فى هذه المناظرة أن ينادوا برفض هذا التقليد الأدبى العظيم رغم ما يظهره أحيانا كثيرة من عداوة للسامية . واعترض البعض على استخدام فيدلر لكلمة أسطورة مجندا استخدام كلمة أكذوبة بدلا منها . واشار

إرفنج هاو إلى ضرورة التمييز بين تعبير الأدب الانجليزى عن عداوته للسامية على أيدى تشوسر وشكسبير فى جانب وديزر وباوند وإليوت فى جانب آخر . فى فترة تشوسر وشكسبير كان هناك اجماع بين الناس على كراهية اليهود فى حين أن الآخرين عاشوا فى عصر أكثر تسامحا واستنارة . وعلى أية حال كتب إرفنج هاو يقول فى هذا الشأن : «إن تصوير الأدب الانجليزى لليهود على نحو كاريكاتورى صارخ يجعل من المستحيل على المرء أن يشعر بالارتياح الكامل نحو هذا التقليد الأدبى ، أما الروائى اليهودى المعاصر شاؤول بيلو فيقول إن احتقار الأدباء المحدثين لليهود ليس له ما يبرره لأن هؤلاء الأدباء على وعى أكبر بالتاريخ من كل من تشوسر وشكسبير ومن شأن هذا الوعى أن يجعل كراهيتهم لليهود أكثر بشاعة وفظاعة ، وعلينا أن نتذكر الابادة الجماعية لليهود بالغازات السامة على يد النازيين فى معسكر الاعتقال أو شوتيز حتى نتبين الصواب من الخطأ .

من الغريب أن عددا من الكتاب اليهود اختلفوا فيما بينهم فى تشخيصهم لعداوة السامية الموجودة فى التقليد الأدبى الانجليزى . فقد ذهب هارولد روزنبرج Harold Rosanberg إلى مناقشة هذا الموضوع من الناحية الجمالية إذ قال إن شخصية اليهودى

المقيت شيلوك الذى صوره شكسبير فى« تاجر البندقية» بكل خصائصه وخصاله الكريهة لا يعدو أن يكون تمثيلا أو نمطا يهدف إلى ادخال السرور والبهجة فى النفوس . ومن ثم فإنها لا تلحق أى أذى أو ضرر . وأضاف أن الأذى الحقيقى يأتى من النقد الاجتماعى ومن الدعاية التى تحول هذا التشخيص المسرحى إلى اكليشيه يتردد على كل لسان . ويرى هارى ليفين Harry Levin أن الذى يجأر بالشكوى من تصوير اليهودى فى الأدب الانجليزى على هذا النحو المقيت – وليس الفنان الذى يقوم فعلا بتصويره – هو الذى يشيع فى الأذهان فكرة زراية اليهود والتهوين من شأنهم، ويسلم ليفين بأن حقارة شيلوك قد تكون موجودة فى بعض اليهود ولكن النقد الاجتماعى هو الذى يقوم بالتهويل والتضخيم واضفاء صفة التعميم على هذه الصورة المقيتة لليهودى . وبذلك تصبح بمثابة من يقوم فعلا باضطهاد اليهود .

وامتدت المناظرة التى بدأت فى أواخر ١٩٤٩ إلى عقد الخمسينات . وإذا كانت السنوات الأولى من الخمسينات لم تشهد بشكل واضح الأثر اليهودى فى الأدب الأمريكى فإن هذا الأثر اتضح بشكل لا يدع مجالا لأى شك فى نهاية هذا العقد . ومما يؤكد لنا هذا أن الملحق الأدبى لجريدة التايمز نشر فى عدده الصادر فى ٦ نوفمبر ١٩٥٩ مقالا فى هذا الشأن بعنوان «جماعة

لها صوت مسموع : الدور اليهودى فى الأدب الأمريكى» . واتخذ هذا الصوت المسموع فى مجلة «تعليق» منبرا له . ومن الجدير بالذكر أن عددا من الكتاب اليهود الشبان أسهموا بنصيب وافر فى تحرير اعدادها الأولى مثل ألفريد كازين وشاؤول بيلو وهارولد روزنبرج وكليمنت جرينبرج إلى جانب بعض الأقلام القديمة التى شاركت فى تحرير مجلة مينورا مثل ماير ليفين ووالده فرانك .

غير أن عملية الإبادة الجماعية لليهود على أيدى النازيين الألمان ساعدت على تعميق إحساس الكتاب اليهود الشبان بهويتهم اليهودية . ولعب مارتن بيوبر Martin Buber دورا نشطا فى إحياء هذا الاحساس . وساعدت على ذلك أحداث الشرق الأوسط الخاصة بنشوب حرب فلسطين وانشاء دولة اسرائيل . وفى عام ١٩٤٨ المتزامن مع حرب فلسطين كتبت مجلة تعليق «تقول فى افتتاحيتها : «ليس هناك أى جديد عندما نقول إننا أصبحنا اليوم فى قلب ما يشبه الصحوة (وهى إن لم تكن صحوة فى الدين فهى صحوة فى الاهتمام به) بين المثقفين وفى الخارج وخاصة بين الجيل الأصغر سنا» . ولهذا السبب انشغل اليهود سواء كانوا فى اليمين أو اليسار باحتمالات بزوغ ثقافة يهودية وبمناقشة معنى هذه الثقافة . وفى فترة الأربعينات نبذ عدد كبير من اليهود إيمانهم

بالمذهب الشيوعى نتيجة محاكمات التطهير التى أجراها جوزيف ستالين للتخلص من أعدائه وأيضا نتيجة معاهدة السلام التى عقدها ستالين مع ألمانيا النازية عام ١٩٣٩ . وإذا كان اليهود قد تخلوا عن راديكاليتهم المتعاطفة مع الشيوعية وآثروا الطريق التروتسكى إليهم فإن الأمر انتهى بهم إلى التخلى حتى عن تروتسكيتهم .، ولم يحدث هذا لكتاب المينورا فحسب بل لكتاب البارتيزان ريفيو أيضا . وفى ظل هذا التغير فى المناخ الفكرى لدى المثقفين اليهود اعتراهم الفتور والوهن فى التصدى للمكارثية لدرجة أن إرفنج هاو قال فى الخمسينات إن المجلتين المشار إليهما اخفقتا فى التعبير عن التزاماتهما الفكرية كمنبرين ثقافيين . ويتهم هاو مجلة تعليق بميلها إلى التهوين من شأن الخطر المتمثل فى المكارثية . فلا غرو إذا رأينا الناقد اليهودى فيليب راهف يقول عام ١٩٥٢ إن عداوة المثقفين اليهود ضد الستالينية تحولت إلى نوع من الوظيفة (أى إلى مصدر للرزق) فقد باتت هذه العداوة كاسحة وجارفة لدرجة أنها كادت أن تطمس ما عداها من اتجاهات ، الأمر الذى مهد الطريق إلى سيطرة المكارثية على الحياة الفكرية الأمريكية فى فترة من الفترات .

وواصل الكتاب اليهود مناقشة المشكلة اليهودية فى «البارتيزان ريفيو» فى عددها الصادر فى مايو - يونية ١٩٥٢ بعنوان «بلدنا

وثقافتنا» وامتدت هذه المناقشة عبر العددين التاليين من المجلة . وافتتحت هذه المجلة مادتها بالاعلاء من شأن الولايات المتحدة واعتبارها «حامية الحضارة الغربية بالمعنيين العسكرى والاقتصادى على أقل تقدير . وهكذا بزغت بكل تأكيد صورة جديدة لأمريكا من رسم الكتاب والمثقفين اليهود وبلغ تحمس هؤلاء اليهود لأمريكا مبلغا جعل البارتيزان ريفيو تقول فى افتتاحيتها إن معظم الكتاب يهودا كانوا أم غير يهود لم يعودوا يقبلون فكرة اغتراب عن أمريكا . وتزايد عدد المثقفين اليهود الذين نبذوا تمردهم وغربتهم عن المجتمع الأمريكى ، وتخليهم عن الماركسية بل حتى عن التروتسكية استطاع الكتاب اليهود أن يلتحموا التحاما كاملا مع هذا المجتمع .

ومن مظاهر هذا الالتحام أن المثقفين اليهود أبدوا استعدادهم التام للانسجام والتناغم الكامل مع الحياة الأمريكية ولفت وليام فيلبس William Philips بكتاباته فى البارتيزان ريفيو أنظار قرائه إلى هذه الحقيقة . فهو يقول: إن معظم المشاركين بالرأى فى المناظرة عبروا عن استعدادهم للتأقلم مع الواقع واستيعاب كل تفاصيل الحياة الأمريكية على عواهنها . وأيضا كتب فيليب راهف مشيرا إلى انتشار هذه النزعة من جانب اليهود للسير على درب

غير اليهود ، وزيادة اقتناعهم بالحياة الأمريكية دون انعقاد أو تمحيص الأمر الذى رأى فيه راهف تهديدا باندثار تقليد المعارضة أو الانشقاق الراسخ فى تربة الأدب الأمريكى . حتى ليونيل تريلنج نفسه كتب عام ١٩٥٢ يقول: إن الوضع الثقافى الأمريكى آنذاك أفضل مما كان عليه منذ ثلاثين عاما مضت ورغم ذلك فإن تريلنج (وهو يمثل بدرجة أقل الاتجاه نحو التأمرك) لم يقبل الواقع الأمريكى على علاته . فقد انتقد بعض السلبيات التى تشوبه وأكد أن إعادة اكتشاف أمريكا لا يتعارض مع ما عرفته هذه البلاد من تقاليد الانشقاق الفكرى . والغريب أن تريلنج لم يطلق صرخة احتجاج واحدة ضد هستيريا المكارثية التى اجتاحت أمريكا .

وإذا كانت غالبية أقلام اليهود المشاركين فى المناظرة عبرت عن تكريسها للواقع الأمريكى القائم فقد شذ عنهم الروائى اليهودى نورمان مالر الذى تجاسر وقال إن أهم روائيى هذا الزمان (وهم دوس باسوس Dos Passes وفاريل Farrell وفولكنر وشتيانبك وهمنجواى) الذين سبق أن عبروا عن غربتهم ما لبثوا أن تخلوا عن هذه الغربة واستسلموا للمجتمع الأمريكى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . فقد أصبحوا عاجزين عن خلق أى إنتاج أدبى له قيمته . واعترف س . رايت ميلز C.Wright Mills (الذى كان

من أبرز المثقفين المنشقين فى تلك الفترة حتى وفاته عام ١٩٦١) بأن تغيرا قد طرأ على المثقفين الأمريكان فأصبحوا يقبلون الأمر الواقع ويرتضونه . وكذلك اعترض إرفنج هاو على هذا الرضا بالواقع قائلا إن هناك فى أمركيا أشياء تثير الإعجاب بقدر ما فيها من أشياء تثير المقت مثل جنوح الأمريكان للتأقلم الكامل مع الواقع وإلى انتهاك الحريات المدنية . بل ذهب إلى حد القول إن الماركسية هى أفضل السبل لفهم المجتمع الرأسمالى الأمريكى وكذلك جأر الكاتب اليهودى الخلاق ديلمور شوارتز بالشكوى من شيوع التماثل الثقافى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . واعتبر هذا التطابق مع المجتمع الأمريكى بمثابة هروب من التغير والاضطراب والشك السائد حينذاك ، كما اعتبره تأكيدا زائفا لاستقرار لا وجود له وتجاهل للزيادة المطردة فيما أصاب المجتمع الأمريكى من اهتزاز .

وبتقدم عقد الخمسينات ظهر انتاج روائى غزير لعدد من الروائيين اليهود على رأسهم نورمان مالر وإدوين شو وشاؤول بيلو. فضلا عن اسهامات ليونيل تريلنج فى مجال نقد الأدب الانجليزى. وأيضا الكتابات اليهودية المتنامية فى مجلتى «بارتيزان ريفيو» و«تعليق» إلى جانب إنتاج كل من برنارد مالامود وفيليب روث

كروائيين بارزين . وبذلك أصبح الوجود اليهودى فى الأدب الأمريكى والحياة الثقافية أمراً مؤكداً .

وفى ابريل ١٩٦١ عادت مجلة «تعليق» إلى مواصلة المناظرة القديمة عن وضع اليهود فى الثقافة الأمريكية تحت عنوان «الخصائص اليهودية : المثقفون الأصغر سنا» ولعلنا نذكر أن بعض اليهود ذهبوا من قبل فى المناظرة التى أقامتها مجلة «السجل اليهودى المعاصر» عام ١٩٤٤ أن احساس اليهودى بيهوديته ليس سوى نوع من الشوفينية والعقم اللذين تعانى منهما الطبقة الوسطى الأمريكية . وأعلنت مجلة «تعليق» دون مواربة أن ذلك الزمان أصبح زمان اليهود . قالت المجلة فى هذا الشأن : «يهود أمريكا قادمون . ويكاد التمييز العنصرى ضدهم يختفى كما أن العداوة ضد السامية أصبحت شيئا مقيتا يثير الاحتقار العظيم» . وصرح الأديب دى موت De Mott أن اليهودى يحتل الآن مكانا فى المجتمع الأمريكى . ومن استقراء الآراء المختلفة التى عبر عنها اليهود مؤخرا فى المناظرة التى أقامتها مجلة «تعليق» خلص نورمان بود هورتز بعد استعراض آراء الواحد والثلاثين مشاركا فى المناظرة (ومعظمهم من الشباب الذين لم يتجاوزوا الخامسة والثلاثين من أعمارهم) إلى إن اليهود الشبان لا يشاركون اليهود القدامى فى الاهتمام بإحياء التراث اليهودى ،

كما أنهم لا يهتمون بذلك القطاع من المجتمع اليهودى الملتزم بالمحافظة على هذا التراث أو بتوسيع رقعته .

إن النظرة اليهودية أصبحت تتجاوز آفاق هويتهم المحدودة الضيقة . وذهب بعض اليهود إلى القول إن جوهر اليهودية يتمثل الآن فى مبادىء ذات طابع إنسانى عام مثل الكفاح من أجل العدالة الشاملة والأخوة البشرية كما آمنوا بأن الحدود اليهودية المنغلقة تنذر باندثار التقاليد اليهودية المثيرة للإعجاب . ولكن من الخطأ أن نفهم من هذا العزوف عن تأكيد الهوية اليهودية أنه أفضى إلى تجاهل دور اليهود فى الرواية والأدب الأمريكى . بالعكس فقد ظلت تظهر باستمرار كل بضعة أعوام طوال فترة الستينات أعداد كبيرة من الروائيين والكتاب اليهود ومن الأجواء والبيئات اليهودية وكذلك من الشخصيات اليهودية فى الروايات . وكان من الطبيعى للغاية أن يستقى هؤلاء الكتاب والروائيون مادتهم من واقع حياتهم اليهودية دون أن يخالجهم إحساس بالخجل أو الدونية من يهوديتهم . وبذلك اعتاد الجمهور الأمريكى واستساغ وصف الحياة اليهودية فى الأدب الأمريكى . ومن دلائل هذه الاستساغة الأمريكية للحياة اليهودية أن ارفنج مالين Irving Melin وإروين ستارك Irwin Stark قاما عام ١٩٦٤ بتحرير مجلة بعنوان «التغلغل : ذخيرة الأدب اليهودى المعاصرة

بأمريكا - Breakthraugh : Atreasury of Contemporary Americon jewish Literature ويضم هذا المجلد أعمالا قصصية إلى جانب القصائد والنثر .

وتناول الروائى الأمريكى المعروف جون أبدايك John Updike فى رواية ألفها عن كاتب يهودى ونشرها عام ١٩٧٠ بعنوان بيتش Bech هذا الوضع الجديد (أى هذا الوجود اليهودى فى قلب الأدب الأمريكى) على نحو ساخر . وفى الزيارة التى قام بها أبدايك لاسرائيل عام ١٩٧٨ سأله سائل إذا كانت هناك مافيا يهودية تسيطر على دور النشر الأمريكية فجاءت إجابته الصريحة كالتالى : «إننى لست من أنصار استخدام مصطلح المافيا . ولكن احقاقا للحق أقول إن اليهود تمكنوا من التغلغل فى جميع مناحى عملية النشر : من المبيعات إلى زيادتها إلى تحرير المؤلفات وعرض الكتب . والرأى عندى أن النقاد اليهود - وما أكثرهم - يميلون إلى استقبال أقرانهم من الكتاب اليهود بتحمس . ولكنه استثنى من التحمس الأعمى لكتاب اليهود كلا من فيلدر وتريلنج . وأضاف أبدايك أن الكتاب اليهود يتميزون بميزة يفتقر إليها الأمريكان وهى أنهم يتمتعون باليسر والسهولة فى وصف الحضر الأمريكى . ولكن الصواب يجانبنا إذا ظننا أن أبدايك كان معاديا للسامية أو أنه تحامل على اليهود أو أنه كان يبغى التهوين من أمرهم أو التقليل

من شـأنهم . فليس هناك مـا ينم عن كـراهيـة أبدايك لليـهـود رغم سخريته من الكاتب اليهودى الشـهير هنرى بيتش . ويشـير أبدايك أن مـحـافظة بيـتش فى روايته بمقـدرة اليـهـود على الاضـحـاك هى التى مكنتـه ومكنت أقرانه اليـهود من التغلغل فـى الأدب الأمريكى والسيطرة عليه .

وثمـة دليل آخـر على تغلغل اليـهود فـى الأدب الأمريكى فـالكاتبـة اليـهوديـة اليزابيث هـاردويك Elizaheth Hardwick قــالت فى معرض حديث أجرى معها عام ١٩٧٩ عن الفترة التى حاولت فيها تثبيت أقدامها فى عالم الكتابة والأدب فى بلدها كنتاكى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية : «حتى عندما كنت طالبـة بالكليـة فى بلدى تملكتنى الرغبة فى نشدان – وأرجو ألا يبدو كلامـى هذا مضـحكا– أن أصـبـح مـثـقـفـة يهـودية فى مـدينة نيـويورك أقـول (يهـودية) لأن اليهود ورثة تقليد من الشك العقلانى ويتملكهم احساس معين بأنهم مـقتلعون من جذورهم وهـو احسـاس يروق لى إلى جـانب انفتـاحـهم على الثقـافة الأوربية ، كمـا أنهم يتسـمـون بتلك الراديكالية النابعة من الشك فى سـلامـة الأوضـاع والترتيـبات الاجتمـاعيـة القـائمـة .» وعلى أية حال فإن يهوديتها لم تحل دون أمركتها .

على البيع والشراء . ولكن حتى هذا الشباب المساير للحياة الأمريكية أظهر عزوفاً عن الحياة العامة وتشبثا بالحياة الفردية والخاصة . وهكذا اقترب كلا الصنفين من الشباب فى إيثار الحياة الفردية الخاصة ونبذ حياة المجتمع بسبب احساسهما بأنهما لا حول لهما ولا قوة إزاء سلطة الدولة المركزية الطاغية .

وإذا كانت رواية سالنجر «المراهق المتمرد» أصدق تمثيل للتمرد على نفاق المجتمع الأمريكي وزيفه فإن رواية «مارجورى مورننجستار» Marjorie Morningstar (١٩٥٥) تأليف هيرمان ووك تمثل قبوله والتعايش معه . ولعلنا نذكر أن هذه ليست الرواية الوحيدة التى ألفها هيرمان ووك فى هذا الشأن فقد سبق أن ألف رواية تدور حول تقبل القيم الاجتماعية المادية السائدة بعنوان «تمرد كين» لقيت نجاحا تجاريا عظيما . وأيضا حققت روايته الأخرى «مارجورى» نجاحا تجاريا كبيراً كرواية وعند تحويلها إلى فيلم . ولكن هذه الرواية تتجاهل بعض الحقائق الجوهرية الخاصة بمعاناة اليهود ومعاداة السامية التى ازدهرت آنذاك . فأحداث الرواية تدور حول عقد الثلاثينات الذى شاهد ذروة الكساد وهو الوقت الذى ازدهرت فيه عادات اليهود وتحملهم وزر ما أحاق بالعالم آنذاك من كوارث ونكبات . ويتجاهل المؤلف

تصوير أثر حقائق الثلاثينات الاقتصادية المؤلمة فى حياة اليهود . ورغم ذلك فإنه يظهر تعاطفا على الديانة اليهودية وما يصاحبها من شعائر وطقوس تشعر المرء بأنه ليس غريبا فى هذا العالم كما تشعره بالدفء والأمان . وأيضا تذهب مارجورى - وهى الشخصية المحورية فى هذه الرواية - إلى المعبد اليهودى بانتظام كى تصلى فيه كما أنها تلعب دورا نشطا فى المؤسسات اليهودية الموجودة فى مدينتها .

وفى عام ١٩٥٨ ألف الروائى اليهودى ليون يوريس Leon Uris رواية بالغة الأهمية من الناحيتين السياسية والاجتماعية رغم أنها محدودة فى قيمتها الفنية . وتحمل هذه الرواية عنوان «الخروج» .. التى سبق الإشارة إليها . ونجحت هذه الرواية فى استغلال بشاعة الهولوكست النازى أى الإبادة الجماعية لليهود إلى أقصى حد ممكن . كما أن أهميتها السياسية ترجع إلى أنها تشرح ظروف نشأة إسرائيل . وتعالج الرواية كفاح اليهود من أجل إقامة دولة لهم كنتيجة لما تعرض إليه اليهود من اضطهاد عبر التاريخ وبخاصة على أيدى النازيين . وتبدأ الرواية بوصف رحلة اليهود الهاربين من النازية ونزوحهم إلى فلسطين بطريقة غير مشروعة فوق ظهر الباخرة «الخروج» . ويعيش هؤلاء المهاجرون

في معسكر في جزيرة قبرص تمهيدا لنزوحهم إلى فلسطين .
ويحدثنا المؤلف قائلا إن يهود فلسطين أنشأوا أول مستعمرة حديثة فيها نحو عام ١٨٨٠ . وأيضا تتبع الرواية حياة عدد من العائلات الرائدة التى استوطنت فى فلسطين . وكذلك الحرب التى اندلعت بين العرب والاسرائيليين عام ١٩٤٨ . ورغم ما يشوب هذه الرواية من عيوب فنية وعدم تحريها وجه الدقة التاريخية فى معالجة ثورة حارات اليهود في وارسو ببولندا فقد تحولت إلى فيلم سينمائى ناجح للغاية . وتذكر الرواية الأجيال اليهودية الشابة بالخسف والاضطهاد اللذين تعرض لهما جيل الآباء والأجداد على أيدى النازيين. والرواية لا تخفى تمجيدها لليهود والجيش الإسرائيلي وتحقر العرب والتهوين من شأنهم . واليهود فى نظر المؤلف أبطال صناديد فوق مستوى البشر فى حين أن العرب في رأيه دون مستوى البشر . ولكن نغمة الرواية التى تجعل من اليهود شعبا من الأبطال غير العاديين لم ترق فى عيون بعض اليهود الذين ذهبوا إلى إنه يحق لليهود أن يفخروا بأن بناة إسرائيل أناس عاديون . وأضاف هؤلاء اليهود المنتقدون أنه ليس من مصلحة اليهود إثارة الغرور والشوفينية بل أن مصلحتهم تقتضى إبراز قدرة اليهودى العادى على الإنجاز.

والمؤلف يوريس لا يكف عن تحقير العرب إلى أبعد الحدود فاليهودى أنظف وأرقى منه . والعربى قذر على الدوام ويعيش فى قرى تفوح منها الروائح النتنة وهو أبدا عالة على منجزات الحضارات الأخرى . فضلا عن أن فرائصهم ترتعد هلعا من انتقام اليهود منهم . والعربى يساق بالسوط كما تساق السوائم وهو يفوق سائر أجناس الأرض فى حقارته . غير أن المؤلف يعبر عن تعاطفه مع بعض العرب المتعاونين مع اليهود والذين يدركون أن اليهود أسيادهم وتيجان رؤوسهم . ومن ثم فإن علاقة صداقة قد تنشأ بين اليهودى والعربى ولكنها صداقة لا تقوم على الندية بل على خضوع العربى لليهودى . ونطالع فى الرواية أن عرى الصداقة تربط بين عربى اسمه طه ويهودى اسمه آرى . ويسعى اليهودى إلى استغلال العربى فى منع بنى جلدته نحو عام ١٩٤٧ من مقاومة الاستيطان الاسرائيلى . وتلعب هذه الصداقة الزائفة وغير المتكافئة بعقل طه الذى يحب أخت صديقه اليهودى . فيطرح على اليهودى هذا السؤال : ألست تعتبرنى أخا لك ؟» فيجيب اليهودى بالايجاب فيتشجع طه على طلب يد الفتاة من أخيها آرى. ويصدم اليهودى لهذه الوقاحة المتناهية وبدلا من الرد على طه يسدد لكمة قوية إلى فكه . عندئذ يفيق العربى الواهم من أحلامه

ويقوم بطرد صديقه اليهودى من منـزله وهو يقـول له : «إنك قلت لى كل ما أحتاج إلى معرفته ، ولتخرج من بيتى أيها اليهودى» .

وفى عـام ١٩٦٢ توفى الروائى اليهودى الموهوب أدوارد لويس والانت Edward Lewis Wallant وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . وكانت وفاته الباكرة خسارة على الأدب اليهودى فى الولايات المتحدة . وقبيل وفاته نشر هذا الكاتب روايتيه «الموسم الإنسانى» (١٩٦٠) The Human Season و«الرجل الذى يتعامل في الرهونات» (١٩٦١) The Pawnbroker . وكذلك نشرت له بعد وفاته روايتان أخريان هما «سكان مونبلوم» (١٩٦٣) Tenants of Moonbloom و«أطفال عند البوابة» (١٩٦٤) The Children at The Gate وفى عـام ١٩٦١ فـازت رواية «الموسم الإنسانى» بجائزة مجلس الكتاب اليهودى كما تم ترشيح «الرجل الذى يتعامل في الرهونات» لجائزة الكتّاب القومى ، ويذكر أن ادوارد لويس والانت ولد وترعرع في نيوهافن والتحق بخدمة الجيش الأمريكى فى الحرب العالمية الثانية ، وبعد تخرجه من الجامعة أصبح مديرا لإحدى وكالات الإعلانات فى نيويورك وجميع هذه الروايات الأربع المشار إليها تقدم نظرة متسقة فى الحياة قام المؤلف بتطويرها فى أربع مراحل :

١ - إحساس الشخصية المحورية بالكآبة الروحية والانعزال عن بقية الناس .

٢- الدخول في سلسلة من المواجهات المشتملة على تعساء يكابدون صنوف العذاب .

٣- المرور بتجربة أو صدمة عنيفة تجعل هذه الشخصية المحورية تتخلى عن ابتعادها عن الناس .

٤- التعبير في آخر المطاف عن صحوة مشاعر الإقتراب من الآخرين.

وجميع هذه الروايات الأربع تدور أساسا حول شخصيات يهودية تتحرك في بنية يهودية .

وتعتبر رواية «الرجل الذى يتعامل فى المرهونات» من أفضل أعمال ادوارد لويس والانت. وقد تحولت هذه الرواية الى فيلم ناجح وتدور أحداثها حول يهودى اسمه صول نازرمان كتبت له الحياة بعد أن هلك بقية زملائه فى الهولوكست النازى الأمر الذى خنق فيه القدرة على إقامة أية علاقة عاطفية بالآخرين. ولا غرو فقد ماتت عواطفه نتيجة مناظر الموت فى معسكرات الاعتقال النازى وفقدانه لزوجته وأولاده . وهو عاجز عن التجاوب العاطفى مع الآخرين وهذا اليهودى يدير محلا فى هارلم ينفق منه على أفراد أسرته

أخته وأخى زوجته وابنته وابن عمه. وجميعهم يسعون ما فى وسعهم السعى الى تحقيق النجاح المادى والاقتصادى على الطريقة الامريكية وهم متلهفون الى التأمرك أى اندماجهم فى المجتمع الأمريكى فاخته تنظر بفخر الى زوجها وأطفالها لأن المرء يعجز عن أن يكتشف أنهم كانوا يهودا فى يوم من الأيام ، ويستعين هذا اليهودى بشاب اسود اسمه يسوع أو رتيز فى ادارة محله المخصص للرهونات . ويلاحظ الشاب الاسود أن صاحب العمل من النوع الذى يشك فى جميع البشر فيسأل عن رأيه فيهم ويجيبه اليهودى صول بقوله : «لست أثق فى الله أو السياسة أو الصحف أو الموسيقى أو الفن كما أنى لا أثق بالابتسامات والملابس والمبانى والمناظر الطبيعية والروائح .. ولكنى فوق كل شىء لا أثق بالناس وكلام الناس لأنهم صنعوا جحيما بكلماتهم. لأنهم اثبتوا بما هم عليه أنهم لا يستحقون الحياة.. وسأله مساعده اورتيز «ألا يوجد شىء تثق به» فيجيب اليهودى بقوله : «المال. وإنى بعد سرعة الضوء التى يخبرنا اينشتين أنها الحقيقة الوحيدة المطلقة فى الكون أضع المال فقط فى المرتبة التالية لسرعة الضو». ويتضح لنا من أحداث الرواية أن العلاقة التى تنشأ بين صاحب العمل اليهودى وعامله الأسود علاقة مهمة تلعب دورا حيويا فى

تصالح اليهودى مع البشر بعد أن تقطعت الوشائج التى تربطه بهم . وينجح الشاب الاسود فى اختراق عزلة اليهودى الذى يعلمه أسرار مهنة الربا والمرهونات ، غير أن خلافاً يدب بينهما فيتفق المساعد مع بعض الأشرار على سرقة مخدومه ولكنهم يتعهدون أمامه بعدم استخدام العنف أو الاسلحة النارية فى السطو عليه . غير أن واحدا من الاشرار يحنث بوعده ويصوب فوهة البندقية الى اليهودى مهددا بقتله . ويرى الشاب الاسود ذلك فيبادر باعتراض طريق الطلقة النارية ويتلقاها بدلا من مخدومه ويخر الخادم على الارض مضرجا بدمائه . ومن الطبيعى ان تهتز مشاعر اليهودى اهتزازا عنيفا بعد أن رأى مساعده يفديه بروحه. وتكون هذه التجربة سببا فيما يطرأ على اليهودى من تغير جذرى. فقد بات يؤمن بالبشر بعد أن كان ينكرهم ويؤمن أن اليهودى صول اختار مهنة الربا عن عمد . فهى مهنة اليهود الاساسية عبر التاريخ. وهى مهنة اليهود قبل شيلوك وبعده . فالربا تقليد راسخ يتناقله اليهود جيلا بعد جيل. وهو الذى مكن اليهود من الاستمرار على قيد الحياة . وتدل روايات والانت على شدة وعى اليهود بأنفسهم كما يتضح لنا من رسم الشخصيات الروائية اليهودية

وعلاقتها بغير اليهود . ورغم ذلك فإن هذه الروايات الأربع تنتهى على نحو ايجابى وتستبشر خيرا من الجنس البشرى وبقدرة اليهود على تجاوز مشاعرهم العرقية الضيقة الى حب جميع البشر.

وليس هناك أدل على تغلغل الأدب اليهودى فى الثقافة الامريكية فى عقد الخمسينات من اهتمام عامة القراء الامريكان بأدب اسحق باشيفيز سنجر Isaac Bashevis Singer الذى لفت الانظار إليه فى تلك الفترة. لم يكن سنجر رغم اتساع أثره يكتب باللغة الانجليزية أو حتى باللغة العبرية بل بلغة يهود روسيا وشرق اوربا المعروفة بالييديش . نشر أولى قصصه عام ١٩٢٥ فى مدينة وارسو ببولندا حيث كان يعيش واستمر فى استخدام لغة اليديش حتى بعد هجرته الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ وهو فى الثلاثين من عمره . وبعد هجرته الى أمريكا تولت الصحيفة اليهودية اليومية .. «الى الأمام» . Jewlish Daily Forward نشر أعماله ولكن العالم الناطق باللغة الانجليزية لم يعرفه الا فى عام ١٩٥٠ مع ظهور ترجمة إنجليزية لروايته «عائلة موسكات» The Family Moskat التى سبق أن نشرها بلغة الييديش فى الاربعينات فى حلقات على صفحات جريدة «الى الامام» وتتضمن هذه الرواية

سجلا لعائلة يهودية تعيش في وارسو ، واستقبل جمهور القراء الامريكان هذه الرواية بالاستحسان. غير أن هذا الجمهور لم يعرف كتابات سنجر على حقيقتها الا فى عام ١٩٥٣ عندما نشر الروائى اليهودى المعروف شاؤول بيلو Saul Bellow ترجمة انجليزية لاحدى قصص سنجر بعنوان« جمبل المغفل» the Fooi Gimpel وبعد ذلك توالى نشر ترجمات قصصه فى العديد من المجلات الامريكية مثل ساترداى إيفننج بوست والنيويوركر . وفى عام ١٩٥٧ ظهرت أول مجموعة قصصية له بعنوان «جمبل المغفل وقصص أخرى» وكان ينشر عملا جديدا كل عام . واستقبل القراء أعماله بحفاوة بالغة . وفازت رواياته فى عامى ١٩٧٠ و ١٩٧٤ بجائزة الكتاب القومى ثم جاء عام ١٩٧٨ ليتوج انتصاره بحصوله على جائزة نوبل للآداب .

ورغم أن أمريكا لم تتعرف على أدب سنجر الروائى إلا عن طريق الترجمة الانجليزية فليس هناك شك فى انه ترك بصماته الواضحة فى الحياة الثقافية الامريكية. علما بأنه نشر أولى رواياته بلغة البيديش فى وارسو عام ١٩٣٥ بعنوان «الشيطان فى جوراى Satan in Goray ثم اعيد نشرها فى حلقات عام ١٩٤٠ قبل أن يقوم جاكوب سلون Jacob Sloon بترجمتها الى الانجليزية عام

١٩٥٥. ومما يذكر أن جميع مؤلفاته الاولى كتبت أصلا بلغة اليديش فهى اللغة التى استخدمها على أية حال فى تأليف معظم رواياته وظلت أحداث كل قصصه ورواياته حتى منتصف الثلاثينات مقصورة على المدن البولندية التي يعيش فيها اليهود ، وتستمد مادتها من خزعبلاتهم وأدبهم الشعبى (الفولكلور) وعندما شعر سنجر بتمكنه من اللغة الانجليزية تحول الى الكتابة عن مدينة نيويورك ولكنه رغم هذا لم يقطع صلاته بالبيئة التى ترعرع فيها بين يهود أوربا الشرقية.

يقول سنجر عام ١٩٧٣ فى هذا الشأن : لقد كتبت قصصى الامريكية حول اليهود المهاجرين من بولندا والمتحدثين بلغة اليديش حتى أضمن معرفتي بطريقة حياتهم فضلا عن معرفتى بجذورهم - أى أن أعرف تاريخهم وطريقة تفكيرهم وتعبيرهم عن أنفسهم . ويذهب بعض النقاد إلى أن قصصه الأمريكية أدنى فى مستواها من انتاجه السابق بلغة اليديش . كما أن البعض يرى أنه ليس أمريكيا خالصا كغيره من الكتاب اليهود الذين ازدهروا فى أمريكا فى عقد الخمسينات ، ولكن هناك من النقاد من يخالف هذا الرأى. والجدير بالذكر أن أمريكا فى الآونة الأخيرة عرفت ما

يمكن تسميته بالتعددية الثقافية بعد أن كان الخيال الامريكي يتغذى على التقليد الانجلو ساكسونى وحده وذلك لأن أمريكا أصبحت ملتقى الثقافات نتيجة للهجرات الاسيوية والافريقية وتجدد هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي واسرائيل إليها .

وهناك نفر من النقاد من يتشككون حتى فى انتماء سنجر الى تقليد البيديش نفسه السائد بين يهود شرق اوربا فهم يهاجمونه لانشقاقه عن تقليد البيديش الكلاسيكى الراسخ كما أصله ثلاثة من أبرز كتاب اليهود البيديش وهم موخر سيفوريم Mocher Sef-orim وأى ل. بيرتز I. L. Peretz وشوليم التشيم Sholem Aleichem وينحى هؤلاء النقاد على سنجر لأنه تخلى عن تقليد مثل هؤلاء الكتاب اليهود الذين اقتصر اهتمامهم على تصوير ما يعانى منه اليهود من مشكلات اجتماعية وظروف معيشية، ولم يكن سنجر غافلا عن هذا الهجوم عليه من جانب اليهود المحافظين والتقليديين فقد كتب يقول : «إن كتاب ونقاد البيديش يجأرون بالشكوى من أنى لا أتصرف ككاتب بيديشى فلا أهتم كثيرا بما يحدث للمجتمع اليهودى . بقدر اهتمامى بوصف الشخصية الروائية التى أعالجها ومن جانبه اتهم سنجر نقاده وكتاب أدب البيديش الحديث بأنهم يتجنبون معالجة الجنس رغم أهميته فى الحياة والأدب كما أنه

يتهمهم بعدم الالتفات الى التغيرات الهائلة التى حدثت في التاريخ اليهودى مثل ظهور المسيح الزائف وانخراط بعض اليهود فى عالم الجريمة والنميمة والدعارة والاتجار فى الرقيق الابيض، ومعنى كلام سنجر أن تقليد اليديش قاصر عن تصوير الحياة تصويرا صادقا ، ولهذا نراه يفرق بين تقليد اليديش المنحدر من شرق اوربا والتقليد اليهودى الحق .

وهو يرفض التقليد الاول ويعلن انتماءه الى التقليد الثانى . ولهذا نراه يكتب عن اليهود فى الحاضر والماضى ويستمد مادته الروائية من حياتهم وعاداتهم وما يشيع بينهم من أدب شعبى. وهو يلخص موقفه من هذه القضية فى الحديث الذى أجراه معه الناقد اليهودى ارفنج هاو عام ١٩٧٣ . يقول سنجر :

«إن تقليد اليديش تقليد مفرط فى العواطف بشكل معيب فضلا عن انه تقليد يعنى بالعدالة الاجتماعية . وهذا أمر لا يناسب شخصيتى فليس من طبيعتى أن أحارب من أجل تحقيق العدل الاجتماعى رغم أنى من انصاره . وحيث أنى متشائم فإنى اعتقد أنه مهما فعل الناس فجميع أفعالهم خاطئة ولن تكون هناك عدالة فى هذا العالم» .

إن العالم اليهودى المتحدث بلغة اليديش عالم صغير ومغلق

يقتصر على اليهود المقيمين فى روسيا وشرق أوروبا ومن ثم فإنه لولا ترجمة كتابات سنجر الى اللغة الانجليزية لظل مجهولا لا يعلم العالم الخارجى عنه شيئا وعندما ذاع صيت سنجر وطبقت شهرته الآفاق نشرت سنثيا أوزيك Cynthia Ozick فى مجلة «تعليق» الصادرة فى نوفمبر ١٩٦٩ قصة طويلة بعنوان الحسد أو لغة البيديش فى أمريكا «تدور حول موقف كتاب البيديش اليهود من سنجر وهو موقف ينم عن الحسد من نجاحه الساحق كما ينم عن المرارة التى يشعر بها كتاب البيديش بسبب قلة عدد قرائهم وجهل العالم الناطق باللغة الانجليزية بمنجزاتهم الأدبية. وهذا ما حدا جاكوب جلاتستين Jacoby Glatstein أن يعلق على شهرة سنجر العريضة بقوله عام ١٩٦٥ إن سنجر فى أمريكا يتمتع بمكانة أكثر أهمية ويعدد أكبر من الصداقات وبالاقبال على قراءته باهتمام اشد من اهتمام أدباء البيديش به . ويقول جلاتستين فى انتقاده أن ادب سنجر الروائى لا ذوق فيه يجمع بين الخزعبلات والتصوف الهرىء الأمر الذى يروق للقراء اليهود أكثر مما يروق للقارىء اليهودى ، وأيضا انحى جلاتستين باللائمة على أدب سنجر لأنه يفتقر الى الحس الانسانى الرسيم الذى يتميز به أدب البيديش . وأضاف هذا الناقد فى هجومه انه يفتقر ايضا الى الاسلوب مما يجعل ترجمته الى الانجليزية غاية فى السهولة ولكننا

نجد من النقـاد من يخالف هذا الرأى فجاكوب مسلون الذى قام بترجمته عبر عن سعادته بأسلوب رواية «الشيطان فى جوراى» أثناء انشغاله بترجمتها .

وعلى أية حـال يبدو أن السبب الحقيقى فى ذيوع ترجمات أعمال سنجر الى الانجليزية يرجع الى ما يتميز به أدبه من حداثة فهو يعبر عما ظهر فى أعقاب الحرب العالمية الاولى من خيبة أمل فى الإنسـان . لقد مات كتاب البيديش العظام قبل اندلاع هذه الحرب ولكن سنجر بدأ فى نشر أعماله فى عقد العشرينات من القرن العشرين فى وقت تغير فيه العالم والادب عما كانا عليه قبل الحرب العالمية الاولى . وجاء سنجر ليلعب فى أدب البيديش الذى لعبه الجيل الضائع من كتاب العشرينات الامريكان . وهو الجيل الذى رفع لواء التحديث . والحقيقة أن سنجر رفض قيود الجنس ومحرماته السائدة بين كتاب البيديش قبل الحرب العالمية الاولى كما أنه لم يكترث بالدفاع عن مصلحة المجتمع اليهودى مثلما اكترث بها كتاب البيديش من قبل .

ويحدثنا سنجر عن طفولته فيقول إن أباه كان شديد التقوى والورع وأنه كان كارها للتنوير والعلمانية المواكبة له . وأراد أن يحمى أطفاله مما اعتبره عدوى العلمانية عن طريق حكاياته لاولاده ..

التى لا تنتهى عن الارواح التى تتقمص الأجساد والمعجزات التى تتم على أيدى القديسين وأحبار اليهود ولا شك أن هذا الفولكلور اليهودى الشعبى غار فى وجدانه منذ نعومة أظفاره وهو لم يتجاوز الرابعة فتراكم فى مخيلته كم هائل من ذخائر هذا الفولكلور استخرجها من جعبته فيما بعد ليصيغها فى قالب ادبى محبب للنفس ، وعندما بدأ سنجر الكتابة عكف على اكتشاف اعماق الانسان المظلمة والتيارات التحتية الغريبة القابضة وراء تركيبة اليهود النفسية . ومن مظاهر حداثة سنجر أنه اولى الجنس عظيم اهتمامه وجعل منه محورا رئيسيا تدور حوله كتاباته ، ولكن ليس هناك دليل مباشر يشير الى تأثره بفرويد . وكما أسلفنا انتقد سنجر أدب البيديش لأنه تجاهل عالم الجريمة اليهودى الذى يعج بألاف اللصوص والقوادين والمومسات والمتاجرين فى الرقيق الابيض فى بوينس ايريس وريو دى جانيرو وفى وارسو نفسها . ومعنى هذا أن أدب البيديش التقليدى يخلو من الاشارة الى تلك الموبقات التى يمارسها بعض اليهود وهو ماينحى عليه سنجر اللائمة غير أنه يستثنى من هجومه كاتب اليديش شولم اسش Sholem Asch ويذهب الى أنه لا يغفل الاشارة الى ارتكاب اليهود لهذه الجرائم . والجدير بالذكر أن شولم اسش هو أول مؤلف

يديش فى الاربعينات تترجم أعماله الى الانجليزية مما اعطاها فرصة الذيوع والانتشار . إن سنجر يرفض دعوة كتاب اليديش الى ضرورة مزج الفن بالقضايا الاجتماعية ولهذا فهو لا يقيم أدنى وزن لمشاكل اليهود الاجتماعية والسياسية ، بل ترك لخياله الحبل على الغارب وملأ قصصه بكائنات غريبة غامضة وغير مألوفة مما يزخر بها الفولكلور الشعبى اليهودى الذى تأثر به فى طفولته الباكرة . ولا غرو إذا رأيناه يعكف على دراسة الكتب التى تتناول الساحرات والجنيات فى أوربا وأمريكا الى جانب الحروب الصليبية وما صاحبها من هستيريا شعبية عارمة ولهذا جاء أدبه زاخرا بالهستيريا والجنس والتعصب الاعمى والخزعبلات والمعجزات التى تتجاوز نطاق التجربة البشرية المألوفة . وهو بهذا المعنى ينتمى الى التقليد اليهودى السائد فى العصور الوسطى قبل ظهور تقليد جديد ينهض على التنوير آثر مؤلفنا أن يوليه ظهره. وهو ما يتضح لنا من قراءة أعظم أعماله وأكثرها تميزا مثل رواية «الشيطان من جوراى». وقصتى «الجنتلمان الآتى من «كراكو» The Gentleman from Cracow و«المرآة» .

ولكننا نخطىء إذا ظننا أن أدبه يقتصر على الخيال وحده فروايته وقصصه تتضمن من الواقعية قدر ماتتضمنه من الخيال.

ويتضح لنا هذا من روايته «عائلة موسكات » التى تقع أحداثها بين عامي ١٩١٢ و ١٩٣٩ والتى تتناول الشرائح اليهودية الموسرة فى مدينة وارسو . وبعد انقضاء سنوات قلائل على الانتهاء من رواية عائلة موسكات ألف سنجر رواية أخرى أطول منها عن عائلة يهودية ظهرت باللغة الانجليزية فى جزءين بعنوان «المنزل» ١٩٦٧ The Mansion – و «الضيعة» ١٩٦٩ The Estate، وتقع أحداث هذه الرواية الثانية فى الفترة الواقعة بين الثورة فى بولندا عام ١٨٦٣ حتى نهاية القرن .

ولا بد أن نذكر تأثر أدب سنجر بهرطقات كل من سابتاى Sabbatai وفرانك Frank والاول ظهر عام ١٦٦٤ مدعيا أنه المسيح المنتظر . وكان فى لحظات وجده الدينى والصوفى يرتكب الموبقات الآثام وينتهك القانون . وفيما بعد اعتنق سابتاى الدين الاسلامى وبشر بمذهب الخلاص عن طريق الخطيئة ، وفحوى هذا المذهب أن الانسان الذى لا يعرف الخطيئة لا يمكنه أن يعرف الخلاص لأن الخلاص لا يتم إلا بالارتداد عن الخطيئة . وكان اليهودى جاكوب فرانك ١٧٢٦ – ١٧٩١ واحدا من اتباع سابتاى فى القرن الثامن عشر والجدير بالذكر أن سنجر وصف هذه التعاليم الهدامة وصفا جليا فى قصته «تدمير كريشيف»،. The Destruction of Kreshev

ويعترف سنجر بأنه فى بداية عهده بالكتابة راقت له دراسة مذهب فرانك الذى يرى فى ارتكاب الإثم السبيل إلى تحقيق الخلاص . فضلا عن وقوعه تحت تأثير أتباع المذهب الكابالى السرى Cabbalists الذى ينسب الجنس الى الله فالجنس هو المرادف للخلق والله موجود أبدا فى عملية الخلق والتكوين. ويؤكد لنا صامويل هـ . درزنر Somuel H. Dresner أن مذهب ساباتاى أصبح حجر الزاوية فى أفكاره ومعتقداته . وعندما سأل الناقد ارفنج هاو مؤلفنا اذا كان يتبع مذهب ساباتاى فى السر راقت له هذه الفكرة وأبدى اعجابه بها. وأيضا يظهر سنجر اهتماما بالغا بتتبع مذهب فرانك فى تاريخ اليهود . وترسم لنا روايته «الشيطان فى جوراى» صورة خيالية براقة عن مذهب ساباتاى وبالذات فى الشكل الذى يقدمه لنا فرانك كما أنه يجسد جاكوب فرانك فى شخصية جيداليا بكل ما عرف عنه من امتلاك للقوى السحرية والإباحية الجنسية وتمسكه بأفكار ساباتاى.

ولكننا نخطىء إذا ظننا أن سنجر أحادى النظرة فهو فى قصتى «العبد» The Slave «وساحر لوبلين» The Magician of Lu-blin يعبر عن وجهة نظر تتعارض مع مذهب فرانك وعلي النقيض من رواية «الشيطان فى جوراى» نرى أن أحداث قصته

«العبد » تدور حول شخصية يهودية تدعى جاكوب تكرس نفسها لاتباع القانون ومراعاته على الرغم فى استعباد البولنديين لها. وينجح هذا العبد في الزواج من راندا ابنة سيده البولندى بعد اعتناقها الدين اليهودى . ويذهب الزوجان إلى فلسطين حيث ينخرط جاكوب فى الحركة الساباتية ولكنه ينبذها فى نهاية الأمر ويقلب لها ظهر المجن. وليس أدل على قدرة المؤلف على اتخاذ المواقف المتعارضة من أنه هنا يعبر عن عظيم احترامه لشخصية جاكوب رغم أنها تتناقض مع مبادىء كل من فرانك وساباتاى. وأيضا نطالع فى روايته الأخرى «ساحر لوبلين» أن ياشا شخصيتها المحورية تعود إلى حظيرة النظام والقانون . ونفس الشىء نلاحظه فى قصة سنجر القصيرة «جمبل المغفل» فجمبل رجل شديد السذاجة يتلاعب الناس به ويستغلونه ويعذبونه . ورغم هذا فانه يحتفظ بدماثة خلقه ورقته وانسانيته فى شتى الظروف الأمر الذى يتناقض مع ما ينادى به ساباتاى من ضرورة تحرير الإنسان من كافة القيود والمكبوتات التى تكبله . ويقول أحد أحبار اليهود إلى جمبل : «مكتوب أنه من الأفضل أن تصبح مغفلا كل أيام حياتك من أن ترتكب الشر ولو لساعة واحدة ، الحق أنت لست مغفلا بل أولئك هم المغفلون ، لأن الذى يلحق الأذى والعار بجاره

هو الخاسر للفردوس» . ويضيف الحبر الأكبر أن جمبل سوف يجد الثواب فى العالم الآخر .

إن سنجر فى أمريكا لم يتحرر تحررا كاملا من التجارب التى مر بها فى حياته الباكرة فى بولندا كما أن الفولكلور الشعبى اليهودى الذى عاشه فى طفولته غار فى أعماقه. ومؤلفنا على وعى بمدى تأثير هذه الانطباعات الباكرة القوية فيه الأمر الذى جعله يقول عام ١٩٦٤ «الحق أنى لا أزال أعيش فى بولندا أنتم تعلمون أن تجارب الطفولة هى أهم التجارب بالنسبة للكاتب » . ورغم جنوحه إلى التحديث فإن جانبا منه ينتمى إلى فترة ما قبل الحداثة . والذى يميزه عن المحدثين ليس ايمانه بوجود الله بل ايمانه بوجود الشياطين وبالخزعبلات التى تشربها فى السنوات الأولى من حياته. وتتجلى حداثة سنجر فى قدرته على تقديم مادته القصصية بحيدة وموضوعية. ورغم أنه كثيرا ما عبر عن ايمانه بالشياطين فإن مادته الروائية لا تدل على ايمانه بهذه الشياطين والسحر الأسود أو عدم الايمان بهما. فموقفه منها يتسم كما أسلفنا بالحيدة والموضوعية اللتين تميزانه عن أدب اليديش الكلاسيكى. ويتضح لنا هذا الفرق المهم عند مقارنة قصته «جمبل المغفل» بالقصص التى ألفها بيرتز بعنوان بونتش شويج Bontshe Shweig التى تعنى بتصوير اليهودى كضحية للظروف الاجتماعية

التى تورثه الفقر الروحى والجسدى وتسبب له العوز والإملاق. ورغم عوزه الشديد فانه لا يشكو من الله أو الانسان ولم يخطر بباله أن يحمل الضغينة له. وبعد أن يموت بوتش يعقد الله وملائكته المعجبين بقدرته على تحمل المكاره اجتماعا يمتدحون فيه صبره وسماحته. وعندما يسأل الله وملائكته الرجل عما يشتهيه فيرد المسكين بأنه يتوق الى رغيف خبز سخن وزبدة طازجة يتناولهما كل صباح . وهو طلب غاية فى التواضع والمهانة. ولا يوجد تصوير لمدى ما يتعرض له الانسان من مذلة بسبب الفاقة والإملاق أكثر من هذا . ويشير بيرتز فى قصته الى أن الفقراء قوة لا يستهان بها إذا نظموا ووحدوا صفوفهم . ومن ثم فإن لقصة بيرتز مغذى سياسياً يختلف تماما عما يذهب اليه سنجر فى أدبه. فسنجر لا يطيق الانخراط فى السياسة فى حين أن بيرتز كاتب سياسى فى المقام الأول. وليس أدل على انخراطه فى السياسة من أن البوليس القيصري ألقى القبض عليه عام ١٨٩٩ اثناء تلاوته لقصته المشار اليها فى اجتماع حضره العمال فى وارسو ويقارن النقاد بين الشياطين التى يصورها سنجر فى قصصه مثل «الجنتلمان الآتى من كراكو» وقصة الاديب الامريكى مارك توين الرجل الذى افسد هادلبرج -The Man Who Corrupted Hadley-burg ورغم ان الفساد الناجم عن المال يشيع فى كلتا القصتين فهناك فرق بينهما ففى حين أن الفساد عند سنجر يتجاوز البشر

وينبع من مصدر فوق الطبيعة نرى أن البشر عند مارك توين هم أس البلاء .

ويرجع الفضل فى موهبة سنجر الفذة فى الحكى والرواية فى إثارة اهتمام عامة المثقفين الامريكان بالادب اليهودى المستمد من تاريخ اليهود وماضيهم ، وساعد على اعجاب القارىء الامريكى به أن اهتماماته الروائية لم تقتصر على معالجة مشكلات اليهود الاجتماعية بل تجاوزت هذه الحدود الضيقة فضلا عن توخيه الموضوعية والحيدة في عرض مادته الروائية . وكذلك ساعد على ذيوع أدبه بين الامريكان ظهور كوكبة كبيرة من الادباء اليهود الموهوبين فى أمريكا قبله مهدوا امامه الطريق . وفى الختام نؤكد أنه أعلى من شأن القداسة رغم اعجابه بمذهب فرانك الذى سبق أن أشرنا إليه ، ورغم رفضه الايمان بالمسلمات الدينية فإنه أمن بوجود إله شخصى يتجاوب مع الانسان فى هذا الكون . ويلخص الخطاب الذى ألقاه سنجر بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للأدب موقفه من الحياة . يقول سنجر فى خطابه : «لابد من وجود سبيل أمام الانسان للحصول على جميع المتع الممكنة وكل القوى والمعرفة التى يمكن للطبيعة أن تمنحها إياه. ورغم هذه المتع فإنه يستمر فى خدمة الله». وهكذا يتضح من كلامه أنه يجمع بين عبادة الله وعبادة اللذة .

٣ ـ النقاد اليهود في أمريكا

تأثر الأدباء اليهود فى أمريكا فى فترة الأربعينات والخمسينات فى القرن العشرين بالأدب غير اليهودى ، وقبل هذين العقدين لم يظهر على الساحة الأدبية اسم أى ناقد يهودى غير مرموق سوى الناقد لودفيج لويسون Ludwig lewisahn ولكن هذا الاسم اللامع ما لبث أن انطفأ فى عقد الثلاثينات وتوقف عن إثارة اهتمام عامة المثقفين الأمريكان بسبب افراطه فى التركيز على يهوديته . وقبل اندلاع ألسنة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ظهرت فى أمريكا كوكبة من ألمع النقاد اليهود أثرت فى مجال الدراسات الأدبية والنقدية تأثيرا عظيما على رأسهم ليونيل تريلنج وفيليب راهف والفريد كازين وليسلى فيلدر وأرفنج هاو الذين أثبتوا بما لايدع مجالا للشك قدرة العقل اليهودى على استيعاب وتمثل التجربة الأمريكية النابعة أصلا من العقلية الانجلوساكسونية . وأيضا جذبت مجلة البارتيزان ريفيو اليهودية التى أشرف على تحريرها كل من فيليب راهف ووليام فيلبس اليها جماعة من الكتاب الأمريكان الشبان الذين كرسوا أقلامهم للدفاع عن الحداثة فالتفوا حولها وتركوا بصماتهم الواضحة فى مسار الأدب الأمريكى .

وفى عام ١٩٣٩ عين قسم اللغة الانجليزية بجامعة كولومبيا لأول مرة اليهودى ليونيل تريلنج للتدريس فيه فتعلم على يديه جيل بأكمله من معلمى اللغة الانجليزية . فضلا عما خلفه من أثر فى مجال الدراسات النقدية عن طريق نشر مؤلفيه المهمين «ماثيو أرنولد» (١٩٣٩) و«إى . م . فورستر» (١٩٤٢) ثم جاء ناقد يهودى آخر هو ألفريد كازين لينشر عام ١٩٤٢ تحليله العميق الباقى على مر الزمن لتطور النثر والواقعية الأدبية فى الولايات المتحدة تحت عنوان «حول ارض الوطن On Native Ground ثم جاء ناقد يهودى ثالث لينشر السيرة النقدية لحياة كل من الأديبين الأمريكيين وليم فولكنر وشيروود أندرسون بالاضافة الى سيل منهمر من الكتابات النقدية . وكذلك تناول الناقد اليهودى القدير ليسلى فيلدر تاريخ الرواية الأمريكية فى كتابه المنشور عام ١٩٦٠ بعنوان «الحب والموت فى الرواية الأمريكية» Love and Death in the American Novel ومما زاد من أثر هؤلاء النقاد اليهود انهم تضافروا مع زملائهم النقاد الامريكان فى فترة الاربعينات وعلى صفحات مجلة البارتيزان ريفيو فى تكريس جهودهم للزود عن مذهب الحداثة كما أرساها أدباء كبار مثل الشعراء ت . س . اليوت وازرا باوند ودابليو ب . ييتس والروائى فرانز كافكا . وبذلك تحققت نبوءة هويل Howell الذى قال عام ١٩١٥ إن الكتاب اليهود

المولودين فى الاحياء اليهودية الأمريكية سوف يشكلون ويحددون الذوق الأدبى الأمريكى ويتربعون على عرش النقد الأدبى..

ولم يقتصر نفوذ هؤلاء النقاد اليهود على تشكيل الذوق الأدبى الأمريكى بل تعداه الى تشكيل الوجدان الثقافى ومعالجة الأدب من منظور تاريخى . ويمكننا إدراك تأثيرهم العميق فى الحياة الأمريكية بصورة أوضح اذا نحن قارنا بين جماعة مثقفى نيويورك التى تزعمها اليهود وجماعة أخرى معاصرة ومنافسة لها تعرف فى تاريخ الأدب الأمريكى بجماعة النقد الجديد New Criticism فقد اتسم انصار النقد الجديد بالتقليدية والمحافظة وكان معظمهم من اساتذة الجامعات من غير اليهود الذين ينحدرون من الجنوب الامريكى أمثال جون كرو رانسوم John Growe Ransom وكلينيث بروكس من Cleanth Brooks وآلان تيت Allen Tete ودابليوك ومست W.K. Wimsett ور.ب . بلاكمور P.R. Blackmur وأيفور وينترز Yvor Winters وهم جميعا من اتباع المذهب الشكلى الذى يرى ان العمل الفنى كيان مستقل بداية وأننا نستطيع استجلاءه دون الحاجة الى معرفة اى شىء عن الكاتب وظروف نشأته . ولهذا رفضوا النظر إلى العمل الفنى فى سياقه الاجتماعى والتاريخى . اما موقف جماعة مثقفى نيويورك (ومعظمهم من اليهود) فكان مغايرا تماما . فليونيل تريلنج على

سبيل المثال (وهو واحد من أبرزهم) أصر فى مقالاته المنشورة فى البارتيزان ريفيو على ضرورة النظر الى العمل الفنى فى سياقه التاريخى والثقافى . ويرجع السبب فى تبنيهم لهذه النظرة الاجتماعية والتاريخية للأدب الى وقوعهم فى مبدأ حياتهم تحت تأثير الأفكار الماركسية التى نبذوها فى وقت لاحق من حياتهم . ولكن لا مناص من الاعتراف بأن تأثرهم السابق بالماركسية جعلهم يعارضون النظرة الجمالية الى الادب التى يعلى «النقد الجديد» من شأنها . غير انهم لم يرفضوا أفكار مدرسة النقد الجديد برمتها فهم لا يرون مانعا من دراسة العمل الفنى فى حد ذاته دراسة دقيقة متأنية ولكنهم جاهروا بأن مثل هذه الدراسة وحدها لاتكفى بل لابد - حتى تكتمل الدراسة - من ربط الانتاج الفنى بالظروف المحيطة به فالعمل الفنى حتى وان كان نسيجا وحده لايمكن فصله عن البيئة الثقافية والتاريخية التى اثمرته . وحتى ندرك الفرق بين مدرسة النقد الجديد والحركة اليهودية التى اثمرت جماعة مثقفى نيويورك نقول : إن الأولى تنتمى الى الثقافة الأمريكية الراسخة فى حين ان الثانية حركة وافدة عليها . أضف إلى ذلك ان الأولى (وهى حركة النقد الجديد) تنحدر من الجنوب الأمريكى المحافظ أحيانا والرجعى أحيانا أخرى فى حين ان الحركة الثانية تنبع من جماعة المهاجرين اليساريين المغتربين.

ليونيل تريلنج (١٩٠٥ - ١٩٧٥)

يعتبر الناقد والأديب الخلاق ليونيل تريلنج أحسن مثل على مدى التغلغل اليهودى فى الثقافة الامريكية ابتداء من منتصف العقد الثالث من القرن العشرين ، ولكن علاقته المتوترة بإليوت كوهين رئيس تحرير مجلة «تعليق» جعلته يحجم عن الكتابة فى هذه المجلة . غير ان الكتاب المشاركين فى تحريرها كانوا يدركون اهمية تريلنج الادبية وبخاصة تلميذه نورمان بودهورتيز Norman Podhoret وليس من شك ان استاذية تريلنج للأدب الانجليزى بجامعة كولومبيا مهدت الطريق الى ظهور جيل من الكتاب اليهود ومدرسى اللغة الانجليزية المنتشرين فى جميع انحاء الولايات المتحدة . وفى عام ١٩٤٦ نشر مختارات من المقالات المنشورة فى مجلة بارتيزان ريفيو باعتبار انها افضل الكتابات التى ظهرت فى الأدب الامريكى الحديث دون أن يشير على وجه التحديد إلى أهمية ما سطره اليهود فى هذه المجلة .

ورغم أهمية تريلنج الكبيرة كناقد فإنه ألف مجموعة من القصص القصيرة فضلا عن انه نشر عام ١٩٤٧ رواية بعنوان «منتصف الرحلة» The Middle of The Journey التى تتضمن تحليلا نفسيا وسياسيا لشخصية مستقاة من شخصية شيوعى

سابق اسمه هوتياكر تشامبرز Whittaker Chambers ، وذلك بعد ان ترك الحزب الشيوعي وتخلى عن تجسسه لصالح الاتحاد السوفييتى . وفى طبعة هذه الرواية الصادرة عام ١٩٦٧ سطر تريلنج تصديرا أنحى فيه باللائمة على الشيوعيين الستالينيين كما أبرز مناصبة تشامبرز العداء لما تنطوى عليه الستالينية من قبول للمسلمات ومناهضة للمذهب الانسانى وايمان مقيت بأن الغاية تبرر الوسيلة . والرواية تخلو من أية اشارة على وجه التحديد الى اليهود .

ولد تريلنج فى إحدى ضواحى مدينة نيويورك عام ١٩٠٥ فى عائلة متوسطة وكان أبوه يهوديا مهاجرا من شرق أوربا ورجل أعمال واسع الثراء .. ورغم ان العائلة كانت تتحدث فى البيت باللغة الانجليزية فإنها حرصت على ممارسة الطقوس اليهودية كل يوم جمعة . وتذكر زوجة الناقد تريلنج ان امه كانت واسعة الاطلاع بشكل غير عادى ، وبعد تخرجه من جامعة كولومبيا ظل لمدة ست سنوات ابتداء من عام ١٩٢٥ ينشر مقالاته بانتظام فى المجلة اليهودية «مينورا» عن الأدب والهوية اليهودية . وفى شهر أغسطس عام ١٩٧٨ نشرت مجلة «تعليق» وبعد وفاته مقالا بعنوان «اسطورة اليهودى المتغيرة» The Changing Myth of the Jems

كانت مجلة مينورا قد قبلتها للنشر عام ١٩٣١ ولكنها أحجمت عن نشرها لسبب غير واضح . ورغم انه فى قابل حياته أعرب عن عدم رضائه على مستوى هذا المقال فان زوجته بعد وفاته نشرته ضمن مقالاته المتناثرة . ويتناول هذا المقال طريقة معالجة اليهودى فى الادب الانجليزى . وهو من المقالات الرائدة فى هذا الصدد . ويذهب تريلنج فى مقاله إلى ان التصوير النمطى لشخصية اليهودى فى الادب بوجه عام ، وفى الرواية بوجه خاص لا يعدو ان يكون اسطورة ليس لها اساس من الصحة فهو مجرد نمط عرقي أو عنصرى من خلق اناس لا يهمهم تصوير اليهودى على حقيقته بل يهمهم إرضاء حاجاتهم النفسية والعاطفية .

ويبدو ان تريلنج تعرض لشيء من الاضطهاد الوظيفى بسبب يهوديته عندما التحق بالتدريس فى جامعة كولومبيا ، وهو يقول فى هذا الشأن «عندما قررت العمل فى السلك الاكاديمى اعتبرنى أصدقائى ساذجا الى حد العبط المضحك» ولم يكونوا مخطئين فى ذلك . وبشكل واضح كان تعيينى فى وظيفة التدريس بجامعة كولومبيا بمثابة تجربة كما ان التعقيدات اعترضت سبيل مستقبلى لبعض الوقت بسبب يهوديتى» . فعلى سبيل المثال ابلغته الجامعة بعدم عزمها تجديد تعيينه رغم انه أمضى أربعة أعوام كاملة

يدرس فى قسم اللغة الانجليزية بها . ويبدو ان احجام الجامعة عن تعيينه يرجع الى سمعتـه كيهودى يؤمن بفرويد وماركس ، وهى عورات تقف فى سبيل المتقدمين لشغل وظائف التدريس بالجامعات الامريكية آنذاك ويعترف تريلنج فى أوراقه الخاصة التى لم تر طريقها إلى النشر ان اقتناعه بمذهبى فرويد وماركس لعبا دورا حاسما فى مستقبله كمثقف وناقد ولكن زوجته تذكر انه بحلول عام ١٩٣٩ تخلى عن ايمانه الباكر بالماركسية ، ولم يستسلم تريلنج لاضطهاد الجامعة له بل رمى زملاءه الاساتذة بالتحيز غير أن أموره تحسنت بحلول عام ١٩٣٩ فبعد أن تقدم برسالته المهمة عن ماثيو ارنولد للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة كولومبيا احتفل بـه رئيس الجامعة نكولاس مرى بتلر Nicholas Murray Butler ودعاه الى تناول الغداء معه ثم قام بتعيينه استاذا مساعدا للأدب الانجليزى ، وبذلك اصبح أول يهودى يقوم بالتدريس فى قسم اللغة الانجليزية بجامعة كولومبيا . .

فى تلك الفترة تراجع ليونيل تريلنج عن يهوديته دون ان يحاول اخفاءها أو التنكر لها .

فقد كتب عام ١٩٤٤ يقول: « لايمكن ابدا ليهودى من جيلى ان

يهرب من يهوديته» . غير انه فى العشرينيات انشغل مع نفر فى كتاب مجلة «المينورا» فى البحث عن هوية علمانية وثقافية تحل محل هويتهم الدينية . تربى تريلنج تربية يهودية يقول عنها : اذا سلمنا بأن وجودى كيهودى هو احد الظروف التى شكلت طبعى فإنى بالتالى افترض ان يهوديتى لابد وانها تركت اثرها فى عقلى» .ورغم ذلك فانه لم يعتبر نفسه كاتبا يهوديا لانه – على حد قوله – لم يستطع أن يكتشف اى شيء فى حياته الفكرية أو المهنية يمكن أن يعزوها على وجه الخصوص إلى مولده ونشأته اليهودية ، ولهذا نجده يستنكر الحركات الثقافية المجاهرة بخصوصيتها اليهودية ، وهو يقول ان تحقيق الكاتب اليهودى لذاته اليهودية لا يعلى من شأنه ككاتب كما أن بعض الأدباء اليهود الواعدين قضوا على الكثير من موهبتهم الأدبية بسبب شدة استمساكهم بخصوصيتهم اليهودية . ولكن هذا لم يمنع الكاتب اليهودى المجيد من الاستفادة فيما يكتب بتجربته اليهودية .

وفى المناظرة التى نشرتها مجلة «تعليق» عام ١٩٤٩ بعنوان «الكاتب اليهودى والتقليد الادبى الانجليزى» نراه يقول إن عداوة السامية ليست جوهرية فى هذا التقليد رغم تغلغلها فيه ، ولكن هذا لا يعنى ان عداوة السامية جزء ضرورى فى هذا التقليد . ومعنى هذا انه يمكن رفضها دون الحاق أى ضرر جسيم به .

يقول تريلنج في هذا الصدد . «من الطبيعي ان أناصب العداء ضد العبارات المعادية لليهود .. ولكن هذا لايدمر بالضرورة علاقتي بالكاتب الذي تصدر عنه هذه العبارات» . وعندما يعالج هذا الناقد عداوة الشاعر ت . س اليوت ضد اليهود في شعره نراه يقول ان هذه العداوة لا تروق له ، ولكنه يخفف من وطأة هذه العداوة بقوله : ان اليوت يستخدم اليهود استخداما رمزيا في شعره ، ولكنه لايستطيع إخفاء انزعاجه من العداوة الصريحة لليهود التي يظهرها ت . س . اليوت في نثره . ويعيب بعض النقاد على تريلنج انه كتب عام ١٩٥٠ مقالا عن الشاعر الرومانسي الانجليزي المعروف جون كيتس ذكر فيه ان والدة كيتس هجرت زوجها الثاني رولنجز Rowlings لتقيم علاقة مع يهودي اسمه ابراهام ووجه الاعتراض هنا هو عبارة (يهودي اسمه) ورغم ان تريلنج يسعى الى التخفيف من وطأة موقف ت . س . اليوت المعادي للسامية (على أقل تقدير في شعره) فانه يصور عداوة ماثيو أرنولد ضد اليهود على حقيقتها . يقول تريلنج في مبحثه البالغ الاهمية عن ماثيو أرنولد الذي أجراه عام ١٩٣٩ ان والده توماس ارنولد امن بالمبادىء المسيحية الجامدة والمتزمتة لدرجة انه ذهب الى ضرورة حظر التحاق اليهود بالجامعات والتمتع بحق المواطنة . ولابد انه كان متأثرا بأيامه الصعبة الأولى التي عاني فيها من يهوديته عند

التحاقه بجامعة كولومبيا عندما كتب عن توماس أرنولد يقول : إن أخشى ماخشيته هو الاضطلاع بامتحان طالب يهودى بجامعة لندن في مادة التاريخ . وبعد أن أدرك العالم الفظائع المروعة التى ارتكبها النازيون لابادة اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية كتب تريلنج عام ١٩٤٨ مقالا يقول فيه ان الهولوكست النازى يثبت بما لايدع مجالا للشك صواب تشاؤم الكاتب الانجليزى الكبير جوناثان سويفت الذى يرى ان الانسانية منحطة انحطاطا *لا شفاء منه وان الامل الليبرالى فى تحسن الجنس البشرى ليس* له اى نصيب من الصحة . يقول تريلنج فى هذا الشأن ان فظائع *الهولوكست تفوق قدرة سويفت على التخيل* .

غير أن أعمال ليونيل تريلنج *الناضجة* تحتوى على ذكر للخصوصية اليهودية . وفى عام ١٩٥٠ القى حديثا نشره فيما بعد بعنوان «الشاعر وردزورث واحبار اليهود Wordsworth and the Rabbis يقول فيه اننا لانستسيغ شعر وردزورث لأنه ينطوى على سمات يهودية خاصة الأمر الذى يوحى بأن تريلنج يعتقد ان مثل هذه السمات تتعارض مع الحداثة . ويبين هذا الناقد التشابه الموجود بين اشعار وردزورث وبين اقوال الآباء اليهود فى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث قبل الميلاد، والثالث بعد الميلاد وهى أقوال مجموعة تحت عنوان «بيرك أبوث» Pirke Aboth ويذهب

تريلنج الى وجود وجه شبه بين مفهوم وردزورث عن الطبيعة ومفهوم أحبار اليهود الأوائل عن القانون . فضلاً عن أننا نجد عند وردزورث نفس التواؤم بين الفرد والمجتمع الذى نجده عند أحبار اليهود الأوائل . وينتقد هذا الناقد دعوة كل من وردزورث وهؤلاء الأحبار الى الصفاء أو السكينة لأن من شأن هذه الدعوة ان تستبعد الجنس من حياة الانسان في حين ان تأكيد الجنس يمثل إحدى خصائص الحداثة .

أما مقال تريلنج المهم الثانى عن الهوية اليهودية فيتجلى فى تحليله البديع للقصص القصيرة التى ألفها الكاتب اليهودى الروسى المنشق اسحق بابل . ويرجع تاريخ مقاله عن بابل الى عام ١٩٥٥ . يقول تريلنج انها بمثابة نكتة بائخة ان يجد اليهودى بابل نفسه .. (وهو الضعيف الواهن البدن) ضمن كتيبة قوزاقية من الروس القوزاق الاشداء) خلال الحرب التى اندلعت بين روسيا وبولندا عام ١٩٢٠ حيث كان بابل يعمل فى سلاح الامدادات ، والرأى عند بابل ان اليهودى والقوزاقى على طرفى نقيض فاليهودى مثقف مسالم ذو قلب رحيم فى حين ان القوزاقى يتسم بالعنف والفظاظة والخلو من العقل والسلوك . وتلخصت محنة بابل فى كتيبة القوزاق فى عجزه عن مجاراة القوزاق فى شراستهم واستعدادهم لسفك الدماء . ورغم ان بابل لم يكن

راضيا عن العنف فقد راقت له الجسارة النابعة وراء العواطف الهوجاء المحيطة به الى جانب مافى العنف من بساطة ومباشرة ورشاقة . ولم يكن هذا الانبهار بالعنف والانجذاب نحوه تطورا جاء متأخرا فى شخصية بابل بل كان استمرارا لانبهاره القديم ايام طفولته عندما عرف عن كثب العصابات اليهودية التى تعيث فسادا فى ميناء أوديسا الروسى والتى تناولها فى العديد من قصصه . ويضيف تريلنج ان بابل أراد ان ينفث عما لقيه والده من اذلال وخضوع على ايدى هؤلاء القوزاق ، ولم ينبهر بابل بالقوزاق الاشداء المشتركين فى الحملة الروسية ضد بولندا فحسب بل انبهر كذلك بيهود بولندا أنفسهم . فقد وجد فيهم نوعية مختلفة تماما عن اليهود الذين ألفهم فى أوديسا مسقط رأسه والذين تأقلموا مع الحياة فى هذا الميناء الذى يعج بمختلف الجنسيات . ويصف بابل اليهودى البولندى بأنه يتميز بالقدرة على مكابدة العذاب وهى قدرة مفعمة بالعظمة المحزونة كما ان اليهودى يحمل فى صمت احتقارا بلا حدود نحو طبقة الاشراف البولنديين . ويبين اسحق بابل ان خصائص اليهودى البولندى التى بهرت اسحق بابل لم تكن موجودة فيه شخصيا ، ويرى ان التعارض بين ما عبر بابل فى يهود بولندا وافتقاره الشخصى الى الاشياء التى بهرته فيهم كان الركيزة التى اقام عليه فنه القصصى .

ويذهب تريلنج الى ان موهبة بابل الأدبية تتجلى فى قدرته على التعبير عن مثل هذه التناقضات الداخلية فيه .

ورغم أهمية مقالات تريلنج عن اليهود واليهودية فان إهتمامه بهذا الموضوع كان محدودا للغاية وخاصة بعد أن توقف عن نشر مقالاته فى مجلة «المينورا» إذ لم يعد هذا الموضوع يشغل باله وبخاصة فى سنى نضجه التى برز فيها كناقد ادبى يعنى بشئون الثقافة . ومع انغماسه فى شئون الثقافة والأدب وانصرافه الى الكتابة عن ماثيو أرنولد (١٩٣٩) واى . م . فورستر (١٩٤٣) شعر تريلنج بالحاجة الى ان ينبذ ثوريته وراديكاليته الباكرة ، ويمثل كتابه «الخيال الليبرالى» (١٩٥٠) The Liberal Imagination واحدا من أهم مؤلفاته النقدية على الاطلاق . ويتضمن هذا المقال مجموعة مقالاته الأولى التى ظهرت فى فترة الاربعينات . ويدل كتابه هذا على خيبة أمله فى الفكر الليبرالى والفكر الراديكالى معا . وهى أفكار انهارت امام زحف الفاشية والدكتاتورية الستالينية الكاسح كما اتضح فى أواخر الثلاثينات وخلال فترة الاربعينات. وينحى تريلنج باللائمة على الخيال الليبرالى لأنه فى رأيه خيال قاصر محدد يميل الى تبسيط الأمور فى حين ان التجربة الانسانية تتسم بالتعقيد ومن ثم حرصه على ان يستوعب النقد الليبرالى هذه الحقيقة . يقول تريلنج فى هذا الشأن : «أن وظيفة النقد هى اعادة الليبرالية الى خيالها الجوهرى الأول المتمثل فى

التنوع ومختلف الامكانيات مما يتضمن إدراك (مافى الحياة) من تعقيد وعسر» .

وفى المقال الذى نشره تريلنج عام ١٩٤٠ بعنوان «الحقيقة فى أمريكا» نراه يطبق نظريته فى الليبرالية عن كتاب ذاع صيته آنذاك من تأليف فيرنون أى فارنجتون Vernon I.Farrington بعنوان «التيارات الرئيسية فى الفكر الأمريكى» (١٩٢٧ – ١٩٣٠ Main Currents in American Ihought وأوضح تريلنج أوجه القصور فى هذا الكتاب الذى يكتفى على نحو معيب باعتبار التقليد الأدبى مجرد مجموعة من الأفكار . وكذلك يبين غموض مفهوم بارنجتون للرومانسية . وفى عام ١٩٤٦ سطر تريلنج الجزء الثانى من مقاله «الحقيقة فى امريكا» وفيه اتهم الخيال الليبرالى بقبول الاعتقاد – دون أدنى تمحيص بان الكاتب الامريكى ثيودور درايزر خير تجسيد للروح الليبرالية . ويحاول ناقدنا ان يبين تحيز النقاد منْ اجل درايزر وتعاطفهم المتسامح معه مشيرا الى عيوبه الواضحة مثل جمود عقليته الملتزمة بالأفكار القاطعة وعدائه ضد السامية وسوقيته الثقافية . ويرفض تريلنج الرأى النقدى السائد الذى يعتقد ان قدرة درايزر على الملاحظة النافذة العميقة يعوض ما يشوب أسلوبه النثرى من عيوب . والرأى عند تريلنج ان الروائى العظيم لابد وان يتميز بالقدرة على كتابة النثر الجيد ،

واستغل ناقدنا الضعف البادىء فى رواية درايزر «القلعة» (١٩٤٦) ليهاجمها وينال منها ولكن كثيرا من القراء والنقاد يخالفون تريلنج في الرأى ، ويعتبرون درايزر كاتبا عظيما فضلا عن ان هجومه على المذهبين الليبرالى والراديكالي لم يرق فى عينى الكثير من الناس ويتهمه أنصار الليبرالية بأنه تجاهل المخاطر الناجمة عن شيوع المكارثية فى الثقافة الأمريكية .و رغم هذا فإنه يمكن وصف تريلنج بالليبرالى الكافر بالليبرالية .

وللحق والإنصاف يتعين علينا أن نذكر أنه تصدى أحيانا لاعداء الليبرالية والمدافعين عن المكارثية ، يقول هذا الناقد : «إن مقاومة الفكر الليبرالى قد تتخذ اشكالا قميئة وملتاثة . فضلا عن رفضه التماثل الفكرى . ولكن لابد من الاعتراف بأنه تجاهل الابعاد الاجتماعية والسياسية للأدب واقتصر على معالجة البعد الثقافى والصراع الفرويدى الذى يدور رحاه فى نفس الفرد كما نجد فى كتابيه «النفس المعارضة (١٩٥٣) The Opposing Self وماوراء الثقافة (١٩٦٥) Beyond Culture . ولم يخف تريلنج عدم اهتمامه بالمجتمع فقد كتب يقول صراحة : «إننى أتحدث عن تحقيق الذات من الناحية الثقافية وليس من ناحية المجتمع» . ويذهب الى نفس الرأى فى كتابه «ماوراء الثقافة» حيث يرى انه يجب على الناقد ان يقف فوق الثقافة ويتجاوزها حتى يتمكن من نقدها وهو موقف يحمل فى احشائه الازورار عن المجتمع وتحطيم

المذهبين الليبرالى والراديكالى بمناهضته الواضحة للسياسة والاجتماع .

لقد بلغ تريلنج ذروة نفوذه النقدى والثقافى فى الخمسينات ولكن جيل الستينات ما لبث ان انصرف عنه وآثر تلاميذه الانضمام الى حركة «اليسار الجديد» التى بدأ نجمها يبزغ . غير ان عقد السبعينات شاهد تغيرا غريبا . فبعد ان عين تلميذه بودهورتيز مسئولا عن تحرير مجلة « تعليق» ابتعد بمسارها عن اليسار وكرس صفحات هذه المجلة للهجوم على كل الاتجاهات الليبرالية والراديكالية . وتبنت مجلة «تعليق» موقفا محافظا تعاطف معه وتحمس له كثير من المثقفين اليهود فى مدينته نيويورك كرد فعل ضد تطرف «اليسار الجديد» . وعلى الرغم من ان تريلنج وعد بمناصرة الاتجاه المحافظ للمجلة الذى اختاره لها رئيس تحريرها فانه يبدو انه تراجع حتى لا يشترك فى الحملة المسعورة ضد اليسار الجديد . وفيما بعد شكا بود هورتيز رئيس تحرير مجلة «تعليق» من ان تريلنج وجه إليه اتهاما بالمبالغة فى رودود فعله ضد اليسار الجديد وفى الاعلاء من شأن فضائل المجتمع الامريكى النابعة من روح وقيم الطبقة المتوسطة سواء اتفق المثقفون أم اختلفوا مع افكار هذا الناقد اليهودى الكبير فما من شك فى انه حفر لنفسه مكانا باقيا فى تاريخ الادب الأمريكى.

فيليب راهف

يعتبر هذا الناقد اليهودى البارز واحدا من أهم النقاد الذين أفرزتهم النهضة الادبية اليهودية ، وكان يتحاشى الجوانب اليهودية فى الكتابات المعاصرة فلا يخوض فيها الا نادرا . وليس أدل على ذلك من ان أول مجموعة مقالات يهودية ، ظهرت بعنوان «النفاذ» (١٩٦٤) Breakthrough اشتملت على مقال لراهف لا تربطه باليهود والكتابات اليهودية ادنى صلة . وعندما كتب راهف تصديره لمجموعة قصصية من تأليف الكاتب اليهودى الكبير كافكا جاءت اشاراته الى انتمائه الى اليهود وموقفهم منهم عابرة . ولكن الامر تغير فيما بعد عندما نشر راهف عام ١٩٦٧ مقالا عن الرواق اليهودى الامريكي برنارد مالامود . فقد عبر عن طائفة من الملاحظات المهمة بشأن الكتابات اليهودية . ويحذرنا راهف فى هذا المقال من مغبة الظن ان الكتابات اليهودية تقدم إلينا نسقا واحدا أو ان الكتاب اليهود ينتمون الى مدرسة ادبية واحدة بل ينبهنا الى شدة تنوعهم واختلافهم عن بعضهم البعض .

فضلا عن تنوع أحاسيسهم ومواقفهم تجاه يهوديتهم ويقول راهف ان كتاباتهم الخلاقة تخلو أحيانا من أية إشارة الى يهوديتهم، فالروائي اليهودى الامريكى نورمان مالر على سبيل

المثال قد يكون على الصعيد الشخصي شديد الوعي بيهوديته دون ان تكون ليهوديته أية أهمية تذكر فيما يسطر من أعمال خلاقة . ويضيف راهف أن معظم الكتاب اليهود فى امريكا يتخذون مواقف متضاربة وغير واضحة من يهوديتهم وهو يصف مالامود بأنه أكثر ايجابية فى يهوديته من سائر اقرانه من الكتاب اليهود وانه يعبر فى كتاباته عما فى المأساة والعذاب من امكانيات كوميدية تبعث على الضحك وان اسلوبه النثرى ، رغم انه مكتوب باللغة الانجليزية - تقليد للغة اليديش الخاصة بيهود شرق اوربا ، ويذهب راهف الى ان يهودية مالامود تتمثل فى شدة حساسيته للعذاب .

ويرى البعض ان اهتمام راهف المحدود للغاية بالشخصية اليهودية فى الأدب لا يعنى انه يرفض الهوية اليهودية لان عدم اهتمامه يرجع فى الاساس بانشغال باله بالمشكلات الادبية والثقافية الاخرى ، ورغم اعجابه الشديد بكتاب غير يهود محدثين مثل ت . . س اليوت وازرا باوند فانه بكل تأكيد لا يعيش فى زاده الثقافى عالة عليهما ، بل إنه ينحى باللائمة على الأدب المسيحى الذى يكتبه ت . س . اليوت . ويدل مقاله الذى اسهم به عام ١٩٤٩ فى المناظرة التى عقدتها مجلة «تعليق» بعنوان «الكاتب

اليهودى والتقليد الأدبى الإنجليزى» أنه يشن هجوما شديد الوطأة على سعى اليوت وأمثاله إلى إحياء المسيحية من جديد فى عالم الأدب ، وقد سبق أن اتهم ليسلى فيلدر هذا الاتجاه بتوسيع رقعة عداوة السامية ويوافق راهف على المقولة التى تذهب إلى أن معاداة السامية جزء لا يتجزأ من الملحمة المسيحية التى يحاول ت . س . إليوت وأمثاله إنشاءها . وهو يناشد جميع المثقفين أن يقفوا فى وجه هذا التدين الجديد ليس على أسس طائفية بل من منطلق أن مثل هذا التدين لا يخدم مصالح العقل ويسهل التهرب من المشكلات الملحة حقا . كما أنه يعارض اتجاه بعض الكتاب اليهود للتأقلم مع الحماس الأدبى السائد من أجل الأسطورة والتقاليد ويطلب اليهم تكريس أنفسهم لعلمنة وتدويل الثقافة بطريقة جذرية ، أى جعلها ذات طابع علمانى ودولى فى آن واحد .

ويعرب راهف عن رفضه القاطع للحلول الوسطى مع أية جوانب رجعية قد تشوب فكر الأدباء الكبار وعلى رأسها معاداة السامية . غير أنه فى الوقت نفسه يعرب عن سخطه على قيام حركات مسيحية مستحدثة بمقاومة معاداة السامية لأنه يريد من هذه المقاومة أن تنبع من جذور دينية . وهو يتجاهل الدور الذى يلعبه إزرا باوند فى إشاعة عداوة السامية من منظور علمانى

وليس من منظور دينى ، فإزرا باوند يقدم إلينا هذه العداوة لليهود في شكل علماني وليس في شكل مسيحي مثلما يفعل ت . س . اليوت . غير أن دور إزرا باوند كان محدودا في تأثيره في مجال الأدب على أية حال . والجدير بالذكر أن راهف لم يعالج مشكلة عداوة السامية من منظور يهودى بل عالجها باعتباره مدافعا عن اضفاء الصبغة الدولية على الأدب الأمريكى والثقافة الأمريكية .

ويعتبر فيليب راهف من أكثر النقاد تأثيرا في الأدب الأمريكى منذ أواخر الثلاثينات بفضل مقالاته المنشورة في مجلة بارتيزان ريفيو وكتاباته عن الروائيين هنرى جيمس وفيودور دستوفسكى . وهو واحد من المثقفين اليهود القلائل الذين لم يحنوا رؤوسهم أمام طوفان المكارثية وظل يقاومها بكل ما أوتى من قوة . وسخر راهف من زملائه الذين عبروا عن عداوتهم للسامية ولكنهم في الوقت نفسه اظهروا تخاذلا في مقاومة المكارثية وإفراطا مخلا في هجومهم على الستالينية الأمر الذى شوه أحكامهم السياسية والثقافية . وعاب راهف على زملائه المهاجمين على الستالينية بصورة جامدة ومتصلبة جنوحهم إلى المحافظة والتماثل الذى يجعلهم يقفون في وجه أى شكل من أشكال الانشقاق عن المعايير البورجوازية .

الفريد كازين

تميز الفريد كازين بأنه أكثر صراحة في التعبير عن يهوديته والتأكيد عليها من كل من الناقدين ليونيل تريلنج وفيليب راهف ويتضح لنا هذا بجلاء من كتابه المنشور عام ١٩٤٢ بعنوان « على أرض الوطن» ، ولكن كازين ظل حتى ظهور هذا الكتاب سجينا للفكر والتقليد الأدبي الإنجلو ساكسوني الذي استمر سائدا في تاريخ الأدب الأمريكي منذ بدايته حتى الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية . واللافت للنظر في هذا الكتاب هو خلوه من أي ذكر للأدباء اليهود في أمريكا منذ عام ١٨٩٠ فصاعدا وهي الفترة التي يناقشها الكتاب بين دفتيه . ومن الكتاب اليهود الذين أغفل الكتاب ذكرهم ابراهام كاهان Abraham cahan ودانييل فوتش Daniel Fuchs وماير ليفين Meyer levin وكليفورد أودتس clif-ford odets وهنري روث Henry Roth وبحلول عام ١٩٦٠ لفت كازين الأنظار إلى أهمية رواية يهودية بعنوان «سمة النوم» call It sleep التي اعتبرها رائعة أدبية منسية . وأيضا أشار كازين إشارة عابرة إلى رواية يهودية ألفها مايك جولد Mike Gold بعنوان «يهود مفلسون» ولا تزيد معالجة كازين للأديب لودفيج لويسون عن حيز ضئيل للغاية ولكنه يشير إلى تحامل الدوائر

الأدبية ضده بسبب يهوديته . ويغفل كازين فى كتاباته الاشارة إلى رواية يهودية بعنوان «الجزيرة بداخلنا» The Island Within .

ويرجع السبب فى اهتمام كازين النسبى بلودفيج لويسون إلى أن لويسون كان أسبق منه فى تاريخ الأدب الأمريكى ، فقد سبقه لويسون عام ١٩٣٢ فى اصدار كتاب قبله بعنوان « التعبير فى الأدب الأمريكى » . والجدير بالذكر أن مؤلفات لويسون النقدية كانت لها أهمية فى العقدين الأول والثانى من القرن العشرين . والرأى عند كازين أن لويسون كان قوة تحفز على التقدم رغم ما شاب كتاباته من مبالغات معيبة.

وعلى أية حال فإن كتاب كازين « على أرض الوطن» يفوق فى حيويته وأهميته النقدية كتاب لويسون . ولا غرو فهو واحد من كوكبة النقاد والأدباء اليهود الذين تفجرت موهبتهم فى العقد الثالث من القرن العشرين ، ومعظمهم أبناء أو أحفاد مهاجرين نزحوا من أحياء اليهود فى شرق أوربا إلى الولايات المتحدة واستطاعت هذه الكوكبة بموهبتها الأدبية الفذة أن تكذب الادعاء الذى ظل سائدا حتى الثلاثينات بعجز اليهود عن استيعاب وتمثل الثقافة الغربية . ورغم تنوع هذه الكوكبة وعدم انتمائهم إلى مدرسة أدبية واحدة فقد جمعت الحداثة شملهم وانتهجوا نهج

المحدثين الغربيين أمثال هنرى جيمس وجيمس جويس ومارسيل بروست وت . س . اليوت وازرا باوند وفرانز كافكا وفيودور دستيوفسكى ، ولكنهم رفضوا الاقتداء بالمذهب الجمالى والشكلى الذى اتبعته المدرسة النقدية الجديدة ، وكما أسلفنا دأب هؤلاء الأدباء واليهود المبرزون على النظر إلى الأدب فى سياقه التاريخى والسياسى والاجتماعى . ورغم أنهم جميعا نبذوا المذهب الماركسى الذى تشربوه فى مبدأ حياتهم فإنهم ظلوا متأثرين باهتمام هذا المذهب باستجلاء الجوانب الاجتماعية فى الدراسات الأدبية

كان كازين فى السابعة والعشرين من عمره عندما أصدر كتابه النقدى المهم «عن أرض الوطن» الذى كان سببا فى رسوخ قدمه فى مجال الكتابات النقدية . ولا غرو فالكتاب قمة فى النقد التاريخى الأمريكى لم يسبقه سوى فان ويك بروكس Van Wyck Brooks ونقد بارنجتون الاجتماعى للفكر الأمريكى ويبين اسهامه فى المناظرة التى تحمل عنوان «أقل من أربعين سنة» موقفه من التراث اليهودى ، وهو موقف غير رافض لهذا التراث رغم إغفال كازين الاشارة إلى المؤلفات اليهودية التى ظهرت على أيامه . ويرجع هذا الاغفال إلى تجاهله العام للعناصر العرقية الموجودة فى الثقافة الأمريكية . وفى موقفه من الأدب اليهودى نراه

يؤكد إعجابه بجوانب كثيرة فى التراث اليهودى مثل كتابات شوليم ألتشيم وآى . ل . بيرتز المكتوبة بلغة البيديش إلى جانب الكتاب اليهود الاشتراكيين وأيضا روزا لوكسمبورج وبناة الثقافة العبرية فى فلسطين وطائفة من الكتاب اليهود والفنانين المعاصرين أمثال حاييم ناخمان بياليك Hayim Nochman Bialik ومارك شاجال Marc Chagall وارنست بلوخ Ernest Bloch ، والذى يثير اعجابه بالشخصية اليهودية على حد تعبيره هو «نسيج الثقافة العبرية الأصيلة والمتوارثة والإيمان الذى لا يعنى بالأسس الروحية للحياة الإنسانية وعشق الكتب وحب الاستطلاع العام» . ولكنه رفض تلك المحاولات التى بذلها الكتاب اليهود لاستحداث ثقافة أمريكية يهودية لأنه اعتقد أن مثل هذه الثقافة ليس أمامها أمل للنمو والازدهار . ويعيب بعض النقاد عليه عدم قدرته على ادراك الفروق العرقية التى تميز المهاجر من شرق أوربا عن قرينه المهاجر فى أوربا الغربية ، وعلى أية حال أسهم كازين بكل طاقته وكامل وعيه بنصيب وافر فى الثقافة الأمريكية دون اهتمام أو اسهام ذى بال من جانبه فى الحياة العرقية اليهودية سواء كانت هذه الحياة علمانية أو دينية .

لقد حالت فظاعة الهولوكست الكتاب اليهود المشتركين في تحرير مجلة «تعليق» الذين راقبوا عن كثب إنشاء دولة إسرائيل، وأزعجهم أن يكتشفوا أن الغالبية العظمى من كبار الكتاب الانجليز عبر القرون من ألد أعداء السامية الأمر الذى تجلى بوضوح فى أعمالهم الخلاقة مما أصاب ناقدنا كازين وغيره من اليهود بالمرارة وملأ قلوبهم بالغصة والألم . ولهذا نرى الفريد كازين يشكو فى «المناظرة التى عقدتها مجلة «تعليق» بعنوان «الكاتب اليهودى والتقليد الأدبى الانجليزى» من عداوة كبار الأدباء المحدثين لليهود أمثال ت . س . اليوت وازرا باوند وهنرى چيمس ودستيوفسكى الخ . يقول كازين فى غضب : « لشد ما نكن لهم الحب فى حين أنهم لا يحبوننا » . ثم أضاف قائلا : إن ثمة أوجه شبه موجودة بين هؤلاء الكتاب العظام واليهود فهم يشاركون اليهود الشعور بالاغتراب عن غالبية المجتمع . ورغم ذلك فإنهم «مغفلون على الدوام ويلحقون بنا الاهانات» . ويستمر كازين فى شكواه منهم قائلا : « يجب علينا أن نطالع أعمالهم ونتحمل سخافاتهم بطبيعة الحال دون أن نصبح أذلاء خاضعين لهم ودون أن نخشى أن نسمى جهلهم وقسوتهم التى لا ترحم باسمائها الحقيقية حتى لو جاءتنا من أباطرة الأدب الذين يتحكمون فينا » .

ورغم انشغال كازين بالتدريس فى الجامعة وعرض الكتب فى المجلات وتأليف الكتب النقدية عكف كازين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية على تسجيل ذكرياته مع والديه الفقيرين وظهر أول مجلد من هذه الذكريات بعنوان «الماشى فى المدينة» (١٩٥١) ولا غرو فقد كان كاتبنا يهوى المشى . والمجلد يسجل طفولته التى عاشها في مدينة برونزفيل حتى بلوغه السادسة عشرة من عمره ويسيطر على هذا الكتاب حنين قوى إلى الماضى ، وفيه يصف كازين البيئة اليهودية المنغلقة على ذاتها التى عاشها فى صباه وهو يرنو بشدة إلى المجتمع الخارجى غير اليهودى الذى يلوح له من بعيد . ويعتبر هذا الكتاب بمثابة توثيق صادق ومهم لتأقلم اليهود الثقافي مع الفكر الأمريكى كما أنه يصور الجو العاطفى المشحون الذى عاشه كازين كطفل شديد الحساسية يتلمس طريقه على نحو غامض للوصول إلى حياة أرحب وأوسع من تلك الحياة التى عاشها كابن مهاجر يعانى من الفقر وشظف العيش . كان كازين وهو طفل لا يكف عن التساؤل لماذا كتب عليه كيهودى أن يعيش فى حاجة وعوز فى حين عاش الآخرون فى بحبوحة . ولماذا يوجد دائما فرق بين عالمين : عالم اليهود وعالم غير اليهود ، يقول كازين فى هذا الشأن : «لاح لى من بعيد عالم غير اليهود الغريب

الذين يعلو الشعر الكتانى رؤوسهم والذين يضمرون الكراهية لليهود وخاصة الفقراء منهم ويحملون آسماء قبيحة لا يمكننى قراءتها أو سماعها دون أن أرى مدية تقترب من رقابنا ؟ إن اليهودية معناها الشك فى حق اليهود فى الحياة ولكن إحساس كازين القوى بالاغتراب لم يمنعه من ارتياد المكتبة العامة والنهل مما تحتويه من كتب . وقد لعبت المكتبة العامة دورا حيويا فى عملية تأقلمه وتأقلم غيره من اليهود مع الحياة الثقافية الأمريكية .

ويسجل كازين فى ذكرياته غلالة العذوبة والرقة والحنين التى أحاطت بتنشئته الباكرة . كما يذكر فيها أن أبويه اليهوديين كانا رغم بعدهما عن الدين يحرصان على ممارسة الطقوس اليهودية فكانت أمه كل يوم جمعة عند غروب الشمس تشعل الشموع ابتهاجا بقدوم يوم السبت المقدس ، فضلا عن أن أسرته اعتنقت الفكر الاشتراكي وتناقشت فيه حول مائدة المطبخ ، ويذكر كازين بكل العاطفة والشجن الجهود المضنية التى بذلتها أمه فى عملها كخياطة والسهر على خدمة أسرتها . ويذكر كازين عن والده تضامنه القوى مع أقرانه من اليهود الأمر الذى عمق فى كازين الاحساس بأنه ينتمى حقاً إلى شعب وأنه لا يعيش بمفرده بمعزل عن هذا الشعب ، ومن ثم يستحيل عليه الهروب من يهوديته . وازداد هذا الشعور قوة ورسوخا نتيجة إقدام النازيين على الابادة الجماعية لليهود .

إن كازين لم يكتب الرواية ولكنه كتب ذكرياته عن طفولته وشبابه فى قالب روائى يدور حول تأقلم اليهودى الأمريكى مع الثقافة الأمريكية ، ثم واصل وصف عملية التأقلم هذه فى رواية أخرى بعنوان «البداية فى الثلاثينات» (١٩٦٣) Starting Out in the Thirties روى فيها قصة انفتاحه على عالم أوسع وأرحب من عالمه اليهودى ، وهذا العالم الأرحب هو عالم الأدب والسياسة الراديكالية الشائعة آنذاك . يقول كازين عام ١٩٣٥ عند اكتشافه لهذا العالم الجديد الرحب أنه تمثل أباه وأمه وذويه اليهود كما لو كانوا شخصيات مأساوية شكسبيرية مثل شخصيتى هاملت والملك لير الأمر الذى جعله يدرك أن الفن والحق والأمل شئ واحد.

وفى عام ١٩٧٨ واصل كازين حكايته كيهودى تحت عنوان «يهودى نيويورك» New york Jew ويتضمن هذا الكتاب الجديد تأكيدا لهويته اليهودية أكثر من أى وقت مضى فضلا عن إيمانه بأن اليهودى المهاجر إلى أمريكا خير من يرفع لواء الأدب الأمريكى فى مجالات الرواية والشعر والنقد والدراسات الأدبية . وغنى عن الذكر أن كتابه «على أرض الوطن» الذى يدور حول تجاربه أثناء فترة الحرب العالمية الثانية وفى العقدين التاليين لهما يتناول تلك الكوكبة اللامعة من الأدباء اليهود الذين التفوا حول المجلة اليهودية «تعليق» . ويحدثنا فى هذا الكتاب عن الهوية

اليهودية معبرا عن شديد احترامه عن البيئة اليهودية الباكرة المتحدثة بلغة اليديش التى تربى فيها فى شرق أوربا غير أن اشاراته إلى ثقافة يهود اليديش الأدبية محدودة للغاية بسبب إنغماسه الكامل فى الثقافة الأمريكية باللغة الانجليزية ، فضلا عن أنه يهاجم موقف كثير من زملائه المذبذب وغير الواضح من الرجعية المكارثية كما أنه يعبر عن عظيم احتقاره وعدائه للمذهب الشيوعى .

وفى عام ١٩٦٦ جمع كازين طائفة مختارة من المقالات المنشورة فى مجلة «تعليق» تحت عنوان «قارئ مجلة تعليق» The Commentary Reader وقدم لها بمقال ناقش فيه موضوع «اليهودى ككاتب حديث . موضحا الدور الرائد الذى اضطلعت به هذه المجلة فى تعميق مفهوم الحداثة الأدبية . ويذهب كازين فى تقديمه لهذه المقالات إلى أن الجمهور الأمريكى أصبح مستعدا فى السنوات الأولى من القرن العشرين لتقبل اليهودى ككاتب أمريكى حديث ليس فى صحون الجامعات ولا فى الصحافة ولكن فى مسارح الفودفيل واللهو والضحك الرخيص وصالات الموسيقى والغناء ومسارح المهرجين وكتاب الأغانى اليهود . ومعنى هذا أن اعتراف الامريكان بحداثة اليهود فى مطلع القرن العشرين جاء أول ما جاء فى مجال الرخص والابتذال ، ولكن هذا الوضع

سرعان ما تبدل وتغير وذلك بعد أن هاجر عدد من اليهود المستنيرين الذين عانوا من الاضطهاد في الأحياء اليهودية في شرق أوربا إلى الأراضي الأمريكية حيث عاش الكاتب اليهودي المهاجر في مفترق الطرق الثقافية متأرجحا بين الحياة والموت . ولهذا كان من الطبيعي أن يشوب التوتر نظرة الرعيل من المهاجرين إلى الحياة . ولكن بحلول الثلاثينات من القرن العشرين أنجب جيل الآباء عددا من الكتاب اليهود الموهوبين الذين انتجوا أدبا دراميا وروائيا باقيا ، هؤلاء اليهود الموهوبون ساعدوا على خروج يهود أمريكا من شرنقة المحلية المحدودة الضيقة وعلى احتضانهم نظرة أرحب وأوسع تتجاوز يهوديتهم . وقد خرج جميع هؤلاء الموهوبين من عباءة مجلتي «بارتيزان ريڤيو» و «تعليق» ليسيطروا بعد نبذهم للأفكار الماركسية (التي اعتنقوها في بواكير حياتهم) على الجو الثقافي الأمريكي تاركين بصماتهم الواضحة فيه . يقول كازين في هذا الشأن : « يوجد الآن روائيون يهود استطاعوا أن يتقنوا أدوات الرواية الحديثة المعقدة ، وأن يكتبوا بلغة انجليزية حبيبة إلى القلب وهم يتمتعون بالقدرة الفائقة على امتلاك العواطف لدرجة أن اللغة والشكل والذكاء الفني أصبحت أشياء طبيعية بالنسبة لهم تماما كما كان ناموس موسى شيئا طبيعيا بالنسبة لاجدادهم» .

ليسلى فيلدر

على الرغم من أن الناقد اليهودى ليسلى فيلدر قد يكون أقل موهبة من أقرانه تريلنج وراهف وكازين فإن الفضل يرجع إليه فى إبراز دور المثقف اليهودى فى الحياة الأمريكية وهو يشبه زميله إرفنج هاو فى كثرة ما كتبه عن دور اليهود فى الأدب . وعندما نشر فيلدر مقالاته المجموعة Collected Essays فى جزء ين عام ١٩٧١ نراه يخصص ثلث أحد هذين الجزء ين لمناقشة الموضوعات اليهودية .

ولد فيلدر فى نيوجرسى عام ١٩١٧ واعتنق المذهب الشيوعى بتحمس شديد فى شبابه . ولكنه ما لبث أن نبذه بسبب محاكمات التطهير التى أجراها ستالين فى موسكو ، وأيضا بسبب معاهدة عدم الاعتداء التى عقدها هذا الديكتاتور مع الطاغية النازى أدولف هتلر عام ١٩٣٩ . ويبدو أن نبذه للشيوعية مرده حرصه على الاحتفاظ بجذوتها مشتعلة دون أن تصل إليها يد العطب أو الفساد . وهذا على أية حال ما يقوله الناقد الفريد كازين عندما قام بنقد كتاب فيلدر الصادر عام ١٩٥٥ بعنوان «نهاية البراءة» An End to Innocence.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كتب فيلدر فى مجلة «الكونجرس الأسبوعى » Congrass Weakly عن الصعوبات التى تعترض طريق المثقف اليهودى الذى يبغى العودة إلى حظيرة دينه، ويشكو فيلدر من أن اليهودية الأمريكية بوجه عام تمركز كل شئ فى الله مما لا يتفق مع مشارب اليهودى العائد إلى دينه والذى يرنو إلى الخلاص ويشتاق إلى «مجئ المسيح» اللذين يعتبرهما فيلدر أجمل شئ فى الديانة اليهودية على الاطلاق . ورغم أن رأى فيلدر هذا لا يتماشى مع الدين اليهودى التقليدى فإن فيلدر أقام علاقة طيبة مع المؤسسات اليهودية التقليدية بدليل ما سطره من مقالات فى عقد الستينات فى مجلة «اليهودية الأمريكية» American Judism.

وليس أن شك أن كتابات فيلدر الكثيرة عن وضع اليهود فى الأدب الأمريكى أثارت اهتمام الأدباء فى محافلهم وندواتهم ، وفى عام ١٩٤٨ أسهم فيلدر فى المناظرة التى عقدتها مجلة «البارتيزان ريفيو» بعنوان «حالة الكتابة الأمريكية » . وكان فى مقالته الوحيدة الذى دعا إلى ضرورة التوفر على مناقشة اسهام اليهود فى الأدب مبرزا أهمية كتابات كافكا . يقول فيلدر عن يهودية كافكا « إنها ليست مجرد صدفة عابرة ، فكلا اليهودى الحقيقى واليهودى المصنوع فى نسج الخيال (أى اليهودى الذى يظهر فى الأدب مثلما

يظهر على سبيل المثال فى رواية «يوليسيس» لچيمس جويس) يعطى الفترة الحالية مذاقها الخاص . ويشير فيلدر إلى جيل كامل من الكتاب اليهود فى سن الثلاثين تقريبا أمثال ديلمور شوارتز والفريد كازين وايزاك روزنفيلد وبول جودمان وشاؤول بيلو الذين يضربون المثل فى وقتنا الراهن على أن اليهودية شرط من شروط الفنان . فضلا عن أن ناقدنا كتب فى عام ١٩٤٩ مقالا مثيرا فى مجلة تعليق بعنوان : « ما الذى يمكن عمله بالنسبة لفاجين» . وفاجين كما نذكر هو رئيس العصابة اليهودى فى رواية ديكنز الشهيرة أوليفر تويست سلط فيه الضوء على ظاهرة العداء السافر للسامية الموجود فى التقليد الأدبى الانجليزى بل أيضا عند الكثيرين من كبار الأدباء المحدثين أمثال تى . س . اليوت وازرا باوند وشجعت هذه المقالة مجلة «تعليق» لعقد مناظرة خصصتها لمناقشة موضوع «الكتاب اليهودى والتقليد الأدبى الانجليزى» .

لن نجد من هو أكثر من فيلدر تقلبا وتغيرا فى أفكاره . ونحن نراه فى مقاله المنشور فى مجلة تعليق يتشبث باستحداث أسطورة جديدة كى يحارب بها الأسطورة القديمة المعادية لليهود والمتمثلة فى صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى أى أنه اتبع المثل القائل : «وداوها بالتى كانت هى الداء» ومن ثم سعى إلى القضاء على الأسطورة التى تصور اليهودى كشيطان رجيم ليستبدلها فى لغة

واضحة باسطورة نمطية جديدة مضادة ترسم لنا صورة اليهودى كفنان يعانى من الاغتراب مثلما فعل كافكا عندما صور اليهودى (ك) كفنان إلى جانب تصوير چيمس جويس لشخصية يلوم فى رواية يوليسيس .

وأيضا أولى فيلدر اهتمامه بفكرة Archetype أى النموذج الأول الذى لا يعتريه تبديل أو تغيير عبر العصور المتعاقبة . هذا النموذج لا ينتمى إلى أية حقبة تاريخية معينة بل إلى كل الأحقاب ومن ثم فهو يتجاوز التاريخ . ويتجلى مفهوم فيلدر عن هذا النموذج الأول فى كتابه المهم «الحب والموت فى الرواية الأمريكية» الصادر عام ١٩٦٠ الأمر الذى دعا الناقد والمؤرخ الأدبى روبرت أولتر Robert Alter المتخصص فى دراسة شخصية اليهودى فى الأدب إلى التعليق بقوله إن فيلدر بعدم اكتراثه بالتاريخ يتورط فى مجموعة من الأخطاء واساءة التفسير مثل اعتقاده أن شخصية يوسف التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس لها ما يقابلها فى العصر الحديث فى أعمال كل من فرويد وكافكا . ويفسر فيلدر تاريخ الرواية الأمريكية بأنه مجموعة من النماذج الباقية على مر الدهور والأزمنة يشوبها عيب خطير يتمثل فى أنها تتحاشى الخوض فى الجنس وتولى الموت شديد عنايتها ، وهكذا يطبق هذا الناقد على الرواية الأمريكية فكرتين جذريتين مستمدتين من علم النفس الفرويدى وهما الايروسى Eros أى شهوة الجنس والثانتوس Thanatos أى

الخوف المرضى من الموت . وقد كتب فيلدر كتابه الهام «اليهودى فى الرواية الامريكية» (١٩٥٩) فى ضوء هاتين الفكرتين .

ولم تقتصر كتابات فيلدر عن اليهود على الرواية بل امتدت إلى النقد الأدبى ، ورسم لنا فى هذا النقد سمة عامة تجمع بين جميع اليهود فى مشارق الأرض ومغاربها مفادها أن اليهودى بالضرورة انسان مغترب وفى عام ١٩٦٣ اشترك مع ثلاثة من الأدباء هم دافيد بوروف David Boroff وماكس ليرنر Max lerner وفيليب روث philip Roth فى حوار أمريكى إسرائيلى نظمه المؤتمر اليهودى الأمريكى حول معنى الهوية اليهودية من وجهة نظر المثقفين الغربيين ، وقدم فيلدر مفهومه لهذه الهوية فقال إنها بكل بساطة تتمثل فى شعور اليهودى بالاغتراب وأنه فى منفى فضلا عن أنه سوف يجد نفسه فى كل لحظة غريبا فى أى مكان يوجد فيه . ووافق فيلدر على تفسير روث القائل بأن اليهودى منشق بالضرورة ولكنه آثر القول إنه واجب اليهودى هو الشهادة الحق (ضد الجهل والخمول والتمييز العنصرى وانتهاك المثل وضد الرشوة والفساد . وينتقد بعض النقاد هذا المفهوم للهوية اليهودية ويرون أنه مفهوم دينى وأخلاقى وليس مفهوما عرقيا فهو لا يقيم وزنا للاختلاف العرقى الذى يتسم به اليهود عبر الزمن عن سواهم من البشر ، فضلا عن أنهم يرون أن الانشقاق ليس مقصوراً على

اليهود لأن فيهم من ينزع إلى الانشقاق وفيهم من ينزع إلى التماثل ، وهناك بطبيعة الحال وشائج من القربى تربط بين تحريض اليهودى بأنه الشاهد على الحق وبين انشقاقه البطولى عن البنية التى يعيش فيها ، ولهذا يقبل فيلدر الفكرة القائلة بأن اليهود شعب الله المختار ولكنه يستطرد قائلا إن المختار لا يتمتع بحق الاختيار لأنه محكوم عليه الادلاء بالشهادة الحق تحت كل الظروف ، والذى يعزز نزعة اليهودى إلى احقاق الحق هو أنه دائما أبدا مضطهد فى كل العصور ، والغريب أن ينسب شهادة الحق إلى اليهودى فقط دون خلق الله جميعا ويقول فيلدر إن شهادة الحق تقتضى من اليهودى الوقوف فى وجه تحيز الرجل الأبيض ضد الزنوج واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية . ويبدو أن شغل فيلدر الشاغل كان تحسين صورة اليهودى فى ذهن الأمريكان وتحبيبهم فى خصاله ، الأمر الذى دعا روبرت أولتر عام ١٩٦٨ إلى القول : « هناك مؤامرة مسكوت عليها تحاك فى السنوات الأخيرة من أجل زرع خصال يهودية متنوعة تدعو إلى الإعجاب بين الجمهور الأمريكى فى حين أن هذه الخصال الحميدة هى فى واقع الأمر سمات إنسانية عامة يتسم بها كل البشر» .

والجدير بالذكر أن اهتمام فيلدر الشديد بالدور الذى يلعبه اليهودى فى الأدب أخذ يخبو ويضمحل بانتهاء عقد الستينات .

إرفنج هاو

بالرغم من أن إرفنج هاو كان أصغر النقاد والأدباء اليهود سنا فقد كان نفوذه في الحياة الثقافية الأمريكية عميقا إذ أن الفضل يرجع إليه أكثر من غيره فى إبراز الدور الذى لعبه اليهودى فى الأدب الأمريكى الحديث ، فضلا عن أنه مسئول عن زيادة وعى الأمريكان بالتقاليد اليهودية الاجتماعية والثقافية .

ولد هاو فى مدينة برونكس بالولايات المتحدة عام ١٩٢٠ من أبوين مهاجرين فقيرين ، وذلك بعد مولد تريلنج بخمسة عشر عاما وكازين بخمسة أعوام وفيلدر بثلاثة أعوام . وقد جاء ت كتاباته عن اليهود كرد فعل للهولوكست أو الابادة النازية الجماعية لليهود مما زاده اقتناعا بفكرة إنشاء دولة لليهود ، وهو لم يكتف باستجلاء كتابات اليهود المعاصرين له بل كرس وقته كي ينقل إلى الجمهور الأمريكى جانبا من التراث الثقافى المكتوب بلغة البيديش التى يستخدمها اليهود فى روسيا وشرق أوربا ، الأمر الذى دعاه إلي الاشتراك مع شاعر البيديش اليزر جرينبرج Eliezer Greenberg فى نشر عدة مجلدات تحتوى على ترجمات انجليزية لأدب البيديش فى قصص وشعر ومقالات ومذكرات ويوميات الخ .. وفى عام ١٩٧٦ ظهر عشقه لأدب البيديش فى شكل كتاب ذائع

الصيت ألفه إرفنج هاو عام ١٩٧٦ بعنوان « عالم أجدادنا »
The World of Our Fathers.

قلنا إن رد فعل هاو ضد الهولوكست تمثل في عمله الدائب على إشاعة أدب البيديش بين اليهود وغير اليهود على حد سواء ، في حين انصرف غيره من الصهاينة في نشر الوعي بالأدب العبري ومصير الشعب اليهودي مثلما فعل روبرت أولتر الذي دفعه الإيمان بالمذهب الصهيوني إلى الاهتمام البالغ بنشأة دولة إسرائيل . والفرق بين أولتر وهاو أن الأول كان يدين بالصهيونية الخالصة في حين كان الثاني رغم يساريته ورفضه للصهيونية مدافعا قويا عن وجود الدولة الإسرائيلية .

وبسبب اهتماماته السياسية القوية تنوعت الموضوعات التي كتب فيها ارفنج مثل «تاريخ الحزب الشيوعي الأمريكي» (الذي ألفه بالاشتراك مع لويس كوزر Lewis Coser) وعلم الاجتماع والنظريات الاشتراكية إلى جانب سيرة حياة بعض الأدباء ، وفي عام ١٩٥٤ أسس مجلة «الانشقاق» Dissent اليسارية الليبرالية وكتب سيلا من المقالات الصحفية ذات الصبغة السياسية والاجتماعية إلى جانب طائفة من سير حياة الأدباء مثل «شيروود أندرسون» (١٩٥١) و«وليم فوكنر» (١٩٥٢) و«توماس هاردي» (١٩٦٧) ونبذة عن حياة تروتسكي (١٩٧٨) وحتى في أيام الطلب

بكلية بروكلين الامريكية اهتم إرفنج هاو بتحليل عقلية المثقفين اليهود المعاصرين له . وفى شهر سبتمبر ١٩٤٧ نشرت له مجلة «تعليق» مقالا مهما بعنوان: «المثقف الشاب الضائع: رجل مهمش يعانى من غربتين» ، يقول هاو في هذا المقال : «من الصعب أن يكون المرء يهوديا ومن الصعب أيضا ألا يكون كذلك. » ويضيف أن اليهودى فقد إحساسه بالاستمرارية التى كان أجداده يستمدون كيانهم منه. «هذا اليهودى يختلف عن جيل الآباء والأجداد الذين اقتصر طموحهم على إصابة النجاح المهنى فاليهودى الجديد ثائر وراديكالى يناهض الحياة البورجوازية . ثم أن اهتمامات اليهود الثقافية المتنوعة متفرقة الأمر الذى يعترض سبيل التواصل مع غيرهم. ومن المفارقة أن جيل المهاجرين الآباء أنفسهم يتغير بمضى الزمن فعندما يكبر الأولاد يكون الآباء قد بدأوا فى التأقلم على حياة المهجر والاندماج فيه. وهنا تظهر المفارقة فى أن أبناءهم الثائرين هم الذين يصبحون غرباء جدد» وقد رفض هاو اقتراح بعض اليهود الصهيونية كحل ومطالبتهم بالعودة إلى التقاليد اليهودية كبديل لهذه الغربة. فضلا عن أن نزعة هاو اليسارية تجعله يرفض فكرة التعليم اليهودى وإعادة بناء المجتمع اليهودى

والثقافة اليهودية باعتبارها أفكارا انغلاقية أو انعزالية تزيد من اتساع الفجوة التى تفصل بين اليهود والمجتمعات التى يعيشون فيها.

ويذهب هاو - دون أن يقول هذا صراحة - أن الحل لمشكلة الأقليات اليهودية يكمن فى المذهب الاشتراكى أى اقامة مجتمع أمريكى يندمج فيه اليهودى ، وعلى أية حال انتشرت هذه النزعة الثورية والراديكالية بين يهود أمريكا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة. وكما أسلفنا انتهى الأمر بهؤلاء اليهود الراديكاليين والثوريين إلى التصالح مع المجتمع الأمريكى عندما أتاح لهم هذا المجتمع الفرص الاجتماعية والمهنية والاقتصادية التى كانوا يتطلعون إليها. غير أن هاو ظل يستمسك بالمذهب الاشتراكى على عكس معظم زملائه الذين نبذوه من جماعة مثقفى نيويورك التى التفت حول مجلتى «بارتيزان ريفيو» و«تعليق» . وهما المجلتان اللتان أسهم هاو فيهما بمقالاته.

ويتضح لنا اهتمام هاو الشديد بموضوع اليهودى فى الأدب فى مقال آخر نشره فى أغسطس ١٩٤٩ فى مجلة «تعليق» تحت عنوان «الغريب والضحية هما نمطا الرواية الأمريكية» . ويتناول هذا المقال طريقة معالجة الكتاب اليهود على أيدى الكتاب اليهود

أمـثال ابراهـام كـاهـان Abraham Cahan وهنرى روث Henry Roth إلى جانب الكتاب غير اليهود المنتمين إلى عقد العشرينات. ويلاحظ هاو أن مـعظم الروائيين الأمـريكان ينكرون فى رواياتـهم على اليهودى «الحق الوحيد الذى يحتاج إليه اليهودى وهو وجوده كانسـان متكرر له فـرديته الخاصة به» . وفى عدد مجلة «تعليق» الصادر فى أكتوبر ١٩٤٩ أسـهم هاو بمقال حول الموضـوع الذى طرحته للمناقشة هذه المجلة بعنوان: «الكاتب والتقليد الأدبى والإنجليزى». ويتضح من مقاله أنه لا يتسـامح بالمرة مع معاداة السامية أيا كان مصدرها. ولكنه يرى أن عداوة الشاعر الانجليزى تشوسر للسامية لها بعض التبرير لأن تشوسر الذى عاش فى القرن الرابع عشر كتب فى جو تسيطر عليه المفاهيم المسيحية التى تناصب اليهودية العداء فى حين أنه ليس هناك مبرر على الاطلاق للعداوة التى يظهرها فى العصر الحديث درايزر وإليوت وباوند نحو السامية. ويعبر هاو عن ضيقه بالتقليد الأدبى الانجليزى الذى يقدم إلينا اليهودى بصورة كاريكاتورية. ويختتم هاو مقاله قائلا: «لا ينبغى أن تؤثر فينا أية أفكار عن سمو الأدب أو قداسة الفن فتمنعنا من التعبير عن مشاعرنا التلقائية المتأججة نحو الكتاب

المعاصرين الذين يسلمون أنفسهم بإرادتهم أو بغير إرادتهم لمعاداة السابقة».

أشرنا فيما سبق إلى أن هاو كان يتخذ مواقف فكرية وسياسية تختلف عن المواقف التى اتخذها عدد كبير من المثقفين فى مدينة نيويورك الذين هللوا مرحبين بفترة الرخاء والازدهار فى أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية كما رحبوا بسياسة الحرب الباردة التى اتبعتها الحكومة الأمريكية أنذاك مع الكتلة الشيوعية الشرقية. وكما أشرنا من قبل تخلى معظم المثقفين اليهود الملتفين حول مجلتى بارتيزان ريفيو وتعليق عن ايمانهم الباكر بالاشتراكية وأصبحوا يضمرون العداء المتأجج للدكتاتورية الستالينية . ولكن هاو رفض أن يحذو حذوهم وظل يحتفظ بإيمانه بضرورة الاشتراكية منتقدا المكارثية بسبب اثارتها للديماجوجية والغوغائية فى عداء الأمريكان ضد الشيوعية. فلا غرو إذا رأيناه يعبر عن رفضه للسياسة الأمريكية القائمة على الحرب الباردة، ويعبر عن هذا الرفض فى المناظرة التى عقدتها مجلة «بارتيزان ريفيو» عام ١٩٥٢ بعنوان «بلدنا وثقافتنا» وأولى غالبية زملائه من المثقفين ممن أسهموا بأقلامهم فى تحرير البارتيزان ريفيو ظهورهم للاشتراكية ونددوا بها مكرسين كل طاقتهم للهجوم على أخطار

الثقافة الجماهيرية التجارية. وأنحى هاو باللوم عليهم واتهمهم بأن مقتهم للستالينية فاق مقتهم لنشوب حرب ثالثة. وأكد هاو استمساكه بالماركسية: «إن الماركسية تبدو لى أفضل الطرق لصنع التاريخ وفهمه» . كما أنه هاجم المكارثية لما تنطوى عليه من خطر على الحريات المدنية على عكس معظم أقرانه الذين ارتضوا بها . وفى العدد الصادر في يناير - فبراير ١٩٥٤ فى مجلة «البارتيزان ريفيو» شن هاو هجوما عاتيا على المثقفين الأمريكان الذين يقبلون المجتمع الأمريكى على علاته . وقد ضمن هاو نقده هذا فى مقال بعنوان «عصر التماثل» The Ag of Conformity . ثم أنشأ فيما بعد مجلة «انشقاق» التى دافع فيها عن المذهب الاشتراكى الذى فهمه على نحو يكتنفه الغموض .

استمر ارفنج هاو فى تأليف الكتب والمقالات الأدبية إلى جانب اهتمامه بالموضوعات ذات الطابع الاجتماعى والسياسى وبالدور الذى يلعبه اليهودى فى الحياة العصرية وخاصة فى الأدب الأمريكى الحديث. ولم يقم هاو وزنا للمعايير الشكلية والجمالية التى وضعتها مدرسة النقد الجديد والتى تتناول الأعمال الأدبية فى سياق اجتماعى وتاريخى مما يذكرنا بالأسلوب الماركسى فى

معالجة الأدب ، ولكن تحليله للظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى نشأت فيها الأعمال الأدبية لم يكن بعمق واتساع ودقة وتفصيل النهج الماركسي التاريخى والاجتماعى للمصادر التى تستمد الأعمال الأربعة جذورها. ويعتبر كتابه «السياسة والرواية» (١٩٥٧) Politics and the Novel من أبرز مؤلفاته النقدية. ويبدو أن عقد الستينات شاهد تغيرا فى موقفه الراديكالى وفى مشاعره المائلة إلى اليسار الجديد. فهو لم يعد يحمل له نفس حماسه السابق لهذا اليسار. ومعنى هذا أن عداوته للطبقة الوسطى بقيمها المادية ورضائها عن النفس خفت حدتها عن ذى قبل. ويتضح لنا تغيره هذا من المقال الطويل الذى كتبه فى مجلة «انشقاق» بعنوان أساليب جديدة فى المذهب اليسارى» New Styles in Leftism ، وقد لاحظ الناقد البريطانى اليسارى الكبير راموند وليامز Raymond Williams هذا التغير أثناء عرضه لكتاب هاو «العمل الجاد الدءوب» Steady Work فى مقال كتبه بعنوان «مقالات حول السياسة الراديكالية الديموقراطية منذ عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٦.. يقول راموند وليامز إنه كان يتوقع من كتاب هاو أن يدافع عن المذهب الاشتراكي والراديكالى الذى ينتقد عيوب

المجتمع الأمريكي. ولكن اتضح له أن مساحة مثل هذا النقد الوارد في الكتاب محدودة للغاية وأن المؤلف يخصص صفحاته للهجوم على جماعة اليسار الجديد.

ويتضمن كتاب هاو «عالم آبائنا» المنشور عام ١٩٧٦ (الذى يدل على تمكنه من انتهاج المنهج الاجتماعي فى النقد الأدبى) تحية تقدير وولاء لأجداده يهود أمريكا الذين انحدر من صلبهم. ومما زاد من شعوره بأن الواجب يحتم عليه مثل هذا الولاء اعتقاده بأن مجتمع البيديش ولغته ليس لهما أى مستقبل يبشر بالخير. ولكن يبدو أن اعتقاده هذا ليس له نصيب من الصحة فقد استمر الاهتمام بلغة البيديش لعدة أجيال لاحقة. والحدير بالذكر أن هاو استعان بزميل له يدعى كنيث ليبو Kenneth Libo وبثلاثة عشر معاونا له فى كتابه هذا السفر الضخم الذى يبلغ سبعمائة صفحة. وأصاب هذا الكتاب نجاحا عظيما ففاز بجائزة بولتزر فى التاريخ وطبقت شهرته الآفاق الأمريكية. ويتتبع هاو فى كتابه اضمحلال ثقافة البيديش فى الولايات المتحدة الأمريكية بسبب طغيان الثقافة الأمريكية عليها. والكتاب مكتوب من منظور اشتراكى وعلمانى ومن وجهة نظر اليهود المهاجرين إلى أمريكا.

يقول هاو فى مقاله «الروائيون اليهود الأمريكان» إن الانتاج

الأدبى اليـهودى منذ عقـد الثـلاثينات اتسم بالمحلية شـأنه فى ذلك شـأن الكتـابات التى دبجـهـا كتـاب الجنوب الأمـريكى وأن نفس الشـىء كـان مصـيـر ثقـافـة الجنوب الأمريكى التى تفككت وتحللت بسـبب انتشـار التـصـنيع فيه. ويذهـب هـاو إلى أن التطور اليـهودى أثرى اللغة الانجليزية بفضـل تأثير أسـاليب الييديش فيها، وتأثر لغة الييديش بالانجليـزية خلقا وأسلوبا نثريا أمـريكيا جـديدا ومدهشـا» وقد عالج هـاو هذا الموضـوع باستفاضـة فى مقـال بعنوان «غربـاء» Strangers صدر به كتاب «احتفـالات وهـجمات! ثلاثون عاما من التعليق الأدبى الثقـافى» (١٩٧٩) . ويضم هذا الكتـاب بين دفتيه طائفـة من المقـالات القـصـيـرة التى سطـرها هـاو فى الفـتـرة بين الأربعينات والسبعينات . ويذكر أن الكاتب اليهودى الحديث يشعر بأن فـحـول الأدب الروسـى أمثـال ليـو تولسـتـوى وايفـان تورجنيف وتشيكوف أقرب إلى قلبه من التقليد الأدبى الأمريكى الفردى الذى أرسـاه رالف والده إمـرسـون Ralph Waldo Emerson ووالت ويتمـان Walt Whitman ويقـول إن الكـاتب اليـهـودى الأمـريكى استمد كتاباته من ماضـيه لأن هـذا الماضـى هو الشـىء الوحيد فى أمريكا الذى يعرفه عن كثب معرفة وثيقة ويمكنه أن يسبر أغواره . ويرى أن الكاتب اليهودى الأمريكى يفتقر إلى معرفة ثقافة الييديش

معرفة جيدة . بل أن صلته بلغة اليديش التي كان أسلافه يستخدمونها في بلادهم الأصلية اعتراها الضعف والوهن. ولهذا بدأت أنظارهم تتجه شطر البنية الأمريكية والمجتمع الأمريكي بوجه عام. وأيضا اقتصرت تجاربهم وخبرتهم على الحياة في الحضر الأمريكي وليس في الريف الأمريكي وعلى معرفتهم الوثيقة بظروف بيئتهم الامريكية وما ورثوا عن آبائهم وأجدادهم المهاجرين من عادات وتقاليد. وهكذا استطاع الكتاب اليهود بموهبتهم الأدبية أن يدخلوا صوتا جديدا على لغة الرواية وتعميق عنصر السخرية الفذة فيها. ومن ثم استحدث هؤلاء الكتاب اليهود الأمريكان أسلوبا أمريكيا جديدا في الكتابة تمتزج فيه السخرية الروعة بالعواطف المفرطة بدون ضابط أو رابط وبالحكمة النابعة من قاع المجتمع ، وأيضا بآثار التعليم الجامعي العالي الذي حظي به جيل اليهود الأبناء . ويذهب هاو إلى أن التجديدات الأسلوبية التي استحدثها في الأدب الأمريكي كل من الكاتبين الأمريكيين همنجواي وفوكنر ترتبط ارتباطا وثيقا بالكتاب والمؤلفين اليهود والأمريكان. والرأي عنده أن أسلوب الروائي اليهودي شاؤول بيلو أفضل مثل يمكن أن يساق على عمق الأثر اليهودي في الأدب الأمريكي.

٤ ـ أدب الاغتراب

ديلمور شوارتز

تعتبر القصة التى نشرها ديلمور شوارتز في أول عدد صادر من مجلة بارتيزان ريفيو فى شهر ديسمبر عام ١٩٣٧ بعنوان «فى الأحلام تبدأ بالمسئوليات In Dreams Begin Responsibilites رمزا يشير إلى ظهور الجانب الخلاق الذى مارسه يهود أمريكا فى تأليف القصص وقرض الشعر. أصبح شوارتز بين ليلة وضحاها الرائد الذى مهد الطريق لبزوغ عقلية جديدة وأدب جديد. مزج شوارتز فى أدبه بين نفض الأوهام والاستيقاظ إلى الحقيقة السياسية من ناحية وبين مذهب الحداثة الوجودى من ناحية أخرى. فضلا عن أنه أفضل من عبر عن روح الجيل الثانى من اليهود المهاجرين إلى أمريكا. ذلك الجيل الذى تأرجح وتذبذب بين أصوله العائلية اليهودية وبين بيئته الجديدة فى أرض المهجر ، ومهما قيل عنه فليس هناك أدنى شك فى ريادته للأدب اليهودى الأمريكى الذى دار حول اليهودى كشخصية محورية.

ولد شوارتز فى بروكلين بأمريكا عام ١٩١٣ من الطبقة الوسطى. ولم يعرف أبواه طعم السعادة فى حياتهما الزوجية. وكان والده وهو زير نساء رجل أعمال ناجح انفصل عن عائلته عندما كان ابنه فى الثامنة من عمره . وترك الشقاق بين والديه

ندوبا عميقة فى نفسه لم تنجح الأيام فى شفائه منها. ويتضح لنا هذا بجلاء فى قصته «فى الأحلام تبدأ المسئوليات» . ورغم أن الروح العامة التى شاعت فى مجلة بارتيزان ريفيو فى فترة الثلاثينات اتسمت بالتفاؤل والاستبشار خيرا بالمستقبل فإن الأدب المتشائم الذى أنتجه ديلمور شوارتز كان نغمة نشازا فى هذا الجو المتفائل. وهو على أية حال لم يكن الكاتب الوحيد آنذاك الذى غمر التشاؤم كتاباته. فقد ألف روبرت م. آدمز Robert M Adams عام ١٩٦٦ كتابا عن العبث الوجودى واليأس من الحياة وفراغها بعنوان «العدم: حكايات عن انتصار الفراغ فى ميدان الأدب فى القرن التاسع عشر».

Nil : Episodes in the Literary Conquest Of Void in the Nineteeth Century

يقول آدم فى كتابه «إن الفراغ أصبح يسكننا - كما تسككننا الأرواح والعفاريت فى مجالات الفن والأدب والعلم والثقافة بوجه عام. ويتتبع المؤلف وجود هذا الفراغ فى كثير من الكتاب أمثال نوفاليس Novalis ودى كوينس De Quincey وفلوبرت وبودلير ومالارميه وعند رواد الحداثة فى أمريكا أمثال ادجار آلان بو Edgar Allen Poe وهيرمان ميلفيل Melville . ومن نافلة القول أن تحليل آدمز يمكن أن ينطبق على الكثير من أعلام الحداثة فى

أوربا فى القرن العشرين أمثال كافكا وييتس و ت. س. إليوت وإزرا باوند وفاليرى. ولا ريب أن شوارتز مزج الظروف التعسة الخاصة التى نشأ فيها بظروف المجتمع الأمريكي العامة وعدم ارتياحه عن نشأته اليهودية فى مجتمع لا يحمل الود لليهود ، حيث خالط جماعة من المثقفين اليهود الراديكاليين النابهين الناقدين للمجتمع الأمريكى في فترة الكساد العظيم. وتنبه شوارتز الذى تأثر بالفكر الماركسى إلى تمرغ التجربة السوفيتية فى وحل الطغيان الستالينى الأمر الذى أفضى به إلى مكابدة الاغتراب. ومن المؤكد أن شعر ت. س. إليوت وخاصة قصيدته المعروفة «الأرض الخراب» عمقت فيه الشعور بالاغتراب . فلا غرو إذ أصبح نبى الاغتراب فى عالم الأدب الأمريكى.

احتضنت جماعة البارتيزان ريفيو - التى كان شوارتز أحد أعمدتها - فكرة الاغتراب كمظهر من مظاهر الحداثة فقد أحس بهذا الاغتراب كل من اليهوديين فرانز كافكا ومارسيل بروست إلى جانب شخصية بلوم التى رسمها جيمس جويس فى روايته «يوليسيس». وقد عبر شوارتز بجلاء عن فكرة الاغتراب فى مسرحيته القصيرة «شننندوه Shenendoah التى تدور أحداثها حول طقس مهم للغاية عند اليهود هو طقس الختان الذى اعتبره

شوارتز بمثابة علامة تدل على أن اليهود هم شعب الله المختار وأن الله قد اصطفاهم من أجل التجوال والغربة.

وقد عبر الشاعر شوارتز عن أفكاره عن الاغتراب فى قالب نثرى عام ١٩٤٤ فى المقال الذى أسهم به فى المناظرة التى تحمل عنوان «تحت سن الأربعين» وهو فى ذروة مجده الأدبى وريادته للحداثة فى أمريكا حيث استقبل الأمريكان مجموعته القصصية «فى الأحلام تبدأ المسئوليات» (١٩٣٨) بالتهليل والتكبير وحظى بتقريظ لم يحظ به شاعر آخر منذ ظهور الشاعر الانجليزى المعروف أودين. وفى عام ١٩٤٣ ألف شوارتز قصيدة طويلة ضمنها سيرته الذاتية اعتبرها بعض النقاد أهم أعماله. وعندما كان شوارتز يحاضر فى الأدب الانجليزى بجامعة هارفارد عام ١٩٤٤ مزج بحسم وقوة يهوديته بالاحساس بالاغتراب الذى أسهم به فى المناظرة المشار إليها. يقول شوارتز فى هذا الشأن. «شاهدت فى يهوديتى رمزا رئيسيا للاغتراب .. كدلالة على الحياة الحديثة».

ويذهب شوارتز إلى أن احساس اليهودى بالاغتراب يعود إلى تأرجحه بين عالمين: العالم اليهودى الذى ينحدر منه والعالم غير اليهودى الذى يعيش فيه. فرغم أن اليهودى يتأقلم بمرور الوقت

على العالم غير اليهودى الغريب عنه فإنه يستحيل عليه الانصهار فيه مائة فى المائة. ومن ثم فإن انتماءه إلى كلا العالمين انتماء هامشى على حد تعبير علماء النفس. والكتاب اليهود فى أمريكا دون سواهم مؤهلون للتعبير عن هذه الغربة بفضل وجودهم الهامشى فى المجتمع الأمريكى وتأرجحهم بين مجتمع المولد ومجتمع التربية والنشأة والتعليم. فهؤلاء اليهود يفوقون غيرهم فى شدة حساسيتهم الى انتمائهم الهامشى إلى كل من هذين العالمين. وهذه التجربة اليهودية القائمة على الاغتراب لها ما يقابلها على الصعيد الفلسفى فى المذهب الوجودى الذى شاع فى اتجاه أوربا عقب الحرب العالمية الثانية وهو المذهب الذى دعا إليه كل من الفيلسوفين كير كجارد وجان بول سارتر. وهكذا تآلفت واجتمعت عدة عناصر بعد الحرب العالمية الثانية من أجل العمل على انضاج الأدباء اليهود من الجيل الثانى أمثال ديلمور شوارتز الذى سطعت موهبته ليحمل لواء الوجودية فى الحياة الثقافة الأمريكية.

إن شوارتز لم ينس يهوديته فى أى يوم من الأيام ويبدو أنه لم يتعرض إلى أى اضطهاد أو سوء معاملة بسببها فى مدينة نيويورك حيث أمضى شبابه. ويبدو أيضا أن استمساكه بيهوديته آنذاك كان بالنسبة له مسألة كرامة لا أكثر ولا أقل. ومع ذلك فهو

يخبرنا فى «تكوين» Genesis أنه تعرض لمضايقات فى طفولته بسبب يهوديته. وعلى أية حال يمكن القول إن حساسيته إلى جذوره اليهودية تعود إلى الفترة التى أعقبت مغادرته لمدينة نيويورك لاستكمال دراسته وخاصة فى فترة التحاقه بجامعة هارفارد التى تخرج منها ليعمل مدرسا فى عقد الثلاثينات. وفى عام ١٩٣٩ عاد شوارتز إلى جامعة هارفارد لتدريس الانجليزية فيها.. وهناك ساءه ما لاحظه من مظاهر معاداة السامية وبالغ فى تضخيمها . ومما عمق شعوره بالغربة فى جامعة هارفارد ضآلة أعداد الطلبة اليهود الملتحقين بها. ويذكر جيمس آتلاس James Atlas كاتب سيرة حياته أنه تعذب كثيرا فى جامعة هارفارد بسبب يهوديته.

ورغم شدة اعجابه بشعر ت. س. إليوت فإنه استشاط غضبا بسبب ما تضمنه هذا الشعر من عداء سافر لليهود. ووصف شوارتز هذا العداء بأنه شىء مروع وفظيع. يؤكد جيمس أتلاس أن شوارتز ظل يذكر على الدوام كراهية إليوت ضد اليهود. وهو ما يقرره بكل صراحة فى كتابه الذى لم ير طريقه إلى النشر عن إليوت. ولم يغفر شوارتز لاليوت أنه قال فى كتابه «بحثا عن آلهة غريبة» After Strange Gods ونحن نجد فى المجتمع الصالح أن

العقل والدين يسعيان إلي القول بأن الزيادة الكبيرة فى أعداد اليهود الملاحدة شيء شاذ وغير مرغوب فيه على الاطلاق. «ورغبة منه فى الثأر من ت. س. إليوت لهجومه على اليهود نراه يشدد النكير على طائفة الكاثوليك الانجليكان التى تحول إليها إليوت بعد أن اهتدى إلى المسيحية الحقة . وأيضا ضاق شوارتز ذرعا بالصورة النمطية الكريهة لليهود كما رسمتها كل من أديث وارتون Wharton Edith فى كتابها «منزل من المرح» House of Mirth والروائي الكبير هنرى جيمس فى كتابه «المنظر الأمريكى» The American Scene بل أنه اعتبر هجوم هنرى جيمس على الأمريكان بمثابة قذف وسب شخصى ضد والديه اليهوديين اللذين عاشا آنذاك فى نفس المنطقة التى كتب عنها هنرى جيمس. زد على ذلك أن الغضب العارم اجتاحه بسبب اشارات الشاعر إزرا باوند المعادية لليهود التى ضمنها كتابه «المرشد عن كلثور» (١٩٣٨) Guide to Kulcher لدرجة أنه كتب رسالة إلى إزرا باوند يقول فيها إنه تراجع عن الاعجاب به ولم يعد يعترف بأستاذيته عليه.

ورغم كل هذا فلا مناص من الاعتراف بأن شوارتز استطاع أن يتذوق الأعمال الخلاقة رغم ما تتضمنه من هجوم على اليهود. وشوارتز على أية حال لم يستخدم بوضوح موضع معاداة السامية

فى مؤلفاته القصصية باستثناء قصة واحدة هى قصته التى تحمل عنوان «مهزلة مريرة» A Bitter Farce. وفيها يشير المؤلف إلى تفشى معاداة السامية بشكل واضح بين طلبة جامعة هارفارد وأنهم عبروا عن هذا العداء دون مداراة فيما سطروه من مقالات وموضوعات الانشاء أثناء الحرب العالمية الثانية.

ويدرك شوارتز أن كل قصصه وشعره يتضمن عنصر اليهودية بصورة حيوية على نحو ما . وهو لا يفتأ يردد أن وضع اليهود جعل منه رمزا جاهزا للاغتراب فى المجتمع الحديث. وفى عام ١٩٥١ نشر شوارتز فى مجلة الشعر Poetry مقالا بعنوان «حرفة الشاعر فى العالم الحديث» The Vocation of the Poet in the Modern World اعترف فيه بالأثر الكبير الذى تركه صديقه المؤرخ الناقد ماير شابيرو Meyer Schapiro على مفهومه للشعر. وشوارتز شديد الاقتناع باغتراب الشخصية اليهودية وعدم امكانية تحطيمها. فهى صلبة كالحجر الصوان واليهودى مغترب عن بلده وعن نفسه. ورغم هذا فهو يظل على قيد الحياة فى مواجهة قوى التاريخ العاتية الجبارة المدمرة. ومن ثم يجب أن يكون الشاعر مستعدا للاغتراب والصمود أمام قوى الفناء فى مستقبل مروع لا يمكن التنبؤ به. ونحن نراه يدرك كآبة هذا

المستقبل فى وقت باكر يرجع إلى عام ١٩٣٨ وهو العام الذى يشهد اكتساح النازية الألمانية لما عداها من قوى سياسية. وتتضمن قصته القصيرة «ليلة رأس السنة» هذا الإدراك المبكر لكآبة المستقبل ، وتروى لنا هذه القصة وضعا للاحتفال الذى تقيمه مجموعة من محررى مجلة «بارتيزان ريفيو» بمناسبة قدوم عام ١٩٣٨ التى قال المؤلف عنها متشائما: «لم يكن أحد يعرف أنه فى تلك السنة سوف تعقد معاهدة ميونيخ المستسلمة المخزية. ولكن كل الناس كانوا يدركون أن حربا جديدة سوف تندلع عن قريب بسبب إيمان جماعة من البشر العزل وغير المهتمين بالله ، وأيضا بضرورة إقامة مجتمع عادل لدرجة أنهم كانوا على استعداد لأن يدفعوا من أجل إقامته الثمن غاليا» . ولم يخف شوارتز فى قصته السبب المزدوج فى اغترابه فهو نهبة شعورين: شعور بما يتهدد العالم من مخاطر الفناء وشعور بأن أحلامه فى الاتحاد الاشتراكى كقوة اشتركية قد تبددت.

ولعلنا نتساءل ماذا تعنى اليهودية بالنسبة لديلمور شوارتز وبالنسبة لمعظم أبناء الجيل الثانى من اليهود المهاجرين إلى أمريكا. هذه الهوية اليهودية قامت فى الأغلب الأعم على عدم تأقلم اليهود الكافى مع بيئة بلاد المهجر. فضلا عن عدم التزامهم بديانة

المولد اليهودية إلى جانب عدم اهتمام الجيل الثانى من اليهود بمعرفة حقيقة الدين اليهودى والتاريخ اليهودى. وبمعنى آخر إن يهوديتهم أقرب ما تكون إلى الشكل منها إلى الجوهر والمضمون. فهى يهودية قائمة على مجرد مراعاة العادات والتقاليد والطقوس اليهودية. هذه هى يهودية ديلمور شوارتز ولكن الشىء البارز الذى أثار اهتمام أديبنا فى حياة اليهودى الأمريكى هو أنه يستخدم اللغة الانجليزية على نحو خاص. ويتضح لنا هذا الاهتمام اللغوى بجلاء من قصته «أمريكا أمريكا» America America التى تعالج صعود عائلة يهودية السلم الاجتماعى وطريقة استخدامها للغة الأمريكية. ونلاحظ فى هذه القصة أن مشاعر مؤلفها تتأرجح بين نقيضين هما الشعور بغربته عن عالم اليهود وشعور مضاد بأن عرى التلاحم التى تنفصم تربطه بهم فهو يشاركهم نفس الهواء الذى يتنفسونه والعصر الذى يعيشون فيه والعذاب الذى يكابدونه. وهكذا يجد المؤلف نفسه نهبا مقسما بين ثقافتين. ثقافته اليهودية المولود فيها وهى ثقافة موروثة ليس له أى يد فيها وثقافة أخرى فى اختياره هى ثقافة الحداثة الأثيرة إلى فكره ووجدانه . ويمكن القول إنه قبل يهوديته فى سلبية فى حين أنه بذل جهدا إيجابيا من أجل توسيع رقعة الثقافة الحديثة الوافدة عليه.

وتتميز قصص ديلمور شوارتز بقدرته على تصوير خصيصتين

يهوديتين يتصف بها اليهود المنتمون إلى الطبقة الوسطى. وهاتان الخصيصتان هما بيئة اليهودية نصف المتأقلمة مع الحياة الأمريكية وثقافة الجيل الثانى من اليهود الشبان المغترب عن المجتمع الأمريكى. وكما أسلفنا تعكس قصته التى ألفها عام ١٩٣٥ بعنوان «فى الأحلام تبدأ المسئوليات» إحساسه العميق بالاغتراب فى حين أن قصته «أمريكا أمريكا» تعكس التناقض أو التضاد فى موقف المثقف اليهودى المنتمى إلى الجيل الثانى من روابطه اليهودية وتأرجح هذا الجيل بين الانتماء ليهوديته وعدم الانتماء إليها . فضلا عن أن قصته «الطفل هو المعنى فى هذا الحياة» The Child is the Meaning of this life ترسم صورة بلا رتوش تنتقد عددا من أسرة المؤلف وعلى رأسها عمه. وهكذا يتضح لنا أن شوارتز استمد مادة أفضل قصصه من تجاربه الشخصية كشاب يهودى صغير السن. والجدير بالذكر أن قصته «العالم زفاف» The World is a wedding تتسم بالتهكم والسخرية وتحتوى على احساس عميق بالاغتراب . ولهذا اعتبر المثقفون المغتربون فى أمريكا ديلمور شوارتز لسان حالهم وممثلاً لهم فى ميدان الأدب. وقد ظل مؤلفنا يشعر بالضيق من اسمه الأول «ديلمور» ويشعر بالتناقض بين هذا الاسم الأنجلو ساكسونى واسم عائلته اليهودى القح شوارتز.

ولا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا أهمية ديلمور شوارتز كشاعر إلى جانب أهميته كناثر فقد استطاع أن يقف في صدارة الشعر الأمريكي وهو لا يتجاوز الخامسه والعشرين من عمره. ويلقى ديوانه المنشور إبان الحرب العالمية الثانية بعنوان «التكوين: الكتاب الأول» الضوء على حياة عائلته منذ أن كان جده يعيش في روسيا حتى هجرته إلى أمريكا حيث تلقى مؤلفنا حتى سن السابعة العلم في إحدى المدارس الالزامية الأمريكية ، ونحن نرى الشاعر شوارتز في قصيدة بعنوان «القلب الذى يكرر» (١٩٣٨) The Repetitive Heart تستلهم أصله اليهودى بقدر ما تستلهم أساطير الأغريق. والقصيدة لا تشير كثيرا إلى يهوديته كطفل في حين أن تكثر من الاشارات إلى يهودية جده وأبويه . وعلى أية حال يذكر أديبنا أن زملاءه تلاميذ الحضانة، تكاثروا عليه وصاحوا في وجهه «يهودى.. يهودى» ولكنه استطاع في حياته اللاحقة أن يتجاوز هذه المضايقات الشخصية ليعبر عن الاغتراب الأمريكي كله وليس فقط الاغتراب اليهودى . والقصيدة مزيج من الشعر الحر والفقرات النثرية القصيرة . ويردد أبيات الشعر في هذه القصيدة كورس من الأشباح التى تعلق على الأحداث مثلما يفعل الكورس في الدراما الأغريقية ومثلما يفعل الشاعر والروائي الكبير توماس هاردى في قصيدته المعروفة «العائلات المالكة» The Dynasts.

ويشير النقاد إلى أن موهبة شوارتز الأدبية قد تخلت عنه وأن طاقاته الابداعية جفت ينابيعها في حياته اللاحقة. فبعد أن حمل مشعل الشعر في عقد الثلاثينات جف الهامه الفنى بشكل واضح في عقد الخمسينات إلى أن توفاه الله عام ١٩٦٦ وهو في الثالثة والخمسين من عمره . وينسب الدارسون جفاف موهبته إلى انكفائه على ذاته واستغراقه منها إلى جانب الاهتزاز الذى أصاب عقله. ويذكر كاتب سيرة حياته جيمس أتلاس أنه رغم قلة انتاجه المنشور فقد خلف وراءه بعد مماته عددا كبيرا غير منشور وغير مستكمل من المؤلفات: ورغم أن مؤلفاته الأدبية الباقية على مر الزمن قد تكون محدودة فإنه يعتبر بحق رائد «النهضة اليهودية» فقد فتح الطريق أمام الكتاب اليهود في أمريكا كى يحتلوا مركز الصدارة فى الثقافة الأمريكية. وفى عام ١٩٥٠ نشرت مجلة «تعليق» مقالا افتتاحيا عنه وهو فى ذروة مجده الأدبى يلقى الضوء على الدور المهم الذى اضطلع به فى صياغة الثقافة الأمريكية. يقول المقال: «إن ديلمور شوارتز يعتبر أهم أديب يمثل جيل المثقفين اليهود فى عقد الثلاثينات . فلا يوجد شاعر أو روائى آخر يتفوق عليه فى رسم صورة الصراعات الداخلية التى ابتلى بها هذا الجيل ضد أمريكا وضد ذاته».

إيزاك روزنفيلد

بالرغم من أن الأديب إيزاك روزنفيلد Isaac Rosenfeld لم يتمتع بنفس شهرة ديلمور شوارتز فإنه اضطلع بدور مهم في ريادة الأدب الأمريكي . لم يكن روزنفيلد أصلا من مدينة نيويورك التي لعبت دورا طليعيا في ريادة الأدب الأمريكي فقد جاء إليها في عام ١٩٤١ وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، مما يؤكد أن الحداثة الأدبية التي جاءت على أيدي الأدباء اليهود بعد الحرب العالمية الثانية انبثقت من الحضر وليس من الريف الأمريكي . توفي روزنفيلد في وقت باكر لا يتجاوز الثامنة والثلاثين . وبمجرد وصوله إلى نيويورك بادر الأدباء بالاعتراف به ممثلا لجماعة المثقفين اليهود الشبان الذين ترعرعوا في مدينة نيويورك .

اتصف روزنفيلد بالجاذبية واعترف بجاذبيته صديقه الحميم الروائي اليهودي شاؤول بيلو على مدى خمسة وعشرين عاما كما اعترف بقدرته على التأثير فيمن حوله إذ كان يتمتع بقوة هائلة على التأثير في الناس . ويبدو أن انصرافه الى كتابة الافتتاحيات الصحفية منعه من تكريس كل وقته للكتابة الأدبية عن محنة البشر. جاء روزنفيلدالى نيويورك لأن جامعتها أعطته منحة علمية لدراسة الفلسفة وبعد مضي عام واحد في نيويورك تم تعيينه محررا لمجلة

«الجمهورية الجديدة» New Republic حيث بقي في وظيفته لمدة سنة واحدة فقط . وفي عام ١٩٥٢ غادر مدينة نيويورك ليعيش في قرية جرينتش ويؤلف القصص القصيرة ومراجعة الكتب . وقد ألف عام ١٩٤٦ روايته الناجحة «رحلة بعيدا عن البيت» Passage From Home . وبعد أن أمضى عامين في التدريس بجامعة منيسوتا عاد إلى شيكاغو حيث توفي عام ١٩٥٦ . وبعد وفاته ظهرت في الأسواق مختارات من مقالاته ومراجعاته للكتب تحت عنوان «عصر الفظائع» «١٩٦٢» Enormity An Age of ثم مجموعته القصصية «البداية والنهاية» «١٩٦٦» Alpha and Omega . .

تميزت جميع مؤلفات روزنفيلد بتحليل مشاعر الإنسان وأنشطته الداخلية سواء كانت من النواحي الفكرية أو العاطفية أو الأخلاقية . ولم تكن هذه الأعمال تخلو من السخرية والفكاهة . ورغم أنه لم يلتجيء للدين اليهودي فإنه كان شديد الادراك له والوعي به . وتنم قصصه القصيرة عن حساسية شبيهة بما يظهره أدب كافكا من حساسية . ولهذا لقبه الشاعر ديلمور شوارتز بكافكا أمريكا . وهو يشبه كافكا في تعبيره عن محنة الإنسان الحديث في عصر التصنيع . ويذكر شاؤول بيلو أنه لم يكن يفهم

السياسة بمعناها الضيق أى فى شكل أحداث جارية . ولكن هذا لم يمنع من أن تكون له توجهات سياسية بالمعنى العام والعريض ولا غرو فقد اضطرته ظروف الكساد العظيم الذى اجتاح العالم فى الثلاثينات أن يهتم بالسياسة ويتبنى الأفكار التروتسكية . غير أنه مالبث أن تخلى عنها . وقد ساهم الشتات الذى عانى منه الشعب اليهودى على مدار ألفى عام والإبادة الجماعية لليهود على أيدى النازيين وأحداث الحرب العالمية الثانية إلى اقتناعه باغتراب الإنسان الحديث وخاصة اغتراب اليهود .

عبر روزنفيلد ـ شأنه في ذلك شأن شوارتز ـ عن احساسه العميق بالاغتراب فى المناظرة التى عقدت عام ١٩٤٤ تحت عنوان «دون سن الأربعين» . ويشير روزنفيلد فى هذه المناظرة الى شدة وعى اليهودى بيهوديته بسبب حزنه على وجود فروق عرقية ودينية تعزله عن الآخرين الأمر الذى يشكل صعوبة خاصة أمام الفنان اليهودى الذى يحس بأن الآخرين يطالبونه بتقديم تفسير ليهوديته، ولكنه يرى أن هناك ميزة يتحلي بها الكاتب اليهودى دون سواه وتتلخص هذه الميزة فى قدرته ـ بسبب وجوده الهامشى فى مجتمعات يهودية – أن يلاحظ الأشياء الخفية الخبيئة فى مثل هذه المجتمعات . وبالنظر إلى إحساس اليهودى العام فى كل أرجاء

العالم بانتفاء الأمان فى حياته نراه أقدر من غيره على ملاحظة مظاهر عدم الأمان فى شتى أنواع الأدب الحديث ، وهو ما تنبه اليه الكاتب آدمز فى كتابه عن العدم . ويعبر كارل ماركس عن هذا الإحساس الخاص بالاغتراب وعدم الأمان بقوله : «إن الإنتاج الرأسمالى يناصب العداء بعض جوانب الانتاج الفكرى مثل الفن والشعر» ، ويؤكد المثقفون اليهود أن الكاتب اليهودى ـ بحكم الغربة التى كابدها عبر التاريخ ـ أكثر تأهيلا من غيره فى التعبير عن هذه الغربة . بل انه يمكن اعتبار اليهودى رمزا للتفكك الذى أصاب الذات الإنسانية الحديثة فى المجتمعات الغربية . وبالنظر الى المعاناة التى يكابدها اليهودى من جراء غربته فإنه يشارك المطحونين والضحايا معاناتهم . ويذهب روزنفيلد الى أن العذاب الذى تلظى بناره اليهود على أيدى جلدتهم النازيين يؤهلهم لاكتشاف بعض حقائق الحياة الأخلاقية التى عجزت البشرية جمعاء عن اكتشافها .

جسد روزنفيلد احساسه بالاغتراب فى روايته التى نشرها بعنوان «رحلة بعيدا عن البيت» . وتدور أحداثها حول غلام شديد الحساسية فى الرابعة عشرة من عمره يدعى برنارد ميللر Ber-nard Miller وتصور هذه القصة شعور مؤلفها الجارف

بالاغتراب المتمثل فى عنوان القصة نفسها . كما أن القصة تعالج موضوع عقدة أوديب المتمثلة فى كراهية الابن لأبيه . ويغمر قلب الصبى احساس دفين بالغربة حتى عن أبيه الذى يعيش معه تحت سقف واحد . ولا يقتصر احساسه بالغربة على علاقته بوالده بل يمتد الى كل المحيطين به . حتى الشخصيات التى يشعر بالاغتراب عنها يعانى كل منها بالاغتراب عن الآخرين . ومعنى هذا أن اغتراب الإنسان الحديث اغتراب عام وشامل .

ابتعد روزنفيلد عن عالم السياسة ليقترب من عالم الجنس الفرويدوى . ويرجع إيمانه بأن الطاقة الكامنة فى الجنس والحركة للكون الى تأثره الواضح بأفكار ويلهلم رايخ Wilhelm Reich الذى رأى فى عدم تحقق الرغبة الجنسية تشويها للشخصية الإنسانية وجعلها شخصية غير سوية . ولهذا حذا مؤلفنا حذو ويلهلم رايخ فى المناداة بضرورة قيام علاقة حميمة وسوية بالجنس الآخر . ويرى روزنفيلد أن الحب هو الشىء الوحيد الذى يمكن الإنسان من التغلب على غربته فهو قادر عن طريق الحب والوجد الصوفى أن يتجاوز غربته . فضلا عن أن روزنفيلد لايقصر الاغتراب على اليهودى فحسب بل يرى مثل شوارتز أن ظاهرة الاغتراب أشمل وأعم فى عصرنا الحديث . وينحى بعض النقاد

على أدب روزنفيلد الروائى باللائمة لانصرافه الى التحليل وعدم عنايته بالسرد القصصى نفسه . وقد أظهر روزنفيلد اهتماما بكتاب اليديش الكلاسيكيين أمثال أ.د. بيرتز وشوليم ألتشيم فكتب عنهما . وتدل روايته «رحلة بعيدا عن البيت» على تأثره بالأفكار الصوفية المعروفة بالهاسيدية Hesidism . وأصابت هذه الرواية نجاحا كبيرا فأعيد نشرها عام ١٩٦١ . ويذهب النقاد الى أن روزنفيلد لا يتمتع بعقلية تحليلية فحسب بل بفكر عميق ليس له نظير فى أدب شوارتز . ويضيف هؤلاء النقاد ان اغتراب كل من شوارتز وروزنفيلد اغتراب سياسى فى نهاية الأمر ليس بالمعنى الضيق ولكن بالمعنى الواسع لكلمة السياسة . فاغترابهما ترجع جذوره إلى حالة المجتمع الأمريكى . هذا الفهم للاغتراب من منطلق اجتماعى هو الذى دفع شوارتز الى الكتابة عن الحرب الأهلية فى قصيدة «لينكولن» Lincoln التى يقول فيها إن هذه الحرب انتهت بانتصار النظام الرأسمالى . ويتضمن المقال الذى كتبه روزنفيلد بعنوان «عصر الفظاعات» اصدار أحكام سياسية على المجتمع مثل القول إنه مجتمع مغترب وعار عن الإنسانية . ونحن نرى روزنفيلد يتورط فى التناقض عندما أسهم فى المناظرة التى عقدتها مجلة «تعليق» تحت عنوان «الكاتب اليهودى والتقليد

الأدبى الانجليزى» حيث يقول إنه يجب الحكم على عداء الكتاب العظام أمثال تشوسر وشكسبير ومارلو ضد اليهود من منظور الظروف التاريخية التى كتبوا فى ظلها لأن الأدب يعكس بالضرورة الظروف الاجتماعية والتاريخية التى نشأ فيها . ولكن روزنفيلد يتناقض مع نفسه عندما اعتبر عداء السامية عرضا من أعراض مرض نفسى جنسى أصاب المجتمع . غير أنه رأى على أية حال أن معاداة السامية التى نطالعها فى كتب الأدب أقل فى خطرها من معاداة السامية التى تمارسها الحكومات والجيران . وليس من شك أن تأثره بعلم النفس الفرويدى وبأفكار ويلهلم رايخ بالذات حدا به الى اعتبار معاداة السامية نوعا من المرض النفسى .

وأيضا تحت تأثير علم النفس الفرويدى كتب روزنفيلد عام ١٩٤٩ مقالا بعنوان «آدم وحواء فى شارع ديلانسى» Adam and Eve on Delencey Street فى مجلة تعليق تناول فيه هذا المؤلف العلاقة الوثيقة التى رأى أنها تربط بين نوعية الأطعمة المحرمة شرعا من وجهة نظر الدين اليهودى والعجز عن ممارسة الجنس ممارسة طبيعية وسليمة وما يتركه مثل هذا الطعام من آثار وخيمة وضارة على المتدينين من اليهود . غير أن اللجنة اليهودية الأمريكية التى تولت الانفاق على مجلة «تعليق» استاءت من مثل هذه الآراء .

ورغم سياسة الحياد التى اتبعتها فى إدارة المجلة فإنها آثرت التدخل فأرسل رئيسها جاكوب بلوشتين Jacob Blaustein خطابا الى المجلة فى شهر نوفمبر ١٩٤٩ ينبهها الى أن مقال روزنفيلد المشار اليه أساء إلى مشاعر عدد كبير من اليهود ودفع المقال بأنه يجافى الذوق السليم ويسىء استخدام الحرية التى توفرها المجلة لكتابها . وعبر بلوشتين عن أمله فى عدم تكرار مثل هذه الاساءات فى المستقبل .

وبوجه عام تنم معظم قصص روزنفيلد عن تأثره الواضح بالروائى اليهودى كافكا . وإذا كانت روايته «الرحلة بعيدا عن البيت» تفتقر الى روح الدعابة فإننا نلاحظ كثرة ورود هذه الدعابة فى اثنين من أفضل قصصه هما «اليد التى أطعمتنى» ١٩٥٣ The Hand THAT Fed Me و«الملك سليمان» ١٩٥٦ Solomon King . وتتكون القصة الأولى من سلسلة خطابات سطرها رجل يدعى جوزيف فيجنبوم Joseph Feigenbaum فى ليلة الكريسماس عام ١٩٤٢ الى فتاة غير يهودية كان قد تعرف بها عام ١٩٣٩ فى فترة بحثهما معا عن عمل . وفى الحال وقع فيجنبوم فى غرام هذه الفتاة ولكنها رفضت اللقاء به والاستجابة إليه فيضطر العاشق الولهان إلى التعبير عن حبه من جانب واحد دون أن يتلقى من

حبيبته أي رد . ولا غرو اذا رأيناه يعانى من الوحدة والاغتراب والحب بلا أمل . وتشير قصة «الملك سليمان» الى ما يعانى منه هذا الملك من اغتراب يعيد الى الأذهان اغتراب المؤلف . حتى ملكة سبأ التى كان الجمال يتوجها عجزت عن أن تثير اهتمامه بها أو رغبته فيها .

ونحن أيضا نطالع موضوع الاغتراب فيما كتبه روزنفيلد من نقد أدبى . وتتضمن كتاباته النقدية مقالا معروفا سطره عام ١٩٥٢ وناقش فيه رواية من تأليف كاهان Cahan بعنوان صعود دافيد لفنسكى The Rise of David Levinsky . ويخلص روزنفيلد فى هذا المقال إلى أن لفنسكى يمثل الأمريكى الذى ينشد النجاح وتحقيق الثراء ولكنه يشعر رغم تحقيقهما بأنه يعيش وحيدا وغريبا مثل المليونير الأمريكى الذى تعجز ملايينه عن ملء حياته وتبديد فراغه . يقول كاهان فى نهاية روايته ان الأمريكى ينظر الى النجاح على أنه إله قادر على كل شىء . ويذهب روزنفيلد الى أن مشكلة ليفنسكى أعوص من مجرد اصابة الثراء فهو فى رأيه يتأرجح بين نازعين لا يستطيع التخلص منهما هما الرغبة فى الثراء والرغبة فى العلم . وهو نهم الى كليهما فلا المال وحده أو العلم وحده يكفيه . والرأى عند مؤلفنا أن هذا الظمأ الدائم هو

السمة التى تميز اليهودى عن غير اليهودى الأمر الذى يملأ قلب ليفنسكى بالاغتراب والوحدة ، ويعتقد روزنفيلد أن قصة ليفنسكى القادر على تحقيق النجاح هى قصة كل الأمريكان واليهود . ومن المؤكد أن روزنفيلد يفوق زميله شوارتز فى قدرته على دمج الخصائص الأمريكية بالخصائص اليهودية . ويدل المقال الذى كتبه عام ١٩٤٩ بعنوان «معنى الرعب» The Meaning of Terror على عمق تأثره بالهولوكست اى إبادة النازية الجماعية لليهود . ولهذا نراه فى نقده لكتاب «الرماد والنار» Ashes and Fire الذى ألفه جاكوب بات Jacols Pat عام ١٩٤٨ يتساءل كيف سمح الغرب بوقوع أحداث الهولوكست البشعة . ويرى روزنفيلد أن ثمة علاقة تربط بين الهولوكست وانهيار الأخلاق واستخدام القنبلة الذرية وفظاعات المعسكرات السوفييتية . ورغم أن الأجل لم يمهل أديبنا لتطوير إنتاجه وخلف كتابات باقية على مر الزمن «فقد مات وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره» فإنه الى جانب شوارتز يعتبران رائدين من رواد التقريب بين الأدب اليهودى والثقافة الأمريكية.

٥ - شاؤول بيلو

كتب شاؤول بيلو فى عقد الخمسينات يحتج على الذين يعتبرون اليهود كما مهملا بقوله : «لا أستطيع الموافقة على رأى الكتاب المحدثين الذين يخبروننا أننا لا شىء . صحيح أننا فى واقع الأمر لسنا كما كان يحلو للعصر الذهبى مزهوا أن يصورنا به . ولكننا نمثل شيئا . وبالرغم مما تعرض له اليهود من عمليات ابادة جماعية فى فترة الحرب العالمية الثانية فقد ظل يحتفظ بتأكيد اليهود على أهمية الحياة . وليس هناك ما يدل على إيمان بيلو بالدين اليهودى ولكن هناك ما يدل على إيمانه على نحو ما بوجود إله يتجاوز الكون المادى . فضلا عن أن بيلو يتمتع أكثر من غيره من الكتاب اليهود ببصيرة نافذة وفهم عميق للقيم الثقافية اليهودية. كما أنه جمع بطريقة نادرة بين الحساسية الفنية والموهبة اللغوية والثقافة الحقة .

ولكن عقد الستينات شاهد تغييرا فى مواقف بيلو الفكرية . فمع اقتراب نهاية الستينات ومجىء عقد السبعينات سادت المثقفين نزعة الاتجار بالفن وانتشر الفقراء المطحونون السود العاطلون عن العمل وزادت معدلات الجريمة الأمر الذى ترك بصماته على إنتاج بيلو الأدبى وأثر فيه . وظهرت أولى دلائل التغير فى روايتيه «كوكب

مستر سـاملر» ١٩٧٠ Mr. Sammler's Planet و «عميد شهر ديسمبر» ١٩٨٢ The Deam's December فقد اختفت فى هاتين الروايتين عذوبة الحياة ونكهتها اللطيفة . وبدا من الواضح أن بيلو أخذ يشعر بمدى عمق ما فى هذا العالم من شر . ولهذا ضعفت فى أعماله اللاحقة نغمة تأكيده القوى للحياة التى ميزت أعماله الباكرة وخاصة تعبيره عن التأكيد اليهودى التقليدى لقيمة الحياة ليحل محله ما يشبه اليأس من مستقبل البشرية . والجدير بالذكر أن بيلو أنتج ما لا يقل عن سبع روايات تستبشر خيرا للحياة قبل أن يدب اليأس الى قلبه .

ورغم أن بيلو أعلن فى كتاباته الباكرة أنه لا ينتمى الى كتاب العدم والاغتراب المحدثين فإن ثمة صلة ربطت بينه وبينهم . فقد ربطته الصداقة بكاتبى الاغتراب شوارتز وروزنفيلد اللذين توقفا عن الانتاج الأدبى فى عقد الخمسينات اذ أصيب شوارتز بمرض عقلى وتوفى روزنفيلد فى باكورة عمره . وكما اسلفنا كانت الصداقة التى تربط بين بيلو وروزنفيلد بالذات صداقة حميمة دامت مدة خمسة وعشرين عاما تاركة أثرها فى شخصية بيلو وكتاباته . يقول بيلو فى هذا الشأن: «فى الغالب الأعم حذوت حذوه فى بعض معتقداته الغريبة بسبب حبى له وعدم رغبتى فى أن أفقد صلتى به

. وعندما ترك بيلو شيكاغو ليعيش في نيويورك في فترة الخمسينات توطدت علاقته بشوارتز . وفى عام ١٩٥٢ باشر التدريس لمدة عام فى جامعة برنستون الأمريكية كمساعد لشوارتز . ويلقى بيلو فى روايته «هدية همبولدت» ١٩٧٥ Humboldt's Gift - التى تتحرى فى كثير من جوانبها وجه الدقة التاريخية ـ الضوء على الصداقة التى ربطت بين الرجلين ، وبطبيعة الحال أسهمت هذه الرواية فى تخليد اسم شوارتز .

والجدير بالذكر أن الاغتراب موجود فى أدب بيلو رغم نبذه له واحتضانه للحياة والاقبال عليها . وتدور رواية «هدية همبولدت» حول فحص طبيعة الملل الذى تصطلى الإنسانية بعذابه ويقوم المؤلف بتطبيقه على ما يعرف بالاغتراب فى الأزمنة الحديثة . ويرد بيلو هذا الاغتراب الى استغلال النظام الرأسمالى لعرق العمال وكدحهم وإلى اندثار المعتقدات الدينية والزيادة فى العقلانية فى المجتمع التكنولوجى . ولا غرو اذا رأينا روايات بيلو تعالج موضوع الاغتراب ولكن مع فرق واحد هو أن الشخصيات الروائية عنده تقاوم هذا الاغتراب ولا تستسلم له بل تسعى الى الانتصار عليه فى حين أن الشخصيات الروائية عند معاصريه تقع فريسة هذا الاغتراب وتسمح له بالسيطرة عليها .

إن بيلو الذى رفض الاستسلام للاغتراب لم يخامره أدنى شك فى هويته اليهودية . وقد ذكر هذا صراحة فى اجتماع عام عقد عام ١٩٧٠ فى تل أبيب بإسرائيل . قال بيلو بالحرف الواحد «إننى لم أشعر بالانزعاج ولو للحظة واحدة حول هويتى ، فقد كنت أعرف على الدوام هويتى ». وهو قول تسانده جميع رواياته باستثناء روايتين هما «هندرسون ملك المطر» ١٩٥٩ Henderson The Rain King و«شهر ديسمبر» ١٩٨٢ . فجميع رواياته منغمسة فى بيئة يهودية علمانية يقبلها المؤلف على علاتها . غير أنه كفنان يستمد مادته الروائية من تجاربه الشخصية التى تشكل اليهودية عنصرا جوهريا فيها ولكن فى اطار أمريكى أوسع وأشمل .

ورغم أن بيلو ولد عام ١٩١٥ بالقرب من مونتريال فى كندا فقد أحضره والده الى شيكاغو وهو صبى فى التاسعة من عمره حيث تلقى العلم فى مدارسها وجامعتها، وفى منتصف الستينات عاد اليها بعد أن أمضى بعض السنوات فى كل من نيويورك وباريس . وليس من شك أن يهوديته شكلت شخصيته ووجدانه من الألف الى الياء وأنه ضمنها فى أدبه الروائى الذى ينضح بالغربة ولكن يسعى فى الوقت نفسه الى تجاوزها والتغلب عليها .

ويؤكد لنا الناقد ابراهام تشابمان هذا المعنى عندما يناقش أدب بيلو قائلا . «تبدو كثير من الكلمات المتكررة فى أعمال بيلو - وهى الضيق والوجيعة وخيبة الأمل والكفاح المرير وكأنها تبحث عن المقابل الصحيح باللغة الانجليزية عن كلمة اليديش المناظرة لها . ويستحدث بيلو - بوصفه كاتبا يهوديا - أمريكيا - فى فترة ما بعد الحرب الثانية رؤية للحياة تشتمل على التراث اليهودى والتجربة التاريخية الطويلة مع العذاب والاحتقار والرفض وترويض الروح لمجابهة العذاب والضيق الملازمين للوجود الإنسانى وأيضا التعايش معهما وتجاوزهما .

لقد تشبع بيلو بعيشة اليهود الأمريكان فى الحضر واستطاع عن طريق هذه البنية الحضرية استحداث لغة متقفة ومتميزة اتسمت بأسلوب لغوى جديد بعيد عن التوتر وعدم التواؤم . وتعتبر لغة اليدتش أحد مكونات هذا الأسلوب المتميز . ويشرح ارفنج هاو شدة تأثر هذا الأسلوب بلغة اليديش فيقول إنه لا يستعير من هذه اللغة بعض ألفاظها ولكنه يستعير منها النبرة والايقاع . ويضيف هاو إن بيلو أوضح فى تأثره بلغة اليديش من الكتاب اليهود الأمريكان الآخرين حيث إن لغته تحمل نفس ما تتسم به لغة اليديش من ايماءات ساخرة وقبح حميم الى جانب ذلك المزيج

الغريب من العواطف المتدفقة على نحو رخيص ومبتذل وتلك القتامة التى يتميز بها أسلوب البيديش فى التحادث الأمر الذى مكن بيلو من استحداث تحول ثقافى ولغوى نابض بالحياة فى اللغة الانجليزية . ويذهب كثير من النقاد الى أن روايته «هيرزوج» Herzog هى أكثر أعماله تأثرا بلغة البيديش فهى تحتوى على عبارات بأكملها مأخوذة عن هذه اللغة الأمر الذى يرى هؤلاء النقاد أنه يضيف نكهة خاصة أو مذاقا خاصا الى اللغة الانجليزية التى زاد من ثرائها ادخال هذه العبارات فيها .

ورغم أن بيلو يعرب عن ضيقه بتسميته بالكاتب اليهودى الأمريكى لأنها تسمية غير دقيقة فقد اضطر الى الاعتراف بأن الكاتب اليهودى شىء مختلف عن سائر الكتاب الآخرين . وجاء ذلك الاعتراف فى الخطاب الذى ألقاه عام ١٩٦٨ بمناسبة حصوله على جائزة التراث اليهودى . والجدير بالذكر أن الناقد اليهودى ماير ليفين Mayer Levin انتقده لخلقه أبطالا يهودا يعانون من الاغتراب الكامل كما أنه اتهمه بكتابة روايات تدعو الى ضرورة استيعاب اليهود للثقافة الأمريكية . ومضى ليفين فى اتهاماته يقول إن بيلو لا يسجل فى أدبه الروائى أى رد فعل من جانبه ضد الهولوكست وأنه يتحاشى أن يتبع ما للهولوكست من أثر مدمر فى

نفسية اليهودى الحساسة . ونحن نرى فى الخطاب الذى ألقاه بيلو عام ١٩٧٦ بمناسبة حصوله على جائزة نوبل للأدب يعترف بأنه لم يلتفت فى بادىء الأمر الى فظاعة الهولوكست وأنه يخجل من نفسه ويشعر بالعار لأن تنبهه الى بشاعات الهولوكست جاء متأخراً .

ولكن هذا الادراك المتأخر لقطاعات الهولوكست لا يعنى بحال من الاحوال أن بيلو لم يكن كاتبا يهوديا . وليس أدل على يهوديته من أنه قال أمام مستمعيه من الإسرائيليين إنه الكاتب اليهودى الأمريكى الوحيد الذى يعرف لغة اليديش باستثناء ماير ليفنن الذى ينتمى الى جيل أكبر منه سنا . يقول بيلو إن كتاب اليديش تركوا أعمق الأثر فى صباه ولكنه يعترف بأن تأثره بكاتب اليديش جيمس فينيمور كوبر James Fenimore Cooper أكثر من تأثره بالكاتب شوليم أليتشيم . وحفزه اتقانه للغة اليديش وتأثره بأدبها الى قيامه بترجمة انجليزية للرواية التى ألفها ايزاك باشيفس سنجر Isaac Bashevis Singer بعنوان «جمبل المغفل» ثم قام بنشرها عام ١٩٥٣ فى مجلة البارتيزان ريفيو . وكانت هذه الترجمة الانجليزية سببا فى اهتمام الكثيرين بأدب سنجر . وفى الستينات نشر بيلو مجموعة قصصية مترجمة الى الانجليزية من اللغات العبرية والألمانية والروسية تتضمن مقدمة تعالج القصة

اليهودية . وفى عام ١٩٧١ صرح بيلو : «لم أكن صهيونيا فى أى يوم من الأيام » ولكن مثل هذه التصريح لا ينفى يهوديته أو يقلل منها .

زار شاؤول بيلو اسرائيل عدة مرات . وعند نشوب حرب ١٩٦٧ شعر بضرورة الذهاب الى اسرائيل حيث أرسلته جريدة «نيوزداى» Newsday كمراسل حربى . ثم زار فى نفس هذا العام اسرائيل للمرة الثانية . ونشر عقب هذه الزيارة كتابه «الى القدس والعودة منها» ١٩٧٦. To Jeruslem and Back . ويتضمن هذا الكتاب أفكاره عن الكتاب والمثقفين اليهود الذين التقى بهم فى اسرائيل . غير أن هذا الكتاب لا يشير بالمرة الى التقائه بأى من المثقفين أو الكتاب العرب . وتدل لغة الكتاب على شدة قلقه على مستقبل اسرائيل وشعب اسرائيل .

وتعبر أولى روايات بيلو وهى بعنوان «الرجل المتدلى» ١٩٤٤ Dangling Man عن توجهه الروائى والرواية مكتوبة على شكل يوميات تبدأ من ١٥ ديسمبر ١٩٤٢ حتى ٨ ابريل ١٩٤٣ وتدور أحداثها حول شاب اسمه جوزيف ينتظر انخراطه فى الجيش . ويصرح المؤلف منذ بداية روايته أنه تخلى عن اسلوب همنجواى الذى ساد السرد الروائى آنذاك مما يشير الى أن الرواية

الأمريكية أخذت فى الابتعاد عن طريقة همنجواى . فضلا عن أن جوزيف أعلن نبذه [illegible] الثـ[illegible]ـية [illegible] من الحزب الشيوعى واشمئزازه من تحمسه السابق له . يقول جوزيف عن تخليه عن الماركسية : «لقد غيرت فكرى حول إعادة تشكيل العالم من القمة الى السفح على طريقة كارل ماركس» .. ويمثل تخليه عن الفكر الراديكالى موقف جيل بأكمله من المثقفين اليهود الأمريكان فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد نبذ هذا الجيل أحلامه بشأن اقامة مدينة فاضلة واكتفى بمرارة الغربة وانتفاء اليقين . ويشير الدارسون الى شدة تأثر رواية «الرجل المتدلى» برواية دستيوفسكى الشهيرة «مذكرات من العالم السفلى» Notes From the Underground التى تعبر بقوة عن فكرة الاغتراب والاقتلاع من الجذور . ولكن رواية بيلو تختلف عن رواية ديستيوفسكى فى إنها على عكس الرواية الروسية ترفض القنوع بالاغتراب بل إنها تسعى الى قهره ، والتغلب عليه . وتنتهى رواية بيلو بدخول جوزيف الجيش وخضوعه للأوامر العسكرية التى يقبلها عن طيب خاطر لأن النظام الصارم الذى يفرضه الجيش عليه يعفيه من النضال ضد احساسه بالاغتراب . والجدير بالذكر أن بيلو لم يظهر أية ايجابية أو تحمس لحرب الحلفاء ضد النازية التى إجتثت اليهود

وأبادتهم . وتنتهى رواية «الرجل المتدلى» برفض الاغتراب وعدم الاستسلام له وقبول جوزيف التخلى عن حريته الشخصية نتيجة انضمامه الى صفوف الجيش . ومن الواضح أن جوزيف شخصية يهودية شأنها فى ذلك شأن الكثيرين من شخصيات هذه الرواية ، ولكن المؤلف لا يذكر هذا بصراحة .

وتدور رواية بيلو التالية «الضحية» ١٩٤٧ The Victim فى ظاهرها على معاداة السامية . ولكنها فى حقيقة الأمر تعالج الغموض والتعقيد الذى يكتنف مسئولية الفرد عن سلوكه وتصرفاته . فالمؤلف يطرح سؤالا شائكا حول هذه المسئولية ويتساءل من الضحية : اليهودى المجنى عليه فى حوادث معاداة السامية أم الجانى نفسه الذى يمارس الفظاعات العنصرية ؟ ويبدو أن بيلو يعتبر كلا المجنى عليه والجانى ضحية . وهكذا يعرض المؤلف مشكلة معاداة السامية من منطلق التعقيدات الأخلاقية والنفسية .

وتدور رواية «الضحية» حول محرر فى جريدة تجارية اسمه أسا ليفنثال Asa Leventhal بدعوة صاحب الجريدة الى احتفال مقام فى بيته حيث نجد نفرا من اليهود ينشدون أغانى البلاد القديمة . ولا يروق هذا فى عين سكران اسمه ألبى Albee فيقاطع غناءهم . ويحتج بقوله أنه لا يليق بهؤلاء اليهود أن يرددوا مثل هذه

الأغنيات التى لم يتشربوها منذ ولادتهم . وهى اشارة واضحة إلى أن اليهود غرباء عن هذه الأغنيات ، وتحاول زوجة الرجل السكران تهوين الأمر على المنشدين اليهود وناشدتهم ألا يلتفتوا إليه وأن يستمروا في الغناء . وبالفعل استجاب المنشدون اليهود الى طلبها غير أن زوجها عاد إلى مقاطعتهم وطلب اليهم بوصفهم يهودا أن ينشدوا مزمورا من العهد القديم ، أو يغنوا أغنية يهودية يمكن لجوارحهم أن تحس بها الأمر الذى أحرج كل الحاضرين . واغتاظ المحرر الصحفى ليقنثال لهذا الوضع واستاء للاهانة التى لحقت بأصدقائه من اليهود فيعمد فيما يبدو الى الانتقام من السكير الوقح . ويطلب هذا الرجل من هذا السكران أن يعرفه برئيسه فى العمل وهو صاحب دار نشر لا يقل فى صلفه ووقاحته عن مرؤوسه. ويكيل ليقنثال الاهانات للناشر الذى يقوم بطرده من مكتبه ثم يطرد مرؤوسه من العمل . ولكن المؤلف يترك قارئه فى حيرة وبلبلة فهو يصور ليقنثال على أنه لا يعرف على وجه اليقين اذا كان بالفعل مسئولا عن طرد ألبى من عمله . وتطرح الرواية هذا التساؤل المعقد من الجانى ومن الضحية . هل الجانى هو ألبى المعادى للسامية أم أنه ليقنثال الذى أراد الانتقام بسبب اهانته للمغنين اليهود ؟

أصاب بيلو قدرا كبيرا من الشهرة بفضل روايتيه الأولين «الرجل المتدلى» و«الضحية» وأثبتت هاتان الروايتان اتقان مؤلفهما لحرفته وعمق تفكيره الى جانب استخدامه الكثيف والدقيق للغة الانجليزية الأمر الذى يذكرنا باستخدام الروائى فلوبيرت للغة الفرنسية . وعندما بدا يتلو حياته الأدبية كانت الفكرة القائلة بعجز اليهود عن استيعاب اللغة الانجليزية والأدب الانجليزى سائدة بين الناس . يقول بيلو فى حديث له «أوضحوا لى بجلاء عندما كنت أدرس فى الجامعة أنه يحتمل أنه لن يكون بمقدورى أن أحس احساسا سليما بالتقاليد الأدبية الانجلو ساكسونية وبالكلمات الانجليزية بسبب كونى يهوديا وابنا لعائلة يهودية روسية» . ولهذا نراه يسعى جاهدا في روايتيه الأولين الى التحرر من هذا التحيز . وما أن أكدت روايتاه الأوليان موهبته الأدبية حتى تمكن من التخلص من اقتفاء أسلوب الروائى فلوبيرت فى الكتابة .

وأدى تحرره من أسلوب فلوبيرت الى تأليف رواية ثالثة عام ١٩٥٣ بعنوان «مغامرات أوجي مارش» The Advertures Of Augie March التي فازت بالجائزة القومية للكتاب والتى تسببت في ذيوع صيت مؤلفها . وبهذه الرواية استحدث شاؤول بيلو لنفسه أسلوبا جديدا من نوعه يجمع بين الديموطيقية ولغة اليديش واللغة الانجليزية البديعة . والرواية تنتمى إلى الجنس الأدبى المعروف

برواية المغامرة والشطارة The Picaresque Novel وهى تصف بالتفصيل الدقيق أماكن وتجارب إنسانية متنوعة يمر بها بطلها باعتباره ابن عائلة مهاجرة . ورأى بيلو أن أسلوب فلوبيرت وما يفرضه عليه من قيود عاجز عن التعبير عن مثل هذه الأماكن والتجارب . ويستمد بيلو الجزء الأول من هذه الرواية من تجاربه وهو يعيش فى بيئة يهودية فى شيكاغو . وإلى جانب استخدام هذه الرواية المتكرر للغة البيديش نراها تصف العادات والتقاليد اليهودية على نحو واقعى وليس من باب الحنين الى الماضى . والرواية تزخر بالشخصيات والعائلات اليهودية . وتتجلى السمات اليهودية فى شخصية أوجة وموقفها من الحياة أكثر مما تتجلى فى غيرها من الشخصيات .

والملاحظ أن أدب بيلو الروائى ينصرف الى البحث عن المعنى الايجابى الكامن فى الحياة . ولكن هذا البحث الدائب لا يعنى بالضرورة أن الشخصيات الروائية عثرت عليه ، ورغم يقينها من أنه موجود فليس هناك ما يؤكد أن هذه الشخصيات وجدت المفتاح للقيمة النهائية للحياة التي لا تكف عن البحث عنها . صحيح إن بيلو عاش فى عصر فرض عليه وعلى شخصياته الروائية الاغتراب، ولكنه لا ينفك يسعى كما أسلفنا على محق هذا

الاغتراب والتغلب عليه . وهو يحقر كل من يقبل على نفسه الاستسلام له . وشخصية أوجى خير دليل على ذلك. فبالرغم من التنوع المحير والغريب فى أعمال أبطاله وفى خبراتهم وتجاربهم فإنهم يرفضون الالتزام بأى شىء سوى بحثهم الدائب عن القيمة الإيجابية فى الحياة أو ما يسميه المؤلف «خطوط الحياة المحورية» . صحيح أن أوجى لا يعثر على خطوط الحياة المحورية هذه، ولكنه على أقل تقدير يعرف الشىء الذى يبحث عنه .

ونحن نراه فى وقت لاحق فى مغامراته يعترف بأنه يحس بوجود «خطوط الحياة المحورية» التى يرتكز عليها الوجود الإنسانى. ويتلخص هذا الاحساس فى البحث عن قيم الحقيقة والحب والسلام والكرم والفائدة والانسجام ، فمثل هذه القيم هى التى تعطى للحياة الانسانية معنى، فحيث توجد خطوط الحياة المحورية يتبلور وجود الانسان ويعيش فى فرح حقيقى.. حتى آلامه سوف تتحول إلى فرح طالما أنها آلام صادقة، وفى هذه الحالة سوف يعجز يأسه عن انتزاع قوته. ومهما ابتعد عن نفسه واغترب عنها فلن يضيع منها أو يتوه فى زحمة الغربة.

وإذا أصابته خيبة الأمل فلن تقتل الحب فيه ، وهكذا يصبح الهدف من وراء الحياة السعى إلى العثور على مرفأ يبعث على

الدفء والطمأنينة وسط لطمات الحياة وإحن الواقع الذى لا مفر منه وليس السعى الى تحقيق طوبيات . ويجرى هذا البحث وفقا لطبيعة كل انسان حتى يتمكن من تحقيق الانسجام والتوائم مع خطوط الحياة المحورية. والاخوة الانسانية هى احدى مظاهر البحث عن هذا التوائم والانسجام، وهو ما نجده فى روايته التالية «امسك بزمام اليوم» (١٩٥٦) Seige the Day التى يعتبرها بعض النقاد أبدع ما سطره قلمه. وتدور احداث هذه الرواية حول شخص اسمه تومى ويلهلم Tommy Wilhelm كتب عليه الفشل والاخفاق فى كل ما يقوم به من افعال ويضطلع به من علاقات شخصية، ونحن نراه يعيش بمفرده فى احد فنادق «نيويورك» بعد انفصاله عن زوجته وطفليه، حتى ابوه وهو جراح ثرى متقاعد يعامله بدون رحمة ويزدريه ويرفض تقديم العون له وانتشاله من ورطته المالية . ويكابد تومى الغربة من جراء ذلك وهى غربة ترجع اساسا الى سوء تقديره وحكمه على الاشياء وايضا إلى المعايير الزائفة التى تنتهجها المجتمعات الحديثة . ويقع تومى الغلبان والمغلوب على أمره فريسه خداع محلل نفسى دعى اسمه الدكتور تايكن يستولى على كل ما يمتلك فى هذه الدنيا من متاع قليل، ورغم ان تومى يكتشف انه ضحية هذا

النصاب فإن هذا النصاب لقنه درسا بالغ الاهمية مفاده انه يتعين على الانسان ان يعيش الحياة لحظة بلحظة . يقول هذا المحلل النفسى : «اننى اسعى إلى جعل الناس يعيشون الحاضر فى هذه الدنيا ويتشبثون باللحظة الراهنة». وتنطوى هذه النصيحة على احتضان الحياة ورفض الزواج من العذاب على حد تعبيره. وفى ذروة بؤسه وعذابه يدخل تومى الكنيسة ليحضر جنازة أحد المتوفين ، وعندما يبدأ صوت الأرغن يجلجل تغوص موسيقاه فى قلب تومى الذى يجهش بالبكاء بحرقة شديدة . وتتلخص اهمية هذه التجربة فى انها اقامت جسرا يصل بينه وبين الآخرين ، الامر الذى أزاح الاغتراب عن كاهله وجعله يحس بالتوحد مع الآخرين. ويشعر تومى بنفسه تتطهر كما ان هذه التجربة تعمق فيه احساسه بضرورة تأكيد الحياة . واللافت للنظر فى هذه الرواية أن معظم شخصياتها من اليهود الذين يتحركون فى بيئة يهودية من الطبقة العليا، ولكن هذا الجو اليهودى ليست له أية دلالات جوهرية أو محورية فهو مجرد أحد معطيات الرواية لا أكثر ولا اقل مما يدل على أن بيلو لم يكن فى أى يوم من الايام سجين يهوديته . فلو غرو إذا رأينا ان روايته التالية «هندرسون ملك المطر» تخلو

تماما من اليهود . ورغم ذلك فإن الرواية تنضح بالفكرة السائدة بين المثقفين اليهود الامريكان آنذاك والمتمثلة فى ضرورة تأكيد الحياة . فضلا عن ان هذه الرواية تنتهى بسحق الاغتراب والانتصار عليه . فالرواية تحكى لنا قصة ثرى يهجر زوجته وأولاده ويرحل الي افريقيا ليعيش بين قبائلها ويدرس ظروفها الانثروبولوجية. ولكن هذا الرجل يتغير فى نهاية الرواية وتدفعه السمة اليهودية الخاصة بتأكيد الحياة إلى العودة إلى اسرته التي سبق ان تخلى عنها.

وإذا كانت رواية «هندرسون ملك المطر» تفتقر الى الشخصيات اليهودية فإن روايته التالية «هيرزوج» تزخر بالعناصر اليهودية لدرجة أن الناقد ملتون هندوس Milton Hindus يصفها بأنها أكثر أعماله الروائية يهودية. فضلا عن أن كثيرا من النقاد يرون أنها أفضل ما أنتجه يراع بيلو من أدب روائي على الاطلاق. صحيح انها رواية يهودية ولكن يهوديتها لا تحول دون تلقائيتها ، والرواية إلى جانب هذا تحتوى على قدر هائل من الفكر والثقافة مما جعل بعض النقاد يصفونها بأنها «وليمة ساحرة وخلابة تقدم الى العقل» ويشبهونها برواية ميدل

مارش Middlemarch للروائية الانجليزية المعروفة جورج اليوت
ى عاشت فى القرن التاسع عشر.

ويتمثل أهم وانجح تجديد تكنيكى استحدثه بيلو فى رواية «هيرزوج» فى طريقته فى استخدام الرسائل التى يكتبها كاتبها ويحتفظ بها دون أن يرسلها إلى المرسل إليهم ودمج هذه الرسائل فى متن الرواية . وتقليد كتابة الرسائل فى الرواية الانجليزية قديم وراسخ ولكن الجديد أن الرسائل عند بيلو لا ترسل أصلا إلى المرسل إليهم . وبطبيعة الحال مكنت هذه الرسائل الشخصيات الروائية من التعبير عن افكارها مثل قول احدي هذه الشخصيات أن ممرضة تحمل قصرية بول وبراز للمرضى تقدم خدمة إلى الناس تفوق خدمة الحزب الشيوعي لهم وعلى أية حال استطاعت هذه الشخصيات الروائية عن طريق الرسائل غير المرسلة مخاطبة عظماء المفكرين فى الحاضر والماضى كما مكنت المؤلف من صهر الأفكار فى بوتقة الحياة اليومية فى وحدة عضوية.

وتشبه شخصية هيرزوج بقية شخصيات شاؤول بيلو الباكرة من حيث أنها تبدأ باليأس ثم تنتهى بالهدوء والصفاء وقبول الحياة. وهيرزوج أستاذ اللغة والأدب الانجليزى تهجره زوجته

وتطلب منه الطلاق لتتزوج بأعز أصدقائه . وفي بحثه عن هدوء النفس وصفائها وقبول الحياة علي علاتها نراه يسترجع الماضى ويعايشه من جديد منذ أن كان صبياً وإبناً لعائلة مهاجرة يكثر من استخدام اللغة العبرية أو الييديش فضلا عن انه مزواج ومطلاق إلخ.. و«هيرزوج» يؤمن بالله ولكنه لا يعترف بذلك أمام الناس. وهو يتساءل عما اصاب ركائز الحضارة الدينية من تفتت ويعرض لما يكابده المثقفون من شعور بالاغتراب ولكنه فى نهاية الأمر يتغلب على إحساسه بالغربية والعدم، ومن الواضح انه يرفض اية حلول اجتماعية للمشاكل الانسانية مثل الايمان بالاشتراكية كحل لهذه المشاكل ، بل هو يريد حل هذه المشاكل عن طريق السلوك الفردى.

قلنا ان شاؤول بيلو نبذ إيمانه الباكر بالافكار الماركسية وانه كفر بكل من الشيوعية والاشتراكية ولم يعد يؤمن بأية حلول جماعية للمجتمع بل آمن بأهمية السلوك الفردى . وأيضا كفر بيلو بإقامة يوتوبيا على الأرض ، وآثر ان تجىء تصرفات الانسان من منطلق الواقع والحدود المتاحة فلا يبدد طاقاته فى الاوهام والمثاليات الجوفاء، ولا يعنى هذا ان بيلو دعا إلى الرضا البليد بالنفس، ولكنه أراد مجابهة العدم من أجل التغلب عليه.

وهو مايتناوله المؤلف فى روايته التالية: «كوكب المستر ساملر (١٩٧٠)».

ولا يجد القارىء اكثر من «كوكب المستر ساملر» تأكيدا لقيمة الحياة واستمساكا بها، فبطل هذه الرواية آرثر ساملر نجا بأعجوبة من الهولوكست النازى . عمل ساملر مراسلا صحفيا في لندن لجريدة صادرة فى بولندا. وبمضى الوقت تطبع هذا الرجل بطباع الانجليز وعاداتهم، وقبل نشوب الحرب العالمية الثانية مباشرة يقوم بزيارة إلى بلده بولندا برفقة زوجته فيقع فى أسر الجيش النازى الذى اجتاح بولندا. ويقوم النازيون بتطويق عدد كبير من اليهود ويصدرون إليهم الأمر بتعرية اجسادهم وحفر خندق حتى يكون مقبرتهم التى يدفنون فيها بعد اطلاق النازيين النار عليهم . ولكن ساملر ينجو من الموت، بأعجوبة ويزحف على بطنه بين جيف اليهود . والعجيب انه يفقد ايمانه بالحياة وبالانسان رغم البشاعات والفظاعات التى يقترفها .

ولا غرو فقد تشرب من بنى جلدته اليهود بقيمة الحياة وضرورة التأكيد عليها. ورغم التجارب المروعة التى مر بها وانه رأى الموت بعينيه ، فقد ظل محبا ودودا نحو الآخرين. وساملر يعبر عن وجهة نظر المؤلف فى نبذ الأفكار الثورية والراديكالية

كحل لمشكلات البشر. وتنتهي الرواية بأن نرى المؤلف يطرح مشكلة الايمان بالدين في عصر يسوده العلم والمادية والوحشية.

ويطالع سامل الكتاب المقدس بانتظام كما يطالع أعمال المتصوف الألماني ايكاردت Eckhardt. وسامل على ا قتناع بأن ابن عمه المتوفى عرف اكثر منه ومن غيره كيف يعيش، ثم يقدم إلينا المؤلف الفكرة الواردة في التلمود الخاصة بمسئولية الانسان أمام الله بموجب عقد مبرم بينهما . ويختتم المؤلف الرواية بقوله إن الحقيقة التي نعرفها تفيد بوجود الله، ونحن نعرف ذلك.. نعرف ذلك.. نعرف ذلك.. ويرى بعض النقاد في هذا التكرار تأكيدا من جانبه لوجود الله في حين يرى البعض انه محاولة لاقناع نفسه بوجوده.

وبعد ان نبذ بيلو ايمانه الباكر بالافكار الثورية بدا من الواضح أنه لم يطق فوضى الستينات وحرب فيتنام التي تمخضت عن هذه الفوضى والمظاهرات الطلابية التي اندلعت آنذاك. وتعكس رواية «كوكب المستر سامل» تحول مؤلفها من الراديكالية إلى المحافظة . ومن دلائل محافظته قوله في هذه الرواية عن كارل ماركس إن حشيشه الايدولوجي قوي وفعال للغاية.

وفي يوليو ١٩٧٠ ألقى شاؤول بيلو خطابا في تل أبيب أظهر

شيئا من التفهم والتعاطف مع تمرد الشباب ، فقد ذكر ان الاتهام الذى يوجهه الشباب إلى الطبقة المتوسطة اتهام سليم وله ما يبرره لأن هذه الطبقة فشلت فى خلق أية قيم يهتدى بها الشباب . ومع ذلك فإنه عاب عليهم هجومهم على الجامعات لأن هذه الجامعات، تمثل فى نظره المكان الوحيد ولعله الأخير فى أمريكا الذى يسمح بتبادل الآراء بحرية. وايضا عاب بيلو على الآباء اليهود سعيهم الى العيش فى الارياف عيشة مغلقة كما لامهم على العمل على احياء الدين اليهودي والافكار الدينية الراسخة إلى جانب ابتعادهم عن الانخراط فى مجرى الحياة الامريكية . ولكنه امتدح أبناءهم لانهم آثروا الانخراط فى هذه الحياة، ومعنى هذا أن موقف بيلو من الشباب فى رواية «كوكب مستر ساملر» موقف يتسم بالملامة والتقريع فى حين أن المحاضرة التى ألقاها المؤلف عام ١٩٧٠ فى إسرائيل تدل على انه اصبح أكثر تقديرا لتمرد الشباب فى الستينات وادراكا لما ينطوى عليه هذا التمرد من إيجابية.

وفى العقد الاخير من حياة بيلو نراه يعود على نحو متكرر الى معالجة موضوع القيم . يقول بيلو بمناسبة حصول روايته «هيرزوج» عام ١٩٦٥ على الجائزة القومية للكتاب انه من

الواضح ان الاستغراق في الممارسات الجنسية والتصريح بقوة عن الاغتراب لن ينتجا أعمالا «فنية عظيمة» ، ويعبر بيلو عن طائفة من الآراء غير المتسقة، فهو - مثلما رأينا - لم يعبر عن تفهم اكبر لتمرد الشباب فحسب بل انه لا يستبعد الحلول الاجتماعية والسياسية للمشكلات الانسانية. ففي معرض الحديث الذى ألقاه امام الكتاب البولنديين في وارسو عام ١٩٦٦ نراه يقر انه امر سيىء أن يعجز الناس عن التغلب على قيودهم السياسية والأيدولوجية لان هناك كثيرا من المشاكل في العالم التي تنتظر الحل.

ثم يضيف إلى ذلك قوله إن الايدولوجية السياسية لم تندثر. وعندما تسلم عام ١٩٧١ الجائزة القومية للكتاب عن روايته «ساملر» نراه يقول لزملائه من الكتاب: «هناك إيمان قديم بأن الفن يقدم علاجا لفساد الوعى الانسانى.. وإذا نحن معشر الكتاب لم نفعل شيئا من أجل هذا العلاج فلن يكون هناك اى معنى في ان نكتب الكتب».. ومهما كانت هناك تحفظات على عدم انسجام آرائه احيانا فما من شك أنه كرس أعماله الخلاقة لتأكيد قيمة الحياة أمام الافكار العدمية.

وبعد أن توارت الفضائع التي اقترفها النازيون ضد اليهود

بدأ اهتمام مؤلفنا بالهولوكست يتجدد بسبب ما اعتبره تهديدا للوجود الاسرائيلى نتيجة الحروب المتكررة التى اشتعلت بين العرب واسرائيل . والجدير بالذكر ان بيلو زار اسرائيل عدة مرات، ورغم عدم إقتناعه بالافكار الصهيونية فإن زياراته الكثيرة لاسرائيل زادت من وعيه بيهوديته.. ونحن نراه حتى فى روايته الاخيرة التى نشرها عام ١٩٨٢ بعنوان «عميد شهر ديسمبر» يؤكد قيمة الحياة وضرورة انتصارها على العدم. يقول بيلو فى هذا الشأن:

«إن افضل البشر وانقاهم يؤمنون بقداسة الحياة».. ورواية «عميد شهر ديسمبر» لا تتناقض مع الإيمان بقداسة الحياة ولكنها ترسم صورة قاتمة لانحطاط العلاقات الانسانية ليس فى المجتمعات الشيوعية وحدها بل فى المجتمعات الرأسمالية ايضا رغم ما فيها من ميزة التمتع بالحرية.

مثل هذه القتامة قمينه بأن تلقى الظلال على مستقبل البشرية. فضلا عن اختفاء روح الدعابة وخفة الظل التى اتسمت بها اعماله الروائية السابقة.

وتدور رواية «عميد شهر ديسمبر» حول عميد بجامعة شيكاغو اسمه ألبرت كورد Albert Corde . ويكاد هذا الرجل

الايرلندى البروتستانتي ان يكون البطل الوحيد فى روايات بيلو الذى لا ينتمى الى اليهود، فضلاً عن خلو الرواية من أية شخصيات أخرى واضحة اليهودية . والرواية تتضمن جانبا من سيرة حياة مؤلفها فهذا العميد متزوج من امرأة مهاجرة من رومانيا تعمل استاذة فى علم الفلك، وتذهب هذه المرأة برفقة زوجها إلى رومانيا حتى تكون بجوار أمها التى تحتضر. ونفس الشىء حدث في حياة المؤلف فقد كان متزوجا من عالمة فلك رومانية كما انه رافقها إلى رومانيا حتى يكونا بجوار حماته المحتضرة . وفى رومانيا يستغرق بطل الرواية وعميد الكلية ألبرت كورد فى تأمل الانحطاط الموجود فى كل من الشرق الشيوعى والغرب الرأسمالى.

وتكاد رواية «عميد شهر ديسمبر» تصل الى حافة اليأس والقنوط. والرواية تطرح سؤالا دون ان تجيب عنه بشكل حاسم . والسؤال هل هناك امل فى حدوث أى تقدم اجتماعى؟ ومن الواضح ان الرواية تزخر بصور الفساد الامر الذى يجعل من العسير ان نتصور وجود مثل هذا الامل . غير أن الرواية فى نفس الوقت لا تجزم بعدم وجوده . واللافت للنظر فى هذه

الرواية أن الوهن والضعف يعتريان شعور المؤلف القوى وإيمانه الشديد بقيمة الحياة، وهو إيمان ورثه عن اسلافه من اليهود.

وإذا كانت الحيوية والفكاهة قد فارقتاه فى هذه الرواية فإنهما لم تفارقا روايته التالية التى نشرها عام ١٩٨٤ بعنوان «قدمه فى فمه» . Him With His Foot in his Mouth وهى مجموعة قصصية ترسم فيما ترسم صورا لبعض اصدقاء شاؤول بيلو من الادباء والنقاد أمثال هارولد روزنبرج Harold Rosen-berg روزنبرج واسحق روزنفيلد . وأهم ما يميز هذه المجموعة اختفاء النغمة القاتمة المتشائمة والعودة بقوة إلى الدعابة والحيوية الدافقة . ولكن هذه الرواية الاخيرة تفتقر الى تأكيد المؤلف السابق للحياة فالموت يظللها والردى يرفرف عليها.

٦ - برنارد مالامود

يؤكد الروائي اليهودى الامريكى برنارد مالامود انتماءه إلى الثقافة الامريكية وليس إلى الثقافة اليهودية الامريكية كما يؤكد شاؤول بيلو نفس الشيء .

ويقاوم هذان الكاتبان اليهوديان المرموقان على خلاف معاصريهم من غير اليهود الاتجاه نحو الايمان بالعدم . وقد اوضحنا بجلاء نبذ بيلو للافكار العدمية وتمسكه بالايمان اليهودى التقليدى الراسخ بقيمة الحياة، ونفس الشيء ينطبق على برنارد مالامود الذى قاوم العدمية فى استقلال تام عن قرينه بيلو فقد نادى مالامود بازالة كل اسباب الانتقاص من انسانية الانسان. قال مالامود بمناسبة حصول روايته «البرميل السحرى» (١٩٥٨) The Magic Barrell على الجائزة القومية للكتاب «لقد ضقت ذرعا تماما بالانتقاص المخادع الهائل لقيمة الانسان فى يومنا الراهن».. وترجع أسباب الانتقاص من قيمة الانسان الى نشوب الحروب وطغيان الانظمة الشمولية والتهديد بفناء الجنس البشرى برمته الأمر الذى جعل الإنسان ضحية» . ويرد مالامود هذا الانتقاص إلى قبول الانسان لهذا الوضع الشائن دون أى احتجاج .

ولهذا كرس مالامود أدبه لرد الاعتبار والكرامة الى الانسان والاعلاء من شأنه ، وهو نفس ما يدعو شاؤول بيلو اليه فى روايته بأسلوب مختلف، ومعنى هذا ان كلا الكاتبين اليهوديين يتسمان بخصوصية يهودية واحدة هى تكريم الانسان والاعلاء من شأن الحياة، غير ان اسلوب مالامود يغاير أسلوب بيلو فى الكتابة فبيلو يتبع التقليد الواقعى فى حين ان أسلوب مالامود يشيع فيه الخيال.

ولد مالامود فى بروكلين عام ١٩١٤ من والدين يهوديين روسيين هاجرا الى الولايات المتحدة. وكان والده صاحب محل بقالة صغير يظهر فى احد اعماله وهو «صبى البقال»، the Assistant وتلقى الغلام تعليمه في مدرسة ايرازموس العالى Erasmus Han High School حيث اشترك في تحرير وإصدار مجلة المدرسة . وفى عام ١٩٣٦ تخرج مالامود فى كلية مدينة نيويورك ثم تزوج من امرأة تنحدر من أبوين إيطاليين ، وبعد تخرجه قام بالتدريس فى مدرسة ايرازموس العالية ثم فى كلية ولاية أوريجون فى الفترة بين عامى ١٩٤٩ و ١٩٦١ التى اطلق عليها اسم كلية كاسكاديا Cascadia College فى روايته «حياة جديدة» A New Life ، وبعد ذلك باشر التدريس فى كلية بنجتون

Bennington فى فيرمونت Vermont وفى عام ١٩٤٩ نشرت له مــجلة هاربرز بازار Harper's Bazaar أول قصة له مدفوعة الأجر. ثم ظهرت روايته «الطبيعى» the Natural عــام ١٩٥٢، وبالرغم من شدة حساسيته وتعاطفه مع العاطلين بسبب الكساد العظيم وتألمه من الحرب بين الحلفاء والمحور ومن الهولوكست النازى فإنه يكاد الا يذكر هذه الأحداث الجسام والأليمة فى أعماله الأدبية الباكرة. يقول جرانفيل هيكس Granville Hicks فى هذا الصدر إن مالامود فى صدر حياته «كان يختلف مع الكثيرين من معاصريه فى انه لم يهتم مطلقا بالقضايا الراديكالية أو الثورية، فقد كانت لديه مشاكله الخاصة، فضلاً عن أنه فقد الثقة بالشيوعيين وخاصة بعد محاكمات التطهير فى موسكو».

اتسمت كتابات مالامود بالعصرية وهى تكشف عن تأثرها بأعمال دستيوفسكي وتشيكوف وجوجول وجيمس جويس إلى جانب تأثره بكل من الكاتبين الأمريكيين ماكسويل أندرسون Maxwell Anderson و ت . س. إليوت. وفى عام ١٩٦٣ اعترف مالامود للناقد الأمريكي إيهاب حسن أنه لم يهتم بالمشاكل الإجتماعية إلا فى حدود كتاباته.. يقول مالامود بصراحة. «إن انخراط المؤلف فى الكتابة يقتضى منه عدم الانخراط فى المشاكل

الإجتماعية فهو ليس بحاجة إلى الإنخراط فى السياسة» .. وعندما سأله إيهاب حسن عن موقف الكاتب بوجه عام من القضايا الإجتماعية أجاب مالامود بأنه يتعين على الكاتب أن يعالج هذه القضايا بطريقة فريدة وعلى نحو خيالى بحيث تتحول إلى فن ، فالقضايا الإجتماعية فى حد ذاتها لا تثير اهتمام الكاتب أو الفنان.

ورغم ازودار مالامود عن التصدى للمشاكل الإجتماعية بوجه عام فإن هذا لا يمنع من معالجته لبعض منها فيما انتجه من آدب فى وقت لاحق مثل معاداة السامية، والإبادة النازية الجماعية لليهود والعلاقة بين البيض والسود ، كما نرى فى رواية «المستأجرون» The Tenants وبعض قصصه. فضلاً عن أن المشكلات الإجتماعية تحتل مركزاً محورياً فى روايته «المثبت»، The Fixer وتتصف بعض إشاراته إلى المشاكل الإجتماعية بالاستفاضة مثل الفقرة التى تصف حال سيمور ليفين Sey-mour Levin. فى الرواية التى نشرها عام ١٩٦١ بعنوان «حياة جديدة» فقد ورد فى هذه الرواية أن أمريكا العاصفة قد حلت محل أمريكا الهادئة بسبب عدة عوامل منها التوتر الناجم عن الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى والغرب وتهديد السيناتور

مكارثى لحرية وأمن المواطن الأمريكى الذى يجرؤ على التفكير بحرية. ومع ذلك يمكن القول إن مثل هذه الاشارات المستفيضة نادرة فى مجمل أعماله باستثناء رواية «المثبت» والجدير بالذكر أن مالامود فى فترة رئاسته لنادى القلم الأمريكي كثيرا ما بادر بتوقيع الالتماسات المطالبة بحرية الكتاب والمثقفين المسجونين والمضطهدين فى جميع بقاع العالم.

قلنا إن أسلوب مالامود يختلف عن أسلوب بيلو ومع ذلك فإن سمة اليهودية تجمع بين الكاتبين. والقارئ لأدب مالامود لا يخطىء يهوديته بسبب كثرة إشاراته إلى اليهود ورسمه للشخصيات اليهودية وقد سئل مالامود عن السبب الذى يدعوه إلى إظهار كل هذا الاهتمام باليهود رغم أن تربيته وتعليمه أبعد ما يكونان عن البيئة اليهودية فأجاب بأن اهتمامه بهم يرجع فى الأساس الى عطفه عليهم بسبب ما كابدوه من ويلات وأهوال على أيدى النازيين. وأضاف أنه يكتب عن اليهود لأنه يعرف حياتهم عن كثب أكثر مما يعرفه عن سواهم.

وذكر مالامود سببا ثالثا هو أنه يعتبر اليهودى رمزا للانسان الوجودى فى كل مكان ذلك الانسان الوحيد الذى يكابد العذاب ويتحمله. أما السبب الرابع لاهتمامه باليهود فيرجع على حد قوله

إلى زواجه من امرأة إيطالية غير يهودية الأمر الذى حفره إلى فحص وتمحيص علاقته ببنى جلدته اليهود ومعنى هذا أن زواجه من غير يهودية لم يضعف وعيه باليهود بل زاد من وعيه بهم على عكس ما هو متوقع. ولعل أكثر هذه الأسباب لفتا للنظر هو اعتبار اليهودى رمزا للانسان الوجودى مما حدا ببعض النقاد الى القول إن مالامود يستخدم يهوديته بمثابة استعارة أو بمثابة رمز أخلاقى على حد قول روبرت أولتر. ويشرح الناقد ثيودور سولوتاروف Theodore Solotaroff دلالة هذه الاستعارة فيقول انها تشير الى البعد المأساوى فى حياة اى انسان كما انها تمثل معيارا أخلاقيا شخصياً.

ويعتبر مالامود اليهود رمزا لكل وجودى على وجه هذه الأرض من حيث أنه يؤكد الكرامة الانسانية ويرفض الخضوع للقيم الاجتماعية الزائفة. ولهذا السبب نجد أن المؤلف يضفى على شخصياته اليهودية خصائص الشخصية اليهودية كما يصورها الأدب الشعبى اليهودى وهى شخصية مهيضة الجناح ومحبطة يزدريها المجتمع ولا يلقى إليها بالا. ويذهب مالامود أن اليهودى يمكن أن يكون جانيا بقدر ما هو مجنى عليه ويستخدم الأدب اليهودى الشعبى أسلوب السخرية والهجاء فى رسم صورة

اليهودى المضطهده ويقول مالامود فى تفسيره لاهتمامه بصورة اليهودى إننا نعيش فى زمن انحطت فيه قيمة الانسان وإنه رأى فى تقديم صورة اليهودى فى أدبه الروائى دعما ومؤازرة للكرامة الانسانية.

والموضوع الرئيسى الذى تدور حوله روايات مالامود يتلخص فى مكابدة العذاب وتجاوزه. وهو موضوع روايته الأولى و«الطبيعى» (١٩٥٢) التى تخلو من كل إشارة إلى اليهود وإستخدامهم كاستعارة ويسعى بطل هذه الرواية واسمه روى هوبز Roy Hobbs إلى الانتصار على العذاب. والرواية تهدف شأنها فى ذلك شأن سائر أعمال مالامود الروائية الى تصوير العذاب كوسيلة لتحقيق السعادة. ويقول سيدنى ريتشمان ney Rich-dSi man ان العذاب فى أدبه يمثل الطريق الى الخلاص. وهى فكرة يألفها اليهود لكثرة ما ابتلوا به من نازلات. ويربط مالامود فى روايته التالية «صبى البقال» (١٩٥٧) بين فكرة الخلاص عن طريق العذاب وبين ما مر به اليهود فى تاريخهم من تجارب مريرة. ونحن نرى المؤلف يستخدم فيها اليهودية كاستعارة ترمز الى محنة الجنس البشرى بأسره.

وتروى رواية «صبى البقال» قصة شاب يدعى فرنك أولباين

يعمل كصبى فى محل بقالة صغير يمتلكه رجل يهودى اسمه موريس بوبر ورغم أن فرانك ليس بالشخص الشرير فى أعماقة فإنه يتفق مع شريك له فى سرقة محل مخدومه ولكن وخز ضميره يوجعه ويقع هذا الشاب فى غرام ابنة مخدومه اليهودية وتظهر له الفتاة شيئاً من الود غير أنها تنفر منه عندما يحاول اغتصابها وتشتمه الفتاة قائلة: أيها الكلب غير المختون. ويسعى فرانك من جانبه الى التكفير عن خطئه فيكرس كل جهده بعد وفاة مخدومه لخدمة أبنته وأرملته وأمام اخلاصه وتفانيه يبدأ قلبها فى الخفقان له، وبسبب تعذيب الضمير يتحول هذا الشاب إلى انسان مهذب ويكتسب الحكمة من تجاربه. ومن دلائل نضجه وحكمته تخلصه من مشاعره المعادية لليهود فضلا عن انه اقتنع بسلامه أخلاق مخدومه اليهودى. ويلاحظ فرانك أن اليهود يعيشون من أجل العذاب. وفى حديث يتبادله البقال وصبيه حول التوراة والدين اليهودى نراه يقول لصبيه إن البشر ليسوا حيوانات ومن ثم حاجتهم إلى الناموس وهذا ما يؤمن به كل يهودى . عندئذ يقول فرانك لمخدومه إن كل الأديان تؤمن بالناموس فلماذا إذن يتميز اليهود على بقية اتباع الأديان الأخرى بشدة حساسيتهم للعذاب؟ ويتساءل إذا كانت طبيعة اليهود تجعلهم يستعذبون الألم ويتلذذون بالعذاب؟

فيجيبه مخدومه بقوله إن اليهودى يتعذب من أجل الناموس وإنهم إن لم يفعلوا هذا فلن يكون وراء عذابهم أى طائل. وتنتهى الرواية باقتناع صبى البقال بوجهة نظر مخدومه اليهودى ومن ثم نراه يتوجه إلى المستشفى كى تجرى له عملية الختان . وهو لا يكتفى بذلك بل إنه يتحول إلى الدين اليهودى.

ورغم حماس مالامود لليهودية فإنه لا يتجاهل أن الأديان الأخرى تدعو إلى الصلاح. وتلقى الكلمة التى ألقاها الحبر اليهودى فى جنازة البقال اليهودى الضوء على مفهوم اليهودية الحق. صحيح أن هذا البقال لم يراع الطقوس والعادات اليهودية أى أنه لم يعن بالحفاظ على الشكل اليهودى التقليدى ولكن الحبر الذى يؤبنه يعتبره يهوديا حقا فى روحه وقلبه ويكفى للدلالة على يهوديته أنه كابد العذاب وتحمله ولكنه احتفظ بالأمل رغم ذلك.

ويدور عدد كبير من روايات «مالامود» حول صورة اليهودى كما يصورها ذلك الرمز الذى يشير الى عذاب الانسان وقدرته على تحمل هذا العذاب ولكن العوائق والصعوبات تعترض طريق تحقيق هذه الصورة. ويستخدم المؤلف صورة السجن للتعبير عن هذه العقبات. ونحن نرى أن هذه الصورة تتكرر فى رواية «صبى البقال» فضلا عن تكرار ورود صورة الكفن كبديل لصورة السجن.

وصبى البقال واسمه فرانك يعتقد أن مخدومه عبد محل البقالة الصغير الذى يملكه وأن هذا المحل بمثابة السجن الذى يحيط به من كل جانب. والرأى عند فرانك أن اليهود ولدوا كى يكونوا سجناء. وعندما شرع صبى البقال فى دراسة تاريخ اليهود توافر على دراسة اليهود الخارجين من غياهب السجون والساكنين فى حارات اليهود الأمر الذى يجعلهم يتعجبون من أن التوراة تصفهم بشعب الله المختار.

وتتكرر صورة السجن أيضاً فى روايته التالية «حياة جديدة». ورغم أن الرواية لا تحتوى سوى إشارة واحدة إلى يهودية بطلها سيمور ليفين فإن هذه الاشارة تلعب دورا مهما فى حبكتها التى تدور كالعادة حول فكرة الخلاص عن طريق العذاب . ويمثل سيمور ليفين شخصية اليهودى الذى يكابد العذاب. ولكنه فى نهاية الأمر يتجاوزه ويتغلب عليه. يقول الناقد روبرت أولز عن مغزى رمز السجن فى روايات مالامود (الذى قد يكون سجن النفس كما هو الحال مع بطل رواية «حياة جديدة») ان انسانية الانسان الكاملة لا تتحقق إلا إذا عرف هذا الانسان حدوده وقبلها عن طيب خاطر مهما كانت هذه الحدود أليمة على نفسه.

وتتضمن قصص مالامود القصيرة نفس فكرة الخلاص عن

طريق العذاب والقدرة اليهودية على تجاوزه. وتعتبر قصته «البرميل السحرى» من أروع انتاجه. والجدير بالذكر أن جو أدب اليديش الشعبى يشيع فى طائفة كبيرة من قصصه القصيرة التى تفوق الأدب الشعبى اليهودى فى نعومتها وغموضها ومن ثم فى حداثتها. ويصور معظم هذه القصص عذاب الشخصيات وتجاوزها لهذا العذاب عن طريق الحب.

ويدور معظم انتاج مالامود الروائى والقصصى حول اليهود والطليان فهو يعرف اليهود عن كثب لأنه واحد منهم ويعرف الطليان جيدا لأنه تزوج منهم ولأن مجلة بارتيزان ريڤيو منحته منحة لدراسة أحوالهم والتجوال فى بلادهم . وتعالج قصصه ايضا بعض الموضوعات الأخرى مثل كراهية اليهودى لنفسه مثلما نجد فى قصة «سيدة البحيرة» Lady of the Lake وهذه القصة تدور حول شاب يهودى أمريكى يدعى هنرى ليفين يخفى يهوديته طمعا فى الزواج من فتاة يظن أنها غير يهودية وتناصب اليهود العداء، وتعترف له الفتاة بيهوديتها وترفض الزواج منه لأنها ترغب فى الزواج من يهودى أمريكى. وكذلك نطالع فى مجموعته القصصية (١٩٦٣) «البلهاء أولا» Idiots Fisr قصة بعنوان «الطائر اليهودى» The Jewbird تدور حول كراهية اليهودى لنفسه وكراهية اليهودى لليهودى.

حصل مالامود على جائزة بوليتزر عن روايته «المثبت» التى تتميز بإضافة بعد جديد لم يكن له وجود واضح فى مؤلفاته من قبل وهو البعد السياسى والاجتماعي. ولكن هذا البعد الجديد لم يكن مفاجأة إذ كان موجودا فى غير وضوح فى بعض أعماله القصصية الباكرة مثل «السواد هو اللون المفضل لدى» Black is my Favourite Colour وأنجيل ليفين Angel Levine وكان موجودا بوضوح فى قصته «اللاجئ الألمانى» The German ugeeRef وتروى لنا هذه القصة حكاية لاجىء ألمانى إلى الولايات المتحدة اسمه جاسنرGassner أثر أن يترك زوجته غير اليهودية ظنا منه أن حماته تعادى اليهود. وتنتهى القصة بتحول هذه الزوجة الى الدين اليهودي. ولكن اكتشاف هذا التحول يجىء متأخرا بعد أن يكون اليأس قد دفع جاسنر الى الانتحار.

كان مالامود يدرك ان روايته «المثبت» ايذان ببدء مرحلة جديدة فى تاريخه الأدبى. وفى عام ١٩٦٧ أدلى بحديث قال فيه ربما تكون هذه المرحلة الجديدة قد بدأت قبل «المثبت» بنشره قصته «اللاجىء الألمانى». ويدل وعيه الاجتماعى فى عقد الخمسينات على أنه بدأ ينشغل مؤخرا باضطهاد اليهود وفظاعات الهولوكست بوجه خاص ولكن الجدير بالذكر أنه عالج هذه المشاكل الاجتماعية على نحو

فريد وخيالى وجعل منهما فنا له قيمته. وتتضارب آراء النقاد فى القيمة الأدبية لرواية «المثبت» منها من امتدحها ورفعها إلى عنان السماء ومنهم من أنزلها الى اسفل السافلين. ونحن على أية حال نشاهد هنا استخدام المؤلف لاستعارة السجن بالمعنيين الرمزى والواقعي. فضلا عن أن هذه الرواية تعالج الموضوع الذى تكاد ألا تخلو منه كتابات مالامود وهى مكابدة العذاب والسعى إلى الانتصار عليه. وتدور رواية «المثبت» حول واقعة اضطهاد لليهود حدثت بالفعل فى روسيا وتحديدا فى كييف عام ١٩١١. فقد اتهم الروس يهوديا بسيطا اسمه مندل بيليس Mendel Beiliss بسفك دم طفل غير يهودى لاستخدامه فى اجراء بعض الطقوس اليهودية.

وانتشرت شائعة بين الروس مفادها أن اليهود اعتادوا قتل الأطفال غير اليهود لاستخدام دمائهم فى اقامة الفصح. ورغم شراسة مثل هذا الهجوم على اليهود فإن هيئة المحلفين التى نظرت القضية وفحصتها بدقة برأت مندل بيليس من التهمة الموجهة اليه. والغريب أن قيصر روسيا نفسه كان ضالعا فى مؤامرة كبرى ضد اليهود الروس. وقد تصادف ظهور رواية

«المثبت» في غضون أسابيع قلائل من صدور كتاب ألفه موريس صامويل Maurice Samuel توفر فيه على دراسة هذه القضية وتحليل عناصرها تحليلا دقيقا. ويحمل هذا الكتاب العنوان التالي: الاتهام الدموي: التاريخ العجيب لقضية بيليس Bloody Accusations : the Strange History of thc Beiliss Case

ورغم أن مالامود استعاد في روايته رسم الخطوط العريضة لهذه القضية فإنه أضاف إليها من خياله وأعطى الضحية اليهودي اسم ياكوف. يقول المؤلف عن انتصار اليهودي المضطهد على عذابه في روايه «المثبت»:

«قصتي تدور حول السجن والمحاولة المبذولة من أجل تحقيق الحرية من خلال نمو الإنسان الروحي، ويمكن لهذا الإنسان أن ينتصر على سجنه بأن يصبح ما كان عليه قبل دخول السجن».

وتصور الرواية الخسف والاضطهاد الذي لحق بياكوف شخصية الرواية المحورية فحراس السجن يعذبونه ويمارسون ضغطا هائلا عليه كي يعترف باشتراكه في مؤامرة ضخمة تهدف إلى الإضرار بالشعب الروسي، بل انهم يغرونه بإطلاق سراحه اذا هو اعترف بوجود هذه المؤامرة، ولكن اليهودي ياكوف يظل صامدا كالصخرة لا يخيفه ترهيب ولا يغريه ترغيب ويصر على براءته.

وبذلك يتصدى فى بطولة لأعداء السامية فاديا بنى جلدته بعذابه مخلصا إياهم بآلامه رافضا خذلانهم والتعاون مع جلاديهم. وبعد أن كان ياكوف فيما مضى لا يهتم بهويته اليهودية أصبح الآن شديد الحرص عليها والاستمساك بها وشديد الاحساس بمسئوليته نحو بنى جلدته من اليهود الذين يتعرضون دوما للخسف والاضطهاد طيلة أيام حياتهم. وإلى جانب هذا البعد الاجتماعى فى الرواية يظهر بعد آخر هو البعد السياسى. وبعد أن كان المؤلف يولى ظهره للاجتماع والسياسة اصبحنا نراه يقول انه لا يمكن لليهود تجنبهما. والجدير بالذكر ان روايته «الساكنون» (١٩٧١) تدور حول علاقة اليهود بالزنوج. وفى عام ١٩٧٩ اصدر مالامود راوية «حيوان دوبين» Dubins Lives ورغم أن دوبين شخصيتها المحورية يهودى فإن الرواية تكاد تخلو من كل أثر لليهودية فيها.

٧ - فيليب روث وأدب الاعتراف

كان الأديب اليهودى المرموق فيليب روث من ألمع نجوم الثقافة الأمريكية في فترة الخمسينات ، ويزخر أدبه شأن أدب كل من بيلو ومالامود بالشخصيات اليهودية سواء كانت محورية أو هامشية. فضلا عن اشتراكه معهما فى الحداثة وخيبة الأمل فى حال العالم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. ورغم التشابه الموجود بين روث وزميليه بيلو ومالامود فإنه يختلف عنهما فى النظرة والأسلوب ، فضلا عن أنه أصغر سنا منهما.

لفت روث أنظار جمهور القراء الأمريكان فى عام ١٩٥٩ عندما نشر قصته القصيرة بعنوان «المدافع عن الايمان» Defender of the Faith في جريدة النيويوركر New Yorker الصادرة فى ١٤ مارس من هذا العام. وانحى معظم الناس وبخاصة اليهود باللائمة على هذه القصة القصيرة ورموها بالعداء ضد السامية وعابوا عليها تركيزها على الجوانب الكريهة فى حياة اليهودى وشخصيته . وبمجرد ظهور هذه القصة عام ١٩٥٩ فى المجموعة القصصية التى تحمل عنوان «وداعا ياكولمبوس » Good byc Co-lumbus انهال التجريح على مؤلفها الذى شاء أن يسخر قلمه من القيم الزائفة والفارغة التى استمسكت بها الطبقة المتوسطة

اليهودية، واعتقد الكثيرون أن هذه السخرية من جانب المؤلف لليهود تعنى انه يقف منهم موقفا عدائيا كما ذهب البعض إلى أن الرواية تمثل كراهية بعض اليهود لذواتهم. ومع هذا فقد منحه مجلس الكتاب اليهودى جائزة عن «وداعا ياكولمبوس» الأمر الذى أثار حنق الكثيرين من معارضيه ومنتقديه ومن بينهم صامويل مارجوش Samuel Margoshe – وهو صحفى يهودى – الذى اتهم روث بمعاداة السامية ووصم الكتاب بأنه وثيقة تزخر بكراهية اليهود لأنفسهم. وأضاف مارجوش أن رسم صورة لليهودى بمثل هذه القتامة لايصنع أدبا أو نقدا اجتماعيا جيدا بل ينم عن أن اليهود قوم سيئون لا يرجى منهم أى خير.

ومهما قيل ضد هذه المجموعة القصصية فقد بشرت ببزوغ موهبة يهودية جديدة تتميز بالقدرة على السخرية اللاذعة وتستمد مادتها من حياة اليهود. وترجع جذور هذه السخرية الى احساس المؤلف الباكر بالدعابة وهو احساس لازم تطوره الأدبى. وكما اسلفنا تنصب سخريته اللاذعة على القيم التى استمسك بها اليهود الأمريكان المنتمون الى الطبقة الوسطى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ويتضمن كتابه «وداعا ياكولمبوس» قصة أخرى بعنوان «الهداية

اليهودية» The Corversion of the Jews التى تدور حول تمرد غلام في الثالثة عشرة من عمره يتلقى العلم في مدرسة يهودية ضد ما يراه مظاهر التعصب الديني اليهودي، وتكشف هذه القصة ايضا عن شدة هوس مؤلفها بالجنس، وفي حديث أدلى به روث الى بعض الاسرائيليين نراه يعترف بأن سبب تأليفه لهذه القصة قد يكون ما رآه من تعصب من جانب اليهود ورفض كل مايخالفهم في الرأى. ويضيف المؤلف ان القصة تدور حول غلام يصيبه الفزع من إله يستحل لنفسه فعل ما لا يمكن مغفرته مثلما يفعل المسيحيون على الأرض عندما يسمحون لامرأة بانجاب طفل دون أن تشعر بلذة المضاجعة الجنسية. والجدير بالذكر أن الكاثوليك يرون أن الهدف من الزواج هو الانجاب وليس الاستمتاع بالجنس.

وأيضا تحتوى هذه المجموعة القصصية على قصة ثالثة بعنوان «إبشتين» Epstein التى تدور حول فشل الزيجات اليهودية بين العائلات البورجوازية الصغيرة وتمرد أبناء هذه الطبقة وانغماسهم في علاقات جنسية دون ضابط أو رابط. ويموت إبشتين وهو يزنى بامرأة. وهاج اليهود وماجوا على المؤلف الذى يتحدث عن ممارسة اليهود للجنس الحرام. اما قصة «إليا المتعصب» Eli the Fanatic فتعبر عن زراية فيليب روث بالتماثل الفكرى والسلوكى الذى تتسم

به الطبقة اليهودية التى تستقر فى الريف الأمريكى. فهى لاتطيق أن يجاورها فى السكن بعض اليهود المغايرين لهم فى العقيدة، والمنتمين الى طائفة الهاديسيين اليهودية. والجدير بالذكر ان الهجوم على زيف قيم الطبقة الوسطى الريفية سواء كانت يهودية او غير يهودية لم يقتصر على الكتاب اليهود وحدهم ، كما هو الحال مع فيليب روث بل امتد الى الكتاب الامريكان. ولأن روث نبذ الأفكار الراديكالية والثورية فإنه لم يجد أمامه حلا سوى الأمانة الشخصية يمجدها فى أدبه ويعلى من شأنها.

ويختلف روث عن كل من بيلو ومالامود فى جانب مهم. ففى حين أقام بيلو ومالامود وزنا كبيرا للخصائص اليهودية رأى روث انها عديمة الأهمية فى أدبه ونظرته للحياة. وفى حين أكد بيلو ومالامود أهمية الحياة اليهودية (التى اعتبرها مالامود رمزا لقدرة اليهودى على تجاوز عذابه) لم ير روث مثل هذه التداعيات المهمة فى يهوديته التى لم تعد فى نظره غير أن تكون معطى من معطيات الحقيقة او الواقع ، ولهذا تشككك بنو جلدته فى نواياه واتهموه كما ذكرنا بمعاداة السامية. وفى اسرائيل أثناء اشتراكه فى المناظرة التى نظمها المؤتمر اليهودى الأمريكى فى صيف عام ١٩٦٣ بعنوان «المثقف اليهودى والهوية اليهودية» تصدى له بغلظة

أحد الكتاب الاسرائيليين إذ قال له بلا مواربة انه لايعتبر اليهود الأمريكان المشاركين فى المناظرة مثقفين يهودا بل هم مجرد مثقفين تصادف انهم ينتمون الى العرق اليهودى. ثم أردف مؤكدا انه لايعتبر فيليب روث ومن كان على شاكلته مثقفين يهودا على الإطلاق. عندئذ رد عليه روث بنفس الخشونة انه لايمانع فيما قيل عنه ثم أضاف قائلا: «لست كاتبا يهوديا ولكنى كاتب ينتمى الى العرق اليهودى» . وحين تساءل البعض عن أهمية يهوديته فى كتاباته قال روث بكل أمانة إنه لايعترف بالناموس اليهودى او بالتعليم اليهودى بل إنه لا يلم بالكتاب المقدس على الإطلاق. فضلا عن أنه انكر اللغة اليهودية وتشكك فى وجود الله نفسه. ورغم هذا فإنه اعترف بوعيه بيهوديته لأن هناك مايذكره باستمرار بها. وقال إنه يعتقد أن الذى يتبقى من اليهودية فى نهاية الأمر هو تركيبة نفسية يهودية، وليست ثقافة يهودية أو تاريخا كاملا لليهود. وتربى روث على حقيقة تشربها منذ نعومة أظفاره مفادها أن اليهود أفضل من غيرهم الأمر الذى حفزه الى خلق شخصيات روائية أخلاقية، ولهذا ذهب روث إلى أنه يتعين على المرء اليهودى أن يخترع اليهود فكل ما ورثه عن أسلافه اليهود لايعدو أن يكون تركيبة نفسية خالية من المضمون أو تتضمن فقط بقايا مضمون

ولي واندثر، ومن ثم تعين عليه كمؤلف يهودى أن يعوض هذا الوضع المنهار والمتهالك باختراع اليهودية. غير أنه يقول فى وقت لاحق فى هذه المناظرة: «قد يبدو أن بعض قصصى تعالج الحياة اليهودية. وهذا ماتفعله بطرائق معينة» ولكنه يتحفظ قائلا إن الكثير من رواياته لا يتسم بالصبغة اليهودية بالذات بل هى موضوعات لها صفة العموم وتنطبق على اليهود بقدر ما تنطبق على غير اليهود. ويقرر روث أنه لم يتعمد أن يبدأ حياته بكتابة القصص اليهودية. بل كل ما هناك أنه عرف الحياة اليهودية عن كثب أكثر مما عرف غيرها. فحفزه هذا للكتابة عنها. وهذا طبيعى ومتوقع من شخص عاشر اليهود وعرف الأماكن التى يترددون عليها والأشياء التى يشعرون بها فى جوارحهم. غير أن دائرة تحركاته اتسعت بمضى الوقت لتشمل أماكن جديدة وبيئات متنوعة ومختلفة الأمر الذى أحدث تغييرا فى نوعية القصص التى يؤلفها والتى كرس لها قلمه على مدى بعض العقود ثم عاد بعدها الى معالجة نفس الشخصيات والمواقف والموضوعات اليهودية التى بدأ بها حياته الأدبية، وليس هذا بالمستغرب فقد غارت مثل هذه الأشياء فى أعماقه.

ركز روث فى مؤلفاته القصصية والروائية على فحص نفسية

الفرد سواء كان يهوديا أم غير يهودى . وهو يمزج بين قدرته الفذة على السخرية وقدرته على تمحيص الوعى الفردى . ويعيب عليه بعض النقاد عدم تحريه الموضوعية الفنية واقحام شخصيته فى كتاباته. فضلا عن أن صبغ هذه الكتابات بمشاعر المرارة كما هو الحال فى روايته الطويلة المنشورة عام ١٩٦٢ بعنوان «لندعها» Letting Go التي تدور حول شخصية جابى والاتش Gabe Wallach المنادية بأن يحيا المرء حياته وفقا لطبيعته الخاصة. هذه الشخصية خاب أملها فى الحياة فلم يعد أمامها شىء تستمسك به غير توخى الأمانة في العلاقات الخاصة، ومن ثم اهتمامها الشديد بذاتها وعدم احتفاظها سوى بالحد الأدنى من العلاقات التى تربط بينها وبين العالم الخارجى. وفى الفقرات القليلة فى القصة التى تعالج الحركات السياسية والاجتماعية نرى المؤلف يشير الى هذه الحركات بمنتهى الازدراء. وليست هناك دلالة على تركيز المؤلف على الذات الشخصية أكثر من قول والاتش : «وفى نهاية الأمر عرفت اننى لن استمد سعادتى او شقائى الذى سيكون من نصيبى من طلبتى أو زملائى أو مؤلفاتى المنشورة بل من حياتى الخاصة التى لا يعرف الآخرون عنها شيئا» .

ويرى بعض النقاد ان روايات روث تتضمن اعترافاته من خلال

شخصياته. ويتضح لنا هذا بجلاء من رواية «فلندعه» حيث تظهر اليهودية بدرجات مختلفة وفى أنماط متنوعة. واليهود الذين تعالجهم الرواية ينتمون الى طبقات اجتماعية تتفاوت بين الطبقة الوسطى والطبقة العاملة. وتخلو روايته المنشورة عام ١٩٦٧ بعنوان «عندما كانت طيبة» When she Was Good من الشخصيات اليهودية. ويبدو أن نجاحه في رسم الشخصيات غير اليهودية كان محدودا. غير أنه تخلى عن الكتابة عن غير اليهود وعاد الى تأليف الروايات عنهم فألف عام ١٩٦٩ رواية عن اليهود بعنوان «شكوى بورتنوى» Portnoy's Complaint التى تكشف عن ملامح أدب مؤلفها الأساسية مثل موهبته الكوميدية والسرد الروائى الانسيابى الدفاق وقدرته على السخرية وانشغاله المفرط بالجنس وموقفه الغامض وغير الواضح من اليهودية واليهود. ويمتدح الناقد دوايت ماكدونالدDwight Macdonald هذه الرواية كثيرا فيقول ان مؤلفها وجد صوته الحقيقى وموهبته الحقيقية فيها بعد عقد كامل من التخبط والبدايات الخاطئة . وتستخدم الرواية علم النفس الفرويدى فى تفسير عجز بورتنوى الجنسى فى معاشرة النساء اليهوديات بسبب هوس عطف أمه اليهودية عليه فى طفولته . واستقبل المجتمع اليهودى هذه الرواية كصدمة هزت كيانه لأنها تضمنت

هجوما على اليهود من ناحية واستغراقها فى ملذات الجنس من ناحية أخرى. وأصابت الرواية ذيوعا وانتشارا كبيرا فقد بيع منها حوالى نصف مليون نسخة. وتروى لنا الرواية بأسلوب شيق وجذاب اعترافات المريض الكسندر بورتنوى لمحلله النفسى التى تذكر افراط امه فى حبها ورغبتها الطاغية فى السيطرة عليه وارغامه على تناول الطعام رغم انفه. ولم تكن معاملة أبيه له أحسن حالا. والأبوان ينتميان الى الجيل الأول من المهاجرين. وشكا المريض إلى طبيبه من شدة احساسه بالذنب بسب تنشئته القائمة على الكبت لدرجة أحالته الى انسان عاجز ومريض وضعيف وهستيرى يفرط فى ممارسة العادة السرية رغم أنه فى الثلاثين من عمره. ويكفر بورتنوى بالحياة اليهودية ويسخر منها قائلا: «هل هذا هو العذاب اليهودى الذى اعتدت أن اسمع الكثير عنه. هل هذا كل ما ورثته عن الإبادة الجماعية لليهود واضطهادهم؟ وعن المهازل والخسف الذى تعرض له الشعب اليهودى خلال مايزيد على ألف عام قاحلة وموحشة؟

وبسبب استغراقها فى الجنس أصبحت هذه الرواية مضغة الأفواه، الأمر الذى عرض مؤلفها للمضايات والاهانات من جانب اليهود خاصة والقراء عامة ولم يتحمل روث هذه المضايقات فابتعد

عن المجتمع فى مكان منعزل لمدة بضعة شهور. واعتقد الكثيرون ان الرواية تحتوى على اعترافات مؤلفها الشخصية فشجعهم هذا على التطاول عليه ومعايرته من الناحية الجنسية. وبسبب تغيبه عن شقته سرت اشاعة بأنه تعرض للانهيار العصبى وأنه تم نقله الى المستشفى وأدرك روث ان يهوديته كانت خليقة بأن تمنعه من الخوض فى مثل هذه الأمور الحساسة. فضلا عن نفور المجتمع المسيحى منه. ومن ناحيته نسب المؤلف رفض الطبقة المتوسطة اليهودية الشديد للرواية الى اعتقادها بأن انشغاله الزائد عن الحد بشهوات الجنس يضعف موقف يهود أمريكا ويهدد سلامتهم للخطر.

وأثار وصف روث للاشتهاء الذى يحس به اليهود نحو النساء غير اليهوديات حنق السيدة مارى سيركين Marie Syrkin استاذة الأدب الانجليزى وكذلك محررة جريدة صهيونية تحمل اسم «الحدود اليهودية» Jewish Frontier . وتفسر هذه السيدة هذا الوصف بأنه سعى من جانب اليهود الى تدنيس الجنس الآرى. وفيما بعد أعادت هذه السيدة الغاضبة صياغة اتهامها بصورة أوضح فى خطاب نشرته مجلة تعليق فى مارس ١٩٧٣. قالت هذه السيدة إن اشتهاء اليهودى للمرأة غير اليهودية يدخل فى نطاق

مـايعـتبـره النازيـون تدنيس اليـهـود للعـرق الآرى الذى تحـدث عنه جـوبلز. وهكذا ألصـقت مـارى سـيركـين تهـمة مـعـاداة السـامـيـة بالرواية. ورد روث على هـجـوم مـارى سـيـركـين عليـه بقـوله انـهـا تتناسـى ان التوتر التقليـدى القـائم عبـر القـرون بين اليـهـود وغير اليهود المعادين للسامية لابد وأن يـكون قد أثر فى طبـيـعة العـلاقات الجنسـيـة بينهم. واذا كـانت هذه النـاقـدة لم يحـالفـهـا التـوفـيق فى إلصاق تهمة معاداة السامية بالرواية إلا انها نجحت فى هـجـومها على المؤلف الذى أكد أن يهـودية عـائلة بورتنوى هـى المسئولة عن خلق الهستيريا فى شـخـصيته وانه كمـؤلف لم يدخر جهدا لتوضيح الأثر الـعـمـيق الذى تركـتــه يهـودية بورتنوى فـى تربيـتــه. ويقـول بورتنوى مـخاطبا طبيبه النفسـانى الدكتور سـبيلفوجل Dr .Spiel Vogel : «هذه حياتى.. حياتى الخاصة وإنى أحياها كنكتة يهودية، ووجودى ثمرة نكتة يهودية.»

وبالإضافة الى مقال مارى سيركين عن هذه الرواية كتب مـحلل نفـسـى فـرويدى بارز يدعى برونـو باتلـهـايم Bruno Battelheim مقالا بعنوان «التحليل النفسى لشخصية بورتنوى» Portnoy Psy-choanalysed . يقـول باتلهـايم ان بـورتنوى التـجـأ الى مـحلل نفسانى يهودى لمعالجتـه لأنه فى قرارة نفسـه لم يكن يرغب فى

تجاوز خلفيته اليهودية التى تربى فيها أو التخلى عنها كما انه اختار محللا نفسيا لن يقصيه عن يهوديته التى يدعى كراهيتها. ويضيف باتلهايم أن بورتنوى فى حقيقة الأمر لم يكن قادرا على حب أحد حتى نفسه وكان يحمل الكراهية لذاته التى ظن أنه استطاع ان يحررها عن طريق بذاءاته. وذهب باتلهايم ان مرض بورتنوى الحقيقى يتمثل فى رفضه الاعتراف بحب والديه له لأن ذلك سوف يضطره الى ان يبادلهما الحب. وهذا ما لايريد. ويقول هذا المحلل النفسى ان بورتنوى سجين يهوديته على نحو غامض وأنه يحس بسبب يهوديته بمركب النقص ولكنه فى نفس الوقت يمقت معاداة السامية. ومن ثم نراه عاجزا عن تحقيق المتعة الجنسية الا عن طريق غواية النساء غير اليهوديات وهى ممارسات يرى أنها منحطة. ويختتم باتلهايم مقاله بالتعبير عن اعتقاده بأن قصة بورتنوى هى قصة المؤلف نفسه وقد انصرف بأمانة وصدق إلى تحليل ذاته وانه قد يكون حالة مرضية من حالات اليهود الذين يكرهون انفسهم ويعيشون غرباء فى المنفى.

وعندما ذهب منتقدوه الى أن شخصية بورتنوى تمثل شخصية مؤلفها أنكر روث انها تتضمن سيرة حياته . يقول المؤلف إن أحد الأسباب التى جعلت اليهود ينفرون من روايته أن صورة اليهودى

تغاير الصورة التى درج الأدب الأمريكى بعد الهولوكست النازى على رسمها . فقد دأب الأدب الأمريكى على رسم صورة مشرفة لليهودى كإنسان فاضل قادر على ضبط نفسه، والسيطرة على انفعالاته وينشد العدل وليس ذلك الانسان الشهوانى والعدوانى مثل بورتنوى. وتختلف صورة اليهودى عند روث عن صورته فى أدب كل من بيلو ومالامود فقد كرس بيلو ومالامود أدبهما لتصوير قدرة اليهودى على مكابدة العذاب وتجاوزه فى حين ذهب روث إلى أن اليهودية هى السبب فى اعتلال اليهودى وعجزه عن التكيف مع بيئته كما أنها السبب فيما يعانى من انحرافات نفسية. ولكن الهجوم العاتى الذى شنه اليهود على الرواية لايعنى انها لم تجد من يمتدحها ويساندها فقد قرظها عدد كبير من كبار المشتغلين بالأدب والنقد.

وتزخر رواية روث التالية التى نشرها عام ١٩٧١ بعنوان «عصابتنا» Our Gang بعنصر الهجاء الساخر الىٰ اقصى الحدود. فهى تسخر من نفاق الرئيس ريتشارد نيكسون الذى عارض الاجهاض بكل ما أوتى من قوة بسبب ايمانه الراسخ بقدسية الحياة الانسانية فى حين أنه تسامح تسامحا غير مفهوم أو مبرر مع بعض الجرائم المقترفة. وتراوح رأى النقاد فى هذه الراوية بين

التقريظ العظيم والتقريع الشديد. ويسخر المؤلف فى الكتاب الذى نشره عام ١٩٧٣ بعنوان «الرواية الأمريكية العظيمة» The Great American Novel من كثير من جوانب الحياة الأمريكية مثل الحملة المسعورة التى شنها مكارثى على كل من تجرأ وعبر عن رأيه فى حرية واستقلال متهما اياه بالشيوعية وبالعمالة لها.

ثم ألف روث رواية تعبر عن انشغال مؤلفها الكامل بموضوع الاشتهاء الجنسى بعنوان «الثدى» (١٩٧٢) The Breast وهى تدور حول استاذ للأدب اسمه دافيد كبش David Kepesh يطرأ عليه تغير بيولوجى هائل فيتحول من جسد انسان الى ثدى. ويعتقد هذا الأستاذ انه انسخط وأصبح ثديا بسبب اقتناعه وافتتانه العظيمين بقصة جوجول «الأنف» التى تروى لنا قصة موظف أخطأ الحلاق دون أن يدرى وهو يحلق له فقطع أنفه. وكذلك بسبب اعجابه الهائل بقصة مماثلة ألفها كافكا بعنوان «المسخ» Metamorphosis وفيها يتحول البطل الى مجرد حشرة.. وهو تحول يرمز إلى مدى ما تعرضت له انسانيته للمهانة والهوان. وعلى ذات الغرار وجد بطل قصة روث نفسه يتحول – كما أسلفنا – إلى ثدى الأمر الذى يدل على سخرية المؤلف من التهالك على الملذات الجنسية. ولكن النقاد

رأوا ان رواية روث «الثدى» لاتقف على قدم المساواة مع «الأنف» لجوجول و«المسخ» لكافكا.

لقد تعرض فيليب روث لوابل من الانتقادات منذ أن خطا أولى خطواته فى عالم الأدب. ولم تقتصر هذه الانتقادات على معارضيه بسبب رأيه السيىء فى اليهودية بل امتدت الى الدارسين والباحثين. وتصدى روث لهذا النقد فى عدد كبير من المقالات التى جمعها فيما بعد فى كتاب تربو صفحاته على المائتين والخمسين صفحة بعنوان « قراءة نفسى والآخرين» (١٩٧٥) . ويرفض روث اتهام النقاد له بأن معالجته لليهودية تفجر فيه عادة طاقته الديناميكية للهجاء ليجد أن هذا الهجاء قد سيطر على كل ما عداه.

ويدل انتاجه الروائى اللاحق على أنه اطلق العنان للتعبير عن جموح رغباته الجنسية. ولكن تغيرا مهما طرأ على أدبه اللاحق فقد كف عن تقريع والديه ولم يعد ينحى باللائمة على يهوديته. أى أنه لم يعد يعتبرها مسئولة عما يعانيه من مشكلات كما هو الحال فى رواية «بورتنوى» . وتكشف روايته «حياتى كرجل » My Life as a man التى نشرها عام ١٩٧٤ عن عودة روث إلى أدب الاعتراف. فضلا عن تركيز الرواية الشديد على شهوات الجنس.

واللافت للنظر فى هذه الرواية انه لم يعد يعتبر يهودية البطل مسئولة عن فشله ويمكن القول أن أدب روث الروائى ابتداء من روايته «حياتى كرجل» اصبح يدور حول الشهوة الجنسية ولكن بدون إلقاء اللوم على الأم اليهودية التى كانت فيما مضى محور هجومه وانتقاده.

وفى عام ١٩٧٧ اصدر روث رواية بعنوان استاذ الرغبة The Professor of Desire. تعتبر بمثابة تكملة لروايته «الثدى» ويلاحظ ان المقت الذى يحمله المؤلف لأبويه اليهوديين قد اختفى من أستاذ «الرغبة» . وبعد ذلك اصدر روث ثلاثية روائية بدأها برواية «الكاتب الشبح» The Ghost Writer(١٩٧٩) التى تتضمن اشارة الى الهولوكست النازى. ويشمل الجزء الثانى من هذه الثلاثية وهو بعنوان «زوكرمان طليقا»Zuckerman Unbound (١٩٨١) كثيرا فى سيرة روث الذاتية. ولكن هذا لايعنى ان أعماله الروائية ترجمة حرفية لحياته. بل يعنى فقط ان حياة المؤلف الداخلية والخارجية تشكل جوهر الكثير من كتاباته الخيالية والمتسمة بالقدرة على الوصف المتدفق البليغ الى جانب الموهبة الكوميدية غير العادية. ونحن نطالع فى الثلاثية هوس المؤلف بالجنس . وفى دفاعه عن نفسه يتهم روث معارضيه ومنتقديه بالخلط بين الشخصيات

الروائية وحياة مؤلفها. ومن ثم فهو يسعى فى ثلاثيته الى استجلاء هذا الخلط.

ورغم توقف روث فى أدبه اللاحق عن الزراية بأبويه اليهوديين فإن الثلاثية تعكس أصداء واضحة لهذه الزراية، فشخصية ناثان الروائية تنشر كتابا ناجحا يسىء فيه الى والديه اليهوديين. والوالدان اليهوديان فى هذا الكتاب يشعران بالضيق الشديد من قسوة ابنهما المؤلف عليهما ولكنهما يكتمان هذا الضيق حتى لايكدران عليه حياته. وعندما تحين ساعة والده يأتى ناثان الى جوار فراشه أثناء احتضاره فيسمع لفظ ابن الزنا ينبعث من شفتى الأب المحتضر. ولايصدق ابنه ناثان اذنيه .. ثم يموت الأب. عندئذ ينفجر هنرى شقيق ناثان فى وجه أخيه العاق ويواجهه بالحقيقة المرة، وهى أن أباه لقبه ابن زنا وهو يلفظ انفاسه الأخيرة. قال هنرى لأخيه مهتاجا : «أنت ابن زنا .. ابن زنا قاسى القلب وعديم الضمير» . فالولاء لايعنى شيئا بالنسبة لك. والمسئولية لاتعنى شيئا بالنسبة لك. وانكار الذات وضبط النفس لايعنيان اى شىء بالنسبة لك. فأنت ترى ان كل شىء يصح فضحه والتخلص منه . فلا غرو اذا رأيناك تستغل كل شىء كمادة للتفكه وتستغل الأخلاق اليهودية وقدرة اليهود على التحمل

وحكمة اليهود والعائلات اليهودية .. «واسوأ ما فى الأمر اننا نجهد انفسنا كى نمنعها من قول رأيها بصراحة فيك .. لقد قتلت أباك ياناثان بالكتاب الذى ألفته عنه . إنه تفوه بطبيعة الحال بلفظ ابن زنا. لقد رأى كما أرى فيه مافعلته بأبيك وأمك..»

وتقع كلمات هنرى وقع الصاعقة على أخيه ناثان الذى كاد ينهار ونحن نشاهد هذا فى الجزء الثالث من الثلاثية المنشور عام ١٩٨٣ بعنوان «درس التشريح An Anatomy Lesson فضلا عن أن هذه الكلمات تعمق فى ناثان احساسه بالذنب. ويتضاءل فى هذه الرواية انشغال مؤلفها بشهوة الجنس حيث نرى الألم الممض يعتصر قلب ناثان الرازح تحت وطأة الاحساس بالذنب. بسبب اساءته الى أبويه اليهوديين. ولهذا يقرر ناثان نبذ الكتابة والأدب ويتوقف عن تأليف الكتب ليبدأ دراسة الطب وهو فى الأربعين من عمره بعد أن شعر بأن موهبته الأدبية قد وصلت الى طريق مسدود. ويجدر بالذكر ان النقاد يلاحظون وجود كثير من أوجه التشابه بين حياة روث المؤلف وشخصياته مع اختلاف جوهرى وهو أن روث لم يكف عن الكتابة مثلما فعل ناثان فى الجزء الثالث من الثلاثية التى تتمتع بالقدرة الهائلة على تسلية القارىء وبزيادة الاكتمال والنضج.

٨ - نورمان مالر

يختلف موقف الروائى الأمريكى نورمان مالر Norman Mailer من يهوديته عن موقف كل من بيلو ومالامود ورُوث من يهوديتهم. لم ينكر مالر يهوديته ولكنه رفض ان يعتبر نفسه كاتبا يهوديا. يقول مالر فى هذا الصدد: «لن أقول ابدا اننى لم أكن يهوديا». ثم يضيف: «ولكنى لم استمد أية قوة من هذه الحقيقة.»

ولد نورمان مالر فى لونج برانش Long Branch بولاية نيوجيرسى وانتقلت عائلته وهو فى الرابعة من عمره كى تعيش فى بروكلين حيث تلقى قدرا ضئيلا من التعليم اليهودى. يقول مالر إن والديه كانا محافظين وتقليديين. غير أنه سرعان ما نسى بمضى الوقت ذلك القدر الضئيل من اللغة العبرية الذى اكتسبه فى باكورة حياته. وبمجرد التحاقه بالجامعة نسى مالر حياته فى بروكلين وأقرانه اليهود الذى خالطهم فى شوارعها ولم تعد تربطه بماضيه اليهودى أية صلة تذكر. وفى منتصف عقد الخمسينات اكتشف مالر - شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من الكتاب والمثقفين اليهود آنذاك - كتابات وافكار الطائفة اليهودية التصوفية المعروفة بالهاديسية. وراق له الجانب الوجودى من هذه الكتابات. وفى تلك الفترة من حياته أدمن تعاطى مخدر المارجوانا.

ورغم ضعف الروابط التى ربطت مالر باليهودية فقد استحال عليه أن يتخلص منها تماما. وكان من الطبيعى ان نراه فى مراحله الأولى يستمد كتاباته من تجاريه اليهودية. ومن ثم امتلأت صفحات رواياته الباكرة بالشخصيات اليهودية. وفى فترة تلقيه العلم بجامعة هارفارد (١٩٣٩ - ١٩٤٣) سطر يراعه كثيرا من الكتابات التى تنم عن شدة تأثره بالكاتب الأمريكى المعروف ارنست همنجواني. ومن أبرز هذه الكتابات أقصوصة بعنوان «حساب فى السماء» A Calculus at Heaven تدور حول الحرب فى الباسيفيك أثناء الحرب العالمية الثانية . ونشرها مالر لأول مرة عام ١٩٤٤ بعنوان «جزء مقطعى: مجموعة من الكتابات الأمريكية الجديدة». Cross - Section : A Collection of New American Writing وقام بتحرير هذه المجموعة ادوين سيفر Edwin Seaver وقد حذا مالر فى هذه المجموعة خدو اسلوب همنجواى فى الكتابة. وهو مايتضح لنا من رسمه لشخصية لاعب كرة قدم يهودى أشقر الشعر يدعى وكسلر Wexler الذى اعتبر نفسه يهوديا بالاسم فقط. واستقى مالر الذى اشترك فى حرب الباسيفيك لمدة ثمانية عشر شهرا مادته الروائية من تجاربه فى هذه الحرب. فألف رواية بعنوان «العرايا والموتى» The Naked and The Dead.التى تعتبر من أبرز الروايات الأمريكية التى تعالج الحرب العالمية الثانية .

وبعد هذه الرواية اختفت اليهودية من أدب مالر الروائى. والجدير بالذكر ان مالر ألف هذه الرواية فى زمن الحرب العالمية الثانية اى فى فترة حرب الحلفاء ضد النازية الالمانية . والغريب في الأمر ان امريكا آنذاك شهدت تصاعدا بين الأمريكيين انفسهم ضد السامية، ورغم ضعف ارتباط مالر ببنى جلدته فإن احساسه بالانتماء الى طبقة المطحونين جعله يشعر بالانتماء الى الشعب اليهودى المضطهد . يقول مالر فى هذا الشأن: «كنت يهوديا بسبب ولائى إلى طبقة المطحونين» . وقد حفزه شعوره بأنه مطحون الى تبنى مواقف ثورية وراديكالية طيلة حياته. واعتبر مالر نفسه واحدا من اتباع المعسكر الاشتراكى . وعمل فى الفترة من ١٩٥٧ الى ١٩٦٢ عضوا فى هيئة تحرير مجلة «الانشقاق» وهى مجلة شهرية كرست صفحاتها للدفاع عن الاشتراكية الديمقراطية. وفى تلك الفترة وقع مالر لسنوات معدودات تحت تأثير واحد من اتباع تروتسكى اسمه جان مالاكيه Jean Malaquais الذى أحيا فيه الاهتمام بمعالجة السامية . وفى المناظرة التى عقدتها مجلة البارتيزان ريفيو عام ١٩٥٢ بعنوان «بلدنا وثقافتنا» اتفق مالر مع رأى ادموند ويكسون بأن الإحياء الذى أصاب الأدب الأمريكى خلال نصف القرن المنصرم يعبز عن الغربة والاحتجاج والاشمئزاز

والتمرد. غير أن اهتمام مؤلفنا بالجانب الاجتماعى للأدب سرعان ما زايله.

وتمثل رواية «مالر» الثانية «شاطىء باربرى»Barbary Shore (١٩٥١) مرحلة انتقالية فقد تخلى عن يساريته ككاتب وركز اهتمامه على استجلاء حالة الفرد الروحية ومشاعره الوجودية وانشغاله بما بين الافخاذ، وتعبر هذه الرواية عن عدائه للنظام الستالينى فضلا عن انها تستجلى الاسرار النفسية لانصار ستالين والبوليس السرى والنرجسية والسحاق والهستيريا والراديكالية. واللافت للنظر أن هذه الراوية تخلو من الشخصيات اليهودية ، ولكن الشخصيات اليهودية تعود إلى الظهور بشكل أو آخر فى أهم أعماله الروائية اللاحقة . وفى عام ١٩٥٢ نشر واحدة من أهم قصصه القصيرة بعنوان «الرجل الذى درس اليوجا» The Man Who Studied Yoga . ولكن الشخصيات اليهودية لاتلبث أن تحتل حيزا هامشيا فى روايات مالر التالية . وتدل روايته «حديقة الغزلان» «١٩٥٥» The Deer Park على تأثره الواضح بارنست همنجواى.

آمن مالر بالوجودية وعبر عنها فى أدبه الروائى من خلال شخصية أوشنسى O'shaughnessy وهو طيار فى الحرب العالمية

الثانية قذف إحدى قرى الباسيفيك بالقنابل فيهوله الدمار المروع الذى ألحقه بالقرية . وتحوله أهوال الحرب إلى شخص يدين بالوجودية وماتنطوى عليه من ايمان بعبث الحياة الانسانية .

فضلا عن أن مالر فى تلك المرحلة من حياته وقع تحت تأثير الكاتب ويلهلم رايخ «١٨٩٧ ـ ١٩٥٧» Wilhelm Reich وأخذ عنه الإيمان بأن الجنس أهم شىء فى حياة الإنسان . وأن رضاء المرء وإشباعه لحياته الجنسية هو الضمان الأكيد لسعادته الجنسية ، ومن ثم ينبغى أن تصبح سعادة الفرد الجنسية الهدف من كل اصلاح اجتماعى ، ويشكل هذا الهدف المحور الأساسى الذى تدور حوله رواياته وقصصه ومنها قصته المهمة «زمن زمانها» The Time of Her Time وقد عبر مالر عن هذه الفكرة المحورية فى مقاله «الزنجى الأبيض» The White Negro حيث نراه يقول : «إن الجماع الجيد يفتح كل امكاناته فى حين أن الجماع الردىء يسجنه» . ونحن نشاهد أوشنسى فى «زمان زمانها» يعيش عيشة جيل البيتس المنطلق من كل القيود ، ويقابل هذا الرجل طالبة يهودية فى جامعة نيويورك ويسترسل فى التعليق على هويتها اليهودية المعقدة والتى يقوم طبيب نفسانى يهودى بتحليل عقدها ، وتحدثنا القصة عن فحولة أوشنسى الجنسية وكيف أنه رغم زهوه

بهذه الفحولة يجد عسرا فى توصيل الفتاة اليهودية إلى نقطة الجماع .

ويعالج نورمان مالر اليهودية بحيدة وموضوعية ، فضلا عن أنه يتعمد عدم التركيز على يهودية شخصياته الروائية فهو باستمرار يجعلها نصف يهودية أو أقل من ذلك ، وشخصياته الوجودية توطن نفسها على العيش كل يوم فى خطر داهم فخطر الحرب الذرية يخيم عليها كما أن خطر الموت ومعسكرات الاعتقال النازية لا يزال عالقا بأذهانها ، وحياة هذه الشخصيات الوجودية تشبه حياة الزنجى الذى تضطره الحياة فى المجتمع الأمريكى الأبيض إلى أن يعيش كل لحظة من لحظات حياته فى خطر مقيم، وهذه الشخصيات لاتكف عن البحث عن حريتها المطلقة وخاصة حريتها فى الاستغراق فى ملذات الجنس حتى لو انطوى ذلك على اقتراف الجريمة والقتل والاغتصاب والزنا بين المحرمين والمحرمات من ذوى القربى .. والأهم ألا يتوقف فى البحث عن لحظة الذروة أى لحظة الجماع . وينسب مالر تطرفه الى الدعوة إلى مايسميه مابين الافخاذ إلى تردى حالة العالم فى الخمسينات الذى يهدده خطر الفناء الذرى والحرب الباردة والجو المكارثى الخانق للحريات الى جانب صور الموت والأهوال التى لاتزال عالقة بأذهان اليهود الذين بقوا على قيد الحياة فى معسكرات الاعتقال النازية ، وسعى مالر

إلى تمجيد الدعوة الى مابين الافخاذ فى شخصية روجاك Rojack فى رواية «حلم أمريكى» An American Dream ورغم أن مالر فى حديث أدلى به امتنع عن الاعتراف الصريح بأنه يتبنى الدعوة الى مابين الأفخاذ فإن فضيحة قيامه بطعن زوجته تدل على مدى تأصل هذه الدعوة فى نفسه كما تدل على استعداده لأن يضعها موضع التنفيذ .

وأيضا يدل رأيه فى وجود الله على عدم ايمانه بالدين اليهودى. يشير مالر فى هذا الشأن إلى احترام الصراع الدائم بين قوتين مستقلتين هما الله والشيطان الذى يحرز أحيانا انتصارات على الله ، وهو نفس ماتذهب اليه الفلسفة المانية واذا كان نيتشه قد قال : إن الله مات فان مالر يقول : «إن الله فى خطر الموت».. وإذا كانت الفلسفة التصوفية اليهودية المعروفة بالهاسيدية قد راجت فإن هذا لايعنى اهتمامه بالدين اليهودى على الاطلاق . فالذى راق له فى الهاسيدية هو إيمانها بالفكر الوجودى . ويرفض مؤلفنا أن يعتبر نفسه يهوديا وهو يساوى بين الأقلية اليهودية والأقلية الزنجية فى المجتمع الأمريكى . وهو يستعرض اليهودية والزنجية بعين المراقب المحايد . والرأى عنده أن اليهودى والزنجى الأمريكى يشتركان فى خاصية واحدة فهما بحكم انتمائهما الى الأقلية يفتقران دوما الى الاحساس بالأمان ولهذا نراهما يفوقان الرجل الأبيض فى الوعى بالذات ونقد الذات .

ويستطرد مالر قائلا : إن أسوأ شيء أن تتمثل الأقلية اليهودية أو الزنجية حياة الأغلبية البورجوازية المستقرة فاحتذاء الأقلية لحياة الأغلبية قمين بأن يحول حياتها إلى شيء بلا طعم أو لون أو رائحة . والديموقراطية فى رأيه تعنى ان تتساوى الأقلية المطحونة بالأغلبية الطاحنة دون ان تفقد شيئا من سماتها الأمر الذى يشجع على التعددية الثقافية . وواجب الأقلية ان تحول كراهيتها للذات الى فن رفيع . ويمتدح مالر الحكايات الهاديسية لأنها تمثل أقوى تعبير عن الحياة الفردية اليهودية عبر القرون العديدة وهى بذلك تمثل نوعا من اليهودية الوجودية بعد انتزاع اليهودية منها ويتضح من مقاله «استجابات وردود فعل» Respenses and Reac-tions فتور اهتمامه بالهولوكست فى بادىء الأمر غير انه بمجىء الستينات اصبح يشارك كلا من بيلو ومالامود فى ازدياد وعيه بالابادة الجماعية لليهود على ايدى النازيين . يقول مالر ان الهولوكست يمثل انتصار الشيطان على الله . ويذهب الى ان جزءا من طاقة الله الخلاقة اندثر فى معسكرات الموت اليهودية . اما اذا اصر يهودى على الاعتقاد بقدرة الله على كل شيء فانه فى هذه الحالة يرى ان اهداف الله الغامضة تقتضى ابادة نصف شعب الله المختار فى الأفران وغرف الغاز .

آمن مالر بمزيج غريب من الماركسية والوجودية والعدمية والمحافظة «وهو يطلق على نفسه اليسارى المحافظ» . ويتضح لنا من كتابه المنشور عام ١٩٦٨ بعنوان «جحافل الليل» Armies of the Night انه فى الفترة اللاحقة من حياته تبنى مواقف اجتماعية ايجابية لمناهضة المؤسسات القائمة . بل إنه بدأ يتصدى لهذه المؤسسات ويقاومها بقوة وايضا تتجلى لنا معارضته ضد النظام الاجتماعى الأمريكى مما سطره فى مقالات صحفية بارعة الى جانب مقالاته فى كتابه «جحافل الليل» حيث يصف لنا زحف المتظاهرين على البنتاجون فى مارس ١٩٦٨ وإلقاء السلطات القبض عليه . ونحن نراه بعد روايته الأولى «العرايا والموتى» يشير الى يهوديته على نحو عابر . فهو فى «جحافل الليل» يشير الى نفسه بأنه «ذلك الولد اللطيف الآتى من بروكلين وانه تعلم شيئا من العبقرية اليهودية ومن الثوار كما تعلم حب المظلومين من زوجته الأولى وهى الزوجة اليهودية الوحيدة بين زوجاته الست . فضلا عن انه يحكى لنا فيه قصة عراكه مع امريكى يؤمن بالفاشية وبينما كان مالر بداخل عربة البوليس مع بعض المتظاهرين الآخرين فى انتظار ترحيلهم الى السجن اذ بهذا الفاشستى يتعمد استفزاز اليهود والسخرية منهم . ولم يطق مالر زرايته باليهود

فاشتبك معه فى عراك لم يفضه إلا واحد من كبار ضباط الشرطة . وشتم الفاشستى مالر فرد له الصاع صاعين .

وتتميز موهبة مالر بالثراء ولكنها موهبة تحتاج الى التنظيم والتهذيب والتشذيب . ومقالاته الصحفية ترقى الى مستوى الكتابة الأدبية وخاصة فى كتابه «جحافل الليل» التى أعطاها عنوانا فرعيا هو التاريخ كرواية والرواية كتاريخ . وبالاضافة زخرت قصته «أغنية الجلاد» . Executioner's Song (١٩٨٠) (التى تحكى قصة قاتل) بالخيال المختلط بسيرة حياته . والجدير بالذكر ان رواية مالر الأولى «العرايا والموتى» تتضمن عددا من الاشارات الى يهوديته فى حين أن أدبه الروائى اللاحق يشير الى يهوديته بطريقة عابرة . وهو يستخدم يهوديته فى ادبه اللاحق كأحد العناصر المهمة فى تصوير احساسه بعدم الأمان وعدم الاستقرار.

وعلى اية حال فبالرغم من انه يمكن اعتبار نورمان مالر يهوديا غير مكتمل فلا سبيل الى تجاهل يهوديته أو إنكارها مع انه يظهر عدم المبالاة بها .

٩ ـ الصحوة الدينية اليهودية في الأدب الأمريكي

بعد انحسار فرحة انتصار الحلفاء على قوات المحور فى الحرب العالمية الثانية بات من الواضح ان الحضارة الغربية تجابه محنة الأمر الذى حفز الكثير من الأدباء الى الالتجاء الى الدين كي يخلصهم مما يكتوون به من بلاء . ولا غرو ان يدب الاعياء الروحى فى اوصال المجتمعات الغربية لعدة اسباب منها مثول خطر الحرب الباردة واحتمالات الفناء الذرى. وفى عام ١٩٥٧ نشر الناقد تشارلس اى جليكسبرج . Charles . I . Glicksberg

مقالا بعنوان «الاحياء الدينى فى الادب المعاصر» يبين كيف ان إفلاس الماركسية وعدم استقرار العالم واختراع القنبلة الذرية والثورة العلمية حدت بالناس الى الارتماء فى احضان الدين . وايضا انتشرت فى الخمسينات عدوى الأفكار العدمية نتيجه القلق والتعب الروحى والعذاب واليأس والحزن الوجودى المخيم على الغرب . وبطبيعة الحال تأثر الأدب بهذا الجو العام الذى يشيع فيه الاحباط فأصبح هذا الأدب يتحدث عن اغتراب الإنسان . ولم يجد أدباء أمريكا صورة للاغتراب افضل من صورة اليهودى الذى تعرض للاضطهاد عبر القرون ثم جاءت النازية لتسحق اليهود

تحت أقدامها . وذهب جليكسبرج فى مقال الى أن هناك دلائل على ظهور الانتعاش الدينى فى الأدب ولكنه دين لايقيم وزنا للتمذهب.

وقد تنوعت ردود فعل الكتاب والمثقفين ازاء هذه المحنة فآثر البعض العودة الى حظيرة الدين التقليدى المتمثل فى المسيحية التقليدية واليهودية . ولجأ الكثيرون فى الغرب الى اديان الشرق مثل البوذية وغيرها . ولكن البعض آثر ان يسلك نفس السبيل الوجودى الذى سلكه كل من الفيلسوف جان بول سارتر والبرت كامو . أما نورمان مالر فقد استحدث وجودية خاصة به متأثرا احيانا بمارتن بيوبر صاحب الاتجاه الدينى اليهودى الوجودى المعروف بالهاسيدية الى جانب تعاطيه المخدرات ودعوته الى مابين الافخاذ أى التهالك على الجنس وايمانه بالأفكار المانية المتمثلة فى الصراع الدائم المستعر فى الكون بين قوى الخير وقوى الشر . ويمكننا ان نسوق موقف الاديب الأمريكى جنسبرج كمثال على هذه العودة الى حظيرة الدين ، فعندما سئل هذا الاديب عن الدين الذى يؤمن به أجابه بأنه قد يكون يهوديا بوذيا او «يهوديا يحمل خصائص بوذية ويهودية» على حد تعبيره. ومعنى هذا ان جنسبرج وجد فى اديان الشرق ملجأ وملاذا .

وبالاضافة إلى ذلك اتجه عدد من الكتاب اليهود إلى الدين.

فآمن الروائى ج. د. سالنجر بمزيج من المسيحية وديانة زن Zen اليابانية.

ولكن من الخطل أن نعتقد أن كل المثقفين اليهود اتجهوا شطر الديانات الشرقية فقد أدت الإبادة الجماعية لليهود على أيدى النازيين إلى ايمان الكثيرين منهم بالدين اليهودى فضلا عن مناصرتهم وتأييدهم لدولة اسرائيل التى كان الهولوكست النازى أكبر حافز على إنشائها. ولم يكتف هؤلاء المثقفون اليهود بالاستمساك بالديانة اليهودية بل جاءت مساندتهم لدولة اسرائيل من باب تأكيد الهوية اليهودية. والجدير بالذكر أن جميع المستمسكين بالدين اليهودى لم يكونوا منتمين إلى معسكر واحد فقد تنوعت اتجاهاتهم الدينية بقدر ما تنوعت اتجاهاتهم الادبية. من العائدين الى حظيرة الدين اليهودى كل من هرمان ووك Herman Wouk وتشين بوتوك Chain Potok وسنثيا أوزيك Cynthia Ozick وآرثر أ. كوهين. Arthur A . Cohen ولعل هرمان ووك الذى حظى أدبه بشعبية خير من يمثل العودة إلى الدين اليهودى. وهى عودة رحب بها أثرياء اليهود من سكان 'الريف الأمريكى. وتذهب رواية مارجورى مورنينج ستار (١٩٥٥) -Mar jorie Morning star سعى مؤلفها الجاد للتدليل على أن حياة الدعة

التقليدية الهادئة والمتماثلة التي يعيشها أبناء الطبقة البورجوازية هي خير حل لمشاكل الحياة. وأيضاً ألف ووك فيما بعد كتابا رائجا بعنوان «هذا هو ربى» This is my God تتضمن حملة دعاية للترويج للدين اليهودى.

ومن الأسماء التى اتجهت إلى الدين اليهودى ميرون كوفمان Myron kaufmann وهيونيسنسون Hugh Nissenson وجاى نورجبورن Jay Neugeboren ومارك هلبرين Mark Helprin ولكن أبرزهم جميعاً هم تشايم بوتوك Chaim Potok وآرثر كوهين وسنثيا أوزيك. ويتميز هؤلاء الكتاب الثلاثة بأن دفاعهم عن اليهودية يقوم على معرفة وثيقة بالتقاليد والمؤسسات الدينية اليهودية. ولا غرو فقد تلقى كل من كوهين وبوتوك العلم فى الخمسينات فى معهد الدراسات اللاهوتية اليهودية . وفى عام ١٩٥٤ تم رسم بوتوك كاهنا ثم واصل الدراسة ليحصل على الدكتوراه فى الفلسفة فى عام ١٩٦٥ . أما أوزيك العصامى فقد كرس جهوده الخاصة لدراسة الكتابات اليهودية. ويتميز هؤلاء الكتاب اليهود الثلاثة بإيمانهم العميق بالدين اليهودى والتعبير عن هذا الايمان فيما يسطرون من كتابات. ورغم أن بعض رواياتهم تخلو من الإشارة الى الدين فانه يمكن اعتبارهم جميعا كتابا دينيين.

وعندما نشر تشايم بوتوك عام ١٩٦٧ روايته «المختار» The Chosen أذهل نجاحها المنقطع النظير عالم الأدب. وأدرك الدارسون أن الرواية تمثل فتحا أدبيا جديدا . فقد حملت هذه الرواية صوت مؤلفها اليهودى المميز الذى يختلف عن كل أصوات اليهود الآخرين أمثال لويسهون وكوفمان فى أن بوتوك ألف رواية تدور أساسا حول التباين والصراع بين يهوديتين: يهودية عادية ويهودية مفرطة فى تعصبها إلى حد الأصولية. وتروى الرواية قصة الصراع الذى احتدم فى أمريكا بين المتشددين من أنصار اليهودية الاصولية وبين اليهود الأقل تشددا. وتركز حبكتها على محاولة المصالحة بين العقل العصرى وطريقته فى دراسة التوراه وبين الاصولية الدينية الحرفية فى تفسيرها للكتاب المقدس التى ترى أن فحص الدين بالأسلوب العلمى ليس سوى كفر بالله واستخفاف بكلامه.

والواقع أن بوتوك أعلن موقفه من هذا الصراع حتى قبل نشر رواية «المختار» وقد عبر عن هذا الموقف فى مناظرة كانت مجلة «تعليق» قد عقدتها بعنوان «حالة العقيدة اليهودية» فى عددها الصادر فى أغسطس ١٩٦٦. يقول بوتوك فى هذه المناظرة ان يهوديته أحدق بها الخطر طوال عام كامل شاهد فيه العذاب ولم

ينقذه من هذا العذاب سوى اكتشافه انه بإمكانه اعادة بناء الدين اليهودى من الداخل. ومن ثم قرر أن يخضع نصوص الكتاب المقدس إلى نقد وتحليل علمي حديث. ومعنى هذا أن الصراع الذى يصوره كتابه «المختار» يتضمن جانبا من سيره حياته. ويأتى الصراع بين الايمان اليهودى المتشدد والايمان اليهودى غير المتشدد بين فريقين من الطلبة يتباريان فى لعبة الباس بول الأمريكية. وتدل الكراهية المشبوبة التى يحملها كل من الفريقين للفريق الآخر على مدى ما بينهما من شحناء وبغضاء بسبب الخلافات الدينية العقائدية التى تفصل بينهما ولكن طالبين يمثلان الفريقين المتصارعين (وهما دانى سوندرز Danny Saunders الهاسيدى المتشدد وريفين مولتر Reuven Malter الميسنا جيدى Misnagid الذى يظهر مرونة دينية) سرعان ما يتحولان من البغض الى الصداقة.

ورغم أن بوتوك يظهر ميلا نحو الحداثة العلمية فإنه ظل حتى آنذاك لا يدين بالحداثة الأدبية. ويتميز أسلوب بوتوك بالوضوح والمباشرة فضلا عن جلاء معانيه ولغته المباشرة الخالية من الغموض والزخرف. ولكن هذا الوضوح لا يقلل من عمق ملاحظاته وجدية معالجته للمشكلات. ومما زاد من شعبيته ككاتب الانتقال

السريع فى أحداث روايته. وبعد «المختار» أصدر بوتوك عددا من الروايات هى «الوعد» The Promise المنشورة عام ١٩٦٩ ، و«اسمى اشر ليف» My Name is Asher Lev(١٩٧٢) و «فى البداية» In The Beginning (١٩٧٥) و«كتاب النور» (١٩٨١) the-Book of Lights وغيرها من الروايات، ولكن رواية «المختار» تمثل أروع ما كتب. وجميع روايات بوتوك تدور حول نفس هذا الموضوع وهو الصراع بين تفسير التوراة ككلمة الله المنزلة والتوراة كوثيقة أو نص قديم يخضع للنقد والتحليل بكل ما تحتويه من مذاهب وطقوس ودلالات اجتماعية . وبسبب عجزه عن تنويع موضوعاته الروائية يذهب بعض النقاد إلى أن مؤلفنا يفتقر الى الخيال الخصب.

ورغم أن آرثر أ. كوهين لم يكتب غير رواية دينية واحدة على قدر كبير من الأهمية فإنه ترك أثرا دينيا فى مجتمع المثقفين. وكان كوهين أستاذا للفلسفة اليهودية فى معهد الدراسات اللاهوتية اليهودية فى الفترة من ١٩٥١ حتى ١٩٥٣. وألف روايات وكتبا فى اللاهوت الى جانب اشتغاله بالنشر. وأوضح كوهين موقفه الدينى فى مقال نشره فى أبريل ١٩٥٩ فى مجلة هاربرز Harper's تحت عنوان «لماذا اخترت ان أكون يهوديا». وذهب كوهين

فى مقاله الى أن اليهودى لا يستطيع ان يختار يهوديته إلا إذا كان منتميا الى الجيل الثالث من المهاجرين لأن المجتمع لن يعتبر المنتمي الى الجيل الأول والثانى يهوديا مهما كانت أفكاره وعقيدته، أى أنه يهودى سواء شاء ذلك أو لم يشاء. اما اليهود المنتمون إلى الجيل الثالث من المهاجرين اليهود فهم وحدهم الذين يستطيعون أن يصبحوا يهودا بمحض اخيارهم. يقول كوهين فى هذا الصدد إن الامر يختلف فى يومنا الرهن لأن قوى التاريخ التى لا تقاوم لم تعد ترغمه على اعتناق اليهودية مثلما كان الحال فى الماضى. ولكن اليهودى فى يومنا الراهن يستطيع أن يختار بين البقاء على يهوديته أو اعتناق المسيحية أو الالحاد أو اظهار عدم المبالاة بالدين. ومن ناحيته اختار كوهين الاستمساك بدينه اليهودى دون أن يكون ذلك راجعا إلى ولائه للشعب اليهودى أو الدولة اليهودية بل آمن بيهوديته كدين . ويقول كوهين إن اختياره للدين اليهودى جاء نتيجة تفكير عميق وتأمل طويل ودراسة متأنية . ويضيف كوهين أن إيمانه باليهودية يرتكز على أربعة أعمدة أولها أن إيمانه باله ابراهيم واسحق ويوسف يعنى فى نظره تأكيد حقيقة تعمل من خلال التاريخ وتخاطب البشر . ثانيا إن الناموس الموسوى هو كلمة الله التى ينقلها التوراة والتى تدل على أية تعاليم

من شـأنهـا تقـريب الإنسـان من الاله الحق إله اسـرائيل ورب التاريخ. ثالثا إن الله اختار الشعب اليهودى ليصبح أداة خاصة يستخدمها لأغراضه دون أن يتبع ذلك غرور اليهود أو صلفهم لهذا الاصطفاء الالهى . فمعناه أن الله وفر لليهود حقيقة مهمة يمكن لجميع البشر بلوغها . رابعا إن يسوع ليس المسيح الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس فالمسيح سوف يأتى إلى العالم فيما بعد لتخليص التاريخ من أدرانه وأوزاره . ويسـوع الذى يؤمن به المسيحيون ليس فى نظر اليهودى سوى خادم فى سلسلة من خدام الله الذين يكابدون العذاب . وهو خادم قام الله بإرساله لتعليم الأمم .

ولا تقتصر كتابات كوهين على اللاهوت الذى ألف فيه عددا كبيرا من الكتب بل تجاوزته إلى معالجة النقد الأدبى وتأليف الروايات ومن بينها تلك الرواية المهمة التى نشرها عام ١٩٧٣ بعنوان «فى أيام سيمون ستيرن» In the Days of Simon Stern وهى رواية فى قالب فنى نسجتها روعة خيال المؤلف وتتضمن وجهة نظر خاصة بمجيء المسيح لخلاص العالم . والمسيح فى هذه الرواية ليس المسيح الذى تؤمن به المسيحية بل هو حكيم من الحكماء الستة والثلاثين الذين يعتقد المؤلف أنهم يظهرون فى كل

جيل تمهيدا لمجيء المسيح الحق فى المستقبل . وتبدأ أحداث قصة ستيرن فى بولندا . وستيرن ثمرة زواج أبوين أوعز به عراف تنبأ بأنهما سينجبان ابنا (سيمون ستيرن) سوف يصبح أحد الحكماء الستة والثلاثين فيصبح بذلك مسيحا صغيرا . وتهاجر عائلة ستيرن إلى الولايات المتحدة وتستقر في الجانب الشرقى من مدينة نيويورك حيث تتضح عبقرية سيمون فى جمع المال . فقد استطاع جمع ثروة تقدر بمائة مليون دولار . وتمر الأيام دون أن يكتشف هذا الرجل إلا فى الحرب العالمية الثانية أن الله أراد له أن يكون منقذا أو مسيحا صغيرا . ويدرك سيمون أن الله أراد له أن يجمع ثروته الطائلة من أجل غرض مقدس . ومن ثم يقوم بإنشاء مجتمع فى أمريكا يضم الناجين من الهولوكست النازى . ولكن سيمون يرتكب خطأ فاحشا فقد وقع اختياره على رجل شرير نصف يهودى نجا بجلده من الهولوكست اسمه جانوس بولتار من أجل إدارة مجتمع الناجين من الإبادة النازية . ويفتضح أمر الشر الذى يرتكبه بولتار فيشعل النار فى التجمع اليهودى ويدمره . وقد حصلت الرواية عام ١٩٧٤ على جائزة ادوارد لويس والانت Ed-ward Louis Wallant باعتبارها أهم رواية يهودية صدرت فى ذلك العام .

وتتميز هذه الرواية باللمسة الجمالية وبالخيال القادر على تصوير العناصر فوق الطبيعة في العقيدة اليهودية وخلو هذه الرواية من الأفكار اللاهوتية وتشبعها بروح العصرية والحداثة مما جعل المؤسسات اليهودية فى أمريكا ترحب بها .

وأيضا تتجه الروائية اليهودية اللامعة سنثيا أوزيك Cynthia Ozick إلى الدين اليهودى رغم أنها قليلة الكلام عن معتقداتها الدينية اليهودية . وقد حصلت هذه الروائية عام ١٩٧٢ على جائزة مجلس الكتاب اليهودى عن روايتها «الحبر الوثنى وقصص أخرى» The pagan Rabbi and other Stories (١٩٧١) . ورغم امتياز أعمالها الروائية فإنها محدودة الانتشار . وإلى جانب القصة والرواية كتبت سنثيا أوزيك طائفة كبيرة من المقالات ومراجعات الكتب. وتتميز مقالاتها فى أغلب الأحيان بالخيال الخصب ، ويبدو أنها لم تتلق تعليما نظاميا بل علمت نفسها بنفسها . وهى متبحرة فى التاريخ اليهودى والمعارف اليهودية . والذى تقوله سنثيا عن أدب البيديش ينطبق كذلك على أدبها .

تقول هذه الكاتبة عن أدب البيديش إنه يخلو من الاغتراب والعدمية ومذهب الدادية . وهى من أشد الناس حماسا فى دفاعها عن الأدب المكتوب باللغة الانجليزية الهادف فى جوهره إلى التعبير عن اليهودية .

ولكن دفاعها عن الأدب اليهودى لم يكن واضحا فى أول رواية ألفتها عام ١٩٦٦ بعنوان «الثقة» Trust وهى رواية ضخمة مكتوبة بطريقة هنرى جيمس تدور أحداثها حول الخيانة . وتنم هذه الرواية عن شدة تمكنها من اللغة الانجليزية .

وقد كتبت سنثيا عام ١٩٧٠ مقالا بعنوان «أمريكا .. نحو يافنيه» Amessice :Toward yavneh جاء فيه : «كرست حياتى حتى وقت حديث للغاية للدين فى الفن .. كان ذلك أملى والتزامى وإيمانى الوحيد» ثم تستطرد قائلة إنها عندما بدأت فى تأليف أى كتاب كان هدفها مخاطبة غير اليهود . ولكن بمجرد انتهائها من الكتاب وجدت أنها قد ألفته من أجل اليهود . وما أن فرغت من كتابة رواية «الثقة» حتى ضاقت ذرعا بأسلوبها الذى يخاطب صفوة المثقفين وطموحها فى تأليف الفن الرفيع . وتدل أعمالها اللاحقة على أن تغيرا طرأ عليها فقد استهوتها كتابة القصة والرواية القصيرة على طريقة الأديب الأمريكى فرانك أوكنور Frank O` Conner .

وفى عام ١٩٧٠ اكتمل مفهومها للمنظور اليهودى للأدب فعبرت عنه فى بحثها المشار إليه «أمريكا .. نحو يافنيه» الذى شاركت به فى الحوار الأمريكى – اليهودى السنوى الثامن المنعقد فى القدس.

وتذهب سنثيا فى بحثها إلى أن الشتات اليهودى أشبه ما يكون بأورشليم بعد نزوح أهلها عنها . وفى رأيها أن أمريكا تشبه البعث الثقافى الذى شهدته يافنيه بعد هدم معبد سليمان فى أورشليم . أى أن أمريكا سوف تصبح لبعض الوقت مثل يافنيه الملجأ الذى يلوذ به اليهود بعد طول شتات حتى يأتى الوقت الذى تتمكن فيه اسرائيل من دعم قوتها ضد البربرية والهمجية . وهى تؤكد أن لغة هذا الملجأ اليهودى سوف تكون الانجليزية المطعمة باللغة العبرية ، وهى لغة تطلق عليها سنثيا اسم «لغة البيديش الجديدة» . وتعترف مؤلفتنا بأنها تشعر أحيانا بقصور اللغة الانجليزية التى تعلمتها لأنها على حد تعبيرها لغة مسيحية عاجزة عن الاحاطة بفيض الأفكار اليهودية التى تشبه المحيط فى غزارتها . وهى تضيف أن مثل هذه اللغة الانجليزية المستحدثة يجب أن تكون نابضة بالخيال الأخلاقى وأن تعكس صوت المجتمع فضلا عن أن تكون صدى لصوت الله رب التاريخ. والرأى عندها أن هذه اللغة ينبغى ألا تكون علمانية لأن هذا يتنافى مع طبيعة اللغة اليهودية . غير أنها فى عام ١٩٨٣ تخلت عن فكرة استحداث لغة يهودية جديدة واصفة هذه اللغة بأنها مجرد حلم قديم راودها ، وذلك فى مقال نشرته فى مجلة «تعليق» بعنوان «لغة البيديش الجديدة» . وهى فى

يومنا الراهن تكتفى بالدفاع عن مزج التنوير بالأساسيات اليهودية أى بالدفـاع عن خليط من القـوة الفكرية النابعـة من التنوير والانغماس العميق فى «الحساسية اليهودية» ودراسة الكتب المقدسة .

وفى الخطاب الذى ألقته سنثيا بمناسبة حصولها عام ١٩٧٢ على جائزة مجلس الكتاب اليهودى عن روايتها «الحبر الوثنى» نراها تذهب إلى أنه يجب على اليهودى أن يقتفى أثر التاريخ ولا يتبع الطبيعة أى أن يتبع الممارسات التاريخية اليهودية وليس المذهب الطبيعى الوثنى. والرأى عندها أن الكتابة اليهودية يجب أن تحتوى على مضمون أخلاقى من صميم التقليد اليهودى . وهى تفسر الوصايا الموسوية بأنها ليست مجرد نهى عن الوثنية ورفض لعبادة الماديات فضلا عن اتباع أى شئ لذاته إلا إذا كان ينطوى على دلالة دينية أو أخلاقية . ولهذا السبب اعتبرت سنثيا الفن للفن كنوع من الوثنية واليهودى الحق فى نظرها هو المؤمن بالتماثل فى الأفكار التقليدية والتعليمات الواردة فى التوراة. ومن الغريب أنها ترى أنه يمكن لليهودى عدم الايمان بالله. ولكنها تعتقد أنه يتعين عليه العمل على تواصل روح التقاليد اليهودية. وأدى هذا إلى اقتصار اهتمامها على الأخطار الناجمة عن الهولوكست والعداء

ضد اسرائيل واحتمالات عودة الهولوكست من جديد. وبلغ اهتمامها بالشئون اليهودية حدا أنساها احتمال تدمير العالم عن طريق استخدام القنبلة الذرية . وصور لها خيالها أن أمريكا نفسها قد تمارس إبادة اليهود في يوم من الأيام قد يكون أقرب مما نتصور.

وتدل قصصها القصيرة على شدة مهارتها في استخدام اللغة الانجليزية وقوة خيالها التي تجلت في مقالاتها أحيانا . وقصصها تتأرجح بين الوضوح والغموض فضلا عن ارتباطها الوثيق بالتقاليد والمضامين والروح اليهودية . وتعتبر قصتا «الحبر الوثني» (١٩٦٦) و«الحسد أو لغة الييديش في أمريكا» (١٩٦٩) أفضل اعمالها القصصية على الاطلاق . والقصة الأولى تدور حول الصراع بين التقليد اليهودي الراسخ وبين الحب الوثني للطبيعة . في حين تدور القصة الثانية حول الحسد الذي يحس به شاعر ييدش لا يجد أحدا يترجم أعماله وبين كاتب ييدش آخر يتكالب المترجمون على ترجمة مؤلفاته. والأهم من تصوير هذا الصراع أن القصة تلقي الضوء على محنة استخدام لغة الييديش في العصر الحديث.

والجدير بالذكر أن سنثيا عبرت بقوة عن تأييدها للأدب

النسائى وحركة التحرر النسائى . وفى صيف عام ١٩٧٨ قامت هذه الكاتبة اليهودية بزيارة اسرائيل حيث عقدت جامعة بارإيلان ندوة عن اليهودية والفكر المعاصر.. قالت سنثيا إن ابادة كثير من اليهود على أيدى النازيين وتدمير الكثير من المواهب اليهودية يحتم ضرورة تشجيع اليهوديات على ولوج مضمار الخلق والابداع لتعويض ما فقده بنو اسرائيل من مواهب. وصدمت سنثيا أسماع الحاضرين عندما تشككت فى صحة مقولة الباحث الحديث «أدين شتيولتز» Adin Steinsaltz التى ترى أن التلمود يمثل الجهد الجماعى الذى بذله الشعب اليهودى بأكمله . وتذهب سنثيا إلى أن هذه فرية فالتلمود فى نظرها نتاج الذكور فقط من الشعب اليهودى لأن النساء اليهوديات استبعدن من الاشتراك فيه. وهذا معناه أن العبقرية اليهودية الحقة لم تظهر إلى الوجود حتى الآن. فهى لم تتعرض لفجيعة الهولوكست فحسب بل إن العنصر النسائى محروم من الاسهام فيها.

وشرحت سنثيا وجهة نظرها حول مكانة المرأة فى ظل الديانة اليهودية فى مقال نشرته عام ١٩٧٩ فى مجلة نسائية يهودية تسمى ليليث Lilith . تقول كاتبتنا ان التوراة تورط فى خطأ عندما أشار إلى الله باعتباره ذكرا (هو). فالله فوق التذكير

والتثنيـ معا. والتوراة يخطئ عندما ينظر إلى المرأة بنفس النظرة التى ينظر إليها بها العالم كله . فهذه فضيحة تشكك المرأة فى صحة التوراة وفى ثم فإنها ترى ضرورة إضافة وصية أخرى إلى الوصايا العشر اليهودية المعروفة . وفيما يلى نص هذه الوصية الجديدة: « إياكم والتقليل من انسانية المرأة».

وفى عام ١٩٧٦ أصدرت سنثيا مجموعتها القصصية الثانية بعنوان «سفك الدماء وثلاث قصص طويلة» Bloodshed and Three Novellas وتروى احدى قصص هذه المجموعة وهى بعنوان «مأجور» A،Mercenary حكاية يهودى بولندى يكره نفسه كان يعمل سفيرا لدولة افريقية لدى الأمم المتحدة . ولهذا اليهودى عشيقة ألمانية تسمى لولو دأبت على معايرته لاخفائه يهوديته وتنصله منها . وتعالج هذه القصة ماهية اليهودى. أما قصة «اغتصاب» Usurpatican فتعالج مشكلة الفجوة التى تفصل بين اليهودية والفن أو بالأحرى تعالج خطر الإغراء المتمثل فى السعى إلى الفن من أجل الفن . وهى فكرة تعتقد سنثيا أنها تؤدى فى النهاية إلى عبادة الفن لذاته في حين أنها تعتقد أنه ينبغى على اليهودى أن يرى فى القصة تقييما للعالم أو حكما عليه وتفسيرا له. وهى تحبذ بشدة ضرورة الربط بين كتابة القصة ومراعاة

الناموس. والمؤلفة تتصور فى «اغتصاب» أن جميع كتاب القصة سوف يجمعون فى الفردوس فى قفص واحد ليتلقوا درسا مفاده ان كل ماهو خارج الناموس تافه وليس له وزن . وتسعى سنثيا فى قصتها إلى تحذير القصاص من مغبة تجاهل الناموس فيما يسطرون.

إن سنثيا تتميز بخصوبة الخيال ومتانة اللغة وتدفقها كما أنها تتمتع بالقدرة على تصوير الواقع بطريقة تثير تعاطف القارئ رغم قسوتها. ويتجلى لنا هذا من القصة القصيرة «الشال» The Shawl التى نشرتها فى مجلة النيويوركر بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٨٠ حيث نشاهد طابورا متحركا من اليهوديات يضم شابة وطفلها وهن فى طريقهن إلى الموت بدون رحمة أو شفقة على أيدى جلاديهم من النازيين . ويتميز السرد القصصى بالجمع بين الواقع والخيال، فضلا عن أنه ينبض بالحياة الدافقة ويمتزج فى كثير من الأحيان بالنكتة الذكية.

وفى روايتها التالية «مجرة أكلة لحوم البشر» (١٩٨٣) The Cannibal Galaxy تناقش المؤلفة ماهية الثقافة اليهودية الحديثة . وتدور هذه الرواية حول شخصية يهودية محورية تنجو من الموت

من الهولوكست هى شخصية جوزيف بريل JOSEPH BRILL الذى اختبأ من النازيين فى بدروم فى باريس فى فترة الحرب العالمية الثانية . وتزوده الراهبات بالكتب ومن بينها كتب اليهودى الفرنسى المثقف الواعى ادموند فليج Edmond Fleg الذى استطاع الجمع بين الثقافة العبرية وتقاليد حركة التنوير . وفيما بعد يهاجر ادموند فليج إلى الولايات المتحدة حيث تقوم مدرسة الزامية على طريقة ادموند فليج بالجمع بين الدراسات العبرية وغير العبرية.

وخلاصة القول ان هناك فى أمريكا اليوم اهتماما متزايدا بمعالجة الموضوعات والشخصيات اليهودية فى الأدب . وهو اتجاه تواكبه عودة الأجيال الشابة إلى الدين اليهودى دون أن تجمع شملهم مدرسة فكرية أو أدبية واحدة.

واليوم تغير الأسلوب الأدبى التقليدى فى معالجة اليهود كأنماط وأصبح يتعامل معهم كأفراد . ولا يقتصر هذا التغير على الكتاب اليهود وحدهم بل يمتد إلى الكتاب غير اليهود . ويدور عدد كبير من الروايات اليهودية حول فكرة تزايد تأقلم المهاجرين اليهود بمضى الوقت مع الثقافة الأمريكية، ثم إن الكتاب اليهود حملوا

لواء الحداثة الأدبية إلى جانب ميلهم نحو اليسار السياسى . واتجه عدد من المفكرين اليهود إلى الوجودية والتعبير عن الاغتراب والنظرة العدمية المتشائمة غير أن نفرا من الكتاب اليهود البارزين أمثال شاؤول بيلو وبرنارد مالامود رفضوا الاستسلام للاغتراب واليأس من الحياة الانسانية وعبروا عن حرصهم على تأكيد قيمة الحياة الذى تنطوى عليها التقاليد اليهودية . وبسبب الهولوكست النازى بادر بعض الكتاب اليهود بالمساندة السافرة لدولة اسرائيل. وبالنظر إلى أن عقد الخمسينات فى أمريكا شاهد ظهور عدد كبير من المواهب الأدبية اليهودية فإنه يمكن اعتبار هذا العقد عقد الانتعاش الثقافى اليهودى فى الأدب الأمريكى . ومنذ ذلك الحين صار الكاتب اليهودى جزءا لا يتجزا من النسيج الفكرى والثقافى الأمريكى ولحمة وسدة هذا الفكر وليس مجرد شئ وافد على الساحة الثقافية الأمريكية . ولم يتغلغل اليهود فى الأدب الأمريكى الجاد فحسب بل أيضا فى الكتابات الغثة وعروض التسلية التى تروق لعامة الناس.

وفى نحو السبعينات حدث شئ مشابه فى أدب الزنوج فى امريكا الذى استطاع الحصول على نفس الاعتراف الذى سبق للأدب اليهودى الحصول عليه فى عقد الخمسينات. فضلا عن أن

الأمـريكان أخـذوا يحـفلون بالأدب النسـائى. واللافت للأنظار فى الآونة الأخيرة ظهور اتجاه متنام بين الأدباء، والمثقفين الأمريكان نحـو الدين بما فى ذلك الدين اليـهـودى بسـبب الأخطار البـيـئـيـة والنووية التى باتت تهدد وجود الانسان على كوكب الأرض.

فهرس

روايات الهلال تقدم

رجل بلا روح

تأليف

توفيق الحكيم

رئيس مجلس الادارة.
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ نوفمبر ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

فتحى رضوان
نصف قرن
بين
السياسة والادب



دار الـــهـــلال تـــقـــدم

سجل الهلال المصور

٣٠٠٠ صورة فى ١٥٤٠ صفحة
تعبر أصدق تعبير عن الحياة
السياسية والاجتماعية والفنية
والأدبية فى مصر ١٠٠ عام

صدر فى جزءين
الثمن ١٠٠ جنيه
اطلبوه من مكتبات دار الهلال

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ١٤٣٨٠ / ١٩٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0618- 3

هذا الكتاب

يهود أمريكا فى يومنا هذا قوة مسيطرة على عقول أمريكا ، وتعمل جاهدة على بث الحقد والكراهية للعرب ومناصرة إسرائيل فى كراهيتها للفلسطينيين والعرب وشاغلها الأوحد تنمية اسرائيل علميا واقتصاديا حتى تكون هى الأقوى دائما .

والكتاب الذى بين أيدينا يؤكد أن القوة اليهودية المسيطرة على عقل وفكر الأمريكان ليست وليدة اليوم فمنذ بدأ التغلغل اليهودى فى الأدب الأمريكى منذ الأربعينات حتى اليوم وهم الاحتياطى الاستراتيجى لإسرائيل. ويهود أمريكا يملكون الآن مراكز أبحاث خاصة بهم ، تعمل على ترسيخ اقتناع اليهودى الأمريكى بأنه جزء لايتجزأ من نسيج المجتمع الأمريكى. ومن أبرز مظاهر التمثيل اليهودى الكامل للحياة الأمريكية إنشاء جمعية عام ١٩٠٦ فى جامعة هارفارد ، تهدف إلى اندماج اليهود فى المجتمع الأمريكى ، وتحمل اسم «مينورا» ، وأصدرت هذه الجمعية مجلة «مينورا» وهى مجلة ثقافية علمانية خطيرة الأثر ، تهدف إلى تجنيد جميع الموارد اليهودية لدعم الجهود التى يبذلها اليهود للإسهام فى إثراء الحياة الفكرية الأمريكية ، وبفضل نشاطها استطاع يهود أمريكا التربع على عرش الأدب الأمريكى وتوجيه جهود أمريكا لخدمة قضايا اسرائيل داخليا وخارجيا ومناصرتها .

وفى هذه الدراسة المهمة نتعرف على الأسماء اليهودية المعروفة فى النقد الأدبى والأسماء التى لمعت فى الرواية الأمريكية الحديثة والمعاصرة، وكيف كونت الاسهامات الأدبية اليهودية قديما وحديثا الفكر الأمريكى لمعاداة العرب ومناصرة إسرائيل داخليا وخارجيا، ومن هنا تكون أهمية هذا الكتاب فى هذه المرحلة الحاسمة .



فتحي رضوان

نصف قرن بين السياسة والأدب

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٦ - شعبان - ديسمبر ١٩٩٨

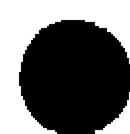
NO - 576 - DEC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرش

سوريا ٢٥٠ ليرة - لبنان٧٥٠٠ ليرة -الأردن ٣ دينارات- الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي / أبوظبى ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

فتحى رضوان

نصف قرن
بين
السياسة والأدب



دار الهلال

يصدر هذا الكتاب بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى العاشرة على رحيل فتحى رضوان فى ٢ أكتوبر ١٩٨٨

الغلاف للفنان
حلمى التونى

أنـــا

لندع التواضع جانبا لتعرف كم «أنا» خطير !!.

فأنا «عينة» للمصرى العربى الفرعونى .

وللمسلم المجدد المحافظ ، وللشرقى الغربى ، الأسيوى الأفريقى .

وللوطنى المسالم المؤمن «بالغاندية» والمقاومة «السلبية» .

وللوطنى الثائر المعجب بالطريقة الأيرلندية والمقاومة «الايجابية» .

وللمحامى «المتهم» ودارس القوانين الذى لا يرضى عن أكثر القوانين.

ولليسارى الذى يبلغ انحرافه فى رأى السفارة البريطانية الى حد «اللينية والاستالينية» .

ولليمينى الذى تبلغ معه الرجعية الى حد الجمود ومناصرة .. «الرأسمالية» .

أنا المصرى الذى أعيا «لغزه» الدارسين والباحثين ، و«الطلسم» الذى أعجز أهل اليسار وأهل اليمين .

أنا المسلم الذى يلبس من أوربا وكأوربا ويقرأ الأوربيين وكالأوربيين، والذى أراد الزمان أن يقطع صلته الروحية بأعلام المسلمين وبتراثهم الثمين .

أنا وارث العباقرة والفحول ، وأنا المستقبل «المجهول» .

فهل عرفت من أنا ؟.

فتحى رضوان

المصور : ١٩٥١/٧/٢٠ ص ١٦ .

البـــاب الأول :



بين الفكر والتاريخ

فلنحارب الاستعمار

بأنواعه الثلاثة

الثقافة القومية هى خط الدفاع الأول !

الاستعمار مرض له كل خصائص المرض وأعراضه ، لا يختلف عن أمراض البدن ، إلا أن هذه الأمراض تصيب فردا ، والاستعمار يصيب أمة . وقد بلغ من فرط التشابه بينهما، أن الأمراض تأخذ في بعض الأحايين ، صورة الأوبئة ، التى تعم بشرها الآلاف من الناس في وقت واحد ، وأن الاستعمار يأخذ نفس الصورة فى بضع الحقب من التاريخ، فاذا بموجته في هذه الحقب تطم وتعلو ، فتقع الأمم فرائس وضحايا له، الواحدة في أثر الأخرى ، وكأن ميكروبا انتقل من إحداها الى الأخرى بسرعة البرق . وقراء التاريخ يذكرون مثلا أن دول شمال أفريقيا فقدت استقلالها فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر ، ومن أخرت أصابته بهذه النكبة ، لم يطل حظه فى الاستمتاع بالحرية .

وكما يتعرض جسم الانسان للمرض حينما تضعف مناعته ، تتعرض الأمم للاستعمار حين تضعف مناعتها .

ولقد كشف العلم الحديث ، أن في الطعام عناصر معينة ، هى سر قدرة هذا الطعام على التغذية ، وبناء الجسم ، وهي ما نسميه الآن

الهلال - يناير ١٩٥٦

«الفيتامينات» ، وفى حياة الأمة الروحية والثقافية «فيتامينات» لازمة لها، إن أعوزها الحصول عليها ، أصابها الهزال ، وتعرضت للعلل ، وفقدت مناعتها فما هى تلك الفيتامينات فى الحياة القومية؟ .

إن الإنسان مفطور بطبعه على الاحساس بالماديات بأسرع مما يحس بالمعنويات ، ولذلك فان أكثر الناس يتصورون أن الأمم القوية هى الأمم الغنية أو الأمم ذات الجيوش الضخمة ، وهذا وهم كبير . فقد اطلعنا التاريخ على أمم كثيرة ، هوت عن عرش مجدها ، وهي فى ظاهر الأمر فى عنفوان قوتها . ورأينا على النقيض أمما كثيرة ، تبدو صغيرة، وهي فى واقع الأمر فقيرة ، ومع ذلك أثبت نزالها لمن هو أقوى منها وأكبر فى حساب المادة والثروة أنها هى الأكثر قوة .

★★★

فلقد نازل اليابانيون الروس سنة ١٩٠٥ فأنزلوا بهم هزائم منكرة ، وكانت روسيا بالنسبة لليابان ، كالفيل الضخم بالنسبة الى حصان صغير .

وأنزلت اليونان الهزائم في الحرب العالمية الأخيرة بايطاليا ، وتعداد سكان اليونان لا يزيد على ثلث سكان ايطاليا ، وليس لأولاهما ما للثانية من مستعمرات ، وأساطيل فى البر والبحر والجو .. ومحا العرب، فى صدر البعثة المحمدية ، امبراطوزيتى الرومان والعجم ، وكانتا فى ذلك الحين العالم المعمور ، ولم يكن للعرب عهد بحروب الدول، ولا سابقة فى إنشاء الجيوش الجرارة وتمويلها . فما هو إذن سر القوة فى الأمم ؟.

إن السر الحقيقى لقوة الأمم هو ثقافتها .

ولا أعنى هنا بالثقافة ، الجامعات ولا مدى انتشار العلم بين أفراد الأمة ، إنما أعنى الثقافة القومية التى هى خليط من العقيدة والتراث

الفكرى الموروث ، فهى حينما تكون نابضة حية ، ويكون الشعب متماسكا قويا ، لا تفعل فيه الاحداث ، ولا تهزه المحن ، بل ان هذه الثقافة ذاتها تدفعه الى العمل وإلى الابتكار والتجديد ، ثم تهيىء له فرص الفيض علي غيره من الأمم ، وأبلغ دليل على هذا ، ما نراه من تغير الأمم فى أعقاب الثورات ، فإن الثورات عادة توحد من ثقافة الشعب ، وتحيى تراثه القديم أو تصل الشعب به ، فإذا ضعفه قد استحال الى قوة ، وتفرقته الى وحدة ، وتخاذله وخوفه من المخاطر ، الى تضحية ومجازفة .

***

ولو راجعت تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى ، لوجدت أن مصر فقدت كل صلة لها بماضيها الفكرى . فلقد فصلها حكم محمد على وحكم أسرته فصلا تاما عن ماضيها القريب وماضيها البعيد . فلم تعد مصرية ولا عربية ولا فرعونية . وعلى الرغم من إنه أنشأ لها جيشا ضخما ، هدد استانبول ، وبني لها اسطولا كان أقوى الأساطيل ، لم ينقض على انشاء هذه الجيوش وبناء تلك الأساطيل أكثر من أربعين عاما حتى كانت مصر مستعمرة بريطانية .. لأن المدارس كانت تعطى علما غثا ، تافها ، أكثره بالتركية ، وأقله بالعربية ، ولأن الأزهر كبل ووضعت فى أعناقه الاغلال ، فأصبح مدرسة تعيش على فتات المائدة العربية الإسلامية المجيدة .

ولولا أن تيارا فكريا جديدا قد شمل مصر ، وأعادها من جديد الى ماضيها ، ولولا أن عاد الشعراء الى التغنى بهذا الماضى ، والشدو به ، ولولا أن اللغة العربية استقامت ، والألسن قومت لما شهدت مصر حركة مصطفى كامل ولا ثورة سنة ١٩١٩ .

فإذا أردنا أن نحمى أنفسنا من الاستعمار بأنواعه الثلاثة، السياسى والاقتصادى والعسكرى ، وأن نحصنها منه ، فلنحم ثقافتنا، ولنجعلها أساساً لحياتنا، تنعكس صورها فى أعيادنا، وفى حياتنا اليومية، وفى حياتنا العامة . فالثقافة القومية هى خط الدفاع الأساسى الذى يسبق الخطوط الاقتصادية والعسكرية ، بل هو الخط الذى يحمى تلك الخطوط ، أو إن أردت الدقة هو الذى يخلقها خلقا .

إن الثقافة القومية ، هي ثقة الشعب بنفسه ، هى أمله فى مستقبله ، هى فخره بماضيه ، هى الوعاء الذى يضم أفراد الأمة بعضهم الى بعض ، هى اللواء الذى يرفرف فوق رؤوس أفرادهم وجموعهم .

ومن هنا ، كان على المفكرين والفنانين ، على الكتاب والشعراء ، وواضعى الألحان وناظمى الأغانى ، على المصورين والنحاتين ، أن يدركوا عظم المسئولية الملقاة على عواتقهم وأن يبعثوا ثقافتنا القومية ، ويضفوا عليها أثوابها الجديدة الجميلة اللائقة بها ، ليعيدوا بناء شخصيتنا، وبالتالى قوميتنا ، وليحمونا من غارات المغيرين ، وطمع الطامعين .

مصر عربية
بإرادة أهلها

متى تصبح مصر عربية؟.

قد يقع هذا السؤال من القارئ نفسه في مصر ، أو في أى قطر عربي موقع الدهشة بل موقع الصدمة ، فإننا قد تواصينا في الحقب الأخيرة على أن مصر ليست عربية فحسب ، بل هي في موضع الزعامة من الأمة العربية ، لا بحكم مكانها الجغرافي ، أو كثرة عدد سكانها ، بل لاسهامها الطويل والعريض معا في بناء الثقافة العربية ، واقامة صرح الامة العربية ، التي تترامى ، آفاقها من الخليج الى المحيط ، بالمعاهد الكبري التي أسستها ، وحافظت عليها ، وفتحت أبوابها ، لأبناء العروبة أيا كان موضعهم ، ولأبناء المسلمين مهما نأت أوطانهم ، أو بعدت عن العربية لغتهم أو تقاليدهم ، أو أحداث تاريخهم ، وبالمواقف السياسية ، والمواقع الجريئة ، التي حملت مصر أعبائها على توالي السنين ، والقرون ، دفاعا عن حياض العروبة ، أو تدعيما لوجودها ، أو نشرا لرسالتها «فكيف تكون سمة مصر بعد ذلك كله ، محلا للتساؤل ، وكيف يرد التساؤل بالصيغة التي توحي بأن عروبة مصر ، ليست واقعا قائما ، معترفا به إنما هي رجاء قد يأتي به المستقبل أو لا يأتي .

الهلال - ديسمبر ١٩٨٢

وعلى الرغم من أن الاعتراض وجيه ، وقائم على أساس لا يمكن أن يجحدها عالم بتاريخ الأمة العربية ، وبتاريخ الدور المصرى، فى بناء هذه الأمة وتأكيد سماتها وإبراز طابعها ، والاستقلال بثقافتها ، والانتساب الى لغتها ، والتأثر بعقليتها ، علي الرغم من ذلك ، فان التساؤل عن «متى تكون مصر عربية ؟» هو تساؤل له ما يبرره ، وشرحه بصراحة وشجاعة واجب يقتضى أن نبدأ به نحن المصريين من جهة ، ونحن العرب من جهة أخرى .

والتاريخ الحديث لمصر يؤكد أن هذا التساؤل ، يعبر عما جرى ولايزال يجرى فى أعماق النفس المصرية ، فقد اصطلحت الأحداث منذ الفتح العربى أو الإسلامى لمصر بعبارة أدق ، فى سنة ٢١ هجرية ، حتي اليوم .

والذين عاشوا فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى التى جرت وقائعها فى الفترة ما بين سنة ١٩١٤ حتي سنة ١٩١٨ يذكرون كيف عانى المصريون مما يشبه الحيرة فى شأن حقيقة هويتهم ، والأصل الذى ينحدرون منه ، والجنس الذى ينتمون اليه .

ولم تكن هذه الحيرة إلا ثمرة الاحداث السياسية الكبرى التى مرت بمصر ، خلال قرن من الزمان سابق على فترة ما بعد الحرب . ففى هذا القرن وقع حدثان خطيران إلى أقصى حد وهو انسلاخ مصر إلى حد الاستقلال التام من الإمبراطورية العثمانية التي كانت تتهاوى ، أو تلفظ أنفاسها الأخيرة ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر ، وطوال القرن التاسع عشر ، فبعد أن كانت هذه الامبراطورية ملكا باذخا استمر يتسع ، ويقوى ، وتترامى أملاكه ، ويدخل فى نطاقه البحار

والجزر ، والدول ، ويخضع لسلطانه الملوك والأمراء والشيوخ ، أخذ الضعف يدب فى أوصاله ، والشيخوخة تزحف علي قلبه ورأسه وأطرافه ، وكان من آثار هذا الضعف أن نشأت فى مصر دولة على بك الكبير ، التى حولت البحر الأحمر الى بحيرة مصرية، والتى بسطت سلطانها علي مصر والشام واليمن والحجاز ، والتى وقفت ندا لدولة بنى عثمان فى الجانب الشرقي الجنوبى من البحر الأحمر .

وكان ميلاد مصر المستقلة فى عهد دولة «على بك الكبير» تمهيدا لميلاد مصر المستقلة الكبيرة فى عهد محمد على ، ولما ضاقت تركيا باستقلال مصر ، الذى أدى الى نشوء دولة عسكرية برية وبحرية على شاطىء وادى النيل ، استطاعت أن تناجز الأتراك وأن تهزم دولتهم ، حتى كادت جيوش مصر ، تتدفق على الاستانة عاصمة الدولة العلية ، لولا أن الغرب خشى من نشوء دولة إسلامية على الشاطىء الجنوبى الشرقى للبحر الأبيض تقابل دولة إسلامية عظمى على الشاطىء الشمالى الشرقي لنفس البحر .

وقد نشأ شىء قريب من هذا الاتجاه حينما حاول محمد على أن يستقل عن حكم الاستانة عاصمة العثمانيين ، وقد قال شفيق غربال ، فى تاريخ محمد على ، عندما بسط محمد على سلطان مصر على الولايات الشامية فقال :

«الولايات الشامية الأربع ، حلب وطرابلس ودمشق وصيدا وبعض المناطق الساحلية فى الجزيرة العربية على البحر الأحمر والخليج الفارسى ، والعراق ، والمناطق فيما بين الشام والاناضول ، هذا مما يترك للظروف ـ والاقطار ـ كما ترى ـ هى فى الجملة مما يكون «على حد

تعبير محمد على» عربستان أو ما نسميه دار العروبة ، فهل تصور لها كيانا سياسيا «أو ما نسميه وحدة عربية» ؟ سؤال كبير ، إن أجبنا عنه سلبا عدونا الصواب ونسبنا إليه قلة إدراك عناصر وروابط بارزة : لغة واحدة وثقافة واحدة ودين واحد ومصالح مشتركة ، وبالنسبة لحياة العالم الاقتصادية كتلة واحدة . وإن أجبنا عنه ايجابا عدونا الصواب أيضا بعض الشيء ، ونسبنا لعصر سابق ما هو ـ على وجه التحقيق ـ من خلق العصور اللواحق وأخفينا إخفاء لا يبرره الواقع عناصر وعوامل تدفع نحو التفرقة : اختلافات جغرافية واجتماعية ، اختلافات في طرق التفكير وفي مستوى المعيشة ، اختلافات مذهبية طائفية ، صعوبات المواصلات ، ضعف وسائل الاتصال العقلي والحسي . وهكذا .. ولا نعدو الصواب إن قلنا إن محمد على أدرك الفكرة في عمومها ، وأنها مما يمكن التشبيه عليه في حالة الانفصال عن السلطنة وهذا ما لم يقرره بعد ، بل ترك تقريره تبعا لظروف الحالة ، أن حتمت تلك الظروف تقسيم العالم العثماني أمكنه نقص ما تم في القرن السادس عشر وبناء العالم العربي من جديد ، ولكنه لم يكن قد يئس بعد من مستقبل السلطنة» .

وهذا الكلام الذى نقلناه عن شفيق غربال ، وهو لب البحث الذى نحاول أن نتمه الآن بإذنه تعالى .

ونبدأ بهذه الأمور التي أوردها شفيق غربال ، في مفتتح حديثه ـ والتي جرى العرف على اعتبارها من المسلمات التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . قال المؤرخ المصرى إن محمد على لم يكن ينفصل عن ادراك عناصر وروابط بارزة في المنطقة التى سماها محمد

على «عربستان» والتى تعين على بناء «دار العروبة» أو على إقامة «الوحدة العربية» وهذه العناصر هى لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، ودين واحد ومصالح مشتركة . فهل هذه المقولة صحيحة ، أم هى خطأ شائع؟

هل صحيح أن الأمم تتكون من هذه العناصر لغة واحدة وثقافة واحدة، ودين واحد ومصالح مشتركة ؟.

وأنا أزعم أن هذه العناصر التى يخيل إلينا أنها تكون الأمم ، هى عناصر ظاهرية فى حين أن الأمم التى يعرفها التاريخ ، حينما تكونت فى الماضى البعيد، أو الماضى الحديث ، لم تتكون بفضل هذه العناصر، وأن أكثر الدول ولدت ، فى الوقت التى تعوزها فيه هذه العناصر كلها ، أو على الأقل واحد أو اثنان منها : كاللغة مثلا ، ووحدتها ، أو الدين أو الثقافة المشتركة .

ونحن نعرف فى العصر الحديث أمماً تتكلم لغة واحدة ، ويضمها جوار واحد ، وربما مصالح مشتركة ومع ذلك لم تشملها وحدة ، ولم يضمها سلطان دولة ، فبلجيكا ، فيها علي الاقل نصفها يتكلم الفرنسية، والى جوارها الملاصق ، فرنسا ، ومع ذلك لم تندمج بلجيكا أو القسم الذى يتكلم الفرنسية مع فرنسا . وسويسرا تتكون من ثلاث مناطق «تتكلم ثلاث لغات هى الفرنسية والألمانية والايطالية» لا تشكو مع ذلك تفككا ومع دقة تقطع هذا الكيان فهو يتماسك ، ويتأصل وينفي .

ولم تكن بريطانيا العظمى قط ، وحدة لغوية ، ولا وحدة جنسية ، ولا سادها شعور بقيام المصلحة المشتركة ، وقد قامت حروب شديدة بين أجزاء منها : اسكتلندا من جانب ، وانجلترا من جانب ، وقد خضعت أجزاؤها لتأثيرات خارجية قوية غاية القوة متباينة فخضعت أجزاء

للقبائل الاسكندنافية الشمالية وحكم الدانمارك ، فخضعت اجزاء للنورمانديين ، وأجزاء للرومان ، ولا تزال اسماء مدنها التى ينتهى بعضها بالمقطع «هام» البرمنجهام و«نوث نجهام» والتى ينتهى اسمها بالمقطع «شير» تيورشير و«هامبشاير» .

وقد تكون شعب «الولايات المتحدة» الأمريكية من أقوام ينحدرون من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات متباينة وقد مرت بهم تجارب متعددة ، بحيث لا يكاد يجمعهم سوى عيشهم على أرض واحدة ، وهى بدورها أرض مترامية الاطراف ، مختلفة الاجواء ، والطبيعة ولكن نتاج هذا الخليط المتنافر من البشر انتهى الى وحدة سياسية ، خلقت أمة متجانسة ، تعيش فى وئام ، وتزداد على الأيام ، اندماجا واتساقا. بل أنها أصبحت قادرة علي هضم كل من ينضم إليها من مئات الألوف من المهاجرين الجدد ، وتحويلهم الى أمريكان ، يحملون سمات متقاربة ، ويعيشون فى ظل تقاليد موحدة وقد أنشأوا لأنفسهم تراثا محبباً اليهم جميعا يدافعون عنه ويتحمسون له . وما يمكن أن نستخلصه من كل ما تقدم ان العنصر الذى تتكون منه الأمم والذى يؤدى الى توثيق عرى الوحدة بين أبناء الأمة ، هو «ارادة العيش المشترك» ولو اختلفت اللغات وتكاثرت اللهجات ، واختلفت ألوان البشرة ، والسوابق التاريخية ، فالهند مثلا هى قارة بكل معنى هذا اللفظ ، فقد انتمى أهلوها الى مئات اللغات واللهجات ، وآلاف الأديان والمذاهب والطوائف ، واختلفت جوها من حر خط الاستواء الى مناطق لا يغيب عن قمم جبالها الثلج ، ومن صحارى ، لا تنبت زرعا ، الى أودية هى الغاية من الخصوبة والثراء ،

ولكنها تكونت مع ذلك وحدة سياسية ، خضعت لحكومة مركزية واحدة ، واستقلت بعلم واحد ، وازدادت علي الأيام توحدا واندماجا .

فهل أراد المصريون أن تكون أمتهم «عربية» .. وإذا كان المصريون أرادوا أن يكونوا عربا ، ففى أى العهود ، ساورتهم هذا الرغبة وهل استطاعوا أن ينفذوها ؟.

وأرجو ألا يثير هذا السؤال سخرية أو اعتراض القارىء باعتبار أن جنسيات الأمم ، ليست مجرد رغبة هذه الأمم ، كأنها مجرد قرار سياسى شبيه مثلا بإعلان الحرب أو اقرار الصلح ، أو الانضمام الي دولة أخرى فى اندماج أو اتحاد فدرالى أو كونفدرالى .

والواقع أن سمة الأمة هي قرار سياسى شبيه بهذه القرارات ، ويكاد يكون من طبيعتها ، وقد يأتى هذا القرار ، من قوى أجنبية كما قرر هتلر ضم النمسا الى ألمانيا وادماجها فيها ، وكان ممكنا أن يتم هذا الادماج ويبقى الى الابد ، لو ارتضى النمساويون أن يذوبوا فى جيرانهم الذين يتكلمون نفس اللغة والذين يشبهونهم فيما يشبه التطابق فى التاريخ والثقافة ، ولكن النمساويين رفضوا هذا الاندماج ، لاختلافهم فى المزاج عن الألمان ، وهو سبب كاف لهذا الرفض ، ولكن القرار الذى يصدر من أمة ما ، باتخاذ سمة أو طبيعة ، لا يصدر بعد مناقشة وجدال، فى مؤتمر أو مجلس أو من سلطة ذات اختصاص ملزم، إنما يصدر ضمنا وخلال فترة أو فترات طويلة مليئة بالتطورات والأحداث السياسية ، وفى أخر الأمر يجد الشعب نفسه أمام قرار لا يدرى من الذى أصدره . أشبه شيء بالأغنية الشعبية والمثل الشعبى ، لايدرى أحد من صاغ هذه الأغنية ، أو هذا المثل ، ومن وضع للأغنية

اللحن ، ومتى، وقياسا على هذا كله نقول إنه لم يكن ممكنا قبل الفتح الإسلامى لمصر سنة ٢١ هجرية بقيادة عمرو بن العاص قائد الجيش العربى الذى حقق هذا الفتح ، لم يكن ممكنا قبل هذا الفتح أن تطرح عروبة مصر على بساط البحث . ففى مصر الفرعونية أو مصر في ظل الحكم الفارسي أو اليونانى أو الرومانى . لم يكن هذا الأمر واردا ، فالأمة العربية لم يتم وجودها ، إلا بعد قيام الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة في أوائل القرن السابع الميلادى بعد بعثة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن هذا الأمر كذلك مطروحا للبحث ، بعد الفتح الإسلامى ، لأن العرب الذين تم الفتح على أيديهم ، والقبائل التى جاءت تباعا الى مصر ، واستوطنت أقاليمها فى الوجهين البحرى والقبلى ، وفى الصحارى الشرقية والغربية ، لم تكن تصف نفسها بأنها عربية ، بل كانت تحس وتؤمن وتضمر وتعلن ، أنها من المسلمين الذين جاءوا لينشروا الإسلام ، الدين الجديد وليبشروا برسالته ويثبتوا ملكه وحكمه.

ولما ضعف الوازع الدينى ، وأصبح المهاجرون من العرب ، شاعرين بتميزهم عن شعوب الأمم التى فتحوها ، فقد كانوا لا يستسيغون أن تصبح هذه الشعوب عربية ، كما أنهم عرب ، ولم يكن حكم هؤلاء الوافدين من الخارج كحكم اسلافهم الذين جاءوا يحملون الدين الجديد ، ويتأدبون بأدبه ، ويلتزمون أحكامه ، وأول هذه الأحكام جميعا الإيمان بأن الله خلق الناس ليتعارفوا ، وأن اكرمهم عند الله أتقاهم ، هذا كله الى جانب حقيقة أن الوحدات القومية لم تكن من خصائص هذا العهد ، فالشعور بالقومية لم يظهر ويتأكد إلا فى أخريات القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

ولما دالت دولة العرب المسلمين فى مصر ، وتتابعت دول يؤسسها قواد أتراك مثل أحمد بن طولون ، ثم بعد ذلك مماليك مجلوبون أصلا من أقاليم القوقاز ، كان من المستحيل ، أن يتنفس فى جو تلك الدول قصيرة العمر ، شعور بالقومية ، وعلى الأخص بالقومية التى تنتسب الى العرب ، أو تفخر بالانتماء اليهم ، ثم جاء الحكم التركى الطويل سنة ١٥١٧ .

كان من المستحيل أن تدب الى النزعة العربية فى مصر ، الروح ، فقد كان الحكم العثمانى يضيق بكل نزعة قومية ، تخالف الطابع الإسلامى العثمانى تعصبا صحيحا ، للدين فى بداية الأمر ورفضا للشعوبية باخلاص ، ثم تأكيد السلطة وهيمنة السلطان العثمانى التركى تغليبا لكل ما هو تركى ، ومطاردة لكل ماعدا ذلك .

ثم حدث ما أشرنا إليه فى بداية هذا البحث فى أخريات الحكم العثمانى فى عهدى على بك الكبير ومحمد على والذى انتهى الى قيام دولة مصرية .

ولكن طرأت مضاعفة فى كل من مصر والبلاد العربية المجاورة فى الشرق والغرب . وأعنى بها الاحتلال البريطانى فى مصر ، والاحتلال الفرنسى فى المغرب ، وبقاء الحكم العثمانى يترنح ، ويتدهور ، ويرفضه العرب فى العراق ، وسوريا ولبنان وفلسطين ، ويضيقون به ، ويتهيأون للتمرد عليه .

وفى ظل هذا الوضع الجديد كانت مصر تعانى من الاحتلال البريطانى وتثور ضده ، وكان الانجليز يبدون المودة ، ويعدون بالمساعدة للحركات التحررية ، والاصلاحية فى العراق والشام وفلسطين ، فبعدت

الشقة بين عرب المغرب والمشرق ، فما كان يتمناه العرب فى الشرق ، كان يرفضه المصريون رفضا تاما لأن أهل الشام والعراق كانوا يتمنون انتهاء الحكم العثمانى وسقوط دولة الأتراك ولو بمساعدة انجلترا وفرنسا وكانت تركيا فى مصر دولة الخلافة الإسلامية وكان سقوطها يؤذى الشعور الديني عند المصريين ، ويحملهم على اتهام عرب الشام والعراق ، ولما قامت ما يسمى بالثورة العربية سنة ١٩١٦ ، بقيادة شريف مكة الشريف حسين بن على «جد الملك حسين بن طلال» ضد الاتراك العثمانيين وهم يحاربون الانجليز فى الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ ـ ١٩١٨» اعتبرت هذه الثورة خيانة صرفة ، واعتبر زعماء هذه الثورة عملاء الاستعمار لا يستحقون الا الاحتقار والكراهية، فلما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وحنثت دول الغرب « بريطانيا ـ وفرنسا» بوعودها للعرب ، واحتلت بلادهم وأساءت معاملتهم ، وضنت عليهم بالحريات العامة، وفد زعماء العرب من الشام والعراق وفلسطين ، الي مصر ملتمسين من الحركة الوطنية المصرية المعونة ، وكانت ثورة ١٩١٩ قد اندلعت نيرانها رفض الوطنيون المصريون أن يضعوا أيديهم فى أيدى قادة الشام والعراق ، وأداروا لهم ظهورهم لسوء ظنهم فيهم ، فلما تحدث هؤلاء الزعماء السوريون والعراقيون والفلسطينيون عن الوحدة العربية والحركة العربية أصم المصريون آذانهم ، ولم يطيقوا حتى النظر فى وجوه دعاة العروبة .

وانتهز دعاة الاستعمار الغربى ، هذه الفرقة بين المصريين ، واخوانهم في شرق القناة ، فروجوا للنزعات الاقليمية وأوحوا للمصريين أنهم ورثة الحضارة الفرعونية أعظم الحضارات ، وأنهم أولى بأن

يتشبثوا بنسبتهم الى المصريين القدماء الذين هم أعلى الشعوب القديمة المتحضرة كعبا وأقدمها علوا . ومن هنا نشأت الدعوة الى الفرعونية وتأخرت الدعوة الى العروبة . واستمر ضعف الشعور العربى فى مصر حقبة طويلة فلم يكن ممكنا آنذاك أن يقال إن مصر عربية . .

ولكن بدأ التغيير يطرأ على الشعور المصرى ، حينما وقعت ثورة سوريا سنة ١٩٢٥ بقيادة سلطان باشا الاطرش ، وبدت أمجاد الثوار السوريين ، وحسن بلائهم فى منازلة الفرنسيين وانزال الخسائر بهم ، وتورطت فرنسا فى جرائم أثارت الغضب المصرى ، ومن الاعجاب بالثوار، والاحتقار للمستعمرين ، تقارب المصريون والسوريون ثم جاءت قضية فلسطين ، وثورة الفلسطينيين سنة ١٩٣٦ واستبسلوا فى الدفاع عن أرضهم وعرضهم وأحسوا أن البلاء واحد ، والمصاب مشترك ، والاعداء هم الاعداء ، ففهموا معنى العروبة ، على ضوء هذه المعارك المصيرية ، والنضال العربى ، وتغيرت نظرة المصريين إلى اخوانهم فى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، ونجح العراقيون فى الدعاية لجيشهم فى عهد الملك فيصل ، حتى أصبح يتردد على ألسنة المصريين أنه ضد الانجليز وأبدوا من البطولة وصور العراق هى بروسيا العرب ، واثار العراقيون الاستشهاد ما أنهى الصورة القبيحة العرب المشرق عند المصرين .

وازدهرت فكرة الوحدة العربية وخفتت الدعوة الى الفرعونية أو الى المصرية ، واشتد ساعد الحركة العربية ، فلما تبنت ثورة ١٩٥٢ الفكرة العربية ، بدا أن مصر قد اختارت أن تكون عربية ، وأن هذا الاختيار أبدى ولا رجعة فيه ، حتى تمت الوحدة المصرية والسورية فبدت تتويجا لهذا الاتجاه وتكريسا له .

ولكن توالت النكسات ، فحدث الانفصال بين سوريا ومصر ، ثم الت الحرب اليمنية ثم كانت حرب سنة ١٩٦٧ وهزمت مصر هزيمة كرة وكره المصريون الكثير من لفظ العروبة والعرب ، وكل ما يتصل ذين اللفظين ، ونشط دعاة الاستعمار يؤيدون هذا الانقلاب ويؤكدونه ، عتبروا أن مصر لم تجن من ميولها العربية الا الخسران المادى لأدبى .

واستمرت الدعوة المضادة لعروبة مصر وتزايدت وتصاعدت الا أن صر ثابت لنفسها شيئا فشيئا فأدركت أن عروبتها هى قبل كل شيء صلحة أدبية ومادية ، مباشرة وحقيقية . لا لأن مصر تربطها بالعالم عربى وشائج عديدة أولها التاريخ القديم الموغل فى القدم ، الذى كانت يه منطقة الشرق العربى ، أو الشرق الأوسط بالتعبير الغربى وحدة تصلة ، جغرافيا ، ومتسقة سياسيا ، تتشابه فيها الظروف ، وتخضع ى الأغلب الأعم ، لحكم واحد ، وتسودها سياسة واحدة ، ولم تتحطم ذه الوحدة الا بفعل دخيل غير طبيعى من قوى أجنبية تزول ، وتبقى ذه المنطقة تتبادل التأثير والتأثر ، كما تتبادل سلع التجارة ومنتجات صناعة . كان كذلك الحال فى عهد الفراعنة ، وفى عهد اليونان الرومان والعرب والمماليك والعثمانيين والاستعمار الغربى ، ولايزال لحال هو هو حتى اليوم .

وعلى مر الأيام أصبحت مصر ، قائدة هذه المنطقة ، وقلبها . تعلم ثقف وتهذب وتقود ، وتجد مصر من ذلك مالا ، ومكانة وقوة ، وتأثيرا تجددا فى العالم كله .

ثم أن العالم الآن أصبح عالم تكتلات ، والكتلة العربية ، كتلة

سياسية وثقافية واقتصادية طبيعية ، ولا افتعال فيها ، وهى تمنح كل أعضائها قوة ولاسيما بعد تدفق البترول فى نواح عديدة منها، وتكدس الأرصدة البترولية فى خزانها كثير من هؤلاء الاعضاء .

وقد جاءت أزمات فلسطين ، ومحاولة الغرب وضع اليد على أرضها نهائيا ، وإبعاد أهلها منها لتكون هذه الأرض فاصلا بين العرب بعضهم البعض وإسفينا يفرق بينهم ، وقاعدة عسكرية أبدية ، وحاملة طائرات دائمة ، وهذه المحاولة الآثمة تركت ردى فعل مختلفين أولهما بث الفرقة بين العرب ، وهو رد الفعل الأول ، ثم الاحساس بالحاجة إلى الاتحاد ، وخلق الوحدة ، والشعور بالخطر ثم الشعور بالأهمية والمكانة والرسالة الإنسانية وهذا الشعور الأخير ، لأنه أكثر طبيعية فإنه الشعور الذى سيبقى وسيحس المصريون ، من خلال الأحداث والمصائب والهزائم أن الوحدة العربية هى ميزة لبلادهم وواجب ملقى عليها وفرصة للعمل العظيم ، وللتأثير العالمى وأنهم لايملكون التفريط فى هذا كله ، أو التخلى عنه .

وكما قلت سمات الأمم وهويتها لا تتكون من اللغة أو الدين أو التاريخ فقط ، فهذه عوامل ممهدة ومساعدة أما العامل الرئيسى والحاسم فهو ارادة الشعب .

ومصر عربية بارادة أهلها ، يدعم هذه الإرادة التاريخ الطويل الحافل ، والجغرافيا الظاهرة الناصعة والدين المبين الصالح .

تركيا القديمة
فى تركيا الجديدة

(زار كاتب هذا المقال تركيا ، وهو يروى هنا بعض ملاحظاته مشاهداته فى تلك البلاد).

من الساعة التى وضعت فيها قدمى على أرض تركيا وأنا أقول إن تركيا الجديدة لا تكاد تختلف فى شىء كثير عن تركيا القديمة التى سمعنا عنها وقرأنا وصف رجالها وأخلاق بنيها وصفات ساستها ، لست أقول هذا القول فى غير ما ترو أو دراسة ، فأنا مثلا أعلم كما يعلم الناس جميعا أن قائدا موفقا اجتمعت فيه العزيمة والاقدام وحب الاصلاح هو الذى يقود تركيا اليوم ، وإن تركيا أصبحت جمهورية وأن هذه الجمهورية عملت لخير البلاد الشيء الكثير فهى مثلا قد فتحت هذا العام ألف مدرسة ، كما أنها جعلت التعليم الابتدائى اجباريا ومجانيا ، وصبغت هذا التعليم بصبغة وطنية فأصبح الطالب يرى إذ يدرس التاريخ أو الجغرافيا أن تركيا هى المحور الذى تدور عليه الدراسة ، فهو يدرس التاريخ ليعرف مكانتها بين الأمم وعناصر قوتها ، وهو يدرس الجغرافيا ليعرف كيف تستطيع تركيا أن تمد فى تجارتها وتبسط فى نفوذها البرى والبحرى ، وتتحرر من ربقة الاستعباد الاقتصادى لغيرها

الهلال - فبراير ١٩٣٣

من الدول بعد أن تحررت من ربقة الاستعباد السياسي . وأعرف ذ
ذلك أن هذه الجمهورية تعنى بالفلاح وتعينه ، فهى قد وهبت أراضي
«الدومين» لهؤلاء الفلاحين على أن يستغلوها ثلاث سنوات متواليا
فان قام الفلاحون بهذا الاستغلال طوال هذه المدة أصبحت الأر
أرضهم . أعرف لتركيا الجمهورية كل هذا ، ولكن شعورى بأن تر
القديمة ماتزال تبدو فى تركيا اليوم - وتبدو واضحة يحسها الإنسان
الناس الذين يسيرون فى الطرقات ، وفى الصحف وفى الحكومة و
كل مكان - لم يضعف إذ عرفت الحقائق التى ذكرتها لك .

فالتركى رجل متدين كثير الحرص على دينه، قليل المرح شد
العبوس ، فاذ جاءت الجمهورية أباحت للإنسان أن يعتنق أى دين ش
مادام قد بلغ سن الرشد ، ولكن مايزال التركى متدينا ومتعصبا لدين
فأنت إذا دخلت الى المساجد فى الأيام العادية وجدتها خالية كما ت
مساجد القاهرة ، فإذا كان يوم الجمعة غصت بالمصلين يأتون مئا
مئات وفيهم الشبان وفيهم الرجال الذين لم يتقدم بهم العمر . وقد يأ
بك العجب اذ ترى تركيا التى ألغت الطربوش واستبدلت به قبعا
وترجمت القرآن الى التركية وجعلت الآذان تركيا ، لاتزال تبقى على
الجمعة كعطلة رسمية تقف فيها الأعمال جميعا ويخرج الناس لل
والمرح . فتمتلىء الطرقات بهم وقد تأنقوا فى لبس ثيابهم . وترك
تخسر بحرصها على يوم الجمعة عطلة رسمية خسارة مادية ، لا
تجارتها وأعمالها تعطل يوما آخر هو - الاحد - العطلة العالمية - الذ
تقف فيه أعمال البورصات والمصارف والمتاجر والمصانع، وكان الأج
بتركيا أن تسرع الى اتخاذ يوم الاحد عطلة وهى التى تقلد أوربا فى

يء ولكنها لم تفعل ، وقد حرت فى تعليل هذا فسألت الكثيرين عن سر فاذا جواب غامض لا يكاد يزيد على أن الحكومة حاولت هذا الفعل ، ولكنها لم تستطع أن تمضى فيه، وقد عرفت أن الغاء الطربوش بس القبعة يمكن تبريره بأن الدين في القلب وليس المظهر جزءا منه أثرا له . وأن ترجمة القرآن يمكن تعليلها بأن التركى يجب أن عرف دينه وكتابه الذى يؤمن به ، والناس لاتكره هذا فى نهاية الأمر عد المناقشة ، أما أن يعطل الاحتفال بيوم الجمعة فهنا الاجتراء على ن آية كريمة وهنا الاعتداء علي حرمة الدين وبذلك لا يستشعر أولو لأمر فى أمتهم القدرة علي اقتراف هذا العمل فيدعوه !.

ولست تستطيع أن تفهم كيف أن حكومة تركيا - وهى حكومة لا ينية - تهتم بأمر القرآن والأذان فتترجمهما الى اللغة التركية وكان لأجدر بها بعد أن فصلت الدولة عن الدين أن تترك هذا كله للناس ، من أراد أن يعرف أصول دينه فى كتابه المقدس تلمس لذلك الوسائل ، لكن تركيا القديمة التى تعنى بالدين وتحتفل بأمره وتنزله من حياتها نزلة خاصة لم تمت بعد .. ولكن تركيا القديمة كان اهتمامها بالدين يظهر فى هذه المساجد التى تملأ الاستانة حتى سميت بحق مدينة لمساجد ، وفى هذه الآيات التى تكتب على الأبواب والدور والمعاهد المتاحف ، وفى لفظ «الله» الذى يتردد فى كلام الأتراك وتحياتهم كثيرا. واهتمام تركيا الجديدة يظهر فى ترجمة القرآن وفى ترجمة الاذان وفى الاعتناء بالاحتفال بيوم الجمعة احتفالا ما أظن دولة إسلامية أخرى تقوم بمثله .

على أن تركيا القديمة تظهر فى الروح الشرقية التي يلمحها الإنسان المدقق في كل ما يبدو من الأتراك، فالفتيات سافرات وهن

يلبسن على الطراز الأوربى الحديث وهن يتلقين العلم فى الجامعات مع الشبان جنبا الى جنب . ولكن لست تستطيع أن ترى صورا من اختلاط الجنسين كان من المعقول أن يراها الإنسان فى بلد تشجع فيه الحكومة هذا الاختلاط وتدعو له ، حتى لتفتح حانات الرقص الي الصباح وتشجع ضباطها وموظفيها وتستحثهم للإقبال عليه حتى ليدعو الى هذا الرقص الغازى بنفسه عملا وقولا ، ولكنك فى النهاية تجد الفتيات التركيات شبه منعزلات . وترى فى مشيتهن وحركاتهن المرأة التركية ذات الجد والاحتشام ، وإنى لأذكر أنى كنت استثير صديقا تركيا بترديدى على مسمعه : «أرنى شابا مع فتاة ولك ليرة» وقد خرجت مع هذا الصديق مرات الى الحدائق والملاهى والجزائر حيث يحتشد الاتراك ألوفا ألوفا ، وكان يدور بعينيه فى هذه الألوف ليرى الفتاة مع الشاب ، ولست أذكر أنه أخذ منى ليرة ، قد يبدو أن فى هذا القول مبالغة أو تهويلا، ولكنى أقنع بأن أقدم للقارىء هذه النتيجة ، إن الفتاة المصرية وهى فى بلاد شرقية وليست تلقى تشجيعا من الكتاب ولا من الهيئات ، تتفرنج وتسرع فى هذه الفرنجة أكثر مما تفعل فتاة تركيا وصور الاختلاط بين الجنسين فى مصر تتعدد على شواطىء البحر وفى الحدائق وفى الملاهى ، وليس لهذه الصور نظائر كثيرة فى تركيا . وقد حدثتك عن الشبان والفتيات فى تركيا ، أما اذا ارتقيت ـ أو هبطت ـ الى مرتبة الشيوخ والفلاحين فهنا تركيا القديمة بحالها ، تركيا التى تكره القبعة، وتركيا التى تكره الحروف اللاتينية ، وتركيا التى تكره السفور واختلاط الجنسين ، وتركيا الشرقية التى لا تعرف مصطفى كمال المجدد الاجتماعى ولا تحبه ، وإنما تعرف مصطفى كمال المنقذ الذى تر

رر البلاد من الاعداء ورد لها الحرية وهي تحب هذا المنقذ ، وهي
لى أتم استعداد لأن تعمل معه في ميادين الحرب والعمل السلمى وأن
دم حياتها ومالها فى سبيل تقوية تركيا واعزاز جانبها .

وفى النهاية تبدو تركيا القديمة فى نظام الحكم الحالى ، فنظام
فرد الذى كان فيها مايزال هو نظامها الحالى ، فثمة جمهورية وبرلمان
لكن الناقدين لا يستطيعون أن يتكلموا إلا همسا ، وإن ارتفعت
صواتهم أخرسوا ، وإن تحركت أقلامهم قصفت هذه الأقلام ، ولقد
مس فى أذنى أكثر من هامس وشكا لى أكثر من شاك ! ولكن تركيا
الجديدة تظهر رائعة جليلة بحيث تحرك الاعجاب فى النفوس وفى
لصدور جميعا ، فى المظاهر القومية التى لاتنفك تطالع الإنسان أينما
ذهب فى تركيا ، فالاجانب لا تلمحهم ولا تراهم ، والحكومة لا تسمح
لهم بأن يفكروا فى الاعتداء على سيادتها ، وإنى لا أذكر أن أول ما
شاهدته فى أزمير واستوقفنى ، هو جريدة «سن بوستا» ـ آخر بريد ـ
فقد رأيتها فى أيدى الناس جميعا وعلى صدرها بالخط العريض «حادث
هام ـ الشرطة والمعارف يهتمان به» وقد طلبت من أحدهم أن يترجم لى
هذا الخبر ، فأخبرنى أن فتاة أجنبية مسيحية كاثوليكية قد أثر عليها
بعض المبشرين فاعتنقت البروتستانتية ثم بلغ الخبر أهليها فأبلغوه
بدورهم للأمن العام فقامت الشرطة بالتحقيق من ناحية وقامت به وزارة
المعارف من ناحية أخرى ، وأغلقت هذه المدرسة الأجنبية التبشيرية
ووعدت الصحيفة قراءها بأن تنشر لهم أخبار هذا الحادث المهم أولا
فأولا .

وليس هذا الحادث إلا واحدا من حوادث كثيرة كلها تدل على أن
تركيا التى ماتزال شرقية فى صميمها قد عززت هذه الشرقية الكامنة
المستترة بقومية قوية واضحة .

حرب الحضارات

فى الشرق العربى

إن ما يجرى فى منطقتنا التى يجب أن نسميها الشرق العربى، بدلا من «الشرق الأوسط».. لان تعبير الشرق الأوسط، هو تعبير استعمارى استعمله الحلفاء، بريطانيا وأمريكا فى الحرب العالمية الثانية «١٩٣٩ – ١٩٤٥»، وقد ادخلوا فى هذا الاسم تركيا وايران وباكستان. إن ما يجرى فى هذه المنطقة، يمكن أن نلخصه بانه محاولة للاستعمار الذى يؤيد الصهيونية وتؤيده بوضع اليد على بلادنا.. أولا – لموقعها الجغرافى الثمين، والمؤثر، والفعال .. ثانيا – لغناها بالظاهر والخفى من الثروات المعدنية، والزراعية، والسياحية.. ثالثا – لمكانتها الروحية باعتبارها موطن الاراضى المقدسة الاسلامية والمسيحية واليهودية. رابعا – لانها حلقة فى سلسلة ثقافية حضارية ، تبدأ عند سور الصين، وتمتد حتى شاطىء الاطلسى عند المغرب. وهذا التلخيص ، صحيح، ولكنه ناقص

فالاستعمار والصهيونية يطمعان فى منطقتنا لهذه الاسباب، وما يتبعها ، وما يتفرع عليها ، ولكن ليس الغرض على غير ما يبدو لنا تجاريا

الهلال – أول يونية ١٩٨٣ .

أو اقتصاديا، وإن كان الباعث الاقتصادى والمالى موجودا، الا أن الهدف أبعد من ذلك بكثير، ذلك أن ما يتلهب به قلب الاستعمار الغربى من مطمع هو طمس الحضارة الخاصة ببلادنا والتى نشأت على شاطىء النيل ودجلة والفرات، وانتشرت فى الدنيا كلها فى عصور موغلة فى القدم - منذ سبعة آلاف سنة، وحملت اسماء عديدة: فرعونية، يونانية، رومانية، عربية، عثمانية.. كما حملت اسماء أخرى: اسلامية، مسيحية ويهودية.

وانتزاع جذور هذه الحضارة ، يؤدى بطبيعة الحال، إلى القضاء على أقوى عناصر المقاومة فى منطقة الشرق العربى، لان هذه المنطقة بعد انقطاع صلتها بماضيها الحضارى، يتيسر اندماجها فى الغرب، وذوبانها فى منطقه ، واصطناع أساليبه ومناهجه، وانعدام الاحساس بالعدوان الحاصل عليها ، باعتبارها امتدادا للغرب..

ولقد كانت المحاولة الاولى، لهذا الهجوم ذاته، وبالغاية ذاتها فى أخريات القرن الحادى عشر ، أى سنة ١٠٩٩ وقد عرفت تلك المحاولة بالحرب الصليبية التى نجحت فى اقامة «مملكة بيت المقدس فى نفس الموقع الذى تقوم فيه الآن اسرائيل» وقد استطاع العرب أن يردوا هؤلاء الغزاة على أعقابهم وأن يطهروا أرضهم من رجسهم، بعد مائتى سنة من الحروب والمعارك، وسلم الشرق العربى، من تفكيك أوصاله الحضارية، ومن طمس حضارته، وقد كانت حالة ذلك الشرق اسلم بكثير منها هذه الأيام، فلم يكن الغرب قد استطاع أن يطوق هذه المنطقة ويتدخل فيها عسكريا واقتصاديا ، وقبل كل شىء ثقافيا.

فى تلك الفترة، كانت يسود الشرق العربى ثقافة واحدة، هى الثقافة العربية الاسلامية، وكانت مناهج الحياة وقواعد المعيشة وأساليب

التفكير، كلها نابعة من تلك الثقافة، ومن التراث المتراكم من الآباء والاجداد، فلم يكن أهل المنطقة، تتجاذبهم تيارات فكر متعارضة، فكان الغزاة أمام مجتمع متحد، يستند إلى عقيدة واحدة قوية، وشعور قومى، يضم الصفوف ويشد العزائم ، وينتهى بردود فعل واحدة..

ولقد بدأ الاستعمار الغربى، بمنطقة الشرق العربى، لان العالم العربى، هو القطاع الاقرب من حضارات الشرق إلى التحرك الغربى الذى بدأ تحركا أوربيا محضا إلى أن لحقت به أمريكا بعد قرون.

وقد منيت الغزوة الغربية الأولى المتمثلة فى الحرب الصليبية، بالهزيمة والارتداد وإن استطاعت أن تثبت أقدامها فى أجزاء من العالم العربي، كما حدث فى «مملكة القدس» لمدة قرنين، ولكن لم يكن ممكنا لهذه الغزوة أن تحقق انتصارا أعمق من ذلك، ذلك لان الغرب لم يكن بعد قد استيقظ ومر فى مراحل الصحة، والنهضة والبعث الحضارى، ولم يكن اتصاله بالعرب والمسلمين قد ترك أثره بعد فيه، وقد مضت قرون حتى وفى القرن الخامس عشر، ورأت أوربا، أن تتفادى العالم العربى، وذلك عن طريق الاكتشافات البحرية التى أعدتها أسبانيا والبرتغال لتلتف حول جنوب أفريقيا، للوصول إلى آسيا، ولم تتحول الموجة الاستعمارية، إلى موجة عالمية، الا فى القرن التاسع عشر عندما كانت القوة لاوروبا، بعد استيعاب جميع ما حققته الحضارة العربية والاسلامية، ونقلته الثقافة العربية الاسلامية عن الحضارات السابقة: يونانية ورومانية وفارسية وهندية، وهضمته، وأضافت إليه ، وصاغته صياغة جديدة.

وقد بقى الغرب يتربص للبطش بمصر طليعة العالم العربى، لانه كان يحسن قراءة التاريخ، وكان قد خرج من دراسته لتاريخ المنطقة،

بانه ما من مرة استطاع أن يوجد فى مصر رجل قوى ينظم أمورها - ولو إلى حد ما، ويحس بدورها فى المنطقة، ويعرف كيف يتجاوز بنظره حدودها، ويدرك جيدا صلاتها بالعالم الذى يحيط بها، ، والذى يتصل بها، ويتأثر بما يجرى فيها، بطريقة تكاد تكون سحرية لا تبدو مظاهرها، لانها تتداخل فى نسيج قديم، قدم مصر، وقدم المنطقة والحضارات التى تتابعت فيها وتلاحقت..

ما من مرة وجد هذا الرجل حتى تقفز مصر فجأة إلى زعامة تشمل المنطقة، وتتضخم فيها مكانة مصر، وتتحول المنطقة كلها إلى وحدة تتماسك وتتلاحق، وتصبح قوة لا تقاوم.

كانت مصر كذلك فى ظل أحمد بن طولون وكافور الاخشيدى والفاطميين والايوبيين، ثم فى ظل المماليك العظام الذى دان لهم الشرق العربى، وتحولت فى عهدهم الممرات البرية والبحرية فى البحر الابيض والبحر والأحمر، قنوات مصرية خاضعة لارادة سلطانها خضوعا مطلقا، ولذلك راقبت بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا، البحرية المصرية الجديدة التى بدأت فى سنة ١٨٠٥، بقلق شديد، وإن كانت تلك القوى، غير قادرة على الجزم بمدى ما يمكن أن ينجم عن هذا التطور فى سنة ١٨٠٥ حينما بويع محمد على واليا على مصر، مبايعة شعبية تجرى أحداثها فى المحكمة الشرعية، التى تحلقت حول مبناها عشرات الالوف من المصريين لتشارك مشاركة مباشرة في خلع الحكم العثمانى، ممثلا فى الوالى التركى، واختيار حاكم آخر بدلا منه، ولكن الاستعمار الغربى أدرك بعد ذلك أن السكوت على هذه الدولة الجديدة، معناه السكوت على وحدة ذات استقلال اقتصادى، يمكن أن تكون عقبة فى طريق الهيمنة

الغربية على المنطقة العربية كلها ، ثم ما وراءها، فقررت أن تلاحقها ، حتى قضت عليها القضاء الذى تمثل فى معاهدة سنة ١٨٤٠ التى كانت دستور العلاقة المصرية - الاوربية حتى وقع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢.

لكن الفترة الطويلة السابقة على هذا الاحتلال كانت فترة تغلغل رؤوس الاموال الاجنبية، وفترة فتح قناة السويس التى كانت غزوا غربيا، وقاعدة أوربية، عاصرتها عملية واسعة النطاق تم بها اخضاع كل من تونس والجزائر والمغرب للنفوذ الغربي واحتلالها جميعا بقوات عسكرية أوربية.

منذ بدأت عملية تغريب العرب، ونزعهم تدريجيا، وبدأب واستمرار من أصولهم الثقافية، وسماتهم الحضارية.. وإذا اتخذنا مصر، وما تم فيها نموذجا لتطبيق قواعد عملية التغريب، وفتح أبواب الثقافة الاوربية لتلتهم كل ما هو عربى وما هو اسلامى وما هو شرقى، وتأكيد وترسيخ كل ما هو أوربى، وكل ما هو غربى، واقامة العقبات والحواجز، فى وجه استيحاء الماضى أو بعثه، فإننا نجد أن الخطوة الأولى فى هذه الخطة هى تسريح الجيش وتأليف قوة عسكرية ضعيفة تكاد تكون بلا سلاح، قوامها جنود مرضى وجهلة وفقراء، يرأسهم ضباط لا يعرفون من العلم العام إلا قشوره، ومن العلم العسكرى الا السير فى المواكب، وحمل بنادق فارغة من الذخيرة، وسيوف لامعة لم تستعمل قط. ثم فك الاسطول المصرى ، وبيعه لشركات أجنبية وتحويله إلى شركة ملاحة تجارية.

ولما أمن الانجليز جانب الجيش والقوة العسكرية فى البر والبحر، تقدموا نحو التغريب الفكرى والروحى، فأقاموا النظام القانونى فى

البلاد، على أساس من القوانين الاوربية ، فمنذ سنة ١٨٨٣ أصبح القانون الفرنسي هو مصدر التشريع المدني والجنائي وأصول المحاكمات والمرافعات، وقطعت العلاقة بين التشريع الجاري في البلاد والشريعة الاسلامية. وبعد أن كانت المحاكم الشرعية هي محاكم القانون العام، ذبلت وضؤل اختصاصها، واقتصر على دعاوى الزواج والطلاق والنفقات، وبعبارة موجزة، أقدمت بريطانيا على وضع أسس العلمانية في مصر، وهي المحاولة التي أقدم عليها «كمال اتاتورك» في بلاده سنة ١٩٢٤ فأثارت العالم الاسلامي والعربي، وكان لها دوي كدوي الصاعقة، وأكثر العالم الاسلامي لا يعرف أن ما فعله كمال اتاتورك في تلك السنة سبقت إليه مصر، في ظل الحكم البريطاني منذ أربعين عاما، دون أن يثور أو يعترض أحد.

ولعل أطرف صور التغريب في مصر، هو محاولة تغريب الكنيسة الارثوذكسية القبطية، وفتح أبوابها لتيارات المذاهب المسيحية الاوربية ، أي الكاثوليكية التي تتزعمها وتحميها فرنسا، والبروتستانتية التي تتزعمها وتحميها بريطانيا.

وفي كتاب «المسلمون والاقباط» للاستاذ طارق البشري، بيان عن المعركة التي دارت بين الكنيسة المصرية، وبعثات التبشير الاجنبية الامريكية والبريطانية والفرنسية والايطالية.

ولما كان هذا الجانب من حياتنا الروحية غير ملحوظ، فإنه من الخير أن نورد طرفا من تاريخ هذه المعركة، نقلا عن هذا الكتاب القيم. قال المؤلف:

«على مشارف التاريخ الحديث، تصادفنا قصة البطريرك يوانس الثامن عشر مع كنيسة روما الكاثوليكية، إذ تولى البطريرك رئاسة

الكنيسة فى أكتوبر سنة ١٧٦٩ وكنيسة روما تبذل أقصى جهدها لتضم الكنائس الشرقية إليها، وعلى الاخص الكنيسة المصرية. وبعث بابا روما مندوبا عنه إلى مصر يحمل رسالة يدعو فيها البطريرك القبطى للاتحاد معه، ويعرض عليه مشروع خطاب أعدته كنيسة روما ليكون صيغة المصلحة بين الكنيستين على ما بينهما من خلافات عقائدية.

«ويمكن تصور ظروف هذه الفترة التى بزغ فيها نجم الحضارة الاوربية وأصبحت ذات قوة اقتصادية وعسكرية، وذات هيبة وانتشار واطماع وهى ذاتها الفترة التى كانت فيها مصر وما حولها ترسف فى أغلال من التخلف بعد سابق ازدهار مجيد في العصر الوسيط وتعانى من حكم العثمانيين قسوة واستغلالا وتخلفا. وكل ذلك يشكل ظرفا مواتيا لتحقيق الاطماع الاوربية» . على أن البطريرك رفض تلك الدعوة وكلف أحد كبار اللاهوتيين من الاقباط باعداد خطاب يرد فيه بالرفض على دعوة الاتحاد.. جاء فيه : «وانى لاعجب من كثرة ذكاوة عقلكم ودقة فهمكم الرفيع، الذى لم نره من أحد قط من مدة كبيرة، وما ينيف على ألف ومائتى سنة، وما سمعنا بأحد من المرسلين من قبل البابا الرومانى كتب من عنده صورة رسالة إلى آبائى البطاركة الذين سلفوا قبلنا، ويعرفه منها أن يكتبها للبابا الرومانى ويخضع له، ويصير تحت اعتقاده، كما صنعتم أنتم»..

هذه السطور التى تبدو ساذجة، ومكتوبة على الفطرة، غنية بالدلالات التى أولها أن بابا روما، لا يريد تعاونا بين كنيسته والكنيسة القبطية، بل يريد من الكنيسة المصرية خضوعا وانصياعا.. ثانيا أن رأس الكنيسة القبطية أدرك مرامى الرسالة البابوية الآتية من روما،

واستشعر فيها الرغبة فى السيطرة والهيمنة فرفضها فى غير رفق.. ثالثا.. إن ما سعت اليه الكنيسة الرومانية هو هدف سياسى ، يراد به أن يخرج المصريون (ولو كانوا مسيحيين) من إهابهم ليلبسوا جلدا جديدا ، يكونون فيه أتباعا وذيولا لأوربا من خلال الدين ..

وقد حدث أن أرسل البابا جماعة من الرهبان استوطنوا مدن الصعيد ، وحاولوا جذب الأقباط الى الكنيسة الرومانية ونجح هؤلاء فى استمالة بعض الأسر القبطية الى المذهب الكاثوليكى . وقد حدث من جراء ذلك انقسام بين الأقباط أرادت الكنيسة الكاثوليكية استغلاله فى موضوع قضاء الأحوال الشخصية .

والطريف الداعى الى الاعجاب أن الحكومة المصرية ضايقها هذا الموقف من جانب الكنيسة الكاثوليكية فلجأت الحكومة الى المحكمة الشرعية الكبرى فى مصر سنة ١٧٣٨ فقضى القاضى الشرعى بأن تكون سلطة الفصل فى هذه المسائل الى البطريرك القبطى الارثوذكسى. ومعنى ذلك أن اتحادا وقع بين الحكومة المصرية والكنيسة القبطية والمحكمة الشرعية ضد النفوذ الاجنبى وأنهم نجحوا فى صده وأن الهيئات أو الجهات الثلاث كان لديها وعى كامل بحقيقة هذا التسلل وأنه بعيد تماما عن الدعوة الدينية، وأنه كان غزوا أجنبيا يمس سيادة البلاد واستقلالها.

وقد أورد الاستاذ طارق البشرى نقلا عن كتاب «وصف مصر» نقلا عن مبعوث فرنسا إلى مصر سنة ١٧٠٩ أن هؤلاء الرهبان لم يلقوا نجاحا كبيرا فى دعوتهم عن طريق الترغيب «الاقباط الارثوذكس». ولما وقعت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨، اصطنع الفرنسيون

قبطيا هو «الجنرال يعقوب» الذى كون فرقة من الاقباط لمناصرة الفرنسيين غير أن الاقباط المصريين لم يكونوا راضين عنه، وقد حدثت مشاحنات بينه وبين البطريرك، ودخل يوما إلى الكنيسة الكبرى راكبا جواده فطرده البطريرك، ولم تتيسر له الاقامة فى مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها فرحل مع الحملة الفرنسية إلى فرنسا، ولم يعد إلى بلاده .

ومما يجدر تسجيله أن البطريرك مرقص الثامن، وجه رسالة إلى الاقباط أبرز المعنى الذى نحاول اظهاره هنا، إذ قال: «ابتدأنا أن نتعلم عادات الامم الغربية، ولازمنا فاعلى الشر».

وقد نقل الاستاذ طارق البشرى عن الدكتور وليم سليمان فى كتابه «الامة القبطية» إن أهم رسالتين بروتستانتيتين وفدتا إلى مصر فى القرن التاسع عشر، جاءت إحداهما من انجلترا، والثانية من أمريكا، عن طريق الشام وإن كانت خطة الامريكيين هى القضاء على الكنيسة القبطية وضم ابنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة بينما كانت خطة الانجليز الابقاء على الكنيسة القبطية المصرية مع التغلغل فيها والسيطرة عليها.

وقد حاول بابوات روما اخضاع الكنيسة القبطية واجبارها على الاعتراف برئاستهم، وذلك بما ارسلوا من رهبان فرنسيسكان إلى مصر توغلوا فى الصعيد حيث يكثر الاقباط، وبلغ بهم الامر – كما يروى الاستاذ جرجس سلامة – أن كان الفرنسيسكان يخطفون الاطفال ويرسلونهم إلى روما لتعليمهم الكاثوليكية إلا أن الأقباط قاوموا هذه الحملة إلى حد أنهم استولوا على كنائس الفرنسيسكان وطردوهم

منها، ثم انضمت الارساليات البروتستانتية الانجليزية والامريكية، وانشأت تلك الارساليات مدارس لها جمعيات بدأت بأغراض دينية بحتة، وعارضت الكنيسة القبطية هذا النشاط وسافر البطريرك المصرى إلى أسيوط على باخرة نيلية وضعها الخديو إسماعيل تحت أمره، في وجه النشاط البروتستانتى، وعلى منع القبط من إرسال ابنائهم إلى مدارس التبشير، وطاف الكهنة على البيوت يحرمون على كل أب أن يرسل أولاده إلى هذه المدارس، وصدر قرار الحرمان ضد من يخالف هذا النصح، أو يزور مكتبات تلك المدارس أو يقرأ كتبها أو يصافح أو يصادق أحدا من المبشرين.. ويروى الدكتور هوج وهو مبشر اسكتلندى، أنه ذهب مع القنصل الامريكى لزيارة البطريرك ، ليطمئن على أن مدارس التبشير لا تفعل أكثر من تعليم الانجيل لاولاد الاقباط، فكأن المبشر ألقى قنبلة فى وجه البطريرك الذى صاح: الانجيل الطاهر!.. وهل الامريكان وحدهم هم الذين عندهم الانجيل.. إن الانجيل عندنا قبل أن تولد أمريكا. ولماذا جئتم إلى بلادنا بكلماتكم الناعمة؟!».

وفر المبشر نجاة بنفسه من هذه الحملة الصاعقة.

وقد روى الاستاذ جرجس سلامة أنه لما ولى البطريركية الانبا كيرلس الخامس، واصل حملته ضد البروتستانتية، وذهب إلى أسيوط على باخرة نيلية وكان موكبه من الباخرة إلى المدينة على خط دخول المسيح إلى أورشليم، إذ ركب حمارا، وتقدمه القسس وحاملو الصلبان والاعلام وفروع النخيل، وكان محاطا بالجنود أمامه وخلفه، بأمر الحكومة.

وهذا الموكب ليس عملا دينيا، وانما هو مظاهرة مصرية، اسلامية قبطية، تتعاون فيها الحكومة مع الكنيسة، لتأليب الشعب كله، مسلمين واقباطا ضد غزو مصر الثقافى، وتراثه وتقاليده، ومنهج حياته، وأساليب تفكيره.

أدرك آباؤنا، معنى التحضر الثقافى، للاستعمار الدخيل السياسى، والاقتصادي ، فوقفوا معا ضد هذا «التحضر» وضيقوا عليه الخناق والامر اليوم فى نفس الحاجة إلى هذا الوعى، وإلى دفعة مشتركة، بنفس الغرض ، فقد زادت الحملة على ثقافة العرب والمسلمين ضراوة وعنفا .

في ذكرى الثورة العرابية

صفحات مجهولة من تاريخ مصر الحديث

في ٩ من سبتمبر سنة ١٩٨١ أتم الزمن دورة كاملة، فانقضى على قيام الثورة العرابية مائة عام كاملة، فتداعت في الرؤوس، ذكريات كثيرة لهذه الثورة الفذة، التي وقعت على أرض مصر، التي تلتقي فيها وعندها، أطماع الراغبين من ساسة الامم وقادة الدول. في الهيمنة على العالم، كما تلتقي قارات العالم الكبرى الثلاث. افريقيا وآسيا وأوربا، وتذوب حضارات القديم والحديث، ومدنيات الفراعنة والعرب والرومان والاغريق والفرس.

ولقد أريق مداد كثير في رصد وقائع ثورة عرابي وشعب مصر، وفي تحليل هذه الوقائع، واستنطاقها، وردها لأصولها. وكان من بين ما كتب مجلدات ذاعت شهرتها، وعرفت بأسمائها وأسماء محرريها، كما وضعت رسائل، جيدة عميقة، ولكنها لم تظفر بما تستحق من بعد الصيت، من هذه الكتب. «كتاب عزل خديو» الذي كتبه الترجمان الانجليزي «المترجم» اردن هيولم بيما.. وهو كتاب متوسط القطع

الهلال - سبتمبر ١٩٨٢ .

والحجم إذ لم تكمل صفحاته المائتين عدا، إلا أنه حافل بالتعليقات والذكريات، التى كتبها المؤلف بروح تفيض حبا لمصر أو على الأقل عطفا عليها وبتقدير حار لزعيم ثورتها عرابى، حتى لننسى - بعد مضى الوقت - إن الكاتب انجليزى ، ونتوهم بأن كاتبه مصرى.

وقد قدم المؤلف نفسه فقال أنه قبل خمسين سنة من تأليف كتابه الذى تم فى سنة ١٩٢٨، اعتاد أن يركب كل يوم حمارا صغيرا مليئا بالحيوية والمرح، من فندق «النيل» في حى الموسكى، إلى القنصلية البريطانية العامة، ليقوم بواجبه بوصفه المترجم العربى الأول فيها، ولم تكن هناك فى ذلك الحين سيارات ولا خطوط ترام، فى حين لم يكن عدد موظفى القنصلية سوى مستر فيفيان القنصل العام وسكرتيره مستر «اورنشتين» والمترجم السورى السيد اورانجى. وقال المؤلف أنه اعتاد منذ سنة ١٨٧٩ - أى قبل الاحتلال البريطانى بسنتين فقط «لان الاحتلال البريطانى وقع فى ١٤ من سبتمبر سنة ١٨٨٢» أن يقيم فى مصر منذ حين وآخر مددا متفاوتة الطول: محتفظا طوال الوقت باهتمام متجدد بالشعب المصرى، ومجريات الامور، وكل ما يتعلق بمصر . ومن ثم استطاع أن يتابع تطور العلاقات البريطانية المصرية فى كل المجالات.

واعترف المؤلف أنه لم يعتمد إلا فى القليل النادر فيما كتبه عن مصر، على الوثائق المكتوبة، وعلى مصادر معلومات من الدرجة الثانية بل اعتمد تقريبا فى جميع الاحوال على معلوماته الشخصية أى المعلومات التى استقاها بنفسه أو من أناس عرفوها مباشرة ولم ترد لهم من آخرين ، وكل هؤلاء الاشخاص - مصريين كانوا أو انجليز -

تمتع إما بصداقتهم أو بمعرفتهم، وقد سمع منهم مباشرة أراءهم وقد تمنى مستر بيمان أن يمكن - بفضل كتابه - القارىء الانجليزى من الوقوف عن حقيقة مشاعر المصريين بالنسبة لما جرى من الامور ومًا صدر من التصريحات على السلطة البريطانية أى سلطة الاحتلال وعزا المؤلف إلى نفسه فضيلة القدرة على نقد تصرفات وأعمال السلطة البريطانية فى مصر التى رآها فى بعض الأحيان معيبة مع أنه كان دائما شديد الاعجاب بما أتمته هذه السلطة البريطانية ذاتها من الاعمال العظيمة فى مصر.

ويبادر بيمان بمواجهة جوهر مشكلة العلاقة بين مصر وبريطانيا، فيقول : إن الاتجاه العام للسياسة البريطانية فى مصر قائم على إنكار ما قطعته على نفسها فى بداية الاحتلال من وعود وعهود، كانت كلها تؤكد للعالم ولمصر ، أن غاية دخول بريطانيا بجيوشها إلى مصر، هو تهيئتها لان تحكم نفسها بنفسها، وأن تقيم على أرضها حكما سياسيا حرا، «وليست هذه الطريقة بالطبع، الاسلوب الامثل لتحسين علاقتنا مع القوم الذين أعلنا أننا نبغى أن يصبح المصريون بفضل حكمنا لهم سعداء وراضين، ولا السبيل القيم للمحافظة على مكانتنا فى مصر وفى الخارج. إذ ما لم يرض المصريون عنا الرضاء الكامل، انطفأ أقل بصيص من الامل فى أن بيننا وبينهم اتفاقية تبرم على الوجه الذى يرضى الطرفين».

وانتقل بعد ذلك إلى موضوع ذى حساسية وأهمية، سماه «الكرومرية». وهو اصطلاح لم أصادفه فى كتاب انجليزى أو عربى عن الحقبة السابقة لثورة عرابى سنة ١٨٨٢، ولا عن الحقبة التالية للثورة التى أعقبها الاحتلال.

و«الكرومرية»، التى تكتب باللاتينية «كرومرزم» تعني بطبيعة الحال، مجموعة الاساليب والاجراءات والاهداف التى اتبعها كرومر - مندوب الاحتلال البريطاني فى مصر - والتى تمثل عقلية الانجليز حينما يحكمون بلادا غير بلادهم بصفة عامة، وعقلية «كرومر» الذى كان اسمه عند بدء الاحتلال «ايفلنج بارنج» حتى حصل على لقب اللورد كرومر.

و«ايفلنج بارنج» أو «كرومر» حسبما تشاء ليس مجرد معتمد بريطاني، ولا قنصل عام أو مندوب سام فى مصر، بل هو مدرسة استعمارية كاملة ترى هذه المدرسة أن عليها أن تقوم بعدد من الاصلاحات الادارية وبعض المنشآت التعميرية فى مجال الرى والأمن والتنظيم، تضفى على الحكم الانجليزى صفات الاستنارة والرغبة فى التجديد، مع لمسات توحى بالتقدم وتوفير الحرية العامة للمواطنين، ولكنها تعنى فى الواقع بأشياء أخرى أهمها حرمان الشعب من الحكم السياسى الحر القائم على إرادة الشعب لا الخطو نحو هذا الحكم ثم حرمان الشعب من التعليم المجانى الشامل لكل الطبقات، ولا اتاحة الفرصة للشخصيات المصرية التى أتمت تعليمها العالى وأتمت تدريبها فى الحكم والادارة على سبيل الاستثناء أن تشارك جدياً فى حكم وطنها. ثم أن تحكم البلاد بيد من حديد فى قفاز من حرير، حتى تختفى سمات بطش الحكم الاجنبى وعنفه.

ويقول بيمان أن الشرط الأول الذى كان يجب أن تتحلى به الادارة البريطانية أن تقول الحق وكل الحق، فلا تدعى لنفسها مقاصد وأغراضا، غير ما تعنيه وتقصده ولكن «الكرومرية» أوهمت المصريين أنها ستمنحهم الاستقلال، فى حين أنها منحتهم بدلا من ذلك «الاحتلال» فلم يعد فى مصر، مواطن واحد يعتقد أن بريطانيا ستجلو عن بلاده.

وبعد إعلان الحقيقة هذا، الذى يدل على مدى صدق وصراحة «بيمان» وأنه فعلا يضمر لمصر وللمصريين حبا وعطفا حقيقيين خاليين من الزيف والتمويه، ينثنى إلى حقيقة أخرى يعلن من خلالها أن الانجليز حتى احتلالهم لمصر فى سنة ١٨٨٢ ، لم يعرفوا شيئا جديا عن مصر، فى حين أن الفرنسيين كانوا لاكثر من سبب أشد اتصالا بمصر وأهلها، وأكثر شعورا نحوهم ونحوها، بالألفة.

وقد بقى الحال على هذا المنوال، حتى تم فتح قناة السويس، ثم عزل الخديو إسماعيل الذى تبع هذا الفتح بقليل، وكان قد وقع بفضل تدخل الحكومتين الفرنسية والبريطانية بالتعاون مع عدد من الدول الأخرى. وقد أيقظ هذا الحدث الساسة البريطانيين، فأدركوا لتوهم أهمية مصر لبريطانيا.

وقد كان عزل الخديو إسماعيل. سبيلا إلى تخفيف معاناة المصريين لفترة مؤقتة من مظالم الخديو العظيم. وقد حل محل الخديو إسماعيل ابنه توفيق. وقد بدا، لفتور شخصيته، وضعف حيويته، أنه خديو من طراز آخر، أكثر عدلا وأقل ظلما، ولكن الايام - فى رأى بيمان - أثبتت العكس، لقد كان توفيق هو إسماعيل، بفارق أن الابن كانت تنقصه مزايا الأب: من تدفق الحيوية، والشجاعة. ولكنه لم تنقصه الرغبة فى أن يدعى لنفسه الحق فى ممارسة أية سلطة يتيسر له الحصول عليها أو الوصول إليها، وقبل أن ينقضى وقت طويل، نجح فى إثارة ضيق الجيش المصرى، الذى كان يسخر ضباطا وجنودا فى أعمال لا تليق بهم. ولكن أكثر ما حرك حنق الضباط المصريين هو ما أريد لهم من تبعية لزملائهم ضباط الجيش المصرى الذين كانوا ينحدرون من أصل

تركى أو شركسى. واستغلال الجنود فى كل عمل حتى ولو كان مهينا، أو منزليا ، وبلا مقابل مادى ولكن الضباط المصريين نجحوا ، تحت قيادة العميد أحمد عرابى الذى كان فلاحا وابن فلاح فى تحقيق أول نصر، وذلك بإزالة عثمان رفقى باشا وزير الحربية الشركسى الاصل، من مكانه ثم تتابعت اصلاحات ثورية، دون تدخل من جانب بريطانيا أو فرنسا، حتى تم اللقاء المثير فى التاسع من ستبمبر ١٨٨١ بين السير أوكلاند كلفن القنصل البريطانى فى صحبة الخديو توفيق من جانب ، وأحمد عرابى ومن خلفه الجيش المصرى من جانب آخر فى ميدان عابدين. وفى هذا اللقاء المثير الذى تم فى الهواء الطلق، وعلى مرأى ومسمع من عدد غير قليل من فرق الجيش، وآلوف من عامة المصريين من أهل القاهرة اصطفوا خلف صفوف الجيش، طالب الضباط المصريون بأمرين كلاهما كان مر المذاق فى فم الخديو، الذى لا تبدو على وجهه، ولا فى صوته حقيقة انفعالاته. وكان أول الامرين إقالة الوزارة بأسرها، إذ لم يكتفوا هذه المرة بإقالة وزير واحد من اصل شركسى ، وكان الامر الثانى الدعوة.إلى عقد برلمان، أى مجلس تشريعى نيابى. ورأى «بيمان»، أن الامر الثانى كان أشد مرارة ، وأقبح مذاقا، فالخديو يفضل أن يواجه اثنى عشر عميدا وعقيدا من الضباط، على أن يواجه برلماناً، يكون من حق أعضائه أن يسائلوا الخديو ووزراءه عن أخطائهم وسوء أعمالهم، ولكنه على كل حال أذعن، وأحسب أن «بيمان» لم يحسن تقدير الموقف، فإقالة وزارة بأمر الضباط، مساو تماما لطلب مجلس نيابى تشريعى، لان جوهر الامر أن الضباط المصريين الذين كانوا كما مهملا، لا يؤبه به أصبحوا يملكون أن يأمروا،

بعد أن أحسوا أن ذلك من حقهم. فإن أمروا بشىء وأطاع الخديو، فإنه الطوفان فسيكون الامر كله لهم، وهذا ما حدث بالفعل.

وفى هذه الفترة جاء مندوب من سلطان تركيا، ليحقق فى أسباب تمرد الضباط المصريين وسخطهم، وضايق هذا «عرابى» لان مصدر شكواه أن العنصر التركى فى الجيش والحكومة، كان لا يطيق أن يتقدم المصريون نحو المناصب الاعلى، أو أن يزيدوا من نصيبهم من السلطة، أما الخديو فقد غازل الجانب التركى لحظة، ثم آثر بعد ذلك أن يكون فى الجانب المصرى، حتى ضربت أساطيل بريطانيا مدينة الاسكندرية فى الحادى عشر من يولية، فعندها رأى القوة العسكرية الغازية، أقوى من عرابى والمصريين، فاختار الجانب الاجنبى وبقى مواليا له حتى تم الاحتلال البريطانى.

ويقول بيمان أن معركة «التل الكبير» أنهت الثورة العربية، وأن عرابى حوكم وحكم عليه بالنفى مدى الحياة فى جزيرة سيلان مع ثلاثة من العمداء يتقدمهم محمود سامى البارودى الذى يقول عنه «بيمان» خطأ أنه وزير حربية الثورة فى حين أنه أنهى حياته العامة رئيسا للوزراء .

ثم أعلنت بريطانيا احتلالها ، إلى أن تستطيع مصر أن تدبر شئونها بنفسها، وتحفظ حقوق الاجانب المقيمين فيها من المساس بها أو الاعتداء عليها. ولم يتم شىء من هذا قط على الرغم من أن بريطانيا بذلت فى رأى «بيمان» ثلاثة وستين وعدا، بالجلاء فى حين أحصى المؤرخون المصريون من هذه الوعود تسعة وتسعين وعدا. ولكنه يلاحظ ملاحظة ذكية يقول : إن بريطانيا منذ سنة ١٩٠٤ توقفت تماما عن منح

وعود بالجلاء ففى هذه السنة اتفقت بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودى الذى أطلقت فيه فرنسا يد بريطانيا فى مصر، فى مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش.

إلا أن بيمان يضيف سطورا ذات قيمة فيقول :

«إن عرابى هو الوطنى الاول فى تاريخ مصر الحديثة، ولقد عرفته جيداً كما عرفت-زملاءه زعماء الثورة ولما نفوا إلى سيلان وقع اختيارهم علىّ، وكيلا عنهم لأرعى شئون عائلاتهم التى خلفوها وراءهم، ومصالحهم التى كانت لهم فى مصر...

«إن وطنية عرابى، ليس لها جذور عميقة. ومهما طالت فى طيات الماضى، فقد بقيت قائمة فى حاجة إلى روح لتوقظها ولسنا ننكر أن رياض باشا «رئيس وزراء مصر لأول مرة بين ١١ يونية سنة ١٨٨٨ إلى ١٢ مايو سنة ١٨٩١» كان يكافح ليحقق لنفسه وللمصريين نفوذا للحكومة، ولكن ذلك لم يكن .عن وطنية ولكن رياض لم يستطع أن يظفر من الخديو فى كفاحه فى سبيل نصيب أكبر للمصريين من الحكم ، إلا تأييدا فاتراً أو غير مؤثر، دون أى تكوين أو تشكيل مصرى، وكان رياض لا يدخر وسعا فى وضع حد لتدخل كرومر الذى يريد أن يستوعب كل نشاط فى مصر».

ويقول بيمان وهو يروى تاريخ الخطوات الأولى، للحركة الوطنية التى أنبثقت بفضل حركة عرابى وزملائه، أن جهود كرومر فى تطويق الحركة الوطنية كانت ساهرة لا تنقطع ، وبعزم لا ينثنى، وكانت من خلفها القوة التى لا ترد حجتها، وهى قوة البنادق والبوارج.

ويثب «بيمان» إلى فكرة أخرى نثبتها له فى هذه الدراسة المتقطعة لميلاد الحركة الوطنية فى أواخر القرن التاسع فيقول:

«يتردد أحيانا كثيرة القول بأن الخديو «توفيق» كان صديقا طيبا وأمينا لبريطانيا، وحليفا معينا للورد كرومر، في اصلاحاته، وأرى - أيا كان موقف الخديو توفيق فيما بعد - أنه إلى أن بارحت مصر في سنة ١٨٨٩ «أي بعد بدء الاحتلال بسبع سنوات» كان يصارع دائما، ليخلص نفسه - بطبيعة الحال - من براثن البريطانيين وأن ينعزل كحاكم مستقل، ما وسعه الجهد».

وأحسب أن هذه الملاحظة مما ينفرد به «بيمان» ، فإن نظرى لم يقع على شيء مثلها أو شيء يؤيدها، في كتب المصريين ولا الاجانب.

ثم يمضى بيمان فيقول:

«في تلك الظروف - ظروف الثورة والحروب والهزيمة والاحتلال - ولدت الوطنية المصرية ووئدت في الحال، وما لبثت ذكرى عرابى أن محيت . ولما عاد إلى بلاده بعد نفى طويل، لم يلحظ الكثيرون هذه العودة».

ويضيف «بيمان» بأنه زار عرابى في بيت أقام فيه على حدود الصحراء في حلوان ولما قصد هذا البيت، لم يجد أحدا من جيرانه يعرفه، فاهتدى إليه بعد مشقة مما يدل على أنه حتى جيران عرابى الاقربين لم يحسوا بجواره، ولم يحفلوا بالسؤال عنه فضلا عن زيارته.. وهكذا كانت نهاية الحاكم المطلق لمصر، وبطل الجماهير الذى استولى على حبها . ولما تمت الزيارة، رأى بيمان عرابى رجلا هرما ضعيفا، وقد كانت الزيارة قبل وفاة عرابى في سنة ١٩١١ بسنة أو سنتين، وقد أثبت بيمان في كتابه خطابا أرسله إليه عرابى، كتبه بالحروف العربية بخط متوسط الجودة، ولكنه مقروء وواضح، وقد وقعه بالعربية بامضاء «أحمد

عرابى المصرى» ثم أردف هذا الامضاء، بآخر باللغة الانجليزية بخط واسع واضح وكان الامضاء بالانجليزية ترجمة للامضاء بالعربية فقد حرص في الحالتين أن يضيف وصف «المصرى» لاسمه، وكان الخطاب مرسلا من جزيرة سيلان لذلك كتب إلى جانب الامضاء بالانجليزية اسم مدينة «كولومبو» عاصمة جزيرة سيلان وهى العاصمة التى قضى فيه عرابى مدة نفيه.

ويقول بيمان أن هذا الامضاء يروى قصة عرابى ، فقد كان أول مصرى أحس بوقدة شعلة الوطنية فى صدره. وقد كانت هذه الوطنية دفاعا عن مصر في وجه غزو وتدخل الفرنسيين والاتراك، والشراكسة، والانجليز. ومن الحق أن يقال أن الوطنية المصرية التى شملت موجتها مصر بعد ذلك ، كانت ثمرة للبذور التى بذرها عرابى العميد البسيط الذى كان أعز ما يفخر به لقبه «المصرى» ومن ثم فإنه يجب على مصر عندما تحصل يوما ما على استقلالها الامر الذى لابد أن يتحقق، فإن أول تمثال يجب عليها أن تقيمه فى أحد ميادين القاهرة، هو تمثال عرابى.

والغريب أن هذا التمثال الذى رأى هذا الموظف الانجليزى ضرورته منذ سنوات طويلة وقبل أن تحصل مصر على استقلالها ، وتطرد آخر جندى بريطانى، يحمل متاعه ويغادر أرضها، لم يقم حتى الآن فى القاهرة، وإنما أقيمت تماثيل صغيرة فى الزقازيق وفى أماكن أخرى لا يراها الناس، وهو أمر لا نجد له تعليلا، كما لا نجد تعليلا لعدم إقامة تمثال لبطل أبطال الاستقلال المصرى، ورائد الكفاح الوطنى، السيد

عمر مكرم، ولا للبشير الأول بالثقافة المصرية الجديدة، رفاعة رافع الطهطاوى، ولا لاستاذه ومعينه على مبارك، وهكذا..

وفى ١١ من سبتمبر ١٨٨٣ جاء سير ايفلنج بارنج، الذى عرف بعد ذلك باللورد كرومر، ولم يكن مقدمه ليشغل منصب العميد للاحتلال البريطانى كما حدث بعد ذلك ، بل جاء بوصفه عضوا فى لجنة صندوق الدين التى أقامها الانجليز والفرنسيون، لبسط نفوذ أصحاب الديون الأجنبية من المرابين اليهود، على مصر، وليجهزوا فى الواقع لمصاب أكبر، وهو الاحتلال البريطانى، ويقول بيمان أن كرومر، حينما تولى عمله في مصر، كان قد حصل على معرفة بالاحوال فى مصر، ولذلك فقد شرع فى الحال، فى إصلاح حال الميزانية المصرية وذلك عن طريقين. تخفيض المصروفات، واستنباط موارد جديدة. وكان يعلم سلفا أن المنافسة الضارية التى شبت نيرانها بين الاستعماريـن: الفرنسى والبريطانى، والغيرة المتبادلة بينهما، والتى كان يثيرها أى ظفر لاحدهما على الآخر فى شكل الحصول على مزيد من السلطة المادية أو النفوذ الادبى فى وادى النيل ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تقيم فرنسا وأن يقيم رعاياها المقيمون فى مصر أو المتصلون بالاعمال أو السياسة فيها، كل عقبة ممكنة فى وجه خطة كرومر، ولم يجد كرومر عونا فى كفاحه ضد الاستعمار الفرنسى وأعوانه لا من الخديو، ولا من وزرائه، ولا من الشعب المصرى كله. فقد ألف كرومر أن يروى وقائع كفاحه، فى تقارير سنوية يرفعها إلى سادته فى لندن وتنشر فى مصر فتستفز الوطنيين المصريين.

وكان كرومر يزعم في تقاريره الاولى أنه يرى أن مستقبل مصر لا يعدو تطورين : أن تستقل، أو أن تندمج في الامبراطورية. وزعم أيضا أنه يؤثر الخيار الاول ويعمل له.

ولكن كل ما قاله كرومر وفعله، كان يؤكد عكس هذا الزعم وينقضه. ويتساءل «بيمان» هل نجحت الكرومرية، ورد على هذا التساؤل بأن الكرومرية فشلت، لانها واجهت وطنية المصريين التي أثارها وقادها مصطفى كامل، والمعركة بين الكرومرية، والوطنية، كانت محل حديث بيمان. وهو حديث جدير بأن ينقل وبأن يظفر منا بالتعليق.

فلنبقه إذن إلى فصل تال في هذا الحديث بإذن الله .

وثيقة دستورية

من عصر محمد على

وجه جناب الخديو ، محمد على باشا والى مصر، فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أمرا كريما، وضع باللغة التركية، لغة الدواوين الرسمية الأولى، فى تلك الايام إلى «البيك الكتخدا» رئيس المجلس العالى.

ويتضمن هذا الامر الكريم، بيانا عن تأسيس المجلس العالى، وطريقة إدارة المناقشة فيه، وحسن معاملة أعضائه.

والمجلس العالى ، هو الهيئة التى أقامها محمد على واعتبرها هيئة للمشورة ، تتداول فى الامور التى يحيلها اليها، و«البيك الكتخدا» هو محمد بك لاظ أوغلى، والكتخدا هو نائب الخديو ، أو نائب الوالى.

وأحسب أنه ليس ثمة فى تاريخنا الدستورى، وثيقة أكثر دلالة، على عقلية عصر محمد على، ونظرته إلى أمور الحكم، من هذه الوثيقة ، فيما عدا تلك المجموعة، الفريدة الصادرة فى يولية سنة ١٨٣٧ بعنوان «قانون سياستنامة» والتى تضم مقدمة وثلاثة فصول، فهذه الوثيقة الأخيرة هى شىء بين النظام الدستورى ، والقانون الادارى والمبادىء القانونية العامة للدولة المصرية فى عهد محمد على.

الهلال - سبتمبر ١٩٦٩

والوثيقتان، وما يتصل بهما، جديرتان بالتأمل والدرس والتعليق، والتحليل، ولست أذكر أنهما ظفرتا حتى اليوم بما تستحقانه من العناية والاهتمام، ولذلك فقد رأيت، أن أعرف بهما، مكتفيا بالتلخيص والتعليق السريع، مؤملا أن تتاح الفرصة، لدراسة أكثر تمهلا وأعظم تعمقا. وفي هذا البحث نتناول الوثيقة الأولى، ونرجىء الكلام عن الوثيقة الثانية إلى مقال تالٍ:

أما الامر الكريم الصادر في السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٢٤ أي من نحو قرن ونصف قرن إلا خمس سنوات فقط، فقد بدا بعد أن ترجم من التركية إلى العربية، كأنه مقامة من مقامات الحريري أو بديع الزمان، فقد احتفل كاتبه باللغة، مما أعان مترجمه على إظهاره في ثوب من العربية المثقلة بالزخارف، فكان بهذه الصفة، صورة من صور الحياة الأدبية، في هذا العهد.

ولابد لنا قبل الاسترسال في الاقتباس من هذه الترجمة العربية، أن ننوه هنا بفضل الاستاذ محمد خليل صبحي الذى أسدى لتاريخنا الحديث عامة، وتاريخنا السياسي والدستوري خاصة يدا لا تنسى، باخراجه كتابه الضخم «تاريخ الحياة النيابية» مزودا بصور الاشخاص، والصور الزنكوغرافية للاوامر والمراسيم والقوانين والمحاضر والمضابط، من أصولها، ومنقولة عن جريدة الوقائع المصرية حينا آخر، وقد بدأ محمد على أمره الكريم بالحديث عن ميوله الدستورية وحبه للشورى فقال:

«لقد كان دأبنا بإزاء كل أمر مما يتعلق بالمصالح المصرية، وتقضي حكمة الحكومة بتنظيمه وتسويته أن نجتنب عند البت فيه الانفراد برأينا،

والاكتفاء بحكُمنا، بل نحوله إلى المجلس، وفقا لاصولنا المقررة، وأسلوبنا المعلوم» ثم ينتقل من هذا إلى القول، بأنه يحترم قرارات المجلس، وينزل على مقتضاها فيقول: «كما قد جرت عادتنا إزاء كل شأن من الشئون المرهونة تسويتها بقرار المجلس، أن نحمل التسوية التى سوى بها، على ما أبداه رجال المجلس من تضامن واتحاد، وما أظهره كل منهم من سعى واجتهاد، وأن نعتبرها ويعتبرها معنا النظار والحكام كافة، جديرة بالقبول، ليتاح لها أن توضع موضع التنفيذ والاجراء».

وقد رتب محمد على - على هاتين المقدمتين، النتيجة التى رآها طبيعية، لانهما تؤديان إليها فقال موجها الحديث إلى رئيس المجلس:

«إنه لواجب عليك، محتوم الاداء، وفرض مستلزم الوفاء والقضاء، أن تراعى مقتضيات الحال، فتنسج على هذا المنوال».

وبعد ذلك لم يبق لنا إلا أن نعرف من «محمد على» ما الذى يتعين على رئيس المجلس، أن يقوله، ويفعله، مراعاة لمقتضيات الحال، ونسجا على هذا المنوال، منوال ولى النعم، فقال: «ما نوزعه على فقرات، لتستقل كل فقرة بمعنى مما قصد إليه الوالى، المشرع والمرشد، أو بجزء كامل من معنى، واليك البيان، ولا تنس أن الحديث موجه إلى رئيس المجلس:

أولا - كن فى كل خطرة وحقيرة من المسائل التى تقضى الاصول ببحثها فى المجلس، حريصا على أن تحيلها برمتها على أعضاء المجلس، مفوضا اليهم وحدهم، أن يتصرفوا فيها حلا وعقدا، وفتقا ورتقا.

ثانيا: توق أن تسوق «فى المسائل المحالة إلى المجلس» حرفا واحداً من الكلام، قبل أن يبلغ المجلس من بحثها الختام، متوخيا كمال الدقة فى التزام الانصات لهم، إذكاء لشوق المتكلمين منهم.

ثالثا - إذا فرغ المجلس من تمحيصها، ورأيت الحاجة ماسة إلى التكلم فيها، فاياك أن تنسب الكلام إلى نفسك، بل أنظر: فأى الاعضاء كان فى ملاحظته مصيبا، فإليه وجه خطابك قائلا: إن رأيى أنا الآخر لموافق لرأيك وإنى لأراك قد أحسنت التدبير، وأجدت التقرير، ثم تناول ما كان من قوله مبهما، فاخلع عليه بالنيابة عنه، حلة من البيان، وما كان مجملا فأوضحه عن لسانه، حتى تجلوه للعيان، لئلا يطرأ على همته فتور، ولا يتطرق إلى نشاطه وهن أو نفور، ولتوفى كل أمر حقه من تداول الرأى والملاحظة ، وتبلغ به غاية المقدور، من البحث والمناقشة.

رابعا - ليحظ أعضاء المجلس فى أثناء المناقشة، وينعموا بمرتبة من الحرية والترخيص تضطرهم إلى ابداء آرائهم فى غير مبالاة، وإلى الادلاء بثمرة تدبيراتهم بدون ممالأة ولا محاباة، ذلك لأن اضطرارهم هذا يستوجب منهم الاهتمام بالمناقشة المحولة على عهدتهم ، فيعيرون هذه المناقشة صميم عنايتهم ، كما يستنجز تسويتهم لكل أمر من الامور الموكول اليهم تسويتها، فيقدمون هذه التسوية بموجب ما تفضى إليه المناقشة ، حتى إذا قيض لأحدهم أن يجد الحل المنشود، أقبل الآخرون على أمضائه، فيكونون كلهم على اتحاد ، سواء فى استنباط الحل ومعرفته، أو فى صوغه ووضعه، وليس المراد سوى هذا الاتحاد، الذى متى جعل دستورا للعمل صدر حكم المجلس موافقا للمرام، وتحققت الغاية من نظامنا وأصولنا.

خامسا - ينبغى عليكم كلما أنستم من «رجال المجلس» استهتارا بأمر المناقشة أن تفتحوا للسانكم باب الكلام، فتخاطبوهم فى أنصاف بما يناسب المقام، كأن تقولوا لهم : أيها الاخوان! أيها الزملاء! إن هذا

المجلس منوط بكم، فما عرض فيه من أمر فمناقشته موكولة إليكم، وبحثه محول على عهدتكم، وأنا مأمور بأن اقتصر على الحضور بينكم وأضم قلبى إلى قلبكم، فإن أنا تخلفت عنكم فى ميدان القول والتزمت الصمت مراعاة لمقتضى الوظيفة، فإنى فى ذلك لمعذور.

سادسا – فإن لم تنفع هذه الاهابة، والاستحثاث، قل لرجال المجلس. إن قعدتم دون إيفاء لوازم المجلس، ولم تؤدوا للنعمة حقها، فما علىّ الا أن أكتب إلى صاحب المجلس، فأبلغه الحقيقة، وأنبئه بالواقع فكونوا على هدى وبينة، لكيلا ترمونى يومئذ بالدعاوى الباطلة.

سابعا – حرضوهم واحدا واحدا بهذه الاقوال، واقنعوهم بوجوب الاخذ بهذا المثال، فان تلقوا شرطكم هذا بالعقول ، وأعاروا نصحكم أسماع الرضا والانتباه فبها ونعمت، وإلا فاكتبوا إلينا بفحوى الحال، لنجد الوسيلة التى بها يقبلون ويسمعون.

ولكن ماذا يكون الحال، لو أن التقصير، وقع من رئيس المجلس ذاته، فلم يوسع لرجال المجلس فى فرص القول، أو لم يشعرهم بأنهم أصحاب الرأى ، وأن رأيهم هو الضالة التى ينشدها «صاحب المجلس»، أو إذا استأثر دونهم بالكلام ، أو سبقهم اليه، أو فرض عليهم رأيا، أو استهان برأى أبدوه، أو لم يبذل أقصى الجهد، فى استثارة حب المناقشة فى نفوسهم، أو لم يبتكر الوسائل ، لتنشيط الجدل فى المجلس، و«فتق الامور ، ورتقها ، وحلها وعقدها»، هنالك يكون الجزاء الذى هدد به صاحب المجلس فى ختام أمره الكريم فقال:

«فإن يكن قولى لم يحظ منك بالاصغاء، ولا لقى ما يستحقه من التنفيذ والاجراء، فإنه قد أصبح لزاما عليك من الآن فصاعدا أن تضعه

نصب عينيك، وتشمر لتحقيقه عن ساقيك وساعديك، وإن شيئا سميناه قاعدة وأصولا، وأجمعنا الرأى على اتباعه لجدير منك أيضا بالاتباع والامتثال، وما دمنا محاذرين أن تمنى هذه الاصول بعوارض الاهمال والتعطيل ، فجدير بك كذلك أن تحذر، فلا تمسها أو تعرض نفسك للندامة من أجلها».

وبالنظر فى هذه النصوص نستطيع أن نتبين الآتى:

أولا : إن هذا المجلس ، لم يكن سلطة أو هيئة أعلى من محمد على، ولا حتى مساوية له. فهو صاحب المجلس، أى خالقه، وأعضاء المجلس.. الذين تسميهم الوثيقة «رجال المجلس» كانوا أول الأمر رؤساء المصالح والدوائر الحكومية، فهم موظفون فعلا تابعون لولى الامر، ومصدر النعم.

ثانيا - يذهب بعض المؤرخين، إلى أن هذا المجلس العالى أو المخصوص، كان بمثابة مصلحة من مصالح الحكومة، وسنرى مصداق هذا فى الوثائق المكملة لوثيقة ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٤ «٥ ربيع الثانى ١٢٤٠هـ».

ثالثا - ولكن أصح ما يمكن أن نسمى به هذا المجلس ، أنه «مركز تدريب» فظاهر من عبارته ، أن الوالى، كان يعلم بداءة أن أعضاء المجلس، لن يجدوا ما يقولونه نصحا لولى النعم، أو اقتراحا على حكومته، ورجال دولته، فضلا عن تعديل لامر أصدره، أو قرار اتخذه ، أو خطأ ارتكبه ، أو ظلم أوقعه. لذلك بذل كاتب الوثيقة ، بأمر الوالى، جهدا ، ليثبت فى ذهن رئيس المجلس أن مهمته الكبرى، فى أن يجعل من رجال المجلس، أعضاء فى هيئة مشورة، وأن يشجعهم على القول، ويدربهم على المناقشة، ويأخذ بيد من واتته الشجاعة فاقترح شيئا ،

وايهامهم بأنهم فكروا ودبروا، بأمل أن يفعلوا شيئا من ذلك فى المستقبل.

فإذا كانت هذه الالفاظ عبرت عن واقع ، ثم أخذ بها، ولم تنس، فقد استحق محمد على الشهادة التى شهد له بها كلوت بك فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إذ قال:

من المحقق أن هذه الهيئات الحكومية لم تبلغ درجة الاتقان ، لكن ينبغى ملاحظة ما بذله محمد على من الجهد فى هذا السبيل».

★ ★ ★

كان «المجلس العالى» فى حاجة إلى ما نسميه اليوم باللائحة الداخلية، أو بالنظام الداخلى، لذلك أسند إلى أحد أعضائه، وهو محمد كاشف أفندى باشكاتب الوقائع المصرية لوضع مشروع لهذه اللائحة، وقد اعتمدها المجلس فعلا ، ثم نشرت فى العدد ١٥٨ من جريدة الوقائع المصرية الصادر فى أول يونية ١٨٣٠ .

والتأمل فى هذا المشروع، أو بعبارة أدق فى هذا النظام، الذى أقره المجلس ثم أصبح دستور العمل فى مجالس أخرى، كانت تقوم فى - عهد محمد على ، كمجلس شورى الجهادية ، ومجلس الاسكندرية - القائل فيه يعين على تبين طبيعة هذا المجلس، ومدى سلطاته ، وحقيقة علاقته بالوالى، وبالأهالى ، أى بالحاكم وبالمحكومين.

ويبدأ النظام بتعريف المجلس، فى فقرة معنونة «مقدمة فى ماهية المجلس» ثم يسترسل فى القول:

مجلس الشورى هم الذوات المشهود لهم بالفكر الثاقب، والرأى الصائب، المعدودون أهلا لتدبير المصالح بالاعتدال والاستقامة، الخالون

من البغض والعداوة، العارون عن لباس الغرض النفسانى، الثابتون فى الجلوس بمحل واحد كنفس واحدة، الذين يتذاكرون فى المصالح التى ترد إلى المجلس من غير إكراه ولا استثقال، ويصرفون ذهنهم، ويبذلون جهدهم بثبات واستعداد للنظر فى الامور وهؤلاء الذوات ، وإن كانوا متعددين، ينبغى لهم أن يحسبوا انفسهم ذاتا واحدة من شدة الاتحاد والاتفاق الحاصل بينهم ومتى كانوا كذلك سموا مجلسا.

ولعل العين لا تستطيع أن تخطىء هنا ، رغبة الوالى ولى النعم، فى أن ينفى كل مبررات الانقسام فى الرأى ، وبالتالى مبررات نشوء معارضة ، فمحمد كاشف، حينما بالغ وأسرف فى بيان ما يجب أن يصير إليه أعضاء المجلس من الوحدة التى تقضى لأحدهم أن يجد الحل المنشود أقبل الآخرون على إمضائه، فيكونون كلهم على اتحاد».

ثم يقول «وليس المراد سوى هذا الاتحاد» ولائحة المجلس ترى أن المجلس لا يكون جديرا باسمه، الا إذا انتهت مداولاته إلى رأى يقره الجميع . وهو تصور طريف، لواجبات المجلس، فهو لا يرى الا أسلوبا واحدا لاصدار القرارات ، هو أسلوب الاجماع.

ويثنى نظام المجلس بفصل عنوانه «فيما يجب على الاعضاء من تقديم الشكر لله تعالى، وفى أصول آدابهم».

وقد اقتصرت هذه الواجبات على ثلاثة أمور هى:

أولا - على كل المنتخبين «أى المختارين» الذين هم أهل المجلس أن يوفوا ما يجب عليهم من الشكر لله على نعمه التى حازوها باكتسابهم الجاه والشرف. وبتميزهم عن سائر الناس، حيث أنهم صاروا أهلا لذلك فى ظل أيام سعادة أفندينا.

ثانيا - ينبغى أن يسعوا فى تحصيل رضا أوامر ولى النعم الذى هو سبب لترفهم، وينقادوا بكل امتثال لانفاذ ارادته السنية.

ثالثا - يعتنون الاعتناء التام بضبط كل المصالح التى يلزم المذاكرة بها فى المجلس من دون غرض.

وقد فصل هذا الامر الاخير تفصيلا طويلا، واورد فيه أحكاما مشابهة تماما لما يجرى الآن فى المجالس النيابية وغيرها فى أيامنا، وإن اختار للتعبير عن هذه الاحكام اسلوب تلك الايام ونجمل هذه الاحكام فى الفقرات التالية:

١ - ينبغى لكل من أهل المجلس أن يجتمعوا فى الميعاد المخصوص للمجلس، ويجلس كل منهم فى محله بالادب والاحتشام.

٢ - على الأعضاء اجتناب المقالات «الاقوال» التى لا توافق المصلحة والتى لا تليق أن تحرر.

٣ - إن لم يستقر الرأى على القرار فى مسألة أى «ختمها» وإذا توقف ختم المسألة على استفهام فلا ينتقل منها إلى غيرها «من دون أن يروا لها نتيجة لكيلا يصير بها تعطيل أوقات».

٤ - من أراد أن يتقدم باقتراح يسميه «تقريرا بحسب المصلحة» فلا يضايق المجلس ملحا بقضائه قبل ما سواه من المصالح.

٥ - وإن صدر من أحد الأعضاء قول أو سؤال «يشمئز منه أحدهم» وكان هذا القول أو السؤال مما تدعو إليه المصلحة، فليتخذ كأنه من أفواه المجلس «ولا يجعل سببا لصدور البغضاء والعداوة».

٦ - وقد بين النظام أحكام الغياب فنهى عن الخروج بغير عذر، وإن طرأت للعضو حاجة تدعو لغيابه يطلب أجازة، على أن يعود سريعا فإن

لم يستطع العودة قيد ذلك فى مضبطة المجلس، وإن منعه مانع من الحضور يخطر المجلس بتذكرة فإن لم يتبع هذه القواعد ، وأصر على مخالفتها ، فينبه مرة واثنتين وثلاثا، وبعد ذلك إن بدا منه حركة مخالفة لتلك الأصول يمنعه ناظر المجلس عن الدخول يوما واثنين وثلاثة بحسب جنحته ومقامه تربية له، وبعد ذلك يؤتى به إلى المجلس.

ثم تنتقل اللائحة إلى فصل آخر معنون «فى مصالح المجلس»، وهو يعنى الأمور التى تعرض على المجلس لابداء الرأى فيها، واصدار القرار فى شأنها فقسمها إلى أقسام فقال:

«إن الامور التى تقع المذاكرة عليها فى المجلس إما أن تكون :

١ - متعلقة بالميرى

٢ - أو بالرعية

فما كان متعلقا بالميرى فأما أن يكون :

١ - فتقا ورتقا بالأصول

٢ - أو ضبطا وربطا بالحسابات.

ولعله يعنى بالرتق والفتق بالاصول، هو المسائل القانونية، فى حين يقصد بالضبط والربط بالحسابات المسائل المالية.

على أنه أضاف إلى هذه المسائل ، مسئولية الموظفين، فقسمها بدوره إلى قسمين، قسم يكون التعيين فيه صادرا من الوالى، وقسم ثان يكون موكولا إلى المجلس ابتداء، «فإن كان تخصيصه من طرف ولى النعم فلا يعارض لان الكبراء وغيرهم تحت حكم سعادته، وهو يعلم النفع والضرر الحاصل ، وصاحب البيت أدرى بما فيه».

أما إذا كان التعيين موكولا للمجلس ، فقد وضع النظام قواعد تكفل الحيدة وعدم المحاباة، فقال:

«ولا ينبغي للأعضاء أن يميلوا إلى الوالد والاولاد ، والاخوان والاقارب، والاخلاء والاصهار، والاحباب، إذا أرادوا أن ينتخبوا أحدا لمصلحة بل يتخذوهم كسائر الناس، وينظروا إلى من يريدون انتخابه ليعلموا هل هو بليد أو ذكي العقل، أو هو ذو فكر ثاقب ورأى صائب، أو غير مستقيم أو متكاسل، خائن في خدمته أو ذو اجتهاد وسعي، ويلاحظوا قابليته واستعداده وحركاته وسكناته، فإذا رأوه غير متهم بشائبة الاختلاس، وقادرا على القراءة والكتابة حسب الوقت انتخبوه من بين أمثاله، واستخدموه في مصلحة مناسبة لحاله».

وتحذر اللائحة أعضاء المجلس من حيل والاعيب موظفي الحسابات، فتقول «ومثل هذه المواد التى تحصل من خدعة أهل الحساب وفكرهم تعلم كيفيتها من الدفاتر» وظاهر من هذه اللائحة، أن اختصاصات المجلس، تجاوز نطاق المراقبة والتشريع وسؤال النظار، ومناقشة واستجواب الرؤساء، إلى مباشرة بعض اختصاصات السلطة التنفيذية، فقد جاء مثلا في هذه اللائحة «والامتعة التى يلزم شراؤها الآن يؤتى بعيناتها بمعرفة نظار الدواوين وتقدم إلى المجلس فيستقصون عن ثمنها، ويعطون صورة حسنة لمشتراها».

ثم تخصص اللائحة، بعد ذلك ستة فصول قصيرة خاصة بإجراءات المجلس، من قبل ضبط محاضره، ووظائف كاتب المجلس، وخدمة تبييض المضابط من أصل مسوداتها وكاتب لتقييد مذكرات المجلس، وكاتب لقيد خلاصة يومية لأعمال المجلس مع إشارة «بالحبر الاحمر فوق كل خلاصة إلى ما تشتمل عليه من المصالح» ثم بيان خدمة المترجم، الذى يقوم بترجمة الكشوفات والقوائم والتقارير العربية إلى التركية.

ويختم هذه الفصول الادارية بحكمة إدارية فيقول: «من اقتضاء المصلحة أن تقيد وتضبط المادة التى يلزم رؤيتها في كل يوم ، لانه إن لم

تضبط وتربط تضيع .. كما قيل «كل حرف ليس في القرطاس ضاع».

ويتوج هذا كله بخاتمة عامة يقول فيها:

«هذا المجلس شريف عال ، وأربابه بحسب نسبتهم إليه، قدرهم عال، فينبغي حفظ شأنه، وحفظ شأن من انتمى إليه من ذوى القدر المنيف فيحفظون هذا المجلس الشريف بمراعاة الآداب، في جلوسهم ، وتكلمهم ، وسكوتهم ، وحركاتهم».

وكان محمد على قد أصدر في الثالث من يناير سنة ١٨٢٥ ما أسماه أيضا لائحة المجلس العالي، وقد بين في هذه اللائحة الموضوعات التي يمكن إحالتها إلى المجلس فقد ورد فيها:

«لما كانت هذه الأمة الناجية قد نشأت على أن تسير شئونها - صورة ومعنى - على مقتضى ما ورد في معجز الذكر من قوله تعالى: «وشاورهم في الامر» وكانت مأمورة بالرجوع إلى أهل النظر تخاطبهم وتداولهم فيما اختصوا بعلمه من الامور، التي لا تفتأ تعرض لها، وتطرأ عليها فإن صاحب الدولة مولانا ولى النعمة مطبوع على الخير والرحمة، وقد رأى وقاية للنظام والتدبير الواجب اتخاذهما تبعا للظروف والملابسات فيما يعن لدولته من الامور المهمة، أن ينعقد مجلس خاص يكون واجبه إيضاح جميع التفصيلات وتفهمها، بحيث إذا حررت مضبطة مداولته للشئون والمواد المقدمة إليه مع القرار الذى يتفق رأيه عليه، ثم عرضت هذه المضبطة على انظار دولته، كانت المناقشة كأنها قد دارت على مسمع من ذاته العلية، وبين يدى حضرته السنية: ثم بين الامور الثلاثة التي يمكن أن تعرض على المجلس فقال:

فأما المورد الاول ، فهو أن يسنح خاطر مولانا صاحب الدولة ولى النعم برأى سديد. ذى صلة بمصلحة من المصالح المهمة. فان صدر

نطقه العالى بشأن هذه المصلحة، فعلى عبده المأمور أن يدون هذا المنطق ويشعر به المجلس في صورة تقرير.

وأما الثاني، فهو ما يقدمه عبده صاحب العطوفة البيك الكتخدا أو عبد غيره من عبيده النظار، وسائر المأمورين، من افادات متصلة بتنظيم بعض المصالح وتسويتها مما ينطوى على جلب منفعة أو دفع مضرة.

وأما الثالث فهو أن تقوم فى وجه ولاة الاعمال مشكلة متعلقة بالمصالح الموكول إليهم تصريفها فلا يستطيعون إلى حلها سبيلا، وينبغى بالطبع رجوعهم فيها إلى المجلس».

وهذه اللائحة ، ككل اللوائح المتصلة بهذا المجلس العالى، تشتمل على خليط من النصائح الخلقية، والقواعد التنظيمية، والمبادىء الدستورية، وهل هذا الخليط ، نتيجة لان الحياة النيابية، كانت آنذاك ، كالجنين الذى لم يتخلق بعد، فالتمييز بين أنفه وعينه، ورأسه ورجله، ليس بالأمر الميسور ، فهذه الوثائق التى نقلنا عنها ما نقلنا، يتجاور فيها الحديث عن الشورى فى القرآن، مع الحديث عن عبيد الوالى من النظار وأعضاء المجلس، والحديث عن حق الاعضاء فى مناقشة الامور بحرية، يتداخل فى وجوب طاعة الاعضاء ذاتهم لولى النعم، وأن أول واجباتهم شكر الله إذ خصهم بثقة دولته . وعطف جلالته، وفى حين يبدو أنهم ذوو رأى ثاقب، يوجه اليهم الحديث كأنهم اطفال تخفى عنهم البسائط والبدهيات من الأمور.

ولكن هذه التناقضات الغريبة، التى تدعو إلى الابتسام والضحك أحيانا، هى عناصر الصورة التى كانت للحياة النيابية فى ذلك العهد، ولا مناص بين أن نحيط بها، وأن نعرف وقائعها، لنعرف جانبا هاما من تاريخنا المعاصر لايزال فى حاجة إلى مزيد من التقصى والبحث.

قضية للمناقشة

الدولة العثمانية
دولة مفترى عليها

نجح الغرب فى إلقاء فكرة أو عقيدة فى نفس وعقل العرب والمسلمين وعدد ضخم من الشرقيين مؤداها أن دولة بنى غثمان التى استمرت تحكم مساحة واسعة فى آسيا وأوربا وافريقيا ، قرونا عديدة وبنجاح سياسى وعسكرى متصل الحلقات ، متعدد المراحل ، والتى تركت أينما ذهبت ، عواصم زاهرة متألقة ، تزينها مساجد وتكايا وأسبلة وقصور وجسور وشوارع وميادين ومكتبات وثكنات وآثار حية فى لغة الاقوام التى تحكمهم سواء كانت لغة الحياة اليومية أى لغة المأكل والمشرب والملبس ، وركوب الجياد ، أو لغة الفكر والأدب .. هذه الدولة بكل جلالها وهيبتها وضخامتها واتساع مداها ، كانت عورة فى تاريخ الاسلام والعرب ، والتمدين الانسانى والحضارة البشرية ، وأن حكمها كان ظلما وعصفا ، ومحاربة للعلم ، ووأدا للفكر. وقد صعب على المصريين والعرب بعد ذلك أن يراجعوا أنفسهم فى هذا الحكم الظالم ، وأن يلتمسوا المعرفة الحقيقية فى نطاق التاريخ الحديث الذى سطرت

الهلال - يناير ١٩٨٦ .

صفحاته ، ونسقت بفصوله أقلام مؤرخين أجانب ينتمون إلى الغرب ، ويؤمنون بالمسيحية ، ويطوون صدورهم فى الأغلب الأعم ، على كراهية شديدة للإسلام والمسلمين ، إلا عن تعصب لدينهم ، بل ولكثرة ما سمعوا من القدح والذم ، فى تركيا وحكامها ، وأساليب دولتها ، ومناهج قادتها .

ولو تنبه هؤلاء المساكين والمضلل بهم ، أن تركيا منذ عبرت جيوشها من الاناضول سنة ١٣٥٦ على عهد السلطان ادرخان ثانى السلاطين العثمانيين ، استمرت تحكم وتتوسع فى الفتح حتى بلغت فى أوربا مشارق النمسا ، كما اتسع ملكها فى آسيا وافريقيا ، واستمرت متماسكة ، سلطانها باذخ ، وأمرها نافذ ، وقوتها متصاعدة حتى أفل نجمها فى نوفمبر سنة ١٩١٩ ، أى بعد ستة قرون متصلة العمر الذى لم تبلغه دولة أخرى لا فى القديم ولا الحديث ، وأنها حين أمال عليها الزمان فى الحرب العالمية الأولى التى بدأت فى اغسطس سنة ١٩١٤ ، كانت دولة ذات شأن تعتبر قوة عسكرية وسياسية ، يحسب لها فى السياسة الدولية كل حساب ، ولو أحسن قادتها التدبير ، وأثروا الحياة على اقتحام حلبة الحرب فى صف المانيا والنمسا ، ضد انجلترا وفرنسا، لعاشت زمنا آخر وربما لحافظت على وجودها فى آسيا وافريقيا .

ولقد تنبه عدد من علماء التاريخ العربى إلى ما فى حملة اوربا وامريكا من التجنى على الدولة العثمانية ، وما خالط أحكام ساستهم وعلمائهم ، من التحيز والميل مع الهوى ، فانبروا يروون عليهم اغلاطهم بأسلوب علمى قائم على الوثيقة التاريخية ، والواقعة الثابتة ، والحقائق

غير المذكورة ، ومن هؤلاء الاستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى الذى وضع موسوعة تاريخية من ثلاثة أجزاء أهدى إلى اثنين منها .

قال الدكتور الشناوى فى مقدمة الجزء الأول من موسوعته العظيمة:

«وعلى مبلغ علمى لم تتعرض دولة فى العالم لمثل ما تعرضت له هذه الدولة من حملات عنيفة ضارية استهدفت التشهير بها والنيل منها ، وقامت بهذه الحملات المكثفة قوتان عالميتان عاتيتان هما الاستعمار الاوربى والصهيونية واتخذت هذه وتلك من المؤلفات التاريخية والبحوث (العلمية) والتصريحات الرسمية ، ومن مجموعات الوثائق التى نشرتها بعض الحكومات الاوربية مجالا رحيبا لاذاعة ما راق لها أن تنشره عن الدولة تحاملا عليها. وقد ردد بعض المؤرخين والباحثين العرب عن جهالة وتجاهل أو حقد تلك الآراء الخاطئة والظالمة معهم فى مؤلفاتهم، واستقرت فى أذهان الاجيال المتعاقبة من رجال الفكر العربى والاسلامى صور حالكة الظلام عن الدولة العثمانية ، واقترن ذكرها فى افئدتهم بمظالم ومحن تكدست على رعاياها من استغلالهم بتقرير ضرائب تعسفية وجغرافية عليهم ، ومن مصادرة أموالهم واراضيهم ومحاصيلهم . وماشيتهم ، واجراء مذابح عامة ، وعن عزلة عن العالم فرضتها الدولة على ولاياتها العربية بوجه خاص ، وهى خدمات يجب أن تذكر لها وتشكر عليها .

وتناسوا أيضا أن الدولة العثمانية واجهت أخطارا دولية جسيمة كانت تهدد العالم العربى بأفدح الاخطار، وكان من بينها وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية ، وتسللهم إلى شرق الجزيرة العربية واستيلاؤهم على مواقع عسكرية هامة ، ومحاولاتهم دخول البحر الاحمر

من منفذه الجنوبى للاستيلاء على جدة والزحف منها على مكة المكرمة ، لهدم الكعبة الشريفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة ، لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وكان الغزو البرتغالى الشرقى للجزيرة العربية هو أول غزو أوربى عسكرى صليبى فى التاريخ الحديث لاقاليم .

وانتقل المؤرخ الكبير إلى جانب آخر من تاريخ الدولة العثمانية كان يعتبر عند أهل أوربا ، الجريمة الكبرى ، من جرائم الدولة العثمانية ، وأعنى ؟ فتوحاتها فى تلك القارة ، وهو رد فعل طبيعى لأهل كل دولة أو قارة أو للمؤمنين بأى دين . فإن تقتحم عليهم معبدهم ، وأن يحكمهم أقوام لا يؤمنون بعقيدتهم ، فذلك هو أعظم البلاء .

قال الدكتور الشناوى :

«لقد عاشت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون واجتاحت جيوشها الاسلامية العثمانية أقاليم شاسعة فى جنوب شرق أوربا ووسطها ، وهى اقاليم لم تخضع قط من قبل لحاكم مسلم . وأحرزت باسم الاسلام انتصارات خاطفة وباهرة وتساقطت فى أيديها دول أوربية عديدة ، وامتلأت قلوب الحكومات والشعوب الاوربية فزعا وهلعا من هذه الدولة الاسلامية الطارئة عليها فى عقر دارها» .

وأحب بعد هذه الاقتباسات الطويلة أن أنقل ثلاث فقرات من كتاب دولة مفترى عليها :

الفقرة الأولى تقول :

ويلاحظ أن العثمانيين اعتنقوا الاسلام عقيدة رسمية لهم ، وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء . فكان

ولاؤهم يتجه إلى الدين الاسلامى أولا ثم إلى السلطان ثانيا وإلى الدولة ثالثا .

الفقرة الثانية :

نظر الاوربيون إلي الفتوح العثمانية فى أوربا على أنها فتوح اسلامية وقد اعتزم محمد ابو الفتوح (أو محمد الفاتح) أن يتخذ من أوترانت قاعدةً يزحف منها شمالا فى شبه جزيرة ايطاليا حتى يصل إلى روما . وأقسم ليقدمن الطعام بيديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية . ولكن عاجلته المنية فى اليوم التالى من شهر مايو عام ١٤٨١ وتنفست أوربا الصعداء حين علمت بوفاته ، وأمر البابا أن تقام صلاة شكر ثلاثة أيام .

والشق الثانى من الفقرة :

«ومما هو جدير بالذكر أن ريتشارد نولر مؤرخ عصر الملكة اليزابيث فى انجلترا (١٥٥٨ – ١٦٠٣) وصف الشعور الاوربى العام باتجاه الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية ضد أوربا فكتب هذه الجملة المعبرة «إن الامبراطورية العثمانية هى مصدر الرعب فى العالم ».

ومع ذلك فإن العثمانيين لم يزجوا بانفسهم فى الصراع الدموى الذي نشب بين الكاثوليك والبروتستانت ولذلك كانت الدولة العثمانية ملاذا تستهوى افئدة المضطهدين والمعذبين فى الأرض الاوربية يلتمسون فى رحابها الامن والملاذ والتسامح . وقد كتب مارتن لوثر فى كتيب نشره فى عام ١٥٤١ . أن الفقراء المسيحيين الذين يظلمهم الأمراء الجشعون وأصحاب الاراضى يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الاتراك ولا يعيشوا فى كنف حكام مسيحيين يمارسون أساليب ظالمة فى حكم الفقراء .

بعد هذه الحقائق التاريخية التى تحدد أصول المناقشة فى موضوع الدولة العثمانية .

يتضح الآتى :

أولا : تركيا دولة عظمى بمعايير القرن السادس عشر وما بعده وقد اتسع ملكها وترامت آفاقه بالأساليب التى كانت متبعة فى ذلك العهد لم تزد ، وربما لم تنقص وإن كانت قد تحملت بما تقضى به قواعد الاسلام من رعاية أهل الذمة ، وهم غير المسلمين الخاضعين للحكم الاسلامى والذى نهى الاسلام عن الاساءة اليهم ، أو قهرهم على دخول الاسلام أو ترك دينهم . وقد أورد مصطفى كامل فى كتابه الشهير (المسألة الشرقية) أن بعض مستشارى سلاطين بنى عثمان زين لهم إغراء أو حمل الاقليات المسيحية فى شرق أوربا ولكن شيوخ الاسلام نهوا السلاطين عن ذلك ، وكان من الممكن أنذاك إخراج الاقليات من ملتهم ، فالظروف الدولية فى تلك الايام كانت تسمح باشياء من هذا القبيل بسبب النزاع الدولى والحروب الدينية بين المسيحيين بعضهم البعض . وهى الحروب التى استبيحت فيها ارواح الابرياء ، وأعراض النساء ، واستعملت فيها ضروب من العنف عف عنها الفاتحون المسلمون وحتى الجنود الصغار ، لفرط تشديد القادة المسلمين على اتباعهم بوجوب رعاية حرمات غير المسلمين مالا وعرضا وعقيدة .

ثانيا : أن الحكم التركى فى كل ممتلكات السلطان العثمانى لم يكن أسوأ من حكم ملوك وأمراء أوربا فى تلك الفترة ، بل أن حكم هؤلاء كان أمعن فى الظلم ، وأبعد فى الاساءة إلى الشعوب ، وكان حكامهم جهالا ولم تكن تربطهم عقيدة تأمر بالعدل والاحسان كما كان يأمر الاسلام ملوك بنى عثمان .

ثالثا : أن الشكاوى التى لا تزال عالقة بأذهاننا وخاصة لاسماعنا عن الحكم العثماني ، هي شكاوى العرب بصفة خاصة ففى فترة أفول الحكم العثمانى ، وهى فترة سيئة فى ظل كل دولة ولا يمكن أن تحاسب عليها تركيا ، ولا أن تعتبر مقياسا للحكم على كل الحكم العثمانى . وحسب تركيا شرفا أنها وهى تكاد تلفظ أنفاسها ألزمت سلطانها السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ . وحسب السلطان عبد الحميد الذى أسيء إليه بفعل الدعاية الاستعمارية والصهيونية أنه رفض أن يأذن بوطن صهيونى على أرض فلسطين وبقي مصرا على هذا الرفض حتى تم عزله ثم موته .

هذه هى تركيا الحقيقية ، التي لا نزعم أن الله برأها من كل عيب ، ولكنا جهلنا تاريخها ، وأسلمنا أنفنا لنقولات خصوم تاريخنا . فتجنينا عليها .

مذبحة القضاء

فى مصر استمرت قرناً !

هذه خواطر أوحى بها مؤتمر القضاء الأول ، الذى عقد فى المدة من ٢٠ إلى ٢٤ ابريل الماضى ، وهو أول جهد يقوم به القضاة على هذه الصوره الواسعة والعلنية لاصلاح النظام القضائى في بلادنا ومعالجة ما أصابه من قصور وآفات بفعل الادارة السيئة ، والعجز الحكومى وأغراض السياسة لعل هذا المؤتمر فاتحة عهد جديد يقوم فيه القضاء برسالته المجيدة على أحسن وجه ، وخير منهج .

يحسب بعضنا أن القضاء في مصر قبل الثورة ، كان بمنأى من التدخل الصريح فى أعمال القضاة ، أو فى الضغط والترهيب والترغيب ليحصل أصحاب السلطة أو الجاه أو المال على ما يطمعون فيه من المحاكم التى تعرض عليها قضاياهم ، التى تصور صراعا أو خصومة أو تنافسا بينهم وبين آخرين قد يكونون فى مثل قوتهم ، أو أضعف منهم كثيرا أو قليلا. والحقيقة تخالف ذلك الاعتقاد : فالقاضى المصرى منذ وضع الاحتلال البريطانى قدمه فى ١٤ من سبتمبر ١٨٨٢ إلى حين قامت ثورة يوليو ، كان يخضع تعيينه وندبه ونقله وترقيته وتخطيه فيها ،

الهلال - مايو ١٩٨٦ .

لارادة ممثل بريطانيا بغض النظر عن الاسم الرسمى لهذا الممثل ، الذى عرف أول الأمر بالقنصل العام لبريطانيا العظمى ، ثم بالمندوب السامى ، وأخيرا بالسفير البريطانى فى عقب معاهدة سنة ١٩٣٦ التى أبرمت فى أغسطس من ذلك الشهر .

وبذلك كان القضاة قلقين ، يعرفون أنهم معرضون للفصل أو التخطى ، أو النقل إلى مدن أقل شأنا من مدن يعملون فيها فعلا . ذلك لأن المندوب البريطاني وممثلها ، يعلم أن القضاء بطبيعته ، هو حماية للمظلوم ، ودرع للمطالبين بالحقوق العامة ، والمدافعين عن الشعب ، فان كان مستقلا مصونا من الضغط والتأثير ، زاد المناضلون عن حقوق الناس المهدرة ، وحرماتهم المنتهكة ، وتمردهم على الغاصب الدخيل وعندها يعانى الاحتلال البريطانى وممثلوه من الضغوط الوطنية ، ما يفسد خططهم ، أو على الأقل ، يؤخرها ، ولما كان الخديو أو السلطان أو الملك المصرى ، هو رجل أختير ليكون عونا لهذا الاحتلال وسندا له ، فى مقابل مزايا يمنحها ، وسلطات يستمتع بها ، وحماية من المساءلة والمؤاخذة تقيه أن يحاكم أو ينزل به عقاب أو تسترد منه أشياء سلبها ، أو اعراض هتكها، أو اعتداءات ارتكبها . وبذلك أصبح الحاكم المصرى الذى كان يسمى خطأ بالحاكم الشرعى أو الحاكم الأصيل ، لتميزه عن الحاكم الاجنبى الدخيل أو الذى لا شرعية لسلطته ، أصبح هذا الحاكم شريكا فى العدوان على القضاء المصرى ، فلما قامت الحياة الحزبية ، بعد تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ التى أعلن بها الانجليز من طرف واحد، إلغاء الحماية البريطانية التى فرضت على مصر عقب اندلاع الحرب العالمية ، ذلك فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، والاعتراف

بمصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتحويل سلطانها إلى ملك ، وتخويل للملك إعداد دستور تقوم فى ظله حياة نيابية يمثل فيها الشعب ، نواب يختارون فى انتخاب عام . لما تم هذا التغيير تنافست احزاب الحكم فى مصر . بعد انتخابات حرة مرة أو انتخابات زائفة ، تعبث فيها السلطة كما تشاء ، ويعبث خلالها بارادة الشعب على ما تهوى احيانا ، فانضم شريك ثالث للسفير البريطانى والملك المصرى ، ذلك هو الحزب الذى تمارس بعض السلطة حكومته ، ففى ظل الحكم النيابى كان يتم إفساد القضاء بصور منها :

١ - يكون لزعيم الحزب قضية خاصة ، فيرفعها إلى محكمة ، فيقضى له بما يطلب ، فيكافأ المستشار الذى يرأس المحكمة بتعيينه وزيرا . وقد تم تعيين أكثر من وزير ، لمثل هذا الغرض .

٢ - يبلو محام ما فى تأييد حزب ما بلاء حسنا ، فيضم إلى الاعضاء ، ويضم لرؤساء الحزب عند تجولهم فى الاقاليم والولائم الفاخرة ، وتعد السرادقات الواسعة ، فيصل إلى منصب القضاء فى أقرب فرصة تالية بأهون سبيل .

٣ - يخرج المحامى الوزير الذى يشغل مكانا مرموقا فى حزبه ، من الوزارة فيشتغل بالمحاماة ، ويصبح منتظرا عند الجميع أن يعود فى تعديل وزارى قريب وزيرا ، فيقبل على مكتبه أصحاب القضايا ، وينقدونه أتعابا ضخمة ، تتيح له أن يقتنى الضياع ويبنى القصور فإذا ذهب إلى المحكمة ترافع أمام قضاة عينهم حينما كان وزيرا أو عينهم حزبه الذى ينتمى إليه ، فيقابل بالاجلال علنا ، وبلا تحشم ، وكثيرا ما شاهد المترددون على جلسات المحاكم المحامى الحزبى ، الوزير الحزبى يدخل الجلسة ، فيقف رئيس الجلسة ، ويحييه علنا ، كما أصبح من

التقاليد المرعية أن الوزير الحزبى السابق ، حينما ينتهى من مرافعته فى إحدى مدن الريف فى الصعيد أو فى الدلتا ، يمضى إلى المحطة ليستقل القطار ، ومن حوله القضاة والمستشارون الذين كان يترافع أمامهم منذ ساعات ، وربما ينضم إليهم السيد مدير الاقليم أو محافظه، ولا يخلو الحال من أن ينضم إلى هؤلاء جميعا أنصار حزب صاحب المعالى الوزير ، فيهتفون بحياته ويلهبون الاكف بالتصفيق .

٤ - وجاءت الاحكام العرفية - بحالة جديدة من حالات فساد القضاء واتلاف كل أسباب النزاهة وضماناتها للحكم . ففى ظل الاحكام العرفية لا تستأنف الاحكام ، وانما تعرض على مكتب ينشئه الحاكم العسكرى لمراجعة تلك الاحكام ، ثم يثبت ما يشاء فيها ويلغى ما يشاء ، بلا قيد وإلى غير حد ، وهذه المكاتب ليست محاكم ، فليس لها حصانة القضاء ولا هيبتها ، وقد ترى المكتب مليئا بالمحامين وذوى المتقاضين وأصدقاء القضاة ، فإذا بالعدالة قد أصبحت شبحا ، والحق طيعا، والقانون يداس بالاقدام علنا .

ومع ذلك يبقى المواطنون فى مصر مؤمنين بأن قضاءهم من أنظف القضاء فى الشرق والغرب ، وهذا الظن لم يكن كله وهما فالقضاء المصرى حيث تنأى الخصومة عن اصحاب السلطة ، ويصبح طرفاها من أفراد الناس ، حتى ولو كانوا على شىء من الثراء أو الجاه ، لا يهتز ميزان العدالة فى يد القاضى فى حين أن فساد أنظمة التقاضى فى بلاد عربية كثيرة كان امرا مقطوعا به ، وقد حدثنى أديب الشيشكلى وكان رئيس الدولة الحقيقى فى سوريا ، وهو يزور مصر وأنا وزير خارجيتها بالنيابة بأن أكثر القضاة فى وطنه ، كانوا من فساد

الزمة ، وكان بذل الاعطية لهم يتم على مسمع من الجميع ، بل يعلم الخصوم. أما القضاء فى أمريكا الذى ينتخب فيها القضاء فهو مثل فى العبث بحقوق الناس ، وتلقى الرشوة بلا تحفظ ولا خجل ، وقد رأينا صورا من هذا التعفن فى قصص رايد تعرضها الشاشة الفضية .

لقد بدا لي أن أروى للقارىء قصصا تدخلت فيها السلطة علنا فى قضايا شهيرة معروضة على القضاء فى واقع الامر قصص طريفة فى ذاتها منها .

١ - قضية زواج الشيخ علي يوسف «باشا» صاحب جريدة المؤيد .

٢ - قضية مقتل علي كامل فهمي الثرى الذى قتلته زوجته الانجليزية مرجريت ، التى حوكمت فى لندن فهربت .

٣ - قضية سليم بك حسن وكيل مصلحة الاثار المصرية سنة ١٩٣٨ وما حولها .

٤ - قضية مقتل السردار لى ستاك - قائد الجيش المصرى وحاكم السودان في الوقت نفسه .

وأقدم هذه القضايا هى قضية الشيخ على يوسف الذى كان صحفياً، وفد إلى مصر من قرية فى الصعيد ، هى قرية بلصفورة التى هى من أعمال محافظة جرجا ، وقد طلب العلم في قريته ، التى ولد فيها وقد ترك قريته وذهب إلى قرية بنى عدى بمركز منفلوط حيث أخواله . ثم مازال يلتمس أسباب المجد ، متذرعا بصلابة خلقه ، وثباته وطموحه غير المقرون بالتهيب ، حتى أصدر جريدة المؤيد فى أول ديسمبر ١٨٨٩ ، فما لبثت حتى أصبحت أكثر الجرائد المصرية ذيوعا . ولم يكن لواء مصطفى كامل قد صدر بعد، إذ كان صدوره فى يوم الثلاثاء ٢ من

يناير سنة ١٩٠٠ ، وبفضل سطوع نجم اللواء ، وانتشاره، أصبح على يوسف أحد كبار ذوى النفوذ ، إذ اتخذه الخديو عباس حلمى مستشارا يهتدى برأيه ويعمل بنصحه ، وكان يطيب له الجلوس معه ، والتحدث إليه ، ولما كان طموح على يوسف لا يقف عند حد فقد طمع فى أن يخطب لنفسه الانسة صفية بنت السيد عبد الخالق السادات شيخ الطريقة الوفائية . وكانت فتاة جميلة وذكية ، وكان أبوها يصحبها إلى كل مكان يقصده فرآها الشيخ على يوسف فوقعت من نفسه موقعا ملك عليه زمام قلبه ، وكان والد صفية صديقا لعلى يوسف ولم يكن لديه مانع من تزويجها لعلى يوسف وإن كان يكبرها كثيرا فى السن إلا أنها كانت مأخوذة بشهرته وعلو مقامه ، وتردد اسمه على الألسن ، فوافقت على الزواج ، ولما كان زوج أختها السيد محمد توفيق البكرى هو نقيب الاشراف وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يخشى أن تقوم عقبة فى طريق هذا الزواج ، فقد أخذ العروس إلى قصره ، وعقد لها على الشيخ على يوسف ، ثم نشرت جريدة المقطم نبأ هذا الزواج فى عدد ١٦ يوليو سنة ١٩٠٤ ، وفوجىء أبوها بهذا الزواج فهاج هائجه أن تزوج ابنته الحبيبة إلى قلبه والاثيرة عنده بغير علمه ، وفى غير دار ابيها ، وإن كان العقد تم فى بيت أختها الشقيقة ، وانتهى الأمر بأن أعلن الشيخ عبد الخالق السادات بأنه غير راض عن هذا الزواج ولا يقره لا للظروف التى لابسته ، فحسب ، بل لعدم كفاءة الزوج ، لأنها من نسل النبى ، وشمل الخديو صديقه وجليسه ومستشاره على يوسف ، بعطفه فانقسم المصريون إلى فريقين ، فريق يؤيد الزواج ، ويرى على يوسف أهلا للزواج من صفية بنت عبد الخالق السادات ، وإن كانت

حفيدة لرسول الله ، فإن علي يوسف بعلمه ومكانته وثروته ، وعقله وقربه الشديد من الحاكم ، يرتفع إلى مقامها ، ورفع والد صفية الأمر إلى القضاء الشرعي ، ووكل الزوج اكبر المحامين ، وشغلت القضية الناس ، ولما كان الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل قد أغضبه هذا الزواج بما شابه من أخطاء كان علي يوسف وتوفيق البكرى جديرين بتجنبها فقد اشتد موقف المواطنين ضد علي يوسف، وعندها لم ير الخديو عباس بدا من أن يتدخل في القضية صراحة في جانب صديقه علي يوسف ، ولما عرضت القضية في صيف سنة ١٩٠٤ وكان الخديو عباس خارج مصر مصطافا في باريس فقد أوفد أخاه الامير محمد علي ليضغط علي القضاة ليحكموا لصالح الزواج باقراره ، ولكن الرأى العام كان ضد هذا القرار ، وانتهى الأمر بصدور حكم في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٠٤ بالحيلولة بين الزوجين حتى يفصل في القضية نهائيا إذ اجلت بناء على طلب محامي علي يوسف ، وهو الاستاذ حسن صبرى الذى عين رئيسا لوزراء مصر سنة ١٩٤٠ . ولم تتحمس الحكومة لتنفيذ حكم الحيلولة إذ سافر علي يوسف إلى الاسكندرية يقابل وزير الداخلية بطرس غالي باشا ، الذى كان قد وضع الحكم في درجه، فاستحال تنفيذه فما كان من الشيخ أحمد أبو خطوة الذى أصدر الحكم إلا أن لجأ إلى قاضي القضاة وكان تركيا تعينه تركيا حسب الاتفاقات الدولية آنذاك بين مصر وبريطانيا وتركيا ، فأعلن أنه سيقفل أبواب المحاكم الشرعية إن لم يتم تنفيذ حكم الحيلولة ، ولما سمعت الناس بقرار القاضي وقاضي القضاة بالدعوة إلى اضراب المحاكم الشرعية حتى يتم تنفيذ حكم الحيلولة بين الزوجين ، هتفوا في الشوارع للاسلام

ولقضاة الشرع ، والتهب الموقف . حتى انتقلت الزوجة إلى منزل الشيخ عبد القادر الرافعى وكان من كبار قضاة الشرع ، حتى حكم بالحيلولة فأحس كل من الخديو واللورد كرومر بالهزيمة ، ولكن عاد الوالد ، فرضي عن زواج ابنته من على يوسف بعقد جديد أبرم فى بيته . بعد أن تدخلت السلطات جميعا فى هذه القضية وعلنا .

أما القضية الثانية فقد بدأت بجناية وقعت فى باريس ليلة العاشر من يولية سنة ١٩٢٣ بفندق سافوى بلندن .

وكان القاتل هو ابن الثرى المصرى على باشا فهمى الذى كان يملك مساحة كبيرة من الأرض الزراعية فى المنيا ، وقد مات وترك أكثرها لابنه على كامل فهمي ، الذى كان قد رأى الشابة الفرنسية مرجريت أن فهام بها ، ودعاها وهو في الثانية والعشرين من عمره في مصر ، فرأت من آثار غناه والترف الذى يتقلب فيه ، مدعاة إلى قبول زواجه في ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، وما لبث أن تنافر الزوجان حتى انتهت حياتهما الزوجية برصاصة اطلقتها على زوجها الشاب ، فأردته قتيلا ، ثم قدمت إلى المحاكمة فترافع عنها المحامى الانجليزى الشهير مارشال هول الذى حصل لها على البراءة من محكمة انجليزية منحازة ضد الشرقيين بعد أن صور لها الزوج القتيل بوحش آدمى أذاق زوجه الويلات ، وجاءت الزوجة إلى مصر ومعها حكم من محكمة جنايات لندن ببراءتها وقد رفعت دعوى ميراث طلبت فيها الحكم لها بربع تركة زوجها ، لأنها برئت من تهمة القتل والشريعة تمنع ميراث القاتل في تركة قتيله .. وهى بمقتضى حكم البراءة ، لم تقتل زوجها إنما دافعت عن نفسها .

وعرضت القضية على المحكمة العليا الشرعية برياسة الشيخ طه حبيب والسيد أنور حبيب الذى عينه السادات مدعيا اشتراكيا ، ثم

رئيسا لديوان المظالم ، فأبى الشيخ طه حبيب أن يقضى لمرجريت أن قاتلة زوجها على فهمى لأن محكمة لندن برأتها، فقد قرأ ترجمة الحكم إلى العربية ، فعرف أن المحكمة برأت القاتلة المضبوطة بآلة قتل فى يدها ، لا لأن الدليل ضدها ضعيف بل لأن القاتلة اوربية والقتيل مصرى، فلم تمثل بالحكم ، ورفضت طلب الزوجة الاجنبية. وكان الملك فؤاد يريد أن يحكم لها بربع التركة رغبة فى إرضاء الاجانب والمندوب السامى البريطانى ، فطلب صراحة من الشيخ طه أن يقبل دعواه فلم يمتثل القاضى الشرعى الشجاع لطلب الملك، وأصر على موقفه فكان أن عزله الملك من القضاء وهو بعد صغير السن وكانت امامه سنوات منتظرة في المحكمة الشرعية ، وكان المتوقع أن يزيد معرفته اثناءها ، وأن يعين رئيسا للمحكمة الشرعية .

فكانت هذه هى القضية الثانية التى تدخلت فيها السلطة بلا حياء فى قضية معروضة على القضاء الشرعى ، وفى اتجاه الظلم والعسف .

أما القضية الثالثة وهى قضية سياسية بحتة ، أسفرت فيها السلطة البريطانية عن وجهها القبيح كما لم تفعل قط من قبل .

فقد كان الحكم فى تلك القضية يهمها أعظم الاهتمام ، فقد كانت قضية زعيمين كبيرين وإن كانا فى وقت القضية رجلين أقرب إلى الشباب، وأعنى بهما الدكتور أحمد ماهر والاستاذ محمود فهمى النقراشى وكلاهما تتلمذ على يد عبد اللطيف بك الصرفانى أحد زعماء حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، أى الحزب الوطنى القديم ، ومدبر حركة العمل السياسى المباشر أي قتل الانجليز وأعوانهم ، وقد تحول هذان الزعيمان من صفوف الحزب الوطنى إلى صفوف الوفد ، ولما

تدهور الموقف السياسى والوطنى فى مصر بعد إجهاض ثورة سنة ١٩١٩ ، راحت السلطة البريطانية تتعقب الوطنيين وتراجع ملفات القضايا السياسية القديمة ، لتسوق الذين تصدوا لها بالبندقية إلى المشانق والسجون . وكان من هؤلاء الخصوم القدامى للاحتلال البريطانى ماهر والنقراشى . وعرضت قضيتهما على محكمة جنايات مصرية يرأسها مستشار انجليزى اسمه «مستر كرشو» .

وكانت حالة العدالة فى مصر قد ساءت حتى أصبح من قضاة مصر أجانب، منهم انجليز ومنهم فرنسيون ومنهم أرمن. ولما انتهت المرافعة من الاتهام والدفاع عن قضية ماهر والنقراشى هذه ، ودخلت القضية فى دور المداولة من القضاة أصر المستر كرشو على وجوب الحكم على «ماهر» و «النقراشى» بالموت ، وعلى اقل تقدير على «ماهر» لثبوت الاتهام ضده ، وكان مع «المستر كرشو» مستشاران مصريان هما كامل ابراهيم بك ومصطفى عزت .. ويرفض المستشاران المصريان رأى المستشار الانجليزى ، فبذل جهدا مضنيا لثنيهما أو لثنى أحدهما على الاقل عن رأيه فلما لم ينجح ، نطق مضطرا بحكم البراءة ، ولكنه كتب خطاب استقالة ارسله إلى المندوب السامى البريطانى يعلن فيه أن الحكم لا يتفق مع رأيه ولكنه نطق به عملا بتقاليد القضاء ، ولكنه يخرج على تقليد آخر وهو افشاء سر المداولة لأن ضميره غير مستريح وبذلك ثبت للمصريين ولغيرهم كيف كانت تتدخل السلطة التنفيذية فى أمور العدالة .

والقضية الأخيرة هى قضية سليم حسن بك وكيل مصلحة الآثار فى سنة ١٩٣٨ وكانت مصلحة الاثار تتهم دولة فرنسا بشكل دائم . إذ أن

الظروف أتاحت لفرنسا بفضل كشف حجر رشيد اثناء حملة نابليون على مصر ، أن تكون وثيقة الصلة بهذه المصلحة ، فبقى رؤساؤها على وجه التواتر فرنسيين ، وبلغ من اهتمام فرنسا بهذا المنصب والاستئثار به دون غيرها من الأمم أن تنص اتفاقية سنة ١٩٠٤ المعروفة بالاتفاق الودى الذى ابرم بين فرنسا وبريطانيا لتسوية خلافات الاستعماريين الفرنسى والبريطانى فى مصر والمغرب على أن منصب رئيس مصلحة الآثار المصرية من حق فرنسا . ولكن الايام جرت طويلا منذ سنة ١٩١٤ ومعها تطورات وتغيرات حتى وصل أثرى مصرى إلى منصب وكيل المصلحة ، وكان سليم حسن هذا الاثرى ، مصريا صميما تنطق قسمات وجهه بمصريته وريفيته، وقد وفق إلى اكتشاف الهرم الرابع من جهة ، وإلى وضع قواعد لتقييم ما تسفر عنه الحفريات الاثرية فى مصر وهى الحفريات التى كانت تقوم بها بعثات اجنبية بريطانية أمريكية وفرنسية والمانية وايطالية . ولما كانت مصلحة الآثار قد غزاها النفوذ الاجنبى فقد كان نصيب تلك البعثات الاجنبية من غنائم الحفريات نصيب الأسد ، وكان نصيب مصر ضئيلا ، ذلك لأن مندوب مصلحة الآثار فى عملية التقسيم كان دائما بمقتضى عرف غير مكتوب بين جنسية البعثة الاجنبية التى يتم الاقتسام معها ، وبذلك كان يحابيها ويحقق أغراضها ، فلما جاء سليم حسن قلب هذا النظام الظالم وأمر بأن يكون ممثل مصلحة الآثار فى جميع الحفريات مصريا ، وبذلك استقام الميزان وضاعت على المكتشفين الاجانب فرص النهب والسلب باسم العلم ، فحقد الأثريون الاجانب فى مصلحة الاثار المصرية على

«سليم حسن» وما زالوا يتربصون به الدوائر حتى اتهموه باختلاس مبالغ ضخمة من اعتمادات حفريات الهرم التى كان يديرها ويشرف عليها . وبدأت النيابة المصرية تحقق مع سليم حسن ، واخذ مدير المصلحة العام المسيو «دريتون» يدير الحملة على سليم حسن ، وكان «دريتون» صديقا للملك فاروق ، فانحاز الملك بكل ثقله مع الاتهام الموجه لسليم حسن ، واهتز ميزان العدالة في هذه القضية ، وكان سليم حسن أول أثرى مصرى عرفه العالم أول مستكشف بين مستكشفى آثار مصر يدخل السجن ، فتطيب نفوس الدوائر الاجنبية التى أضاع عليها هذا الاثرى اسلابا ذات قيمة لا تقدر بمال، ولكن شاء الحظ أن يكون هناك صرا ع حزبى بين عنصرى الوزارة التى كانت تحكم آنذاك وهما الحزب السعدى برياسة أحمد ماهر، والحزب الدستورى برياسة الدكتور محمد محمود . وشاء الحظ أيضا أن يكون وزير المعارف والتربية ، آنذاك الدكتور هيكل وكان وزير العدل أحمد حسين دستوريا كذلك، كما كان النائب العمومى يكن باشا أحمد من الدستوريين ، ولذلك استحال حبس سليم حسن وإرساله إلى المحكمة لحماية هؤلاء الثلاثة له فى حين كان رئيس الحكومة ورئيس الديوان الملكى تقربا إلى الملك ضد سليم حسن ، واستمر الشد والجذب بين الفريقين ، وتبدو مخاطر الجو مهددة لسلامة الاثرى المصرى الكبير ، فتنهار أعصابه ، ثم يبرق نور الأمل ، فيستعيد هدوءه ، حتى سقطت الوزارة وتولى الوزارة الجديدة على ماهر حليف السعديين خصوم سليم حسن فأيقن الرجل أن النهاية واتت ، وأنه ذاهب إلى السجن ولكن شاء الحظ الحسن للمرة الأخيرة أن يكون وزير

العدل مصطفى الشوربجى بك وهو من زعماء الحزب الوطنى القديم ، وكنت أعرفه ، فذهبت إليه وحذرته من مغبة الانسياق مع مؤامرات الاجانب ، فأمر فى الحال بحفظ الدعوى ، ووافق على ذلك رئيس الوزارة الجديد على باشا ماهر الذى كان يناصر سليم حسن وهو فى الديوان الملكى إذ غلبت عنده دواعى المصلحة الوطنية حينما تلقى عبء الحكم وأدرك أن التاريخ سيحاسبه .

وحسمت القضية لمصلحة مصر ، بعد أن كادت هذه المصلحة تتبدد وتضيع .

وكانت إحدى القضايا التى يطيب فيها للسلطة التنفيذية العبث بالعدالة وسفك دمها علنا والقانون يشاهد ويسكت عقدة .

طرقة طويلة مظلمة يروح فيها تاريخ مصر الحديث ويغدو

لكم تأملت فى هذه الطرقة الغريبة ، ولكم صممت أن أحدث الناس عنها ، وعما تثيره فى نفسى من الخواطر .. إنها طرقة فى دار قديمة ، بالنسبة لمعاييرنا نحن الآدميين ، وأنيستنا نحن أهل القاهرة ، وقد كانت طرقة فى دار ثرى من أثرياء العهد التركى الشركسى ، له صلة قربى أو مصاهرة ، بالأسرة الحاكمة ، ثم استحالت الدار الى مقر للقضاء العالى ، وبعد ان كانت مثوى لاهل النعمة والجاه ، تموج بالحريم ، ثم بالجوارى اللاتى يقتنين اصحاب الثراء من كل جنس ولون ، وان كن جميعا من ذوى الحور العين ، رشيقات القد ، نحيلات الخصر ، هيفاوات ، فاتنات ، منحهن الله جمال الوجه ، ومنحن أنفسهن بدروب التزيين والتطرية ، ملاحة مجلوبة ، وحسنا مصنوعا يفعل فعله فى القلوب ، ويكسبن منه مزيدا من النعيم ، ويخفقن به السلطان على «الباشا» ومن حوله ، فيحكمن ويصرفن أمور القصر ، وما بعد القصر ، على هواهن ، وأكثر الرجال فى محيطهن صاغر مطيع .. كانت الطرقة فى قصر منصور يكن باشا ، الذى لا اعرف مكانه من الحكام ، ثم آل

الهلال - فبراير ١٩٨٤ .

الى الدولة ، ربما لان الباشا مات بغير عقب ، فورثه بيت المال ، ثم خصصت الدولة ، داره الفسيحة ، الى محكمة رفيعة ، فانقلب فيها الحال ، وداستها أقدام النساء والرجال ، وشهدت قضايا اكثرها مآس يشقى بها المتقاضون ، ويثرى من ورائها ، الذين يعملون فى مجال الخصومات والمنازعات .

واختارت الدولة الطرقة الغربية فى الدور الاول من المبنى العريق ، وخصصت فى طرفها حجرة فسيحة ، مكانا للأمين على الدعوى العمومية ، وممثل الاتهام ، أى النائب العام ، ونثرت حول هذه الحجرة ، مكاتب لأعوان هذا الموظف الكبير ، من رؤساء للنيابات ووكلاء لها ، ورؤساء أقلام ، وسعاة وخدام ، ومن أجل ذلك لا تدرى أشهدت هذه الطرقة ، جيلا بعد جيل وعهدا بعد عهد ، أم اصابها النحس ، فقد احتشد فيها ، وتزاحمت على أرضها ، أقدام رؤساء الدولة ، وكبار وزرائها ، ورجال الشرطة ، ورجال الصحافة ، ورجال تجذبهم السلطة ببريقها ، ويستدرجهم الزحام بكل ما يثيره من فضول ورغبة فى الوصول : الوصول الى بناء ، أو الى شخص ، أو الى مكانة . وسبق مع هؤلاء العظام ، افراد ، وصلوا اليها ، على الرغم منهم ، وعيونهم زائغة، وأيديهم مكبلة ، وخواطرهم منهوبة ، لا يدرون ما المصير ، يحتلون الاهتمام وتتسلط عليهم العيون ويرقبهم اصحاب الاقلام ويحصون عليهم كل خطوة ويسجلون كل حركة ولفتة ثم يصوبون اليهم فى اللحظة الأولى، كل ما عندهم من ملكات الرقابة والفحص ، ثم يوجهون اليهم لمبات تضىء وتنطفىء فى سرعة لاهثة ، هؤلاء هم الذين شاء لهم الحظ، أن يقتلوا الحكام ، ويزيلوهم من الوجود ، أو الذين يحاولون ذلك فلا

ينجحون ، فهؤلاء وهؤلاء ، هم ضيوف هذه الطرقة ، الذين يصبحون أخطر الناس طراً ، وأحقهم بالحفاوة ، يجرى بين يديهم الحكام ، ويسبقهم ويتبعهم ، كل صاحب شأن ، وتتوقف الاذان والعقول ، بحثا عن خبر .

إذن لقد وقف فى هذه الطرقة ، كل هؤلاء الذين أرادوا ان يغيروا الأمور فى مصر ، كل منهم بدوره ، وكل منهم يمثل عهدا وظرفا وحالا ، واذا أنت جمعت الاصوات التى أدت الى سوق هؤلاء الشبان - وكلهم شبان - الى هذه الطرقة المظلمة ، وضممتها بعضها الى بعض ، اجتمع لك «تاريخ مصر الحديث» . فأعجب كيف يسطر التاريخ بدماء مسفوكة وبطلقات نار ، لا تكاد تلمس جسد الفريسة المقصودة حتى تنتهى صفحة من تاريخ بلادنا وتبدأ صفحة .

وهكذا تختلط السياسة والمبادىء ، بالجريمة وسفك الدماء ، وتدعى السياسة حينما تتورط فى الجريمة ، انها ليست جريمة ، انما هى انفجار لضيق أبى أن ينزاح أمام رغبة شعب ، يريد مزيدا من السعادة والحرية ، وأخرون يسمعون هذا الكلام ويردون عليه : لم يتغير لرصاصات القتل شيئا ، فسبيل التغيير ، هو بث الأفكار الجديدة ، وذيوعها بين الناس ، وتسللها الى القلوب والنفوس ، فى حين لا تزيد طلقات الرصاص عن أن تكون علامة على الغليان ، واشارة الى أن التغيير واقع لا محالة ، فى تدرج وعلى مهل ، ولكنه واقع إن آجلا وإن عاجلاً . ولم تكن مصر تعرف هذا الاسلوب العنيف من العمل السياسى. كانت سماؤها الصافية ونيلها الهادىء ، وبعدها عن الزلازل والبراكين ، والعواصف والأنواء ، هو ضمان الرفق فى كل شىء فى

مصر الا ان القاعدة لها استثناء ، وكان الاستثناء ابراهيم ناصف الورداني الذى لم يزد عمره عن ٢٤ عاما ، وكان نحيلا ، قمحي اللون ، يشوب وجهه سمرة مصرية ، وكان فوق ذلك هادئا في الظاهر ، شديد العصبية والحساسية في الباطن . أطلق رصاصه في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ على ضحيته ، فارتجت البلاد ارتجاجا شديدا ، فقد كانت رصاصاته الست أول ما فرق الهدوء المصرى التقليدى ، وقادوا ابراهيم الورداني ، الى الطرقة الطويلة المظلمة ، وجرى وراءه الصحفيون الاجانب قبل الصحفيين المصريين ، فلم تطرف له عين ، ولا يختلج فيه عصب ، ومضى مكبل اليدين ، صامتا ، مطبق الشفتين ناظرا الى الامام هادئا ثابتا ، وقال المعلقون ممن يعرفون علم النفس : إن هؤلاء الذين يقدمون على قتل الكبراء ، دون ان يفكروا في الهرب ، يشعرون بأن الفعل الذين أجمعوا أمرهم على ارتكابه ، هو هدف حياتهم ، به يتحقق وجودهم ، ومن ثم فهم لايشعرون بشيء من حولهم ، ولا يفزعهم ان مصيرهم الموت ، ولايخيفهم شيء من مظاهر السلطة التى تحيط بهم، لانهم يحلقون في دنياهم . ولما دخل الوردانى الى غرفة النائب ، لم ينكر فعلته، ولم يبد ندما على إتيانها ، وبررها بأسباب عديدة ، وأكد انه كان وحده ، وليس له شريك ، ولا محرض ، ولا معين إلا عقله وقلبه .

وخرج بنفس الهدوء الذى دخل به حجرة النائب العام ، وجرؤ بعض الناس ، ان يهتف بحياته ثم يعدو هربا من القبض عليه ، فابتسم ابتسامة خفيفة ولم يزد .

وبعد أن عاد الى سجنه ، خلت الطرقة الطويلة المظلمة من الاقدام ، التى كانت تدق سطح الطرقة في عدوها ، ولم يبق فيها الا حاجب امام

غرفة موظف كبير يهوم برأسه تحت ثقل النوم الذى هاجمه من فرط السأم . ولم تمض أيام حتى امتلأت الطرقة الطويلة المظلمة بممثلى السلطة وأعوانها من ضباط تلمع على أكتافهم نجوم نحاسية صفراء وضباط يلبسون الثياب المدنية حتى لا يعرفهم الناس . لانهم ضباط الامن والمباحث ، ولم يكن ضيف هذه الطرقة شاب واحد ، هادىء صابر، ومطمئن ، بل سبعة من الشبان أكثرهم طلبة هم على مراد الطالب بمدرسة المهند سخانة ، والذى اشتغل بأعمال الخبرة الحرة بعد ذلك أمام المحاكم فاشتهر بكفاءته ونزاهته على نقيض ما اشتهر به الخبراء فى تلك الأيام من عدم الكفاءة وخراب الذمة ، ومحمود انيس المهندس ، وشفيق منصور الطالب بكلية الحقوق ، الذى بقى يمارس العمل السياسى السرى العنيف ، حتى نفى الى مالطة خمس سنوات فى الحرب العالمية الاولى ، ولم يهزه النفى والاعتقال فعاد ، يطلق رصاصاته ، ويدرب صغار أعوانه ، حتى صعد الى المشنقة سنة ١٩٢٥، وعيد البرقوقى الذى أصبح فيما بعد محاميا فى طنطا ونائبا ذا ميول وفدية كما كان زميله عبد الخالق عطية الذى كان طالبا بمدرسة الحقوق ثم تخرج فيها وأصبح عضوا بمجلس نقابة المحامين ، شارك فى محاكمة مصطفى النحاس أمام مجلس التأديب ، ومحمد كمال الطالب بمدرسة المهندسخانة الذى لم يعد أحد يسمع عنه ، وحبيب حسن المدرسى .

ساقتهم السلطة الى الطرقة المعهودة بتهمة المشاركة فى جريمة الوردانى ، بقتل بطرس غالى ناظر النظار ، وقد كان أكثرهم عصبيا ، محتجا على القبض عليه ، ساخطا على الاغلال التى وضعت فى يديه ،

كما كان أكثرهم يتلفت يمينا ويسارا باحثا بناظريه عن أحد من ذوى قرباه ، ودخلوا الى النائب العام واحدا فى أثر واحد ، وخرجوا والمرارة تفيض من وجوههم ، واحالتهم الحكومة الى قاضى الاحالة ، وكان متولى بك غنيم ، فقال ان المنسوب الى هؤلاء كان شروعا فى الشروع فى الجريمة وهو أمر لايعرفه القانون وبالتالى لايعاقب وفى جلسة ١٨ مايو سنة ١٩١٠ ، افرج القاضى عنهم ، وقرر فى شأن التهمة المنسوبة اليهم انه لا وجه لإقامة الدعوى ضدهم ، فكان الافراج عنهم يوم عيد وطنى ، نظم فيه الشعراء القصائد ، ونشرت الصحف فيها نبأ الافراج فى صدر صفحاتها الاولى ، وهى لا تكاد تخفى سرورها .

ولكن هذا الحكم كان تطورا فى حياة القانون الجنائى فى مصر ، فقد أدركت السلطة ان قرار قاضى الاحالة ينبىء عن أن هناك ثغرة فى القانون سينفذ منها الذين يتفقون على ارتكاب الجريمة دون ارتكابها فعلا ، فيكون اتفاقهم تآمرا على أمن الناس ، وإن لم يصدر عنهم شىء يحرمه القانون ، فيجب عقابهم على اتفاقهم الذى يسمى «بالاتفاق الجنائى» وولدت جريمة بهذا الاسم ، وأصبحت من أشهر جرائم قانون العقوبات ، وقد وصفها كبار الفقهاء والمحامين معاً بأنها من أكبر مشكلات القانون .

ومضت على جريمة القتل السياسى سنوات دون ان تتبعها واحدة مثلها ، وان بقيت هذه الحادثة الاولى مشهورة ، ومذكورة على الالسن ، لم يجرؤ الشعراء الرسميون على أن يقولوا فيها شيئا عدا رثاء القتيل «بطرس غالى» بقصيدة من شوقى ، لان شوقى فى تلك الأيام ، لا يدع عظيما ينتقل الى رحمة الله إلا وشيعه الى قبره بقصيدة ، وقد كان

مطلع قصيدة شوقى .

غالى فى مديح ابن بطرس غالى

وقد عوض الشاعر الشعبى بأزجاله وأراجيزه تسجيل هذا الحدث الخطير ، فحفظها الشعب وتناقلتها الألسن ثم جاءت الحرب العالمية الاولى ، وأعلنت بريطانيا الحاكمة المستبدة بالسلطان الاحكام العرفية ، فاظلمت الشوارع وقصفت الأقلام ، وأخرست الألسن ، وتفتتت الجماعات والاجتماعات ، وامتلأت المعتقلات بأفراد من الشعب بعضهم عظماء ومعروفون ، وأكثرهم من عامة الشعب أخذوا بالشبهة ، وحبسوا بالوقيعة والوشاية ، وشحت الارزاق ، وغلت الأسعار ، فعادت الطرقة الطويلة المظلمة تستقبل ضيوفها وكثرت أقدام السائرين فيها ، والذاهبين والآتين ، من المتهمين ، والمحامين ، والقضاة ، ورجال النيابة، فقد شرع فى قتل السلطان حسين كامل مرتين ، مرة فى شارع حسن الاكبر بالقاهرة وقد قبض على المتهم ، فعرف ان اسمه محمد خليل وانه من اهل المنصورة ، وقد جاء ليقتل السلطان الذى قبل ان يحكم بلاده فى ظل العدو الغاصب ، وحقق معه نائب عام جديد ، ثم سيق الى المشنقة ، فحاول اثنان من شباب «الحزب الوطنى القديم» أى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد قتل السلطان حسين كامل نفسه بقنبلة ألقياها على موكب السلطان في ناحية رأس التين من شقة الشارلمان محمد شمس الدين ونجيب الهلباوى ، فقضى عليهما بعد ان مرا بالطرقة الطويلة المظلمة أياما بالسجن مع الاشغال الشاقة ، وأتما مدة العقوبة ، واختفى محمد شمس الدين ، أما نجيب الهلباوى فقد كانت له قصة جديرة ان تعرض على الشاشة لانها تفوق قصص الشاشة

البيضاء طرافة وإثارة ، فقد تحول الشاب الوطنى الذى كان يلهب عواطف تلاميذه بكلماته الوطنية الحارة ، وكان من تلاميذه فى مدرسة رأس التين أو العباسية باسكندرية ثلاثة لمعت أسماؤهم وعظمت مكانتهم، وارتبطوا بالعمل السياسي ، كان أولهم وأكبرهم شهرة محمود فهمى النقراشى وكان ثانيهما وثالثهما اثنين من تلاميذ النقراشى هما عبدالرازق احمد السنهورى الفقيه العظيم ، وسليمان حافظ وكيل مجلس الدولة الذى حمل تحت إبطه يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ وثيقة نزول الملك عن عرشه ، ومضى الى قصر رأس التين ليقابل الملك ، وهو ينتعل حذاء من المطاط ، ويرتدى بنطلونا من صوف الفانيلا ، وسترة من التيل الابيض الرخيص .

نجيب الهلباوى استاذ كل هؤلاء فى الوطنية ، حينما خرج من السجن ، رأى أبواب الرزق موصدة ، ورأى بعض اخوانه فى العمل السرى قد أصبحوا وزراء مثل احمد ماهر باشا ووكلاء ووزراء كمحمود فهمى النقراشى ، ونوابا كالدكتور شفيق منصور ، فطلب منهم ان يلحقوه بالعمل ، فتلكأوا ، فباع نفسه للشيطان ، وذهب يسىء بزملاء الكفاح السابق ، وتردد على الطرقة الطويلة المظلمة فى دار القضاء العالى بميدان باب الخلق ، لا ليحاكم كما حوكم من قبل ، ولا ليدفع عن نفسه تهمة القتل حينما جرؤ على أن يشرع فى قتل سلطان البلاد ومليكها ، دون أن يحفل بمستقبله ولا بمصير رأسه ، بل عرفته الطرقة الطويلة المظلمة هذه المرة ، واشيا ، وموقعا بأشجع شباب مصر فى تلك الأيام ، وكان فى هذه المرة ، يسير فى الطرقة المعهودة ، متلفتا يمينا ويسارا ، اذ كان خائفا من أن يراه أحد ، وقد غير زيه ، وخرج من

إهابه ، ولعب دور شاهد الملك فى القضية التى كانت من أكبر الجرائم فى وقتها . ولكن قبل ان تقع تلك الحادثة الرهيبة المعروفة بحادثة مقتل السردار التى وقعت فى نوفمبر ١٩٢٤ ، وقعت حادثة قبلها ، اهتزت لها مصر ، وربما العالم العربى لانها كانت هذه المرة شروعا فى قتل رئيس الوزراء المصرى ، ولكن هذا الرئيس كان فوق منصبه الرسمى ، رئيسا تحبه جماهير الشعب ، وتبالغ فى حبه الى حد رفعه الى مرتبة القداسة، ذلك هو سعد زغلول ، وكان سعد ، زعيم الأمة ، قد ذهب فى يوليو سنة ١٩٤٤ فى الساعة السابعة من صباح يوم فى شهر يوليو الى محطة مصر ليستقل القطار الى الاسكندرية ليقدموا الى الملك التهانى بالعيد ، وسار سعد على عادته على رصيف المحطة فى بطء وتثاقل ، والناس على الجانبين يهتفون باسمه ، ويتدافعون نحوه لولا ان سياج الشرطة يدفعهم دفعا هينا لينا ، لعلم الشرطة إن هؤلاء المتدافقين أحباء وليسوا خصوما ، ولكن برز من بين صفوف هؤلاء المتدافقين شاب ، دنا من الرئيس دنوا شديدا ولم يظن أحد انه ينوى شرا الا ان الشاب أخرج من جيبه مسدسا وأطلق منه عددا من الرصاصات أصاب بعضها ساعده وصدره ، ونقل الرئيس الى مستشفى بالمنيل يديرها طبيب مصرى تعلم فى ألمانيا ، كانت أمه المانية ، يدعى على ابراهيم رامز ، فأجرى للرجل الكبير الجريح عملية ، استخرج بها القذائف ونجا الرئيس من الموت ، على الرغم من انه كان يعانى من مرض السكر ، وكان قد دنا من السبعين ، وكان ضعيفا واهنا لعلل أخرى منها الربو .

وقبض على الجانى ، فإذا هو كالعادة شاب ، دون الخامسة والعشرين ، يطلب علم الطب فى إحدى جامعات المانيا ، وكان فى لجنة

شباب الحزب الوطنى بهذه الدولة ، وكان قد نقم على الزعيم لانه وصف الانجليز بأنهم خصوم شرفاء ومعقولون ، فعز عليه أن يكون غاصبو بلده ، شرفاء ، وسيق الشاب الى الطرقة المظلمة ، فى دار القضاء العالى ، وعليه حراسة مشددة ، لان السلطة توهمت الجانى ، ليس سوى أداة لعدد من زعماء الحزب الوطنى القديم ، إذ كانت صلات زعماء حزب مصطفى كامل ، بألمانيا ورجالاها خلال الحرب العالمية الأولى وثيقة بحكم ان المانيا كانت عدوة بريطانيا ، ومن ثم كانت صديقة للوطنيين المصريين ، وحينما خرج على عبد اللطيف من الطرقة الطويلة المظلمة ، لم ترسله سلطات التحقيق الى المحكمة ، بل أرسلته الى مستشفى الامراض العقلية ، لأحد سببين ، أولهما ان تكون الزعامة قد أثرت ان يكون من اجترأ على الهجوم عليها واطلاق النار ضدها مجنونا، او لان الشاب كان قد خلط فعلا فى كلامه ، وهو يحقق معه ، فى المكاتب التى تقع على جانبى الطرقة الطويلة المظلمة .

ولم ينقض على هذا الحادث شهور ، حتى شهدت نفس الطرقة عددا من الشبان منهم محام واحد ، وطالبان فى المدارس العالية ، وعمال وموظفون صغار ، وقد أحاطتهم الدولة ، بحراسة غاية فى الشدة ، لا بأمر الدولة نفسها ، بل بأمر السلطات البريطانية التى كانت تحكم مصر فعلا والممثلة فى المندوب السامى البريطانى ، وكان وقتذاك قائدا بريطانيا من أشد قواد بريطانيا لانه القائد الذى كتب له ان يفتح القدس وينتزعها من الحكم العثمانى ، ويضمها لاملاك ومستعمرات التاج ، حينما دخلت فلسطين تحت الهيمنة البريطانية باسم الانتداب ، ذلك هو اللورد اللنبى ، وكان وجه اسمه «السير لى ستاك» وكان يشغل وظيفة

القائد العام للجيش المصرى والحاكم العام للسودان فى وقت واحد ، وكان القائد عائدا الى بيته فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، فأطلق عليه اربعة من الاشخاص المجهولين ، الرصاص فنقل الى المستشفى حيث مات فى صباح اليوم التالى ، فقامت قيامة بريطانيا فوجهت إنذارا عنيفا خاليا من اللياقة الواجبة بين الدول ، وفرضت على مصر غرامة قدرها نصف مليون جنيه وعاقبتها بطرد الجيش المصرى من السودان واحتلال الجمارك واطلاق يدها فى زرع ما تشاء من أراضى منطقة الجزيرة بالسودان ، وفرضت الحكومة مكافأة ضخمة لمن يرشد عن مرتكبى الجريمة ولم ينقض سوى بضعة أسابيع حتى كان المهدى السابق نجيب الهلباوى قد قطع صلته بماضيه تماما ، وراح يبلغ السلطات عن أبناء البقية الباقية من عصابة اليد السوداء التى بدأت عملها السرى العنيف خلال ثورة ١٩١٩ ، فأردت عددا من ضباط الجيش البريطانى والموظفين البريطانيين وشرعت فى قتل عدد آخر من الموظفين المصريين الموالين لبريطانيا وفى مقدمتهم رؤساء الوزارات والوزراء .

ولذلك فرحت السلطات البريطانية حينما وضعت يدها على أفراد هذه الجماعة التى استمرت سنوات تقتل فى شوارع القاهرة كبار أعوان بريطانيا من المدنيين والعسكرين وختمت أعمالها بقتل القائد العام لجيش مصر ، السير لى ستاك ، الذى مر ذكره ، وشهدت الطرقة الطويلة المظلمة ، ما لم تشهده من قبل ، من متهمين سياسيين بلغ عددهم الثمانية يتقدمهم المحامى الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته السياسية بأن اتهم بمشاركة ابراهيم الوردانى فى جريمته ، وكان من

الاحتياط والتحرز بحيث لم تستطع السلطات إثبات أية جريمة ضده ، فاعتقلته بعد اعلان المحاكم العرفية ونفته الى مالطة وبقى هناك منفيا ، بعيدا عن الاهل والاقارب ، خمس سنوات ، فلما اطلق سراحه جمع حوله عددا من الشبان منهما الشقيقان عبد الفتاح وعبد الحميد عنايت ، والعامل ابراهيم موسى ، والموظف محمود اسماعيل ، واستأنف نشاطه السرى حتى يقضى عليه ، وتردد هو وزملاؤه على تلك الطرقة الطويلة المظلمة أسابيع بل شهوراً كثيرة ، حتى حكم عليه بالموت ونفذ فيه وفى اخوانه حكم الموت فى يوم واحد ، وبقيت الطرقة تستقبل روادها ، فأستقبلت محمود عيسوى الشاب الذى قتل احمد ماهر باشا رئيس الوزراء ، وذلك باطلاق الرصاص عليه فى مجلس النواب فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ ، ومحمود على حسن الذى قتل رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى ٣٠ ديسمبر ١٩٤٩ ، وغيرهم فى قضايا كل منها صفحة فى تاريخ مصر الحديث ، والطرقة لا تتغير ، تشهد الاحداث ، وترى رأى العين صانعيها من الشبان الذين يدفع بهم التحمس غير المضبوط اليها، لتفتل لهم الحبال ، فيصعدون المشانق ، وعلى شفاههم ابتسامة ربما لانهم ساروا على ارض هذه الطرقة ، فكتب لهم الخلود ، وان كان القانون ينكر أعمالهم ويزدريهم ازدراءً ، فى حين تقول الطرقة ما لم يشهده مكان سواى ، وعرفت عشرات من الشبان ، صنعوا الجانب الدامى من تاريخ مصر ، ودفعوا الثمن حياتهم .

الديمقراطية
حقيقة أم سراب ؟

الديمقراطية نوعان ، نوع يتجسد فى الدساتير والقوانين والمراسيم، وهى مايشغل بال دعاة الحرية ، وطالبو حقوق الانسان .

وديمقراطية ، يعيشها الناس ، ثم يحافظون عليها ، بالدم والروح ، مهما ضعف شأنهم ، وقلت وسائل الدفاع فى أيديهم .

الديمقراطية ، خداعة جذابة ، لانها تتحول الى وثيقة ، تعد الناس ، بحقوق كاملة ، وضمانات عظيمة ، وتكبل الحاكم ، ملكا كان أو أميرا ، أو رئيسا بقيود ، تجعله لا يتحرك ولا ينطق ، وربما لا يفكر ، الا فى ظل رقابة من الشعب ، وهى تعد بعد ذلك بمحاكمة كل من تسول له نفسه بالخروج على هذه القوانين أو خرق هذه الضمانات .

وقد ألفت الشعوب أن تحارب ، حتى تحصل على وثيقة من هذه الوثائق ، فتظن ان الحرية دانت ، وأن حصون الاستبداد تهاوت ، وتقيم ليوم ظفرها به ، الاعياد وترفع الاعلام ، وترتل الأناشيد ، ثم لا يمضى إلا القليل ، حتى ترى يدها فارغة من كل ما ظنته حرية حقيقية ، ويعود الظلم الى سابق عهده ، ويعانى الضعفاء المذلة والمهانة .

أما الديمقراطية الحقيقية ، ذات السلاح المشهر فهى ، لاتكتب فى نص ، ولا تسجل فى ورقة ، انما تولد وتحيا ، مهما ضؤل نفوذها أول

الهلال - يونيه ١٩٨٢ .

الامر ، فى قلوب أناس لا يطيقون أن تمس ، ولايترددون فى أن يتنادوا ، بالدفاع عنها ، وتتوالى من أجلها المعارك ، وتكثر الضحايا ، ولكن تبقى فى جميع الاحوال عزيزة الجانب . وهذا النوع من الحرية ، لايحتاج الى الساسة فقط ، انما يحتاج الى المربين ، وكتاب الصحف ، ومؤرخى التاريخ ، ومؤلفى القصص والمسرحيات ، حتى لا تمضى ساعة ، الا ويسمع المواطن ، أو يقرأ ، أو يرى دعوة ملحة الى تقديس الحرية او الذود عنها ، أما ديمقراطية النصوص والقوانين ، فقد بلغ الامر بهوانها الى انك تقرأ دستور دولة كامبراطورية هيلاسلاسى ، وتقارنه بدستور دولة عريقة فى الدستورية والحرية كفرنسا ، فيروعك ان حقوق الشعب وضماناته فى دستور هيلاسلاسى ، أعظم واكبر ، من حقوق الشعب الفرنسى . فما من حق من حقوق الناس ، ولا ضمانة من ضمانات تلك الحقوق الا نص عليها الدستور الاثيوبى ، وفى نفس السنة التى مات فيها فى تلك الدولة ذاتها مائة ألف جوعا وعطشا ، كانت سباع الملك أو الامبراطور ، تأكل من يده أغلى الطعام ، أما حقيقة هذا الدستور فهى ليست الا مجرد وعد من الحاكم بانه سيحكم بما يريده الشعب ، كما فعل «محمد على» والذى أصبح واليا لمصر ، حينما قبل سنة ١٨٠٥ أن يحكم مصر ، بشروط زعمائها وعلى رأسهم ، الزعيم العظيم عمر مكرم الذى وسد لمحمد على منصة الحكم ، لانه توسم فيه الصلاح والكفاءة ، ولم يتردد الوالى الجديد فى أن يلتزم فى حكمه بشروط الزعماء ، أى بالعدل والاصلاح ، ولكنه نسى ذلك بعد حين ، ونفى الزعيم الذى لولاه لما عرف سطوة الحكم ، وعظمة نفوذه ، وقد فعل الاميران ابراهيم ومراد فى سنة ١٧٩٥ بحضور المشايخ البكرى والشرقاوى والسيد عمر مكرم

حينما ثار الشعب فى وجه مظالم الحكام ، وفساد أمرهم ، وعدوان اتباعهم على الشعب وحقوقه وكرامته ، فوقعت وثيقة شبيهة تماما بوثيقة الملك جون سنة ١٢١٥ ، وقد دعى القاضى لتحرير هذه الوثيقة ، ثم «فرمن عليها» ، أى جعلها فرمانا ، أى مرسوما أميريا ، ولكن هذه الوثيقة التى أصبحت فرمانا ، مضغها الزمن بين فكيه ، ثم بصقها ...

ومعنى ذلك كله أن الوثائق ، مهما كانت جليلة ومهما بدت مقدسة ، ومهما اقسم الحكام باحترامها ، والنزول على مقتضاها ، لا تلبث حتى تفقد معناها ، فلا يلتفت اليها صاحب سلطة ، ولا يتمتع بها صاحب حق..

وديمقراطية الدساتير ، والقوانين ، والمراسم ، والعهود والمواثيق ، هى سراب خادع ، لها بريق يخطف الابصار ، ولها جمال تستريح له النفوس ، ولكنها أكاذيب ، لا تصدق ، وبرق خاطف ، لا يسمن ولا يغنى من جوع .

ولقد جربت الامم فى العصور الحديثة ، هذه الديمقراطية ، وأصيبت بخيبة أمل كبيرة ، فقد قامت أكبر الثورات الحديثة فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وكانت تنادى بالمساواة وبالحرية وبالاخاء ، وخُيّل للشعب الفقير، والطبقات المحرومة من الملبس والمسكن والغذاء ومن المشاركة فى الحكم ، بأدنى نصيب ، وخُيّل لهذه الطبقات التى كانوا يسمونها بالفرنسية بـ «سان كيلوت» ومعناها الذين لايجدون ما يستر العورة ، خيل إليهم انهم غدا سيشاركون حقا فى الحكم ، وأن صوتهم سيسمع، ورأيهم سيطاع ، وأن المهانة التى يعيشون فيها ستنتهى ، فلما جلس الثوار ، ليضعوا أول دستور للثورة قننوا هذه المهانة ، فدستور سنة

١٧٩٢، قرر أول ما قرر حرمان من كان خادما أو يمتهن عملا غير محترم من أن يكون له صوت ، كما حرم كل فرد لا يؤدى ضريبة بقدر حدده القانون من آن يكون ناخبا ، فعرف الفقراء والمحرومون أن ما عقدوه من الآمال ، تهاوى وسقط على الارض ، وانه يجب على الشعب أن يثور ثلاث ثورات دامية ، سالت فيها الدماء انهارا ، وتراكمت فيها الرؤوس الطائرة أكواما ، حتى يصبح لكل فرد من الرجال وحدهم صوت . وفعلا ثارت فرنسا فى سنة ١٨٢٠ ، وفى سنة ١٨٤٨ ، وفى سنة ١٨٧٠ ومع ذلك بقى سن الناخب مرتفعا ، وبقيت طبقات عديدة محرومة من التصويت ، وحرمت المرأة طويلا ..

ولما أصبح لكل ناخب صوت ، بقيت للحكومة سقطات ، تملك معها التضييق على المعارضة وصحافتها ، ونواديها ، وأحزابها ، ووسائل تعبيرها عما ترفضه ، وتراه ماسا بالمصالح العامة .

ولا تزال الاحزاب فى فرنسا – على سبيل المثال – تطالب بمزيد من الديمقراطية ولعله من الخير ان نعرف ماذا جرى فى بلادنا ، وسندع جانبا الديمقراطية التى بدأت فى عهد اسماعيل سنة ١٨٦٦ بمجلس شورى النواب ، الذى قضى عليه الاحتلال ، واقام مقامه مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، حتى جاءت سنة ١٩١٣ قبيل الحرب العالمية الاولى ، فأقام اللورد كتشنر الجمعية التشريعية التى دهمتها الحرب فى تلك السنة ، فأوقفت حياتها . سندع ، هذا التاريخ جانبا ، لا لانه خلا من محاولات جدية ، لمحاربة المعارضة ، والوقوف فى وجه الحاكم المطلق ، ولا لان الدور الذى قام به أمثال عبد السلام المويلحى فى مجلس شورى النواب ، ولا ما فعلته الجمعية التشريعية فى مقاومة

مشروع مد امتياز قناة السويس ، كان قليل القيمة ، بل لأن هذه الومضات السريعة القصيرة العمر ، لا تعتبر حياة دستورية متصلة ، فقد كانت الهيئات المقامة خلالها ، أجهزة عاجزة ، ولدت مهيضة النجاح، ضعيفة الصوت ، مكبلة مقيدة .

ولكن ما حدث سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٣ بعد ثورة ١٩١٩ ، كان صفحة جديدة حقا ، وكانت هذه الصفحة مبشرة ، بتطور حاسم ، فى شأن حقوق الشعب ، وممارسته إياها ، ومحافظته عليها ، وجدبة القدر الذى تمتع به الشعب - بمقتضى نصوص الدستور - من الرقابة على الحاكم، ومحاسبته ، والمشاركة الكاملة فى وضع القوانين ، وتعديلها . وفى اقتراح نصوص جديدة فى الدستور .

لا يستطيع أحد أن يقول ان دستور سنة ١٩٢٣ ، كان نموذجيا وانه وضع قيودا حقيقية وجدية على سلطات الملك ، والسلطة التنفيذية ، ولكن ما تضمنه الدستور من هذه القيود كان كفيلا ، بأن تولد حياة سياسية حرة ، أو تبشر بذلك .

انتخبت اعنى عينت الحكومة ، لجنة لوضع مشروع الدستور ، من ثلاثين عينا من أعيان مصر ، كان من بينهم عدد غير قليل من فقهاء القانون فى مصر ، يمكن ان تضعهم بلا تردد فى مصاف أعظم فقهاء القانون فى اوربا ، فكان من بينهم أو فى مقدمتهم حسين رشدى باشا «رئيس الوزراء فى فترة الحماية والحرب العالمية الاولى» وعبد العزيز فهمى بك «باشا» ، ومحمد على علوبة بك «باشا» ، وتوفيق دوس «بك» ، وعبد اللطيف المكباتى بك ، وكانت تعاونهم أمانة نقية ضمت واحدا من ألمع رجال القانون وأساتذته فى مصر وهو أحمد أمين بك «أستاذ فى

مدرسة الحقوق فيما بعد» وعبد الحميد بدوى بك «رئيس لجنة قضايا الحكومة فيما بعد» .

ودارت مناقشات من اعضاء هذه اللجنة الثلاثينية حول ما يجب ان يكون للشعب ، وما لا يكون للملك والسلطة التنفيذية ، كانت كأناشيد الحرية ، والدفاع عن الحقوق الشعبية ، وكان وجه الجمال فيها انها لم تكن خطبا منبرية ، تدعو الى الحرية المطلقة ، وسيادة الشعب غير المحدودة ، بل كانت مناقشات فقهية ، مؤيدة بالحجة والبرهان القانونيين ، والاسانيد المستقاة من داساتير الدول الحديثة ، ومن كتب الفقهاء ، ومن أحكام محاكم فرنسا وبلجيكا وايطاليا ، واحيانا بريطانيا وألمانيا ، وكان المصدر الاصلى لهذا الدستور المصرى ، الدستور البلجيكى ، وكان مبرر الاستناد الى هذا الدستور والاعتماد عليه ، أن بلجيكا ، دولة ملكية ، وبرلمانية ، ونحن اى مصر كانت دولة ملكية وكان فقهاؤها ، يتوقون الى ان يكون لها نظام دستورى برلمانى شبيه بدولة كبلجيكا ، لا يعتدى فيها الملك ، ولا الوزراء على حقوق الشعب ، وكان كل شىء ، يعد بأن الدستور الحقيقى قادم ، والحياة السياسية الحرة مقبلة ..

وكانت بريطانيا ، التى أذنت لهذا الامل ان يساور النفوس فى مصر - تشاهد كل ما يجرى وتضحك فى كمها ، لانها كانت تنوى ان تطيح بهذا الدستور ، وأن تطفىء بغلظة هذا الامل ، اذا رفضت الاغلبية ان تضفى على الاحتلال البريطانى الشرعية ، فيكون الحاكم الحقيقى هو المندوب السامى ، وتكون البرلمانات «المجالس التشريعية» والانتخابات والاحزاب والازمات لعبا يتلهى بها الشعب حينا ويعانى بسببها حينا أخر ..

ولكن الشعب استقبل هذه الحياة الدستورية ، التى بدأت أيامها في ١٥ من مارس سنة ١٩٢٤ ، بعد انتخابات كانت مثالا للنزاهة والحيدة - على رأى مؤرخي تلك الحقبة - اكتسح فيها حزب الوفد ، خصومه اكتساحا مروعا ، ولست أنسى يوم ذهب الملك مع رئيس الوزارة وزعيم الاغلبية فى عربة ملكية مذهبة ، تجرها خيول مطهمة ، ويجرى أمامها سياس حفاة ، يلبسون طرابيش من عهد محمد علي ، وعصيا مذهبة أيضا ، فقد وقفت يومذاك في ميدان الاسماعيلية - ميدان التحرير اليوم - فلما أهلت السيارة الملكية ، ورأيت الملك جالسا الى جوار الزعيم ، أحسست بأن قلبى كاد يقفز من الفرح على الرغم من أننى نشأت فى مدرسة الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ، وهى مدرسة كانت لا تطمئن مطلقا لسعد زغلول وجميع زملائه من حزب الامة الذى أسسه اللورد كرومر ، عميد الاحتلال البريطانى وممثله ، كنا - نحن الشعب - نحسب ان الملك قد روض ، وأن أظافره قد نزعت ، وانه دان بالطاعة للشعب ، بدليل انه جلس الى جانب الزعيم الذى كان وجهه يطفح بالبشر والسرور ، أولا لانتصاره القريب فى الانتخابات ، ولانتصاره اليوم ، بجلوسه مع الملك فى عربة واحدة . ولكن هذه الآمال - كالعادة انطفأت سريعا - فالانجليز دبروا مع الملك مقتل البريطانى السردار لى ستاك باشا ، قائد الجيش المصرى ، ثم امروا بوقف البرلمان ثم حلوه ، ثم أوقفوا الحياة النيابية ، وعينوا على رأس الوزارة ، مستشارا سابقا فى محكمة الاستئناف العليا ، انحدر من أصل تركي ، وباع نفسه بلا تردد للانجليز وللملك ، واعانه على حكم البلاد بالحديد والنار ، ابن

باشا آخر هو اسماعيل صدقى باشا الذى كان لسخرية القدر ، زميلا لمصطفى كامل فى مدرسة الحقوق .

وأظلمت الدنيا ، وانطفأت مصابيح الحرية ، وساد حكم الارهاب ، وذهب زعيم الاغلبية الى فندق «سميراميس» ، نائيا بنفسه عن الحياة العامة ، فلما ذهب إليه فريق من الطلبة هاتفين به بوصفه «أب الأمة» ، ضحك فى سخرية مرة «أنا اليوم أبو النوم» . واخلد للراحة .

ومعنى هذه المأساة ان الدستور الذى وعد الشعب ، بملك مقيد ، وشعب مطلق ومؤسسات سياسية ، راسخة ، وحقوق للناس واضحة ، داسته الاقدام وتنكر له حتى الذين وضعوه . فعبد العزيز باشا فهمى - الذى نطلق اسمه على شارع من أكبر شوارع القاهرة - بعد ان كان يدافع عن الدستور سنة ١٩٢٣ ، قال انه ثوب فضفاض ، تتعثر فى ذيوله مصر ..

وأوقف الدستور مرة أخرى فى سنة ١٩٢٨ ، على يد محمد باشا محمود ، وكان تعطيل الدستور لسخرية القدر أيضا - على يد حزب اسمى نفسه حزب الاحرار الدستوريين وكانت دعواه انه الحزب الذى وضع رجاله الدستور والذين تواصوا بأن يحموه ..

ثم استبدل بدستور سنة ١٩٢٣ ، دستورا وضع سنة ١٩٣٠ على يد اسماعيل صدقى باشا ، وكان آنذاك دستورا ليس فيه فضول ، ولا اتساع يؤذى مصر التى لم تألف الحرية والحقوق الدستورية .

وألغى الدستور الجديد ثم عاد الدستور القديم سنة ١٩٣٥ ، بعد ثورة قصيرة العمر من شباب الجامعة ، كان لسخرية القدر للمرة الثالثة، هدف شبانها أن يحملوا زعماء مصر على أن يتحدوا ليؤلفوا

وفد مفاوضة وقع فى نهايتها وثيقة ارتضوا فيها جميعا بالاحتلال البريطانى، اجراء مشروعا لمدة ٢٥ سنة ..

واستمرت مصر تحكم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم بالاحكام العرفية، مرة للحرب العالمية ، ومرة لحرب فلسطين ، ومرة لحريق القاهرة ، ومرة لقيام ثورة سنة ١٩٥٢ ومرة لحرب السويس ومرة لحرب سنة ١٩٦٧ .. ويبقى الدستور يشاهد ويتأمل بعد ان حلت محله دساتير لا تقل عن ثلاثة.

وليس لهذا الكلام كله الا معنى واحد .. هو ان الدستور لايوفر حرية، ولا يرد عدوانا ، ولا يحمى حقا ..

النصوص الجميلة التى تتحدث عن حريات الشعب وحقوقه ، والتى تكفل للجميع أن يبدوا آراءهم ، ويعبروا عما يخالج نفوسهم ، وتحميهم من الاذى والتعذيب ، والسجن والاعتقال ، وتضع لأماكن الحبس والحجز والتحفظ قواعد ، تبقى للخصوم السياسيين ، للدولة ، كرامتهم، وانسانيتهم ، هذه النصوص تؤنس الشعب ، وحينما يحصل عليها المناضلون ، بعد كفاح مرير وجهاد شاق ، يهنئون بعضهم بعضا ، ويحسبون انهم حصلوا على شىء . والواقع أن أيديهم خواء ، وان المسافة بينهم وبين الهدف المنشود ، طويلة ، ومليئة بالعقبات والصعاب.

فالحرية السياسية ، تبدأ من الواقع المادى ، لحياة الناس . ما مقدار نصيبهم من التعليم والثقافة ؟ كم يكسبون ؟ فى أى نوع من المسكن يعيشون ؟ وكيف يتداوون ويعالجون ؟ وماذا يفعلون حينما يطردون من وظائفهم ؟ وأخيرا ما مدى استعدادهم للدفاع عن حقوقهم، اذا ما وقع اعتداء عليها ؟ .

فحرية النصوص ، هى نصوص لا اكثر ولا أقل ، وحرية المؤسسات، تبدو أكثر مناعة ، ولكن ليس هناك مؤسسات تستعصى على الظالم ، وعلى العسف والطغيان ، الدساتير تلغى ، والمجالس التشريعية تحل ، وكبار القوم ، يمكن ان يتغيروا .

ولست أدعو الى الحرية الاجتماعية ، أى حرية كفالة الرزق ، وحرية مستوى معيشة مقبول ويحفظ على الانسان البسيط كرامته وانسانيته ، ويعينه على تذوق لذائذ الحياة البسيطة المتواضعة ، فهذه أيضا ، اكثر استعصاء على الشعوب .

وانما الذى أؤمن به واعتبره الحرية الحقيقية أن نعلم الناس ، كيف يحرصون عليها ، وكيف يطلبونها ، ونعلم أنفسنا كيف نمارسها فى حياتنا اليومية ، حتى تصبح تلك الحرية ، الهواء الذى نتنفسه ، والطعام الذى نأكله .

فنحن فى الاغلب الاعم ، لا نحترم حرية الآخرين ، وحينما يجور الآخرون على حريتنا نقبل الجور من الكبير صاحب السلطة ، مهما كان الجور صارخا ، ونرفضه على استحياء ، من متوسطى النفوذ، ونرفضه بعنف وغلظة ان وقعت من ضعيف .

وفى حياتنا صور من العدوان على الحرية ، نقبله ونسكت عليه ، ونعتاده على الرغم من انه واقع فى مجالات ، هى أولى المجالات ، رعاية للحرية ، وفهما لها ، فمثلا لايستطيع محام ولا صاحب قضية ولا شاهد أن يعرف متى يصل الى قاعة المحكمة ، فالمكتوب منذ نحو مائة أو يزيد على جميع الاعلانات القضائية ان من تصل اليه دعوة من المحكمة فهو مأمور بأن يكون فى رحابها فى الساعة «الثامنة افرنكى صباحا» . ولم

تتغير هذه العبارة ، حتى بعد ان زال العمل بالتوقيت الغربى ، ولكن المهم ان المحاكم تفتح جلساتها حينما تريد ، فقد تبدأ عملها فى العاشرة والحادية عشرة ، أو التاسعة ، وعلى المحامين كبارا وصغارا ، وعلى المتقاضين من ذوى الاعمار الكبيرة أو الصغيرة ، ان يتركوا ساعات طويلة ، يقتلهم الملل ويثقل عليهم الشعور بالاهانة والتحقير ، وقد يكون لهذه الظاهرة ألف سبب وسبب ، وقد يكون نصيب القضاة الافاضل فى حدوثها ضئيلا جدا فما أحسب قضاتنا إلا حريصين على احترام المواعيد والحضور فى الوقت المحدد فى صحيفة الدعوى ولكن تحول بينهم ظروف الزحام وفوضى المرور وضخامة جدول الجلسات، ولكننا فى نهاية الامر أمام ظاهرة تقع فى محكمة ، وعندما تبدأ المحكمة عملها فلم تجر العادة بأن يعتذر رئيس المحكمة عن التأخير للظن بأن هذا يخدش مقام القاضى أو يحط من قدره ، ولكنى أذكر انى سمعت بأذنى رأسى قضاة بلغوا أعلى المناصب يعتذرون للمحامين وللجمهور بصوت مسموع عن التأخير ، كما اذكر انى رأيت فى محكمة قنا القاضى أحمد نشأت ، صاحب كتاب الاثبات ، يهرول ليصل الى قاعة المحكمة فى الميعاد ، ولم يبدأ عمله الا بعد ان اعتذر وهو يلتقط انفاسه ، رحمه الله .

وقد يرى بعض الناس ان هذا المثل لا يمت الى رعاية الحرية بسبب، وأراه وثيق الصلة بها ، فاحترام وقت الناس ، وظروفهم ، هو جزء من احترام الناس أنفسهم ، ولا يهمل رواد قاعات المحاكم ويتركون وكأنهم أشياء ، إلا لان الاحساس بكرامة الآخرين ضعيف أو معدوم .

والظاهرة المتصلة بهذه الظاهرة ، هى ازدحام كشف قضايا المحاكم بمائة أو مائتين أحيانا من الدعاوى ، وتحول قاعة المحكمة الى

سوق هائجة مائجة من الرجال والنساء والاطفال ، ومن اصحاب الملابس الافرنجية ، ومن اصحاب الملابس البلدية ، وتدافعهم ، ومعاناة الواحد منهم للضغط ، واحيانا الركل غير المقصود ، وما يشبه الخنق ، إذا اراد أن يصل الى منصة العدالة ، ويعاني المحامون ما هو أنكى وأشد بلاء ، فقد ألغيت منصة المحاماة التى كان المحامون يترافعون منها ، وأصبحت المرافعة همسا فى أذن القاضى ، وسط ضجيج خارج القاعة يصل الى آذان القضاة والمحامين والشهود ، وبذلك زالت أكبر ضمانة حرصت الدساتير على النص عليها وهى علنية المحاكمات ، وعلنية المرافعات ، وعلنية النطق بالاحكام ، واصبح الدخول الى قاعة المحكمة والخروج منها - والمحكمة اكثر الدور التى اعدت لحماية الحقوق وتنفيذ القوانين - أصبح الدخول الى هذه القاعة والخروج منها، جرعة مرة من احتقار القانون ، والاحساس بصوريته وعجزه وسوء ادارته .

ولا تحسبن ان شعبا تجرى فيه شئون العدالة على هذه الصورة ، يمكن ان يغضب اذا ما اعتدى على القانون ، أو تعطل الدستور ، ففى قاعات المحكمة تلقى الدروس التى تعلم افراد الشعب العاديين معنى سيادة القانون ، وجلال هذا القانون ، وهيبته .

وإني لأوثر ان يصدر قانون بتأجيل نظر القضايا خمس سنوات لكيلا يزيد عدد القضايا فى أية محكمة عن ثلاثين قضية ولو تفه أمرها ، وقل شأنها . وانصح بألا يحال الى المعاش قاض ، وان يتحول القضاة المحالون الى المعاش ، الى قضاة يتقاضون الفرق بين معاشهم ومرتبهم، لتكون منهم دوائر ، تعرض عليها القضايا بأقل الاجر . ولو

فرض رسم اضافى على القضايا لتوفير مرتبات القضاة ، لما شعر أحد بهذه الزيادة .

مثل ذلك يجرى فى عيادات كبار الاطباء ، الاساتذة الذين ينشئون الجيل الجديد ، ويعلمون الشباب ، معنى احترام الانسان للانسان ، فيغرسون في نفسه ، التعصب للحرية ، ورفض كل مساس بها .

وقبل أن أتكلم عن ظاهرة عيادات الاطباء أسجل هنا مدى دينى للاطباء الكبار والصغار ، فقد كنت منذ اليوم الاول لولادتى طفلا مريضا وعرفت رواد طب الاطفال المتخصصين :

عبد العزيز نظمى وحافظ عفيفى ثم عرفت عبد العزيز اسماعيل وسليمان عزمى وأجرى لى على باشا ابراهيم عمليتين بلا مقابل ، فأنا لا أشكو من حال العيادات عن عدم تقدير لاعباء الطبيب أو لجحود فضله .

فعيادات كبار الاطباء يتكدس فيها المرضى وأهلوهم ، وينتظرون بغير نظام ولا ترتيب ، ولا منطق مفهوم ساعات ، ومنهم صاحب العلة ، ومنهم صاحب الحاجة ومنهم من تقدم به السن ، ومنهم من يصحب طفلا - على وجه الاضطرار - فى حين ان هذه الآفة المؤذية ، يمكن للسادة كبار أطبائنا ، وأصحاب الصدارة بين اساتذتنا كما يمكن للنقابة ، ولوزارة الصحة ، ان يلجأوا الى نظام بطاقات الدخول . فلكل مريض بطاقة يحدد فيها موعد حضوره ، فاذا تأخر عن هذا الموعد ، حل محله صاحب الموعد التالى ، وخلت العيادات من هذا الزحام الكريه، واختفت ظاهرة ترك الناس ، أنهم اشياء لا تحس ولا تعى ، ليس لديها

ما يشغلها ، والوقت عندها لا قيمة له ولا ثمن . هذا الاعتداء على كرامة المريض والسليم ووقته وراحته هو عدوان صارخ على الحرية ، ولكننا نقبله ، ونحسب انه من قضاء الله ، نذعن له ونستسلم ، مع ان قليلا جدا من التنظيم والتدبير ، يحفظ على المواطنين احساسهم بكرامتهم ، حينما يصان وقتهم ، ونعفيهم من الملل والضيق ، الذى قد يورث المرض، وهناك آفات أخرى مماثلة .

هذه الافات والعلل ، هى فى مجموعها ، سند الحاكم الظالم ، عندما تسول له نفسه ، ان يفتك بالحرية ، أو يعطل قوانينها ، أو يخلق لها قوانين تخنقها ، فقد قال أجدادنا : «إن ما أغرى فرعون على عدوانه ، قلة من يرده »

فنحن أحوج ما نكون الى برنامج طويل ، تتواصى به الاحزاب ، ودعاة الحرية ، وطلاب الديمقراطية ، يلقنون به الشعب ، كيف يرفض كل ظلم مهما صغر ، وكل اعتداء على الكرامة مهما تفه ، فان فى حياتنا من رواسب الماضى ، تقاليد ، تؤله أو تحترم على الاقل الموظف الذى يخافه الناس ، ولا يعرفون كيف يراجعونه فى قرار ، أو يعرضون عليه مظلمة . هذا الطراز من الموظفين ، ينظر اليهم المجتمع بأنهم «أقوياء» ، ويراهم أحق بالوظيفة الكبيرة ، والمهمة الضخمة ، اما الذين يألفهم الناس ، ويستطيعون الاقتراب منهم والتحدث اليهم ، فهم «ضعفاء» لا يصلحون للرياسة - وقد حدثنا عبد الرحمن الرافعى عن الكشافين والسناجق فى عهد الامراء والمماليك ، وفى أوائل حكم محمد على فقد جرى الفلاحون على احترام الكشاف أو السنحق أو الملتزم ،

الذى يبتز من الفلاح المسكين ، آخر درهم فى جيبه لحساب الضرائب والرسوم والعوائد ، مستعملا الكرباج ، مستغلا «الفلقة» . فاذا جاء واحد من هؤلاء ، أقل قسوة وغلظة ، سخر منه الفلاحون ، وحقروا أمره، واطلقوا عليه اسماء النساء .

وفى هذا الجو ، باضت الروح الاستبدادية ، وأفرخت ، ولاتزال هذه التقاليد سائدة ، وما نستتبعه ، واقتصر همنا على طلب الغاء القوانين المقيدة للحرية - وهو طلب لا يجب ان نتهاون فيه - فنحن لانهيىء للحرية جوها ، الحرية لا تقوم بدستور ولا تلغى بدستور ، وهى لا تولد بقانون ، وتزول بقانون ، انما تولد وتحيا وتورق وتثمر ، بشعب يحارب من أجلها، ويرفض ما يمسها ولو من بعيد .

هذا العالم المجنون

لا أدرى كيف يستطيع واحد من أربعة آلاف مليون من بنى آدم يعيشون فى هذه الكرة الارضية، أن ينام ملء جفونه أو بنصف جفونه بعد ان يعلم انه يوجد الآن ٥٠ ألف قنبلة أو سلاح نووى، نصفها مملوكة لامريكا والاتحاد السوفيتي. وان القدرة التفجيرية لهذا العدد الهائل من القنابل والاسلحة الذرية تساوى مليون قنبلة من حجم قنبلة هيروشيما التى فتكت فى اقل من دقيقة بمائتى ألف من أهل هذه المدينة التعسة .. وأن ١٦ ألفا من هذه القنابل، من القنابل الاستراتيجية أى القادرة على اجتياز القارات فى اقل من ٣٠ دقيقة، تصل بعدها إلى اهدافها بالضبط، أو بالقرب من تلك الاهداف ، مع خطأ لا يزيد على بعض ياردات قليلة.

ولكن السعى الدءوب فى تحسين تلك القنابل المهلكة، وزيادة عددها كما جاء فى مقال للدكتور ميشيل فرح أستاذ العلوم المصرى، لا ينقطع باضافة قنبلة النيترون «وصواريخ ام اكس»، وقاذفة القنابل (ب١) وغواصات تريدنت حاملة الرؤوس النووية.

وقد كان الناس يتحدثون منذ بضع سنوات مضت عن امتياز من يسبق الطرف الثانى فى اطلاق السلاح الذرى ، اذ كان ممكنا فى تلك

الهلال - مارس ١٩٨٣ .

الايام تصور ان السابق فى الشر، يبطش بعدوه، ويمنعه من الرد، ولكن يقول فرانك برنابى الرئيس السابق للمركز الدولى لبحوث السلام ان تكنولوجيا الهلاك الحديثة من غواصات حاملة الرؤوس النووية، والحاسبات وأشعة الليزر، قضت تماما على فكرة تفوق الضارب الاول على من يرد عليه .. فالهلاك المحقق هو مصير من يضرب أولا، ومن يرد عليه ثانيا، وبعبارة أخرى، انه اذا قامت الحرب النووية فالكوكب الارضى كله مصيره الفناء.

واذا كان خطر الفناء بالسلاح الذرى، الذى يهدد العالم، حقيقة لا مجازا، جدير بأن يطير النوم من أعيننا، فان هناك خطر فناء آخر، يهدد نفس العالم، ولكنه لا يبدو لنا واضحا، لانه لا يظهر فى كل بلاد الدنيا بدرجة واحدة، اذ انه يختفى تماما من دنيا الاغنياء، ليبدو مجسدا، يسير وكأنه هيكل عظمى، تكاد عظامه تتفكك بعضها من بعض فى معظم بلاد العالم، هى بلاد حزام الفقر.

وحزام الفقر هو تعبير حديث يحيط من كل عشر دول، ست دول، هى الدول التى لا يجد أبناؤها ما يملأون به بطونهم، فيصابون بأمراض المجاعة، ويتحولون الى سيقان وأذرع كالعصى الرفيعة، ووجوه شاحبة، وعيون انطفأ فيها البريق، وغابت فى محاجرها، وجماجم ضخمة، لا تتحرك فوق أعناقها الا بصعوبة أو مشقة.

هذه هى بالضبط حال ستة أعشار العالم، الذى ينتج ما ذكرته لك من الاسلحة والقنابل.

إن سكان الدول الغنية - أى التى يحيطها حزام الغنى - عددهم ١٤٠٠ مليون يعيشون فى الدول المتقدمة التى تقع فى ثلث الكرة الارضية وفى شمال هذه الكرة بالذات أى فى أوربا الغربية، والولايات

المتحدة، والاتحاد السوفييتى واليابان.. وكلما تركنا نطاق هذا الحزام، وانحدرنا نحو الجنوب، فاننا سنقترب شيئا فشيئا من حزام الفقر، الذى يطحن خلفه ٢٤٠٠ مليون انسان يهددهم الموت جوعا، وينجون من هذا المصير البشع حتى اليوم ، بمعجزة ولا أحد ينزعج لمأساتهم، ويفكر جديا فى ردها. صحيح تكتب المقالات وتعد البحوث، وتجأر بالشكوى مؤسسة الاغذية والزراعة المعروفة (بالفاو) ولكن الحال لا تتغير الجوع يتقدم بخطى ثابتة ومعه منجل الموت، يحصد به الأرواح، والأغنياء يأكلون أحيانا أكثر مما يلزمهم ويستهلكون كل شئ من الطعام الى الشراب الى الوقود والطاقة، بلا تدبر، ولا شعور بالاثم.

ولكن قد يستيقظ الجميع ذات صباح فلا يجدون طعاما.

فقد كانت مشكلة العالم منذ سنوات مضت، هى كيفية التخلص من فائض الطعام المتراكم فى مخازنه، ومنذ أكثر قليلا من عشر سنوات، كانت الولايات المتحدة تمنح المزارعين لديها معونات ضخمة لكيلا يزرعوا مئات الالوف من الافدنة. وكانت البرازيل تلقى بالفائض من البن فى البحر، أو تستعمله وقودا، أما اليوم فلم يعد لدى العالم الا مخزونا لا يزيد عما يستهلكه العالم، فى ٢٧ يوما. أى احتياطى ٢٧ يوما من الغذاء وهو ما نعيش عليه فعلا. وقد ينفد هذا المخزون لسبب أو لآخر، وعندها يحدث أسوأ ما يمكن أن نتصوره.. سينطلق الجياع فى كل مكان، ليبحثوا عما يسد رمقهم، ولو بأكل الادميين من الاطفال والنساء، والجيف والقمامات التى تملأ الشوارع..

والذى نقوله على أنه المستقبل هو الواقع الآن فى بعض بلاد ساحل افريقيا الغربى التى ظل أهلها لسنوات متعاقبة ينتظرون سقوط الامطار

على أرضهم فلا تسقط، ومن ثم فقد بقى خمسة وعشرون مليونا من الفلاحين يتطلعون إلى السماء فى انتظار أن تمطرهم الرياح الموسمية، ومرت سنة وراء سنة والجفاف يلتهم مواشيهم، ويجفف ابارهم، وبالتالى دماءهم فى عروقهم: لقد أكلوا البذور التى يعتمدون عليها فى الزرع، والحيوانات التى تعينهم على تهيئة أرضهم.. ولم يبق أمامهم الا ان يموتوا فى بطء، ثم بسرعة فهلكت منهم الملايين.

ولجوعهم وضعفهم، وضعف مقاومة اجسادهم، تفشت بينهم الامراض الفتاكة، فأرسلت اليهم هيئة الصحة العالمية، شحنات ضخمة من الادوية، وعددا كبيرا من الاطباء، وخيام المستشفيات، الا ان أكثر من حكومة افريقية، رفضت قبول هذه المعونة الطبية، اذ قالت ان الموت بالمرض، أخف على بنيها الجائعين من الموت بالجوع.

ولكن الخطر ليس مقصورا على الفقراء، فهو يشمل الاغنياء أيضا، خذ مثلا مشكلة تغذية العالم بالقمح، فالدول الست الكبرى المصدرة للقمح اجتمعت فى سبتمبر سنة ١٩٧٣ فى روما، وأوضحت أن الموقف دقيق للغاية، وأن العجز فى المنتج من القمح حقق عجزا عن المطلوب العالمى بلغ ٦٠ مليون طن، ولذلك طلبت منظمة الدول المصدرة للقمح من الدول الغنية أن تكف عن تقديم القمح كغذاء للماشية حتى لا تتجاوز الزيادة فى سعر القمح (آنذاك) ٢٥٪.. وحدث مثل هذا العجز فى الارز فالمطلوب منه للعالم أقل من الكميات التى يمكن تصديرها من الدول المصدرة لهذه الغلة، والولايات المتحدة أعلنت برنامجا منذ سنوات بهدف تقليل صادرات علف الحيوان لان أهم مكوناته دقيق الذرة، وذلك بقصد استبقاء كميات الذرة فى البلاد لتعين على زيادة انتاج اللحوم.

لكن لم يكن لأنباء أزمات انتاج الاغذية على اختلاف انواعها، وتفشى المجاعات أى أثر على العالم الآخر المشغول بل المنهك فى انتاج الاسلحة والمبيدات الانسانية، وتفضل بقراءة هذه الحقائق:

يقول روبرت مكنمارا الرئيس السابق للبنك الدولى، يوجد اليوم مليار يعنى ألف مليون من البشر تنتمى كلها إلى العالم الثالث ، أى عالم الفقراء والمحرومين تجمدت دخولها بازدياد سنوى دولارين فقط ، أى كان دخل الواحد من هذه المجموعة التعسة فى السنة – سنة ١٩٦٥ ١٣٠ دولارا سنويا فلم يتجاوز سنة ١٩٧٥ مبلغ ١٧٥. كما ان ما يدفعه العالم الثالث فى شراء النفط وغيره من المواد والسلع التى يحتاجها، ولابد له من شرائها من الخارج، زاد على كل المعونات التى تؤديها له الدول الصغيرة.

وقد كان العالم الغنى مطمئنا إلى المستقبل ظانا إن ثراءه، وتحكمه فى التكنولوجيا هذا الساحر العجيب، وكثرة موارده، وضغطه الذى لا يقاوم على الدول المنتجة للمواد الخام، سيبعد المخاطر كلها، الا أن السنوات الاخيرة، فاجأت عالم الاغنياء بمخاطر دقت ابوابهم بعنف، حتى استولى عليهم الهلع وان كانوا لايزالون يبدون من التجمل بالصبر وضبط النفس، ما لا يستطيعه الفقراء .. فقد جاء التضخم بأهواله، ولا أحد يستطيع أن يكبح جماح هذا الغول وجاءت مع التضخم البطالة، وجاء معها الكساد الذى لم تشهد أوربا الغنية والولايات المتحدة مثله فى أشد سنى الكساد التى عرفها من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٣.

والفقر والجوع فى عالم الفقراء، نذرهما فى الدول الغنية، ولا تقل أثارهما عند الجانب المادى من حياة البشر، بل تتجاوزه إلى الجانب

الاجتماعي والسياسي، فالإحصاء الذى قامت به هيئات الدراسة والتحاليل السياسية اثبتت انه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية قامت فى أنحاء العالم ١٤٠ حربا اقليمية، كما وقع منذ ذلك التاريخ ٧٦ انقلابا عسكريا، وتقول نفس المصادر أن ضحايا تلك الحروب المحدودة والانقلابات، بلغت ٣٠ ألف مليون قتيل، وهو رقم أنا شخصيا أشك فيه، وتقدر نفس المصادر أن ما ينفقه العالم الآن سنويا على التسليح هو ٥٠٠ الف مليون أى ٥٠٠ مليار، أى أكثر من مليون دولار فى الدقيقة. ولكن السيد حسنى مبارك قدر هذا الانفاق فى الكلمة التى ألقاها أخيرا فى اجتماع هيئة الاغذية والزراعة فى روما بمبلغ ٦٥٠ مليارا فى السنة فقد قال:

لا يعقل أن ينفق العالم ٦٥٠ مليارا فى العالم للتسليح بينما الاحتياجات الضرورية لملايين الاشخاص مازالت غير مستوفاة، ثم قال ان ما ينفق على الصاروخ الواحد، يكفى لغرس مليون شجرة، أو رى مليون هكتار أرض، أو تغذية ٥ ملايين طفل أو بناء ٦٥ ألف مستوصف أو ٣٤٠ ألف مدرسة.

وليس ثمة شك فى أن هذا الاختلال الرهيب بين ما ينفق على التسليح، وما ينفق على الطعام، هو دليل يدين الحضارة الحديثة، ويثبت أن بها خللا لابد ان يعالج، ولكن لا يوجد أحد يفكر فى كيفية علاجه، فلا توجد هيئة واحدة فى هذا العالم الذى وصل إلي القمر، وتطوف الآن أقماره فى اجواز الفضاء والذى يزرع القلوب والاعضاء ويمد فى حياة الذين أشرفوا على الموت، تستطيع ان تشرف على الانفاق الانسانى وتوجهه إلى وجهته الصحيحة وتحول بين ضروب التبذير، والقاء بلايين

الدولارات والجنيهات، فى آتون الشر الذى يدمر سعادة الناس، فى شكل حروب وانقلابات لا تصل إلى غاية، ولا تحقق لأحد غرضا.

ولا أدل على تغلغل هذا الخلل فى أسس حضارتنا، من أن القوى المسلحة تحكم الآن ٥٤ دولة، ولكى تستطيع هذه القوات ان تحقق وثوبها على السلطة، بقمع الخصوم ، لابد من سلاح، وتدريب ومعسكرات، ولذلك فقد باعت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى المدة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٨٠ اسلحة بنحو ثلاثين بليون دولار فى حين باعت كل من الصين وفرنسا فى المدة ذاتها بثلاثة مليارات.

وعلماء الاجتماع والسياسة يؤكدون ان هذا النزيف لن يقف عند حد، وان العالم - على النقيض- سيواصل توجيه أكثر ماله وجهده على شراء البندقية والمدفع والصاروخ، لانه يعتبر ان هذه الادوات المهلكة هى سبيل الامان والحماية، وان الرغيف والطعام الموفور، والمسكن الآمن، والمدرسة التى تعلم الاطفال، والمستشفى الذى يعالج المرضى، خطوط دفاع واهية لا تقف أمام سطو وغزو الخطوط الأخرى. والمظنون ان العالم سينفق فى عام ٢٠٠٠ على التسليح كل سنة الف الف مليون أى مليار بدلا من ٦٥٠ الف مليون هذا اذا امكن ان يبقى هذا العالم المجنون، حتى يتم القرن العشرين، فكثير من المفكرين والمشتغلين بشئون الاقتصاد والتغذية والتسليح، يبدون تخوفا بل وفزعا من حوادث جائزة الحدوث أثناء نقل الاسلحة سواء عن طريق الخطأ أو العمد، ويخيل إلى بعض هؤلاء ان نهاية العالم ستكون بشئ من هذا القبيل، ان استطاع توازن الرعب بين الدول أن يقى العالم من حرب ذرية، فان

الخطأ أو ضعف أعصاب الجالسين وراء منصات الاسلحة الذرية، وعند مفاتيحها، التى تملك ان تفتح ابواب جهنم، لتضع حدا لحياة هذا الانسان الذى طال فقره، وسوء تدبيره لدنياه.

هل تتحقق المخاوف، أم هل ينجح الانسان، فى ان يخرج نفسه من هذا الجنون الذى أصيب به، واستولى عليه.

يحسب بعض الناس ان عالم الاقوياء عالم ميئوس منه، فلا نفع فيه ولا رجاء وانه سيواصل تسابق الهلاك، مدفوعا بالقصور الذاتى، وبالخضوع لما ألفه من التنافس والتسابق من أجل السيادة فمفتاح النجاة فى يد الفقراء، الذين يتجردون من المصلحة، وهم الاكثر عددا والاكثر غنى فى واقع الأمر.

فهل يتحقق الحلم، حلم الضعفاء الاقوياء، الفقراء الاغنياء..؟.

قضية البيضة والفرخة
أو
الفرد والمجتمع

من مشكلات الحياة، معرفة أى الشيئين سبق الأخر فى الوجود البيضة ام الفرخة، فاذا كانت البيضة هى الأصل، فمن باضها؟ واذا كانت الفرخة هى التى بدأت فى دورة الحياة، فمن أية بيضة فقست؟.

ولم أكن أتصور أن هناك مشكلة مشابهة، ولما ووجهت بها خيل إلىّ أن وجه الشبه قائم، وأن المشكلة هناك هى المشكلة هنا.

فاذا كان المجتمع قد سبق الفرد، فمم تكون هذا المجتمع؟ الم يكن قوامه أفرادا واذا كان الفرد هو الذى سبق المجتمع، فكيف تكون الفرد، ولغته التى يتكلم بها، ويعبر عن نفسه بمفرداتها وجملها ، هى نتاج اجتماعى، لا يتم الا بالتقاء أفراد عديدين، يعلم السابقون منهم اللاحقون، كيف ينطقون وماذا ينطقون، لو ولد الفرد فى فراغ تام، وليس معه أحد سواه على شاكلته، فلن ينطق، ولن يلبس، ولن يجد قدوة يحاكيها ومثل يتآسى به. فيبقى الفرد فردا ، حتى ولو انضم اليه بعد ثان وثالث، فإنهم جميعا يبقون بكما، لايعبرون ، بما لا يفقهون.

الهلال - يوليو ١٩٨٢ .

ولكن ليست المشكلة مجرد لغز التسلي وازجاء الفراغ، بل هي من ابتكار عقل مؤرخ كبير. أراد ان يسأل عن العلاقة بين المؤرخ والمجتمع، عن طبيعتها، وعن المؤثر في طرفي المعادلة والمتأثر. فهل المؤرخ هو بعقله ومزاجه، وأسلوب تفكيره وطريقة تحليله، ونظره إلى مشكلات المجتمع ومنشئها وتطورها، ودوافع الرجال والنساء، الذين يلعبون أدوارهم الكبرى علي مسرح السياسة والقيادة، وهل هم فاعلون يشكلون التاريخ، أم هم دمى في تيار متدافع، من انفعالات الجموع الهائلة، التي تكتسح أمامها كل شئ.

والحق انك واجد متعة وسعاده، وأنت تقرأ للمؤرخ إدوارد دكار الذي ترجمه الاستاذ أحمد حمدي محمود منذ سنوات هذه التساؤلات العديدة، وما يتفرع عنها، وتعليقاته عليها، وتعليقات كبار المؤرخين ممن نعرفهم، وممن لا نعرفهم مثل جيبون جردت، ومامسون الالماني، ونامييه، ثم اشبنجلر، وكارلايل، ومايتكه ، وماركس وأخيرا توينبي.

ويبدأ كار ، بأولى صدحاته، فيقول لك ان الانسان الفطري الذي لم يتقدم بعد في الحضارة ، ولم تتعقد حياته في ظل مواصفات المدينة، أكثر اجتماعية، أي أكثر ميلا للجماعة، واندماجا فيها، وتأثرا بدفعها من الانسان المتحضر، فالفردية واحساس الانسان بذاته، وميله إلي العزلة، وحرصه على الوحدة، هي ميول حضارية حديثة، وقد بلغت هذه الروح حدها الاقصى، عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، فمبادئ هذه الثورة، التي أكدت روح الانسان المحب للتفرد والانعزال وخوفه من ذوبان شخصيته في محيط المجموع. فالانسان البدائي، لا يجد لذة كبيرة في أن يترك وحده، بعيدا عن قرينته أو أولاده، أو أعضاء القبيلة،

ولكن الانسان الحديث يشكو مر الشكوى من ضغط المجتمع عليه ومن كونه لا يجد الا بأعظم الصعوبة، وقتا للأنفراد والتأمل الهادئ . وكل وسائل المتع الفردية، وجدت ىندما ارتقي الانسان فوجد الكتاب الذي يؤنس وحشة الانسان، وينقل اليه أقوال وأفكار، وربما ما يقترب من أصوات الآخرين ويرى المجتمع الانساني، يلتقي ويبتعد ، ويتشاجر ويتالف ، وهو محمي تماما من ضغطهم ودفعهم وكانما يشاهد الناس من وراء حاجز ضيق، من زجاج شفاف جدا.

ولكن هذه الحقيقة تظهر لنا لو تأملنا تطور علاقة الطفل بأسرته، وعلاقة أفراد الاسرة من الصغار بالكبار، والتحولات التى تصيبها. فالطفل عقب ولادته سواء كان انسانا أو حيوانا يلتصق بأمه، ولا يدعها قط، وتسير الام والاولاد حول رقبتها ويديها، وكلما تقدم الزمن، وكبر الطفل وازداد قوة ، وقدرة على الحياة ازداد استقلالا عن والديه، وعن أمه بصفة خاصة، فاذا بلغ الطفل أشده، بعد عن والديه تماما، عند الحيوانات، يجهل الطفل أبويه، وقد يشاجرهما، ويعتدى عليهما، وتتفكك أواصر الاسرة، ويذهب كل لحال سبيله، فالمجتمع والتصاق الفرد بجماعته الصغيرة اى عائلته يظهر بوضوح كلما كان الجيل أكثر حداثة وأقل خبرة، وأقل اعتمادا على نفسه.

وقد كان من الطريف ان اشار (ادوارد كار) إلى قصة «روبنسون كروزو» الشهيرة التى ألفها الكاتب الانجليزي (دانيال ديفو)، والتى حاول بها أن يصور الانسان المنفرد الذى يعيش وحده بعيدا عن الجماعة، لا يؤنسه فى عزلته انسان مثله. ويعلق علي حالة روبنسون بقوله. أن محاولة (ديفو) أنْ يحدثنا عن انسان منفرد، قد فشلت قبل ان

تبدا لان (روبنسون) لم يكن انسانا (مقطوعا من شجرة) كما نقول نحن فى حديثنا اليومي، بل كان انجليزيا ومن مدينة (يورك) وكان معه الكتاب المقدس فى جزيرته المعزولة التى لجأ اليها لما غرق القارب الذى كان يحمله، وبذلك فقد كان له وطن ينتمى اليه، ورب يصلى له، ودين يتعبد به. ثم ساق له المؤلف زميلا مؤنسا، هو الافريقى جمعة - فرايلاى).

وذكر (كار) - على سبيل التداعى- شخصية أخرى هى اسطورة (كريلوف) في كتاب دستوفيسكى الكاتب الروسي العظيم (الشياطين)، ويورد هنا تعليقا عميقا، لان كريلوف انتحر، ليثبت انه حر فى فعل أى شئ يريده فالانتحار هو الفعل الوحيد المتاح للانسان الذي يعيش وحده معزولا عن الناس.

وقد أدى كشف هذه الحقيقة إلي تقرير أن الاختلاف بين المجتمعات البشرية ليس راجعا إلى اختلافات حيوية بين الفرد في كل من هذه التجمعات ، بل راجع إلى اختلاف السلوك الجماعى القائم علي اختلاف الاسس القوية للمجتمع والتعليم والثقافة والمعتقدات الموروثة، يعنى أن الخلاف بين الروسي والمصرى والتركى، ليس مرده اختلافا فى تكوين أفراد كل مجتمع من هذه المجتمعات من حيث أجسامهم وتكوينهم الموروث بدنيا بل راجع إلى اختلاف الظروف التى كونها كل مجتمع من هذه المجتمعات بحيث أصبح يحب أشياء ويكره أشياء، ويمارس عادات، وينفر من عادات أخرى وهكذا.

ولذلك أصبحت الوسيلة المثلى لدراسة الفروق بين الانجليزى والفرنسي مثلا ليست دراسة الانجليزى على حدة، والفرنسى على حدة،

بل دراسة المجتمع ككل. ودراسة المجتمع الفرنسي ككل وتبين الفوارق فى العادات والمعتقدات والسلوك.

ولقد أكدت الروح الفردية خصائص الحضارة الحديثة، ولا سيما مرحلة الرأسمالية، فقد كانت وحدات الانتاج والتوزيع في المراحل الاولى للرأسمالية غالبا فى أيدى أفراد متفردين وقد أكدت العقيدة التى قام عليها النظام الاجتماعى، عقيدة تزكى المبادرة الفردية، ولكن عملية الانتاج والتوزيع، كانت آخر الأمر عملية اجتماعية.

وكلنا لا نستطيع أن ننكر أن المذهب الفردى بقى زمنا طويلا ولا يزال باقيا وقد تستمر أثاره زمنا طويلا، فمن بين الناس من يؤمن بأن الفرد هو الوسيلة والغاية معا فالفرد الحر، المتفوق، الماهر، الغنى هو الطريق إلى مجتمع ثورة الحرية والرخاء والاستقرار، ولكن هذا المذهب يعانى أزمة فكل شئ الآن، يدعو إلى النقيض، الجماعة هى الغاية، والفرد هو الوسيلة، ولكن ليس بها صراع يؤدي إلى تحطيم الواحد منهما للآخر.

وينتقل (كار) بعد ذلك إلى ما يدخل فى اختصاصه تماما فيمتع القارئ بالامثلة والاستنتاجات والاستشهادات ويبدأ هذا الجانب من بحثه فيتساءل. هل التاريخ هو قصة كتبها أفراد عن أفراد يعنى هل التاريخ الذى نقرؤه ونحاول أن نعرف من خلاله ماضينا وما فعل أجدادنا وآباؤنا وما حققته الانسانية وما فشلت فيه، هي حكاية يكتبها مؤرخ فرد عن أفراد عظماء مثل مينا، وسقراط، وموسى ، والاسكندر، ورمسيس وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، ومصطفى كامل، وعمر مكرم.

ويمكن الرد، علي هذا التساؤل أن المؤرخ الذى يكتب التاريخ هو بلا شك (فرد) عن أفراد. ولكن هذا الفرد ليس نتاجا شيطانيا ينبت فى أرض معزولة، لم يمر بها أحد ، ولم يروها آخرون، ولم يطبق عليها أصول الزراعة، زارعون تجمعت لديهم أصول الزراعة، خلال أجيال ، وهم يكتبون عن أفراد، نشأ كل منهم فى (حضانة أطفال)، لا يتصلون بأحد، ولا يتصل بهم أحد، فهؤلاء الذين يكتب عنهم المؤرخون ثمرة تفاعلات في مجتمع، يمور بالحركة، والدفع والجذب والقلق والأسى، والخوف. وقال عن نفسه انه قرر في إحدى محاضراته أن التاريخ هو عملية تفاعل أو حوار بين المؤرخ فى الحاضر والوقائع فى الماضى.

فإلى أى حد يكون المؤرخ، هو فرد، ولكنه لانه انسان، فهو ككل انسان آخر ظاهرة اجتماعية، وأحب أن أنقل عن (كار) عبارته حرفيا:

فالمؤرخ هو حصيلة المجتمع الذى ينتمي اليه، والناطق الشعورى واللاشعورى بأسمه.

وتستهوينى من هذه العبارة قول (كار) أن المؤرخ هو المعبر الشعورى واللاشعورى عن المجتمع الذى هو ثمرته. فلأن المؤرخ هو ثمرة المجتمع، فإنه يتكون ويتخلق فى رحم هذا المجتمع، ويتغذى بدمه، ويأخذ كثيرا من أفكاره وميوله منه، وهو لايدرى وقد كنت أعرف صديقا ولد فى إحدى الدول العربية وكان ينطق جملا تجرى على ألسن أهل هذا البلد فلفت نظره إلى هذا فنفاه بشدة وقال أنا لا أقول ما تنسبه إلىّ فسكت حتي ضبطته ينطق بالتعبير الخاص بذلك الوطن، فارتبك واحمر وجهه وقال: والله ما كنت أشعر بهذا وقد يكون المثل عن تشابه مادى فى نطق الالفاظ، واستعمال المصطلحات القولية، ولكن فى الواقع أن التشابه أعمق بكثير.

فالمؤرخ يتـأثر بما يجرى حوله، وإن كان يتصور أنه باق على معتقداته وانه اذا كان حرا فقد بقي كذلك حتى بعد أن فشلت مبادئ الحرية، وفازت أفكار المحافظين، وإن كان محافظا تشبثت منه بالمحافظة، ولو أن الجماهير قد سحقت المحافظين واقتحمت حصونهم.

ويضرب كار مثلا بالمؤرخ الألمانى (مايتكه) فقد الف ثلاثة كتب، كان أولها بعنوان «العالمية والدولة القومية» نشر سنة ١٩٠٧ وقد رأى فيه أن الدولة الألمانية بقيادة بسمارك قد حققت المثل الالمانية القومية، ثم كتابا ثانيا موضوعه : «فكرة منطق الدولة ونشر سنة ١٩٢٥ ، وكتبه بعقلية جمهورية فيمار الالمانية التى نشأت في أعقاب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولي التى انتهت سنة ١٩١٨ والتى حاول فيها الالمان ان ينبذوا النظام الشمولى وأن يصطنعوا الديمقراطية البرلمانية ثم ألف كتابا ثالثا موضوعه (بزوغ النزعة التاريخية) الذى نشر سنة ١٩٣٦ ، وكان التيار النازي قد جرفه، فاعتبر كل ما هو كائن حق، فالنازية جديرة بأن يسلم الالمان بها ، ويذعنون لها ، لانها قائمة وتسود المانيا ، وتمتلئ قوة فلما هزمت المانيا النازية بعد انتصاراتها الساحقة من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥ ، اصابته صدمة مدمرة، وأصبح يعتقد فى ان التاريخ يخضع لرحمة المصالح العمياء (فمايتكه) المؤرخ العظيم، رغم دراساته وابحاثه وتفحصه، وشعوره بالاستقلال، كان صوت المجتمع الذى يعيش فيه. ولكن بقى فى البحث الذى خطه قلم المؤرخ العظيم (ادورو كار) أمران جديران بالعرض: الأول - اذا كان المؤرخ هو ثمرة عصره، وبيئته ولسان مجتمعه الشعورى، فما هو الموضوع الذى يتناوله المؤرخ، أيكون هو سلوك أفراد ، أو فعل قوى اجتماعية؟

فهناك مؤرخون يعتقدون أن التاريخ من صنع رجال عظماء و وقد سبقت الاشارة إلى هذا المعنى.

ومؤرخون يعتقدون أن التاريخ هو دراسة تصرفات قوى اجتماعية وهناك من يعتقد باصرار أن فى التاريخ عنصرا يمكن تسميته (بالقوة اللاشخصية الهائلة) ويقصدون بهذه القوة، عنصرا في التاريخ عدا تصرفات الافراد العظماء الذين نسمع أسماءهم ونقرأ أعمالهم ومواقفهم وألفاظهم هذا العنصر يعلو على الأشخاص، ويبدو تيارا مستقلا عنهم، وخارجا عن ارادتهم، وبعيدا عن صفاتهم وخصائصهم ، ويبقى حتي بعد زوال هؤلاء الاشخاص، واختفائهم عن مسرح العمل العام، أو عن مسرح الحياة نفسها، هذا العنصر أو التيار، هو روح الجماعة ، وهو فى الواقع العامل المؤثر فى توجيه التاريخ، ومسار الأحداث والجماعات البدائية هى التى تؤمن بان العنصر الرئيسى في التاريخ هو الفرد، وكلما تقدم الانسان ، ولكن تعقد المجتمع، وتعقدت بالتالي تصرفات الانسان الفرد لما ينفعل به ويخضع له من ضغوط في المجتمع لايمكن تبينها من دراسته ومراقبته وحده، لان هذه الضغوط، لا تنصب على الانسان مباشرة بل إنها تتكون بعيدا عنه، وتكون حوله جوا هو الذى يصوغ شخصيته آخر الامر ، ويحدد قراراته ويلهمه بالدوافع والحوافز، كما يزوده بالكوابح والقيود.

وقد دافع أمريكى حديث عن النظرية التى تؤمن بالافراد واتهم أصحاب النظرية بقوله: أنتم تقتلون الشخصيات التاريخية قتلا جماعيا عندما تنظرون إلى هذه الشخصيات باعتبارها دمى للقوى الاجتماعية، والاقتصادية.

ويقول مؤرخ أن علماء علم الحياة كانوا فى القديم يقنعون بتعذيب الحيوانات بوضعهم فى أقفاص أو أحواض سمك أو معارض زجاجية دون محاولة دراسة الكائن الحى في بيئته، ومن ثم فقد كانت هذه الدراسة ناقصة تماما، لا تقع على كائن حى كامل، بل تقتصر على كائن لا هو ميت ولا هو حى، ولكن بقى مؤرخون، تستويهم دراسة شخصيات التاريخ العظيمة ويرونها السبيل الجيد لوضع تاريخ جيد في حين أن المؤرخ الانجليزى (اكتون) يقول : ليس هناك خطأ أكبر من نظرة الانسان إلي التاريخ القائم على الشغف بالشخصيات الفردية العظيمة.

ولكن ثمة خطأ من نوع آخر ولكنه مع ذلك يلحق ضررا مساويا فان استبعاد سير العظماء إطلاقا وإهدارها، يؤذى التاريخ، فان دراسة الشخصيات العظيمة أفادت التاريخ كثيرا ولكنها وحدها لاتقيم تاريخا كاملا

وثمة نقطة أخرى ذات أهمية وخطر وهى عدم جواز إصدار أحكام منا فى أيامنا على أفعال وسلوك أقوام تصرفوا حسب ظروفهم وبواعث أنفسهم فى بيئات تخالف بيئاتنا وفى عهود لا تشبه عهودنا ويجدر بنا أن نفهم الحقيقة التالية: أن ما يقع من الجماعات في بعض الظروف لا يمثل تماما، ما قصدوه وفكروا فيه، فان الناس يقصدون شيئا لغرض محدد ولكن لاتزال الظروف تجرفهم إلى اتجاه آخر، حتى ينتهوا إلى قرارات لم تخطر لهم على بال، وكالسفينة التى تجرى فى بحر تسوده تيارات تحتيه، فما لم تكن قبطان السفينة منتبها جيدا وما لم تكن أدوات الضبط والتوجيه في السفينة سليمة تماما ما استطاع القبطان أن يصل إلى هدفه

إن الجماعات تحقق أهداف المجتمع التى تعيش فيه وتتأثر بالزمان الذي تحياه وإن كانت شعاراتها تعلن شيئا آخر.

ويقرر كار قول كارل ماركس: أن التاريخ لايصنع شيئا، فليس لديه ثروة طائلة ، وهو لا يحارب أي معارك فالواقع أن الذى يفعل كل شئ هو الانسان الذى يحيا حقا، والذى يملك والذى يحارب.

وقد قال (كار لايل) ما يؤيد هذه النظرة:

«إن الدافع الاول للثورة الفردية، هو الجوع والعرى، والاضطهاد باسم العدل الجاثم على أفئدة خمسة وعشرين مليونا، هذا وحده هو الدافع، وليس التفاهات المجروحة أو الفلسفات المتناقضة للمحامين الفلاسفة، وأصحاب الحوانيت الاغنياء هذا الذى يحدث فى كل الثورات المماثلة فى جميع البلدان.

إن المقصود هنا هو أن الشئ المؤثر فعلا فى توجيه التاريخ ليس فردا ولا أفرادا بعينهم، بل ليس الالوف، بل الملايين المجهولى الاسم، منهم أمراء يعللون بغير وعى إلى حد كبير ويكونون قوة اجتماعية والمؤرخ ليس بحاجة فى الظروف العادية لأن يحاط علما بعلاج فرد متذمر أو بقرية منتشرة ولكن ملايين الفلاحين المتذمرين.

والرجل العظيم لاتكون عظمته بقدر ما يمثل هذه الغابات الخفية لملايين الناس، الذين قد يجهلونها بعقولهم، وإن كانوا يحسونها بلا وعى، يقول «كار» إن الفرد فى عمله يعمل واعيا من أجل غاياته الذاتية، ولكنه غافل غير واع لغايات الله ومن الكلمات المبكرة المعبرة عن هذا المعنى قول آدم سميث اليد الخفية، وقول هيجل «مكر العقل» .

وفي القرآن يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم «ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى» ارادة الله هنا، هى إراد الشعب.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشيطان مع الفذ (أى الفرد) والله مع الجماعة».

حينما تكره
الشعوب ذاتها

ماذا يعنى ابن خالدون بقوله «العرب اذا تغلبوا على منطقة اسرع إليها الخراب»؟ «العرب يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الصعاب»

وماذا يعنى سعد زغلول بقوله «إن مصر لايمكن أن تعيش مستقلة وإن حصلت على استقلالها، فإنها لن تلبث حتى تضيّعه»

هل العرب حقا متقاعسون ومقصرون.. وهل المصريون شعب متواكل يعتمد على الغير، وخاصة بعد حصولهم على الاستقلال؟

إن ابن خلدون يتهم العرب بذلك حيث يقبلون على السهل من الأمور ويهربون من الشاق والصعب، وعلي نفس الوتيرة يشير سعد زغلول إلى تقاعس المصريين وتواكلهم بعد حصولهم على الاستقلال.

يتناول الكاتب الكبير فتحى رضوان هذه القضية المهمة بالمناقشة والتحليل .

من مشكلات الأدب العربى، ما كتبه الفقيه والمؤرخ واللغوى ورجل السياسة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المولود فى تونس سنة ٧٣٢ هجرية (١٣٣٢) ميلادية والمتوفى فى مصر والمدفون بها سنة ٨٠٨ من هجرة الرسول (١٤٠٦م).

الهلال - نوفمبر ١٩٨٦ .

وابن خالدون الذى يعد أكثر أهل الفكر ذيوعا من العرب مثله فى ذلك مثل المتنبي بين الشعراء ، هو عربي قح، يتكلم العربية كأفصح كتابها، وينطق بها كأبلغ المتكلمين بها. وقد ترك فى مكتبتها كتبا لا يبلي لها ذكر ، ولا ينقطع لها أثر، مادام فى الدنيا علماء يبحثون عن الحقائق، ويدفعونها. ومادام هناك طلاب معرفة، ويبحثون عن الكتاب الجيد، والفكر المثير.

إلا ان هذا العالم المؤرخ الفقيه والإمام، ترك لقرائه من قومه وللآخرين فى مختلف اللغات، مشكلة اختلفوا فى تفسيرها أول الأمر، ثم فى ردها إلي أسباب تخيل كل منهم شيئا منها، ونحن اليوم ندلى بدلونا في هذه المعضلة التى تستأهل الدراسة والتأمل وجملة الأمر أن مؤرخ العرب العظيم، وواضع أسس علم الاجتماع كما يروى العلماء المستشرقون فى العرب رأى فى كتابه الذائع الصيت والمعنون «المصير وديوان المبتدأ والخبر فى أيام الغرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» ومقدمة هذا الكتاب البديع الرائع، التى اخملت ذكر الكتاب، وتفوقت عليه فلم يعد أحد يذكر الكتاب بقدر ذكره للمقدمة وقد أفرد صاحب المقدمة والكتاب فى المقدمة عدة فصول لا توحى فقط بأن ابن خلدون هاجم العرب وانتقصهم، وحط من مروءاتهم، وأنكر شمائلهم وحسبك أن تعلم أن من بين هذه العناوين «العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» و«العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك»..

وقد حير الناس وأذهلهم ان ابن خلدون العربى لغة ونشأة وتعليما والذى وصل بحذقه، ومواهبه التى لا تنكر ، وعلمه الذى لا يحد، إلى أكبر مناصب السياسة والحكم التى تساوى الآن رئيس الديوان، وكبير الأمناء والوزير ومستشار الأمير، ورئيس كتابه، ولم يبد عليه طوال اضطلاعه بهذه الوظائف المهمة، وتلك المراكز العظيمة، أنه ضيق بأهل البلد الذي يسعي الحكم فيه، أو يدير دفة السياسة له.

تحقير العرب

وقد أثار هذا الموضوع الدكتور مصطفى الشكعة عميد كليات الآداب في الدول العربية، وصاحب المؤلفات الرضية الكثيرة، التي تبلغ مبلغ الموسوعات احيانا في كتاب له حديث اسمه «الأسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته» والكتاب جدير بان يختص به، اساتذة التاريخ والاجتماع في كلياتنا، وصحفنا ومجلاتنا فضلا عن أساتذة الأدب فقد بسط حياة هذا العالم العظيم، في عبارة يترقرق على سطح ألفاظها معانيها فتكون سهلة التناول قريبة الأهداف، وقد وقف وقفة غير قصيرة فى الباب السابع من كتابه الذى عنونه (ابن خلدون والعرب) فجدد الاهتمام بهذا الجانب من حياة هذا الانسان النابه والرائد .

وقد قال الدكتور مصطفى الشكعة أولا فيما قاله ابن خلدون في هذا الباب المحير والمربك ما ألخصه لك فيما يلى:

لقد ذهب الدارسون في قضية ابن خلدون والعرب مذهبين متباينين.

وشكلوا فريقين متناقضين فريقا يرى ابن خلدون يقصد العرب جملة، وفريقا يرى ابن خلدون يقصد الأعراب البدو دون غيرهم.

ويري طه حسين أن ابن خلدون يقصد تحقير العرب وأن حافز ابن خلدون على ذلك الموقف من أهله العرب ما وصلوا اليه من ضعف وتدهور وتفسخ فى العصر الذى عاش فيه ابن خلدون وربط بين حالهم آنذاك ورأى ابن خلدون فيهم ونقل عن طه حسين قوله فى هذا الصدد. ليس غريبا أن يزدريهم ابن خلدون ولاسيما انه عاش فى ظل الاسرة

البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفريقية الشمالية في القرن الخامس وخلص الدكتور طه حسين أن حملة ابن خلدون الظالمة كانت موجهة ضد العرب.

ويشاطر هذا الرأى الاستاذ محمد عبد الله عنان الذى يعتبر مؤرخ المغرب فى كتبه العظيمة والعديدة ويقول الدكتور عن الاستاذ عنان ورأيه بأنه يعتقد اعتقادا جازما بأن ابن خلدون يقصد إهانة العرب أنفسهم ويعنى بذلك سكان الجزيرة العربية وليس الاعراب أو البدو ويبرر اعتقاده هذا بان ابن خلدون وهو يشرح نظريته.. فى ان العرب إذا تغلبوا علي أوطان أسرع اليها الخراب، يذكر ابن خلدون ان العرب حينما تغلبوا على العراق والشام تقوض عمرانها كذلك خربت إفريقية لما جاء اليها بنو هلال وبنو سليم، ويرد عنان على هذا الاتهام الظالم بقوله: إن العرب هم الذين افتتحوا منافذ الاناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس وافتتحوا شمال افريقيا حتى المغرب الاقصي ثم اسبانيا وعبروا جبال البرينيس إلى فرنسا، وهذه كلها أقطار وعرة النيل من البساط التى يسهل غزوها وقد افتتحها العرب جميعا فى أقل من قرن وكان ابن خلدون قد ذكر من بين مثالب العرب هو إقبالهم علي السهل من الأمور وهربهم من الشاق والصعب منها.

ثم أورد الدكتور مصطفى الشكعة فى القسم الذى يرى نقيض رأى طه وعنان والقائل بأن ابن خلدون لم يقصد العرب فى حملتهم بل قصد الاعراب كل من الدكتور على عبد الواحد وافى، والاستاذ ساطع الحصرى ومن المؤرخين الاجانب المؤيدين هذا الرأى البارون دوسلان الذى ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية. أما الدكتور الشكعة نفسه

فمع الرأي الذى يقول أن ابن خلدون لم يقصد سوى الأعراب والدليل عنده على ذلك ما قاله ابن خلدون في الباب المعنون «العرب لا يتغلبون إلا علي البسائط» انهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعبث وينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم ويري الدكتور ان هذا الكلام لا يمكن ان ينطبق إلا علي الاعراب لأن العرب قبل الاسلام وقبل قيام دولة الزاهرة وحضارتهم الباهرة في دمشق وبغداد والقاهرة مثل مكة والمدينة والطائف وصنعاء ومأرب، أى كانهم أهل حضر وليسوا أهل فقر. كما أن ابن خلدون حينما قال إن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب والسبب فى ذلك أن العرب أمة توحش باستحكام عوايد التوحش فيهم فصار لهم خلقا وجبلة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة فيه، وهو كلام بدوره لا ينطبق إلا على الاعراب ، ولا علي العرب ذلك من شأن الاعراب ولاسيما أن هذه العبارة جاء فيها من الألفاظ الخيام والأوتاد والحجر والآتان.

فما هى حقيقة الأمر في هذه المشكلة؟

الرأى عندى أن ابن خلدون كان يعنى العرب، العرب أصحاب الحضارة الرفيعة التى امتدت من المحيط الأطلسى حتى أقصى حدود المحيط الهادى حينما التقي بأرض أسيا عند الصين.. وهى حضارة صنعها العرب بطرق عديدة تدل على أن العرب أمة حضارة وعلم وبناء وعمران.

فقد استمدت أصولها الأولي من القرآن وأحكامه التى قالت فيما قالت: إن الانسانية أمة واحدة، «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» ثم حينما اتسع مكان هذه الحضارة أفسحت صدرها، لكل صاحب موهبة أو قدرة أو طاقة أو تاريخ، ليساهم في بنائها فترجم لها المسيحيون واليهود واحتلوا مكانة رفيعة بين رجالات الدول الاسلامية، واحتفى بهم زملاؤهم من العلماء المسلمين، وناظروهم وحاجوهم، وقرأوا لهم وترجموا عنهم، وحسبك ان تذكر أن الذى ترجم الفلسفة اليونانية هم العرب، وان العرب أخذوا هذه الحضارة عن كتب العرب وأن العرب اسموا أرسطو المعلم الأول وأسموا فيلسوفهم (ابن رشد) المعلم الثانى وان نبيهم يقول اطلبوا العلم ولو فى الصين والذى قال «ساعة علم خير من عبادة سبعين سنة» كما قال.

فهذه الحضارة العربية التى شادها العرب هى فى الواقع حضارة انسانية وكان عند ابن خلدون وقائع تدل على أن العرب أو الاعراب أو كليهما معا ميل إلى التخريب والنهب والسلب فان تاريخ هذه الحضارة التى استمرت أكثر من عشرة قرون فيها من آلاف الدلائل والشواهد ولست استطيع أن أتصور أن مؤرخا عظيما كابن خلدون الذى تعمق التاريخ ووقف على فلسفته وجوهر حكمه أن يخلط بين العرب والاعراب، وأن تعوزه العبارة فيقول عن شيئين جد مختلفين ومعنيين جد متباينين لفظا واحدا وعبارة واحدة، فالعرب والأعراب ، لا يخلط بينهما إلا أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وحينما يجلس عالم كابن خلدون ليؤلف كتابا فى مثل خطر كتابه وعمقه ودقته وكثرة ما فيه من الحقائق والافكار والخواطر فيقع فى هذه الهفوة الكبيرة فيسب أهله وأباءه وأجداده ويرميهم بأقبح النعوت وينسب إليهم أشد المثالب، فماذا إذن التعليل لهذه الظاهرة

الغربية يفسرها أمر من عنصرين.

العنصر الأول اختلاط فكرتين أو إجتماع شعورين عند العرب منذ زالة دولة الاسلام الكبرى التى قامت فى المدينة فدمشق فبغداد فالقاهرة ثم في مدن الاندلس وجنوب أوربا، وصقلية.

الشعور الأول : شعور الفخر والاعتزاز والمباهاة. والشعور الثانى شعور بالنقص. يبلغ بهم إلى درجة المرارة.

أما العنصر الثانى فهو ثمرة الشعورين معا، وهو رغبة مرضية تدفعهم إلى النيل من أنفسهم، والحط من أقدارهم، والسخرية بماضيهم والإعجاب الذى لا حد له باوربا وأهل حضارتها ونظامها وفنها. والعربى وربما الشرقى كله. بقدر ما يعجب بالحضارة الغربية ينسى مكاسبها وعيوبها وما يصاحبها من فساد وظلم وعدوان وفسق ودعارة بل قد يعجب بهذه كله ولايراه عيبا، ولسنا ننسى ما قاله الدكتور طه حسين فى كتابه: «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى قال فيه إن مستقبل النهوض ببلادنا هو الأخذ بالحضارة الأوربية حلوها ومرها وخيرها وشرها، وقد سبقه إلى هذا القول قاسم أمين بالنص.

نحن الآن نرفض أن نهزم ونرفض أن نتأخر ونرفض أن يحل بنا الفقر والضعف. فنحاول أحيانا أن نصلح من أمرنا ونحن نتسلح بماضينا الفاخر والباهر وأحيانا أخرى نصاب باليأس ونعتقد أن ما نحاول هو عبث ومنذ أيام قال لى طبيب كبير (لا أمل لنا) وهو طبيب ناجح ماديا ومعنويا تعلم فى مصر وتعلم فى أوربا ولكن نوبات اليأس هى نوبات نفسية يصاب بها كل من يمر فى محنة .

لقد ذكرت وأنا أكتب هذه السطور ما سجله سعد زغلول زعيم ثورة

١٩١٩ والذى عرف بانه رمز المصرية لكونه (باشا) ابن فلاح بين باشوات ينحدر أكثرهم من أصول تركية وشركسية فقد قال سعد في مذكراته الخاصة ما يلى عن كل طوائف المصريين.

قال عن الفلاحين والمزارعون أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ولا تثور لهم ثائرة الا اذا مست الجهة الضعيفة فيهم وهى الجهة الاقتصادية فهم منصرفون عن كل عمل عام إلا وسوس لهم وسواس فى صدورهم بالدين وأحكامه. وذوو الوجاهة والنفوذ فهم يشتغلون بالأمور العامة بقدر ما يكسبون بسبب الأشتغال بها من السلطة والنفوذ من الغاية فاذا انسوا من الاشتغال ومباشرة ما يبتغون من سلطة وجاه انصرفوا عنها وتبرأوا منها والموظفون لم يبحثوا عن الوظائف ولا الترقى لكى يفيدوا الأمة بأعمالهم فيها ويستفيدوا هم منها ببسطة فى المال وفي الحياة بل لكى يستفيدوا الفوائد المادية فقط، وهم الواحد منهم فى وظيفته بأن يرضى ذمة رئيسه صاحب الكلمة النافذة ولو أغضب رئيسه لنقله من مكانه.

وقليل منهم من يعرض مصلحته الخاصة فى حق ينصره أو باطل يخذله وترى الواحد منهم وهو خال من الوظيفة يشخص العلة ويصف الدواء، وينتقد على العاملين أعمالهم، ويقبح كل عمل مخالف للعدل أو الذمة حتى يخيل لسامعه أنه اذا تولى الاحكام انصلحت الاحوال وصارت على أحسن نظام فإذا دخل فيها انعكست الاية وصار ذلك الحر فى القول رقيقا فى العمل وذلك المستقل فى الفكر ألة صماء يحركها الرئيس كيف شاء وذلك الغيور على الحق فى مقدمة العاملين

على إخفائه يسير على هذا حتى إذا تغير رئيسه عليه ورأى المستقبل مظلما فى عينيه عدل إلى حالته الأولى وأخذ يسخط على الزمان والمكان وانتظم فى سلك الاحرار.

وعن التجار قال سعد : والتجار لا يشتغلون بالأمور العمومية الا على مقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة لا يهمهم بعد ذلك شكل الحكومة إن كانت مقيدة أو مطلقة.

وقال عن العمال والصناع والفعلة لا يهتمون الا بأعمالهم وقبض أجورهم ولا يتحركون لعمل عام الا اذا حركته عوامل الدين أو رأوا فى الثورة ما يسهل عليهم عمل السلب والنهب (مذكرات سعد زغلول كراسة ٩ ص ٤٠٠ - كما يراجع كتاب دور سعد زغلول فى السياسة تأليف دكتور عبد الخالق لاشين).

ثم يحمل سعد حكمه على الأمة كلها فيقول بالجملة فليس فى جميع هذه الطبقات قوة الاعتماد على النفس التى هى منبع الحياة فيه ثم فهى دائما تسعى بالحاجة إلى الغير للاستعانة به ولا تحس من نفسها القدرة على الوصول إلى الغاية معملها الذاتى ولأنها مكثت فى الذل والاستعباد أجيالا عديدة فانها تبحث دائما عن سندها لدى الحاكم فاذا لم تجد منه ندا لها ضعفت وان وجدته تقوت وسلمت لهم الايام.

فان قرأت هذا الكلام لوجدته كرجع الصدى من كلام ابن خلدون وحكمه على العرب، فالمصريون والعرب كلاهما شئ لا يعتمد على نفسه ولا يهتم بالشئون العامة، الا اذا كانت مصلحة خاصة فى هذا الاهتمام.

وقال سعد «إن مصر لا يمكن أن تعيش مستقلة، فان حصلت على الاستقلال فإنها لن تلبث حتى تضيعه».

ولا يمكن أن يكون هذا حكم سعد على أمته وشعبه الذى أيد ثورة سنة ١٩١٩ واضطلع باعبائها واصطلى نارها، إنما هو حكم لحظة أكتئاب وضيق، وعدم رضا عما يجرى، الشعور بأن الطريق مسدود نحو الجهاد والمقاومة، الخلاصة أن الأمم التى تمر بالمحن والمصاعب والشدائد والمصائب يحس مفكروها ودعاتها أحيانا باليأس يفجر نفوسهم والقنوط يسود حياتهم فاذا هم فى لحظة أو وقت يحملون على أوطانهم، ويلعنون أهليهم وذويهم وينسبون إليهم كل نقيض ويسندون اليهم كل رذيلة ولكنه قول إلى حين.

عقل العربى

هذا عنوان كتاب وضعه كاتب أوروبى لا أظن إنه معروف لدى دوائرنا الفكرية والمشتغلين من علمائنا وكتابنا بأمور الاستشراق هو «روفانيل بتاى» .. وهو كتاب جدير لا أن نقرأه ونتأمل فيه، بل لعله كان جديرا بأن يكون من عمل مؤلف أو جماعة من المؤلفين العرب .. فما يعنيه «روفائيل باتاى» من عبارة عقل العرب « The arab mind» هو «كيف يفكر العرب» وأحرئ بالعرب فى هذه المرحلة من حياتهم العامة. السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تتكاثر خلالها وتتضافر دواعى التغيير والتطوير وضغوط الداخل والخارج على كل ما يجرى فى بلادنا وما يتصل بها، أن تفكر فى «كيف تفكر» وما هى وسائلنا عندما نتناول المشكلات، ونواجه الأزمات وتلم بنا المصاعب وتحتشد فى حياتنا المتاعب وما هى الحوافز الدفينة التى توجه عقولنا ونفوسنا وهل ثمة قوالب موروثة نصب فيها أفكارنا وتصوراتنا وتحد من قدراتنا فى الإحاطة بالآمور التى تؤثر فى حاضرنا ومستقبلنا وما هو الجيد الصالح من تلك القوالب وما هو الردئ والقبيح منها وكيف نستزيد من الحسن وكيف نتخلص من السيئ ؟!..

ولابد من أن أصارح القارئ الكريم بأمرين حاولت – من حيث لا أشعر – إخفاءهما، ثم وجدت انه لا داعى لهذا الاخفاء أولهما اننى لم

● الهلال – أغسطس ١٩٨٣ .

استطع أن أقطع بشئ في الدين الذى يؤمن به الكاتب وان كنت قد رجحت منذ اللحظة الأولى انه يهودى ولكنه لم يقل حرفا واحدا فى هذا الصدد وقد قدم نفسه فى فصل تمهيدى من فصول هذا الكتاب قص فيه وقائع حياته الفكرية وبدء صلته بالاستشراق والدراسات العربية، ودراسات الشرق الأوسط، ولغاته وتراثه الفولكلورى فى العادات والملابس، والمصنوعات المختلفة والجامعات التى لحق بها، وتتلمذ فيها وهى جامعات تعددت فكان منها جامعات ومعاهد فى موطنه الاصلى «المجر» وفى المانيا ثم فى القدس وأخيرا فى جامعات الولايات المتحدة وقد توثقت علاقاته بهذه الجامعات وارتفعت درجته العلمية شيئا فشيئا حتى أصبح أستاذا من أساتذتها ومرجعا من مراجع علمائها.

قال هذا كله دون أن تصدر عنه عبارة واحدة تشير الى دينه وهو أمر غير طبيعى خصوصا عند حديثه عن ذكرياته فى الشرق العربى بعامة وفى القدس بخاصة وهى منطقة تتعقد فيها أمور الدين والعقائد والخلافات والانتماءات فى هذا الشأن.

الامر الثانى هو أننى لم أفرغ بعد من قراءة الكتاب وهو فى حاجة الى قراءة تأمل ومراجعة وتفكير لا لأن الموضوعات التى عرض لها معقدة بل على النقيض لانها من الموضوعات التى تشغل بال الكاتب الكبير والمفكر فى مصر، وفى العالم العربى، والتى نلوكها ونطيل الاشارة اليها وتحليلها وقد يبدو غريبا أن تكون المسائل التى نتناولها كثيرا تزداد صعوبة وغموضا بهذا التناول الذى كان جديرا أن يؤدى فى ذاته الى الألفة بينها وبين الكاتب .. ولكن هذه الألفة هى موطن العلة فالآلفة قد تكون منزلقا الى التص ورات السريعة والسطحية لانها تغرى

بعدم بذل الجهد، باعتبار أن الموضوع المطروق بين ومعروف وأن كل ما يحيط به، واضح.

ولكني أثرت أن أتحدث عن هذا الكتاب، لمجرد لفت النظر اليه وبيان محتواه والتنوية باسلوبه وطريقته فى تناول موضوعاته لأنه استقر فى يقينى أننا فى أشد الحاجة الى الكثير من مؤلفات على منواله يكتبها كتابنا الذين تشغلهم شئون السياسة والذين وقفوا حياتهم على الدراسات التاريخية والجغرافية والاجتماعية.. على أن أعود اليه بعد الفراغ من قراءته والتعرف على الفكرة التى تقف وراء جميع النتائج التى أعلنها فيه والتى قد تكون ثمرة والتى لا تزال تتمخض عن تطورات بعيدة المدى لا يبدو منها حتى اليوم وعلى الرغم من ضخامة الأحداث فى هذا الشرق الا مقدماتها والفصل الذى كتبه المؤلف عن حياته حقيق بأن يلخص بين يدى الحديث عن الكتاب كله لانه يكشف لنا عن منهج هؤلاء الذين يتصدون لدراسة أمورنا والكشف عن مخبأت نفوسنا وعما تنطوى عليه دخائل عقولنا مما قد يخفى علينا على الرغم من انه يبدو واضحا لمن يقف منا موقف الفاحص «المحلل».

يقول «باتاى» فى أولى عبارات الفصل الذى كرسه للحديث عن نفسه، انه لابد أن يعترف انه يعانى من ميول «رومانسية» بل من ارتباط استمر عمرا كاملا بينه وبين «العربى» أما كيف بدا هذا الارتباط فلم يعد الان قادرا على التذكر ولكنه يذكر ان والده اصطحبه وهو بعد فى العاشرة من عمره الى زيارة «اجناز جولد تسهر» وعندما كانا فى طريق العودة الى البيت قال له والده: «تذكر انك صافحت أعظم مستشرق على قيد الحياة».. فلما بلغ الحادية عشرة أخذ يقرأ مغامرات

«كارل ماى» وانه تأثر بصفة خاصة، من استكشافاته الخيالية فى الصحراء العربية، وفى يوم تال قرأ بالصدفة فى إحدى الجرائد المجرية أشعارا جميلة للشاعر «والتر دى ماير» عن البلاد العربية وهو لا يزال يحتفظ بصورة رسمها لنفسه وهو فى الرابعة عشرة من عمره وهو يرتدى الكوفية ويضع فوقها العقال العربى.

ويقول انه لابد أن يكون قد زار فى هذا الوقت نفسه ضريح الصوفى التركى «جول بابا» فى بوادبست، وهو الضريح المتخلف عن عهد الحكم التركى للمجر والذى يحوى داخله المدفن ذا الشاهد الذى تتوجه صورة حمامة.

ويقول روفائيل باتاى إنه فى ذلك الحين لم يستطع ان يميز بين العربى والتركى وان كان يعلم انهما ليسا واحدا وانهما معا من المسلمين مما جعله يضيف الى العربى تحفة الضريح التركى للصوفى الشهير «جول بابا».

ويقول انه فى بداية دراسته فى جامعة بودابست، حضر فصولا فى العبرية والسريانية والفارسية وقراءاته فى القرآن وتاريخ الادب العربى والتاريخ القديم للشرق الاوسط وقد انتقل الى جامعة «برسلاو» فى المانيا حيث قيد له الحظ ان يتتلمذ على المستشرق الالمانى الشهير «بروكلمان» الذى قال عنه انه بروتستانتى كما قال عن الجامعة التى كان بروكلمان يلقى فيها دروسه انها جامعة كاثوليكية مما يدل على أن الظلال الدينية تشغله فى بيان الوقائع وتحديد الشخصيات وبعد فصلين دراسيين فى جامعة بروسلا وحضر ندوة عى اللاهوت اليهودى ولما عاد الى بوادبست واصل دراسة اللغة العربية وروائع أدبها مثل معلقات الجاهلية والقرآن..

وفى بوادبست أيضا درس الفسلفة اليهودية فى القرون الوسطى وفى سنة ١٩٣٢ سافر الى فلسطين بعد حصوله على اجازة الدكتوراه فى الفلسفة وطاف بشوارع فلسطين وسمع أهلها يتكلمون فتبين أن كل دراساته فى اللغة العربية القديمة والمعاصرة لم تمكنه من أن يفهم ماذا يقول العرب فى أحاديثهم اليومية، ثم لحق بالجامعة العبرية التى كانت قد تم تأسيسها منذ ثمانى سنوات مضت قبل سنة ١٩٣٣ وهناك ركز على طائفتين اثنتين فقط «فلسطينولجى» أى الدراسات المنصبة على فسلطين والتى تشمل التاريخ والجغرافيا التاريخية وطبوغرافية البلاد .. ثم اللغة العربية.

وهذا كله يرينا كيف يحضر علماء اليهود أو علماء الغرب، انفسهم ليقوموا بالادوار التى تقتضيها تطورات الاحداث السياسية فى المنطقة التى تهمهم وتشغل بالهم فى الليل والنهار.

وما ان وضع روفائيل قدمه فى القدس حتى نجح فى أن يظفر بصداقة شيخ عربى تعلم فى الأزهر ويعتبر من مشاهير مدرسى العربية فى فلسطين وهو الشيخ أحمد فخر الدين الكنانى الخطيب أحد أعضاء أسرة من أكبر الاسرات العربية فى القدس.

وقد توطدت العلاقة بين العربى والعبرى، فخلال خمسة عشرة عاما قضاها الاخير فى مدينة القدس كان يرى صديقه الفسطينى الازهرى المسلم مرة فى الاسبوع على الأقل ، وكانا قد عقدا ميثاقا بينهما مؤداه أن يعلم «باتاى» صديقه الكنانى الخطيب «اليهودية» فى مقابل أن يعلمه الخطيب «العربية» ويقر باتاى انه بفضل الشيخ الخطيب استطاع ان يلقى نظرة باطنية على عرب القدس وان ينشئ بينه وبينهم حالة من

المعرفة الحميمة ويضيف انه قدمه الى أصدقائه العرب وعلمه الاساليب المحلية للممارسة أو المساومة فى أسواق المدينة ويقول باتاى انهما اضافا الى هذا الميثاق بندا يقضى بانه عند وقوع أحدهما فى خطر يهدد حياته يأتى الاخر لانقاذه وانقاذ اسرته وفى ١٩٣٤ حصل باتاى على درجة الدكتوراه للمرة الثانية ولكن هذه المرة من الجامعة العبرية فى القدس وكانت هذه الاجازة أول اجازة دكتوراه تمنحها هذه الجامعة لطالب يتخرج فيها.

وحدد العالم اليهودى منهجه وهدفه فأصبحت الدراسات الثقافية والانثربولوجية «علم الاجناس البشرية» لليهود الشرقيين فى فلسطين.

ويزعم أن عطفه على العرب، واهتمامه بهم لم يضعف فقط بدليل إنه كسب أصدقاء عربا جددا، وانه قام بصحبتهم الى مختلف انحاء فلسطين كما زار جميع الدول العربية المجاورة وان بقيت اورشليم القديمة «القدس» هى مركز اهتمامه الأول وقد واظب على التردد على مكتبة «الخالدى» فى القدس وقد انشأ علاقة مع أمين هذه المكتبة الشيخ أمين الانصارى الذى يطرى «باتاى» صفاته فيقول انه لم ير قط رجلا آخر فى مثل جماله وجلاله ولكنه مع صديقه الأول الشيخ أحمد الخطيب زار مرارا قبة الصخرة ثم ألف أن يقضى سهرات رمضانية فى المقاهى التى تتناثر حول الحرم ثم تلقى «باتاى» منحة دراسية من مؤسسة «مايكنج» الأمريكية، ثم حان له أن يدخل فى الدور الأخير دور الاتصال المباشر بالمؤسسات الأمريكية ، وتلقى الدرجات فيها والارتقاء فى المكانة العلمية فيها وسنسرد هذه الخطوات سريعا وفى ندوات هذه المؤسسة تعرف على عدد كبير من علماء «الانثروبولوجيا» الذين طالعوا من قبل

اثاره العلمية وكتابه الذى ضمنه النصوص العبرية المتعلقة بهذا العلم وقد كان ولا يزال هو الكتاب الوحيد .. ودعا ليلقى على طلاب جامعة «كولومبيا» محاضرات عن الناس والثقافات فى الشرق الاوسط كما دعى الى جامعة بنسلفانيا ليلقى نفس المحاضرات ثم عين استاذا فى جامعة «فيلادلفيا» وكانت هذه المحاضرات هى أهم ما يحدث به علماء الجامعات الامريكية ثم اضاف اليها محاضرات عن «المجتمع والثقافة فى اسرائيل» وتجاذبته الجامعات فكان يحاضر فى جامعة نيويورك وجامعة أوهايو الى جانب «كولومبيا» ثم طلبت منه امانة الامم المتحدة أن يكتب لها تقريرا عن الظروف الاجتماعية فى الشرق الاوسط وبناء على دعوة الاستاذ» فيليب حتى» اللبنانى الاصل أخذ يحاضر فى موضوع الثقافات والناس فى الشرق الاوسط هذه المرة فى معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة برنستون.

ويقول المؤلف انه بعد استقراره فى الولايات المتحدة أصبح زائرا مواظبا لفلسطين ولكنه حرم من زيارة القدس القديمة ومن زيارة أصدقائه العرب فاسرائيل نشأت وأصبحت دولة مستقلة وأصدقاؤه العرب أصبحوا فى الضفة الأخرى من نهر الاردن الا انه انتهز فرصة وجوده فى الشرق العربى بعد حرب سنة ١٩٦٧ ببضعة أسابيع فمضى الى القدس القديمة وهناك فقط دليل تليفون المدينة وبحث عن رقم تليفون صديقه القديم أحمد الكنانى الخطيب وادار القرص فردت عليه زوجة صديقه فأنبأها بأنه قادم لزيارة زوجها فى الغد وفى الغد ذهب الى بيت الشيخ أحمد وفى الموعد طرق الباب وفتحت له زوجته وأحسنت استقباله وتركته لحظات فى حجرة الاستقبال وجلس هو يستعيد ذكرياته وكان قد

تجاوز السبعين دخل الشيخ احمد صاحب الدار فتعانق الرجلان وأخذا يبكيان من فرط السرور بلقاء تم بينهما بعد ٢٠ عاما من الفراق والوحشة.

وأحسب أن القارئ الكريم ثقلت عليه هذه التفصيلات الكثيرة التى تبدو أنها بلا معنى والحقيقة اننى حرصت على إيرادها، لأثبت أن أمثال المؤلف يعدون لمهام ذات شأن فى دنيا السياسة ولكن الاعداد يتم أولا فى مجالات العلم والبحث لان السياسة اليوم - وقد كانت دائما -. علما، لم توضع له فى الماضى أصول ثابتة فى كتب لكن فى العصور الحديثة وضعت هذه الكتب وكثرت: وضعها مؤرخون وأساتذة علوم اجتماعية واقتصاد واحصاء وعلوم جديدة كعلم النفس بفروعه وعلم الاجتماع بأقسامه وعلم الانسان من حيث أجناسه وتطوراته ومستقبله.

فإن «روفائيل باتاى» حينما ذهب وهو صبى لزيارة المستشرق «جولد تسهر» فى بَوادست بصحبة ابيه يوم أن قال له أبوه: لقد صافحت اكبر مستشرق على قيد الحياة كان يعنى اثارة شوق الصبى الصغير للوصول الى مرتبة شبيهة بمرتبة الرجل الذى صافحه والذى قدمه اليه أبوه اذا لابد أن يكون الوالد قد توسم فى ابنه الاستعداد للعمل فى مجال الاستشراق والتفوق فيه وهو مجال يهم دوائر السياسة ودوائر المخابرات ودوائر التخطيط الحربى والاقتصادى والاجتماعى.

والخطوات التى خطاها مؤلف هذا الكتاب لم تقع اعتباطا انما جاءت بناء على خطة تستهدف كسب عالم كبير عنده الاستعداد المطلوب للمهمة التى أعد لها وللعلم الذى أريد أن ينقطع له ويعمل فى ميدانه.

وقد قدم روفائيل باتاى لكتابه بعد ذلك بمدخلين أولهما:

من هو العربى الذى سندير عليه الحديث ؟! .. هل هو البدوى الذى يتجول فى الصحراء مع بعيره أم هو كل فرد يسكن المنطقة ؟!.. أم هو كل انسان يتكلم اللغة العربية ؟ أم هو من يجمع بين الكلام بالعربية كلغة قومية له، مع الاسلام ؟ أم هو رجل تثقف - الى جانب اللغة - بثقافة الغرب واصطنع وسائلهم فى الحياة، ومناهجهم فى العيش؟

والمدخل الثاني: ماذا يكون عقل العربى ! هناك عقل جماعى حتى يمكن أن نتحدث عن عقل العربى ؟! أم أن العقل هو جهاز فردي، تماما كالنفس والجسد بحيث لا يمكن ان يوجد عقل عام لكل العرب أو لكل الترك أو لكل الانجليز تجتمع فيه خصائصهم العقلية العامة بحيث يمثل هذا العقل الرجل المتوسط فى قومه فيتصور الأمور كما يتصورها أغلب بنى جلدته ويتأثر بها تأثرا واحدا مع تفاوت بسيط ويسلم بأشياء ويرفض أشياء وهكذا ..

والمدخلان طريقان نتناولهما فى الحلقة التالية من هذا البحث.

رحلة كاتب صهيونى

فى العقل العربى

فى الحلقة السابقة، قدمت للقارئ الكريم كتاب «عقل العربى» كما قدمت مؤلفه المجرى «روفائيل باتاى» واكتفيت بتلخيص فكرتين جعلهما المؤلف مفتتح دراسته· الاولى ... هل يمكن أن يكون هناك عقل «عقل عربى» و «عقل عجمى» ، «عقل انجليزى» أم أن العقل جهاز شخصى، يستعمله فرد بذاته، ولا يمكن أن يكون لجماعة ما عقل تتشابه خصائصه ومزاياه عند كل فرد فى الجماعة من العلم والجهل والفقر والغنى والقوة والضعف والانتساب الى الطبقة الحاكمة أو الطبقات المحكومة والاقامة فى المدينة والاقامة فى الريف.

والفكرة الثانية. من هو العربى الذى نتحدث عنه عندما نتحدث عن عقل العربى.

أما الفكرة الأولى وهى «العقل الجماعى»، وهل هو حقيقة فعلية، أم هو مجرد إفتراض نظرى، فتناولها المؤلف على النحو التالى ·

يجب أن نسلم بداءة ذى بدء، أن كل ما نقوله عن عقل جماعة من الناس هو «تجريد» والحق أنه يوجد عقل فردى، أو خصائص أو شخصيات، بنفس القدر من الصحة عندما نتحدث عن أجساد بشرية، ومع ذلك فقد درجنا على استعمال لفظى «الجسد البشرى» ونحن نخبر

● الهلال - سبتمبر ١٩٨٣ .

عن اكتشافات جديدة عن خصائص لم تكن معلومة من قبل عن «الجسد البشرى» وأن عمليات التجريد التى نقدم على القيام بها سواء عن الجسد البشرى أو العقل البشرى، ليست سوى عمليات تعميم فنحن حين نقول عن دلالة محيط الرأس للانسان والذى نعنى بها حيث طول الرؤس وقصرها وهذه العملية عملية قسمة طول راس الانسان على عرضه ثم ضرب حاصل القسمة فى «١٠٠» ثم نقول بعد ذلك بالنسبة للعربى البدوى بأن طول رأسه يتراوح بين ٧٢ و ٧٥ سنتيمترا ونقسم الاجناس الاخرى من حيث طول الرأس وقصرها وهذه العملية تتم باختيار الف فرد من الجنس المراد وضعه فى درجة بين الاجناس وأخذ مقاس رءوسهم بالطريقة السالفة الذكر واعتبار هذا الالف من الجنس عينة ممثلة للجنس كله، فهى عملية تعميم أى أن ما نراه غالبا فى جزء أو عدد من أفراد جنس أو جماعة بصفة عامة نعتبره خصائص الجماعة كلها، مع ما يقترن مع هذا التعميم من خطأ أو تجاوز.

وقل أن نصادف فى كتابات السيكولوچيين الاجتماعيين أى علماء النفس الذين يقيمون اعتبارا خاصا لظروف الناس الاجتماعية ولا فى كتاب الانترويولوجيين ذوى الاتجاه النفسى أى علماء الجنس البشرى أصحاب هذا الاتجاه «يعتبر عقل الجماعة» أو «العقل القومى» أو «عقل الجنس» وما إلى ذلك من الاصطلاحات لانهم يؤثرون بدلا من هذه الاصطلاحات استعمال لفظ «الشخصية» و «الخاصية» وفى دراستهم يناقشون العناصر المشتركة فى «الشخصيات الفردية» أو «الخصائص الفردية» بين أفراد جماعة معينة من بيئة اجتماعية ثقافية بالذات.

وقد كان من أوائل العلماء الذين تصدوا لمشكلة الفرد وخلفيته الثقافية الاجتماعية «رالف لنتون» والعالم النفسى «ابرام كاردتر» وفكرة

«الشخصية الاساسية» قد نماها واستوفى جوانبها، هذين العالمان وقد قامت دراساتهما على الاسس التالية :

أولا : أن تجارب الانسان المبكرة تترك أثرا باقيا في شخصيته ولا سيما أجهزته المعبرة عنه والكاشفة عن خصائصه.

ثانيا : وهذه التجارب ذاتها تترك أثرا مماثلا لمن يتعرض لها من أفراد نفس الجماعة.

ثالثا : أن وسائل تربية الاطفال وتنشئتهم المستعملة فى جماعة معينة تترك أثرا مشابها فى أطفال الجماعة، وإن لم يتطابق الأثر فى جميع الأحوال .

رابعا : تتباين وسائل تنشئة الأطفال النموذجية أى المعتبرة نموذجا فى الجماعة من هذه الجماعة الى تلك.

فاذا كانت هذه المعطيات الأولية صحيحة ومؤيدة بثروة ضخمة من التجارب والملاحظات فانه يترتب عليها ما يلى :

١- أن أعضاء أية جماعة يتمتعون أو يمرون بتجارب مبكرة مشتركة.

٢- وبناء على هذه التجارب المتشابهة تتكون لهم خصائص شخصية كثيرة مشتركة.

٣- وبما أن تجارب الطفولة فى مجتمع تختلف عنها فى مجتمع أخر، فإن شخصيات الأفراد لابد أن تتباين فى مجتمع عنها فى مجتمع آخر.. ومن ثم يمكننا أن نعرف الشخصية الاساسية لمجتمع «شعب، طبقة، طائفة».

إنها تلك الشخصية التى يشارك فى خصائصها الجزء الاكبر من أفراد ذلك المجتمع، وهى كما قلنا تختلف فى مجتمع عن مجتمع آخر،

لاختلاف التجارب المبكرة فى الجماعات الانسانية المتعددة وهذه الشخصية الجماعية لا تتطابق مع شخصية الفرد فى الجماعة على حدة ولكنها «إن جاز لنا أن نستعمل تعبيرا آخر تتطابق مع اسلوب تقدير القيم الذى يستعمله أفراد هذه الجماعة التى توضع تحت الدراسة.

وليس ثمه شك أن الجماعة الانسانية فى أى موقع فى الارض لا تصا غ فقط بالتجارب المبكرة فى حياة أفرادها بل بمئات من العناصر المادية والروحية ابتداء من البيئة الطبيعية: الجبل أو السهل، النهر أو البحر، والغيط أو الصحراء، وبالصناعات : الزراعة أو الصيد أو الرعى أو صيد البر أو صيد البحر وصيد الطير وصيد الحيوان وجدب البيئة وقلة الرزق بها، أو خصوبتها وغناها وكثرة الرزق فيها وقد لاحظ ابن خلدون الفارق الكبير بين الغزالة فى الجبل وبين العنزة فى السهل - الاولى عنيفة قوية العضلات رشيقة كثيرة الحركة حساسة. عصبية تترقب الخطر وتخشاه وتتعبه بالجرى الشديد الذى تعينها عليه رشاقتها وقلة لحمها فى حين أن العنزة مترهلة بطيئة الحركة هادئة مستقرة لا تنتظر خطرا ولا تتوقاه.

ولا يمنعنا من تقرير هذه الحقيقة قول العلماء فى «انثروبولوجيا الجماعة كلاكوهان ومرى الذين يحذران من الوقوع فى خطأ الاعتقاد بأن الجماعة يمكن أن تكون لها «عقل مشترك» اذ لا يكون لاية جماعة عقل مشترك الا بقدر ما يكون لهذه الجماعة ذاتها ساقان مشتركان.

ويقول المؤلف أن أية بيئة ثقافية اجتماعية تؤثر على الافراد الذين يعيشون داخل بطاقتها وتطبيعهم بطابعها بقيمها وبالمسلك المتعارف عليه فى مختلف المواقف، بالمقبول و«المرضى عنه» من الافعال وردود

الافعال فضلا عن الحاجات والغايات الموجهة بثقافة الجماعة .. ويضيف الكاتب أنه أثناء الطفولة أن العضو الصغير فى الجماعة يستبطن بالتدريج أوامر جماعته التى تغرس فيه عن طريق والديه والمربات «الدادات» والمدرسين والقساوسة «أى رجال الدين».. وكل الأشخاص الأخرين الذين يمارسون السلطة فى المجتمع وفى السن المبكرة تشق هذه الأوامر طريقها فى نفس الطفل مستغلة إغراء المكافاة عن الفعل الجيد أو الفعل المتفق مع توجيهات الجماعه أو خطر التهديد بالعقاب على الطفل السيئ أو الطفل المخالف لتعليمات الجماعة أيضا وعلى مر الزمن ينجح اسلوب المكافاة والعقاب فى أن يستقر فى باطن الفرد ويخلق ما يعرف فى النظرية الفردية بالذات الأعلى الذى يتسلط على الشخصية ويهيمن عليها أى يحل محل العوامل الخارجية وبهذه الطريقة يصبح الفرد المثقف والمتأقلم مع جماعته ممثلا صادقا لبيئته الجماعية الثقافية ويصبح عضوا فى الفئة المتفوقة عدديا فى المجتمع والتى تكون بخصائصها الشخصية «النموذج» لهذا المجتمع.

وختم الكاتب كلامه بقوله : لذلك أنا أجرؤ على تعريف الشخصية لوطن ما أنها المجموع الكلى للحوافز والمعتقدات .. والقيم التي يؤمن بها العدد الأكبر فى مجتمع قومي.

ويريد المؤلف أن يفرق بين الشخصية القومية وبين الشخصة «النموذج» فالشخصية القومية تنطبق بالنسبة للمجتمعات الكبيرة كوطن مثلا..

أما الشخصية النموذج لجماعة ما فتنطبق على المجتمعات الصغيرة كطائفة فى وطن ففى الشعوب التى تتكون من أجناس مختلفة يمكن

البحث فيها عن الشخصية «النموذج» لا الشخصية القومية وبتطبيق هذه النظرية على العالم العربى فإن الانسان يجد على سبيل التأكيد الشخصية «النموذج» الواحدة لاهل الشمال فى السودان وثانية لأهل السودان فى الجنوب ويجد الباحث أن الفرق بين الشخصيتين كبير الى درجة انه لن يستطيع أن يضع الشخصيتين فى اطار شخصية قومية واحدة

فاذا كانت الاجناس فى جماعة متقاربة .. فان الباحث يستطيع أن يضعها جميعها فى اطار الشخصية القومية مع وجود هذه الاجناس التى تحمل كل منها اسما فالأغلبية المسلمة فى العالم العربى قريبة غاية القرب من الأقليات غير المسلمة بحيث يمكن أن تدخل الاغلبية والأقلية فى اطار الشخصية القومية بعكس الحال فى المثل السابق عن شمال السودان وجنوبه.

ويقول أن نظرية الشخصية القومية تفيد فى الدراسات عند المقارنة بين مجتمعات انسانية مختلفة وان كان أعضاء هذه المجتمعات لا تشعر بوجود هذه الحقبة الاخيرة فان أعضاء كل مجتمع انسانى يشعرون بأنهم أعضاء فى وطن .. وأنهم يفكرون تفكيرا مشتركا وأنهم يحملون نفس القسمات.

وكل أقلية تعيش مع أكثرية تشعر بأنها جماعة قومية والغرب ابتداء بأعظم مفكر الى أبسط عضو فى مجتمعهم يدركون الشخصية العامة التى ينتمون اليها، واذا قرأ الانسان مقدمة ابن خلدون «١٣٣٢ - ١٤٠٦ ميلادية» الذى هو بلا جدال أكبر عبقرية عربية بين مؤرخيهم فضلا عن أنه أكبر عبقرية انتجها الغرب فانه يثير انتباهه المرة بعد المرة

بتعليقات «ابن خلدون» على الشخصية العربية التى تضيف الى صورة الشخصية العربية كما يراها مؤرخ يمكنه أن يراجع تاريخ سبعة قرون مضت من تاريخ العرب.

وان كان من الملاحظ أن ابن خلدون حينما يتحدث عن العرب، انما يعنى «البدو» الذين يعيشون أصلا فى الصحراء ويفدون الى المجتمعات الحضارية .. ومن ثم جاء ما يشير اليه ابن خلدون من التخريب الذى تحدثه القبائل العربية فى المجتمعات المتحضرة التى تفد إليها.

وينتقل المؤلف - بسوء نية واضح من ابن خلدون الى المقريزى فينقل عنه شهادة سيئة غاية السوء فى المصريين فيقول انهم «ينقصهم الثبات، ولا يعرفون حسم الامور، كسالى يعيبهم القنوط، شرهون، عديمو الصبر، يحتقرون الدرس، يملؤهم الخوف، والغيرة ويميلون الى السباب والى التزييف ومستعدون أن يسلموا مواطنيهم الى السلطان ويتهمونهم لديه وإن كانوا ليسوا جميعا على هذا الخلق وإن كانت هذه صفات أكثرهم» ويعود المقريزى المرة بعد المرة الى تأكيد هذه الصورة البشعة للمصريين وابراز خطوطها على ما فيها من مجافاة صارخة للحقيقة.

واذا كنت قد أوردت ما أقتبسه المؤلف من ابن خلدون والمقريزى فليتضح للقارئ منهج المؤلف العادى للمصريين والعرب.

وليس ثمه شبهة فى أن شهادة المقريزى السيئة فى حق المصريين لا تصدر من نقص فى وطنيته ولا خطأ فى حكمه ولا هوى فى تقديره انما فاته على الرغم من سعة علمه وكونه مؤرخا عظيما أن يدرك أن المصريين ينعتهم بتلك النعوت انما هم ثمرة قرون من الحكم السيئ والحكومة المختلة والسلاطين الاغبياء الذين يتسمون بالقسوة والغلظة

والشره وسوء السيرة والذين يستعينون بأسوا الوزراء وأشد الرجال جهلا وأعظمهم طمعا.

ويورد المؤلف عددا من الامثلة العربية الشائعة يعدها نوافذ يطل منها على النفس أو الشخصية العربية مثل : «أنا وأخويا على ابن عمي» «انا وابن عمي على الغريب» يعتبرها دليلا على قوة الرابطة الاسرية في حين هي في الواقع دعوة الى الترابط ضد الاخوين فهي دعوة سياسية ووطنية أكثر منها دعوة عائلية.

وينقل عن المقريزى ما ذكره من أقوال أحد صحابة رسول الله كشعب الأحبار الذى قال انه عندما خلق الله الدنيا، جعل لكل شئ فيها قرينا وقد قال «العقل» إني ذاهب الى مصر «قال الاستسلام: إني ذاهب الى البادية» فقالت الصحة : إني ذاهبة معاك اليها.

ثم عاد فنقل عن المقريزى ثانية شيئا قريب الشبة مما سبق فقال حينما خلق الله الدنيا قال معها عشرة أنواع من الخلق والطبع فخلق الايمان والشرف والشجاعة والتمرد والكبرياء والنفاق والثراء والفقر والهناء والشقاء قال الايمان اني ذاهب الي اليمن فقال الايمان انى ذاهب معك اليه» وقالت الشجاعة انى ذاهبة الى سوريا فقالت الثورة: أنى ذاهبة معك اليها» فقالت الكبرياء انى ذاهبة الي العراق فقالت الصفة انى ذاهبة معك» وقال الفقر إنى ذاهب الى الصحراء فقال الشفاء إني ذاهب».

ويقول روفائيل باتاى، ان هذه المقتبسات من المقريزى تدل على أن إحساس العناصر العربية داخل نطاق الامة العربية وبالفوارق بعضها البعض احساس قديم وهو يدل على أن أعضاء تلك الامة يتأملون فى شخصيتهم القومية ويدركون انها موجودة وهو شئ ينكره البعض اذ

يذهبون الى القول بأن العرب لم يكونوا يحسون بوجود عام لهم وبقيام قومية تظلهم وتشبه أواخرهم.

وقفز المؤلف بضعة قرون لينقل عن كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الذى وضعه طه حسين سنة ١٩٣٨، أن العقل الشرقى من حيث صياغة الفكرة والتلقى والفهم والحكم ويبرر هذا بحجة أن العقل المصرى كان جزءا من عقل أهل البحر الابيض المتوسط وهؤلاء من الغرب وحضارتهم أوربية وكل الدلائل تشير حتى فى العصر الحديث أن مصر قد اتحدت نموذجها فى كل جوانب الحياة المادية والروحية من القريب وهى تتطور نحو التطابق مع اوروبا ويضيف المؤلف نقلا عن طه حسين أيضا أن مصر قادرة على أن تحتفظ بشخصيتها سليمة ومتماسكة حتى فى وجه الموجة التى باشرتها قوى خارجية كثيرة ذات سلطان عقيم ، بحيث لا يكون ثمة تخوف من تحلل مصر أمام غزو الغرب.

ونقف عند هذا القدر ، لنكمل الحديث فى حلقة قادمة بإذن الله.

معالم شخصية الإنسان العربى عند كاتب صهيونى

فى حلقتين سابقتين قدمت كتاب «عقل العربى» أو كيف يفكر العربى، وهو الكتاب الذى وضعه المؤلف المجرى الاصل «روفائيل باتاى»، وقد تساءل فى أقسامه التمهيدية عن أمرين، أولهما : هل هناك شىء اسمه «عقل العربى» أو عقل «التركى» أى هناك حقا عقل مجرد ، لا ينتسب الى فرد بذاته إنما ينتمى الى شعب ككل ، وهو فى هذه الحال، لا يمثل عقلا موجودا بالفعل بل عقلا متخيلا، يضم الخصائص الاساسية والكبرى لعقل شعب من شعوب الأرض، يتفق عند صفات معينة بفضل المعيشة المشتركة بين أفراد هذا الشعب لسنوات عديدة ، والبيئة الجغرافية الواحدة، والتاريخ الذى يروى لجميع أفراد هذا الشعب قصة وجودهم ، وما تعرضوا له من مآس ، أو ما صادفوه من محن وما حققوه من انتصارات ، وما تركوه للناس من بعدهم من آثار باقية ، مادية ومعنوية .

ثم انتقل المؤلف الى أمور تقع فى حياة الانسان ، فى الايام الاولى من طفولته ، تطبعه بطابع ظاهر ، فان تعرض أطفال شعب لاسلوب

● الهلال - أكتوبر ١٩٨٣ .

واحد فى التنشئة والتربية ، تقاربت خصائصهم وتلاقت صفاتهم وان اختلفت أعمارهم وحظوظهم من الثقافة ونصيبهم من الثروة والمكانة والنفوذ .

وبعد أن فرغ المؤلف من ذكر هذه المقدمات ، بدأ يعدد الأمور التى يتعرض لها الطفل العربى، والتى تخرجه فى قالب مشترك مع بقية أنداده وزملائه فى العروبة من الاطفال .. وهذه الامور هى فى رأى المؤلف ·

١ ـ طابع القسوة ..

٢ ـ طابع التمييز بين الأطفال الذكور والاطفال الإناث .

٣ ـ فترة الرضاعة .

٤ ـ الجذور الاولى للعلاقة بين النساء والرجال فى المجتمع العربى .

ثم تحدث عن مرحلتين فى حياة العربى «الذكر والانثى» ، فجعل لمرحلة دخول الطفل الذكر الى عالم الرجل فصلا قصيرا ولبناء الطفلة الانثى فصلا مشابها .

وما يرويه المؤلف فى هذا القسم من كتابه فى لغة العالم ومنهجه القائم على الملاحظة والمقارنة ، والوثائق المكتوبة أحيانا ، ليس سوى مجرد ملاحظات شخصية للمؤلف ،ليس فيها من العلم شىء وهى فى حقيقة الأمر ملاحظات عن ظواهر شائعة فى العالم كله ، لا تقتصر على «العرب» ، ولا على أطفالهم ذكورا كانوا أو إناثا ..

وهذه ملاحظات مرد أكثرها رغبة المؤلف فى انتقاص «العربى» والحاق العيب اليه، والى تربيته لأطفاله ، مع الزعم بأن هذا العيب عيب «العربى» ، لا يشاركه فيه غيره من الشعوب .

وأنا لا أقر هذه الملاحظات ، ولا أتناولها كحقائق انتهى اليها المؤلف بعد البحث والتحقيق ولكنى أذكرها واتأمل فيها ، وأعرضها على القارىء ليرى فيها منهجا من مناهج الاوربيين الذين يتوفرون على دراستنا ككل : أدبنا ، وديننا ، وتراثنا العلمى، وتاريخنا الاجتماعى والسياسى ، وحياتنا اليومية ، وعلائقنا مع غيرنا من الأجانب ، وصلات دولنا بسواها من الدول وهم يبذلون في هذا جهدا فهم يتركون بلادهم ليعيشوا بين ظهرانينا ويختلطون بأفراد الشعب فى حياته اليومية ، فى أحيائه الشعبية ويحاولون تفهم لغته العادية ، وحظ أمثاله الموروثة وعاداته وأعياده ، وأفراحه ، وأحزانه ، ويتظاهرون فى كل هذا ، بأنهم يغوصون فى أعماقنا ، ويدققون فى صغائر وكبائر مايتردد فى صدورنا وما يضطرب في عقولنا ، ويردونه الى أصوله الخفية ، وبواعثه الدفينة ، ليقفوا على حقائق تصوراتنا ، والبعيد من جذور معتقداتنا .

والحق أنهم يتجشمون عناء، ويبذلون جهدا لا ليعرفوا عن أنفسنا مالا نعرفه، حبا فى الحقيقة بل على النقيض هم يتكلفون هذا الجهد ، ويصبرون على هذا العناء، ليقولوا لنا .. اننا نضرب لكم المثل فى دراسة حياتكم أنتم والوقوف على مداخلها ومخارجها ، وتبين ظواهرها وخوافيها ، لنثبت لكم أننا جادون ومجتهدون ، وأنتم كسالى فارغون .

ثم لكى يقولوا لنا : «نحن نفعل مانفعل لنقف على عيوبكم أيها العرب لنصلحها لكم ، ونرسم لكم طريق الخروج مما ترديتم فيه » .

وعندها سنصدقهم نحن العرب لاننا نجد بالفعل جهدا خارقا وجمعا لوقائع عديدة ، ووثائق مطمورة ، وارتيادا لاماكن مجهولة ، وأبنية

مغمورة ، وأسماء مجهولة ، وكتب ضائعة . وعندها يسهل عليهم أن يزعزعوا ثقتنا بأنفسنا ، فنتجرع سموم ما انتهوا اليه من دواعي تخلفنا .

ومرد تصورنا وأكثره - عندهم - يجتمع في كلمتين : ديننا وما اصطلح عليه من علل ، وثقافتنا وما امتلأت به من نقائص !

والحل في رأيهم أن نأخذ عن الغرب اسلوب حياته ، ومنهج تفكيره وأساليب بحثه ودرسه ، وبالجملة أن نجرى في فلكه ، ونتعلق بذيله ، ونكون منه كالتابع للسيد. وبهذا يسهل على الغرب ، ان ينزعنا من جذورنا ويعلقنا في الهواء ، فلا نحن كانفسنا ولا نحن كالغير ، وانما نحن مسخ مشوه ! .

أما الظواهر التى أحصاها المؤلف «روفائيل باتاى» فنبدؤها بظاهرة «القسوة» ! .

ويتساءل هل هناك نموذج عام لتربية الطفل وتنشئته ، في العالم العربي ؟ .. يعني هل يحرص العربي الغني والفقير ، المثقف والامي ، صاحب النفوذ والعادى ، على أن يخرج طفله على صورة ما ، هي الصورة المفضلة عند العربي أينما كان ؟! . كأن يكون الطفل ، فصيحا لان العربي محبا للفصاحة ، شجاعا لان الشجاعة حاجة من حاجيات الحياة العربية البدوية أصلا التى تستلزم اجادة ركوب الخيل ، واستعمال السيف، وتحمل شظف العيش. وككل الاسئلة ذات الاهمية ، يكون الجواب صعبا . ويزيد من صعوبة الاجابة عن هذا السؤال بالنسبة للعربي وتنشئته للاطفال ، لعدم وجود مادة كافية للبحث . ولكن

يمكن الوصول الى نتيجة تقريبية .. فهناك مثلان هما العراق والمغرب، نجدهما فى موضوع تنشئة الاطفال وتربيتهم أقرب إحدهما الى الاخر ، من أقاليم أخرى كاليونان، أو الطليان أو جنوب اقليم الصحراء الزنجية. فالتشابه الثقافى بين العراق والمغرب على تباعدهما الجغرافى يرشح للفكر أن هناك عاملا اساسيا فى تنشئة الاطفال فى العالم العربى كله.

والامر الثانى انه ثبت فى الدراسات التى تناولت نواحى مختلفة فى العالم العربى ، أن هناك على الأقل بعض السمات المتشابهة فى طريقة تنشئة الأطفال .

من ذلك ظاهرة العقاب البدنى ، فالدراسة لاحوال الحياة العربية ، يتم اللجوء الى تأديب الاطفال بالعقاب البدنى ، أى بالضرب أو الصفع أو الركل أو ربما الجلد على الأقدام العارية ، أما فى الغرب فالاباء لا يميلون الى توقيع جزاء بدنى على الاطفال اذا اخطأوا ويكتفون مثلا بالتأنيب والتوبيخ الشديد، وحرمان الطفل من غذاء شهى أو لعبة يحبها أو رحلة يتمناها .

ويمكن الخلاص الى نتيجة وهى انه فيما يتعلق بالاذى الجسمانى فان العالم العربى كله متفق على اصطناع هذه الوسيلة .

والظاهرة الثانية السائدة فى العالم العربى كله أن صورة الاب ، هى دائما صورة الاب الشديد ، الجاف ، القاسى، الحريص على التمتع بالسيادة فى العائلة ، وأما الام على النقيض ، وهى الطرف المحب العطوف . وتدور على الالسن أقوال تؤكد هذا التناقض ، وتظهره .

ومن هنا ينشأ الطفل العربى ، وهو يحترم أباه بل ويخافه ، وينطوى

على تعلق ملؤه المودة لامه . ويبقى حب الاطفال لأمهم حتى بعد زواجهم ..

ويسبب هذا التناقض في تربية الاطفال ، نجد الامهات العطوفات ، أما رافضات صراحة استعمال القسوة مع أطفالهم ، وأما يحاولن في الخفاء منع وقوع آثاره عليهم أو تخفيف هذه الاثار .

وانتقل المؤلف الى ظاهرة تفضيل الأطفال الذكور على الاطفال الإناث .

ويقول انه منذ أن تحمل الأم ، والعائلة كلها ترجو أن يكون الجنين ذكرا ، فاذا جاء المولود ذكرا ، فرحت الأم ، وفرح أكثر منها الاب ، وفرحت الاسرة كلها ، أما اذا كان المولود بنتا ، شعرت الوالدة بالحزن، وشعر الوالد بالعار ، وشملت الاسرة كلها خيبة الامل . ويرتكب المؤلف خطأ فيشير الى الأية القرآنية :

«واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، لا يدرى أيمسكه على هون أو يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون» .

وعلى الرغم من انه يذكر الاية ويذكر رقم السورة ، ورقم الاية الا أنه يصر على أن هذا القول صادر عن الرسول ، وليس كلام الله تعالى.

ويمضى الصهيونى يقول: انه على الرغم من ذلك النصح «النبوى» فان عادة وأد البنات اى قتلهن وهن صغيرات استمرت في بعض نواحي الجزيرة بعد انتشار الاسلام لاجيال .

ثم يقول انه وإن كانت عادة الوأد لحسن الحظ قد اختفت الا ان

تقاليد الخجل من البنت والشعور بالعار عند مولدها قد انتقل الى الاجيال الحديثة . وأن الرجل الذى لا يرزق بالبنين لقبه «أبو البنات» وان هذا اللقب يكشف عن الشعور بالمهانة . والحق انه لا يدل على شيء من ذلك ، فأبو البنات قد يعبر عن شعور بالعطف على ذلك الرجل ، دون أن يخالط هذا الشعور احساس بمهانته أو قلة شأنه .

ومن المضحك أن المؤلف يقول انه في أحوال كثيرة قتل الاباء بناتهن عند إرتكابهن ما يخل بالخلق . وأن ذلك بقية من عادة وأد البنات .

وقد نقل المؤلف عن الكاتب الفلسطينى موسى العلمى ، فقرة يصف بها مولد طفل ذكر فى عائلة فلسطينية ، وكيف شملت البهجة الام والاب والجدة والجد، وجميع أفراد الاسرة ، حينما اعلنت الداية أن المولود «ذكر» ، وكيف ارتفعت الزغاريد، وعلت الضحكات ، في حين انه لو كان المولود انثى لتفرق الجمع فى صمت ، ولترك الوالد يعاني من شعوره بالعار وحيدا . ويدلل على التفرقة بين الاولاد والبنات . ان الاولاد يرتدون أثواب البنات حتى يصلوا الى سن الخامسة فلا تصيبهم عين الحسود ! .

ومما يترتب على هذه النظرة أن المرأة تتأثر بمولودها فان رزقت بنتا اعتبرت خادمة فى منزل زوجها بلا أجر ، وان رزقت ولدا اعتنى بها وعوملت معاملة حسنة !

والطفل الذكر يعامل معاملة غير الطفلة ، وهذا يظهر فى المظهر الثالث الذى استوقف نظر المؤلف ، فالطفل الذكر يبقى على ثدى أمه ترضعه حتى يصل الى الثالثة من عمره ، واذا بكى من الجوع ، أو من

شيء تسرع الام فتلقمه ثديها ، ليسكت ويستريح ، فى حين أن البنت تسلم لغير الأم لتتولى إطعامها ، وتحرم من الالتصاق الطويل بجسد الام ، ويرتب المؤلف على هذا النظام فى الرضاعة أمورا ضخمة ، فالطفل الذكر، من طول التصاقه بأمه ، يرضع مع لبن أمه ، شعوره بالسيادة وانه يكفى ان ينطق بطلب حتى يلبى طلبه فى الحال - مع أن البنت تترك تصرخ ولا أحد يلتفت اليها .

والتصاق الولد بأمه وبصدرها بصفة خاصة يجعله يؤمن بأن المرأة، هى مخلوق وظيفته جنسية وعملها هو ارضاء رغباته بل نزواته ، وأنه يكفى أن يرى نفسه مع امرأة حتى يفكر فى أن يحاول معها ارضاء نزواته الجسدية ، ولو لم يكن قد رآها من قبل ، ولا تحدث اليها وهو يفترض انها لابد ان تطيعه وتلبى أوامره .

ومن ثم فقد قام المجتمع العربى على قسمين ، قسم للرجال مستقل بهم ، وخاص لهم ، وقسم للنساء . وذلك حتى لا يقع الاختلاط المؤدي الى اتصال الرجل الفورى بالمرأة لانه اعتاد كلما رأى امرأة ، أن يشبع ميله لها ، الذى رضعه مع لبن أمه ، والانثى بدورها لا تقاوم رغبة الرجل ولا ترده عنها ، لأنها ألفت طاعته ، في شخص الوالدة التى أباحت له صدرها ، أكثر مما يحتاج، أى حتى بعد سن الفطام .

ويذكر المؤلف شيئا لم اسمع به وهو ان الامهات العربيات اعتدن أن يدللن أولادهن ، ويحاولن ارضاءهم اذا بكوا فاذا كانوا قد تجاوزوا سن الرضاعة ، دغدغن أجسادهم فى المناطق الحساسة منها ، ليبعثن ضحكهم . ومع الزمن يألف الولد هذا التدليل الجسدى ، ويهيئه لحياة

ملؤها المتعة الجسدية ، مما يحيل المجتمع العربى الى مجتمع تسوده تلك الرغبات، مما يجعل الرجل فى خوف من سرعة استجابة «نسائه» الى المثيرات البدنية ، مما يؤكد انفصال الجنسين .

والطريف أن المؤلف يرتكب خطأ فادحا هنا ويزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا لفظا واحدا يطلق على الاطفال سواء كانوا ذكورا أو إناثا، فالاب يقول عن أولاده جميعا «الاولاد» ، ولا يوجد لفظ يطلق على الدرجة سواء كانت من الاناث أو الذكور، فى حين أن كلمة «طفل» التى يقابلها لفظ «عيل» هى لفظ ينطلق الى المولود الذكر والانثى وهى التى تقابل في الانجليزية لفظ child ، ولفظ infant بالفرنسية ويسترسل المؤلف فى خطأه فيزعم أن اللغة العربية لا تعرف الا «الاولاد» و «البنات» فليس فى عقل الانسان العربى وجود «للطفل» ولا «للاطفال» ، وهو ادعاء ممتلىء جهلا كما ترى !

وهكذا يمضى هذا الكاتب الصيهونى فى اخلاط أفكاره !

أيام فى الجزائر

أكتب هذه السطور عقب عودتى من الجزائر بعد زيارة لها لم تدم سوى خمسة أيام، ولذلك فأنا لا أزعم أنى عرفت الجزائر معرفة تسمح لى بالتحدث عنها حديث العارف بها، الواقف على خصائص أهلها، ومداخل ومخارج عاصمتها، فالأيام الخمسة التى قضيتها فى عاصمة هذه الدولة العظيمة، صرفت أكثرها فى داخل فندق الأوراس العظيم، دائرا مع أكثر من ألف زائر، جاء وا من أقصى المعمورة وأدناها، وشملوا الأبيض والأسود والأصفر والمسلم والمسيحى والبوذى، والشبان الذين تطفر من جوانبهم الحيوية والشيوخ الذين يسيرون متئدين. وقد قيدت الأيام أقدامهم، ونظمت الأعوام حركتهم، والمتطرفين الذين حاولوا فى بلادهم أن يقلبوا كل شىء، ويغيروا كل نظام والمحافظون الذين يؤمنون بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وأن التغيير الحقيقى الذى يريح الناس ويسعدهم، هو التغيير الذى يأتى مع الأيام، لاتحس بخطاه، ولا تدرك حقيقة مسعاه، وهو فى الواقع دائب لايكلف.

وقد كان بوسعى أن أقول لك أنى فتنت بالدنيا التى احتواها الفندق العظيم، بأدواره التسعة، وبما سمعته على ألسنة رواده، ونزلائه وما أكثر مادته، وأعظم تنوعه، وما أغنى تجارب الذين قالوه جادين ومازحين، راضين وغاضبين.

● الهلال - أبريل ١٩٨٣ .

ولو فعلت لكان حديثى عن فندق بالجزائر، لا الجزائر نفسها، أو عن أمة من البشر، لاذت بفندق، وراحت تدبر حياتها، وكأنها استقلت عن الدنيا، واكتفت بذاتها عن كل ما عداها، ولكنى أريد أن أحدثك عن الجزائر ذاتها..

والجزائر ذاتها عزيزة علىَّ، أثيرة عندى أحبها غاية الحب، بعد بلدى مصر، كما لم أحب قطرا ولا بلدا سواها، وأنى فى هذا الحب قد تأسيت بالبدوى الذى سئل عن أحب بنيه إليه فقال: الغائب، حتى يعود، والمريض حتى يشفى، والصغير حتى يكبر.. إلخ، وقد كانت الجزائر من بلدان المغرب، الغائب، والصغير والمريض والفقير، على جمال أرضها، ونفاسة موقعها، وجلال تاريخها، وعظم مواردها، وضخامة الدور الذى أدته فى الماضى وفى الحاضر الجارى وفى المستقبل المأمول.

افترس الإستعمار الفرنسى الجزائر سنة ١٨٣٠ قبل أن تسقط جميع الدول العربية تباعا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، فتونس سقطت فى براثن الاستعمار قبل سقوط مصر بعام واحد إذا ابتليت بالغزو البريطانى سنة ١٨٨٢، فى حين هجم الطليان على ليبيا، قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١١، وسقطت دولة المغرب سنة ١٩١٢، وقد كان لاحتلال فرنسا للجزائر قصة لاندرى أهى ملهاة تضحك، أم مأساة تبكى، ولكن الاحتلال الفرنسى وقع على أى حال.

ففى سنة ١٧٩٤ احتاجت فرنسا إلى القمح الجزائرى، فقبلت الجزائر أن تبيعها قدرا غير قليل من هذا القمح، ولم تقنع الجزائر بتقديم صفقة البيع، بل عززتها بمنح فرنسا تسهيلات مالية لتستطيع أن

تتم الشراء، فبلغ ما شغل ذمة فرنسا من ثمن القمح، ومن التسهيلات الممنوحة ما قدره ثمانية عشر مليونا، استمرت حكومة فرنسا تماطل وتسوف فى سدادها، وكانت تتذرع كل مرة بسبب، فمرة تزعم أن القمح الذى اشترته لم يكن كله سليما، وتارة تشكك فى صحة حساب الثمن، وحساب القرض، حتى انتهى الأمر إلى الهبوط بكل ذلك إلى أحد عشر مليونا من الفرنكات، فقبلت الجزائر أن تقبض مقابل حقوقها سبعة ملايين فرنك، ومع ذلك لم تدفع فرنسا شيئا مطلقا.

فلما كان اليوم التاسع عشر من إبريل سنة ١٨٢٧ استدعى «الداى حسين» وهو اللقب الذى كان يحمله رئيس الدولة الجزائرية قنصل فرنسا ثم سأله أن تدفع دولته الدين الذى يشغل ذمتها، فأجاب القنصل فى غطرسة وغلظة بأن دولته لن تكتب شيئا فى هذا الموضوع، فغضب الحاكم الجزائرى الأعلى وأمر القنصل بأن يبارح مجلسه، فأبى القنصل أن يطيع الأمر متحديا، فما كان من الداى إلا أن انهال ضربا على هذا القنصل الجلف غير المهذب، «بمنشة» كانت فى يده.. وفرحت فرنسا بهذه المناسبة، فقد كانت تتلمس أدنى ملابسة لغزو الجزائر، ولا يبعد أن يكن مسلك القنصل، متعمدا، ومقصودا.

واستمر مؤرخو الغرب، يدعون أن «الداى» أضاع استقلال بلاده، لأنه استسلم لنوبة غضب فى لحظة، ففرج عنه ضربه منشة، وهو تصور أبعد ما يكون عن الحقيقة.

ولكن «مترنيخ» وزير خارجية فرنسا، وبطل السياسة الخارجية الأوربية كلها فى ذلك الحين، قال أنه ليس معقولا أن تنفق فرنسا مائة مليون فرنك، وأن تعرض حياة أربعين ألفا من الجنود والضباط

الفرنسيين ثأرا لكرامتها القومية من أجل الإهانة التى لحقت بقنصلها يوم ضرب بمنشة، وقد قاوم الجزائريون الغزوة الفرنسية التى تمت فى عهد الملك الفرنسى شارل العاشر، الذى تولى العرش بعد سقوط الجمهورية، وعودة الملكية إلى فرنسا، ولم يعد هناك بعد ذلك سياسى واحد فى أوربا، لا يعلم بأن فرنسا قامت بهذه الغزوة، لأن شارل العاشر كان فى حاجة إلى عمل ضخم، يكسب عطف الفرنسيين، بعد أن بلغت الحالة السياسية والمالية فى فرنسا، فى عهد عودة الملكية أخطر دركات السوء، وأن العمل كله ليس سوى عمل استعمارى.

وقد كان مما زعمه القادة الفرنسيون أنهم بغزوهم للجزائر، أنقذوها من غزاة آخرين، وأن الغزو استوحى الروح المسيحية وأن المسيحية باركته، وختموا أكاذيبهم بأن الحضارة الحقة لن تدخل إلى الجزائر إلا على أيدى الغزاة الفرنسيين.

ولكن الشعب الجزائرى أدب هؤلاء الغزاة فقد انبرى لمقاومتهم وصدهم بقيادة القائد المغوار المظفر الموهوب، الأمير عبدالقادر الجزائرى فقد استمر يدافع عن أرض بلاده شبرا شبرا ضد هؤلاء البرابرة الذين ينسبون أنفسهم إلي المسيحية كذبا وبهتانا والحق بهم هزائم مدوية، كان دويها فى فرنسا، وفى أوربا كلها، عنيفا، فقد ثبت للعالم كله الفارق العظيم، بين الاستعماريين المسلحين بأحسن أسلحة ذلك الزمان، مع عدد لا ينفد من الميرة والذخيرة، فى حين كان المجاهدون الجزائريون قادمين من الصحراء على صهوات جيادهم، ولا سلاح عندهم إلا بنادقهم، وما يغنمونه من أسلحة الفرنسيين الغزاة.

ولما استطاع الفرنسيون أن يأسروا «عبدالقادر الجزائرى» بعد سنوات طويلة من القتال، أحسوا أنهم مدينون له بالتكريم والإعزاز، فقد

ترفع عن كل دنايا القتال، ومكائده، فلم يقتل شيخا، ولا طفلا، ولا امرأة، ولا لجأ إلى حرق القرى ولا تعذيب الأسرى، ولا نقض العهود، مع براعة فى المناورة، وشجاعة فى الهجوم، فنقلوه إلى فرنسا، ثم سمحوا له أن يختار منفاه، فاختار سوريا منفى له، وقد جاء المصورون الفرنسيون فرسموا لوحات رائعة للقائد الجزائرى الفذ، وأودعت إحدى هذه اللوحات فى متحف «اللوفر» بباريس، وقد بدا فى تلك اللوحة، وهو يمتطي صهوة جواده، كأنما هو نسر محلق فى السماء.

وليس هذا المدخل التاريخي، مجرد رواية لمقدمة الحياة السياسية الجزائرية فى القرنين الأخيرين من حياتها، بل إنها الخلفية «للحياة الجزائرية اليوم»، فقد طبعت هذه المآسى، الشعب الجزائرى، خلال المقاومة الباسلة عند وقوع الغزوة ثم عند اندلاع الثورة الجزائرية فى الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤، التى بهرت الدنيا، بمواقعها التى كانت ضروبا متصلة فى البطولات النادرة، التى تحدت الموت والبربرية الأوربية التى زعمت أنها أوربية. وحضارية ومسيحية.

فأنت فى كل مكان فى الجزائر لاتجد إلا شعبا جادا متجهما، يكاد لا يعرف الابتسام، دع عنك الضحك وهو يتحدث إليك فى اقتضاب، يجيب بأقل الألفاظ، بنعم أو لا، وهما مادة الحديث، أما الثرثرة، فلا يعرفها ولا يطيقها، والناس فى شوارع الجزائر، يسير أكثرهم فرادى، كل ماض فى سبيله، وإذا سار اثنان معا، فقد لا يدور بينهما حديث، وأن تبادلا الحديث ففى وقار وحرص.

لقد عرف الشعب الجزائرى من نكبات الاحتلال وويلاته، ما لم تتعهده أمة عربية أخرى، ذلك لأن الجزائر كانت ضحية الاستعمار

الفرنسى الأول فى الشرق العربى، وكان وقوعها فى الشاطىء المقابل لشاطىء فرنسا، مغريا لهذه الأخيرة، بأن تتشبث بها، وتنشب فيها أظفارها، وكان جمال طبيعة الجزائر المدنية، والجزائر الدولة، أمرا يخلب لب الفرنسى، فيعدها امتدادا لبلاده، فإن مناطق الجبال، فى الجزائر، هى امتداد لجبال الألب الخضراء الفاتنة، وقد تزرى بجمال المناطق المشابهة فى إيطاليا وفرنسا وسويسرا، وقد كان الغزو الفرنسى سياسيا ودينيا، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية، تؤيد هذا الفتح البربرى، وكان الجزائريون لا يوصفون بأنهم جزائريون فى البلاغات العسكرية، بل يسمون بالمسلمين، فكان ذلك باعثا للجزائريين إلى التمسك بإسلامهم، فى الظاهر والباطن، والإحساس بأنهم مقصودون بالذات، لأنهم مسلمون شديدو الإيمان لدينهم، مع وطنيتهم المتقدة، وعروبتهم الصلبة.

وقد تكهن عدد غير قليل من الساسة والقادة الفرنسيين أن الحرب ستبقى بينهم وبين الجزائريين وأنها ستكون حربا عوانا تكلفهم الأموال والأرواح، وتورطهم فى الجرائم والمغازى، وتلطخ سمعتهم، وقد تحقق هذا كله ويحذافيره، وفى مقدمة هؤلاء الساسة البارون لاكويه.

وقد كانت تمر فترات تبدو فيها الحرب قد بلغت نهايتها مثلا فى سنة ١٨٤٧ بعد انتهاء مقاومة الأمير عبدالقادر، ولكن ما لبثت أن قامت ثورات فى السنوات: ١٨٥٩ و١٨٦٤ و١٨٧١ بقيادة قبائل بنى سناشى وأولاد سيدى الشيخ.

والجزائريون عاشوا قرنين متصلين من الزمان، يقتلون بلا حساب وتحرق قراهم، وتهدم بيوتهم، ويعذب رجالهم وشبابهم، وتنهب

محاصيلهم، فلما كانت الثورة سنة ١٩٥٤، جن الاستعماريون جنونا، فلم يتركوا موبقة حتى قارفوها، ولا دنية إلا اقترفوها، فأصبح من حق الجزائريين أن يتركوا الابتسام والخفة لسواهم.

ومع ذلك فليس ثمة مدينة فى العالم العربى كمدينة الجزائر، تبهج النفس، باتساع شوارعها، وجمال ميادينها، ونظافتها وأناقتها، وخلوها من الضجيج والغبار والفوضى.

ولعل الأثر الباقى من الاستعمار الباغى، فى حياة الجزائرى، هو عجز الأجيال الكبيرة عن التخاطب باللغة العربية، فقد دبرت فرنسا، حملة ضارية، بلغت أقصى الشدة، لتنزع الجزائريين من أصولهم العربية، فحرمت عليهم التعلم بالعربية، وبالتالى التكلم بها، حتى أصبحت العربية غريبة فى مدن الجزائر وأن بقيت تعلم وتلقن مع القرآن الكريم فى القبائل والريف.

ولعل هذا الحاجز الصفيق الذى أقامه الاستعماريون بين الجزائريين والعرب، قد ضاعف من ضيقهم وترفعهم عن الاختلاط بالآخرين ولكن عودة الجزائر إلي العربية كانت عودة الحبيب إلي حبيبه، فقد أخذ هوارى بومدين على عاتقه تعريب الجزائر، فأصبحت العربية لغة التعليم فى جميع المدارس الإبتدائية والثانوية وبعض أجزاء الجامعة، وأصبح الجيل الجديد كله، يتكلم بطلاقة، وحرص على القواعد، حتى بات يشعرك أن تسمع عربية أطفال الجزائر، من بنين وبنات، كما حدث لى، فى حى القصبة المجيد، فقد انتهزت فرصة خروج التلاميذ والتلميذات من مدارسهم، ووقفت بينهم وسألتهم بالعربية فأجابونى بها، وسألت واحدة منهم: هل تحبين الممثلين المصريين، فقالت: «زى السكر» فلم

استطع أن أمنع نفسي من تحيتها بقولي: «بل أنت مثل السكر» باحمرت وجنتاها.

وترى آثار التعريب في بعض الأحوال، فلا تسمع مثلا لفظ «أوتوبيس» وإنما لفظ «الحافلة» هو اللفظ المستعمل، وجميع لافتات المحال العامة بالعربية البسيطة الواضحة، التي تكاد تكتب عربية مصرية.

وقد خصصت وقتا للجلوس أمام شاشة التليفزيون الجزائرى ووقتا آخر للإذاعة الجزائرية، فأرضياني معا، فالمذيعات الجزائريات شابات جميلات وقورات، ينطقن العربية الصحيحة، بمخارج ألفاظ مصرية، خالية من عجمة العامية الجزائرية، ويبدو من إلقائهن أنهن يثقفن أنفسهن، وكذلك كان وقع كلام المذيعات الجزائريات، ينطقن العربية باستقامة، ويعلقن بلا تردد ولا تعثر، يفسد على السامع فهم ما يقولون، وبلا ميوعة تنفر النفس، وتؤذى الذوق، وقد راعنى تعليق إحدى المذيعات على رسالة مستمعة قالت إنها تقيم بناحية «سيدى فروج» فقالت المذيعة: «يا أختى أنت تقيمين فى حى سيدى فرج، لا سيدى فروج، وسيدى فروج هذا، «نطق غربى» فتحاشيه إذا كتبت لى مرة أخرى.. وهذا حرص لاتجده عندنا فنحن نميل إلي تقديم الأفرنجى على العربى، حتى باتت أكثر شركاتنا وحتى مؤسساتنا العامة تعرف بعدد من الحروف الأجنبية، وأصبحنا ندخل على كلامنا أجزاء من كلمات أجنبية ككلمة «تريد» بمعنى التجارة «كومبانى» بمعنى الشركة، وغلب «البوتيك» و«الكافتيريا» و«البار» و«الريستوران» على «المحل» و«المطعم» و«الملهى»، وهذا مالا تراه فى الجزائر، التى يسمى الشارع فيها «نهجا» والشارع

الصغير «جادة» والأصغر «حارة» والتى تطلق أسماء شهدائها على شوارعها وميادينها فى حين أننا فى القاهرة فوضى فى إطلاق الأسماء بحيث، حرم أكثر أبطالنا مثل «عمر مكرم» بطل الوطنية المصرية الأول، و«محمد عبده» بطل الثورة العرابية، و«عبدالرحمن فهمى» بطل ثورة ١٩١٩ و«لطيف باشا سليم» قائد أول ثورة عسكرية فى مصر من التكريم.

ومما يلاحظ فى شوارع الجزائر أنك تجد المرأة الجزائرية المتحجبة، التى تلبس «البرقع»، وتغطى رأسها بغطاء أصفر فاتح مخروطى، تملأ الشارع، وتسير بنشاط، وهمة، وبلا تعثر، فقناع المرأة الجزائرية الشابة، لم يمنعها أولا من الخروج وممارسة أعمالها خارج المنزل ولم يقيد خطوتها، ولم يزد فى وزنها، فالنساء المتحجبات جميعا خفيفات الحركة ليس فيهن واحدة ثقيلة الوزن، أو مترهلة.

وفى الجزائر نحو ثلاثة آلاف مصرى، يعملون فى مختلف نواحى العمل، وعلاقتهم بالحكومة الجزائرية، حسنة، وبالشعب الجزائرى وثيقة إلى أقصى الغاية.

حكاية
تطوير الأزهر

فى سنة ١٩٦١ ميلادية، طرأ على الازهر تغيير، لم يطرأ شيء من قبيله على هذا المسجد العتيق والعريق، منذ انشيء قبل اكثر من ألف سنة، وذلك بالقانون رقم ١٠٦، وقد كان لصدور هذا القانون،صدى بعيد، فقد خيل الكثيرين من علماء المسلمين فى مصر، وخارجها فى العالم الإسلامى، ان الازهر بهذا القانون، خرج من اهابه، وفقد طابعه الذى عرف به، وولد معه، بل تخلى عن رسالته التى انشيء من أجلها، وغايته التى أسس ليسعى اليها، ويعمل لها.

وقد تواصى علماء الإسلام الذين سمعوا بنبأ هذا القانون وعرفوا مداه، وأدركوا مرماه، دون ان يضمهم مكان أو يدعوهم داع، على ان يبذلوا أقصى الجهد لينسخوه، ويحرروا الأزهر الشريف من ربقته.

فماذا يكون هذا القانون، وما هى الظروف التى لابست مولده، والبواعث التى أوحت بتنفيذه ونشره على الناس، والعمل به سنوات استمرت حتى اليوم، وإن كانت قد عدلت أحكامه قليلا.

ولكن يبدو لى انه ينبغى علينا قبل أن نتحدث عن هذا القانون، أن نسلم بشيء من المشكلة الكبرى التى يمثلها الازهر الشريف فى حياة المصريين الذين يعتزون بوجوده على أرضهم ، فى عاصمة وطنهم،

● الهلال - فبراير ١٩٨٣ .

وبالعلم الذى أذاعه قرنا بعد قرن، وبالعلماء الذين طرحهم جيلا بعد جيل، وبالدور الذى أداه عهدا فى اثر عهد، وبالجهاد الذى خاض معا معه، فى محنة وراء محنة.

فلم يكن الازهر عند المصريين، وعند المسلمين بعامة، جامعة، يؤمه المصلون وتؤدى فيه شعائر الدين، ولا هو جامعة علم، تلقن الطلاب، وملتمسى المعرفة، حقائق العقيدة، وأصول الشريعة الحنيفة، وفروعها، ولا هو ندوة يتداعى إليها أهل القاهرة، فيناقشون أمور دينهم ودنياهم للتشاور الهادىء، فى حالات الدعة والرخاء، وللبحث عن مخرج من الازمة، فى أيام الضائقات والأحداث المدلهمات.

بل انه كل هذا مجتمعا، وفوق هذا هو تراث ، آل إلى الجيل الحاضر، يفخر به، ويعتز ويباهى ، ويخشى عليه الزوال، ويألم أشد الألم حينما يسمع ان الازهر، لم يعد قادراً على ان يؤدى شيئا مما نجح فى أدائه فى السنين الخوالى، وانه صورة بلا روح، وانه ذكرى لماض، يتلكأ فى طريق الحاضر، والمستقبل.

وليس فى وسع أحد أن ينكر أمرين جد متناقضين: أولهما ان السنوات المائة الاخيرة، كانت سنوات تنديد، بما آل اليه رجال التعليم والتعلم فى الازهر وعجزه عن أن يستبقى ضمن تلاميذه وطلابه، الافذاذ من أبناء الامة، الذين يتوقون الى أن يفرغوا من مرحلة التلقى والتحصيل، ليخرجوا الى خضم الحياة، يعملون وينتجون إلى حياة الناس الجديد من الافكار، والمستحدث من الوسائل ، وينقضون السيىء والفاسد من الانظمة، والتقاليد، ويجدون فى سبيل العيش والحكم، والبحث والدرس.

ضاق به، بل فر منه، على مبارك ومحمد عبده، وسخر منه طه حسين فأطال السخرية، وألم به آخرون إلمامة قصيرة، فلبسوا زيه، وحملوا لقبه، ولحقتهم فترة من الزمن سمات شيوخه وطلابه، فى المشية والقعدة، واسلوب التفكير، والمسلك وان لم يحصلوا من علمه إلا أقل القليل، ومن أولئك أحمد حسن الزيات الكاتب، وابراهيم الهلباوى المحامى، بل وأحمد عرابى الثائر وسعد زغلول الزعيم، ومئات بل ألوف من المحامين وكبار الموظفين المدنيين غير الازهريين ، ورجال القضاء والادارة .

أما الأمر الثانى، الذى هو على نقيض الاول، أن المصريين لم يكفوا عن الاعتراف بفضل الازهر على مصر الحديثة - التى تعارف المؤرخون على القول ببدء حياتها منذ حلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على أرض مصر فى يولية سنة ١٧٩٨، بعد أن غادرت ميناء طولون فى مايو من السنة نفسها.. فقد كان الازهر «المشتل» الذى تنقل منه الأشجار الواعدة بالنمو والازدهار والتفتح الى أرض أكثر خصوبة، وأغزر ماء، وأوفر هواء، وأعظم حظا من الرعاية فأكبر الاسماء فى تاريخ مصر الحديثة، هى اسماء رجال بدأوا حياتهم فى الازهر، واتموا تعليمهم فيه، ثم بعث بهم إلى اوروبا، أو لحقوا بالمعاهد العليا الحديثة التى تعلم القانون أو الادارة أو التربية، فنجحوا وتفوقوا ووصلوا إلى مكانة القادة والمصلحين وفى مقدمة، هؤلاء رواد الثقافة والفكر فى مصر: رفاعة الطهطاوى، وعلى مبارك، وعبدالله فكرى، وابراهيم اللقانى وصالح مجدى، وحفنى ناصف.

فقد كان مبعث الألم الشديد عند رجال التعليم والثقافة وأهل الحكم والسياسة، أنهم كانوا يعلمون أن الازهر، منذ ولد سنة ٣٥٩ من

الهجرة أى سنة ٩٧٠ من الميلاد في الفضاء الواقع شمال اول عاصمة اسلامية وهى عاصمة الفسطاط التى بناها المسلمون بعد ان فتح الله عليهم مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢١ هجرية الموافقة لسنة ٦٤١ ميلادية، وهو يؤدى خدمات جليلة للعلم والثقافة العامة، الدينية، والثقافية ثم بعد ذلك أصبح مركز اللقاءات علمية وأدبية، حتى اصبح لمدى عصور ندوة فكرية أدبية جامعة، وفيها كانت توجه حركة التفكير والاداب في مصر الاسلامية، على غرار مسجد مدينة الفسطاط، الذى كان يعرف باسم جامع عمرو حينا، والمسجد الجامع حينا آخر، والجامع العتيق حينا ثالثا، وأخيراً مسجد أهل الراية.

وكانوا ينظرون الى المسجد الازهر، فإذا هو في مكانه حيث أقيم ـ او حيث اقامه القائد جوهر الصقلى، قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وسط مدينة القاهرة، التى كان نواتها قصر الخليفة الكبير، وقصره الصغير، والساحة الفسيحة التى كانت تقع بينهما وتسمى بميدان بين القصرين.

وأن الجامع الذى آل الينا، بدأ في مساحة صغيرة نسبيا، ولكن الخلفاء الفاطميين وسعوا فيه، وجملوه من الداخل، واضافوا الى أبنيته الاصلية، وكان أول من جدد فيه الخليفة العزيز بالله «سنة ٣٧٨ هـ ـ ٩٨٨م»، ثم جرى على سنة التجديد هذه الحاكم بأمر الله «سنة ٤٠٠ هـ ـ ١٠١٠م» ثم حبس عليه اوقافا، ثم تبعه الخليفة المنتصر بالله ثم الخليفة الحافظ لدين الله، وبعد سقوط دولة الفاطميين التى استمرت قرنين، وجاء الملك الظاهر بيبرس فقام نائبه عز الدين ايدمر الحلبى بعمارة جديدة في الازهر، زادته رواء، وكأن القدر أراد ان يمتحن حب

المصريين للازهر فازاله من الوجود بزلزال عظيم سنة ٧٠٢ هـ «١٣٠٢ م». فقام الامراء المماليك باعادة بنائه ثم بنى السلطان الاشرف «سنة ٨٨١ هـ - ١٤٧٦ ميلادية» المنارة الجميلة الواقعة بالناحية الغربية.. المنارة التى لا تزال فى مكانها والى جوارها المنارة ذات الرأسين التى أقامها السلطان الغورى سنة «٩١٥ هـ - ١٥٠٩م»، ولم ينقطع الولاة والامراء فى العهد التركى عن التجديد فى مبانى الازهر، وأروقته، وفى زيادة الاوقاف المحبوسة عليه، على أن أعظم ما تم فى الازهر فى هذا العهد من عمارة كان على يد الامير عبدالرحمن كتخدا فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق الثامن عشر الميلادى، وقد اضاف هذا الامير الى منائر الازهر منارتين لا تزالان تزينانه واحدة فى الناحية الشرقية القبلية والثانية فى الناحية الشرقية.

ومؤدى هذا كله أن الازهر انفرد من بين جوامع القاهرة التى بنيت على مر العصور والحقب، كمساجد كانت آية فى بهاء العمارة وجمالها ورواء الهندسة واتقانها ، بعناية الامراء والسلاطين، بعضها يتناول بناءه، ومقاصره، وابهاءه وبواكيه ، وبعضها ينصب على الاوقاف المكتوبة له ولتلاميذه وأرزاق اساتذته وعلمائه، والبعض الثالث، يتجه الى العناية بجانبه العلمى، فينشىء فيه الزوايا، لتدريس مذاهب الشريعة المختلفة، ويعين لكل مذاهب علماء يشرحونه، ويعلمونه للناس، ويتعهدون التلاميذ حتى يخلفوهم فى حلقات الدرس. ومن ثم فقد اصبحت العناية بهذا الجامع العظيم، تقليدا يتوارثه الاجيال، ويحس كل جيل اتيح له أن يزيد فى مساحة الازهر، أو يرمم ما تداعى من بنائه، أو يحمل فى الابنية باضافة نقوش الى النقوش، بأنهم أدوا -

بهذه الزيادة أو العناية - واجبا وطنيا، فالازهر عنوان مصر، ووثيقة مجد جدير بأن يصان، ولا تعدو عليه الازمان..

ثم أقفرت الحياة فى مصر، فى ظل ألوان من الحاكم الطاغى الجاهل المستبد الغاشم، فأغلقت فيها دور العلم، وكسدت سوق العلماء والشيوخ، وسادت الامية، ولم يبق الا الازهر ، هو المعهد الكبير الذى يتعلم فيه الابناء، ويعلم فيه الاباء ، حتى جاء عهد محمد على ودبت حياة جديدة فى مصر، ونشأت دولة تحسنت فى ظلها الاحوال، واصبح لمصر جيش يحسب حسابه، واسطول يجوب البحرين الابيض والاحمر، فيلقى الرعب فى قلوب امراء أوروبا، واقيالها، واحتاج الجيش والاسطول والمصانع التى اسسها الوالى الجديد، الى المهندسين والاطباء، والمترجمين والمدرسين والعلماء ، فلم يجد الوالى امامه معينا يأخذ منه هؤلاء، ويعدهم للمهن الجديدة ، ويحضرهم للعلم الحديث، الا الازهر ، فاصبح الازهر حصن الحضارة الجديدة فى مصر، ومنح الحياة التى تدفقت دماؤها فى عروق أبناء البلاد، ثم ارتبط الازهر باسماء عدد من أكبر رجالات مصر، فتجدد فيه الامل، ووقف المصريون ساسة وحكاما، ومصلحين ودعاة، حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، أيدعونه فى مكانه حيث هو يرمم ويعالج بناؤه لكيلا يسقط وينهار ويذهب، ويحاولون اصلاح التعليم فيه، لكى لا يتحول إلى مسجد للعبادة فقط، فتنقطع صلة مصر بهذا المسجد العظيم، فيقبلون باصلاح التعليم الذى بقى فى الازهر، لا هو يتصل بالحياة الجديدة، فيؤثر فيها، ويتأثر بها، ويتجدد معها، ويجدد لها، ولا هو متصل بالعلم العظيم الذى أخرجته للناس مساجد المسلمين فى عواصم الاسلام المنبثة فى دنيا

المسلمين من أقصى الشرق عند سور الصين الى أقصى الغرب عند أمواج بحر الظلمات، المحيط الاطلسي، انما هو ثمالة في قاع كأس التاريخ الاسلامي، لا تسمن ولا تغني من جوع، أصبحت زادا لمجموعة من أصغر الموظفين شأنا، وأقلهم عند الناس احتراما، وأعجزهم عن الكفاح في الحياة، مدرسو اللغة العربية التي تضاءل شأنها، لان كتبها خلت من شيء من العلم الذي ينتفع به الناس في كل مكان في حياتهم، وانشاء مصانعهم، وبناء حصونهم، ومكافحة أمراضهم، وتحصين أجسادهم، ومأذوني شرع يعقدون عقود الزواج والطلاق، ومعاونين لموظفي الحكومة، في دواوين مهجورة احتلت أبنية منهارة تكاد تنقض انقضاضا كتبة لايقوون على كتابة خطاب، أو تحرير مقال أو نظم قصيدة.

وحارت الحكومة الجديدة في هذا الازهر العزيز الغالي، الذي أصبح يشبه ثوبا قديما امتلأ بالرقع حتى أصبح لا يستر جسدا، ولا يخفي عورة، ولا سبيل الى التخلص منه، لانه موروث من الأجداد، ولأن القماش الذي صنع منه غال بحيث لا يقدر بمال.

ثم حدثت مضاعفة، فقد تحررت الدول الافريقية والاسيوية، والكثير من تلك الدول اسلامية تعض على دينها بالنواجذ وقد كان الاستعمار يحول بين أبنائها وبين مصر زعيمة الاسلام، وبين اللحاق بالازهر وطلب العلم فيه، لان الاستعمار أخذ على عاتقه، تمزيق أوصال الامة الاسلامية، وإغراء اجيالها الجديدة على طلب العلم الحديث بلغات الدول الاستعمارية : انجليزية وفرنسية وهولندية واسبانية، والتهوين من شأن لغة المسلمين العربية، ومن علم المسلمين الموروث، فلما باد الاستعمار،

وهلك سلطانه ، وتهاوت السدود التى أقامها بين مستعمراته ومصر، جاء عدد غير قليل من أبناء تلك المستعمرات ، وطرقوا أبواب الازهر طلبا للعلم واطمئنانا إلى انه يعلم العلم السليم، الخالى من أفات الشرك، وسموم الكفر، فلما جلسوا فى مقاعد الفصول الازهرية، وقرأوا كتبه، هالهم انه علم منقطع تماما عن الحياة التى تموج وتفور، بآراء جديدة، وتطلعات الى دنيا تقوم على صناعة ضخمة، وبحث فى جوانب الكون بعلوم اسمها الطبيعة والكيمياء والرياضيات والفلك وعلم الحيوان وعلم النبات، وهذه الدنيا لا يسمع عنها الازهر، ولا يحاول ان يقترب منها، فأصابهم يأس شديد، وودوا لو عادوا الى بلادهم أو دخلوا الى إحدى جامعات مصر، التى لا تستطيع أن تستقبلهم، لانهم لم يعدوا للتعليم الجامعى.

هنا، اشتد ألم القائمين بالأمر فى مصر، وخيل إليهم أن الواجب يقضى عليهم بألا يقفو مكتوفى الأيدى أمام هذه المشكلة، ولما كانوا ثوارا فقد قالوا، إننا لحسن الحظ، نعيش ثورة، والمشكلة الازهرية لا تحلها إلا ثورة والثورة التى يحتاج اليها هذا المعهد العتيق، ان نفتح أبوابه أمام العلم الحديث، ولكن بحيث لا ينقطع علماؤه وشيوخه ، ولا طلابه وتلاميذه عن الازهر القديم، فيبقون تحت قبته. وفى ظلال منارته ، فكيف يتم الجمع بين النقيضين بحيث نجمع، فى الحلال بين رأسين تباعدا: رأس الدين وكعبته التى لم تجدد وبين العالم المتطور، بل التى انقطعت صلتها بانحاء العالم الاسلامى القديم التى خلقت الحضارة الحديثة والعلوم الكونية لتطبيقه.

وبضربة واحدة أصدرت حكومة الثورة فى سنة ١٩٦١ القانون رقم ١٠٦، وهو يقضى بأنشاء كليات حديثة للطب والعلوم، والتجارة

والهندسة، الى جانب كلياته القديمة، اللغة العربية، وأصول الدين والشريعة.. فمن كان من ابناء العالم الإسلامى راغبا فى طلب العلم الإسلامى القديم من فقه وأصول وتفسير وحديث فعليه باحدى الكليات القديمة فسيجد هناك ضالته اما من كان راغبا فى ان يكون مهندسا وعالما بطبقات الارض، وأجواء السماء وعالم البحار، وخصائص المادة وفنون المال والتجارة، وقوانين الدول والافراد ، فانه سيجد ما يسعى اليه فى الكليات الحديثة، ولكيلا يفقد بركة الازهر ولا يخيب آمال اهله الذين يريدون لإبنهم ان يطلب علم الازهر فسيلقن شيئا عن الدين فى سنة واحدة يلم خلالها بمصطلحات العلوم الاسلامية، وملخصات لموادها الاصلية، وكان آنذاك فى مصر مجلس تشريعى بمجلس الامة، وكان مجلسا فريدا لانه مجلس اتحادى ، يضم ممثلين عن مصر، وآخرين عن سوريا، حينما تمت بين الدولتين وحدة، ذابت فيها الدولتان، وخلقت منهما دولة واحدة هى «الجمهورية العربية المتحدة».

وكان من النواب السوريين عدد غير قليل ممن طلبوا العلم فى أزهر مصر،أو فى معاهد تشبهه فى سوريا، فلما عرض مشروع القانون عليهم، خيل إليهم ان الازهر سيمحى من الوجود، وان الأمر ، لا يعدو أن يكون مؤامرة على الاسلام نفسه، وانهم مطالبون بأن يدفعوا شر هذا القانون بأرواحهم ويبذلوا فى سبيل ذلك دماءهم.

وكانت الجلسة التى خصصت لمناقشة مشروع ذلك القانون هى آخر جلسات دورة المجلس السنوية يقوم بعدها أعضاؤه باجازة طويلة لا تنتهى الا بانتهاء الصيف ومعنى ذلك أن المناقشة فى المشروع يجب أن تنتهى فى الليلة التى عرض عليهم فيها، فانفجر

غضبهم، وأخرجهم الغضب من الاتئاد والصبر فعلا صوتهم، واشتد هرجهم ومرجهم، وارتقى بعضهم المناضد التى كانت فى قاعة الاجتماع ولوحوا بأيديهم، وانضم اليهم بعض نواب مصر ، ممن لم يقل غضبهم عن غضب إخوانهم السوريين ، وكلما تصوروا أن الازهر سيكون كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس، فلم يبق غرابا، ولم يصبح طاووسا، وان عليهم أن يستودعوا الازهر فى رحمة الله، وان ينفضوا يدهم منه، اشتد الغضب، وزاد الهرج، وخيل الى الحكومة أنها على أبواب فتنة لا يعلم الا الله مداها، فتنادى رئيس المجلس، فأقبل زعماء الدولة سراعا، تبدو على وجوههم سمات الجد وانشغال البال، والتوجس واحتلوا منصة القاعة، ثم صاح صائح منهم: لا تنسوا انكم تعيشون فى ظل ثورة واعلموا ان من كان خصما لهذا القانون - قانون تطوير الازهر، فهو خصم الثورة، ومن خاصم الثورة داسته وبالأقدام.

وكان الخطاب موجها لنواب الشعبين المصرى والسورى الذين شكلوا مجلس الامة الاتحادى، ولكنهم لم يعوا التهديد الذى وجه اليهم، فقد تملكتهم ثورة السمع والرؤية، فكان لابد من اعادة الصيحة، للمرة بعد المرة، وكان النواب قد استنفدوا طاقة الغضب، ثم فهموا ما كان يردده الصوت العالى، واستقر معناه فى الاذهان فثابوا الى رشدهم، ثم عادوا الى هدوئهم، وكفوا عن ضجيجهم، ومر القانون بلا مناقشة: الى المواد التى زادت على المائة وقاربت المائتين، مجرد تلاوة بلا تعليق ولا مناقشة فلما تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل، وزادت على الواحدة، شعر النواب بالتعب والملل، فاقتصرت قراءة المواد على تلاوة أرقامها.

ثم دخل القانون في دور التنفيذ والتطبيق، فبدت عوراته، وكانت بادية من اللحظة الاولى، اذ أصبح الازهر، في ذيل الجامعات، لا يطرق باب كلياته الجديدة الا من سدت في وجهه أبواب الكليات جميعا حتى ما كان منها في صعيد مصر، وخارجها ، ولا ينقل الى هذه الكليات من الاساتذة ومساعديهم، والمدرسين ومعاونيهم الا من ضاقت بهم، الجامعات الاخرى جميعا، والسنة التحضيرية التى فرضت على طلاب السنة الاولى ، كانت عبئا على هؤلاء الطلاب لا يطاق لأنهم عدوها زمنا ضائعا عليهم لأنها لا تعلم الدين، ولا تحببهم فيه، ولا تهيئهم للدراسة التطبيقية والعلمية التى أعدوا أنفسهم لها. والطلاب الافريقيون والاسيويون الذين لحقوا بالكليات الحديثة كان عددهم ضئيلا لا يستأهل كل هذا العناء.

وأسفرت التجربة عن الأمور الآتية:

أولا - يجب أن يكون الطبيب الازهرى، والمهندس الازهرى، والمحاسب والمحامى الازهريان، أزهريين بحق، أى أن يبدأوا حياتهم التعليمية منذ البداية فى الازهر.

أى أن يطلبوا العلم الابتدائى والثانوى فى معاهد الازهر، فتقوم ألسنتهم بلغة القرآن، وتثقف عقولهم بثقافة الدين، فإذا خرجوا الى الحياة العملية، كانوا طرازا جديدا منسوبا الى الازهر بحق، وممثلا للدين تمثيلا صحيحا لا زائفا..

ثانيا: - لكى يستطيع الطالب الازهرى أن يجمع بين الثقافة العربية والعلم التطبيقى الحديث، يجب أن يتلقى فى الدراسة الابتدائية والثانوية نفس ما يتلقاه الطالب العادى فى المرحلتين.

ولما كان الجمع بين تعلم المواد الدينية والحديثة مستحيلا فى سنى الدراسة الابتدائية والثانوية الاربع أو الخمس وجب اطالة سنى هاتين المرحلتين الى ست.

ثالثا: ـ يجب أن تنقسم الدراسة فى المعاهد الازهرية الثانوية الى قسمين علمى وأدبى. كما هو الحال فى المدارس الثانوية العادية. وأن يعتنى بتعليم اللغات فى المعاهد الثانوية الازهرية.

ورابعا: ـ يسمح لحاملى شهادة الثانوية العامة الازهرية أن يلحقوا بالكليات الحديثة فى الجامعات الأخرى.. ويعين من خريجى هذه الكليات معيدون ومدرسون ممن حصلوا على الثانوية الازهرية على الوجه المبين.

خامسا : ـ تلحق الكليات الحديثة التابعة للازهر الى إحدى الجامعات ويقف العمل فى الكليات الازهرية الحديثة حتى يتم تخريج عدد كاف من الحاصلين على المؤهلات الحديثة من الكليات الحديثة، فتقوم على أكتافهم كليات الازهر فى العلوم الكونية، ويكونون أزهريين حقا، وينتخب منهم الدعاة للاسلام فى العالم كله، فيستضيئون فى الدعوة بعلم الدين والدنيا.

ولما كان العبء الذى سيلقى على أكتاف هؤلاء الطلاب ثقيلا، فالواجب يقتضينا أن نختار من البداية هؤلاء الطلاب، ونلاحظ فى اختيارهم النجباء والافذاذ، ولا بأس من أن تمنح لهم إعانات تهيىء لهم سبل العيش لانهم يعدون لرسالة، ولا يعدون للحصول على شهادة.

ثقافة للبيع

جاء فى الانباء أن مناقشة طويلة دارت فى المجلس التشريعي الفرنسى حول بيع إحدى القنوات فى التليفزيون الفرنسى لاحدى كبريات الشركات

وكان فريقا المتناظرين فى المجالس يترافعان عن وجهتى نظر متباينتين.

الاولى ترى أن القناة المراد بيعها يجب أن تبقى حكومية لأن هذا صمان لها بالوقار والاستقرار والازدهار.

فى حين يقول الآخرون بل تباع فان القطاع الخاص أكثر حيوية وأشد حيدة وأحرص على إمتاع المشاهد ونفعه، وانتهت المناظرة بغلبة القطاع الخاص فقد قرر مجلس الأمة الفرنسى بيع القناة الى شركة بويك وهى ليست شركة بويك للسيارات. بل شركة فرنسية بحتة تقوم بتشييد العمائر وتتخصص فى أعمال البناء فى حين أن الشركة المنافسة كانت شركة نشر وطباعة وعلى الرغم من أن هذه الشركة أقرب الى موضوع الاذاعة المسموعة والمرئية، فان العطاء رسا على شركة بناء لا تمت الى الثقافة والاذاعة لا من قريب ولا من بعيد.

وهذا كله يكون واقعة حال شديدة الارادة تتصل اتصالا صحيحا بالثقافة وهى تدعونا الى طرح السؤال التالى وهو سؤال قديم خلاصته

● الهلال - مايو ١٩٨٧ .

أى الجهتين أكثر احتفالا بالثقافة وأقدر علي توفيرأسباب النجاح والتقدم لها. أهو القطاع العام أم القطاع الخاص ولقد ثار نقاش من هذا الطراز فى مصر فبعض كبار الكتاب ذهبوا الى أن سوق الثقافة بارت وعالمها كسد حينما انشئت فى مصر وزارة للثقافة وحينما خصصت الثقافة والهيمنة الحكومية:

فقد أفل نجم الأدباء والشعراء ، وقل ظهور المواهب الجديدة، وانصرفت الجماهير عن الكتب واقفلت المجلات الادبية أبوابها، وقل عدد رواد الجمعيات الادبية والندوات الثقافية.

لقد راجعت تراجم بعض العباقرة فأين الحقيقة فى كل هذا؟

الموسيقى فى أوائل القرن الثامن عشر ، فرأيت كيف أن هذه الشخصيات الفذة الموهوبة، قد لقيت فى البيت الذى نشأت فيه ومن الأهل الذين ينسبون إليهم القهر وسوء المعاملة.

وكيف عوضهم الله عن هذا الحظ السيء برعاية بعض الامراء والملوك، هيأوا لهم سبل الدرس واتقان الفن والتقدم الذى أينعت معه مواهبهم وصقلت صفاتهم وقدراتهم. فكأن الثقافة كانت مدينة لذوى السلطة الرسمية التى تقوم مقام القطاع العام الآن.

كان هايدن استاذ (بتهوفن) ابنا لنجار، وكان النجار محبا للموسيقى وكانت زوجته حسنة الصوت، فورث الطفل عن أبويه حبه لهذا الفن الرفيع ولكن والده أصيب بعسر مالى اضطر الأسرة كلها الى التجوال فى البلاد بحثا عن الرزق، حتى زاره ابن عمه وكان ناظرا لمدرسة ابتدائية فلما شاهد الطفل (جوزيف) ترسم فيه النبوغ، فطلب من أبيه أن يسمح له باصطحابه ولما كان الوالد قد رزق بعشرين طفلا فقد رحب بهذا الطلب ليتخفف من نفقات أحد أبنائه.

ولكن هذا العم كان قاسيا، حتى كان نصيبه من العصا أكثر من نصيبه من الطعام، ولكن مواهبه الموسيقية رغم تعاسة عيشه وما يعانيه من قسوة عمه، واصل تقدمه في الموسيقى عزفا وتلحينا حتى دفعه وهو في الثالثة عشرة من عمره الى تلحين أولى أوبريتاته المسماة الشيطان الأجدب التي ما كادت تمثل حتى أقبل مديرو المسرح يظهرون له أعظم الاعجاب وترامى صيته حتى سمع به الأمير باول استرهانزى وكان أحد أبرز أمراء النمسا وكان شديد الاعزاز لهذا الفن فضلا عن اتقانه العزف على الكمان فاستدعى اليه هايدن عام ١٧٥١ وجعله رئيسا لغرفة الموسيقى في قصره وقد أجرى على هايدن رزقا استمر يتقاضاه من أولاد هذا الأمير ومن أحفاده.

وتجاوزت شهرة هايدن بلاده ووصلت إلى أوروبا فدعي الى بريطانيا حيث أقام نحو عشرين حفلة، والف اثنتى عشرة سيمفونية، وهى التى تسمى بالسيمفونيات الانجليزية ، وكان الاشراف يحيطونه أينما ذهب بالرعاية والاجلال وارسلوا اليه أبناءهم ليتدربوا على يديه، مما اتاح فراغا يجود فيه فنه حتى نظم النشيد الوطنى الالمانى في ١٢ من فبراير سنة ١٧٩٧ المعروف بـ (المانيا فوق الجميع) وقد وقع في عيد ميلاد القيصر في تلك السنة في جميع مسارح النمسا وفي ربيع سنة ١٨٠٨ اقيمت حفلة في مبنى جامعة فيينا دعى إليها الأمراء والوزراء وأعيان المدينة وقد وضع مقعده.. بين هؤلاء القوم، وكانوا طوال الوقت يحتفون به، وقد توج هذا المجد كله باطلاق لقب «أبو الموسيقى الحديثة»، ولم يلفظ أنفاسه الا في ١٦ من مايو سنة ١٨٠٩ حتى كان قد وصل الى غاية الشهرة وذيوع الصيت واحترام الشعب والخاصة وقد عبر عن ذلك كله باقامة أول تمثال له بفيينا.

● موتسارت.. المعجزة

أما موتسارت الذى يعرف بالطفل المعجزة فقد ظهرت مخائل نبوغه وهو بعد صبى صغير وقبل أن يصل الى الخامسة عشرة من عمره حتى أطلق عليه لقب (أما دوس) يعنى المحبوب ويقول مؤرخوه مع ذلك. موتسارت هذا ظل طوال حياته فى ضيق من العيش لا ينفعه رائع فنه ولا عظمة انتاجه، وكان لا يجد قوت يومه الا بشق النفس فكان يقول الموسيقى من لا خير فيه.

وقلوا أيضا موتسارت هذا مات فقيرا محروما.. حتى من تشييع جنازته فلم يصحب جثمانه إلى مقره الاخير غير خمسة من خاصة أصدقائه وحتى هؤلاء حال بينهم وبين ملاحقة جثمانه بعد الطريق فاضطروا للعودة تاركين الجثة لسائق العربة.

وقد ولد فى ٢٧ يناير سنة ١٧٥٦ ولم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى حاول أن يوقع ألحانا على آلة البيانو محاكيا شقيقه فلما بلغ الخامسة وقع على تلك الآلة بضعة ألحان من تأليفه وفى السادسة وقع ألحانا أخرى على الكمان وقد أراد أبوه - والطفل فى هذه السن المبكرة - أن يشهد العالم بنبوغ ولده فسافر معه الى ميونيخ ومنها الى فيينا وما كادا يصلان اليها حتى استدعته الاسرة المالكة فاستحوذ الطفل على حب القيصرة وأغدقت عليه الهدايا وقد شجع هذا النجاح الوالد على أن يجوب بابنه كثيرا من المدن الالمانية ثم رحل الى باريس ولندن فلحن موتسارت وهو فى الثامنة لملكة انجلترا عدة مقطوعات للبيانو المنفرد وللكمان المنفرد كما الف فى لندن أول سيمفونية للفرقة الكاملة وهو اعجاز بشرى لم يظفر به سوى

موتسارت. وبعد أن طاف بهولندا وسويسرا عاد الى وطنه سالسبورج عام ١٧٦٦ وفى سنة ١٧٦٧ لحن موتسارت الصغير بأمر قيصر النمسا جوزيف الثانى أول أوبرا له غير أنها لم تظهر على المسرح لصعوبة ألحانها.

وفى سنة ١٧٨٥ طلب منه قيصر النمسا تلحين اوبرا زواج فيجارو وفى سنة ١٧٨٦ زار النمسا شاب صغير من بلاد الراين كان يشتغل بدراسة الموسيقى فقصد الى موتسارت لشهرته، فطلب من موتسارت ان يؤلف لحنا موضوعا اختاره له موتسارت فلما فرغ من تلحينه وأدائه قال موتسارت عليكم أن تهتموا بهذا الشاب فسيكون حديث العالم، ولم يكن هذا الشاب سوى (بيتهوفن) أعظم الموسيقيين طرا.. فماذا كان يعزف بيتهوفن؟.

ولد بيتوفهن فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ بمنز متواضع فى مدينة بون وكانت عائلته كالعادة رقيقة الحال كان ربها موسيقيا حسن الاستعداد وإنما كان لفقره مدمنا للخمر كى ينسى متاعب حياته ولكنه استطاع مع هذا الادمان أن يلحظ بواكير عظمة بيتهوفن الفنية، فبدأ يلقنه أول درس في آلة البيانو، ولما ضاقت به سبل العيش لم ير متنفسا لضيقه إلا أن يصبح ابنه موسيقيا يدر على أسرته اخلاف الرزق قبل الأوان فأخذه بالشدة وقسا عليه قسوة بثت فى نفس الطفل المحزن فاكتئب ومال الى الصمت وأثر العزلة. وألزم ابنه بموالاة التدريب على آلة البيانو بالسوط والعصا، وعلى الرغم من أن هذا العنف كان جديرا بانه يقهر الموهبة فى نفس الطفل إلا أنها كانت أكبر من أن تقتل فنضجت حتى تفوق الطفل على ابيه

فلم يبلغ التاسعة حتى كان نابغة عهده فى العزف والتأليف الموسيقى.

● عبقرية مبكرة

ولما كان أهل بون يعرفون الطفل ونبوغه فقد كان سهلا يلحقه أمير (بون) بفرقة بلاط الأمير، ولما بهرت الأمير موهبة الطفل بعث به الى فيينا عاصمة الموسيقى والموسيقيين.. وكان يقيم فيها آنذاك (هايدن) وموتسارت وكان أول من قصده بيتهوفن فى فيينا هو (موتسارت) الذى لم يجد أدنى صعوبة فى تبين هذه العبقرية المبكرة.

وكانت والدة بيتهوفن قد مرضت ، فترك الدرس والعزف ولازم فراشها حتى ماتت ولحق بها زوجها ، وفيما كان بيتهوفن حزينا معزولا فى بون مر بالمدينة (هايدن) الذى ذكر أمير بون بيتهوفن فبادر الأمير بأرسال بيتهوفن الى فيينا.. ولما كان أمير بون الذى بعث بيتهوفن الى فيينا هو شقيق القيصر.. ففتحت له القصور الملكية وقصور الامراء وهم رعاة الموسيقى فى ذلك الحين، فنقلت موهبة بيتهوفن وأخذت تلهب الأمراء والأميرات وأعيان القصر الملكى واساتذة الموسيقى.

إلا أنه أصيب بالصمم فكانت الكارثة التى سودت عيشته وأفسدت حياته، ولكن لم يكف قط عن التأليف، اوبراه المعروفة (بفيديلو) لقيت فشلا عظيما اذ اجتمع عليها النقاد.. واتخذوها جراحا إلا ان بيتهوفن بقى يصلح عيبها.. ويعالج نقصها الشائن، وكان إصراره هذا رمزا على الصمود وعنف المقاومة.

● الثقافة والتحرر:

لم أرد من ذلك أن أضع الثقافة فى كنف الامراء والملوك وأهل السلطة وإنما أردت أن أقدم صورة من واقع تاريخ الثقافة الحديث

يكشف عن حقيقة لا يجوز لنا ان نتجاهلها والا أسأنا الى الثقافة فالثقافة يجب أن تتحرر ما استطاعت من هيمنة التجارة عليها، وتسلط اعتبارات السوق والتفاهة مع شدة حاجتها الى الحرية، فى أشد الحاجة الى الانفاق الذى لا يبغى ربما ومن هنا كانت الثقافة فى حاجة الى وزارة يمولها، الشعب، ويغذيها بموارده.

ولقد كان القول بأن الثقافة قبل الثورة ازدهرت فلما جاء ت الثورة أجدبت إذ أن الثابت أن الفترة ما بين ثورتي سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٥٢ شهدت انحسارا ثقافيا تؤيده الوقائع فلقد توالي سقوط المؤسسات الثقافية الواحدة فى إثر الأخرى.

فقد أغلقت السياسة الاسبوعية أبوابها، وطوت جريدة البلاغ صحافتها وعجز سلامة موسى عن مواصلة إصدار مجلاته الشهرية - وهى المجلة الجديدة والاسبوعية التى هى (المصرى) واختفت مجلة الشباب لمحمود عزمى، والجديد، وهى مجلة كن يصدرها المرصفى ومن حوله طه حسين وهيكل ومصطفى عبد الرازق كما سقطت مجلة (الضمير) التى كان يصدرها عبدالحميد حمدى، ومعه عدد غير قليل من الكتاب المجددين..

وإذا كانت (الرسالة) و(الثقافة)، قد عاشتا فترة غير قصيرة ولكن قبل أن تتفجر ثورة سنة ١٩٥٢ كانت هاتان المجلتان مريحتين للأقوال وقارىء الأعداد الأخيرة منها يجدها خلوا من الفكرة والنبض ولونا من الكتابة المدرسية.. فقد هجرتها الأقلام التى نهضت بأعبائها، ومضت سنوات بلا صحافة فكر أو فن أو ثقافة وكانت جمعيات وروابط الادب والشعر، قاعات لا يرتادها إلا عدد قليل

ينقصون ولا يزيدون، وشجبت محاولات مثل الرابطة الشرقية، وعجزت الجامعة أن تفتح للشباب ناديا يؤمه المحاضرون ومستمعوا المحاضرات ومحبو المناظرات إذ انفردت بعض محاضرات الجامعة الامريكية بشيء من الاقبال أما عواصم الاقاليم بما فيها الاسكندرية فقد كان إفقارها وجدبها باعثين على الآلم والحزن.. ولم يبذل جهد يستحق الاحترام لانشاء صحافة يومية أو اسبوعية أو شهرية جديرة بالاحترام مع ان أكثر بلاد العالم تعرف صحافة الأقاليم التى تنافس صحافة العاصمة، ولم تستطع الأقاليم إن تغرى الكتاب الكبار بالسفر الى الريف والمحاضرة فيه.

وقد انقلب الحال بعد ثورة سنة ١٩٥٢ ونشأت المؤسسات الثقافية التى لم يكن لها وجود ووضعت ثقافية لا أزعم إنها نجحت ولكنها كانت تعويضا عن الجدب الذى منينا به فى الفترة ما بين الثورتين وللحديث بقية.

المثقفون يتهمون المثقفين

الثابت الذى لا شك فيه، أن لفظ ثقافة - وإن استعمله الجاحظ - إلا انه لم يظفر بالرواج والذيوع - كما راج وذاع في نهاية الربع الأول من قرننا الذى نعيش فيه

ويتجاذب شرف تصدير هذا اللفظ، فى مصر، الكاتبان الكبيران سلامة موسى ومحمود عزمي، ولم أستطع أن أحقق أيهما كان اسبق فى اصطناعه، وتكراره.

وقد جاهدت (الثقافة) أيا كان مدلولها - ومدلولها مختلف عليه كثيرا - جاهدت فى أن تحسن مرتبتها، وأن تعلى من قدرها ، وأن تنافس التعليم، حتى أصبحت أكثر منه على الالسن شيوعا، وأعظم منه فى المحافل والاندية - والصحف والكتب ذيوعا

وبعد ان كانت (الثقافة) ادارة بوزارة المعارف، اصبحت (جامعة شعبية ، حتى قدر لكاتب هذه السطور، أن ينجح فى أن يجعلها وزارة فى العقد الخامس من القرن العشرين، لعلها كانت أسبق وزارات الثقافة فى العالم، فوزارة الثقافة فى الاتحاد السوفييتى مثلا، كما كتب الدكتور محمد مندور فى إحدى مقالاته (بالمجلة) التى كانت تصدرها وزارة الارشاد القومى بعد زيارة له لموسكو.

ولم يكن ممكنا فى الماضى أن يكون المثقفون طبقة، أولا لشيوع الامية

● الهلال - يناير ١٩٨٣ .

وقلة القارئين، ثم قلة الكاتبين، ثم لكساد سوق ما ينتجه الفكر، ويخرجه القلم، فما لم يحظ الكاتب أو الشاعر أو الموسيقى أو المصور بصاحب سلطان، وذى مال، ليضفى على رعايته، ويقدم للمجتمع المترف، يعنى (المثقف) بفتح القاف، والمثقف (بكسرها) مغمورا، يجاهد ليتبلغ بكسرة خبز، وشربة ماء، وخرقة تستر العورة، ولكن المدارس انتشرت فى أوروبا ، بفضل اتصال الاوروبيين بالعلم الاسلامى فى مساجد المسلمين فى الاندلس، هذا الاتصال الذى أدى الى بداية العلم القائم على التجربة والتطبيق والمشاهدة والمقابلة بعد أن كان العلم الارسطى (نسبة الى ارسطو) كان قائما على فروض تعتبر بدهيات تقام عليها القواعد العلمية، دون أن يتطرق اليها الشك.

ولكن مهما قيل من انتشار التعليم فى أوروبا لهذه الملاصقة بين المسلمين والمسيحيين. وتعلم الاواخر من الاوائل، ثم اتساع نطاق المدارس، نحو الميل الى التعلم والتعليم، عقب اتصال الاوروبيين المسيحيين مرة أخرى بالمسلمين فى الحرب الصليبية، فان نسبة الأميين كانت أعلى بكثير من نسبة الذين يقرأون ويكتبون كما اقتصر التعليم فى الجامعات التى انشئت على طراز حلقات الدرس والتقليد والبحث حول أعمدة المساجد الاسلامية وعلى يدى الشيوخ أصحاب الكراسى، على أبناء الصفوة والاغنياء ، فى الاديرة أولا ثم فى مؤسسات ترعاها الكنيسة ويشرف عليها الاساقفة والمطارنة.. وبقى الحال على هذا المنوال، حتى ما بعد عهد صلاح الدين . التنوير والبعث (الرينسافى) فلما وقعت ثورة سنة ١٧٨٩ فى فرنسا، وسقطت جميع مؤسسات العهد القديم: من ملكية وملوك، أمراء وأشراف ونبلاء،

وأصحاب اقطاعيات وتدفقت جماهير الشوارع الذين وصفوا بأنهم الذين لا يجدون ما يستر العورة (ساق كيلوت) على سجن الباستيل فى الرابع عشر من يولية فى تلك السنة، كان هذا التدفق رمزاً على حدوث تحول ضخم وخطير، هو تدفق الطبقات التى كانت محرومة تقريبا من كل شيء ، ومن التعليم بصفة خاصة، والتعليم العالى بصفة أخص، منذ ذلك التاريخ فتحت الجامعات والمدارس العليا والمعاهد المتخصصة أبوابها لأبناء الفلاحين والعمال من حدادين ونجارين وسباكين وغزالين ونساجين ، وخرج من صفوف هؤلاء العمال الكادحين حقا، عدد من أهل العلم: اساتذة وأطباء ومحامون ومهندسون ، وظهر من هؤلاء عدد من أهل القلم: يكتبون الكتب، ويقومون بالدراسات والبحوث ، ويفلسفون الامور لا كما يفعل أبناء الاغنياء لكن بروح تمتاز بثلاث خصائص: (الاولى) الجرأة فى التجديد، لأن التجديد والتغيير فى مصلحة هؤلاء المفكرين الجدد، فقد كان كل شيء قائما، من قبل الثورة، ضد هؤلاء المفكرين، وضد أبائهم وأجدادهم، وكان العهد القديم، مقدسات لا تمس، ولكنها باتت بلا كرامة بعد الثورة (الثانية) ان الثورة لا تحمى، ومبادؤها المعلنة لا تنتشر، الا بمزيد من نشر التعليم، وفتح أبوابه أمام أبناء الطبقات التى تعمل بأيديها . (الثالثة) أن أدب الواقع، والاتصال الحى بأمور الحياة اليومية، ومشكلات الناس الحقيقية. هو الأدب الصحيح.

وبهذا نشأت جماعة من المثقفين لم يكن لها وجود من قبل، فقد كثر عدد الكتاب، والقراء والمصورين، وأصبح حديثهم مع الناس ، وعن الناس، وأصبح فى متناول العامة الكتاب والصورة، والاجتماع والندوة،

فأصبحت الثقافة شعبية فى دور الانتاج.. وشعبية فى دور الاستهلاك.

شعبية فى الانتاج لان الكتاب والشعراء، والمصورين والفنانين على اختلاف مجالات نشاطهم، أصبحوا من أبناء الطبقات الوسطى، والصغيرة، وقل عدد أبناء الاسر العريقة، والبيوت الغنية من المنتجين للثقافة، وشعبية في الاستهلاك، لان الكتب أصبحت تطبع طبعات شعبية وأقبل أبناء الفقراء وأبناء أوساط الناس على انتقائها، وازداد حرص هذه الطبقات التى بدأت تستهلك الثقافة، وتنتفع بها ويذوقها لايمانهم بانهم كلما زاد حظهم من الثقافة، زادت مكانتهم وارتفع قدرهم، هذا من جهة، من جهة أخرى، كان يساورهم شعورهم بان عليهم أن يعوضوا ما فاتهم من الزمان الذى كانوا محرومين فيه من هذه المتعة النفسية الغالية، وأخيرا كان احساس الطبقات العاملة ان الثقافة اصبحت خطا من خطوط دفاعهم لان أبناء الطبقات القديمة الذين يريدون استعادة امتيازاتهم الضائعة، لا يكفون عن مهاجمة أصحاب النفوذ المحدثين، متهمين إياهم بكل عيب، ناسبين اليهم كل نقيصة، فما لم يتسلحوا بالثقافة، ويتزاينوا بها، كانوا فرائس لا حول لها فى هذه المعركة، وأعانوا خصومهم على أنفسهم.

إذن راجت الثقافة رواجا عظيما، وأصبح اسمها على كل لسان، وتحكك بها، من لا يمت اليها بصلة، وأصبح المثقفون طبقة صدقا لا مجازا، ومن ثم فقد أصبح طبيعيا أن نسمع ان المجتمع الاشتراكى، هو مجتمع الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين، وقد جاء ت الصحافة لتزيد من نفوذ الثقافة، ومن جاه المثقفين من جهة، ولتزيد فى الوقت

نفسه مسئولياتهم ، وأعباءهم والثقافة حينما أصبحت زاد العامة، وغذاءها اليومي بفضل الصحيفة اليومية والشهرية والكتب رخيصة الثمن، قليلة الصفحات أصبح المثقف اكثر الناس قربا من ابناء الشعب سواء كان كاتبا أو شاعرا أو زجالا او مصورا، او مطربا، فهؤلاء هم الذين يصنعون مزاج الناس، وهم الذين يصوغون عقولهم، ويغذون قلوبهم.

يأخذون عنهم الافكار، ويزجي بكلامهم وفنهم ودأبهم الفراغ، ويتشبه بهم، واخيرا يحتمي بهم.

وهنا مربط الفرس.

فالمثقف بفضل المكانة التي وصل اليها، أصبح عليه أن يؤدي رسالة ذات ثلاث شعب.

أولا يقدم الأفكار للناس.

ثانيا يمنع وقوع العدوان على هذه الافكار.

ثالثا. يشد من أزر المجتمع حينما يستفحل هذا العدوان.

فالمثقف تحول من شاعر يرضي صاحب السلطان في بلاطه، بالطرائف واللطائف، والغرائب والنوادر، ويدهشه بالبديهة الحاضرة، والقريحة المتقدة، واللسان المدرب، والحافظة الفنية، والذاكرة الحديدية، الي ديدبان ساهر علي حقوق الشعب يتصدى بقلمه وريشته ولسانه، للظالم والظلم، وللتخلف والاستغلال والرجعية والجهل.

وبالتالي أصبح هدف مهام السلطة ، تضيق به إن لم يكن في صفها وتحاول مهما بلغت الحرية في المجتمع أن تحرس لسانه، وتخنق صوته، وتغيب شخصه، ففي المجتمع البدائي الفقير، ما ايسر أن تبطش القوة بالكاتب الناقد، بالاعتقال ، والحبس وبالتنكيل

والتعذيب ، هذا إن نجا من القتل او النفى، وفى المجتمع الغنى ما اشق بقاء الكاتب المعادى لاصحاب النفوذ، فالصحافة والطباعة ودور النشر ومؤسسات الاذاعة المسموعة والمرئية فى أيديهم ورهن إشارتهم، وفى وسع هؤلاء الاقوياء ان يجعلوا حياة المثقف كاتبا أو فنانا، أو صحفيا جحيما لا يطاق، يعانى الركود والغياب عن المجتمع.

ولما حمى وطيس الصراع بين الطبقات فى فترات التحول وضخمت أنياب وأظفار المتعالين على النفوذ والهيمنة أصبح دور المثقف فى هذا الصراع حرجا غاية الحرج قاسيا غاية القسوة، فاحتمال الضغط، ومحاولة الثبات فى وجه الشدة العاتية الجارفة، جهد قد يعجز عن بذله الفرد. والمثقفون كطبقة.

فالمثقف ـ وإن طبع على القتال ـ رجل فكر وتأمل، يميل الى العزلة، والزعامة التى فرضتها الأيام عليه، تقتضيه الخروج من عزلته ، ومزاحمة الجماهير، فى مواكبها الهادرة، ومظاهراتها الثائرة ، متلقيا الضربات، والوقوع تحت سنابك الخيل، أو تجرع آلام الرصاص الطائش والمتعمد، فان لم يفعل واثر السلامة، ونأى بنفسه، فهو ساقط من عرشه الادبى ، أو فار من جيشه الابى، أو على الاقل، متهم بأنه قوال غير فعال ينقصه الايمان، يخون رسالته، ويقع تحت عبء أمانته، فار فرار الجندى من المعركة، عندما يشتد أوارها، وتتلهب نارها.

وقد صعب فى الأغلب الأعم على حملة الأقلام أن يؤدوا هذا الدور كما تطلبه منهم الجماهير، ومالوا الى اتقاء السلطة لان رزقهم بيدها، وعيشهم معلق بكلمة منهم.

ومن ثم فقد طال تحليل الكتاب المحدثين لدور المثقفين فى الصراع

القائم على مئات الجبهات في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، من أجل الحرية السياسية حينا، وفي سبيل الحرية الاجتماعية حينا اخر، وضد أهوال التفرقة العنصرية طورا، وضد التفرقة الطائفية أو المذهبية طورا ثانيا. وكاد ينتهي تحليل هؤلاء المحليين الى القول بأن من سمات طبقة المثقفين التردد الشديد عند الازمات، انشغالا بالنجاة الشخصية واتقاء للتهلكة، وأن المثقف في معظم الأحوال، وصولي وربما أيضا - لوصوليته - انتهازي.

والمفارقة الكبيرة في هذا الاتهام، هو ان الذين يوجهونه ويصرون عليه، هم مثقفون أيضا، هذا كله، اذا سلمنا بأن المثقفين يمكن تصنيفهم جميعا كطبقة، وإن ما يمكن أن يؤخذ عليهم من عيوب وأفات ليس مردها أنهم بشر، وأن الثبات في وجه الشدائد، من الصفات التي يندر توافرها في الناس أيا كانت انتماءاتهم الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية.

وإذا كان مترجمو حياة (برناردشو) يسجلون عليه انه في بداية حياته العامة، عندما بدأ اتصاله بالكفاح الاشتراكي، فر عندما بدأ في آخر الشارع رجال الشرطة يحملون هراواتهم، ثم عرف بعدها عن نفسه انه تعوزه الشجاعة المادية، وان كان يتمتع بالشجاعة الادبية التي تعينه على مواصلة نقد الانظمة السيئة والمؤسسات الظالمة التي يعيش في ظلها البشر.

وبالمثل فان ما يأخذه الناس خصوم الشيخ محمد عبده من انه تحمس أول الأمر للثورة العرابية ثم لم يلبث ان تخلى عنها، وانقلب ضدها، غير مدرك أن الحركة التي أيدها كانت ثورة، وإن للثورة

منطقا يخالف منطق الحياة العادية ولكن الذين وجهوا هذا النقد للشيخ محمد عبده، أخطأوا لأن الشيخ محمد عبده لم يتخل عن الثورة العرابية حينما واجهت مخاطر الفشل، بل لان الشيخ محمد عبده لم يكن ثوريا أصلا، ولكن الثورة جرفته في تيارها، شأن كل ثورة في أي مجتمع تقوم فيه ثورة، فهي تهب على هذا المجتمع كما تهب العاصفة التي تقلع أمامها الأشجار والأشياء والأبنية.

وتحويل الامثلة الفردية الى قاعدة عامة، خطأ، يقع فيه الباحثون من أجل التبسيط والتيسير.

ويبقى بعد ذلك أصل الموضوع، وهو هل المثقفون طبقة؟ وهل هم طبقة من أفاتها الميل الى خيانة المثل التي تنادي بها؟ وعلى الاقل عوزها للشجاعة التي تقتضيها رسالتها.

لكن من يستطيع الاجابة على هذا السؤال. فانه من الاسئلة التي تثار لا للإجابة عليها، بل لتبقى باعثا على التأمل والتفكير، في أن المثقفين ودورهم هو موضوع الحضارة في عصرها الحديث، موضوع اليمين واليسار، والاشتراكية والرأسمالية ومستقبل الانسان كله، وحقيقة تأثره بالتطورات الهائلة التي جعلت الانسان الآلي، منافسا للانسان الحي، والتي جعلت (التكنولوجيا) خادم الانسان المطيع، وسيده الجبار المتحكم، وجعلت التقدم لونا من الفزع الذي يهدد الحضارة بالموت جوعا في مكان، وبالموت بالاسلحة الذرية، في قارات.

ومع ذلك لابد لنا من أن نفكر في السؤال، لانه قادر على أن يلهم ويوحي، ويربك ويريح.

فلنفكر إذن فالتفكير يعوض صاحبه في الحال عن التعب والعناء والقلق..

ثقافة للبيع

محنة الأدب والثقافة

من متناقضات الحياة أن السلعة الثقافية أغلى ثمنا.. وأعظم كلفة من السلعة العادية التى تسد حاجات الانسان الغريزية من طعام أو ملبس أو مشرب أو مطية يركبها الانسان ليبلغ هدفا أو سلاحا يدفع به عن نفسه عادية الآخرين .

فالكتاب والمسرحية واللوحة زيتية كانت أو مائية كلها سلع ثقافية تكلف الكثير من الأموال وتستنفد الطويل من الأوقات، والعظيم من جهة التحضير والاعداد والتنفيذ والاخراج ومن ثم حصل التناقض الذى قوامه ان الانتاج الثقافى لا يتأتى لعامة الأفراد، وهم لا يقوون على أداء تكاليفه فى صورته اللائقة به، ومن يتصدى لإدارة واستغلال مكتبة أو مطبعة أو مسرح لتعرض للإفلاس فى الأغلب الأعم، فتقفل الصحيفة أبوابها بعد شهور قليلة من بدء نشاطها وتسدل الجريدة الستار على مسرح أعمالها. وقد يحاول صاحب المكتبة أو الجريدة أو المسرح الاتصال بالجماهير وعرض إنتاجها فى مثل الصورة القديمة أو فى صورة جديدة معدلة ..

وكم من جريدة ومسرح ودار نشر فى مصر . لحق بها الكساد فتوارت عن الانظار ، وعاش صاحبها بعد ذلك سنوات يحاول أن يسد

● الهلال – يونيو ١٩٨٧ .

ديونه ويتفق عن طريق (سنديك) عينته المحكمة أو عن طريق التراضى والحل الودى .

يحدث هذا فى حين تقوم إلى جانب الجرائد الكاسدة والمسارح التى بارت سوقها ودور النشر التى دهمها الإفلاس مشروعات تجارية ناجحة أشد النجاح تدر على أصحابها الدخل الوفير والكثير .

وقد يحدث استثناء فى الظاهر فيكسب صاحب الجريدة أو المسرح أو المطبعة أو المكتبة رزقا وفيرا والحقيقة أن هذه المنشآت الثقافية قد وقعت الى مصادر رزق لاتمت إلى العمل الثقافى بأدنى صلة فاستطاعت أن تعيش وتواجه ظروف الزمان التى تثقل العامل فى الحقل الثقافى بالنفقات الباهظة .

ففي مصر، ظهرت صحف كان أصحابها من غير المصريين ، إذ كانوا من أهل المشرق العربي، وقد تبنت الدول فى الغرب بعض هذه الصحف، لتروج بين المصريين فكرة . الذين اتخذوها سبيلا لنشر زعامتهم وبث مذاهبهم فنجحت هذه الدور نجاحا عظيما، ودرت على المشرفين عليها والمتصلين بها وافر الرزق ، فأصبح هؤلاء من ذوى الثراء العريض، وتصدروا المجتمع، ووصلوا الى أعلى المراتب ولا أحد ينكر أن هذه الصحف أسدت يدا جليلة الى الثقافة . فخلقت هذه الصحف مجالات فكر، ونقد، ودعوة عادت على البلاد كلها بخير غير قليل ولما تطورت الاحوال تخلصت تلك الصحف من شوائب صلاتها بجهات النفوذ التي دفعت بمحررى هذه الصحف والمشرفين على إدارتها الى مجالات الرأى وانتهى الامر ناسين هذه الصحف التى انصرف المصريون عنها. وساء ظنهم بالقائمين على أمرها. وتحولت وربما على الرغم من أصحابها أو برضائهم الى منابر رأى وفكر .

ولسنا بصدد نقد هذه الظاهرة ظاهرة النشاط الثقافى الذى يقف خلفه أناس لا صلة لهم بالثقافة - انما نحن بصدد ارتفاع كلفة العمل الثقافى وعجز الفرد العادى عن النهوض به وتحمل أعبائه وإذا تجلد صاحبه وباع ما يملك واقترض واشرك معه سواه فان هذا الجهاد الدامى الجدير بالثناء والاشادة لا يمكن أن يطول وقد يخرج الصحافى المجاهد من جهاده مصابا. بأكثر من علة تضعف جسده ، أو تهرم قلبه. أو تطفى نور عينيه. والذين شاهدوا أمين الرافعى صاحب الاخبار بعد أن كانت رائجة يطبع عشرات الألوف فى اليوم الواحد كسدت تماما وقل قراؤها ، وخفت صوتها ثم اختفت من الوجود ، وبعد قليل انحنى ظهر صاحبها وشابت رأسه، وأصبح يسير فى الطريق وحيدا وساقاه لاتقويان على حمله .

ذلك لأن الاخبار كانت لسان حال الأغلبية فلما اختلف أمين الرافعى مع هذه الأغلبية ، تخلت عنه واستمرت جريدته فى الاضمحلال ، والرافعى يأبى أن يغير موقفه أو يخفف من غلوائه .

وقد نقول إن هذا أمر طبيعى لأن الصحيفة سياسية ، والسياسة أمرها قل. ولها فى كل حال شأن وهذا صحيح إلا أن ماجرى على أمين الرافعى صاحب الجريدة اليومية السياسية، جرى على أصحاب مشروعات ثقافية ، فعزيز عيد الذى حاول أن ينشىء مسرحا يعرض فنا جادا انصرف الناس عنه ومعه زوجته الممثلة الشهيرة فاطمة رشدى التى اسماها المعجبون بها بـ سارة برنارد الشرق. وحدث هذا ليوسف وهبى الذى عاش سنوات يدير مسرحا من أكثر مسارح القاهرة رواجا، بفضل ما تمتع به من قدرة فائقة فى الدعاية واستثارة لاهتمام

الجماهير، بانتاجه وأخباره الخاصة، ولا أنسى الأيام التى كنت أرى فيها يوسف وهبى الممثل الشهير ، بمكتب أخيه المحامى اسماعيل وهبى وهو لا يخجل من أن يمد يده ليأخذ سيجارة من صديق يعطف عليه ويود أن يواسيه.

إن هذه صورة من محنة الأدب والثقافة فى بلادنا آثرت أن يعرفها الناس من جهة ، وأن يعرفوا الاهوال التى تعترض سبيل الذين يريدون أن يخدموا الثقافة .

وإذا كان أمراء الاقطاع والأثرياء الذين كانوا يبسطون الرعاية على الشعراء والفنانين وهواة الموسيقى، ويقتنون ما ينتجه المصورون والرسامون من تحف وروائع - اذا كان هذا العصر انتهى واختفى معه هؤلاء الأغنياء الذين كان بعضهم أقرب ما يكون من غنى الملوك وثرائهم ونفوذهم فلم يعد من يحل محلهم سوى الحكومة فالثقافة الأن - ولاسيما فى العالم الثالث - هى البديل عن الأمير الاقطاعى الذى تولى الإنفاق على فرق الموسيقى التى شغفت بفن البالية وانفقت على فرقه ألوف الجنيهات ولابد من أن نضع خطة للنشاط الثقافى للدولة، فإن حياتنا الثقافية هزيلة الى أبعد حد، ولا يزال الإنتاج الثقافى إرتجالا من جهة أخرى وكلنا نعرف قداسة الانفاق الحربى، والحرص على استمرار وجوب توسيعه حتى فى السنوات العجاف، فهذا إنفاق على مرفق تتعلق به حياتنا، ويرتهن به وجودنا ولكنى ازعم - وهو زعم لن يلقى ما يستحق من الاحتفال والتصديق - ان الانفاق الثقافى، يجب أن يأتى بعد الانفاق الحربى مباشرة وهو أهم بكثير من الانفاق على التعليم ويحسبهما أمرا واحدا والواقع أن الفرق بينهما شاسع، وتأثير كل منهما يختلف عن تأثير الآخر، بمقدار عظيم.

فالتعليم يخلق العظم الذى ينشئ الوجود القومى، ولكن الثقافة هى التي تكسو هذا العظم لحما، والثقافة تسبق الحرب، وتصاحبها وتبقى بعدها فالانتعاش الروحى، والرغبة فى التغيير وكراهية القصور فى

حياتنا والتخلف والتطلع الى مزيد من الحيوية، والاتساق، والحركة، لاتتم الابالثقافة. فهى التى تحمى حياتنا من الرتابة والسوقية والجمود والفجاجة والغلظة والقبح وإذا كنا نشكو هذه السمات فى حياتنا التى تؤدى الى التحلل والتخلف والاهمال الشديد وجهل الواجب والفتور فى أدائه، فذلك لأن ثقافتنا مضمحلة وسطحية ولانعتنى بها عنايتنا بمرافق أقل منها شأنا .

والفرق - فى الواقع - بين أمة وأمة، هو الفرق بين ثقافة وثقافة . وأى إصلاح نطمع فيه ونطمح له، لايمكن أن يتحقق بكل ما نقترحه من وجوه التغيير والتقدم، فسبيله الوحيد والفعال والناجح والسريع هو ثقافة واسعة النطاق وعميقة الأغوار ، يقوم على نشرها وتوصيلها الى جميع طبقات الشعب ، أناس يعتبرون العمل الثقافى لونا من الجهاد الروحى . أو قل ضربا من الأستشهاد .

فاذا كنت تسير فى القاهرة وكأنك تسير فى مدينة ضربتها طائرات الأعداء بالقنابل فهى كأطلال مدينة سابقة عليها ، واذا كنت ترى جهارا نهارا عمائرنا الأثرية أماكن لطهو الفول والخضراوات وتقديمها للناس واذا كانت المدينة العظيمة لا روح فيها ولا عمل ، واذا كنا الى الآن لم ننتج دائرة معارف عربية. ولم نترجم أعمال الفكر والفن والأدب العظيمة والشامخة فى بلاد الأخرين ولغاتهم.

فلأن الثقافة نشاط حيوى مهمل ومتروك ولا يشغل بال أحد من

الحكام وكذلك لا يشغل بال أحد من المحكومين وإذا كانت فرنسا قد أقامت مناحة لقطع أربع شجرات قديمة توطئة لاقامة مبني معرض الفنون الأربعة (كاترارتو) فيتبارى الشعراء والكتاب والمصورون وكبار المسئولين فى البكاء على هذه الاشجار .

وكنا قد قطعنا فى السنوات الاخيرة أشجارا جديرة بمثل هذا الاعزاز دون أن يحس أحد أو يتحرك أحد .

وإذا كانت الاحداث الكبرى تقع فى بلادنا فلا يبدو أن نبأها قد وصل الى سمع أو اتصل بنفس فذلك كله لاننا أمة ولا بد إذن من دعوة مجلجلة ومعضلة لتصبح الثقافة ثقافة لا شيئا شبيها بحاجياتنا الدنيوية التافهة والصغيرة .

أزمة الثقافة العربية
سببها فكرى أم روحى

يكتب كبار كتابنا فى أكبر صحفنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية والشهرية مقالات مستفيضة تملأ صفحات ، ثم تمضى الأيام والسنون وهذا النشاط مستمر وموصول ، ولكن تبحث عن صدى له، أو اثر عند عامة الناس أو خاصتهم فلا تجد شيئا .

ويؤلف هؤلاء الكتاب أحيانا كتبا ويعلن عنها، وقد يباع الكثير منها أو القليل وتتداولها الايدى، ثم تفتش عن شيء تركته هذه الكتب فلا تجد إلا العدم فكل ما يكتبه كبار كتابنا ومعهم صغارهم يطلع على الناس، ثم يطوى وينسى وكأن شيئا لم ينشر، أو شيئا يصبح ويقرأ، ورأيا لم يطبع ويعلن . وهذا هو موطن الداء وبيت العلة .

كبار كتابنا ولو ألفوا القصص، أو نظموا القصائد ، أو دبجوا المقالات عاجزون تماما على أن يلهموا الناس بخاطر، فلا هم يثيرونهم ويغضبوهم ولا هم يرضونهم ويحصلون على إعجابهم والحياة نفسها العامة، والشخصية لا تتغير فى بلادنا .

فاذا أردت أن تصلح الحياة الثقافية فلا تبحث عن غلاء سعر الكتاب ولا عن رداءة طبعه ، ولا سوء مظهره، ففى الماضى كان كبار الكتاب فى

● الهلال - مايو ١٩٨٤ .

فرنسا مثلا لايجدون مطبعة لتطبع منشوراتهم الثورية، فكانوا يكتبونها ويكتبها أعوانهم والمؤمنون بهم، بالحبر على قصاصات من ورق صغير ربما كان بعضه ممزقا ولكن الأيدى تتداوله سرا وقد تحفظه عن ظهر قلب فلا يلبث أن يكون فى كل بيت وعلى كل لسان ويظهر أثره فيما يفعله الناس فى الشوارع وفى الجماعات التى تختفى عن أعين الشرطة وعيون الدولة .

ولسنا نطلب بطبيعة الحال أن يكون كل الكتاب ثوارا ولا أن تكون الكتب والمقالات كلها من طراز ماكتبه فولتير وجان جاك روسو قبيل ثورة ١٧٨٩ ولكننا نذكر ذلك لنرد على الذين يعزون الفكر البحت الذي لا يقبل بالسياسة ولا بالحكم ولا بظروف الناس اليومية المألوفة .

والثابت أن النفوس لا تظفر بالقوة والطاقة والحيوية أو بمزيد من القلق، أو بخيال فسيح ، أو بجرأة تبدو أحيانا إندفاعا وتهورا إلا اذا صاغتها أحداث حياتها صياغة غير عادية أى لابد للمثقف قبل أن يثقف سواء كان يعانى فى حياته الخاصة بفضل مواهبه ، وخصائصه فيفكر فيما لا يفكر فيه زملاؤه وانداده أو يرفض ما يقبله مجتمعه أو يفطن الى حقائق عقلية أو روحية غابت عن الأخرين فهو بفضل هذا التميز يقلق الذين حوله بما يقوله ويبدو غريباً عنهم أو شاذاً أو غير طبيعى أو خيالياً يعلو فوق الواقع ويحلم بالمستحيل أو يدعو إلى ما ينفع . فالمثقف أصلاً ثائراً أولا .

ولا ينتظر بطبيعة الحال أن يكون كل المفكرين ثواراً، وإلا لا نقطع تعاقب المفكرين وتسلسلهم بالوفاة وبالعجز وبالتوقف عن الانتاج لأية علة ولخلا مكان الكتاب والشعراء والمصورين طويلاً حتى يأتى العباقرة

الذين يتمتعون بهذه الصفات التى نذكرها لا يتفق مع الحياة العادية التى لا بد أن نعيشها والتى لاتطاق من غير الكاتب والشاعر والاديب والمفكر والفنان ولكن مع التسليم بذلك فان المثقف بكسر القاف فى العادية وإن لم يكن ثائرا ولم يكن كل ما يكتبه ثورة إلا أنه لابد إذ أردت أن تدخله فى زمرة المثقفين بكسر القاف أيضا ان يكون فى خلقه ومسلكه ومنهجه شئ من صفات الثوار وأخلاقهم ومواقفهم ويتفاوت الكتاب فى نصيبهم من هذه الثورة وبقدر هذا التفاوت يتفاوتون فى القيمة وفى الاثر وربما يحتاج هذا الكلام الى مزيد من التوضيح لذلك أقول أن المفكر والفنان كلاهما فى الأصل ثائر فهما اشبه الناس بالرسل والأنبياء الا أن ما يدفعهم أصلا الى الكتابة والتفكير والعمل. الفنى بأنواعه من الصورة والتمثال الى الأغنية والعمل المسرحى هو إحساس بالقلق فى المجتمع الذى يعيشون فيه ورغبة فى التغير ورفض لبعض الواقع واستشراق للمستقبل والا لما فتح فمه ولا أمسك بقلمه أو أزميله أو فرشاته وبقدر ما تكون ثورته على هذا التغيير وإصراره عليه وتحمله للمتاعب والآلام الناجمة عن هذا الموقف يكون لانتاجه من الأثر فى المجتمع ايقاعه وعند من يتلقون أثاره بخاصة وهذا هو السر فى أن كثيرين من رجال الثقافة يمرون فى حياتهم منسيين وغير ملتفت اليهم منكورين أو مرفوضين لأنهم يتكلمون بلغة غير لغة المجتمع ويفكرون فى أمور لا تخطر على بالك وقد يبدأ الكاتب أو الفنان مثقفا أى قادرا على منح المتلقين لادبه وفنه طاقات فكرية أو روحية تنتقل إليهم منه بطريق العدوى فلا يقتصر دورهم على القراءة والاستمتاع بما قرأوه أو المواظبة عليه أو الاشادة به بل يحسون بأن ما تلقوه من الكاتب أو الفنان هو

دعوة لهم بأن يعملوا شيئا ما وليس ضروريا أن يكون هذا الشئ ظاهرا ومعلنا فما أكثر الذين قرأه لكتاب كبار وتأثروا باطنيا بما قراه فتغيرت حياتهم جزئيا أو كليا وقد يتأثرون ولكن بقدر لا يكفى لاحداث التغير الكفيل بإخراجهم من النطاق الروحى أو الفكرى الذى ولدوا فيه وعاشوا لا يتجاوزونه ولكنهم يحسون مع ذلك بالارتباط بالكاتب الذى بدأ يوثر فيهم فيواصلون القراءة حتى يأتى يوم فاذا هم شىء آخر وقد يلهمهم هذا التغيير المتدرج الى أن يجردوا أقلامهم كما يجرد الفارس سيفه ويعلنوا ما استقر فى يقينهم فاذا بهم دعاة ومثقفون يكسر القاف بعد أن كانوا مجرد متلقين وبهذا الانفعال تتسع دائرة الثقافة ويتعمق أثرها ويتحول المجتمع من الركود واللامبالاة والعجز عن التأثر بالثقافة والفن والادب الى متذوقين لكل هذه الضروب من الانتاج الفكرى والروحى ويكون هذا قمة النجاح الثقافى .

فاذا شكونا من حالة الثقافة العربية ومن ركودها ومن قلة ما يخرج للناس من كتب يتردد صادها فى جنبات العالم العربى وتتستر الأقلام وتبتعث النقد وتنتشر معارك حولها وتعلو لها أصداء الاعجاب والتقدير وتعتبر من معالم الحياة الفكرية فالأصل لكل هذه الظواهر التى لا ترضينا بل التى تحزننا الى أن المنتجين أى المؤلفين والفنانين والكتاب قد أصبحوا موظفين يعيشون حياة رتيبة لا قلق فيها ولا خوف ولا تطلع ولا مغامرة ولا أحلام رفيعة يتقاضون مرتبات ثابتة تكفل عيشهم ثم يمضى كل شىء على حاله.

واذا قارنا أحوال الكثرة الغالبة من كتابنا ومفكرينا الذين يتولون الآن تثقيفنا بالذين سبقونا لوجدنا هذه الحقيقة الصارخة أن الجيل الذى سبق لم يكن أكثر اطلاعا ولا أعمق فكرا ولكن كانوا جميعا ثمرة

التجارب المرة واحيانا المعارك القاسية وانهم ندبوا أنفسهم لابداء أراء كلفتهم الكثير فى مجالات الفكر والسياسة ولقد طحنت الحاجة أكثرهم تحت رحاها فعرفوا الحرمان وكابدوا المشقة فهيأتهم هذه النشاة لخوض معارك من أجل الحياة فى ذاتها ومن أجل أفكارهم اصطلوا نيران القهر وكيد السلطة وسخط المجتمع أو كل ذلك مجتمعا ولذلك نجحوا فى أن يقلبوا الاوضاع السائدة وأن يفتحوا ، أبوابا لم يكن أحد قادرا على أن يفتحها أو أن يقف على عتبتها .

وليس حتما أن يأتى على شاكلتهم الجيل الذى يليهم فلكل جيل ظروفه، فاذا كان من الادباء من حارب الاستعمار الاجنبى فلا تتريث على أدباء جيل تال أن أعطاهم القدر من وطأة الاستعمار فحاربوا قوي ظالمة سواء قد تكون هذه القوي مصرية، ولكن الغاية أن يكون فى المثقف شىء من النفحة الربانية التى نفخها الله فى آدم وأن يكون ممن تعلو عندهم رسالة الثقافة فتصبح لونا من الدين وأن تكون مهمة التثقيف معاناة وتحملا ومكابدة، فاذا كان المثقفون ممن يخلدون للراحة ويقبلون الحياة على علاتها فان ما يكتبونه ولو وزع منه الآلاف وطبع على ورق مثل مقاسه أوراق البنكنوت فان ماسيصدر عنهم لن يحرك ساكنا ولا يثير حاقدا ولا يغير وضعا موروثا ولا يصحح عيبا سائدا فتشتد أزمة الثقافة باختفاء أمثال بيرم التونسى الذى نفى وذاق أهوال الغربة والجوع والعقاد الذى أصيب بالسل، وعبد الرحمن شكرى الذى اشتدت عليه وطأة الغربة ولا شىء يمنع أهل النعمة من أن يكونوا على رأس أهل الثقافة ، ففى الادب الروسى اجتمع دستوفسكى الذى كان فى قاع المجتمع يكاد يموت جوعا وتولستوى الكونت حفيد الاغنياء أصحاب الضياع ولكن كلاهما كانت تؤرقه قوة التمرد على المجتمع العصرى الذى علق المشانق للاحرار وقذف بهم الى سعير الجليد .

السلف الصالح
يجب الالتفات إليه والاحتفال به

أهدى إليّ الكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أمين كتابه انفذ ، المعنون «تطبيق الشريعة الإسلامية» فقلبت صفحاته على عجلة ، وكلما وقع نظرى على عنوان فصل ، وددت لو قرأته من فورى .

ولكننى غالبت نفسى حتى وصلت الى الفصل المعنون «تأملات فى حقيقة أمر السلف الصالح» ، فوقفت عنده وطالعته فى الحال ، وسر ذلك إنى رأيت هذا الفصل ذاته فى مجلة المصور فى الفترة التى كان الاستاذ حسين أمين يكتب خلالها مقالاته التي أفزعت قوما واسعدت قوما، وأهمت آخرين فلم يسعدهم ما قاله الاستاذ حسين، ولم يفزعهم وانما أثار خواطرهم . وحملهم علي التساؤل وربما دفعهم الى مناقشة ما قرءوا مع أنفسهم حينا ومع إخوانهم وأصدقائهم حينا أخر. ولعل الحوار استمر والوصول الى رأى يطمئنون اليه يبدو أبعد من أن تناله الأيدى . قرأت عنوان هذا الفصل بنفس النص أو بنص سواه فاقبلت عليه وبعد أن قطعت في القراءة شوطا ، جاء نى ماصرفنى عن اتمامه ، وبقيت مشوقا أن أعود اليه ولكن الحوائل استمرت تمنعنى عن تحقيق هذه الرغبة حتى جاء نى الكتاب حاو لسبعة عشر موضوعا الى جانب

● الهلال - ابريل ١٩٨٥ .

المقدمة فبعثرت الفصول الستة الأول بنظرة عجلى ثم وقفت عند الفصل السابع فقرأته في نهم وشوق فسرني من هذا المبحث الاسلوب الذي كتب به والمادة الغزيرة التي فاض بها ، ثقة الكاتب بنفسه وبرأيه وهو يضرب بمعول كبير ، يحمله ساعد شديد في موروثات عزيزة على المسلمين والعرب. وهو مؤمن بأن ما يهدمه لابد أن يزول غير ملو بالا لما يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجرىء ، في نفوس الاغلبية الكبرى من بني قومه في مصر، وفي غيرها من أقطار الناطقين بالضاد والمؤمنين بأن سلفهم الصالح هو خير الناس أجمعين ، نقاء سريرة وخلوص نية وغزارة وايثار على النفس وبذل للروح وحرص علي خير الأمة وسلامتها واستماتة لا تهدأ لتوفير أمن هذه الأمة وتأكيد عزتها وأن هذا السلف قدوة ومثل للناس في المشارق والمغارب وفي القريب من الأيام والبعيد. ولمن آمن بمحمد ورسالته ولمن آمن بعيسى ودعوته ولمن آمن بموسى وعقيدته ذلك لأنهم كانوا قبل كل شيء أناس صالحين عالمين مجاهدين ، لا يقبلون الخطأ ولا يقاربون الزلل ولو صغر وهم مع ذلك أناس من الناس يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ويتزوجون النساء، ويشتهون كما الادميون فليسوا هم معصومين لأن العصمة لله وحده ولا هم ملائكة فالانسان عند الله خير من الملائكة لان الانسان هو الذي اصطفاه الله ليكون خليفته .

وسر اشفاق الكاتب المجدد الشجاع من المبالغة في توقير السلف الصالح ونسبة كل فضيلة له ، ونفي كل نقيصة عنه. أن المسلمين بسبب هذا الموقف الذي تكاد تكون أمة المسلمين قد انفردت به دون سائر الامم، أن المسلمين كادوا يسيرون بأقدامهم في الحياة الى الامام وأعناقهم ملوية الى الخلف ، لأنهم اعتبروا ان السلف الصالح فعل لهم

ومن اجهلم وأجل أمتهم ودينهم . ماسيعجز عنه كل جيل قادم . مما يحتم علينا وعلي الذين سيأتون من بعدنا ، ألا يرفعوا أعينهم عن رجال هذا السلف وائمته وعظمائه . يستوحون فى الملمة ، ويحاولون محاكاتهم عندما تنفرد السبل، أو تقع الحيرة، ويأنسون بمثلهم وقدوتهم عند الرخاء والفرج .

وقد لخص الكاتب أن ما دأب عليه الخطباء والوعاظ فى المساجد ، والكتاب ومؤلفى الاشعار وما تنشره المطابع ، وما يردده ويكرره الاساتذة والمربون فى المدارس كاد يثبت فى وهم عامة المسلمين والصحاب أجمعين أمورا ثلاثة .

الأول : أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا فى أن يكون مثل هذا السلف الصالح .

الثانى : أن الاجيال التالية للسلف الصالح مجبولة على النقص والفساد تالف حالها .

الثالث : أن تطبيق الشريعة كان أمرا ميسورا وقت أن كان ذلك السلف الصلاح على قيد الحياة ، وهو الأن متعذر لفساد الناس بعدهم، رسيظل متعذرا الى ما شاء الله (ص١٠٢) .

واحسب أنه من السهل المتاح أن نصل الى القضية التى عرضها الاستاذ حسين أحمد أمين على محكمة الرأى العام العربى الاسلامى ، وربما الانسانى كله ، وهى قضية السلف الصالح فى كل زمان ومكان وعند كل أمة ودين .

ويتعين على كل من ينهض بالرد والتعليق على مقال المؤلف كتاب تطبيق الشريعة أن يلفت النظر الى أن الكلام يدور حول السلف الصالح يعنى أن المناقشة لا تجرى حول السلف على اطلاق .

فالسلف الذى تحبه جماعة المسلمين وتقدره ، وترفع مقامه، وتعلى من شأنه وتبذل كل طاقاتها البلاغية ، وقدراتها البيانية فى الاشادة به ، والدعوة اليه هو السلف الصالح، أى السلف الذى سبق غيره الى عمل خلد به اسمه ونبه له ذكره وكان سيد هذا السلف وإمامه وقمة أمجاده هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلما قرب الرجل من رسول الله وأخذ عنه بعض مناقبه وفضائله جاز أن يضم الى قائمة السلف الصالح ولم تدخل التقاليد الاسلامية الدينية أو الفقهية أو العلمية ، رجلا من المسلمين أو العرب الى هذه القائمة النقية الشيقة. المجاهدة المؤمنة العالمة والمعلمة بسبب قرابتها لرسول الله بل أن فى ذوى قربى رسول الله ، وحتى الذين لم يخرجوا عليه ، من ينتقص التاريخ الاسلامى من قدرهم . أو على الاقل يحفل بهم . ومن احترمهم التاريخ الاسلامى من أعمام رسول الله أو أبناء عمومته أو اخواله من ذكروا لهذه القرابة دون أن ينسب لهم سبقا فى الدين أو أو اثرا فى العلم فهم اقرباء الرسول وحسب .

فلتنظر بتجرد دون تحيز الى ما فعله السلف الصالح الاسلامى من أجل الاسلام ومن أجل خير الانسانية فى مجالات العلم، والفقه والادب والفن والسياسة والحروب ، وسن السنن الرفيعة للخلق الانسانى، والتقاليد السامية لنرى هل يستحق هؤلاء التكريم الذى نالوه والمكانة التى احتلوها أو انهم فعلا نماذج عظيمة للانسان فى كل مكان وزمان وأن التأمل فى تاريخهم . والتأسى بهم ومحاولة محاكاتهم والنسيج على منوالهم : واجب دينى وواجب تربوى لبناء انسان أعظم وأشرف منوالا .

لقد صنع السلف الصالح فى أولى طبقاته شيئا لم يصنع مثله على مدى التاريخ الانسانى، فلا الفراعنة ، ولا اليونان ولا الرومان. ولا أهل

الصين ، أو الهند استطاعوا في أقل من عشرين عاما أن يقيموا دعائم دين يتضمن فى قواعده نظرة شاملة الى الكون ودعوة عامة للانسانية مع ارساء قواعد ثابتة لأصول الحكم وإدارة الدولة. خلاصتها العدل والمساواة وتحرير بنى آدم وتكريمهم ودعوتهم الى العلم والتعليم والاخاء والترابط . والتسامح مع المخالفين فى الرأى وتحريم الظلم والتنفير من الجهل ومن الغلظة ومن السوقية ثم اقاموا دولة على صحراء قاحلة جدباء اتسعت أقطارها وترامت أملاكها . واستطاع صغار من شبابها أن ينازلوا امبراطوريتى العالم فى أولى سنى حياتها فهزموهما وأجلوهما عن أرض شاسعة كانوا يملكونها ، ثم انشئوا حضارة ليس حتي اليوم ارفع منها منارا ثم وضعوا اسس العلم الحديث فى كل درب ومجال. فبأى منطق علمي أو علماني، أو مقياس قومي أو انساني. نحكم على هذا السلف بالحمد والثناء والاشادة ، والتمجيد .

ثم أرونى كتابا واحدا، أو مؤرخا أو عالما أو فقيها أو مشرعا قال فى شىء مما أثر عنه أو حفظ له . إن احدا من السلف الصالح تجاوز الطبيعة الانسانية. وأصبح إلها يعبد ، أو عبقريا لا يخطىء ولا يزل ولا يملك أحد أن يناقشه أو يحاجه أو يثبت عليه السهو او الخطأ أما مايخافه ابننا العزيز الاستاذ حسين أحمد أمين فيما يخافه من أمور ثلاثة وهو أن يستتر فى عقول عدد من المسلمين أو جماعة منهم أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا في أن يكون مثل هذا السلف الصالح وإنى اناشد كل من يعرف القراءة والكتابة أن يقرر ما إذا كان لم يسمع منذ حيا على الارض حتى بلغ أرزله إذا تبقى له ذلك أن كاتبا أو خطيبا أو داعيا كف للحظة عن دعوة أمة المسلمين والعرب إلى التشبه بالسلف

الصالح ومحاكاته بأن لنا في رسول الله اسوة حسنة. أما الأئمة فقد درجوا ان يقفوا إذا كانوا من السلف الصالح، امام الامراء على المنابر وفي المساجد والاسواق يتذكرونهم بما كان من الرسول والخلفاء الراشدين من إقامة العدل وتحريم الظلم وكراهية الدنيا وحب الاخرة .

ولقد ادخلوا في قائمة الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز - الذى لا يعجب الاستاذ حسين أمين وقد تأخر به زمانه عن هؤلاء الخلفاء قرنا أو يزيد من الزمان لأنهم رأوا منهجه قريبا من منهج الخلفاء الراشدين وكان مسلكه هذا قاطع الدلالة في أن جماعة المسلمين لم يروا في سمو السلف الصالح . مجرد صورة تعلق على صدر التاريخ الاسلامي. ينظر اليها ويعجب بها ولا يفكر احد في الأخذ بها . والنسج على منوالها ، بل أن كتابنا وشعراء نا درجوا على القول بأن قوادنا الذين حاربوا من أجل الاسلام في القرون الحديثة، كانوا بمثابة أحفاد للرسول . ولعمر ولخالد بن الوليد ولطارق بن زياد بل أن شوقي منذ أقل من خمسين عاما حيا مصطفى كمال قائد تركيا حينما وقف يحرر بلاده من غزو الانجليز والفرنسيين قال :

يا خالد الترك .. جدد خالد العرب .

وقد دخلت وأنا صبي صغير الى منزل أحد الزعماء فوجدت لوحة مهداة الى قرينته يقول كاتبها لهذه السيدة :

«عائشة أم المؤمنين وأنت أم المصريين» ولم تكن لهذه السيدة نصيب في الجهاد للاسلام أو على علم بشيء من أحكامه إنما هو الاهابة بنا أن نرفع أعيننا الى السلف الصالح، ونحاكيه ونتأسى به ونتعقب خطاه أما الشر الذى يخشاه الاستاذ حسين هو أن نعتقد أن الاجيال التي

جاءت بعد السلف الصالح مجبولة على النقص والفساد ، فان تاريخنا الحديث وربما الحديث جدا يتضمن الدليل على أن حتي صغار شبابنا يحسبون انهم قادرون على أن يعيشوا كما عاش أوائل السلف الصالح فى الملبس والمأكل والزى والمشية والخطوة، والكلمة والاشارة ، لعل مبالغتهم فى هذا وحرصهم على أحياء الماضى والعيش فى أجوائه هو الجدير بتنبيه من الأستاذ حسين أن القديم الموغل فى القدم، لاخير فى تبعته، إنما الخير في بعث مبادئه. وفضائله فهذه لاتبلى وهى مطلوبة فى كل عهد أما مظاهر هذا القديم وأشكال حياته فهى أمور تتطور وتتغير وتزول والتاريخ الاسلامى ملئ بوقائع دول اسلامية. واتسع ملكها وتألقت حضارتها ونشأ فى ظلها القادة ومنشئوا الدول ، وأهل الفكر، كما حدث فى غرب أوربا عندما قامت الدولة الأموية فى هذا الطرف الاقصى من أوربا ، فكانت عواصمها مثابة للعلماء الذين أخذوا عن المسلمين أصول العلم الحديث فى الطب والهندسة والفلك والعمارة والفلسفة والرياضة ثم قامت دول أصغر شأنا كالادارسة فى المغرب والفاطميين فى مصر والشام ودول الممالك الذين شادوا علما رفيعا وحكما سامقا أما القول بأن الشريعة كان تطبيقها ممكنا فى عهد المسلمين الأوائل حينما كانت النفوس صافية، والاخلاق سامية . فهذه حجة قلة من المسلمين يدفعهم الى هذا القول كراهيتهم للاسلام فى ذاته . وخوفهم علي مالهم وسلطانهم فى ظل حكم الشريعة .

وقد ساق الاستاذ حسين أحمد أمين مثلا لمنهج أقوام فى تقدير رجال السلف الصالح فيخطئون فى الميعاد الذى يقودون به الرجال فهم

مثلا يقولون عن عمر بن عبد العزيز انه من أعظم خلفاء الاسلام لمجرد ورعه وتقواه فى حين لم تجلب السياسة المالية والادارية لهذا الخليفة غير خراب الدولة. ولنسلم جدلا فى أن فضل عمر بن عبد العزيز يقتصر على الورع والتقوى ، وأنه حاكم تنقصه القدرة الادارية ، والكفاءة المالية. فهل اذا صح حكم الاستاذ المؤلف على عمر بن عبد العزيز سقط كل السلف الصالح، وهل السلف الصالح، أهل ورع وتقوى ومع ذلك يقبلون النهوض بأعباء الحكم. الا يذكر المسلمون أن ابا ذر الغفارى طلب من الرسول أن يسند اليه ولاية من ولايات المسلمين ، فرده الرسول بقوله : إنك امرؤ بك ضعف ، يعنى أنه رجل تغلبه الرحمة . فلا يأخذ الخارجين على القانون بالشدة التى تروعهم. وهم مثل شائع على ألسنة المسلمين، مما ينفى عن المسلمين انهم لا يعرفون لما يلزم الحكام من حزم وعزم وشدة عند الاقتضاء ولين عند الحاجة .

وإذا كانت الدولة الاموية قد خربت - بعد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فلأن الخلفاء الذين سبقوه لم يكن لهم تقوى عمر بن عبد العزيز ولا ورعه ، وأنهم أحالوا الخلافة الى ملك عضوض ، ولأنهم استعملوا رجالا غلاظ الاكباد ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفى الذى استعمل أقواما فى مثل بطشه كزياد بن ابية فاشاع فى الدولة الفزع وبات الناس على كره للحكام ونقمة عليه ، فلما فشت الدعوة للعباسيين التى تزيت بزى الدعوة العلوية، اقبلوا عليها، وأعانوها على النصر لان الخلفاء ظنوا انهم فى غنى عن خوف الله وتقواه . ولا احسب ان عمر ابن عبد العزيز قد اخطأ حينما قال لعامله على مدينة حمص ، حينما

تهدم حصنها نطلب من الخليفة مالا ليعيد بناء الحصن فقال له حصنها بالعدل فهذه قولة حق وتوجيه حاكم عادل وحصيف فان حصن حمص لم يتهدم لأن المسلمين لا يصلون بل لأن حاكم حمص رجل ليس به ورع ولا تقوى فهو يبدد المال على ملذاته وشهواته، وذوى قرباه حتى لايجد فى خزائنه ما يبنى به الحصن أو يرممه قبل أن يتهدم .

والغريب من الأمر ان الاستاذ المحقق، يريد أن يصرفنا عن الانشغال بالسلف لنرى أمور دنيانا كما تقع اليوم، ولكنه يضرب لنا الامثال برجال هم من السلف ، ولكن جمهور المسلمين كرههم لامور يكره أمثالهم لامثالها. فهو يبدى إعجابه بيزيد بن معاوية الذى لم يل أمر الخلافة بمبايعة صحيحة من المسلمين بل لأن أباه أخذ هذه البيعة له، وهو لايزال على أريكة الملك. وقد جعل وراء كل صحابى فى المسجد ، جلادا يحمل سيفا ليبايع الجميع لابنه لاحبا فيه ولا إعجابا به ، ولا اطمئنانا اليه بل لأنه ابن معاوية فاذا كنا نضن.. على عمر بن عبد العزيز الاموى بالثناء عليه لزهده وورعه وكرهه للظلم ووقوفه فى وجه التعذيب والمطاردة للعلويين لأنهم خصوم الحاكم ، فما أحرانا الا نضرب الامثال للمسلمين بيزيد بن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفى ، مادمنا لا نريد أن نشغل بالسلف بعامة .

وإذا كان لابد أن نعدل بالمعيار الاسلامى التقليدى الذى يحكم على الحكام بالورع والتقوى ، دون الكفاءة والمقدرة السياسية والإدارية فأحرى بنا أن تكون الكفاءة الادارية والسياسية وحدها هى المعيار الذى نقيمه لنحكم على أبائنا وأجدادنا . فقد ثبت أن أشد الحكام كفاءة.

حينما لا يتحلى بالعدل والاناة والبعد عن اصطناع أساليب القهر ومطاردة خصوم الدولة فان مصيره البوار.

وفى المقال أشياء أخرى تستحق المناقشة ولكن قد يطول القول فلنبق ذلك الى مقال آخر باذن الله، وحسبنا أن نشكر الاستاذ حسين أحمد أمين الذى يشق لقراء العربية طريقا شاقا وعرا يكلفه الكثير من الجهد عند الاعداد والتفكير والعرض، بعد البحث والتأمل والتنقيب، ويكلفه أكثر من ذلك تحمل العداوات وآلام الخصوم بالحق وبالباطل، حفظه الله من كيد الكائدين ووفقه الى خدمة وطنه ودينه بفضل علمه واجتهاده وإيمانه .

رمضان أمتع شهور الناس

لقد نجح المصريون ربما منذ عهد الفاطميين ، فى جعل شهر رمضان شهرا لا نظير له ولا ند بين شهور الناس ، طوال الأعوام ، وفى كل بقاع الدنيا .

لقد كان من حظى أن أشاهد فى بعض أقطار العالم أعيادا قومية ودينية ، فى الشرق والغرب ، وكان بعضها معارض فنية ، ومهرجانات يتألق فيها الذوق ، وتصل فيها الجماعة الإنسانية فى التعبير عن ألطف ما فى أعماق نفوسهم من مشاعر الأخوة ، والميل إلى البهجة ، والرغبة فى الغناء والترقص ، والدعابة والفكاهة . والخروج نوعا ما من رتابة الوقار والتقاليد الراسخة ، إلى حد التزيى بأثواب مهرجين ، ووضع تماثيل تحاكى الحيوانات فوق الرءوس والتنكر فى ملابس غير مألوفة والاتيان بحركات غير مقبولة ، ولكن كل هذا إذا قورن بما استقر عن المسلمين المصريين فى شهر رمضان من طقوس للتفريح ، والتماس السرور ، والبحث عن مجالات تتسامى فيها الروح ، ومجالات نقيضها يترخص فيها البدن ، تفوق شهر رمضان المصرى على ما عداه من الشهور .

ولعل مرد ذلك أن الشعب المصرى شعب طبع منذ طفولة تاريخه ، بتدينه ، وبحبه العميق للفن ، وفرحه الشديد بالحياة وتلقائية تعبيره عن

● الهلال - يونيو ١٩٨٢ .

كل ما يتعلق به ، فى دنياه وأخرته ، وتدفق هذا التعبير ، فى حديثه الشخصى ، ونشاطه الاجتماعى ، وقد سجلت نقوش المعابد منذ آلاف السنين كيف كانت حياة المصرى مع زوجته وبناته وبنيه وخدمه ، على شواطئ النيل والبساتين القائمة على هذه الشواطئ وحدائق قصوره وبيوته واحتفائه بالصيد والقنص ، واتقانه لصناعة الجعة . وحرصه على اقتناء البخور الذى يمطر به المعبد والدار ، وآلات الرقص والموسيقى . وتصوير كل هذا على جدران المنازل وحوائط القبور .

كل هذه الطاقات وجدت طريقها إلي التعبير فى أسلوب احتفال المصريين بحلول شهر رمضان ، حتى آخر أيامه . وهو احتفال يبين ما يظهره المصريون من الفرح والبهجة فى جميع أعيادهم ، بل ربما شابت أعيادهم ، سمة من سمات الحزن أو الاكتئاب ، كان أبلغ تعبير عنه ذهاب الأسرة المصرية كلها فى العيد إلى المدفن والمبيت مع الموتى ، وهجر المدينة فى تلك الأيام التى كان يجب أن ينسى فيها الإنسان المدفن ومن فيه ، إلا أن يكون مصاب الأسرة فى فقيدها ، مصابا حديثا لم تلتئم جروحه .

أما فى رمضان فكل علامات المرح والسرور والبهجة ، والسهر حتى السحور وإعداد المطاعم الشهية ، والمشروبات الباردة والساخنة ، وتمتد السهرات ، وتتبادل الزيارات ، والإكثار من أنواع النقل الغالية الثمن ، التى تستورد من تركيا وأوربا ، والتنافس فى إقامة المآدب ودعوة الأصدقاء والأقارب .

ولقد كان من حظى أن أصوم فى مصر ، فى القاهرة ، وفى الصعيد ، والريف فأرى التباين الخفيف فى الأساليب والتطابق فى

الروح والجوهر ، فالمصريون فى شهر رمضان ، يبعثون شعبا آخر . وحياتهم تستحيل إلى حياة لا يعرفونها طوال العام .

ومازلت أذكر كيف كان رمضان عند الأطفال ، مناسبة ينتظرونها ، ويشاركون فيها ، ويظفرون بأجمل وأشهى وأمتع ما يظفر به الطفل .

وقد كنت أحب كل ما فى رمضان حتى المدفع الذى يعلن لحظة الإفطار والذى كان جديرا بأن يبعث الفزع ويدعو إلي الخوف ، كان عندنا فرحة مضاعفة . تهتز له كل جارحة من جوارحنا ، فإذا دعينا للطعام ، فتناهبتنا هذه الأطعمة الكديدة وتلك المشروبات الفريدة ، فالواحد منا يرى أمامه من الأطعمة «الكنافة» و«القطائف» وكأنما صنعا لرمضان وحده ، مع الحلويات التى نأكلها أكثر العام ، كالبسبوسة «والبقلاوة» و«أم على» أما مشروبات رمضان فهى «قمر الدين» و«الخشاف» وتزدحم الموائد حتى عند أفقر القوم باللحوم على أنواعها والدواجن والاسماك غير المشهيات التى تتقن إعدادها وحفظها لشهور عديدة المرأة المصرية ، الغنية والفقيرة ، الحضرية والريفية ، فإذا فرغ القوم من الطعام امتلأت الشوارع والحارات والأزقة بجيوش من الأطفال ، يحملون فى أيديهم الفوانيس المصنوعة من الصفيح المزخرف، والزجاج الملون ، والشمع الذى تتراقص شعلته مع الهواء فى حين تتوالى قذائف القنابل الصغيرة وتتعالى فى سماء الميادين والحارات على السواء ألوان تنبعث من كبريت كان يسمى «كبريت الهواء» يصنع من عيدان طويلة وغليظة ، تشعلها الأطفال ثم يدورون بها فى أيديهم مرة ومرتين ثم يقذفون بها فى الهواء ، فتنبسط دوائر حمراء وصفراء وزرقاء ، تبعث فى قلوب الآباء والأمهات فرحة تمتص بفضلها أحزان العام ، على أنه لا يلبث أن يضاف إلي هذه المهرجانات الضوئية ، لون

اخر من البهجة يبعثها أعواد مغطاه بمادة رمادية تشبه «الأردواز» تشعل كذلك ، فتنبعث منها طاقة ، تتراقص فيها أضواء صغيرة باهتة البياض ، سريعة الحركة ، تسمى «الشمس والقمر والنجوم» وقد يظن ممن يعيشون الآن ، وممن لم يشهدوا رمضان القديم . أن هذه المتعة الضوئية لا تزال باقية ، والحقيقة انها اندثرت كما اندثر معها كبريت الهواء ، فالباقي منها ليس الا ذبالة ضئيلة ، لا تقاس وأضواء الألعاب القديمة وكان للمصريين سعادة مبعثها «المسحراتي» الذى أختفى من حياتنا منذ زمن غير بعيد وما بقى منه ، ليس إلا سبحا ضئيلا ، يجرى في بعض الشوارع ، وكأنما هو مذهب تتعقبه أجهزة الأمن ، لا يكاد يظهر حتى يختفى ، أما . «مسحراتى» العهد القديم فقد كان له صوت رخيم ، ويؤدى أغانى قصيرة جميلة عذبة ، وكان الكبار والصغار يسمعونه فيطربون من جهته ويحسون بشئ من الراحة النفسية ، كأنما الذى يسمعونه هو لون من الذكر ، أو الدعاء أو الصلاة . وكان المسحراتى فنانا شعبيا ، يرتجل الأغاني حسبما يطلب أصحاب الدار الذى يمر بها ، ففى كل بيت طفل أحب أهله أن يدللوه ويمتعوه بسماع أغنية من المسحراتى ، فيعطون اسمه لهذا الفنان العجيب فيصنع أغنية فى الحال ، فتأتى آية فى الأحكام . وقد كان لنا قط نحبه جيمعا . ونؤثره على أطفال البيت فطلبنا من المسحراتى أن يتغنى باسمه وكنا قد أطلقنا عليه «أصلان» فراح المسحراتى يصف أصلان بك ، ويقول عنه أصيل الجدود ، ياللى كرم طبعك والجود» حتى إذا ما انتهى الشهر الفضيل وأردنا أن ننفح المسحراتى ببعض هبات رمضان فى العيد ، قدمنا له «أصلان» فلم ييئس الفنان الأصيل ، وراح يقبل القط ويصف عيونه الجذابة وشعوره اللماعة والجميع سعداء .

ولست أنسى جلستي في شرفة منزلي بشارع «سلامة» بالسيدة زينب ، وهو الشارع الذي شهد أحداث رواية «عودة الروح» والذي جمع بالفن في عدد من الأدباء كان منهم الحكيم والمازني وعلى مقربة منه عاش المنفلوطي والبشرى ، وكان بيتنا نحن مملوكا للملكة من ملكات المسرح في تلك الأيام هي البريمادونة «ملياديان» أي الممثلة الأولى في مسرح الشيخ سلامة حجازي . كنت أجلس في شرفة هذا المنزل فأرى الفتيات قبل الإفطار يحملن في أيديهن سلاطين «الطرشي» تتراقص على حافتها أعواد الجرجير الأخضر ، وأتصور بخيالي الخيار والبصل واللفت والفلفل حمراء وخضراء في هذه السلاطين ، كما تمتلئ سلاطين أخرى بالفول المدمس الذي كانت تشتهر بإعداده محلات ، تستعمل انضاجه عائلات . تفد كلها إلى القاهرة من الواحات ، وتستعمل في مواقدها بقايا «القمامة» التي تلقى في الشوارع ، فيجمعها أهل الواحات ويستخدمونها فيما يسمى «المستوقد» .

أشياء كلها انتهت . ولكن الذين شاهدوها لا ينسونها أبدا ، ومن ذكريات رمضان أنني صمته في لندن في شهر ديسمبر ، نهار لندن في هذا الشهر ينتهي الساعة العاشرة مساء فكان صومنا طويلا ، وكان البرد يزيد من جوعنا ، وكان رمضان عجيبا في هذا الزمهرير ، فلا مدفع ولا مسحراتي ، ولاشئ مطلقا من مظاهر رمضان . ولا طقوسه . مما زاد من وحشتنا . وحدث أن دعانا عضو في مجلس العموم البريطاني . عاش في مصر أكثر من ربع قرن وشارك في أكبر مشروعات الري في بلادنا . فقد كان مهندسا ذائع الصيت . وهو السير مردوخ ما كدونالد . زرناه في مكتبه فدعانا إلى تناول الغداء في مطعم مجلس العموم فخجلنا أن نقول له أننا صائمون واننا في رمضان ، مع أن هذا الاعتذار كان سيوفر علينا موقفا أكثر إحراجا عند الغداء . فقد

لبينا الدعوة وذهبنا إلى هذا المطعم الأنيق الفاخر . وأخذنا نتلفت حوالينا فى دهشة عظيمة . فقد كان حوالينا أكبر شخصيات المجتمع البريطانى فى رأينا على مقربة منا مستر تشرشل أكبر ساسة أوربا . وغير بعيد منه مستر أتلى زعيم المعارضة ورئيس حزب العمال . وقريبا منه مستر «الانبورى» أكبر الاشتراكيين فى تلك الأيام ، وكأننا فى متحف الشمع لمدام تيسو الذى يعرض تماثيل عظماء رجال بريطانيا . مع فارق هو أن المتحف الذى رأيناه فى مطعم البرلمان الانجليزى كانت شخوصه من الأحياء يتحركون ويتكلمون .

وجاء موعد الطعام . وجاءنا الخادم . مرتديا الفراك . وطلب منا على عادة خدم الفنادق والمطاعم فى انجلترا فى تلك الأيام بأدب جم ورقة عظيمة أن نذكر ماذا نريد أن نأكل . وما كدنا أن نعلن لضيفنا أننا صائمون . حتى رأينا السير مردوخ ما كدونالد عضو مجلس العموم الذى كان فى ذلك الوقت في السبعين من عمره حتى قفز على قدميه . وضرب جبهته بيده صائحا : كيف ارتكبت هذا الخطأ .. فى رمضان أدعوكم لتناول الافطار - كان يجب على أن أذكر ذلك ...

وحاولنا أن نخفف عليه . ونقول له أنه يستحيل عليه أن يذكر فى لندن أن رمضان دانى . فرفض اعتذارنا عنه وقال :

أنا عشت في مصر نحو ثلاثين سنة وأعرف رمضان كأنه أحد أصدقائى ، فكيف أخونه هذه الخيانة . وصمم على ألا يمد يده إلى الطعام تأديبا لنفسه .

ومازلنا به حتى هدأ روعة وتناول طعامه وهو يتمتم . رمضان رمضان .

هو الشباب دائما

النار والوقود ، والفكرة والإلهام

ليس فى العالم اليوم أعلى من صيحة الشباب . بل أن العالم اليوم لايشغل إلا بالشباب . تعليم الشباب ، تجنيد الشباب ، الحرص على حيوية الشباب ، حركات الشباب ، هى كل المعين الذى يستمد منه الكتاب موضوعاتهم وبحوثهم ، وهى مجال مترامى الآفاق ، لدراسات المورخين والنفسيين والاجتماعيين ورجال الاقتصاد .

ويلذ للكتاب أن يطرفوا قراءهم بصور عجيبة من وثبة الشباب الحديثة ، لانها تبدو للقراء خارقة للعادة ، ومباينة للمألوف ، إذ تعود الناس ، ان نكون مقاليد الأمور فى أيد أرعشتها الشيخوخة ، إذا أردنا أن نعطى للمسألة صورة متشائمة سوداء – أو فى أيدى رجال حنكتهم الظروف ، وعلمتهم الأيام ، إذا أردنا ألا نغلو ونسرف .

وكم من مرة سمعنا أن بالبو حاكم طرابلس الإيطالى قد أطلق لحيته ليخفى صغر سنه وحداثة عهده بالأعمال ، وأن فلانا من الوزراء ، أو رؤساء الدول ، لم يتخط بعد الثلاثين من سنى عمره .

● الهلال – يناير ١٩٣٥ .

ولكنا نخطئ إذ نحسب أن وثبة الشباب ، التى نراها اليوم ، وثبة فريدة لم يسجل التاريخ شبيها أو نظيرا لها ، لأن تاريخ الدنيا كله ، منذ عرف للدنيا تاريخ ، هو صنع الشباب ، وليس يعرف الناس عملا قلب وجه البسيطة أو ثني عنان التاريخ ، إلا وكان الشباب صاحب فكرته أو واضع خطته بل منفذه كله .

ويسير على القارئ أن يتحقق هذا ، لو أنه جلس في مقعده ، وتأمل في تاريخ البشرية ، واستذكر اسماء أبطالها ، ويحث عن عمرهم واحدا بعد واحد ، ليكتب سجلا للقادة ، ويضع خطا بقلمه تحت اسماء كبارهم وليكتب سجلا آخر للانبياء ، وليحصى بقية المكتشفين والمخترعين وأصحاب المبادئ والعقائد ، وليخرج من هؤلاء جميعا ، الذين بدأوا عملهم بعد أن انحدروا إلي خريف الحياة ، وليبق الباقين الذين تفتحت أكمام شهرتهم فى ربيع أعمارهم . فإذا وجد أن الذين نادوا بالمبادئ والذين قادوا الجيوش والذين فتحوا للناس أبواب التفكير والتصور والذين ألهبوا الثورات وأضرموها كانوا جميعا من الشباب الذين يجرى دمهم في عروقهم حارا والذين يضطرم خيالهم فى رء وسهم مديدا ، استطاع أن يعرف أن الدنيا التي نعيش فيها ليست إلا خلق الشباب وصنع يديه حقا !

ليس فى تاريخ قادة الجيوش اسماء ألمع ، ولا أكثر لألاء من الاسكندر المقدوني ورمسيس الثانى ، ونابليون بونابرت .

واسكندر الأكبر لم يجتح بجيوشه فقط الولايات اليونانية المعادية لبلاده ، ولم ينطلق على رأس جنوده لتمزيق الفرس ، فاتحا فى طريقه إلى الهند أفغانستان ، ومتوليا فى طريقه إلى مصر على سوريا

والعراق ، بل إنه الرجل الذى نقل إلى الشرق ثقافة الاغريق والقائد الذى كان يحلم بدولة إنسانية ، تمتزج فيها الصبغة الشرقية بالصبغة الاغريقية . وقد تم للاسكندر بعض هذا ، على الرغم من أنه ارتقى عرش أبيه في العشرين ، وأنه فارق الدنيا فى الثانية والثلاثين .

أما رمسيس الثانى الذى كان يجول بجيوشه فى سوريا والعراق ذهابا وجيئة عشرات السنين ، فقد كان على رأس جيوشه المظفرة فى الثامنة عشرة من عمره . وليس نابليون مجهولا ، حتى يجوز لنا أن نذكر أنه عرف فى الثورة الفرنسية كضابط عظيم فى الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه قاد جيوش الفرنسيين هازئا معهم بجبال الألب ليهزم النمسويين فى أكثر من موقعة خلدها التاريخ وهو فى التاسعة والعشرين ، وأنه حلم بامبراطورية له فى الشرق وهو فى الحادية والثلاثين .

هؤلاء الذين هبوا بخريطة الدنيا ، وعبثوا بالحدود والفواصل ، كانوا جميعا شبانا ، لو أن الواحد منهم كان فى عهدنا الحاضر ، وأراد أن يسلك الطريق الرسمى ، لما زادت مرتبته عن ملازم ثان !

فاذا انتقلنا إلى الجانب الروحي من الحياة الإنسانية وجدنا عجبا .

إن التاريخ يسجل أن أقدم ثورة دينية عرفها ، كانت ثورة اخناتون الملك المصرى القديم فمنذ أربعة آلاف سنة ، فطن هذا الملك إلى وحدة «الخالق» فأثار تعدد الآلهة فى نفسه سخطا على الكهنة ، فترك لهم طيبة ، ولجأ إلى مدينة جميلة بناها لنفسه علي مقربة من تل العمارنة ، وحرر الفن والتفكير من القيود الحديدية المفروضة عليه وقتذاك ، فانتج

الصناع المصريون فنا هو أبدع ما وصل إليه ابتكارهم وافتنانهم وخلقهم .

كان هذا الملك هائما فى ملكوت روحانياته ، شاعرا ينظم القصائد لمعبوده الذى رمز له بالشـــمس ، ويكتب الأناشيد التى يقول عنها أساتذة التاريخ إنها أشبه شـــئ بمزامير داود . هذا الملك الذى قال عن الله قبل أن تعرف الإنسانية التوحيد بآلاف السنين : «إنه واحد أحد» ، ارتقى عرشه فى التاسعة من عمره ، وألم بدينه الجديد فى الخامسة عشرة ، ووقف فى وجه الكهنة . وهزأ بهم ، وبمعتقداتهم قبل أن يقرب من الثامنة عشرة ! لكن لا يزال تاريخ مصر الروحي حافلا باسماء كثيرة ، لن أذكر لك منها إلا اسما واحدا ، لطول القائمة ، ذلك هو اسم «يوسف» .

فان «يوسف» الذى قال لصاحبيه فى السجن : «يا صاحبى السجن أأرباب متفــرقون خــير أم الله الواحد القهار ؟» ، والذى أدار مالية مصر ، فى سنى قحطها ورخائها ، لم يكن إلا شابا جميلا ، يفتن بحسنه النساء ، فيراودنه عن نفسه وينقمن عليه إذ يصد عنهن ، لأنه رأى «برهان الله» أمامه !

ولو أنك سألت إنسانا ، كم سنة قضى السيد المسيح عليه السلام فى هذا الأرض وبين الناس ؟ لوجدت فى أجوبتهم بعدا عن الحقيقة ، لأن الصورة التى نراها للمسيح صورة رجل التفت لحيته الخفيفة بعارضيه وأكسبته سمة الرجل الكبير الذى تخطى الأربعين ، ولكن السيد المسيح لم يكن إلا شابا فى فتوة الشباب ، فقد كان فى أول العقد الثالث من عمره .

وكان بطـرس الرســول الذى دعا إلى المســيحية ونشــرها فــى روما ، راكبا حماره الهزيل ، مرتديا دثاره الجافى ، شابا لم يبلــغ الثلاثين .

لم يبق إلا صفحة الإسلام ، والناس انطبعت فى أذهانهم صور غريبة للرجال الذين ثبتـوا أركان هـذا الدين ، والذين ظاهروه وباعوا من أجله النفس والمال ليشــتروا بها الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين بـقوله : «إن الله اشــترى من المؤمنــين أنفســهم وأموالهم بأن لهم الجنة» .

يحسب الناس أن الذين وقفوا مع النبى (عليه صلوات الله) ، فى وجه العسف النازل به وبهم ، ولدوا رجالا ذوى لحى طويلة ، وأنهم تخطوا سن الشباب ، أو قفزوا فوقه فلم يعرفهم الشباب . ذلك كله لأن التاريخ الإسلامى تاريخ مهجور ، لا تطرق أرضه قدم ، ولا يبحث فى نواحيه باحث .

لكن دور الشباب فى صدر الإسلام دور عظيم ، بل أن الإسلام لم تنم شــجرته إلا بدمــاء الشــبان ولم تحم بيضتــه ســوى صدورهم الفتــية . ولقد كان رسول الله (ﷺ) يقول يوم أن كان المسلمون مطاردين مراقبين : «اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك» ولم يكن أحب العمرين هذا ســوى عمــر بن الخطاب ، وقد اعتنق عمر بن الخطاب الإسلام فعلا . ولكن كم كانت ســن هذا الذى سيعز الإسلام ويؤيده ؟ لم يكن «عمر» سوى شاب صغير يقترب من السادسة والعشرين من عمره . ولقد اعتز الإســلام بهذا الشــاب فعلا ، وأصبح وزيرا للرسول الذى حكم دينــه الملايين . ولو أنه عين اليوم فى هذه

السن وزير فى دولة من الدول لاهتزت أسلاك البرق وكتبت المقالات وألفت الكتب !

ولقد دعا الرسول ذوى قرابته مرتين ليفهموا منه دعوته وليعرفوا الدين الجديد عساهم يؤيدونه ويؤمنون به ، فنال الرسول الأذى فى المرة الأولى ، وفى الثانية وقف فيهم يسأل : من منكم سيكون وزيرى وساعدى ؟ فلم يتقدم سوى صبى صغير هو على بن أبى طالب ، وكان فى العقد الأول من عمره ، فاحتضنه الرسول واعتز به . ولا أحسب أن التاريخ الحديث قد سجل فى صحائفه أن دولة قامت على مؤازرة الصبيان ومظاهرتهم .

ولما فتح المسلمون مكة أراد النبى (ﷺ) أن ينصب عليها حاكما ليعود إلى المدينة مع الأنصار . فلم يقع اختياره إلا على شاب ، أتعرف كم كانت سنه وماذا كان اسمه ؟ أما اسمه فعتاب ، وأما سنه فثمانى عشرة سنة . ومكة هى مدينة العصبيات الحريصة على المقامات الدقيقة فيما يمس الكرامة .

وقد أنفذ النبى قبيل وفاته إلى سوريا جيشا فوضع على رأسه أسامة بن زيد قائدا . وكان أسامة شابا صغير السن لم يزد عن الثانية والعشرين من سنى حياته ، وقد أدركت الوفاة الرسول والجيش فى ظاهر المدينة ، فلما مرت محنة الوفاة واستقرت خواطر المسلمين قليلا أقبل أبو بكر على تنفيذ ما أرتآه الرسول فى إرسال هذا الجيش وعلى رأسه هذا الشاب . فجاءه عمر بن الخطاب وطلب منه أن يكون على رأس الجيش رجل آخر أكبر سنا وأعلى مقاما ، فجذب أبو بكر عمر من لحيته وصاح فى وجهه : ثكلتك أمك ، أأعزل رجلا نصبه رسول الله

لاضع في مكانه سواه ؟ وخرج الشاب على رأس الجيش ممتطيا صهوة جواده وسار أبو بكر - رضي الله عنه - إلى جانبه على أقدامه ، وهو خليفة المسلمين ، وهيبته تعنو لها الوجوه ، وتسكت عمر الذى لم يسكته إلا الحق .

ولقد كان النبى (ﷺ) يقول : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» ولم يكن يقصد بالحميراء سوى زوجته وأحب نسائه إلى قلبه (السيدة عائشة) ولم يكن عائشة قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها حين لحق رسول الله (ﷺ) بالرفيق الأعلى .

ويخيل إلى الذين لا ينعمون النظر ، أن أبا بكر كان هرما تقدم به العمر على الرغم من أن النبى (ﷺ) كان يكبره بسنتين . والنبى كان فى الأربعين حينما دعا الناس إلى الإيمان بالله الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فكان صاحبه وخليفته من بعده فى الثامنة والثلاثين فقط .

وبعد .... ليس فى قدرة الكاتب أن يجمع الشبان الذين هدوا الناس وعلموهم وغيروا أساليب معيشتهم وطرائق تفكيرهم . ولو أراد أن ينطلق فى التعداد وضرب الأمثلة لوجد أمامه مثل كولبس مكتشف أمريكا الذى أضاف إلى الدنيا قارة وهو فى مطلع شبابه . وغاندى الذى وقف فى وجه الامبراطورية البريطانية فى جنوبى إفريقيا منذ ثلاث وأربعين سنة . وهو بعد فى الثانية والعشرين من عمره . ومصطفى كامل الذى أيقظ الفكرة الوطنية فى مصر وأنفق من روحه ما أفنى حياته وهو فى ريعان فتوته . فى الثانية والثلاثين .

هو الشباب دائما : النار والوقود . الفكرة والإلهام . الخيال والأحلام . التشبث بالمثل العليا .

هو الشباب دائما : الاستهانة بالحياة ، والسخاء فى البذل ، والهيام بالمصارعة والمجازفة .

صاغ للناس تاريخهم ، ورفع لهم شأن حياتهم ، ومنح للوجود معناه ، وجعل العالم قصيدة مفهومة عذبة مستحبة . فان طغت على موسيقاه ألحان هرمة . هرمت الإنسانية وشاخت . وإن شدا كالبلبل فى صباح جميل ، أنصتت آذان القدر ، وجعل الناس يطالعون صفحات لم يقرأوها من قبل .

ماذا أريد من الشباب ؟

فى الفترة ما بين العشرين والأربعين من حياتى ، طلبت من الشباب الكثير ، كتبت إليه دائما ، واستحثثته ، وعاتبته ولمته ، ودعوته إلى أن يفكر فى نفسه ، وفى وطنه ، وفى مستقبل بلاده ، وماضيها وحاضرها.. دعوته إلى أن يثق فى نفسه ، وأن يؤمن بقدرته ، على أن يعمل ، وينتج ، ويخلق الكثير .. فلما بلغت الأربعين ، رأيتنى محمولا على أن أوجه الكلام إلى الكهول والشيوخ ، ليؤدوا واجبهم نحو الشباب ، ويفسحوا له الطريق ، وليأخذوا بيده ، وليتجشموا متاعب التفكير الجرئ ، وليؤدوا ضرائب العمل المدروس .

ولا أحسب أن هناك فرصة أكبر قدرا ، لتقدير عمل الشباب المصرى خلال ربع القرن الماضى ، من فرصة التحدث إلى شباب اليوم، التى أتاحها لى الهلال الأغر ..

أن ربع القرن الماضى، هو عهد الشباب المصرى الذهبى . فقد كان هو وحده الذى غير الأوضاع ، وأعاد بناء الوطن ، وأقام أساسا جديدا للتفكير السياسى ، وحدد اتجاهات مصر .

وقد كان دور الشيوخ والكهول ، فى نفس تلك الحقبة ، دور التعويق والتعطيل والإرجاء والتسويف ، أو الاستنكار والتثبيط ، هذا إذا لم يجنحوا إلى المطاردة والمصادرة ، والإرهاب والإخافة ، والاعتقال والمحاكمة .

وقد يعتذر عن الشيوخ والكهول ، بأن الاعتدال والإبطاء ، هما طابعهم المميز لهم فى كل زمان ومكان ، وأن الطبيعة وزعت

المزايا والنقائص ، على فترات عمر الإنســـان المختلفة ، ليحـــدث من هذا الاختلاف والتباين ، التعاون والتكامل ، ولتتم حكمة التوالى والتعاقب .

ولكن الشيوخ والكهول فى مصر ، تجاوزوا فى الخمس وعشرين سنة الماضية ، الاعتدال إلى التفريط ، والإهمال ، والخوف من المسئوليات ، والتشبث بالواقع المرير ، والرضاء به .

لقد كان يعوز شيوخنا الإيمان بشئ . والإيمان هو هذا المولد الكهربائى الهائل ، الذى يحرك الهمة ، ويثير الخيال ، ويدفع إلى المجازفة ، ويخلق الآراء الجديدة ، ويغرى بالقتال والمصارعة . والإيمان يجدد شباب الإنسان ، ماديا وروحيا ، فكم من شيخ أبلت الأيام بدنه ، ومع ذلك بقى متماسكا ، يعلو صوته ، وتلمع عينه ، ويشتعل فى عروقه دمه ، لأنه يؤمن بشئ عظيم ، أو بشئ يراه عظيما ! وكم من شيخ بقى على رأس جماعة من المؤمنين، يجالد ويصارع ، ويكر ويفر ، ويخيف الخصوم ، ويخاف منه الخصوم !

وقد خلا تاريخنا الأخير ، من شيخ من هذا الطراز . فما من أحد منهم كان يدعو فى شبابه إلى التغيير والثورة، والتحرير أو التطور ، إلا تطامنت نفسه ، وقبل أن يستكين إلى جوار ذى سلطان ، سواء أكان صاحب السلطان ، هو الملك ، أو حزب من الأحزاب الرجعية ، أو جماعة ذات نفوذ زائف ، تستمده من المصانعة ، والمسايرة .

ولو راجعت ما كان يكتب قبل سنة ١٩٢٤ ، وما كان يكتب بعد سنة ١٩٣٠ ، لهالك الفرق بين كتابات ملؤها التطلع إلى المستقبل ، وتحدى أكاذيب الماضى ومخاوفه ، وكتابات ملؤها الاستخذاء والاستجداء ..

ومن هنا وقع العبء على أكتاف الشباب .. وقد كان شبابا غير مجرب ، لأن أساتذته اختفوا ، ولأن قادته فروا من الميدان ، فكان يخبط على غير هدى ، ولكنه مع ذلك كان شجاعا واثقا من نفسه ، لأن ما نعيش اليوم عليه ، هو من صنعه وخلقه ، ولقد اختلف موقف الزعماء التقليديين منه في الظاهر ، وإن اتفق في الجوهر . فهم بين رجل يتملق الشباب ليستغلهم في حروبه مع منافسيه ، أو رجل يطاردهم ، إبقاء على نفسه ، وكلا الرجلين لم يتطور ، وكلا الرجلين رفض أن يسير مع الزمن !

ولكن لماذا هذا الكلام كله ؟

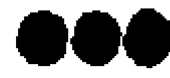
ليس هذا الكلام إنكارا لفضل أحد من أصحاب الفضل ، ولا هو من قبيل المفاخرة والمباهاة ، فأصحاب الفضل لا يمكن أن يختفي فضلهم لمجرد كلمة جحود تقال في حقهم ، فالشيوخ الطيبون الذين حاولوا أن يمدوا يدهم للجيل القادم ، لا يزعزعون من قوة القاعدة ، فهم استثناء صغير ، يدل على تلك القاعدة ويؤكد وجودها .

وإنما الغاية من هذا الكلام أمران :

أولهما : أن يعرف الشباب ، شباب هذا الجيل ، ماذا فعل أخوانهم، الذين اكتهلوا الآن ، ودلفوا إلى الأربعين ، لينتفعوا من تجاربهم ، وليفيدوا من عثراتهم ، وليتعظوا من أخطائهم .

وثانيهما : أن يعرف الكهول والشيوخ ، المصير الذي صار إليه اندادهم واشباههم في الجيل الماضي ، فيحذروه ويتقوا أن يصيروا إليه وشباب اليوم مرجوون ، على ضوء تجربة الماضي ، ألا يسلموا أنفسهم للاستغلال ، ولا يحميهم منه ألا أن يفكروا لأمتهم ، ولن يتيسر لهم أن

يفكروا إلا إذا وضعوا لها نظاما ، والتزموه بقدر الطاقة . إن المطابع اليوم ، تقذف فى كل لحظة، اكداسا من المطبوعات ، وكل مطبوع يجذب عقل الإنسان إلى ناحية ، فليقرأ الشباب ، ليعرف هذا العالم المتجدد المتطور المتدافع ، وليؤجل ارتباطه بحزب أو بفكره ، إلى أن يعرف مواضع أقدامه جيدا ، فإذا ارتبط ثبت فى موقفه أمام الاعاصير التى تهب عليه من الخارج ، والأعاصير التى تهب عليه من داخل نفسه .



والشباب المصرى مرجو بعد ذلك أن يعرف قدر المكان الذى تقع فيه لمدة .. ليعرف أن الحضارات نبتت منه ، وأن الرسالات احتمت به ، وأن مصائر الامبراطوريات تحددت على أرضه ، لايزال البحر الأبيض المتوسط ، هو البحر الأكبر ، ولا تزال البلاد الواقعة حوله ، هى بلاد الحضارة ، والخطر السياسى ، لقد سقطت فى يد ميكادو اليابان هونج كونج واندونيسيا وكتل بشرية ضخمة ومساحات اقليمية شاسعة ، وسقطت أوربا كلها فى يد هتلر سيد المانيا ، ومع ذلك كانت موقعة العلمين، وحرب شمال افريقيا ، هما نقطة التحول ، وبدأ انحسار موجة الزحف الفاشستى بعدهما .. فمصر التى تحدد على أرضها مستقبل اسكندر المقدونى ، ثم مستقبل يوليوس قيصر ، ثم مستقبل مارك انطونى وأوكتافيوس وكليو باترة ، ثم مستقبل نابليون ونلسون .. هى مصر التى تحدد على أرضها مستقبل هتلر وبريطانيا ، واليوم يختلف الانجليز والامريكان على قيادة البحر الأبيض ، ويقوم على زعامة البحرية مونتباتن البريطانى وكارنى الأمريكى ، لأن الامبراطوريتين القديمة والجديدة يعلم كل منهما ، ما هو البحر الأبيض المتوسط ، وما دور الدول التى تقع عليه .

فالشباب المصرى يجب أن يفكر على أساس أن أمته لا يمكن أن تكون تابعة ، على الأقل من الناحية الروحية . وأنها لا يمكن أن تلعب دورا وسطا ، فهى إما حكومة تجاهد غاصبيها ، وإما حاكمة فى الصدر، تزحف ، وتؤدى رسالة القيادة .

فلا تلفت أذن حضارات العالم وثقافاته ، قلب الشباب وذهنه ، عن حضارة بلده . ولا يقنع بأدب الغرب وفلسفته ، عن هذه الكتب الصفراء القديمة المتوارية فى رفوف المكاتب المهجورة . وليثق أن فى هذه الكتاب معينا لا ينضب ، وأنه كان مصدر وحى الذين خلقوا حضارة أوربا المادية .

صحيح أن هذه الكتب غامضة وأنها بعيدة عن منال عقل الشباب اليوم ، ولكن العيب فى ذلك ليس عيبها وحدها ، إنما هو عيب الذين هجروها ، ولم يوالوها ، بالرعاية والاتصال ..

وعلى الشاب المصرى أن يؤمن بأن مظاهر الحضارة المادية ووسائلها وأدواتها شئ غيّر الحضارة نفسها ، وأن العلوم المادية التطبيقية ، ليست سوى ثمرة الآداب والفلسفات والموسيقى ، فهى نتيجة وليست سببا للتقدم . فيجب أن نستزيد من أدوات الحضارة الأوربية الغربية من المصانع والمطابع ، ومن الطائرات والتليفونات ، ويجب أن نصطنع أسلوبهم فى البحث ، وطريقتهم فى الدرس . وأن ننظم تفكيرنا، على الصورة التى نظموا بها تفكيرهم .. ولكن لا شئ أكثر من هذا ، إذ يجب أن يحيا تراثنا الأدبى والفلسفى والروحى ، فى نفوسنا من جديد، يجب أن نصل أنفسنا دائما بأجدادنا، لا على سبيل التفاخر والادعاء

والمباهاة ، بل لنكون نحن ، وإلا كنا صورة شوهاء من غيرنا ، فاحتلوا عقولنا ، ونفوسنا ، وذقنا مرارة الحيرة ، وعذاب «التيه» ، كل أمة تعيش على أساس من ماضيها ، فالانجليز واليابان .. والألمان والروس ، لا تزال حياتهم تنبض بدم متجدد من الأجداد .. ولذلك كانوا سادة وتقدموا ..

فلنسلك المسلك الذى ساروا فيه ، وستكسب الإنسانية من ذلك خيرا عظيما ، فنحن أبناء أمة الإنسانية الكبرى ، علمناها فى الماضى ، وسنعلمها فى القريب .. إذا أراد الشباب .

مشكلة نشيدنا القومى

مصر اليوم بين الأمم ، أمة بلا نشيد قومى، وبلا شعار تضعه فوق رأسها ، ولعلها بهذين النقصين فريدة .

وإذا افترضنا أن الحركة الوطنية المصرية بدأت آخر أدوارها الحديثة ، منذ بدأ مصطفى كامل يكتب مقالاته فى جريدتى الأهرام والمؤيد سنة ١٨٩٣ حتى أصدر اللواء فى ٣ من يناير سنة ١٩٠٠ الذى اتبعه بانشاء الحزب الوطنى فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، إذا اعتبرنا أن الحركة الوطنية المصرية فى دورها الأخير قد بدأت فى تلك السنة، فكان هذا الدور قد كاد يكمل قرنا إلاّ عشر سنين ، ومع ذلك فان تسعين سنة كاملة، انتظمت مرحلة مصطفى كامل، ومحمد فريد، والعمل الثورى خلال حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، ثم ثورة سنة ١٩١٩ ، ثم ثورة سنة ١٩٥٢ لم تكن كافية، لتصنع مصر خلالها نشيدا قوميا لها تتغنى به فى جميع المناسبات القومية ، كما تفعل جميع الأمم فى الشرق والغرب، وتعلمه لأطفالها فى رياض الأطفال بل وبيوت الحضانة، وتلقنه للجنود فى الثكنات ، وعلى سطح السفن والبوارج التى تمخر عباب البحر وأمواج المحيط .

ولما أرادت الحكومة أن تستبدل بلحن «والله زمان يا سلاحى» نشيدا غيره ، اختارت لحنا وضع الفاظه يونس القاضى الذى ضمنه كلمة مصطفى كامل الدائمة الرنانة : «بلادى ، بلادى لك حبى وفؤادى» .. وإن كان قد أكمله بكلام لم يقله مصطفى .

● الهلال - يونيه ١٩٨٣ .

ومع ذلك فإن لحن هذه الأغنية لم يتجاوز أن يكون جمله الموسيقية ، فى لحن الإذاعة المميز ونشيد الدولة الموسيقى .

وقد قصرت همتنا ، عن أن نجعله نشيد البلاد الرسمى، بمعنى أن يحفظه أولادنا ، وشيوخنا ، العسكريون هنا والمدنيون ، يعنى أن مصر لاتزال بلا نشيد .

فما هو السر ؟

لقد حاول الشيخ على الغاياتى ، وهو بعد شاب ، يكتب فى جريدة اللواء إبان رياسة تحرير مصطفى كامل، بعث طاقات شعرية وطنية ، تنتفض حماسة وتفيض حرارة ، وأن يضع نشيدا على نسق نشيد الثورة الفرنسية الذى نظمه الشاعر «روچيه دى ليل» وجاءت به فرقة من الثوار من مرسيليا الى باريس ، لتدعم ثوارها فذاع وشاع ، وطرق كل الاسماع ، واطلق عليه اسم «المارسييز» نسبة إلى مرسيليا التى حملت هذا النشيد على السنة بعض أبنائها فتلقفه أبناء العاصمة ، ورتلوه فى كل مناسبة ، وجعلوه هتافهم الثورى ، واشعارهم الوطنى ، حتى بات علما على ثورة بلادهم سنة ١٧٨٩ ، ثم على فرنسا كلها ، فعاش نحو مائتى عام ، لا يغير فيه حرف ، ولا يحل محله شعر ولا لحن .

ووضع الشيخ على الغاياتى نشيدا ، وضمنه ديوانه الشهير «وطنيتى» الذى قدم له الزعيمان محمد فريد رئيس الحزب الوطنى والشيخ عبدالعزيز رئيس تحرير اللواء بعد مصطفى ، فدفع عن المقدمة الرقيقة الأدبية الخالية من العنف ، ستة أشهر فى السجن كانت من نصيب محمد فريد، وثلاثة أشهر كانت من نصيب الشيخ عبدالعزيز ، وسنة كاملة من نصيب صاحب الديوان «على الغاياتى» الذى أثر الهجرة

فترك بلاده سنة ١٩١٠ إلى چنيف فى سويسرا ، حيث خلع العمامة والجبة والقفطان ، ولبس القبعة ، واتقن الفرنسية فأصبح يكتبها ويقرأها ويخطب بها ، كواحد من أبلغ أبنائها وهو ازهرى قح ، وفد من دمياط إلى القاهرة ليلتمس العلم فى رحاب هذا الجامع العريق ، وليحاور فيه كبار علمائه ..

أما النشيد الذى وضعه واقترحه ، فلم يسمع به أحد ، ولم يجربه لسان ، وإن كان الديوان الذى احتواه ، بقى نصف قرن أو يزيد أشهر دواوين الشعراء فى مصر ، قبل أن يطبع ديوان الشوقيات ، وتتداوله الأيدى .

ومضت سنوات بعد ذلك وسنوات وعصر بلا نشيد ، حتى فاض وحى الشعر على أحمد شوقى أمير الشعراء ، فوضع نشيدا مطلعه :

بنى مصر مكانكمو تهيا
فهيا مهدوا للملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا
الم تك أو لكم مليا

وعلى الرغم من أن شوقى قصد أن يكون هذا الشعر نشيدا لبلاده ، فإنه لم يتجاوز النشر فى الصحف ، فلم يحفظه معهد» ولم يحتضنه حزب ، ولم يؤده وظيفة النشيد الذى تجتمع عليه الأمة ، ويحس كل أفرادها أو أكثرهم ، أنه صرختة فى وجه الأعداء ، وهتافهم عند الجلاء ، وكلمة السر ، إذا حانت ساعة البذل والفداء .

وسنرى بعد قليل أفات هذا الشعر وعيوبه كنشيد ، وخلوه من الحرارة وعجزه عن الإثارة .

وجرب أمير الشعراء حظه فى نشيد آخر ، ولكنه كان فى هذه المرة لقطاع من أبناء الأمة ، هم شباب الكشافة ، فلم يكن أسعد حظا من النشيد السابق ، قال رحمه الله فى نشيد الكشافة :

نحـن الكشـافة فى الـوادى
جبـريـل الـروح تنا حـادى
يـارب بعيسـى والهـادى
وبموسـى خذ بيـد الوطـن

وقبل أن تنطوى صفحة الكشافة فى بلادنا ، انطوت صفحة هذا النشيد الذى كان لحنه أشبه بمقطوعة ، استجداء ، كانت تطرق أسماعنا ونحن فى دورنا نسمعها كثيرا حتى حفظناها ثم بدأنا نرددها «الحمد لرب المقتدر» وقامت ثورة سنة ١٩١٩ ، وخرجت الجموع ، لأول عهدها ، تملأ الشوارع ومظاهرات الالوف ، تحمل الالوية المرفوفة وتسبقها نعوش الضحايا ملفوفة بالعلم المصرى ، وفى النوافذ والشرفات ، ربات الخدور ، يهتفن لمصر ، وللموت من أجلها ، والفداء فى سبيلها ، ورصاص الانجليز يأز فوق الرءوس ، ثم يخترم الصدور فيغسل بلونه الأحمر كل صحائف الخوف واتقاء الموت وكان ذلك كله هو الجو الذى تولد فيه الأناشيد ، أحيننا تنبعث من وجدان الشعب ، لا تعرف معها اسم الشاعر ، ولا اسم واضع اللحن ، ولا تدرى من جاء الالهام بهذه الالفاظ ، السهلة الواضحة القوية الرنانة الثائرة ، وكيف عبرت برشاقة وجزالة ، ولطف واناقة ، عن كل ما فى النفس ، وقت الثوران والهياج من رفض الاذعان ، وتحد للقوة ، وأمل فى المستقبل ، واصرار على الكفاح ، وهزء بالمصائب والآلام .

جاءت الثورة ، واشتدت الحاجة إلى نشيد ، وبعد طول المخاض ، ظهر نشيد الشاعر مصطفى صادق الرافعى ، الذى لحنه «صفر على» والذى كان مطلعه :

اسلمي يا مصر أننى الفدا

ذى يـدى أن مـدت الدنيـا

أبـدا لـن تسـتكيني أبـدا

اننى أرجـو مع اليـوم غـدا

وليس ثمة شك فى أن هذا النشيد، قد الهبت الفاظه نار الثورة ، ولكن وهى تخبو ، خلال من هذه المواعظ التى اثقلت نشيد شوقى فاحالة إلى قصيدة ، وتخلله عبارات المباهاة ، بتاريخ مصر ومجدها ، ولكن بعبارة تضفى مللا وسأما ، كان قائلها قد شفع من كثرة ما أشاد بهذه الأمجاد ، حتى كادت تصبح كمناجاة الاطلال ، فى مطالع الشعر الجاهلى .

وقد احتوى شعر مصطفى صادق الرافعى معان وطنية جميلة مثل قوله :

ويل يا من رام تقييـد الفـلك

أى نجم فى السما يخضع لك

وطن الحـر سـما لا تمتـلك

والفتى الحـر بأفقـه مـلك

ولكن مثل هذه المعانى ، ليس مكانها نشيد ، فالنشيد فى واقع الأمر إهابة واثارة ، ودعوة ، وتحد ، فالتشبيهات الجميلة ، والحكم الرائعة تبطئ بها ولها حركة النشيد ، ويفقد معها تدفقه ، ويتحول من صيحة

صادرة من قلب الجموع ، إلى مخاطبة من الشاعر للمنشدين ، وقد كان «نشيد المارسييز» بدعوته الافتتاحية : «إلى السلام ! إلى السلاح ! أيها المواطنون فإن يوم النصر قد وافى».. هى النغمة النموذجية التى يجب أن يحتذيها مؤلفو الأناشيد ، ولكنهم اخطاؤها جميعا حتى فى أناشيد ، الأمة العربية مثل نشيد : «بلاد العرب أوطانى» ..

المفروض أن ناظم النشيد ، يتصور عدوا أمامه ، ويتصور نفسه قائد جموع تتحفز وتنجمع وتتلاقى للهجوم على هذا العدو ، وأنها تتلقى من قائد مجهول الأمر بالانطلاق والركض والعدو والوثوب والقفز فى خفة وسرعة وشجاعة ، فالحديث عن حب المنشدين للوطن ، وإشادتهم بمفاخره ومآثره ، قد يبدو لبعض الشعراء أنه المعنى المحبب ، والحقيقة أنه المعنى الذى يجب تجنبه ، لأن النشيد معناه أن جموع المنشدين هم طليعة الشعب المهاجم ، فمن الفضول أن يعلنوا أنهم يحبون وطنهم وإنما المطلوب هو إعلانهم أن حبهم لوطنهم العزيز تجسد فى اجتماعهم للقضاء على أعدائه ، وكل من يعمل على تقييده أو انتقاص حريته أو المساس باستقلاله أو عزته .

وقد خطى مصطفى صادق الرافعى خطوة بعد «نشيد إسلمى يا مصر» عندما نظم نشيده الثانى الذى استفتحه بقوله :

حماة الحمى يا حماة الحمى
هلموا هلموا لمجد الزمن

لقد صرخت فى العروق الدما
نموت نموت ويحيا الوطن

ولكن هذا النشيد كنشيد اسلمي مصر كلاهما لم يكتب له النجاح المطلوب ، وبقيت مصر إلى اليوم بلا نشيد .

فما هى دلالة هذه الظاهرة ؟

وما هو السبيل للخلاص منها ؟

إن عجز المصريين عن أن يكون لهم نشيد مع كثرة المحاولات ، ليس مرده أن الشعراء لم يوفقوا إلى نص يلقى من الجماهير قبولا إنما سببه أن الجموع لم تحس الحاجة إلى نشيد ، والجموع لم تحس هذه الحاجة ، لأن التربية السياسية فى مصر ، لم تبذل سعيا مؤثرا ومثمرا، يقوى من روح الجماعة والرغبة في العمل المشترك ، والمستمر والمنظم ونشاهد انتفاء روح الجماعة فى كثير من نواحى حياتنا العامة والخاصة، فما أكثر أسماء العائلات المصرية الكثيرة التى اختفت فى مصر، على عكس الحال بالنسبة للعائلات الوافدة من الأجانب واليهود، وبعض العرب الذين اصطنعوا الحياة الأجنبية ، وحاكوا أساليب الاوروبيين . فقد عرفت مصر ، تجارا كبارا ، اثروا ثراء عظيما ، واقاموا مؤسسات تجارية رابحة ، فإذا مات كبير العائلة من هذه العائلات اختلف الورثة واشتد بينهم الشقاق واختفى الاسم الكبير ، وتعطلت المتاجر الواسعة والرابحة من ذلك : عائلة مدكور ، التى كان يرأسها عبدالخالق مدكور باشا سر تجار مصر ، وعضو الجمعية التشريعية ، ومن ذلك أيضا عائلات السيوفى ، والجمال ، والحمصانى ، والراعى ، والماوردى والمويلحى .

وفى عالم الصحافة أخذت جريدة البلاغ التى أسسها عبدالقادر حمزة باشا ، وكوكب الشرق التى أسسها أحمد حافظ عوض بك ، والجهاد التى أسسها محمد توفيق دياب بك ، والسياسة التى أسسها حزب الاحرار الدستوريين ورأس مجلس ادارتها حافظ عفيفى باشا ورأس تحريرها محمد حسين هيكل باشا .

فى حين بقيت محلات شيكوريل ودواد عدس وبنزايون وبلاتشى ، وكلهم يهود ، كما بقيت جرائد الاهرام ، والمقطم والمقتطف والهلال أجيال ، ولولا تمصير وتأميم الصحافة لاستمرت هذه المؤسسات ، ولا تزال محلات تجارية انقضى على تأسيسها أكثر من قرن قائمة تحمل على جدارها الامامى ، تاريخ إنشائها ، وقد تغيرت الأحوال وعدلت القوانين وانظمة الحكم ، وهى راسخة تباشر نشاطها ، يتوارثها جيل بعد جيل .

فالمصرى لايزال يحسن العمل إذا انفرد ، فإذا اجتمع مع سواه ، أعوزته روح التآلف والتكيف ، والإيمان بأن تعدد الأيدى ، وتقادن المواهب ، يزيد العمل قوة وكفاءة ، ويطيل عمره بعد جيل المنشئين والمؤسسين ولا نزال نذكر أعمالا ومشروعات وافكارا بدأت فى مجال مختلفة ، ثم اختفت بدون سبب واضح ولا علة مفهومة .. خذ مثلا المسرح المدرسى الذى بذر بذوره المرحوم محمود مراد مدرس التاريخ بمدرسة الخديوية الثانوية عقب ثورة سنة ١٩١٩ ، والذى ألف وأخرج على مسرح هذه المدرسة أوبريت مجد رمسيس ، ثم اتسع نطاق المسرح المدرسى ، وعظم نشاطه ، فما كانت تخلو مدرسة فى القاهرة أو فى ريف مصر أو صعيدها من مسرح ، وفى المدارس كان نظام التوفير بطوابع البريد رائجا ومنتشرا ، وكانت حركة الكشافة مزدهرة ، وبدأ مشروع القرش حياته فى نجاح شمل مصر من اقصاها إلى اقصاها ، ثم انطوت صفحته ، واختفى خبره .

والنشيد الوطنى ، ليس لفظا يحفظ وشعرا يردد وإنما هو إيحاء بالتجمع تعلو به موجة الروح العامة ، وتتدفق لها فى العروق الدماء ،

ويزداد الاتصال بين أبناء الشعب ، وتختفي بها كثير من الآفات التي تتردد بان كل فرد يحس بوحدته وانعزاله ، وانقطاع صلته بسواه .. ومثل هذا الشعور ، يؤخر أموراً كثيرة في بلادنا ، ويزيد من اعتماد الجماهير على الحكومة ، وانطفاء روح الابتكار ، ومواجهة الآفات والعيوب الاجتماعية ، وتغاضي الإدارة في الاستجابة .. لمطالب شعب ورغائبه ولا شك في أن التربية في عهد الاستعمار ، وفي عهد الحكم العثماني وحكم المماليك ، وحكم العائلة المالكة ، شجع من هذه الروح التي تأبى التجمع – وتكره التلاقي ، والتنظيم ، والاستمرار والمثابرة ، ولذلك فنحن في أشد الحاجة إلى منح النشيد القومي العناية اللائقة به ، على أن نفهم سلفا معنى النشيد ، ودوره ، ودلالته .

ولابد أن تتكاتف الأحزاب والصحافة ووزارة الثقافة ، وأجهزتها ، وزارة التربية والتعليم ، والقوات المسلحة وأجهزة الاتصال بالجماهير التي تعرف باجهزة الاعلام ، على وضع النشيد ونشره بترديده مرات في اليوم الواحد حتى يحفظ ويستقر في النفوس .

تأملات

« فى كتاب القتل السياسى »

شهدت مصر فى الفترة التى صاحبت ثورة سنة ١٩١٩ وأعقبتها نشاطا سياسيا عنيفا لم تشهد مثله . وذلك بسنوات ، وكان من خصائص هذا النشاط أنه لم يكن ينقضى سوى بضعة أيام أو على الأكثر أسابيع حتى تقع جريمة قتل أو محاولة وبذلك لم ينج وزير من وزراء تلك الأيام من محاولة قتل تهدد حياته . ثم هدأ هذا النشاط حتى كاد يتوقف تماما ثم استؤنف فى الحلقة الرابعة من القرن العشرين وتصاعد حتى بلغ غاية العنف والشدة .

وقبيل ثورة سنة ١٩١٩ أى فى ٨ أبريل سنة ١٩١٥ حاول مجهول قتل السلطان حسين ، قتله بعيار نار من مسدس إلا أن القذيفة لم تصبه وأصيب بعدة جراح وفى يونيو من نفس العام تمت محاولة اغتيال ابراهيم باشا فتحى وزير الأوقاف ووقعت المحاولة فى محطة السكة الحديد بمصر وكانت وسيلة القتل خنجرا ، اذ طعن المجنى عليه ثلاث طعنات ، وحكم عليه بالموت ونفذ فى القاتل صالح عبد اللطيف حكم الموت ، وفى ١٠ من يونيو سنة ١٩١٩ شرع مجهول فى قتل رئيس الوزراء محمد سعيد باشا أمام منزله بالاسكندرية ولم يقبض على الفاعل .

● الهلال - يونيو ١٩٨٧ .

وفى ٢٢ من يونيو سنة ١٩١٩ تمت محاولة أخرى لقتل محمد سعيد باشا وقد اقتصرت هذه المحاولة على مجرد بلاغ من مجهول عن نية آخر لقتل رئيس الوزراء وأنهم خبأوا قنبلتين فى مكان ما لإتمام الجريمة وقد تم تفتيش المكان ووجدت قنبلتان . لكن الشرطة لم تهتد إلى الفاعلين ثم تلقت النيابة بلاغين فى ٢٢-٦-١٩١٩ ، ٢-٩ من نفس السنة عن التحضير لقتل محمد سعيد باشا ولم تسفر هذه البلاغات عن شيء ، وقد اتهم فى هذا البلاغ الدكتور محمد سعيد باشا أحد رجال التعليم وعبد الحى كيره أحد البارزين فى العمل السياسى السرى اتهم معهما فى هذه الجريمة طالب بالأزهر يدعى سيد محمد على ومحمد شكرى الكرداوى موظف وقد حكم على الأول بعشر سنوات سجن مع الشغل وحكم على الثانى بخمسة عشر عاما ، وقد فر الأخير من وجه العدالة وبقى مختفيا حتى انتهت فترة قيام الحكم بالعفو .

وفى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ قتل الكابتن صموئيل كوهين أثر اصابته بأربعة أعيرة وواضح أن هذاالقتيل كان من الضباط اليهود الذين يعملون مع البريطانيين فى المستعمرات .

وفى يوم ١٢ من نوفمبر سنة ١٩١٩ اطلق مجهولون على أربعة جنود بريطانيين اثنين برتبة جاويش وعسكريين واقتصرت الاصابة على واحد من الأربعة ولم يضبط أحد كما وقعت محاولة مشابهة فى ١٥ - ١٢ - ١٩١٩ على أحد الضباط الإنجليز ولم يصب ولم يقبض على أحد كما لم يقبض على أحد فى محاولة قتل اثنين من الضباط الإنجليز أثناء سيرهما ومعهما فتاتان انجليزيتان وبعد عدة اعتداءات على جنود وضباط إنجليز وقعت عدة محاولات قتل على الوزير اسماعيل سرى

باشا فى ١٨/١/ ١٩٢٠ ومحاولة أخرى فى ١٢/٢/١٩٢٠ على الوزير محمد شفيق باشا وكان كل منهما وزيرا للأشغال العمومية ومهندس رى كبير ، ثم جاء دور القضية الكبيرة التى سميت قضية المؤامرة الكبرى ووجه الاتهام فيها إلى الوطنى الكبير عبد الرحمن فهمى بك وكان سكرتيرا للجنة الوفد بالقاهرة واتهم معه عددا من خيرة شاب مصر مثل محمد لطفى المسلمى وكان طالب حقوق وامتد عمره وأصبح نائبا من نواب الشرقية وحسنى عبده الشناوى .

وكان كذلك طالبا بكلية الحقوق وتوفيق صليب الذى اشتغل بالصحافة فى أكبر الجرائد والدكتور محمد حلمى الجيار كان طالب طب وحصل على إجازة الطب من جامعة استانبول بعد أن فر من السجن وكان جرجس عبد الشهيد الذى وصل إلى منصب المستشار بمحكمة الاستئناف وحامد المليجى الصحفى وابراهيم عبد الهادى الذى وصل لمنصب رياسة الوزراء وهو الذى فى عهده صدر قرار تنفيذ حل جماعة الأخوان المسلمين بعد قتل محمود فهمى النقراشى . وقد استمرت هذه القضية شغل البلاد والشاغل حتى حكم فيها بعقوبات شديدة أول الأمر ثم خففت . وعادت محاولات قتل الجنود الإنجليز فى شوارع القاهرة وكان من هذه المحاولات وقع فى ٦ من مايو سنة ١٩٢٠ ثم ٨ من مايو نفس السنة ثم ٩ من نفس الشهر ونفس السنة ومحاولة أخرى مماثلة فى ٢/٦/١٩٢٠ ثم شرع فى قتل توفيق نسيم باشا رئيس الوزراء فى ١٢/٥/١٩٢٠ وقد قبض على المتهم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالموت فى ٢٦/٦/١٩٢٠ ونفذ الحكم فى ٨ من يوليو .

ثم اتهم عدد من المتـهمين فى قضية المؤامرة الكبرى التى كان المتهم الأول فيها هو عبد الرحمن بك فهمى بمحاولة قتل شهود الاثبات فى تلك القضية الأولى .

وأطلق الرصاص مرتين على محمد بدر الدين بك مدير الأمن العام فى يومى ١٩٢١/١/١ و ١٩٢٢/١٢/٥ ولم يعرف الفاعل . ثم اطلق عيار نارى على محمد عبد الخالق باشا فى ١٩٢٢/٢/٢٣ واتهم أربعة ، ثم أطلق سراحهم عندما صدر قانون عفو. واستمر إطلاق الأعيرة النارية خلال سنة ١٩٢٢ على ضباط وجنود بريطانيا اثناء سيرهم فى شوارع القاهرة وقد بلغ عدد محاولات قتل هؤلاء الجنود نحو سبع محاولات وتمت محاولة ثامنة فى ١٩٢٢/٤/٢٣ فقتل عبد الخالق ثروت وقبض على أربعة متهمين وقدموا للمحاكمة وحكم عليهم بأحكام متفاوتة.

ولكن حسن باشا عبد الرازق عضو حزب الاحرار الدستوريين والاستاذاسماعيل زهدى قتلا على أبواب نادى حزب الاحرار الدستوريين فى يوم ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ وكان حسن باشا من كبار أعضاء حزب الأحرار ، وقد حوكم على هذه الجريمة الدكتور شفيق منصور وزملاؤه فى قضية قتل السردار البريطانى (قائد الجيش المصرى السير لى ستاك باشا فى١٩٠ من نوفمبر سنة ١٩٢٤) .

وقد وصلت هذه السلسلة الطويلة من حوادث القتل ومحاولته إلى حادث ضخم ، كان له دور كبير تجاوبت به أصداء مصر والعالم كله ، وأعنى به مقتل الجنرال الإنجليزى السيرلى ستاك الذى أسندت إليه الحكومة قيادة الجيش المصرى ليجرده من كل مقومات الجيش ، وليجعل

ضباطه وجنوده أشباحا لا يمارسون شيئا من فنون العسكرية ولا يتحلون بشيء من خلق الجنود المصريين الذين عاشوا قبل الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ يخوضون المواقع ويحققون الانتصارات العظيمة فى السهل والجبل وعند خط الاستواء وفوق الثلوج وكانت بعض خيوط هذه الجريمة تنتهى إلى أيدى البريطانيين الذين ما كادت الجريمة تقع حتى بادروا إلى استغلالها فوجهوا انذارا إلى حكومة مصر طالبين التحقيق السريع فى الجريمة وإنزال أقصى العقاب بفاعليها ، مع طرد الجيش المصرى من السودان عقابا لحكومة مصر وكأن حكومة مصر هى التى قتلت السرلى ستاك وقد أبت الصدفة إلا أن يقتل السير كيرزوق قائد الجيش البريطانى نفسه فى طريق من طرق لندن عاصمة الامبراطورية البريطانية مما يقطع أن الحكومات لا تسأل عن الجرائم السياسية التى تقع على أرضها إلاّ إذا شاركت فيها مشاركة ثابتة، المهم أن الشرطة ألقت القبض على ثمانية من المتهمين . ثمانية من شباب مصر هم الدكتور شفيق منصور الذى بدأ حياته فى العمل السرى عقب تخرجه فى مدرسة الحقوق سنة ١٩٠٩ فقد اتهم فى قضية مقتل بطرس غالى باشا سنة ١٩١٨ ، ثم طالبا الحقوق والمعلمين العليا عبد الحميد وعبد الفتاح عنايت وهما شقيقان ومحمود راشد وابراهيم موسى وراغب حسن ومحمود إسماعيل وقد نفذ الحكم فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٢٥ . وقد توصلت الشرطة إلى معرفة هؤلاء الشبان بفضل شهادة تقدم بها شاهد ملك هو نجيب الهلباوى الذى كان من قبل متهما فى جناية الشروع فى قتل السلطان حسين كامل .

وبعد وضع اليد على هذه الجماعة النشطة الجريئة ، هدأت حركة القتل السياسي في مصر لبضع سنوات حتى استعادت شدتها ابتداء من ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٥ وهو تاريخ مقتل الدكتور أحمد ماهر .

فهل كان وضع اليد على هذه الفئة هو السبب في انقطاع حركة العمل السياسي السرى باعتبار أن هؤلاء كانوا رأس الجماعة التي تستهدف الموت ، وتجازف في سبيل انقاذ خطة القتل التي التزمتها المواقع أن ذلك يبدو للنظرية السطحية . وتاريخ الحركات السرية يؤكد أن سقوط شعبة من العاملين في هذا المجال لا يؤدى إلى توقف حركة العمل كله أو سرعان ما يعاود الباقون خارج السجون عملهم أو قد يعود إلى مسرح العمل السرى سواهم في السر ، إذن في هدوء العمل السرى بعد انقاذ حكم الموت في قتلة السردار في أغسطس سنة ١٩٢٥ . ونفس السبب الحقيقي لهذا الهدوء تغير موقف بريطانيا من المطالب المصرية وما انتهى إليه اللورد اللنبى المندوب السامى البريطاني فقد تبين أن موقف العناد من الحركة الوطنية عبث لا طائل تحته ، وأن المصريين مستعدون لمواصلة الكفاح وأن أعمال العنف لا تدل على إنها شعبة منعزلة يمكن محاصرتها والقضاء عليها بل أنها تعبير عن الشعور الوطني العام وقد حصل تغير الموقف البريطاني على الوجه التالي .

أولا : أفرجت بريطانيا عن سعد زغلول واخوانه وأطلقت سراحهم من المنفى .

ثانيا : خففت وطأة الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية البريطانية .

ثالثا : أبلغت أن مصر دولة مستقلة دستورية ذات سيادة .

رابعا : منحت مصر دستورا كان يتضمن النص على الحريات الجوهرية .

خامسا · جرت انتخابات كانت وحدها الانتخابات ، الحرة النزيهة بين عشرين انتخابا جرت بعد ذلك وكانت مزورة ، وعاد سعد زغلول فاستقبل استقبال الفاتحين ، والغت الاحكام المعطلة للصحف . والنشاط الحزبى ، وعقدت الاجتماعات وخطب الخطباء فى كل مكان .

تحولت مصر من سلطنة إلى ملكية دستورية يحكمها ملك بنص الدستور على أنه يملك ولا يحكم وأن أساس الحكم فى البلاد هو فصل السلطان وأن القضاء مستقل والقضاة لا يخضعون إلا لضمائرهم . هذه الاحكام العظيمة وهذه النقلة الضخمة ، وجو الحرية الذى ساد وعودة المنفيين وإطلاق سراح المعتقلين كانت بلا شك دشا بارداً ألقى على نار الذين كانوا يرون أنه لا سبيل إلى إجلاء الانجليز إلا بمطاردة الإنجليز واعوانهم برصاص البنادق حتى تصبح حياتهم فى مصر جحيما لا يطاق ، وكان هؤلاء محقين تماما وقد تحرك فعلا كثير من الساسة الإنجليز نحو تحسين الأوضاع السياسية فى مصر ، وزيادة القدر المتاح من الحرية لإبنائها ، وقد نجحت هذه السياسة فعلا ووضع المقاتلون المصريون بنادقهم جانبا واستعدوا لخوض حياة سياسية جديدة ، واستعدوا للانتخابات العامة ونظموا صفوفهم وبهذا الأسلوب خفت حملة العنف في مصر وبعد أن كان . ينقضى اسبوع أو أسبوعان حتى تنطلق رصاصة إلى صدر باشا من باشوات الحكم فى مصر .

واثبتت هذه التجربة أن الوسيلة الناجحة فعلا لتطويق العنف السياسى هى الغاء مسبباته فإن كان هناك ظلم سياسى وتضييق على المواطنين ، وإذا سادت روح القهرر ، فلابد من رصاص ينطلق فى الظلام ، ولابد أن يعلو صوت الرصاص لا صوت المنافسة والجدال ،

وقد استفادت بريطانيا من هذا الدرس فى كل موضع من امبراطوريتها، فكلما عنفت الامور واشتد ساعد حملة البنادق وسقط الجرحى والصرعى من أنصار الحكومة سارعت حكومة بريطانيا إلى تخفيف حدة القيود وأطلقت الحريات ودعت إلى دورة من المفاوضات . حدث هذا فى الهند وحدث فى ايرلندا وحدث أخيرا فى قبرص كما حدث في مصر على الوجه الذى أسلفت إليه الاشارة .

وهذه ما نستخلصه من مطالعة الصفحات التى طالعناها فى السطور السابقة . ولذلك فنحن ندعو إلى معالجة اسباب الارهاب . ونزيد من مقدار الحرية فيتاح لكل نشاط إنشاء حزبه واصدار جريدته وعقد اجتماعاته . ونعيد النظر فى القوانين المكروهة ، وعندها ستخف حالة التوتر ويسود الوطن جو من السكينة الصحيحة والطمأنينة الصادقة .

لا شك فى أن الكثيرين وفى مقدمتهم رجال الحزب الوطنى القديم حزب مصطفى كامل ، كانوا يرون فى كل ما صدر من السلطات البريطانية من مظاهر تفريج الضيق ، وإسباغ صور الحرية على أسلوب الحكم ، هو مجرد خديعة يقصد بها صرف المجاهدين عن جهادهم والقاء الفتنة بين الوطنية بتقديم وهم المفاوضات ولكن الإحساس الغالب كان المقدار المتاح من الحرية وأصبح أعظم من طرقات حملة البنادق من الوطنيين ، ولكنه تقدم نحو الأفضل ويجب استغلاله والانتفاع به . فى مجالات الكتابة والخطابة والاجتماع ولهذا كسبت السلطات البريطانية جولة ضد العنف فلما تأزمت الأمور ثانية بسبب أزمة فلسطين عاد العنف إلى سطوته ودوى صوت الرصاص من جديد .

ألفاظ بلا معنى

ليس التضخم ظاهرة اقتصادية فحسب ، يقتصر أثرها على النقد، والأسعار ، بل إن هناك تضخما اجتماعيا أو أدبياً ، يصاحب التضخم النقدي ، ويكون أحيانا أثرا له وذيلا من ذيوله وأحيانا أخرى يكون ظاهرة قائمة بذاتها ، مستقلة عما عداها .

وقد نشأت في مصر ، منذ سنوات ظاهرة التضخم الأدبي والاجتماعي وكانت له آثار عديدة ، منها الشعور بالحاجة إلى تأكيد معنى بعض ألفاظ ، بتكرارها حينا ، وباضافة لفظ زائد إليها حينا آخر، بتعيير صيغتها ، أو اشتقاقها حينا ثالثا ، لتصور القائل متكلما كان أو كاتبا أنه إذا قال اللفظ المعروف والمتداول وحده وقنع به ، وسكت ، فإن السامع لا يتأثر بمعنى هذا اللفظ الأصيل والمتفق عليه ، أو لا يصدق المتكلم ، ومن ثم فلابد من فعل شيء ، يجعل اللفظ أكثر تأثيرا ، وأشد اقناعا وأدعى إلى الاحترام والتقدير .

ويبدو أن المجتمع المصرى انتابة ما يسميه فرويد ، بالشعور بالنقص ، فأخذ نفسه ، بتضخيم كل شيء يتصل به ، ويعبر عن القيمة أو المركز ، أو الأثر .

ففي مصر ، لم يكن إلا استاذ أكبر ، واحد ، هو شيخ الجامع الأزهر ، فاذا ذكر هذا الشيخ الجليل اقترن اسمه بلقب الاستاذ الأكبر ،

● الهلال - مايو ١٩٨٣ .

شيخ الجامع الأزهر ، وفى هذا السجع غير المقصود ، ما يزين اللقب ، ويعلى من قدر صاحبه . وكان باقى الناس فى عالم الفكر والكتابة ، من رجال التعليم ، أو اساطين القضاء تذكر اسماؤهم بألقاب الدولة الرسمية ، مقرونة بصاحب العزة للبك ، وصاحب السعادة للباشا ، وصاحب المعالى للوزير ، وصاحب الدولة ، لرئيس الوزراء .

أما الأفندية فقد تقرر لهم أن يسبق اسماءهم لقب هو «صاحب الرفعة» إلا أن الأيام اسقطته ، أما لأن صاحب الرفعة كانت أكبر من مقام الأفندية فى المجتمع ، فاستغنى عنها ، ولم يستطع الأفندية ، الدفاع عن هذا التكريم ، لقلة شأنهم ، أو لتواضعهم .

ويحسن أن نذكر أن هذه الألقاب ، أو صيغ التكريم ، كانت من صنع رجل علم ، وصاحب وظيفة حكومية كبيرة هو المرحوم أحمد زكى باشا ، السكرتير العام لمجلس الوزراء قبل الحرب العالمية الأولى التى نشبت سنة ١٩١٤ واستمرت لسنة ١٩١٨ ، والذى تطوع للعمل فى الجامعة المصرية الأهلية ، التى ولدت سنة ١٩٠٨ ، ثم الذى أصبح قبل العالمية الثانية ، حينما كثر الحديث عن العرب والعروبة والجامعة العربية قبل مولد هذه الأخيرة ، «شيخا للعروبة» وقد وفق هذا الموظف الكبير الذى انقطع فى أخريات أيامه للدراسات المصرية التى استندت إلى أمهات الكتب التى خلفها لنا أجلة كتابنا ومؤرخينا وفقهائنا مثل كتاب الأغانى للاصفهانى ، والكامل للمبرد ، والمعارف للبيروني والقواميس الكبرى : المحيط وتاج العروس ، ولسان العرب ، ومختار الصحاح ،

فشيخ العروبة الذى صنع لأبناء قومه المحدثين هذه الألقاب التى كانت تركية وأسماء لآلات وأدوات صنعها العلم الحديث : كالسيارة والدبابة وربما البرقية أيضا ، هو الذى منح الأفندية كل عبارة تكريمهم:

صاحب الرفعة ، فضاعت عليهم ، وبعثت حينما أنشأ الملك فاروق والذين حوله لقبا جديدا زاد على لقب صاحب الدولة الذى كان وقفا على رئيس الوزراء ، فأضيف إليه لقب «صاحب المقام الرفيع» ، ثم جرى العرف على تكريم سعيد الحظ الذى وصل إلى هذا القدر من المكانة ، بنعته بصاحب الرفعة ، ومخاطبته بعبارة : «رفعتك» أو «رفعتكم» ..

وضحك الأفندية الذين كانوا فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، لأن صاحب الرفعة ، كانت أصلا من حظهم ، صنعت لهم ، فإذا بالأيام تدور ، والحظوظ تتغير وتتفاوت ، حتى يصل هذا اللقب الذى كان متواضعا ، ومتواريا ، إلى القمة ، فلا ينعم به ولا ينادى به ، إلا من وصلوا إلى أقصى القمة ، ولم يكن كل هذا ، إلا مظهرا من مظاهر التضخم ، فبالأمس كان أصحاب كل لقب قانعين وسعداء ، بما تم لهم من الألقاب ، وكان كل لقب فى مكانه ، مثيرا للاحترام ، مقرونا بالهيبة ، لا أحد يشكك فى قيمته ، ولا يشعر بالحاجة إلى الزيادة فيه .

وبقى الأمر كذلك ، حتى اهتز المجتمع بعد ثورة ١٩١٩ ، فاقتحم الأفندية المناطق التى كانت وقفا على الباشوات ، ومن انحدر من اصلابهم ، وكان باشوات مصر فى الأصل اتراكا أو شراكسة ، مثل يكن باشا ، ورفقى باشا ، وشريف باشا ، ثم منح اللقب لمصريين اقحاح ، كانوا من ابناء العمد ، ومشايخ القرى ، الذين حرصت بريطانيا على أن ترفع من قدرهم ، وتزيد من مكانتهم ، ليدينوا لها بالولاء ، فكان الباشوات من أصحاب الثروات الزراعية التى تحصى بمئات الأفدنة ، أحيانا بآلافها ، فنشأت عائلات امثال البدراوى باشا ، وحسن الشريعى باشا ، وشعراوى باشا ، وعبد الرازق باشا ، وسليمان

باشا ، وأبو على باشا ، وغالى باشا ، وكان أكثرهم لا يقرأون ولا يكتبون ، ولكن ضخامة أموالهم ، وسعة أراضيهم ، وقربهم من الحاكم ، واصهارهم للأتراك باختيار التركيات والشركسيات زوجات لهم ولأولادهم ، عوضتهم عن الأصل التركى الصميم ، وحفظت لألقابهم مهابتها !

فلما اقتحم الأفندية عالم الألقاب العتيق والعريق ، والمسور ، إهتز المجتمع اهتزازا عنيفا ، فقد أصبح الأفندى وزيرا ، وندا لباشوات العهد القديم ، وذهب الوزراء يحملون تحت أباطهم حقائب المحامين ، ويجلسون مع الفلاحين وأبنائهم ، ويمدون إليهم أيديهم ، ويأخذون منهم النقود ، وجاءت الانتخابات فدار هؤلاء الباشوات الجدد على الكفور والنجوع ودخلوا بيوت أهل الريف التى تكاد تخلو من مقعد يجلس عليه الضيف ذو المركز، أو كوب يشرب فيه ماء ، أو يحتسى شيئا من القهوة، قبل غزو الشاى لقرى المصريين ، فشعر كل الناس أن ألقاب الماضى زلزلت ونزلت عن مقامها ، وأنها فى حاجة إلى دعم ، لتبقى لها هيبتها وجلالها ، فلما جاءت الصحف ، وانتشرت وتداولتها الأيدى كثر كتابها ، واستفاضت شهرتهم ، وكبر مقامهم ، وهؤلاء أيضا من الأفندية الذين لم يزد آباؤهم على أن يكونوا تجارا صغاراً ، وموظفين أفندية فى أدنى الدرجات ، ومضت سنوات لم يظفر واحد من هؤلاء الأفندية المشهورين ومن الكتاب والمحامين والمؤلفين ، بلقب البكوية أو الباشوية حتى العقد الرابع ، فقد أصبح من الكتاب عبد القادر حمزة «بك» ثم «باشا» ومحمد حسين هيكل «بك» ثم «باشا» وفكرى اباظة باشا ، ومن السوريين المصريين انطون الجميل باشا ، وادجار جلاد باشا ، وكريم ثابت باشا.

أما الأفندية المحامون من كان منهم قد وصل إلى رتبة البكوية أو لم يصل فقد كثر عددهم بين الباشوات فأصبح يذكر علوبة باشا ودوسى باشا والغرابلى باشا والهلالى باشا ورمضان باشا .

ولكن المجتمع بقى على شيء من تماسكه» فقد كان أكثر المشتغلين بالأدب يطلق عليهم لقب استاذ ، بلا تزيد ، فلم يكن هناك شعور بالمبالغة فى تكريمهم فكان أكبر كتاب مصر مثل ابراهيم المازنى ، وداود بركات ، والشيخ البشرى ومصطفى المنفلوطى ، ومصطفى صادق الرافعى ، لا يسبق اسماءهم ألا لقب استاذ . بل إن عددا من كبار الكتاب ، كان يشار إليه بلقب الأديب التى كانت الدرجة الأقل من لقب الاستاذ ، ولا أحد يشكو من شح المجتمع فى اختيار الألقاب .

وبقى الحال على هذا المنوال بغير استثناء حتى أصبح الاستاذ عباس محمود العقاد وحده دون غيره «الاستاذ الكبير» ولم يشعر كاتب آخر من خصوم الحزب الذى ينتمى إليه العقاد، أن يجاريه فى هذه الميزة، فتطلق عليه صحيفته هذا اللقب أو لقبا يشابهه فتقول الاستاذ الكبير محمود عزمى، أو طه حسين، أو منصور فهمى، أو الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكل هؤلاء كانوا من كتاب جريدة السياسة المعارضة .

إلا أن المجتمع استمر يهتز تحت مطارق التطور السياسى والاجتماعى خلال الحرب العالمية الثانية حتى جاءت الثورة ، فزالت دولة الألقاب زوالا تاما ، وزالت منها الحدود الفاصلة بين طبقة وطبقة ، ولقب ولقب ، وعاش الناس بلا ألقاب .

وكان لابد من سد هذا الفراغ ، فأصبح لقب الاستاذ الكبير ، هو لقب كل من يكتب ، حتى لو كان ناشئا ، ولما أصبح كل «الكتاب كبارا» أصبح من الضرورى أن تسك ألقاب جديدة ، كالعملاق ، وأن يكون

هناك «قمم» ، وأن يكون هناك «رواد» ، وأن يقدم كل واحد من هؤلاء ، عند الاشارة إليه أو التحدث معه ببضعة سطور ، تذكر «كيف» أثرى المكتبة العربية» بما كتب وما ألف ، وهو تقليد لم يكن يعرفه المصريون عندما كانوا يتحدثون عن أساتذتهم الذين سبقوا سواهم إلى العمل الفكرى ، حتى ولو كانوا اساتذة جامعة صاحبوا ثورة سنة ١٩١٩ ، أو سبقوها ، وأسسوا الكليات التى خرجت أكبر أهل العلم ، وأعظم أساتذة القانون والأدب ، فقد عاش ومات عبد الحميد أبو هيف وأحمد أمين ، وعبد السلام ذهنى ، وهم مجرد أساتذة أو دكاترة وأن كانوا ملء القلب والسمع .

إلا أن هذا كله ، خطبه هين ، ولكن الخطب زاد ، حينما ولدت الفاظ، لم تكن موجودة ، أو مسخت الفاظ ، ففارقت معانيها ، أو أضيف حروف جر ، أو غيرها إلى الفاظ بغير حاجة إلى تلك الحروف ، أو صيغت عبارات لتؤدى إلى معنى بذاته ، وهى قد تؤدى إلى نقيضه .

ولست أريد أن أتقصى هنا جميع هذه الالفاظ ، والعبارات ، والصيغ ، حتى لا تطم السيل ، فيجرف أمامه ، الفاظاً عزيزة ، صيغا جميلة ، وعبارات غالية ، ويكون لهذا كله أثره العقلى على أساليبنا وطرق تعبيرنا .

من ذلك قولهم الآن :

فلان ترك بصمة .

وفلان فى الصورة .

وفلان عنده قناعة .

وأكد «على» .

وتواجد .

والإعلام .

البصمة

اما «البصمة» فلم يكن الناس يعرفون عنها حتى آخر القرن التاسع عسر ، ما عرفوه عنها فى القرن العشرين .

وحينما عرفوا عنها ما عرفوا ، اقترنت فى الأسماع والأذهان بالجريمة والمجرمين .. فالبصمة لا تعين أحدا إلاّ الباحثين عن مرتكبى الجرائم ، ومن ثم لم تكن سبيلا للتمييز أو التفرقة بين رجل من غمار الناس ، ورجل عظيم فى مجال الفكر أو الفن أو الأخلاق . والإنسان قد يترك بصمته فى مكان ، دون أن يترك فيه أثرا نافعا ، ولا ذكرى حسنة .

وفى ذات يوم دخلت متجرا ، واتكأت بيدى على صندوق من الزجاج توضع فيه البضائع المعروضة ، فملأت اللوح الزجاجى العلوى للصندوق بصمات أصابعى ، فوقفت لحظة أتأمل فى دلالة هذا الحدث الصغير ، وقلت لنفسى . الآن سأنصرف من هنا ، دون أن اشترى شيئا ، ومع ذلك ستبقى ورائى البصمات ، دون أن يلتفت إليها أحد ، ودون أن تشير إلى ، أو تكشف قليلا أو كثيرا من خصائصى .

وإذا كانت بصمة كل إنسان تخالف بصمة جميع الناس ، وهى بهذا الدليل القاطع على أن إنسانا منا كان فى مكان ما ، وأمسك بشىء ما ، إلا أنها لا تصلح دليلا على خلق هذا الإنسان ولا كفايته ، ولا نوازع نفسه ، ولا خواطر عقله . وقد يتحرك عالم كبير ، ومجرم كبير ، أو إنسان لا فى العير ولا فى النفير بصمات ، ويكشف موظف البحث

الجنائى بصمة كل منهم ، دون أن يكون قادرا على أن يعرف بصمة العالم ، وبصمة الجاهل ، وبصمة المغمور .

ومن الخطل أن نهبط بآثار العظماء وجلائل اعمالهم ، إلى مستوى البصمة التى لا تذكر ولا يعتد بها ، إلا عند ذكر الجريمة وتعقب المجرمين ، والكشف عن شخصياتهم ، وفى لغتنا ، وما ألفنا أن نستعمله عند الإشادة بالأبطال والكبار ، أجيالا بعد أجيال ، ما يغنينا عن هذا التشبيه السيىء الذى يخلو من التكريم الصحيح ، وتتداعى له فى الأذهان ، فكرة الأجرام ، والخروج على القانون ، والإيذاء إلى المجتمع الانسانى .

فى الصورة

يشبه هذا التشبيه الزميم ، اصطلاح جرينا عليه في السنوات الأخيرة ، إذ لم يكن معروفا منذ ربع قرن من الزمان ، وهو اصطلاح أن انسانا ما ، فى الصورة بمعنى أن هذا الإنسان على علم بالموضوع موضوع الحديث .

والثابت أن الإنسان يمكن أن يكون فى الصورة ، بل فى الصميم من الصورة ، وهو لا يدرى شيئا عن ظروف أخذ هذه الصورة ، ومن ظهروا فيها معه ، والواقعة التى استدعت هذا التصوير .

وجراندنا تنشر عند وقوع الحوادث الجنائية الكبرى أو الصغرى ، كقتل فى الطريق ، أو سقوط عمارة ، أو تصادم سيارة ، يبدو فيها عدد من الأشخاص الذين كانوا عند أخذ هذه الصور فى الطريق على مقربة من مكان الواقعة ، أو فى المكان ذاته ، ولو سئلوا عن الحادث الذين تجمعوا له وأخذت صورتهم بمناسبته ، لما استطاعوا أن يقولوا حرفا واحداً ، عن هذا الحادث فقد يبقون جاهلين ، ما إذا كان الحادث تصادما ، أو سرقة أو قتلا أو شجارا . فوجودهم فى الصورة ، لا يطلعهم على شىء مطلقا ، وليس هو سبيل المعرفة .

والطفل الصغير يأخذه ذووه سنين متعاقبة ، إلى المصور ، فى مناسبات متكررة كعيد ميلاده ، وحوله أمه وأبوه وأخوته ، وهو فى صدر الصورة ، أو المركز بها ، ومع ذلك ، فهو لا يعرف أصلا ممن حوله ولا المناسبة التى صور فيها .

ولكنا نحب أن نستعير من الفرنجة اصطلاحاتهم ، ووسائل تعبيرهم ، ونعد ذلك من باب الإناقة ، أو العلم .

المتغيرات

منذ بضع سنوات تسربت إلى لغتنا عبارة المتغيرات ، نقولها عندما نعنى التغيرات ، ونحسب أننا حينما ندخل الميم على الكلمة الأصيلة «تغيرات» تكون أقرب إلى رطانة العلماء ، وأجدر بالاحترام .

والواقع أننا حينما نستبدل بلفظ «التغيرات» ، لفظ «المتغيرات» لا نقول شيئا له معنى ، ونخطئ خطأ جسيما .

فكل شيء فى الوجود متغير ، وكلمة «متغيرات» تنطبق على الإنسان والحيوان والجماد ، وظواهر الكون ، وأقسام الأرض ، والأمم ، والشعوب ، والدول والأنظمة ، والقديم والحديث ، والظاهر والخفى .

فإذا أردنا أن نتكلم عما جاء بعد ثورة سنة ١٩٥٢ أو ثورة سنة ١٩١٩ المصريتين أو ثورة ١٧٨٩ أو ١٨٣٠ الفرنسيتين ، أو ثورة ١٩١٧ الروسية ، وقلنا عما جرى بعدها جميعا ، «متغيرات» لكان قولنا ، هراء، لأن المتغيرات واقعة بالثورات وبغيرها ، قبلها وبعدها ، وفى حالات الهدوء والاستمرار وحالات الانقلال والأزمات .

والتعالم مرض وبيل ، إذا لم نقف فى وجهه استشرى .

القناعة والاقتناع

ومن أكبر الأخطاء الشائعة هذه الأيام استعمال لفظ «قناعة» بمعنى «الاقتناع» وهو خطأ أحبه الكبار ، قبل الصغار والعلماء قبل الجهال ، ففى الأحاديث التى نسمعها فى الاذاعة المسموعة أو المرئية ، نجد الزعيم أو الكاتب ، يقول فى رصانة : عندى قناعة بكذا وكذا .. ويكتب المحللون فى بحوثهم الجليلة عن «قناعات» الشعب المصرى أو الأمة العربية .

ولسنا فى حاجة إلى جهد إذا أردنا أن نفرق بين القناعة والاقتناع .

فالقناعة حالة نفسية ، قوامها الرضا بما قسم للإنسان ، أو بشىء معين ، أو كحالة دائمة وملازمة للإنسان .. والقناعة هى ما قال عنها القول المأثور«أنها كنز لا يفنى» ..

فى حين أن الاقتناع هو ثمرة جهد عقلى ، ينتهى بالإنسان إلى التأكد من حقيقة معينة أو واقعة محددة ، وقد يكون المصدر الذى يستمد منه اللفظان واحدا ، وقد يتقاربان باعتبار أن فى كليهما عنصر الاكتفاء بمعنى أن المقتنع مكتف بما اقتنع به دون غيره ، والقانع مكتف بما حصل عليه أو بما يحصل عليه ، ولكن الفارق بعد ذلك شاسع فرب، رجل مقتنع بشىء ، وإن كان غير قانع ، كأن يقتنع الإنسان بأنه لن يحصل من عمل ما إلا على مبلغ ما ، ولكنه غير قانع ولا راض .

أكد « على » وتواجد

وقد جرى العرف الآن على أن يضاف حرف الجر «على» إلى لفظ «أكد» مع أن فعل «أكد» متعد بذاته ، ولا يحتاج إلى عون من حروف الجر . وفى القاموس أكد الشىء ، وثقة .

ولكن الحالة النفسية التى نعانى منها هذه الأيام ، تدفعنا إلى الشعور بأن اللفظ مألوف ، منذ وقعت دلالته ، ونقص معناه ، فيحتاج إلى إضافة أو تعديل . ومن ذلك العدول عن لفظ «وجد» إلى لفظ تواجد ، فالآن نقول تواجدت ويجب أن تتواجد ، بمعنى وجدنا أو يجب أن نوجد .

وفى القاموس تواجد أورى الوجد من نفسه أى الهوى والميل إلى المحبوب .

فالتواجد شىء غير الوجود .. ووجد ، كافية للتعبير عن معناها القديم بلا حاجة إلى هذا التغيير المضحك والمؤسف في وقت واحد ، ويزيد من الأسف له . أنه شائع إلى حد نسخ الأصل تماما .

الإعلام

أما لفظ الإعلام فقد يحتاج منا إلى كلام طويل نوعا .. فمنذ إنشاء وزارة «الارشاد القومى» دار الحديث ، والجدل ، حول اسمها ، وقد كان الاعتراض على لفظ الارشاد ، أنه وإن كان من الفاظ تراثنا ، إلا أنه اقترن فى الاذهان بالوعظ ، والوعظ ، بطبيعته مكروه . لأن الوعظ ، صاحب الإنسان منذ طفولته ، فاقترن بهيمنة الوالد والوالدة والمدرس والكبار ، كما اقترن بالقيود المفروضة والتحريم والمنع . كما اقترن بوعظ الوعاظ الذى خلا من الرقة واللطف ، والقدرة على التأثير ، وضرب المثل الحسن .

واعترض على هذا اللفظ أيضا ، أن «الارشاد » توحى بتدخل الحكومة وتوجيهها ، والتدخل فى أمور الناس ، ورسم الخطط لهم . وذكر لفظ «الاعلام» تعديل عن لفظ «الارشاد» .

وقد كنت أعرف أن اللفظ الاعلام والاستعلام فى تاريخ السياسة والدعاية تاريخا .

فقد اقامت المانيا النازية كالعهد بصراحتها فى كل ما تقوله وتفعله . وزارة اسمها وزارة «الدعاية» ، وأشرف على تنظيمها وتخطيط العمل فيها ، بكفاية نادرة ، «جوزيف جيبلز» أحد كبار زعماء النازية ، ورجل من أقرب الناس إلى «هتلر» . وقد نجحت هذه الوزارة نجاحا هائلا فى الدعوة لألمانيا النازية ، وفتوحها العسكرية ، واستدراج الانصار لها ، ونشر فكرتها ، بالخطة والكتابة ، والصورة ، وتنظيم الهيئات ، وتأليب

الأنصار واضطرت دول الغرب أمام هذا النصر الساحق أن تفكر جديا ويسرعة في إنشاء وزارة مماثلة ، تكون إدارة مركزية لدعايتها بدلا من الأجهزة العديدة المنتمية لأكثر من وزارة في الدولة . وفكرت طويلا في الاسم الذي تطلقه على هذه الوزارة الجديدة ، وانتهت إلى استبعاد لفظ «الدعاية» لأنها نفرت الناس منه في بلادنا وفي العالم ، ووصمت دعاية هتلر وأجهزته بالكذب والمبالغة وقلب الحقائق ، وإثارة الفزع ، وشراء الأنصار .

وانتهت إلى لفظ «الاعلام» ، وبدأت وزارات الاعلام في الغرب في مباشرة عملها ، فتفوقت على وزارة الدعاية الالمانية لهتلر ، النازية ، في الكذب ، وتصدير الأوهام ، ونشر الوعود التي لا يقصد بها إلا التمويه ، وادخال الأمل الكاذب في نفوس الأمم المغلوبة على أمرها ، وقد ساعد على سوء أعمال وزارة الإعلام الغربية أنها تضامنت مع الصهيونية العاملة لارتباط الفريقين .

فقد انطوى لفظ «الاعلام» على كذبة صارخة وضخمة ، وذلك لأنه لا يتصور ولا يصح في العقل أن دولة ما ، تنفق الملايين من الجنيهات بل البلايين ، لمجرد نشر الحقيقة المجردة ، حتى ولو كانت ضدها ، وعلى النقيض من مصالحها .

فالاعلام هو الدعاية ، مع ادعاء الترفع عن الدعاية ، وهو ترفع مكشوف وبالتالي مرفوض .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل رسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل ، ويقول لكل منهم «ادعوك بدعاية الاسلام» .

فالدعاية هي واجب كل صاحب رأي ، يؤمن بصحته ، ويرى أن من واجبه أن يروج له ، والإعلام لفظ غربي ، عانينا من كذبه ، وخلطه

للحقائق ، وعبثه بالواقع الصريح والصادق . ومن ثم فإن من الواجب أن نهجره فى صد الدعوة لانفسنا حتى لا نقلد خصومنا ، ونتبعهم كالمواشى ، هم يقولون «الاعلام» فنقول «الاعلام» ، وهم يقولون «الشرق الاوسط» فنقول «الشرق الأوسط» . وهكذا ..

ومن هنا فقد أصررت أن يكون اسم وزارة الدعاية فى بلادنا «الارشاد القومى» ، وقد ذاع الاسم فى كل العالم العربى ولا يزال باقيا فى عدد من الدول العربية الاسلامية .

ولا يصح الاعتراض على هذا اللفظ باعتباره – كما سبق القول – بأنه يوحـــى بتدخل الدولة في توجيه الافكار ، وهيمنتها على الرأى العام ، فإذا كنا قد أجزنا للدولة أن تعلم الناس ، وتربيهم وأن نخلق جهازا للتربية والتعليم دون أن نخجل ، فلا أقل من أن نتردد عن إنشاء جهاز للارشاد القومى ، فالإرشاد أقل تكوينا لعقول الناس ، من التعليم ومن التربية .

شريط الذكريات
أنا وأهل الفن

كنت على صلة بالفن وأهله، شببت عن الطوق، فقد شاءت الظروف أن أقضى سنى الصبا المبكر، أو قل سنى الطفولة، فى منزل تملكه بريمادونة مسرح الشيخ سلامة حجازى، والبريمادونة هو لفظ غربى يطلق على الممثلة أو الفنانة الأولى بمسرح ما، وكانت بريمادونة مسرح سلامة حجازى هى السيدة «ملياديان» وكان لها بيت جميل مبنى على ما يشبه نظام «الفيللات الحديث» فقد كان يتكون من دورين كبيرين، سكن والدى فى الدور الأعلى منه، وسكن فى الدور الأول، مهندس مثل أبى، هو المهندس عبدالرحمن على الذى نال فيما بعد لقب الباشوية فأصبح عبدالرحمن باشا على، وأسندت إليه رياسة مصلحة الأموال المقررة.

وقد بقيت جاهلا لأن صاحبة منزلنا يهودية مصرية، حتى نشأت قضية فلسطين، وأصبح موشى ديان علما من أعلام الصهاينة ووزير دولتهم على أرضنا العربية، وكانت «ملياديان» سيدة جميلة الوجه، مليئة الجسم، تصلح لأداء الأدوار التراجيدية، فى تراجيديا سلامة حجازى مثل «أوديب»، «عطيل»، «روميو وجوليت» كان لها رداء يفصل قامتها الطويلة وامتلاء جسمها بلا بدانة ولا ترهل، ووجه يعلوه الوقار كأنها

● الهلال - نوفمبر ١٩٨٥ .

أميرة، وكانت هذه الفنانة الشهيرة تزورنا فى بيتها بين الحين والآخر، فيفرح كل من فى الدار بمقدمها، ويجتمعون حولها، ويمتلىء المكان بعبق عطرها، الذى كانت تنثره الفنانة الكبيرة، بحركات ردائها الفاخر الثمين، وبمروحة يدها التى تروح وتغدو فى يدها، تتحرك معها القلوب، وكنت طفلا - أشبه بقط المنزل الصغير، فإذا جاءت «ملياديان» لزيارة أهلى، كنت فى جانب من صالة الاستقبال الفسيحة، ورحت أتأمل وجهها، واستملى تقاطيع وجهها الجميل المهيب، كأنى أشاهد صورة رائعة ولا أحد يلتفت إلى أو ينتبه إلىّ ما أنا فيه من انجذاب.

وقد زادت صلتى بالفنانة الشهيرة، إذ كلفتنى يوما بشراء علبة سجائر كانت معروفة يومذاك، اسمها سجائر «كريازى» وأظنها علبة من الصفيح المصقول، وقد رسم عليها منظر جميل، هو منظر أسد تجلس أمامه إمرأة جميلة، عارية الذراعين كأنها ملياديان، خرجت من الواقع، وأخذت مكانها على هذه العلبة السحرية، وكان بين يديها سيجارة، المفروض أنها سيجارة من سجائر «كريازى»، وراحت تنفث دخان سيجارتها فى وجه الأسد، فطابت له رائحة السيجارة، وغلب عليه ما يشبه النوم من التلذذ، فأغمض عينيه قليلا، وقد عدت إلى ملياديان، وأنا أنظر إلي الصورة، وأتأمل المرأة الفتانة، والسيجارة التى تدغدغ الإحساس، ويخيل إلىّ أن شخوص الصورة سيخرجون منها، ويأتون ليجلسوا مع ملياديان فى صالون الاستقبال فى دارنا.

كانت هذه هى الصفحة الأولى من حياتى مع الفن، زادت عمقا بذهابى مع أخوتى إلى منزل الفنانة الشهيرة فى حى الظاهر لأراها فى ملابس النوم التى تكشف عن مفاتنها أكثر مما كان يكشف «فستانها»

الرائع، ولعلها قبلتنى وضمتنى إلى صدرها، وهى لاتعلم أنني مأخوذ بجمالها، على الرغم من سنى الصغير، وتجربتى المحدودة مع المرأة وجمال وجهها.

وقد كان بيت ملياديان فى شارع له شأن غريب، ذلك هو شارع سلامة المتفرع من شارع زين العابدين، الخارج من ميدان السيدة زينب، فلعله الشارع الوحيد الذى ظفر من الأدب المصرى الحديث برواية كاملة، وهى ليست رواية عادية إذ هى الرواية المصرية الأولى فى الأدب المصرى المعاصر، وأعنى بها «عودة الروح» التى عرف بها توفيق الحكيم، فقد جرت وقائع روايته، والعائلة المصرية التى لعب أفرادها البطولة فيها، فى شارع سلامة الذى كنا نسكن فيه بيت «ملياديان». وكان توفيق الحكيم نفسه من سكان هذا الشارع، كما كان أحد أفراد الأسرة التى حدث القراء عن شئونها المعيشية، وأزماتها العاطفية، وكان يسكن فى الشارع نفسه أديب من أكبر أدباء مصر، وأحد أعضاء الثالوث الشهير المكون من عباس العقاد، وعبدالرحمن شكرى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، وكان الأخير من هذا الثالوث، أى المازنى، يسكن معنا فى شارع سلامة، كما كان يسكن فيه عبدالرحمن الجديلى الذى كان صديقا أو مريدا لأمير الشعراء شوقى، وتلميذا مقربا من الزعيم سعد زغلول، وقد صور معهما فى صورة واحدة فى منزل شوقى كرمة ابن هانىء، وهو القصر المطل على النيل والذى أصبح متحفا الآن، وقد تم أخذ هذه الصورة، بمناسبة زيارة سعد لأمير الشعراء شوقى فى صباح أحد الأيام وليقدم التهانى للشاعر الكبير بمناسبة عقد قران ابنته فى مساء ذلك اليوم نفسه، وللإعتذار عن عدم الحضور فى حفلة عقد

القران لاعتلال صحته، وعدم امكانه الخروج فى المساء، وقد قال الجديلى يومها، «الخالدون» فأشار سعد بيده إلى شوقى وقال: هذا هو الخالد.

وقد كان شارع سلامة يتوسط ما يشبه مستعمرة أدباء، فقد كان يسكن هذا الشارع، مصطفى لطفى المنفلوطى، صاحب النظرات والعبرات وماجدولين والفضيلة، والذى كان يعد من أشهر الكتاب فى ذلك العهد والذى بيع من الطبعة الأولى من كتابه «النظرات» عشرة آلاف نسخة، وكان ذلك فى تلك الأيام، رقما ضخما إذ لم ير المطبوع من أى كتاب عن ألف نسخة يباع منها نصفها فى سنوات إذا راج الكتاب وذاع اسمه.

وكان يقطن قريبا أيضا من شارع سلامة، الشيخ عبدالعزيز البشرى الذى عرف كأبرع كاتب للصور العلمية التى عرفت باسم «فى المرآة» التى كان البشرى يكتب فصولها فى جريدة السياسة الأسبوعية. وهى الفصول التى أتاحت لقراء الأدب العربى فى مصر تذوق فصول أقرب ما تكون من آثار الجاحظ، خفة ظل، وبراعة وصف، ودقة تحليل.

ونعود إلى «ملياديان» فأقول إن شهرتها كانت مستمدة من شهرة أستاذها. ورئيس الفرقة التى تعمل فيها وهى فرقة الشيخ سلامة حجازى، وكان سلامة حجازى فى تلك الأيام ليس مطربا محبوبا كما أحب المصريون بعد ذلك محمد عبدالوهاب إذ كان سلامة حجازى إبان بدء شهرته، وذيوع اسمه بطلا بلا منافس ولا أحد يقارنه فى عظمته، وسطوع نجمه، فلم يكن أحد يدانيه فى قوة الصوت، ورخامته وجمال الصورة، فضلا عن اتقانه للتمثيل، وبراعته فى التلحين، حتى كاد يجمع

فى شخصية المطرب، والمؤذن والخطيب، والملحن المجدد، وكان محبو صوته، والمعجبون بفنه، يقفون أمام مسرحه، عند خروجه منه فى الليل المتأخر، ودخوله إليه فى المساء المبكر، وكانوا يتزاحمون لكى يحيوه، أو يقبلوا يديه، أو وجنتيه، أو يلمسون ثيابه ويشمون رائحته، وكثيرا ما حلوا سيور خيول عربته ليسحبوها بأنفسهم. وكان إذا دخل المسرح ولا سيما بعد إصابته بالفالج، يحيونه وقوفا، ويصفقون حتى تدمى أيديهم، وكان إذا بدأ الغناء ران علّيهم صمت وقور محترم.

وجدت أم كلثوم فى أول حياتها منافسة لها هى فتحية أحمد، وقد حاول بعض الناس، أن يبالغ فى إعجابه بفتحية أحمد، ثم اختفت فتحية أحمد وبقى عبدالوهاب ندا «لأم كلثوم» يقاسمها الشهرة، ويزاحمها على حب وإعجاب الجماهير العربية، ثم ظهر فريد الأطرش وشقيقته إسمهان صاحبة الصوت القوى المعبر الذى كان ينتظر له نجاح كبير، لولا أن المنية عاجلتها، أما سلامة حجازى فقد بقى النجم الوحيد الساطع فى سماء الفن والغناء والطرب والتلحين والتمثيل، حتى توفاه الله، ولذلك كانت «ملياديان» لأنها بطلة التمثيل والفن المتفرد الموهوب والمحبوب، شهرة تتعقبها الجماهير، وتحيى فى شخصها زعيم الفن فى أيامها.

ومضت السنوات حتى ظهر فى مدرسة الخديوية شاب بعثته وزارة المعارف «التربية والتعليم» ليدرس التاريخ فى انجلترا، وعاد وقد امتلأ صدره بآمال جسام، منها أن يجعل التمثيل مكملا لتعليم التلاميذ وتثقيفهم، ومعهدا لترقيق أذواقهم، ومدخلا إلى معرفة الفنون الأخرى من غناء وموسيقى ونحت وتصوير، ذلك هو المرحوم الأستاذ محمود مراد الذى درس التاريخ فى مدرسة الخديوية، وأنشأ بها أول فرقة تمثيلية فى

مدرسة ثانوية حكومية، ووضع لها أوبريت كاملاً اسمه «مجد رمسيس»، وقد ألف لهذه الرواية الموسيقية الشعر والألحان، ودعا ملحنين شبانا كانوا في ذلك العهد مبتدئين منهم على صقر على وعبدالرحمن على، فوضعوا لهذه الباكورة ألحانها، ثم تعرف على «سيد درويش» وعلى «محمد تيمور» ووضع لسيد درويش أوبريت الباروكة، فازدهر فى مصر المسرح المدرسى، وأصبح فى كل مدرسة بالقاهرة فرقة مسرحية، ثم انتقل حب المسرح إلي مدارس الوجهين القبلى والبحرى، ودعى كبار الممثلين لتدريب الطلبة، فغرسوا فى قلوب بعضهم حب هذا الفن الجميل، فتعلقوا به، وأصبحوا بعد ذلك فنانين كبارا، وقد برز وسط هذه النهضة الفنية الوقورة الناشئة فى حضن المدرسة الثانوية وبإشراف وزارة التعليم ومشاركة للأدباء وكبار الفنانين أمثال عزيز عيد وجورج أبيض وأحمد علام الذين أحسنوا تدريب الكوكبة الأولي من هواة المسرح الذى وقعت على عاتقهم النهضة المسرحية القديمة يتصدر هؤلاء جميعا، وتفوق عليهم أحمد محمود حسين، الطالب بالمدرسة الخديوية فأصبح معروفًا لزملائه يشار إليه بالبنان قبل أن يدعو إلي مشروع القرش، وقبل أن يؤسس جمعية مصر الفتاة التى أصبحت حزبا تتلمذ فيه، وتعلم على يديه شباب مصر الحديثة، في مقدمتهم جمال عبدالناصر.

ولصلتى الوثيقة بأحمد حسين إبان تزعمه لنهضة التمثيل فى المدارس تعرفت على عدد كبير من زعماء هذه النهضة، أذكر منهم محمود المليجى الذى كان زميل أحمد وتلميذا له، وقد تأثر به وحاول أن يحاكيه ويقلده.

وفى ذات يوم كنت فى الزقازيق فى الإجازة السنوية كعادتى السنوية، وقد كان لى خال من محاميى هذه المدينة، وألفت أن أقضى فى

ضيافته على الأقل شهرا، أنتقل خلاله بين المحكمة صباحا والمكتب مساء أشاهد المتقاضين وأسمع المحامين، وأتابع الجنايات الكبيرة، وكان فى الزقازيق فى تلك الفترة مجموعة من أكبر محاميى مصر بينهم فكرى أباظة وعلى أيوب الذى عين وزيرا وحامد فهمى باشا الذى أصبح مستشارا نابها من مستشارى محكمة النقض.

وفى ذات يوم كنت فى المكتب، مكتب خالى الأستاذ محمد على حمدى رحمه الله فسمعت جلبة لم أعهدها، فجريت نحو الباب، فإذا بى أمام مجموعة من الشبان لايتجاوز عمر أكبرهم العشرين، وكان فى مقدمتهم أحمد حسين، يجاوره زميله الذى عرفته فى مصر محمود المليجى والممثل أحمد فرج النحاس، ووقف وراءهم قليلا طالب طب هو عبدالرحمن الصدر الذى أصبح فيما بعد أحد كبار جراحى مصر، وقد شغل منصب أستاذ الجراحة وعميد كلية الطب فى جامعة الإسكندرية، وكانت معهم فتاة لبنانية حديثة السن اسمها جوليت صيداوى، وسألت ما الخبر فقالوا لى أنهم ألفوا فرقة مسرحية من أنفسهم، وقرروا أن يطوفوا بها خلال فترة الصيف بعض مدن الريف، وقد وقع اختيارهم على مدينة الزقازيق ثم يتبعونها بمدينة ميت غمر، وقد هدتهم الحيلة إلى اختيار رواية فكاهية اسمها «دخول الحمام مش زى خروجه» وكان سر اختيار هذه المسرحية الناجحة أن مؤلفها هو الكاتب المسرحى المشهور يومذاك «إبراهيم رمزى بك»، وكان المؤلف شقيق محافظ الزقازيق اسماعيل باشا رمزى فظنوا أن العلاقة بين المؤلف والمحافظ ستساعد على مد يد المعونة للفرقة إن تعثرت.

ورأيت نفسى واقفا أمام الأمر الواقع.. فاضطررت أن أشارك فى أعمال الفرقة قبل ليلة الافتتاح من المشاركة فى عملية التلقين ولكن لم

ألبث حتى دعيت لأشارك فيما هو أهم وهو تموين وتغذية الفرقة التى جاءت وليس عندها ما يقيم الأود، ولم أربأ من أن أسطو على مطبخ خالى دون استئذان، ولما اشتدت أزمة الفرقة، دعوتهم إلى عملية سطو منظم فى الليل بعد أن نام أهل بيت الخال العزيز، فشفوا كل ما كان فى الحلل والأطباق والنمليات وتركوا المطبخ قاعا صفصفا.

وجاءت ليلة الافتتاح «فكان المسرح الصغير بدورها قاعا صفصفا إذ لم يقبل على مشاهدة رواية «دخول الحمام» إلا أشخاص يعدون على أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك جاء المحافظ ليجلس فى بنوار الشرف نزولا على مقتضى العلاقة بين المؤلف والمحافظ.. ومع ذلك أدى الممثلون أدوارهم ببراعة دلت على مواهبهم التى نضجت فيما بعد.. وضحك الحاضرون حتى امتلأت عيونهم بالدمع.

وفى صباح اليوم التالى واجهت الفرقة المشكلة الكبرى وهى كيفية توفير المال اللازم للعودة إلى القاهرة، فذهبوا إلى مكتب المحافظ يتقدمهم خالى ليطلبوا المعونة باعتبار أن المحافظة هى عون كل محتاج وكل من انقطع به السبيل، وقد أوصى الله خيرا بأبناء السبيل، ورق قلب السيد المحافظ وأخرج من اعتماد المصروفات السرية أو ما يشبهها، ما يلزم الفرقة لتعود إلى القاهرة، فى الدرجة الثالثة، وقد وقف بعض الذين شاهدوا المسرحية فى الليلة السابقة على الرصيف وهم يلوحون بأيديهم للفرقة العائدة، وكأنها «ساشكوباترا» وزعيمه «دون كيشوت»، وهم بين الضحك ودموع الفراق، ثم سافرت إلى أسيوط.. لأكون رئيس فرقة التمثيل فى مدرسة أسيوط الثانوية وليزاملنى فى المدرسة اثنان من نجوم المسرح والسينما والتليفزيون عماد حمدى الممثل ونيازى مصطفى المخرج وحسن رمزى.

أبوالهول قال لى . . .

(كتاب مجهول)

لا أحسب أن الذين سمعوا بهذا الكتاب الفريد الخصيب، المليء بالحقائق التاريخية القديمة والحديثة، المتعلقة بالشرق والغرب، والخواطر الأدبية واللمحات الفلسفية، يزيدون على أصابع اليدين فى الوطن العربى كله، وأن كاتبه كان أثناء ظهور هذا الكتاب، ونشره على الناس، ملء السمع والبصر، فقد كان رئيس أقدم الأحزاب المصرية قاطبة، ونعنى به حزب مصطفى كامل الذى أسس فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ قبل أن يؤسس حزب الأمة الذى تحدث باسمه ونشر أفكاره أحمد لطفى السيد الذى بايعه عدد من مريديه والمقربين بفضله بوصفه أستاذ الجيل، دون أن يحددوا الجيل، كما سبق فى الوجود جميع الأحزاب التى تشكلت بعد ثورة سنة ١٩١٩ وفى مقدمتها حزب الوفد الذى قاده زعيم هذه الثورة المجيدة سعد زغلول، وما تفرع على هذه الأحزاب، حينما تفرقت كلمة الأمة، وانهمكت فيما يمكن تسميته بالحرب الأهلية.

وكان مؤلف ذلك الكتاب الفذ فوق ذلك نقيبا للمحامين ووزيرا لأكثر من مرة، وأحد باشوات مصر، وهو بهذا كله أحد أهل الصدارة، وكانت موهبته تؤهله لهذه الصدارة ذاتها وتؤكد حقه فيها، فقد كان من أبرع

● الهلال - ديسمبر ١٩٨٥ .

المتكلمين، يتدفق إذا خطب، وينتقي عباراته، وهو يتدفق فيأتي عذبة وتزداد عذوبة لجمال جرس صوته، وكان يؤكد أثر خطابته في النفوس، قامة طويلة، وطلعة مهيبة، ورصانة في الحركة وحسن إيماءة في اللغة.

ولكن لا أظن أن هذه الأوصاف كلها والنعوت قد أعانت القارئ الكريم على تبين صاحب الشخصية مؤلف الكتاب الذى مضى بين الألف أو ملايين الكتب التى تقذف بها المطابع كتابا مجهولا، لم يثر ناقدا، على الهجوم عليه أو التنويه به، ولم يحفز قارئا هاديا لدعوة زملائه القراء ليفتنوه ويطالعوه ومع ذلك فهو كتاب قيم جدير بأن يحرص على الإنتفاع به، ألوف من عشاق الثقافة الحرة، ومن محبى الإطلاع.

وإنى لا أطيل فى استغلال صبر القارئ، فأطلعه على اسم المؤلف، هو الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى فى ذلك الوقت على قائمة رؤساء هذا الحزب العتيد وإن الذى بعث الروح الوطنية وحفز الشعب المصرى على مقاومة الاحتلال البريطانى، وبث الكراهية له فى القلوب، ودعا إلى مقاطعة أنصاره والتصدى لسياساته بكل وسيلة وفى غير هوادة، وقد فاتنى أن أقول لك أن محمد حافظ رمضان باشا الذى اجتمعت له كل هذه المواهب، كان يتمتع بطاقة رياضية عظيمة، هيأت له فرصة الحصول على شهادة دالة على وصوله إلى قمة جبل (مون بلان) وهى قمة شاهقة من قمم جبال الألب الأوربية التى لم يصعد إليها، إلا عدد قليل يعد على أصابع اليدين على الأكثر، وكلهم من أبطال الرياضة ذوى الأجسام التى تجمع بين القوة والرشاقة والمرونة.

ولعل شهرة حافظ رمضان السياسية، جنت على مواهبه الأدبية، فلم يفطن أحد إلى أن الكتاب الذى طلع به على القراء، به مادة دسمة، معروضة فى أسلوب شائق وعبارة أخاذة وعلى الناس لم يفطنوا جميعا

أن هذا الكتاب البديع، هو أول كتاب يؤلفه زعيم من زعماء السياسة فى مصر بعد وفاة زعيمى الحزب الوطنى الأولين مصطفى كامل ومحمد فريد، اللذين ألف أولهما كتاب المسألة الشرقية وكتاب اليابان بلاد الشمس المشرقة، وكتاب أخطار الاحتلال البريطانى لمصر، وألف ثانيهما كتاب تاريخ الدولة العثمانية، فكل الزعماء الذين جاءوا بعد ذلك شغلتهم مشاغل السياسة المحتدمة، فلم يؤلفوا كتابا، ولم يجمع لهم أحد خطبهم التى ألقوها فى المناسبات العديدة، ولا يهم أن تكون من وضعهم، فهى تعبر عن آرائهم ومواقفهم وقد قدم المؤلف كتابه بإهداء بليغ وعذب فيه: «إلى ناحت «أبى الهول» البعيد عنا بما مر من الدهر» «القريبة منا» بما خالد من الصخر الذى أبدع أقدم تمثال عرفه التاريخ، «عسى أن يكون فى هذا الإهداء بعض الاعتراف بفضل كل خادم للإنسانية» بقى عمله وضاع اسمه، وكل عامل منسى وكل جندى مجهول.

وقال فى التعريف بكتابه:

« ولما كنت قد استوحيت أبا الهول بما خططت للأجيال القادمة من غير الأجيال العابرة، واستلهمت رفيف الأرواح حوله، وحفيف العصور فى ساحته»، ولا أحسب أن القارىء سيفته التأمل فى هذا المعنى الجميل، معنى أن تمثال (أبوالهول) أقدم تمثال عرفته الإنسانية، كان رمزا على كل عمل عظيم خالد، عمله فنان متمكن من فنه، ومتمرس، بأساليب وطرائق مهنته أو هوايته، ولا يبغى جزاء ولا شكورا ولا يسعى إلى تخليد اسمه، أو الإشادة بأثره، بدليل أنه لم يترك على التمثال العظيم الذى تركه يواجه عصف الرياح، وعدوان الرمال وقسوة الأيام

والليالى، التى تبلى الصخر، وتمحو الصروح العالية»، والقصور الشامخة.

وقد فسر المؤلف لماذا اختار لكتابه هذا العنوان الغريب، وكيف تحدث إليه أبوالهول ومتى، فقال فى السطور الأولى من الفصل الأول من كتابه:

«لقد أويت فى إحدى ليالى الخريف إلى مضجعى مبكرا على خلاف عادتى، واستيقظت في السحر بعد أن أخذت قسطى من الراحة والنوم، وقد أحسست فى نفسى رغبة في الخروج إلى العراء واستقبل النسيم العليل وأقر عينى بجمال الشروق، وانتجع مكانا معينا بعيدا عن الضوضاء أنعم فيه بالعزلة الهادئة واستجلى مباهج الطبيعة وجمالها، فخرجت والناس نيام، ووليت شطر أهرام الجيزة، ثم انحدرت فى سفحها نحو اليمين، وإذا بى أجد نفسى أمام أبى الهول، وقد أخذتنى روعة لمرآه فجلست شاخصا إليه، والمعبد خلفى، حتى تنفس الصبح، ورأيت وجهه يستقبل مطلع الشمس، فتذكرت أنشودة (رع) أبى الآلهة عند المصريين الأقدمين، تلك الأنشودة المدونة على ورق البردى التى تقول «أنت إله السماء، تطلع على العالم فتملأ القلوب فرحا، وترسل أشعتك فى الوجود فتملأ النفوس بشرا، والعيون نورا، فالسلام عليك أنت الأبدى السرمدى»، وتذكرت ما جاء عن النور فى التوراة: أن النور هو أول ما خلق فى الوجود، وتذكرت كذلك ما جاء فى الذكر الحكيم فى «سورة النور»:

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة

زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم».

فالمؤلف منذ السطور الأولى يكشف عن اتساع ثقافته، وتنوع مصادرها، وأن كتابه سيكون خلاصة المطالعة التى بدأها منذ شبابه، والتى عززها بأسفار متعددة، فى الشرق والغرب، عرف فيها ألوانا لاتحصى من الفنون، وتذوق فيها أثارا انتجها فنانون مبدعون، ينتمون لأجناس متباينة. ويتمتعون بمواهب مختلفة، من المثال والمصورين والنحاتين والمزخرفين، فكتاب «أبوالهول» قال لى هو فى الواقع خلاصة تجربة أدبية وعقلية لرجل قرأ كثيرا، وعاش طويلا، وعرف من الأحداث شيئا لايحصى وخالط الرجال في مئات من الأوطان مفكرين وزعماء، ورجال سياسة ومحررى شعوب، وصحفيين ومؤرخين وهذا الطراز من الكتب سيكون عادة موسوعة أدب وتاريخ وعلم وسياسة والعنوان لا يكون عادة فى هذا الضرب من الكتب إلا مجرد ذريعة لعرض هذه الدنيا الطويلة العريضة من الأفكار والحقائق وصور الشخصيات وجوامع الكلمة، وخفايا التاريخ، « فسيمون دى بوفوار » حينما وضعت كتابها «الجنس الثانى» وأرادت أن تتحدث فيه عن المرأة فى مختلف أدوار التاريخ، وجميع ما يصدر عن المرأة، في كل صورة ووضع، فتحدثت عن المرأة طفلة، وصبية، وشابة، وأما وزوجة وعشيقة، وراهبة، وغنية، وملكة وفنانة، وجاسوسة، وقديسة، ومتصوفة، وخادمة حان، ومريضة، وجميلة وقبيحة.

وقد اتخذت المؤلفة الفرنسية من هذا الموضوع المترامى الآفاق،

والطور والعريض، وسيلة لعرض آلاف من الأفكار فى كل جانب من جوانب الحياة وزينت كتابها بمقدمات من أعظم روايات شكسبير وتولستوى وجيته ومسرحيات سوفوكليس، وبرناردشو، وبيراندللو، وأشعار إمرىء القيس . والفردوسى، وشوقى وإقبال.. ولم يبلغ حافظ رمضان شأن، سيمون دى بوفوار، لأنه لم يكن كتابا منقطعا لهذه الحرفة الشاقة، ولكن كتابه كان مع ذلك ذخيرة حية من التاريخ والأدب والفكر السياسى، واللمسات الفلسفية، والخواطر الروحية، وقد فسر كيف تم اللقاء بينه وبين أبى الهول ومن ثم تم الإيحاء والتلقى فقال «وفيما أنا غايته سمعت هاتفا يقول لى:

ألا ترى الرابض أمامك فى جسم الأسد، ورأس الإنسان، إنه رمز الإنسانية فى حياتها المادية، والروحية والتفت أمامى وإذا بى أرى أبا الهول، وقد راعنى ما بأنفه وشفته من التشويه، فأخذت أسأل نفسى: أية يد همجية ياترى تلك التى امتدت إليه فمسخت ابتسامته، الحلوة، وجعلت منها ابتسامة ساخرة من الإنسانية.

أهى يد الإنسان أم الطبيعة؟

«أهى يد المماليك فى تمريناتهم الحربية أم يد الفرنسيين فى مناوراتهم العسكرية».

«ثم تذكرت أن المماليك كانوا يعتقدون أن لحارس الصحراء أسرارا غامضة، وكانت معتقداتهم تلقى فى روعهم الرهبة منه لا الرغبة فى الاستخفاف به ثم قلت لنفسى لماذا وقع التشويه على رأس الإنسان، وهو رمز العقل، ولم يقع على جسم الأسد وهو رمز القوة، أوقع هذا الاعتداء لأن القوة تهاب ولا تخشى العقل.

ولاشك فى أن المؤلف كان موفقا حينما اختار أباالهول مصدرا

ومبعثا لإلهامه، فأبوالهول لقى من المصريين أكثر من تمثال، وكان فخرهم به، واعتدادهم بانتسابهم إلى القوم الذين صنعوه، والفن الذى أبدعه والفكرة التى أخرجته، متجددا على طول العصور والأوقات والتأمل فى التمثال وعنصرية المكونين له، رأس الإنسان وجسم الأسد، تهزهم من الأعماق، ولاسيما وقد تم هذا الاتحاد، فى تمثال قديم غاية القدم، ووضعه أسلافهم على حافة الصحراء البعيدة التى لا نهاية لها، والتى تخيف سكونها الشبيه بسكون أبى الهول، فلما اعتبروا أبا الهول حارسا للصحراء، قصدوا من ذلك أنه حارس أسرارها، وحامى حمى وادى النيل الذى يجرى تحت أقدامه ليضع أعظم صورة من صور التناقض، للصحراء بجدبها ووادى النيل بخصوبته وخضرته، وكثرة مائه، والذى يأتى بدوره من أصقاع مجهولة، فكان كل ما يتصل بمصر عند موقع أبي الهول عالم من الأسرار، التى تقدمه على تاريخ مصر، سحرا لا يرد، وجاذبية لاتقاوم.

ثم مضى حافظ رمضان فى تخيلاته التى أوصى بها أبوالهول فقال:

«بدرت منى التفاتة إلى أقدم تمثال لم يعرف له التاريخ عهدا فبدت لى عيناه الحجريتان اللتان كانتا متجهتان نحو الأبدية اللا نهائية، وكأنما تتحولان نحوى وتدعواننى إلى المحاكمة فوقفت دهشا أطرقت رأسى وأخذت أسأل نفسى:

أى حديث ياترى ذلك الذى يدور بينى وبين هذا الذى عاصر الكليم والمسيح وعرفهما رسولين يمهدان النفس فى هداية الناس.

كيف أرتب الحديث مع ذلك الذى عرف الإنسانية فى مهدها وشهد عبر المتقدمين وخبر أحوال المتأخرين ورأى الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والجبابرة.

وقد كنت أود أن أنقل لك طرائف وغرائب، وصورا قلمية، مما فاض

به هذا السفر الجميل، الذى بلغت صفحاته ٤٣٥ صفحة وبلغت فصوله عشرة سمى كل فصل منها بالحديث، وقد انطوى كل حديث على فصول فرعية بلغت عدتها أحيانا عشرة أحيانا وأحيانا أكثر من عشرين وقد كان الفصل الأول من الحديث الأول بعنوان رؤية تحتمس، والفصل الأخير ديانات الفراعنة، فى حين أن الفصل الأول فى الحديث الثانى كان بعنوان تطور الحضارة عند الإغريق ويتحدث فى الفصل الثالث عن الحضارة الرومانية، كما يتحدث فى الحديث الرابع عن يسوع المسيح والنصرانية، ويخصص الحديث الخامس للرسالة الإسلامية، ثم يتحدث عن الدولة الأوروبية فى الحديث التالى ثم عن الدولة العباسية فى الحديث التالى ثم عن الحروب الصليبية، ثم عن ضعف البابوية والانقسام الكبير فى الكنيسة، ثم يختتم الأحاديث بكلام جيد عن الاكتشافات الجغرافية، فكأنه تلخيص للحضارة الإنسانية على مثال النسق الذى اتبعه المؤرخ الأمريكى ديورانت. على أن هذا كله هو الجزء الأول الذى كان المؤلف ينوى إتمامه، ولكن يبدو أن سوء استقبال الكتاب، وعدم احتفال النقاد به، هبط من همته وقد ألحق المؤلف بكتابه عددا من الفهارس المفيدة والمعينة للكاتب أولها فهرس الأعلام ثم فهرس الأماكن وهو فهرس لم أر له نظيرا فى الكتب عادة، ثم فهرس الأقوام والأمم، وهو أقدر من سابقه وترى فى هذا الفهرس إشارات إلى الأريين وآل يعقوب والإياضية وأبناء الحسين، وأبناء لاوى، والأتابكة، والأتروسك، والاثنا عشر وأحفاد شرلمان واخوان الصفا.

وبالجملة، يأتى هذا الكتاب فذا وثمرة جهد كبير، واطلاع واسع، واخلاص للوطن وللثقافة وحب عميق للإنسانية.

البـــاب الثانى :



شخصيـــات

أثر الشيخ عبدالعزيز جاويش فى حياة طه حسين

الشيخ عبدالعزيز جاويش ، السياسى والكاتب الوطنى هو الى دفع طه حسين الى الصحافة والى النقد الأدبي وإلى الجامعة المصرية الأهلية والي اللغة الفرنسية ، ثم إلى فكرة السفر إلى باريس وطلب العلم هناك.

يحسب الكثيرون أن الحملات التى قام بها «اللواء» جريدة مصطفى كامل ثم عبدالعزيز جاويش ، كانت صراخا عنيفا فى الهواء ، أو أنها كانت حماسة كلامية مسرفة ، وأنها لذلك لم تحقق شيئا ، فى حين أن أسلوب التعقل والتبصر الذى إلتزمه خصوم «اللواء» والذى مال بهم إلى التماس صداقة الاحتلال البريطانى وممثليه ، وخطب ودهم ، وتبادل الرأى معهم ، هو الطريق السوى السليم . وما ذهب إليه هؤلاء هو الخطأ بعينه ، فإن هذه الحملات - حملات اللواء - وإن بدت لبعض المستعقلين أنها اتسمت بالعنف والشدة أحيانا - إلا أنها كانت فى واقع الأمر كالقوارع التى تخرج الناس من جمودهم ، وتبث الشجاعة فى قلوبهم وأعصابهم ، وربما كانت وحدها الباعث في كل ما شمل البلاد من الرغبة فى الإصلاح وكراهية النظام القديم ، والإقدام على تجديد التفكير الدينى والاجتماعي ، فلولا هذه الصيحات المدوية التى انشق

● الهلال - نوفمبر ١٩٨٣ .

عليها قلب مصطفى كامل وعبدالعزيز جاويش ، لما قامت حركة إصلاح دينى ، ولا ترجم كتاب عن اللغات الأوربية ، ولا نبتت فكرة إنشاء جمعية خيرية ، أو بناء مستشفى أو إقامة جامعة أو إرسال بعثة للخارج ، وقد صورت جريدة فرنسية فى عام ١٩٠٩ أثر اللواء فقالت : قد شرح أحد السائحين الذين جالوا فى الديار المصرية ذلك الآن فقال :

«إن الذى يزور الآن قرى مصر ، يرى فيها أمرا مستحدثا ماكان ليخطر على بال أحد ، يرى حلقات من الفلاحين حول رجل يتصدر مصطبة يتحدث وهم ينصتون إليه ، وهذا الرجل فى العادة من القصاصين الذين يروون القصص القديمة ولكنه يقرأ الآن «اللواء» ، ويفهم الفلاحون ما يتلوه عليهم ، وبذلك يبدر فى قلوب أولئك الذين لم يألفوا منذ أجيال غير الخضوع ، بذرة جديدة قد تنمو وتثمر فى مستقبل الأيام» .

على أن نشاط الشيخ جاويش لم يذهب كله جهدا سياسيا بل إنه التفت فى عناية واهتمام بالغين ، إلى النواحى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وبذر فيها بذورا كانت هى أصول ما شهدته البلاد بعد ذلك من تطورات وحركات تحرر اجتماعى ، وتحرر اقتصادى ، يبغى فى كل منها قلب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى رانت على صدر الشعب لتزهق أنفاسه أو تقيد حركاته . وقد بدأ الحزب الوطنى بقيادة عبدالعزيز جاويش وأحمد لطفى وآخرين من زعماء الشعب وقادته فى إنشاء مدارس الشعب ، لتوفير الثقافة الأساسية والسياسية والاجتماعية للعمال فى المدن ، وقام فيها الشيخ بتدريس مادة الدين ، وقد بدأت هذه المدارس بواحدة فى بولاق حي العمال أنذاك ، وعززت

بثلاث مدارس أخرى فى أقسام الخليفة وشبرا والعباسية . ولم تكن هذه المدارس مجرد معاهد ليلية مجانية لتعليم العمال ، بل كانت فى واقع الأمر خلايا للفكر السياسى ، وإرهاصات بالعمل السياسى فى قالب جديد ، يوثق العلاقة بين الحركة الوطنية والعمال ، ويثير فى نفوس هذه الطبقة المحروقة ماديا ومعنويا ، الشوق إلى التعليم وتحصيل المعرفة ، وإشعارها بأن الثقافة سلاح لا يجوز لها أن تهمله ، وقد تخرج فى هذه المدارس مئات انضموا إلى الحركة الوطنية والعمالية ، وقادوها فكانوا قادة فى المجالين ، ضربوا المثل لاخوانهم فى الايمان بأن العلاقة بين الوطنية والتحرر الاجتماعى ، شىء واحد - يكمل بعضه بعضا ، وقد جاء الدليل على صحة هذه النظرية سريعا ، فقد دعا الحزب الوطنى إلى تشكيل نقابات للعمال ، وكانت باكورة هذه النقابات العمالية «نقابة عمال المصانع اليدوية» وقام الشيخ بوضع قانونها ، وأسندت إليه رئاستها ، فأعجب لشيخ ذى عمامة فى هذا الوقت المبكر ، يفكر فى إنشاء نقابة عمالية ثم يضع قانونها ، ثم يتولى رئاستها ، وهو فى الوقت نفسه ، يرأس تحرير أكبر جريدة يومية سياسية ، فيبذر بيد بذور الثورة السياسية ويبذر باليد الأخرى بذور الثورة الاجتماعية والاقتصادية ولا شك أن الميدان المفضل للشيخ مع بذله أقصى الجهد فى الميدان السياسى والاجتماعى هو مجال التعليم ، فقد خلق معلما ، وانتهى معلما ، ولذلك لا يتولانا شىء من الدهشة حينما نطالع البرنامج الذي أعده الشيخ لاصلاح التعليم فى بلادنا ، فدعا الى أفكار متقدمة بمعيار الزمان الذى وضع فيه هذا البرنامج ، ومعيار زماننا ، فقد

اقترح مثلا انشاء «رياض الأطفال» التى انشئت فى بلادنا بعد ذلك بنحو ربع قرن ، واسماها «بساتين الأطفال» . وشرح فكرتها بأن منها تلقن للأطفال منذ تفتح حياتهم فى الثالثة أو الرابعة من العمر ، عن طريق الأغانى والأناشيد والرسم والأعمال اليدوية ، والألعاب حتى يبلغ السابعة فيدخل الى مرحلة التعليم الابتدائى ، وقد حصّل قدرا غير قليل من المعرفة في جو يحبب له المدرسة ويحفظه فى فترة الطفولة الأولي من الفراغ الذى قد يتلف مواهبه «يحجبها» ثم نراه شديد الاهتمام بالتعليم الفنى ، حتى لا يكون التعليم فى بلادنا كله ، حشوا للذاكرة أو الحافظة، بالمعلومات ، علي حسابات ملكات الطفل أو التلميذ ومواهبه الأخرى اليدوية . وهو الأمر الذى يعتبر إلى الآن آفة يشكو منها نظام التعليم عندنا ، لم يبرأ منها .

على أن فى حياة الشيخ عبدالعزيز جاويش جانبا آخر ، كان عظيم الأثر ، ولكنه ضاع فى حياته الصاخبة العنيفة . الا أن الدكتور طه حسين كشف عن هذا الجانب الخطير ، حينما حدثنا فى الجزء الثالث من كتاب الأيام عن بداية حياته . فقد عرفنا في هذا الجزء لأول مرة أن يد الشيخ جاويش هى التى دفعته إلى الصحافة ، والى النقد الأدبى ، والى الجامعة وأخيرا هى اليد التى جذبته الى تعلم اللغة الفرنسية ، والقت إليه فكرة السفر الى باريس ، وطلب العلم فيها . لقد كان الثابت لدي الجميع ، أن «طه حسين» هو غرس يد أحمد لطفى السيد ، وأنه مدين له بكل مافى حياته ، من تطور التعليم من دنيا الأزهر ، الى عالم الجامعات الحديثة ، ومن كتب التراث ، الى الأدب العربى ، بكل مافيه

من ثروة متعددة الألوان والمناهج والدروب ، وأنه لولا ارتباط طه حسين بلطفى السيد ، وتتلمذه عليه ، لبقى أزهريا ، كغيره من الأزهريين الذين وهبهم الله القدرة على الكتابة والخطابة والحديث ، ولكنه فى حدود الأدب العربي التقليدي ، لا يزيد عليه ولا يخرج من نطاقه . ولكن اسمع ماقاله طه حسين . «واتصل الفتى (طه حسين) كذلك بالشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فأكثر الاختلاف اليه ، والاستماع له – وماهى الا أن أخذ يجرب نفسه فى الكتابة ، كما جرب نفسه فى الشعر على يد استاذه المرصفى «سيد المرصفي» ، ولم يكد الفتى يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والإقدام على ألوان من النقد ، فلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام ، ولكنه كان نقدا محافظا ، مغاليا فى المحافظة ، الا أن يعرض لشئون الأزهر ، فهناك كان يخرج حتى طور الاعتدال ويغلو في العبث بالشيوخ ، ويجد التشجيع كل التشجيع على ذلك من الشيخ عبدالعزيز جاويش ، وربما وجد منه إغراء بذلك ، وحثا عليه» .

ثم استمر يتحدث عن أستاذه عبدالعزيز جاويش ، بعد أن أشار الى صلته باستاذه الثانى أحمد لطفى السيد الذى كان يزوره كل يوم فى مكتبه بدار الجريدة فلا يحجب عنه ، وانما يلقاه هاشا له ، مرحبا به ، فاتحا أبوابا من التفكير لم تكن تخطر له على بال ثم قال : كان الفتى «طه حسين» يختلف مع ذلك إلى الشيخ عبدالعزيز جاويش رحمه الله – فيسمع له صوتا عذبا وحديثا لينا رقيقا ، ويرى من وراء هذا اللين ، وتلك العذوبة عنفا أى عنف ، أن ذكر السياسة أو ذكر الأزهر وشيوخه،

أو ذكر بعض الكتّاب الطاهرين الذين لا يكتبون فى صحف الحزب الوطنى . وكان يحبب العنف إلى الفتى ، ويرغبه فيه ، ويزين فى قلبه الجهر بخصوم الشيخ ، والنعى عليهم ، فى غير تحفظ ولا إحباط ، فهو يرى أنهم آفة هذا الوطن ، يحولون بينه وبين التقدم ، بما كانوا يلجون فيه من المحافظة ، ويعينون عليه الظالمين ، بموالاتهم للخديو ، ومصانعتهم للانجليز .

ثم قال :

قرأ الفتى الفصول الأولى من نظرات المنفلوطى ، راضيا عنها معجبا بها ، ثم لم يلبث أن سئمها ، وانصرف عنها ، ولكنه لم يكد يراها فى كتاب مجموعة ، حتى ضاق بها أشد الضيق ، وكتب يصفها ، ويغض منها ، وفرح الشيخ عبدالعزيز جاويش بما كتب الفتي أشد الفرح واستزاده من الكتابة وحرضه عليها ، وألح فى التحريض « حتى ألقى فى روعه الا يدع فصلا من فصول المنفلوطى إلا وأختصه بفصل من النقد ، وكان الفتى قديم المذهب فى الأدب ، لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحتمل من اللفظ الا بمكانه من معجمات اللغة ، فكان عيب المنفلوطى عنده أن يخطىء في اللغة ويضع الألفاظ فى غير مواضعها ويصطنع ألفاظا لم تثبت فى لسان العرب ، ولا فى القاموس المحيط» .

وقد لاحظ الفتى أن أحاديثه تلك عن المنفلوطى قد شغلت الناس حتى تحدث إليه فيها كل من يلقاه الا رجلا واحدا ، لم يشر إليها قط وهو مدير الجريدة «لطفى السيد» .

ثم قال :

«ولكن للشيخ عبدالعزيز جاويش فضلا على الفتى أى فضل ، فهو الذى ألقى فى روع الفتى فكرة السفر الى أوربا حين قال له ذات يوم لابد من إرسالك الى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام» . لم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ حتي استقر فى يقينه أن ليس له بد من عبور البحر ، على أى نحو من الأنحاء ، وأصبح الفتى كاتبا بفضل هذين الرجلين : لطفى السيد ، وعبدالعزيز جاويش ، وأصبح كاتبا بشيء آخر :

وهوانه أثناء الأعوام العشرة الأولى من كتابته فى الصحف ، الا حبا للكتابة ، ورغبة فيها ، لم يكسب بها درهما ولا مليما ، على أن فضل الشيخ عبدالعزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد ، وإنما تجاوزه ، فهو الذي عرف الفتى إلى جماهير الناس ، وأوقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، في بعض المناسبات العامة .

«كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجرى كلما انقضى عام هجرى ، واقبل عام جديد ، وكان الشيخ عبدالعزيز جاويش ، يحرص على أن يكون للحزب الوطنى احتفاله بهذا اليوم ، فأقام حفلة ذات عام فى مدرسة مصطفى كامل ، واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابا وكهولا وشيبة ، وكان الفتى قد انشد فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة ، وانشدها أمام الشيخ عبدالعزيز جاويش فرضى عنها ، وحثه على أن يقول أمثالها .

فلما كان الحفل شهده الفتى مع المشاهدين ، ولكنه لم يكد يأخذ مكانه بين الناس ، حتى قبل من يأخذ بيده وأجلسه على المنضدة ، ولم يقدر الفتى الا أن الشيخ عبدلعزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ،

ويتلطف له ، ويقربه من مجلسه ، فرضى «كل الرضا» وعده فضلا عظيما من الشيخ ، والقيت الخطب ، وصفق المصفقون ، ولم يرع الفتى إلا أن سمع اسمه يعلن إلى الناس ، ورأى نفسه يدعى الى انشاد قصيدته العصماء ، فلبث في مكانه جاهدا واجما لا يدرى ماذا يصنع ، ولا يعرف كيف يقول ، وأقبل من أخذ بيده ، وهم الفتى أن يمتنع حياء وخجلا ، ولكن الذى أخذ بيده جذبه جذبا شديدا ، وجعل الذين معه ينهضونه حتى انهضوه وجروه جرا إلى المائدة ، واستقبل الفتى بتصفيق شديد ، منحه قوة وجرأة ، فانشد قصيدته في صوت ثابت متأن ، ولكنه لم يستقر في موقفه ، وإنما كان جسمه يرتعد ارتعادا ، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال ، وأروعه ، حتى خيل إلى الفتى أنه قد أصبح حافظا «حافظ إبراهيم» أو قريبا من حافظ .

«ثم لم يقف الشيخ عبدالعزيز جاويش عند هذا الحد بالفتى ، ولكنه علمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية ، وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها ، ثم ترك أو كاد يترك الأشراف على تحرير هذه المجلة وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من إعداد الصحف ، وتنسيق ما ينشر فيها من فصول ، ولم تخل «الهداية» من جدال عنيف دفع إليه الفتى دفعا ثم أضاف الشيخ الى كل هذا الفضل فضل آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء من ذى القلة القناوى ، أرضاه عن بعض حاله ، وأكبره فى نفسه شيئا ، وأشعره بأن قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، وأن يكون له تلاميذ كثيرون بعد أن حال الأزهر بينه وبين ذلك .

· «فقد انشأ الشيخ عبدالعزيز جاويش مدرسة ثانوية كما أنشأ مصطفى كامل مدرسة وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على الا ينتظر على ذلك أجرا ، فالمدرسة عمل وطنى لا أجر عليه لمن يشترك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئا ، وربما انفق عليها من رزقه ، وكلف نفسه في سبيل ذلك من الحرمان ، وربما ألح على بعض الأعيان وأوساط الناس حتى أشعرهم على أن يعينوه على نفقتها ببعض المال ، وقد أقبل الفتى على تعليمه ذلك فرحا به ، مبتهجا له ، يري فيه شفاء لغيظه من الأزهر ، ويرى فيه مع ذلك مشاركته فى بعض الخير ، «ثم لم يلبث هذا كله أن أنقطع فجأة صرف الشيخ عنه بأحداث السياسة ، ثم اضطر إلى أن يهاجر من مصر على غير انتظار ، ولم يره الفتى «طه حسين» منذ ودعهم ليلة سفره إلا بعد أعوام طوال ، بعد أن عاد عودته تلك ، فقد سافر من مصر فجأة ، وعلى غير علم من أهلها ، وعاد الى مصر فجأة على غير علم من أهلها أيضا ، وعلى كل حال فقد اعان الفتي على الخروج من بيئته تلك المغلقة الي الحياة العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف .

ثم قال طه حسين :

«كان أول عهد الفتى بدرس اللغة الفرنسية أن حدثه بعض أصدقائه من الأزهريين بأن مدرسة مسائية انشئت فى مكان قريب من الأزهر تدرس فيها هذه اللغة لمن يريد أن يتعلمها من المجاورين ، وكان للشيخ عبدالعزيز جاويش يد فى إنشاء هذه المدرسة لم يحققها الفتى» .

ومعنى هذه السطور أن طه حسين تعلم الفرنسية أول ما تعلمها ، فى مدرسة أقامها وأعدها عبدالعزيز جاويش لتعليم الأزهريين هذه اللغة، ولكن وقته لم يتسع لتحقيق دور الشيخ جاويش في بناء هذه المدرسة، ولكني أقطع بأن فكرة المدرسة ، وما تم فى شأنها حتى تقوم على قدميها كان عمل الشيخ جاويش وحده ، فقد أخبرنى المرحوم الأستاذ على الغاياتى بأنه تعلم الفرنسية وقد كان أزهريا أيضا – فى مدرسة أنشأها الشيخ جاويش وأنه الحق بها بناء على أمر من الشيخ بذلك .

ويختم طه حسين حديثه عن أثر الشيخ جاويش فى حياته فيقول : «ومنذ ذلك الوقت أصبحت الجامعة بالقياس لي ، وسيلة بعد أن كانت غاية ، فقد ألقى الشيخ عبدالعزيز جاويش فى روعى فكرة السفر الى أوربا «إلى فرنسا خاصة» فما له لا يفكر فى هذا السفر، وما يمنعه أن يبتغى اليه الوسيلة ، والغريب أن هذه الفكرة مازجت نفسه ، وأصبحت جزءا من حياته ، جعل ينظر إليها ، لا على أنها حلم يداعبه نائما ، أو يقظانا بل على أنها حقيقة يجب أن تكون» .

وقد لخص طه حسين الفرق بين أثر الشيخ جاويش عليه ، وأثر لطفى السيد فقال :

«وكان صاحبنا «أى طه حسين» موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة في ذلك الوقت ، أحدهما مذهب الاعتدال الذى كان الاستاذ لطفي السيد يدعو إليه ويزينه في قلبه ، والاخر مذهب الغلو والأسراف، ذلك الذي كان الشيخ عبدالعزيز جاويش يقربه به ويحرضه عليه

تحريضا، وكان الفتي «طه» للمذهبين جميعا ، فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني» .

وقد قلت تعقيبا على ذلك القول ، أن طه حسين كان أثر حياته مهاجما ، حتى فيما يعدل عنه في قابل أيامه في مجلات السياسة أو الأدب من رأي أو مذهب فهو أقرب الى جاويش ومنهجه ، لكن جاويش انسحب من الحياة السياسية ، بل من الحياة العامة كلها ، بل ترك مصر بأسرها سنين طويلة ، دالت خلالها دولة الحزب الوطني في مقاتلة الاحتلال .. وغلوها في مقاطعة المحتلين ، ونقدهم وكشف عيوبهم ، وتعقب أخطائهم ، وجاء ت دولة أخرى ، ولكل دولة رجال ، وكان لطفي السيد من رجال الدولة الجديدة ، ومن ثم فقد توفقت أسباب طه بلطفي السيد ، الذي يتربع استاذا للجيل ، وقد كان بحق استاذا لجيل الأدباء والسياسيين الذين تولوا الحكم أكثر المدة الواقعة بين الثورتين ، ثورة ١٩ ، وثورة ١٩٥٢ ، فقد كان استاذا لطه حسين ، ولمحمد حسين هيكل، ولمحمود عزمي ، ولمصطفى وعلى عبدالرازق ولمنصور فهمي .

وأزعم أنه لو بقي الشيخ جاويش في مصر ، ولم يصب الحزب الوطني ، حزب مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، ما أصابه ، لدخل طه حسين في زمرة كتّاب الحزب الوطني ، ولاصطبغ أسلوب الحزب ، ولاعتنق مذهبه ، ولكن شاء ربك غير ذلك ، فأصبح طه حسين ، دستوريا يمنح ولاءه لحزب عدلي يكن ، وعبدالخالق ثروت ، واسماعيل صدقي ومحمد محمود وآل عبدالرازق ، ودار دوراته التي يعرفها مؤرخو الأدب والسياسة .

ولكنا نعود الى الشيخ جاويش ، فنقول للقارىء الكريم ، قد يبدو لك أننا اطلنا الاقتباس من كتاب الأيام الذى تحدث فيه طه حسين عن مطلع حياته كاتبا وصحفيا وخطيبا ، ولكنا لا نقصد من هذا الاقتباس ، أن نتحدث عن طه حسين ، لأنه من الشيوخ الذين خلعوا العمامة ، وارتدوا القبعة فى الخارج ، والطربوش فى مصر ، ولكنا أردنا من هذا الاقتباس المسرف آمرين :

أولهما : أن نكشف عن حقيقة في حياة طه حسين ، بقيت مستورة ومحجوبة على الرغم من عظم خطرها فى هذه الحياة ، مبينين كيف تجنى تطورات الأحوال فى بلد ما ، ولاسيما ما كان منها متعلقا بالسياسة والحكم ، على التاريخ وحقائقه الثابتة . فقد أكثر الناس الحديث عن طه حسين حيا وميتا ، مادحين وقادحين ، من أبنائه ومريديه، والغرباء عنه والبعيدين عنه ، فاجمعوا بغير استثناء على أن طه حسين هو تلميذ لطفي السيد ، وأن لطفى هو الذي قاده الى ما وصل اليه فى دنيا الصحافة والسياسة والفكر والجامعة ، ولم يمنحوا الشيخ عبدالعزيز جاويش ، فى رواياتهم وأحاديثهم حرفا ولا أقول سطرا، فكأن طه جاويش لم يلتقيا ، وأن جمعهما عصر واحد ، ومهنة واحدة ، ومجال واحد فى عصر الخديو عباس ، قبيل حرب عام ١٩١٤، وقبل ثورة عام ١٩١٩ ، ومجال واحد هو مجال الصحافة والسياسة والأحزاب ، فإذا تحدث طه حسين عن نفسه أثبت بأنه لثمرة فضل وجهد، واستاذية الشيخ جاويش صنعه علي عينيه وتفتح فى أدبه ، وأسلوبه ، وجهاده من روحه . قدمه للناس فعرف ، وحفزه للنقد الأدبى،

فذاع اسمه ، وأحب هذا اللون من النشاط الفكرى وتعلق به ، وواظب عليه ، وحرضه على اصطناع الأسلوب الجاد ، الذي لا يجامل ، ولا يدارى ، وجرءه على مهاجمة أصحاب السلطة والجاه الحكومى والأدبى من الحكام وعلماء الدين إذا تهاونوا ، أو اخطأوا ، فقلده وحاكاه . ثم القى اليه بفكرة السفر الي باريس ، فسافر ، وبأن يتعلم الفرنسية فتعلمها فى مدرسة الشيخ جاويش ، واتقنها وأصبح واحدا من خير الناطقين بها والمعبرين عن أفكاره ومشاعره . وأوقفه أمام الجماهير الحاشدة لأول مرة ، فألف هذه الوقفة ، وأحسن التحدث الى المئات والألوف ، ثم قاده الى الصحافة ، فعرف فنها ، وأسلوب اعداد الصحف وتنظيمها ، ثم جعل منه استاذا للأدب العربي ، فبقى فى هذا المكان حتى أصبح استاذ اساتذة هذا الجانب من حياة المصريين وحياة العرب. أما عن أثر لطفى السيد فى حياة طه حسين فلا تجد شيئا ، فطه حسين كان شديد الولاء للطفى ، وعظيم التقدير له ، ولكن لم يستطع أن يقول لنا ، ولو على سبيل المجاملة أن لطفى أعانه على شىء، أو يأخذ شيئا منه ، ولكن للناس حظوظا ، والشهرة والمكانة رزق «والله يرزق من يشاء بغير حساب» .

الباشا الأحمر

كان أنيقا غاية الأناقة ، منديله الأبيض من الحرير أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذلاته جميعا تلفت النظر بدقة تفصيلها وألوانها .. بدأ حياته العملية متأثرا بمصطفى كامل باشا .. وختمها داعية إلى المذهب الشيوعي !..

عز عليّ أن غادر دنيانا الاستاذ محمد كامل البنداري باشا المحامي والسياسي والوزير والسفير ، والداعية إلى لون جديد من التفكير في شئون بلادنا وبلاد المنطقة العربية . دون أن يشيع بكلمة تظهر قدره ، وتكشف للناس دوره ، وتحدثهم عن مواهبه العديدة ، وعن عجائب شخصيته الفسيحة المديدة .

وقد كنت أحسب أن موته سيذكر الناس به ، وعلى وجه خاص ، الذين صاحبوه في العمل السياسي التقليدي ، أو العمل السياسي الجديد ، الذي جاء ت به الأيام بعد الحرب العالمية الثانية ، واستقرار روسيا في أقصى شرق أوربا وأقصى شمال شرق آسيا ، قوة ذات نفوذ، ودولة ذات رسالة ، ولكن لأمر ما سكت الجميع ، ومضى الرجل إلى العالم الآخر ، وكأنه هزأ بالذين صمتوا ولم يتكلموا لأنهم جهلوه ، والذين صمتوا لأنهم ضاقوا به حين كان ملء السمع وملء البصر ، لغرابة أطواره ، وجرأته على منهج الناس المتبع ، وأسلوبهم المحترم .

● الهلال – ديسمبر ١٩٨٣ .

أتم محمد كامل البنداري تعليمه الابتدائي ، والثانوي في إحدى مدن الوجه البحري ، في أخريات القرن الماضي بعد أن ولد في قرية جد قريبة من مدينة الزقازيق ، وقد اشتهرت تلك القرية بأنها خرجت أكثر وكلاء مكاتب المحامين وكتبة تلك المكاتب ، واشتغل بعد أن أتم دراسته في مدرسة الحقوق الخديوية - نسبة إلى الخديو توفيق فالخديو عباس حلمي اللذين تعاقبا على عرش مصر - والبنداري في مقتبل حياته ، ثم اشتغل بالمحاماة ، في الريف ، ثم انتقل إلى القاهرة . وقد قامت بينه وبين الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل ، صلة ما لم أتبينها ، ولكنها لم تكن على كل حال صلة وثيقة ، إلا أنه لم يكن من الممكن كشاب في أوائل القرن العشرين في مصر ألا يتأثر بمصطفى كامل زعيم مصر ومؤسس حركتها الوطنية ، وباعث نهضتها في تلك الآونة . يتأثر به عن بعد ، قارئا لمقالاته ، أو مستمعا لخطبه ، أو متتبعا لنشاطه في مصر وفي الخارج .

ولكن ما ماكاد يبلغ سن النضج ، حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، وقرر المحامون ، في مارس من تلك السنة أن يضربوا عن العمل احتجاجا علي مسلك السلطة البريطانية من منع زعماء مصر من السفر إلى فرنسا ليشهدوا مؤتمر فرساى الذي انعقد في تلك السنة على مقربة من باريس ، ليصفي أثار الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٩١٤ ، ووضعت أوزارها في الساعة الحادية عشرة ، من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر في عام ١٩١٩ ، حتي جرى العرف على القول بأنها الحرب التي انتهت في ١١/١١/١١ .

وألفوا - أي المحامون المصريون - من أنفسهم لجنة لتنظيم الإضراب والمحافظة على تنفيذه بدقة وإحكام ، واختاروا لها من

أسموهم يومذاك برؤساء المحامين ، فوقع اختيارهم فيما وقع على البنداري الذى كان قد ظفر بلقب «بك» لما لمع نجمه ، وظهرت كفايته فى عمله ، وقصده أصحاب الدعاوى ، بوصفه محاميا كبيرا .

وزاد اسمه لمعانا ، حينما اتهم رئيس المخابرات أو المباحث فى عهد الاحتلال ، وقبيل الحرب العالمية الأولى - «جورج فلعبدى» - وكان لبنانيا وفد إلى مصر واحتمى بسلطة الاحتلال الانجليزى وأعجبهم منه مكره ، وسعة حيلته ، وقدرته الفائقة على الاتصال بذوى الشأن نفسه أو عن طريق أعوانه ، وارتقوا به حتى أصبح مرجعهم يختصونه بغضبهم فيحبسونه أو يعتقلونه أو يزجون به إلى السجن فى قضية ملفقة .. فكثرت ضحاياه وتعددت صلاته النسائية ، حتى تورط فى جريمة رشوة، وكان الإنجليز قد ضاقوا بفضائحه ، فتخلوا عنه ، فاتهم وحبس وقدم للمحاكمة أمام قضاء الجنايات .

وذهب محمد كامل البندارى ليترافع عنه ليفضح العهد كله ، بأسلوب جديد من القول لم يألفه الناس من قبل .

ولما أسفرت ثورة عام ١٩١٩ لا عن إستقلال ، ولا عن دستور مستقر ، بل عن حرب أهلية ، كان قضباها : سعد زغلول زعيم الأغلبية الذى يؤيده الشعب ، وعدلى يكن زعيم الأقلية الذي انحاز له أصحاب الأطيان الزراعية ، وباشوات مصر الذين تتصل أصولهم بباشوات الاتراك والشراكسة الذين كونوا طبقة «الذوات» فى عهد محمد علي وأولاده وأحفاده حتى قامت ثورة عام ١٩١٩ ، فحجبت أكثرهم عن السلطة ثم جاء ت ثورة عام ١٩٥٢ فخلعتهم من جنورهم أو خلعت البقية الباقية منهم فى شكل أمراء ونبلاء .

انحاز محمد كامل البندارى بك إلى حزب الأحرار الدستوريين ، الذي ألفه عدلي يكن ثم تركه بعد قليل من تأسيسه ، ليتولوا زعامته على التوالى محمد محمود باشا فعبد العزيز فهمى باشا فالدكتور محمد حسين هيكل باشا .

ولم يكن انحياز محمد كامل البندارى لحزب الأحرار الدستوريين لأنه من أبناء العائلات الغنية ، ولا لدم أجنبى يجرى فى عروقه ، فقد كان ابن فلاح من محافظة الشرقية ، ولعله عرف في طفولته وصباه ، ضيق العيش ، ولوعة الجوع ، ولكن «البندارى بك» ، كان يقرأ باللغة الفرنسية كتب القانون ، وكانت فرنسا مرجع الفقهاء والمشرعين والمحامين فى مصر ، وكان يحب أن يفكر ، وأن يعبر عن تفكيره ، في الأوساط التي يغشاها ، يتفهمه من يريد أن يفهم ، ويضيق به من يريد أن يضيق به .

وكان أنيقا غاية الأناقة ، وكانت أناقته تلفت النظر ، فمنديله الأبيض الحريرى ، أو من القطن الرقيق الفاخر ، يطل من كم بذلته ، وبذله جميعا تلفت النظر في دقة تفصيلها ، وتضارب لونها مع لون قميصه ، مع لون ربطة رقبته مع حذائه ، وهو إذا ذهب الي المحكمة ليترافع ، جاء متأخرا ، معلنا أنه عائد لتوه من رياضة كرة المضرب «التنس» فيفيض بزملائه الغيظ ، وينكرون كل ذلك انكارا صريحا وهو غير عابىء بهم ، ولا ملتفت إليهم . وهو إذا تكلم ، اختار من صيغ الكلام ، ما تيقن فى اختياره ، وهو يقطع الكلام ولا يتدفق ، ويؤكد معانيه ولا ينطق ، وتشعر من كلامه أنه يريد أن يقول أو يقول فعلا : أنه استاذ والسامعون تلاميذ أغبياء لا يحيطون بالعلم الذى جاء به .

ولم يكن كل ذلك ادعاء ، بل كان فعلاً يقرأ ما لا يقرأ زملاءه ، وينظر في الأحاديث إلى أمور يغفل عنها أشباهه ، ولولا هذا الذي بدا حذلقة لوصل البنداري بك الي مركز الصدارة فى حزبه ، ومنصب الوزارة في أيامه .. ولكن الحظ تأخر به قليلا ، فلم تفته الصدارة ولا الوزارة .

وفي عام ١٩٣٦ ولىٍّ الوزارة حزب الأغلبية ، وانكرت أحزاب الأقلية أشياء من حكم هذه الأغلبية واشتدت حملة أحزاب المعارضة وظهر أنهم كانوا يلقون تأييدا ممن كان يرمز إليه بلفظ «السراى» ، كما يرمز الى سلطان تركيا «بالباب العالى» ويرمز إلى رئيس وزراء بريطانيا بـ « ١٠داونتج ستريت» .. وهكذا .

وكانت مصر الفتاة فى ذلك الحين ، حزب الشباب ، دخلت الى حلبة السياسة ومعها برنامج جديد، يتحدث عن مصر من عهد الفراعنة ، ومصر العربية الإسلامية ومصر محمد علي ، وأن مصر يمكن أن تبعث من جديد وأن بعثها سهل هين لو آمن الشباب بأنفسهم ، واستقلوا عن أحزاب الشيوخ التى تجرى كلها وراء السفارة البريطانية والتى قالت يوما - غداة ثورة عام ١٩١٩ - أنها لا تشكو فى مصر الا الى السفير البريطاني ، ولا تشكو فى الخارج الا لبريطانيا ، ولفتت مصر الفتاة هذه الأنظار ، وارتدى بعض شبانها القميص الأخضر ، في وقت كانت فيه موجة القمصان تشمل العالم كله حتى بريطانيا موطن الديمقراطية التى تضيق بالأحزاب السياسية التى تعتمد على فيالق مسلحة ولو بالهراوات .

ووقفت مصر الفتاة من حكومة الأغلبية الحاكمة موقف المعارضة فأصبح بينها وبين أحزاب الأقلية شيء من الود ، لتوافق المصالح

وتقارب المواقف ، وفى تلك الفترة وبسبب هذه الظروف ، عرف محمد كامل البندارى المحامى وعضو حزب الأحرار الدستوريين زعماء مصر الفتاة ، فأعجبه منهم تجديدهم فى السياسة ، وخروجهم على الأحزاب التقليدية - التى كان يضيق بها هو سرا - ففتح لهم بيته وفتح لهم فوق ذلك قلبه ، فلما اتهم زعماء هذا الحزب الناشىء بالشروع فى قتل رئيس الحكومة ، ذهب محمد كامل البندارى بك إلى المحاكمة ليدافع عنهم لا كما يترافع المحامون الآخرون بل تطرف فى إبداء اعجابه بهؤلاء الشبان الذين رآهم أمل المستقبل ، وعدة الحاضر ، ونجحت مؤامرات السراى فأسقطت حكومة الأغلبية ، وتولى حزب الأحرار الدستوريين الوزارة واختير محمد كامل البندارى بك وزيرا للصحة فتصور بعض الناس أنه سينفض يده من هؤلاء الشبان الذين ورطته حماستهم له فى تصريحات استوقفت المسئولين ، وأثارت غير قليل من الدهشة .

إلاّ أن محمد كامل البندارى «باشا» - إذ منح رتبة الباشوية بمناسبة اختياره للوزارة - استمر يدافع عن شباب مصر الفتاة المحبوسين على ذمة قضية لا تزال معروضة على القضاء وتهمتهم فيها أشد ما تكون خطرا لأنها تهمة الاعتداء على شخص رئيس الحكومة القائمة آنذاك .. بل إنه صرح للصحفيين بأغرب ما سمع آنذاك : إذ قال : «إنه لا ينام كلما تذكر أن الشباب الذي جاءوا به وبزملائه إلى الوزارة محبوسون ، وهو فى الوزارة ، وأن يستغرب أن يكون لعمل الواحد وصفان . فهو جريمة حين ينسب إلى الشباب ، وهو عمل صالح حين ينسب إلى الحكم والى السلطة فيما يقوم به الشيوخ» .

وانزعجت دوائر السياسة من هذا التصريح غير المسبوق ، وتلقفته صحف المعارضة وقالت : إن وزير الصحة الذى عاش حياته يعمل فى المحاكم ويمارس المحاماة ، يدافع عن القانون ينسى هذا كله ويشيد بمتهمين فى يدى القضاة ناسيا أن ذلك مما يؤثر على القضاء - وعلى الأخص على النيابة التي تحقق الدعوى ، والتى هى جزء من السلطة التنفيذية وليس لرجالها حصانة القضاة .

ولم يحفل كامل البنداري بكل هذه الاحتجاجات ، ثم افرج عن زعماء مصر الفتاة ، فذهبوا فور الأفراج عنهم إلى كامل البندارى باشا وزير الصحة في مكتبه الرسمى فاستقبلهم مرحبا مهنئا وخطب فيهم بنفس المعانى التى قالها ورددها وهم في الحبس الاحتياطى .

بهذا الموقف اتضحت شخصية محمد كامل البندارى فعرف أنه سياسى غير تقليدى ، وأنه لا يتوقف كثيرا أمام المواصفات التى اتفق عليها مجتمع السياسة فى بلاده . ثم زادت صورته وضوحا ، وشخصيته بروزا حينما تسربت إلى الناس ولاسيما إلى دوائر المعارضة أن البندارى باشا يضايق رئيس الوزراء وهو رئيس حزب البنداري دولة محمد محمود باشا ، وأن رئيس الوزراء يشكو منه فى كل مكان ، وعند كل صديق ، وعند «السراى» بخاصة .

وتعلو شكوى رئيس الوزارة فى تهمة واحدة كبيرة نسبت الى البندارى باشا، هو أنه «عين» لعلى باشا ماهر رئيس الديوان الملكى الذى يسعى لإسقاط محمد باشا محمود، ليقفز إلى الوزارة وأن العمل على هذا الوجه لا يستقيم في الوزارة، ولذلك يجب إبعاد كامل البندارى من منصبه.

وشغلت دوائر السياسة بهذه الشخصية الجديدة فى المسرح السياسى، وحدث ما يشبه الدوى حينما خرج محمد كامل البندارى باشا من الوزارة مبتهجا كأنه لم يفقد أكبر منصب فى بلاده فى تلك الأيام، وزادت الضجة حينما علم ان الملك فاروق قد وقع اختياره على هذا الوزير الذى ساءت علاقته بحزبه وبرئيسه الذى ارتقى به إلى الوزارة والذى أصبح صديقا لدولة على ماهر باشا رئيس الديوان الملكى، ليكون وكيلا للديوان الملكى.

وأصبح محمد كامل البندارى رجلا من رجال البلاط الملكى، وإذا به يؤكد انه سياسى من نسيج غريب، فقد سافر رئيس الديوان الملكى الى لندن ليرأس وفد مصر سنة ١٩٢٩ إلى مؤتمر فلسطين الذى عقد ليناقش هذه المشكلة ضمن الوفود العربية الأخرى مع حكومة جلالة ملك بريطانيا وانفرد كامل البندارى باشا وكيل الديوان الملكى فأتى اشياء غريبة الى اقصى الغاية، فقد رأى الناس الملك يركب سيارته الملكية الحمراء الضخمة ويؤدى صلاة الجمعة فى مساجد قائمة فى أفقر الأحياء حتى ان قائد السيارة الملكية كان يجد صعوبة فى الالتفاف فى هذه الأزقة حتى يصل إلى المسجد الفقير المتواضع فى الحى الفقير المتواضع، ويخرج الملك فيقف على عتبة المسجد ليحيى أهل الحى الفقراء بأسمالهم البالية، وفقرهم الواضح، يصفقون له، ويهتفون باسمه ويرد لهم التحية باسما متواضعا.

وأمسك انصار الملكية التقليدية قلوبهم بأيديهم وتساءلوا: ايكون من وراء وجود البندارى الى جانب الملك سياسة جديدة، يتساوى فى ظلها الفقراء مع الاغنياء.

على أن كامل البندارى كان يمضى فى اشياء أكثر خطورة فقد جاء عيد الهجرة، ورئيس الديوان الملكى غائب، فأعد البندارى خطبة للملك ليلقيها فى هذه المناسبة عن طريق الاذاعة اللاسلكية، وألقى الملك خطبته بأداء جيد، خال من اللحن، وقال فيها شيئين خطيرين مذهلين، اولهما ان الملك قال إنه يسره أن يستعين بالشباب الذى يجب أن يفسح له الطريق وتتاح له الفرص. والثانى أنه ورث عن ابيه الاستقلال فى الرأى والاعتماد على النفس، فلا يتأثر بمن حوله.

وعاد على ماهر من رحلته إلى لندن، وقد ادرك أن علاقته بالملك فسدت وأنه بعد أن كان المستشار الاثير لدى الملك، وصاحب المشورة التى لا ترد، أقصاه البندارى باشا عن مكانه، وحل محله، فى غيابه، فاستشاط على ماهر غيظا، وأعلن انه لن يبقى فى مكانه الا اذا أبعد البندارى صديق الامس لا من «السراى» بل من مصر كلها. وفقد الملك استقلاله فى الرأى الذى كان يتحدث عنه فى خطبته اللاسلكية، وخضع لتهديد مستشاره القديم، وتخلى عن مستشاره الجديد، محمد كامل البندارى باشا وكيل الديوان الملكى الذى أبعد عن «السراى» وعين سفيرا لمصر فى بروكسل.

على أن محمد كامل البندارى باشا امتاز فى هذه الفترة قبل هذا النفى، ذلك أنه كان يشير علنا وعن مركزه الرسمى، وفى الدوائر الرسمية بشئ لا يقل خطرا عن كل ما قاله ويقوله. ذلك هو العودة الى «الاسلام» فى السياسة والحكم والتربية والتعليم، فى السلم والحرب، وان دستور الاسلام هو الحل لكل مشكلات مصر، ومشكلات المسلمين ومشكلات العالم كله.

ويحدثنا الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف «التربية تلك الأيام» في ص ١٥٦ من الجزء من مذكراته المعنونة مذكرات فى السياسة المصرية عن هذه الدعاية التى كان يروجها محمد كامل البندارى باشا وكيل ديوان جلالة الملك فاروق ننقل منها السطور التالية قال:

«كنت أشهد ذات مساء رواية غنائية تقوم بها فرقة إيطالية على مسرح الأوبرا بالقاهرة، وتصادف ان كان صديقى كامل باشا البندارى وكيل الديوان الملكى ورئيسه يومئذ بالنيابة يشهد هذه الرواية، والتقينا فى فترات ما بين الفصول فى غرفة الاستراحة، فحدثنى فيما كان يروج من بعض هذه الأفكار وبخاصة فى نظرية النظام الاسلامى للحكم وقلت له يومئذ: لكن الدستور المصرى يختلف فى اسسه عن هذا النظام الذى تحدثنى عنه، واجاب: كلا، فالدستور المصرى يؤيد النظام الاسلامى فى الحكم ويؤكده... قلت: كيف يصح هذا ومن أسس الدستور المصرية حرية الاعتقادات يجيز للمسيحى أن يرتد عن مسيحيته فى الاسلام من الاديان أو المذاهب المختلفة فى أمر العقيدة، كما يجيز للمسلم أن يرتد عن اسلامه الى المسيحية أو غير المسيحية من الأديان أو المذاهب المختلفة فى أمر العقيدة، بينما يقضى الاسلام بعقاب المرتد عنه بالإعدام؟... الخ.

ثم قال الدكتور هيكل: فأجابنى البندارى باشا: كل هذه تفاصيل يمكن التوفيق بينها وبين النظام الاسلامى وليس فى تعارضها معه ما يجعل هذا التوفيق مستحيلا.

وأشهد أنا أن البندارى باشا قرأ لى مقدمة لكتاب صدر في تلك الفترة بعنوان «صور إسلامية» فاتصل بى تليفونيا يطرينى ويثنى على باعتبارى الشاب الوحيد المشتغل بالسياسة العلمية، ويفهم الاسلام فهما صحيحا، يقارب بينه وبين ما يجرى فى حياتنا المعاصرة.

وسافر البندارى باشا إلى بلجيكا، وعاد لا يتحدث عن الاسلام ولا يدعو إليه، كما كان يفعل من قبل، بل لعله انقطع عن ذكره تماما واصبح شديد الاعجاب بالنازية وبأنها رد الفعل المناسب والطبيعى لهمجية الاستعمار الغربى، وانه كان يرى الضباط النازيين يسيرون فى الطريق وهم الغزاة الفاتحون، لا يرفعون رءوسهم لا يتعالون، واذا اصطدم بهم انسان فى الطريق عفوا، احمرت وجوههم خجلا، واعتذروا من ذلك الاصطدام، ولو كان الخطأ من غيرهم. وان العالم سيبرأ من حكم بريطانيا وفرنسا، واستعمارهما، بفضل النازية، وان عالما جديدا سوف ينشأ.

وغبت عن محمد كامل البندارى باشا فترة، ثم دعانى لمقابلته فى فندق شبرد، وما كدت أجلس حتى سألنى عن رأيى فى الشيوعية، وقبل ان اجيب، تدفق فى بيان طويل يعرض نظرية الشيوعية، ويفصل فيها، ويدفع عنها كل عيب، وانا صامت.

ولكنى أشهد أنه بقى على ايمانه بها، وانه أصبح مرجعا عربيا فى النظرية الاشتراكية وتطبيقاتها، وقد بقى يدرسها للشباب حتى كبرت سنه، وتجاوز التسعين، فقد ألف شباب نادى الجزيرة، وفى مقدمتهم العاملون بالحقل الدبلوماسى، وواضعو رسالات الماجستير والدكتوراه، أن يلتمسوا عنده العلم بهذه النظرية وهو لا يضن عليهم بشئ.

ويقى البندارى باشا إلى جانب ذلك يمارس الرياضة فى مواظبة مثيرة العجب، فى وقت كان زملاؤه ومعاصروه، فى فراش الشيخوخة يعانون الضعف والعجز وهو يقرأ، ويتكلم ويحاضر ويداعب، وكأنه شاب فى العشرين فأنت من محمد كامل البندارى وافقته أو خالفته أمام شخصية، لا ينقطع نشاطها الذهنى، وبذلها الفكرى، وتزودها بالمعرفة.

ذكريات عن شوقى

من حقى أن أتيه على زملائى ولداتى، من أبناء جيلى ، فى فترة شهر اكتوبر سنة ١٩٣٢ . ففى هذه الفترة ، تسلمت من يد احمد شوقى، أمير شعراء العرب، آنذاك ، آخر ما امتع به اهل لغته ، وبنى عشيرته من شعره الذى أطربهم ، وهز أعطافهم ، وأبهجهم ، وواساهم فى الملمات ، وارتفع بهم فى المحن والحادثات ، وملأهم زهوا ، عند جلائل المواقف والانتصارات . وكان ذلك بمناسبة إقامة مصنع إقامة شباب الجامعات والمدارس فى مصر من قروش جمعوها من مواطنيهم ، بعد دعوة وجهها إليهم الطالب أحمد حسين بكلية الحقوق، عرفت بعد ذلك بمشروع القرش ولقيت نجاحا عظيما وإقبالا واسع النطاق .

فكنت قد مضيت إلى كرمة ابن هانى، على ضفاف النيل الغربية، حيث لقيت الشاعر العظيم ، وكنت قد ترددت عليه من قبل مرارا ، وأصبح يعرف اسمى ورسمى، ثم التمست منه أن يخلد ذكرى إقامة هذا المصنع الفريد فى شارع إسمه (برج الظفر) ناحية العباسية ، فلبى الدعوة ولم يتردد ، كعادته معى من قبل ان تتوثق علاقتى به ، ويزداد اطمئنانا إلى ، وفى الموعد المحدد بالضبط لتسلم القصيدة المرجوة ، أعطانى الشاعر العظيم، ورقة منزوعة من كراسة مدرسية ، طبقت مرارا، ففقدت رواءها ، وبدت ورقة مهملة ، بسطتها من يدى فألفيت فيها بضعة أبيات ، من شعر ليس فيه شىء من طلاوة شعر شوقى، ولا

● الهلال - أكتوبر ١٩٨٢ .

رنينه ، وحلاوة جرسه ، بدأت بمعنى دارج فحواه «ان الملك بالمال والرجال» وقد نسيت هذه القصيدة ، حتى ان جامعي ديوان شعر شوقي الرابع، اخطأوا فقالوا ان أخر قصيدة لشوقي هي القصيدة الرائعة التي مطلعها : «فتية الوادي عرفنا صوتكم» التي تجدها في الصفحة السادسة عشرة من الجزء الرابع من ديوان شوقي المخصص لما اسماه جامع الديوان «مكرمات في السياسة والتاريخ والاجتماع» وهو الديوان الذى جمع بعد وفاة شوقي بعشر سنوات .

وقد كان اول عهدى بشوقي ، في ذات ليلة ، كنت فيها مع خالي بسينما كان مقرها المكان الذى يشغله الآن ، مسرح الريحاني ، وكانت تعرف باسم (سينما راديوم) ولم تكن من دور السينما الرائجة فرغنا من مشاهدة «الفيلم» وتهيأنا لمغادرة المكان ، فإذا بخالي يصرخ : ها هو ذا شوقي» ، ونظرت إلى حيث اتجهت إشارة يده فإذا بي أرى إنسانا قصير القامة ضئيلا يرتدى معطفا ، ويرفع اطرافه العليا اذ كان الوقت شتاء ، والبرد قارسا ، وفي ثوانٍ اختفى هذا الانسان الضئيل، وكأنه شبح سار ، وقد ذكرت هذا كله فيما بعد ، حينما عرفت عن شوقي بعض عاداته ، وكان منها ، انه لا يحب من مقاعد السينما إلاَّ ما كان منها ، قريبا غاية القرب من الشاشة ، وهي أرخص المقاعد واقلها شأنا، فقد كان قصر نظره يمنعه من تبين الصور ، اذا جلس في المقاعد الممتازة في الصفوف الخلفية من القاعة .

وذهبت الى قصر شوقي لأول مرة لأطلب منه قصيدة لمشروع القرش وقد شاء الحظ الحسن أن اراه في الحديقة ، يسير مطرقا بخطى قصيرة متلاحقة ، كأنه على موعد حال ، وهو لا يعدو ان يكون قد اسلم نفسه لخواطره ، وراح يمشي مستمتعا بالوحدة . وخلو المكان من

الناس ، ورأيت نفسي، وجها لوجه، في هذه الحديقة الأنيقة ، أمام هذا القصر الجميل، تبدو لنا صفحته ، ومن بعد ، تنعكس عليه شمس دافئة، وتتراقص عليها ، قوارب صغيرة . ذات شراع أبيض ، وصفها شوقي في إحدى اغانيه فاحسن وصفها ـ ومد لى الشاعر العظيم يدا ، فإذا هي يد طفل، صغيرة دقيقة نحيلة ، لو ضغطت عليها ، لانكسرت . ونظر إلى ، بعينيه الصغيرتين اللتين كانتا تتراقصان ، فذكرت انذاك ما كنت قرأته من انه ولد بهذه الآفة التي كانت تحول بينه وبين خفض نظره إلى أسفل . وكانت حدته وهي إحدى جوارى الخديو اسماعيل ، قد حملته إلى الخديو، وهو بعد طفل في المهد، وقالت له أنه لا يملك أن ينظر الى الارض، فاخرج الخديو من جيبه لتوه بضعة دنانير ، والقى بها على السجادة ، فخطف بريقها ، عينه فنظر إلى السجادة وما فوقها : فقهقه السلطان الكبير، وقال للجارية : عالجيه بهذا الدواء، فإنه جدير بأن يتماثل للشفاء . فأجابت الجدة على الفور ، قائلة : يا افندينا هذا دواء لا يجده إلا في صيدلية سموك :

وقفت امام الشاعر ، في حديقة قصره. وقد اشتد على ، ضغط الهدوء المطلق ، والصمت الشامل ، وخيل الى انى اسمع وجيب قلبى ، وقد كنت في اضطرابى، فرحا ان كتب لى ان اجتمع بهذا الشاعر الذى ملأ الدنيا ، وشغل الناس وحدنا ، وإلا يكون بيني وبينه حائل من شخص أو شيء .

وتمالكت جاشي وقدمت نفسي لرب الدار وقد غصصت بريقي . ولا أذكر ما إذا كان قد رحب بى أم سكت ، ولكني أذكر انى اندفعت اتحدث في شيء من العصبية عن غايتي من الزيارة ، فمضى امامى في

خطى بطيئة وأنا اتبعه وأتكلم ، ثم ادار لى نصف وجهه، فثابت نفسى إلى السكينة فقد احسست انه اطمأن إلى ، وسره الشأن الذى حفزنى للمجيء إليه . واستوضحنى عن المشروع، وشملت وجهه الصغير ، ابتسامة لا تعرف لها موضعا من قسمات الوجه ولكنك تحسها . ووعدنى بأنه سينظم لنا قصيدة، فحييته مودعا وشاكرا ، ومد إليّ يده الصغيرة النحيلة ، فبدأ إلى انها أكثر حرارة وانصرفت ، وأنا أكاد اقفز من السرور والبهجة .

ومضت أيام ، وذهبت إلى الموعد ، وقيل يومها لى إنه خرج من داره، وأنه ذهب إلى مكتبه ، ووصفوا موضع هذا المكتب، وكان قريبا من شارع زكريا احمد وادخلت المكتب، ورأيت الشاعر جالسا على مقعد ذى مسندين ، ومن حوله شبان عديدون أذكر منهم الدكتور سعيد عبده الطبيب الأديب الزجال القصاص، وكامل الشناوى ، وربما يوسف حلمى ايضا المحامى الذى اشتغل بالسياسة ، واختير امينا عاما لحركة السلام العالمى فى مصر .

ثم ذهبت إليه للمرة الثالثة فى كرمة ابن هانىء ، وكان فى مكتبه فى الدار، ولكنه خرج إلي الحديقة ، وكانت سيارته تنتظره على الباب، وخيل إلى انه لن يتحدث إلى بحجة أنه لا وقت لديه للحديث ، ولكن ادهشنى انه سار الى جانبى فى الحديقة ، بخطى بطيئة وودودة ، وأعنى بالخطى الودودة ، هى تلك الخطى التى توحى اليك ان صاحبها . يقول عن طريقها لك : لا تطل على . دعنى أمضى، للذى ما يشغلنى غيرك. وانت تؤخرنى ، سار شوقى ، متمهلا ، وسرت معه حينا وخلته حينا، فى مماشى الحديقة ، وانا سعيد بانه لا يتجه الى الباب حيث

ياخذ سيارته .. ولم أكن قد اكتشفت ان ملابسه غير قليلة الأهمية قد وقعت ، هى أن مجلة «المصور» ، كانت قد اصدرت عددا خاصا عن مشروع القرش، اشرفت انا على جمع مادته، وإصداره، وكان قد ضم آراء لعلية القوم حقا فى المشروع ، وكانت ضمن مواده قصيدتان احداهما لخليل مطران والثانية لعباس العقاد. وكانت القصيدة الثانية هى مدار كلام شوقى معى، فقد قال كلاما لم افهم المقصود منه اذ قنع بقوله : «يجب أن تميزوا وانتم تختارون الذين «يكتبون لكم ، وينصحونكم، ويشرفون على مشروعكم .. ابتعدوا عن الاراذل» :

ولم افطن من يعنى بلفظ الاراذل ، ولكنى اصغيت الى نصيحته ، بكل اهتمام فراقه ذلك منى ، واقبل علـى ، وأطال سيره فى الحديقة ، وأنا بصحبته ، استمتع بهذا القرب، ولا اقاطعه بشىء ثم توقف فجأة ، وفى يده مبسم سيجارته الذى لا يفارقه يعبث به ، ويدسه فى جيب معطفه ، ويدنيه من شفتيه ثم يبعده ، ثم قال لى بلا تمهيد ، وقد احسست أن الشاعر قرر أن يسقط ما بينه وبينى من حجاب الكلفة : «هل تعرف اننى احسن من حافظ ومن مطران ؟!» ..

وهزنى ان أسمع هذا من الشاعر الخجول، الذى لا يطيق صحبة الناس، ويضيق بهم ، وأحيانا يفر منهم ، فقد رأى أنه يستطيع أن يجعلنى موضعا لسر من اسراره ، أو لهم من هموم عظمته . ولكنى لم اقاطعه فقال :

«حافظ شاعر .. ولكن تنقصه المعانى . ويسىء إليه كثيرا أنه محدث عظيم . يخرج من بيته فيرتاد المجالس ، فيخلب لب السامعين بطرائفه وخفة ظله وحلاوة حديثه .. ينتقل من مجلس إلى مجلس ، وفى جميع

الأحوال هو المتحدث ، والناس يسمعون . لا يسمح لاحد غيره ان يتكلم فبدل ان يأخذ من كل زهرة رحيقها ، يعطى للناس أجمل ماعنده فاذا عاد إلى بيته، افرغ كل مافى جعبته ، وشعر بالحاجة إلى الراحة ، وسعى للنوم ..

«أما أنا فلا أحب الكلام وأهرب من الناس، وثقلاؤهم كثيرون ، ويطاردوننى ولا أجد منقذا لى الا الشعر ..

«أما مطران فمتعلم ، على عكس حافظ ، ويقرأ كثيرا ، خصوصا فى الأدب الاوروبى ، والشعر الاوربى ، ولذلك عنده معان، ولكن هذه، المعانى فى حاجة إلى لفظ جميل مثلها ، ولكنه يشتغل فى الثقافة الزراعية، فيقضى سحابة نهاره ، فى شئون لا تمت إلى الادب ولا تجلو صدأ النفس ، فتأتى الفاظه خالية من الحرارة والجمال .

«لو وضعت حافظا على مطران ، لخلقت منهما شاعرا .. وسكت ثم قال : «أنا هذا الشاعر ..» .

وتركنى وأسرع نحو السيارة ، وأنا ماخوذ اللب بهذا الكلام الصريح البسيط المباشر، وأنا لا أكاد أصدق . قبل ان يدخل إلى السيارة ، وقف عند بابها وقد استدار نحوي وهو يقول : متى تعود ؟!.

فلوح بيده وهو يقفل باب سيارته : يومين أو ثلاثة ..

تحرك الشاعر ، بعد أن قرأ كلام الادباء والشعراء ، مى ، والمازنى ، والعقاد ومطران، ورامى ، ووعد بأن يكتب قصيدة . سأخذ هذه القصيدة ، وسأذهب بها إلى جريدة «البلاغ» التى كان يصدرها المرحوم عبدالقادر حمزة باشا ، وترددت على دار الشاعر ورأيته فى مكتبه ورحب بى حينا ، وبدا عليه الذهول ، والانصراف عنى حينا ، وان كان

يتدارك اثر سوء استقباله ، فيعود مجاملا . وعلمت اخر الامر ان القصيدة اوصلها شوقي بنفسه إلى صديقه صاحب البلاغ وهي على صدره، واسفت ان القصيدة افلتت من يدى ، وذهبت الى الجريدة على طول ترددى على الشاعر ..

وراعتني القصيدة ، فقد كانت مطلعا ومتنا ، اثرا عظيما من اثار الشاعر العظيم .

وقد ابهجنا ، واسعدنا مطلع القصيدة ،

لا يقيمن على الضيم الاسد
نزع الشبل من الغاب الوتد
كبر الشبل وشبت نابه
وتغطى منكباه باللبد
اتركوه يمشى فى اجامه
ودعوه عن حمى الغاب يلد
واعرضوا الدنيا على اظفاره
وابعثوه فى صحاريها يصد

واذكر اننا زكي مبارك وأنا ـ عرضنا لهذه القصيدة ، وكنت احفظ هذا المطلع ، فرويته للدكتور زكي، فترنح وقطار (المترو) يحملنا على متنه إلى القاهرة ، فاستعاد هذه الابيات مرة ومرتين وثلاثا . وهو ثمل بخمر الفاظها ، ولكنى لم ألبث حتى استوقفنى المصرا ع الثاني من البيت ، فصدمنى التشبيه فيه ، فشوقى هبط بالأسد الى مرتبة الحمار حينما قال : إن الشبل نزع من الغاب الوتد . ولا يشد الى الوتد الا حمار او

ما يشبهه من الحيوانات ، ولكن بقيت القصيدة آية من آيات نبوغ شوقى، وعظم شأوه ، ولعله قد بلغ الغاية حينما تحدث عن الشبل ، فطلب من الجيل القديم ان يتركوا الشبل يمشى فى الجام ، وان يجرب قوته في حماية الغاب والذود عنها ، ثم ان يعرضوا الدنيا على اظفار هذا الشبل يعنى يفسحوا فرصة النزول الي ميدان المعارك ، وأن يذهب فى اعطاف الصحراء واطرافها ، يبحث عن الصيد . لم يكن هذا شعرا جميلا فحسب . وانما كان أيضا دعوة الي التجديد ، ودعما للجيل الجديد .

ووجه الخطر فى هذه الابيات ، انها كانت من آخر ما نظمه شوقى ، والمألوف فى الكتاب والمفكرين والشعراء ، إنهم حينما يتقدم بهم العمر ، يؤثرون القديم ويميلون الى المحافظة ، وشوقي وهو على عتبة الدار الاخرى، يتحدث عن المستقبل بروح التفاؤل ويعلن ثقته بالشباب ويقول فيما قال :

سيرى الناس عجيبا فى غد

يغرس القرش ويبنى ويلد

ايها الجيل الذى نرجو لغد

غدك العز ودنيال الرغد

وقد قلت ان المرحوم سعيد العريان جامع الديوان ظن ان هذه هى آخر قصائد شوقي ، فى حين أن القصيدة التى تسلمتها منه وسلمتها لجريدة الاهرام ، كانت خاتمة المطاف، وكنت انا اخر من تلقى ابيات الهام الشاعر .

غير اننى بقيت على صلة به ، فقد دعوت إلى فكرة «مؤتمر الطلبة الشرقيين» وكانت الغاية من هذه الدعوة ، العمل على تأييد ودعم الرابطة بين شباب الشرق على مدى اتساعه ، وترامى أفاقه ، بحيث يجمع الشباب المنتمى إلى هذا العالم الفسيح حتى اليابان والصين على المحيط الهادى حتى المغرب على المحيط الاطلسى وعلى الرغم من ضخامة الفكرة ، وصعوبة أو استحالة تنفيذها ، الا ان طموح الشباب، وخياله، قرب البعيد، وذلل الصعب ، او اوهم بذلك . وقد تحمس لهذه الفكرة من بين اساتذتى فى كلية الحقوق، المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهوري، فكان يمنحها من وقته وجهده ، ما زادنى تعلقا بالفكرة وحبا له ، واعجابا بمثاليته . ولقد رأينا ان نصدر لهذه الفكرة أعدادا من المجلات الرائجة في مصر ، فاخرجت عددين أولهما كان من مجلة السياسة الاسبوعية اكبر المجلات الادبية انذاك وأعظمها رواجا، والثانية من مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال ، وقد نجحت فى حشد عدد من أكبر أقلام العربية في مصر والمشرق العربي والمغرب العربى ، وترددت من اجل الحصول على قصيدة من شوقى ، لهذه الفكرة ، وكثر ترددى ، وجلوسى معه منفردين حينا . ومع أخرين من محبيه ومريديه ، أحيانا . وكنت ادخل احيانا الى مكتبه فى كرمة ابن هانىء . فلا اجده فيها وإنما أرى مجلدات ، معظمها من التراث العربى مثل الاغانى والامالى، والمعارف ودواوين كبار الشعراء كالمتنبى وابى تمام آراها رصت بعضها فوق بعض، وأراها مقلوبة عند الصفحات التى وصل إليها الشاعر في قراء ته . ثم اجدها كثيرا ملقى بها على

الارض ، هنا وهناك ، بغير ترتيب ولا احتفال . وكنت المح بينها أجزاء القواميس الكبرى كتاج العروس ، والمحيط، والمصباح المنير. ولم ار فى كل هذا ولو لمرة واحدة كتابا بالفرنسية التى تعلمها الشاعر فى مستهل عمره بمصر ، ثم اتقنها حينما ارسله الخديو توفيق ليدرس القانون ، فتركه ودرس الآداب .

وقد عرضت مناسبة حملت الشاعر على ان يتحدث الىّ عن محمد عبدالوهاب المطرب الشهير، والذى كان اقرب الناس إلى شوقى، واحبهم إليه . وكان يصحبه إلى دور الصحف حيث يقابل رؤساء التحرير وكبار الادباء ، فقد عرضت على امير الشعراء ، ان يقنع محمد عبدالوهاب بأن يؤدى فى حفلة نقيمها (لمشروع مؤتمر الطلبة الشرقيين) ، ونزود من دخلها ، خزانة المشروع الخاوية . وقد حدثت شوقى في هذا الشأن ، فى مكتبه ، وكنت واقفا وكان هو كالمضطجع على أريكة من ارائك الحجرة ، فاعتدل في جلسته وصاح باعلى صوته الضعيف : (يامحمد) وجاء عبدالوهاب ، ووقف بين يدى الامير فى ادب . ورد عليه في صوت خفيض ثم انصرف ، فاتجه الى شاكيا ، ان عبدالوهاب يغنى فى سرادقات تقام لحفلاته فى الليل وفى الشتاء فيدخل الهواء البارد من خلالها ، وصحة عبدالوهاب لا تتحمل هذا العناء ولا ذاك البرد، وقد احسست عندها ، مدى حب الشاعر، لمن يغنى له قصائده وازجاله فيشدو شدو البلبل حقا ، فيستخف بصوته آلاف المستمعين .

وقد سمعت المطرب يروى بعض ذكرياته مع شوقى ، فقال إنه علم من خادم الشاعر، وكان سودانيا يدعى احمد ان سيده عاد من الخارج

كعادته متأخرا فـى الليل وطلب من تابعه ان يحضـر إبريق الماء والطشت ليغسل وجهه ورأسه قبل أن ينام ، وبينما يحضر احمد هذه الأدوات ، يحضر الموت ، ويشتد الم الشاعر فى صدره ، فيأمر خادمه ان يدع ما بيده ويدعو ابنه ليعطيه حقنة ، تصرف عنه الم الصدر، ثم يدرك الشاعر أنها الخاتمة فيقول لخادمه :

«لاتدع احدا .. إنها النهاية . سلم لى على محمد» ثم اغمض عينيه وترك دنيانا . ليبقى شعره مقروءا وذائعا يتغنى به الشباب. ويتغذى به الرجال والشيوخ ، ويجدد من شباب لغة العرب، ويزيدها على الايام جمالا وبهاء .

المثال مختار شاعرا

لقد اعتدت أن أقف ـ كلما أتيح لى الوقوف ـ أمام تماثيل مختار ، ثم أترك نفسى ، تتأثر ، وتنطق مع تأثراتها ، فى عالم فسيح لا ينتهى عند حد ، أنسى فيه دنيانا المحدودة ، التى يعكر صفوها ضجيج لايطاق، ودناءات لاتحتمل ، وأناس صغار ، يخاصمون الفن، ولايدعون أحدا ، ليستلهمه أو يستمع إلى همسه الذى يحرك القلوب ..

كنت أفعل ذلك دائما وأنا مدرك أن ما يصنعه مختار فى الصخر ، وفى البرونز أو الرخام ، هو شعر مجسد ، وأن الوزن فيه والقافية ، هما هذه البراعة التى تحيل الجماد إلى جسم حى ، تنطق كل قسمة من قسماته ، سواء كانت هذه القسمات فى وجه أو فى صدر أو فى ذراع ، وبقيت هذه حاله مع تماثيله الصغيرة ، الرقيقة ، الى أن قرأت بعض ما كتبه فإذا به شاعرا حقا ، ينطق الكلمات كما ينطق الصخر ، فهو لايكرر المعانى المألوفة ، وإنما يخرج من اجتماعها وتفرقها صورا وألوانا ، وأشكالا تنافس تماثيله ، وإن كانت تشبهها فى هذا الفيض الدافق من الإحساسات وهذه اللوحات التى يملأ بها القلوب ، وهذه اللوحات الزاهية والباكية التى يمتع بها العيون والأبصار .

وقد رأيت أن أعرض عليه نماذج مما كتب فى أكثر من مجال ، لتتذوق هذه التماثيل التى صاغتها أنامله عندما تحمل كلمة.

● الهلال - فبراير ١٩٨٥ .

أرسل إلي صديقته «مارسل» خطابا جاء فيه :

«لقد نضب الشعر اليوم من نفسي ، فبعد جولة في جبال الجرانيت، وبعد ساعات طوال من الارهاق والعمل استلقى مجهدا وغدا لن يكون لي من النوم لحظة ، يوم ثقيل بعد وحده .

ولقد كان من الحكمة ألا أكتب إليك اليوم ، ولكنك ياعزيزي مصدر الأفكار التي تستمد قيمتها من وحيك وإلهامك وإنه يطيب لي أن أتصور أسماء نا وقد انبعثت بغتة من أوراق خطاب قد يعثر عليه ، وقد يتساءلون عن تلك المرأة التي لقيت كل هذا الحب وعندئذ سيصمون أطيافنا بالكثير من الحماقات والسخف ، فإذا كنا نسيء الحكم على الأحياء فماذا يكون الحكم علي الغائبين أنا أكتب إليك وأنا مستلق علي الرمال التي لاتزال تحتفظ بسخونة يوم محرق ، وفي الجوريج قبلات ، والرغبات اليائسة تتبدد في الأحزان وعاودتني الأوهام ، رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفي مهام الزمان حيث كنت أتمدد بدت لي معالم تكوينك تتشكل .

«إنني أرى النيل أمامي ، وفي الضفة الأخرى ، كشك أثري قديم يغمره الليل والصمت» .

وحين أفتقد وجودك إلى جانبي تنصتين إلي وأحيانا تبتسمين فإنني إلى هناك أتجه ، ولكن طالما كان على مقربة منا شخص يحتاج لنا ألا تكون الحياة جميلة .

وهل لنا أن نشكو من يكون هذا الشخص محبوبا نستمد من وجوده ومن غيابه ، عواطف وأحاسيس غير محدودة .

وإذا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوي على نفسها وتصبح إحساسا داخليا ، أليس في هذا أيضا شعور بالراحة ،

وكتب أيضا بعنوان «ترنيمة حزينة» خطابا لنفسه لا لصديقته لأن حبه من جانب واحد ، وهو بهذا الحب سعيد .

كتب لها أولا خطابا ، فوجدته مرا فحرقته ، بأى حق أشكو منها ! أنى أحببتها بهذا الحب الذى لايعبر عنه بالكلام بل نحت فى الحجر الصوان الأصم .

نعم كنت أحبها هذا الحب المقدس ، وأبحث فى عينيها عن هذا السر الذى يجذبنى دائما إليها ، لا كما يبحث الإنسان بين الأعشاب عن خاتم وقع من أصبعه ، بل كما يبحث المرء عن سعادة صنعتها له الحياة لكل هدوء فى أسرار الأشياء ، كنت أحبها وأفاخر بهذا الحب السامى الذى وضعت تحت تصرفه جميع مواهبى لأقذف بها فى أمواج الحياة المتلاطمة ، لأجعلها حى خالد .

وكان هذا وأكثر من هذا مما لايكتب ولا يقال ولكن يظهر لى أنها لم تقدر هذه العواطف الرهيبة وكأنما خشيت أن تنظر إلى بعمق هذا الحب المخيف ، الذى لم تتعوده بعد ، فأوقفته بيد من الثلج .

أنظر كيف تعامل هذا الحب فقد بقيت كل هذه المدة بدون أن أراها ، أو تصلنى أخبارها ، كأن الحياة قد انقطعت أسبابها ونحن نعيش فى مدينة واحدة ، كأنه وضع بينى وبينها سداً من حديد ، فأصبحنا لايعرف أحدنا الآخر .

أنظر كيف تسرف فى عدم الاكتراث ، وهى تعلم أن عدم الاكتراث ماهو إلا سم الحب الزعاف .

أنظر إليها بعد أن سقته كأس الموت ، كيف تنظر إليه يحتضر ولاينفطر قلبها ، وتذوب روحها إجلالا لهذا المنظر الرهيب» .

أنظر كيف تبتسم أمام هذه الدماء المقدسة ، وهى تعلم أن للحب الها حسابه عسير ، فسوف يأتى يوم تثوب إلى رشدها ، وعندها تلبس الحداد إلى آخر يوم من حياتها البائسة .

ولكن لماذا أقول لها كل هذا ؟

إنها سعيدة بدون هذا الحب ، وهل أنا أردت شيئا آخر غير سعادتها بأى حق أريد أن أشركها فى مستقبلى المليء آلاما وغيوما .

بأي حق أريد أن أقذف زوابع حياتى وعواصفها فى حياتها الهادئة الساكنة .

لا : فلتكن هى سعيدة ولتسامحنى إذا عكرت عليها صفوها لحظة واحدة ولتكن إرادتها .

أما أنا فسأخضع لعزة نفسى ، وأعود إلى وحدتى الساكنة التى أجد فيها دائما الدواء الشافى ، لآلامى والبلسم الذى يضمد جروحى ، وسأنظر من هذه الوحدة إلى تذكار هذا الحب كما ينظر الإنسان إلى كسوف الشمس من خلال قطعة زجاج عليها سحابة من الدخان إلى أن تغيب .

ولكنى سأبقى كالانسان الذى لاترى منه العيون العادية أثرا من بعيد ، حتى إذا زلت قدماها أقدم لها يد الشفقة لانتزعها من الهاوية .

هذان الأثران الذى خلفهما محمود مختار ، والذى وجدتهما فى كتاب الكاتب العظيم بدر الدين أبو غازى وزير الثقافة والناقد الفنى الفذ، عن مختار وهما يكشفان عن أغوار هذه النفس الشاعرة ، ومدى تلاطم مشاعره وعمق أحزانه ـ وأسلوبه الخاص به ، لا بالاحساس بالحب وتأثره به ، وتصغيره عنه ، بل بغرابة الدنيا التى عاش فيها

والتى الهمته هذه القطع التى نحتها في الجرانيت ، والتى ألانها بسحر أنامله ، فنطقت بألطف عبارة فاضت بالحزن والحرارة ، والحب والمرارة.

أنظر إلى قوله مثلا : في الجوريج قبلات ، والرغبات البائسة تتبخر في الأحزان ، وإلى قوله : رأيتك تنبثقين فجأة من أحجار الجرانيت ، وفي سماء الرمال حيث كنت أعتبرها معالم تكوينك تتشكل وأخيرا هو يغرى نفسه ، بكلمات تمتلىء بالحزن والأسى والانكسار فيقول :

وإذا كنا نحب من جانب واحد ، وإذا كانت الحياة تنطوى على نفسها ، وتصبح إحساسا داخليا ، أليس فى هذا أيضا شعور بالراحة؟

والحق أن الشعور الذى يصفه هنا ، ليس شعورا بالراحة ، لأنه الانطواء والعزلة والاحساس الممض بالوحدة ، ولكنه شعور محب ، لايجد من حبيبته متبادلا في العاطفة .

وفى الترنيمة الحزينة ، عتاب يفيض بدم الحب المسفوك ، فالشاعر قد هجرته معشوقته ، فانظر كيف يصف موت الحب ، الذى جرعته يد المحبوبة سما زعافا، وكأنها لاتفعل شيئا ، لأنه هجرته فحسب ، وهى تحسب أن هذا الذى سفكت به دم هذا المخلوق الرقيق الحساس الذى نسميه ، أمر لا خطأ فيه ، ولاعتاب عليه وكالعادة يعزى نفسه بأنه ليس من حقها أن يعصف بهدوء نفسها أو يقذف فى دنياها الساكنة بأعاصير حياته وبعد هذا نرى أن الفنان الكبير المحلق والمتسامى فى دنيا الابداع ، والشاعر الذى يحس أضعاف مايحس الناس العاديون ، حينما تشتد به لوعة الحب ، وتحرقه نيران الهجر ليس إلا إنسانا عاديا، إلا أن قدرته الخارقة علي التصوير من جهة وعلي التعبير من جهة أخرى تبديه فى صورة إنسان غريب ، وهو فى الواقع واحد من الناس يضاعف بتفوقه ودقة إحساسه ، آلامه .

على أن شاعرية مختار ظهرت فى أجل صورها فى لوحة قلمية وصف بها طقوس استقبال الطالب الجديد أى طالب جديد فى مدرسة الفنون الجميلة بباريس ، وهي طقوس تصل فى القسوة الى أقصى الغاية وقد نال منها نصيبا لايحتمل ، ولكنه يخلد له ، ولما وصفه ، وصفه بهدوء وكأنه نسى مافيه من مرارة جاوزت الحدود قال :

«لما وصلت إلى مدرسة الفنون الجميلة ـ نبهنى أستاذى إلى هذه اذ وضعوا مرة تلميذا جديدا فى المجارى حتي اختنق ووضعوا آخر فى برميل وتركوه يصرخ فيه على رصيف السين حتي ساقه الشرطى إلى القسم ، أما اذا غضب الجديد فالويل له ، وقد يؤدى الأمر إلى خروجه من المدرسة نهائيا .

ولقد كان نصيبى كجديد أن يحكم علي بالتجرد من جميع ثيابى ، وأبقى عاريا تماما ، ولم تكن تنفع مقاومة أو شفاعة .

فرضخت من فورى كما رضخ زملاء لى من قبل ، فشدوا وثاقى الي كرسى ، وأنا عارٍ كما ولدتنى أمى ووضعوا على رأسى تاجا من الورق على شكل فرعون ، وكتبوا عليه «رمسيس الثانى» وحملونى على نقالة رفعوها علي أكتافهم ، وخرج موكب الطلبة فى جموع غفيرة يتقدمنا من يفسح لنا ، وسرنا كذلك من المدرسة إلى عرض الطريق حتى كنيسة «سان جرمان ذى بريه» فى آخر شارع بونابرت ـ وكان المطر يتساقط رذاذا فوصلنا إلى قوة بونابرت ، والناس من حولنا ينظرون ويبتسمون وهم جميعا يعرفون عادات مدرسة الفنون الجميلة وتقاليدها .

وهناك وضعونى كما أنا علي خوان فى المقهى وطلبوا طعاما وشرابا وجعلوا يرمونى بالفضلات وقشر المحار وكأنهم يقدمون إلى على طريقتهم الزلفي والقرابين» .

وبمناسبة الحديث عن خطابات مختار العاطفية ، نذكر أن القريبين من مختار من الأصدقاء والأقارب ، يعرفون مدى ارتباط المثال العظيم بالمطربة ذائعة الصيت أم كلثوم الآتية من ريف مصر ، وقد يمكن القول أنها كانت عنده بمثابة الفلاحة التي جسدها في تمثاله الرائع «نهضة مصر» والتي رمز بها إلى مصر الحديثة توقظ مصر القديمة ممثلة بدورها في «أبي الهول» وكان قول مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية المصرية «أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة» وقد ألهم المثال بفكرة التمثال ، ولاسيما أن قاعدة تمثال مصطفى كامل الذي صنع بأموال المصريين سنة ١٩٠٨ وهي السنة التي أنشئت فيها مدرسة الفنون الجميلة بناحية درب الجماميز ، وهى المدرسة التي تعلم فيها مختار .

وقد حدثني الفريق عزيز المصري باشا ، وهو صديق حميم لمختار ، عن ارتباطه وتعلقه بأم كلثوم ، علي وجه لم يكن ليخفى عن أحد من أعضاء الدائرة الضيقة التي كانت تحيط بمختار ، وقد عبر المثال عن حبه لأم كلثوم وتقديره لفنها ، بتمثالين من أجمل تماثيله أحدهما أودع في متحف الشمع «جرفيه» في باريس وهو من الشمع ، والثاني من الجبس ، ولو لم يقل لي عزيز المصري أن مختار كان يحب أم كلثوم حبا عاصفا ، ولكنه كان حبا عفيفا مكتوما وقد يكون من جانب واحد، وإن كانت أم كلثوم شديدة الاعجاب بالمثال ، مأخوذة بشخصيته النادرة والمتحررة في مجتمع كان في ذلك الحين ، شديد المحافظة، عظيم الرياء، لو لم يقل عزيز المصري لي شيئا عن هذا الحب ، لوشت تماثيل مختار بهذا الحب وأعلنته مختار في سطور :

محمود مختار هو أول مثالى مصر حمل الأزميل من الفنان الفرعونى القديم منذ أربعة آلاف سنة .

وهو بذلك منشىء النهضة المصرية الحديثة .

ولد فى قرية نشا بجوار المنصورة سنة ١٨٩١ .

دخل مدرسة الفنون الجميلة فى القاهرة عند إنشائها مرة لأول فى درب الجماميز سنة ١٩١٨ .

عرض أول تمثال فى صالون الفنون بباريس سنة ١٩١٣ وهو أول مثال غير أوربى يسمح له فى هذا - بتمثال عايدة .

بعد ثورة ١٩١٩ - عرض تمثال نهضة مصر فى باريس فى معرض الفنانين الفرنسيين .

اكتتب المصريون بجميع طبقاتهم فى اقامة هذا التمثال ، وقد أقيم فى ميدان المحطة في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٨ .

كلفته الحكومة إقامة تمثالين لسعد زغلول أحدهما فى القاهرة ، والثاني فى الاسكندرية وعندما أقيما كانا مع تمثال نهضة التماثيل المصرية الوحيدة المقامة في ميادين مصر ، وبفضله نشأت الطبقة الأولى من الفنانين التشكليين ، أمثال يوسف كامل ، وراغب عياد ، ومحمود سعيد ، ثم الجيل الجديد عبد القادر رزق وجمال السجينى ، وصلاح طاهر .

وقال بدر الدين أبو غازى ابن شقيقة المثال عن صلة خاله بأم كلثوم مانصه كان من أشد المتحسمين لها مع مجموعة من الأصدقاء ، وتمثلت حماسته وصداقته لها في تمثال يفيض بالرقة والشجن والجمال، وفى تمثال أخر من الشمع اقامه لها ، الى جانب تمثال بافلوفا بمتحف جريفن بباريس .

أعلام معاصرون

يحيى حقى :

أمير المقالة القصصية

أريد اليوم أن أرسم صورة قلمية ليحيي حقى ، لقد كتبت عنه قبل اليوم مقالا في مجلة الثقافة ، ضمها كتاب اسمه «افكار الكبار» ولكن اليوم أريد أن أتحدث عن يحيى حقى الأديب ، عن شخصه ، عن سماته، عن خصائص نفسه ، لأنى لا أظن أن أحدا يكتب عن هذه الجوانب التى لو وصفت بحذق وصورت بدقة ، لظفر القارىء العربى ، بشىء ممتع ، والحق أن الشخص الذى يمكن أن يقوم بهذا ، ببراعة ولطف وخفاء ودعابة وسخرية هو يحيى حقى نفسه ، ولقد صور نفسه فى آلاف من السطور التى كتبها والتى كونت كتبا ستخلد كما يمكن أن تخلد الكتب قرنا أو قرونا ، ثم تبقى بعد ذلك أثرا يحتاج إلى مكتشف ، ووشم فى ظهر يد الزمان ، لايقرؤه الا شخص منقطع لقراءة هذه الآثار الباقية :

يحيى حقى ، كل شىء يدل على أنه ، واسع الحيلة ، عميق الغور ، لاتعرف ماذا يبطن ، فهو أولا قصير ، وأباؤنا وأجدادنا علمونا أن القصير ماكر ، وأن الطويل أبله ، ولكل قاعدة استثناء واحد على الأقل ، ولكن يحيى حقى إلى جانب قصره له ابتسامة لاتفارق شفتيه لاندرى

● الهلال - فبراير ١٩٨٥ .

أهـى مشروع نـسى صـاحبه أن يتمه فى مدة تجـاوزت الثمـانين ، فإنـى أزعم أنه حينما ولد ، كانت هـذه الابتسامـة على شفتـى الطفل الذى يصرخ صرخة الحياة التقليدية التى لاتبدأ الحياة إلا بها .

ويعد هـذه الابتسامة التـى تبحـث عنـها فـى تقـاطيـع وجه يـحيى فـلا تدرى إذا كانت موجودة ، أم أنها إيحاء لايثبت للتحقيق والتثبيت ، وإلى جانب القصر والابتسامة الغريبة المحيرة يـحيى حقى يتكلم همسا لم اسمعه يصيح قط ، ولو وهو ينادى علي بائع جرائد وهو لايكتفـى بأن يكف نفسه عن الصياح بأنه يعتبر الصياح جريمه من أخطر ما نسى المشرع النص عليها فى قانون العقوبات وأحسب أنه لو ولى يحيى حقى وزارة العدل لأصدر تشريعا يحرم الضجيج الصادر عن أصوات الآدميين وأذكر أنه شكا لى أن أحد وكلاء الوزارة لايعرف كيف يتكلم إلا وكأنه يؤذن فى جماعة من الصم .

فإذا أضفت إلى كل هذه الصفات والخصائص أن يحيى حقى اشتغل مثلا بالسلك السياسى ووصل إلى وظيفة السفير ، وقد أخذ السلم من أدنى درجاته «أمين محفوظات» إلى أعلاه ، وجاءت الثورة فلم ينح عن السلك السياسى هذا السلك الحساس جدا . ولكنى أؤكد أنه إذا كان يحيى حقى ماكرا ، فمكره خير كله : فلا هو أذى أحدا ولا هو فكر فى أن يؤذى أحدا ، بل لعله عاش ينتظر الأذى من الآخرين، حتى كاد يصبح هذا التوقع وسواسا .

ولقد عرفت يحيى حقى قبل أن اسمع باسمه أديبا. ولم ألتق به، وأراه رأى العين ، وقد لابست هذه المعرفة الأولى ، ظروف كانت جديرة بأن تفسد صلتى به ، وتدعونى الى النأى عنه ، ولكنها لم تترك هذا الأثر ، فقد وقعت هذه الظروف ، وهو فى القنصلية المصرية بتركيا ،

وأنا محام لعائلة تركية مصرية ، كان عميدها رمزى طاهر باشا كبيرا لياوران الخديو عباس وغضب عليه الانجليز لميوله العدائية ضدهم ، فاقصوه من مكانه إلى جوار الخديو ، وعينوه وكيلا لوزارة الحربية المصرية . فلما بلغ المعاش عاد إلى مسقط رأس أجداده فى تركيا وأقام هناك ثم قامت بين بعض أولاده والحكومة المصرية نزاع قضائى وكلونى فيه ووفقت إلى كسبه ، وإن لم أجن منه مليما واحدا مع أنى سلخت السنوات أترافع ضد أكبر محامى فى الحكومة فى درجات التقاضى كلها ، وكان أخرهم المرحوم عبد الرحيم غنيم الذى وصل الى منصب النائب العام وهو الذى حقق فى قضية حريق القاهرة .

وطال الزمن الذى كان علي أن أتعرف بعده على أديبنا الكبير ، واقتصرت فرص لقائى به ، على جلسات قصيرة سريعة. بمنزل العالم الكبير باللغة العربية وأدبها وحضارتها ومحقق آثارها الأستاذ محمود شاكر الذى جمع أخيرا بين الحسنيين جائزة مصر التقديرية وجائزة السعودية الكبري . وأن يكون يحيى حقى صديقا لمحمود شاكر ، أمرا من غرائب حياة الأدباء والمفكرين ، فمحمود شاكر شديد الغضب عنيف إذا كتب أو إذا خطب ، العيوب التى يراها فيما يقوله الناس أو مايفعلونه لايلقى منه إلا الحمم التى تفجر بها بركان سخطه .

ويحيى حقى لايغضب الا بينه وبين نفسه ، وما أسرع أن تتحول غضبته الى سخرية ، بالناس ، وبالدنيا ، وبالكبار بالصغار ، فشعاره «خليها علي الله» ليس كلاما يقال، ولا عنوانا لأحد كتبه ، يرمز الى أسلوب نظراته إلى دنياه ، بل هو خلاصة فلسفته ، فقد مضت حياة يحيى حقى دون أن يدفع الناس ، أو يزيحهم عن طريقه، ولا أظن أنه

قال لأحد عبارة «من فضلك» ليفسح له طريقا ، أو يترك له مقعدا ، فكل ماهو أت قريب ، والطريق المزدحم سينفرج ، والناس الذين يتلكئون يذهب كل منهم إلى حال سبيله ، حسبك أنه رفض أن يكتب فى جريدة رائجة، وأبى الا أن يتخذ له ركنا فى جريدة المساء حينما قل جمهورها، وفتر زيوعها ، وفى هذا الركن كتب أجمل ما كان ينشر فى جرائد اللغة العربية . فما يكتبه يحيى حقى ، هو فى واقع الأمر ضرب من الأدب ، لا أعتقد أن الجاحظ سمع به أو عرف شيئا قريبا منه ، وقد مضت قرون اللغة العربية تؤلف خلالها الكتب ، وينبغ الشعراء ، ويسطع نجم الأدباء، وليس فى كل هؤلاء واحد يستطيع أن يلعب بالألفاظ ، ويصنع منها العجائب والغرائب ، ويخلق لاخوانه فى هذه اللغة فى القديم والحديث ، كنوزا من الطرائف التى لايعرف الناس بعد أن يقرؤها أهى شىء يقرأ فحسب ، أم هى سخرية يداعب عقولهم ويدغدغ شعورهم ، ويحملهم على أن ينتظروا إلى الدنيا نظرة جديدة ، لأنه لايدع ظاهرة من ظواهر حياتنا ، ولاسيما مابدا منها لنا ، تافها قليل الشأن حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ثم يستخرج منه حقائق ومتناقضات وصورا وأفكارا ، لاتدرى كيف اهتدى إليها وكيف عرفها ولو كان لى من الشأن ما كان لحافظ ابراهيم شاعر النيل فى الثلاثينات لوقف على مسرح الأوبرا ، قبل أن يحرق طبعا ، وهتفت فى أذن الوطن العربى قاطبة ماهتف به حافظ وهو يكرم شوقى أمير الشعراء .

أمير القوافى لقد أتيت مبايعا

وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فإنى أبايع يحيى حقى بأنه أمير المقالة القصصية وهى شىء غير المقالة ، وغير القصة ولكنها مزيج من الفنيين ، يضفى أحدهما الى الآخر ، دون التزام قواعد القصة وشروط المقالة ، ليسكر قراء العربية ، بهذا الاكتشاف الفريد .

ولد يحيي حقى فى ٧ من يناير سنة ١٩٠٥ ففى يناير ١٩٨٥ يكمل العقد الثامن من حياته المباركة المثمرة ، وسيترك لقراء أدبه ولمحبى الأدب على طول الإنسانية وعرضها ، نحو ٢٨ كتابا أولها «قنديل أم هاشم» وآخرها «كناسة الدكان» وسيعرف الناس عندما يهبط الغبار بعد عمر طويل الذى يثور حول كل كاتب فى حياته حتى ولو كان غبار الشهرة وذيوع الإسم ، فيبدو على حقيقته . وعندما يعرفون الصنيع الجميل الذى صنعه هذا العاشق المتيم باللفظ الجميل فى اللغة العربية . وهذا المصرى القح الذى لايعدل بروائع الحياة البلدية فى أحياء القاهرة العتيقة ، أكبر أحياء باريس وأجملها ، ولقد عبر بأسلوبه النفاذ والأخاذ عما يقال له من أولاد البلد الذين تخدعهم لون بشرته البيضاء والمشربة بالحمرة ، والبيريه يضعه على رأسه ، وتقاطيع دقيقة ، لاتشبه تقاطيع أغلبية الشعب المصرى فيقولون له : حاسب ياخواجة ! فيقول آه لو تعلمون .

آه لو تعلمون كم يخفى هذا المظهر الأجنبى ، من تعلقه الشديد بمصر ، والإسلام وأولاد البلد ، وكم يحبهم ، وينظر بعطف وود إلى اسلوب حياتهم وجهادهم الشريف من أجل لقمة العيش .

وإذا جاء دور الاستشهاد ببعض ماكتب يحيي حقى تأكيدا لماقلته هنا وماقلته فى مواضيع سابقة عن خاصية «يحيى» الكبرى ، وهو لعبة

الحاوى بالألفاظ ، قلت من قبل : أن سر قوة يحيى حقى ألفاظه وحين أقول ألفاظ يحيى حقى لاتظن أننى أعنى أنه يستعمل الفاظا جديدة ينحتها أو يزواج بينها أو أعنى الألفاظ ذات الرنين ولا ذات الموسيقى الداخلية أو الخارجية ، إنما أعنى الألفاظ البليغة حقا ، الفصيحة صدقا أى التى تقول لك فى موضعها من الجملة ، وفى مكانها من البيان مالا تستطيع أن تقوله كلمات أخرى ، مهما كانت جميلة الجرس ، ولطيفة الموقع ونادرة الاستعمال مع خلوها من كل مايشوب الألفاظ من عيوب كالغلظة أو الثقل علي السمع أو اللسان ، أو غموض المعنى فضلا عن أنها تقول مايزيده الكاتب بالضبط أو مايقوله وفوقه «علاوة» وقد قلت بعد ذلك «الكتاب ينقسمون الى ثلاث طوائف» طائفة اللفظ وطائفة الأسلوب ، وطائفة الفكرة ، وأعلى الجميع كعبا هم المنتمون للطائفة الأولى ، وإن بدا أن كاتب اللفظ هو أدنى الجميع مرتبة وقد قلت أن ما أعنيه بكاتب اللفظ ، هو الكاتب الذى يستطيع أن يوهم القارىء ويلهمه ، ويبعثه علي الضحك ، ويحمل علي الأسى ، ويشرح له الصعب ويقرب له البعيد ويدعوه إلى الحركة ، ويحرضه علي السخط ، بألفاظه هذه الاداة الصغيرة التى كنا نصفها فى أحاجينا باللغة العامية «وقد السمسمة ، وتجيب الخيل ملجمة» تماما ككاتب اللفظ هو الذى يعرف كيف يخرج من ألفاظ يضعها جنبا إلى جنب فى نسق معين ، تختفى من خلالها شياطين الأنس والجن ، ملائكة السموات وملائكة الرحمن . فى حين أن كاتب الفكرة قد ينفرك منه لأن فكرته وأن كانت جميلة أصلا وتصاغ فى قالب من فخار أو طين ، فتنفر منها وقد وضعت أصابعك في أذنك ، وكاتب الأسلوب كالمرأة التى تتقن فن الرشاقة المصنوعة ، تلبس ثوبا

جميلا ، ولكن على جسم قبيح فيستر الثوب بعض عيوبها ولكنه لايحيلها إلى جميلة .

وقد وجدت فى بعض ماكتبه يحيى حقى عن البيت الذى نشأ فيه فقال «فالجو الغالب فى هذا البيت كان أولا شىء من الاعجاب ، برشاقة اللفظ والابتهاج بالتوفيق فى العثور عليه» وقد كان من أجمل النماذج المؤيدة لهذا المنهج فقد قدم ، فى جملة واحدة ـ لكتابه دمعة فابتسامة فقال «دلق الزنبيل» .. أصدق وصف لهذا الكتاب فهو خواطر متناثرة فى موضوعات شتى ، لا رابط بينها ـ ومن ورائها جميعا دافع واحد اعتاق الكلمة .. ثم تحدث عن كتابه «صح النوم» فقال : «ليس فى هذا الكتاب لفظ واحد لم يكن موضع حسن وذوق ، وفيه صفحات كاملة لايتكرر فيها لفظ واحد ، والمسألة ليست مع ذلك مسألة صدفة ، بل مسألة ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لاتتكرر .

وهذا بالضبط ماعرضته من قبل ، فالأدب اختيار للألفاظ تلاقى المعانى ، وتلصق بها ولاتكون أبدا كالثوب المتهدل الذى ترى فيه زوائد وفضولا ، ولا الثوب «المحزق» الذى يبرز بسببه اجزاء من الجسم ، تشينه ويتعوق حرك صاحبه ،

وقد قال يحيي حقى فى محاضرة ألقاها فى جامعة دمشق فقال : آن الأوان لأن يكون فى الأدب أسلوب اسميه الاسلوب العلمى ، يعتمد على تجديد المعانى وبالتالى اختيار الألفاظ بحيث لايكون صالحا إلا لفظ واحد فيتعذر أن يستبدل به لفظ آخر .

أريد أن اختار لك نموذجين أو ثلاثة مما كتب يحيى حقى، فلا أحد

أجمل ، ولا أصلح لهذه المهمة ـ مهمة النموذج من وصف يحيى حقى لجنازة مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ قال :

لايشفع لى فى العودة من جديد إلى الرمز الذى اتخذته للعهد السابق «وهو شخص مصطفى كامل» إيمانا معى بأن من انغرزت رجله فى هذا الشرك لاتنفلت منه بسهولة «بقايا طلقاء السجون من أشلاء دنشواى يحملون نعشا وتارة علم البلاد ، خفيفا كالنسيم يضم روحا لاجسدا ، لفتى كان جهاده هو الذى فك عنهم الاغلال يخوضون به بحرا لجيا من أهل الريف والقاهرة» .

دعك من هذا النموذج الحزين الذى يحدثنا فيه يحيى حقى عن جنازة مصطفى كامل وأشلاء ضحايا دنشواى ، فقال اقتل البيك ، وصف المقهى التى اتخذها رواد القصة الجديدة فى العقد الثانى من القرن العشرين ، هؤلاء الرواد الذين يتقدمهم محمود طاهر لاشين والذين كونوا فيما بينهم مدرسة جعلوا أحمد خيرى سعيد ناظرا لها: قال يحيى حقى فى بعض الليالى يهرعون – كالجياع إلي وليمة ـ إلى مسرح الكورسال ليحضروا حفلات الفرق الأوروبية من مسرحية موسيقية ويصفقون أكثر من تصفيق الخواجات ، كان مكان أغلبهم فى أعلى التياترو ، واذا غلى فى بطونهم الأدب الروسى ، سألوا أين بتاع «الفودكا» فليس الا على أبخرتها يتاح لهم أن يتذوقوا هذا الأدب ، ويعيشوا فى جوه وقد غلب الطابع الشعبى على هذه الندوة ، ضمنا المسرح والنكتة والدعابة بانضمام شخصيتين غريبتين إليها ـ أولهما الاستاذ أحمد خيرى سعيد الذى هجر دراسة الطب بعد أن كان قاب

قوسين أو أدنى من الشهادة ، الى الصحافة فقد كان بسبب هدوء نفسه وسماحة صدره وصبره على الحيل ، وقدرته على عقد الصلة وفك عقدها، وإن كان أقل أعضائها انتاجا ، والثاني هو الاستاذ محمود طاهر لاشين ، الذى يجوب الشوارع ويدخل الدور ويقهقه ملء فمه .. ثم اتسعت الحلقة وأصبح يخاطبها من الداخل ، أو على الهامش أدباء.. ابراهيم المصرى وحسن محمود والمرحوم محمود عزمى ، وحبيب زحلاوى ، تنطلق من على موائدهم كالرصاص اسماء هوجو ودستوفسكى وموباسان وتشيكوف وبلزاك العظيم .

كادت تنشب ذات مساء معركة لأن أحد الجلساء بتأثير الثورة فضل كاتبا شعبيا مثل جوركى على كاتب ليست له رسالة شعبية مثل بلزاك ، ولكن المعركة انفضت وقد بقى على رخام المائدة فتات سمسم سميط وتبين أن ماسح الأحذية قد انتهز هذه الفرصة ومسح للجميع أحذيتهم .

والآن أنقل لك صورة فلمية لشخص عزيز علىَ «يحيى حقى» هو السفير محمد توحيد السلحدار ، السفير الذى نشأ فى أحضان مصطفى كامل ، وبقى عاشقا لمبدئه وأسلوبه الوطنى قال يحيي : سعيد من يرسم هذه الصورة الفلمية بخطوط سريعة من العلم كأبرع وأسرع وأخف ماتكون ريشة الرسام .

«تعال أنظر» وهو جالس إلى قدح من الشاى مسترخيا فى مقعد وثير لبس فى أصبعه خاتم يتيم ، وكان له فى كل يوم مختلف خاتم ، ابتسم له حظه فرتب له من يسمع منه ، واحدا أو اثنين لا أكثر ، فما فوق الاثنين فى حكمه .

زحام يخلخل الجو ، وكان الزحام أشد شىء يكربه ، تختلط فيه الناس ، مقاصد واقدار ، ويسوى بين الباحثين عن زادهم والمتطفلين وعبيد قهوة الشيوخ ولايشترط فى المستوى أن يكون صديقا له يتوقع حضوره عن موعد أو عادة بل لا أحب إليه أن يكون المستمع منه غريبا جمعته به الصدفة فيحس أنه يتجدد معه ، وأن كل كلام له بداية لاتكرار، حينئذ كانت الساعة والمزاج تنفرد أشرعته كأنما من تلقائها لاستقبال نزهة مجـال لها ، فلا يستأثر بها تيار واحد بعقد زواج ، بل تغازل الرياح فى كل صوب ، وتصطاد هذا بعد ذلك برشاقة العاشق البوهيمى ، مابين شرقية وغربية وشماله وجنوبه ، هذا هو يحيى حقى.

المحامون الأدباء شادوا بناء الثقافة فى مصر

قد يخف اعتراضى الذى يثيرهم عنوان هذا المقال ويحسبون أنه مبالغة فى التحيز للمحامين الأدباء إذا علموا أن أمير شعراء العرب فى العصر الحديث كان طالب قانون في فرنسا ، قبل أن يطلب المعرفة الأدبية فيها ، وأن حافظ إبراهيم مارس مهنة المحاماة وهو فى مطلع شبابه ، قبل أن ينخرط فى سلك تلاميذ المدرسة الحربية ، وأن من المحامين الذين طال عملهم فيها وتمرسهم بها الدكتور محمد حسين هيكل أحد أكبر أدبائنا ، فى العقد الثانى من القرن الحالى ، وصاحب أول رواية عربية ، ومؤلف العديد من كتب النقد الأدبى ، والتراجم الشرقية والغربية ، ومجموعات المقالات التى ضمت المئات من الدراسات والصور العلمية والخواطر الثقافية .

وأن من المحامين من ارتفع نجمه فى سماء المقامة النقدية ، والقصة القصيرة والطويلة ، والمسرحية ، وأنه بز بتفوقه وظهوره وكثرة انتاجه وذيوع اسمه ، الأدباء المنقطعين لحرفة الأدب ! من هؤلاء محمد فكرى أباظة ومحمد عبدالله عنان ، ومحمود كامل ، وعبده حسن الزيات ، وعزيز فهمى ، وحسن عفيف ، وعبده أبو شقة ، وعبدالحميد السنوسى ،

● الهلال - ابريل ١٩٨٤ .

ومحمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة .

ولا تزال القائمة طويلة ، فهناك طائفة من المحامين الذين لم يمنحوا الأدب والثقافة العامة ، إلا جزءا قليلا من وقتهم وجهدهم ومع ذلك كان أثرهم فى هذا المجال باقيا ومحسوسا به ونافعا ، نذكر من هذه الطائفة محمد على علويه ، وعبدالقادر حمزة ، وأحمد توفيق ، وحافظ رمضان .

وثمة طائفة ثالثة كان انتاجها غزيرا حتى كاد عملها فى المحاماة يتوارى بجانب ما قدمته للمكتبة العربية من آثار عظم عددها ، وذاعت شهرتها وخير مثال لهذه الطائفة عبدالرحمن الرافعى ، الذى سلخ من عمره سنوات عديدة حتى أتم سلسلة تاريخ مصر القومى من عهد حملة نابليون على مصر حتى آخر عهد شهده عبدالرحمن الرافعى المحامى بنفسه ونعنى به عهد جمال عبدالناصر ، ولم يقنع بهذا الهرم الشامخ فأضاف نحو خمسة كتب فى مواد متفرقة .

وهناك محام يكون وحده طائفة بأسرها ، ذلك لأنه لم يصبر على العمل بالمحاماة ، وإن كان ما ترافع فيه من القضايا وما تركه من مذكرات مطبوعة يكاد يكون مكتبة قائمة بذاتها ، تعلم الأجيال القادمة من المرافعة السياسية وتروى تاريخ حقب ذات خطر شهدتها مصر وشهدت معها أحداثا هزت البلاد ، ويتبقى أثرها طويلا ونعنى بهذا القول أحمد حسين الذى درس المحاماة فى فترات منقطعة والذى ألف نحو خمسين كتابا أكثرها فى الدين الإسلامى، وتاريخ نبيه وتفسير قرآنه ، ولكنه مع ذلك كتب روايات طويلة ، وكتبا ضخمة فى فروع المعرفة .

وهناك أسماء ضاعت فى حلبة الأيام مثل أنور زقلمه ، ومحمد

شوكت التونى وأخيرا هناك الصحفى المحامى والممثل المكافح يوسف فهمى حلمى .

ولو جمعنا آثار هؤلاء المحامين بعضها إلى جانب بعض ، تبدا لنا كم أسدى هؤلاء الأدباء والكتاب المتطوعون إلى بلادهم ، وكم انتفعت ثقافة مصر والثقافة العربية بنتاج عقولهم وأقلامهم ، والعجيب من الأمر أن هذا الإنتاج الغزير ، جاء متنوعا ، فلم يدع جانبا من جوانب الفكر ، إلا أضاف إليه وأضاءه بما كتب من نثر وشعر ، وأحيانا يبقى المحامى الأديب أو المؤرخ ، أو القصاص ، أو المحقق ، الذين تخصصوا للكتابة فى هذه المجالات .

خذ مثلا عبدالرحمن الرافعى ، واضع سلسلة تاريخ مصر القومى، فالرافعى لم يكن مؤرخا ولا قصد أن يكون ذلك ، ولكنه تلميذ وفىّ من تلاميذ مصطفى كامل ، وقد شغله باله كيف يبعث فى الشباب روح الوطنية ، ويحرك فى قلوبهم الإعجاب ببلادهم، ويوقفهم على تاريخها ، وكيف ناضل الشعب المصرى ضد الاحتلال بنوعية الفرنسى والبريطانى، وهداه تفكيره إلى أن يضع كتابا عن مصطفى كامل ثم تبين أن كتابا عن حفيد مصطفى كامل ، سيكون أميز ، لأن مصطفى كامل ، جاهر بالاحتلال ، فلابد اذن أن يعرف الشباب المصرى كيف وقع الاحتلال فيعين التحدث إليه عن الثورة العرابية ، والثورة العرابية ثمرة الظروف فى عهدى اسماعيل وتوفيق ، فلابد من الحديث عن هذين العهدين ، وهما بدورهما حلقتان فى سلسلة تاريخ محمد على، فلابد من الرجوع إلى هذا التاريخ من بدايته، ومحمد على جاء كثمرة كفاح المصريين ضد الغزو الفرنسى والحكم العثمانى ، فلابد من كتاب كبير

يتناول هذين العهدين بالبيان والتفصيل ، فتم بذلك وضع موسوعة عن تاريخ مصر الحديث استغرق وضعها أكثر من ١٥ عاما ، وحينما تكاملت اجزاؤها ، بقيت عملا علميا وأدبيا ضخما يدل على إصرار واضعه وقوة إيمانه بوطنه وبتاريخه ، وصبره على متاعب البحث والتنقيب ، والمراجعة والمطالعة ، لم يقدم مثله مؤرخ آخر ، إلا إذا استثنينا المجموعة العظيمة التى وضعها الاثرى المصرى سليم حسن عن تاريخ مصر الفرعونية ولكن سليم حسن مؤرخ منقطع لهذه المهنة وتاريخ مصر وأحبه .

وهكذا كان عمل المحامى عبدالرحمن الرافعى ، عملا فذا ، أثبت به أن المحامين فى مصر ، أسدوا أيادى لا تنكر للثقافة المصرية . فإذا انتقلنا إلى محمد حسين هيكل اقتفينا أثره فى ناحية أخرى ، كبيرا وجديرا بالثناء والإقرار بالجميل ، فقد بدأ حياته العلمية برسالة دكتوراه قدمها لجامعة باريس عن «الدين المصرى» و «الدين المصرى» الذى بدأ فى عهد الخديو سعيد ، واستفحل أمره فى عهد الخديو إسماعيل ، جانب من تاريخ مصر ، مؤلم وداع إلى الحزن ، ولكنه يفضى بالباحث والقارئ إلى مقدمات أكبر كارثة فى تاريخ مصر الحديث ، ونعنى بها الاحتلال البريطانى .

ولكن لهيكل يد أخرى فى عنق الأدب المصرى، وهى رواية زينب التى كتبها وهو فى باريس ، يطلب العلم ويحضر لرسالة الدكتوراة عن الدين المصرى ، وهى أول رواية مصرية ، وربما عربية .

وكانت ثورة لأكثر من اعتبار ، ثورة لأنها شئ جديد فى الأدب المصرى ، الذى اقتصر حتى صدور «زينب» على قصيدة الشعر والمقالة، ومحاولات شبيهة بمقامة بديع الزمان والحريرى ، حتى قصة عيسى بن

هشام التى سبقت فى الظهور رواية «زينب» كانت أقرب إلى المقامة أيضا ، خلت من الوقائع ومن الشخصيات ، ولم تكن رواية زينب أول عمل روائى بالعربية ، إنما كان موضوعها ثوريا إلى أقصى الغاية ، فقد كانت زينب بطلة الرواية لم تكن المرأة التى تظفر بهذه العناية من قبل ، ولم تكن زينب مجرد إمراة بل كانت إمراة ريفية ، ولم تكن مجرد إمراة ريفية بل كانت ريفية من فقراء الفلاحين ، وكانت وقائع الرواية كلها فى القرية ، وكانت الأزمة التى تعرضها هى أزمة فلاح شاب أحب فلاحة شابة ولكنه لم يهنأ فى حبه ، لأنه جند للجيش ، حيث كان المجندون لا يجدون ما يحترم ادميتهم ولا وطنيتهم ، وقد زوج أهل حبيبته ابنتهم إلى شاب غيره ، فلما سرح من الجيش وجدها فى أحضان رجل آخر ، ولم يلبث حتى مرضت وماتت ، ولم يكن الريف آنذاك يشغل بال أحد من الكتاب ولا الحكام .

فقد أعلن هيكل عن ثوريته حينما وقع على روايته بعبارة « بقلم مصرى فلاح» ، ولم يكن أحد فى ذلك التاريخ يعرف أن الفلاحين يكتبون وإذا كتبوا ينشرون ما كتبوه على الناس .

وتوالت بعد ذلك آثار محمد حسين هيكل باشا ، فكان كتابه الأول ، ترجمة لحياة «چان چاك روسو» الذى مهد لثورة ١٧٨٩ ، ثم جمع تراجم مختلفة كتبها فى الصحف ، فى كتاب بعنوان تراجم مصرية وعربية ، وتراجم الحياة لون من الأدب طريف ، وشهى ولكن المكتبة العربية لم تكن تعرفه كثيرا ، فكان كتاب هيكل تجديدا واختياره «لروسو» كان موفقا فى أشد حاجة المصريين آنذاك إلى حديث عن الثورة والثوار ، وفهم لما هدفت إليه ثورة الفرنسيين وما جاءت به من الأفكار ، وكان كتاب هيكل عن رحالة السودان ، عملا أيضا جديدا فما أقل الكتب التى

كتبها المصريون عن السودان حتى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور.

وبقى المكان الذى شغله إذ قدم لقراء العربية فى العالم العربى والإسلامى كله ، كتاب عن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فقد كان هذا الكتاب فاتحة الكتابة الإسلامية التى تبعه فيها العقاد بتراجمه، وطه حسين عن مرآة الإسلام ، وعن الفتن الكبرى ، وهو الاتجاه الذى تاكد بعد ذلك ، وكثر السالكون فيه والسائرون على دربه .

فمحمد حسين هيكل الذى درس القانون فى مصر وفى فرنسا ، والذى اشتغل بالمحاماة فى مدينة المنصورة ، أثره الثقافى الأدبى عظيم، إذ أنه جدد وأضاف ، ما لا يمكن سرد التاريخ الفكرى من غير الوقوف أمامه .

ومحام ثالث كان عظيم الأثر فى دنيا الصحافة والفن والأدب السياسى والحديث الاجتماعى النقدى ذلك هو فكرى أباظة ، وقد كان محاميا ، انصرف إلى العمل أمام المحاكم وكان له مكتب فى مدينة الزقازيق، وكان يوقع مقالاته أيضا باسمه مقرونا بوظيفة «المحامى .

وقد ابتدع هذا المحامى أسلوبا فى الكتابة لم يقلده أحد فيه ، ولم يسبقه أحد إليه ، فقد كان يكتب فى جريدة الأهرام نصف أو ثلاثة أرباع عمود ، فيه من علامات الاستفهام وعلامات التعجب ، أكثر مما فيه من الألفاظ .

وكان يتناول فيه المواقف السياسية التى تمر بها البلاد ، ناقدا وساخرا ، فأحب القراء مقالاته ، وذاع اسمه ، حتى كان النداء لا يصدر عن باعة الصحف إلاّ مقرونا باسمه فما أكثر ما سمعناهم يصيحون : الاهرام فكرى أباظة .

وما لبث أن اعتبر كاتبا من كتاب الصحف ، فعرض عليه جبرائيل تكلا أن يشتغل في الأهرام محررا مأجورا ، ولكنه رفض ، وبعد قليل عرض عليه أولاد جورجى زيدان مؤسس الهلال أن يعمل عندهم رئيسا لتحرير المصور ، ومحررا فى مجلة «الفكاهة» التى عاشت عددا من السنين ثم اختفت ، إلا أن فكرى أباظة أسعد المصريين بأسلوبه كمتحدث فى الإذاعة فكان له كل أسبوع حديث ينتظره الجمهور ، فى شوق وهو حديث بالعامية الراقية، التى تكاد تكون الفصحى ، وكانت أحاديثه نقدا اجتماعيا لكل ما يجرى فى البلاد ، وكان فكرى أباظة فوق ذلك خطيبا بارعا ، وقد بهرت مواهبه الخطابية حينما انتخب عضوا فى مجلس النواب ، واعتاد الوقوف على منبر المجلس ليصوب إلى الحكومات والوزراء نقده ، الذى يستلهم فيه مبادئ الحزب الوطنى إذ كان بدوره من تلاميذ مصطفى كامل .

وقد عاش فكرى أباظة حتى جاوز الثمانين وهو يؤنس القراء والسامعين بمقالاته وأحاديثه وخطبه ، فكان محاميا آخر ، تتعد مواهبه البيانية وخدماته الجليلة لوطنه وحزبه .

أما المحامى الرابع ، فقد خلق زعيما ، ذلك هو أحمد حسين ، الذى كاد التمثيل يستأثر به ، فقد كان زعيم طلاب المدارس الثانوية المشتغلين بالتمثيل والمحبين له ، وعلم على الشمسى باشا وزير المعارف بمواهبه فكاد يبعث به إلى فرنسا ليتعلم هناك أصول المسرح ، ولو تمت تلك البعثة ، لظفر المسرح العربى بواحد من أعظم الفنانين موهبة .

ولكن الوزراة سقطت ، وسقط معها وزير المعارف ، وضاعت فكرة البعثة إلى باريس ، لحسن حظ مصر ، فإن أحمد حسين لحق بكلية الحقوق وتخرج فيها ، واشتغل بالمحاماة فترة وبالصحافة ، ثم ألف جمعية مصر الفتاة ، بعد أن دعا إلى مشروع القرش . ونجحت دعوته ، وأقام مصنعا بقروش المصريين ، ولكنه ما لبث أن اتجه إلى الأدب والتاريخ والدين ، فألف فيها جميعا كتبا كانت كلها من عيون الكتب ، فقد مزق قلمه أول الأمر فى المقال السياسى ، حتى أصبح طيعا فى يديه فلما اضطر إلى اعتزال السياسة وضع كتابين كبيرين يمكن اعتبار كل منهما موسوعة فى بابه ، كان أولهما كتابه «الطاعة الإنسانية» ، ثم أردفه بكتاب «الأمة الإنسانية» ولخص الكتاب الأول بمعادلة مؤداها أنه مع الارادة الإنسانية فيمكن أن تتحقق أمور تبدو من المستحيلات ، وملأ كتابه بالأمثله من تاريخ الإنسانية من أقدم الحقب إلى أقرب العصور ، ليؤكد معادلته ، فكان بهذا الكتاب داعيا إلى الثقة بالإنسان والإعلاء من شأنه ، وثقته بنفسه ، وإقدامه على ما يراه ضروريا لحياته أو لتقدمه ، أو لمزيد من المعرفة أو السيادة ، غير آبه بالعقبات والمشاق .

والكتاب الثاني يؤكد حقيقة تشرف الإنسان أيضا ، وترفعه إلى السمائيين ، فقد اثبت سخف النظريات التى تتعصب للأجناس ، وتزعم أن الناس تتفاوت لا بعقولها وقلوبها ، بل بألوان جلودها ، وشكل جماجمها وحجم فكها ووضع أسنانها فى أفواهها ، وملأ الكتاب بالأدلة التى انتهى إليها العلم بأن الجنس واللون وطول القامة لا تدل على مواهب عقلية ولا مزايا نفسية ، ثم تنوعت بعد ذلك مؤلفات أحمد حسين فى الأدب والتاريخ والدين وعند الدين انتهى نشاطه الفكرى ، ففسر

جزء عمّ وطيهِ ، ثم فسر السور الطوال كلها ابتداء من سورة البقرة إلى سورة المائدة ، وقد استوقف تفسيره القراء واعجبوا به على طول العالم الإسلامي وعرضه ، وكان قد ألف روايتين طويلتين قص فيهما تاريخ حياته ، وتاريخ مصر في حقب من أكثر عهود مصر استقلالا بالمشكلات والتحولات وألف للمسرح مسرحيتين ، وتراجم عن مسرح تولستوي إحدى مسرحياته ، ومثلت على مسرح الأزبكية ونجحت ، ثم أراد الله أن يمتحنه - بعد السجن والاعتقال والتشرد - فنزلت به علة الشلل الذى أقعده ولكن يده اليمن وعقله وذاكرته نجت من الاصابة ، فراح يكتب المقالات والبحوث ويساهم فى الحياة السياسية العامة بقلمه، وأكثر الناس يرونه يكتب بحرارة وتدفق ووضوح وقوة حجة وسعة اطلاع، لخفى عليهم أن كاتب هذه الروائع مشلول ومقعد ، ولا يترك مكانه فى بيته ، وبذلك يكون قد ساهم فى بناء أمته الثقافى ، فى اخريات عامه بنصيب سيبقى مؤثرا ومذكوراً مادام فى مصر ثقافة ، وما دام فى العالم أناس يحتفلون بالكتب وآثار الفكر .

وكان لمحمود كامل المحامى ، دور فى الحياة الثقافية ، وقد اشتغل بالمحاماة . ولا سيما فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وكاد ينقطع لها ، ولكنه منذ تخرجه فى كلية الحقوق وهو مشتغل بالصحافة والفن ، فكان ناقدا فنيا لجريدة السياسة ، غير أن نصيبه فى العمل الثقافى كبر بإصداره مجلة «الجامعة» وقد أردفها بأخرى ، ووقف أولهما على القصة، وأخرج للناس عددا غير قليل من القصص القصيرة ، وكاد ينفرد بهذا اللون من الأدب فترة غير قصيرة وقد تأثر به وبأسلوبه ومنهجه أكثر كتاب القصة فى تلك الأيام ، وقد نشر قصصه فى

مجموعات بلغت أربع عشرة مجموعة أولها «المتمردون» وآخرها «لاعبات بالنار» .. وقد ترجم عددا من المسرحيات عن الفرنسية مثل بعضها على مسرح حديقة الأزبكية ، والبعض الآخر على مسرح الأوبرا أو مسرح برنتانيا أو مسرح رمسيس ، منها «الوحوش» ، كما أخرجت له السينما قصة بعنوان «حياة الظلام» وله كتب تتضمن دعوة إلى الإصلاح السياسئ والاجتماعى منها «العمل لمصر» ، «ومصر الغد تحت حكم الشباب» كما أن له عددا غير قليل من الدراسات القانونية .

«ومحمد على علوبه » محام له اسم لامع فى دنيا الفكر ، فقد أخرج كتاب «مبادئ فى السياسة المصرية» ضمنه آراء له فى الاصلاح السياسى والقانونى ، ثم وضع كتابا ممتازا عن القضية الفلسطينية نشرته له دار الهلال بعنوان «قضية فلسطين والضمير العالمى» ، ثم وضع كتابا يتضمن ذكرياته منذ بدأه بداية حياته بعنوان ذكريات سياسية واجتماعية وهو يروى ذكريات عن ثورة ١٩١٩ وتأليف الوفد المصرى ، والسفر إلى لندن وباريس بصحبة سعد زغلول زعيم الوفد وبقية أعضاء الوفد، وهو فى واقع الأمر وثيقة سياسية قص فيها قصة الخلافات بين سعد وعدلى ، وهى الخلافات التى قسمت مصر إلى معسكرين ، واستمر أثر هذا الانقسام ، حتى قامت ثورة ١٩٥٢ ، وقد أسس جمعية البيان ورأسها ، ورعى المجهودات التى بذلت فى التقريب بين المذاهب الإسلامية فى مصر .

هذه نماذج للشخصيات الأدبية من عالم المحامين، وقد كنت أرجو أن أحدث القارئ الكريم عن الشعراء والكتاب الذين ذكرت اسماؤهم فيما سبق ، لولا أن الحديث سيطول بحيث لا يتسع له المقام ، ولكن هؤلاء لهم فى أعناقى دين لابد أن نؤديه بفضل من الله وعونه .

السيد أحمد البدوى
قطب التصوف فى مصر

أحسب أننا لو قمنا بدراسة للأسماء الذائعة في بلدنا، مع ترتيبها حسب مقدار ترددها على الألسن ، لكان اسم أحمد البدوى، فى مقدمة الأسماء ، فالعامة تلتمس من السيد العون، وترطب ألسنتها بذكره بالدعاء له مرات فى اليوم الواحد. فما أكثر ما يقوله الناس عبارة (شى اللاه ياسيد) معناها (شىء لله ياسيد) وهم يعتقدون أن (سيدا) ليس لقبا بل اسم هذا القطب الكبير. ولكن الصورة التي تنطبع للسيد أحمد البدوى في أذهان أهل بلدنا، ليست واضحة تماما، فهم حينما يذكرون اسمه، لا يتمثلون رجلا من الأتقياء الصالحين، الذين وقفوا حياتهم على الدعوة للدين، وتطهير نفوس أتباعهم ومريديهم، ورسم طريق لهم يتبعونه في العبادة، وذكر الله، والنأى عن المعاصى ، والانقطاع، ما استطاعوا، لأداء الفروض ، ومجاهدة النفس، وحفظ كتاب الله وترتيل آياته، والاستماع إلى قرانه، ومحاكاة شيخ الطريقة فى تقشفه وزهده، وصيامه وقيامه، وتلاوة حفظ الأوراد، والأحزاب، وتكرارها، التماسا لتقوية العزم، وتركية القلب لا يتمثل الناس في مصر، أحمد البدوى على هذه الصورة فحسب. بل يتصورونه وسط هالات تكاد ترفعه من رتبة بشر إلى

● الهلال - يونيو ١٩٨٥ .

مستوى يعلو عليهم فتصبح له طبيعة ، لا يستطيعون بالضبط تحديدها، فينسبون إليه من الخصائص ما يغنيه عن الطعام والشراب، وعن النوم وحاجات البدن، ويقرنونه بالكرامات التى تشبه المعجزات أو تزيد عليها، وهم بعد ذلك يحسون بالطمأنينة إلى أن السيد يضفي عليهم حماية تقيهم شرور الدنيا، وسطوة الحكام وتقلب الأيام، اشتد الظلم، وعظم العسف، وضاقت الحياة، كلما زاد السيد عن فريق من أتباعه علوا عن صفات الناس. وقد بقى السيد أحمد البدوى في ضيافة ركن الدين سنوات، ولم يكن يعيش داخل الدار، وإنما اتخذ من سطحها مقاما له ومقرا، وقد اختلف رواة سيرته ومن جاء بعدهم فى هذا المسلك فمنهم من قال : إن السيد كان لا يطيق الحجرات المغلقة. وكان يؤثر أن يكون على اتصال بالكون الفسيح ، ويرى فى مجلسه حركات النجوم والأجرام، والأشكال الجميلة التى تكونها فى السماء فيزداد اتصالا بصور من قدرة العلى العظيم، فيزداد إكبارا له، وتعظيما لخلقه، وبعضهم ذهب إلى أن المقام على سطح الدار، تحد من حركاته، فتفرض عليه تقشفا لحرمانه من راحة الدار، فيقل اضطجاعه وتنعدم خلوته، بمخالطته الدائمة بتلاميذه ومريديه، ويبقى تحت رقابتهم من جهة، وتدوم صلته بهم من جهة أخرى فيرونه على مدار اليوم بليله ونهاره، وهو فى ولهه بالخالق ونظره الطويل إلى السماء ومن أجل ذلك سمى بالسطوحي وسمى أتباعه بالسطوحية وقد اتسعت دائرة طريقة الأحمدية وعظم شأنها، وانهالت على شيخها العظيم، الهدايا والهبات من أموال ونفائس، ورءوس ماشية، وحبوب وخضر وفاكهة، وكان في وسع الشيخ أن يتقلب فى أعطاف النعمة، إلا أنه وقفها جميعا على

الفقراء والمحتاجين من أبناء الطريقة، وغيرهم، وقد أوكل التصرف فى كل هذه الخيرات لنائبه السيد عبدالعال، الذى صحب القطب سنين طويلة فى حياته . فلما توفى القطب فى يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٧٥ هجرية، ١٢٧٦ ميلادية، خلف السيد، والثابت أن خلافته كانت باختيار صريح من شيخ الطريقة، فلما لحق السيد عبدالعال بالرفيق الأعلى خلفه شقيقه زين العابدين عبد الرحمن لمدة كادت تصل إلى ربع قرن من الزمان، ولكن لأقطاب التصوف فى مصر على الرغم من كل ما نسب إليهم والصق بهم، تولو تربية وتنشئة آلاف من الأتباع والتلاميذ، على مبادىء صقلت نفوسهم، وقوت عزائمهم، وأعزتهم بالبعد عن الناس، والاختلاء بالنفس، وإطلاق عنان التأمل فى شئون العباد، وأصول العبادة، والتمسوا وسائل للارتفاع بأنفسهم، ونذر الكثير منهم خياله، لإشاعة فلسفة الزهد والتقشف، والوقوف مع الضعفاء، والدفاع عن الفقراء، وكف شهوات النفس، ومطامعها، فانتشرت لهذه الحركات ، موجات من التطهر، ومقاومة الحكام والتدريب على حمل السلاح، وحماية الثغور . وعاد الكثيرون من المواطنين الصغار من أرباب الحرف، والصنائع، وفلاحى الأرض، وزارعيها إلى الدين فى أصفى صوره، ويعقب ذلك حركات فكرية، أطلقت ألسن الشعراء، وأرهفت قرائح الكتاب والخطباء.

ولكن من هو أحمد البدوى، كما تصوره وقائع المؤرخين، الخالية من مبالغات الأنصار والمريدين.

هو أحمد بن على بن إبراهيم سيرتفع نسبه إلى على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، ويقول رواة سير السيد، أن أهله من العلويين هاجروا إلى المغرب، وأن جيلا منهم، بعد أن استقروا فى هذا

الجانب من الوطن العربي، استقروا في فاس التي أنشئت في نهاية القرن الثاني للهجرة ، وأن والده عاد إلى موطنه الأصلي في مكة ومعه ابنه أحمد الذي كان أنذاك صبيا صغيرا والواقع أن الانتقال من الحجاز إلى المغرب والعودة من المغرب إلى الحجاز والتنقل بين هاتين النهايتين، والتوقف في أقطار عربية أخرى كتونس ومصر والشام ليس بالشيء المستغرب في تلك الأيام، فالوطن العربي والوطن الإسلامي كلاهما وطن لا يقدم منه في وجه راغبي الأسفار، ومحبي التنقل للتجارة والعلم، أي حواجز ولا موانع، فالسفر في هذا الوطن المترامي الآفاق، فيه ككل سفر خمس فوائد كما قال الشاعر، والتماس أسباب الرزق، والسعي إلى أئمة الفكر والدين كان من تقاليد تلك الأيام، ونجد ذلك مسطورا في أكثر سير الشعراء الأفذاذ، والأئمة الكبار ، كالإمام الشافعي، والمتنبي وابنُ خلدون.

انتقلت أسرة السيد أحمد البدوي، إلى فاس، سنة خمسمائة وثلاثين، ثم تركوها حينما عادوا إلى مكة سنة ستمائة وثلاثة، والثابت أن الأسرة في طريقها إلى مكة، طابت لها الإقامة في مصر، بضع سنين، ولم يلبث السيد أحمد البدوي أن عقد العزم على السفر إلى العراق، وكان العراق أنذاك مركزا من مراكز التصوف الإسلامي، وموطن القطبين العظيمين أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني. غير أن السيد ، غادر العراق إلى مكة ، ثم سافر من مكة سنة ٦٣٤ إلى طنطا ، فوصلها بعد ثلاث سنين وقال بعض رواة سيرته على العهد بهم من المبالغة في ذكر وقائع حياة السيد، فزعموا أن السيد قطع المسافة بين مكة ومصر في إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون: إن السيد قطع المسافة

بين مكة ومصر فى إحدى عشرة خطوة ولسنا مع الذين يقولون إن السيد قصد طنطا مباشرة ونرجع أنه أقام فى القاهرة زمنا لم يحدده المؤرخون ثم تواردت إليه أقوال الناس ، وأقوال أتباعه وتلاميذه الذين ترامت إليه فبهرته وهو فى العراق ومكة فتوافدوا عليه وحسنوا له السفر إلى طنطا ، ثم الإقامة بها فأقام فى بيت أحد أعيان المدينة، وكان رجلا صالحا، ميسور الحال وكان قد جعل من داره، دارا للضيافة ينزل فيها ضيوف المدينة، من كبار القوم، وذوى المكانة، ولم يكن آنذاك دار أكثر منها سعة وضعف الأدميين، ويقول الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور فى كتابه.

السيد أحمد البدوى : شيخ وطريقة ما نصه :

«ونستطيع أن نقرر فى صراحة أن كتاب سيرة السيد أحمد البدوى أرادوا أن يحيطوه بهالة من المجد الموهوم ويظهروه فى صورة المصطلح القادر الجبار الذى يستطيع أن يجند الجيوش فى برهة عين من نجد والعراق وغيرهما ، والذى يسانده آل البيت جميعا، ويلبون نداءه إذا دعاهم ، والذى يستطيع أن يحيى الموتى، ويميت الأحياء.».

والحق أن ما أضفاه أتباع القطب الكبير «السيد أحمد البدوى عليه من صفات وهالات، لا يد له فيها، ولا يسأل عن شىء منها ، فإن فى البشر ميلا شديدا إلى خلق أبطال لهم من رجال الدين، والفكر والحكم والحرب، فإن لم يفهم الواقع على هذا الخلق خلقوه من أوهامهم، وتصوراتهم وتركوه تراثا للذين يأتون بعدهم يؤمنون به، ويرجونه، فقد يأتى جيل أوسع خيالا، وأجمل عبارة فيصنعون من الوهم القديم ، وهما أكثر منه سحرا، وأعظم منه أثرا.

وقد لا يكمل الكلام عن السيد أحمد البدوى، بغير الحديث عن المسجد الذى أقيم على الأرض المجاورة لغيره حيث كان بيته وإلى جانبها أرض بنى عليها السيد عبدالعال، زاوية لفقراء الطريقة وقد بقيت هذه الأبنية كلها على حالها لا تمتد إليها يد التعمير والتوسيع والاصلاح حتى جاء السلطان الأشرف قايتباى الذى أمر سنة ٩٠١ هجرية (والسادس عشر الميلادى) فبنى مقام السيد أحمد البدوى مقاما عظيما. فإذا ما جاء عهد على بك الكبير ، الذى كان عهد المقدمة المباشرة لعهد الاستقلال المصرى بقيادة محمد على باشا، فبنى مسجدا عظيما له ثلاث قباب، وكان هذا الجامع الفسيح وهذا الضريح الحافل نعمة وبركة لمدينة طنطا ، فاتسع عمرانها ، وكثر سكانها ، وراجت تجارتها وذاع اسمها حتى أصبحت إلى اليوم ، المدينة الثانية بعد القاهرة ، ولكن على بك الكبير أسدى يدا كبيرة للدين والعلم ، إذ حول المسجد الأحمدى إلى معهد علمى ويدعون لهذا المسجد الأساتذة ومعاونيهم والفقهاء ومساعديهم والمدرسين لتدريس المواد المقررة فى الجامع الأزهر وعلى منهجه ، فأمه طلاب العلم فى النواحى المجاورة، وكبر مقامه شيئا فشيئا ، ولا سيما قد عين على بك الكبير شيخا للمسجد الأحمدى وأضفى عليه لقب (شيخ الجامع الأحمدى) وهو لقب يقرب من لقب شيخ الجامع الأزهر، وقد استمر التعليم فى هذا الجامع يتسع كما، ويرتفع كيفا، وقد اختير لمشيخة الجامع الأزهر، عدد ممن تولوا مشيخة الجامع الأحمدى . وهذا وحده إحدى بركات القطب العظيم أحمد البدوى ، فلو لم يكن مخلصا فى دعوته للدين والشفقة فيه ولإيمانه بالعلم، بوصفه سبيل النجاة للمسلم ، وطريقا فسيحا لتقدمه ورفعة شأنه، وتقدم الناس

اجمعين مهما اختلفت أديانهم ، وتباينت مذاهبهم ، كما بنى على قبره معهد علم تدارس فيه طالبوا العلم لا للمواد الدينية فحسب، بل أصبحوا يدرسون إلى جانبها ما يسمى بالعلوم الكونية أو العلوم الحديثة من فيرياء وكيمياء ورياضة وهندسة وطب وفلك على أنه يجدر بنا أن نقول كلمة عن التصوف، نقرر فيها حقيقة لا يجادل فيها إلا الجاحدون هذه الحقيقة أن التصوف نزعة إنسانية قديمة قدم الإنسان ، فلما كان الإنسان مفطورا على حب الشهوات من النساء والولدان والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والاقرار بالذنب والحاجة إلى الاختلاء بنفسه ، وفرض نظام قاس ولو إلى حين على ذاته يحدد فيه مقدار ما يأكل ، ونوع ما يلبس ويحرمها من لذائذ تريدها تعلقا بالحياة، وتملقا لأصحاب الجاه ، هاتان النزعتان الإنسانيتان، يتراوح بينهما الإنسان، وتنشأ من بينهما نزعة التصوف، فيسعى فريق من الناس، وهبهم الله منذ البداية الحرص على إصلاح النفس وتزكيتها. وقمعها عن الشهوات، وكبح جماحها وتعويدها الجوع والصمت والبعد عن الناس ، وقد بدأت هذه المحاولات الإنسانية منذ الخطوات الأولى للحضارة، فخادم المعبد الفرعوني والراهب البوذي ، والهندوكي والبرهمي، كلها صور من هذا التصوف، تختلف باختلاف الزمان والمكان مراسمه وطقوسه، وأدعيته وأناشيده ، ولكنها تلتقي جميعا عند هدف واحد هو الارتفاع بالإنسان عن طبيعته البشرية العادية إلى أسلوب من الحياة، يشوبه انكار الذات ومكافحة الهوى، وليس غريبا أن الرهبانية، بدأت في أرضنا في مصر، بعد أن دخل المصريون الأوائل إلى المسيحية ، فنزلت بهم مصائب الاضطهاد القيصري الروماني، فنجى بعض أفرادهم بمسيحيته إلى أديرة ، بنوها في صحراء مصر قريبا من شاطىء البحر الأحمر وفي مقدمتهم «الأنبا انطونيوس» ثم «الأنبا بولا» ، وقد انتشر نظام الرهبنة

من مصر إلى أوربا الشرقية والغربية، وقد كان رهبنة تطوعية ، ينفرد بها الإنسان، ثم تكاثر عدد الرهبان، وقامت لهذا النظام قوانين متعارف عليها، وقواعد معمول بها .

وحدث الشيء نفسه في الإسلام ، فقد نشأت الطرق ، ثم وضعت لها القواعد ، وأصبح لشيخ الطريقة نفوذ على الأتباع والمهيمنين ليس له مثيل لحاكم ، ولا لأستاذ مدرسة أو جامعة ، وخرج من أتباع الطرق الصوفية فدائيون يحاربون أعداء الوطن، ويبذلون دمهم وروحهم بذل السماح وشاركت تلك الطرق في اصلاح أخلاق المجتمع ، وتقويم سلوكه، وحثه على فضائل الصدق في القول والاخلاص في العمل والوفاء بالعهد ونظافة الجسد والقلب، والاقبال على العلم والاقلال من الطعام والنوم والكلام، وتحبب النفس وتعويدها شظف العيش إلا أن كل شيء من صنع الإنسان ، معرض للفساد والتحلل ، وقد أصاب الصوفية آفات أهمها تأليه شيخ الطريقة ونسبت المعجزات التى لم تتم للرسل إلى هؤلاء الشيوخ ، وتزييف الأقوال الساقطة على هؤلاء الأئمة الأجلاء ، لكى يكون لخلفائهم من بعدهم سلطان على صغار الأتباع من الفقراء الذين يكدحون ليحصلوا على قوتهم وقوت عيالهم، فتنتزع اللقمة من فيهم ، وتعطى لبعض المشايخ الذين انحرفوا عن جادة التصوف فعاشوا عالة على المسلمين ، لا ينفعونهم بعلم ، ولا يهدونهم بقدوة ، ولا يقودونهم لعمل.

ولكن الصحوة التى نشهدها هذه الأيام فى مجال التصوف والمتصوفين فى مصر وغيرها ، تقوى الأمل ، فى تقويم لهذا النظام العتيد العريق ، صاحب الأيادى فى عنق الشعب والدين.

خطابات
مصطفى كامل

نشرت هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» سنة ١٩٨٢، كتابا بعنوان أوراق «مصطفى كامل» وقدمت له بفصل دلّ على ان هذا المركز الفنى عقد العزم على نشر ما خلفه مصطفى كامل من اثار مكتوبة بعد تصنيفها فى ثلاثة أقسام.. قسم خاص بالمراسلات، أى الخطابات الصادرة عن مصطفى كامل، أو الواردة إليه، والقسم الثانى يتضمن مقالات وأحاديث الزعيم الشاب، والقسم الثالث يشمل الخطب التى ألقاها، وأخيرا القسم الرابع ويشمل مؤلفاته.

وإذا كان عنصر المذكرات الشخصية، التى يكتبها الزعماء وأصحاب الصدارة فى بلادنا ، يوم بيوم، ويسجلون فيها ما يصادفهم ويرسمون صورا بالقلم للرجال الذين يقابلونهم ويعملون معهم، يؤيدونهم أو يعارضونهم، وصفاتهم وأخلاقهم وأسرار ما يخصون منه من أعمال ونشاط .

إذا كان هذا العنصر مفقودا فى تاريخنا الحديث، فإن كل ورقة يتركها زعيم وتحمل طابعه فى التفكير ، وأسلوبه فى التعبير، وطريقته فى تحليل الحوادث ، وتعتبر ثروة تاريخية تضىء تاريخنا ، ومطلع على

● الهلال - يوليو ١٩٨٤ .

حقائق الأحوال فى بلادنا ، وتبعث فى هذا التاريخ الحيوية والحرارة، وتزيدنا تعرفا عليه ، وتذوقا له.

والثابت أن المذكرات بهذا المعنى الحرفى التى تركها كبار رجالنا لا تعدو اثنتين الكراسات التى تركها سعد زغلول والتى كان يكتبها تقريبا كل يوم ، وما تركه محمد فريد تحت عنوان «مذكراتى بعد الهجرة»، فكلتاهما يحمل طابع المذكرات ، التى تروى ما يصادف الكاتب من أمور ، وتعكس تأثراته بهذه الأمور فور حدوثها، وهى بعد حية فى ذاكرته، وجوها يشمله ، وهذا النوع من التسجيل يختلف عما يصح تسميته بالذكريات التى تروى ما حدث من وقائع ، بعد فترات تتباين بعدا وقربا تسمح للنسيان بأن يحجب هذه الأمور ، أو بعضها على الأقل ، أو يضعف أثرها فى نفي راويها ، أما ما تركه عبد الرحمن فهمى ، ومحمد على علوبة، وإسماعيل صدقى ومحمد حسين هيكل، فأبعد ما تكون من المذكرات، فبعضها لا يتناول إلا مرحلة صغيرة من حياة الكاتب ، وبعضها كتب بعد زمن طويل من الحقبة التى نتحدث عنها، وفى أغلب الأمور كتب قبل الوفاة أو فى آخر العمر.

ويمكن القول أن خطابات الزعيم أو العظيم التى كتبها لمن يراسلهم، أو التى تلقاها من صحبته ومعاونيه والمقربين إليه، تأتى فى الأهمية التاريخية ، والقيمة الأدبية ، بعد المذكرات الشخصية . وقد تكون فى بعض الأحيان أكثر أهمية وأعظم خطرا . فهى كالمذكرات ، كتابة شخصية خالية من التكليف الذى تفرضه الظروف الرسمية ، يكتبها كاتبها على سجيته ، وقد ينبسط فيستعمل اللغة الدارجة ، وقد يروى

الوقائع التى تبدو للقارئ تافهة مع عظم دلالتها ، وهى تصدر عن الكاتب فى الوقت الذى يتحدث عنه ، ففيها الحداثة والصدق.

ولذلك فإن نشر رسائل مصطفى كامل من جانب هيئة الكتاب عمل تهنأ عليه الهيئة وتشكر.

وقد بلغت هذه الرسائل ١٨٠ رسالة منها أربع عشرة رسالة كتبها مصطفى إلى صديقه الأستاذ عبد الرحيم أحمد الذى كان يعمل أمينا للقسم العربى بديوان الخديو عباس حلمى الذى تولى حكم مصر من سنة ١٨٩٢ حتى سنة ١٩١٤، والذى عاصره مصطفى كامل معاصرة كاملة فقد ولدا فى عام واحد، واتصل أحدهما بالآخر ، فتآلفا واندلفا ، ثم عادا إلى الآلفة وحسن العلاقة، ثم تنافرا ، ثم فارق مصطفى الحياة، وعزل الخديو عباس بعد وفاته بست سنوات عن العرش ، فأحسن فى مصطفى الشهادة.

ومن هذه الخطابات ثلاثة موجهة من مصطفى كامل إلى الخديو عباس نفسه ، ومنها ثلاثة عشر خطابا أرسلها مصطفى إلى زميل صباه وشبابه ورجولته ، محمد فؤاد سليم بن لطيف باشا سليم ، والذى كان أول أمين عام «للحزب» الذى شكله مصطفى سنة ١٩٠٧ . ثم عشرون خطابا إلى صديقه وساعده الأيمن فى الكفاح وخليفته بعد وفاته محمد فريد ، وخطابان بعث بهما مصطفى إلى شقيقه على فهمى كامل والذى احتمل نصيبا غير قليل من عناء وآلام الجهاد بحكم عمله تحت قيادة شقيقه الذى كان يصغره، ثم ست رسائل كتبها مصطفى إلى أحمد حلمى كاتب اللواء الأول فى عهد رياسة مصطفى لتحرير هذه الجريدة ، وكان أحمد حلمى كاتبا فذا . ترجع إلى مقاله المعنون «يا دافع

البلاء» شهرة ومذبحة دنشواى وذيوع اسمها ، إذ وصف أحمد حلمى كيف ينفذ حكم الشنق والموت فى أربعة من فلاحى قرية دنشواى بمحافظة المنوفية ، وحكم الجلد فى نحو ضعف هذا العدد من فلاحى تلك القرية ذاتها، وكان الوصف مؤثرا وبليغا، اختنق له المصريون وهم يطالعون الجريدة، وذرفوا الدموع الغزار ، وحفظوا المقال، وأحسوا أن مذبحة دنشواى، هى مذبحة لذوى قرباهم ، فبقيت هذه الكارثة مذكورة عند المصريين، ومعلما فى تاريخ كفاحهم مع الاحتلال . ويشرف كاتب هذه السطور أنه وفق إلى تخليد ذكرى هذا الكاتب البارع على شارع فى أول حى شبرا، وقد أصبح هذا الموقع من أشهر المواقع فى القاهرة، وهو بعض ما يستحقه أحمد حلمى.

وأخيرا ١٠٧ من الرسائل كتبها مصطفى إلى صديقة عمره الصحفية الفرنسية الذائعة الصيت ، مدام جوليت آدم ، وصاحبة المجلة الجديدة «نوفيل ريفو» التى كانت تحررها وترأس تحريرها ، وقد خطب مصطفى هذه الصحفية سنة ١٨٩٥ بخطاب أرسله إليها فى ١٢ من سبتمبر من تلك السنة ، فادهمها هذا الخطاب أن كاتبه رجل فى سن النضج ، فلما جاء لزيارتها بعد أن حددت له موعدا رأته شابا ناحلا بدا لها كصبى . فأكد لها أنه بلغ الحادية والعشرين وحصل على اجازة القانون من كلية «فولويز» الفرنسية ، منذ ذلك اليوم تحابا، وتوثقت بينهما علائق الود ، وبقيت له أما ، وزميلة ، ومرشدة ، وبقى لها معجبا ومخلصا . وقد كان لمدام جوليت «صالون» أو «ندوة» يتردد عليها أكبر رجالات الأدب والسياسة والحرب ، وكان من بين هؤلاء الشاعر الفرنسى بيريوتى، والكولونيل «مارشان» بطل واقعة فاشودة الشهير ، والكاتب

روستور وغيرهم . وهذه الخطابات جميعا تموج بالأفكار والصور البيانية الجميلة ، والحقائق التاريخية الخطيرة، وأسرار السياسة المصرية، والفرنسية ، والدولية، ولذلك فقد كانت تستحق تعليقا ودراسة من المؤرخين ورجال السياسة ، ولكن انقضت سنتان منذ صدرت مجموعة هذه الرسائل دون أن يقع نظرى على مجرد الاشارة إليها . وهذا البرود فى الحياة الأدبية والثقافية فى بلدنا ، يؤدى إلى خمود تلك الحياة الذى نسميه أزمة الثقافة .

ولذلك رأيت أن أتناول هذه الرسائل بالتعليق ، وأن أقدم للقارىء نماذج مما جاء فيها ، حتى يتضح بعض ما فيها من النقاش البيانية والتاريخية .

أنقل هنا خطابين قصيرين أرسلهما مصطفى كامل إلى الأستاذ عبد الرحيم أولهما فى ٢٥ يناير سنة ١٨٩٦ وقد قال فيه :

حضرة أخى الفاضل .

بعد السلام أرجوكم تنتهزوا الفرصة هذه وتطلبوا من سمو مولاى أعزه الله أن يتكرم علىّ بتحديد مقابلة خصوصية أنفى فيها عن نفسى ما نسبه ذوو الأغراض لى ولكن أعلم إذا كان سموه لا يريد نهائيا مساعدتى فى خدمة بلادى حتى يتيسر لى عنده أن أعمل ما أريد فى مصر أو خارجا عنها عاجلا أو آجلا. وانى أنتظر منك الرد هذا المساء أو غدا فى الصباح لأنى لا أريد قضاء الأيام والليالى فى الانتظار.

دمت للوطن المحبوب ولأخيكم الصادق مصطفى كامل.

أما الخطاب الثانى فقد كتبه فى ١١ فبراير ١٨٩٦ وقال فيه :

أخى الفاضل حرسه الله

بعد التحية والسلام.. أخبركم بأنه يمل صبرى ولست أظن أن هناك داعيا لكل هذا التأخير فإن كان لمولانا أعزه الله رغبة فى تشريفى بمقابلته فلتحددوا لي هذه المقابلة هذا الأسبوع وإلا فإنى أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتى ، وعلى رغبتكم فى محض تأخيرى عن بلوغ أمانى العديدة النافعة للبلاد وأميرها إن شاء الله وأظنكم لا تلومونى إذا عملت من أول الأسبوع الآتى بغير استئذانكم أو انتظار تبليغكم فقد مضى فوق النصف شهر من يوم ما جئتم عندى وبلغتونى رغبة الأمير حرسه الله فى تشريفى بمقابلته.

وإنى أهديكم فى الختام مع شكرى عاطر سلامى.

مصطفى كامل

هذان الخطابان معنيان يجلوان حقيقة . كثر حولها التكهن والقول والرجم بلا دليل ولا سلطان، وأعنى بذلك حقيقة العلاقة بين مصطفى كامل ، والخديو عباس حلمى ، فقد كان تصور خصوم الحركة الوطنية الأولى ، أن مصطفى الشاب الصغير والفقير ، والذى لا سند له من السلطة ولا من نسب هو صنيعة الخديو وعملية يتقاضى منه المال وصاحب السلطة أى الحاكم ، ولكن هذين الخطابين يدلان على أن مصطفى يملك أمة نفسه، وأنه لا يتلقى الوحى إلا من قلبه، ولا يعمل إلا بإملاء ضميره ، وأنه عندما يحس انصرافا من الحاكم أو غضبا من قدره ، أو تجاهلا لإمره، تثور كرامته ، فيوجه أقسى الكلام إلى الخديو، الذى يظن أنه الآمر والناهى، وسنعود إلى نصوص أخرى وكثيرة، مشابهة حينا ، وأشد غلظة حينا آخر، يظهر منه الزعيم الشاب ، حرا مستقلا غضوبا رافضا للإهانة ، مهددا بالانفصال والقطيعة كأنه هو

الوالى صاحب الكلمة النافعة ، والواقع أنه كذلك لأنه باعث الروح الوطنية ، والمتحدى للاحتلال ، والداعى إلى الاستقلال.

أما خطاب مصطفى إلى مدام جوليت آدم فقد أرسله إليها فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ من مدينة فيينا عاصمة النمسا قال لها فيه :

سيدتى المديرة المبجلة ..

استسمحك الاذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل ، انى وصلت إلى هنا من القاهرة وفى عزمى أن أكون فى باريس بعد جولة فى بودابست وبرلين فى منتصف شهر إبريل ، وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فيه عن حالة وطنى العزيز التعسة إلى آخر درجات التعاسة، والتى ما كنا نظن أنه واصل إليها.

إن الانجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يرغبون ، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوربا – وعلى الخصوص من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمات الأخيرة قد دفعت الإنجليز إلى ظلمنا ظلما أشد مما كان ، ومما يزيد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلدكم الجميل الكريم.

وهذا النص بدوره كالنصين السابقين ، يجلو حقيقة أخرى ، شابتها الشبهات وأحاطت بها الظنون ، فقد كان بعض الناس، الذين لا يعرفون من الحياة إلا جانبها الأسود القاتم، جانب الشهوات والأغراض والمصالح الذاتية، والجرى وراء المال والنفوذ من أى طريقة وبأى ثمن ، هؤلاء ما كانوا يتصورون أن مدام «جوليت آدم» الصحفية الفرنسية الكبيرة المقام، وزوجة مسيو آدم عضو مجلس الشيوخ الفرنسى، والد

أعداء بريطانيا لأنها تتآمر على مصالح فرنسا، وتحاول اقصاءها عن مجالات النفوذ والصدارة فى أوربا وفى السياسة الدولية بعامة - هؤلاء ما كانوا متصورين أن هذه السياسية الكبيرة ذات التجربة الواسعة، تعمل للقضية المصرية، لأنها ترى فى ذلك مصلحة لبلادها ، بل كانوا يتصورون أن مصطفى كامل عميل «للمكتب الثانى» والمكتب الثانى فى فرنسا معناه المخابرات الحربية الفرنسية، فمصطفى كامل عضو فى شعبة المخابرات التى تديرها مدام جوليت وتنفق عليها من مصروفات تلك الإدارة ، مصطفى كامل وطنيته، وطنية مصنوعة ، سرها ما يتقاضاه من مال ، وما يدعمه من نفوذ، ولذلك فهو لا يعمل لحساب أمته، بل لحساب الإدارة الأجنبية التى توجهه وترسم له الخطط.

وهذا الخطاب ، يدل على أن مصطفى كامل الشاب المصرى الصغير الناشئ يكتب لسيدة فى سن جدته وقد ماتت سنة ١٩٣٦ عن مائة عام كاملة، منددا بسياسة بلادها، مقترحا تغيير تلك السياسة، مبينا أخطاءها وعيوبها. والخطاب الذى نقلنا صورته ، هو ورقة خصوصية أرسلت من مصطفى إلى الصحفية الفرنسية الكبيرة لتكون ضمن أوراقها الخاصة ، فلا يطلع عليها أحد ولا تنشر ، ولم يكن أحد من المرسل والمرسل اليه ، يعلم أنه سينشر على الناس فى يوم من الأيام ولكنها نشرت لتكشف عن نقاء صفحة مصطفى وطهره ، واستقلاله وحريته ، وأنه يمثل أمته فقط، وصنيعة مبادئ حزبه.

خطابات مصطفى كامل
إلى مدام چولييت آدم ★

من هى چولييت أولا ؟

فى العدد الأسبق من الهلال ، تحدثت عن المجلد الذى أصدرته هيئة الكتاب «مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر» بعنوان أوراق مصطفى كامل - المراسلات ..

وقد بدأت القول بالرسائل المرسلة إلى الأستاذ عبدالرحيم أحمد الذى كان صلة الوصل بين الزعيم مصطفى كامل والخديو عباس حلمى . وقد كان عبدالرحيم أحمد من خريجى مدرسة دار العلوم : ثم عين نائبا للديوان العربى للخديو ، أو سكرتيرا للشئون العربية . وقد استخرجنا من هذه الرسائل دلالاتها النفسية والخلقية لمصطفى كامل . وفى هذه الحلقة من دراسة خطابات مصطفى كامل ، يدور الحديث عن المرسل إليها مدام چولييت آدم ، وهى بذاتها المرسلة لخطابين باللغة الفرنسية إلى مصطفى، وهما مودعان بمتحف مصطفى كامل فى القلعة .

وقد كان لمدام چولييت آدم دور ضخم فى حياة مصطفى كامل وكفاحه ، فقد تبنت مصطفى ، منذ وقع نظرها عليه فى سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، بعد أن أرسل إليها خطابا ، وطلب منها موعدا .

وسنصف هذا اللقاء الأول ، ونذكر وقائعه فى الحلقة التالية ، فقد كان لقاء مثيرا ومسرحيا يليق بالكاتب الخطيب الذى كان فى الحادية

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٤ .

والعشرين من عمره ، ومع ذلك فهو يحلم ببعث مصر الهرمة فى مصر الفتاة ، ويخطب ود كبيرة الصحفيات الفرنسيات فى عهدها ولكن على الرغم من أن المصريين سمعوا اسم جولييت آدم مرارا ، وقرأوا عنها كثيرا فما أقل الذى يعرفونه عن حياتها ، ودورها العظيم فى سياسة بلدها فرنسا ، والأصول التى انحدرت عنها ، واسم «آدم» الذى تحمله من يكون وماذا أسدى لوطنه ؟ .

ولهذا فقد رأيت أن أقصر الحديث فى هذا المقال على مدام چولييت آدم ، فأقدمها للقارئ العربى ، تحية لها ، وإكراما لدورها ، وردا لبعض جميلها ، وهى تعد شخصية فذة من كل جانب وبكل معيار ، حسب القارئ أن يعلم أنها أتمت مائة سنة كاملة ، فقد ولدت فى يوم الثلاثاء الرابع من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٦ ، وماتت فى نفس الشهر سنة ١٩٣٦، بعد أن أبرمت المعاهدة المصرية البريطانية فى هذه السنة بقرية «فريرى» من إقليم بيكاردى من أقاليم فرنسا ، وكان والدها جراحا واسم الشهرة هو الدكتور لمبير والذى كان مشغول الخاطر بالعمل السياسى فى بلاده ، وكانت ميوله جمهورية ، وقد أطلق اسمه على أحد شوارع باريس فى حين كانت والدتها حفيدة القائد «سيرين» الذى ذاع صيته فى حروب الملك لويس السابع عشر ، وقد درست چولييت فى كلية الآداب وحصلت على إجازتها ، وقد تزوجت مرتين ، أولاهما وهى بعد صبية فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان زوجها الأول محاميا من كبار المحامين هو «وى لاماسين» فلما مات تزوجت فى سنة ١٨٦٨ ، بأدمو «آدم» أحد كبار الحزب الجمهورى ، الذى اختير عمدة لباريس ، ثم ما لبث حتى انتخب عضوا دائما بمجلس الشيوخ «السناتو» بعد

تأسيس الجمهورية الثالثة ، ثم انتخب رئيسا لهذا المجلس ، فلما توفى زوجها ، نذرت مدام چولييت أدم نفسها للعمل الوطنى والكتابة فى الصحافة ، والتأليف ابتداء من سنة ١٨٧٧ .

وحينما سطع نجم جولييت آدم فى عالم التأليف والتفكير ، لم يكن يناظرها من كاتبات الجنس اللطيف سوى «چورچ صاند» الكاتبة الذائعة الصيت ، و«دانيل سترن» و «جيرار دين» وقد كانت بداية شهرتها ، حدثا أدبيا كبيرا فى فرنسا ، فقد أصدر المفكر الفرنسى الشهير «برودون» كتابا حمل فيه على أثر حال النساء وهاجم بعنف «چورچ صاند» وقد كانت تتشبه بالرجال ، وتتزيا بزيهم ، وزميلتها دانيل سترن ، وحقر مدارك النساء ، ولم يكد ينشر الكتاب ، حتى تخاطفته الأيدى ، ونال تأييدا ساحقا ، وجنبت «جورج صاند» عن التصدى لـ «برودون» الكاتب اللاذع ، صاحب السطور الأدبية التى لا تقاوم أنذاك إلا أن مدام چولييت آدم ، لم تخيفها شهرته ، ولا انتقاد الكتاب الناشرين لغضبه ، ووضعت كتابا فى الرد عليه ، ثم طافت به على الناشرين ، فأجفلوا جميعا من مواجهة «برودون» إلا أن ناشرا قليل الشهرة ، حديث العهد بدنيا النشر ، يقوم بنشر كتابها ، قائلا : أنا ناشر مجهول ، وأنت كاتبة مجهولة ، فلن يخسر «أحدنا شيئا» ، وراج الكتاب وعرف اسم چولييت آدم التى جرؤت على أن تواجه الأسد فى عرينه ، وبدأت الأصوات المؤيدة لها ، والمعارضة لملك الكتاب الفرنسيين فى ذلك الوقت ، تعلو ، فى حين آثر «برودون» الكاتب الفحل الصمت أمام حملة «چولييت آدم» المكتسحة والمتقدة ، ومنذ هذه الواقعة الأدبية الكبيرة وشهرة چولييت آدم الكاتبة الشابة ، يتسع نطاقها

فيتردد اسمها ، ويكثر قراؤها ، فواصلت التأليف حتى بلغت فى منتصف عمرها فوق الخمسة والأربعين كتابا ، أما الصحف والمجلات فقد نشرت لها آلاف المقالات والبحوث والأحاديث ، وقد شملت اهتماماتها مساحة واسعة فى مجالات ودروب الفكر ، حسبك أن تعرف اسماء بعض كتبها لتدرك مدى اتساع جهدها الأدبى ، فمنها «خطرات فلاحة» و«السياحة الشرقية» و«ديانة الصينيين» و«الوثنية والمسيحية» و«سياحة الألب» و«العقيدة تحرك الجبال» و«التربية النفسية» و«البيت المعمور» و«تقلبات السياسة» و«مدارس الشعب» و«المسارح المحببة» و«الوطن المجرى» و«الوطن البولونى» و«مدينة اليونان» .

وإن كانت چوليت أدم الأديبة الناقدة ، والمؤرخة وصاحبة الخواطر الشعرية قد ظفرت بأعلى مقام بين مواطنيها وقرائها فى فرنسا وخارجها ، إلا أنها كانت بمثابة القائدة والزعيمة فى كتبها الوطنية التى كتبتها لتثير الفرنسيين ضد الألمان الذين سلبوا بلدها الألزاس ، واللورين ، وضد الانجليز الذين جعلوا همهم الأكبر أن ينافسوا فرنسا ، ويسدوا طريقها إلى الزعامة ، ولعل أعظم دليل على هذه المكانة أن أحد كتبها الموسوم «بالحرب السبعينية» قد طبع ١٥٠ طبعة ، وهو رقم لم يبلغه كتاب آخر فى فرنسا وحدها ، بل فى عالم النشر كله ، فالكتاب الذى يطبع فى فترة حياة المؤلف عشر مرات يعتبر حدثا لا يقاس عليه .

ولما أحست «چوليت آدم» أنها باتت فى حاجة إلي أداة نشر واتصال بالجماهير ، تطبع لها وتلبى احتياجاتها ، أصدرت مجلة «لانوفيل ريفيو» المجلة الجديدة سنة ١٨٧٩ ، وهى فى حقيقة الأمر كتاب

قائم برأسه ، إذ لم يقل العدد الواحد من هذه المجلة عن ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير ، كانت كلها صدى لفكر صاحبة المجلة ، وان اصبحت المجلة ، ندوة لكبار الأدباء والساسة ، ومدرسة للأجيال الناشئة من هواة الأدب ومحبيه ، ولعلنا نغنى أنفسنا عن الجهد فى بيان قيمة «المجلة الجديدة» ودورها الأدبى والسياسى بمجرد ذكر بعض الذين كتبوا فيها وترددوا على دارها ، فمن هؤلاء «جى دى موباسان» منشئ فن القصة القصيرة و«بول بورجيه» و«أناتول فرانس» و«ليون دوديه» و«ميرلوتى» و«كامبل موكليز» وأخيرا مصطفى كامل ، الذى أصبح بعد سنة ١٨٧٥ من كتاب المجلة الجديدة ، ومن أصدقاء كتاب المجلة ، يجالسهم ويكسب اعجابهم ، ويضمن تأييدهم لكفاح مصر ضد الاحتلال البريطانى .

ولما قرأ السياسى الفرنسى - اليهودى - برنامج المجلة الجديدة السياسى ، أعلن أن رجال وساسة فرنسا حتى إذا اجتمعوا لا يستطيعون أن يقوموا ببرنامج هذه المجلة فى السياسة الخارجية ، ولذلك فأنا أؤكد فشلها ، ولكن ثبات صاحبة المجلة وإيمانها ببرنامجها ، وتكريس حياتها وجهدها وصلاتها وصداماتها لهذه الصحيفة ولما تدعو له ، كتب لها النجاح مما اضطر «جاميتا» إلى الإقرار بخطئه ، واعترافه بأن نجاحها كان معجزة .

ولقد كسبت مدام «چولييت آدم» بسبب تطرفها الوطنى ، ووقوفها فى صف جميع الحركات الوطنية خارج فرنسا ، كالحركة المصرية ، وكفاح بولندا وكفاح المجر ، وقد كان ممن كسبت عداوتهم البرتس بسمارك ، مستشار ألمانيا الداهية ، وساسة بريطانيا الذى كانت تصطليهم وتصلى سياستهم فى مصر شواظا من نار .

ولما لم تكن «المجلة الجديدة» عملا صحفيا غاية في الكسب ، وإنما هدفه الدعوة الوطنية ، والبعث الأدبي والفكرى فقد كبرت خسارتها المادية حتى بلغت نحو مليونى يعنى ثمانين ألف جنيه انجليزى ، مما اضطرها إلى النزول عنها إلى جماعة من أبنائها الأدباء سنة ١٨٩٩ ، واكتفت باصدار نشرة أدبية عنوانها «الكلمة الفرنسية في الخارج» ، وقد كان لهذه «الكلمة الفرنسية» الموجزة أثر بالغ في الدوائر السياسية الدولية ، فكان خصومها يخشونها ، وأصدقاؤها ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، فلما بلغت السبعين توفرت على كتابة مذكراتها ، وقد نشرت إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ - ١٩١٨ » ستة أجزاء من تلك المذكرات ، ولما كانت تلك الحرب انشغلت بتقديم المعونة للمحاربين ، وإرسال الهدايا لهم ، ومعاونة عمليات الإسعاف ، وتحرى أحوال الأسرى . وعائلات المقاتلين الذين ماتوا في ميادين القتال ، فلما ايقنت مقتل الضابط الشهير «جوزيف ماديه» زوج حفيدتها الذى كانت تحبه كابن لها ، أصدرت كتابا بعنوان «حياة الأرواح» ولأنها كتبته تحت وطأة الجرح الذى أصاب قلبها ، تأثر به كل من قرأه فراج كأشهر كتبها .

ولعلنا لا نجد عبارة موجزة تصف «چولييت آدم» وتعدد فضائلها كهذه العبارة التى جاءت في مقال أوقعه الكاتب الذى ذاع صيته فى أوائل القرن الحالى «كاميل موكلير» ، فقد قال :

«لست أظن أن بين السيدات اللواتى اشتغلن بالأدب والسياسة فى الماضى والحاضر واحدة مثل مدام چولييت أديبة .

إننا كنا ننفر بغير اختيارنا من النساء ذوات الأدمغة الجامحة ونستهجن استرجالهن أما هذه السيدة الجليلة القدر ، فإنها مثال

المرأة الكاملة والإنسان النادر الوجود لها جمال مشهور ولطف كنسمة العطر ، تجمع إليهما سيرة نقية ، فى صفحة بيضاء ، ووقارا كله الشمم وعلو الهمة والآباء ، فقد شهدت وقائع رائعة ، ووالت خطباء أمم ، كما عرفت أسرارا خطيرة ووقفت على ضمائر أطوال الفلاسفة وفطاحل السياسة ، وأثرت بقوتها النفسية وسلطانها الأدبى فى المسائل العامة تأثيرا كبيرا ..»

ويهمنا كمصريين أن صلتها بمصر الروحية والسياسة ، توطدت منذ أن عرفت مصطفى كامل، واحبته وأعجبت به كبطل، وقدرته كإنسان، حتى تبنته فتبادلا الرسائل التى جمعت فى كتاب بعنوان رسائل مصرية فرنسية ، كانت آية من آيات الأدب السياسى والبلاغة الروحية ، وقد زارت مصر فى فبراير سنة ١٩١٤ فاحتفى بها مصطفى كامل وحزبه غير المعلن الذى كان آنذاك أقوى الأحزاب المصرية ، وأقبل المصريون على الوقوف أمام الأماكن التى تزورها وأعلنوا لها بكل وسيلة حبهم لها وامتنانهم منها ، وكتب مصطفى كامل فى اللواء ، جريدة الوطنيين المستبسلين من أجل الاستقلال ، فى عدد ٢٤ فبراير مقالا طويلا جاء فيه :

«نعم ! منحها الخالق كل ما يرجوه الإنسان فى حياته مالا وجلالا وعلما وأدبا وسمعة طائرة ، ونفوذا جيدا ، وقد استخدمت كل هذه المواهب لخدمة وطنها» .

وقد استقبلها الخديو عباس خلال اقامتها فى مصر ، فهاج هائج اللورد كرومر واحتج احتجاجا صارخا باعتبار أن مدام چولييت آدم هى من أعدى أعداء بريطانيا ، ولكن الخديو لم يحفل بهذا الاحتجاج وقال لكرومر أنا استقبلها باعتبارها من أعظم أصدقاء مصر .

وقد وضعت مدام چولييت أدم كتابا رائعا عن تاريخ مصر السياسى الحديث ، بعنوان مدام انجلترا فى مصر ، كان موسوعة تاريخية وسياسية ، وقد كتبت فى إهداء هذا الكتاب ، ما نصه «إلى الأمة المصرية الكبيرة النبيلة ، إلى ابنى المجيد البطل المقدام «مصطفى كامل» إلى الذى أفنى حياته فى سبيل دفاعه الوطنى عن استقلال مصر وحرية وادى النيل ، وإلى شقيقه ابنى على فهمى كامل الذى داوم على الجهاد بعزم صادق وعقيدة راسخة» .

وقد ترجم على فهمي كامل هذا الكتاب إلى العربية ، وقدم له بمقدمة جميلة ، ومليئة بالمعلومات والحقائق ، وقارئها يشعر بمدى الغبن الذى نال هذا المجاهد المحمود الفضل .

السطور الأخيرة فى قصة عباس الثانى ★

السنة التى تجرى فيها أحداث هذه القصة ، هى سنة ١٩١٤ . وفى هذه السنة كان خديو مصر عباس حلمى الثانى ، يصطاف فى باريس ، لا يدرى ماذا سيصيبه بعد شهور قليلة ، غير مدرك أن لقب «الثانى» يحمل فى طياته لعنة الذى يتحلى به . فغليوم الثانى امبراطور ألمانيا ، ونقولا الثانى قيصر روسيا ، وعبدالحميد الثانى سلطان تركيا ، وفؤاد الثانى ملك مصر ، وعشرات غيرهم سقطوا من عروشهم ، أحياء ، أو سقطوا موتى .

كان الخديو عباس حلمى الثانى فى فرنسا ، فى تلك السنة كعادته كل سنة ، ينلقى علاجه فى مدن المياه ، ويجدد نشاطه ، ويلقى من النساء والرجال من يحب أن يلقى بعيدا عن أنظار أصحاب الفضول ، وإن لم يكن بعيدا عن أعين الرقباء من إدارات المخابرات التابعة لبريطانيا وتركيا وفرنسا وربما ألمانيا .

وكان من عادة الخديو ، بعد أن يستحم ويستجم فى فرنسا وباريس أن يسافر إلى استانبول ، حيث يلقى والدته «أم المحسنين» فى قصرها المطل على البوسفور فى ضاحية «بيك» . وكانت

★ هلال - نوفمبر سنة ١٩٨٢ .

الأمـــيرة الوالدة تمــضـى إلى شواطئ الأستانة على ظهر اليخت «المحروسة» ومعها حاشيتها ، ويذهب ابنها الخديو إلى عاصمة الخلافة الإسلامية ، دار السعادة ، في القطار ..

ولم يكن قد نشب حتى تلك الأيام ، خلاف يستحق الذكر بينه وبين الخليفة سلطان تركيا ، السلطان عبدالحميد ، ومع ذلك فقد تلقى الخديو تحذيرات كثيرة وجدية ، من أن حكومة استانبول تفكر جديا فى التخلص منه ، إلا أنه لم يحفل كثيرا بهذه التحذيرات ، وإن كان يعلم يقينا أن ابن عمه الأمير سعيد حليم رئيس وزراء تركيا ، ينفى عليه أن يكون خديو مصر ، وانه كان صاحب الحق فى وراثة عرش هذه البلاد ، لولا أن الخديو اسماعيل ، نجح فى تغيير نظام وراثة العرش ، بفضل ما بذله من رشاوى ضخمة لوزراء الخليفة .

وقد شاء القدر أن يبقى في باريس حتى بعد يوم ١٤ يولية سنة ١٩١٤ ، مع أنه كان معتزما تركها قبل ذلك أى فى أوائل ذلك الشهر ، لولا أن رئيس جمهورية فرنسا ، دعاه إلى حضور احتفالات ١٤ يولية السنوية ، أى احتفالات العيد القومى الأكبر لفرنسا ، ولذلك لم يصل إلى استانبول إلا فى يوم ٢٣ يولية ، التى كانت تحتفل بدورها باليوم الأول من يومى عيد قومى تركى ، وهو عيد الدستور الذى أعلن فى ذلك اليوم سنة ١٩٠٨ فى عهد السلطان عبدالحميد الثانى الذى لم يلبث حتى عزل فى سنة ١٩٠٩ لما بدا منه من نوايا السوء ضد النظام الدستورى الذى أجبر على إعلانه ، ولما كانت العادة تقضى باحتجاب الصحف التركية عن الظهور فى أيام الأعياد ، فقد بقى وصول الخديو إلى العاصمة التركية مجهولا إلا من الدوائر الرسمية . وبعد أن قام

الخديو بتحية والده ، ذهــب إلى عــدوه اللــدود ، ومنافــسه الأمــير سعيد حليم الصدر الأعظم أى كبير الوزراء فى مقر رياسة الدولة التى كانت تسمى «بالباب العالى» . فقد أرسلت الحكومة إلى الخديو حرسا صاحب موكبه من مقــر الوالدة إلى مقر الدولة ، فسارت عربته يحف بها الخيالة .

وما كادت هذه العربة تدلف إلي مدخل الحكومة ، حتى اندفع شاب إلى الأمام مرسلا إلى الخديو أربع رصاصات . فأصابته الرصاصة الأولى فى خده ، فى حين استقرت الرصاصات الثلاث ، فى كتفه وذراعه ، وقد وقف الخديو بصفة تلقائية فى العربة ، وحاول رمزى باشا طاهر ، كبير ياوران الخديو أى كبير حرسه أن يقفز من عربة الخديو ليلحق بالقاتل ، إلا أن ضابطا من الحرس التركى حال بينه وبين تنفيذ رغبته وأطلق الرصاص على القاتل ، فقتله فى مكانه ، وبذلك انعدم الأمل تماما فى مــعرفة الذين خلف الفاعل الأصلى من محرضين وشركاء . وقد كانت هذه هى العادة المألوفة فى بلاد البلقان جميعا . يقتل الفاعل أو يهرب ، فتقفل ملفات التحقيق ويخرس كل صوت .

وقد نقل الخديو إلى المستشفى ، حيث رقد تحت العلاج ، وقد مضت أيام طويلة والأمل فى نجاته ضعيف إلى أبعد حد ، لأن الإصابة كانت جسيمة . ولم يكن - بطبيعة الحال - فى وسع الجريح أن يستقبل زوارا، ولكنه تماثل للشفاء ، فاستأجر عدد من كبار الموظفين والأعيان فى مصر ، باخرة حملتهم إلى استانبول ليقابلوا ولى الأمر ، وتهيأ الخديو للعودة إلى بلاده ، حيث كانت الحاجة إلى وجوده شديدة ، فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت تدق أبواب العالم بشدة ، ولم يكن

وجود صاحب الدولة حسين رشدى كنائب للخديو أو قائم مقام له ، يغنى عن الحاكم الأصيل . والحق أن المعلومات التى كان يرسلها نائب الخديو فى مصر ، لسيده فى استانبول قليلة ، مما أقلق هذا الأخير ، لقلة ثقته فى شجاعة وولاء نائبه حسين رشدى ، والحق أنه حامت حوله أمانة رشدى ، وحسن أدائه لواجبه كنائب للخديو شبهات كثيرة ، حتى لقد قيل إنه لو أدى واجبه فى تلك الأيام على وجه طيب ، لما تطورت الأحداث إلى عزل الخديو ، وإعلان الحماية البريطانية على مصر . ولقد طمأن الخديو أول الأمر إلى سلامة مصيره ، فقد تلقى وهو على فراش المرض وبعد إبلاغه من المستر «يومو» القائم بأعمال السفارة البريطانية فى الاستانة تأكيدات بأنه لا خوف على عرشه ، ومن ثم فانه لا داعى لسرعة عودته إلى مصر ، إلا أن الخديو لم يلبث أن تلقى - بغضب أكثر من الدهشة - فى ٢٧ من سبتمبر أن السفير البريطانى «السير مالت» نفسه يريد أن يقابل الخديو فى ضاحية «بيك» حيث قصر الوالدة ، وكان السفير قد عاد من اجازته فى بريطانيا ، وتمت المقابلة ، فلم يضيع السفير وقتا كثيرا فى عبارات المجاملة أى فى السؤال عن صحة الخديو ، إذ أنهى إلى مضيفه فورا بأن الحكومة البريطانية ترجو من الخديو أن يترك البوسفور ، ويسافر إلى أوربا ، حيث أعدت له بريطانيا «ڤيلا» فى مدينة نابولى ، وقد تشاءم الخديو من هذا الطلب ، وكان هذا من حقه . فنابولى كانت موضع اقامة جد الخديو ، أعنى الخديو اسماعيل باشا ، عند عزله عن عرش مصر فى يونية سنة ١٨٧٩ ولم يكن السفير البريطانى مجاملا فقد أضاف إلى طلبه الجاف ، طلبا زاده جفافا ، مؤداه أن يسافر الخديو إلى إيطاليا ، بأقصى سرعة ممكنة حالما تسمح له صحته بذلك .

ورد الخديو عباس على هذا الطلب بقوله إنه لا يريد من أية حكومة أن تبحث له عن مسكن ، وأنه في وسعه أن يدير لنفسه محل الاقامة الذى يرضيه ، وأنه على أية حال ، لا يقوى ، ولا يريد أن يقيم فى نابولى . والحق أن الخديو تاق إلى قضاء بضعة أسابيع فى مصر ، حيث كان أهلها ينتظرون عودته ، بوصفه الحاكم الفعلى لمصر ، إن لم يكن قد صدر بعد ، أى شئ يسقط عنه هذه الصفة .

ودوى فى الحجرة التى ضمت الخديو المصرى والسفير البريطانى قول السفير - كفرقعة عنيفة - انك لن تعود إلى مصر بعد اليوم .. ومن ثم يمكن اعتبار عزل الخديو عن عرشه قد تم على النطق الذى صدر عن السفير البريطانى فى ذلك اليوم : السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١٤ فى مدينة الاستانة أو استانبول أو القسطنطينية ، كيفما شئت .

ولم يفقد الخديو عباس حضور ذهنه عندما سمع بهذا التصريح الصاعق حتى حينما عاد السير «ل . مالت» إلى تكرار طلبه : يجب أن تسافر فورا إلى «نابولى» ، فقد طلب أن يسمح له بالسفر إلى سويسرا لأنه لا يطيق العيش فى إيطاليا ، بيد أن هذا الطلب رفض فى الحال ، من جانب السفير الذى أعلن أن إيطاليا وحدها هى المكان المناسب فى نظر السلطات البريطانية . وقد رأى الخديو أنه لا يليق بمقامه أن يدخل فى جدال مع السفير ، فسكت وهو ينوى أن يبقى حيث هو ، مادام أنه لا يطيق فكرة السفر إلى إيطاليا ، ولا سيما أنه كان لايزال فى دور النقاهة . والظاهر أن بريطانيا لم تبذل جهدا آخر لارغام الخديو على تنفيذ أمرها . على أنه لم تمض سوى أيام قليلة ، حتى دخلت تركيا فى

الحرب ضد بريطانيا ، وحليفتها فرنسا ، في بداية الحرب ، ثم إيطاليا بعد المرحلة الأولى من تلك الحرب .

ولما كان الخديو أيضا غير راغب في أن يرتبط بأحد طرفي الحرب ، لقد قرر السفر إلى سويسرا ، باعتبار أنها دولة محايدة وقد اتخذ مقرا له بعد ذلك في برن وجنيف ، فراح يتنقل بينهما حتى سنة ١٩١٧ .

والطريف أن أكثر المؤرخين ، تأثروا بالقرار البريطاني الذى صدر في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩١٤ بإعلان الحماية البريطانية بما أعلنه ذلك القرار من أن الخديو انحاز إلي جانب الأعداء ، ولذلك استحق أن يعزل عن عرشه . من ذلك ما قاله السير فالنتين تشيرول في كتابه «المسألة المصرية» الصادر سنة ١٩٢٠ ، وهو يعتبر مرجعا متداولا : «ان الخديو ترك بلاده ، وأنه وضع حدا لدوره كخديو بخلعه القناع عن وجهه ، بعد أن لبسه بنجاح زمنا طويلا ، منحازا انحيازا صريحا مع الأعداء حينما اندلعت نيران الحرب» .

ويدافع المستر «بيمان» في كتابه «عزل خديو» عن عباس حلمي بقوله إن الخديو كان مريضا وملازما فراشه لمدة ستة أسابيع ، وفي هذه المدة اتهم أنه انحاز صراحة للأعداء ، في هذا الوقت الذى لم يكن في وسعه أن يأتي بحركة ذات قيمة .

والواقع أنه لم يذكر أى أسباب لخلع الخديو ، سوى هذا الذى ذكرناه من أنه انحاز للأعداء ، ولكن قيل بعد ذلك أن خلعه كان بناء على نصيحة من اللورد كتشنر الذى كان مندوبا لبريطانيا في مصر مباشرة قبل حرب سنة ١٩١٤ ، ثم قيل بل كان هذا العزل بناء على مشورة

اللورد كرومر ، المندوب البريطانى السابق على مصر . والمعروف أن الرجلين - كرومر وكتشنر - كانا من ألد أعداء عباس حلمى ، وانهما ضاقا به ولطموحه وميوله الاستقلالية ابان وجودهما فى مصر .

فيعود «مستر بيمان» إلى القول أن تحرياته ومجهوداته فى كشف السبب المباشر لعزل الخديو عباس ، فلم يجد اثرا ، لصلة كرومر أو كتشنر بهذا القرار ، وان كان الرجلان - كما سبق القول - كانا يسيئان الظن بميول الخديو عباس ، ضد بريطانيا ، وإعجابه بالمانيا ، وأمله فى أن تعين على تحرير مصر ، أو تشارك فى هذا التحرير .

لكن «بيمان» يقول إن الكثيرين من بطانة الخديو ، كانوا يختلفون معه فى الرأى ، ولكن لم يتهمه أحد من هؤلاء ، بأنه مأفون أو قصير النظر ، ويفهم أن «عباس» كان يعلم أن بلاده فى حاجة إلى من يحميها من العدوان الخارجى ، وأنه قرأ الكثير عن أساليب الحكم الألمانى العنيفة بحيث لا يمكن أن نفكر فى أن يستبدل بالرعاية البريطانية الأبوية ، طريقة سوق العبيد الألمانية .

وهذه شنشنة نعرفها من المؤرخين الأوربيين الذين درجوا على القول بأن الحاكم المصرى ، لابد أن يقارن بين دولتين أوربيتين دون أن يفكر قط فى استقلال بلاده انتفاعا بتنافس الأقوياء وخلافهما .

وقد استرسل بيمان بعد ذلك فى دفاع مجيد عن «عباس حلمى» واستنكار شديد لقرار عزله الذى كان يراه بلا سبب ، ودون أن يعود حتى على الحكومة البريطانية بأى نفع ، وفى رأيه أن التهمة الوحيدة التى ألصقت بالخديو منذ عهد كرومر ثم كتشنر كونه «صانع مؤامرات»

وقال إن سند هذه التهمة لا يقوم على صحتها ، بل على أنها تهمة عائمة، لا تعرف لها حدودا ، بل قد لا تعرف لها معنى . فما هو المقصود بالمؤامرات ، ومتى تلقيت هذه المؤامرات ، وماذا حققت من خير.. واشتدت حماسة مستر بيمان فقال إن كرومر وكتشنر لم يكونا فوق شبهة التآمر ، وإن كان الشائع عند الغربيين أن الشرقيين يميلون إلى الدسائس ، وحبك المؤامرات .

فالانجليز عزلوا أميرا محترما لا عند المصريين وحدهم ، بل عند أمراء المنطقة أمثال آل سعود في نجد ، والإمام يحيى فى اليمن ، وأمير المحمرة ، وبعض الأمراء في آسيا ، ولو استمع الانجليز لنصائحه لكانت أغلى من الملايين من الجنيهات الذهبية .

ولقد شمل الخديو عباس الأزهر ، هذه الجامعة العريقة بعطفه ، وعنايته ، بعد أن تسلمها فقيرة ، فقدت مكانتها ، فبذل لها غير قليل من ماله ، واستحث غيره من الأعيان والأغنياء المصريين ، على التبرع لها ، فاستعادت رداءها القديم ، واهتم بها الرأى العام المصرى .

ونفى الكاتب ما أسنده الانجليز إلى الخديو من أنه كان مكروها للجماهير ، وقال إنه بالعكس كان المصريون متعلقين به ، ولو قيض له أن يعود إلى مصر ، لاقيمت لعودته الأفراح فى كل مكان من القاهرة إلى الخرطوم . ولعل الكاتب لا يعرف أن المصريين عاشوا أجيالا يسمعون من أفواه أطفالهم غناء ، يبدأ بعبارة «عباس جى» . وقد بقى الملك فؤاد وهو عم عباس حلمى ، والذي حل محله على العرش بعد وفاة السلطان حسين الذى كان أيضا أحد أعمام عباس حلمى . بقى هذا الملك فى خوف من عودة ابن أخيه عباس ، ويتصور فى كثير من حركات بعض الأعيان الذين كانوا يعرفون ، مؤامرة لخلعه .

ولذلك كان لابد من أن تعمل بريطانيا ويعمل الملك فؤاد كل ما في وسعهما لحمل الخديو عباس على الإقرار بالنظام الملكي القائم ، وبولي عهد الملك ، وأن ينزل عن كل حق له في ميراث العرش . وقد حدثنا سيمان طويلا عن المفاوضات التي دارت بين ممثلي بريطانيا الذين يقومون بالوساطة بين الملك وابن أخيه المعزول ، لينتزعوا من هذا الأخير وثيقة النزول عن حقوقه في الملك والعرش ، وعن كل ما كان يملكه من أطيان شاسعة وعمارات وعقارات في مصر ، واستمر ذلك طويلا دون أن يتحقق شئ ، حتى جاء اسماعيل صدقي باشا ورأس الوزارة ، وكانت السن قد تقدمت بالخديو عباس ، واستقر الملك فؤاد على عرشه ، وتضاءل الأمل في أن يعود الخديو إلي وطنه ، وان يعلو ثانية عرشه فاصبح ممكنا الحصول على الوثيقة المطلوبة . وقد تم ذلك في وثيقة أعلنت في ١٢ مايو سنة ١٩٣١ ، ننقل منها :

قال الخديو عباس في بداية الوثيقة :

«إني مؤمن بأني خدمت بلادى بأمانة وإخلاص ، وأني كرست لها مدى ثلاث وعشرين سنة ، بالرغم من دقة الظروف ، كل قواي وخير أيام حياتي ، وإني أتمنى من صميم قلبي سعادة مصر ورخاءها .

وقد تتبعت عن كثب ما أحرزته البلاد ، وما لا تزال تحرزه من أسباب التقدم في جميع النواحي ، وأني مغتبط بما أراه من خطاها الثابتة في سبيل توثيق استقلالها والتوفيق بين نظامها السياسي ، وبين حاجاتها وأمانيها .

وأورد مني في تحديد موقفي حيال نظام مصر السياسي وتأكيد

إخلاصى نحو ذات ملكها المعظم ، فإنى أعلن اتباعى الدستور المقرر بالأمر الملكى رقم ٧ لسنة ١٩٣٠ ، وأصرح أنى سأتوخى فى جميع الظروف خطة مطابقة للنظام المقرر لقوانين البلاد ، وعلى وجه الخصوص أعلن التزامى للأمر الملكى الصادر فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ بوضع نظام لتوارث عرش المملكة المصرية وللقانون نمرة ٢٨ لسنة ١٩٢٢ الخاص بإقرار تصفية أملاكى وهما جزآن لا يتجزآن من الدستور المصرى ، ولقانون التضمينات نمرة ٢٥ لسنة ١٩٢٢ وأعلن اتباعى لها جميعا .

وختم الخديو هذه الوثيقة باقراره بأن الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل ملك مصر الشرعى ، وانه لذلك يعلن تنازله عن كل دعوى على عرش مصر، كما أعلن تنازلى عن كل مطالبة ناشئة عن أنى كنت خديو لمصر أيا كان وجهها سواء عن الماضى أم عن المستقبل .

وانتهى إلى الدعاء للملك بصالح الدعوات وأن يحيط ولى عهد المملكة الأمير فاروق بعين عنايته ، وليزيد فى إسعاد مصر فى حاضرها ومستقبلها » .

وبهذا الكلام ، أسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر استمرت أكثر من ثلاثة وعشرين عاما لعب فيها الخديو دورا كبيرا جدا ، كاد يكون فى بعضه دعما وطنيا ، حين وضع يده فى يد مصطفى كامل ، وأيد كفاحه الوطنى واصطدم بكرومر وكتشنر ، ثم انقلب بعد ذلك مواليا للانجليز بعد اتفاق سنة ١٩٠٤ التى أبرمت بين بريطانيا وفرنسا ، والتى عرفت بالاتفاق الودى والتى أطلقت بمقتضاها يد بريطانيا فى

وادى النيل ، بدون معارضة ولا منافسة من فرنسا . وقد عبر كرومر فى كتابه «عباس الثانى» عن . ضيقه بنشاط عباس وحيويته وقال بصراحة لقد «حيرنى هذا الشاب» .

إلا أن ما ساقه لنا «بيمان» فى كتابه ، يرينا كيف يهون الملوك على الدول الاستعمارية ، حتى يستطيع سفير الدولة المستعمرة أن يعزل الملك عن عرشه بكلمة واحدة ، فى حين أنه لو فكر فى عزل أحد خدمه ، لتحرج وتردد ، وخجل من أن يعلنه بالفصل . وهو درس ، يرينا أن هذه الدول ، ليس لها صديق تحرص على مودته ، أو تراعى اعتبار كرامته ، فمن كان فى خدمتها ، تغدق عليه من العطف والمال ، ومن قامت الشبهة بلا دليل فى وفائه وولائه ، يطرد فى غير رحمة .

عبدالمنعم عبدالرءوف
وأكبر قضية عسكرية فى
تاريخ مصر الحديث ★

غاب عن دنيـانا هذه الايام الضـابط الطيار عبد المنعم عبد الرءوف، وهو اسم نجده في كل مذكرات أو كتب تناولت تاريخ ثورة ٢٣ يوليو .

لم يشذ عن هذه القاعدة لا ضابط ولا مؤرخ . ولم تعرف مصر، عبد المنعم عبد الرءوف، بوصفه ضابطا من تنظيم الضباط الاحرار، بل عرفته فى مناسبة أخرى، هزت مصر والوطن العربى، هزا عنيفا وبقيت تشغله لفترة طويلة، وتبعث فى الوقت نفسه، امالا فى نفوس الوطنيين الذين كانوا يمنون انفسهم بقيام حركة تمرد أو مقاومة ، تقف فى وجه الانجليز، وكان الامل الاكبر أن تنبعث هذه الحركة من صفوف العسكريين المصريين، أى ضباط الجيش، ولا سيما الشبان منهم . فالجيش هو المنظمة التى تضم أقدر المصريين على مقاومة الانجليز ، لأنها :

أولا تتكون من مجموعة غير قليلة من المصريين أصحاء البدن، المدربين على حمل السلاح واستعماله، وهى فى الوقت نفسه أكثر

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٥ .

المصريين احساسا بما يلحقه الجيش البريطاني من العار والاهانة شرف مصر، وبجيشها .

وثانيا لان اتفاق الضباط المصريين بحكم كونهم مقاتلين ، على رفض الاحتلال ، وكراهيته يهيئهم لان يكونوا طلائع المقاومة ، ومصدر الروح الوطنية فى البلاد، واجتماعهم فى أماكن مشتركة لأوقات طويلة، يتيح لهم تبادل الرأى والتحضير للعمل الوطنى الشامل .

كانت المناسبة التى عرفت فيها مصر، حدثا ضخما تمتزج فيه المجازفة المتسمة بالبطولة والشجاعة والمناداة بالعمل السياسى المخطط له والمدبر ، ففى مايو سنة ١٩٤١ ، علمت الدنيا كلها ان رئيس اركان حرب الجيش المصرى الفريق عزيز المصرى ، حاول الخروج من مصر فى طائرة عسكرية، تولى قيادتها اثنان من ضباط سلاح الجيش العاملين .

إن هذين الضابطين هما النقيبان: عبد المنعم عبد الرءوف ، وحسين ذو الفقار صبرى ،وان الطائرة سقطت بركابها فى ناحية قليوب بعد أن اصطدمت باسلاك كهرباء فى هذه المنطقة ولم يعد لمصر، شغل يشغلها ولا العرب، إلا التحدث عن هذه الحادثة التى لم يسبقها شئ مثلها ، وترديد اسماء ابطال هذه المجازفة عزيز المصرى باشا، والضابطين عبد المنعم عبد الرءوف وحسين ذو الفقار صبرى ثم متابعة مجريات المحاكمة العسكرية امام المجلس العسكرى العالى الذى شكل من خمسة من كبار الضباط لمحاكمة هؤلاء الضباط وحفظت هذه القضية العسكرية بعد ذلك وأفرج عن الضباط الثلاثة وعاد الضابطان الشابان الى عملهما فى الجيش ، ولكن فى غير سلاح الطيران .

لم يعد اسم عبد المنعم عبد الرءوف يذكر، حتى فوجىء المصريون فى صباح يوم ٢٣ من يولية ١٩٥٢ بثورة عسكرية اقتلعت الملك ثم الملكية من جذورها ، ثم استقرت الثورة، واخيرا بدأت الكتب والمقالات والبحوث تظهر لتروى وقائع ميلاد الحركة التى دبرت للثورة ونفذتها ، وقد اجمعت كل هذه المراجع على شخص واحد، هو ان عبد المنعم عبد الرءوف ، كان ضمن اعضاء الخلية الأولى من خلايا الثورة، وانه كان الرجل الثانى بعد جمال عبد الناصر، وانه كان مثال الضابط الثائر استقامة وامانة، واليك الامثلة على ذلك .

كان أول كتاب يروى قصة الثورة هو كتاب انور السادات الذى جمع فيه مقالات كان ينشرها في جريدة الجمهورية بعنوان قصة الثورة كاملة، واختار للكتاب نفس الاسم. فذكر عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا، فقال : تكونت الهيئة التأسيسية فعلا وكانت تضم فى البداية جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم وخالد محيى الدين وعبد المنعم عبد الرءوف، ثم قال : بينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على اساس تقديرنا لموقف البلاد فى ذلك الوقت فوجئنا بالبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف وهو ينادى بضم تنظيم الضباط الاحرار كله الى الاخوان المسلمين .

ولم يجد عبد المنعم عبد الرءوف من يستمع اليه واصر عبد المنعم عبد الرءوف على اخضاع الضباط الاحرار لجماعة اخوان المسلمين وقال وهو يحاول اقناعنا بوجهة نظره ان جميع اعضاء تنظيم الضباط الاحرار يمكن ان يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شئ. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم ، وقلنا له جميعا، إننا مثله لنا زوجات وأولاد،

ويهمنا ان نطمئن عليهم وعلى مصيرهم ، ولكن المسألة ليست مسألة شخصية ، فنحن نعد ثورة لا مؤامرة .

وقد تحدث جمال حماد عن عبدالمنعم عبد الرءوف فى كتابه ٢٣ يولية، اطول يوم فى تاريخ مصر فقال :

تخرج عبد المنعم عبد الرءوف فى الكلية الحربية عام ١٩٣٨ فهو من نفس دفعة السادات وعين ضابطا طيارا بسلاح الطيران وعرفت عنه الاستقامة والصلابة وصدق الوطنية ، وقد حذا عبد المنعم حذو الكثيرين من الضباط الشبان المتحمسين الذين اجتذبتهم شخصية عزيز المصرى فبدأ يتردد على منزله بالمطرية وتولدت نتيجة لذلك رابطة قوية من المودة والثقة الى الحد الذى جعل عزيز المصرى يصارح عبد المنعم برغبته الملحة فى السفر الى بيروت ويسأله المعونة وكان عزيز المصرى يهدف من وصوله الى بيروت . أن يساعده عملاء الالمان على السفر إلى العراق للمساهمة فى ثورة رشيد على الكيلانى التى قام بها ضد الانجليز .

واستطاع عبد المنعم بدوره اقناع زميله ، فى «الكلية والدفعة» ، حسين ذو الفقار صبرى للاشتراك فى نقل عزيز المصرى الى بيروت بطائرة من السلاح الجوى المصرى بحكم وجود حسين ذو الفقار فى سرب المواصلات .

ولكن المغامرة التى وقعت يوم ١٦ من مايو ١٩٤١ ، لم يكتب لها النجاح ، فإن حالة الاستعجال تسببت فى أن يغلق الميكانيكى مفتاح الزيت بدلا من ان يفتحه مما ادى الى هبوط الطائرة، اضطراريا بالقرب من قليوب ، ورغم اختفاء عزيز المصرى والطيارين لمدة ٢١ يوما فى حى امبابة عند أحد اصدقاء عبد المنعم تمكن البوليس من القبض عليهم يوم

٦ من يونيه سنة ١٩٤١، واجرى التحقيق معهم بعد اعتقالهم وقدموا للمحاكمة واستمروا معتقلين حتى افرج عنهم فى مارس ١٩٤٢ فى عهد حكومة النحاس ولم يعد عبد المنعم عبد الرءوف الى سلاح الطيران بطبيعة الحال بل نقل الى الجيش وانضم لقوة الكتيبة الثالثة المنشأة بمنشية البكرى بالقاهرة وهناك جمعته الاقدار بضابط شاب تعرف عليه لأول مرة ولعب بعد ذلك دورا خطيرا فى مجرى حياته . وكان ذلك الضابط هو جمال عبد الناصر الذى كان يعمل وقتئذ مساعدا لاركان حرب الكتيبة الثالثة، وكان من ضمن قوة الكتيبة التى نقلت من الصحراء الغربية الى القاهرة في مارس سنة ١٩٤٢ وهو نفس الشهر الذى افرج فيه عن عبد المنعم عبدالرءوف وانضم فيه الى قوة الكتيبة هو الاخر .

كما تحدث عن عبد المنعم عبدالرءوف كثيرا حمدى لطفى فى كتابه الذى صدر ضمن سلسلة كتاب الهلال بعنوان «ثوار يولية - الوجه الاخر» فقد اورد على لسان عبد اللطيف البغدادى اسماء اعضاء لجنة الضباط الاحرار، فقال من قسم الطيران هذه المنظمة: من الطيران حسن ابراهيم وجمال سالم ووجيه اباظة والمرحوم محمد شوكت وعمر الجمال السفير بعد ذلك، ثم انضم الينا على صبرى ، وشقيقه حسين ذو الفقار صبرى ثم عبد المنعم عبد الرءوف ثم قال :

لقد اكتشفت فى جولة بحثى بين ثوار يوليه أن بين زملاء دفعة الرئيس السادات، الضابط الثائر بكباشي عبد المنعم عبد الرءوف ، وقد انضم عبدالمنعم عبدالرءوف إلى سلاح الطيران .. وكان شابا متينا مؤمنا. وقد قاد الطيار عبد المنعم عبد الرءوف زملاء دفعته الى لقاءات

تعددت وكانوا جميعا يؤمنون بفكر واحد وآمال واحدة فضلا عن تقارب اعمارهم واحلامهم وهم المرحوم احمد سعودى وحسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى وحسن عزت وكانت بداية التجمع الثورى، ونشوء الفكر الوطنى المتحرر الرافض لمقاييس الحكم الملكى واعمدته التى تسانده رئى فى الدورة الأولى قوات الاحتلال البريطانى فى مصر وكان هؤلاء الثوار من صغار الضباط خلف فكرة الاتصال بالفيلد مارشال روميل،وارسال صور المواقع العسكرية الانجليزية المنتشرة فى أنحاء المملكة المصرية اليه عن طريق الطيار احمد سعودى الذى سقطت طائرته قبل ان يصل الى القوات الالمانية فى الصحراء الغربية ، بَينما نجح الصول محمد رضوان سالم فى اليوم الثانى من الوصول الى الالمان وقاد طائرة استكشاف للبحث عن طائرة سعودى وقال كمال الدين ضابط المدفعية فى هيئة الضباط الاحرار عن عبدالمنعم عبد الرءوف. « فى حى السيدة زينب، كنت اسكن ، وفى الحى نفسه يسكن الضابط عبد المنعم عبد الرءوف والتقينا، وكنا نستخدم تراما واحدا فى الذهاب والعودة ، ونتحدث فى كل شىء..

وذهبنا معا الى جمال عبد الناصر بمنزله فى منطقة تقاطع شارع احمد سعيد مع شارع الملكة نازلى – والتقيناً هناك بالصاغ محمود لبيب لأول مرة ، ثم ذهبنا الى اجتماع الاخوان المسلمين بتشجيع من المرحوم محمود لبيب، ومحمود لبيب هو ضابط مصرى بدأ جهاده فى عهد الحزب الوطنى الاول، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، وقد هاجر الى ليبيا فى فترة الغزو الايطالى لها سنة ١٩١١ وزامل فى هذه الحرب عددا من الضباط والمجاهدين المصريين كان منهم صالح حرب باشا

فيما بعد رئيس جمعيات الشباب المسلمين، وعبد الرحمن عزام باشا امين عام الجامعة العربية ..

وجاء فى كتاب ثوار يولية ما نصه :

«وتولى كمال حسين قيادة مدافع الميدان ، فى فلسطين ومعه المرحوم انور الصبحى وخالد فوزى وتولى حسن فهمى قيادة المدافع المضادة للدبابات وذهبو الي فلسطين ومعهم ايضا الشهيد سالم عبد السلام، وعبد المنعم عبد الرءوف .

وجاء فى كتاب «صفحات من تاريخ مصر»، تأليف حسين محمد احمد حمودة ، عن عبد المنعم عبد الرءوف : «قدمت نفسى يوم ٢٨-٦-١٩٤٣ للكتيبة الثالثة مشاة بالماظة وكنت وقتئذ ضابطا برتبة الملازم أول وتصادف أن نقل الى هذه الكتيبة اليوزباشى عبد المنعم عبد الرءوف بعد ان افرج عنه فى مارس سنة ١٩٤٢ وحل المجلس العسكرى الذى انعقد لمحاكمته هو وزميله حسين ذو الفقار صبرى والفريق عزيز المصرى .

وحدث اثناء تناول الطعام مع الضباط فى الميس «قاعة الطعام» ، فى يوم لا أذكر تاريخه بالضبط فى الشهور الاخيرة من عام ١٩٤٣ ، أن كان يجلس بجوارى اليوزباشى عبد المنعم عبد الرءوف فاخذت اتجاذب معه اطراف الحديث ومالبث ان همس فى اذنى انه يريد التحدث معى على انفراد فى موضوع بعد الغداء .

وانفردت معه بالميس بعد انصراف الضباط، فقال عبد المنعم عبد الرءوف لى انه لاحظ اهتمامى الزائد بعملى وحرصى على تفوق سمعتى فى التدريب وتمسكى بمبادىء الاخلاق الكريمة وانه يرد أن ازوره فى

منزله ليتحدث معي حديثا اكثر حرية واعطاني موعدا مساء الجمعة ، ذهبت الي منزل عبد المنعم عبد الرءوف بالسيدة زينب وتحدث معى عبد المنعم عبد الرءوف حديثا خلاصته ان مصر حالتها لا تسر احدا، فالاحتلال البريطانى جاثم على صدر البلاد يكاد يخنق انفاسها ويحيل بينها وبين اى تقدم والفساد يضرب أطنابه فى كل اجهزة الحكم.

وتلاقيت مع عبد المنعم عبد الرءوف كثيرا حتى اطمأن لى واطمأننت له

هذا هو عبد المنعم عبد الرءوف الذى تجمع المصادر جميعا، انه صاحب دور هام فى تأليف جمعية الضباط الاحرار، وانه الرجل الثانى فى مؤسسيها .

وإن كان بعضهم قد حاول ان يجعله المؤسس الاول. وقد كانت مجازفته الضخمة بالاشتراك مع زميله حسين ذو الفقار صبرى ، فى نقل عزيز المصرى باشا بطائرة حربية وخلال فترة اكبر حرب عرفتها الانسانية بعد الحرب العالمية الأولى، ضربا من الفدائية التى لا ينكر احد أنه عنوان شجاعة لا تهاب شيئا ولا شخصا ولا تفكر فى مصيرها، ولا تبقى على حياتها وقد كان لهذه المحاولة التى تمت فى ١٦ من مايو سنة ١٩٤٣ ، دوى ايقظ كل النائمين، وحرك كل المستسلمين للامر الواقع والراضين به .

وقد كنت اعرف اطراف هذه المغامرة الكبرى على درجات من التفاوت .. وكانت معرفتى لعبد المنعم عبد الرءوف، تجعله قريبا منى، دون أن تنشأ بيننا صداقة حميمة فقد جمعتنا الظروف فى مدينة أسيوط، وأنا فى السنة الأولى الثانوية، فقد كان أبوه قائد ما يسمى -

سنة ١٩٢٤ وما بعدها - بالاورطة التى كانت تعسكر فى عاصمة الصعيد، وكان أبى مهندسا للرى، وكان بيتانا متجاورين فى هذه المدينة، وقد لعبنا معا كثيرا، ولكن بقيت علاقتنا سطحية، حتى وقعت طائرته وطائرة زميله حسين ذو الفقار صبرى فى قليوب، ولجأ الى صديق من أصدقائى هو المثال العظيم عبد القادر رزق الذى كان أنذاك مدرسا لفن الحفر فى مدرسة الفنون الجميلة .. وكانت أجهزة الأمن تبحث أصلا عن المرحوم أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة، وكانت صلتى به معروفة، فراقبت أجهزة الأمن مكتبى وشاء الحظ أن يزورنى ذات يوم زميلى فى الحزب الوطنى أحمد مرزوق «أستاذ الرياضة فى معهد التربية البدنية العليا آنذاك» فتتبعوه حتى قابل بطريق الصدفة المحضة فى شارع عدلى المثال عبد القادر رزق وكان شخصية مجهولة للشرطة، ولكن المخبر الذى كان يراقبنى بدا له أن يتعقب هذه الشخصية المطاردة وهو يمنى نفسه أن تقوده إلى حيث يختبئ أحمد حسين، وسار وراءها حتى وصلت الى منزلى فى حى امبابة فابلغ رؤساءه الذين داهموا هذا المنزل وهم يعتقدون أنهم سيجدون أحمد حسين فإذا قائد الشرطة السياسية اللواء محمد ابراهيم إمام يرى نفسه أمام الفريق عزيزى المصرى ومعه الضابطان عبد الرءوف وذو الفقار، وأمامهم أسلحتهم، فصرخ فزعا خشية ان يقتلوه بهذه الأسلحة، ولكنهم لم يفعلوا، والقى القبض عليهم وسيقوا للمحاكمة، أمام مجلس بين خمسة من ألوية الجيش، وترافع عنهم عدد من أكبر المحامين كان على رأسهم حافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى ، ورأت بريطانيا انه ليس لها مصلحة فى استمرار القضية فحفظوها ، وأفرج عن

المتيمين ثم ما لبثت الثورة أن قامت واختلف عبد المنعم عبد الرءوف مع إخوانه من اليوم الأول، كما اسلفنا ، وحكم علي عبد المنعم عبد الرءوف بالموت، ولكنه لجأ الى الاردن وهناك عينه الملك سفيرا للاردن فى الهند وسافر جمال عبدالناصر إلى الهند زائرا لنهرو، وفى المطار اصطف سفراء الدول ليحيوا الضيف العظيم القادم، ووقف في مقدمتهم عبد المنعم عبد الرءوف سفير الاردن فى الهند، وصافحه عبد الناصر دون ان يلتفت جيدا الى شخصه ثم عاد فدقق واذا به يفاجأ بأنه يصافح صديق العمر، وزميل الجهاد ، وعدوه اخيرا. واضحكته المفارقة، ثم تعانقا .

حافظ محمود *

كانت صورة حافظ محمود القلمية من اولى الصور بالتقديم ، لا لطول سعيه فى مجال الصحافة والخطابة والكتابة فى دروب السياسة والادب والاجتماع، ولا لانه عاصر اكبر الاحداث وعاشر اكبر الشخصيات واقترب من القمة حتى كاد يعلوها ويستقر عليها وقد خرج من كل هذا سليما معافى، لم يمس احد شرفه بكلمة، ولم يجرح خصما مهما اشتدت ضراوته وحميت عداوته، وبقى هادىء النفس ، خافت الصوت حسن العلاقة بالجميع بغير اضطرار الى المنافقة أو المصانعة .

تعارفنا ونحن اشبه الناس بصبيين صغيرين ، ولست ادرى كيف تم هذا التعارف ، ولا مناسبته ، ولا ماذا تبادلنا من حديث، ونحن نبدأ علاقتنا الاولى. ولكن الذى اذكره ان صلتنا لم تنقطع منذ نشأت ، وقد طوحت بنا المقادير وكل فى اتجاه ، كأنما نحن النقيضان ، ولكن فقد كان دائما قريبا من الحكومة او بعض سادتها دون أن يكون حكوميا، ودون أن يجنى من هذا القرب جنيها ولا قرشا ، فقد بقى عفيفا خجولا متأبيا لكل مواقف الوشايا والصغائر ، وكنت بعيدا عن السلطة، لا أعرف أحدا من ذويها ، ولا اعرف كيف اتحدث اليهم وكنا اذا اجتمعنا لم يدر حديثنا حول موقف كل منا من الحكام، فقد كان هذا شأنا قليل القيمة والقدر عندنا ، وكان لدينا موضوعات للحديث تخصنا ، تمتعنا وتطلق ضحكاتنا على ما يجرى حتى الثمالة ، فاذا هممنا بالانصراف لم

---

* الهلال - أكتوبر ١٩٨٥ .

نتفق على موعد، لأن كلا منا كان يعتقد باطمئنان لا يشوبه قلق باننا سنجتمع حتما، سنستأنف ضحكنا وسخريتنا مما يجرى ، وأن هذا الاجتماع سيعقد بلا موعد ولا تحضير . وربما ونحن سائران فى الطريق، كل يمضى الى غايته، وهو لا يدرى انه ملتق بعد خطوات بصديق الصبا واننا سنبدأ فى التو، كأننا كنا معا فى الامس القريب او كاننا نتم حديثا بدأناه ولم نفرغ منه. ثم جاءت ايام كان تلاقينا يتم بعد ما يشبه قطيعة الشهور او السنوات ولكن دون أن يحس احدنا أنه فقد صاحبه او انقطعت صلته به، او أنه إذا رآه تعثر بحثا عن بداية للحديث أو موضوع للكلام .

كان بيتانا فى شارع واحد، هو شارع السيدة زينب المتفرع من الميدان العتيق الذى يقع على ضلعه الجنوبى مسجد حفيدة الرسول، زينب بنت الامام على ، أم هاشم التى يأتنس الشعب المصرى كله لا شعب الحى وحده ولا شعب القاهرة، بجوارها له، واشراقها عليه، وقل ان يوجد مصرى مثقف أو أمى ، لم يقل يوما فى ضائقة «شيئا لله يا أم هاشم» أو «شيئا لله يا ست» «أو شيئا لله يا أم العواجز» .

وان لم يقلها بلسانه مسموعة، فانه قائلها بقلبه ، ولا يسمعها الا هو.

كنت أنا وحافظ فى جوار ام هاشم وعلى القرب تطل علينا مئذنة مسجدها العظيم وتوحى الينا ، كما توحى الى مئات الألوف من أهل الحى ، بخواطر واحساسات وافكار، وتصورات واحلام، كان بعضها يندس فى شعورنا الخفى، وبعضها نعلن ونحدث به الناس وانفسنا وكان بيته بعد بيتى على يمين القادم من الميدان ويجاوره مباشره

مسجد، كنت احسبه جامعا فقيرا متواضعا الا انني قرأت فى كتاب يتحدث عن مساجد القاهرة فيقف امامه، ويصف عمارته، ويروى شيئا من تاريخه ونحن لا ندرى ان جامعنا القريب الذى كنا ندخل اليه بعض ايام الجمعة لنصلى فرض الجماعة ونسمع خطبة مطبوعة فى كتاب يتلوها امام المسجد العجوز الذى يصعد درجات المنبر فى اناة ورفق، فنحس لصعوده بما وصف محمود سامى البارودى بأنه يشبه دبيب الامانى فى النفس، ذلك لان امام المسجد، والخفير، والمسجد نفسه، والاذان وإقامة الصلاة قد اصبحت كلها اجزاء حية من حياتنا ودنيانا، لا يمكن ان نعيش بغيرها، وكانت تحرك الراكد فى نفوسنا ، والخفي فى قلوبنا والعجيب اننى لم ار حافظ محمود ، وهو يدلف الى المسجد يوم جمعة، وان كنت اذكر جيدا والده بلحيته البيضاء الجميلة الوقورة يخطو الى المسجد ، مشغولا به عن الدنيا كلها، إلا أننى كم صليت بعد ذلك مع حافظ فى زنزانة واحدة ومعنا اخونا الحبيب احمد حسين بعد أن نتناقش ونختلف ونتقاطع ونحتد، ثم نصطلح بعضنا مع بعض ، ونسمع حافظ محمود يتلو بصوته الجميل الرخيم، من المصحف أو من محفوظه ايات، تنسينا اننا فى قبضة الحاكم وأننا لا ندرى متى سنترك السجن ونستأنف الحياة، وتنسينا قبل ذلك اننا صبية صغار فقراء ، ولا حول لنا ولا قوة واننا نتحدى السلطة، ونحسب اننا اقوى منها وان الظفر يكتب لنا، مهما صالت وجالت واستأسدت وتعالت .

كان بيت حافظ محمود فى شارع السيدة زينب بيتا عجيبا جديرا بأن يحفظ ولا يهدم الا اذا كانت يد الهدم قد ازالته بقصد توسيع الشارع وتجميل الميدان، ذلك لان بيت حافظ محمود ، كان مقرا لنشاط ادبى خاص، فى وقت كان فيه علم الناس بالندوات الادبية، علما

ضعيفا، وكانت الندوات التى جاءت بعد ذلك، اجتماعات للوجاهة فيها، وازجاء الفراغ ، وادعاء الاهتمام بمشكلات البلاط ، اكثر مما فيها من صدق وجد واخلاص .

كان أطفال وشباب الحى كلهم، يلعبون فى الشارع، او فى حوش درب الشمس القريب منا، او حوش ايوب البعيد عنا، او حى بركة الفيل الذى ضم انذاك احمد رامى الشاعر، وعبد الحليم حافظ المطرب ، وضم في وقت بعيد نوعا، دار اكبر مطربى وممثلى مصر الحديثة الشيخ سلامة حجازى ، ولم يخرج على هذه القاعدة إلا فتى واحد، هو حافظ محمود لم اره قط قذف بقدميه كرة ولا حصاة، بل لم اره قط فى جلباب فقط، او فى جلباب فوقه جاكتة كما كان حالنا جميعا وفينا من وصل الى اكبر المناصب العلمية رئيس جامعة في الاسكندرية او فى الخرطوم او فى القاهرة ، أذكر منهم الدكتور حسين فهمى الداغستانى عميد كلية حقوق الاسكندرية، ونائب جامعتها ومدير جامعة الخرطوم وشقيقه محمود الداغستانى وزير المواصلات واخرين كثيرين غير ان حافظ محمود كان لا يسير فى الشوارع الا ببدلة كاملة وربطة عنق من طراز البابيون غالبا، وهو يسير فى جميع الاحوال : بسرعة خاطفة كأن وراءه موعدا ومطرقا كأنه يخجل ان ينظر الى وجوه الناس او يترفع عن ان يكون فضوله معلنا بلا حياء ولم نلبث أن دخلنا إلى بيت حافظ ، وقلنا ان ننضم الى النادى المفتوح الابوب والذي كان يقف فيه أحيانا صاحب الدار ، ليسمعنا خطبا يرتجلها ، فلا ندرى ما إذا كانت خطبا أو ألحانا جميلة

ثم دعانا حافظ لأن نكون اعضاء فى جمعية القلم ، فلبينا الدعوة دون أن يسكرنا هذا الاسم الجميل الرائع: «جمعية القلم» وكلنا فرحنا

بالانضمام ونحن اقرب ما نكون من الطفولة العزيزة ان نتصرف تصرف الرجال وأن نكون اعضاء فى جماعة تفكر ويخطب رئيسها ويحدثنا عن خطباء مصر ، سعد وحافظ رمضان ، ومى ، وعن اساتذة مصر امثال منصور فهمي وعن شباب الادباء المتطلعين الى الصدارة امثال الدكتور زكي مبارك والشيخ الصاوى.

لم ندرك أنذاك أننا نخطو الخطوة الأولى نحو هذه الحياة الهائجة المائجة التى ولدت ثورات، وجمعيات وأفكارا جديدة وخطيرة ، وشبابنا سيحملون تاريخ مصر الحديث على أكتافهم ، وسيواجهون السجن ويقتربون من اعواد المشنقة وتطاردهم السلطات الاصلية والدخيلة ، كما ستلد مجلات وصحفا ، وكتبا وكان حافظ محمود بغير جدال ، هو اسبقنا الى الصدارة ففى الوقت الذى كنا نمسك فيه الاقلام ولا ندرى كيف نقبض عليها جيدا فاجأنا حافظ بسلسة من المقالات غير مسبوقة تدور كلها حول نفسيات وكانت كلمة «نفسية» كلمة مستحدثة، طارئة لم يستعملها من قبلنا آباؤنا واجدادنا .

وقد اختار حافظ لمقالاته التفكير بحديثه نفسية القاضى ونفسية المتهم ونفسية الشاهد، وكان فى هذا الاختيار ملهما فقد كان القسم الثانى من قضية الاغتيالات السياسية قد بدأ عرضه على محكمة الجنايات برياسة قاض بريطاني استعمارى قح هو المستر كرشو، وكان المتهمان الرئيسيان فى هذ القضية اثنين من ابناء البيوتات اولهما الدكتور احمد ماهر الذى عاد من اوربا بعد أن حصل على اجازة الدكتوراه ثم اختير وزيرا للمعارف «التربية والتعليم» وجلس الى جانبه زميله ورفيق كفاحه محمود فهمى النقراشى الذى اختير وكيلا لوزارة

الداخلية . وكانت خواطر المصريين كلهم مشغولة بهذين البطلين وبزملائهما فى تلك القضية الخطيرة ، ولذلك كان الحديث عن نفسية المتهم ونفسية القاضى ونفسية الشاهد، حديثا فى موعده ، واتسع نطاق نشاط حافظ محمود ، فأقام فى حوش منزله مهرجانات الخطابة سمعناه فيها، وتعلمنا منه كيف تكون الخطابة التى تحلو فيها نبرات الخطيب وتتناغم فيها الالفاظ ، حتى تصبح لونا من الطرب ثم ذهب حافظ الى قاعة سينما فى شارع طلعت حرب «الشيخ السباع » سابقا وكان كل هذا شيئا جديدا غاية فى الجدة ، فشبان تلك الايام تشغلهم الرياضة ولا سيما كرة القدم، او الجمعيات التمثيلية كجمعية انصار التمثيل التى ضمت محمد تيمور ومحمد صلاح الدين «الوزير» وزكى طليمات وسليمان نجيب ذهبت انا الى الريف وبقى حافظ واحمد فى القاهرة ، لتتسع شهرتهما ويترامى نطاق نشاطهما فقد اصبح احمد حسين نجم التمثيل المدرسى يناظر يوسف وهبى فى المسارح الكبرى، ويشبهه صوتا وموهبة حضور، اما حافظ فقد اخذ يكتب الفصول المتتابعة ويلفت نظر قرائه شيئا فشيئا، حتى اجتمع شملنا فى بداية مرحلة التعليم الجامعى ، فقد انضم الينا كمال الدين صلاح الذى رأس جمعية التمثيل فى مدينة المنصورة وكان من معاونيه الشاعر صالح جودت واتصل بشعراء المنصورة على استحياء على محمود طه ، والدكتور ابراهيم ناجى وربما العشرى ايضا .

وفى اوائل سنى الدراسة الجامعية ، توثقت علاقتنا بالاستاذ امين الخولى ، وباساتذة الجامعة وفى مقدمتهم المرحوم محمد حلمى بهجت بدوى «الوزير فيما بعد»، والدكتور مصطفى القللى» رئيس جامعة القاهرة» والدكتور على مصطفى مشرفة العالم المصرى العالمى .. واحد رواد الموسيقى الكلاسيكية فى مصر بالتعاون مع محمد زكى على باشا

«الوزير وعضو مجلس الاذاعة» وكان كلاهما يتقن الغناء الاوبرالى - والناس لا تعرف ...

واخرجت جماعتنا جريدة الصرخة بعد ان حصل على رخصتها زميل لنا هو الاستاذ عبد الرحمن العيسوى «رحمه الله» وفى هذه الفترة خرج احمد حسين بمشروع القرش اكثر مشروعات الشباب نجاحا ، وأعظمها شهرة، ثم مشروع الطلبة الشرقيين الذى سافرنا من اجله فى البلاد العربية وتركيا ، وإدارة السلطة فى عهد عبد الفتاح يحيى باشا ثم اسس احمد حسين جمعية مصر الفتاة ، واخرجنا لها جريدة الصرخة لتكون لسانا لحالها. ورأس حافظ محمود تحريرها ، وراح يكتب المقال الرئيسى فيها. وزجت بنا السلطة الى سجن الاستئناف ، وكان لاعتقالنا صدى بعيد فقد نشرت الصحف صور ثلاثة شبان ، لا يؤيدهم حزب كبير ولا يسندهم زعيم خطير .. ولا تحمى ظهورهم سلطة ولا يملأ جيوبهم مال، ولذلك كان هذا الاعتقال حدثا، وكان فى الوقت نفسه بداية عهد جديد يتوالى فيه نشاط الشبان يوجهون السياسة ويتزعمون الحياة العامة فكانت جمعية مصر الفتاة يرأسها احمد حسين وجمعية المهدى للمصرى يرأسها سلامة موسى، ويقوم بأمانتها حافظ محمود . وجمعية الاخوان المسلمين يرأسها حسن البنا وابتدأت الحياة فى مصر تأخذ صورة جديدة وتشق لنفسها نهجا جديدا .

وكان من أعلام هذه الحياة الجديدة حافظ محمود وأحمد حسين بلا جدال. وثبتت مكانة حافظ محمود كصحفى حتى اختير امينا عاما لأول نقابة للصحفيين . واصبح حافظ محمود الخطيب، عنصرا ثابتا فى كل اجتماع كبير، والمتكلم الاول فى كل ندوة واصبح اسلوبه فى الكتابة . وموضوعاته التى يطرقها ضربا جديدا من ضروب الكتابة - الادبية والصحفية ..

كيف فكر أحمد حسين

فى مشروع القرش ★

أمسك أحمد حسين ورقة وقلما وكتب بسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعى بقرش صاغ واحد، وقبل الجراح المصرى الكبير على ابراهيم باشا رئيس الجامعة المصرية حينذاك رئاسة المشروع وانفتحت ابواب النجاح لمشروع القرش فى الجامعة وفى كل مكان.

مشروع القرش، عمل استقل به الشباب في العقد الثالث من القرن العشرين اى فى الثلاثينات كما يقولون هذه الايام وقد يبدو الحديث عنه غريباً باعتباره حدثا صغيرا لا يجوز أن يشغل به الكبار، وفى الواقع انه حدث كبير، وان له خلفية سياسية اجتماعية ترفع من قدره وتعلى من شانه

وقد نبتت فكرة هذا المشروع الجليل فى رأس طالب بكلية الحقوق سنة ١٩٣٥ وكان آنذاك طالبا بالسنة الثانية في تلك الكلية . وكان يتوق من قبل ذلك الى السفر الى باريس، فقد هام بفن التمثيل حينا وبلغ فيه من التجويد والاتقان، على الرغم من انه كان هاويا وكان طالبا منتظما، لا ينجح فقط بل ينجح متفوقا على زملائه . فجمع بعض المال القليل، وسافر الى باريس ليرى من فنون المسرح ما سمع عنه في الصحف

★ هلال - يناير ١٩٨٤ .

والكتب، وما لا وجود له في مصر ، وفعلا تردد على دور التمثيل الجادة والفكاهية، وحاول أن يقابل بعض كبار الفنانين، فضلا عن طوافه واسع النطاق الذى شمل المتاحف في باريس وضواحيها، والمعارض، وندوات السياسة كالبرلمان الفرنسى بمجلسيه النواب والشيوخ، وسجل مشاهداته وتأثراته وتعليقاته فى مذكرات يومية بعث بها الى احد اصدقائه وقد كانت هذه كلها، صالحة لان تكون نواة لكتاب ككتاب رفاعة الطهطاوى الشهير «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» وفيما كان أحمد حسين يستريح فى احدى حدائق الاطفال رأى تمثالا فى جانب من تلك الحديقة، فقام يتأمله، ورأى أسفل القاعدة لوحة صغيرة كتب عليها اقيم هذا التمثال بملاليم الاطفال الذين يترددون على البستان، فاهتز أحمد لهذه العبارة اهتزاز السرور العميق، والالم العظيم، السرور لانه وجد ان أطفالا فى مكان ما فى الدنيا، حفزهم احد من الناس. ليتبرعوا بأقل العملات الفرنسية قيمة ليقيموا تمثالا صغيرا وانيقا يزينون به جانبا من الحديقة التى يترددون عليها ويلتمسون الراحة والمتعة فى ارجائها ومن احواض زهورها.

ولما كان «أحمد» مشغول القلب والنفس دائما ببلده، فقد قال على الفور، ولم لانقيم فى بلادنا شيئا نافعا بقروش المواطنين والتصقت الفكرة برأسه، فلم يكد يعود من رحلته الى القاهرة حتى أمسك ورقة وقلما وكتب على عجل منه وبسرعة دعوة الى اقامة مشروع صناعى بقرش صاغ واحد.

ولما كان كاتب المقال هو طالب مجهول فى كلية الحقوق، فقد نشر المقال فى جانب من جريدة الاهرام، فلم يحرك احدا ولم ينشر تعليقا، وكاد أحمد يصاب بخيبة أمل تقعده عن المضى فى مشروعه إلى أن

حدث أحد إخوانه بهذه الفكرة، قبل ان يكتب مقاله فشجعه صديقه هذا ورأى الفكرة جديرة بالتنفيذ فلما نشر المقال المتضمن شرحها والدعوة اليها زاد صديقه من تأييده، واعتبر مجرد النشر فألا حسنا يجب ان يتبعه بعمل ما وكان في مصر في تلك الآونة زعيم كبير مهيب يتوقى الناس طلب مقابلته فقد كان جادا قليل الكلام يبدو متجهما، ذلك هو الاقتصادى الكبير محمد طلعت حرب باشا رئيس مجلس ادارة بنك مصر ومؤسسه، وصاحب الدعوة اليه، وكان الدافع أن محمد طلعت حرب، شقى كثيرا حينما نبتت فى رأسه فكرة إنشاء بنك وطنى للمصريين، وقد ألح في عرض هذه الفكرة وواظب على الترويج لها وتحسينها للمصريين فلما انعقد المؤتمر المصرى فى هليوبوليس سنة ١٩١٠، كان هذا الزعيم بمكانة وبالمعاناة التى تحملها فى سبيل الدعوة إلى إنشاء مشروع اقتصادى، اجدر الناس بأن يستقبل الداعى الجديد والصغير ، ويطيل الاستماع إليه ، ثم يفسح صدره لامانيه وأحلامه ، ثم يمد يده، ولكن حدث النقيض لكل ذلك، فقد استقبل أحمد حسين، متجهما، وسأله عن الغاية من حضوره اليه، فلما شرح له الفكرة لم يلبث حتى قال بلا تفكير، يا ابنى «مشروع ايه، روح انت وصاحبك وذاكروا ولما تخلصوا المدرسة وتأخذوا الشهادة تبقوا تعملوا اللى أنتم عاوزينه».

وقد كان هذا الكلام بالضبط، كلام رجل كبير، لأى شاب مبتدئ، ولا سيما اذا كان هذا الشاب المبتدئ طالبا فى الكلية ، ولكن أحمد لم يتزحزح وان كان وجهه قد احمر خجلا وغضبا فى الوقت نفسه ورد على الزعيم الكبير بالرد المقنع ولا أقول المفحم فقد قال: ولكن هذا مشروع

للشباب، وانا اوجه الدعوة فيه أول ما أوجهها إلى الطلبة الذين أحسب أنهم سيكونون حملة الدعوة، ومنفذى المشروع، فأليق وقت بى، هو بطبيعة الدعوة، هى فترة طلب العلم.

فقام الزعيم الكبير بدوره، لما وجد الشاب، ثابت القدم، قوى الحجة، واثقا من نفسه، بغير اجتراء، ولا يتجاوز الحدة فقال: وهل أنت مستذكر لدرس الاقتصاد حسنا مادمت مشغولا بحالة بلدك الاقتصادية فقال نعم، قال الزعيم ، الآن قولا لى من الذى ثبت الفرنك الفرنسى وما معنى تثبيت الفرنك ، وكان موضوع تثبيت الفرنك الفرنسى من موضوعات الساعة فى العالم كله وكانت برقيات الوكالات تنشر فى صحف مصر، وهى متضمنة أنباء أزمة الفرنك الفرنسى ومحاولات رئيس الوزراء فى إصلاحها، وكان أحمد وصديقه ممن يحسنون قراءة الجانب الجاد من أنباء الصحف وفى مقدمتها البرقيات الواردة من الخارج فأسرع أحمد وقال له في لفظ واحد : بوانكاريه! وفتح طلعت حرب عينيه فى دهشة واعجاب وعطف وقال وما التثبيت ؟

وقبل أن يتم سؤاله شرح أحمد معنى تثبيت العملة، فى إيجاز ووضوح. فطابت نفس الرجل وعاد يتأمل أحمد وصاحبه، وكأنه يقول لنفسه : أيرجى خير من هذين الشابين .. وبعد فترة قصيرة قام الى جانب من حجرته، وأخرج من درج من ادراج صوان فى هذا الجانب منديلين من حرير دمياطى، جميلين ونشرهما فى الهواء قليلا ليبين للشابين انهما هدية ثمينة وقال الرجل: حسنا، هذه هدية بمناسبة زيارتكما، وانى ادعو لكما بالتوفيق، وما زلت على رأيى.. اذهبا واكملا الدراسة وسيكون لكما شأن، ولم يضف شيئا ووقف، فوقف الشابان

ومضيا واحمد غاضب يكاد يسب ويلعن لفرط غضبه وصاحبه سعيد بالنتيجة

ولقد أردت أن أسجل هذا الموقف هنا، لانه تصوير لموقف جيلين جيل الشيوخ الذين ادوا الواجب ونهضوا بالرسالة، واحسوا أن كل شي يمكن عمله قد عمل، وان الشباب عليهم أن ينتظروا ثم يتابعون الاباء والاجداد الى أن يتم نضجهم وتلوح لهم أفكار تستحق أن تبذر فى تربة الوطن ومضى أحمد لتوه الى على ابراهيم باشا، جراح مصر الاول في تلك الايام ورئيس جامعة القاهرة، قبل أن تصبح جامعة فؤاد الاول، ولعلها لم تكن ايضا جامعة القاهرة لان تمييزها لم يكن له دا ع اذ لم يكن فى مصر الا هذه الجامعة التى كان مقرها القاهرة وكان اسم على ابراهيم كجراح عظيم ذائعا وجاريا على الالسن، وحتى الذين لا تهمهم الجراحة فى شئ ذلك لان الاقدام على اجراء عملية كان مخاطرة لا يقوم عليها الا من يئس من الحياة، ورأى أن يسلم نفسه لمبضع الجراح باعتباره الحل الاخير، والذى لا حل سواه وكان التفكير فى اسناد رياسة لجنة مشروع القرش، الى هذا الجراح الموقر، واستاذ أساتذة الجامعة بغير منازع توفيقا عظيما فان جميع الابواب التى كانت مغلقة في وجه المشروع فتحت . فقد نشر على ابراهيم بيانا بتوقيعه اعده له الشباب، يدعون الى مشروع القرش، فلما طبع قبلت شركة ترام القاهرة ان تلصقه فى عربات الترام وقاطراته فأصبح كل راكب فى وسيلة الانتقال الوحيدة فى القاهرة، يجد امامه عند الصعود وعند الهبوط اعلانا ممهورا عليه من رئيس الجامعة العظيم يدعو الى مشروع دعا اليه الشباب ويعدون بأن ينفذوه فكان ذلك تحولا ذا ثلاثة معان.

من الاول ظهور اول اعلان يلصق فى عربات الترام ولا يحمل تنبيهات إدارية للركاب وكانت عربات الترام فى تلك الايام وقورة، فلا اعلانات فيها الا «ممنوع البصق» «ممنوع الركوب من الشمال» : «احترس من النشالين» وقد ألف الركاب هذه الاعلانات الثلاثة حتى لم يعودوا يحسون بها أو يقرأونها.

فأن يوجد الى جانب هذه الاعلانات المألوفة، إعلان عن شأن اجتماعى، وموقع عليه من استاذ كبير فتلك كانت ثورة، وان بدت صغيرة الا انها خطوة نحو ذلك وامتلأت بنشاط الشباب .

والمعنى الثانى هو مدى تجمد الحياة العامة قبل مشروع القرش، فكل شئ يتوقف على كلمة من كبير، فاذا جاءت الكلمة بطل البحث، وتوقفت المناقشة وأصبحت هذه الكلمة هى ضمان النجاح وسلامة العمل.

المعنى الثالث، ان الشباب نجح فى أن يحرك الشيوخ الذين جللت هاماتهم الايام بالشعر الابيض، والدال على طول التجربة..

فقد استجاب على ابراهيم لدعوة شاب، فاذا بطلعت حرب يغير من موقفه، ويقبل ما كان يرفضه.

أصدر طلعت حرب أوامره الى مطبعة مصر التابعة لبنك مصر كإحدى شركاته ان تطبع كل شئ يلزم لمشروع القرش بلا مقابل . وسهرت مطبعة مصر ليالى عديدة لتطبع ملايين من الطوابع التى تقرر جمع القروش مقابل بيعها للجمهور واستمارات التطوع، وايصالات النقود وبيانات لجنة مشروع القرش . فكان ذلك سهما فى نجاح المشروع يشكر لطلعت حرب ويذكر، وهو سهم يتناسب مع المعروف من خلقه ومن نظراته الى العمل الوطنى العام.

وجدنا تحولا اخر، فقد أصبح واجبا، بعد ان تولى على ابراهيم باشا رئاسة لجنة المشروع، ان تكون معه لجنة من أساتذة الجامعة تقوم دوبه بالعمل، وتتوجه به وجهة صحيحة، فانضم الى هذه اللجنة من أرى يجوب ذكر اسمائهم تحية لهم وتخليدا لذكراهم وهم.

دكتور على مصطفى مشرفة باشا وكان استاذا بكلية العلوم إن لم يكن عميدها، وزكى عبد المتعال باشا وكان استاذا للاقتصاد بكلية الحقوق، وأمين الخولى وكان استاذا بكلية الاداب، ومحمد عبدالله العربى، وكان استاذا بكلية الحقوق لعلم الادارة . وانضم الى اللجنة اثنان من كبار الموظفين احدهما مختار باشا وكان مديرا لإدارة الشركات بوزارة المالية، ثم اصبح رئيسا لمجلس إدارة شركة المحلة الكبرى، ومصطفى الصادق باشا الذى كان مديرا لمصلحة الصناعة بوزارة الصناعة والتجارة وكان كلا الرجلين استاذا بكلية الحقوق .

وقد اصبحت مصلحة الصناعة، نواة لوزارة الصناعة، ثم عبدالله فكرى اباظة بك احد مديرى شركة من شركات بنك مصر . هؤلاء الاساتذة لم يجدوا غضاضة فى أن يزاملهم فى هذه اللجنة، كسكرتير لها «أحمد حسين الطالب الذى يتلقى العلم على بعضهم» وكان هو محرك هذه اللجنة وباعث الحياة فيها، وكانوا يحسون انه فوق الند لهم، بما يقترحه من الافكار الجديدة ووسائل العمل المستحدثة.

ولهذه القصة ختام . يستحق ان ينوه به، وان يتأمل القرار فيه فمشروع القرش مضى ناجحا وموفقا، اذ خرجت جموع الطلبة تحمل شارة المشروع فوق صدورها، ومعها دفاتر فى كل دفتر مائة طابع يوزعها على الناس والناس تدفع راضية سعيدة لا قرشا ولا قرشين بل

عشرات القروش، واحيانا الجنيهات وتسابقت فتيات المدارس على توزيع الطوابع فكن اسبق من الشباب وابرع ولعل حداثة الفكرة فكرة ان الطالبة تخرج لتعين الشاب وتوزع على الناس طوابع من أجل الصناعة قد لقيت ارتياحا من الرجال، فاقبلوا على التبرع واجتمع للمشروع فى عامه الأول ١٧ ألف جنيه. كانت بحساب تلك الايام مبلغا غير قليل، وفى العام الثانى، تعثر المشروع بسبب حملة حزبية عليه، اذ خيف من بعض زعماء الاحزاب ان يكون الغرض من هذا المشروع صرف الشباب عن العمل السياسى فهبط المبلغ المجموع الى ١٣ ألف جنية، ولكن اجتمع من المبلغين ٣٠ الفا من الجنيهات.

وكانت الفكرة قد تبلورت خلال تنفيذ المشروع حول مصنع للطرابيش، يقام في مصر، وبهذا المال المجموع، باعتبار أن الطربوش كان شعار المصريين فى تلك الايام حتى كاد يكون رمزا على المصريين وكان مع ذلك يصنع في النمسا، فكان ذلك مما يحز فى نفوس المصريين الا أن الشركة النمساوية التى كانت تصنع الطرابيش للمصريين وعمامتهم، ضايقها أن يستقل المصريون بانتاج شعار رءوسهم فجاء السفير الالمانى ليضغط لحساب النمسا،.واستجابت الحكومة لأول وهلة لهذا الضغط السياسى، فأوعزت لثلاثة من أعضاء اللجنة، ان يتقدموا اليها باقتراح اقامة مشروع للجبن والالبان، بحجة ان مصر الزراعية تشترى بألوف من الجنيهات جبنا مع انها اولى بأن تصنعه في مصر ومن البانها وأن تجدد صناعة الجبن بعد أن أصبحت عالة علي بلاد أخرى كالدانمرك وهولندا وفرنسا وربما المانيا . وأن مشروع القرش لن يكون مصريا بحتا لان اصواف الطرابيش ستستورد من الخارج.

ورفض أحمد حسين أن يغير طبيعية المصنع، فقد وعد المصريين بأنه سيقيم مصنعا للطرابيش، ويجب أن يفى بالوعد، وأن الخسارة الادبية ستكون كبيرة اذا عدل الشباب فى أول مشروعاتهم عن وعد قطعوا لانفسهم ولاى سبب لضغط من حكومة أجنبية.

وإن انسى لا أنسى أحمد حسين واقفا فى حلقة من أساتذة وشيوخ مصر يجادلهم فى هذا الشأن، ويضرب الحجة بالحجة، فى صوت مسموع، يفيض بالحماسة والإصرار، ولكن حججه ذهبت هباء، فالأعضاء الذين تأثروا بضغط الحكومة ولم يغيروا موقفهم، فاضطر أحمد أن يذهب الى رئيس الوزراء وكان وقتذاك اسماعيل صدقى باشا، وكان شديد الاهتمام بالصناعة المصرية، فاستغاث به وقال له: انه لا ينقذ المشروع من الخضوع لضغط اجنبى الا انت وتحركت نصرة الوطنية فى نفس الرجل فأمر بأن يستمر تنفيذ مشروع مصنع الطرابيش فى شارع بالعباسية كان اسمه فألا حسنا اذ كان يحمل اسم «برج الظفر» وعند وضع الحجر الاساسى لهذا المصنع نظم امير الشعراء قصيدة جميلة مطلعها.

نــزع الشــبل من الغــاب الوتــد

وتغطـــى منكـــبـــاه باللـبــــد

ولما تم انشاء المصنع ودارت عجلاته، واحتفل بافتتاحه وضع شوقى قصيدة كانت اخر قصائده، قد حملها كاتب هذه السطور، فكانت آخر ما نظم لبلاده.

بقى أن نسأل السيد وزير التعليم متى يفكر فى بعث هذا المشروع ليخدم الشباب والوطن والصناعة، وليكون وسيلة من وسائل التربية الوطنية ودعوة الى تأييد صناعة البلاد ... متى ؟

شخصيات لا شبيه لها ★

كدت أسمي هذه الشخصيات التى أنا بسبيل الحديث عنها «غريبة» ثم رأيت العدول عن هذا الوصف ، فالغرابة قد توحى بأنها شخصيات شاذة ، والشذوذ كما يكون إلى الخير ، يمكن أن يكون إلى النقص والشر .

والأغلب والأعم من العباقرة والأفذاذ ، شواذ ، لا يتقيدون بعرف ، ولا ينزلون على مقتضى تقليد ، حتى يبلغ بعضهم فى غرابة الاطوار ، حد الجنون ، حتى كاد البعض يحسبون أن العبقرية بعامة هى ضرب من الجنون ، وأصل هذا اللفظ فى العربية ، يؤيد هذا التصور فالعبقرية نسبة إلى واد تصور العرب القدماء أنه واد يسكنه الجن ، والإنس إذا مسهم طائف من الجن ، قد يفجر من اعماقهم قدرات ، يتجاوزون بها ، قدرات البشر الاقوياء الاصحاء ، فيكون منهم افذاذ الشعراء والمصورين والمثالين والخطباء والكتاب . وقد يعين على توقع الغرابة ، ومخالفة المألوف والخروج على تقاليد الناس ، إن اكثر عباقرة المفكرين والمبدعين يخرجون على الناس بما يشبههم فيرفضونه لأول وهلة ويردونه إلى اختلال الفكر ، واضطراب النفس ، وقد كان الانبياء اكثر الناس تعرضا لتهمة الجنون ، وفى الذكر الحكيم مواضع عديدة ، ذكر فيها الرسول

★ هلال - أغسطس ١٩٨٥ .

مقرونا بتلك الآفة فقد جاء فى القرآن «يا أيها الذى نزل عليك الذكر إنك لمجنون» وقد نزه الله تعالى رسوله من هذا العبث الجسيم فقال «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» .

ولو لم يخلق الله من عباده أناسا لهم قدرات خارقة ، وطاقات نادرة، وطموح يفوق طموح عامة الناس ، لبقيت حياتنا على ما كانت عليه ونحن خارجون لتونا من الكهوف ، وربما لبقينا فى الكهوف ، والحق أن ما من شىء جديد فى حياتنا ، إلا قبلناه بفتور على الأقل .. ولكنا فى الاغلب الأعم ، نلقى كل جديد بالرفض العنيف ، والانكار الغاضب ، سواء كان هذا الجديد ، يتعلق بالعقائد والافكار ، أو اساليب الحكم والسياسة ، أو انظمة الادارة والقانون فكل دعاة هذا الجديد والمروجين له يصيبهم نصيب من الكراهية والاعتراض على الجديد الذى يعرضونه فيتهمون غالبا بالغرابة والتطرف ، أو بالشذوذ أو الجنون ، وحينما تقوم الألفة بين الجديد والمجتمع ، تتغير المشاعر نحو المجددين ، فيرضى عنهم المجتمع ، شيئا فشيئاً ، حتى ينقلب الرضا إلى اعجاب ، ثم ينقلب الإعجاب إلى حب ، ثم ينقلب الحب إلى تقديس وقد يصبح خصوم الامس انصار اليوم .

والشخصية التى أريد أن أحدثك عنها ، لم تصدم المجتمع بشىء ، يثير سخطه أو احتجاجه ، بل على النقيض كانت تحسن الصلات بالمجتمع ولكن مع ذلك ، كان الكثير من أعضاء المجتمع ، ينظرون إليها باعتبارها ، خروجا على المألوف .

كان السفير طاهر العمرى ،احد رجال السلك السياسى المصرى أفاء الله عليه الثراء والعلم ، والمكانة الرفيعة . فقد وهبه الله حسا فنيا

جعله متذوقا للموسيقى الكلاسيكية ، وقادرا على شرح اعظم اثارها ، شرح الخبير المتمكن وارجح أنه كان يستطيع العزف على اكثر من آلة من آلات الموسيقى . ولكن يغلب على الظن بأن تذوقه واحساسه بدقائق الاثار الموسيقية الكبرى وقدرته على ابراز هذه الدقائق لغيره من محبى الموسيقى فاق مواهبه كعازف ولذلك اصبح استاذ مدرسة تسمع السيمفونيات الخالدة فى بيته، ثم يبدأ هو بشرح هذه السيمفونيات، فإذا برواد صالونه يسمعون طرازا من الفن ، لا يقل جمالا ولا روعة عن تلك السيمفونيات التى يحفظ حركاتها عن ظهر قلب ، ويعرف الفوارق بين الواحدة والأخرى والمؤلف ، بل يعرف كيف تطور المؤلفون الموسيقيون من مرحلة إلى مرحلة ، وقد استقرت ندوات طاهر العمرى وعرفت ، واصبح للانضمام اليها ، والتتلمذ فيها ، أصول وقواعد وأصبح منشىء هذه الندوة ومعلمها ، رائدا لهذا الطراز من الاتصال بالفن وتلقينه والتأثر به . إلى هنا لا يكون طاهر العمرى شخصا غريبا، فقد كثر الذين يشرحون الاعمال الموسيقية الكبرى ، ويترجمونها إلى مئات أو الاف المتذوقين الذين يريدون أن ينفذوا إلى اعماق هذه الاثار ، ويستزيدون من مكنوناتها وخفاياها ، ولكن الجانب الأول من تميز طاهر العمرى ، عرفته ذات يوم ، حينما أعطانى صورة لى ، فراعنى شدة انطباقها على الاصل ، ولكن أدهشنى حينما قال لى إنه تخصص فى ضرب من رسم الاشخاص أو التصوير ، لا يستعمل فيه سوى المسطرة والبرجل ، أى لا يلجأ فيه إلا إلى الخطوط المستقيمة والدوائر فقط ، ثم ترى نفسك بعد ذلك إلى صور وجوه غاية فى الدقة .

وقد أرانى طاهر العمرى عشرات من الصور لعظماء الرجال والنساء مصريين وعرب وأوربيين ، وأرانى التخطيطات الأولية لهذه

الصور ، فعرفت أن الضرب الذى يعالجه طاهر العمرى لا يشاركه فيه غير رسام سواه ، وعندئذ تجتمع فى مصرى ، هاتان الموهبتان العظيمتان التصوير بأسلوب نادر والموسيقى عزفا وتذوقا وشرحا ، وهذا يكفى لتميز هذا الانسان ، ووضعه فى طائفة الافذاذ .

ولكن لا تزال أشياء فى جبة الغرائب التى ينفرد بها طاهر العمرى ، فقد دعيت إلى معرض لاعمال طاهر العمرى فى التصوير ولما ذهبت لم افاجأ بصوره لوجوه الاشخاص المرسومة بالمسطرة والبرجل وحدهما أى بالخطوط المستقيمة والدوائر ، فقد كنت قد عرفت سرها ، ولكنى فوجئت بأن طاهر العمرى ، يعرض لنا لوحات صغيرة من نوع «المنيافير» أى الصور الصغيرة الدقيقة بألوان جميلة تستوقف نظرك وتحملك على التساؤل ، أنا لم أر الوانا بمثل هذا التألق والبريق والجدة وأعلن لنا طاهر العمرى المواد التى استعملها فى ابداع صوره وإنى أدعوك لتفكر من أى شىء يصنع صوره ، هل صنعها من طباشير الباستيل ، أى من أنابيب المعاجين المعدة للرسامين والمصورين ، أو من الالوان المائية ، أو بالقلم الرصاص مضافا إليه اشياء أخرى والواقع أنه لم يستعمل لا هذا ولا ذاك ولا ذلك ولا اتصور أنه سيكون فى مقدور أى قارىء أن يهتدى إلى المادة التى استعملها طاهر العمرى فى صوره الجميلة الرائعة التى استوقفت رواد المعرض وجعلتهم يطيلون الوقوف امامها ، ويطيلون الوقوف امامها ، ويطلبون التأمل فيها ، ولا يحبون أن يتركوها .

إن المادة التى استعملها طاهر العمرى هى أعشاب البحار . نعم اعشاب البحار . ولكن هذه الأعشاب حينما تقع فى يد الفنان طاهر

العمرى ، فإنها تستحيل اداة للتعبير ، ناطقة وحساسة وتستطيع أن تمتع عين وحس المشاهد المتأمل ، بعالم متوهج من الالوان والاشكال . وقد عبر بتلك الاعشاب عن تأثيرات بإحدى السيمفونيات فكانت الصورة الصغيرة سيمفونية بذاتها . والمتأملون فيها تجاذبهم اكثر من احساس: فقد كانوا مفتونين بجمال ودقة وبراعة الصورة ، وكانوا مأخوذين بغرابة المادة المستعملة ، وكانوا سعداء ومستمتعين بهذه الالوان الجديدة التى نقلتهم إلى عالم لم تطأه من قبل اقدامهم . إلى هنا، وتبدو غرائب طاهر العمرى مقصورة على شخصية ولكنه يتمتع بغرائب تتجاوز إلى صديق له فى مثل تفرده ذلك هو الاستاذ رمسيس شافعى .

ورمسيس شافعى ، هو زميل لطاهر العمرى فى السلك السياسى وقد اشتغل اخيرا فى احدى الوظائف بهذا السلك فى باريس . وهو صديق حميم لطاهر العمرى .. فماذا فعل : واظب على أن يرسل كل يوم من باريس لصديقه فى القاهرة خطابا مكتوبا باللغة الفرنسية بخط جميل يكاد يكون لوحة جميلة . خطوط مستقيمة انيقة ، تنقل إلى أحد الصديقين خواطر ومشاعر واحساسات الاخر، احدهما فى عاصمة عتيقة فى المشرق ، والثانى فى عاصمة فى الغرب ، والخطابات لا تنقطع يوما واحدا كل يوم يكتب الصديق فى باريس خطابا وفى كل يوم يتسلم الصديق فى القاهرة خطابا ، وتتوالى الخطابات وتكثر ، وتكون مجموعة، يمكن لو جمعت لكونت كتابا فى أدب الرسائل ، يمتع القراء ، ويعلمهم ، ويكشف لهم عوالم لم تخطر لهم على بال ، فهى الخواطر التى تصدر عن الكاتب الذى يعرف أن القراء ستطالعها وتعلق عليها وقد تنقد

بعضها أو تنقدها كلها والصديقان يواصلان هذا التراسل النادر الغريب ، دون أن تشغلهما الدنيا التى يعيشان فيها ، ويواصلان هذا الطراز من التواصل الانسانى غير المسبوق والرجلان فى الشيخوخة التى تنضب فيها العواطف ، ويقل النشاط ، وينصرف الانسان عن الدنيا وبما فيها مللا من تعاقب الايام وتشابه الاحداث ، وخلو الحياة .. اخر الامر من المعنى والهدف واعجب ما وصل إلى علمى عن طريق الاستاذ يحيى حقى كاتبنا العظيم أن زوجة طاهر العمرى جاءته تتساءل ماذا افعل بهذه الرسائل وقد قلت له وهو يتهيأ للسفر إلى باريس أعطها لى اهيىء لها مكانا فى أحد معارض وزارة الثقافة .

الباب الثالث :

ثورة ٢٣ / ٧ / ١٩٥٢

المصرى الجديد
فى العهد الجديد ★

المصرى الجديد ، فى العهد الجديد ، هو المصرى القديم . فالمصرى لم يتغير ، والفساد الذى كانت أمواجه تتدافع حول ذلك المصرى ، لم تصل إلى جوهرة ، ولم تعد على فضائله ، ولم تغير نظرته فى الحياة ، ولا نظرته إلى الحياة .

كان كل شىء يتغير حول «المصرى» فى الماضى القريب ، كما تغير من حوله فى الماضى البعيد مرارا ، فكان ينظر إلى ذلك كله ، هازئا به، ساخرا منه ، متمسكا بتقاليده هو ، وبتقديره للخير وللشر ، وللنفع وللضر ، وللباقى من الامور ، والزائل منها . وكان الناس يحسبونه كما مهملا ، أو قدرا ضائعا ، أو صفرا على الشمال . فلم يكن يهتز لهذا الحكم الظالم ، بل كان يبدو عليه ، أنه يقبله ويرتضيه ، ولا يعارضه ولا يطعن فيه .. حتى إذا تهيأت الظروف لينتفض ويثور ويتمرد ، يضرب ضربة واحدة هائلة ، تطيح بكل العمالقة الذين ظنوا أنه مات .. وللأبد .

★ هلال - يناير ١٩٥٣ .

فتركيا التى حكمت مصر ، ثلاثة قرون ، لم تستطع أن تغير حرفا واحدا من لغة هذا المصرى ، حقيقة أخذت منه اقواته ، ووقفت فى وجه تعليمه، وركبته بصنوف الهوان والاذلال ، ولكنها لم تغز قلبه ، ولم تغز ثقافته ، أى عقله .. فلما كانت سنة ١٨٠٥ ، كان السلطان التركى مستسلماً لوهمه القديم ، فاعتقد أنه يستطيع أن يفرض على المصريين من يشاء ، فإذا به يرى حدثا غريبا .. رأى جموعا تتدفق ، إلى المحكمة الشرعية ، ورأى فى هذه الجموع تكتلا ، وتنظيما ، واتحاداً فى الرأى ، وتصميما على العمل ، واستهدافا للخطر .. من الذى نظم هذه الجموع؟ ومن الذى لقنها هذا الهتاف الجديد «ليسقط العثمانلى» ؟ وكيف التقت فجأة ، وافرادها بالأمس كانوا مبعثرين موزعين ، لا قائد لهم ولا موجه.ولكنها مصر ، ولكنه المصرى العجيب !

وأعجب من هذا كله أن هذه الجموع حينما اجتمعت وتلاقت ، وضعت فى الحال مطالب دستورية ، هى أعلى ما تطمح إليه الأمم العريقة فى كفاحها الدستورى .

وقد سبق قبل هذا الموقف الرائع ، موقف يشبهه فى عهد المماليك ، فقد أبى الشعب أن يترك الحاكم على هواه وألزمه بشروط ، يعتبرها المؤرخون أنها وثيقة حقوق الانسان الأولى ، التى سبقت فى التاريخ اعلان حقوق الانسان فى فرنسا ، عقب ثورة ١٧٩٨ .

فالمصرى القديم ليس به بأس ، انما البأس والعيب ، عيب الحاكم القديم هو الذى أرهب المصريين ، وهو الذى افقدهم الثقة فى العمل ، وهو الذى قتل فيهم القدرة على الابتكار والخلق ، والتجديد والمجازفة . فإذا استنشقوا نسيم الحرية الطليق ، انتجوا ، وآمنوا بالنظام ، وعادوا إلى العمل .

ولن يحتاج الهداة والمرشدون إلى كثير من الجهد ، إذا هم طلبوا من المصرى الجديد ، أن يعرف قدر النظافة . فهو يحبها ، لكنها كانت عزيزة المنال ، لأن ثمن النظافة كان يعوزه .

ولو دعوه إلى العدول عن النظام القديم فى الانتاج الزراعى ، وهيئت له أسباب استغلال ارضه استغلالا حديثا ، مستعينا بالآلات التى جادت بها الحضارة ، اقبل على هذا التوجيه اقبالا شديدا ، وفهمه فى الحال ، ونفذه لتوه . وقد لاحظ الكثيرون أن الجندى المصرى عرف دقائق المدافع المضادة للطائرات ، وأحسن استعمالها فى وقت قصير ، مع أن ثقافته النظرية كانت فى اكثر الاحيان دون البدائية ، ولكن عند هذا الجندى رواسب حضارة عظيمة ، انحدرت اليه عن اجداده ، ولا تزال جذوتها تومض بالشرر ...

ولو دعى المصرى إلى التضحية ، وإلى الخدمة العسكرية ، وإلى الخدمات الكثيرة المتعددة التى تقوم على التطوع ، سارع إلى تلبية النداء ، فى غير تردد ، ولا ابطاء . فما كان يثنيه عن هذا التطوع ، إلا ما كان يراه من تهافت القادة والاغنياء ، على جمع الاسلاب ، وحشد المنافع لهم ولذويهم .

وبالجملة ، إن المصرى الجديد ، سيكون صورة جميلة ، للمصرى القديم .. صورة رفع عنها غبار مفاسد العهد الذى انقضى .. صورة وضحت معالمها ، ووضعت فى اطارها اللائق بها ، وفى المكان الخاص بها الذى نحيت عنه ، ظلما وعدوانا .

هل أدت الثورة رسالتها ؟ *

استطيع أن أقول إن الثورة لم تؤد رسالتها المنشودة ، ولم تحقق اهدافها ، لأنها اكبر مما يتصور الناس ، بل أكبر مما يتصور بعض المتصلين بها ولو حققت هذه الثورة اهدافها فى بضعة أشهر ، أو فى عام ، لكانت ثورة تافهة سطحية ، لا قيمة لها . فالثورات ليست انقلابا ماديا ، يغير مظاهر الناس ، أو شكل المدن ، إنما هى تطور باطنى ، يتم على دفعات ، فى بطء ، ثم يصاب بما يدفعه إلى الأمام ، أو بما يدفعه إلى الخلف ، ليعاود بعد ذلك سيره المرسوم له . ولو راجعنا تاريخ الثورات ، لرأينا اكبر احداثها وأعظم وقائعها فى السنوات المتوسطة منها ، ولعل مرد ذلك أن الثورات كالآدميين ، تبلغ سن النضوج ، فى المرحلة الوسطى من العمر ..

وقد يظن البعض أنه يمكن القول إن الثورة حققت أهدافها ، إذا الالقاب ألغيت ، أو إذا الملكية حددت ، أو إذا الأرض المنزوعة من ملك الاغنياء الكبار ، وزعت على المعدمين الصغار .. ولا شك أنها تكون قد حققت الجانب المادى من الثورة . ولكن هذا الجانب ، لا يحقق رسالة الثورة ذاتها .. لأن الالقاب قد تلغى رسميا ، وتبقى مع ذلك متداولة فى السوق السوداء . وقد تختفى من السوقين السوداء والبيضاء ، وتبقى

---

* هلال - يوليه ١٩٥٣ .

مع ذلك الفوارق الزائفة الصورية التى كانت الالقاب تخلقها ، فلا يحس الصغار انهم كبروا ، ولا يحس الكبار أنهم قد تساووا بغيرهم ، ويبقى المجتمع بروحه القديمة ومعاييره الفاسدة . ولأن الملكية قد تحدد ، وقد يعطى بعض الفقراء القدر الذى نزعت ملكيته من الاغنياء ، وتبقى الفوارق الاقتصادية بين الطبقات فسيحة شاسعة ، فلابد إذن أن تسود روح الثورة ، وروح الثورة لا تسود فى مجتمع من المجتمعات ، إلا إذا اصطدمت بالعقبات القائمة فى طريقها ، وهى عقبات انفق الماضى فى صنعها وبنائها وتقويتها وتدعيمها السنين ، والجهد الطويل ، والتجربة المستفادة من تعاون الأجيال ..

فإذا تصور أحد أنى أمدح الثورة ، إذا قلت إنها حققت أهدافها ، فى عام ، فقد أخطأ خطأ بعيدا .

إنما الثورة بذرت بذورا لا يمكن أن تنتج اشجارا عالية ، إلا بعد زمن طويل . وقد بدا اثرها فى افكار الناس وعقولهم ، وفى تقديراتهم للأمور ، ووزنهم للأشخاص . وهذه هى الثورة الحقيقية .

لقد كان محرما على الشعب أن يذكر اسماء بذاتها ، فإن ذكرها تلفت يمينا ويسارا ، وإن جهر بها ائتمر به الحاكمون ، واذاقوه العذاب. من هذه الاسماء الجمهورية مثلا . وكان المصرى يرى الجمهورية فى كل مكان من العالم حتى فى البلاد العربية ، ومع ذلك لا يستطيع أن يفكر فيها ، أو يدعو إليها ، وقد لا تكون الجمهورية نظاما صالحا ، أو نظاما مثاليا ، ولكن التحريم التحكمى المفروض على الشعب ، يورثه من العاهات النفسية والعقلية ، ما يسبب تأخره ، ويفسد عليه مواهبه .

والآن رفعت هذه الحواجز ، واستطاع المصرى أن يمد ذراعيه إلى أقصى الحد ، وأن يبسط رجليه ، إلى أبعد مدى ، وأن يرى كل ما تمتد إليه عيناه ، وأن يسمع كل ما تصادفه أذناه .

وليس ثمة شيء انجع في علاج الأمم ، وتحريك عناصر قوتها ، من الحرية .. إن الحرية لا توحى إلى الشاعر والفنان وحدهما ، بأجمل ما يكتبان أو ينتجان ، بل إنها توحى للعامل وللصانع والزارع ، بل الخادم والاجير ، من الثقة بالنفس ، والفرح بالحياة ، ما يخلق هؤلاء جميعا خلقا جديدا ، فيصنع منهم رجالا أشداء رافعي الرأس ، بعد أن كانوا ادوات صماء بكماء ، تحس أنها تحيا باسم غيرها وتعيش لحساب سواها .

والثورة جعلت الحرية شيئا مقدسا حينما ازاحت عن العرش فاروق، لأنها لم تزحه باسم الجمهورية مثلا ، ولا باسم الوطنية انما ازاحته باسم الدستور ، أي أزاحته لأنه كان يعتدى على الدستور ، ولأنه كان يقتل الاحرار ، ولأنه كان يكمم الافواه ، ولأنه كان يكبل العقول .

ولا يطعن في معنى الرسالة التي اخذتها الثورة على عاتقها ، أن الاحكام العرفية بقيت بعد نجاح الثورة في ٢٦ يولية ، فإن هذه الاحكام البغيضة هي جزء من كل ثورة في بدايتها . ولقد كانت الاحكام العرفية، هي طابع الثورة الفرنسية ، وطابع الثورة الروسية ، حتى ولم لم تعلن بمرسوم أو لم يسن لها قانون . فإن الانفعال والتدافع ، والتربص ، والتطور السريع ، كل هذا يجعل للحكومة في المرحلة الأولى من الثورة ، مهمة أخرى غير مهمتها العادية في الظروف العادية .

ولكن ليس هذا سوى عرض يزول ، فإن الثوار فى فرنسا بعد عام ١٧٨٩ كانوا يقتلون بعضهم بعضا ، وكان ميدان (كروش) ساحة يتسلى فيها الشعب الفرنسى برؤية الرقاب وهى تطير عن الاكتاف ، وابر النساء لا تكف عن الشغل بخيوط الحرير أو الصوف . ولكن هذا الدور انتهى، وأمن الفرنسيون على أرواحهم وأعراضهم ، وزال رويسبيير ودانتون ومارا ، وبقى الشعار المثلث رمز الحرية والاخاء والمساواة ، ثم زالت الجمهورية ، وعادت الملكية ، ثم أصبحت امبراطورية ، ثم عادت جمهورية ، فامبراطورية . ولكن الثورة واصلت سيرها ، وواصل سلاحها شق الأرض الفرنسية ، وتقليبها حتى أصبحت مبادىء الثورة جزءا من بدهيات الحياة الانسانية .

وستفعل ذلك الثورة المصرية .. لقد اقتلعت النظام القديم ، أى اخرجت جذوره من الأرض . إنه قد يبقى على سطح الأرض زمنا آخر ، ولكن صفحته انتهت ، إلى غير رجعة .

فالاسس التى كان يقوم عليها الحكم ، والتى كان يختار عليها الرجال زالت . وهذا هو التغيير الاساسى الذى سيحدد مستقبل مصر ، والذى يمكن معه أن نقول إن الثورة حققت أهدافها .

والفلاح ، سواء أخذ من الاراضى التى نزعت من ملك الاغنياء أم اخطأه الحظ ، فقد أصبح مخلوقا آخر . هو لم يكتشف بعد هذا المخلوق الجديد ، ولكن تحديد الملكية فى ذاته ، له من النتائج النفسية والروحية ما لا يتسع له كتاب .

ولقد استتبع هذا كله ، الرغبة فى مراجعة التاريخ الحديث لمصر .

وهذه الرغبة فى ذاتها ، مظهر من مظاهر الثقافة الروحية للمصريين . فقد كتب لهم تاريخهم بأقلام ارادت أن تنزع من هذه الامة ثقتها بنفسها وأن تقطع صلتها بماضيها ، وأن تفسد علاقتها بجيرانها . وليس أخطر على الأمم من سوء فهمها لتاريخها ، لأنه المكان الطبيعى لفلسفتها فى الحياة . ولقد ابرزت الثورة ابطال الشعب الذين دافعوا عنه ، ووقفوا فى وجه الطغيان الداخلى وفى وجه الاحتلال الاجنبى ولابد أن هذه الأسماء ستبعث غيرها حتى تكمل للتاريخ المصرى صورة كاملة فى ذهن الشعب . فالثورة، إذن ماضية ، ولا يمكن أن تهزم ، ولكنها ككل ثورة ، لا يمكن أن تحقق الاهداف القريبة والبعيدة ، والمادية والروحية فى سنة ، إلا إذا كانت كحركة التنقلات التى يجريها الوزير الجديد فى وزارته .

وثورتنا فى ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٢ أعظم من هذا قدرا وأبعد منه اثرا .

هزيمة ٥ يونيو وملحقاتها ★

لقد سررت أيما سرور بالرد أو التعليق على مقال الأستاذ الفاضل الدكتور فؤاد زكريا حول التفاسير المختلفة لهزيمة ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ . ذلك لأنى لبثت أحقابا استمع الكلام حول هذه الهزيمة ، وكان لكل كلام أسلوب ومنهج وكان لكل كلام غايته وهدفه ، وكان لكل كلام حافز ودافع والحق أننى أول الأمر ساءنى هذا الكم الهائل من التعليق والتفسير ، على واقعة - فى رأيى - واضحة الحدود بينة المعالم - وإن جاءت ثمرة أكوام من الأحداث القريبة غاية القرب ، والبعيدة أقصى البعد ، فقد بدا أن هذا الفيض المتدفق من الكلام حول هزيمة ٥ من يونيو ، ليست الغاية منه الرغبة فى تقصى الحقائق المتصلة بهذا الحدث الضخم ، والغوص إلى أعماق عناصره ، والتوق إلى كشف كل أسراره ، بفرط من الحب لمصر ، ولشدة الألم للهزيمة ، وإنما الباعث الحقيقى لكل ما قيل وكتب ، هو تجاوز الهزيمة وأسبابها ونتائجها إلى شئ آخر يقض مضجع أكثر المشاركين فيما يبدو أنه بحث ودراسة . وتعليق وتفسير . تلك هى ثورة سنة ١٩٥٢ ، فهى عند الكثيرين غول كاسر ، ذو أنياب وأظلاف ، وأنه التهم الكثير مما كانوا يعتزون به ، ويحرصون عليه ، وأنه سيأكل أشياء أخرى عزيزة وغالية ، مالم يحيطوا به ، ويضيقوا عليه ، ويتهمونه بكل المقالب ، وينسبون إليه كل المصائب .

★ هلال - سبتمبر ١٩٨٦ .

فالأحزاب القديمة التى كانت تنظر إلى المستقبل القريب نظرة الطمأنينة والتفاؤل ، على اختلاف اسمائها ، هى فى الواقع بالنسبة لثورة ٢٣ يوليو حزب واحد ، وهى كذلك بالنسبة للاحتلال البريطانى ، وهى نفس الشئ لتاريخ مصر السياسي وإن كان بعضها قد استأثر بأغلبية انتخابية ضخمة ، وإن كانت الأحزاب الأخرى قد اطمأنت إلى قلتها ورحبت بها ، لأنها كانت توفر لها من المزايا والمنافع ، والسلطة والنفوذ ، مثلما وفرت الأغلبية لحزب الأغلبية ، وربما أكثر مما وفرت لهذا الحزب ، فالأغلبية فى بلاد الأحزاب والانتخابات السليمة ، توفر لحزب الأغلبية مدة في الحكم أطول ، وقدرة على التغيير أعظم ، وتأثيرا على الأفكار والميول أكبر ، فى حين أن أحزاب الأقلية فى مصر ، تعمر فى الحكم أطول من حزب الأغلبية وهى أثيرة عند أصحاب السلطة الحقيقية فى البلاد ونعنى الانجليز والملك أكثر من حزب الأكثرية ، وفى نهاية الأمر ما من حدث أكبر يقع فى البلاد إلا وتدعى أحزاب الأقلية لتساهم فى معالجة هذا الحدث وإبداء الرأى فيه على قدم المساواة مع ممثلى حزب الكثرة ، ففى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مثلا دعى زعماء الأقلية مع زعيم الأغلبية ، وكان لهم صوت مسموع ورأى معلن مثل ما كان لزعيم حزب الكثرة هذه . كذلك دعى زعماء أحزاب الأقلية ليساهموا فى تشكيل لجنة المفاوضات حتى ممثل حزب الاتحاد الذى كان قد انقضى على انقضاض أعضائه وغلق داره وجريدته وفشله المستمر فى أن يكون له نائب واحد ، حتى ليذكرنا اليوم ، حزب الأمة فى القاهرة بحزب الاتحاد الذى وسد التراب عقب ولادته بقليل .

ولذلك فثورة سنة ١٩٥٢ كريهة جدا إلى قلوب زعماء الأحزاب التى سدت ثورة ٢٣ يوليـو أبواب رزقـها ، كما سدت طريق حياتها ، فلم يعد لها وجود ، ولا أمل فى المستقبل حتى بعد أن أجهضت هذه الثورة على يد أنور السادات . وقد جرى على نهج الكراهية أبناء زعماء هذه الثورة وأحفادهم وأصهارهم وتابعوهم من خدم وحشم وكتاب وموظفين فى الحكومة والشركات فقد كانوا يكسبون الكثير من اتصالهم بتلك الأحزاب سواء كانت فى الحكم أو كانت خارجه . إذا احترم اتباع تلك الأحزاب جميعا معاهدة غير مكتوبة ولا موثقة موادها لتخدم بعضها بعضا عند اتباع الأحزاب ، ونحن فى الحكم أو أنتم فيه فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . فان وصلتمونا ونحن خارج الحكم ، وصلناكم ونحن فيه ، وقد قال الناس جميعا آمين ، وهناك مجموعة أخرى من خصوم الثورة الأوفياء . وهى تضم كل من أصابه ضر سواء بأخذ أرضه الزراعية ، بوضعه تحت الحراسة ، أو بإيداعه فى معتقل ، أو فى تقديمه لمحاكمة . أو بحصول شئ من هذا ، لأحد ابنائه أو زواج بناته ، أو عائلة كان يكسب منها ، وبعض الناس كان يتصور أنه يتمتع بسلطة أو مال أو جاه ، وضيعته الثورة فراح يشكو ادعاء للوجاهة المستجلبة ، حتى صدق نفسه ، فأصبح خصما لدودا للثورة وأعرف رجلا فقيرا لم تأخذ منه الثورة ، ولا سهما من قيراط من فدان، كان دائم الشكوى من الإصلاح الزراعى الذى أضر بالبلاد . والذى لم يقرره ضباط الثورة لاصلاح ولا لحب الفقراء وإنما خلقا لفرصة السلب والنهب ، وقد سلبوا بالفعل ونهبوا حتى كانوا يتقيئون الفلوس تقيؤا هكذا كانوا يقولون .

أما الطبقة المتوسطة من الأطباء والمحامين والمحاسبين والمدرسين والصحفيين ، فقد كرهوا الثورة لعلل كثيرة بعضهم رأى أن الثورة قد فتحت الأبواب لأمثالهم فجعلت بعضهم وزراء وآخرين سفراء وفريقا ثالثا من رؤساء مجالس الإدارات وفريقا رابعا كانوا ضباطا فأصبحوا أصحاب سلطة ونفوذ لمجرد كونهم ضباطا سابقين .

وبقى هؤلاء المدنيون فى أماكنهم أو تحسنت أحوالهم قليلا ، ولكن ليس بالقدر الذى يعتقدون أنهم يستحقون مع أنهم أذكى وأقدر وأعلم ممن سطع نجمهم وعلا صيتهم وربما يكون غضبهم قد أثير لبعض أمور ، رأوا أن الثورة أخطأت فيها ، فأصبح لديهم ما يقولونه حبا فى المصلحة العامة ، حرصا على خير البلاد . والواقع أن كراهيتهم للثورة سبقت كشف هذه الأخطاء .

وهناك فريق أخير يكاد يكون من المرضى فهو محافظ لغير مصلحة شخصية هو محافظ بالمولد والطبيعة ، فهو حزين لأن الملك فاروق عزل ، حزين لأن باشوات زمان كانوا مخلوقين وزراء وكانت ملابسهم وربطات أعناقهم تؤكد أن الوزارة رسمت لهم . فى حين أن هلافيت هذه الأيام الذين يصلون إلى الوزارة والسفارة ، تنقصهم الوجاهة ، ويعيبهم قلة الوزن ، وصغر الكرش وضمور الوجوه أو امتلاؤها ولكن . بغير المقاييس التى ترضى عنها هذه الجماعات التى تحب كل قديم وهم لا يتذكرون علم مصر الأخضر حتى يبكوا ولم يروا صورة فريق ذى شوارب مثل عثمان باشا المهدى حتى ينتخبوا هؤلاء لم يكفوا عن التحدث عن الثورة إلا باعتبارها لعب عيال وأن (عبدالناصر وزملاءه) لا فى العير ولا فى النفير ولكن الخطأ خطأ فاروق لأنه بعد

أن عرف الضباط الأحرار وكان يعرفهم جيدا - لم يشنقهم فى ميدان العتبة الخضراء ويريح البلاد مما فعلوا ومما سيفعلون والعياذ بالله العظيم .

هؤلاء جميعا سرتهم - فى الواقع - هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وإن كانوا قد اهتبلوها أى انتهزوها ، ليلطموا الخدود ، ويشقوا الجيوب لأنها فرصة لا يضيعها عاقل ، ليؤكد بطريقة علمية ، أن هزيمة مصر فى ذلك اليوم أمر راجع لأشياء خطيرة ورهيبة يجب أن نضع اليد عليها ، حتى لا تتكرر الهزيمة من جهة ، ولكيلا يقوم نظام شبيه بالنظام الذى قاد مصر والعرب إلى هذه الهزيمة المنكرة ، ولكيلا تقوم ثورة مشابهة لهذه الثورة التعسة التى ألحقت بنا هذا العار الذى سيبقى عالقا بشرفنا حتى يوم القيامة .

وكل هذه الردود ، هى ردود فعل إنسانية ، ليس فيها شئ غريب ، فهزيمة ٥ من يونيو لم تكن هزيمة عادية من أى جانب . فهى من ناحية الحجم والضخامة ، كانت هزيمة منكرة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد تمت فى وقت قصير عالميا ، فالتاريخ الحديث والقديم لم يشهد حربا جارفة وصاعقة وخاطفة كهذه الهزيمة ، وإن كانت الهزائم الفرنسية أمام الجيش الألمانى الهتلرى ، كانت بهذا المقدار من الفداحة وربما أكثر لو أدخلنا فى حسابنا ماضى الجيش الفرنسى القريب فى الانتصارات وحسن استعداده وتمتعه بالقواد العظام الذين أبلوا بلاء حسنا فى مواقع ذات حديث بعيد وأثر عظيم .

وقد كانت أيضا هزيمة بالغة الفداحة لأنها جاءت حلقة من سلسلة من الأحداث شاركت فيها مصر الثورة ومصر الدولة حتى أصبح كل ما

يصدر في مصر خطير . وقد كانت الحركة العربية نحو الوحدة قد تقدمت تقدما عظيما على إثر تأميم قناة السويس ، ثم حرب السويس التي شاركت فيها بريطانيا العظمى، ثم فرنسا ، وأخيرا اسرائيل ، والتي كانت الحرب الدولية الأولى التي حسمت نتائجها الأمم المتحدة لأول مرة . وقد جاء في أعقاب هذه الحرب التي انتهت تماما في ديسمبر سنة ١٩٥٦ أي بعد جلاء جميع الدول المشاركة في الحرب عن الأرض التي احتلت . وسقوط الحكم الهاشمي في العراق ، وقد كان لهذا السقوط دوى هائل لما للعراق من أهمية عسكرية وسياسية لقربها الشديد من حدود الاتحاد السوفييتي ولايران ولتركيا ولسوريا ، وكل هذه الأقاليم حساسة إلى أقصى حدود الحساسية عربيا ودوليا ، وكانت مصر كبيرة جدا في خيال الكثيرين بعد انتصاراتها في الفترة منذ هزيمة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وانسحابهم من الأرض المصرية التي احتلت ، وبقاء قناة السويس في يد مصر ، بعد محاولة أكبر دولتين أوروبيتين سحب القناة من أيدينا . حتى الذين يسلحون مصر والذين لا يسلحونها كانوا يتصورون أن مصر إذا حاربت حتي ولو كتبت عليها الهزيمة آخر الأمر ، فستحارب جيدا وستصيب الأعداء اصابات قاتلة وستثبت في مواقعها ، وستحسن استعمال الأسلحة التي حصلت عليها ، وسيبدو أن جيشها اكتسب مرانا بفضل التدريب الطويل الشاق والمعونة السوفييتية التي منحت مصر خير مالديها من سلاح وتدريب ، ولذلك كانت الهزيمة مفاجأة كبيرة للجميع .

ولو نوقشت الهزيمة في حدودها الحقيقية السياسية والعسكرية ، لما كان هناك شئ يدعو إلى الشكوى . فهي هزيمة ولم يكن في

مقدور أحد أن ينكر كونها كذلك ، وقد تضاءلت عقب حدوثها إلى الحدود الدنيا إذ لم يترتب عليها شئ مما كان يمكن أن يبنى عليها فالنظام التى تمت الهزيمة فى عهده ، لم يسقط ولم يشرع أحد فى الانقضاض عليه ، والنظام الذى كان يحكم فى مصر لم يغير شيئا لا فى أسلوب ولا فى منهج ولا فى الخصائص الكبرى التى عرف بها . وهو أمر غريب جدا فى حياة الأمم ، ففى أكثر الأحوال ، إن لم يكن فيها جميعا أن النظام القائم المهزوم خصوصا إذا كان تقصيره فى الحرب كبيرا ، لابد أن يسقط .

ولست أعتبر ما قاله المتدينون من أن هزيمة سنة ٦٧ ، كانت بسبب ضعف عقيدتنا فى الدين ، وبعدنا عن طريق الله ، بالشئ الغريب ولا هو بالقول المغرق فى الخطأ . ذلك لأن المتدين . إذا كان صادقا فهو يؤمن بطبيعة الحال أن ضعف الإيمان بالله يؤدى إلى بوار الأمم ، وخسرانها لأنهم يؤمنون بأن الله قال إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وهو غير مخطئين لأن عقيدة المحاربين هى رأس مالهم الروحى ، أيا ما كانت هذه العقيدة ، فان الاعتقاد فى مبدأ ما ، حينما يكون هذا الاعتقاد خاليا من المصلحة الشخصية ولم يكن مجرد تظاهر يمنح المعتقدين قوة تعينهم على تحمل متاعب الحرب ، وتثبت أمام شدائد القتال وتحميهم من السقوط فى وهدة اليأس ، حينما تنزل بهم المصاعب، أو تحل الهزائم فليس الإيمان بنصر الله ، مجرد كلام غيبى ، بل هو حقيقة علمية ، أكدتها جميع الحروب فكلما كان المقاتل مؤمنا بالهدف الذى يقاتل فى سبيله ، كان نصيبه من النصر أكبر وثباته عند الشدة أوضح اعتقادا .

أما القول بأن هزيمتنا سنة ٦٧ مردها إلى الاشتراكية ، فهو فى الواقع الصيغة الثانية للتعبير عن الاعتقاد بأننا هزمنا لأننا تركنا الاعتقاد فى الله ، باعتبار أن الاشتراكية هى قرب من الإلحاد ، والبعد عن الله ، عند الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا واضحا عن المذاهب الحديثة سواء كانت من مذاهب اليمين الفاشية والنازية والبراجماتية والوجودية أو كانت من مذاهب اليسار كالاشتراكية والشيوعية والوجودية اليسارية ، والواقع أن القول بأننا هزمنا لأننا اخترنا طريق الاشتراكية هو غير مستقيم ، بل لأن ايماننا بالاشتراكية لم يكن كاملا ، والإيمان الذى تحتاج إليه الأمم فى نضالها من أجل مستقبل أفضل ، وأسلوب حكيم أصلح ومنهج حياة أقوم ، لابد أن يكون ايمانا عميقا عامرا يستأثر بكل خلجة من خلجات النفس ، وبكل نبضة من نبضات القلب ، ويكون هذا الإيمان عقيدة الأغنياء والفقراء ومتوسطى الحال ، وعقيدة الجهلاء والمتعلمين ، كل فئة أو طائفة أو جماعة بأسلوبها لكنهم جميعا يتساوون فى التسليم بصحة المذهب ، وبأنه وسيلة العلاج ، ودواء الأدواء ، وسبيل الإصلاح . أما إذا كان قد شاب ايماننا شك فنحن خاسرون ، إلا أن يكون ايماننا بالقتال ، قام على عقيدة وطنية ، وضعت جانبا جميع المذاهب والعقائد واعتقد أن الوطن فى خطر ، وأن واجب كل مواطن الدفاع عن هذا الوطن ، والاستشهاد فى سبيله وبذل الغالى والرخيص من أجله ، فهذه عقيدة مؤثرة ، تنطوى على حافز قوى ، لو أحسن القادة اثارته أولا ، ثم الانتفاع به ثانيا .

فنحن لسنا عجبا بين الأمم ، حينما يعتقد فريق منا بأن الاشتراكية هى التى هزمتنا ، فقد قيل شبيه بهذا الكلام فى كل دول أوربا المتمدينة

السائرة على طريق العلم وحقائق الوجود الثابتة ، فحينما كانت النازية والفاشية وأشباههما سائدة في العالم ، يستميلون الكثير من الناس ومن الأحزاب ومن القادة ، كان الكفر بالديمقراطية هو شعار تلك الأيام، فلما قامت الحرب ، وتهاوت دول الغرب ، في أيام معدودة أمام جحافل النازية واشتد قتالها الساحق الذى كان يحصد الشعوب والجيوش في ساعات لا أيام كان الكثيرون يعتبرون هذا دليلا على فشل الديمقراطية في جانب ، والشيوعي في جانب آخر ، ولما جاءت الولايات المتحدة لنجدة أوربا في وجه النازية الألمانية وحدها ، وأجلت جيوش أوربا وأمريكا مجتمعة ، يوم النزول على شاطئ نورماندى في أقصى غرب أوربا ، كان ذلك تأكيدا لفشل الديمقراطية ، وخوائها الروحي ، وفساد الأسس التي قامت عليها ؛ فلما رجحت كفة الديمقراطيات في السنتين ٤٤ و١٩٤٥ ، عاد الإيمان بالديمقراطية ونسخت مذاهب النازية والفاشية أي مذاهب الشمولية .

أما رد الهزيمة إلى التآمر الخارجي على مصر ، فليس إلا الحقيقة التي لا يجوز الخلاف حولها مع تغيير بسيط في الصياغة ، فالهجوم الخارجي على مصر متمثلا في إسرائيل المؤيدة بالولايات المتحدة ، هو السبب المباشر للهزيمة بلا شبهة ولاشك بدون حاجة إلى اضافة لفظى التآمر الخارجي فالتآمر يوحي بأن هناك عملا كان يدبر له في الخفاء ، وأنه استمر يعمل داخل صفوفنا ، وفي صفوف قواتنا المسلحة في حين أن الهجوم على مصر بوصفها قائدة للشعوب العربية ، وداعية إلى الوحدة العربية ، كان حقيقة واقعة ومعلنة ، فالقتال بين مصر ودول الشعوب الغربية لم ينقطع منذ بداية القرون الثلاثة الأخيرة ، قبيل الغزو

الأوروبى للجزائر سنة ١٧٣٠ ثم سائر الشعوب العربية فى الفترة التالية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . والغرب منذ بداية القرن الحادى عشر ، التى اندلعت فى مفتتحه (أى مفتتح هذا القرن) ، قلبه يتلهب بطمع مشتعل في أن يضع يده على الشرق العربى الذى يضم مصر وسوريا وفلسطين والذى يتوسط العالم العربى الممتد من الخليج إلى المحيط ، والذى يضم من الثروات المادية المكشوفة والمخبوءة ، ومن الذخائر الروحية دينية وأدبية وفلسفية مالا نهاية له ، ولا مثيل له فى أية بقعة أخرى من الأرض إلى جانب الموقع الفريد الذى يمسك بيديه أطراف الشرق وأطراف الغرب ، ويترامى أثره عند ملايين من البشر متنوعى الأجناس والألوان واللغات ، فإذا أصررنا على استعمال عبارة (المؤامرة الخارجية) فلابد أن نعرف أن هذه المؤامرة ترجع إلى قرون ، وقد أخذت صورا وأشكالا متباينة ، واستغلت فرصا بعضها من صنع المتآمرين أنفسهم ، وبعضها من صنع أهل المنطقة . عن تعمد أو عن غباء ، وسوء تقدير أو كسل طرأت عليهم بحكم توالى السنين والقرون والحروب والمناوشات ، من هؤلاء الأعداء الذين يطير النوم من عيونهم ، حينما يتصورون أن المنطقة العربية قادرة على أن تجتمع وينسق عمل أهليها ، وتتوق إلى استعادة المجد ، وبعث الماضى ، حقا وصدقا فان الغرب يعلم أن هذه المنطقة هى منطقة سيادة وزعامة وقوة وسلطة . ومن ثم فان بث الوهن فى قاطنى أراضيها ونسخ عقولهم ، وفصل صلاتهم بثقافاتهم وأصول حضارتهم ، هو شغل زعماء الغرب .

وقد مرت على مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، حلقات من هذه المؤامرة كانت الحلقة الأولى مناصرة نظام محمد على ثم

القضاء عليه ، وفرض معاهدة سنة ١٨٤٠ على مصر وعزل الخديو اسماعيل في يوليو ١٨٧٩ ، ثم هزيمة عرابي سنة ١٨٨٢ ، ثم محاولة غزو مصر وإعادة الاحتلال البريطاني بعد فترة قصيرة من الجلاء الناقص في يونيو ١٩٥٦ فأمريكا ، كانت قد عقدت العزم - بعد أن أفلتت مصر من الهزيمة الكاملة بعد تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ ، على أن نظام عبدالناصر وقف تماما في وجه ما يوحى به هذا النظام بخيره وشره وقوته وضعفه من طموح ضخم للعرب ، وتمرد عظيم ضد الغرب واطماعه الاستعمارية والحجة موجودة ، والوسيلة موجودة أيضا ، وكلا الحجة والذريعة يتجسدان في إسرائيل ، ولذلك كان من الطبيعي - مهما فعل نظام عبدالناصر - أن تحدث الغزوة أو الهجمة على مصر في ٥ من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وأن تكون نهايتها هزيمة مصر العسكرية واكتساح منطقة سيناء واحتلالها ، فالحقد الذى تضمره الدوائر الاستعمارية وتعلنه ، والفرق الهائل بين قوة مصر العسكرية والاقتصادية وبين القوة الاستعمارية المتمثلة لا في الولايات المتحدة وحدها بل في أوربا كلها والمسيحية الاستعمارية التي تريد أن تطوق الإسلام لا لحساب مبادئ السيد المسيح . ولا إيمانا بها ، بل لحساب المصالح التجارية والأهداف السياسية ، ولا ينقص من هذه الحقيقة أن فيتنام صمدت أمام أمريكا مع أنها دولة فقيرة وأقل شأنا من مصر من كل جانب ، ذلك لأن طبيعة الأرض في فيتنام وهي أرض مستنقعات وأحراش وغابات ومناطق شبه جدبة غير أرض مصر المنبسطة الخالية من الجبال والتلال والهضاب . وشدة تقشف الشعب الفيتنامي بتأثير العقيدة الدينية ، وظروف الحياة الخالية من أسباب

الترف والميل إلى الراحة ، والعجز عن مواصلة الحرمان ، هذا كله مضاف إلى الظروف المتغيرة فى كل حرب وصراع بين دول بعينها ففرنسا النابليونية التى اكتسحت النمسا وبروسيا وروسيا ، هى فرنسا التى هزمت على يد بسمارك فى حرب السبعين أى فى سنة ١٨٧٠ والتى هزمت مرة أخرى فى سنة ١٩١٤ أمام جيوش غليوم الثانى وغلبت ثالثا أمام جحافل هتلر .

ولكن لاشك فى أن نتائج الحرب - أى حرب - يمكن أن تتغير بفضل قدرة كل من الطرفين على المناورة ، والاستعانة بالحلفاء ، وتغيير السياسة المتبعة دوليا أو داخليا فمحمد على ومن قبله على بك الكبير استطاعا أن ينشئا مصر العظمى ، وأن يمتد سلطانهما على الشام واليمن وأوربا في مرحلة ، ثم هزما فى مرحلة تالية ، والقيادة هى القيادة والاقليم هو الاقليم وأنا أعتقد أن نتائج حرب سنة ١٩٦٧ كان يمكن أن تتغير أو تخف وطأتها على الأقل لو اتبعت مصر سياسة أخرى مع الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية ، ولكن فى جميع الأحوال كانت اطماع الغرب فى انزال الهزيمة بمصر ، وبنظام عبدالناصر قرارا نهائيا عند الولايات المتحدة وإسرائيل ، والهزيمة - على قوتها - ليست كل شئ فيها - بمعنى أن أسباب الهزيمة يمكن أن تكون أوجع من وقوع الهزيمة ، وهنا نعنى بأسباب الهزيمة ما يترتب عنه لأحداث الهزيمة بهذا النطاق وبذلك العمق ، والواقع أنه لم يعد هناك شخص يريد أن يخفف منها ، أو يدعى أسبابا واقعية أو غيبية عن الأسباب الحقيقية . وقد قيل كل شئ تقريبا ، ومن صاحب اختصاص لا ينافس ولا يبارى ذلك هو الفريق أول محمد فوزى فى كتبه حرب الثلاث

سنوات، فقد رسم صورة مبكية ومضحكة ، لهذه الهزيمة والغريب فى الأمر أن الذى رسم هذه الصورة القاتمة المخزية ، هو القائد العام للجيش الذى يلحق به أولا وقبل أى إنسان آخر كل حرف كتب فى هذا الكتاب .

ولا شك أن أثر هذا الذي كتب وذكر ، يخف كثيرا بعد حرب سنة ١٩٧٣ فقد عوض الجيش المصرى والشعب المصرى والقيادة السياسية كل ما لحق بنا ويشرفنا ويقدرنا كأمة مقاتلة ، فى حرب ٦٧ ، وانتصار سنة ٧٣ وإن ضاعت قيمة هذا النصر الباهر والضخم بالتواطؤ السياسى الصريح ولكن هذا التواطؤ الذى حال بيننا وبين الوصول إلى الممرات والمضايق ، والوقوف قبلها والسكوت على الثغرة ثم ما تم بعد ذلك من فض الاشتباك الأول ، ثم التجهيز لرحلة القدس .

إن العظة التى يجب أن نستخرجها من الهزيمة ، يتحمل النظام وزرها ، ولكنها ليست من صنعه وحده ، فهى تراث أجيال متعاقبة .

إن الذى ألحق بنا الهزيمة المنكرة ، هو عجز (إدارى) توارثناه ، وهو يزداد تأصلا بعد كل بضع سنوات ، وأكاد أقول كل بضع ساعات، فنحن لا نعرف كيف ننظم احتفالا أو مهرجانا ، ويبدأ هذا العجز بأول خطوة إدارية نقوم بها . وهى تحرير بطاقات الدعوة وتحديد الموعد وتوزيع البطاقات على المدعويين . الخطأ فى كتابة صيغة الدعوة على الآلة الكاتبة . فأى بضعة سطور تكتب على هذه الآلة ، تمتلئ بالأخطاء. وفى آخر مؤتمر حضرته منذ أسابيع ، لم أجد مكانى فى القاعة .

وإذا كان موشى دايان حينما قال إنه على المصريين أولا أن ينظموا صعودهم إلى السيارة العامة ونزولهم منها قبل أن يفكروا فى إنزال

الهزيمة بإسرائيل ، فإن هذه الكلمة القصيرة تعـنى فى الواقع كل ما نريد أن نقـوله عن العجز الإدارى الذى قامت الدلائل منذ الفراعنة على نقيضه فى قرون عقب قرون كان تحديد التفاصيل والجزئيات ، وضـمها بعضـها إلى بعض فى خطة . والصبر على التدريب وموالاته ، واجراء التجارب الجدية المظهرية ، والتمسك بما رسم من خطط ، وما صدر من أوامر ، كما لا يـجوز أن تتغير الخطـة إلا بناء على ضرورة حقيقية تقتضيها ، ولا يعدل عن أمر إلا إذا حل محل أمر آخر أكثر صلاحية .

هذه هى التربية الوطنية في الميادين المدنية والمجالات العسكرية على السواء . وهى التى تنقصنا على السواء وإلى الآن ، بلا أى شعور فى المدرسة أو البيت أو النقابة أو الحزب ، لضرورة هـذه التربية والمبادرة بها ، ووضعها فى رأس الأولويات ، والتشبث بها لسنوات عديدة حتى تصبح طبعا وخلقا ودينا ، قد كنت أكرر أن حديثى رسول الله اللذين يقول أولهما : إذا قلت لجارك أنصت والإمام يخطب ، فقد لغوت ولا أجر لك والذى يقول الثانى : إن الله لا يحب أن ينظر إلى الصف الأعوج هما خلاصـة لحضارة وجوهر الثقافة وأساس التمدين والتنظيم والحرب والسلام .

فمجرد النطق بلفظ فى وقت يراد فيه الانصات الكامل ، هو ترويض وضبط للنفس ، وتعليم لآداب الحرب والسـلام ، وفى قاعات الموسيقى السيمفونية ، يمتنع على النظارة أن يسعلوا ، مجرد سعال . وهـم لذلك يحسنون تحمل آلام وويلات الحرب .

وكون الله لا يـحب النظر إلى صف أعوج كلام خطير جدا فالله العظيم الذى خلق الكون بل الأكوان قد لا نتصور أنه يشغل بالصف

الأعوج ولكن الصف الأعوج ، بلاء نعانى منه فى الطريق ، وفى السفر ، وفى المتجر وفى كل خطوة ، ويصبح آفة تلاحقنا فى كل موقع حتى نهزم كهزيمة ٥ من يونيو ، فيكون محلا للسخرية فى العالم كله .

صحيح أن ثورة ٢٣ يوليو ربما لم تفطن لهذا التوجيه ، فورثت مصر لا تطيق النظام ولا تسير عليه ، ولكنه ليس خطأها وحدها فانه خطأ خلفته سنوات الانحلال والتفكك والتردى - والدليل على ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ لم تسقط عبدالناصر عن مكانه العالى ، ولم تزحزح ثورة ٢٣ يوليو لا فى العالم ولا فى الوطن العربى .

أربع ثورات فى ثورة ثورة عمر مكرم فثورة عرابى ثم ثورة سنة ١٩١٩ ... وأخيرا ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ *

هى أربع ثورات، فى حكم التاريخ الرسمى، وهى أربع ثورات، لأن الزمن الذى يفصل الواحدة منها عن التالية يتسع حينا، حتى يكاد يبلغ القرن، ويضيق حينا اخر فيكون ثلث قرن تماما أو ثلث قرن وبضع سنين

ولكن قليلا من التأمل والتدقيق، يكشف أنها ثورة واحدة، اختلفت ازمانها، وتباينت مظاهرها، وتنوعت مقدماتها ونتائجها، وتغيرت أسماء زعمائها وأبطالها، ولكنها بقيت واحدة فى جوهرها هى أولا وأخيرا ثورة شعب واحد، فى فترة لايعدها التاريخ بأى معيار من معاييره طويلة، فقد بدأت والقرن التاسع عشر، يفتح عينيه، ويستقبل النور متكاسلا، وانتهت فى تمام منتصف القرن العشرين، فهى فى مجموعها قرن ونصف قرن، تمضى فى حساب الأمم، كلمح البصر، خصوصا، إذا كان الشعب الذى

---

* هلال - سبتمبر ١٩٧١.

خاض غمارها، وأثار غبارها، واحتمل أكلافها، ورفع أعلامها، هو أقدم الشعوب طرا، امتدت حضارته، فى اتصال واتساق، وتجدد إلى اليوم، من سنة ٤٧٧٧ قبل أن تلد العذراء البتول، طفلها عيسى المسيح، وهذه السنة يقول عنها المؤرخون العلماء من أهل الغرب، إنها بدء سنى عصر الأسرات الأولى، قبل أن تبدأ الدولة القديمة حكمها الباهر، على أرض النيل العجيب.

على أن الأمر الذى يقضى حتما، بأن تكون هذه الثورات، محاولة واحدة ذات وجوه متعددة، أن مصر خلال فترة الثورات الأربع احتفظت بكل خصائصها الاجتماعية والاقتصادية، على الرغم من المشروعات الكثيرة التى نفذت، والمصانع التى أقيمت وانتجت، والمدارس والمعاهد والكليات والمعامل، التى أخرجت الملايين وراء الملايين من التلاميذ والتلميذات، ودور الطباعة والصحافة، التى أخرجت تلالا بل جبالا من الصحف والمجلات والكتب والمؤلفات.

فإن مصر، بعد عصور طويلة من الظلام الكثيف، والظلم المروع، خرجت أمة زراعية وقد بقى إنتاجها الزراعى، عصب اقتصادها القومى.. وبقى انتاجها الزراعى معتمدا على محصول رئيسى واحد ويقيت الزراعة فيها بدائية، تعتمد على الثور والمحراث، وتلعب دودة القطن، ومكافحتها باليد حينا وبالمبيدات الحديثة حينا آخر، دورا رئيسيا فى نشاط الفلاح، الذى احتفظت قريته كوحدة إدارية واجتماعية وروحية، بمكانتها فى البناء الإدارى والاجتماعى للدولة. وفى هذه الوحدة، تعايش الأمية، أجهزة الحضارة الحديثة، من (راديو) و(ترانزستور)، ويعانى الفلاح من قلة الدخل ومن الأمراض المتوطنة،

وفى مقدمتها البلهارسيا والانكلستوما.

وإذا كان الكفاح ضد هذه الآفات المادية والاجتماعية لا يكون بطبيعته إلا طويلا وشاقا، ومضنيا، لأن السبيل إلى النجاح فيه، هو تغير شامل فى الفكرة والوسيلة، وفى المنهج وفى الأداء، فإن الغريب فى حياة مصر، خلال فترة الثورات الأربع، أن أعداءها السياسيين كانوا، هم هم لايتغيرون، الانجليز، والفرنسيون، والصهاينة وأصحاب رؤوس الأموال، وفى العالم، والعائلة المالكة، المنحدرة من الأصل التركى، والمتحدة مع الدولة العثمانية حينا والمخاصمة لها حينا آخر.. تتغير أوضاع ومواقف هؤلاء الأعداء فيما بينهم، يتحالفون، ويتعادون، ولكن موقفهم من مصر فى جوهره واحد وثابت، الطمع فى الاستئثار بها، والرغبة فى استغلال مواردها، والخوف من أن تستقل، أو أن تلعب دور الزعيم فى المنطقة، أو أن تتحد مع سواها من أهل المشرق العربى، سواء فى الشمال أو الجنوب، فى اليمين أو اليسار.

لذا كانت للثورات الأربع، وبصفة خاصة الثلاث الأولى منها، خصائص تجمعها، ولذلك فالأصح أن نتحدث عن هذه الثلاث الأولى، معا، ثم نختم الحديث بفصل عن الثورة الأخيرة باعتبارها ختام تلك الثورات وتتويجها وباعتبار الأولى تحضيرا وتمهيدا وتجميعا، أسلمت حصيلته، للأخيرة، تبنى عليه وتستمد منه وتضيف إليه، وتطوره، وتخرجه فى صورته الكبرى.

من المتفق عليه، أن مواقف الغضب، تبرز خصائص الفرد الكامنة، وتجسمها، كما تبرزها وتجسمها، حالات الخوف والقلق، وبالجملة، حالات الانفعال الشديد، التى تتراضى معها الضوابط الكبحية، التى

يمارسها العقل الواعى للإنسان، ويسلطها على دوافعه الغريزية، والثورات فى حياة الأمم، هى قمة الانفعال، لجماعة من الجماعات، ومن ثم فالتأمل فى مسلك الأمة الثائرة، سبيل مضمون النتائج لتبين صفات هذه الأمة الكبرى، التى لاتبين وتتضح، فى الحياة اليومية لأفراد هذه الأمة، فى ذهابهم وغدوهم الرتيب.

وثورات شعب مصر، ولاسيما الحديثة منها، تعلن فى غير خفاء، أن المصريين هم في الأغلب الأعم، شعب يؤثر الاعتدال، ويكره التطرف، وبالتالى، ينفر من العنف، فى القول والفعل، ويستهويه الرفق فيما يأخذ وفيما يدع، ولكنه ـ ككل حليم ـ إذا غضب ينفجر غضبه، وكأنه بلا سبب واضح، أو بغير مقدمات تمهد له، وتؤدى إليه، ولا سبب لهذا، إلا أنه يحسن ضبط نفسه، ويطيل الصبر على الأمور، حتى يرى هذه الأمور قد تجاوزت كل حد، وأن الذى صبر عليهم، أطمعهم فيه، هذا الصبر.

وهذا الشعب، على حبه لكل ما هو لطيف، ومعتدل، حريص على استبقاء الأساس من مناهج حياته، وأفكاره، فهو أقرب إلى المحافظة، بحكم كونه شعبا قديما وأصيلا من ناحية، وزراعيا متدينا من ناحية أخرى، إلا أن هذه الخصائص فيه، لاتجعله عدوا للتطور، أو كارها للجديد، فتاريخه القديم، أهله لأن يدرك أن كل شىء يتغير، وأن الفناء والتجدد سنة الحياة، والزراعة ذاتها، وإن كانت تؤصل فى الفلاح، حب الاستقرار، وتؤكد فيه الإيمان بالثبات، إلا أنها تريه، فى كل يوم، صور التطور فى الطبيعة، فهو يلقى البذرة، لتفنى فى التربة، وليخرج منها شىء جديد، يختلف عنها فى الصورة والحجم واللون.. وما يخرج منها،

يتغير بدوره، وينتقل من دور إلى دور، ومن حالة إلى حالة، ولقد شهدت مصر، أكبر التطورات الإنسانية ثورية، من مثل كشف الأفكار الأساسية فى الفلك والرياضة والهندسة الزراعية، وفكرة الآلة والبعث، والصراع الدائم والمتطور بين الخير والشر، والقوة والضعف وبالتالى بين مصر، وأعدائها، وبين وحدة الوطن وتفتته، ومن هنا جمع شعب مصر، صفات تبدو كالنقائض، فبقدر محافظته، تبدو ثوريته، ففوز المرأة فى مصر، تم بأيسر وأسرع، مما تم في أى بلد عربى آخر، وقبل كثير من بلاد الشرق القريب والبعيد.

أما تدين المصريين فهو كذلك عامل من عوامل المحافظة، ولكنه فى الوقت نفسه، عامل من عوامل الثورة، فالإسلام، منذ البداية، دين ثورة عملية على مجتمع قديم، كاره للتطور، متصلب وجامد، وقصة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وآيات القرآن الكريم نفسه، مليئة بالتنديد بمن يرفضون الجديد، ويكرهون التغيير، ويتمسكون بما آمن به الآباء والأجداد، وفى الإسلام دعوة ملحة، وعالية ، ومتجددة، على مر عصوره وحقبه إلى محاسبة الحاكم، والأخذ على يده إن ظلم، وعزله إن لم ينصلح، ويقبل النصيحة، وينزل على رأى الشعب أو الجماعة، وقد ترددت أصداء هذه المباديء القوية فى جميع ثورات الشعب المصرى الأخيرة، من ثورة عمر مكرم إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، بل إن بعض هذه المبادىء، قيلت بالألفاظ نفسها، وفى المواقف نفسها، كأن الذين قالوها فى مطالع القرن التاسع عشر هم الذين قالوها فى مطالع القرن العشرين، أو كأن الذين قيلت لهم، على سبيل النصح والتأديب، والإخافة بالتهديد، لم يلفظوا أنفاسهم، ولم يفقدوا سلطانهم.

وأخيرا، يبدو هذا الشعب المسالم، المتدين، الرقيق، اللطيف،

الصبور، زاهدا فى الحكم عاجزا عن الحرب، مشفقا من أهوال الصراع، أو أن الثقة بالنفس تعوزه، والاعتماد على الغير، يريحه ويخرجه من «ورطات» السياسة، ومتاعب الحكم.

والواقع أن المصريين حيل بينهم وبين ميادين القتال، أجيالا، لأن الذين حكموهم، خافوا من أن يتسلحوا أو يتدربوا على صنعة الحرب، ثم أرهبوا هذا الشعب، بألوان من المظالم جعلت المصرى بعامة، والفلاح بخاصة، لايدرى أيبقى فى داره، حتى طلوع النهار، أم سيساق إلى حيث لايدرى، فإن عاد، إلى بيته، لم يعد وهو مطمئن إلى أن شرا لم يصب زوجته أو عياله، أو القليل من متاع الدنيا، الذى يعتمد عليه فى تحصيل رزقه، ورد عادية الموت عن نفسه.

وشعب مشغول بلقمة العيش وحدها، والمخاوف تطارده، فى الليل والنهار، لا يعاب عليه إن هو بدا كأنما قد فقد خصائصه العسكرية التى أعلنت عن نفسها قرونا طويلة، ولا يعاب عليه إن انصرف ذهنه عن الحكم، ولم يزاحم فى سبيل الظفر به، ولكن الذى يذكر له، أنه بعد هذه السنين المتطاولة من الظلم والعسف والفقر والحرمان، بقيت له سليقته السياسية التى ورثها عن أجداده وعن دينه وعن بيئة سليمة، فهو لم يستسلم للظلم، ولم يرتضه، ولم يعجب بظالم، ولم يفقد إيمانه بالعدل، وبأن مصير الطغاة، هو أسوأ مصير.

بقيت أشعاره، ومواويله، وقصصه و(حواديته)، وأمثاله ونوادره، وفكاهاته ومداعباته، تدور حول انتصار العدل والسخرية بالظالم، بل إن الأمثال التى تروى عن الفلاح، وكأنها تبرر الإذعان للظالم فى واقع الأمر، لاتصدر عن الفلاح، إلا تعبيرا عن رفضه للإذعان وسخريته بالمذعنين، فالمثل الذى يقول مثلا: «اللى يجوز أمى، أقوله ياعمى»

أو المثل القائل «إن رأيت الناس بتعبد عجل، حش وارمى له» أو «إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه»، لاتروى إلا من قبيل الحسرة على ما وصلت إليه حال الناس، لا إقرارا لهذه الحال، ولا تبريرا لها، أو دعوة لقبولها، ولكن سوء ظننا بأنفسنا فى العهود الأخيرة، جعلنا نبحث عن كل ما يثبت التهمة ضد الفلاح المصرى، بل وضد الشعب المصرى كله، والفلاح والشعب كلاهما برىء من التهمة.

بقى أن نعرف كيف انعكست هذه الخصائص النفسية والروحية لشعبنا فى ثوراته الأخيرة التى شهدها القرن التاسع عشر ثم القرن العشرون ومن السهل أن نتبين فى هذه الثورات ـ خصوصا الثلاث الأولى:

١ - انطلاق شرارة الثورة أصلا من الشعب، فى تلقائية تدهش أعداء الشعب، وتهزهم بعنف، وتفسد عليهم خططهم، وتنقض لهم من الأساس ما كانوا قد كونوه من أحكام عن هذا الشعب، انخداعا بظاهر ضعفه، وبطول صبره، وبكرهه للقتال، وبعده عن المقاومة، وقبوله للوضع القائم.. واحترامه للنظام السائد.

٢ ـ خروج القائد للثورة، من باطن النظام الذى قادت الثورة، لتقويضه أو على الأقل تغييره، وبقاء الصلة بين القائد والنظام القديم، ومرور فترات للمصالحة بينهما.

٣ ـ تجسد الثورة، فى شخص قائدها، وتحول القائد إلى ما يشبه البطل الأسطورى، وحدوث شىء من الفاعلية بين الثورة وقائدها، يزداد بفضلها القائد، شجاعة، وإدراكا، ويبدو أنه زاد طولا، وزاد علما، وزاد صلابة وحنكة، وفهما لدوره، وتعرفا على أساليب الثورة، وعلى أساليب الخصوم، وعلى مزايا الشعب.

٤ ـ عدم التحضير للثورة، باعتبارها، انفجارا حضرت له الأحداث السابقة عليها، وحتمته تطورات الأمور فى المجتمع المصرى، ونشوء قوات جديدة في هذا المجتمع، وانحسار قوات قديمة وتقليدية فيه.

٥ ـ خلو الثورة عند انفجارها، من عنصر (المذهبية)، فهى تبدأ بلا برنامج معد، فلا يعدو هدفها تحقيق الحرية بمعناها العام، أو القضاء على المفاسد والمظالم، ولكن الثورة لاتلبث حتى ترى ضرورة هذا البرنامج، فيتكون خلال تطورات الثورة، وأدوارها.

يقول الأستاذ فريد أبوحديد فى كتابه عن عمر مكرم:

«وكان أول ظهور السيد عمر فى ميدان السياسة فى عام ١٢٠٥ للهجرة سنة ١٧٩١م وذلك بعد رجوع القائد التركى حسين باشا الجزائرلى إلى بلاده مع جيشه الذى أتى به لتأديب إبراهيم ومراد، فإن حزب الأمراء الذى كان يحكم البلاد تحت جناح القائد التركى المنتصر لم يستطع المحافظة على السلطة بعد خروج حاميه الذى كان يعززه بقوة جيشه، وانتهز مراد وإبراهيم هذه الفرصة، فأرسلا من قبلهما رسولا يفاوض الحكومة القائمة فى أن يعودا إلى القاهرة ويشتركا فى الحكم، وكان رسولهما هو السيد عمر مكرم وكان قد اتصل بالأميرين فى مدة وجودهما فى الصعيد فاختاراه ليؤدى عنهما تلك الرسالة لما توسما فيه من القدرة والنفوذ، فأقام فى القاهرة يومين تمكن فيهما من تمهيد السبيل لعودة صديقيه إلى الحكم، كما أنه اتصل فى أثناء هذه المدة القصيرة بكثير من المشايخ والأمراء، وكان مسعاه فى هذا السبيل من أكبر ما سهل رجوع الحكم إلى مراد وإبراهيم.

فها أنت ذا، ترى أن السيد عمر مكرم، كان صديقا للنظام القديم ورسولا، وعونا له فى الملمات، ولم يكن ثمة سبيل لمصرى صعيدى فى

دولة الحكم فيها والسيادة والزعامة، حكر للأمراء الشراكسة، ولمندوبى السلطان العثمانى، أن يضع قدمه فى حلبة السياسة، وأن يشارك فى الجهد العام، إلا عن هذا الطريق، الذى يبدو كريها وذميما، إذ العبرة بما أفضت إليه وانتهت به هذه المقدمة، وسنرى أن السيد عمر بعد أن استمر سنين صديقا لهذه الدولة، ولسانا من ألسنتها، سيخلع عن نفسه ثوب السفير، وسيلبس ثوب الزعيم، شيئا فشيئا، وأن مهادنته لها، ومصادقته إياها، سيتحولان يوما بعد يوم إلى مخاصمة فمخاصمة فتمرد فحرب.

وجاءت الدعوة - حسبما بينا فيما سبق من سطور - من الشعب، ولم تأت من الزعيم، جاءت الدعوة للعمل من الشعب، فلم يصم الزعيم أذنيه عنها، ولاء للدولة التى خدمها، بل انضم إلى الشعب، ولبي دعوته، فإن مراد وإبراهيم، استمرا على منهجهما الظالم، من العسف بالشعب، والفتك بأرواح ابنائه، والسطو على أرزاقه، وتعطيل مرافق حياته، فلما رأى السيد عمر مكرم أن رجال الدولة لم يحققوا الأمل فيهم ولم يحسنوا القيام بالغرض الواجب عليهم، نادى الشعب أن يهب لحماية نفسه بما استطاع وأخذ يدعوه ويحرضه ويحمسه لعله يستغنى بنفسه عن الدفاع».

ولكن هذه الفكرة لم تأت من عمر مكرم، أصلا، إنما جاءت من الشعب فى الفترة التى لم يكن فيها عمر، قد خرج من عزلته بعد، فى الفترة التى كان فيها صديقا للنظام القائم، ففى سنة ١٧٩٥ اشتدت وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس فى تحصيل الأموال فالتجأ الفلاحون إلي الشيخ الشرقاوى ليحميهم وكان الشيخ قد أصابه ضرر من

تحصيل تلك الأموال، فبدأ الشيخ بمخاطبة إبراهيم ومراد، فلما لم يجد لسعاه أثرا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا إلى الثورة فوجد النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثير من أهل القاهرة ومن ضواحيها وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف، والناس مصرون على أن يقف الحكام عند حد العدل والحق، ورأى الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لاقبل لهم به، يقول الجبرتي: «نزل الباشا إلى بيت إبراهيم، واجتمع الأمراء هنا، فأرسلوا إلي المشايخ فحضر الشيخ السادات، والسيد النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير.. وانتهى الاجتماع إلى تحرير وثيقة، تعد أول وثيقة دستورية فى حياة مصر.. إذ تعهد الأمراء بأن يتبعوا العدل وأن يسيروا فى الناس سيرة حسنة وألا يمدوا أيديهم إلى أموال الشعب، وكان القاضى حاضرا بالمجلس فوثق هذه الحجة (وفرمن) عليها الباشا أى جعلها (فرمانا) أى مرسوما سلطانيا وختم عليها إبراهيم وأرسلها إلى مراد فختم عليها أيضا».

ولكن عمر مكرم لم يشارك فى هذه الأحداث، ويقول الأستاذ فريد أبوحديد فى هذا المعنى «ثار أهل مصر فى مدة هذين الطاغيتين (مراد وإبراهيم) كما سبق لنا وصفه، ولكن لا نجده يتصدى فى أثناء تلك الثورات المتلاحقة لقيادة العامة، بل بقى بمعزل عن حركاتهم لانكاد نسمع اسمه فى قيادتهم».

ولكنه مع ذلك زعيم أصيل، بيد أن زعامة مصر فى تلك الأيام لم يكن ممكنا أن تصدر عن نفس فرد مهما عظمت، فقد حطم النظام القديم، هذه الروح فى الناس، فأصبحت الزعامة لجموع الشعب

الغاضبة والرافضة للظلم، فإن وجد من بين هذه الجموع، إنسان مؤهل للزعامة، التقى مع هذه الجموع، وتسلم منها الزمام، وقادها ولم تخفه مخاطر المعركة، وقد حدث هذا مع عمر مكرم، فقد رأى أن الشعب يتململ تحت حكم مراد وإبراهيم، وأن الظلم جاوز كل حد، ورأى أن الشعب فى مرة سابقة استطاع أن يفرض حكمه، وأن ينتزع من الطغاة، وثيقة حريته، فانتفع بهذه السابقة، ودعا الناس إلى الجهاد، ثم مدته سليقة الزعامة فيه، فأخذ علما، كان يعرفه الناس «بالبيرق النبوى» ونزل من القلعة إلى بولاق والناس تحف به، ألوف مؤلفة، ولم يجدوا ما يتسلحون به سوى النبابيت والعكاكيز والمدى وقد راحوا يرفعون عقائرهم بالصياح والهتاف، وانضمت إليهم فرق الصوفية، وفرق الموسيقى البلدية، وعلا من كل ذلك ضجيج مختلط غير منتظم، ولكنه يخيف الظلمة، ويؤنس الشعب الأعزل وبدل أن تقع الواقعة بين الشعب بزعامة عمر مكرم من جهة، ومراد وإبراهيم من جهة أخرى، جاءت جيوش فرنسا من الغرب بقيادة ضابط فرنسى شاب، عرفته فيما بعد، ميادين القتال، فلم تكف عن ترديد اسمه حتى اليوم «نابليون بونابرت».

وجرت الوقائع على ما نعرف، وهزم الأمراء المماليك، وتفوقوا، وخرج الزعماء المصريون من القاهرة حتى دخلها الفرنسيون، فأمنوا زعماء البلاد، فعادوا إليها، ولكن عمر مكرم أبت عليه وطنيته وزعامته معا أن يدخل إلى بلده، ليحتمى بحكم غاصب غاز، وقد التجأ السيد عمر إلى الشام، وأقام فى يافا، حتى وصلت جيوش نابليون إليها، فأعادته إلى بلاده قسرا، وعلى الرغم من أن السلطة الفرنسية نجحت فى عقد مصالحة مع زعماء مصر جميعا، إلا أن السيد عمر اعتصم

بعزلته، طوال الحكم الفرنسي، منتظرا فرصة يجاهد فيها ضد هؤلاء الغزاة.

وقد أتيحت له هذه الفرصة حينما قامت ثورة القاهرة في مارس سنة ١٨٠٠، تلك الثورة المجيدة التي استمرت سبعة وثلاثين يوما متصلة، ولسنا نستطيع أن نروى وقائع كل تلك الثورة، وحسبنا أن نذكر أن بونابرت، حينما أدرك أن مستقبل الحملة الفرنسية التي قادها، قد أغلق بالفشل المحتم، اتفق كليبر خليفة بونابرت مع الأتراك على أن يجلو عن مصر، ولكن الانجليز حلفاء الأتراك، أبوا أن ينفذوا هذا الاتفاق، ليقضوا على البقية الباقية من فلول هذه الحملة التي عصف بها الطاعون، والرمد، ومعارك الصعيد مع الأمراء، وحروب الشام، وكان المصريون يعتقدون أن الفرنسيين قد أعدوا عدتهم للرحيل فلما سمعوا أنهم باقون، اجتمعت جموعهم في القاهرة، وقرروا أن يحولوا بين الفرنسيين، وبين أن يستقر لهم الحال في مدينتهم، واتجهوا إلى زعمائهم، وفي مقدمتهم عمر مكرم فلبى الدعوة وكان روح المقاومة، فأقام المصريون المتاريس، وعينوا عليها الحرس اللازم، وأنشأوا معملا للبارود، وجاءوا له بالصناع، وتبرعوا بما لديهم من حلل نحاسية وأوان، لتصهر وتصب آلات حرب من مدافع وذخائر، وعمر مكرم ينتقل من موقع إلى موقع، يشد العزائم، ويدعو إلى الجهاد، وينظم ويؤلف القلوب، ويوزع الأعمال، ويعقد مؤتمرات الحرب، وهكذا، فلما ضاق الحال بالفرنسيين أرسلوا رسلهم ليتفاوضوا مع زعماء مصر، ليعقدوا معهم صلحا، ولبى الدعوة إلى المفاوضة الشرقاوي والمهدي والفيومي والسرسي، فلما عاد هؤلاء من المفاوضة، وأبلغوا المصريين بما تم فيها،

ووجد المصريون أنها لم تتضمن جلاء الفرنسيين عن البلاد، أهانوا زعماءهم، ورموا عمائمهم إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام».

ولذلك اضطر الفرنسيون إلى تشديد الحملة على القاهرة، وأعانهم على القاهريين هبوب عاطفة ممطرة، وحلت الطرق، وصعبت الدفاع على المصريين وسلاحهم قليل، وعدتهم ضعيفة، ونجح الفرنسيون في الدخول إلى القاهرة، وخرج الزعماء من القاهرة ومعهم عمر مكرم ولكن لم يكن ممكنا أن يبقى الفرنسيون فيها طويلا، فقد بقوا ريثما استطاعوا أن يعقدوا مع العثمانيين والانجليز معاهدة جلوا على أثرها في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٠١، وعاد الجيش العثماني إلى مصر، ومعه عمر مكرم، فكانت عودته إلى بلاده نصرا للمصريين، فقد أصبح زعيم البلاد غير مدافع، ثم بدأت جولة جديدة من جولات جهاده، فقد بدأ صراع مدمر، وخال من كل اعتبار للشرف بين الأمراء المماليك، ومندوبي السلطان، وانجلترا، عندما أخلت فرنسا الميدان فبقى عمر مكرم بعيدا عن هذا الصراع إذ لم يجد فيه مصلحة لمصر، حتى استطاع محمد على أن يتغلب على خصومه، وأن يبدو أصلح الواقفين على المسرح السياسي، وأكفأهم، وأشدهم اعتمادا على زعماء الشعب، فتولى عمر مكرم قيادة الشعب، في معركته الباهرة ضد خورشيد باشا الوالي التركي، وفي فرض الحصار العسكري على هذا الوالي في القلعة، حتى إذا كان ١٣ مايو سنة ١٨٠٥، عين الشعب محمد على واليا على مصر، وألبسه عمر مكرم والشيخ الشرقاوي حلة الملك، فكان أول وال في تاريخ مصر الحديث يوليه الشعب، قبل أن يوليه السلطان، ولما اشتد الحصار على (خورشيد) في القلعة، أرسل مندوبه إلى زعماء مصر، يقول لهم إنه

مولى من السلطان، وأنه لا يعزل من الفلاحين فرد عليه عمر مكرم قولته الخالدة، «إن الشريعة تجيز للرعية عزل الوالى، إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم».

ولما تولى محمد على الملك، كان شديد الرعاية لمكانة عمر مكرم، لا يناديه إلا بالوالد العزيز، ويستمع له، ويعمل برأيه، حتى استتب الأمر له، فبدأ يرى ألا حق للشعب فى مشاركته فى الحكم، مع أنه يوم أن ولى أريكة الحكم، قبل هذا الحكم من عمر مكرم بشروط المصريين، وتعهد بأن يسير فى الحكم سيرة العدل، فلما أحس عمر مكرم تحولا من محمد على انفض عنه، واعتزل مجلسه، ولم يعد يتردد عليه، وحاول محمد على أن يسترضيه كما استرضى سواه من العلماء، فرفض هذا التودد، حتى إذا شكا الناس من ضرائب محمد على الجديدة، جهر عمر مكرم بمعارضته لصديقه الحاكم الجديد، وجمع الزعماء وأعد وثيقة احتجاج ضمنها ما كان يأخذه الناس على (محمد على) فى حكمه، وأحس محمد على بأن رياح المعارضة موشكة أن تهب، وأنها تنذر بشر مستطير، حاول أن يلين أمام المعارضين، حتى استمال الزعماء الآخرين دون عمر مكرم الذى أبى أن يفاوض أو أن يتساهل، ولما تخلى الزعيمان الشرقاوى والسادات وغيرهما عن عمر مكرم واستطاع محمد على أن ينفيه إلى دمياط سنين إذ أخرجه من القاهرة فى ١٣ من أغسطس سنة ١٨٠٩، فلما كانت ساعة الرحيل، خرج المصريون ألوفا لوداعه، ولم يعد إليها إلا فى ٩ من يناير سنة ١٨١٩، ولكن حدثت قلاقل فى مصر، جعلت المصريين يلتفتون لزعيمهم القديم فنفاه محمد على فى ١٠ ابريل سنة ١٨٢٢ ثم أذن له بالحج وبالعودة إلي القاهرة بعد الحج، فبقى فى عزلة لا يلقى أحدا إلا خاصة أصدقائه، إلي أن توفاه الله.

ولى زعماء الشعب محمد على، على مصر، فكان ذلك كسبا لا ينكر، إذ إن هذه الواقعة أثبتت أن الشعب إرادة، وأن هذه الإرادة تنفذ وأنها تعلو على مكائد الأمراء المماليك، وعلى سلطة السلطان صاحب الولاية الشرعية على البلاد، وعلى دسائس الدول الأجنبية، وعلى الرغم من كل عيوب حكم محمد على، فإنه لم يكن فى وسع أحد من منافسيه سواء كان البرديسى أو الألفى، أن يحقق لمصر ما حققه لها، من إقامة دولة، ومن إنشاء جيشها وبناء أسطولها، وتحقيق فكرة الحكومة العصرية، غير الشخصية التى لم يكن الأمراء المماليك يفهمون غيرها، والتى لم تكن تركيا تريد أن تقوم على أرض مصر حكومة إلا إذا كانت على غرارها.

ولكن محمد على الذى أنشأ جيش مصر العظيم، من أبناء الفلاحين، الذين أثبتوا أنهم أصلح وأثبت في ميادين القتال من الألبان والأتراك والديلم وكل الأجناس التى ألفت حرب العصابات فى مصر.. محمد على هذا لم يكن يثق فى المصريين ضباطا لجيشه ولا قادة، فقد خاف على سلطته منهم، وأحس بغريزته أن وصول الجندى المصرى إلى مرتبة القيادة، معناه انقضاء عهد الحكم الأجنبى المتمصر المتمثل فى شخصه. ومن هنا حال دون أبناء الفلاحين ومراكز القيادة ويقى الحال هكذا، حتى جاء أحد أبناء محمد على نفسه، وهو محمد سعيد وكان قد اختلف مع الباب العالى (تركيا) وأحس أنه لا سند له فى خصومته مع السلطان ومن حوله، إلا الشعب المصرى، فقرر أن يصطنع لنفسه سياسة مصرية.

ويقول أحمد عرابى في مذكراته: «إن (سعيدا) دعا عددا من رجال الدولة ووقف يخطب فيهم، فقال: أيها الاخوان إنى نظرت فى أحوال هذا

الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض، فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة.. وحيث إنى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب، وقد وطدت نفسى على إبراز هذا الرأى من الفكر إلى العمل».

ويقول عرابى إنه حينما فرغ من هذه الخطبة خرج الأمراء والعظماء من الأتراك والشراكسة، حانقين مما سمعوا، وخرج المصريون، فرحين بما قال الخديو وقد نفذ (سعيد) سياسته، فأمر بتجنيد أولاد العمد والمشايخ فى الجيش وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية، وقد جند عرابى ضمن من جند من هؤلاء، ثم أخذ يترقى بناء على سياسة سعيد الجديدة فى السلك العسكرى فعين ملازما من تحت السلاح سنة ١٨٥٨ وهو بعد فى السابعة عشرة حتى وصل إلى رتبة البكباشى سنة ١٨٦٠ فرتبة القائمقام سنة ١٨٦١ ثم حظي برضا (سعيد) نفسه، فعينه مرافقا له (ياورا) ثم صحبه فى رحلته إلى الحجاز، ووقع ظلم على (عرابى) فى عهد الخديو إسماعيل وقد رفع عنه هذا الظلم بفضل شفاعة مرضعة الأمير الهامى شقيق زوجة الخديو.. فأنت ترى أن «عرابى» لم يكن بعيدا عن النظام الذى ثار عليه كما لم يكن عمر مكرم بعيدا عن النظام الذى حاربه ولكن لم يلبث الزعيمان أن تبينا فساد هذا النظام وإجحافه بحقوق الشعب، فوقفا منه موقف الخصومة، ولكن لم يبدأ أى من الزعيمين الحملة على هذا النظام إذا جاءت فكرة الثورة من الشعب نفسه ففى عهد إسماعيل بدأت بذور الثورة تلقى، أدرك الخديو إسماعيل أن الانجليز والفرنسيين والمرابين الأجانب، قد عقدوا العزم على خلعه

عن عرشه، وانهم يجدون من الباب العالى ترحيبا وتشجيعا لأسباب كثيرة كان من أهمها دسائس الأمير حليم الذى كان الوارث الطبيعى لعرش مصر، لولا أن الخديو إسماعيل غير قانون الوراثة فى سنة ١٨٦٦ فجعل وراثة العرش فى أكبر أولاده بعد أن كانت حقا لأكبر الذكور فى العائلة العلوية، لذلك عمل الخديو إسماعيل على إنشاء رأى عام مصرى، يؤيده ويحارب النفوذ الأجنبى وبفضل هذه الروح، تسربت أفكار ثورية إلى الجيش بلغت من قوتها أن قاد البكباشى لطيف سليم مظاهرة عسكرية فى أخريات عهد الخديو إسماعيل وانتهت هذه المظاهرة بالاعتداء على نور باشا الأرمنى الذى كان يرأس الوزارة فى عهد إسماعيل، كما ضربت البريطانى ريفرز ولسن الذى كان وزيرا للمالية فى وزارة نوبار... هذه المظاهرة التى وقعت فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ هى بداية الثورة العرابية، لأنها بداية اشتغال الجيش المصرى بالسياسة، وبداية سقوط هيبة الحكومة ممثلة فى رئيس وزرائها وأحد وزرائها.

لقد بدأت الثورة العرابية، فى الصحافة التى كثرت جرائدها، وكثرت أقلامها، فاشتدت بفضلها، الحملة على التدخل الأجنبى، وعلى تضخم الفوائد الربوية التى عقدها إسماعيل مع البنوك والمرابين الأجانب، ولما فتح باب النقد، لم ينج الخديو إسماعيل نفسه من لاذع النقد، ولا يبعد أن يكون الاستعماريون أنفسهم ولا سيما الانجليز منهم وراء هذه الحملات، فهذا أسلوب الاستعمار المفضل: العمل على التهييج ولو ضد نفسه فى فترات القلق لتتفاقم الأحداث، ولتشتد حرارة العواطف، فيقال كل شىء، ويضطرب كل أمر.

وقد تكون الحزب الوطني في هذه الآونة، أي في نوفمبر سنة ١٨٧٩، وتقدم بمطالب خاصة بالديون وفوائدها وضماناتها، وبدأ الضباط يترددون على منزل سلطان باشا الذي كانت تعقد فيه الاجتماعات، وإذا كان السبب المباشر الذي فجر غضب عرابي وإخوانه هو قانون ٢١ يوليو سنة ١٨٨٠ الذي وضع وزير الحربية الشركسي عثمان رفقي، والذي كان يؤدي إلى منع ترقي الجنود المصريين إلى رتبة الضابط، فإن الاصطدام كان حتما لا مفر منه حتى ولو لم يصدر هذا القانون، فالحكومة التي أقامها محمد علي بمعاونة الشعب وزعمائه، وفي مقدمتهم عمر مكرم، كانت قد أفلست ولم يعد عندها ما تقدمه، وكان لابد من سقوطها، ولو كانت الحركة الوطنية استمرت منذ عهد مكرم لكانت هي الوارث الطبيعي لهذه الحكومة ولكن هذه الحركة أوقفت قسرا، بضغط الحكومة واستئثارها العام بالسلطة وإقصاء أبناء مصر عنها، وإذا كان بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الضباط حينما تقدموا إلى وزارة رياض باشا، بعريضة، ضمنوها مطالبهم، وأن هذه المطالب اقتصرت على أمور تخصهم، تتصل بالترقية في الجيش، فإن هذا ليس مطعنا في الحركة العرابية فهذا هو المدخل الطبيعي لجميع الثورات، القليل منها يؤدي إلى الكثير والكبير يؤدي إلى ما هو أكبر منه وهكذا، وفي بداية الثورات تندمج المطالب الخاصة في المطالب العامة، ذلك لأن الحاكم المستبد، يحس بأن إجابة أي مطلب، للقوة الجديدة الناشئة التي جرى على إهمالها وازدرائها هو بدء انهياره هو، ولو أجابت وزارة رياض الضباط الى طلباتهم العسكرية البحتة، وعزلت رفقي وزير الحربية الشركسي، لكان معنى هذا أن الثورة بدأت فقط - ولكان من

المستحيل بعد ذلك أن تقف، إذ إن استمرار ترقى الضباط المصريين إلى المراتب العليا في الجيش معناه أن الجيش المصرى سيؤول أمره إلى الضباط المصريين فى سنين قليلة، وإذا أحست دوائر الحكومة، وأحس الشعب معها أن الجيش الذى كانت تحكمه العناصر الأجنبية تركية وشركسية وانجليزية وفرنسية وأمريكية، أصبح منطقة نفوذ مصرية، فإن الجميع سيتجهون إلى كبار ضباط الجيش المصرى، وسيتحرون رغباتهم، وسينفذون توجيهاتهم، فتسقط حكومة الخديو، من غير أن تطلق طلقة نار واحدة ولقد أدرك الخديو إسماعيل وحكومته كل هذا بغريزة الحاكم المستبد، فقد وقف ترقية عرابى بعد أن وصل عرابى إلى رتبة القائمقام، لأنه فهم أن مصر كلها قد بلغت بهذه الترقية رتبة (القائمقام)، وهى رتبة أقرب ما تكون من مراتب الرياسة الكبرى، لذلك لم يكن وقف ترقية عرابى عند هذا الحد اضطهادا شخصيا من الخديو لعرابى، وإنما كان قرارا سياسيا الغاية منه أن تقف مصر كلها بعيدا عن مناصب الحكم وعن مواطن السياسة الكبرى.

وإذا كانت الحرب قد وقعت بعد ذلك بين مصر وبريطانيا، بعد أن تولى الضباط الوزارة برياسة (البارودى)، فى حين كان عرابى وزيرا للحربية، فنحن نخطىء إذ نتصور أن سبب هذه الحرب أن الدستور المصرى الصادر فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١، قد منح مجلس النواب حق مناقشة الميزانية وأن الانجليز والفرنسيين أشفقوا من ذلك لأن تدخل النواب فى وضع الميزانية يمكن أن يؤدى إلى المساس بضمانات الديون الأوربية، ذلك أن الحرب كانت قد تقررت منذ أحس الإستعماريون أن رأيا عاما مصريا تكون، وأن حركة وطنية قد ولدت،

وأن هذا الرأى العام، سينمو سريعا، وستنمو معه الحركة الوطنية، مالم يضربا وهما طفلان صغيران، وقد حدث ذلك.

وقعت الحرب وهزمت مصر، وهزم عرابى وإخوانه، وعلى الرغم من أن هذه الحرب لم تدخل في حساب الضباط المصريين، ولم يحسنوا الاستعداد لها، لأكثر من اعتبار، فإن الشعب المصرى الذى وقف ضد المماليك، ثم ضد الفرنسيين، والذى هم بالوقوف ضد محمد على، أثبت أن أهدافه القديمة لاتزال هى أهدافه العزيزة عليه، وأنه مستعد أن يقاتل فى سبيلها، ولذلك كان من السهل أن تتكون جمعية وطنية، وأن تصدر فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ من القرارات ما يحيل هذه الجمعية الوطنية و(المجلس العربى)، إلى مجلس حرب، ولما انضم (توفيق) إلى الانجليز ثم عزل (عرابى) لم تحفل هذه الجمعية الوطنية بهذا العزل، وثبتت عرابى فى مكانه في وزارة الحربية، واعتبرت نفسها الحكومة الشرعية، واعتبرت (توفيق) خائنا ومعزولا، ولقب (عرابى) من الشعب «بحامى حمى الديار المصرية» ووقفت الأمة كلها من ورائه تبذل الأموال والمهج، وتشتعل حماسة وحمية، وقد كانت هذه الحماسة وتلك الحمية، كفيلتين بإنجاح عرابى سياسيا وعسكريا، أو سياسيا على الأقل، لو أن الثورة دبر لها كما يجب أن يدبر للثورات، ولو تذرع عرابى بشىء من سوء الظن فى دليسبس ووعوده وبشىء أكثر من الحزم مع توفيق وأتباعه.

وإذا كانت الهزيمة العسكرية قد حلت بمصر فى معارك الشرق عند قناة السويس وإذا كانت الهزيمة الكبرى قد تمت بدخول الجيش البريطانى إلى القاهرة، فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، فإن هذه الثورة، لم تمض بغير أثر باق، فقد أعلنت هذه الثورة أن إرادة الشعب المصرى

التى أعلنها عمر مكرم في أوائل القرن التاسع عشر، ولدت لتبقى، وأنها لن تموت، وأن الأمر، أمر سنوات، قد تطول وقد تقصر، ولكن هذه الإرادة سيتم انتصارها.. على أن هذه الثورة قد أثبتت شيئا مهما، لم تخطئه عين المؤرخين، ولا عين المراقبين السياسيين ذلك أن نظام الحكم الخديوى الذى أسسه محمد على قد أفلس تماما، وقد أثبتت الأيام التالية لدخول الانجليز إلي مصر، هذا الإفلاس، فقد انتزع الانجليز الحكم من يد الخديو توفيق، ومن يد كل الذين جاءوا بعده من أفراد الأسرة المالكة العلوية، وأصبح الأمر كله لبريطانيا تدير شئون مصر على هداها، حتى بدأت المقاومة المصرية تستعيد وجودها بقيادة «مصطفي كامل» والحزب الوطنى.

ولقد كان فى الوسع أن تبدأ هذه المقاومة عملها بعد الهزيمة العسكرية لو أن (عرابى) لم يؤثر وقف القتال والجهاد معا بعد وقعة التل الكبير، أو على الأقل لم يسلم نفسه للإنجليز، ولم يرتض أن يدافع عنه انجليزيان وأن يوقع إقرارا يتضمن اعترافه على نفسه بارتكاب جريمة عصيان الخديو، ولكن هذه المقاومة لم يطل على استئناف نشاطها الوقت فقد نفضت عنها غبار اليأس وبدأت تعمل.

واستمرت تعمل ضد الأعداء أنفسهم، الحكم الفاسد المستبد فى الداخل، والسيطرة الأجنبية من الخارج، وقد زادت الحركة الوطنية من قواها، ونظمت صفوفها، وكانت موشكة أن تخوض معارك واسعة النطاق، كانت مظاهرات ٣١ من مارس سنة ١٩١٩ وأول ابريل من السنة نفسها احتجاجا على قانون الصحافة، بدايتها .. لكن الحرب العالمية الأولى دهمت هذه الحركة الوطنية، ووقفت نشاطها، إذ أعلنت

الأحكام العرفية فأصبح في وسع بريطانيا أن تطارد الوطنيين، وأن تنفى بعضهم في مالطة، وأن تضع البعض الآخر في المعتقلات في مصر، كما أصبح في الوسع تكميم الصحافة، ولذلك اتجهت الحركة الوطنية الى العمل السرى فتوالت عمليات القتل السياسى والشروع فيه، خلال الفترة السابقة على الحرب العالمية وفترة الحرب نفسها، فلما وضعت الحرب أوزارها، كان التحضير للثورة قد أتى ثمرة فانفجرت في ٩ من مارس سنة ١٩١٩ .. بمناسبة اعتقال «سعد زغلول» وأصحابه «إسماعيل صدقى» و«محمد محمود» و«حمد الباسل». ولم يكن هذا الاعتقال إلا مجرد مناسبة فقد كان الغضب الوطنى قد كمل، وكان لابد له أن ينفجر بصورة أو أخرى.

وإذا كان الزعماء الذين ظهرت أسماؤهم في هذه الثورة قد ترددوا أول الأمر في السبيل الذى يسلكونه، فإن الشعب كان قد عرف طريقه فلما اختفى هؤلاء الزعماء بالنفى، انطلق في ثورته الشاملة، وأقام متاريسه، ونظم صفوفه، وكأنه ابن ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨، أو ثورة مارس سنة ١٨٠٠، وكأن عمر مكرم قد بعث من قبره.

وإذا كان عمر مكرم وعرابى، قد خرجا من بطن النظام القديم الذى حارباه، فإن سعد زغلول كان قطبا من أقطاب هذا النظام وعميدا من عمدائه، ولذلك لما سمع بالنية على إرسال وفد إلى الخارج ليطالب في مؤتمر «فرساى» بباريس رفض الفكرة واستخفها، فلما أعلمه رشدى رئيس الوزراء وعدلى الوزير بأن السلطان فؤاد على علم بهذا المسعى وأنه يقره قال في مذكراته على مانشرته وثائق ثورة ١٩١٩ المعنونة (٥٠ عاما على ثورة سنة ١٩١٩) «ورأيت من الواجب أن أعرض الأمر على السلطان فحدد لى الساعة الخامسة ....».

وإذا كان زعماء الثورة، قد فوجئوا باندلاعها وهم فى منفاهم فى مالطة، وإذا كان زعيمها قد استبعد وقوعها لأسباب ظنها معقولة فإنهم لم يلبثوا حتى جرفتهم حماسة الشعب، وإصرارهم على قتال أعدائه: السلطان فى الداخل، والانجليز من الخارج، ومضت الثورة باهرة وعظيمة، حتى تفتتت الوحدة، ونجح الانجليز فى تحويلها إلي حرب داخلية».

ولكن على الرغم من كل ما تعثرت فيه الحركة الوطنية فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ فإنها بحكم كونها امتدادا للثورات السابقة عليها، أكدت الأهداف الوطنية فسار الشعب فى الطريق المرسوم منذ عمر مكرم، يأبى إلا أن تقوم فى بلاده حكومة وطنية نظيفة وعادلة، وأن يقوم حكم دستورى صحيح وسليم، وأن يكون لمصر جيش وطنى قوى وقادر على الدفاع عن البلاد، وأن تكون مصر أمة مستقلة، فلما لم تستطع القوى الوطنية التى نشأت بعد ثورة سنة ١٩١٩ أن تحقق هذه الأهداف، وكان الجيش المصرى الذى أنشأه محمد على، وأسند قيادته إلى ضباط موالين له، من غير المصريين قد استطاع أن يحقق ما أراده عرابى من أن تكون القيادة فيه مصرية، فإنه لم يكن ممكنا أن يبقى هذا الجيش المصرى بعيدا عن السياسة ولاسيما عندما يسوء الأمر، ويصاب العرض المصرى بما يعتبر انتهاكا داميا للشرف.

وثورة ٢٣ يوليو، تشبه الثورات الثلاث السابقة فى أشياء، وتختلف عنها فى أشياء:

تتلاقى مع الثورات السابقة فى:

أولا: حاربت من نفس أهداف الثورات السابقة .

ثانيا: وحاربت الاعداء أنفسهم.

ثالثا: وحاربت فى الظروف نفسها.

رابعا: حاربت بالوسائل نفسها.

أما الأهداف فقد عرفنا أن عمر مكرم حينما حارب المماليك، ثم الفرنسيين، ثم محمد على، فقد كانت الغاية من حربه، تحرير المصريين من حكم ظالم فاسد شديد، مضيع على الناس ثرواتهم، ومهدد لأمنهم، ومانـع من تقدمـهم، وحارب في الوقت نفسه غزاة أجانب مسلمين ومسيحيين، يأبون أن يدعوا للمصريين بلادهم، فيتنفسوا حريتهم فى تدبير شئونهم، وتقرير مصيرهم، وبعد مائة وخمسين سنة، كانت مصر تشكو من الحال نفسه، حاكم مصرى، فاسد، مستبد، مبدد لثروات البلاد، ومضيع لطاقاتها.. ومهدد لأمن الناس، معتد على كراماتهم، وحكم أجنبى دخيل، هو صاحب الكلمة العليا فى شئون مصر، يتخذ من الملك المصرى ستارا لأغراضه، وقناعا لنشاطه، وكما طالب عمر مكرم أن يلتزم المماليك ومحمد على من بعده دستورا فى الحكم يمنع الحاكم من أن تمتد يده إلي أرزاق أو حريات أو أعراض الناس، طالبت ثورة ٢٣ يوليو بحكم دستورى سليم.

والذين حاربوا عمر مكرم ظاهرين ومختفين، وحالوا بينه وبين غاياته هم نفس الذين حاربوا ثورة ٢٣ يوليو وعملوا على إحباط نشاطها، وتعويق جهادها، العائلة المالكة التى أسسها محمد على، والانجليز والفرنسيون.

وقد كانت الظروف التى حارب فيها عمر مكرم وأحمد عرابى، هى نفس ظروف ميلاد ثورة ١٩٥٢، وهى نفس ظروف سنة ١٩١٩. مظالم

متراكمة، يرتكبها الحاكم المصرى مستندا إلى الأجانب أو الأجانب مختفين وراء الحاكم المصرى، أو الاثنين متعاونين ومتحالفين ومجتمعين على مصر والمصريين.

بل إن بعض الظروف تكرر وقوعها فى ثورة عرابى و٢٣ يوليو، فقد كانت هزيمة الجيش المصرى فى الحبشة، وعجز قيادة الجيش، وسوء التدبير للمعركة، وفساد الأسلحة، والسرقات والاختلاسات فى المال العام، أشبه ما تكون بهزيمة الجيش المصرى فى فلسطين سنة ١٩٤٨، وما اقترن بهذه الهزيمة من الأدلة الصارخة على عجز القيادة، وسوء التدبير والتدريب، وخيانة الأمانة العامة، واختلاس المال العام.

وإذا كان الجيش المصرى لم يخلق إلا بعد قيام دولة محمد على، فلم يلعب دورا فى الثورات التى قادها عمر مكرم، إلا أن الشعب المصرى، كون من نفسه فرقا تعاونت مع الفرق العسكرية الأجنبية كفرق الألبان مثلا، وكانت جموع الشعب المصرى، غير المدربة أصلا على القتال المنظم، تقوم بالأعمال العسكرية بنفس الكفاءة التى تقوم بها الفرق العسكرية التى كانت تسمى جيوشا، وهى لاتزيد على أن تكون جموعا سيئة التدريب، تنقصها الطاعة ويعوزها النظام، وتفتقد فكرة الجيش وتضامنه وولاءه.

ولكن الجيش المصرى لعب فى ثورة عرابى، الدور الرئيسى الذى لعبه الجيش فى ثورة سنة ١٩٥٢ وقد كتب لقواد الجيش أن يستولوا على الحكومة، بطريق مشروع، بموافقة الحاكم وهو الخديو توفيق، ودانت لهم أجهزة الدولة ولكن لم يطل بقاؤهم فى الحكم.

وقد اختفى الجيش المصرى من مسرح الأحداث فى ثورة سنة ١٩١٩، ولكنه بقى يلوح فى الأفق يبتعد عن المسرح ويقترب، فقد

أضربت الكليات العسكرية وخرجت بسلاحها إلى الشوارع مؤيدة لثورة الشعب، ثم المشاركة الكاملة من قوات الجيش المصرى فى سنة ١٩٢٤، التى كانت بأحداثها، ابتداء من مقتل السردار حتى سحب الجيش المصرى من السودان، امتدادا لثورة سنة ١٩١٩.

ولكن ثورة سنة ١٩٥٢ تختلف عن سابقاتها فى كثير.

وأول وجه من وجوه الاختلاف أن قادة ثورة سنة ١٩٥٢ كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة، فهم أقرب إلي الطبقات العاملة، وقد عرف أكثرهم فى حياته، ضيق الرزق، وشظف الحياة، فقد كان آباء أكثرهم من صغار الكتبة فى الدواوين الحكومية، أو من صغار الملاك فى حين أن زعماء ثورات القرن التاسع عشر، وفى مقدمتهم عمر مكرم، كانوا ينتمون إلي الطبقة الارستقراطية، فعمر مكرم نفسه كان نقيب الأشراف، وأن لم يكن في مثل غنى «الشرقاوى» و«المهدى» و«الدواخلى» و«المحروق»، ولكنه كان على صلة وثيقة وقريبة بالحكم الأعلى، وكان معدودا بين الأغنياء.

أما زعماء ثورة سنة ١٨٨١ فقد كان بعضهم من أبناء الطبقة المتوسطة الكبيرة، وقد أصبحوا فيما بعد من أعضاء الطبقة الأولى فى البلاد، وكان منهم من هو عضو أصلا فى تلك الطبقة كمحمود سامى البارودى باشا، ولكنهم جميعا كانوا قبل الثورة بكوات وباشوات، أى فى قمة المجتمع المصرى.

أما زعماء ثورة سنة ١٩١٩ فقد كانوا جميعا تقريبا من أغنياء مصر، فقد كان منهم «محمود باشا سليمان» و«إبراهيم باشا سعيد» و«أحمد بك لطفى» و«السيد علي باشا شعراوى» و«محمد باشا محمود»

و«سينوت بك حنا» و«واصف باشا غالى» وهؤلاء من ذوى الثراء البعيد، أما «سعد زغلول» زعيم الثورة نفسه فقد اقتنى قبل الثورة مئات الأفدنة، وإن كان بعضها قد بدد فلأسباب لا علاقة لها بالحياة العامة، وأيا كان السبب، فهو لا يمنع انتماءه إلى طبقة الأغنياء وذوى النفوذ العريض وقد جاءت مصاهرته لمصطفى باشا فهمى ولأسرة سرهنك باشا تأكيدا لانتمائه للطبقة الارستقراطية، ولكنه كان يقول من باب البلاغة الخطابية إنه من أبناء ذوى الجلاليب الزرقاء.

ووجه الاختلاف الثاني أن ثورة سنة ١٩٥٢ هى الثورة الوحيدة التى تم لها نجاح كامل فقد استولت على السلطة استيلاء تاما، ودام استيلاؤها عليها، وتسييرها لشئون الدولة منذ قامت حتى اليوم، وكان هذا الاستيلاء على وجه من الاستقرار والثبات لم يكتب لثورة أخرى فى المنطقة العربية ولم يكتب لثورات كثيرة سواها فى العالم كله.

والوجه الثالث أن ثورة سنة ١٩٥٢، هى الثورة التى استطاعت أن تصمد فى وجه كل أنواع التدخل والضغط الخارجي من قوى هائلة، في حين كان التدخل الأجنبى ناجحا فى ثورة عمر مكرم، بل وفى عهد محمد على، وفى ثورة عرابى وفى ثورة سنة ١٩١٩.

أما وجه الاختلاف الرابع، فهو أن ثورة سنة ١٩٥٢ هى الثورة التى خرجت من النطاق السياسى البحت، إلي النطاق الاجتماعى، وأنها تجاوزت دور التحرر الوطني، إلى دور التغيير الاجتماعي والاقتصادى، وأنها وضعت لنفسها برنامجا، على مر السنين، وقد زاد هذا الدور بفضل الأحداث الكبرى التى لابست الثورة، والتى ترتب عليها فى الداخل وفى الخارج وفى المحيطين العربى والعالمى وضوحا حتى كاد يكون برنامجا ذا خصائص مصرية.

أما الوجه الخامس، فهو إدراك قيادة ثورة سنة ١٩٥٢ مدى الارتباط الوثيق بين أجزاء المنطقة العربية، وضخامة الدور الذى تهيأت للقيام به هذه المنطقة فى حقب التاريخ الكبرى وفى ثراء هذه المنطقة المادى والروحى، وقد غابت هذه الحقائق عن زعماء الثورات السابقة، وإذا كان للثورتين الأوليين بعض العذر، للظروف التى كانت سائدة وقتذاك فى المنطقة العربية، فإنه لا عذر لثورة سنة ١٩١٩ وزعمائها وقد كان فى مقدورهم أن يلعبوا دورا كبيرا فى الشرق العربى، خصوصا فى المراحل التالية لبدء الثورة ـ لو أنهم كانوا أوسع أفقا، وأكثر إطلاعا على التاريخ.

وترتب على هذا الوجه الأخير مباشرة السمة العالمية لثورة سنة ١٩٥٢، فإن أثرها تجاوز المنطقة العربية إلى المحيط الافريقى والأسيوى، حتى كان لها فضل المساهمة الفعالة فى خلق العالم الثالث.

لقد كان دور مصر دائما دورا عالميا حتى وهى فى فترات الانحسار والضعف، بل وهى كرة يتقاذفها الغزاة والفاتحون، فإن خصائص وجودها الجغرافى، وخصائص تراثها التاريخى، يجعلها مركزا عالميا، وميدانا عالميا، ولقد حد من طاقة مصر من النهوض بهذا الدور، القيود السياسية والاجتماعية، التى كبلتها، ولما سقطت هذه القيود فى أعقاب ثورة سنة ١٩٥٢ وخلالها، أصبح فى مقدور مصر أن تلعب دورها فى أوسع صوره وأعلاها، وأحسب أن السنين القليلة القادمة ستشهد ذلك، وهو فى واقع الأمر، فى أشد الحاجة إليه.

محمد نجيب
الرجل الذى تحالفت عليه فضائله وعيوبه ★

استوقف نظرى وأنا طالب بكلية الحقوق الكائنة على جانب من حديقة الأورمان غير بعيد من حديقة الحيوان بالجيزة .. استوقف نظرى، ضابط يأتى الى مبنى هذه الكلية فى الأمسيات فى الأغلب الاعم وفى الاضاحى فى القليل النادر . وكان مجيئه الى الكلية فى زيه العسكرى دائما ، وتحت أبطه عدد من الكتب ، وكان يسير وحيدا ، ويمضى فى طريقه ، صامتا ، ولما اقتربت منه مرة ، رأيت على قسمات وجهه . علائم وجوم وانقباض ، لم أعرف سرهما .

ومضت السنون تلو السنين ، وأنا لا أعرف من يكون هذا ، الضابط، وما سر تردده على الكلية ؟ ولم يخطر على بالى أقرب تفسير ، لهذه الزيارات المتعددة من هذا الضابط الوحيد الصامت ، وهو كونه طالبا بالكلية ، يطلب العلم فيها ، يسعى للحصول على إجازة من اجازاتها . ولكن قلة عدد الكبار فى السن الذين يطلبون العلم بعد أن تقدم بهم العمر ، ولو كان العلم الذى يطلبونه ، عن سبيل الدراسات

★ هلال - نوفمبر ١٩٨٤ .

العليا ، هذه القلة هي التي صرفت ذهني عن تصور أن هذا الطالب كان واحدا من طالبي العلم ، توطئة للحصول علي الدكتوراه .

وتعاقبت الأعوام ، وأصبحت محاميا ، ووكلت في قضية عسكرية ؛ وقعت في مطار القاهرة الذي كان يومذاك ، مطارا صغيرا ، اسمه (مطار ألماظة) ولما كان مطار العاصمة منطقة عسكرية ، فقد كان الاختصاص القضائي بالنسبة للقضية التي وكلت فيها ، هو سلاح الحدود ، وكان آنذاك خاضعا لضابط كبير في الجيش اسمه اللواء «محمد نجيب» واقتضاني متابعة التحقيق أن أقابل قائد السلاح وأعرض عليه ما يخص موكلي . وهناك في مكتب القائد رأيت هذا الضابط الذي رأيته كثيرا في ساحة كلية الحقوق . وتأملت وجهه الذي كنت ألمحه من بعد فرأيته وجها مريحا ، تفيض قسماته بالطيبة ، وكان أركان حرب هذا القائد ، ضابطا شابا أعده من أولادي الذين بدأوا حياتهم السياسية ، وهم بعد تلاميذ في المدارس الثانوية . وأعني به أحمد لطفي واكد ، أحد قادة حزب التجمع فأحسن استقبالي ، وعرفت منه أن قائده هو اللواء محمد نجيب ، وأنه حاصل على أكثر من دبلوم من دبلومات الدراسة القانونية العليا التي تؤهله ، للحصول على الدكتوراه .. وتبسط الرجل ولانت أسرار وجهه ، وعرفت فيه أنه يحب أن يتكلم ، ويفضي لمن يصادفهم في طريقه بذات نفسه بلا تحفظ ولا تعال.

وكانت القضية التي جئت أحدثه بشأنها طريفة فقد كان موكلي متهما - بأنه بوصفه (طيارا) مدنيا - بادخال عدد من الكيلوات من مخدر الى مصر ، ولما كان طاقم الطائرة التي نسب اليها أنه قام بالشروع في ارتكاب هذه الجريمة مكونا من عدد من الضابط فكانت الجريمة (شائعة) ومعنى ذلك قانونا أن سلطة الاتهام لا تعرف بالضبط

على وجه التحديد من الذى ارتكبها ولذلك فقد رأى مكتب مكافحة المخدرات أن يدس على موكلى أحد مخبريه فأرسله الى بيته خادما يعرض خدماته على الطيار المتهم . فرحب بالمخبر وأرسله الى بيته . وانتهزت زوجة الضابط فرصة انها ظفرت بخادم قوى البدن نشيط ، ومستعد لتلقى الأوامر من سيدة البيت وتنفيذها ، فأسرفت فى استغلال نشاطه وحسن استعداده للخدمة ، فكلفته بالكثير حتى ناء المخبر تحت اعباء هذه الخدمة التى لم تكن فى الحسبان ، وقد ضحك محمد نجيب كثيرا على هذه الواقعة وأطلق لسانه ، فحدثنا طويلا فى أكثر من موضوع .

وكانت المقابلة الثانية بعد ثورة عام ١٩٥٢ ، وعلى باب رئيس الوزراء المدنى فى الأيام الأولى للثورة ، وهو على ماهر باشا الذى ولى رياسة الوزارة مرتين سابقتين قبل نشوب الثورة ، وحيث قائد الثورة يومذاك والملك فاروق لايزال على عرش مصر ، وبدا لى محمد نجيب فى هذه اللحظة ، فى أعلى مراتب حالته المعنوية ، وإن بدا عليه أيضا أنه مشتت الخاطر ، لأن هذه اللحظة كانت المدخل لأحداث كبرى ، سيكون هو بطلها ، وأكبر اسم من أسماء القائمين بتبعاتها ، والمقدمين على مخاطرها ، وقد تبادلت الحديث مع أنور السادات الذى كان يرافق محمد نجيب فى زيارة على ماهر ، والذى كنت أعرفه أكثر مما أعرف أى ضابط من ضباط الثورة ، وطلبت منه موعدا ، وقد تم لقائى به فى اليوم التالى فى ثكنات مصطفى باشا بالإسكندرية ..

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى كان القدر قد قرر أن أكون من أقرب الناس الى قائد ثورة عام ١٩٥٢ ، وزعيمها المحبوب ، فقد شاء هذا القدر أن أكون الوزير المدنى الوحيد الذى شارك فى مداولات

وقرارات تأليف أول وزارة تؤلفها قيادة الثورة ، ثم لم ألبث حتى أصبح اللواء محمد نجيب وأنا في مبنى واحد ، يقيم هو في الدور الأول بمبنى رياسة مجلس الوزراء بقصر الأميرة شويكار سابقا - في مواجهة البرلمان ، وأنا في الدور الثاني ، وفي حجرة تعلو حجرة الرئيس ، وكان بيننا تليفون ، لا يكاد يرفعه حتى أسمع صوته ، ولا أكاد أرفعه حتى يسمع صوتي بلا وسيط وقد شعرت منذ اللحظة الأولى لتعاوننا ، أن الرئيس ، لا يرحب كثيرا بوجودي معه في مبنى واحد ، ولا بإقامتي الرسمية فوق حجرته ، فتحاشيت التردد عليه في مكتبه كما كان يقضي بذلك مكاني كوزير دولة وحيد في الوزارة ، وكانت العادة قد جرت قبل الثورة على أن وزير الدولة في الوزارة ، يكون بمثابة وزير مشرف علي شئون مجلس الوزراء ومكتب الرئيس وكان سكرتير مجلس الوزراء المرحوم محمد ثابت ، يعرف هذا التقليد ، فعاملني بمقتضاه ، ولكن لهذا حديث آخر .

ومضت الأحداث على الوجه الذي أصبح كل الناس أو أكثرهم يعرفه أو يعرف ملامحه الرئيسية ، وفي هذه الأحداث بدت لي فضائل محمد نجيب الرئيسية وهي فضائل تعتبر أكبر عدة لأي زعيم يقود حركة قومية في وجه ضباب هائل وخصوم أقوياء .

كان محمد نجيب أمينا ونزيها الى أقصى الحدود .

وكان محمد نجيب شجاعا لا يخاف شيئا ولا شخصا . وكان اخر الأمر جذابا يحصل على حب الجموع والأفراد ، بغير قصد منه ولا سعي . هبة من الله ، الذي يهب بعض الناس وجوها جذابة ويهب الآخرين أصواتا جميلة ، ويهب فريقا ثالثا ما لا يعد ولا يحصى .

هذه الصفات الثلاث ، قفزت به الى مرتبة الزعامة الحقيقية التي تستأثر بالقلوب من اللحظة الأولي ، ولكنها كانت جميعا سبب محنته ومصدر متاعبه .

فأمانته جعلته عنيدا ورافضا لكل قرار فيه قبول لرأى الآخرين إذا أحس أن من وراء هذا القرار ، نزولا عن تعاليه .

بدأت الثورة وهو يسكن منزلا صغيرا فى الزيتون ، ولم يكن لائقا برئيس دولة بكل المعايير ، فهو مضطر لأن يستقبل مئات فى وقت واحد، وليس فى المنزل حجرة واحدة تتسع لعشرين شخصا ، وقد توعك فى يوم وذهبت أزوره فى حجرة نومه وكان هناك أحد الاصدقاء وهو عضو بارز بإدارة قضايا الأوقاف ، فكنا نتحرك بصعوبة فى الفراغ القليل الذى يتركه لنا سريره ، وهممت أن أشير الى هذا ولو بعبارة قصيرة فرأيت على وجهه من علائم الرضا بحاله ، والتشبث بهذه الدار الصغيرة المسرفة فى التواضع ، ما أسكتنى ، وقد سمعت جمال عبدالناصر يعلق على سكن الرئيس نجيب فى هذا المنزل بشىء من المرارة قائلا : «احنا بنبالغ فى كل شىء .. رئيس الجمهورية يستقبل مراسلين أجانب ، فهل هذا مكان يليق بهذا» ، وفى ذات يوم كان مضطرا للعودة الى مكتبه فى موعد مبكر بعد الظهر ، فاقترح عليه ياوره أن يقضى فترة قليلة فى استراحة حكومية قريبة من القاهرة فقال: أنت عاوز يحاكمونا .

ولكنى أشهد أنه لم يتحدث عن تقشفه أو زهده ولو عرضا ، مما يقطع بأن هذه صفته التى جبل عليها ، ولم تكن رياضة روحية يمارسها، ولا محاولة لاتقاء مواطن الشبهة أما شجاعته فقد كان مسلكه

فى الحرب ، وتصديه للمخاطر ، واصابته فى مقاتل من جسمه أكثر من مرة ، دليلا على هذه الشجاعة ، بيد أن قبوله لرياسة الجماعة التى قامت بالثورة قبل أن تتم الثورة خطوتها الأولي والحاسمة ، وهى اعلان هذه الثورة ، ثم عزل الملك ، واسقاط النظام القديم كله ، هذا كله قمة الشجاعة ، وعدم الالتفات الى النتائج الرهيبة والمخيفة التى يمكن أن تنجم عن هذه المحاولة الثورية ، هو قفز الى المجهول بغير تردد .

ولا يغير فى قيمة هذه الخطوة أو ينقص منها ولو بمقدار خردلة ، أنه لم يكن عضوا فى هيئة الضباط الأحرار ، ولو صح أنه جلس فى بيته ينتظر دعوته الى الذهاب الي مكتب القائد العام للقوات المسلحة ، فان الخطر الذى كان ينتظر قائد هذه الحركة ، كان يمكن أن يتحقق بعد اعلان بيان الثورة بساعة أو ساعات ، أو بيوم أو أيام وعدم معرفته بالخطوات التى عقبت دعوته إلى رياسة حركة الثوار ، يزيد من فضله ، لانه يدل على عدم تأكده من سلامة الخطوات التى قام بها الضباط وأنهم لم يرتكبوا خطأ يؤدى بهم وبه . على أن الثابت أن محمد نجيب تحدي النظام الملكى قبل نشوب الثورة ، وكانت قمة التحدي ترشيح نفسه لرياسة نادى الجيش ، واسقاط مرشح القصر اللواء حسين سرى عامر ، وقد أصدر الملك عقب ظهور نتيجة انتخابات نادى الجيش ، قرارا بغلق هذا النادى ، ويعتبر ترشيح اللواء محمد نجيب نفسه ضد مرشح الملك ، واسقاط هذا المرشح بمثابة إلقاء القفاز فى وجه الملك .

وكانت مواقف محمد نجيب من الفريق حيدر باشا القائد العام للجيش ، وياور جلالة الملك ، مشهورة وكلها تصدر عن استخفاف بهذا القائد الملكى والحرص على احراجه وعدم احترامه .

وقد عرض منصب رئيس حركة الثوار على اللواء احمـد فؤاد صادق قائد عام القوات المسلحة السابق ، فرفض هذا العرض بحجة أنه لا يريد أن يكون (عرابي الثانى) ومعنى هذا الكلام أنه لا يستبعد أن يكون نصيب هذه الحركة الفشل ، وان فشله ، قد يستتبع تصادما بين الملك وسلطانه وقواته وبين الضبـاط الشبان الثائرين ومن قد ينضم اليهم .

فإذا كان هذا التصور لم يقم فى خيال محمد نجيب ولم يتأثر به ولم يدخله فى حسابه خدمة كبرى للثورة ، لا يجوز أن نغفلها من حسابنا ونحن نقوم دور محمد نجيب .

أما جاذبية محمد نجيب ، وقدرته على الظفر بحب الجماهير ، الى درجة الاستهواء فقد كان شيئا ضخما للثورة ، تخطت به العقبات الأولى عقب ميلادها . فالشبان الذين قاموا بالثورة كانوا مجهولين من الشعب من جهة ، وصغار السن من جهة أخرى ، وكانوا يتحدون النظام القائم فى البلاد بشقيه الرسمي والشعبى . فقد كان فى مصر زعامة مضى عليها أكثر من ربع قرن .. واسم صاحب هذه الزعامة ، يتردد على الاسماع فى كل مدينة وكفر ونجع ، وكانت صورته تزين البيوت والمحال العامة ، وكان ينجح فى كل انتخابات ويظفر بالأغلبية . ولذلك كان من الصعب وربما المستحيل أن تستقبل جماهير الشعب قائد هذه الثورة التى فاجأت البلاد ، بالحب والترحيب وأن يبدو أنه هروب من التأييد والإعجاب ما فاق تعلق هذه الجماهير ذاتها بزعيمها الذى هتفت له وبايعته سنوات عديدة ، وفى وجه شدائد متوالية ولكن الذى ظهر

فجأة ، أن محمد نجيب ظفر بالحب الذى كان من نصيب الزعيم السابق، وجرت الجموع وراء محمد نجيب في كل مكان ، واحتشدت الألوف ، على جانبي طريقه من القاهـرة حتى أسوان ، ومن القاهرة الى الإسكندرية . وجرى الألوف وراء سيارته وقطاره ، وكان كل ذلك مبايعة لقائد الثورة الجديد ، وهياما بشخصه وتعلقا جارفا بزعامته وقيادته .

هذه الفضائل لم تدع طريق محمد نجيب ، سهلا مفروشا بالأزهار والرياحين ، وإن كانت جديرة بحشد الأمة حوله ورفض ازاحته ، فقد كانت زعامته وسحرها كفيلين بأن يبعث الخوف منه : وإذا كان ذكاء المرء محسوبا عليه فان مواهب الزعيم وفضائله محسوبة عليه .

الا أن الخلاف الذى دب بينه وبين الزعيم المدبر للثورة ونعنى به جمال عبدالناصر ، كان طبيعيا وحتميا ، فمحمد نجيب كان شيخا بين شبان ، وكان التجانس بين الشبان أول الأمر . يقابله تباين بينهم وبين قائدهم الرسمي ، وقد كانوا يحبونه أول الأمر ، لأنه يثير الحب فى القلوب بيسر وبلا جهد ، وقد سمعت من عبداللطيف البغدادى أنه كان يحبه أكثر مما كان يحب اباه ، ولكن هذا الحب ما لبث أن انطفأ حينما كشفت الطبقات المتربصة للثورة عن أنيابها ، وأرادت أن تضرب عناصر الثورة بعضها ببعض . وقد رأى محمد نجيب لسوء الحظ أنه أقرب الى زعماء العهد القديم وقد أعلن ذلك من حيث لا يدرى بمكالمة تليفونية مع مصطفى النحاس ، عزت نفسه فيها بقوله :

أنا المذنب ..

ولكنى لا أظن أن محمد نجيب قرر أن ينقلب على الثورة أو يعمل ضدها ، فقرار مثل هذا لم يدر بخاطره ، ولكنه اندفع فى الاتصالات والتصريحات مما زاد الجفـــوة بينه وبين الشـــبان ، ولم تقف هذه الجفوة عند حد ، فقد اتفق كثيرون من خصوم الثورة ، أن يلتفـــوا حــوله ، ويختفوا وراءه ، فأصبح من المستحيل استمرار التعاون بين الفريقين

ولما كان محمد نجيب ، لم يتخذ اجراء ما ، ليدعم مركزه ويدفع عن نفسه قرار العزل الذى أعد ، فكان سقوطه المأساوى ، واختفاء نجمه ، بعد أن كانت الثورة قد ثبتت أقدامها .

أسرار صغيرة

فى الثورة الكبيرة ★

أحسب أن كل الحقائق الكبيرة فى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، قد ذكرت بأقلام من أهل الشرق والغرب. وقد اختلط فيما قيل ونشر، الوقائع الصحيحة كما وقعت ، وأشياء أخرى لم تحدث ، ولكن المؤرخين واشباههم وادعياء العلم بالحقيقة ، قد اضافوا إلى وقائع التاريخ ، أشياء لم تر النور، ولكنها تزيد التاريخ جاذبية وسحرا ، وبعض ما لفق واختلق قصد به خدمة شخص أو جماعة ، أو خدمة رأى أو عقيدة ، وفي بعض الأحوال يفوز الخيال على الحقيقة ، فالخيال حر طليق ، يقول ما يشاء وبالأسلوب الذى يريده ، فى حين أن الواقع يبقى جافا لا يجذب قارئا ، ولا يثير خيالا .

ولقد استعدت ذكريات هذه الثورة ، فوجدت أنه لايزال فى جعبتى بعض الوقائع التى لم يتسع الوقت لايرادها ، أو لم يتسع الوقت لايرادها كاملة ، فرأيت أن أضمنها هذا المقال . لعلها تسد فراغا أو تزيد حقائق التاريخ وضوحا .

كانت أولى بشائر الثورة اجتماعا غريبا دعيت اليه ، إلى الغداء وكانت الدعوة من المرحوم الدكتور نور الدين رجائى استاذ القانون فى

★ هلال - يوليه ١٩٨٥ .

كلية حقوق القاهرة آنذاك . ومن السيدة حرمه الدكتورة درية شفيق الأستاذة الحاصلة على دكتوراه الآداب من باريس . وكنت على صلة بكليهما ، فقد كنت زميلا للاستاذ محمد رجائي، المخرج والمنتج السينمائي ، في مدرسة محمد على الابتدائية ، ضمنا فصل واحد كما كنا من أبناء حي واحد ، وقد حدث أن أخرجنا ونحن تلاميذ في المرحلة الابتدائية مجلة مما يخرجها التلاميذ في أيام الصبا الأول . ولعل الظاهر حسن أحمد ، كان ثالثنا في هذه المحاولة ، والظاهر برز بين زملائه بعد ان تخرج في كلية الحقوق ، إذ وقع عليه اختيار رئيس الوزراء محمد محمود باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٣٨ وكان رسول هذا الرئيس في مهام رسمية كبيرة وكان نور الدين رجائي ، شقيق محمد عبدالفتاح رجائي ، زميلا لنا في نفس المدرسة الابتدائية ، وإن كان يصغرنا سنا ، ولكن كان يعرفنا من بعد حتى أصبح أستاذا في الجامعة ، فعرفه أكثر المشتغلين بالمسائل العامة . ولما تزوج السيدة درية شفيق ، ابنة خالته ، وصاحبة مجلة بنت النيل ، وزعيمة جمعية نسائية بهذا الاسم ، وبذلت السيدة درية نشاطا واسع النطاق ، تردد اسمها على الألسن ، وأصبح معروفا أنها صاحبة دور في السياسة ستزداد معالمه وضوحا في المستقبل ، وبهذه الصفة تعارفنا وأصبحت تتصل بي، تستشيرني في بعض الذي يطرأ لها في نشاطها العام ، ثم دعتني لإلقاء محاضرة في دار جمعيتها - فحشدت لي عددا غير قليل من عضوات هذه الجمعية ، وقد اطاعت هؤلاء العضوات دعوتي للقيام بالعمل الايجابي ، فاقتحمن دارا للشرطة ، وقبض على بعضهن . وكان

لهذه الغزوة صدى ضخم فى الصحافة ودوائر المجتمع لذلك لما دعيت إلى الغداء على مائدة الدكتور نور الدين رجائى وزوجته السيدة درية شفيق، ذهبت إلى دارهما ، وأنا أعلم أن هذه الدعوة ليست سوى بعض نشاط هذه الزعيمة الجديدة وزوجها ، وقد أكد هذا التصور أننى علمت منذ البداية ، أن المدعويين الآخرين معى، كانوا من الأجانب ، وكانوا من رجال السلك السياسى الأمريكى ، على وجه التحديد ، وبعد أن تناولنا غداء شهيا فى شقة أنيقة ، تحدثنا مع هؤلاء الدبلوماسيين فى أمور شتى ، وقد استوقفنى أن الحديث كان يشرق ويغرب ، ولكنه لا يلبث حتى يعود إلى نقطة بدا أنها تستأثر باهتمام الفريق الأمريكى ، تلك هى رأينا فى الملك فاروق ، وفى مستقبله وكان غريبا لهذه ان يترخص رجال سفارة دولة كبيرة كأمريكا فى التحدث عن ملك البلاد التى يمثلون دولتهم أمامه ، ولكن الواقع أن سمعة الملك فاروق كانت قد تدنت عالميا ، وأن صحف العالم الوقورة ، والصحف التى تخصصت فى سرد الفضائح والجوانب الحميمة من حياة العظماء ، كلتاهما أطلقت لسانها فى الملك فاروق ، وذكرت ما يجرى منه فى شواطئ الاستحمام العالمية ، مؤيدا بالصور ، لذلك لم يكن غريبا ، أن يدور الحديث وبصراحة حول الملك فاروق ومستقبله ، كأن هذا المستقبل من المسائل المطروحة للحديث.

وانتهى الاجتماع ، ونسينا كل شئ عنه ، ولم نتبين أنه فى واقع الأمر ، كان من بشائر التغير الذى ستشهده مصر بعد قليل ، وحرقت القاهرة فى ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ ، وعلى الرغم من أن الصدفة

قضت أن أكون فى بيتى بمصر الجديدة عاكفا على مطالعة احدى القضايا ، فقد اصدر الحاكم العسكرى العام قرارا بقائمة بأسماء عدد من المشتغلين بالسياسة الذين رأى اعتقالهم بمناسبة هذه الحرائق المروعة ، وكان اسمى في رأس هذه القائمة كما اتضح ذلك حينما طرت قضية رفعها اصدقائي وزملائي المحامون ذهبت إلى سجن الاجانب تنفيذا لقرار الحاكم العسكرى العام . ثم نقلت إلى معتقل فى الصحراء ، ذاع اسمه بعد ذلك فاصبح (هاكستب) علما من الاعلام فى مثل ديوع شهرة العتبة الخضراء ، وبعد شهور من ايداعى المعتقل ، كنت ذات صباح حار من شهر يوليه فى سنة ١٩٥٢ ، كنت مسترخيا في مراشي الضيق الذى كان قد وقع فى ركن من أركان زنزانة صغيرة في هذا المعتقل ، كانت مخزنا من مخازن الجيش الامريكى فى هذا المعسكر الذى تحول إلى معتقل وكنا قد نجحنا فى تهريب جهاز راديو من ماركة (بيلوت) ، وكان خافت الصوت في المعتقل لضعف التيار الكهربى ، وكان خنوف صوته من مزاياه ، لملاءمته لظروف الحال ، وقد أدرت مفتاح الصوت فى الساعة السابعة ، فإذا بى اسمع صوتا غريبا ، ليس أحد أصوات المذيعين الذين ألفت أن اسمعهم ، والذين حفظنا اسماءهم جميعا ، ولم انتبه كثيرا إلى حدة الصوت الذى يذيع ، ولم التفت إلى شئ أكثر أهمية وهو غرابة ما يقوله المذيع ، وبعد قليل تنبهت فجأة إلى أن ما يقوله المذيع، ليس غريبا فقط ، بل هو كلام لا يقال ، فكيف قيل . وجلست فى سريرى وقد تنبهت كل حواسى ، وتابعت كلام المذيع فلم أصدق أذنى ولكن المتكلم مضى يذيع بيانا قال إنه صادر من

قيادة الجيش ، وأن الجيش وضع حدا لما كان يقوم به المتسلطون على الجيش وهم بين خائنين ومرتشين وجبان، إذن هي الثورة ، وقد كانت . ولم تمض دقائق حتى امتلأ المعتقل بأنباء هذا الحدث الضخم ، ومن عجيب أنه بعد زمن قليل ، توالت الانباء من الخارج عن الثورة التي وقعت ، ومع ذلك بقينا داخل المعتقل ، كأن هذه الثورة لم تسمع بنا ، ولم تعرف أننا في المعتقل منذ شهور وكان علينا أن ننتظر داخل المعتقل يومين كاملين ، والثواني تمر علينا كالشهور أو كالسنين ، والقلق يفتك بنا ، فقد خشينا أن نترك نرسف في الاغلال حتى تدبر الدولة أمورها ، ولكن بعد ظهر يوم جمعة ، جاء بعد يومين من يوم ٢٣ يوليو ، تلقت ادارة المعتقل اشارة تليفونية تأمر بالافراج عني ، وبإرسالي إلى سراى بولكي بالاسكندرية حيث مقر مجلس الوزراء لأقابل رئيس الوزراء رفعة علي ماهر باشا ، ولن أروى ما حدث بعد الافراج عني ، ولا ما جرى بيني وبين رئيس الوزراء فقد رويته كثيرا ، وحسبي أن أقول إن سكرتير اول السفارة الامريكية جاء إلى بولكي ، وهو ممتقع الوجه ، مضطربا لأن ما وصله من أنباء كان يتضمن أن سلامة الملك فاروق ، أصبحت مهددة في قصر رأس التين ، وأن جلالته يستغيث بالسفارة الامريكية .

وكان هذا السكرتير الأول . كبير الضيوف الذين تناولوا الغداء معي على مائدة المرحومين نور الدين رجائي ودرية شفيق ، وقد فاتني أن أقول إنني كنت على مائدة هذا الغداء مع الدكتور نور الدين طراف الذى عين فيما بعد بوزارة الرئيس نجيب في ٧ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ وزيرا للصحة ، ثم اختير رئيسـ ـا لمجلس التنفيذى في عهد الوحدة

المصرية السورية ، أما أنا فقد أخترت وزيرا للدولة فى هذه الوزارة ، وكنت مشرفا على الإذاعة بحكم كونى وزير الدولة الوحيد وقد جرت العادة قبل الثورة على أن يتولى وزير الدولة الاشراف على المؤسسات والمصالح التابعة لرئيس الوزراء . وفى ذات يوم طلب منى مستشار السفارة البريطانية لشئون الاتصال العام ، موعدا فحددته له ، وأخذ الرجل عقب وصوله إلى مكتبى فى مبنى مجلس الوزراء ، يشكو مر الشكوى من حملات الاذاعة المصرية على بريطانيا ، وعلى نشاطها فى شرق افريقيا وقال إن بريطانيا لا تتعرض لمصالح مصر فى أى بقعة من المنطقة التى تهم مصر إنما سر الحملات الاذاعية فى مصر على الوجود البريطانى فى شرق افريقيا ، لقد احتملت السفارة البريطانية فيلم مصطفى كامل الذى وضعت أنا قصته وعرضته السينما المصرية أن عرضت فيلما جديدا بعنوان (ليسقط الاستعمار) يسرد قصة خيالية لم تحدث وقائعها ولا يمكن أن تحدث حول هجوم شباب مصرى على معسكر بريطانى ، وضرب الجنود البريطانيين فى الاهالى المصريين ، وهذا كله مشاهد تثير الكراهية ضد الاستعمار الانجليزى فى الوقت الذى يريد الانجليز أن يحسنوا علاقتهم بمصر ، والذى يتمنون فيه للثورة النجاح .

ودخل فى هذه اللحظة السيد / محمد أنور السادات وكان ضابطا من الضباط الأحرار وعضوا فى مجلس قيادة الثورة ، ولم أرد أن أقدمه لمستشار السفارة البريطانية ، وقصدت من ذلك أن يتكلم موظف السفارة بحرية ، وأن يسمع عضو مجلس القيادة ، ما يفكر فيه الانجليز

لماذا تتحرشون بنا ونحن لم نسئ اليكم ، ولم يصدر منا عمل واحد يستدعى غضبكم علينا ، ويبرر حملات اذاعتكم ضد وجودنا فى كينيا وما حولها .. ولدينا القوة التى تمكننا من أن نتصدى للثورة ، ثق أننا فى السويس ونحن قادرون على أن نكون فى القاهرة فى أقل من ساعة ورأيت أن أحول الحديث إلى جانب فنى ، فقلت له ، هل معك صورة من الاذاعات التى أثارت غضب السفارة أو احتجاجها ، فقال يمكنك أن تطلبها من معاونيك ، فيضعونها تحت نظرك فى الحال ، فقلت له فى اقتضاب : الأفضل أن تقدم لى ما تشكو فيه .. فقال حسنا سأحضرها غدا .. وانصرف وانتظرت أن يعلق السادات على هذا الكلام بشئ .. ولكنه لم يفعل ووقع ما توقعته ، وأن موظف السفارة لم يعد .

ومضت السنون ، ونزلت ذات يوم من مكتبى بالدور الأعلى فى مبنى مجلس الوزراء إلى الدور الأول حيث مكتب رئيس مجلس الوزراء ، جمال عبدالناصر فوجدته جالسا مع أنور السادات ، ويبدو أن كليهما كان فى حالة استرخاء ، إذ دار الحديث بينهما اعتباطا يتنقل من شئ إلى شئ حتى جاء ذكر الأستاذ محمد صبيح الصحفى وكان أنور السادات فى تلك الحقبة رئيسا لمجلس ادارة دار التحرير التى كانت جريدة الجمهورية تتبعها ، وكنت أعرف أن جمال عبدالناصر كان إبان انضمامه لمصر الفتاة كان تابعا لشعبة هذا الحزب فى حى باب الشعرية ، وقد حثنى عن تلك الأيام بلهجة تنم على الرضا عن المرحوم الأستاذ صبيح ، فوجه الحديث إلى السادات ، وقال : على فكرة .. ما تأخذ صبيح عندك فى الجمهورية .. فقال السادات على الفور : لا

باريس . فقال ! لا .. لأ ليه .. ونظر إلى وقال : صبيح كفاءة ثم وجه إلى الحديث : مش كده يا فتحى . فقلت مؤكدا بلا شك .. فنظر إلى السادات وقال : امال ليه يا أنور مش عايز تخده ، فقال السادات : لأنه نحس .. فبدا على (جمال) الضيق وقال : نحس .. يعنى ايه ؟ فاضطرب السادات وقال : ياريس ده ماحطش رجله فى جرنال إلا قفله – وراح يعدد الجرائد التى اشترك فيها ، والتى اغلقت .. فاشعل جمال سيجارة وأخذ يشد منها أنفاسا بشدة وهو مهموم ثم قال فى لهجة غاضبة .. بقى حيقفل الجمهورية . ياريت يقفلها يا أخى .. ولم يتكلم عبدالناصر ، وسكت السادات ثم انصرف فى صمت .. «وكان هذا المشهد الوحيد الذى رأيت فيه السادات يعارض رأيا لعبدالناصر ».

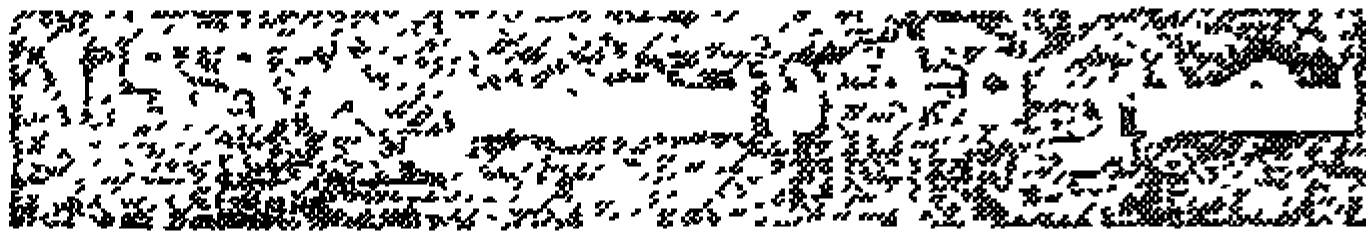
الفهرس

روايات الهلال تقدم

سائح بالصدفة

تأليف

آن تيـــلر



كتاب الهلال يقدم

السيرة النبوية

بقلم

د . محمد رجب البيومي

دار الـــهـــلال تـــقـــدم

سجل الهلال المصور

٣٠٠٠ صورة فى ١٥٤٠ صفحة
تعبر أصدق تعبير عن الحياة
السياسية والاجتماعية والفنية
والأدبية فى مصر ١٠٠ عام

صدر فى جزءين
الثمن ١٠٠ جنيه
اطلبوه من مكتبات دار الهلال

بناءً على رغبة آلاف القراء

دار الهلال تقدم

الطبعة الثانية من

إعجاز القرآن

« الجزء الثانى »

تأليف : رءوف أبو سعدة

الثمن ١٠ جنيهات

رقم الايداع : ١٥١٧٩ / ١٩٩٨
I. S. B . N
977 - 04 -0621- 3

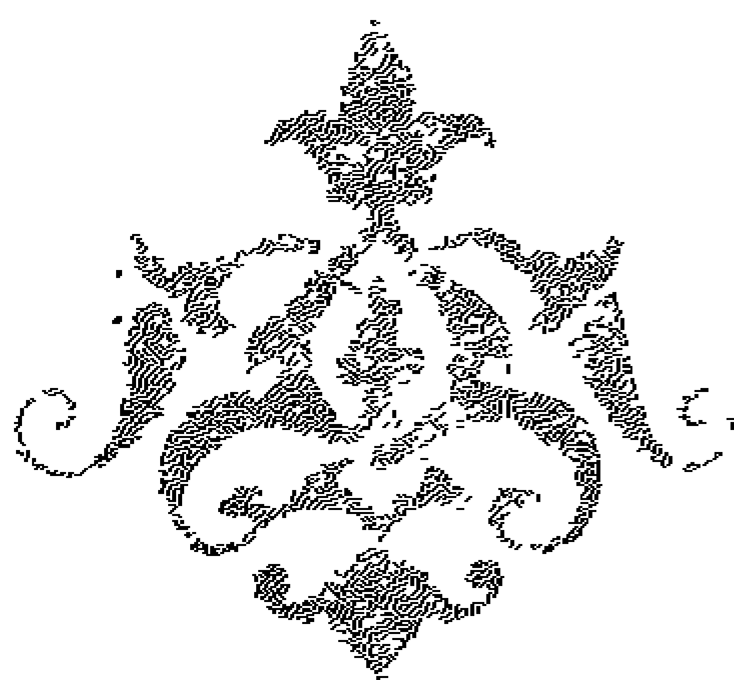
هذا الكتاب

عشر سنوات مرت علي رحيل الاستاذ فتحي رضوان في ٢/١٠/١٩٨٨ ، وحين نحاول أن نعدد الصفات التي يمكن أن نعرّف بها فتحي رضوان للأجيال نرصد قائمة طويلة أولها : الفنان الاديب - الكاتب المسرحي - المثقف . وفي نهايتها : المحلل التاريخي والناقد السياسي والمجاهد المقاتل في سبيل الحق والعدل والخير والجمال حتي الرمق الأخير . مولود في ١٩١١ ، وتحديد يوم الميلاد يكون ٧ مايو أو ١١ أو ١٤ مايو ، وهذا الاخير هو المنقوش علي الشاهد الرخامي ، فوق ضريحه بالقلعة الذي يشارك فيه كل من أحبهم في هذه الدنيا من زعماء الوطن : الزعيم مصطفي كامل - الزعيم محمد فريد والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي .

ومشاركة للمجلس الأعلي للثقافة في احتفاليته التي أقامها بمناسبة مرور عشر سنوات علي رحيل فتحي رضوان كان إصدارنا لهذا العدد من كتاب الهلال تحت عنوان ، فتحي رضوان ، نصف قرن ، بين السياسة والأدب، . اخترنا عدداً من مقالات ودراسات فتحي رضوان ، كان قد تم نشرها تباعا في مجلة الهلال التي صاحبها بقلمه منذ الثلاثينات حتي عام رحيله رحمه الله . تميزت شخصية فتحي رضوان بالنشاط والحيوية والدأب ، وتميز أسلوبه بالتدفق والانهمار والسرعة وغزارة المعلومات وجيشان الرأي الذي يدفعه إلي الاستطراد ، حتي أننا نلمس ذلك من خلال قراءتنا لكتاباته إذ نجده في بعضها يبدأ جملة لها ضرورة الاستكمال ، لكن غزارة المعلومات وجيشان الرأي يأخذانه بعيدا عن شاطئها ، فينسي العودة لاستكمالها ولا ينزعج القارىء طالما هو ذاهب معه إلي شواطىء أخري خلابة الفكر متوهجة الحماس . حينما تقرأ فتحي رضوان عليك ان تعرف إنك تسمع صوته وتراه في كل سطر بدمه ولحمه .

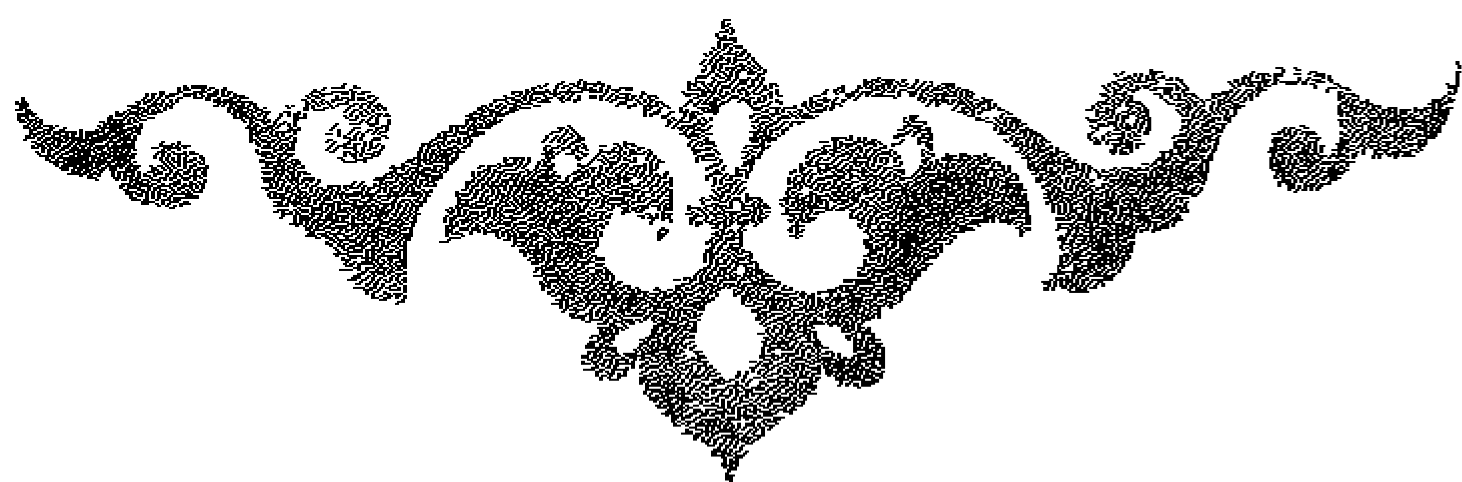
هو المحامي في مرافعته ، وهو المتحدث الودود صاحب الحضور الجذاب والفكاهة الحاضرة ، وهو صاحب الاقتراحات البناءة ، وهو الذي اقترح مع مطلع الخمسينيات إنشاء وزارة تحت مسمي ،الثقافة والارشاد القومي، تحديدا لمدلول الثقافة لديه ، وإدراكا لمعني مسئوليته كأول وزير لهذه الوزارة ، أنه مرشد قومي لبني مصر ، يؤكد هويتهم العربية الإسلامية.

هذا الكتاب قطرة من غيث اخترناه من آلاف المقالات التي سعدت مجلة الهلال بنشرها لفتحي رضوان علي مسيرة نصف قرن - وتوخينا أن تكون إنعاشا لذاكرتنا حول قضايا كان الرجل فيها الفارس المغوار .



أم الرسول محمد ﷺ

آمنة بنت وهب



الدكتورة بنت الشاطئ

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير مصطفى نبيل
سكرتير التحرير عادل عبد الصمد

مركز الادارة
دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٧ - رمضان - يناير ١٩٩٩
NO - 577 - JAN - 1999

أسعار بيع العدد فئة ٣٠٠ قرش
سوريا ١٧٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالاً - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالاً - دبي / أبوظبي ١٥ درهماً - سلطنة عمان ١,٥ ريال

ام الرسول محمد ﷺ

آمنة بنت وهب

بقلم

الدكتورة بنت الشاطىء

دار الهلال

بدر عبد الماجد أحمد على

الغلاف للفنان

محمد العيسوى

« إنمـــا أنا ابن امـــرأة من قريش تأكل القـــديد »

محمد رسول الله

مناجاة

اماه « آمنة » ...

ما تلوت من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا ؟ »

الا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانسان الذى حملته جنينا فى أحشائك ، ووضعته كما تضع كل أنثى من البشر ...

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن « عيسى بن مريم » الذى قالوا انه اله ، وهى التى جاءت « بمحمد بن آمنة » رسول الله وخاتم النبيين

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« انما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه

ترف الغنى ولا جاه المادة ، اذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه

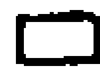


أماه « آمنة » ...

هو أبدا مجد الأمومة الذى خلد واهبات الحياة على الدهر ، وصانعات التاريخ منذ الأزل والى الأبد ، وقد توجك وحيدك العزيز بتاج سماوى من هذا المجد الأزلى الأبدى ، حين هتف قائلا :

« الجنة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الأنوثة التى حمت سر الوجود فى هذا الكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنة البشرية وهنا على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين أوصى الذى سأله عن أحق الناس باكرامه: أكرم أمك، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك، ثم ... أباك ؟ !



أماه « آمنة » ...

عن مجد الأمومة فيك ، وبطولة الأنوثة منك ، جئت أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية

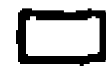
بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مر الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصول الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدنى وفاضت الخيرات

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنك كنت ملكة متوجة ، أو فارسة مغـــوارة ، أو عالمة مبتكرة ، أو زعيمة قائدة ثم لم تلدى « محمدا : رسول الله » ؟

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من أنك كنت المنجبة لهذا الرجل الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟



وهأنذى أقف خاشعة أمام صورتك ، وقد حفت بها من أمومتك أضواء باهرة الســـنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن اطالة النظر اليك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتـــراف منه ، آية عظمتك وسر خلودك !

الكتاب الاول

سيدة الأمهات

١ ـ هذه السيرة ومصادرها

٢ ـ انوثة وامومة

٣ ـ امهات الأنبياء

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة السيدة «آمنة» وأنا أعى اتم الوعى، نقص المصادر والاخبار التى تحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنى لم أجزع لذاك ، اذ قدرت أنى انما أحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم البطل الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى أوته أحشاؤها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق تأمل عملها الفذ ، ممثلا فى ولدها العظيم

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار

او قوله :

« أنا ابن العواتك من سليم »



ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء «آمنة» وأجدادها نساء ورجالا، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان

أجل هى ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها ومعارفها فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذى أصر على الاعتراف ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلون شخصيتها بما يجعل

ولدها كائنا عجيبا لم ينمه عرق ، ولا أمده أصل ، ولا غذته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ..



على أني حين مضيت في تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المشخصات الواضحة لدنياها ، ألفيت الى جانب ما يطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هي من واديه ... آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع ، وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التي لا تكذب ، والتي تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادي من عالم نفسي ، وتكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات في فهم طبيعة المجتمع

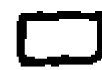
تلك الآثار ، هي ما خلفه لنا قوم رأوا في السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحي من قلوبهم المعجبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا في ذلك ولا ماتوا ، ولا خدعوا ولا خانوا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجي وراء سور الوجدان ، وبعيدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والايمان ..

وكذلك يلتقي العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا

يجوران على صواب ولا يتهمان بكذب ، فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبثا الوراثة ، مستلهما البيئـــة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متهم ..

واذا قال فيها المحـــب الوامق والمؤمن الواثق ما قال بلسان الوجدان ، مفسرا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محـــق كذلك ، لا يسىء الى الواقع الخارجى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة، وما عشق من بطولة، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشـــاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ...

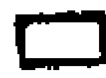


وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما اريد أن أقرره هنا، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة «آمنة»، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بروايات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيجم، أو يسمعها المؤرخ باذن التحقيق فيبرم، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم الرسول » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وطاقاتهم التعبيرية وتأملاتهم

الروحية ، فقدموا لنا بذلك كله صـــــورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها اليها ، وكيف تمثلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها فى الأدهار وسارت على الأجيال

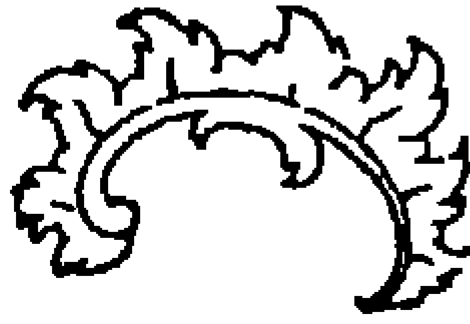
فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضـــعها ، وأمومتها ــ تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحـدثين من أساطير الأولين ــ تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه ينتزع تحليلهـــم النفسى لشخصيتها ··· وأنى لمؤرخ أن يســـتغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟



وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج:
لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبـــع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحيـــاة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب »

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هـو

ما يحلو لكثير من الدارسين ـ والمستشرقون منهم بخاصة ـ أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أني وجدت فى تلك الأساطير ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم الرسول ، أو اتصلوا بها وتمثلوها • وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية «آمنة» وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها • كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلهـــا المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتـــاريخ الحق ، وان بدت فى صورة الخيال المجنـــح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال



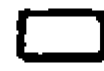
انوثة وامومة

« تغـــيروا لنطفكم
فان العرق دساس »

حديث شريف

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ، قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة الى عهد « آمنة »

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ـ فى خير حالاتها ـ متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الاسلام . وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع الســـنين والقرون ، الا أن تلك الأخبـــار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقـــال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان

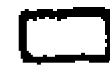


ولا نقول اننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى

لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها ، وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى سجلوه ، بعض ما يصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة فى الجزيرة قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء ، وافتديت بالمهج والأرواح ..

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما « لآمنة » من فضل فى انجاب خاتم الرسل والأنبياء ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال :

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس »



يروع الذى يتصـــل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيـــدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهـــم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمـــال النساء عن صراحة النسب ، فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف »

وقال شاعرهم :

وأول خبث المـــاء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

ونقل « ابو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :

« لا اتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « انظر الى أبيها وأمها فانها تجر باحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد احسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت الينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب: « اخترت لكم من الأمهات من لا تسبون بها »

ومثله ما أنشده « الرياشي » :

واول احسانى اليكم تخيرى
لماجدة الأعراق باد عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراهتهم للسباء

حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من الهودج حين أسرت ، فماتت لساعتها وهى تردد المثل :

« المنية ولا الدنية »

وربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مرارة الأسر . من ذلك ما رووه من أن رجلا من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء »

ففعل ، فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » زوج « عروة بن الورد العبسي » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » يوم خرج « بنو النضير » يريدون « خيبر » ، بعد أن أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن « المدينـــــة » · وكانت « سلمى » ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلت من نفسه وقلبه أعز مكان ، اذ كان شديد الحب لها والحرص على ارضائها ، لكن ذلك لم ينسها مذلة السباء ، فقالت له يوما: « ألا ترى ولدك يعيرون بأمهم ويسـمون بنى الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها وهو لا يشك فى أنها سـعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه

وخرج بها فحج ثم عرج على أهلها زائرا فتحايلوا عليـه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودة معه، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

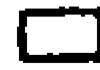
« يا عروة ، أما انى لأقول فيك ـ وان فارقتك ـ الحق: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة · لكن ، ما مر علىّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسـمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا · والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمـــر ثم تكنفونى (١)
عداةَ الله من كـــــذب وزور

ولا أكاد اعرف ـ فيما قرأت ـ أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغتـــه عند العـــرب ، وقد روى «المبرد» فى « الكامل : جـ ١ ، ص ٢٥١ » أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد اذلهن الرق وأزرى بهن التبذل، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأمه ـ وكانت جارية حبشية ـ فذلك قوله:

أشـــاب الرأسَ أنى كلّ يوم
أرى لى خالة بين الرحـــال
يشق علىّ أن يلقين ضـــيما
ويعجز عن تخلصـــهن مالى



ولأبناء العقائل الكريمات حديث ـ أشبه بالقصص ـ عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ،ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا واحدا ، ما رواه صاحب(الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟»

فقالوا : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمهـا كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها

(١) الاغانى جـ ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب

عمرو بن كلثوم وهو سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمه أمه ، فأقبل « ابن كلثوم» من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأدخلت « ليلى » الى « هند » فى قبة من جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمه أن تنحى الخدم اذا دعا بالطرف، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت«هند» لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

- ناولينى يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » فى نفور :

- لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

« واذلاه يا لتغلب ! »

فسمعها ابنها فثار الدم فى وجهه وانتفض انتفاضة المحموم وقال :

« لا ذل لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند » ، ونادى فى بنى تغلبَ فانتهبوا ما فى الرواق

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشـــــهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجـــل علينـــــا
وأنظرنا ، نخبـــرك اليقينـــــا
بأنا نورد الرايات بيضـــــا
ونصدرهن حمرا قد روينـــــا
الا لا يجهلنْ أحـــد علينـــــا
فنجهل فوق جهل الجاهلينـــــا
بأى مشيئة (عمرو بن هنـــد)
تطيع بنا الوشاة وتزدرينـــــا ؟
تهـــددنا ، وأوعدنا ، رويدا !
متى كنا لأمك مقتوينـــــــا ؟

وهو القائل أيضا :

على آثارنا بيض حســــــان
نحاذر ان تقسّـــم أو تهـــونا
اذا لم نحمهـــن فلا بقينـــــا
لشيء بعـــدهن ولا حيينـــــا

ثم لم تكتف تغلب برأس الملك ثمنا لكرامة السيدة الأم، بل قام « مرة بن كلثوم » ــ أخو عمرو ــ بعد ذلك وقتل ولد النعمان ، وأخاه ، ليطفيء جذوة من الغضب هاجهـــا تعمد المهانة لأمه

وظلت «تغلب» تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمر بن هند» مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ...

قال الفرزدق :

* قوم هم قتلوا ابن هند عنوة *

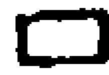
وقال صريم التغلبى :

لعمرك ما « عمرو بن هند » وقد دعا
لتخـــــدم « ليلى » أمـــه بموفق
فقام «ابن كلثوم» الى السيف مصلتا
فأمســـك من ندمانه بالمخنـــق
وجلله « عمـــرو » على الراس ضربة
بذى شطب صـــافى الحديدة رونق

وقال « الأخطل التغلبى » لجرير يفخر « بعمرو ومرة ابنى كلثوم » :

أبنى كليب ان عمىّ اللـــذا
قتـــلا الملوك وفككا الأغلالا

الىمثل ذلك الحد ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما نمنع أن تكون حادثة «ليلى أم عمرو» من أقاصيص السمارواضافات الرواة ، لكنها لن تفقد ـ فى أى وضع رضـــيناه لها ـ دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية



وقد شهد الرواة ـ الى جانب هـــذا ـ للأم العربيـــة بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمـــة بنيها،فهم يذكرون ـ فيما روى «القالى» بالأمالى ج٢/١١٨ طبعة بولاق ـ أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

ثكلت نفسي وثكلت بكري
ان لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يواري في ضريح القبر

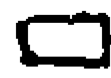
وأن « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة ابن سلمة » بقولها :

نمى به الى الذرى هشام
قوم وآباء له كرام
جحاجح ، خضارم ، عظام
من آل مخزوم ، هم الأعلام
الهامة العلياء والسنام

ويعترفون بأن « حاتما الطائي » انما ورث الجود عن امه ، ويروى صاحب الاغاني (١٦/٩٣) أنها كانت لا تبقى على شيء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألم ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها،فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها فوالله لقد عضني الجوع فلن أضيع سائلا :

لعمرك قدما عضني الجوع عضة
فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي : اليوم أعفني
وان أنت لم تفعل ، فعض الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟

وماذا ترون اليـــوم الا طبيعـــة
فكيف بتركى يا ابن أمّ الطبائعا ! ؟



كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة، فشادوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ـ فاطمة بنت الخرشب : أنجبت الكملة لزياد العبسى ، وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمـــارة الوهاب ، وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : أى بنيك أفضل ؟

فبان عليها التردد وهى تقول فى حيرة :

« الربيع ، لا ·· بل قيس » ثم هتفت : «ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها»

ـ وأم البنين، ابنة عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر· أنجبت له : ملاعب الأسنة، وطفيل الخيل، وربيع المقترين، ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء !

ـ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة

ـ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصى : هاشما ، وعبد شمس ، والمطلب

ـ وريحانة بنت معديكرب الزبيدى ـ أخت عمـــرو بن معديكرب ـ كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سباها ثم تزوجها فولدت له دريدا ، وعبد الله، وعبد يغوث ، وقيسا، وخالدا

واياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعى السميع
يؤرقني واصحابى هجوع
اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الأمومة ، وما كان من اعزازهم لها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها، نزع الى أمه وآثر الانتساب اليها ، كبنى «الخندف» ـ وهى ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر ـ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، هى « ضرية بنت ربيعة بن نزار »التى ينسب اليها « حِمى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول

ومن الملوك من نسبوا الى الأم ، كعمرو بن هند ، والمناذرة بني « ماء السماء » وهى ماوية بنت عوف بن جشم

وكثيرا ما سمعنا الشعراء يمدحون كبار الرجال بامهاتهم ، قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب ابن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل قصى « على قريش » :

ولا تنس ما أسدى « ابن لبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر

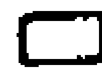
وأمـــك سر من خزاعة جـــوهر
اذا حصل الأنساب يوما ذوو الخبــر
الى سبأ الأبطـــال تنمى وتنتمى
فأكرم بها منســوبة فى ذرا الزهر

وقال « بشر بن أبى حازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :

الى أوس بن حـــارثة بن لام
ليقضى حاجتى ، ولقــد قضــاها
فما وطىء الحصا مثل «ابن سعدى»
ولا لبس النعــال ولا احتــذاها

ولهذه الأبيات قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم · حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى حازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يشتريه من مولاه بالغا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخليه سبيله

ثم دخل « أوس » على أمه « سـعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى « ابن سعدى »



ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليــل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام فى السـيرة : ١٣٩/١ » عن دور المرأة فى حلف المطيبين الذى كان بين

بني عبد مناف ومن انضموا اليهم في خلافهم مع بني عبد الدار بعد وفاة « قصي بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بني عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا

وقيل ان التي أخرجت لهم الجفنة ، هي « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب ، عمة رسول الله وتوأمة أبيه »



وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ وتؤلف فيه الكتب ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبي بكر الصديق » الذي « كان أنسب العرب »

نعرف هذا ، لكنا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا — غالبا — الى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابي العرب لم يغفلوا عن ذكرهن،وتكفي المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكي ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب، والاعتزاز بالاصالة ، والمباهاة بالخئولة

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، حتى لتسمع

« جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلا :

فما الأم التى ولدت قريشـــا
بمقرفة النجـــــار ولا عقيم
وما قرم بأنجـــــب من أبيكم
وما خال بأكرم من تميـــــم

قال ابن هشام (١) : « يعني بالأم » برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر ـ والنضر هو قريش فى قـول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة، الا عجب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفـــــع الأصول وتبعد

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهـــــم وانزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم الفوا أن يئدوا بناتهن ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شيء



على أنا لا نريد أن ننفى شيئا من هذا الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية ـ فى بعض الحالات ـ من ظلم أو استبداد، لأننا ان فعلنا ، نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفـــرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة

ثم هذا « القرآن الكريم » يقسم بالموءودة اذا سئلت ،

---

(١) السيرة ٩٦/١

بأى ذنب قتلت . وهذه كتب التاريخ العربى حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، ثم نكره أن ننظر الى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا اذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن،الى ما روى عن مظاهر هوانهن والاستبداد بهن، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن (نهضة المرأة) و (حقوق النساء) بقرون ودهور .



امهات الانبياء

بقى هناك أروع ما يقال عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة أم النبى العربى »

بقى أن نرجع الى الأديان السماوية الكبرى لنرى (الأمهات) فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا ازكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ـ عليهم السلام ـ قد عهد بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت الى جانبه فقد الأب أو غيابه ، غير انا نرى الأمر طبيعيا لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق ، اذ الأمومة فى عاطفتها الجياشة وايثارها الرائع ، أقرب الى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية التى تقوم على الروحانية ، وما كانت السماء لتجحد هذه الصلة ، ولا كانت الأديان التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها العتيد : « سنة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله »

أم اسماعيل

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

(قرآن كريم)

هذه (التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » ى تفصيل مسهب ، وهذا (القرآن) يشير اليها فى مواضع ثتى على أسلوبه المختار فى القصص • ويا لها من قصة الأمومة فى أروع مواقفها وأعنف مشاعرها ! لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها على الصغير والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة وصلاة !

ومن « هاجر » ؟

أمة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابرهيم » الى فلسطين ، بعد رحلتها المشهورة

الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن أن تهب زوجها ولدا ، ثم ... بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ، وخيل اليها أن أمتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ـ أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !

فرد عليها ملاطفا :

ـ هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين !

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » مولودها ، نفد صبر السيدة وغلب احتمالها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى اذ ذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم همّ بالرجوع من حيث جاء ، فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كانما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، أو تثور أبوته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمه بالعراء

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شيء » وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شيء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى وهن ولهفة :

ـ آلله أمرك بهذا ؟

اجاب دون أن يلتفت :

ـ أجل

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

ـ اذن فالله لا يضيعنا ...

واطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حتى غيبته ثنية الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل:

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من

الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء »

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »



وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه الحلو الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها ذاك فى الوادى الأجرد ، بين الصخور الكالحة والجبال الغبراء

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير العزيز ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعى المجهد ، وصعدت عليها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر ..

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » سبع مرات حتى نال منها التعب والاعياء ، فتهاوت على

الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتخبو رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :

« لا أنظر موت الولد »

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه الملتاعة ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة ، وسعار السباع الجائعة المحومة على المكان ، كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة

ثم ... كانت النجاة

انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة طارئة من القوة والحيوية قد تدفقت فى كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ...

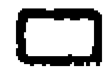
ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

قالوا : « ومرت رفقة من«جرهم» مقبلة من طريق «كداء» تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها:

ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان « مكة »



وخلدت « هاجر : الأمة المنبوذة » صورة مؤثرة مثيرة للأمومة فى حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل ـ ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى البلقع القفر ـ ليتلقى مع أبيه رسالة السماء:

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، أن طهـــرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ واذ قال ابرهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليـــلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير ـ واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منـــا انك أنت السميع العليم ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العـــزيز الحكيم »

أم موسى

« •• واوحينا الى أم موسى أن ارضعيه ، فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين»

(قرآن كريم)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد «موسى» ، وانما يخص بالذكر أمه ، ويكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين استبد فرعون ببنى اسرائيل فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب

وتقول الرواية (١) : انه رأى فى منامه رؤيا أفزعته ، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك من أرضك ، ويبدل دينك • وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه ، فجن غضبه وقلقه ، وأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى

---

(١) راجع (قصص الانبياء) للامام الثعلبى • ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء في أنحاء المملكة

وولد «موسى» اذ ذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه سبعين ألف ولد على ما يقولون (١) ـ فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أنها ـ أى القابلة ـ لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم « موسى » حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، لفت الأم ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء

وسألها الحراس فى فظاظة :

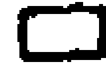
ـ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

ـ هى مصافية لى ، دخلت على زائرة

(١) العرائس للثعلبى : ١٧٥

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته



وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، واطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له »

واستجابت الأم لوحى السماء ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ، ثم أرضعت وليدها وأرقدته في التابوت واحكمت عليه الغطاء ، وألقت به في النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهي تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟

أغفل كثيرون ممن تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة النيل ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها ، فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيديها في اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب الطاغية، قد صرفها عن التفكير في أى شيء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلصت وليدها من سكين الظالم ، لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » في (قصص الأنبياء : ص ١٧٤) :

« فلما القته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشـيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريته وكفنته ، وكان أحب الى من أن القيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر »

وانى لأتمثلها الآن وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لا تكاد تقوى على مغادرته، وقلبها يعدو في أثر ذاك الذى مضى ... حتى افتقدتها ابنتها « مريم » فجاءت تلتمسها هناك، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضـت الأم المحزونة تطوف بانحائها ، وتنادى الغائب العزيز ...

ثم أنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبـرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة مستسلمة ، داعيـة خاشعة



ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مسـتقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير الجميل يرفع الى «آسية» وجها مشرقا بابتسامة وضيئة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها يتفتح له ، كأنما هو قطعة منها :

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هدية يقدمها القـدر الى أمومتها المحرومة ! !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها، يطلبون الصبى

قالت آمرة : ،

ـ انصرفوا ، فان هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل ...

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ـ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون واستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلا ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فهتفت به :

« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »

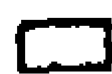
فكان جوابه :

ـ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه

ثم استدرك بعد لحظة :

ـ لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هـذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لهـا ، وعادت به الى جناحها والدنيا لا تسعها من فرط غبطتها



وهنالك فى (حى المنبوذين) ، كانت « أم موسى » تضع يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق ملحا فى طلب النـائى الغالى

قالت لأخته :

ـ « قصيه » وتتبعي أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحي هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

فخرجت « مريم » تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر في حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى « آسية » يخرجن في التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى احداهن

هنالك لاذت « مريم » بكل ما في طاقتها من شجاعة كي تدارى مشاعرها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر في حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، في صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجها :

ـ « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ »

فراب القوم ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسالونها :

ـ ما نراك الا تخفين أمرا !

فأجابت في ثبات :

ـ بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ـ لعلك تعرفين أهله، والا فما يدريك أنهم له ناصحون؟

فهزت رأسها قائلة :

ـ الأمر ابسط مما تظنون ! كل ما هناك انى أعرف فيهم الرحمة وطيب الخلق ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى وحدتها القاسية ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فامسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، والقمته ثديها ..

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء « موسى » للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد ريا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل «آسية» اليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما

قالت فى غبطة :

ـ هلا مكثت عندى يا ظئر لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟!

فأجابت الأم :

ـ بل ان شئت يا سيدتى صحبته معى الى بيتى أرضعه وارعاه ، فانى اخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف من « امرأة فرعون » فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها، لكنا لا نعجب لذاك ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف

ما دام ولدها قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف تعلق « آسية » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كي تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها اقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مرة :

اما أن تكبت عاطفتها الظماى وتخنق مشاعرها الطبيعية، كيلا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لأمومتها به بعد الذى كان من عذاب الحرمان

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بان تختار لنفسها وله المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى »

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « آسية » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها حرصا على حياة الوليد ، فاذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فبذلك قوله تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين .. »

و « أوحينا الى أم موسى ان أرضعيه فاذا خفت عليه

فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ـ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون

« وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ـ وقالت لأخته : قصيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ـ وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ـ فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ـ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين »

وقوله تعالى فى سورة طه :

« ولقد مننا عليك مرة أخرى ـ اذ أوحينا الى أمك ما يوحى ـ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ـ اذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن »

هكذا نزل الوحى على « أم موسى » وعهدت اليها السماء بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد المدخر لاحدى الرسالات الكبرى ، من المذبحة التى لم ينج منها غلام لبنى اسرائيل اذ ذاك !

أم المسيح

« .. اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ؟

ما يذكر « القرآن » له أبا ، وانما هو « عيسى بن مريم» كما دعاه كتاب الاسلام

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية الى أمه ، هذه الأم التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين

وقصة أمومة « مريم » كما روتها كتب السماء ، بالغة التأثير والعنف ، فلقد تعرضت ــ عليها السلام ــ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل: « اذ قالت امرأة عمران: رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم ــ فلما وضعتها أنثى قالت انى وضعتها أنثى ــ والله أعلم بما وضعت ــ وليس الذكر كالأنثى ،

وانى سميتها مريم ، وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ـ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، والقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم : أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون »

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين »

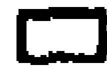
فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء وقالت :

« رب أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا. قال : كذلك قال ربك هو علىّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا »

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة الذيل نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا

قصيا ، وأقامت فى واد للرعاة هجـــره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض اتكأت الى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مذود للماشية ، وهى تقول :

« يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا »



ثم كان ما لابد أن يكون

أتت به قومها تحمله ، « قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ ســوء وما كانت أمك بغيا »

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهـــرها ، ولا أنقذها من لعنتهم ما بدا من ولدها الصغير من آيات بينات، بل رموها بالاثم وقالوا عليها «بهتانا عظيما » ،فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضـــاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعـــود بالمجد الأعظم

ويصف « الانجيل » ما عانت « مريم » من ذلك وصـــفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هنـــاك اثنى عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهيىء له أسباب العيش ووسائل التعلم

ولم يجحد الكتاب المسلمون ذلك الكفاح الصابر ، بل كتب « الثعلبى » فى (عرائسه : ٤٠٢) : « فاقامت مريم

بمصر اثنتي عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل في أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد في منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب (١) حتى أذن لها فعادت به الى « أورشليم » ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تلقى الوحى ، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل الى بنى اسرائيل ، فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أى عيسى ـ لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها بخدمتها

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يا بنى ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسم الله القدوس

« ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته

---

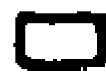
(١) الثعلبى : ٤٠٢

الدينية ، بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالهـا للدور العظيم الذى ينتظره

انصرف عنها ، ولكنهمـــا خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ٠٠

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »



وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل، والمبعوث بآخر رسالات السماء !



الكتاب الثانى

بيئة ووراثة

١ ـ البيت العتيق

٢ ـ بنو زهرة

البيت العتيق

« ... واذ بوانا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات .. »

(قرآن كريم)

سورة الحج ـ آية ٢٧ : ٢٨

لبيك اللهم لبيك !

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاق المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى النـــاس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العـــربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم » ، منذ قرابة ألف وأربعمائة عام !

يا أذن الزمان الواعية ...
ويا عين الدهر الباصرة ...
أى ألسنة للعابدين سمعت ؟
وأى وجوه هنالك رأيت ؟
وأى ألوان من البشر شهدت ؟
وأى ألوية خفقت بين يديك ؟

وأى هامات انثنت لديك ، فى هذه البقعة من الأرض ، وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السود والجبال الشم ، منذ جعل « البيت » هنالك مثابة للناس وأمنا ، وحرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروع ، ويحقن عنده الدم المهدر ، وتحمى فى حماه حياة كانت اذ ذاك مستباحة فى شرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

« ان اول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين »



يا ذاكرة الزمان الحافظة !
عرفت الدنيا بيوتا وبيوتا ..
ورأيت رسوما وطقوسا ، فى شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث ...
وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان ـ ولا يزال ـ علما شامخا وصرحا ممردا ، ترامت اضواؤه وأصداؤه الى أبعد مما ترامى اليه تأثير بيت من تلك البيوتات ، ومزار من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أوراقها أصابعك الباطشة من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحطا هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم في طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا وجيئة ، وربما التمسوا قريبا منه بعض ماء العيون ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق في قلب الفلاة ؟ !

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من اجيال البشر مرت بك قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ،. موئلا فى جوار « مكة » يتريثون عنده عابدين ، التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشيء من الطمأنينة يعينهم على مساعم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عابدة يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعز الأمان الا فى مكان ؟ !

كيف نمت معك يا زمن ، من محطة صغيرة للقوافل ،الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب،

وتتواصل حضارتا الشرق والغـــرب ، حين كانت الابل وحدها عدة السير وأداة الاتصال ؟

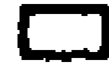
وكيف شاركت هذه البقعة في ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس والهند والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ودفعت ذلك كله الى الغرب عن طريق البحرين الاحمر والابيض ؟ !

ليس غيرك يا زمن من يستطيع أن يصف لنا بالتفصيل، الاعتبارات الاجتماعية والاقتصـــــادية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعـــــة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم الى الاســــتقرار الاجتماعي والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ، من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك كله حديثا عجبا يملأ مجلدات وأسفارا ، أنزلها القوم منـــذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فنحن لا نزال نتخذ من مثل تلك الكتب والأسفار ، مراجعنا ومصادرنا فى معـــرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لا نملك ــ الى اليوم ــ مصـادر تاريخية عن ذاك العهد الموغل فى القدم ، الا ما تركته لنا الرواية النقلية ، وعليها معتمدنا فى معرفة الأعراض العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخذ من القضـــايا الاجتماعية الكبرى

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر، الى أن

تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار عملية تقيم عليها الدرس التاريخي



منذ متى بدأ التاريخ الديني لمكة ؟

يمضي به بعض كتاب السيرة ومؤرخي « مكة » الى عهد « شيث بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا فلا نكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجاري بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت في ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار

ثم تطورت العبادة في ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابرهيم » فبدأت مرحلة جديدة في تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابرهيم » في تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجيء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه «اسماعِيل» وأمه «هاجر» هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم فامسك عليهما الحياة ، وجذب القوافل في أعقاب الرعاة

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابرهيم » في تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التي أسكنها بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم،

كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهدت بها السماء الى ابراهيم وولده اسماعيل

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ما وصل اليه المركز الدينى والاقتصادى لمكة :

« أو لم يروا أنا جعلنا لهم حرما آمنا تجبى اليه الثمرات ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » .

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« **لبيك اللهم لبيك !** »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتتخشع له الجبال الصخرية السود التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وأمراء الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا الثقات ورواتنا الأول، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك «البيت العتيق» كيف عظمت وجلت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ــ وهم خئولة اسماعيل ــ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من «بنى اسماعيل» فتركوها دون أن ينازعوا «جرهما» فى ولايتهم لقرابتهم ، واعظاما لحرمة «مكة» أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت

مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتهـــا الا هلك مكانه ، فيقال انها ما سميت ببكة الا لأنها كانت تبك ـ تكسر ـ أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا »

وهكذا أخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلة صاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول :

وقائلة والدمع سكب مبـــــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر :
كأن لم يكن بين «الحجون» الى «الصفا»
أنيس ، ولم يسمر « بمكة » سامر
فقلت لهــــــا والقلب منى كأنما
يلجلجه بين الجنــــاحين طائر :
بلى نحـــن كنا أهلها فأزالنـــا
صروف الليالى والجدود العـــواثر
وكنا ولاة « البيت » من بعد «نابت»
نطوف بذاك «البيت» والخير ظاهر
فأخرجنا منهـــا المليـــــك بقدرة
كذلك ـ يا للناس ! ـ تجرى المقادر
فسحـــت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم أمن ، وفيها المشـــاعر

ورووا أن « تبعا » الحميرى مر بقرب «مكة» فى طريقه الى اليمن ، فأتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فقالوا له :

ـ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال :

ـ بلى !

قالوا :

ـ بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبع » بذلك،لما عرفوا من هلاك من أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقـــول « السهيلى » (١) : « وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رمى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا ... وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منـه قيد الرمح . وقيل : بل أرسلت عليه ريح كنعت منه ـ أى أيبست ـ يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمــــة شديدة ... فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجا » حتى جاءه حبران من اليهود فقالا: لعلك هممت بشىء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : نعم أردت هدمه . وذكر لهما ما قال الهـذليون فصاح الحبران :

« ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوكاإليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا »

---

(١) الروض الأنف : ١ ـ ص ٢٧ ط الجمالية

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق راسه ، وأقام بمكة ـ فيما يذكرون ـ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجعه ، ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلا :

« وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه يقول : (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)

ثم يروى « لتبع » شعرا يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرم اللـ
ـه ملاء منضدا وبرودا

ونحرنا بالشعب ستة الف
فترى الناس نحوهن ورودا

ثم سرنا عنه نؤم سهيلا
فرفعنا لواءنا معقودا

وسوف نسمع فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، قصة صاحب الفيل الذى رده الله عن بيته مريضا مدحورا ...

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصوره لنا ما رووه عن السيدة «عائشة» انها قالت : « ما زلنا نسمع أن «اسافا ونائلة » ـ وهما من أصنام العرب فى الجاهلية ـ كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين ! »

وقد ذكر ابن اسحق فى (السيرة) وابن الكلبى فى (الأصنام) وياقوت فى (معجمه) نسب هذين المخلوقين اللذين مسخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة

كما يصور تلك الحرمة ، ما زعموه ـ فيما نقل ابن هشام فى السيرة ـ من « ان أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ـ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ـ الا حمل معه حجارة من حجارة البيت تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم :

انى جعلت رب من بنيه
ربيطة بمكة العليه
فباركن لى بها اليه
واجعله من صالح البريه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ما وصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلهـــــا المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهما حتى أخرجتهم من مكة ،وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر، حتى انتزعها منهم « قصى بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر » الذى هو قريش على أرجح الروايات

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه «كلاب» وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملهـــــا الى بلاده ، وبقى « زهـــــرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة» زوج أمه ، حتى تسابّ هو ورجل من قضاعة . فعيره قائلا:

ـ لست منا ، وانما أنت فينا ملصق

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ـ يا بنى ، صدق .. انك لست منهم ، ولكن رهطك خير من رهطـه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران ببيت الله الحرام

وعاد الى مكة رجلا، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه، واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبـــــة وبامر مكة ، من خزاعة

وبنى بكر ، لأنه قرشي ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفهـــا ، وبين خزاعة وبنى بكر، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم، وحكّموا « يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ العرب ، ان مكة قد بدأت بقصى عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدت فيها وظائف دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة، واللواء » وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقـــاه فى ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون أن أحدا نازعهم فيه قط

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى امورها !

فلما أدركه الكبر ورق عظمه ، عز عليه ألا يدرك ولده البكر « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقـوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى

عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم قصى قد جعله اليه من الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، اذ رأوا أنهم اولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار الحماية واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف السقاية والرفادة

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضها قصى ،وبعضها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بما كان قومه يتولون من اجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرح الناس ما حجوا معرّفهم
حتى يقال : أجيزوا آل صفوانا
مجد بناه لنا قدما أوائلنا
وأورثوه طوال الدهر أخرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معد أن قومى
كرام الناس أن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتر ؟
وأى الناس لم نعلك لجاما ؟
السنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما ؟

وذلك انه كانت للعرب اشهر حرم لا يحل لهم فيها قتال او غارة او طلب ثار ، الا ان ينسأها لهم أحد النساة

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « أبراهيم » القواعد من البيت و « أسماعيل » ، وعهد اليهما الله أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها .. »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا ، ثم خلف من بعدهم خلف نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية



وطال المدى ومكة مهوى الأفئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة اخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ...

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله المؤرخون من حديث البيت

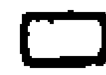
الذى اقامه « الغساسنة » بالحيرة ، والكنيسة التى بناها « ابرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب

وقد جلب اليها « الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والابنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك ايها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ــ وكما سيظل الى الأبد ــ مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »



وما تزال الدنيا ــ حتى الساعة ــ تقف خاشعة حائرة امام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر اجمل منظرا وارغد عيشا واخصب ارضا . . .

---

(١) الروض الأنف : ١/٤٠

وما يزال كثير من المستشرقين ، فى عجب من أمر تلك العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء فى واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم فى القرن العشرين فيقول :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها ...

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متســاوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء ان لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المتراميــة التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ...

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك اذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ...

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شىء ينبت فى بلدة الرسول المقــدسة ، والليــل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمته لا تدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ،

تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون ولا عدت عليها عوادى الزمان ، فلمكة ـ منذ كانت ـ موقعها الاقتصادى الفذ ، ومكانتها الدينية الاولى



أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

اجل ، ولكن لا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عيون الفتاة التى عرفها التاريخ اما خالدة

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى اليتيم الذى بعث فى مكة ، فايد بمبعثه ذاك ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونهـا جيلا بعـد جيل ، واتخذ من الكعبة التى تعبد فيها « الخليل » قبلته التى يولى المسلمون وجوههم قبلها حيثما كانوا وانى أقاموا ، ما عبد الله فى الارض !

أجل هى مكة ، بلد « آمنة » وولدها الوحيد ، ومهد رسالته ، ومثابة آبائه واجداده ، وقبلة الذين آمنوا به أمس واليوم وغدا والى الأبد . . .

بنو زهرة

« ... لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

من حديث شريف

فى يوم لم يحدده التاريخ ، حوالى منتصف القرن السادس الميلادى رات النور سليلة أسرة نابهة ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الاول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة ، وما يتبعها من امجاد وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) الولد البكر لكلاب بن

---

(١) فى (المعارف لابن قتيبة) أن زهرة اسم امراة عرف بها بنو زهرة. قال « السهيلى » فى (الروض الأنف ١/٧٩) :

« وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحق »

يشير الى قول ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب، وزهرة بن كلاب »

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : وزهرة امراة نسب اليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول

ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا

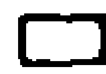
ويلاحظ عليهم أنهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصا صريحا فى أن زهرة رجل ، ثم لم يعلقوا على هذا التناقض فى الروايات

مرة بن كعب بن لؤى ، والشقيق الأكبر « لقصى » الذى ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » ـ حفيد قصى وزهرة ـ بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى ، « فاطمة بنت سعد بن سيل » أحد بنى الجدرة . سموا بذلك لأن جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر ان يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى الناس شخصا واحدا
من علمناه ، كسعد بن سيل
فارسا اضبط فيه عسرة
واذا ما واقف القرن نزل
فارسا يستدرج الخيل كما اسـ
ـتدرج الحر القطامى الحجل



عرف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون أخوتهم من بنى عبد الدار . ولعلنا نذكر هنا ما نقلناه فى حديثنا عن « البيت العتيق » من أمر

قصي حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه الا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه أبنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

« اما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك : لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تفتحها انت له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها الا انت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة الا من سقايتك ، ولا يأكل احد من اهل الموسم طعاما الا من طعامك ، ولا تقطع امرا من امورها الا فى دارك »

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بايدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون انهم بمكانتهم فى قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون أن لا ينزع منهم ما كان « قصى » جعل اليهم

وعقد كل فريق على امرهم حلفا مؤكدا على ان لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم ايديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بايديهم توكيدا على انفسهم ، فسموا المطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا الاحلاف

وقد كان «بنو زهرة» مع بنى عبد مناف فى ذاك الحلف،

ولما عبثت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحــلاف ، عبثت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينها (السيرة ١٣٩)

كما كان «بنو زهرة» مع بنى عبد مناف أخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم ابدا متجاورة ، فحين جزات قريش الكعبة ، كان شق البــاب **لبني عبد مناف وزهرة** ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم ، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ، الخ



وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل البعثة بعشرين بسنة ، وكان اكرم حلف واشرفه . وذلك ان رجلا من زبيد قدم « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى ابن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبـد الدار ، ومخزوما ، وجمح ، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا ان يعينوه على العاصي وانتهروه ، فلما راى « الزبيدى » الشر ، اوفى على جبل ابى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى انديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهــر لمظلوم بضاعتـــه
ببطن مكة نائى الدار والنفــر

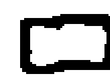
ومحرم اشعث لم يقض عمرته
يا للرجال ، وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام على اثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وقال : ما لهذا مترك !

قالوا: فاجتمعت **هاشم وزهرة** ، وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى (وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة) فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على (الا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا اقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته)

وانصفوا « الزبيدى » من العاصى

فيروى « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الاسلام لأجبت »



من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ،

وتحالفها مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول . . . من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التى توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذى لا يدرك ولا ينال . . .

ابوها « وهب » سيد بنى زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذى يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لابيها : « عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية » احدى اللواتى اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة امها ، دون ذلك عراقة واصالة ، فهى ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى »

وجدتها لامها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج ابن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، انبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل فى امومتها التاريخية

ووراثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن

---

(١) الروض الأنف : ١٠٤/١

قصى بَن كلاب » وجعلته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس » :

« ... لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما » .

وعن « انس » انه قال :

« قرا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد جاءكم رسول من انفسكم) ـ بفتح الفاء ـ وقال : انا انفسكم نسبا وصهرا وحسبا »

نسب تحسب العلا بحلاه قلدته نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار انت فيه اليتيمة العصماء



الكتاب الثالث :

زهرة قريش

١ ـ فتاة زهرة

٢ ـ فتى هاشم

٣ ـ العرس

٤ ـ البشرى

فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ افضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا »

ابن اسحاق

تفتح صباها فى اعز بيئة واطيب منبت ، فاجتمع لها من اصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع الارستقراطى المعتز بكرم الاصول ومجد الاعراق ...

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقد ظلت فى خدرها محجبة عن العيون مصونةعن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يجرؤون على رسم صورتها ، بل لا يكاد المؤرخون يعرفون عنها الا انها « كانت يومئذ افضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا » (١)

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ؛ فينتشر فى أرجاء مكة ويثير اكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسن، « وعرف لبعضهن اثر فعال فى المضاربات والمقامرات التى كانت ذائعة بين المكيين اذ ذاك ، على حين اكتفت اخريات

(١) السيرة ١/١٦٥

ـ كما يقول بودلي ـ بمعاونة التجار والمقامرين فى تبديد ما ربحوا ، فسيطرت الطبيعة الحاسبة على مشاعرهن وحبهن ، فكانت عواطفهن ترتفع وتنخفض مع السوق »



وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابن العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من أترابها فى الأسر القرشية ، اذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعا الى بيت آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه ـ على ما رأينا ـ منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة ولدى كلاب بن مرة »

أجل عرفت « آمنة » « عبد الله » قبل أن ينضج صباها ويحتويها خدرها ، وتلاقت واياه فى الطفولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع الأسرة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ، ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران عن ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا » أمر ...



ثم حجبت « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تيسرع به الى الشباب

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وامجاد

فتى هاشم

((ودخل عبــد المطلب ببنيــه العشرة على هبل فى جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح :

ـ اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم

((وكان عبد الله أحب ولد عبد المطلب اليه ، فكأن يرى أن السهم اذا أخطأه فقد أشوى ..))

ابن اسحاق

لم يكن «عبد الله» بين الذين تقدموا لخطبة «زهرة قريش» مع انه الجدير بأن يحظى بيــدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة ووسامة .

فهو ابن « عبــد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى شرف فى قومه شرفا لم يبلغه احد من آبائه ، واحبه قومه وعظم خطره فيهم »

وامه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد انجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وابا طالب » فكان من نسلها الامام على ، وجعفر الطيار

ثم ولدت « لعبد المطلب » فتاه عبد الله ، ابا محمد الرسول وجدة « عبد الله » لأبيه ، « سلمى بنت عمرو النجارية » التى كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهت رجلا فارقته »



ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » ، اذ لم يتقدم لخطبة « آمنة » ، فما كانوا ليجهلوا أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة

واى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير ابناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن «عبد المطلب» حين انتهت اليه امارة «مكة» وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، اخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب قلة الماء

وذكر بئر « زمزم » التى انقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة . . وذكر ما وعته أذناه مما نقل الآباء عن الاجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فود لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شان أى شان !

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق امله الغالى !

روى « ابن اسحاق » عمن سمع على بن ابى طالب ، يحدث حديث جده وزمزم فيقول :

قال عبد المطلب : « انى لنائم فى الحجر اذ اتانى آت فقال : « ... احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من ابيك الأعظم ، لا تنزف ابدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم »

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ،ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا هم بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ـ ذد عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين لما امرت به

وقاومت قريش ، وعيرته بقلة الولد ، على حين اصر هو على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر،رفع صوته مكبرا، فعرفت قريش انه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ـ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا « اسماعيل » ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ـ ما انا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، واعطيته من بينكم

فقالوا :

ـ فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ...

قال : لا ، ولكن هلموا الى امر نصف بينى وبينكم ، نضرب

عليها بالقداح : أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له

قالوا : « انصفت »

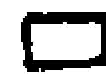
وضربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجاج ، لاينازعه فى مائها احد من قومه قريش

تلك هى قصة زمزم وعبد المطلب ، كما رواها كتاب السيرة ومؤرخو ذلك العهد من المسلمين ، أتينا بها هنا تمهيدا لحديث « النذر » الذى يتصل « بعبد الله » أقوى اتصال

ذلك أن اباه عبد المطلب ــ حين اشتغل بحفر البئر ــ لم يكن له من الولد كما ذكرنا سوى ابنه الحارث ، فلما لقى من قريش ما لقى ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرن احدهم عند الكعبة

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » اصغرهم جميعا ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين . . .

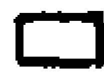


أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الاولى

قبل مبعث النبى بنحو احدى واربعين سنة ، ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كل منهم ، قدحا عليـه اسـمه ، واستسلموا للمصير المحتوم راضين

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب فيمن ذهب الى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع ان تبرح دار ابيها ، وان اقامت تترقب الانباء فى لهفة ، وهى لا تدرى اى بنى العم يختاره رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم



ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ ارجاء مكة ، متنقلا بين اندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « ابنـة وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين شباب مكة واعز ابناء « عبد المطلب » على ابيه وعلى قريش جميعا !

وتتابعت الأخبـار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، واخبر

صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة بكل ما يملك من شجاعة وارادة وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه » !

فاعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وابوهم ينقل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحِبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا اخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد اشوى » !

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وامسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم اقبل به على « اساف ونائلة » ليذبحه !

بهذا كله ، طارت الانباء فى ارجاء «مكة» حتى بلغت حي بنى زهرة ، ثم امسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة !

واقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما اقفرت اندية قريش جميعا ودورها ... ترى هل ذهبوا ليحضروا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب ابيه وهو يعانى التجربة الرهيبة ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت ان تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن انى لها ذاك وهى المحجبة المصون ؟ !

وهبها استطاعت أن تفعل ، أفقادرة هى على أن تصنع شيئا من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الصلاة والدعاء ...



وولى النهار ...

واقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يؤوبوا بعد الى دورهم

ما الذى امسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبرها أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع نحيل من الأمل وسط الظلمات المتراكبة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من انديتها فقالوا :

ـ ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : « أفى بنذرى »

فقالت له قريش وبنوه :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ـ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى طالب ـ فامسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ـ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ...

واضاف شيوخ قريش :

ـ فلتنطلق بولدك الى عرافة بخيبر ، لها تابع ، فلتسألها : ان أمرتك بذبحه ذبحته ، وان أمرتك فيه بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته ...

فنزل « عبد المطلب » على راى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد نبت بها المضاجع ، والسنة ضارعة فى جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم

واعقبت رحيلهم ايام قاربت العشرين عدا ، وآنيات الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاء

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ...

وارهفت الآذان لعلها تسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز

وتوقفت الحياة او كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » أميرها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزهر

وراح العبيد والاماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يتسللن من احياء قريش محجبات بستار من الظلمة الحالكة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على اثر ذلك الى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما انقذ جده « اسماعيل » !

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الافق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشفت عن قافلة تغذ السير الى «مكة»، نعرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبال ، يستكشفون امر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى احياء قريش تجمع الابل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر الكاهنة والنذر :

حدثوا ان القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما اراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ــ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله . . .

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ـ قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

اجابوا : عشر من الابل

قالت :

ـ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم »

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه «هاشم وقريش» ، يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه ... « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد «زهرة»

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى ابيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا ان فوجئت بابيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام

العرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله ـ اثر افتدائه من الذبح ـ فخرج حتى اتى به وهب ابن عبد مناف بن زهرة .. وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة .. »

ابن اسحاق

فيم كان مقدمهم ؟

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد اقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا من الابل وقام عبد المطلب يدعو ربه ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ...

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القدح على عبد الله . . .

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز راسه فى ارتياب ثم قال :

ــ لا والله حتى اضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب» يدعو الله،فخرج القدح على الابل ، ثم عادوا الثانية، فالثالثة ، والقدح يخرج عليها !

« واذ ذاك اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ثم تركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ! »

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لاتزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى ان تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على ان امها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر اجل واخطر . . .

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الاخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« أن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبها زوجة لفتاه عبد الله » !

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت ان افاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع امهـا الجالسة الى جوارها : احقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

ووضعت « آمنة » يدها على هذا القلب وقد خشيت أن ينم خفقانه عن عنف انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة امها . فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، واباحت لقلبها ان يخفق كيف شاء !



وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن امها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات الأسرة توافدن واحدة فى اثر اخرى ، مهنئات مباركات

واحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساء من قريش « لعبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » ، يعرضن انفسهن عليه عرضا صريحا بادى اللهفة

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن « رقية بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى » القرشية الأصيلة ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب فى ايجاز :

ــ مع ابى

قالت « رقية » :

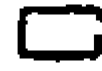
ــ لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم ، أن قبلت أن اهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذرا فى تلطف :

ــ انا مع ابى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه . .

وقيل ان « فاطمة بنت مر » ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر ابن الأثير ، كاهنة من خثعم ــ دعته الى نكاحها فأبى . . .

وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها . . .



بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زهرة قريش » حين توافدون عليها للتهنئة

وقائلة تقول :

ــ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبــد الله ، فما راين مثله وسامة وسحرا

فتعقب اخرى :

ــ يا للفداء الغالى ! هل سمعتن باحد افتدى قبله بمائة من الابل ؟

وتضيف ثالثة :

ــ هنيئا لك يا « آمنة » ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله » !

ترى هل حدث ذلك كله حقا ؟

اكثر المؤرخين الأقدمين يروونه فى غير شك ولا ارتياب ، اما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر ان الوقوف لتقصى امثال هـذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل ان يطمئن اليه ، هو « ان عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين نسمع « بودلى » يقول فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبـد الله قد اشـتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب واكثرهم سحرا وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثـيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا بحتا ، لوجدنا فى الوقوف لتقصى هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا فنيا قصصيا ، فلامعدى لنا عن الالتفات الى كل هذا والاهتمام بالصغيرة والـكبيرة فيه ، كيما ننتفع بها في التلوين الفنى لصورة التى ولدت بطلنا الأعظم

ونكاد لا نشك فى أن « آمنة » سمعت وهى على وشك الزفاف ، كثيرا عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتـاها الموموق ، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجهـا من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر جماله ونضارة حيويته

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من احاديث ، غابت « آمنة » عن المجلس وهى فيه حاضرة : كانت تفكر فى فتاها الذى لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع اليهـا خاطبا ، زاهدا فى كل انثى سواها ، غير ملق اذنيه الى ما سمع من دواعى الاغراء !

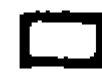
واستمرات طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذ لها ان تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلا فلا يتقدم لخطبتها أو يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعد الفداء

كم فكر فيها « عبد الله » ؟ !

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟ !

أسئلة عرضت لآمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى افاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب



كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

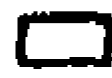
واضيئت المشاعل فى شتى ارجاء البلد الحرام الآمن ،

وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتهـا ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبـــدا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى

انها القصة التى تناقلها آباؤهم واجدادهم طبقة بعـد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع ابراهيم قواعده واسماعيل

والبطل اليوم هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى انتشرت فى الارض وتوارثت مجد الجدود

وربما خطر لبعض السـمار فى ليـلة العرس تلك ، ان يصلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » ، وربما ابعد واحد أو اكثر ، فحاول ان يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء



واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان «عبد الله» اثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئهـا لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاك اليوم تملأ عينيها من الدار التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وانضجتها عروسا

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير .

وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة واخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

واستغرقتها مشاعرها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد اضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان كحبتى لؤلؤ ...

وادرك « عبد الله » ماذا بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث اعدت هنالك مجالس للضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

وراح يريها بيتها الجديد

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عد رحبا مريحا لعروسين يبدأان حياتهما المشتركة

كان (١) ــ كما وصفه « محمد لبيب البتانونى » فى كتابه

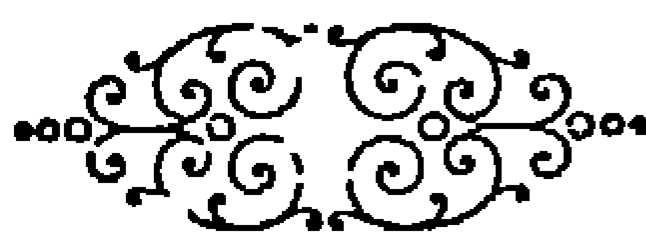
---

(١) قيل ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهب هذه الدار لابن عمه « عقيل بن ابى طالب » الذى صرع بالكوفة قبيل مذبحة كربلاء ، فباعها ولده لمحمد بن يوسف الثقفى اخى الحجاج ، فلما بني داره المشهورة بدار ابن يوسف ، أدخل دار عبد الله فيها وكانت الى جوارها، حتى اشترتها « الخيزران » وفصلتها واعادت بناءها كما كانت ، وجعلتها مسجدا

(الرحلة الحجازية) ـ ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة فى وسطها ـ بميـل الى الحائط الغـربى ـ مقصورة من الخشب ، اعدت لتكون مخدع العروس

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتهـا من سيدات « آل زهرة » ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الأعزاء الذين صحبوا العروس الى بيتها

ومضى وهن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا واعرقهم نسبا



البشرى

وسمعت هاتفـا يهتف بهـا فى رؤياها :
« انك قد حملت بسيد هـذه الأمة »

ثم آب الضيوف إلى منازلهم ، وهجع الـكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث شائق عما رأى فى رحلته الى كاهنة الحجاز

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـ هلا حدثتنى يا عبدالله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه وقال يجيبها :

« ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعت من تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن اليك وحدك !

« على أن للقصة بقية لما تسمعى بها ، لأنها حدثت فى يومنا هذا اذ كنت عائداً من بيت أبيك لـكى أهيىء دارى لاستقبال ملكتها الغالية ، وشغلت بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحدا بما كان ! »

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة واجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتهن فيه ما عرف عن مثلهن من صد وتمنع !

وامسك فترة يرنو الى صاحبته ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن اومأت اليه ليمضى فى قصته

فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

ـ أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه ابدل خلقا جديدا : مررت بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحن عنى بوجوههن معرضات ، الى حد أن دفعنى الشوق لمعرفة سر هـذا الانقـلاب ، الى أن أسأل احداهن « رقية بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضين على اليـوم ، ما كنت عرضت على بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة : « يا فتى ، ما أنا بصاحبة ريبة ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون لى ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعت بعدى ؟ »

قلت : « زوجني أبي آمنة بنت وهب »

فانشدت :

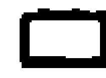
لله ما « زهـــــرية » سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى !

ولما سألت الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟

اجابت :

« مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتك فأبيت على ، ودخلت على آمنة فذهبت بها »



وصمت « عبـد الله » وسكنت العـروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجاة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « رقية بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ــ ولماذا تسألين عن رقية هذه دون سواها ؟

اجابت « آمنة » فى جد :

ــ ستعرف بعد ، فهلا أعدت لى ما قالت « رقية » ؟

فلم يسع « عبد الله » الا ان يقول :

ـ سألتها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟

فاجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة

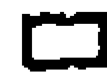
فعلقت « آمنة » بعد فترة تأمل :

ـ والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فرقية اخت « ورقة بن نوفل » وهو ـ كما تعلم واعلم ـ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

فحدق « عبد الله » فى زوجته مليا ثم هتف :

ـ ترين يا آمنة اننا . . .

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى حلم شائق مثير ، استعادت فيه كل الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات عن النبى المنتظر !



ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الالمام بها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نورالفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتالق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض

الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة . . . »



وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة ايام ، اذ كان عليه ان يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى الشام

واغلب الظن أن كلام « رقية بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى آمنة ، قد شغل أويقات السمر فى تلك الامسيات المعدودات التى قضاها العروسان معا قبل ان يفترقا ، وان الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قل من شارفها أو طمح اليها



الكتاب الرابع

العروس الأرملة

فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

وودع « عبد الله » زوجته الحبيبة حين اذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت « آمنة » بفتاها وقد احست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها الصغيرة فى حنو ، وهو يظن ان الذى بها لا يعدو ان يكون وخشة الفراق الوشيك

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ــ ان هى الا بضعة اسابيع ، ثم اعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة

فهمست فى صوت ابح مختنق :

ــ وماذا أصنع بنفسى وانت بعيد ؟

اجاب متضاحكا :

ــ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعين قلبى الذى أدعه هنا واسافر بجسم ينزع ابدا الى اعز موضع ، ويحن الى احب واجمل من خلق الله !

فتراخت يداها وانت فى ضعف :

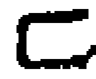
ـ ويلى يا عبد الله من ليالى الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه اليها :

ـ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك احلام عذاب . أفنسيت حديث « رقية بنت نوفل » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل ان تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها المقفر ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتصدع ...

وادركتها بعد ساعة جاريتها « بركة ام ايمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ...

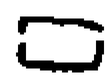


ومرت ايام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لا تبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى اثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة ، لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة



ومضى شهر لا جديد فيه سوى ان « آمنة » شعرت

بالبـادرة الأولى للحمـل ، فودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله » ثم استعادت شيئا من اشراقها ، وقد هون عليها مرارة الفـراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذي ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !



واهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة ان تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعـد ما بقى من ايام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولوعة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع ان تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشهى العذب ؟

بهـذا شغلت « آمنـة » فى الفترة التى سبقت عودة الغائب ، حتى اذا لاحت طلائع القافلة ، خفق قلبها فى عنف ، ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر ان يفتح بين آونة واخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم ايمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رات « عبـد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

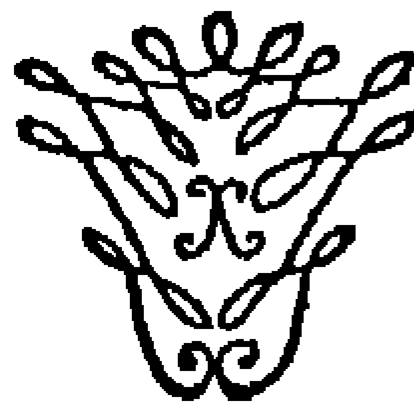
وتناهى الى اذنيهـا ضجيج اللقـاء فى الدور المتاخمة

لدارها ، فاين عبد الله ؟ ما الذى امسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى ـ فى طوافه بالكعبة اثر عودته ـ من احتجزه حينا

او لعل اباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، احتراما لشيخوخة ابيه

أو لعل ...



رسول الى يثرب

واخيرا ، احست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هى : واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة ابيها « وهب » ونفر من الأهل الأدنين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى اثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول ان تخفى دمعة افلتت من مقلتيها

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ــ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » اخبرنا رفاقه ان وعكة طارئة المت به وهو فى طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

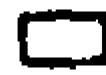
ــ هو ذاك يا آمنة ... وعكة بسيطة ولا شىء اكثر . وقد قال الرفاق : « خلفناه بيثرب عند اخواله من بنى

مخزوم » فبعثت اليه اخاه الحارث ، كي يكون معه ، ويصحبه في طريقه الينا ، فثوبي الى صبرك ، وادعي له . . . »

قالت في ضعف :

ـ افعل يا عم !

وانصرفت من فورها الى الصلاة والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها الى الكعبة خاشعين ضارعين



واتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت ان تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذي افتدى بالأمس اغلى فداء . . .

وكانت تعاودها ـ في لحظات نومها القصيرة ـ رؤيا ملحة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف يبشرها بأمجد بنوة ، فاذا آبت الى يقظتها ، شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضي اليه بالذي ترى وتسمع

غائب لا يئوب

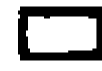
ثم ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعي اخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى مخزوم ، اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها

ودفن هناك ـ على ارجح الأقوال ـ ولم يقبل فيه هذه المرة أى فداء !



ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء

واعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت اياما لاتكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة :

عفا جانب البطحاء من زين هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتـــه المنـــايا دعوة فاجابهـــا
وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشـــية راحوا يحمـــلون سريره
تعـــاوره اصحـــابه فى التزاحم
فان تك غالتـــه المنون وريبهـــا
فقـــد كان معطاء كثـــير التراحم

ثم أمسكت لا تزيد



ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذى غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وضحلت من النواح عليه حلوق بحت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ...

كانت سنه اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما ، فيا للشباب الفتى النضير ، يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !

ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

الكتاب الخامس

أم اليتيم

١ ـ الجنين

٢ ـ الوليد

٣ ـ الرضيع

الجنين

اشرق النور في العوالم لما
بشرتها بأحمد الأنبيـــاء
« شوقي »

وفض المأتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيـدا بيثرب

كانوا فى حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

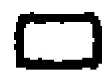
من كان يظن ، حين نحرت الابل المائة بالحرم ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصـاد للذبيح المفتدى ، على قيد خطوات معدودات ؟

بهذا شغل القوم

وفى مثله كانت « آمنة » تفكر وهى فى وحدتها تجتـر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من لوعة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبر الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، ان تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت «مكة» شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ...



حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

ـ فيم كان فداؤه اذن ، ما دام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟

ـ فيم كان العرس الحافل ، ويد القدر تحفر له لحده بيثرب ؟

ثم أدركها الاعياء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها فى حنان وقلق وارتياب ، على أنها ما لبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :

« كأنى عرفت سر الذى كان : ان عبد الله لم يفتد من الذبح الا لمهمة عظمى ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى أحشائى، والذى من أجله يجب أن أعيش ... »

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على «آمنة»

فطوت أحزانها في أعماقها ، وبدأت تفكر في ابنهـــا الذى يحيا بها ويحييها ...

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنـــة » قبل أن أقف لحظة لأشير الى اختـــلاف الروايات في وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين في رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

الأعرف بين جمهور المسلمين ، أن الرسول ولد يتيما ، وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أي خلاف فيه . قال :

« ... ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به »

ونقل « ابن هشام » عبارته هذه ، من غير أن يضـيف اليها أو يعلق عليها بما يشـعر أن القوم على عهده اختلفوا في هذا

ونقل « ابن الأثير » في (الكامل) أن « الزهرى » قال:

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيــــل بل كان في الشام فأقبـــل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل في موضع آخر (٢/١٣) أن « أبا طالب » قال للراهب « بحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخي ، مات أبوه وأمه حبلى به »

لكن « السهيلى » نقل فى (الروض الأنف) : أن «أكثر العلماء على أن عبد الله مات والرسول فى المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا »

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلى »التى ذكرناها آنفا ، بلا محاولة لتحقيقها

وأشار « البرزنجي » في (مولده) الى الخلاف اشـارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ،توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائدا من الشام » ـ ص ١٢

وعلق « عليش » على هذا في شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التى أشار اليها البرزنجي : أن أبا الرسول توفى وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانيـة وعشرين شهرا ...



وندع هؤلاء الى المحدثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفى وابنـــه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه فى يثرب وهو فى رحلة تجـارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه الذى رأى النور

فى اغسطس سنة ٥٧٠ م بعد وفاته بشهور » ـ ص ٢٨

و « فيليب حتى » فى (تاريخ العرب : ١٣٥ من الطبعة الثانية للترجمة العربية) يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لا يشير الى خلاف فى ذلك

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا «آمنة» حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام

غير انا نجد عن بعض المفكرين المحدثين ـ أذكر منهم استاذنا أمين الخولى ـ ميلا الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه، وهم لا يستندون فى ذلك الى دليل نقلى ، بقدر ما يستأنسون بما اطمأن اليه علم النفس الحديث من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل المظفر ، وهذا ـ عندهم ـ يرجح ، ان لم يثبت ، أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها ، بل أمضت أشهر الحمل آمنة مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن

ولا نمارى فيما لهذا الرأى من قوة ووجاهة ، لكن يعوزه الدليل النقلى الذى نعده حاسما فيما نحن فيه ، فلقد رأينا أكثر الرواة الأول ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله

عليه وسلم ولد يتيما ، وهذا هو الذى حملنا على أن نلوذ بالفن لكى نحمل الرواية المشهورة أقصى ما تطيق احتماله من توفير الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وثكلها المفجع ، فاطمأننا الى أن الجنين نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وأن شعورها به يتقلب بين أحشائها ، قد آنس وحشتها وهون عليها ما كانت تلقى من حزن لعله كان يكفى لأن يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليهـا ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعه عبد الله اياها قبل أن يموت ، فعاشت به وله ...

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل « قريش » على دار الفقيـد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى ما سمعت من بشرى

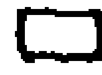
وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبـان من النصارى ، والكهان من العرب

ولعل العرب لم يلقوا بالا ـ أول الأمر ـ الى هذا الذى ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن الى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها الى تلك الذائعات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفـداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى رنان ، مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر ـ وقد كانت فيما روى ابن الأثير كاهنة من خثعم ـ عن النور الذى انتقل من «عبدالله» اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع

لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا ٠٠٠

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعـة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنوز الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد



وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابرا دون أن يشير اليه فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » ـ ص ٦٩

وأكثر المستشرقين، يأبون روايات البشرى اباء صريحا، حتى «بودلى» ـ وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ـ رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا ٠ قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشـــائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ٠٠٠ وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » (ص ٢٥ من الترجمة العربية)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من رجل مثل « بودلى » أعرف فيه الاعتدال ونضوج الرأى ٠ لقد قرر أن

محمدا ، حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع ، فما باله ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامهـــــا ورؤاها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها ـ ككل أنثى مثلها ـ أن تحلم للجنين الذى يتقلب فى أحشائها ، بمجد عريض ؟

لو أن « بودلى » استفتى علمـــــاء النفس ، لأنكروا عليه أن يســـــمى أحـــــلام « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لوليدها بأقصى ما تســـمح به بيئتها وظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عـزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشـــاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنة أحلامها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه قائلة : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟

اننا لا نقول لبودلى وأمثاله : ان النساء قبل « آمنـة » وبعدها ، قد عرفن ويعرفن فى حالة الحمـــل ، الهواتف والأحلام ، ولا نرغمهم على تصديق ما ذكره رواة العرب من أن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لك ليــلى من ولد
يقدم اقدام الأســـد
من جشم فيه العـــدد
أقول قولا ، لا فنــد

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال:

انى زعيم لك «أم عمرو»
بماجد الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبد هزبر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومه ولم يجاوز خمس عشرة سنة

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ـ أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس ...؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ـ أعشرة هدرة (جمع هادر وهو الساقط) أحب اليك أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـ ان عاد الثالثة فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعدت بهم احدى منجبات العرب

بل لا نقول لمن أنكروا على « بنت وهب » أحلامها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هـــذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن الهواتف والأحلام

وانما حسبنا أن نقول لبودلى :

ـ انك قد اتخـــذت من كتاب الســـيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتـــابك عن « محمد » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها وامتطى ابلا كما يفعلون ، وكان التمـــر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . انهم ليشاركونه فى كل ما فعله ، فهـــو بالنسبة لهم حى كفرد منهم

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنســـبة لى ، أيسر من وصـــــف جامعى من اكسفورد ، الحياة فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتـــابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ...

« انى أعرف العرب عن كثب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كمـــا يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيـــق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتاب السيرة على ما رأت

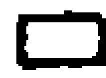
« آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

الحق انى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله امكانياتها، ويمتد اليه بصرها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، تزوجها « عبد الله ابن عبد المطلب» اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، تزوجها « وهى يومئذ ـ كما يقول ابن اسحق ، شيخ كتاب السيرة ـ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا »

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ـ فى أدنى حالاته ـ وهما أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيد المنافيين وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه خيالها ، ويمتد اليه أملها ؟



والآن فلنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن مستبد ، لم تخفف حدته الا حركة الجنين البكر فى أحشائها

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب اليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم «أبرهة» هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين

وسألت « آمنة » عبد المطلب :

ـ علمت يا عم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جد فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ـ عرفوا ألا طاقة لهم به فكرهوا معركة غير متكافئة ، تذوب فيها قريش أمام العدو ، ثم تبوء بعار الهزيمة

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاء قيل انه كان بين أمير مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء

فأجابها الأمير الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة قبل أن أسعى اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له :

ـ سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : (انى لم آت لحربكم ، انما جئت لهدم

هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحـــرب فلا حاجة لى بدمائكم) فان هو لم يرد حربى فائتنى به

وجاءنى حناطة فأبلغنى رسالة أبرهة وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابرهيم عليه السلام ، فان يمنعـه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينـــــه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه »

قال حناطة :

ـ فانطلق معى فانه قد أمرنى أن آتيه بك

ففعلت ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى بى اليه أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى الســــهل ، والوحوش فى رءوس الجبال »

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن تراه الحبشة معى على سرير ملكه ، فنــزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ـ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىّ الملك مائتى بعـــير أصابها لى

بدا على الملك كأنما صغرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فىّ وقال لترجمانه فى جفوة :

ـ قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني • أتكلمني فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟

قلت على الفور :

ـ انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه

قال الفاجر مدلا بقوته :

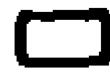
ـ ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحديا :

ـ أنت وذاك ••

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على «أبرهة» ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهـــدم البيت ، فابى متكبرا ، واكتفى بان أمر برد ابلى الىّ ••

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخـروج من مكة ، ثم قمت فاخذت بحلقة باب الكعبـة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على «أبرهة» وجنده



واطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد فى ضراعة أبيـــاته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم ان العبد يمنــع رحله فامنــع حلالك
جروا جموع بلادهم، والفيل ، كي يسبوا عيالك

ان كنت تاركهم وكعبتنـــا ، فأمر ما بدا لك !

يا رب لا أرجو لهم ســواكا
يا رب فامنع منهـــم حماكا
ان عــدو البيت من عاداكا
امنعهموا أن يخربوا فنــاكا

فرددت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم ســواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل

وخلت « آمنة » الى نفسها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليها جانبيها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيه « عبد الله »

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت الى فراشـــــها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبــابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها عــلى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره

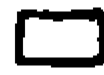


وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : كيف لم يبعث عبد المطلب رسله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم

على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حي فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ...



وأقامت « آمنة » تترقب ، حتى اذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم ، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم حدثت المعجزة : سلط الله نقمته على أصحاب الفيل، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير أبابيل، فجعلتهم كعصف مأكول

هنالك أدركهم الذعر ، فولّوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيـل بن حبيب الخثعمى » ـ وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلمـا هزمه أبرهة افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ـ فلا يكاد «نفيل» يسمع صياحهم وضراعتهم اليهأن يدلهم على الطريق الى اليمين ، حتى يرد بأعلى صوته :

أين المفـــر والاله الطـــالب

والأشرم المغلوب ليس الغـــالب

أو يقول :

وكل القوم يسأل عن « نفيل »

كأن علىّ للحبشـــان دينا !

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! »

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ـ فيما روى ابن اسحق عن يعقوب بن عتبة ـ الحصبة والجدرى قبل ذاك العـــام المشهود

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصـــلين وأناشيد الشعراء :

تنكلوا عن بطن مكة انهـــا

كانت قديما لا يرام حريمها

سائل أمير الجيش عنها ما رأى

ولسوف ينبى الجاهلين عليمها

ستون الفا لم يئوبوا أرضهم
ولم يعش بعد الاياب سقيمها



وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلي وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ـ ابن عبد الله ـ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام



الوليد!

وُلِدَ الهُدَى فالكائناتُ ضياءُ
وفمُ الزمانِ تبسمٌ وثناءُ
الروحُ والملأُ الملائكُ حولَه
للدينِ والدنيا به بشراء
والعرشُ يزهو والحظيرةُ تزدهي
والمنتهَى ، والسدرةُ العَصْماء

« شوقى »

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد · حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل «السهيلى» فى (الروض الأنف)

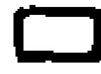
وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا انه كان فى عام الفيل (السيرة١/١٦٧)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد انها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه « محمدا »

وجاءها المخاض في أوان السحر ، وهي وحيدة في منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها ـ وقيل في رواية أخرى ان « أم عثمان بن أبي العاص » كانت كذلك معها ـ فأحست بما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات عبد مناف ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتي حسبتهن من نساء البيت الهاشمي ، لسن سوى أطياف سارية ! وخيل اليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى !



وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ، وهي لا تفتأ ترنو الى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذي أودعها اياه ، ثم رحل ...

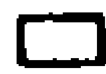
حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى في حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ،وقد

القى سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالى

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة منشدا :

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان



ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة

وكانت مكة ــ حين ذاعت فيها بشرى المولد ــ ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتدى بالابل المئة

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثويبة الأسلمية : جارية أبى لهب بن عبد المطلب » لم

تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها ، ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاء وليدها ذاك الهاشمى اليتيم ، برسالة السماء

فيقال ان « العبـــــاس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بســـنة ، فسأله عن حاله ، فاجاب ابو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خفف عنى كل ليـــلة اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعى هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم

و « ابو لهب » هذا ، هو الذى نزل فيه قوله تعـالى : « تبَّـــتْ يدا أبى لَهـــبٍ وتَبْ ، ما أغنى عنه مالـــه وما كسب ـ سيصلى نارا ذاتَ لَهَب ـ وامرأتهُ حمّـالةَ الحطب ـ فى جيدها حبلٌ من مسد »



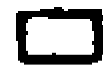
ولن يمضى وقت طويل ، حتى تمتلىء الجزيرة بأخبـــار ومرويات عن تلك اللحظة المباركة التى وضعت فيها «آمنة» ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيـــال حتى تصل الينا وقد أضافت اليها الليـــالى والأيام جديدا من مبتدعات السمار ورؤى المحبين

وهذا زماننا يصغى فى ذكرى تلك الليلة المباركة من كل عام ، الى مئات الألوف من الأصوات فى شتى المحـــافل بمختلف بقاع الأرض ، ترتل قصة المولد وتترنم بما ظهر عند ولادة محمد من خوارق وغرائب ، اذ :

« زيدت السماء حفظا ، ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ، ورجمت الجن وتدلت اليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه ـ وخرج معه صلى الله عليه وسلم نور أضاء قصور الشام القيصرية ، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه ـ وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروان سمكه وسواه ـ وسقطت أربع وعشر من شرفاته العلوية ، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه ـ وخمدت النيران المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدره المنير ومحياه ٠٠»

ويهتف أمير الشعر العربى بعد نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن من الليلة الغراء :

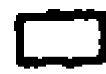
بك بشر الله السماء فزينت
وتضوعت مسكا بك الغبراء
يوم يتيه على الزمان صباحه
ومساؤه بمحمد وضاء
ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم
جمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى ، والخوارق جمة
« جبريل » رواح بها غداء !



وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لم عدل عن

أسماء آبائه وسمى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول «السهيلى» فى « الروض الأنف » : « لا يعرف فى العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه، وأنه يبعث فى الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم ·· وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ، جد جد الفرزدق الشاعر ـ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ·· ومحمد بن حمران ابن ربيعة · وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان ولد له ذكر أن يسميه محمدا ·· »



سالت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى السماء ··

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « ··· وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين ·· »

الرضيع

« ... فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ، وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ... »

« حليمة السعدية »

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأمجد غد، كما انتهت رسالة «عبد الله» منذ أن أودعه جنينا فى أحشائها ، فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، الى حد أثر فى صحتها وان لم يفض بها الى التلف او قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينتبه

بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبرفقيدهما الغالى

واقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخانق ، لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام • ويعلل « بودلى » ذلك بانه اثر لما أصابها من حزن لموت زوجها ، فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « أبى لهب » ، وكانت قد ارضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب »

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نســـاء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهـــن « محمد بن عبد الله » فزهدهن فيه يتمـــه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف،فلقد مات «عبدالله» فى حياة أبيه «عبدالمطلب» فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنىً ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشـــية « بركة أم أيمن » ، وعددا من الابل والغنم ، وانها ـ كما يقـــول الدكتور هيكل ـ لثروة ضئيلة لحفيد امير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق •

وأرهق الحزن « آمنة » ، وهى ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية،زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفال الأحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر

وكاد اليأس من اقبال مرضعة على اليتيم ، يغزو قلب

امه العامر بأشجانه ، لولا أن عادت احدى المرضعات تلتمس « محمدا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار. تلك هى «حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى » زوجة « الحارث بن عبد العزى: أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن »

ولندع « حليمة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، أو يرويها عنها «ابن اسحق» شيخ كتاب السيرة، نقلا عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » يقول :

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء ـ أى عجفاء ـ معنا شارف لنـــا ـ أى ناقة مسنة ـ والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبيينا الذى معنا، من بكائه من الجوع ، وما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها (محمد) ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتأباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك أنا انما كنـا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيـــــم ؟ ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت (محمدا) عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :

« يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها،فكانت غنمى تروح علىّ حين قدمنا به معنا ، شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان (غيرنا) قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبـــن ، وتروح غنمي شباعا لبنا . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته »



هكذا نما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بني سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ، فنطـق ـ كما يقول بودلي: ٢٩ ـ أول ما نطق ، وخطا أول ما خطا، بين أسياد البادية، هؤلاء الذين سيقاتلونه يوما ثم يخضعون له أخيرا ، ويحملون اسمه الى بقـاع من الأرض لم يكونوا ليعرفوها أو يسمعوا بها حتى يومهم ذاك .

كيف أمضت الأم سنتيها هاتين ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشيء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء

على أننا لسنا بحاجة الى من ينبئنـــا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله

وانتهزت الأحزان المطوية فى أعماقها ، فرصة وحدتها الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد بمثله ابان حملها وحين كان « محمد » معها .

ولكن أوان فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن

اشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتسلى همها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا وضياء



واستبطات عودة « حليمة » بفتاها ، ولعلها همت غير مرة بان تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته • لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضوج

واذ أحست « حليمة » اعجاب الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جو « مكة » ـ وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة ـ و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، أن كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة:

ـ لو تركت بنىّ عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبا « مكة » !

فأنكرت الأم الحنون ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب • كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع ان تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل الحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى امومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل

فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمـــــرح فى البادية ملء الصحة ملء الطلاقة والحرية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية الطليق ، ثم انثنت الى قلبها تسأله ان كان يطيــق بعد الوحيد الغالى ؟ فاذا بهذا القلب النابض بالحب والحنــو والايثار ، يدعوها الى مزيد من الاحتمال والتصــــبر ، فى سبيل ما تعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانيـــة ، وفى قلبهــــا وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليمة » راجعة الى مراعى بنى ســـعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مكثه فيهم ، لما رأوا من بركته»



لكن ، لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك الى أمه ، وهي بادية القلق

ولم تذهب فرحة اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ـ ما أقدمك به يا ظئر وقد كنت حريصة عليه وعــلى مكثه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ـ قد بلغ الله بابنى ، وقضيت الذى علىّ ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته اليك كما تحبين

ولم يقنع جوابها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشىء مما

خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى انبأتهـا بالخبر :

قالت ـ فيما روى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ـ :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشـــهر مع أخيه ـ من الرضاعة ـ لفي بهم لنا خلف بيوتنا، اذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه :

ـ ذاك أخى القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعـــا وجهه ٠ فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

ـ مالك يا بنى ؟

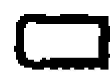
قال :

ـ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقا بطنى ، فالتمسا (فيه) شيئا لا أدرى ما هو

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ـ يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون الغلام قد أصيب ، فالحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به ٠٠ »



وأصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليهـا بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فقالت لها بملء يقينها واطمئنانها :

« أفتخوفت عليه الشيطان ؟ »

أجابت من فورها :

ـ نعم

فقالت « آمنة » :

« كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنيّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبره ؟ »

فهتفت « حليمة » :

« بلى »

واذ ذاك حدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« ... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدته وانه لواضع يديه على الارض رافع رأسه الى السماء ... دعيه عنك وانطلقي راشدة »

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئا كان قد غاب عنها ، وهتفت قائلة :

« الآن فهمت ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابني محمدا معي حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألوني عنه ، وفحصوه مليا ثم قالوا :

ـ لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به الى ملكنا وبلدنا ، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف .

فاختطفته منهم وقد هاجني ذلك على رده اليك ،وهممت أن أفعل ، لولا أن مضارب بني سعد كانت أقرب اليّ منك،

فعدوت نحوها ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلت به الحمى .»

وأكثر المؤرخين المحدثين ـ من مستشرقين ومسلمين ـ يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه « ابن اسحق » عن بعض أهل العلم ، من أن الرسول نفسه حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هـــذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر .فبين الروايتين ـ كما يقول الدكتور هيكل ص٧٣ـ تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها حياة انسانية سامية ، وانه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجـــدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حيـــاة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، أن ليست لهم قلوب يعقلون بها » ا . هـ

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء فى نقد المتن « فالحديث الذى أورده « ابن اسحق » مروى

عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحق ، « خالد بن معدان الكلاعى » وخالد هذا هو « أبو عبد الله الشـــامى الحمصى » المتوفى فى العقد الأول من القرن الثانى الهجرى، وقد ساق الحديث مرسلا فلم يذكر فيه اسم الصحابى الذى نقله عن الرسول

ومعنى هذا أن الحديث خبر واحد ـ وقد قيـــل انه لا يفيد علما ولا ظنا ـ كما أنه حديث مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مجهّل بقول ابن اسحق : « عن بعض أهل العلم »

وهو بهذا كله ، يأتى فى مرتبة من أضعف مراتب النقل، فلا يلزم بشىء ، ومن هنا لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هنـاك من قوة وصحة

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بانه يخـــالف معروف العقل ، وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتـادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو، وما نزال نشهد ذلك كل يوم فى جراحات الجسم

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنـــان ، هو أن القصة ـ سواء أجرت على لسان الرسول أم على لســـان تابعى ـ فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة

وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شيء غير المعنى الحرفى للآية القرانية : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك »

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تؤمن « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين - وفيهم الدكتور هيكل - من «أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يشير « بودلى » الى « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »



الكتاب السادس

الرحيل

« حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر امه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم »

عائشة أم المؤمنين

لنرمق « آمنـــــة » وهى تحتضن فتـــاها الوحيـد اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية اقصى امده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الـكآبة التى كانت تغشى دنيـا « آمنة » فى وحدتها وترملها الباكر ، واحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وقـد بذلت « الأم » لولدها فى تلك الفتـــرة ، اقصى ما يستطاع من عناية ورعاية ، ان كان وحيدها ، ومنـاط املها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتاب السيرة بما كان لها من اثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الاسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا »

واثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » تباشير النضوج المبكر ، ورأت فيه «آمنة» عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالمـا تمثلته ، ووعدت به فى أحلامها ورؤاها

اذ ذاك ادركت أن الأوان قد آن ، لـكى تؤدى واجبا

مقدسا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بهـا معا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الراقد

وهش الابن لفكرة السـفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وان يتعرف ــ فى الوقت نفسه ــ الى اخوال ابيه المقيمين بيثرب ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أمه غير مرة ، تردد قول الشاعر فى « أبى وهب بن عمرو : خال عبد المطلب بن هاشم » :

ولو بأبى وهب انخت مطـــيتى
غدت من نداه ، رحلها غير خائب

بأبيض مـــن فرعى لؤى بن غالب
اذا حصلت أنسابهـا فى الذوائب

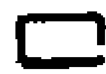
ابى لأخذ الضيم ، يرتاح للنـدى
توســـط جداه فروع الأطايب

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدات « آمنة » تتهيا لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سنوات سبع

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبـده الضاربون فى احشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لـكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان اقوى من أن تغلبـه عقبات سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من اغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز

واقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما اذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها فتاها وركبت راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية ، « بركة ام ايمن »



والقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد ، ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول امره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليه ان يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم مكة خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام فى ابانه ، ويعودوا الى حماهم الأمين ، والى الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل ، ان هى سارت حثيثا فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجعت أرجاء البيداء

صدى الحداء الحنون ، فرقت قلوب الراحلين ، وسرت فى ابدانهم نشوة غامرة ، من شجن الذكرى ولوعة الفراق

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وساعدها صمت الصحراء الا من رجع النغم ، على استرسالها فى الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء الى نداء شجى يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائى ، ورنت عيناها الى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » اشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز قبر ، ويؤوى ثراها الطيب اغلى رفات ...

فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، واسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آية من ماواها البعيد المجهول ، لتحيى الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !



وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها واقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التى بدات تتكشف من وراء جبل « أحد » ، حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتتراقص عليها ظلال النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى «يثرب» ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شـــمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حمى « بنى النجار » ...



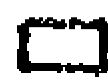
ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى امسكت بيد غلامها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء اخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى المياه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الانس بقرب الفقيد ما يروى ظمأها ويريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا ، نفّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال ...

وودت « آمنة » لو طال بها المقام فى « يثرب » ، ولعلها فكرت ــ كما يقول بودلى ــ فى أن تبقى بها ، « لولا ان اسرة محمد مكية ، ومكة هى الموطن ، فلا بد من العودة اليها »

ولا يدرى احد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الاخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى «مكة» ، وأغلب الظن أنها أفنتها فى

مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا آن لها أن تمضي ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقي ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور صاحبها للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم اسلمت نفسها الى اشجانها ، والناقة تمضي بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ...



واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت — فيما يقال — عاصفة عاتية هوجاء ، اخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كانه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة اياما ريثما هدات العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استانف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على امه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن همدت العاصفة ، أما « آمنة » فأحست انه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ...

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ،

فاخذ الصبى العزيز يجفف دمعهـــا بيده الحلوة الناعمة ، مستمرئا لذة الحنان الغامر ، وكان ينتشى فى نشوته رهبة الموقف . . .

وفجاة . . . تراخت دراعاها عنه ، فحدق فيها فرأنه ان بريق عينيها يوشك ان ينطفىء ، وأن صوتهـا يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة

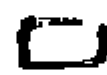
هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت :

بارك فيـــك الله من غلام
يا ابن الذى من حومة الحمام
نجا بعـــــون الملك العلام
فودى غداة الضرب بالسهام
بمئة من ابل ســـــوام »

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت انفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وانا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا . »

وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا



وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقتـه بعـد حين ، صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة امه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء . . .

والتفت الى « ام ايمن » يسالها عن سر هذه الحياة التى

انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا ان تقول دون أن تعى :

« انه الموت يا بنى » !

الموت ؟ !

ذاك الذى غال اباه من قبل ؟

ذاك الذى جرع امه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح مدى سبع سنوات طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الاعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟ !

ذاك الذى يمضى بالمسافر الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة ، ملفعة بزرقة كابية خرساء !

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة ربداء !

هنالك آب اليتيم الى « امه » فجلس قريبا منها يحدق فيها صامتا خاشعا ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الذابل ، وتغمض العينين المنطفئتين

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الأبواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها

فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها او يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق ورثاء ، وخلوا بينه وبين امه ساعة او بعض ساعة ، ثم نحوه عنها في رفق ، واضجعوها في لحدها

وهالوا عليها الرمال ...

... ...

ووجمت أرباض « مكة » وهي تشهد الصبي الحزين الذي غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشهد الموت في اعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التي طالما حدثته أمه عنها ، وهي تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله ».

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » في صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو في أثره وتلح في طلبه ...

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبي اليتيم هذه ، يوم يرجع اليها من مهجره عام الفتح ، ويدخلها ظافرا منتصرا ، ليحطم الأصنام التي شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله اكبر ! »

فترجع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالي ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال

أجل ، وجمت أرباض « مكة » وهى تشـــهد الصبى الحزين يعود اليها وحيدا مضـاعف اليتم ، فتلقـاه جده « عبد المطلب » محزون القلب ممزق الكبد ، وضمه اليـه مسبغا عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على آخر من بنيه وأحفاده ، « ومع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمـة عميقة فى نفسه ، وطالما حدث أصحابه بعد مبعثه عن رحلته تلك الأولى ، حديث محب ليثرب ، محزون لما تحوى القبور من أهله بها .. »

وفى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار قبر أمه بالأبواء ، فبكى وأبكى ...

وروى عن « عائشة » رضى الله عنها أنها قالت : « حج بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فمر على قبر أمه وهو باك حزين مغتم ، فبكيت لبكائه صلى الله عليه وسلم ... »



الكتاب السابع

الخالدة

الى هنا ، تنتهي حياة « آمنة » على سطح هذه الارض ؛ وينصرف عنها التاريخ حينا ليعود بعد نحو اربعة وثلاثين عاما ، فيفسح لهـا أعز مكان فى كتاب الخلود ، كأم للنبى البطل الذى تركته وحيدا يتيما فى بادية الجزيرة بين مكة ويثرب ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السمـاء للرسالة العظمى ، وبعثته بالدين الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس ، في مشرق الارض ومغربها !

ولقد ثوى الرسول ــ بعـد أن ادى رسالته ــ فى ثرى يثرب ، كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يئوب اليه كل حى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل» ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا تقف خاشعة امام ذلك البطل الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : « الله أكبر » « حتى كان النسر الروماني ــ كما يقول بودلى ــ يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة » واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخـرجون من جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الفـراعين ؛ ويندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمـدية أسوار الصين ، وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحة المحيط

الاطلسي فيشيدوا لدينهم دولة اسلامية فى أسبانيا معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا ابواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان فى قلب اوربا المسيحية

اجل ، وستظل العقول ابدا حيرى امام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته امه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعرف لذع الحزن ومساورة القلق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ويتزوج ، ويلد ، ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع ان يصنع تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وان يقرر مصائر دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن تلك الجزيرة القاحلة الجرداء ، ولا تحس وجودا لأهلها الذين ينتقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية الجرداء ...

وهذا « كيتانى » الذى قضى أكثر عمره فى جوار « الفاتيكان » وحمى « القديس بطرس » يشد رحاله الى الجزيرة العربية فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يعرف هناك ، سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق اتباعه به الى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق انجليزى آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من « ابن آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الابطال كما وصفه « كارليل » رغم كونه النبى الأوحد بين إنبياء العالم الذى ولد فى ضوء

التاريخ الكامل ، ولم يأت بغير كتاب عربى مبين ، يصر على بشريته ، وينحى عنـــه كل ما حف « بعيسى » قبله من قداسة والوهية

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبله او بعده ، يغدو سلوكه اليومى ــ كما يقول هوجارت ــ سواء فى الأمور الخطـيرة أو الأمور التافهة ، القانون الذى يرعاه الملايين من اتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين حتى ايامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث ان اعتبر شخص واحد ، فى اية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للانسان ، فقلدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمـــد بن عبد الله ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » كما تضع كل أنثى من البشر ، فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى قبر ابيه بيثرب ، ثم خلفته وحيدا فى الطريق الى مكة !



ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسد الطاهر تلك الحفرة النائية فى جوف الصحراء ، ان الراحلة قد تركت وراءها ذكرا عريضا ممدودا يقهر الزمن ويغلب الفناء ، ولا أحست وهى تبكى سيدتهـا فى ذاك القفر الموحش ، ان قوما ممن آمنوا بابن السيدة « آمنة » ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخيل اليهم أن الجن تنوح عليها منشدة :

نبكى الفتاة البرة الأمينة

ذات الجمال ، العفة الرزينة

زوجة عبد الله والقرينة
ام نبى الله ذى السكينة
لو فوديت لفوديت ثمينة
وللمنايا شفرة سنينة
لا تبقين ظاعنا ولا ظعينة
الا أتت،وقطعت وتينه··



سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، وام النبى المبعوث بآخر رسالات السماء !

بنت الشاطىء
(من الأمناء)



فهرس

رقم الايداع : ١٧٠٩ / ١٩٩٩
I. S. B . N
977 - 04 -0630- 2

روايات الهلال تقدم

عام وفاة ريكاردو ريس

تأليف

خوسيه ساراماجو

(نوبل ١٩٩٨)

ترجمة

عبدالحميد فهمى الجمال

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ يناير ١٩٩٩

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع. جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا - أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

بناءً على رغبة آلاف القراء

دار الهلال تقدم

الطبعة الثانية من

إعجاز القرآن

« الجزء الثاني »

تأليف : رءوف أبو سعدة

الثمن ١٠ جنيهات

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



هذا الكتاب

ارتبط اسم الدكتورة بنت الشاطىء «عائشة عبدالرحمن» بكتابة السير الإسلامية، خاصة سير أمهات المؤمنين ونساء بيت النبوة الكرام. والكتاب الذى بين أيدينا «أم الرسول محمد.. آمنة بنت وهب» من الكتب الإسلامية التى شغفت بها قلوب المسلمين والذى صدرت طبعته الأولى فى مايو ١٩٥٣ ترجمة لأول سيدة أنجبت أعظم رجل فى تاريخ الإسلام وهى السيدة آمنة بنت وهب وقد كانت فى حياتها مثلا عظيما فى رجاحة العقل، وشرف النسب، وقد عرفت بالنبل والطهر والخلق الكريم. وإذا كانت حياة آمنة بنت وهب قصيرة، فإنها فى قيمتها ، وفى العصر الذى عاشت فيه، وفيما أحدثت بعدها من أحداث خالدة، وتاريخ عظيم، تعد حياة عظيمة، وتعتبر ترجمتها من أم التراجم، وأولاها بالعناية والبحث .

وقد عنيت السيدة الفاضلة الدكتورة بنت الشاطىء - والتى كانت من أبرز كتاب الهلال منذ الخمسينات - بحياة هذه السيدة الجليلة ، فوضعت لها هذه الترجمة الوافية التى تناولت نشأتها، ونسبها وزواجها بعبد الله، ووفاته عنها .ثم حياتها بعد وفاته وولادتها للنبى محمد، وما شهدت من أحداث فى حياتها قبل الزواج وبعده حتى لحقت بزوجها خالدة فى الخالدين .

د. جمال حمدان

استراتيجية الاستعمار والتحرير





كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة مكرم محمد أحمد
رئيس التحرير مصطفى نبيل
سكرتير التحرير عادل عبد الصمد

مركز الادارة
دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٨ - شوال - فبراير ١٩٩٩
NO - 578 - JAN - 1999

أسعار بيع العدد فئة ٦٠٠ قرش
سوريا ٢٥٠ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة -الأردن ٣ دينار- الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالاً - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالاً - دبي / أبوظبى ٢٠ درهماً - سلطنة عمان ٢ ريال

دكتور جمال حمدان

استراتيجية الاستعمار والتحرير

دار الهلال

الغـــلاف للفنـان
حلمـى التـــونى

مقدمة

الصراع الذى يعيشه عالم اليوم ، هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة وقوى التحرير الفوارة ورواسب الماضي المتربصة ، ما نمطه الاقليمى ـ ان كان ثمة نمط ـ وما أصوله التاريخية ؟ وهـــذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والاوزان السياسية بين الـــدول والكتل والقارات ، وهذه الانقلابات الكاملة فى الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر الذرى ، هل هى تحـــولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما أم هى طفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ الى أين يتجـــه نمط توزيع القـــوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل ســـيخلو من الامبراطورية واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الاسلحة الذرية انتشار الحضـــارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟ وما احتمالات المستقبل بالنســـبة لسياســة وليدة كعدم الانحياز ولقوة جديدة كالعالم الثالث ؟

قد لا يكون من الصعب أن نرى نمط القوة العالميـــة المعاصر يتنضد ـ قاعديا ـ فى هيكل ثلاثى يبدأ من كتلة قديمة غربية رأسمالية استعمارية ، ليمر بكتلة أحـــدث شرقية اشتراكية تقدمية ، حتى ينتهى بقـــوة ـ وليس بكتلة ـ أشد حداثة وأميل الى الاشتراكية بقدر أو بآخر ولكنها تمتاز أساسا بأنها متخلفة اقتصـــاديا ، حديثة

الاستقلال والتحرر سياسيا • ولكن الم تكن الصـــورة تقتصر ، حتى الحرب العالميـــة الثانية فقط ، على قطبى القوتين الاوليين وحدهما ؟ بل اليست قوة المعسكر الشرقى ذاتها ، بالقياس الى القوة الغربية المخضرمة ، طارئا حديثا نسبيا لا يتعدى الحرب العالمية الاولى بصرامة ؟

النمط اذن حديث ، أو هكذا يبدو على السطح ، وهو على كل حال متطور سريع التغير • ولكن - تحت الجلد - هل هو منفصـــل حقا عما سبقه من تاريخ ؟ ان الذى يستقرىء مراحل التاريخ الســـياسى والاستراتيجى المتعاقبة يجبهه - وهو جدير أيضا بأن يروعه - دائما أو غالبا نمط ثلاثي متواتر لصراع القـــوى قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال والابعاد ، ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا فى أساسياته وجوهره • واذا كان لنا أن نستبق نتائج مثل هذه الدراسة ، فحسبنا أن نشير هنا الى نظرية مفكر جغرافى كبير مثل ماكيندر ، فقد اختزل تاريخ الصراع الاستراتيجى فى العالم فى أنه فى جوهره صراع بين قوة البر وقوة البحر يترك بينهما قوة بينية برمائية فى المنزلة بين المنـــــزلتين - ثلاثية استراتيجية أخرى تستبق ثلاثية اليوم وان لم تكررها تماما بالطبع !

ومثل هذا عن الاستعمار يقال • فالاستعمار - هـذا الذى يبدو بعامة حديث العهد ويرتبط لامر ما فى الكتابات الدارجة بالقرن التاسع عشر بوجه خاص - هو الاخـــر ظاهرة قديمة لها أصول تاريخية بعيدة بدرجة أو بأخرى •• فالاستعمار الحديث الذى يحتضر اليوم انما استوى على سوقه فى القرن التاسع عشر فقط ، أما جذوره فتضرب فى اعماق عصر الكشوف الجغرافية منذ القرن السادس

عشر وما بعده ، بل لعلك واجد بذوره الاولى قبل ذلك جميعا • وانت لن تستطيع أن تفهم نمو الاستعمار العالمي ولا تطور صراع القوى الـــدولية اذا قصرت بؤرتك على المنظور المعاصر ، أكثر مما يمكنك ان ترى ناطحة ســـحاب اذا نظرت اليها من سطحها .

والذى نود ان نؤكده بهذا هو أهمية البعد التاريخي مدخلا الى أية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسي والاستراتيجي المعاصر • وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة، والتعميمات ـ ربما ـ مبتسرة مفتعلة ، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح ولكن ليس لها عمق • ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة الى دراسة كاملة متكاملة ، اصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار في العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجي من ناحية اخرى • وبغير هذا فلن نخـــرج بقوانين علمية أو اشباه قوانين ولن نختزل التـــاريخ في معادلات اقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلما هي خفيفة الحمل في الذهن

والحقيقة ان التاريخ هو معمل الجغرافي كما قيل ، وهو كذلك مخزن الاستراتيجي الذى لا ينضب ، وكـــل منهما يستمد منه خامته ويجرى عليها تجاربه • وبالنسبة للجغرافي بالذات ، فان التاريخ اذا كرر نفسه ـ وهو قد يفعل ـ فهذا التكرار هو الجغرافيا : أعني أن الجغرافيا بهذا هي الجذر الجبرى للتاريخ ، وعملية استقطاب له وتركيز • أكثر من هذا ، ليس التاريخ كما عبر البعض الا جغرافية متحركة ، بينما أن الجغرافيا تاريخ توقف ، وهما معا اشبه شيء بقرص الطيف : اذا سكن على عجلته تعددت الوانه فان هو دار وتحرك استحال لونا جديدا واحدا

وعلى هذا الاساس يقوم البحث الحالى · فهو دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبيها التاريخى والمعاصر ، تحاول أن تتبع مورفولوجية التاريخ داخل اطار أو أطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا ، وتسعى الى أن تصب حركة التاريخ وتنقلها فى خطوط اقليمية غير باهتة او متميعة على الاقل · وعلى ذلك فالدراسة تتتبع أولا حركات بناء الامبراطوريات والتوسع الاستعمارى عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، محللين دوافعها ومحركاتها ، أنماطهـا الجغرافية وصراعات القوى فيها او من حولها ، نقـاط قوتها او ضعفها الاستراتيجي ، كما نحاول أن نستشف ونستنتج منها دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاء

كل اولئك دون أن نفرض على الحقيقة التـاريخية الموضوعية الغفل ذاتها « نظرية عاملة » بعينها او قانونا مبتسرا او شبه قانون · الى أن نصل الى الفترة المعاصرة، فبعدها يكون قد تجمعت لدينا من ناحية كل روافد التاريخ وتياراته ، وتراكمت دروسـه وتواتر تكراره ، بحيث يتجسد منطقه تلقائيا ويمكننا أن نضع أيدينا على نبضه · ومن ناحية أخرى نكون فى حل علميا من أن نحاول اخضاع هذا الركام الضخم من الحقيقة التاريخية لنظرية أو أخرى تستقطبها أو تختزلها لتكون تلخيصا أو تقنينا للتاريخ أولا ومفتاحا للتنبؤ بالمستقبل ثانيا

وفى هذه الدراسة ينبغى لنا أن ننبه الى تداخل بعدين او عنصرين لا انفصام لهما فى الواقع ، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط ، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم · وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار ، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل

القوة • بيد أنه يبقى فى النهاية أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، ان لم يكونا فى الحقيقة جانبين لنفس الشيء

ولقد يمكن ان نكتفى فى تتبع أصول الاستعمار الحديث بالبدء بعصر الكشوف الجغرافية ، ولكن لكى نفهم استراتيجية القوى العالمية لابد أن نوغل الى أبعد أعماق التاريخ لانه بالدور التاريخى الكامل وحده تبرز الشخصية الاستراتيجية الكامنة لأى اقليم • وهكذا تعود الدراسة الاصولية التاريخية الكاملة فتؤكد أهميتها وضرورتها وصولا الى كليات ودخائل الموقف السياسى المعاصر • وانها لرحلة طويلة شاقة بالتأكيد ، ولكنها شيقة طموح بنفس الدرجة ، وأكثر منها واعدة ومجزية الى أقصى حد

الفصل الأول

في العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديما قدم الانسان • فمن الممكن أن ننظر الى التاريخ القديم على أنه فصول متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات • ولكن مثل هـذه كانت أقرب الى التحركات غير الهادفة ، بل البدائية أو « الغريزية » منها الى الحركات المقننة المخططة الواعية (١)• فقد كانت البشرية لا تزال فى حالة هلامية رجـــراجة ، او هى كانت غلافا زئبقيا بعيدا عن الاستقرار والتوطن والارتباط الوثيـــق المحدد بأرض محـــددة • ونحن أقرب الى الصـــواب اذا اعتبرناها أدخل فى عداد ما يسميه والتر باجهوت بفترة تكوين الاجناس Race-Making Period منها فى فترة تكوين الامم Nation-Making ومن ثم أقرب الى الانثروبولوجيا منها الى السياسة

ومع تطور المجتمع والحضـــارة وزيادة الارتبـــاط الايكولوجى عضويا ومجتمعيا بين الجمـــاعات والاقاليم ، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسى ، تأخذ الحـــركات البشرية بالتدريج اتجـــاها أوضح نحو الاســـتعمار ، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى• ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العــالم القديم فى فجره المكتوب يتألف من سلاسل مرصـــعة كالموزايكو من

(١) G.H.T. Kimble, World's Open Spaces, Lond., 1947, pp. 9-10.

الصراعات المحلية الصغيرة او الضيقة فى مداها وحدودها الجغرافية ، واغلبها أو أخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هى « الصراع بين الرعاة والزراع »

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية فتاخذ لونا محليا خاصا . فهو اما الصراع بين « الرمل والطين » واما بين « الاستبس والغابة » أو بين « الجبل والسهل » . وقد تتداخل هذه الصراعات كلها أو بعضها فى حالات أو تتعاقب فى حالات أخرى . وكلها فى النهاية صراع بين قوى بر وبر ، بين فلاحين ورعاة ـ بمعنى آخر صراع أشباه أكثر منه صراع أضداد

فاما معادلة الرمل والطين فهى تلخص عند برستد تاريخ الشرق القديم ، حيث نجد هجرات الرعاةوغزواتهم ـ ابتداء من الآراميين الى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين .. الخ ـ تتواتر خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة الى كل المناطق الزراعية المجاورة فى الهلال الخصيب ووادى النيل ، ومثلها الى حد كبير هجمات المور من الصحراء الكبرى الغربية على اقليم المغرب

أما معادلة الصراع بين السهل والجبل فهى بحكم طبيعتها محلية اساسا ، ولذا تنتشر فى تضاعيف العالم القديم كدوامات موضعية . وهى تختلف عن انماط الصراع الاخرى فى أنها راسية لا افقية ، كما انها أكثرها قارية بطبيعتها . فنرى رعاة الجبال المحاربين يهبطون على السهول وينقضون عليها من حالق كالهيار الجليدى غزاة او مخربين : من جبال ارمينيا وكردستان الى سهول الرافدين التى هبط عليها من قبل الكاسيون Kassites فى الشمال والعيلاميون فى الجنوب ، ومن بعد الاشوريون الذين سيطروا عليها جميعا . كذلك من مرتفعات الاناضول توالى هجوم ونزول الميتانى والميديين والحيثيين على الهلال

الخصيب شرقا وغربا (١) · وفي أوربا من قلاع البلقان الى احواضها ، ومن كتلة الالب الى سهول البو ولومبارديا

أما الصراع بين الاستبس والغابه فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وتراميا ، ولو أنه لم يكن استعمارا بقدر ما كان تخريبا ولم ينشيء دولا أو امبراطوريات مثلما حطم دولا وامبراطوريات · فمنذ فجر التاريخ والاستبس الاسيوى العظيم يمثل ضد اعصار بشرى يلفظ بالموجات البشرية المتتابعة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الاراضى الزراعية الغنية التى تحف به شرقا وجنوبا وغربا

وتحت تأثير طرد البيئة الرعوية الفقيرة وما قد يعتريها من نوبات من الجفاف ، مع اغراء المناطق الغنية الرخية ، كانت جحافل الرعاة تخرج كالطوفان لتنتشر كالمروحه ، ومع الانتخاب الطبيعى القاسى الذى تفرضه البيئة وقسوة النمط البشرى الناتج ، وبفضل حركة الخيل الكاسحة ، كانت هذه الموجات تزحف آلاف الاميال لتهوى عاتية كالمطرقة على مناطق الاستقرار المحيطة

ورغم قلة عدد سكان الاستبس كثيرا بالنسبة لسكان النطاقات الزراعية ، فقد كان لرعاة الاستبس دائما التفوق العددى فى النقطة المحددة التى يختارونها لضرباتهم تلك · فاذا أضفنا الى هذا مرونة حركة الخيالة ، سواء بالحصان أو بالعربة وهى اختراع استبسى أصلا ، والتى تتمثل فى « الكر والفر » كتكتيك استبسى أصيل به يحدد وحده مكان وزمان المعركة ، ادركنا ميزة الاستبس على المزروع استراتيجيا (٢) · ومن هذا جميعا نفهم كيف أمكن

---

(١) James Fairgrieve, Geography & World Power, Lond., 1941, pp. 38 et seq.

(٢) Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, in New Compass of the World, N.Y., 1949, p. 279.

« لتراب الرعاة » المخلخل هذا كما يسميه برون (١) أن يسيطر ويتغلب على « الارســــــابات البشرية » الكثيفة المستقرة فى تضاعيف الغابة أو أودية الانهار

ولكن نقطة ضعف الاستبس الاصيلة والتى تصم دوره التاريخى بالعقم والسلبية فى النهاية هى انه ـ بحـــكم حركته وســــيولته تلك بالذات ـ عجـــز عن أن يقيم امبراطوريات دائمة أو أن يستقر فى دول ثابتة راسخة . فقد كانت موجاته تأتى كالزوبعة ، وكالدوامة تختفى . فاما أن تعود وترتد بعد السلب والنهب ، واما أن تتلاشى وتذوى فى دويلات حاجزة على حدود المزروع ولحسابه ـ بوليس امبراطورى او حرس حدود بمعنى آخر . ولهـذا فان مكان الاستبس فى الاستعمار أقرب شيء الى الاستعمار السلبى ، ودوره التاريخى أشبه بالنيازك والشـــهب بين النجوم : ضجيج وبريق رهيب سناه ، لا يلبث أن يستهلك نفسه ويحترق بنفسه

فاذا ما تتبعنا موجات الاستبس فى التاريخ القديم (٢) وجدناها تتجه الى الصين أكثر منها الى الهنـد ، أولا لأن على باب الصين تقع منشوريا وهى محيط استبسى ومحطة احتشاد وانطلاق للاستبسيين ، وثانيا لان الصين لا تملك حائط الهملايا ، ذلك « السور الطبيعى العظيم » الذى حمى الهند بقدر الامكان من ضغوط الاستبس ، أما الصـــين بأنهارها وسهولها فكانت مفتوحة لهذا التيفون (والكلمة مأخوذة عن الطوفان العربية) (٣) البشرى ، فكان عليها

---

(١) Jean Brunhes, La Géographie Humaine, Paris, 1925, t.II, p. 802.

(٢) Thomas Quayle, «Geography & Language». Geog. Teacher, 1917-8, p. 81.

(٣) Edmond Demolins, Comment La Route Crée le Type social, Paris, t.I.

أن تبني سورها الصناعي العظيم في وجههم ٠٠ دونجدوي٠ ويسجل التاريخ موجتين هامتين في تلك الفترة ، غـزوة كبرى في القرن الثالث ق ٠ م كان من جرائها مباشرة بناء ذلك السور ، ثم موجة أخرى في القرن الثاني الميلادي

اما غربا ، فقد اتخذ الاستبس طريقين ووجهتين ، اولا طريق الاستبس المرتفع على طول هضاب ومرتفعات وسط وجنوب غرب آسيا ابتداء من منغوليا حتى ايران ٠والوجهة هي الشرق الاوسط الخصيب ٠ فهؤلاء هم الذين اسقطوا آشور ، ومنهم جاء الهكسوس الى مصر ٠ ولعـل موجـة الهكسوس هي الموجة الوحيدة في التاريخ القـديم التي استطاعت أن تضرب من قلب الاسـتبس بعيدا الى حـد الوصول الى مصر ٠ ولكن الهكسوس لم يخضـعوا مصر جميعا بل شمالها فقط ، ولم يلبثوا فيه طويلا عند ذلك

اما الطريق الثانية فهي الاستبس المنخفض على طـول السهول العظمى في قلب آسيا وشرق اوربا ابتـداء من طوران حتى المجر ٠ وكان هذا في الحقيقة اخطر طـريق طرقه الاستبسيون وارتبطوا به وارتبط بهم ٠ ولهم معـه ميكانيكية خاصة فريدة في بابها وخطيرة في نتائجهـا ٠ فكممر سهل قاري متصل Durchgangsland تتجـاوب اجزاؤه كما لو بقانون الأواني المسـتطرقة ، كانت كل حركة تبدأ من القلب ـ قلب الاستبس في آسيا ـ تدفـع بالجماعات الرعوية الواقعة غربها ، فتـدفع هذه بمـا بعدها غربا ، وهكذا حتى تدفع الاخيرة الزراع في شرق أوربا ووسطها (١)

وبهذا التأثير والدفع غير المباشر لعب الاستبس الاسيوى، دورا خطيرا في تشكيل تاريخ وتكوين اوربا ، حتى أصبح

---

(١) جمال حمدان ٠ انماط من البيئات ٠ القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧٧

تاريخها منذ ذلك الحين لا يفهم الا كجزء فى الحقيقة من تاريخ أوراسيا ككل (١) ولما كان الجيران المباشرون للامبراطورية الرومانية هم برابرة التيوتون والجرمان الذين جمعوا بين الرعى والزراعة ، فكثيرا ما كانت حركات البرابرة الاسيويين تنتهى بتحريك البرابرة الاوربيين ليغيروا على الامبراطورية

ففى أوائل العصر المسيحى وخاصة فى القرنين الثالث والرابع اشتدت غارات القبائل الجرمانية من الالماني Allemanni والقوط والوندال والفرانك « الفرنجة » على الارجح نتيجة لضغط برابرة آسيا عليهم من الخلف (٢) وأدى تغلغل هذه الغزوات فى جسم الامبراطوريه الى تكوين امارات داخلها حتى انتهت بانهيار الامبراطورية . وفى القرن الخامس وصل الاسيويون بأنفسهم الى حدود الامبراطورية فى شكل الألان Alans والهون تحت قيادة اتيلا الهون المشهور

وقد كانت موجة الهون من أعتى ما تعرضت له روما واكثرها تخريبا وتدميرا . وقد اتخذوا من استبس المجر ـ حوض الفولد Alföld الكبير أو البوشتا Puszta ـ نقطة ارتكاز للهجوم على الامبراطورية التى كانت بالنسبة للبوشتا فى موقع كموقع الصين بالنسبة لاستبس منشوريا . فاندفع اتيلا من البوشتا غربا حتي فرنسا ، لكنه صد أخيرا عند شالون . وقد يكون فى هذه الهزيمة مغزى هام لان معناها أن رعاة الاستبس لم يفشلوا الا حين خرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية (٣)

ومع ذلك فقد كان أثر الهون فى تشكيل أوربا بعيد

(١) Halford J. Mackinder, The Geog. Pivot of History, Lond., 1951, p. 31.
(٢) Fairgrieve, p. 106-8.
(٣) Demolins, loc. cit.

المدى ، فربما كنتيجة لضغوطهم قفز الانجلز والسكسون من غرب القارة الى الجزر البريطانية ليؤسسوا انجلترا ، بمثل ما هرب سكان اكويليا وبادوا فى ايطاليا بعد تخريبهما المباشر الى الجزر الساحلية المواجهة ليؤسسوا البندقية • وعدا هذا ، فكرد فعل للخطر الهونى تحالف الفرانك والقوط والرومان لاول مرة فى شالون ونما بينهم وعى قومى جنينى ، وبهذا كان الهون فى الحقيقة يصنعون فرنسا الجديدة بوحدتها وقوميتها (١)

على أن الهون ككل سرعان ما تفتتوا بعد وفاة أتيلا نفسه وتحاربوا وارتدوا شرقا الى مصدرهم الاصلى ، ولو أن قلة منهم استقرت نسبيا فى الزراعة وحاولت الامبراطورية تثبيتهم بكل الوسائل كمنعهم من العودة أو اغرائهم بامارات وولايات حدية خاضعة لها

على أن خطر الهون لم يرتفع الا ليتلوه خطر الافار Avars فى القرن السادس ، وكان لا يقل عن سابقه فى التخريب والتدمير • وقد اتخذوا من سهل المجر الاستبسى مركزا لحكمهم عدة قرون • وكنتيجة مباشرة لضغط الافار طردت قبائل اللونجبارد Longobards المتبربرة وقذف بهم من تخوم الامبراطورية حتى استقرت فى سهل لمبارديا ــ ومن هنا الاسم • وبالمثل يعود انشاء شارلمان لمملكة النمسا الى خطر الافار ، فقد أسسها لتكون دولة حاجزية وكموقع أمامى للدفاع عن الامبراطورية (٢)

وفى مؤخرة الافار أتى البلغار Bolgar من منطقة الفولجا ــ لاحظ وحدة اشتقاق الاسمين (٣) ــ ليذوبوا

---

(١) Mackinder, op. cit., pp. 31, 35.
(٢) Ibid.
(٣) W. Gordon East, An Historical Geog. of Europe, Lond., 1950, p. 217.

فى النهاية فى وسط السكان الاصليين من السلاف فى المنطقة التى تستمد اليوم اسمها منهم « بلغـــاريا »٠٠ وكانت هذه آخر ما أرسل الاستبس فى صراعه مع الغابة قبل أن تبدأ العصور الوسطى .

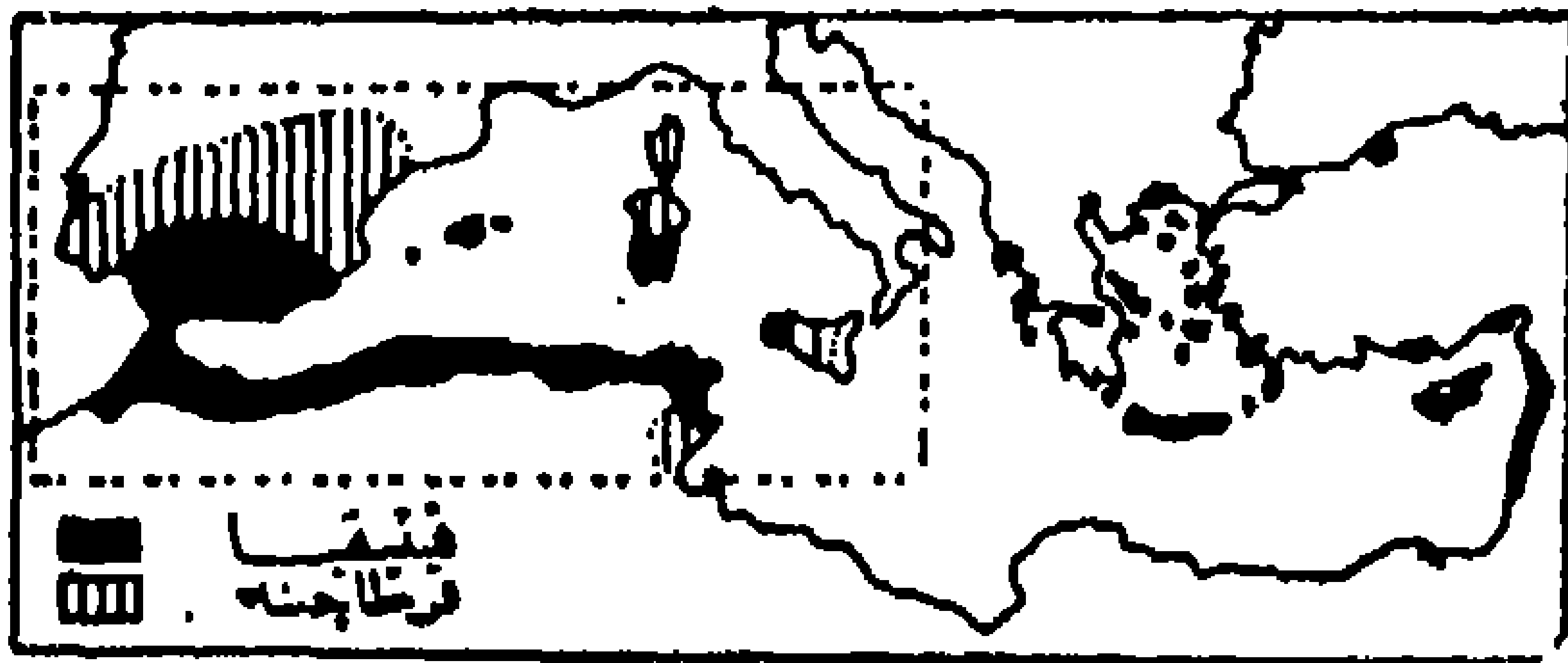
بين البر والبحر

تلك قصة الصراعات التاريخية المختلفة فى العالم القديم بين قوى بر وبر ٠ ولكن على الماء ينبغى أن نضيف صيغة أخرى أصيلة هى « الصراع بين البر والبحـــر » ، بين الفلاحين والملاحين ، وبينما تشتعل الصراعات السابقة من أجل « الموضع » أساسا أى من أجل الثروة المحلية الزراعية الغنية ، فان صراع البر والبحر يذكيه الفوز بالموضـــع والموقع معا ٠ فكثيرة هى جدا حركات الاستعمار القـــديم التى قامت بها جماعات بحرية من سكان الجزر والسواحل قاصدة جزرا وسواحل أخرى أو منـــاطق برية داخلية تماما

وقد كان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه النشاطات التعميرية أو الاستعمارية ٠ فكمشتل مبـــكر ممتاز للبيئات البحرية والفنون الملاحية ، نجـــد موجات الاستعمار البحرى تقطع البحر فى كل اتجاه : من فينيقيا الى قرطاجنة ، من أثينا الى آسيا الصغرى وايطاليا ، ومن قرطاجنة الى ايبريا ٠٠ الخ ٠ ومما ساعد لا شك على دفع هذه الحركات عوامل الطرد الطبيعية ، فثمة حلقة جبلية تطوق البحر فى معظمه ولا تترك الا عقدا متقطعا ودقيقـــا من السهول الساحلية لا تكفى سكانها ، فتلفظهم الى البحر

وسنرى بسهولة أن كل هذه الاستعمارات كانت تتم فى وسط بيئى وجغرافى واحد هو حوض البحر المتوسط ببيئته الطبيعية المعروفة ، فلم تكن لذلك تستدعى تغيرا

كبيرا فى نمط الحياة او تثير مشكلة التأقلم فى وجـــه المستعمر النازح (١) • كما سنرى ان المحيط الجغرافى الذى تمور داخله هذه الحـــركات هو ـ كبحر داخلى Mare internum ـ مجال محدود اقليميا ولا يزيد فى ابعاده كثيرا عن ابعاد الصراعات البرية المحضة السابقة ان لم يقل • ولكن الحقيقة ان كل هذه الحركات هى اقرب فى جوهرها الى ان تكون صراعا بين قوى بحر وبحر اكثر منها الى الصراع بين قوى البحر والبر بمعنى الكلمة •وحين نصل الى هذا اللون الكامل من الصراع تأخذ الصورة ابعادا جغرافية جديدة تماما



شكل (١) فجر الاستعمار البحرى فينيقيا وقرطاجنة

وقد تطلعت قوة البحر أول ما تطلعت الى التوســـع الاقليمى فى الاراضى المقابلة او المجاورة او المحيطـــة على اليابس • وبدأ بهذا خلق الامبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة فى التاريخ Thalassocracies والتى ستكون بمثابة نمط أولى بدائى Prototype لامبراطوريات الاستعمار الاوربى فى عصرنا الحديث

(١) Kimble, p. 17.

فكانت اليونان اول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الايجى لتشمل غرب آسيا الصغرى وأجزاء من ايطاليا Magna Graecia وايبريا وشمال افريقيا وليبيا ومصر والشام والعراق • ورغم أن الاستعمار الاغريقى كان ساحليا في جوهره ، وحتى على السواحل كان يتالف غالبا من « جزر » تعميرية متقطعة ـ « كالنمل والضفادع حول بركة » كما عبر أفلاطون (١) ـ فانه بدأ ما أصبح يعرف فيما بعد بنظرية « وحدة البحر المتوسط » حيث جمع بين سواحله جميعا فى ظل نظام سياسى امبراطورى واحد (٢)

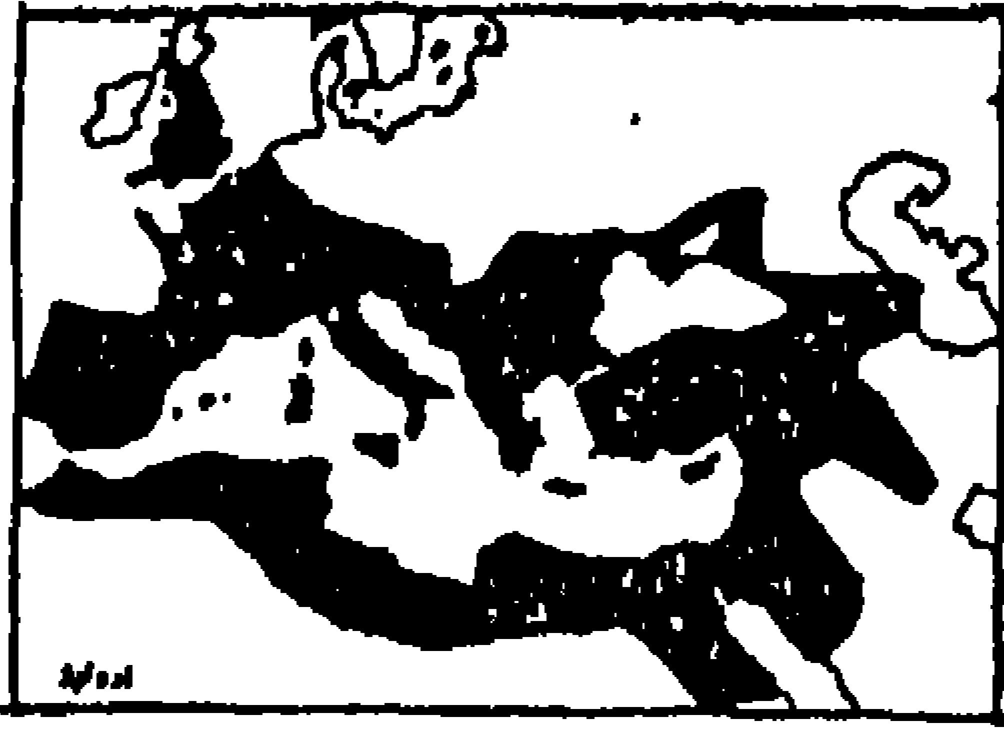
وبعد اليونان نجحت روما فى خلق امبراطورية ارتكزت على البحر ولكنها لم تلبث أن تغلغلت فى البر حتى اصبحت « الطرق الرومانية » أخطر أثرا فى هيكل شبكة الامبراطورية من الخطوط البحرية ، والفيالق المشهورة Legions أبعد مدى من الزوارق الرومانية المعروفة Galleons • وقد ابتلعت روما الامبراطورية الاغريقية كاملة في الشرق الاوسط والادنى القديم ، وتمددت بعدها لتشمل كل أوربا جنوب الدانوب وغرب الراين ، بالاضافة الى أنها قفزت المانش لتضم انجلترا السهلية • وفى هذا المجال المترامى فرضت روما « السلام الرومانى » Pax Romana بقوتها عدة قرون (٣) •

---

(١) Gordon East, p. 3.

(٢) G.F.Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 170.

(٣) East, pp. 3-4; Fairgrieve, pp. 90-92.

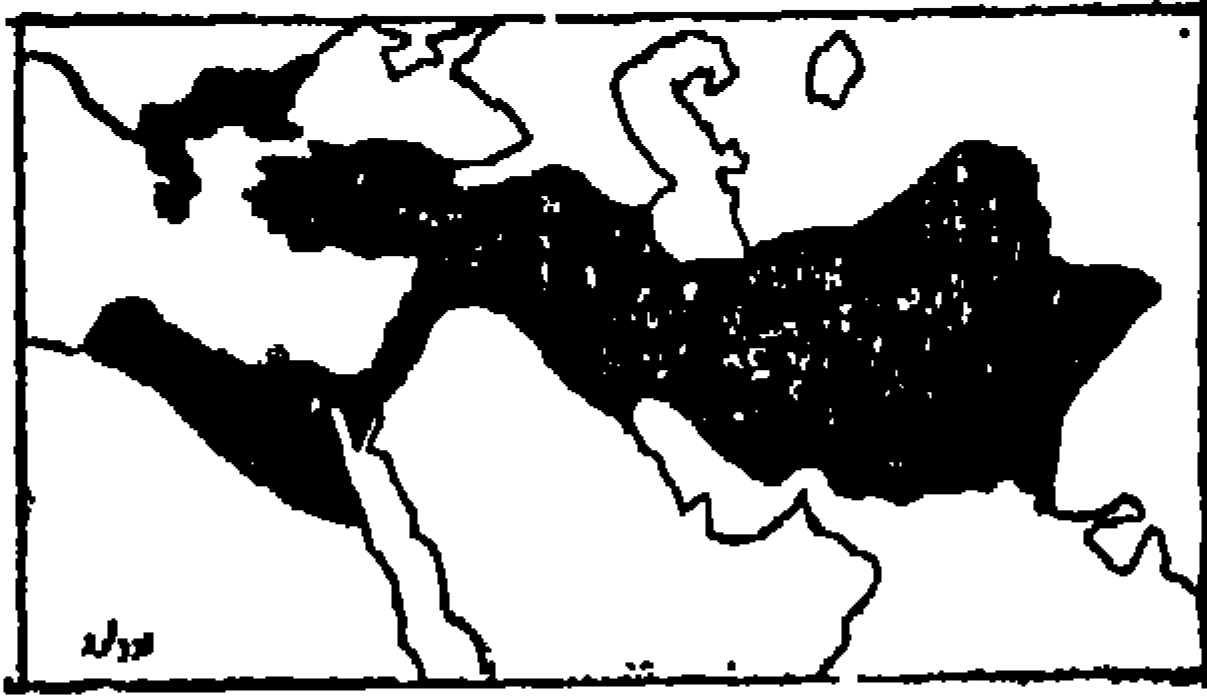


شكل (٢) الامبراطورية الرومانية

وواضح أن هـذه الابعـاد الامبراطوريه طفـرة جـديدة فى سجل الاسـتعمار العسكرى لم يسـبق لها مثيل فيالتاريخ ، وصـلت « بوحـدة البحر المتوسط » الى منتهاها وجعلت من ذلك البحر بحيرة رومانية ـ « بحـرنا Mare Nostrum كما كانوا يفاخرون ـ وبحرا مغلقا Mare Clausum شـبه بنواة للامبراطورية ، هذا بينما ترامت حدودها الى تخومها الشهيرة Limes التى تتراوح بين النهر فى وسط اوربا والغابة فى غربها ، والجبل فى انجلترا ، والصحراء فى أفريقيا ، والتى تقف سدا حاميا ضدالقبائل المتبربرة . ويلخص توينبى الامبراطورية الرومانيـة فى انها المثال النموذجى لما يسميه ـفى حدود العالم المسيحىـ « بالدولة العالمية » Universal State (١)

ويأخذ الصراع بين البر والبحر بعد ذلك أبعادا أكبر ويتمدد الى آفاق اقليمية مترامية حقا حين يصل التوسـع الاقليمى على اليابس بالقوىالبحريةالى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة . فهنا تبدأ تلك المبارزة الاستراتيجية وذلك الصراع التاريخى المرير الممطوط الذى سيصبح فيما بعد النغمةـالرئيسـية السائدة فى صراع القوى الحديثة

(١) C.B Fawcett, Geography & Empire, in Geog in the 20th Century, Lond., 1951, p. 419.



شكل (٣)
امبراطورية الاسكندر

وتبدأ هذه القصة بأثينا وفارس ، فقد كانت هاتان في العصور الكلاسيكية هما كل القوى الكبرى في المعمور القديم ، وظل الصراع بينهما سجالا في حروب طروادة قرونا طويلة . وكما وصلت جيوش كزركسيس Xerxes برا حتى ثرموبيل الشهيرة بعد لفة كاسحة عبر النهرين وآسيا الصغرى ومقدونيا الى أن هزمت بحرا في معركة سلاميس الحاسمة ، كانت اكتساحة الاسكندر الخاطفة التي سجلت قمتها في معركة أربلا (اربيل) والتي وصلت الى الهند شرقا ، أول امبراطورية من هذا المقياس شبه القاري في التاريخ . واذا كان النصر من نصيب قوة البحر ، ففي كلا الحالين استولى كل من الطرفين على المنطقة البينية في الشرق الاوسط بالضرورة (١)

ثم تتكرر نفس المعادلة في الصراع بين روما وريثة أثينا والبارثيين ورثة فارس ـ وكلمة فارس تحريف لكلمة بارثيا (ومعنى كلمتي روما وفارس وحده يعكس مدى قوتهما : Hroma = الجبارة ، Persae = المخربين) وتحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البينية في الشرق الاوسط ، الا أنه نظرا لبعد

(١) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, pp. 127-133.

مراكزهمـــا المتطوح يقع شرقه لبارثيا (العراق) وغربه لروما (الشام ومصر) ، بينما ظلت صحراء العرب بينهما منطقة حاجزية • ومرة ثالثة حين انكمشت قوة البحـر من الامبراطـورية الرومانيـــة الى الامبراطـورية الرومانيـة الشرقية (بيزنطة) وورثت الدولة الساسانية قوة البـر البارثية ، تحققت نفس المعادلة في أطرافها الاســـاسية وبنفس النتائج بالنسبة للمنطقة البينية (١)



شـــكل (٤)
الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) •

والنتيجة الهـامة التي يمكن أن نخرج بهـــا من هـذه الصـورة المتـواترة في الصراع بين قوى البر والبحر هي أنها ، وقـد تضخمت وتطاولت أذرعتهـا الى أبعـاد شـبه قارية ، قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التي تفصل بينها وواعية باستراتيجية الموقع • فقد شـعرت قوى البر الداخلية ، بحكم أنها شبه حبيسة في قاريتها ، بأنها مغلولة اليد في صراعها مع قوى البحر التي تمتـاز بمرونة الحركة وسهولة الانطلاق على الماء ، ولا بد لها في مواجهتها من السيطرة على المناطق الفاصلة التي تتاخمهـا

(١) جمال حمدان • دراسات في العالم العربي • القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٤

من ناحية وتطل على البحر من الناحية الاخرى · وبالمثل وجدت القوى البحرية نفسها محتاجة الى اجتياح هذه المناطق لتطويق القوى البرية والوصول اليها

وبهذا وذلك أصبحت هذه المناطق البينية ، الامفيبية بطبيعتها ، منطقة صراع وارض معركة بين الطرفين القطبيين · اصبحت محصورة بين شقى الرحى تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى ، واتضحت حساسية موقعها الاستراتيجى فى هذا الاطار · ولا تتمثل هذه الخاصية كما تتمثل فى منطقة الشرق الاوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا فى جانب وروما فى جانب آخر · وقد يبدو فى هذا المنطق ـ مؤقتا ـ أن المنطقة بحكم الطبيعة وبأمر الجغرافيا ضحية موقعها الجغرافى الاوسط، ولا أمل لها فى السيادة ولا مفر لها من التبعية لقوى البر أو البحر · ولكن هل هكذا درس التاريخ اللاحق ؟

الفصل الثاني

العصور الوسطى

الدولة الاسلامية العربية

ونحن ننتقدم خطوة أخرى نحو فهم استراتيجية الصراع التاريخى حين ننتقل الى العصور الوسطى التى تفتتحهـا الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذرى فى تلك الاستراتيجية • فقد خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة ليبنوا دولة لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة ولم تلحقها من بعد الا امبراطوريات العصر الحديث وحدها• بل هى فى نظر « ماكيندر » الامبراطورية العالمية World Empire الاولى فى التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون (١)

فمن أطراف الصين الى أبواب فرنسا ، ضمت دولة العرب والاسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة ايران ـ سجستان وخراسان وفارس ـ الى جانب العالم العربى بتحديده الحديث ، مضافا الى ذلك جميعا شبه الجزيرة الايبرية الاقليلا أو المغرب الاوربى أو المغرب الثانى كما كان يسمى • بل لقد طغت هذه الموجة المدية على شطر كبير من شرقى هضبة الاناضول ـ أرض الروم ـ

(١) H.J. Mackinder, Democratic Ideals & Reality, Pelican Books, 1944, p. 74; Geog. Pivot, p. 39.

حيث كانت التخوم الشهيرة (الثغـــور والعواصـــم) بين الخلافة وبيزنطة ، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا أنهـــا ارتدت فى ٧١٨ ، كما أرسلت فى الغرب ألسنة متقدمة الى فرنســا وســويسرا ولو أنها ارتدت فى النهاية فى معركة تور ٧٣٢



شكل (٥) الدولة العربية الاسلامية : قوة برمائية اخضعت قوى البر والبحر

وفيما بين الهامشين انقلب ميزان القـــوى فى البحـــر المتوسط رأسا على عقب ، فبعد أن كان الساحل الجنـوبى الافريقى ـ الاسيوى يخضع كلية للساحل الشـــمالى ، أصبحت السيطرة للساحل الجنوبى على نقط كثـــيرة من الساحل الشمالى ، كما فى جنـــوب ايطاليا وبروفانس ، وآلت كل جزر البحر ابتداء من « قبرس واقريطش » حتى صقلية بل « الصقليتين » والبليار الى النفوذ العـــربى (١) وهكذا لم تتحطم نظرية وحدة البحر المتوسط بمفهومهـــا اللاتينى الاستعمارى فحسب ، بل تحول البحر جميعا الى بحيرة عربية شبه خالصة . ولو أن العرب سموه بحـــر العرب بدلا من بحر الروم لما تعسفوا الحقيقة التاريخية أو الجغرافية فى شىء

أما فى الجنوب فقد انطلقت الموجة العربية لتتحلق حول المحيط الهندى بسواحله الافريقية والهندية ، ســـاحل

(١) East, pp. 186-9.

الزنج وساحل الملبار · ثم توغلت حتى الملايو وجزر الهند الشرقية حيث تغلغل النفوذ العربى الحضارى فى الدرجة الاولى والسياسى فى المحل الثانى · وبهذا تحول المحيط الهندى ـ هذا « النصف محيط » الذى يأخذ الى حد كبير شكل جمل ذى سنامين قد برك مادا رقبته وراسه الى بحار الهند الشرقيه (١) ـ تحول الى بحيرة عربية لا يشارك فيها مشارك

والمحصلة النهائية لهذا امبراطورية تترامى على القارات القديمة الثلاث ، تطل أو تشرف على المحيطات الثلاثة الاطلسى والهندى والهادى أو على الاقل تتماس معها · وهى فى نفس الوقت ترتكز على محور قاطع يمتد من ملقا الملايو Malacca فى الشرق الى ملقا الاندلس Malaga (مالقة) فى الغرب ـ وكلا الاسمين عربى يستمد أصله بالفعل من أنه « ملقى » ·· أو هو كان يمتد من جبل طارق الاطلسى الى جبل طارق الهادى (سنغافورة) · كذلك كانت الامبراطورية ترتكز على قاطع اخر يبدأ ـ كما كان يقول مؤرخو الاسلام ـ من فرغانه وينتهى بغانة

اما طوليا فيصل هذا المجال فى أقصاه من بحر الخزر (قزوين) الى مدغشقر (واسمها تحريف بالصدفة لمقديشو) (٢) · وفى تضاعيف هذه الرقعة تستقر « بحيرتان » عربيتان هما المتوسط والهندى ، كما تتوسطها « أرض البحار الخمسة » : قزوين ـ الاسود ـ « الفارسى » ـ الاحمر ـ المتوسط · فلو قلنا أن هذا المحيط يحدد الجزء الاكبر من المعمور (الاكيومين) العالمى الذى يهم حينئذ لما تعدينا الحقيقة

ويجادل كثير من الكتاب الغربيين ـ فى لجاج مفهوم ـ

(١) G.T. Renner, Global Geog.

(٢) Statesman's Year Book, 1961.

بان هذه الدولة كانت « امبراطورية استعمارية » ، لم تخرج عن أن تكون غزوا واخضاعا وتبعية أجنبية (١) · والحقيقة أن الدولة العربية كانت « امبراطورية تحريرية » بكل معنى الكلمة كما قد نقول ، فهى التى حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الرومانى او الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزازه المادى · وبعـــدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية او حاجزا لونيا بل كانت وحـدة مفتوحة من الاختـــلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت قط شعوبية أو حاجزا حضـــاريا حيث كانت وســـطا حضاريا متجانســـا مشاعا للجميع ، لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز على سائر المقاطعـــات والاقاليم فى شيء

بل ان نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط · على العكس كانت السلطة « دولة بين الجميع » بلا استثناء ان صح التعبير · فقد هاجر مركز الحكم السياسى بانتظام فلم يلبث بعد قليل أن ترك « النواة النووية » فى جزيرة العرب التى اصبحت فى النهـــاية وهى جزيرة الاسلام بقدر ما أصبحت دار الاسلام دار العرب الكبرى Greater Arabia · فانتقل الى الشام الاموية ثم غادرها بدورها الى العراق العباسى حتى تركه فى وقت ما الى مصر الفاطمية ، وكان المغرب مركزا اخر للقـــوة ، ومثـــله كانت الاندلس

واضح اذن ان اخوة الدين كان يقابلها أخوة الاقاليم ، وسواسية الناس كانت تترجم سياسيا الى ســـواسية الولايات والمقاطعات · والحقيقة أن الدولة العربيـــة

(1) Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, p. 16.

الاسلامية كانت شركة مساهمة بين كل أعضائها واطرافها ، ولعلنا لا ندفع بالتشبيه الى أبعد من حدوده السليمة اذا قلنا انها كانت أول « كومنولث » فى التاريخ بالمعنى الحديث ، مع هذا الفارق الهام جدا وهى أنها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التى مر بها كومنولث اليوم • والحقيقة ــ أخيرا ــ أن دوله العرب الاسلامية هى فصل ــ أول فصل ــ فى جغرافية التحرير ، وأبعد شىء عن جغرافية الاستعمار ، وعلى هذا الاساس ننظر اليها ونعالجها

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة « الماموث » التى ــ بالمقياس الجغرافى والاحصائى وحده ــ تسبق زمانها وعصرها بقرون ؟ أكانت حقا فلتة شيطانية أو نموا طفيليا كما يصور بعض أعدائها ؟ كيف انبثقت من « قلب ميت » فى صحراء الجزيرة ، وكيف جمعت بين أقاليم البر وأقاليم البحر ؟ لا شك أن مما يدعو الى الحيرة والتساؤل حقا أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة ــ قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعيه شحيحة وانتاج اقتصادى متواضع وكثافة سكانية هزيلة شفافة ــ أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقا وروما غربا ، وفى مدى زمنى يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود • معادلة صعبة !

ان علينا ابتداء أن نسلم ــ موضوعيا ــ بأن هناك حوافز وقوى « ميتافيزيقية » ، لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكمن خلف هذه الدينامية المتفجرة والحيوية الدافقة • ولا شك أن جذوة الحماس الدينى المتقدة هى التى ألهبت خيال « المؤمنين » ، حتى تحولت بهم الى شعلة ملتهبة وتحولوا هم بها الى مشعل مضىء • ولكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب صلبة مادية

ولعل « الحلقة السعيدة » التى تحف بقلب الجزيرة الميت هي البداية السعيدة • فحول مهد العـــرب دائرة متصلة أو شبه ذلك من الاراضى الزراعية الخصبة الغنية تجعلها « كخرقة بالية حواشيها من الذهب » : الهـــلال الخصيب فى الشمال بقطاعيه العراق والشام ، وهـــلال خصيب الحر اقل غنى نوعا في الجنوب يجمع الحســـا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ، ثم يغلق الدائرة وادى النيـــل فى مصر (١) فبمجرد أن يضع القلب الميت يده على هذه الحلقة المحدقة فقد ضمن لنفسه قاعـــدة أرضية عريضة واحتياطيا عمرانيا مكثفا يكفـــل له كل عناصر القوة • فكان انتزاع الشـــام أولا من الرومان ثم العراق من الفرس ثم مصر الرومانية كفيلا بأن يمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهة مع تلك الامبراطوريات

وهنا يأتى دور الموقع • فلا شـــك أن موقع الجزيرة العربية المتوسط بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقا استراتيجيا خطيرا ، جعـــل من السهل على العرب أن تمد ذراعيها بسهولة يمينا ويسارا الى أبعد مدى • والحقيقة التى ينبغى أن نعيها بعمق وادراك فى هذا الصدد أن كتلة الجزيرة العربية بموقعها وطبيعتها الجغرافية ليست قوة بر فقط كما يظن البعض فى غـــير دقة ، ولا هى قوة بحر مطلقة بالتأكيد ، وانما هى تجمع بين قوة البر والبحر ـ قوة أمفيبية تضع قـدما فى المـــاء وقدما على اليابس بمثل ما تقع بين قوى البحر فى جنـــوب أوربا غربا وقوى البر فى وسط آسيا شرقا

حقا لا شك أن الدولة العربية بـــدأت قـــوة بر ، وتوسعت بريا ، وتمثل فى جوهرها كتلة أرضية متصلة

---

(١) جمال حمدان • دراسات فى العالم العربى • ص ١٤

لا يقطعها ماء الا فى جبل طارق ، بينما تأخرت سيطرتها على جزر البحر المتوسط نسبيا (١) ، ولكن العرب لم يلبثوا بحكم موقعهم وتحدياته أن نزلوا الى البحر المتوسط ولم يعودوا فيه « كدود على عود » ، بل رادوه حتى تسيدوه ، وكان ذلك بفضل وجود قطاعات بحرية ملائمة فى الدولة تتمم القطاعات البرية المناسبة للتوسع البرى

فبفضل قطاعاتها البرية العريضة المتناظرة فى مصر والعراق ، استطاعت أن تنطلق برا وتنشر جناحها الارضى • فكانت أرض الرافدين الفسيحة الخصبة هى « رأس الحربة » فى توسع العالم العربى فى اسيا بحكم موقعها المتقدم شرقا • ولعل هذا الدور هو الذى يفسر استقطاب السلطة والحكم مبكرا وطويلا فى بغداد العباسية ويفسر معها حضارة دار السلام الرائعة القمية

وبالمثل كانت مصر هى « رأس الجسر » فى التوسع الافريقى غربا وجنوبا • ولعل ارتباط الدولة العربية الاسلامية فى البداية بتجارة الصين والموسميات أكثر منها بالعالم الاوربى البيزنطى — أى غلبة التوجيه الاسيوى على الاوربى — يفسر اسبقية دور العراق فى المحيط العربى على مصر ، بينما قد يفسر انتقال المركز والقطب الى مصر فى مرحلة تالية ما أصاب الجناح الشرقى من الدولةالعربية من طرقات المغول والتتار ، وبروز العالم الاوربى بالتدريج فى ميدان الانتاج والحضارة ، أى غلبة التوجيه الاوربى على الاسيوى

اما القطاعات البحرية الحاسمة فى الكتلة العربية والتى تتناظر هى ايضا فى الشام والجنوب العربى فقد قدمت الترسانات الملاحية اللازمة للخروج الى البحر • فالشام —

(١) East, p. 189.

مهد الفينيقيين ومدرسة البحرية التاريخية ـ كان خشبة القفز التي انقض منها العرب على فلول البحرية الرومانية والبيزنطية وعلى جزر البحر المتوسط الى أن ناجزوا ساحله الشمالى • ودور الشام الاموى كقوة بحر اشهر من أن نشير اليه ، وتلخصه معركة واحدة : ذات الصوارى ، فهى سلاميس الاسلام أو اكتيوم العرب كما قد نقول

وفى الطرف المقابل كان الجنوب العربى فى مجموعه هو دائما « بلاد العرب البحرية » ، يرعى البحر مثلما يرعى الجبل ، ويستعمر البحر كما يعمر الصحراء ، ويرمز له ببلاغة السندباد البحرى كمسرح ودراما • ومنذ البداية والعمانيون والحضارمة هم « اغريق المحيط الهندى وبنادقته » • واذا كان دور التوسع العربى هنا حضاريا وتجاريا اساسا ولم ياخذ الصبغة العسكرية الحربية التى اخذها فى البحر المتوسط ، فما ذاك الا لان هذا الجانب خلا من الامبراطوريات الاستعمارية القائمة والمركزة فى الشمال • ومع ذلك فقد عرف بعض مناجزات هامة مع اساطيل الفرس والرومان

وكما اعطت البحرية العربية المتوسطية قاموسها الملاحي كاملا او شبه كامل للغات الاوربية ، كانت البحرية العربية فى الهندى هى وحدها التى تملك أسراره ومفاتيحه الملاحية ، فلكيا وهوائيا ، نجومه وموسمياته ، وهى التى اعطتها فيما بعد للقوى البحرية الاوربية

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الاسلام وان بدأت قوة صحراء ورعاة تملك حركة Mobility الخيالة والاباله ، فانها سرعان ما تحولت الى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين ـ باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته • لقد خرجت عن وصاية

الصحراء لتضع قوى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها (١)

والمغزى الاســـــتراتيجى لهذه الطَفرة مفعم بالدلالات والظلال • فهي تناقض مباشرة دلالة الفترات السابقة حين كانت منطقة الشرق الاوسط والادنى قوة مغلوبة على أمرها بين قوى البر والبحر ، تتبع احدهما أو كليهما ، بغـــير ما كيان ذاتي صلب • فهذه التجربة التاريخية الفذة اثبتت أن المنطقة ليست منطقة ضعف كامن بالطبع ولا بالضرورة وانها قادرة على أن تحقق سيادتها بل وأكثر منها أن تخضع القوى الضخمة الواقعة على ضلوعها • هذه التجربة تأتى كمصحح ومكمل لمغزى الكيان الاستراتيجى الكامن للمنطقة فى العصور السابقة ـ واللاحقة كما سنرى

والسؤال الان : لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة فى صورة او أخرى بضعة قرون ؟ هنـــــــاك مجموعتان من العوامل ، داخلية وخارجية • فداخليـــا ، لا جدال فى أن ضخامة الدولة وفرط تراميها فى حد ذاته عامل ضعف وتفكك فى النهاية • فمن الصعب جدا أن تمسك بمثل هذا الجسم العملاق فى قبضتك طويلا دون أن ينشطر وتتساقط منه أجزاء وأعضاء وبخاصة أطراف متطوحة • لا سيما أن جزءا كبيرا جدا من الرقعة كان صحارى واشباه صحارى واستبس أو أشـــباه الاستبس : شبه فراغ يعوق الحركة والاتصال ويضعف الارتباط ، فى وقت لم تتعد فيه وسيلة الترابط حركة الخيل والابل التى ان اتسع نفسها فى الحرب والغزو الخـــاطف فهو ينقطع ويتخلخل فى علاقات السلم المنتظمة الرتيبة المتكررة

والملاحظ بعد هذا أن الدولة العربية كانت تجنح الى

(١) Mackinder, Democratic Ideals, pp. 70-4.

الافراط فى الاستطالة من الشرق الى الغرب والى التفريط نسبيا فى العمق من الشمال الى الجنوب مما عرضها ـ من الناحيةالميكانيكية البحتة على الاقل ـ الى التقصف والتمزق(١) • اضف الى هذا تنـــافر التركيب الجنسى فى الـــدولة وتعدد الاقليات والعناصر فى نسيجها السياسى • فرغم أن الدولة كانت وحيدة اللغة عمليا ، فانها لم تكن بالتصنيف الجيوبولتيكي الحديث « دولة كثيفة » بل كانت تتراوح بين « الدولة الواسعة والمختلطة » ، كما كانت جغـرافيا دولة عديدة النوايا Polynuclear (٢)

من هنـا تعرضت الدولة لسلسلة متصله من الحركات الانفصالية والتفكك ، فتعددت الخلافات واستقلت الولايات وانكمش نفوذ الدولة المركزية • وقد أتى على الدولةالعربية حين من الدهر تقاسمتها ثلاث أو أربع خلافات : العباسية فى العراق ، والفاطمية فى مصر ، والاندلس فى أسبانيا •• الخ ، وكل منها ـ سيلاحظ ـ يتخذ لنفسه كنواة منطقة زراعية غنية لتكون قاعـــدة أرضية كافية ، بينما كانت الفراغات الصحراوية هى التخوم الفاصلة بينها

وفوق هذا وذاك جميعا ، هناك نقطة ضعف أصيلة فى كيان الدولة • فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية، كان عدد السكان فيها ، على الاطلاق وبالنسبة الىمساحتها، محدودا فى النهاية • ويضغط ماكيندر على ضعف القــوة البشرية Man-power وقوة الرجال كعـــامل جوهرى فى تفتت وانهيـــار الدولة العربيـــة فى آخر الامر (٣) • بل منذ البداية البـــاكرة اضطرت

---

(١) East, p. 187; Fairgrieve, p. 123.

(٢) Yves M. Goblet, Political Geog. & the World Map, Lond., 1955, pp. 185 ff.

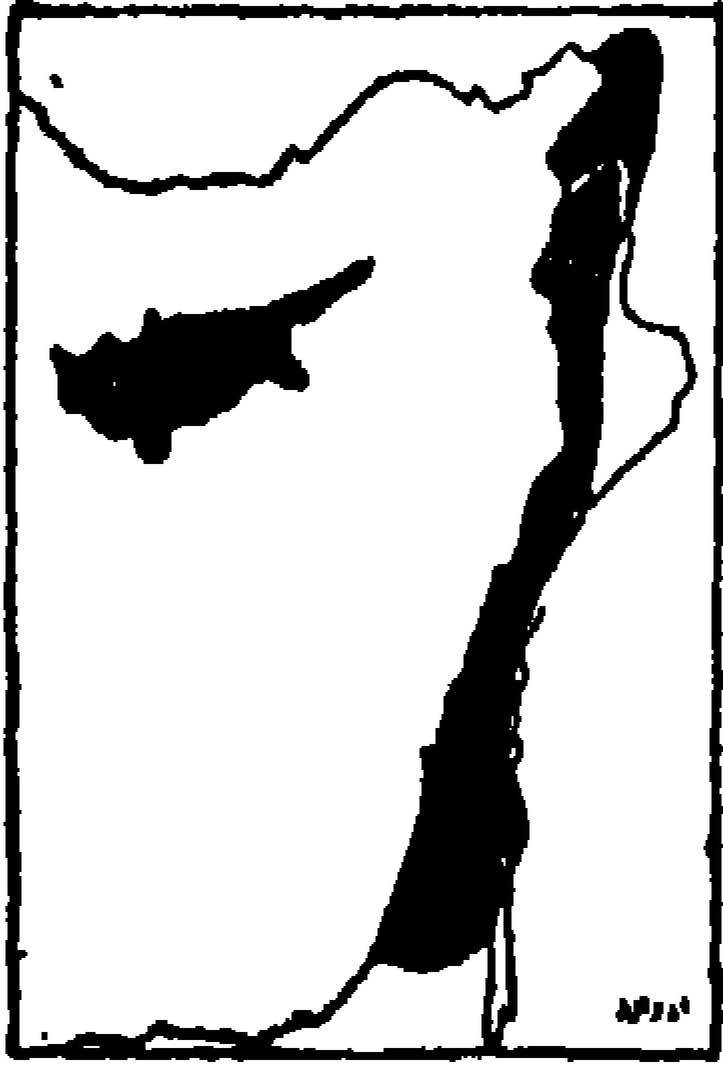
(٣) Democratic Ideals, p. 74.

الدولة الناشئة الى ان تترك مهدها فى صحراء الجزيرة وان تبنى لنفسها قاعدة ايكيومينية حقيقية فى الهلال الخصيب ـ اساسا لهذا العامل الحاسم ، ضعف القــوة البشرية وعدم كفايتها لاعباء الدولة الجديدة

اما العوامل الخارجية التى عملت على تعــرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى الى موقعها الاســتراتيجى البينى بين قوى البر والبحر ، فبعـد قليل من قيامهــا واستقرارها بدأت القوى الغربية فى جنوب وغرب اوربا تتجمع ضدها لتنال منها ، وفى نفس الوقت تواترت هجمات القوى البرية من وسط آسيا لتنقض عليها . ولكن هذه وتلك فصل طويل كامل فى ذاته يحسن أن يعالج على حدة . . وانما يعنينا هنا أن نضع خطا تحت هــذه الاستراتيجية العريضة ـ استراتيجية الكماشة او الرحى ـ كعامل خطير فى تضعضع ثم سقوط الدولة الاسلاميه الكبرى

الاستعمار الصليبى

قد تكون الصليبيات بدرجة او باخرى اسما على غير مسمى ، لانها وان كان الدين شعارها المعلن ، فان من المسلم به اليوم غربا وشرقا ان محركاتها ودوافعها الخبيئة كانت أساسا علمانية " مادية : اقتصادية . فقد كانت الدولة العربية الاسلامية فى الشرق الاوسط والادنى بحكم موقعها البؤرى تسيطر سيطرة شبه احتكارية على مجمع اعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت هذه تصب فيها دخلا ضخما يمثل حصيلة اســـــتثمارات الموقع الجغرافى ويمنح السراقنة Saracens كما كان الغرب يسمى عرب المشرق (ولعلها تحريف للشرقيين او السوريين) يمنحهم قوة مادية وحضارية وحربية لا تقدر



شكل (٦) الصليبيات في الشام : اقصى التوسع

فبدأت مدن أوربا التجارية النامية تتطلع الى هذا الفيض الدافق في غبطة او حسد • تريد اما ان تشارك فيه واما أن تنقض عليه • وضاعف من هذه الغيرة الملتهبة الفارق الحضاري والاجتماعي والمعيشي الشاسع بين الشرق العربي والغرب المسيحي ، فبينما كان الاول في أوج عصره الذهبي كان الثاني في حضيض عصوره المظلمة ، وبينما كان الاول يتمتع باقتصاد زراعي مستقر ، كان الثاني يعاني من اقتصاد زراعي متخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش

ولا ادل على ان الحروب الصليبية كانت حروبا اقتصادية من أنها بدات وهي تتغذى بمساعدة كبار تجار واوليجاركية البندقية وجنوة وبيزا وانتهت أقرب شيء الى حرب القراصنة التي تستهدف النهب والسلب وحدهما . أما دعوى الدفاع عن المسيحيين في الاراضي المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو باجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر (١)

ولهذا فالصليبيات ، في راى السواد الاعظم من المؤرخين، كانت حربا استعمارية : استعمارا سياسيا واقتصاديا لاشبهة فيه الا شبهة قناع الدين ، بل يعدها بعض كتاب الغرب اول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الاوربي في العصور الوسطى . ولعلها في الحقيقة حلقة الوصل

---

(١) Fisher, Middle East, p. 136; Mackinder, Pivot, p. 38.

ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته اثينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج اليه اوربا باسرها فى المستقبل . وهى فى الحالين ليست ــ استراتيجيا ــ الا مظهرا من مظاهر الصراع بين القوى البحرية الغربية وبين المناطق البينية فى العالم القديم ، وعلى هذا الاساس ننظر اليها

وليس معنى هذا بطبيعة الحال ان اوربا الغربية تحولت فى تلك الفترة الى وحدة متماسكة تخلو من المتناقضات الداخلية ، فقد ظلت الصراعات المحلية وصراع الاشباه جنبا الى جنب مع صراع الأضداد . فكانت الممالك والامارات والقبائل مستمرة فى حروبها وغاراتها ، وعلى طول السواحل الغربية وحتى الجنوبية زحف خطر قراصنة البحر من الفيكنج الذين نزلوا من بحار اسكندناوة ليغيروا من البحر على كل النطاق الساحلى ، الا ان تاثيرهم كان محدودا بالمياه الملحة وقليلا ما بمصبات الأنهار ونهاياتها (١) .

ولعل ابرز ما يميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحرى السابقة أنها لم تقتصر على قوة او دولة واحدة بل خرجت من أغلب دول غرب أوربا وجنوبها ووسطها . ولذا نجدها تاخذ طريقين أساسيتين : الطريق البرية عبر قلب اوربا فالبلقان فالأناضول البيزنطية ، وطريق البحر المتوسط . واذا كان هدفها الدينى هو الاراضى المقدسة ، فان الهدف الاستراتيجى اتسع ليشمل الى جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر ، اى النصف الشمالى من دائرة المشرق العربى

وتكاد الحملات الصليبية فى الشام تغطى قرنين بالضبط ، الثانى عشر والثالث عشر . ويتعرف المؤرخون

(١) Pivot, p. 36.

خلالها على ثماني موجات رئيسية ــ آخرون يقـــولون تسعا ــ ولكن الحقيقة ان هذه هى قمم الموجات ، اما التيار نفسه فظل متصلا كالسيال الكهربائى . ومن ثم فهى تشكلا وموضوعا الى صورة أرجال الجراد المنتشر أقرب منها الى صورة أسراب الطيور المهاجرة ان صح التشبيه ، كذلك لم تكن كل تلك الغزوات من صنع جيوش نظامية بل انتظمت كثيرا من ميليشيا البروليتارية والعبودية الاقطاعية • وهذا يعطى الصليبيات مسحة بربرية تذكر بدرجة ما بغارات المتبربرين فى أوربا على الامبراطورية نفسها (١)

ولقد بدأت الصليبيات برا عن طريق بوابة قيليقيـــا البيزنطية وبحرا عن طريق قبرص ، مما يوضح خطـــورة الأناضول كمدخل برى الى الشام وخطورة قبرص كمفتاح بحرى وخشبة للقفز على اللفانت ومصر . والواقع ان كلا منهما كان اول ما احتله الصليبيون وآخر ما غادروه ، ثم استطاعت الصليبيات ان تحتل ــ فى اقصى توســعها ــ النطاق الساحلى من الشـــام حتى قمم السلسلة الجبلية الغربية دون أن تتعداها غالبـــا ، ورسمت زاوية قائمـة بتوغلها الى أعلى الفرات فى الرها . واقامت فى هذا النطاق سلسلة مفككة من الامارات وممالك المدن الاقطاعية على غرار تنظيمها السياسى الاقطاعى فى اوروبا

ولقد نجحت فى ذلك لسبب اساسى هو عدم وحـــدة الشام العربى وتمزقه الى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات و « الاتابكيات » ومع ذلك فان توحيد الشـــام العربى بعد ذلك ومساعدة ظهيره الى الشرق لم تكف لرد العدوان ، وكان تحرير الاراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشـــام . وحين تحقق هذا كانت حطين صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر

(١) Philip Hitti, The Arabs, Lond. 1948.

هى « أرماجدون » الصليبيات وبداية نهايتها. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية

ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات الى مصر حيث قد ادركت بالتجربة المريرة أنهـــا قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا . ففى النصف الاول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيدتا بالضربة القاضية فى برارى وسهول الدلتا بعد أن اغرقتا فى بيئتها الاسفنجية المشبعة . فعاد صراع التصفية الى الشام ثانية حيث دفنت الصليبيات فى البحر نهائيا

الا أن ذيول الصراع ظلت فى البحر المتوسط بعد ذلك طويلا وهى تتراجع بالتدريج غربا . فقد لجات القـــوى الصليبية ، بعد أن تكسرت سيوفها على قلعة اللفانت ، الى لون من « الحصار القارى » للعالم العربى لخنق تجارته مع اوروبا ، والى « مبارزة بحرية » عبر «كباريه المتحركة» ـ جزره ومضايقه ـ تمثلت فى سلسلة من غارات القرصنة على سواحل افريقيا العربية وفى حملتين من الغزو عـــلى تونس فى النصف الاخير من كل من القرنين الثالث عشر والرابع عشر . على أن ذلك فشل جميعا . وهنا سنلاحظ أن الصليبيات تحركت فى خط سيرها التاريخى حركة محددة مع عقارب الساعة ، فقد بدات من الشام ثم انتقلت الى مصر فتونس

على ان مصير الصراع اختلف تماما فى اسبانيا . فاذا اعتبرنا ـ مع جمهرة المؤرخين ـ ان الاسترداد Reconquista هو اخر فصل فى الصليبيات ، فان القـــرون الثـــلاثة الثالث والرابع والخامس عشر ترسم فى هيكلها وبانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتقهقر للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائى فى ١٤٩٢ ويمكن ان نلخص محاور هذه الخريطة ونرمز الى مراحلهـــا بخطوط « الثغور »

العسكرية الثلاثة المتعاقبة التى عرفها وحددها العرب : الثغر الادنى ، الثغر الاوسط ، الثغر الاقصى • وقد كانت قلاع الشمال الجبلية هى معقل المقاومة ونواة الزحف ، كما كان اطراد اتحاد الامارات المسيحية مع اطراد انقسام الامارات العربية هي ضوابط الصرع المصيرى • ومع طرد الموريسكيين ــ عدة ملايين ــ الى المغرب العربى ، انتهى المغرب الاوربى ، واصبحت الاندلس « فردوس العــرب المفقود »

ولقد كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شيء لاوربا . فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقــدم والغرب المتخلف • وستنعطف اوربا على نفسها بعدهاقليلا او كثيرا ، وستترك البحر المتوسط فى حالة رهو وترقب الا من مناوشات القراصنة ، خاصة فى حوضه الغربى ، وذلك لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمتـــه من الشرق العربى حتى تخرج به فى النهاية اقوى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد كما سنرى . كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوربا ومنحهاشعورا بالقومية حتى ليعدها البعض بداية التاريخ الحديث (١)

أما من ناحية العرب ، فلا شك ان درس الصليبيات هو درس استراتيجى أساسا . فهى تؤكد لنا مرة اخـــرى خطورة موقعها البينى التى تجعلها مطمع أنظار الهامشيين، وتعلمنا ان قوته رهن بوحدته فى وجه هذا التحـــدى الموقعى ، وان بها ــ وربما بها وحدها ــ يمكن ان تأمل فى أن تتصدى للقوى الغربية البحرية مجتمعة وتصدها فى النهاية

---

(١) Mackinder, Pivot, p. 38.

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى بل ربما زادت عنفا وتخريبا ، ولو انها تختلف فى تواترها من جانب الى آخر . فلعلنا لا نخطىء كثيرا اذا عممنا فقلنا ان مركز ثقل الموجات الاستبسية انتقل الى حد ما من الطريق الشمالى السهلى الى الطريق الجنوبى الهضبى ، او من اوربا الى الشرق الاوسط (١)

ففى الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر . الا أن موجة جنكيزخان ثم كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر كانت اضخم حدث فى تلك المرحلة . فهى التى اعطت الرعاة حكم الصين عدة قرون ، الى ان كانت آخر موجة فى القرن السابع عشر على يد مغول المانشو ــ ابناء استبس منشوريا ــ فأعطت الصين أسرتها الحاكمة حتى الحرب العالمية الاولى فى القرن العشرين

اما الهند فقد نالتها فى القرن الحادى عشر موجة التتار الغزنويين التى اخضعت شمالها ، فلما كان القرن الرابع عشر اخضعتها جميعا موجة تيمورلنك التى طغت على رقعة كبيرة من آسيا وحكمتها . وفى القرن السادس عشر استطاع أحد خلفاء تيمورلنك وهو محمد أكبر Akbar ان يؤسس بالهند امبراطورية المغول الأكبر التى استمرت حتى الاحتلال البريطانى فى منتصف القرن الثامن عشر

واذا التفتنا غربا ، فعلى الطريق السهلى الشمالى بظل الاستبس كما كان مصدرا مزمنا للغارات والغزوات ، الا انها فيما يبدو أقل عددا منها فى العصور الكلاسيكية . ولعل هذا يرجع الى أن جزءا كبيرا من وسط أوربا كان

(١) فى هذه الموجات راجع ديمولان ، سبق ذكره

قد بدا برابرته ورعاته تستقر وتجمد وان ظل شرق القارة متميعا فى تركيبه ومسرحا لقلقلات وتحركات الرعاة . ففى القرن التاسع وصل المجيار الى المجر - التى اعطوها اسمهم - نتيجة لضغط الباتزيناك Patzinaks بمنطقة الفولجا ، والذين تحركوا بدورهم نتيجة لضغط الخزر الى الشرق بمنطقة بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين)

حتى اذا كان القرن الثالث عشر نجد جنكيزخان - هو الذى بدأ بالصين - يطرق أبواب شرق اوربا ووسطها ! والواقع ان طوفان جنكيزخان - القائد الكبير وسيد القبيل الذهبى Golden Horde عملية تفوق فتوح الاسكندر الاكبر وتتفوق على نابليون فى المدى الجغرافى وان اختلف المجال . فقد اكتسح نفسه الطويل محيط اوراسيا - اكثر من ۳۰۰۰ ميل - ابتداء من الصين حتى وسط اوربا موحدا بذلك كل السهل الاستبسى الاوراسى العظيم تحت قيادة رجل واحد ، ولعل هذه كانت اكبر امبراطورية شهدها كل التاريخ قديمه والحديث من حيث المساحة والامتداد (١) . وفيما عدا الاتراك ، كانت هذه الموجة آخر موجة استبسية عظمى تصل الى أوربا الوسيطة

وبسبب تلك الموجات سنجد أن هناك فارقا سياسيا بدأ ينمو بين شرق وغرب أوربا . فاذا كانت غرب اوربا قد قفزت الى مبدأ القومية مبكرا بفضل خطر الاستبس، فان القوام السياسى فى شرق أوربا ظل متميعا أبعد مايكون عن التبلور حتى وقت متاخر جدا ، وما زال بعيدا عن النضج السياسى حتى الآن ، وكل ذلك نتيجة للخلط

---

(١) John Mogey, The Study of Geog., H.U.L., 1950, p. 134.

الجنسى والاجتماعى والتخلف الحضـــارى الذى صحب الاستبس

اما اذا انتقلنا الى الطريق الجنوبى ، فكان أحفل فى هذه الفترة بطرقات المغول والتتار والاتراك . والحقيقــة ان تاريخ الدولة العربية الاسلامية فى الشرق الاوســط والادنى لا يمكن ان يفصل عن تاريخ هذه الموجات التى اصبحت بعدا اوليا واساسيا من ابعاده . بل الواقع انــا ينبغى ان ننظر الى هذه العناصر باعتبارها برابرة الدولة الاسلامية بمثل ما كان التيوتون والجرمان والوندال. .الخ برابرة الامبراطورية الرومانية

فكما كانت هذه تقتطع من جسم الامبراطورية دولا لها فكذلك فعل أولئك بالدولة الاسلامية ، وكما كانت الاولى تتصارع فيما بينها ويزيغ بعضها البعض الى جانب صراعها العام مع الامبراطورية ، فكذلك نجد برابرة الدولةالاسلامية العربية تتصارع فيما بينها صراع الاشباه ويرث بعضها البعض وذلك فى اطار صراعها العام صراع الأضداد مع الخلافة . وكما كانت روما تحاول تحييد برابرتها بتثبيتهم فى ممالك حدية وتحويلهم الى المسيحية ، فكذلك كانت الخلافة تفعل مع برابرة المغول والتتـــار والاتراك حيث تكاثرت على تخومها دولهم الحدية وحيث كثيرا ما كسبتهم فى صفها بادخالهم فى الاسلام ، ولو أن هذا لم يمنع أن تكون نهاية الدولة على ايديهم ، تماما كما حـــدث فى الامبراطورية الرومانية . بل أبعـــد من هذا ، كما أن البرابرة الاوربيين أعادوا الامبراطورية الرومانية المقدسة كاستمرار بشكل ما للامبراطورية التى حطموها ، فكذلك ستنتقل الخلافة الاســـــلامية الى أيدى من حطموها وسيحتفظون بها فى صورة ما عدة قرون

اول ما وصل المنطقة من برابرة العالم الاسلامى الموجة

الغـــزنوية فى القرن الحـــادى عشر ، وانتزعت فارس وما جاورها . وفى منتصف القرن نفسه ايضا بدات قوة الاتراك السلاجقة الوافدة من وسط آسيا تتسلل وتظهر فى الدولة العباسية المفككة حتى استطاعوا أن يقتطعوا منها اجزاء كثيرة فى غرب آسيا . فاقاموا قاعدتهم فى كرمان وهمدان ثم فى آسيا الصغرى ثم قلبوا الحكم العـربى فى بغداد ودمشق واكتسحوا اغلب منطقة البحار الخمســة حتى امتد سلطانهم الى الشام والاراضى المقدسة حيث كان اضطهادهم المزعوم للحجاج المســيحيين حجة من حجج الصليبية . ولكن قوة الســلاجقة لم تلبث أن تضعضعت تحت طرقات المغـــول فى القـــرن الثالث عشر على يد جنكيزخان

لقد جاء جنكيزخان فى ثلاثينات القرن ليكسر شــوكة السلاجقة ، وقدر لايران ومدنها ان تتلقى أكبر جرعة من التخريب والتدمير الرهيب . وبعد عقود ثلاثة عاد المغول ـ الولنيون ـ تحت زعامة هولاكو حيث وصلوا الى العراق فكانت فاجعة بغداد التاريخية ١٢٥٨ ونهاية الخـــلافة العباسيـــة (١) ، وبعدها تقدم المغـول الى الشــــام مستهدفين مصر فى النهاية فى وقت كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال ودخلت مرحلة الشفق ولكنها لا تزال تستوعب قوة مصر والشام المشتركة

وهنا نصـــل الى حالة فــريدة فى تاريخ الشرق العـــربى وهى أن تواجه قوى البـــر والبحـــر فى آن واحد ـ اى أن تواجه اســـتراتيجية الكماشـــة . وبالفعـــل نجـــد أن الغـرب الصليبى يحاول أن يحصر الشرقى العربى بين شقى الرحى ، فحاول أن يتحـالف مع المغـول ليضـع الاسلام العـــربى الامفيبى بين حلف

(١) W. B. Fisher,

المسيحية الاوربية البحرية والوثنية المغولية البرية ، او ان يحصر السراسنة بين قراصنة البحر وقراصنة السهوب بلغة كارل هاوسهوفر (١) او بين ذئاب البحر وذئاب البر بلغة ماكيندر (٢) !

ولعل وضعا فى تاريخ المنطقة العربية لا يمثل خطورة موقعها الاستراتيجى البينى كما تمثله هذه التجربة ، التى بدورها لا يمثل امكانيات المنطقة وقوتها الكامنة كما تمثلها هى . فقد اثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفى آن واحد . فبينما ظل الصراع الصليبى مستمرا ، تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول اول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية (١٢٦٠)

ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن مع تيمورلنك ـ الذى اتخذ عاصمته فى سمرقند (٣) ليكتسح فارس والعراق ثم شمال سوريا حتى دمشق ولكنه عجز دون جنوبها امام المقاومة المصرية . وهنا نرى كيف أن اغلب غارات الاستبس تصل دائما الى العراق الذى يكاد يتاخم قلب الاستبس ، وقد تصل احيانا الى الشام ، ولكنها لا تصل اطلاقا او بالكاد الى مصر ـ ربما بحكم المسافة المتزايدة فان مصر بعكس العراق أبعد المشرق العربى عن الاستبس الآسيوى ، ولكن أيضا كرد فعل لقوة المقاومة

وهنا يتضح لنا دور العراق الجديد فى هذه المرحلة ، فقد تحول من « راس حربة » للعالم العربى الى « درع » له وقاعدة أمامية ، ولذا تلقى أغلب الضربات التى جاءته

---

(١) رسل فايفيلد ، اتزل بيرسى · الجيوبولتيكا · مترجم ، القاهرة · ص ٤٥

(٢) On the Scope & Methods of Geography, Lond., 1951, p. 28.

(٣) W. Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946, p. 171.

من الشرق حتى تحطم للأسف ، ولكنه فى هذا قد افتدى العالم العربى كله فكان هذا فضله الكبير جغرافيا وتاريخيا

ولقد اتجه تيمورلنك بعد ذلك الى الأناضول حيث كانت قوة الأتراك العثمانيين ، التى بدأت كتابع فى خدمة السلجوقية ضد المغول ، قد أخذت تظهر وتنمو حتى انتزعت لنفسها من الخلافة دولة صغيرة فى شمال غرب الأناضول ، ولم يختتم القرن الرابع عشر حتى كانوا قد سيطروا على كل الأناضول بالاضافة الى رقعة كبيرة فى البلقان

وقد اصطدم تيمورلنك بالعثمانيين منتصرا فى معركة انقرة ١٤٠٢ ، ومع ذلك فقد أوقف هذا اللقاء المد المغولى الى الابد ولكنه لم يوقف التوسع العثمانى الذى قدر له ان يرث الدولة العربية الاسلامية وان يضيف اليها امبراطورية أوربية برمتها . وكانت العثمانية بذلك آخر ما أرسل الاستبس من غزوات وأول ما نجح منها سياسيا فى تحقيق دولة دائمة مستقرة

كيف ، ولماذا ؟ هذا هو السؤال . فى الربع الأول من القرن الثالث عشر تجرثمت قوة الاتراك العثمانيين (١) فى شمال غرب الاناضول ، فاتجه توسعهم غربا ــ وليس شرقا كما قد نتصور ــ اتجه غربا فى البلقان دون أن يستولوا فى البداية على القسطنطينية . ولم ينتصف القرن حتى كانوا يملكون على وجه التقريب ما يسمى الآن « تركيا فى اوربا » . وكانت القوة الكبرى التى تقف فى وجههم هى دولة الصرب ، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا ثم الصرب مستفيدين فى ذلك من فتحة المارتيزا ــ الفاردار الحاسمة ، وواصلين بذلك الى الدانوب ، والقرن

(١) W. B. Fisher, pp. 138-142.

الرابع عشر لما يلفظ أنفاسه بعد تماما . وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع

ولكن هذا الخطر حرك الصليبية فى أوربا مرة ثانية ، فخرجت حملة صليبية من كل اجزاء غرب القارة ووسطها ، تراجعت امامها العسكرية العثمانية على الدانوب قليلا اول الامر ، حتى سحقتها فى النهاية ما بين اول القرن الخامس عشر ومنتصفه . واذ تم هذا الاقرار Pacification ، كان دور القسطنطينية ـ التي أصبحت من قبل اسفينا ضئيلا محاصرا فى وسط الكتلة العثمانية الضخمة ـ كان دورها قد ازف ، فسقطت سقطتها التاريخية الشهيرة فى ١٤٥٣ ، وبهذا ختم على مصير الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) الى الابد بعد ان ظلت تحتضر قرونا

وفى نهاية هذا القرن الخامس عشر كانت حدود الامبراطورية العثمانية فى أوروبا قد وصلت من كرواتيا الى الدون الاسفل . وفى خلال القرن السادس عشر سقطت المجر وظلت تحت العثمانية حتي نهاية القرن التالي ، واصبحت النمسا بذلك مهددة ، وتحولت فى الحقيقة الى دولة تخوم ـ كما أراد لها شارلمان حين انشاها لاول مرة فى وجه الآفار منذ اكثر من الف سنة ـ دولة حدية تفصل بين تركيا وأوربا . وفى هذا المعنى قال مترنيخ قولته المشهورة : « عند فينا ، آسيا تبدأ » Am der Landstrasse beginnt Asia . وفى هذا الصدد ايضا لم يكن غريبا أن وقر في ذهن اوربا أن الترك لا يغلبون ، تماما مثلما وقرفى ذهن آسيا من قبل عنالتتار

ثمة الآن بضع حقائق هامة تبرز من استعراض هذا الزحف . فأولا يمتاز التوسع العثمانى بظاهرة القفز

الضفدعية Leap-Frogging ، بمعنى انه لم يكن متصلا بدا من نقطة ثم استمر في اتجاه وخط متتابع بصرامة ، بل هو قد يترك منطقة في طريقه ويتخطاها الى مابعدها ثم يعود الى تلك الاولى . فمثلا قفز الى البلقان ولم يكن قد سيطر على الاناضول جميعا ، بل لقد ظلت بها أجزاء وقطاعات لم يسيطر عليها الا بعد ان كان قد وصل الى الدانوب ! كذلك ظل يقيم فى البلقان بل يملكه قرنا كاملا وبعض قرن قبل ان يستولى على القسطنطينية !

ثانيا ، سيلاحظ ان العثمانية توسعت فى اوربا قبل ان تتوسع فى آسيا وافريقيا ، واسقطت الدولة البيزنطية قبل ان تسقط الدولة العربية الاسلامية .


شكل (٧) الامبراطورية العثمانية

وقد أعطاها هذا قاعدة ارضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية كبرى قبل أن تبدأ الاتجاه جنوبا نحو الشرق الاوسط العربي . وهذا يفسر ، من جانب ، السرعة والبتر التي كسحت بهما العالم العربى . فهى لم تكن حينئذمجرد قوة رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة بدرجة او باخرى

ثالثا ، سنرى أن هذه اول موجة استبسية تاتى من الطريق الجنوبى الهضبى وتصل الى اوربا . فبينما ولجت الموجات الاستبسية السابقة قلب أوربا مرارا وتكرارا عن طريق السهل الشمالى ، لم يستطع احد قبل الاتراك أن يطرق أبواب أوربا عن الطريق الجنوبى . ولعل هذا كان من حسن حظ الاتراك ، فقد ادخلهم الى اوربا من اضعف

ـ وان لم يكن من اوسع ـ ابوابها حيث كانت البلقان اشدها تاخرا واضعفها ناصرا واقربها الى حضارة الرعى والترحل حينذاك

بعد البلقان ، اتجهت العثمانية الى الشرق العربى وذلك ابتداء من العقد الثانى من القرن السادس عشر ، اى بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لاول مرة فى الاناضول . وقد اتجه الزحف الى مصر راسا عن طريق سوريا التى كانت تابعة لمصر المملوكية . وهذا الاتجاه المحدد يؤكد ما سبق ان أوضحته الصليبيات من أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية ، لاسيما أن كل ثقل الدولة العربية الاسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا الى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول

ومن الناحية الأخرى فقد سارعت مصر لملاقاة الزحف العثمانى على ضلوع الاناضول نفسها ، كأنما كانوا يدركون منذ ذلك الوقت المبكر ان خط الدفاع الأول عن مصر لايقل عمقا عن تخوم الشام . ولكن تمزقت المقاومة المصرية فى مرج دابق حلب ، وتقهقرت الى خط دفاعها الثانى فى قلب مصر بعد سقوط الشام ، الا أنها مرة ثانية وأخيرة انهارت فى ريدانية القاهرة ، وسقطت مصر فى ١٥١٧ . وكانت تلك أول مرة منذ الهكسوس والفرس تقع فيها مصر لقوة استبسية

وفى ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حربية وبحرية وقرصنة على المغرب قد اشتدت ووصلت الى النقطة الحرجة التى استدعت الاستغاثة بقوى الاسلام أنى وجدت ، ولما كانت تركيا هى كبراها الآن ، فقدتدخلت بحريا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الاوسط ، ولم تلبث ان احتلته فى ١٥٢٩ ، ثم اردفته

بتونس فى ١٥٣٤ ، الى ان توسعت مؤخرا فى طرابلس فى ١٥٦٥

وفى الشرق تأخر التوسع العثمانى فى العراق وذلك فى وجه المقاومة الفارسية ، ولكنه سقط فى النهاية فى ١٥٥٢ ولم تستطع تركيا أن تتوغل بعده شرقا لأن قوة فارس استطاعت ان تصمد لها ، بل وستصبح ندا عنيدا لها فى المستقبل طويلا . وظلت هناك منطقة متنازع عليها بينهما يتجاذبانها دون أن يتمكن احدهما من انتزاعها نهائيا ، فبقيت بعد ذلك حتى النهاية منطقة تخوم قلقة . تلك هى الرقعة الجبلية التى تشمل ارمينيا الشرقية والقوقاز وزاجروس (١)

ومرة أخرى تبرز من هذا العرض عدة ملامح واضحة . فأولا ، تتكرر ظاهرة القفز الضفدعى التى سبقت فى البلقان . فبينما استولت تركيا على الشام ومصر ، ظل العراق فترة غير خاضع لها . كذلك سبق الاستيلاء على الجزائر الاستيلاء على تونس ، وهذا سبق الاستيلاء على طرابلس . بل يمكن ان نعتبر زحف العثمانية فى المغرب بمثابة تيار عكسى راجع ، وان هناك اكثر من نواة منفصلة متباعدة بدأ منها الزحف فى العالم العربى . ولهذا فان الفكرة الوهلية التى قد تتصور زحفا قوسيا متصلا من الاناضول حتى الجزائر لا مكان لها من الحقيقة

ثانيا ، سقط أغلب العالم العربى وورثت تركيا معظم الدولة الاسلامية العربية فى نحو نصف قرن تقريبا من القرن السادس عشر . وقد تأخر الاستيلاء على أجزاء فى الجزيرة العربية وكذلك السودان الى مراحل تالية بعيدة . ولكن هناك جزأين لم يخضعا مطلقا للأتراك

---

(١) Fisher, p. 139.

لتطرفهما ، وهما المغرب الاقصى (مراكش) والجنوب العربى حتى عمان

ثالثا ، وقع العالم العربى فى يد الاتراك بسرعة وسهولة نسبية لاسباب عدة . أولها ما استمـدوه من قوة مادية وسياسية بعد ان ملكوا البلقان ومواردة نحو قرنين . سبب ثان الضعف والتفكك والعجز التسديد الذى وصلت اليه الدول العربية فى تلك الفترة ، وهى التى ـ منذ قرنين فقط ـ صدت المد الصليبى والموجة المغولية معا . ولم يتكتل من العرب فى وجه الاتراك الا مصر وسوريا

رابعا ، لا مفر من أن نلاحظ التناقض الكامن ـ وان يكن مالوفا ـ فى تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مهما كان على منطقة حضارية زراعية راقية ذات أصول عريقة . واذا كان الاستعمار هو في التحليل الاخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فان الاستعمار التركى للعالم العربى يبدو فى هذا المعنى استعمارا عكسيا أو مقلوبا كما قد نقول ، ولهذا سيأتى عقيما فى نتائجه وانجـازاته . وفى هذا الصدد يشبه البعض الامبراطورية الاسلامية العربيـة بالامبراطورية الاغريقيـة ، والامبراطورية العثمانيـة بالرومانية : تلك خلقت تراثا وحضارة ، وهذه قامت على القوة العسكرية المحض

خامسا ، جاء الأتراك فى مسوح الدين الاسلامى وتحت قناعه ، وكان هذا فى عصر الدين لا القومية ، وفى وهج ذكريات الصليبيات ، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب . بل لقد راينا ان الجـزائر هى التى استنجـدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها . ولكن هذا لا ينفى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركى هنا يعد نوعا خاصا ـ ومحيرا ربما ـ من الاستعمار هو « الاستعمار الدينى » ، ولولا

القناع الديني لعد مماثلا للغزو المغولى الوثنى الذى سبقه ولووجه على هذا الاساس بكل تأكيد (١)

وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالى الابتزازى لا تنقص العثمانية : فقد كانت تركيا هى « المتروبول » وبقية الايالات والولايات مستعمرات تابعة تعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا فى المتروبول . بل لقد قيل ان الأتراك طبقوا فى حكمهم السياسى طريقتهم الاستبسية فى معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعى قطعان الحيوان الا الى رعى قطعان الانسان : كما يفصل الراعى بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الامم والاجناس المختلفة عملا بمبدأ فرق تسد (نظام الملة) ؛ وكما يسوس الراعى قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يحلب الراعى ماشيته كانت الامبراطورية بقرة كبرى عند الأتراك للحلب فقط (٢) .

سادسا واخيرا ، ينبغى أن نسجل بعناية أن الدولة العربية انما انتهت على يد الغزو التركى وليس على يد الغزو الصليبى ، اى على يد قوة البر وليس على يد قوة البحر . واذا كانت المنطقة قد نجحت فى صد القوتين معا من قبل فان سقوطها فى النهاية على يد قوة البر اكبر دليل على أن هذه قوة لا يستهان بها ولها مقومات يجب ان يحسب لها حساب . واذا كان هذا تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الفترة ، فهو اكثر منه نذير وانذار واضح للمستقبل بوجه خاص كما سنرى بعد حين .

---

(١) جمال حمدان • الاستعمار والتحرير فى العالم العربى • القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٣ وما بعدها

(٢) Fisher, pp. 139-141.

تلك اذن قصة الموجة التركية وقيـــام الامبراطورية العثمانية بجناحيها الأوربى والعربى . فاذا نحن حاولنا ان ننظر اليها ككل ، فسنجد عدة حقائق بالغة الاهمية . فلعلها ـ أولا ـ غطت مســـاحة أكبر مما عرفت أى امبراطورية سابقة عليها باستثناء امبراطورية جنكيزخان القصيرة العمر . فقد امتدت فى اقصاها من مشـارف سهوب الروسيا والدانوب الى سفانا السودان والنيل ، ومن القوقاز حتى أطلس . وفى تضاعيف ذلك سيطرت على البحر المتوسط وساحله ، هذا بالاضافة الى البحـــر الأحمر وبحر العرب ، وبالتالى أصبحت سيدة البرزخ (السويس) والمضيق (البسفور) . وبصورة عامة ، تغطي الامبراطورية رقعة واحـدة متصلة لا انقطاع فيها سوى المضيق .

ثانيا ، الامبراطورية العثمانيه هى أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى اقامة دولة مستقرة طويلة الأمد . فقد تحولت من رعاة رحل الى حضارة استقرار وتوطن وقطعت كل جـذورها بالاستبس ، واتخـذت لها وطنا وقاعدة ارضية ثابتة ولو بالتبنى (الأناضول) .. وهى كذلك أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى اقامة دولة تجمع بين اجزاء من أوربا وآسيا وافريقيا معا . وقد سبقها من الاستبسيين من انشأ دولا فى اوربا أو فى آسيا وحدها ، ولكن لم تمتد قط فى الاثنتين معا

وفضلا عن هذا فقد كانت اول اندفاعة من الاستبس تنساح فى افريقيا وتبتلع نطاقا كاملا منها . والواقع ان جزءا من السبب فى نجاح الاتراك فى الوصول غربا الى آفاق ابعد جدا مما عرفت موجات الاستبس السابقة سواء فى اوربا أو فى آسيا وافريقيا هو انها لم تبدأ تاريخها الفعال من قلب الاستبس مباشرة كقاعدة ، وانما بدات من مركز

متطرف نحو الغرب كثيرا .وهو الأناضول مما أطال ومد نفسها فى ذلك الاتجاه بسهولة نسبيا

ثالثا واخيرا ، بدا الأتراك قوة بر مطلقة من الفرسان ؛ خـــرجت من قلب الاستبس الاسيـــوى ، ولكنهم فى امبراطوريتهم المترامية الجديدة انتقلوا الى قطاع امفيبى تماما يجمع بين القاعدة الأرضية البرية والجبهة الساحلية البحرية ، اى اصبحت قوة برمائيـــة فى المنطقة البينيـــة النموذجية بين معقل القوى البرية شرقا والبحرية غربا ؛ سواء ذلك فى البلقان وشرق اوربا أو فى المشرق العربى . وهذه حقيقة بالغة الخطورة والمغزى ، لا لأن الاتراك فقط اول من فعلها من بين الاستبسيين ، وانما ايضا لانها ستفسر اساسا مصير الامبراطورية واستراتيجيتها الســـــياسية وانواع الضغوط والصراعات التى ستتعرض لهـــا . وهذا ما ينقلنا فى نفس الوقت الى تطور الاستعمار خارج هــذه المنطقـــة ، والى مرحلة جديدة من تاريخ الاستراتيجية العالمية

الفصل الثالث

عصر الكشوف الجغرافية

يمكن أن نقسم تاريخ الاستعمار فى العصور الحديثة الى موجتين اساسيتين ، أولاهما تغطى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واتجهت اساسا وان لم يكن كلية الى العروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، ولهذا اتسمت بالاستعمار السكنى الى حد بعيد ، أما الثانية فتحتل القرن التاسع عشر وتنصرف فى جوهرها الى العروض المدارية والبلاد القديمة ، ومن ثم سادها طابع الاستعمار الاستغلالى (١) . والمرحلة كلها ترتبط بعدة تطورات طفرية فى الفنون والحضارة البشرية كانت شرطا لازما لتحقيقها . تلك هى الثورات الكبرى الثلاث : الانقلاب التجارى ، والانقلاب الميكانيكى ، والانقلاب الصناعى . وكل منها يرتبط وثيقا بالآخر ارتباط السبب بالنتيجة ، ولهذا تتداعى منطقيا وتاريخيا

فالانقلاب الاول ــ التجارى ــ لا انفصال له عن الكشوف الجغرافية كسبب ولا عن الموجة الاولى للاستعمار فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة . هذا بينما يرتبط الانقلاب الأخير ــ الصناعى ــ مباشرة وحميما، بل درامبا ، بالموجة الثانية للاستعمار فى القرن التاسع

(١) R.J. Harrison Church, Modern Colonisation, Lond., 1951, pp. 18-22, 106.

عشر . اما الانقلاب الميكانيكى فانتقالى تمخض عن الانقلاب الاول ومهد للأخير . وسنبدأ هنا بالمرحلة الاولى مرحلة الكشوف الجغرافية واستعمار المعتدلات الجديدة

الكشوف الجغرافية والاستعمار

مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع جذور ، أو على الاقل بذور الاستعمار المعاصر مباشرة . فقد ولد الاستعمار الحديث فى حجر الكشوف الجغرافية ولا نقول فى رحمها . ففى تلك الفترة خرجت أوربا تضرب فى المجهول ، فعادت تحمل الى العالم عالما جديدا بل عوالم جديدة . ومن الصعب علينا فى القرن العشرين أن نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التى احدثها هذا الكشف فى وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لا تكاد تتغير ، ثم فجاة وفى عالم متمدد باقصى سرعة تضاعف العالم عدة مرات . وربما لا يعدل تلك الطفرة فى عالم الانسان شىء من قبل الا كشف الزراعة ، ولا من بعد الا غزو الفضاء

بل وكما نشهد اليوم انقلابا فى الاستراتيجية العالمية مع عصر الفضاء ، قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها . فاولا ، مع اتساع ابعاد العالم اتسعت ابعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرته التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه وانتقل من عروضه المالوفة الى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جدا . ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه الى عالم لامتناه ، وبعد أن كان محليا أو اقليميا أساسا اصبح عالميا كوكبيا تماما

ثانيا ، بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك فى عالم مسطح افقى او « اقليدى » بكل معنى الكلمة ،

أصبحت تتفاعل في وسط « ريماني » Riemannian لا اقليدي ، وسط كروى مجسم . ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب ، بل وخلف وقدام أيضا . ولا شك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط . فقبلها كان العالم المعروف يتالف من يابس واحد ومحيطين اثنين ، أما بعدها فقد أصبح العالم يتالف من محيط واحد ويابس متعدد (١) . ولم يكن بد من أن يرج هذا كل قيم المواقع الجغرافية الاستاتيكية الموروثة حتى النخاع ، وأن يهز العلائق المكانية التقليدية والنسب الجيوماتيكية بين القارات والاقاليم والدول ، فما كان منها بالأمس بؤريا مركزيا قد صار اليوم هامشيا متطرفا ــ والعكس

ثالثا ، كان اخطر مظاهر هذا الانقلاب الجيوماتيكي بروز اهمية المحيط الى الصدارة ، فقد خرج العالم القديم الى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية والملاحة وبدات المرحلة المحيطية فى تاريخ البشرية بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية thalassic فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية epi-continental فاذا بالبحر المتوسط والبلطيق ، ولكن الأول خاصة ، يفقد كل منهما أهميته التاريخية ، ليصبح الاول زقاقا مغلقا والثاني بركة صيد آسنة herring pond، بينما يتحول المحيط الأطلسي الى « البحر المتوسط » الجديد . ومع هذا الانقلاب انقلب التوجيه الجغرافي للقارات والأقاليم ، فقلبت القارات بطنا لظهر تطلعا الى المحيط ، وانحدرت قيمة دول وموانى البحر المتوسط لتنتقل الزعامة الى دول وموانى غرب أوربا (٢)

(١) Fairgrieve, pp. 129-132.

(٢) Derwent Whittlesey, **Earth & State**, Wash., 1944, pp. 56-59.

رابعا ، ومن الناحية السياسية ، أصبح الوقوع على البحار ـ البحر المحيط ـ ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجنى حصادها الثرى الفياض فبدأ عصر الامبراطوريات البحرية العظمى ، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تتجاذب الى مغناطيسية البحر كما لو بقدرية ميكانيكية قاهرة · وبمعنى آخر اشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كما وكيفا ، ابعادا وأعماقا . ولهذا فمن الآن فصاعدا والى أبعد حد ، ستزيغ معادلة الصراع بين البر والبحر كل معادلات الصراع الأخرى كالاستبس والغابة ، والسهل والجبل ، والرمل والطين ، التى كانت تشاركها تفسير التاريخ البشرى ، لتصبح هى وحدها قطب الرحى فى الاستراتيجية العالمية . بل سنجد الصراع بين الاستبس والغابة بالذات يتحول نهائيا ليأخذ شكل الصراع بين البر والبحر

ذلك جميعا هو مغزى الكشوف الجغرافية ، ولكن السؤال المنطقى قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو : لماذا خرجت أوربا ـ وأوربا الغربية ـ بالذات فى ذلك التاريخ بعينه ؟ لقد تحرك قطب الحضارة البشرية ومركز الثقل فى القوة السياسية العالمية حركة تاريخية محددة ، وئيدة ولكنها أكيدة ، عبر العصور القديمة والوسطى ، حتى اتضحت بجلاء على أبواب عصر الكشوف الى أن تبلورت تماما مع الانقلاب الصناعى · فالحضارة نشأت فى دائرة الشرق الاوسط القديم ، مصر والعراق وفينيقيا ، ثم انتقلت الى كريت فاليونان فروما ، وعشية الكشوف جاء دور غرب أوربا ، جنوبه أولا ثم شماله

هناك اذن سهم حركى واضح يبدأ من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ، ومن عروض دون مدارية الى عروض معتدلة ثم معتدلة باردة · هذا

ما يعرف فى مجموعه بنظرية هجرة الحضـــارة نحو الشمال ، بعيدا عن خط الاستواء ، وتجاه القطب (١) ومن المسلم به علميـــا وتاريخيـــا ان هـــذه الحركة ارتبطت تماما بالاحتـــكاك والاقتبـــاس الحضـــارى ، بمعنى ان كل مركز لاحق اســـتمد حضـــارته اصـــلا من مركز ســـابق ثم نماها الى مســـتويات اعلى ربما.. والـــكشوف الجغرافيـــة فى الحقيقة لا تخرج كثيرا عن هذه القاعدة

غير ان كثيرا من الـــكتاب الغربيـــين يحلو لهم ان يردوها الى حيـــوية وتطلع غير عادى فى شـــعوب غرب اوربا ، والى حب اســـتطلاع ومغـــامرة وتفـــوق طبيعى فى الجنس . هم بمعنى آخر يثيرون تفســـيرا عنصريا . الا ان الحقيقة ان اوربا الغربيـــة خرجت الى الـــكشوف بسبب عدة ضـــوابط وضـــواغط اهمها ما جاء من الخارج واقلهـــا ما صـــدر عن الداخـــل . وبتحليـــل هـــذه العوامل لن نعـــدم ان نرى اثر مراكز الحضـــارة والقوة الاســـبق من عرب واستبس وغيره ، ويمكن ان نحدد تلك العـــوامل فى ثلاثة : حضـــارى ، وسياسى ، وجغرافى

فحضـــاريا لا جـــدال فى ان الـــكشوف نتيجة من نتائج النهضة الاوربية ، وهـــــذه بدورها وبالقطع نتيجة من نتـــائج الاحتـــكاك الحضـــارى بالعرب . فمن مركز الحضـــارة العـــالمية فى العصر الوسيـــط ــ العالم العربى ــ تسربت عنـــاصر الحضـــارة المـــادية وغير المـــادية الى اوربا عبر البحر الابيـــض المتوسط مع

---

(١) E. Huntington, Civilisation & Climae, 1924, pp. 396-7; Mainsprings of Civilisation, N.Y., 1945.

التجارة والانتقالات ، ولكن بصورة درامية حاسمة فى الحروب الصليبية التى ايقظت اوربا من سباتها وتخلفها . ويكفى كمجرد مثال ان نذكر ان اسبانيا ما عرفت البارود والاسلحة النارية التى ستبنى بها امبراطوريتها الا نقلا عن العرب اثناء صراعها معهم . وقد انعطفت اوربا بعد ذلك على ذلك الدرس الحضارى وتمثلته ثم طورته ما شاء لها التطوير . وبفضل ذلك التراث ـ وبما فيه من فنون البحر بالذات ـ استطاعت ان تخرج الى المحيط

اما سياسيا فقد كانت اوربا الوسيطة تعيش فى عالم اقطاعى ممزق ، عالم الفرسان والاقنان ، والامراء وعبيد الارض . وبذلك كانت تتالف سياسيا من موزايكو لا نهاية له من الوحدات المحلية والاقليمية الضيقة سواء من دوقيات وبارونيات الاقطاع او دول المدن ونقابات الاوليجاركية guilds ، الكل قد مزقته الحروب والصراعات الصغيرة . ولم يكن من الممكن لمثلها ان تخرج الى استعمار الكشوف بهذا الهيكل السياسى البدائى القزمى . بل هى لم تخرج الا بعد ان بدات فيها جرائيم القومية الاولى والشعور والوعى بالذات الوطنية واتجهت نحو لم جزئياتها السياسية فى وحدات وطنية اكبر فى طريقها الى الدولة الوطنية الحديثة nation state

وهنا نقرر مباشرة ان الذى دفعها الى هذه الطريق انما هى ضغوط القوى الخارجية المعادية . فكما يعترف ماكيندر ، ان الذى خلق الشعور القومى مبكرا فى اوربا هى الضغوط الثلاثة التى احدقت بها من جهاتها الثلاث : خطر الفيكنج من الشمال ،

والاستبس من الشرق ، والسراسنة (العرب) من الجنوب . وقد رأيناه من قبل يعترف بان الاسيويين فى موقعة شالون كانوا يصنعون فرنسا الحديثة دون وعى ، كما رأينا ان الصليبيات كانت اول حركة وحدت أوربا وهى وان تكن اطارا دينيا فانها تدريجا نمت الى منتهاها الطبيعى وهو الاطار القومى . ويكفى ان الوحدة السياسية ثم الكشوف الجغرافية بدات مباشرة فى اسبانيا والبرتغال بعد طرد المور والعرب وكرد فعل للصراع معهم . ان القومية المبكرة والوحدة الوطنية الباكرة التى عرفتها اوربا ، ومكنت لها من الخروج الى الكشوف والاستعمار ، هى فى التحليل الاخير هدية غير مقصودة من العرب والشرق

اكثر من هذا ، ان الضغوط الشرقية والاسيوية هى ـ جزئيا على الاقل ـ التى قذفت باوربا الغربية الى ما عبر المحيط ! لقد سبق ان رأينا ان غزوات الاستبس وموجاته هى التى دفعت القبائل المتبربرة غربا حتى قفزت من القارة الى جزيرة بريطانيا هنا والى جزيرة البندقية هناك . وبالمثل ، ولكن فى اطار مختلف ، قد يمكن أن نقول ان مما دفع باوربا الغربية لتقفز قفزة اوسع عبر المحيط الى العالم الجديد ضغط العالم العثمانى من الشرق حين اغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الاقصى حتى اضطرت اوربا قسرا الى البحث عن الطريق الدائرى البديل . وفى الساعة موحية وثاقبة ، يؤكد فيرجريف هذا الراى حيث يقول : « ... ليس من المستكثر ان نقول ان القبائل الغازية (الاسيوية) ، بتوسيعها لافق النظرة ، كان لها تاثير واضح جدا فى احداث

سلسلة الظروف التى ادت الى كشوف كولمبس ومن تلاه » (١)

يبقى اخيرا من العوامل التى اهلت اوربا الغربية للكشوف ، العامل الجغرافى موضعا وموقعا . فمن الواضح ان البيئة الطبيعية هنا بيئة بحرية مثالية . القارة كلها ليست الا « شبه جزيرة من اشباه الجزر » (٢) ، سواحل مترامية متعرجة « مسننة » بالخلجان والفيوردات والريا rias ، ومحمية بالجزر والارخبيلات ، خلفها انهار واحواض انهار غنية ، تدعمها غابات اخشاب جيدة وآجام القنب والكتان ، وثلاثتها خامة بناء السفن ، هذا ان لم تقع وراء تلك السواحل او الانهار تربات جرداء واقاليم برمتها « متجلدة » glaciated تطرد السكان طردا الى البحر ، والبحر بدوره غنى بثروته السمكية الكثيفة

واذن فكل عوامل الجذب فى البحر مكفولة ، وعلى اليابس اما عوامل طرد واما قواعد ارضية مواتية لغزو البحر . كذلك لن ننسى ان هذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية فى غرب اوربا . فبفضل تداخل المحيط فى اليابس وتقطيعه له بالبحار الداخلية والخلجان الكبيرة ، انقسم اليابس الى وحدات جغرافية طبيعية معقولة الاحجام ، متميزة الحدود ، واضحة الشخصيات ، مما سهل تبلورها القومى ونشأة الدولة الوطنية الحديثة فى كل منها

---

(١) ص ١١٢

(٢) A.E. Moodie, Geog. Behind Politics, Lond., 1947, p. 86.
Whittlesey, p. 87;

ثم هنـاك اخـيرا الموقع المواجـه للعالم الجديد المجهول . ولعـل مما ينبغى ان نلاحظـه هنـا ان ما خرج الى الـكشوف والاسـتعمار البحرى بعـد ذلك من اوربا انما هو غربها السـاحلى البحرى فقط ، ابتداء من النرويج والدانمرك حتى اسبانيا والبرتغال ، بينما ان الدول الابعـد عن نفوذ وعالم المحيط كالسـويد والمـانيـا ثم ما شرقهـا لم تدخـل فى مرحـلة ما حلبة الاسـتعمار البحرى ، ولا يسـتثنى منهـا الا بعض مقـاطعـاتها السـاحليـة كبراندنبـرج فى المـانيـا ، وعلى مقياس متواضع عند ذلك

الاستعمار البرتغالى

بدات الـكشـوف فى نهـاية القرن الخامس عشر واوائل القرن السـادس عشر من البرتغـال وبها . وكان هـذا امرا طبيعيـا الى حد بعيـد ، وامتـدادا للحروب الصليبيـة الى حد ما . فبعـد ــ بل حتى قبـل ــ طرد المور من ايبـريا استأنف البرتغـال والاسبان صراعهم الصليبى بمده ونقله الى المغـرب العربى نفسـه ، فمنـذ غارات القرصنـة الاسبـانية على المغرب وقبـل الاسـترداد النهـائى انتزع الاسبان سبتة ومليلة على الساحل المقابل (١) ، بينما بعـده بقليـل بدأ البرتغـال فى اقامة مسـتعمرة على السـاحل الافريقى للمغرب هى « الغرب عبر البحر » ، مقـابلة لمقـاطعتهم هم المعروفـة الغـرب Algarve (٢) . وهكذا كانت البرتغـال بموقعها من افريقيا وفى افريقيا

(١) Nevill Barbour, loc. cit.
(٢) Fairgrieve, p. 137.

فى موضع يسمح لهما بالمخاطرة جنوبا فى « بحر الظلمات »

ثم كانت هناك الرغبة العارمة فى انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول الى جزر التوابل بالدوران حول اليابس الافريقى اى بطريق بحرى بديل . وثمة فوق هذا الرغبة الصليبية الكامنة فى الانتقام من الاسلام بتطويقه والالتفاف حوله ، وهى الرغبة التى اعطت الاستعمار البرتغالى من بدايته نزعة كثلكية ومسحة صليبية لا شك فيها . فالاستعمار البرتغالى — والاسبانى من بعده — خرج اولا « كاستعمار كاثوليكى » وظل كذلك طويلا فيما بعد . يؤكد هذا ان البابوية باركت اكثر من مرة امتلاك الاسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه « خارج العالم المسيحى » ، كما انها هى التى قسمت العالم بعد قليل ما بين القوتين الجديدتين

هكذا فى مدى عقد واحد من الاسترداد (١٤٩٧ — ١٤٩٩) كان البرتغال قد داروا حول الكيب (دياز) ووصلوا الى الهند (داجاما) . وهم اذا كانوا قد افادوا من التجاريات الشمالية الشرقية فى بداية الرحلة ، فقد افادوا فى نهايتها من الموسميات الجنوبية الغربية التى اعطاها العرب (احمد بن ماجد) سرها ليكونوا لهم عدوا وحزنا .. فقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الكشف عملية « أسر » كامل للعرب : فالطريق البحرى الجديد كان « أسرا نقليا » للطريق البرى التقليدى بحيث « سرقوا » الموقع الجغرافى البؤرى للعرب ، ومعه سرقوا تجارة الشرق ، ومع هذا وذاك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل

وينبغى ان نضغط جيدا على حقيقة هامة وهى ان توسع البرتغال انما قام على حساب العرب اساسا سواء تجاريا او استراتيجيا ، وهم فى الواقع الذين ورثوا دورها السلمى وبدأوا انهيارها العسكرى . واذا كانت المدن الايطالية قد شاركت العرب فى هذا المصير فهذا باعتبارها المكمل الاوربى الثانوى فى سلسلة تجارة الشرق القديمة . ففى خلال العقد الاول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الاسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لاول مرة . لقد غاض الدم وجف من الشريان والوريد معا ، فتوقف قلبه الاقتصاد العربى الاسلامى

وفى خلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند (الشرقية) قد اكتمل ، وهزم العرب فى بحر العرب وفى ملقا واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندى (١) . فبدأوا بمطاردة دول المدن العربية على طول ساحل شرق افريقيا ، وفى العقد الاول من القرن السادس عشر استولوا على جزر البحرين واقاموا فيها الحصون والمواقع factories ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفى العقد الثانى من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى ، وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا فى البقاء نحو نصف قرن (٢)

---

(١) Fairgrieve, p. 140.

(٢) Royal Institute of International Affairs, The Middle East, Lond., 1958, pp. 103, 132, 143.

وفى هـذا الصراع العربى ـ البرتغالى فى الهند تحالف البرتغال مع الحبشة المسيحية التى قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة . وكان التعاون بينهما قد بدأ فى الواقع قبل الكشف بقرن كامل ابان الصليبيات ، وكان بينهما مشروع خيالى لتحويل مجرى النيل الازرق فى الحبشة الى البحر الاحمر لتجف مصر وتنقرض جوعا ! .. وقد حاول البوكيرك بعد الكشف تنفيذ هذا الحلم « الفاوستى » المريد ، ولكن الجغرافيا سخرت منه وبددته تبديدا ، وعموما فقد كانت استراتيجية البرتغال ان تكتسح العرب من الباب الخلفى بعد اذ عجزت من الباب الامامى ، وحاولت ان تطوقهم بكماشة فكاها فى المغرب وبحر العرب

ولقد كان هذا جميعا ايذانا بنهاية الدولة العربية ، فبدأت الانحدار الرهيب الذى سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانية ، وهذه بدورها ستأتى لتخنق ـ بسياستها الجمركية الابتزازية الغبية ـ البقية الباقية من تجارة المرور وتضاعف من الانهيار المخيف . وقد حاول الاتراك فيما بعد ملاقاة البرتغال فى المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الاحمر ، ولكنهم هزموا فى النهاية فى موقعة ديو البحرية

على ان الامبراطورية البرتغالية فى الشرق لم تزد فى الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل ، ولم تمتد ابدا على مساحات واسعة من اليابس ، وكانت فى نمطها اقرب ما تكون الى نوع الاستعمار الاغريقى مع هذا الفارق انه لم يعرف استعمار السكنى والتوطن . فمن ناحية ظلت افريقيا

بالنسبة للبرتغال مجرد عقبة لا عتبة الى الهند ، وكل قيمتها لها انها موطىء قدم ونقط مراحل على الطريق ، ولهذا لم يزد استعمارها فيها عن نقط واشرطة ساحلية ومواقع حربية اهمها فى ساحل غرب افريقيا (ساحل الذهب) وشرق افريقيا . وفى المراحل التالية اصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب افريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق . وفى الهند لم يتعد البرتغال نقطة قاليقوط على جنوب الساحل الغربى فى البداية ، ولا رقعة جوا على شماله فى النهاية ، ولعل مما ساعد على حصرهم على الشقة الساحلية حائط جبال الغات المنيع (١)

ومن ناحية اخرى لم يكن لدى البرتغال ، بعددهم المحدود ، القوة البشرية الكافية للاستعمار السكنى حتى لو ارادت . بل ان امر هذه القوة البشرية ليثير الدهشة حقا ، ففى عصرها البطولى هذا لم تكن البرتغال تزيد على المليون نسمة سكانا ! (٢) فالغرابة اذن ليست فى سقوط الاستعمار البرتغالى فى النهاية وانما هى فى الدرجة الاولى فى قيامه اصلا . ولهذا وبالاحرى كان الاستعمار السكنى سؤالا غير وارد على الاطلاق ، وظل الاستعمار البرتغالى فى جزر الهند الشرقية « استعمار البهار » اساسا وبامتياز . ومن ثم يمكن ان نلخص محاور الاستعمار البرتغالى فى ثلاثية : الكثلكة : التجارة : الغزو

وسيلاحظ ان البرتغال ــ التى هى اول بناة

(١) Mackinder, Scope & Methods etc., p. 28.
(٢) Whittlesey, p. 403.

الامبراطوريات ـ قد حققت استعمارها فى عقود قليلة بسرعة غير عادية ، وملكت مناطق اضعاف اضعاف مساحتها هى وتترامى فى اطار جغرافى لا يقل عن نصف محيط الارض ! .. ومع ذلك ، ورغم ان القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيد البرتغال واسبانيا ، فان الامبراطورية البرتغالية لم تعمر فى الواقع اكثر من جيل بالكاد . ولم تلبث بعد ذلك ان اخذت فى التقلص والانكماش . فبمجرد ان ظهرت قوى بحرية جديدة انهارت البرتغال بلا مقاومة تقريبا (١) . ففى الوطن ضمت أسبانيا اليها البرتغال بمستعمراتها فى نهاية القرن السادس عشر ، ورغم ان البرتغال استعادت كيانها بعد ذلك فقد كانت تلك هى الضربة القاضية . واذا كان لها مغزى فهو ان موقع البرتغال الممتاز وتجارتها القائدة لم تجد شيئا امام ضخامة اسبانيا : لقد كان لا بد للموضع الضخم أن يتغلب على الموقع مهما كان ممتازا

ومن ناحية اخرى اهتبلت هولندة كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد اسبانيا لترث دورها وتجارتها بل ومستعمراتها ، وكانت تلك بداية دخولها دائرة الامبراطورية ، فلم تزل « تختطف » من البرتغال مواقعها ومستعمراتها فى الهند ، والهند الشرقية واحدا بعد الآخر حتى تقلصت الاخيرة الى جيوب قزمية متخلفة ـ دامان وجوا فى الهند وتيمور فى الهند الشرقية ـ وحتى ليمكن القول انها فقدت امبراطوريتها فى العالم القديم . وهنا لم يتبق لها الا مستعمرتها القارية الضخمة البرازيل فى العالم الجديد

---

(١) Fawcett, p. 422.

واذا كان الغزو البرتغالى فى العالم الجديد قد جاء سريعا ، فقد جاء الاستقرار بطيئا . فقد ظلت البرازيل فى البدء مجرد نقطة تموين فى الطريق الى الهند لا اكثر ، وكان اغلب المهاجرين الاوائل اليها من المجرمين والمطرودين . لكن ضياع الامبراطورية فى الشرق نقل اهتمام البرتغال الى البرازيل فى اواخر القرن السادس عشر بعد ذلك الاهمال الطويل . فبدأ الاستثمار الزراعى المدارى بالابعاديات والعمل الوطنى والسخرة . غير انه لما لم يصلح الهنود لذلك بدأ جلب الرقيق الافريقى باعداد ضخمة منذ ذلك الوقت حتى تضاءل بجانبهم عدد البرتغاليين كثيرا ، وكان البرتغال بذلك مؤسس مدرسة الرق فى العصر الحديث . وفى وقت ما من القرن السابع عشر كانت نسبة الزنوج الى البيض فى باهيا ـ على سبيل المثال ـ نحو ٢٠ ـ ١ ! (١) ورغم ان القرن الثامن عشر شهد بعض موجات للذهب والماس فى البرازيل ، فقد ظلت الزراعة المدارية هى أساس الاستعمار البرتغالى هناك

الاستعمار الاسبانى (٢)

كان لنجاح البرتغال فى الوصول الى الهند شرقا نتيجتان مباشرتان ، اولا : انه ما دامت كروية الارض حقيقة فمن الممكن الوصول الى الهند غربا ، وثانيا : ان عدوى الكشف انتقلت بالمنافسة الى الجارة المباشرة اسبانيا . ولكن اسبانيا وان تكن بسواحلها وموقعها

(١) Kimble, pp. pp. 21-22.

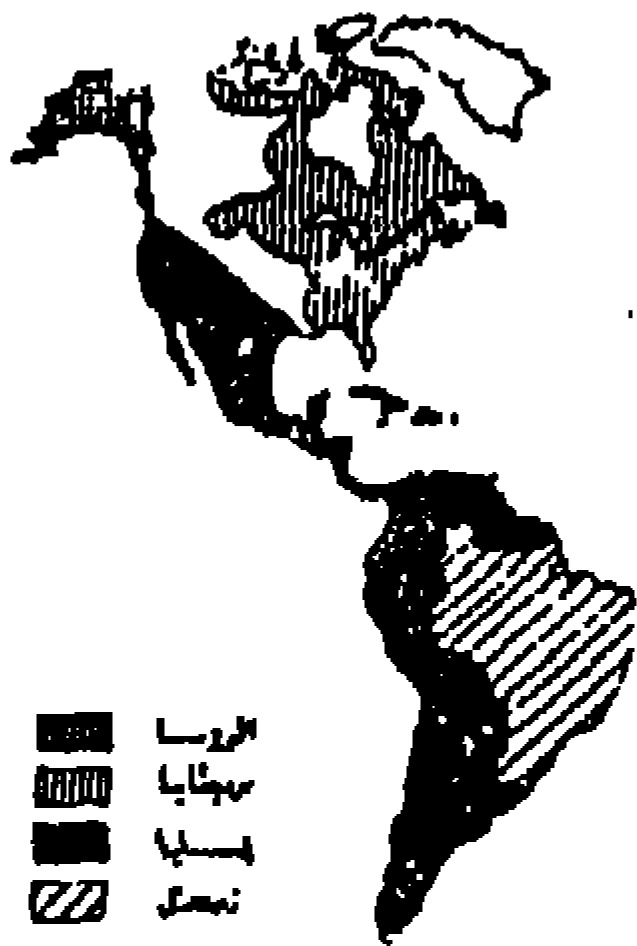
(٢) فى هذا الموضوع راجع :
Whittlesey, pp. 403-470; Fairgrieve, pp. 128-145; East, pp. 350; 354; Fawcett, pp. 422-5.

دولة بحرية فهي لم تكن امة بحرية بقدر ما كانت امة رعاة وفرسان المزيتا • ولعل مما له مغزاه ان كشوف اسبانيا قام بها لها اثنان من غير الاسبان ، كولمبس الجنوى ، وماجلان البرتغالي . والحقيقة ان وضع اسبانيا سواء في الوطن او في الاستعمار عبر البحار يشبه بالنسبة للبرتغال وضع الرومان بالنسبة لليونان : حجما وقوة ، توجيها بحريا ، ترتيبا زمنيا ، نوع استعمار ، ثم علاقة مصير

وقد خرجت اسبانيا الى الكشف بعد التوحيد مباشرة مغربة في الاطلسي . ومن الطريف ان نلاحظ ان هذا عكس اتجاه البرتغال في الكشوف ، وكلا عكس مواقعهما النسبية في الوطن . وليس من المؤكد ان اسبانيا اول من غامر في الاطلسي ، فهناك ادلة على محاولات اسبق . فالنورس Norse وصلوا من اسكندناوة الى جرينلند واقصى اصقاع امريكا الشمالية في العصور المظلمة ، كما ان هناك رواية « الفتية المغرورين » من عرب الاندلس الذين يقال انهم خرجوا من البرتغال الى شمال امريكا الجنوبية ، هذا عدا النظرية الصينية الحديثة التى تجادل بان الصينيين سبقوا كولمبس الى العالم الجديد عن طريق الهادى

الا ان كشف النورس جاء موءودا من البداية لانه انتهى الى نهاية اللامعمور ، اما الفتية فلم يعودوا ، والكشف الصيني ان صح لا اثر تاريخي له . وهكذا قدر لاسبانيا ان تكشف امريكا ، وقدر للاطلسي ان يخترق لا من حيث يضيق الى ادناه في الشمال ولكن من حيث يتسع الى اقصاه في الوسط . وقد لعبت الرياح دورا هاما في توجيه وتوقيع الكشوف الاسبانية والاستعمار الاسباني بعدها . فقد اتخذت رحلة الذهاب

مسارا متعمقا نحو الجنوب حتى تحملها الرياح التجارية الشمالية الشرقيـــة الدائمة ، مما انتهى بكولمبس الى جزر الهند « الغربية » وامريكا الوسطى . هـــذا بينما كانت رحلة العودة تأخذ مسارا اكثر شمالية بكثير لتفيد من الرياح العكسية الغربية



شكل (٨) الاستعمار في العالم الجديد ١٧٦٣

ورغم ان كولمبس لم يعـــرف قط أن هناك « امريكا شمالية » فالمهم أن جزر الهند الغربية كانت اول ما وطىء الاســـبان ، فكانت لصغرها وتفتتها فريسة ســـهلة لهم ومن ثم ، شأن كل الجـــزر الساحلية المماثلة ، خشبة قفـز مثالية على القارة ـ وستكون بالمثل آخر ما يغادرون من العالم الجديد .

ومن امريكا الوسطى توســـع الاسبان بعد ذلك شمالا عبر هضبة المكسيك وفيما بعد وصـــلوا الى فلوريدا وكاليفورنيا ، ومن أمريكا الوسطى ايضا عبروا برزخ بنما الى الهـادى وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى ومنه دلفوا الى نطاق مرتفعاتها الغربية ، الا انهم اهملوا شرق امريكا الجنـــوبية المنخفض كما لم يهتموا الا متأخـــرا بالارجنتين . وبهذا يرسم تقدمهم فى أمريكا الجنوبيـة قوسا هلاليا عكس عقارب الساعة ، يبدأ من جزر الهند ثم يتتبع المرتفعات الغربية الى ان ينتهى فى ســـــهول الارجنتين

وقد تم ذلك جميعا او تقريبا قبل ان ينتصف القرن السادس عشر ، بل الواقع أن الهيكل الاساسى لـكل الامبراطورية الاسبانية فى أمريكا اللاتينية تم وضعه فى

ربع قرن فقط . وهو معدل مذهل ، لا سيما اذا عرفنا ان اسبانيا حينئذ لم تكن تتعدى ٦ ملايين نسمة مقابل ١٢ مليونا من الهنود الحمر . وفى أوج الاستعمار الاسباني لم تقل المساحة التى خضعت له عن نصف العالم الجديد برمته ان لم تزحف نحو الثلثين ، وذلك يعادل مساحة الوطن عشرات المرات !

كيف نفسر هذا ؟ .. بالفارق الحضارى والحربى بين الغزاة والوطنيين أولا ، اى بين البارود والمدفعية والفروسية وبين اسلحة المشاة البدائية . ولكن هناك ايضا العامل الجغرافى ، فان هناك تشابها طبيعيا ومناخيا كبيرا بين هضاب امريكا وهضبة المزيتا فى الوطن ، وكان هذا مما سهل عملية الانتشار وسرعة التمدد . ونفس هذا العامل الطبيعى هو الذى يفسر لماذا لم يتوغل الاسبان كثيرا فى امريكا الشمالية ، فهناك يبدأ وسط بيئى ومناخى مختلف كثيرا عما الف الغزاة المتوسطيون ، وهناك بالتالى وضعت الطبيعة الحد السياسى للاستعمار الاسبانى . واذا كان هذا قد وصل الى اعماق مذكورة فى امريكا الشمالية ، فقد جاء ذلك متأخرا وانحسر مبكرا

ومع كشف العالم الجديد كان لا بد من تنسيق السيادة بين اسبانيا والبرتغال . فنالت اسبانيا — فى تحكيم البابوية فى معاهدة تورديسيللاس — كل ما يكشف فى نصف الكرة الغربى ، والبرتغال كل ما يكشف فى نصفها الشرقى ! .. وقد جعل خط هذه المعاهدة شرق أمريكا الجنوبية (البرازيل) من نصيب البرتغال ، بينما اصبح بقية جسم امريكا الجنوبية والوسطى امبراطورية قارية أسبانية ضخمة ، ولو ان البرتغال تخطت الخط كثيرا نحو الغرب بعد ذلك

وفى نفس الوقت كان ماجلان يتجه الى مضيق ماجلان ليعبر الهادى ويكتشف الفلبين (التى اعطيت اسم الملك الاسبانى) ويصل الى جزر الهند الشرقية . وبهذا دار حول الكرة دورة كاملة ، وكانت رحلته تعادل رحلتى دياز وكولمبس معا ، وعلى نطاق اضخم بكثير ايضا . ومع ذلك فسياتى هذا الطريق فاشلا تجاريا لانه اطول جدا من طريق البرتغال ، على انه منذ ذلك الحين دخلت الفلبين فلك الامبراطورية الاسبانية

وهكذا خرجت اسبانيا والبرتغال من الوطن وقد اعطى كل منهما ظهره للآخر ليجدا نفسيهما فى النهاية يلتقيان وجها لوجه فى الشرق الاقصى : اسبانيا فى الفلبين شرقا ازاء البرتغال فى جزر الهند الشرقية غربا : اى على غرار مواقعهما فى ايبريا وعلى عكس ترتيب المواجهة بينهما فى امريكا الجنوبية . وبهذا اغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الارضية ، واصبحت امبراطورية البرتغال تمتد من الانديز فى الغرب الى جزر الهند الشرقية فى الشرق ، وامبراطورية اسبانية تمتد من الانديز وجزر الهند الغربية فى الشرق الى الفلبين فى الغرب !

ولئن كان الاستعمار الاسبانى يشترك مع البرتغالى فى المثل التبشيرية ، فانه يختلف عنه فى انه لم يستهدف التجارة اصلا ، وعلى كل حال فان المناطق التى دخلها لم يكن بها بهار أو تجارة لتستغل . اما « بهار » الاسبان فكان المعادن النفيسة ، الذهب والفضة . ولهذا اندفعوا فى امريكا الجنوبية مباشرة الى المرتفعات الغربية الغنية جيولوجيا بهذه الثروات فى المكسيك وبيرو ، فى حين ان جزر الهند الغربية وشرق القارة لم تكن بها ثروة الا الزراعة المدارية التى تحتاج الى ايد

عاملة كثيرة وابعاديات واسعة ولهذا تاخر استثمارها فترة ما . وفى المرتفعات وجد الاسبان مجالا لهـــدف اساسى من اهدافهم وهو الفزو ، فحطموا ممالك الازتك والانكا وغيرها من الدول الهندية ، وفى هـذا برز دور الفزاة الفاتحين conquistadores كورتيز وبيزارو

واخيرا فان الاستعمار الاسبانى يختلف عن البرتغالى فى ان الاخير دخل مناطق ماهولة بالسكان كثيفة ومدارية ، فلم يكن ثمة مجال لاستعمار سكنى ،ولم يكن للبرتغال على اية حال القوة البشرية لمثله . اما الاستعمار الاسبانى فقد حدث فى منـاطق مخلخلة قليـلة السكان يصلح كثير منها بحكم ارتفـاعه لتوطن البيض . ولهذا ، ولوفرة القوة البشرية فى اسـبانيا نسبيا ، اتخذ نمطا سكنيا سيشتد فيما بعد ويتحول الى خلط جنسى لا مثيل له فى اى قارة اخرى . والحقيقة ان الهجرة الاسبانية ظلت ذكرية اساسا لفترة طويلة ــ دليل آخر على طابعهـا العسكرى ــ مما فتح الباب امام التزاوج من الوطنيين ، ثم فيما بعد مع الزنوج المجلوبين

ويمكننا ان نلخص الموقف كله فى انه اذا كانت اركان الاستعمار البرتغالى هى التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فان اركان الاستعمار الاسبانى هى التبشير والمعادن النفيســة والفزو والاســتعمار السكنى ، وبهذا يبدو الاستعمار البرتغالى ، كما الحنا عابرين من قبل ، أقرب فى طبيعته ومجاله الى الاستعمار الاغريقى القديم بمركبه التجارى ــ البحرى ــ النقطى ، بينما يقترب الاسبانى كثيرا من الاســتعمار الرومانى القديم العسكرى ــ الارضى ــ القارى

واذا كانت اسبانيا والبرتغال قد تقاسمتا السيادة

والقوة العالمية فى القرن السادس عشر ، فقد كانت اليد العليا لاسبانيا بكل تاكيد بحكم جرمها وضخامتها ، بل لقد رأينا كيف ضمت البرتغال فى نهاية القرن وحطمت قوتها . وقد احتكرت اسبانيا التجارة طويلا وحرمت القوى الاخرى من التجارة فى امبراطوريتها Spanish Main كذلك . الا ان اسبانيا لم تكن تملك شيئا فى العالم القديم سوى الفلبين

ولكن اذا لم يكن لاسبانيا امبراطورية فى الشرق او العالم القديم كالبرتغال ، فقد عوضت عنها بأمبراطورية كبرى فى اوربا نفسها : فكان لها املاك واسعة فى ايطاليا ، وآلت اليها الاراضى المنخفضة (هولندة وبلجيكا) بالوراثة ، وحاولت ان تعيد الامبراطورية الرومانية « المقدسة » ، وتطلعت الى السيطرة على اوربا جميعا . ولذلك دخلت حروبا طويلة فى غرب القارة ووسطها ، هذا عدا الحرب مع الاتراك ، مما امتص طاقتها فى النهاية وانهكها

ولقد كان المنافس والعدو الاكبر لاسبانيا على القارة هى فرنسا ، وحاولت الاولى ــ وهى التى كانت تطوق املاكها فرنسا من الجنوب ومن الشمال فى الاراضى المنخفضة ومن الشرق فى ايطاليا والراين ــ حاولت غزوها ولكنها فشلت . كذلك ستنجح هولندة فى انتزاع استقلالها من اسبانيا وشيكا . ثم حاولت اسبانيا غزو انجلترا فى نهاية القرن بالارمادا « التى لا تقهر » (Armada = armata = ar ms) ، فكانت الهزيمة الشهيرة فى سنة ١٥٨٨ التى وضعت حدا لاسبانيا كقوة بحر . واذا كان هذا قد ترك بريطانيا آمنة فى جزيرتها ، فقد ثبت ايضا استقلال هولندة ، واكد

وقفة فرنسا فى وجه اسبانيا ، وانهى اطماع السيادة الاسبانية

هكذا ضاعت امبراطوريتها الاوربية مثلما ضاعت امبراطورية البرتغال فى الشرق، ولم يتبق لها ـ مثلها ـ الا امبراطوريتها فى العالم الجديد . وحتى هذه لم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندة وبريطانيا ان بدأت تتخاطفها بالقوة فى جزر الهند الغربية خاصة . فانتزعت بريطانيا جميكا ، وبعض جزر الانتيل الصغرى فى القرنين السابع والثامن عشر ، وابتلعت فرنسا جواديلوب والمارتنيك ، كما اقتسمت الاثنتان هايتى ، بينما خرجت كل من هولندة والدنمرك ببعض الجزر الصغرى ، الى ان تظهر الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر لتتم تصفية التركة . وبذلك بدأ دور اسبانيا العسكرى يؤول الى فرنسا ، مثلما آل دور البرتغال التجارى الى هولندة ، وهاتان هما القوتان اللتان سينتقل اليهما الصراع على السيادة العالمية فى القرن التالى

الفصل الرابع

الاستعمار البحرى

الاستعمار الهولندى (١)

القرن السابع عشر هو بلا ريب قرن هولندة (٢) . فقد طفرت فيه الى المقدمة كقوة بحرية تجارية استعمارية ، ودخلت الاستعمار من اوسع ابوابه . وقد كانت الاراضى المنخفضة (هولندة وبلجيكا) خاضعة لاسبانيا وشاركت بهذه الصفة فى التجارة البحرية الجديدة بدرجة ما فى وجه الاحتكار التجارى البرتغالى. ولكن الحقيقة ان موقع البرتغال ـ ايبريا عامة ـ وان اعطاها الاسبقية الى الشرق ، لم يكن الامثل بالنسبة لتجارة الشرق مع اوربا ، لان ايبريا تنعزل عن القارة ومواصلاتها البرية بالحائط الجبلى والبعد الجغرافى . ومنذ ان انتهي دور المدن الايطالية ، اصبح المدخل الطبيعى لتجارة اوربا مع الشرق هو الاراضى المنخفضة باعتبارها نهاية الشارع الرئيسى للحركة فى قلب القارة ، ونعنى به الراين الذى ـ وحده من بين انهار غرب القارة ـ يتوغل حتى قلبها

ولم تتوان هولندة عن توظيف هذا الموقع المدخلى الجديد . فنجحت اولا فى انتزاع استقلالها من اسبانيا

(١) Fairgrieve, pp. 146-160, East, pp. 354-8, Fawcett, p. 425.

(٢) Harrison Church, P. 21.

فى حروب الاصلاح الدينى فى العقد التاسع من القرن السادس عشر ، وذلك بفضـــل تحصنها فى دلتــــاها الاسفنجية واغراقها لاراضيها الواطئــة فى وجه العدو بالاضافة الى مزاياها كامة ملاحية فى بيئة بحرية مثالية. هــذا بينما ظلت بلجيكا اسبانية ولم تستطع أن تخرج الى البحر والاستعمار فيما بعد الا فى موجــــة القرن التاسع عشر

ومنذ ذلك الحين بدأت تجارة البهار والشرق تنصـــب انصبابا فى هولنـــدة التى ورثت دور البرتغــــال بمثل ما ورثت انتورب دور لشبونة ، فصـــارت أكبر مركـــز تجارى فى اوربا • أو قد نقول بطريق غير مبـــــاشر : ورثت هولندة دور ايطاليا ، بل دور العرب • وسنحت الفرصة الكبرى لهولندة لتاكيـــد مكانتهــــا حين حطمت أسبانيا قوة البرتغال ، ثم حين تحطمت قوة الارمادا

فبدأت هولندة تنقض على المســـتعمرات البرتغاليـــة (الاسبانية فى وقت ما) • وقبل أن يمضى نصف قرن على الاستقلال كانت هولندة فى كل بحار العالم ، وبعـــــدها بقليل وصلت الى أوج قوتها وانتزعت السيادة من البرتغال فى جزر الهند الشرقية التى ظلت ــ باستثناء تيمـــور ــ هولندية بعد ذلك باســـتمرار • وهى بذلك قـــد ورثت امبراطورية البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافى ودورها التجارى • وفى الطريق الى الهنـــد أقاموا مســـتعمرات ساحلية فى ساحل غانه ، وكانوا أول من نزل فى الكاب بموقعه الحيوى بعد اذ أخطأها البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة

ثم بعدئذ امتلكوا جزيرة موريشس (التى أعطوها اسم اميرهم موريس) ، وأخيرا احتلوا جزيرة ســـيلون حيث سيكون لهم دور طـــويل فيها ، أكثر من هـــذا عامـــر

الهولنديون من جزر الهند الشرقية جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال استراليا لاول مرة فى بداية القرن السابع عشر وحتى سميت لحين ما بهولندة الجديدة • كذلك كشف تازمان تازمانيا ونيوزيلندة (نسبة الى زيلند بهولندة) فى النصف الاول من نفس القرن • الا أن هذه الكشوف لم تؤد الى دور استعمارى ما

لا ، ولم تقتصر الامبراطورية الهولندية على العالم القديم ، بل أسسوا مستعمرات فى البرازيل وجيانا ، وكانوا هم الذين اكتشفوا لاول مرة راس هورن الذى يحمل اسم احدى قراهم • فضلا عن ذلك امتلكوا مفتاح مدخل امريكا الشمالية فى نيو امستردام (نيويورك فيما بعد) • وعدا هذا فقد تسيدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحرى لكل اوربا ، حتى سموا أنفسهم « نقلة البحر Wagonars of the sea كما سماهم غيرهم « بقالة أوربا »

وسيلاحظ عند هذا الحد أن الامبراطورية الهولندية صورة محرفة للامبراطورية البرتغالية : ففى أوربا نفسها لم يكن ثمه مجال لتوسع أى منهما ابتداء ، أما عبر البحار فكل منهما امبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة • كذلك فقد بدأت تجارة لا توطنا ، وذلك بحكم كثافة السكان فى مستعمرات العالم القديم • ومع ذلك فقد تحولت هناك بالتدريج من الاستعمار الاستغلالى الى درجة مامن الاستعمار السكنى ومن التجارة الى الابعاديات، بينما فى العالم الجديد ساد هذا الطابع الاخير مبكرا .

وكالبرتغال ، لم يكن لتوهج هولندة ولمعانها كقوة بحرية أن يبقى طويلا • فهى مثلها تعانى أساسا من قاعدة أرضية محدودة الرقعة ، فقيرة فى تربتها وانتاجهاالزراعى،

لا تعرف الكفاية الذاتية حتى فى الغذاء ، فاقـــدة حتى للموارد الغابيه والمعدنية اللازمه لبناء السفن • والواقـع انه كان على هولندة أن تستورد كل معـــومات حياتهـــا اليوميه والغذائية والبحرية شأنها فى ذلك شأن بريطانيا فيما بعد ، حتى لقد قيل ان كل رأسمالها لم يكن ســوى موقعها الجغرافي وكل خامهـــا لم يكن الا النقل • ومن ثم فقد كان مقتلها يكمن ـ كالبرتغـــال ـ فى حرمانهـــا من تجارتها ••

ثم هى كانت كالبرتغال أيضا تعـــانى من قوة بشرية محدودة الحجم ، ولها مثلها حدود بريه مشترك مع قـوة ضخمة ـ فرنسا ـ على يديها سيكون تحطيم قوتها كمـــا خبرت البرتغال على يد أسبانيا • وتماما كمـــا اغتنمت هولندة الفرصة لترث البرتغال ، فستغتنم قوة بحـــرية أخرى ـ بريطانيا ـ الفرصة لترث هولندة ! بل كانت هولندة فى وضع اسوأ من البرتغال لانها وقعت بين شقى رحى فرنسا على القارة وبريطانيا فى البحر

ففى القرن السابع عشر بدأت كل من فرنسا وانجلترا تتطلع وتخرج الى البحر وتنافس هولندة على التجـــارة العالمية والقوة البحرية • ولكن خطر فرنسا كان الاسبق، ظهر فى القرن السابع عشر ، غير ان هولندة استطاعت أن تحتفظ بقوتها ازاءها طوال هذا القـــرن ، فى حين كان موقف انجلترا اقرب الى السلام الاسمى ، ولم يتخـــذ شكلا حربيا الا فى القرن الثامن عشر • وعموما فلم يكن عداء بريطانيا لهولندا أو خطرها عليهـــا يصـــل الى عداء فرنسا وخطرها • ويتراوح تاريخ الصراع اما بين حروب منفصلة بين هولندة وفرنسا أو بين هولنـــدة وانجلترا ، واما بين حروب احلاف بين هولندة وفرنســا ضد انجلترا أو بين هولندة وانجلترا ضد فرنسا

وفى كل هذه الحالات وايا كانت النتائج المباشرة للحروب ، كان هذا عبئا خطيرا على موارد هولندة المحدودة وامتصاصا لطاقتها • وقد كان دور فرنسا فى تحطيم قوة هولندة اكبر من دور بريطانيا لان هولندة كانت أضعف على البر منها على البحر كثيرا ، فكان يمكن أن تواجه بريطانيا بدرجة أو بأخرى ، اما مع فرنسا فلم يكن ظل لندية ما • ومع ذلك فقد كان صراع هولندة مع الانجليز فى البحر مريرا بل وحشيا ، واستماتوا فى وجههم لانهم هم مباشرة الطامعون فى تجارة المحيط ، حياة هولندة أو موتها

ولا يبدأ القرن الثامن عشر الا وكانت هولندة قد فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قوتها البحرية ، وخرجت تماما من دائرة صراع القوة ، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال• حتى مستعمراتها اخذت تتقلص فيما بعد كما فى أعقاب الحروب النابليونية حين انتزعت بريطانيا منها مستعمرة الكاب ، هذا عدا أنها هى نفسها سقطت لفرنسا نابليون• وكما انقضت هولندة من قبل على المستعمرات البرتغالية فى الشرق الاقصى ، انقضت انجلترا على مستعمرات هولندة هناك ، ومن الغريب أن هولندة بعد ذلك مالت ـ تماما كالبرتغال ـ الى أن تصبح حليفا تقليديا بل وعالة على الحماية البريطانية سواء فى القارة أو فى البحر أو فى المستعمرات • وباختصار فقد ورثت بريطانيا بالذات دور هولندة مثلما ورثت فرنسا دور اسبانيا

الاستعمار الفرنسى

مع نهاية القرن الخامس عشر كانت فرنسا قد استكملت وحدتها القومية حول باريس • ولكنها فى وصولها وتدعيمها لحدودها الشرقية البرية غير الواضحة دخلت فى

صراع برى مع القوى المجاورة استغرقها مدى النصف الاول من القرن السادس عشر ، كما انفقت نصفه الآخر فى حروب الاصلاح الدينى • كذلك كان عليها ان تقاوم أطمـــاع اسبانيا فى السيطرة عليها طوال ذلك القرن • فلم تكن لذلك كله مستعدة للخروج الى العالم الخارجى سواء فى القارة أو عبر البحار الا مع مطلع القرن السابع عشر

ولكن اذا كانت قوة اسبانيا قد تدهورت حينذاك ، فقد كانت هولندة فى طريقها الى السيطرة البحـــرية • ولهذا اصبحت السياسه الفرنسية منذ ذلك الوقت موزعة بين هدفين محوريين : التوسع القارى شرقا وصـــولا الى « الحدود الطبيعية » ، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار • وقد قام على تلك الســـياسة كل من ريشيليو وكولبير فى القرن السابع عشر • وسيصبح هذان الهدفان والتمزق العضوى بينهما ملمحا أساسيا مزمنا فى كل كيان فرنسا المقبل (١)

ولا شك ان فرنسا كانت خلال العصور الحديثة وحتى الانقلاب الصناعى أوسع وارسخ وأقوى قاعدة ارضية فى غرب أوربا : فهى تكاد تمثل أقصى رقعة للدوله الوطنية الموحدة قبل عصر السكك الحديدية (٢) ، وهى ضعف بريطانيا مســـاحة ، وكانت الى ما قبل الانقلاب ضعفها سكانا • وهى أغنى القوى بالموارد الطبيعية وأقربها الى التوازن الحرفي والاكتفاء الذاتي • وقد كان من الممكن لها أن تبنى اعظم قوة بحر فى ذلك الوقت ، بل بنتها بالفعل فى بعض مراحل القرنين السابع والثامن عشر ، وكان من الممكن لها أن تكون امبراطورية استعمارية كبرى ، ونجحت فى ذلك فعلا

(١) Fairgrieve, pp. 146-160.
(٢) Mogey, p. 125.

الا أن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة ، وحروبها المتصلة في القارة ، كان يمتص مواردها وطاقاتها بارمان ، ويسلب أكثر مشاريعها البحريه كثيرا من امكانياتها . وفضلا عن هذا فان فرنسا بغناها الزراعى الداخلى . واقترابها التقليدى من الكفاية الذاتيه لم تكن تشعر بقوة طرد طبيعى على اليابس أو قوة جذب على البحر . كذلك فانها ـ كاسبانيا ـ دولة بحرين مما يعوق وحدة أسطولها البحرى (١) . وفى هذا كله تكرر فرنسا دور اسبانيا وتوسعاتها الى حد بعيد وان يكن على نطاق اكبر . والحقيقة انها ورثت اسبانيا استراتيجيا مثلما ورثت هولندة البرتغال ، وكما كان على اسبانيا ان تواجه البرتغال كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندة الطافرة

وقد بدأت فرنسا بانتزاع الاراضى المنخفضة (بلجيكا) من اسبانيا المتداعية فى منتصف القرن السابع عشر . وبدأت حروبها ضد هولندة واستفادت من تحالف انجلترا معها ضدها فى بعض الحالات حتى تداعت قوة هولندة على يدها فى نهاية القرن . ولكن فرنسا رغم ما تراكم لديها من قوة بحرية ضخمة لم تكن تسيطر على التجارة المربحة الا الى حد ضئيل ، وظلت ـ بحريا ـ قوة عسكرية أكثر منها تجارية . ولذلك فقد كانت انجلترا هى التى ورثت دور هولندة التجارى رغم أن فرنسا هى التى حطمت قوتها عسكريا ـ تماما كما كانت اسبانيا هى التى حطمت البرتغال ولكن التى ورثتها هى هولندة !

ولذلك ايضا كانت هذه القوة البحرية كاستهلاك لا يقابله انتاج عبئا على مواردها . وقد كان أمام فرنسا امكانية بناء امبراطورية تجارية فى البحر المتوسط والشرق

---

(١) Ibid, p. 124.

العربي تزرى بهولندة ونعجز انجلترا ، الا أن ترددها بين الاهتمامات القارية البرية والتوسع البحرى بدد مشاريع كولبير وضيع نصيحة الفيلسوف ليبنتز المعروفه فى هذا الصدد

ورغم أن قوة بريطانيا البحرية حربيا وتجاريا كانت تطفر فى القرن الثامن عشر باستفحال ، ورغم انه كان على فرنسا ان تتصدى لها بحيث تحول هذا القرن الى صراع ثنائي خطير بينهما ، فان من الممكن ان نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا كأكبر قوة فى أوربا ، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة برا ، ولا تقل عنها بحرا · وقد جمعت فرنسا قواها مع اسبانيا خلال القرن عدة مرات فى حروب مطولة ضد بريطانيا بسبب توسع تجارة هذه توسعا خطيرا · ولكن ظلت صراعات فرنسا القارية خاصة مع النمسا تستنزف طاقاتها

وفى اواخر القرن كان الفارق فى القوة بين فرنسا وانجلترا يزداد ضيقا ، الى أن كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة وفيها وصلت السيادة الفرنسية فى اوربا الى قمتها ـ ولكن ايضا الى نهايتها · فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية وبريقها الشديد كالشهب الى احتراق اخير ، لتعطى فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا

وتفصيل ذلك أن نابليون حاول أولا أن يؤسس امبراطورية فى المشرق فى مصر والشام تكون مواقع الخطى الى الهند كى يضرب بريطانيا فيها ، او لتكون مصر لؤلؤة الامبراطورية الفرنسية فى مقابل الهند لؤلؤة الامبراطورية البريطانية كما قيل · وفى مرحلة تالية حاول ان يغزو بريطانيا فى جزيرتها لكن قصور فرنسا البحرى التقليدى وصل الى قمته فى هذه المحاولة التى انتهت بالطرف الاغر · وكانت المرحلة الاخيرة هى

« الحصار القارى » لبريطانيا لحرمانها من كل تجــارة اوربا • وفى هذا السبيل اخضع أوربا جميعها عدا السويد والنطاق العمانى ، كما انتهى به الى حمله الروسيا القاتلة ولعل هذه كانت أعظم امبراطورية اوربيه شهدتها العصور الحديثة ان لم يكن التاريخ جميعا • لكن تلك كانت نقطة الضعف النهائية : فقد اتسعت الجبهة الى مدى غير عملى، فجاءت النهايه نتيجة للاســـتنزاف المطلق لقوة وموارد فرنسا (١)

تلك التوجيهات وهذه الصراعات تنعكس بوضوح على الاستعمار الفرنسى عبر البحار • ففى النصف الاول من القرن السادس عشر وصلت فرنسا فى العالم الجديد الى السنت لورنس (جاك كارتييه) ، واسست فى النصف الاول من القرن التالى مستعمرتها الكبرى فى كويبك كنواة لكندا الفرنسية او « فرنسا الجـــديدة » ـ شامبلين • وقد بدأت هذه حقل صيد للفراء ثم حقل توطن وزراعة ، ولكنها ارتبطت بصرامة بالنهر حيث كانت الكتلة اللورنسية الغابية الجرداء الى الشمال تضع حدا لتوسع (٢) •وحتى على النهر ارتبط التوسع بآخر حد للملاحه المحيطية الممكنة حينذاك (٣)

ومن البحيرات اقتيدت فرنسا تلقائيا الى قلب القارة ، فهبطت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر مـــع المسيسبى حتى وصلت الى الخليج (لاسال) • وعلى محــور نهرى ـ مرة أخرى ـ اسست مستعمرة لويزيانا المترامية التى تشمل القطاع الاكبر من سهول وسط القارة (٤) • والحقيقة أن فرنسا كانت خير من أفاد من الانهـــار فى

(١) Fairgrieve, loc. cit.

(٢) Th. Pickles, North America, 1954, p. 2.

(٣) Church, p. 21.

(٤) E.C. Semple, Influences of Geog. Environment 1911.

التوسع السياسي واتخذت منها هيكلا لامبراطوريتها في العالم الجديد (١) . وفى الحالين سيرى الطابع القارى او البرى واضحا فى الارتباط بنهر بل فى الارتباط بقلب القارة

على ان ضخامة المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الشمالية جاءت فى النهاية نقطة ضعف لا قوة . فبعكس بريطانيا فى الولايات الثلاث عشرة التى تحصرها الابلاش واللجينى ، كان من سوء حظ فرنسا بعد توغلها فى السنت لورنس انها لم تجد عقبة طبيعية كبرى توقف توسعها حتى توطد اقدامها وتعمق وجودها فيما ملكته . ولهذا ادى تقدمها الكاسح السريع الى لويزيانا الى أن أصبح وجودها كله مساحة لا كثافة ، قوة بشرية ضئيلة في رقعة قارية هائلة ، ولهذا لم تستطع أن تحتفظ بها طويلا (٢)

وفيما عدا هذا اتجهت فرنسا فى العالم الجديد الى جزر الهند الغربية حيث نجحت فى أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من اسبانيا أهمها جواديلوب والمارتنيك، كما قفزت منها الى الساحل المقابل فى أمريكا الجنوبية لتتخذ لها موطىء قدم فى جيانا الفرنسيه . وحتى ذلك الوقت كانت التجارة اسهل واربح من التعمير ، ولذلك كانت جزر الهند الغربية تدر على فرنسا عائدا أكبر من لويزيانا وكندا . والحقيقة أن هذا يرجع ايضا الى قيمة الحاصلات المدارية والحاجة اليها فى أوربا بالنسبة الى محاصيل أمريكا الشمالية التى كانت على أحسن تقدير تكرر انتاج أوربا

اما فى العالم القديم فقد اتجهت فرنسا الى الهند .

---

(١) Mogey, p. 128.

(٢) L. Rodwell Jones. W.P. Bryan, North America; Fairgrieve, p. 309.

الشرقية ولكن الى الهند خاصه ، فانشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا وتوغلت منها الى الداخل قليلا أو كثيرا (ديبليه Dupleix وشركة الهند الشرقية الفرنسية) . وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا فى القرن السابع عشر . ولكن المنافسة والصراع مع بريطانيا سلب فرنسا كثيرا من تلك التجارة أولا ثم كثيرا من تلك المستعمرات نفسها ثانيا . فبعد أن أسرت المنافسة البريطانيه كثيرا من تجارة فرنسا فى الهند ، بدأ الغزو والفتح ، وخسرت فرنسا الحرب بسبب قصورها البحرى ، فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع التى انتهت فى ١٧٦٣ ، ولم يبق لها الا بعض جيوب ساحلية رمزية بحتة تتوزع فى شاندرناجور ويانون وبونديشيرى وكريكال وماهى !

وفى نفس الوقت ، تكرر نفس المصير فى العالم الجديد . فقد انتقل صراع فرنسا ـ بريطانيا الى كندا ، ونجحت الاخيرة بفضل قوتها البحرية وقصور فرنسا البحرى فى انتزاعها بعد حرب السنوات السبع وتحويلها الى دومنيون بريطانى . ومرة أخرى لم يبق لفرنسا الا بقايا تذكارية شكلية فى جزيرتى سان بيير وميكلون تجاه ساحل نيوفوندلند ! واذا كانت فرنسا قد عادت بعد قليل فى حرب الاستقلال الامريكية لمساعدة امريكا وحاربت مع اسبانيا ضد بريطانيا الى أن طردت هذه فى النهاية ، الآن فرنسا بدورها سرعان ما فقدت لويزيانا فى صفقة البيع السياسية التى قام بها نابليون . والحقيقة انها لم يكن من الممكن الاحتفاظ بها بعد أن أضطرت قوة بحرية أكبر الى الخروج من القارة (١)

وهكذا يمكن ان نخلص الى أن أغلب مساحة الامبراطورية

(١) فايفيلد وبيرس . ج ٢ ص ٧ ص ١٧١ ـ ١٧٢

الفرنسية التي تكونت فى الموجة الاولى للاســــتعمار فى القرنين السادس والسابع عشر ، سواء فى العالم الجديد أو انقديم ، سواء فى العروض المعتدلة او المدارية ، قد ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية فى القرن التاسع عشر. وهى قد ضاعت اساسا على يد بريطانيا . بل اكثر من هذا يمكن أن نقرر ان فرنسا خرجت من تلك الموجةالاولى بامبراطورية متواضعة - بقايا امبراطورية - أقل اتساعا وغنى مما خرجت به اى من البرتغال أو اســـبانيا او هولندة - عدا بريطانيا بالطبع . ولعل فرنسا وحدها هى التى تنفرد بهذه الحقيقة الغريبة فى تاريخ الاستعمار . ومعنى هذا أيضا ان امبراطورية فرنسا ، كما كانت فى عصر ما قبل التحرير المعاصر ، ترجع اصولها فى معظمها الى موجة الاستعمار الثانيه فى القرن التاسع عشر

الاستعمار البريطانى (١)

الحقيقة الكبرى والضابط الحاسم فى تاريخ بريطانيا السياسى والاستعمارى هى انها بصدفة جيولوجية جزيرة قاريه : من القارة وليست فيها . فمرة قد تفرض عليهـا جزريتها التخلف ، فاذا بها مرة اخرى ترعى نمـوها ، ومرة ثالثة تضمن تقدمها . وتفسير ذلك ان بريطانيا مرت بثلاث مراحل واضحة فى تطورها : المرحلة الاستعمارية فالقارية ، فالجزرية . الاستعمارية حين خضعت لغزوات وموجات القارة أيام الانجلز والسكسون ، والقارية حين حكمت اجزاء من فرنسا فى العصور الوسطى ، والجزرية حين انعزلت عن القارة قبيل عصر الكشوف (٢)

(١) Fairgrieve, pp. 161-196, Fawcett, pp. 421-428; Whittlesey, pp. 96-128;
نايفيلد وبيرس ، جـ ٢ ص ١٠٨ - ١٦٠

(٢) Democratic Ideals, p. 56.

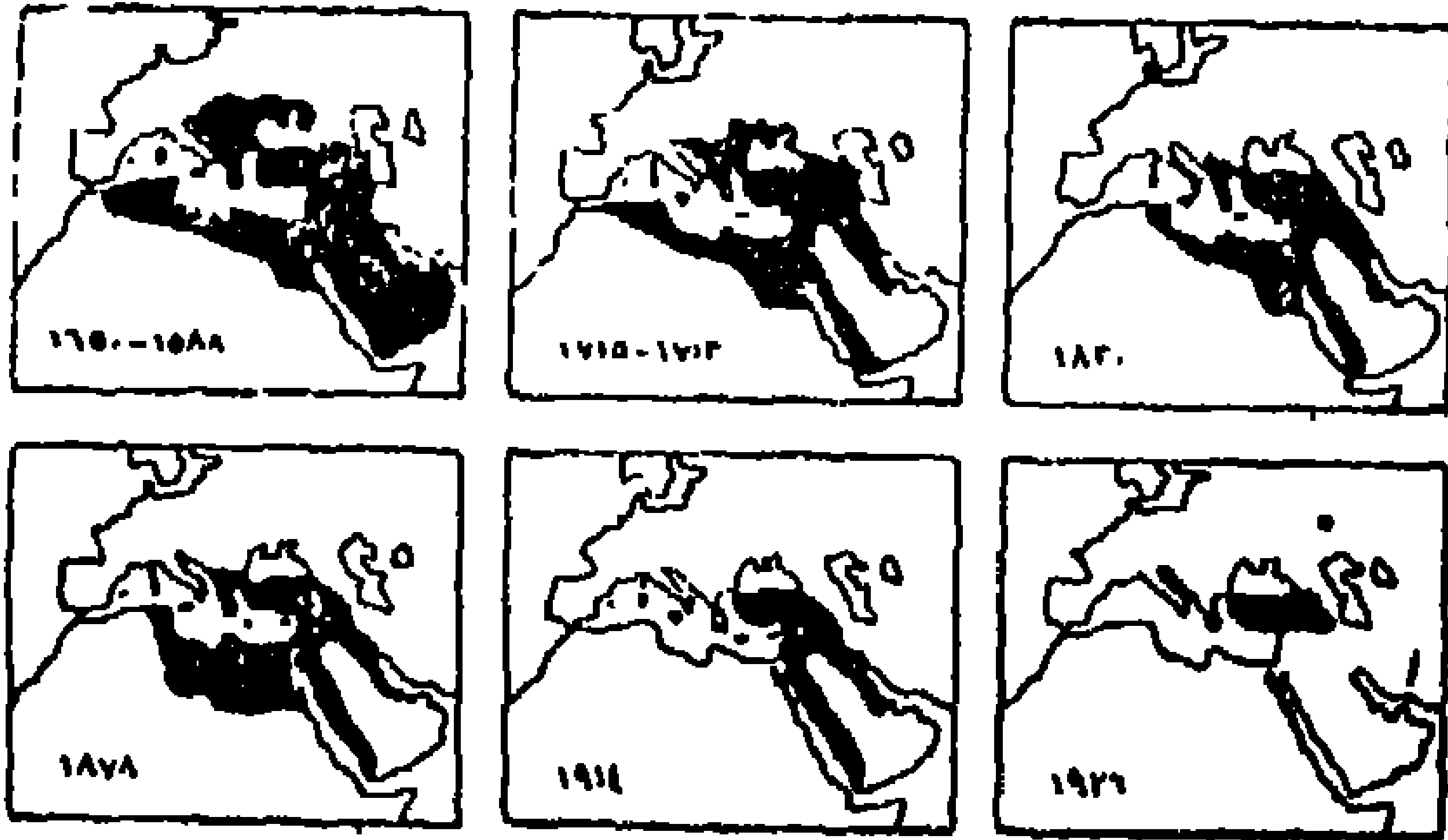
ولكن جزرية بريطانيا ليست وحدها كل شيء ، اذ لا يقل عن ذلك اهمية انها جزيرة كبيرة فسيحة ، يعنى أنها تقدم قاعدة أرضية عريضة متعددة الموارد يمكن أن تقيم دولة كبيرة • ولولا هذا لما زادت عن مجرد تابع أو ذيل لقوة مقابلة على القارة ، أشبه شيء بصقلية مثلا ولكن دون تاريخها المفعم • ولئن كانت بريطانيا لا تزيد مساحة عن نصف فرنسا ، فان السهل الانجليزى – نواتها النووية سياسيا واقتصاديا – لا يقل كثيرا عن مساحة السهل الفرنسى • ومع هذا فان قوة الطرد على اليابس والجذب الى البحر أقوى بلا شك منها فى حالة فرنسا • ولهذا فبريطانيا هى البيئة البحرية الكاملة التى حملت قوة بشرية كبيرة أولا وخلقت أمة ملاحة من الدرجة الاولى بعد ذلك ، ومنحتها فى نفس الوقت عنصر الحماية وحفظتها من اضطرابات وقلقلات القارة

ومنذ الكشوف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا • فقبلها كانت على نهاية العالم ، ولا تؤدى الى شيء • كانت بالضبط « أستراليا العصور الوسطى » كما قيل – بل وفى أكثر من معنى ذلك : فلقد كانت كل ثروتها الصوف الذى تصدره الى القارة ، خاصة الى هولندة وايطاليا • ولكن الكشوف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوح الى قطب موجب فى قلب المعمور المتمدد ما بين العالم القديم والجديد • وفى هذا المعنى يمكن أن نقول ان اسبانيا والبرتغال بكشوفهما هما – بلا قصد – اللتان اعطتا بريطانيا حياة جديدة ومكانة جديدة فى العالم

ولقد انفقت بريطانيا العصور الوسطى فى الحروب الاقطاعية ثم الاقليمية لتنسج وحدتها السياسية دون ما خطر من الحروب الخارجية التى يمكن ان تؤخر تلك الوحدة •وبفضل هذه «العزلة الرائعة «Splendid Isolation

كانت أولى دول أوربا الى تحقيق الوحدة القـــومية فى العصور الحديثة • وقد حررها هذا لتنزل الى البحر الذى جعلته العروض الشمالية العاصفه والبيئة المدية المتلاطمة مدرسة بحرية قاسية ولكنها ممتازة ، تتطلب المرونة قبل الضخامة والمناورة قبل الحجم

ومع ذلك فلم تكن بريطانيا مهياة لتخرج الى البحار حين الكشوف او بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغـــال واسبانيا ثم لهولندة وفرنسا ، وظلت هى فى منطقة الظل او شبه الظل • ولكنها فى حدود هذا الظل كانت تحاول ـ خلال القرن السادس عشر ـ أن تلتقط أى مكسب او فتات من التجارة المحيطية اما بعيدا عن النفوذ الاســبانى او مغافلة له • بعيدا عنه ـ بالاتجاه الى العالم الجديد من طريق شمالى متطوح ، فكان أول خروج لها نحو الشمال الغربى حيث اكتشفت فى آخر القرن الخـــامس عشر نيوفوندلند ولبرادور (جـــون كابوت) ، وهى دائرة محدودة القيمة التجارية



شكل (٩) مراحل انكماش الاستعمار العثمانى

اما مغافلة له ـ فبالتسلل الى المستعمرات الاسـبانية الاحتـــكارية S. Main للتجـــارة معها سرا • فبدأت

بين الجانبين ، حروب عصابات بحرية » بكل معنى الكلمة ، فكان هذا عصر القرصان المشهور بكل مغامراته واثاراته وملاحمه التى دارت على البحار العليا والبحار الدافئة وتمركزت خاصة فى الكاريبى ، والتى تؤلف « ساجا » بحرية أسطورية تكاد تكون «الف ليلة» الغرب أو العصور الحديثة الا انها دموية عدوانية . وفى هذه القرصنة الدامية ستكون نواة البحرية والاستعمار البريطانيين

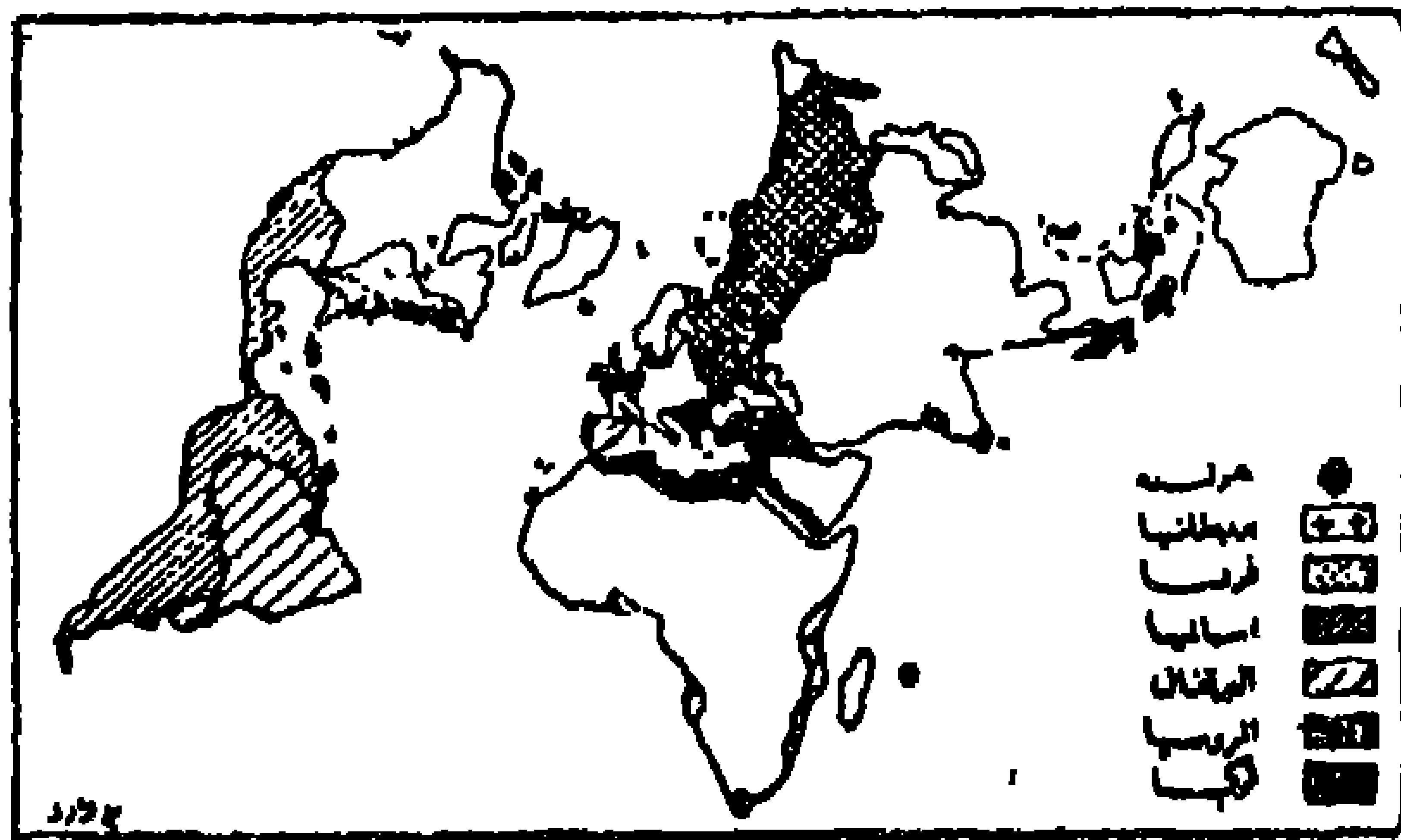
وفى هذه الفترة كان كل ما تطمح اليه بريطانيا فى وجه اطماع القوى السائدة هى ان تحافظ بحذر على استقلالها بمضاربتها بعضها ببعض ـ اسبانيا بفرنسا خاصة . الى أن حاولت اسبانيا غزوها بالأرمادا فى ١٥٨٨ ، وكانت المعركة بين الضخامة والمرونة ، وانتصرت المرونة لان سفن الأرمادا كقلاع عائمة حقيقية كانت ثقيلة بطيئة ، بينما سفن القرصنة البريطانية (دريك) خفيفة سريعة . لقد تغلبت بحرية العروض العكسية الشمالية العاصفة القاسية على بحرية العروض التجارية المعتدلة الهادئة .. نتيجة منطقية !

ومع أن هزيمة الأرمادا لم تضع مباشرة حدا لقوة وامبراطورية اسبانيا ، فقد فتحت الباب على مصراعيه امام بريطانيا لتدخل الميدان البحرى والتجارى الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر . ففى غضون عقدين كانت قد اسست بنجاح أول مستعمرة فى جيمستون «والدمنيون القديم » فى فرجينيا فى ١٦٠٧ على يد رالى . وقبلها بقليل انشأت شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها الى الهند وشاركت فى تجارتها . وفى نفس الجيل استقر « الآباء المهاجرون » فى نيوانجلند

ولكن فى هذا القرن ــ السابع عشر ــ كان على بريطانيا ان تواجه قوة هولندة التجارية وقوة فرنسا الحربية .

ورغم ان قوة فرنسا كانت الأكبر والاخطر ، لقد كان الذى يعنى بريطانيا مباشرة هى هولندة لانها هى المحتكر الحقيقى للتجارة المحيطية التى [illegible] ولذلك ورغم أن بريطانيا وقفت فى عدة حروب مع هولندة ضد فرنسا حتى لا تتعاظم قوة الأخيرة الى درجة تهدد الجميع ، فالاغلب ان بريطانيا كانت اما تترك هولندة تواجه فرنسا وحدها واما تنضم الى فرنسا فى صراعها لتحطيم هولندة

وفى خلال هذا جميعا كانت كل خسائر هولندة وفرنسا تتحول الى حساب بريطانيا مكاسب وأرباحا . فكانت التجارة عبر البحار تنتقل اليها بالتدريج ، حتى اذا ماحطمت فرنسا قوة هولندة نهائيا فى اواخر القرن كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجارى ، وورثت لندن وبرستول أنتورب وامستردام ، باختصار ورثت بريطانيا موقع ودور هولندة . واذا قلنا ان بريطانيا ورثت موقع ودور هولندة ، فقد قلنا فى الحقيقة وان يكن بطريق غير مباشر انها ورثت موقع ودور البرتغال ، وبطريق غير مباشر اكثر موقع ودور العرب القديم ، وبالتحديد مصر



شكل (١٠) الاستعمار العالمى فى سنة ١٧٠٠

نعم مصر ! فقد اصبحت بريطانيا فى عصرها التجارى الجديد فى العالم بنصفيه فى موقع ووظيفة أشبه ما يكون بموقع مصر ووظيفتها فى العالم القديم اثناء العصور الوسطى : هى همزة الوصل بين العالم القديم والجديد بمثل ما كانت مصر همزة الوصل بين آسيا واوربا ، وهى تقع فى ركن المحيط الأطلسى او البحر المتوسط الجديد بمثل ما تقع مصر على ارض الزاوية من البحر المتوسط القديم . ولم يكن غريبا بعد ذلك أن تصبح التجارة بعدا اساسيا فى حياة بريطانيا بعد ان كانت دولة زراعة ورعى وصيد ، وان تصبح بحق « امة من اصحاب الحوانيت a nation of shopkeepers » على حد تعبير نابليون فيما بعد، وان يصبح « بنك انجلترا » رمزا عتيدا للمركانتلية العارمة

وفضلا عن احتكار التجارة ، فقد نجحت بريطانيا فى صلح اوترخت فى أن تنتزع جبل طارق وبورت ماهون فى البحر المتوسط،وتأكدامتلاكها لنيوفوندلند ونوفاسكوشيا. وهنا لابد ان نلاحظ كيف يكرر الموقف المواقف الصراعية السابقة : فرنسا الضخمة الاكثر قارية تحطم هولندة الاصغر حجما الاكثر بحرية ، فترثها دولة بحرية أكبر الى الشمال هى بريطانيا ، مثلما حطمت اسبانيا الكبيرة شبه القارية من قبل البرتغال الصغيرة البحرية فورثتها هولندة البحرية الشمالية

وهنا ايضا لابد ان نلاحظ سياسة بريطانيا الجزرية : فقد كان محورها دائما أن تترك القوى الاخرى على القارة تتصارع وأن تغذى هذا الصراع حتى تضعف جميعا فتتقدم هى لترثها وهى بمناى فى جزيرتها عن خطر الصراع نفسه . وفى نفس الوقت كان توازن القوى على القارة هدفها الآخر . فكانت تعمل على الا تسود قوة

واحدة كبرى فى القارة ، ولهذا كانت الحليف التقليدى للقوى الصغيرة التى سبق ان عادتها وساهمت فى انحدارها ، وذلك ضد القوى الكبرى الجديدة . هكذا وقفت مع البرتغال ضد اسبانيا ، ثم مع هولندة ضد فرنسا ، ثم كما سنرى فيما بعد مع فرنسا ضد المانيا . فهى عدوة القوى الذى قد يهددها ، وحليفة الضعيف الذى لا يهددها . ولعل هذا هو ما اكسبها التسميه بالبيون الحانث Perfidious Albion

هكذا اذن لم يبق الا فرنسا والقرن الثامن عشر . ورغم سيطرة فرنسا الواضحة فى القارة فانها لم تستطع ان تمنع بريطانيا من الانطلاق نحو السيادة على البحار واحتكار التجارة المحيطية والتوسع الاستعمارى . وقد بدات بريطانيا بتحالفها مع عدوها السابق المهزوم هولندة ضد القوة السائدة الجديدة فرنسا . ثم أصبح القرن قرن الصراع بين بريطانيا وفرنسا . وكان الفارق الرئيسى ان فرنسا مرتبطه فى صراعاتها بالقارة ولها جبهتان برية وبحرية ، بينما لبريطانيا جبهة واحدة بحرية

من هنا كانت الاولى مضطرة الى الاحتفاظ بجيش برى ضخم ، وتهمل الاسطول عمدا وبالضرورة ، بينما كان جيش بريطانيا البرى دائما رمزيا ولم تحاول قط أن تنافس فرنسا على البر ، والقوة كلها للاسطول . ولذا فما دامت بريطانيا قادرة على منع غزوها بحرا ، فلا قيمة لضخامة جيوش فرنسا ضدها ، بينما على العكس : مادامت فرنسا اضعف فى البحر فأمام بريطانيا الفرصه لضربها فى مستعمراتها عبر البحار وانتزاعها منها . أى أن وجود حدود برية لفرنسا كان جديرا فى النهاية بأن يكلفها ضياع امبراطوريتها الاستعمارية ، بينما كان تحرر

بريطانيا من الحدود البرية كفيلا بان يمنحها امبراطورية استعماريه كامله · وهكذا بالفعل كان

فمن ناحية لم تستطع فرنسا ان تضرب بريطـانيا فى جزيرتها ، والواقع أن احدا لم يستطع ان يغزوها منـذ الفتح النورماندى حتى يومنا هذا · فقد كان الاسطول كفيلا بقطع الطريق على ايه محاولة كهذه · وقد تحـدت فرنسا ـ ومعها اسبانيا ـ قوة بريطانيا البحرية مرات عديدة فى القرن الثامن عشر فى حـروب ممطوطة مطولة · ولكن هذه كانت تخرج فى كل مرة اقوى ، بينما غالبا ما كانت فرنسا تخسر شيئا من مسـتعمراتها · ففقدت أولا كندا حين عزلتها بريطانيا بحرا فى كويبك وعجزت البحرية الفرنسية عن معاونتها وبذلك سـقطت كدومنيون لبريطانيا فى ١٧٦٣ ، كما ارتفـع الضغط الفرنسى بذلك عن ضلوع بريطانيا فى نيوانجلند

ثم فقدت فرنسا بعد ذلك الهند التى غزتها بريطانيا بقليل من قواتها ولكن بكثير من القوات الهندية (!) وضمتها فى ١٧٦٣ « كالامبراطورية الثانية » بعد ضياع الولايات المتحدة ، وخرجت فرنسا الا من جيوب وأسافين لا وزن لها · ومما يلاحظ أن بريطانيا اقتربت أولا كالبرتغال من الهند من الغرب ، من بومباى بالذات ، ولكنها مثلها لم تستطع أن تمرق الى الداخل من تلك الجبهة الجبليـة المغلقة ، فعادت ودارت حول شبه الجـزيرة لتقتحمها من بوابتها البحرية الوحيدة والصحيحة وهى بوابة الكنـج (الهوجلى سيد) · وبمجرد أن وضعت قدمها على المدخل الطبيعى انفتح الطريق أمامها الى قلب شبه القـارة حتى اخضعتها جميعا وحطمت امبراطورية « المغـول الاكبر » ليبدأ « الراج Raj » البريطانى فى الهند (١) هذا ،

(١) Mackinder, Scope & Methods, etc., atc., p. 28.

واذا كانت بريطانيا قد وضعت قدمها فى « حذاء » الهند بدل فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر ، فقد استغرقت قرنا كاملا أى حتى منتصف القرن التاسع عشر لتبسط نفوذها على جميع أجزائها

على أن بريطانيا خسرت فى تلك الفترة « امبراطوريتها الاولى » فى الولايات الثلاث عشرة فى أمريكا • فقد ثارت الولايات فى حرب الاستقلال فى مرحلة ضعف لقوة بريطانيا البحرية ، وانتصرت لبعد المسافة وضعف الارتباط ، ولكن أيضا لمساعدة فرنسا وأسبانيا للانفصال (١٧٨٣) • على أن ضياع الولايات الثلاث عشرة أدى الى خروج كثير من المعمرين (الموالين لبريطانيا Loyalists) وهجرتهم الى كندا من ناحية والى استراليا من ناحية أخرى ، أى الى تحويل تيار الهجرة والتعمير الى مناطق الدومنيون التى كانت مهملة والمساعدة فى تدعيم الامبراطورية الثانية • وهذا يذكرنا بما حدث من تحويل اهتمام البرتغال الى البرازيل المهمله حين ضاعت امبراطوريتها فى الشرق والعالم القديم

وقد عاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أعتى مستوى مع نابليون الذى كان أعظم تحد واختبار لقوة البحر • وقد فشلت كل مشاريعه البحرية ضد بريطانيا سواء فى مصر أو فى غزو بريطانيا • فقد خسر أسطوله فى أبى قير فى الاولى وفى الطرف الاغر فى الثانية • وبهذا عجز عن الوصول الى بريطانيا أو مستعمراتها بسبب تفوق قوة البحر البريطانية أساسا • ومنذ البداية أدرك نابليون أن العقبة الوحيدة فى طريقه الى السيادة العالمية هى قوة البحر البريطانية • وحين سيطر على أوربا جميعا كانت هذه وحدها هى العقبة التى تحطم عليها فى النهاية • ولهذا تعد الطرف الاغر بداية السيطرة العالمية المطلقة لقوة البحر

البريطانية التى ستظل أكثر من قرن دون تحـــــد ، بل سيصبح القرن التاسع عشر بلا منافسه قرن الســـيطرة البريطانية العالمية ..

ولا شك أنه لما يدعو الى التساؤل كيف اســـتطاعت بريطانيــــا أن تقف بمفردها ازاء نابليون ومعه أو تحت سيطرته كل اوربا . ولكن الحقيقة أن بريطانيا كانت تقف ووراءها كل موارد الامبراطورية والاستعمار عبر البحار ، وأهم من ذلك أنهـــا كانت تقف وأمامها ذلك « الشريط الذهبى » Golden Streak الحامى العتيـــد كما يسمى الانجليز قنال المانش . والواقع أنه ـ فى ضوء هذا العرض الاستراتيجى التاريخى ـ قد لا يوجد فى العـــالم عشرون ميلا ونيف من الماء لعبت دورا فى التاريخ كما لعب المانش

وقد خرجت بريطانيا من الملحمة النابليونية بمزيد من المستعمرات . فقد انتزعت الكاب من هولندة ، وحصلت على سنغافورة بالشراء البخس فى ١٨١٩ ، كمـــا كانت قد ضمت مالطة أثناء الصراع . وسيلاحظ فى هذه جميعا صفة المواقع البحرية الاستراتيجية التى تعد مفاتيح حيوية فى امبراطورية بحرية مترامية ، وهى الصفة التى ستتبلور بصورة حاسمة فيما بعد فى تركيب هذه الامبراطورية

الاستعمار البحرى :

خطـــوط عامـــة

تلك اذن قصة الاستعمار وصراع القوى الاســـتعمارية الجديدة فى الموجة الاولى للامبريالية فى العصـــــــور الحديثة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ بعدة حقائق عامة بعيدة المغزى

ماولا ، بعد أن كانت أوربا حبيسة في شبه جزيرتها في موقف دفاعي ، محاصرة بين قوى مختلفة من كل الجهات في العصور الوسطى ، انقلب الوضع وأخذت جانب الهجوم على عوالم جديدة برمتها ، وفرضت حصارها على القـوى القديمة من خلف أو من قدام • وكان هذا بداية سيادة اوربا على العالم • على أن الخروج الاستعماري قد ارتبط بدول غرب اوربا البحرية الساحلية وحدها ، بينما كانت بقيتها الداخلية بعيدة عنه • كذلك لم تشـارك الدول البحرية السـاحلية الضئيلة أو الصغرى • فرغم بعض محاولات ثانوية للغـاية لامثال الدانمرك والنرويج وبراندنبرج ، فانها تخلفت عن السباق تماما • وباختصار فقد ارتبط الاستعمار الحديث أشد الارتبـاط بالمحيط ونداء البحر والموقع الساحلي

ويلاحظ في هذا الخروج البحري أن اتجـاه كل من البرتغال واسبانيا الى أمريكا الجنوبية ، وكل من فرنسـا وبريطانيا الى أمريكا الشمالية ، انمـا هو توجيه طبيعي يتسق الى حد كبير مع المنطق الجغرافي وخطوط العرض وايحاءات الموقع ، وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الوطن والمهجر • ومن هنا انتهى العالم الجديد الى عالمين : لاتيني في الجنوب وانجلو ـ سكسوني في الشـمال ، يتناظران بصورة عامة مع ترتيب الاوطان الام • وكمـا تحتل اسبانيا الرقعة الكبرى من امريكا اللاتينية وتكمل البرتغال بدور ثانوي بالاضافة الى شظايا هولندية وفرنسية وبريطانية ، تحتل بريطانيا مركز الصـدارة في أمريكا السـكسونية وتأتي فرنسا في مرتبة ثانوية مع تذييل اسباني • ولما كان خروج أيبريا البحري قد سبق خروج شمال غرب اوربا بنحو قرن ، فان تاريخ أمريكا الجنوبية

يسبق تاريخ أمريكا الشمالية بنحو هذا المدى (١)

ثانيا ، كانت الوحدة القومية شرطا أساسيا سابقا للخروج الاستعمارى . فلم يكن من الممكن القفز الى العالم الخارجي قبل ترتيب البيت داخليا . وكان الخروج نتيجة للوحدة وعلامة عليها ، وترتيب توقيته يعكس الترتيب الزمنى لتحقيق تلك الوحدة . ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف ، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجارى ، ومع الجميع اتت ـ أخيرا ـ البورجوازية الليبرالية . فقد انصبت مكاسب المركانتلية والتجارة الاستعمارية في العواصم والمدن الكبرى والموانى . لتخلق تركيبا اجتماعيا جديدا أزاغ فلول الاقطاع نهائيا وأحل محله مجتمع التجار والمهنيين ، مما « برجز » مجتمع المدن وغلب الفكر الليبرالى والاوليجاركى على الحكم المطلق

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة جديدة قوية تنافس الطبقة القديمة التقليدية التى كانت تحتكر السلطة والحكم فى المجتمع . فالصراع الجديد هو فى الحقيقة صراع بين أصحاب الموارد المحلية فى الوطن ، وأصحاب الموارد المتدفقة من عبر البحار . ولقد كانت الثورة الفرنسية هى نقطة الانكسار العنيفة فى هذا التطور حيث التحمت البورجوازية المتعاظمة ـ على فيض مكاسب مستعمرات ما وراء البحار ـ التحاما نهائيا مع بقايا الاقطاع الزراعي المتحفرة وختمت على مصيرها ووضعت بذلك جرثومة أو خميرة الراسمالية الناشئة . وبمعنى اخر ، فان الكشوف قد ثورت الكيان السياسى والاقتصادي والاجتماعي لدول أوربا البحرية تثويرا وكانت بذلك الاساس لهيكل النظام الجديد

---

(١) Whittlesey, pp. 504-17.

ومن المحتمل أنه لو لم تحدث الكشوف الجغرافية لتأخر الانتقال من الحقب الاقطاعي الى الحقب البورجوازى كثيرا أو قليلا . ولعلنا كذلك لا نسرف فى التصور اذا قلنا أن هذا التطور من الاقطاع نحو البورجوازية كان يمكن أن يكون أصلا وأساسا من نصيب الشرق العربى عامة ومصر والشام خاصة لو لم يكن قد حدث هذا الاسر التجـــارى الكامل . ولعل هذا أيضا أن يفسر لماذا تجمد المجتمع العربى الوسيط على النمط الاقطاعى حتى خضرم فيه الى صميم القرن التاسع عشر بل والعشرين حين قفز مرة واحدة من الاقطاع الى الراسمالية دون أن يمر بمرحلة البورجوازية بمعناها الكامل . لقد ورث غرب أوربا الجديد دور الشرق العربى القديم ليس موقعا ووظيفة فحسب ، ولكن ورث قدره السياسى والاجتماعى كذلك

ثالثا ، يرتبط صراع القوى السياسية ارتباطا وثيقا جدا بالصراع الاستعمارى . فمن أجل الصراعات الداخلية بين القوى الاوربية فى القارة خرجت للحصول على المستعمرات لتعود اقوى واقدر على تلك الصراعات ، ومن أجل الحصول على المستعمرات كانت القوى الاوربية تتصارع فيما بينها على القارة (١) . من ثم كان النشاط الاستعمارى ظاهرة « معدية » . وقد تحرك مركز الثقل فى النشاط الاستعمارى وفى صراع القوة حركة قاطعة من الجنوب الى الشـــمال بصرامة ما بين البرتغال جنوبا حتى بريطانيا شمالا . ولعل هذا جزء واضح المعالم من نظرية هجرة الحضارة والقوة نحو العروض الشمالية . واذا فهم البعض هذا على أنه يعنى انتقال التفوق الى البلاد الشمالية ، فلا ينبغى أن ينسوا انه يعنى كذلك تخلفها فى البداية

والمهم أنه فى هذه الحركة تاخذ ميكانيكية الصراع بين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧

القوى البحرية ـ الذى هو صراع اشباه اساسا من اجل التصفية النهائية للقوة العالمية ـ تأخذ نمطا محددا ومتواترا بصورة مثيرة • فهى تبدأ بدولة رائدة صغيرة بحرية جدا بحكم الموقع والطبيعة ، تلحقها دولة متاخمة أكبر حجما واقل بحرية ، لا تلبث بحكم جرمها أن تحطم قوتها ،ولكنها تعجز عن أن ترث دورها ، وانما تلتقطه ببراعة دولة أخرى صغيرة بحرية جدا الى الشمال • هكذا ظهرت البرتغال أولا وتلتها اسبانيا لتحطمها بعد قليل ، فترثها هولندة ، ثم تلى هولندة على المسرح فرنسا لتحطم هولندة وشـــيكا ، فترثها بريطانيا • وسنرى فيما بعد الى أى حد ستستمر أو تنتهى هذه الميكانيكية الفذة فى بقية مراحل الاستعمار الحديث

رابعا ، فى هذا الصراع لم يكن البقاء لمن يملك القوة البحرية وحدها ، بل والقوة البرية الى جانبها • فقد كانت القاعدة الارضية القوية العريضة هى الضمان الاخير لبقاء تلك القوة البحرية • فاذا كانت الدول المحرومة من القوة البحرية لم تخرج اطلاقا الى الاستعمار مهما ملكت من قوة برية ، فان الدول التى تملك القوة البحرية دون قاعدة بريه متكافئة تسندها وتدعمها ، قد تخرج الى عالم الاستعمار قليلا أو كثيرا ولكنها لا تلبث أن تنقرض فى النهاية • أما النجاح الاكبر فللدول البحرية القوية ذات القاعدة البرية الضخمة (١) • وبمعنى آخر ، فان « الموقع » البحـرى الامثل وحده لا يكفى وان أعطى أحيانا ميزة السبق ، وفى المدى الطويل يلعب « الموضع » دورا تحديديا أخطر وأكثر بقاء • كما كان السمك الكبير يأكل السمك الصغير فى المستعمرات ، كان السمك الأكبر بين القوى الاستعمارية البحرية يأكل السمك الاصغر !

(١) Church, p. 22.

خامسا ، اذا كان الاستعمار قد قرع ابواب اغلب القارات فى تلك المرحلة ، فقد ظل فى جوهره ساحليا أو شبه ساحلى بدرجة او بأخرى ، ولو انه كان اعمق توغلا فى قارات العالم الجديد منه فى قارات العالم القديم . وفى أفريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا وبصرامة . وسواء على الساحل أو فى الداخل ، فقد كانت تلك المرحلة مرحلة الاستعمار « الواسع » لا «الكثيف» . وبوجه عام انعكست هذه الطبيعةالساحلية على نظرة الاستعمار الى القارات الجديدة ، فقد كانت نظرة ملاح أساسا ، اعنى انه لم يكن يتعرف على كتل قارية بقدر ما كان يعرف أشرطة ساحلية . ومن تراث هذه الفترة وتلك النظرة الاسماء العديدة التى ما زلنا نطلقها : ساحل غانه ، ساحل الذهب ، ساحل العبيد ، ساحل العاج ، ساحل الفلال ، ساحل الزنج ، ساحل البنات أو القرصان ، ساحل ملبار ، ساحل كرومندل، ساحل كارنتيك Carnatic ، ساحل مورمان Murman ساحل جولكوندا ، الخ (١)

سادسا ، تعويضا لعجزه عن التوغل الداخلى وعن « الاستعمار الجغرافى » ، أخذ الاستعمار فى أفريقيا بالذات نمطا خاصا جدا فى هذه المرحلة هو « الاستعمار الديموغرافى » ـ أعنى تجار الرقيق . ذلك اذن كان عصر النخاسة الذى لم يعرف العالم له مثيلا من قبل ولا من بعد ، وتلك كانت بالتالى أسود نقطة وأبشع وصمة فى تاريخ الاستعمار العالمى . فقد كان الرقيق أغلى سلعة فى التجارة الاستعمارية ، وبخار آلة المركانتلية ان لم يكن وقودها الاسود ، وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها . وكان للبرتغال أولا ثم الانجليز بعدهم الدور

(١) Democratic Ideals, p. 60.

الاكبر فى هـــذه التجارة الآثمــة ، ولو أن الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر

ولهذا فاذا كان الهولنديون يقولون ان امستردام قد بنيت على « عظـــام الزنجة » (١) ، فمن الصحيح كل الصحة أن نقول ان لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الاسود ودماه . وقد شـــهد المحيط الاطلسي مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة ـ التجارة المثلثة كما تسمى ـ تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا الى غرب أفريقيا حيث تســتبدل بها شحنات آدمية ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها فى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومنها تعود محمــلة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ .. الخ (٢)

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من أفريقيا ، ولكن البعض يضعها حوالى المـائة مليون على أساس أن من مات أثناء « الصيد » والرحلة ثلاثة أو اربعة أمثـــال ما وصل بالفعل الى العالم الجديد (٣) . وكان هـــذا الاستعمار أو بالاحرى الاســتخراب الديموغرافى نزيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور . ولئن صح هذا الرقم ـ الذى لا يمكن الحكم له أو عليه هنا ـ فلا شك أن هـــذه أعظم موجة فى حركات الســكان Völkerwanderung فى التاريخ البشرى جميعا . واذا كانت اوربا تتهم العرب اليوم ـ تهويلا وتضــليلا ـ بدور « الجلاب » فالذى لا جدال فيه ولا لجاج أنها هى قد لعبت دور « الجلاب والجلاد » معا

(١) سمبل ، ص ٣٥٦

(٢) L. Dudely Stamp. Africa, N.Y. 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond. 1950

(٣) Jacqueline Beaujeu—Garnier, Géog. de la Population. Paris, 1958, t. II, p. 39.

الفصل الخامس

القوى البرية والاستعمار

الروسيا (١)

هناك تشابه مثير يدعو الى كثير من التأمل بين ظهور وتوسع الروسيا الحديثة فى الشرق ، وبين توسع دول اوربا البحرية فى الغرب ، سواء فى ذلك الاصول السياسية أو الضغوط الخارجية أو توقيت التوسع . ففى العصور الوسطى خضعت الروسيا لضغوط مزدوجة من الشمال والشمال الغربى ومن الجنوب والجنوب الشرقى. فمن الشمال الغربى أتى من اسكنديناوة وعبر البلطبق الغزاة النورس ، ويعرفون ايضا باسم الفارانجيين Varangians او الروس Rus (= رجال الزوارق) . واذا كانت غاراتهم تخريبية مدمرة فى البداية فقد تحولوا بعد حين الى التجارة واستقروا فى مدن السلاف وحكموها سياسيا . أما الجنوب الاستبسى فقد كان ممرا اساسيا

(١) المصادر الاساسية هى :
فايفيلد وبيرسى جـ ٢ ص ٨١ ـ ١٠٨ .
East, pp. 212-225; Fairgrieve, pp. 193-199; Fawcett, pp. 429-430; G.B. Cressey. Asia's Lands and Peoples. McGraw Hill, 1951, pp. 243-248;
Mackinder, Pivot; Democratic Ideals pp. 59-88;
Cole, pp. 227-30.

لرعاة الاستبس ومنه أتت غاراتهم بلا انقطاع على وسط الروسيا

وبين اخطار هذه الكماشة ، رجال الزوارق ، ورجال الخيل ، تبدأ الروسيا سياسـيا فى القرن التاسع فى اطار نطاق الغابات بعدد من الامارات الصغيرة المستقلة محمية فى تضاعيف الغابة ، ومسطحات المستنقعات ، اما على تخومها مع الاستبس واما على جبهة الالتحـام بين النفضيات والصنوبريات . وكانت كل مدينـة من هذه المدن النهرية أساسا نواة لتوسع سياسي بعيد المدى فى الغابة سواء نحو الشمال الجليدى أو الجنـوب السهوبى ، حتى اذا تلاقت جميعا وسيطرت احداها فى النهاية كانت تلك بداية التوحيد السياسي للروسـيا الحديثة .. وبهذا ايضا أصبح خط الغابة ـ الاستبس خطا سياسيا بالغ الاهمية

وقد كانت كييف ـ « أم المدن جميعا » ـ هى أولى تلك الامارات ، حيث ظهرت فى القرن التاسع . وبعدها ظهرت كوكبـة من مدن الغابة التجارية أهمهـا : نوفجورود . ولكن طرقات رعاة الاستبس لم تنقطع ، وكثيرا ما دفعت تلك المدن الجزية لهم وخضـعت لسيطرتهم ، حتى سقطت كييف فى القرن الثالث عشر للمغول (جنكيز خان) ، الذين اتخذوا عاصمتهم على الفولجا الادنى، وذلك بحكم وقوعها على تخوم الاستبس، بينما نجت نوفجورود لتوغلها فى الغابة ، ولهذا انتقلت اليها الاهمية ، الى ان بدات امارة موسكو تظهر فى موقع اكثر مناعة وتوسطا بين الفولجـا ورافده الاوكا أو ما يسمى أحيـانا « ما بين النهرين الروسـية «Russian Mesopotamia فأخذت تسـيطر منذ أواخر القرن الثالث عشر

حتى اذا كان القرن الخامس عشر كانت موسكو قد اخضعت جميع الامارات الاخرى بعد ان ربطت بينها الاخطار الخارجية . وبهذه الوحدة ، وبفضل فرسان القوزاق ، خرجت الدولة من قوقعة الغابة لتزحف جنوبا حتى تخضع استبس جنوب الروسيا ـ استبس الكيبشاك Kipshak ـ في مدى ٥٠ عاما . كما دخلت في صراعات متصلة مع بولندا حول أوكرانيا . وقد كان بطرس الاكبر ـ اواخر القرن السابع عشر واوائل الثامن عشر ـ هو الموحد الحقيقي للروسيا . ومما لا شك فيه ان دور الاستبس قد أخر الوحدة القومية في الروسيا عنها في أوربا لفترة ما . ولكن بعد اخضاعه وضمه بدأ زحف سكاني روسي ضخم نحو الجنوب وصل الى اقصاه في القرن التاسع عشر حين اصبح حركة عارمة تاريخية حقا

وعند هذا الحد سنلاحظ انه اذا كانت فجوات الغابة هي القوقعة التي تبرعمت فيها امارات الروسيا ، فان الانهار كانت الشرايين التي ربطت بينها أولا ثم توسعت على طولها ثانيا . والواقع ان نمط الانهار في الروسيا الاوربية ، الذي يتشعع من الوسط من نقطة مركزية في جميع الاتجاهات ، يجعل التوسع سهلا تلقائيا (١) ، حتى ليعتبر ايست ان تاريخ الروسيا السياسي تاريخ نهري أساسا ، ولا ننسى كذلك طبيعة الاقليم كسهل متجانس مترام ، يدعو بطبيعته الى الوحدة السياسية وضخامة الدولة . ومن مجموع هذا وذاك نخرج بدولة من حجم وصفات قارية لا شك فيها

كذلك لابد ان يستوقفنا في ظهور الروسيا اخضاع الغابة للاستبس . فلقد طالما اخضع الاستبس الغابة

(١) Semple, op. cit.

او على الاقل حصرها حبيسة فى قوقعتها . ولكن منذ اختراع البارود انقلب الميزان الاستراتيجى من أساسه راسا على عقب انقلابا تاريخيا بالغ الخطورة والدلالة . فقد ضاعت معهميزة حركة الفرسان وسرعةانقضاضهم، وضاع الى الابد تفوق الرعاة الغزاة على الزراع المستقرين ، واخذت الصورة تنعكس ، فاذا بجيوش الزراع ومدفعيتهم هى التى تغزو الآن فرسان الاستبس وتخضعهم لأول مرة (١) . بل لقد اتخذت الغابه من فرسان الاستبس القوزاق « بوليسا » يحرس الاستبس من الجماعات الرعوية الاخرى . أو كما عبر البعض ، لقد تغلب « الدب » على « الحصان » بعد أن ظل هذا يحاصره طويلا ويغلقه فى قلب الغابة

ولهذا فقد كان ظهور الروسيا الحديثة ايذانا باغلاق ممر الاستبس الاوراسى وانتهاء طوفاناتهم الى الابد . وبعد أن كانت الخريطة السياسية للروسيا ما بين القرن العاشر والخامس عشر تتالف من مجموعتين أساسيتين من الامارات والدويلات : كوكبة روسية سلافية شمال الخط ، خط الغابة ــ الاستبس ، وكوكبة سريعةالتغير من الولايات الرعوية الاستبسية جنوبه، ابتداء من الخزر الى البلغار حتى المغول والتتار ، نقول بعد هذا اندمجت الروسيا جميعا فى دولة مركزية واحدة موحدة

التوسع القيصرى

هذه وحدة الروسيا القومية تتم اذن فى توقيت لا يختلف كثيرا ، وان تخلف قليلا ، عما حدث فىالدولة الوطنية الحديثة فى غرب أوربا . وكما خرجت هذه الى

(١) - Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, opcit pp. 186-8.

التوسع والاستعمار عبر البحار غربا وجنوبا ، سنجد الروسيا تخرج بدورها وفى توقيت معاصر تقريباللتوسع والاستعمار ، ولكن برا ، شرقا وجنوبا . هنا نداءالبحر وهنا نداء السهول ، وكل يغرى بالتوسع ويدعو الى بناء الامبراطورية

وكما فى غرب اوربا ، يمكن أن نميز بين موجتين رئيسيتين من التوسع الروسى : الاولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر واتجهت كمثيلتها فى غرب اوربا الى عروض شمالية باردة ومناطق شبه خالية من السكان ، وكانت أقرب الى التعمير البشرى منها الى الاستعمار السياسى . أما الموجة الثانية فاتجهت ــ ايضا كمثيلتها فى غرب أوربا ــ الى عروض جنوبية أدفا ومناطق ماهولة بدرجة او باخرى ، فكانت من ثم الى الاستعمار السياسى أقرب

وقبل أن نعرض بالتحليل لهذا التوسع القيصرى ينبغى أن نذكر انه ــ فى نظر اغلب الكتاب لا سيما منهم الغربيون ــ يعد « استعمارا امبرياليا » كاملا بكل معنى الكلمة ، وبنفس المعنى الذى يقصد به الاستعمار الغربى عبر البحار (١) . ولعلهم يقصدون بذلك أن هذه المناطق التى ضمتها الروسيا اليها واعتبرتها بعد ذلك جزءا لا يتجزأ من الوطن الاب ليست الا مستعمرات اجنبية عنها وان لم يفصلها عن الروسيا الاوربية فاصل بحرى أو برى . ومنطقهم فى هذا أن سكان هذه المناطق التى ضمت يختلفون تماما عن سكان الروسيا الاوربية، فهم سواء فى سيبريا أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتترية والطورانية ، بينما الروس من السلاف اساسا وان اختلطوا بنسب ثانوية من العناصر الفنية

(١) Goblet p. 200.

ى الشمال المتجمد والتترية فى الجنـــوب الاستبسى . وقد كانت القيصرية تنظر اليهم على انهم اجانب منحطون، وظيفتهم ان يقدموا العمل الرخيص للمتروبول الصناعية المتقدمة ، واقاليمهم ليست الا موارد خامات لها ، بينمـــا كانت هى تعتمد فى اخضاعهم على مضاربة شعوبهم المختلفة بعضها ببعض وباعنف وسائل الكبت والقهر (١)

والنقـــاد أصحاب هـــذا الرأى يعترفون بأن مســافة الخلف الجنسية والاثنولوجية بين تلك الشعوب الاسيوية وبين الروس السلاف أقل بدرجة أو بأخرى منها بين الدول الاوربية الاستعمارية وبين أبناء المستعمرات عبر البحار الذين لا يربطهم بهم بالقطع أدنى رابطة جنسية او تاريخية . ولكنهم فى نفس الوقت يحتجون بان هذا لا ينفى صفة الاستعمار عن توسع روسيا القيصرية فى آسيا . ومن تساهل منهم عدها أشبه شىء «باستعمار» الانجلو سكسون لامريكا الهنود الحمر . وعلى أية حال فان الثورة الشيوعية تشارك فى هذه النظرة ، فقـــد اعلن لينين نفسه ان الامبراطورية القيصرية لم تكن الا « سجن أمم » من مقياس رهيب (٢)

ومهما يكن من أمر ، فاذا ما نحن عـــدنا الى موجات التوسع الروسى فسنجد ان الموجة الاولى قد اتجهت شرقا الى سيبريا ، وبدأت أقرب فى الواقع الى نوع روسى من « الكشوف الجغرافية » القارية ، وانتهت فى النهاية كزحف قيصرى نحـــو الشرق Drang nach Osten ولم يبـــدأ التيار الا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القـــرن السابع عشر ، حين عبر المغامر القوزاقى يرمك Yermek

(١ ، ٢) James Gregory, Land of the Soviets, Pelican, 1946, pp. 47-8.

جبال الاورال في سنة ١٥٨٠ واستولى على مدينه سيبير على الارتش • ولم يكن هذا جزءا من خطـــه غزو منظم موضوعة ، لا ولا يدل على أطماع استعمارية قيصرية ما • وانما كان الدافع والهدف ـ كما حدث في كندا ـ هو التجارة اساسا ، والفراء بوجه خاص ، ومن تنظيم وعمل كبار التجار في الاورال • أما الجانب العسكرى فيها فلم يزد على نشاط فرسان القوزاق الذين صاحبوا القوافل التجارية ، اصلا كحرس واحيانا كعصابات نهب (١)

ولقد كانت سيبريا هي جبهة الريادة لروسيا مثلما كان العالم الجديد بالنسبة للانجلو سكسون ـ بل كانت بجدارة « العالم الجديد » بالنسبة للســـلاف • بل ان تواريخ الزحف والتقدم تكاد تتعاصر وتتناظر فى أكثرمن حالة حتى ليمكن مقارنتها ومقابلتها بدقة مثيرة . وكما فى العالم الجديد ، جاء الزحف كاسحا سريعا كالسهم المرسل ، لانه تم فى مناطق مخلخلة السكان جدا أن لم تكن من الناحية العملية فراغا بشريا تقريبا ، كما كان المستوى الحضارى الذى ينحصر ما بين الرعى والصيد بدائيا أو شبه بدائى على الاحسن ، فلم تكن ثمة مقاومة فعليا

واذا كانت الروسيا قد توسعت فى حدودها الاوربية على طول الانهار بالذات ، فقد استمر توسعهم خارجها فى سيبريا على أساس الانهار كذلك . وكان كل نهـــر يؤدى بالرواد الى النهر الذى يليه ، وهذا يسلمهم الى ما بعده ، وهكذا • وتم هذا فى نطاق دهليزى ضيق من الاعشاب الجيدة يقع مباشرة الى الجنوب من «التاييجا» محصورا بينها وبين مرتفعات وسط آسيا فى الجنوب ، وهو نفس ذلك الدهليز الذى تتبعته فيما بعد ســـكة

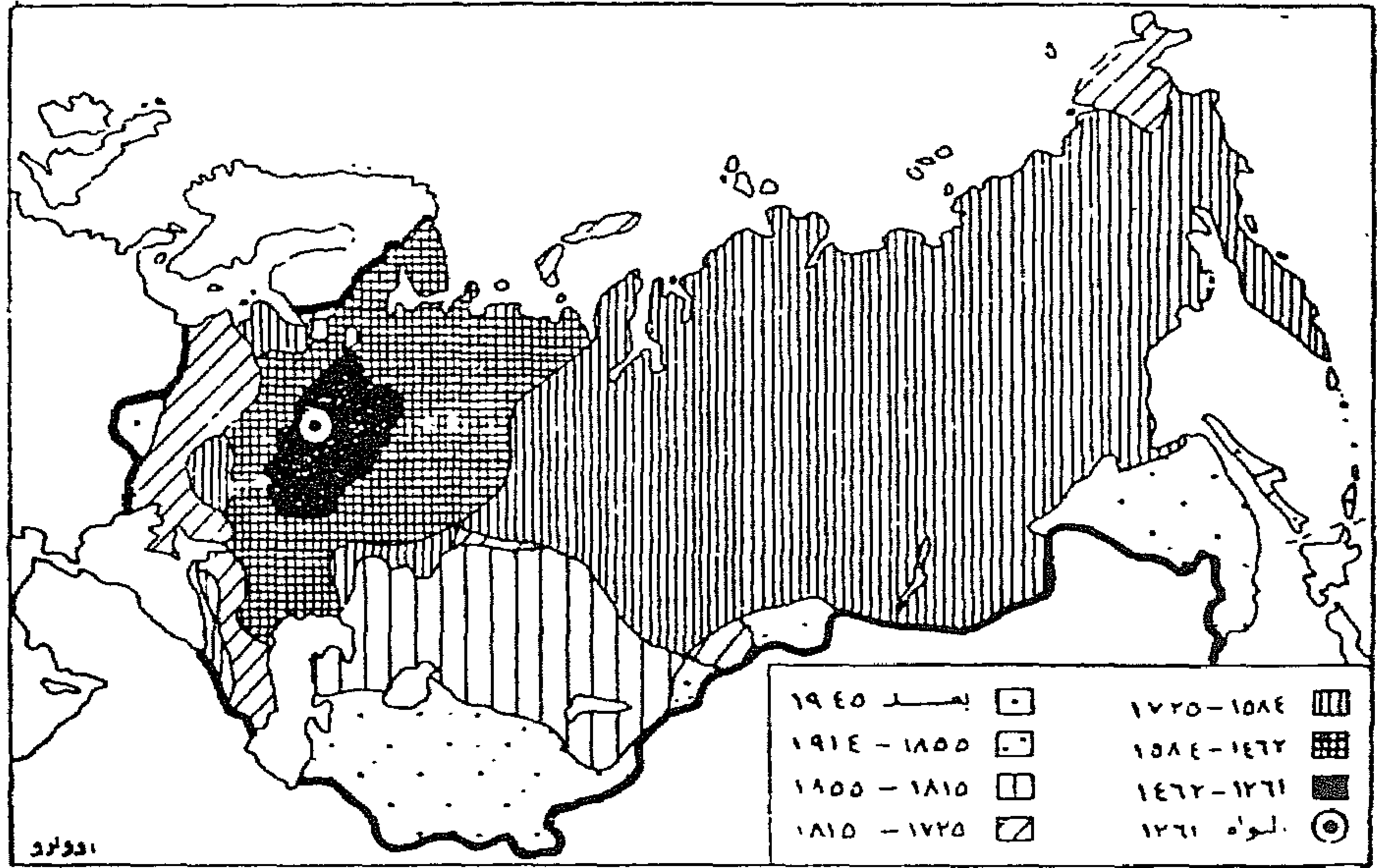
(١) Fitzgerald, New Europe, pp. 163-8.

حديد سيبريا . ولذلك فاذا كانت الانهـــار هى حملة الاستعمار هنا ، فقد جاءت بعدها السكك الحديدية لتصبح شريان الحركة فيها ، وذلك دون أن تمر المنطقة مطلقاً بمرحلة الطرق البرية

وعلى طول الرحلة بذر الرواد بذور المدن المحصنة Ostrogs على ملاقى الانهار : تومسك على الارتش فى ١٦٠٤ (وتقـــابل جيمس تاون فى أمريكا ١٦٠٧) ، ياكوتسك على نهر لينا ١٦٣٢ (وتقـــابل هارتفورد فى ١٦٣٨) . وبهذا نكون قد قطعنا أكثر من ٢٥٠٠ ميل فى اقل من نصف قرن !

وحين وصل الزحف الى بيكال انشعب الى شعبتين: الاولى الى الشرق توا نحو الهادى الى أوختسك وهى التى ستؤدى بالروســـيا بعد حين الى مواجهة امريكا الشمالية من بابهـــا الخلفى لتنتهى « ببهـرنج » الى اكتشاف الاسكا فى ١٧٤١ والى استعمار روسيا لها ، ثم الى الزحف جنوبا على طول الساحل الامريكى حتى اصبحت الروسيا على بعد ٤٠ ميلا فقط شمال سان فرنسسكو فى ١٨١٢ ، لتجد نفسها وجها لوجه مـــع اسبانيا ، بعد ان بدا كل منهما من اقصى طرفى اوربا واعطى ظهره للآخر فى رحلة عكسية حول العالم !

وهنا نجد الروسيا لاول مرة تترك اليـــابس لتعبر المحيط ـ طفرة غريبةفى تاريخها وتكوينها القارىالبحت. وفضلا عن هذا فقد وصل بها هذا الاندفاع الصاروخى الى نقطة تبعد عن العاصمة الوطنية بمسافة قد لا تقل عن ثلث محيط الكرة الارضية ! ولهذا لم يكن غريبـا ان تنسحب الروسيا الى اوراســـيتها حين قررت ـ بحكمة ـ بيع الاسكا للولايات المتحدة فى ١٨٦٧ . ولعل هذا يذكرنا ببيع فرنسا للويزيانا وانسحابها الى اوربيتها،



شكل (١١) توسع الروسيا : الامبراطورية القارية الكاملة

او كانما قد اصبح قانونا من قوانين السياسة الروسية الا تملك أراضى عبر البحار بمثل ما اصـــبح من قوانين السياسة البريطانية أن تملك اراضى عبر البحار

اما الشعبة الثانية من توسع الروسيا شرقا فانحرفت مع التضاريس الى الجنوب الشرقى الى هضبة فيتيم، التى هى خط تقسيم المياه بين الآمور ولينا ، لتنتهى الى فلاديفوستك ١٨٦٠ . وهذه الشعبة أتت بالروسيا الى أبواب الصين ومنشوريا حيث بدأت صداقة تقليدية ستتطور فى المستقبل لتصبح ذات مغزى سياسى كبير. ومع تقدم العمل فى خط حديد سيبيريا الى فلاديفوستك وبورت آرثر ازداد التعمير الروسى فى شمال منشوريا ، ولكن دون أن يعوق تيار الفلاحين الصينيين العرم الى هذا الاقليم أو يصطدم به

ولكن ، من الناحية الاخرى ، كان هذا الخط يحمل الروسيا الى ابواب اليابان التى كانت قد تطورت كثيرا وقطعت شوطا بعيدا فى التحضر والقـوة وبدأت تتطلع الى التوسع والنفوذ . من هنا جاء الصدام الذى تمثل فى الحرب الروسية ــ اليابانية عام ١٩٠٥ والذى كشف ضعف الروسيا او على الاقل سوء موقعها الاستراتيجى فى هذه التخوم المتطرفة بسبب بعدها السحيق عن قلب الدولة غرب الاورال

تلك هى الموجة التوسعية الاولى للروسيا الحديثة . وفيها سنلاحظ ان التعمير الروسى فى سيبريا طوال تلك المرحلة لم يكن جديا حقا . ولم يكن الاستعمار القيصرى مهتما بأملاكه الحديثة فى الشرق لانه كان منصرفا الى المجال الاوربى . بل لقد ظلت سيبريا لفترة طويلة مجرد منفى للمجرمين والمبعدين ، شأنها فى ذلك شأن البرازيل بالنسبة للبرتغال ، واستراليا بالنسبة لبريطانيا . الا

ان الموقف تغير منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حين انعطفت القيصرية على سيبريا بشدة ونظرت بطموح الى الهادى بحثا عن مخارج لها بعد أن فشلت فى الوصول الى مخارج لها في المياه الاوربية • والواقع أن التعمير الروسى لسيبريا يقتصر تقليديا على سهم أو اسفين يبدو كرشاش متطاير خفيف مرسل من كتلة سلاف روسيا الاوربية على فرشة مخلخلة للغاية من السكان المغوليين الاصليين

هذه النكسة التى قابلت الروسيا فى سياستها الاوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دفعت بها أيضا الى مجال آسيوى جديد غير سيبريا هوالقوقاز والتركستان (١) • فكانت الموجة الاستعمارية الثانية ، أو الاتجاه نحو الجنوب Drang nach Süden التى تناظر وتعاصر الموجة الثانية المدارية للاستعمار الاوربى • وبحكم الموقع الجغرافى كان طبيعيا أن يأتى دور القوقاز أولا فى النصف الاول من القرن ، ثم التركستان بعد ذلك فى نصفه الثانى . ولهذا تأخذ الموجة شكل كماشة فكاها غرب بحر قزوين أو منطقة Trans-Caucasia وشرق البحر أو Trans-Caspia . وفى كلا الحالين كان لا بد أن تصطدم الروسيا فى نهاية توسعها بالنفوذ الفارسى الذى كان سائدا فى تلك التخوم ، وفى وقت كانت فارس فيه قوة ضخمة قادرة على أن تناطح تركيا

ففى غرب البحر بدأ الزحف مع بداية القرن وانتهى فى ثلاثة عقود بعد حربين مع فارس . وقد سارعت قوى أوربا البحرية فرنسا ثم بريطانيا الى مساعدة فارس والوقوف الى جانبها منعا للتوسع الروسى . ولكن بلا

---

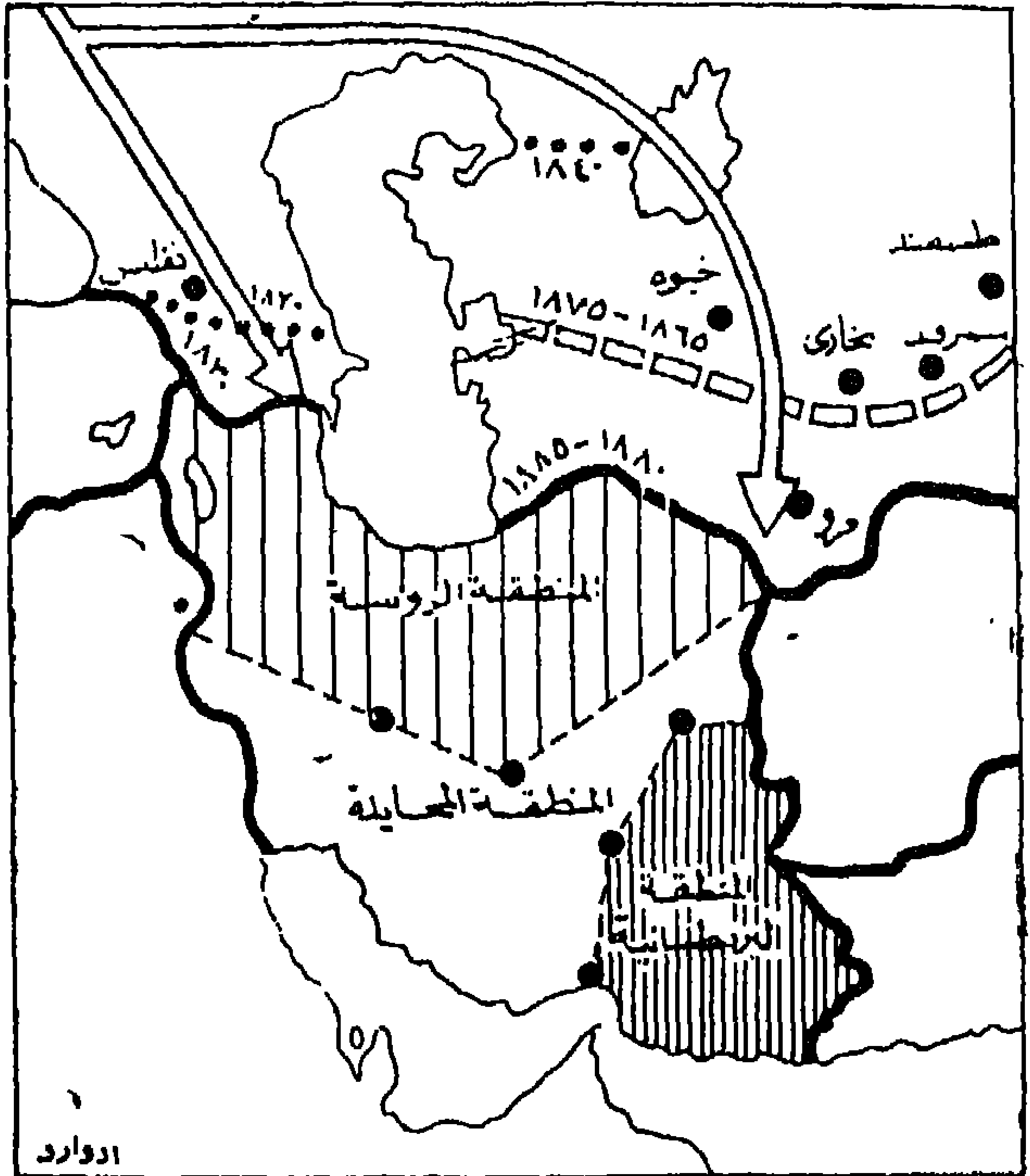
(١) W. B. Fisher, pp. 161-3.

جدوى : فقد فقدت فارس جورجيا وارمينيا (اريفان ولنكوران) . وبهذا انتهى الصراع الى الحــــدود التى ستظل حتى يومنا هذا . ومن حينهـــا تداعت فارس واتضعت بصورة كاسفة وانتهت كقوى كبرى فى المنطقة ولم يعد لها بعدها قبل بأن تواجه الروسيا على الاطلاق .

وبعد عقد واحد من اكتساح القوقاز ، كانت الروسيا قد استدارت فى ١٨٤٠ حول بحر قزوين متجهـــة الى سهل طوران لتخضع قبائل التركمان والازبك والقرغيز وغيرها من العناصر الطورانية أو المغولية . وفى ١٨٤٦ كانت طشقند قد سقطت ، وفى ١٨٦٨ تلتها سمرقند ، ثم جاء دور خيوة فى ١٨٧٣ ، ولحقتها خوقند فى ١٨٧٦. اى أن أهم المراكز التاريخية سقطت جميعا فى عقد واحد . هناك لم يبق الا النطاق الجنوبى الاقصى من الحوض، حيث ضم نهائيا فى العقدين الاخيرين من القرن بعـــد اصطدام آخر مع فارس التى انتزعت الروســـيا منها مرو ، ووصلت بذلك الى الفاصل الجبلى النهائى ، وبه تحددت الحدود السياسية القـــائمة حتى الآن . كذلك فقد أوصلها هذا الى تخوم الهند البريطانية وبدا التوتر يزداد بين القوتين النقيضتين ، قوة البر وقوة البحر .

فى هذا التوسع الجنـــوبى بشقيه سيلاحظ انه ــ ابتداء ــ قد تأخر طويلا عن التوسع الشرقى فى سيبريا. فكانت الروسيا قد شارفت الهادى حين كانت بالكاد قد بدأت التوسع الجنوبى ، وذلك رغم القرب الجغرافى النسبى . كذلك فقد انفقت الروسيا فيه وقتـــا طويلا نسبيا . والسبب فى هذا وذاك هو أن التوسع شرقا فى سيبريا كان يتم كما رأينا فى شبه فراغ عمرانى وحضارى، اما التوسع الجنوبى فجاء فى وسط غير منفذ بســـهولة للاستعمار: كثافة سكان أعلى، وتجمعات آهلة مستقرة،

وشعوب ذات تاريخ حضارى طويل ، وتكوين سياسى راق ، وتركيب دينى توحيدى (الاسلام شرق قزوين ، والمسيحية غربه) . لهذا كان لا بد من القضـــاء على « الخانات » الاسلامية وقمع الحضارة المحلية والشعور القومى بالارهاب . وتاريخ قياصرة آل رمانوف فى هـذا دموى ومعروف بما فيه الكفاية



شكل (١٢) توسع قياصرة رومانوف فى وسط آسيا

كذلك ، وبعكس سيبريا ، لم يكن هناك مجال للاستعمار السكنيأو لانتقال معمرين من الروس السلاف للاستقرار فى المنطقة وهى الآهلة العامرة باصحابها من قبل ، ولذا تحتم ان يقتصر التوسع على الاستعمار الاستغلالى . ومما يلفت النظر أن الفارق فى هذا بين التوسع شرقا والتوسع جنوبا يكرر فى نفس الوقت الفارق بين الموجة الاولى من الاستعمار الاوربى عبر البحار فى العروض المعتدلة وبين موجته الثانية فى العروض المدارية

ما هو المغزى الاستراتيجى لهذا التوسع الخطير ؟ انقلاب ثورى فى تاريخ العالم القديم لا يمكن - مهما حاولنا - أن نبالغ فى تقديره ! فلأول مرة تظهر قوة توحد كل قلب أوراسيا فى تنظيم سياسى واحد ، ولاول مرة لا يكون الاستبس الاوراسى قوة رحل رعوية بل قوة زراعية مستقرة دائمة . ان الانقلاب الذى بدأت بدوره مع اختراع البارود قد استكمل الآن كل مغزاه الاستراتيجى ، وخضع الاستبس الاوراسى جميعا لسيطرة حكومة مركزية قوية فى قاعدة أرضية غنية متحضرة ، لتصبح الروسيا اول واضخم قوة بر فى التاريخ لا تعتمد على حركة الخيل وكوكبات الفرسان وانما على حركة القطار والمدفعية المدرعة

استراتيجية البر والبرد

من هذا التوسع المديد تخرج الروسيا أيضا بصفة اساسية هى بلا شك « القارية » ، القارية المطلقة . فهى اولا رقعة واحدة متصلة سحيقة الابعاد من اليابس ، كبقعة زيت تمددت . بل لعل العالم لم يعرف فى تاريخه دولة أو امبراطورية برية متصلة contiguous فى مثل هذا

الحجم ، الا أن تكون امبراطورية جنكيزخان . ثم انها تخرج وهى دولة أوراسية ذات بعدين ، تضع قدما فى اوربا وقدما فى آسيا ، وتبدو كما لاحظ دستويفسكى اسيرية للاوربيين وأوربية للاسيويين (١) ، وحين تلقى اعراضا او انتكاسا هنا تتجه هناك ـ والعكس . على انه لما كان مركز ثقل المعمور والنواة النووية هى روسيا الاوربية ، رغم ان المساحة الكبرى فى آسيا ، فيمكن ان نقول ان الرأس أوربى والجسم أسيوى

والمهم أنها الآن الدولة القارية الكاملة وقوة البر الكلاسيكية ، والنقيض المباشر لبريطانيا فى القرن التاسع عشر ، النموذج التام للامبراطورية البحرية المتناثرة فى اركان الدنيا ولقوة البحر الكلاسيكية . واذا كانت الامبراطورية البريطانية ـ كما قيل ـ من صنع السفينة البخارية ، فان الروسيا القيصرية كالولايات المتحدة هى من صنع القطار

وهى بعد تخرج من ذلك التوسع وهى أطول الدول حدودا ، سواء برية أو بحرية : نحو ٣٨ الف ميل (٢) اى مثل محيط الكرة الارضية مرة ونصف مرة ! ومع ذلك فلم يكن هناك دولة معزولة بالطبيعة وحبيسة عن عالم المعمور كالروسيا . فهى وان بدت ساحلية شكلا فهى قارية موضوعا . فشمالا ثمة المحيط المتجمد ، وجنوبا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة ، وشرقا فراغ المحيط الهادى الهائل واضخم صحراء على ظهر الارض كما يعبر هويتلزى . انها ـ نكاد نقول ـ رهينة المحبسين ، صحراء الجليد وصحراء الرمل

لهذا جميعا كانت تطلعاتها وسياستها الخارجية

---

(١) Dostoyevsky, Diary of a Writer.

(٢) Gregory, p. 10

انعكاسا مباشرا وتلقائيا لتركيبها الداخلى : هنا القارية الحبيسة ، وهناك الخروج الى البحر والبحر الدافىء بالذات ، هنا الحدود الشاسعة ، وهناك الرغبة فى خلق نطاق حولها من الدول الصغرى المحيدة أو الخاضعة لنفوذها لتكون حاجزا بينها وبين القوى الساحلية البحرية . وهذان هما المؤشران اللذان يكونان معا بوصلة السياسة الروسية أو حجر المغنطيس فى استراتيجيتها. وقد بدأ التوجيه الى البحار الدافئة منذ بطرس الاكبر ، وبعده يمكن تفسير كل السياسة الخارجية « برغبة الدب الروسى فى المياه الدافئة » أو بتعبير آخر « بجيوبولتيكا درجة الحرارة »

وكان معنى هذا مباشرة أن تصطدم بالقوى البحرية فى أكثر من جبهة ، ومن ثم يأخذ الصراع السياسى شكل صراع سافر وبلا مواربة بين قوة البر وقوة البحر . ومن الغريب أن السياسة المعلنة للقوى البحرية الغربية فى القرن التاسع عشر كان يعبر عنها بالاحتواء Containment والتطويق encirclement — وهى نفس الالفاظ التى تستعملها اليوم — حتى تظل الروسيا محصورة فى قاريتها (١) . وباختصار فقد اتخذت القوى البحرية ازاء الروسيا : سياسة الصد Checkmate . ذلك كان صراع « الفيل » (قوة البر) و « الحوت » (قوة البحر) كما وصف فى حينه .

وقد كانت المنافذ البحرية الممكنة للروسيا هى أساسا البلطيق فى الشمال والبحر الاسود فى الجنوب ، ولو انها بحار داخلية تتحكم دول فى مخارجها كما تتحكم اخرى فى سواحلها ، وفيما بعد أضيف الخليج الفارسى

(١) John S. Badeau, «Middle East; Conflict in Priorities», Foreign Affairs, Jan 1958, pp. 233-7.

(العربى) كمغنطيس ثالث . أما الهادى فنصف متجمد فضلا عن أنه منطوح مقطوع ويمثل طريقا غير اقتصادية . ولهذا ثقد تركز ضغط السياسة القيصرية فى الغرب على ضلوعه الاوربيه . ففى البلطيق بدأ بطرس الاكبر «بنافذة الروسيا على أوربا » حين خلق سان بطرسبرج (لننجراد) من لا شيء . ثم كانت أوكرانيا أرض صراع مزمن بين الروسيا وبولندة فى البداية ، فلما تغلبت الروسيا اصبحت بولندة نفسها هى الهدف

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كانت الروسيا شريكا فى تقسيمات بولندة الثلاث الشهيرة وغالبا ما خرجت منها بنصيب الاسد . أما دويلات البلطيق فقد تمت السيطرة عليها فى نفس الفترة ، بينما ضمت فنلندة فى أيام الحروب النابليونية بعد انتزاعها من السويد . وبذلك اصبح للروسيا جبهة بحرية حقيقية فسيحة على البلطيق الى جانب نطاق أمان ضد وسط اوربا . ويلاحظ ان الروسيا كانت بهذا أوسع رقعة وابعد حدودا ناحية الغرب من الاتحاد السوفييتى اليوم

ولكن البحر الاسود كان الهدف الاكبر بالطبع نظرا لموقعه ودفئه ، ولان الجزء الاكبر من حوضه روسى مباشرة أو على الاقل سلافى بوجه عام . الا ان مفاتيحه ليست فى يدها وانما فى يد تركيا . ولهذا كان الصراع بينهما هو قدرهما المشترك ، لا سيما أن تركيا كانت القوة التى تقهر أكبر عدد من السلاف فى البلقان وشرق اوربا ، بينما أن الروسيا هى بطل السلافية الحامى . اقطاب جغرافية متنافرة وأقدار تاريخية متصادمة ! هذه قوة بر ، وهذه قوة برمائية بينية

وقد شهد القرن الثامن عشر عدة اندفاعات روسية عاصفة على عهد كاترين الثانية لتقتحم المضايق ، وذلك

بعد أن كانت الروسيا قد انتزعت السواحل الشمالية للبحر الاسود وشبه جزيرة القرم من الاتراك · وقد بدا احيانا أن هدف الروسيا هو ضم المضايق ضما سياسيا كاملا ، وفى أحيان أخرى كان ضمان حقوق وامتيازات المرور الخاصة هى الهدف الوحيد ·· وبعامة فقد حدثت سبع حروب على الاقل بين الروسيا وتركيا للسيطرة على المضايق (١) وفى كل هذه الحروب بلا استثناء ولا اختلاف كانت تتقدم دولة بحرية غربية - فرنسا أو انجلترا - لتساند تركيا ضد الروسيا

أحيانا كانت انجلترا تصادق الروسيا وتقف موقف برود ازاء تركيا عندما فى فرنسا التى تساعد تركيا · وأحيانا تساعد بريطانيا تركيا معارضه لفرنسا حين تتقارب هذه مع الروسيا · أى أن الصراع الداخلى بين الاشباه البحريه كان ينعكس على مواقفهما من صراع تركيا مع الروسيا ، ولكن فى كل الحالات لم تكن تركيا تعدم قوة ما منهما فى جانبها · ولعل حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ هى ابرز واخطر مجابهة من بريطانيا للروسيا فى تهديدها لتركيا · وقد انتهى الصراع بفشل الروسيا فى السيطرة على المضايق · واذا كان قد قيل ان هذا كان أول التحام مباشر ومواجهة بين الفيل (الروسيا البرية) والحوت (بريطانيا البحرية) ، فهل نضيف من جانبنا أنه كان يدور حول التمساح (تركيا الامفيبية) ؟

أيا ما كان ، فقد أدركت كل من فرنسا وبريطانيا بالتدريج بعد ذلك خطأ مواقفهما التكتيكية المتعارضة السابقه ازاء كل من الروسيا وتركيا والتى حكمتها مناورات العداء بينهما فى الوطن ، وسرعان ما ايقنتا وحدة مصالحهما الاستراتيجية العميقة ضد الروسيا وبالتالى مع

---

(١) Mogey, p. 132.

تركيا . ومن حينها اصبحت سياستهما المشتركة المتصلة هي تدعيم تركيا وحقنها بكل المساعدات الحـــــربية والسياسيه لتكون درعا ضد توسع الروسيا ونطاقا صحيا حولها (١) . والمغــزى الاستراتيجى واضح كل الوضوح: في صراع القوى البحرية (فرنســـا وبريطانيا) ضـد توسع قوة البر (الروسيا) ، كانت قوة بينية (تركيـا) هي أرض المعركة الطبيعية ، ولما كانت هذه مهـــددة بالسقوط أمام قوة البر فقد اجتمعت قوى البحر لتسندها وتدعمها

حتى حين هدد قطاع من المنطقة البينية ـ مصر محمد علي ـ كيان تركيا وأنذر بان يرث الســيطرة على تلك المنطقة ، اتضحت نفس الاستراتيجية ، فقد تكفلت قوتا البحر فرنسا وبريطانيا بكبت الحركة بالقوة في سوريا. وهذه الاستراتيجية وحدها هي التي أطالت عمر رجـــل اوربا المريض اكثر مما كان يمكن له ، ومنحته « سلفة » جديدة من الحياة بكل الوسائل الاصطناعية

ومع ذلك فلم يجد هذا كثيرا . فقد اجتمعت طـــرقات الروسيا البرية مع طرقات امبراطورية النمسا ـ المجـر البينية ضد تركيا البينية طوال القرنين الثـــامن عشر والتاسع عشر في البلقان . فالنمسا ـ التي استطاعت بعد حصار الاتراك لفينا في القرن السابع عشر ، وبفضـل موقعها الجغرافي ، أن تطردهم خطوة خطوة من المجـر خلال القرن الثامن عشر وأن تؤسس بذلك الامبراطورية الثنائية النمسا ـ المجر .. هذه النمسا عادت في القرن التاسع عشر الى انتزاع البوسنة والهرسك من تركيا في حرب ١٨٧٨ . وبعد ذلك أخذت تركيا تتقلص في البلقان

(1) Reader Bullard, Britain & the Middle East, Lond., 1952, pp. 28-36.

بالتدريج حتى كانت النهاية الكاملة فى الحرب الكبرى الاولى حين أصبحت قوى البحر الغـــــربية ـ حاميتها القديمة ـ عدوة لتركيا البينية

لا يبقى لنا الان من مخارج الروسيا الا الخليج الفارسى· وهذا بدأت الروسيا تتطلع اليـه بعد توسعها الجنـوبى فى القوقاز ووسط آسيا منذ منتصف القرن التاســـع عشر · وقد ازداد نفوذ الروســـيا فى فارس ، بعـــد انتصاراتها عليها وبعد أن أصبحت تطوقها من ثـــلاث جهات ، ازديادا خطيرا حتى انتزعت كثيرا من الامتيازات الاقتصادية الهامة فيها · وفى وقت ما اعتبرت السياسة الروسية أن المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفى اتجـــاه الخليج الفارسى هى الاطماع الشرعية لها ، وأن ايران هى « قناة السويس الروسية » وأن لابد لها من « ممر » الى الخليج الفارسى (١)

وفى أوائل القرن العشرين وصل تغلغل الروسيا فى ايران الى حد أن بدا أن هذه قد تسقط كاملة لسيطرتها· ولكن ـ كما حدث مع تركيا ـ وقفت فرنسا أولا فترة مع ايران ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية فى الهندى لتنذر بان اى محاولة روسية لبسط نفوذها فى الخليج ستقاوم بالقوة · على أن هزيمة الروسيا فى حرب اليابان كشفت عجزا غير منتظر ، فاضطرت الى مساومة تسوية مع بريطانيا بمقتضاها قسمت ايران الى مناطق نفوذ ثلاث ، الشمالية للروسيا ، والجنوبية لبريطانيا ، والوسطى محايدة · وهذه التســـوية تلخص فى نفس الوقت كل استراتيجية ايران من أجل البقاء والمحافظة على كيانها منذ ظهرت قوة الروسيا على ضـــلوعها ، وهى

(١) المرجع السابق ص ١٧٠

استراتيجية مضاربة كل من القوى البرية بالبحرية حتى تعيش هى على التناقض بينهما ، باختصـــار ســـياسة المضاربه Stalemate (١)

وبالمثل اصطدمت الروســيا مع بريطانيا على تخـــوم الهند الشمالية الغربية حيث كانت الاولى بتوسعها فى وسط آسيا قد بدأت تقرع باب الهند . من هنـــا كانت حروب الافغان فى القرن التاسع عشر التى انتهت «بتحييد» افغانستان ـ التى شبهها احـــد حـــكامها فى موقعهـــا الاستراتيجى المسحوق بين قوة البر والبحر « بشاة » بين الدب الروسى والاسد البريطانى ! (٢) ـ لتصـــبح دولة حاجزية بين النفوذين البرى والبحرى . ومثل هذا اتفق عليه أيضـــا بالنســـبة للتبت . وبهـــذا وذاك تحققت استراتيجية الروسيا على حدودها البرية من خـلق نطاق من الدويلات الحاجزة بينها وبين القـــوى البحرية ، وان كانت قد فشلت فى تحقيق استراتيجية الوصول الى المياه الدافئة

---

(١) W. B. Fisher, pp. 163-4.

(٢) Cressey, p. 409.

الفصل السادس

الانقلاب الصناعى والاستعمار

اذا كان الانقلاب التجارى قد كشف عالما جديدا ، فقد خلق الانقلاب الصناعى عالما جديدا ، وفرق بين الكشف والخلق كبير . ومهما حاولنا فلا يمكننا المبالغة فى خطورة ونتائج الانقلاب الصناعى ، ويكفى أن تاريخ البشرية كله قبل الصناعة وحدة واحدة ،وبعده وحدة أخرى بذاتها(١) . فالانقلاب اذن أخطر نقطة انقطاع فى تاريخ الانسانية ، ولعله كذلك فى تاريخ الاستعمار وسياسة القوة

واذا كان الانقلاب الميكانيكى فى القرن الثامن عشر هو الذى يمهد مباشرة للانقلاب الصناعى ، فان له أيضا جراثيم فى الانقلاب التجارى الذى سبق الاثنين فى القرن الخامس عشر . فان مكاسب المستعمرات واقتصاديات المركانتلية الجديدة خلقت بالتدريج فى أوربا البيئة والظروف التى ساعدت على تفريخ الانقلاب الصناعى .. وهكذا يبدأ الانقلاب فى بريطانيا حوالى ١٨٢٠ لينتقل الى فرنسا فى العقد التالى ١٨٣٠ ثم لينتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن

والانقلاب مركب حضارى كامل برمته ، لم يخلق علما

(1) V. Gordon Childe, Man Makes Himself, N.Y., 1951, pp. 17-19.

وفنا وتكنولوجيا جديدة فحسب ، ولا اقتصادا جديدا وكفى ، بل ومجتمعا جديدا وجيوبولتيك جديدا تماما ٠ واذا كان هيكل الانقـــلاب يتلخص فى أنه عصر الفحم والحديد ، والبخار والقطار ، فهو بنفس القوة والاهمية عصر السفينة البخاريه والمواصلات السلكية واللاسلكية ، اى المواصلات المكانية واللامكانية ، كما انتهى الى ان يكون عصر الطيارة فى الجو والغواصة فى الاعماق ٠ وقد ترتب على هذا كله ثورة جذرية فى النقل والمواصلات ، فتقلص العالم واختزلت المسافة ، واصــبحنا نعيش فى « عالم صغير » منكمش باطراد جغرافيا ـ كما هو جيولوجيا ـ حتى وان تمدد ظاهريا ببعض كشوف من المجاهيل !

ولما كان القطار قد حقق وحدة اليابس ، فانه لم تعـد هناك قارات متعددة بل « قارة عالمية » World Island كما سمى ماكيندر العـــالم القديم (١) ، وقارة صغرى هى العالم الجديد ٠ ولان السفينة البخارية قـد حققت وحدة المحيط ، فانه لم يعد هناك عمليا محيطات متعددة وانما محيط واحد يغلف عالما واحدا متماسكا مترابطـا كما لم يكن قبل فى التاريخ ٠ وأتت المواصلات اللامكانية والجوية لتؤكد هذه الوحدة كل التوكيد

وفى الجانب السياسى ، كانت النتيجة المباشرة لهذه الانقلابات هى سهولة ضبط وربط الدولة من الداخـــل عمقا واتساعا ٠ فبعد أن كان من المتعذر على الدول أن تتعدى حجما او مساحة معينة فى العادة ، أمكن للـدول الكبيرة الحجم أن تظهر ٠ وبعد أن كانت الدولة الكبـيرة الرقعة نوعا تتعرض ، على بعد مئات قليلة من الاميال من العاصمة ، لحركات الانفصال والتمرد ، أصبحت الوحدة

(١) Democratic Ideals, p. 52.

القومية مضمونة حتى أبعد الحدود وهوامش الاطراف من الدولة (١) • ولهـذا فان العصر هو عصر استكمال ما لم يكن قد تم من وحدات في القارة أو خارجها ، وتوسـيع وتوطيد ما كان منها قد بدأ

ومن ثم فالوحدات التى ولدت في عصر الانقـلاب الصناعي تميل الى ان تكون من الدول الضخمة المسـاحة والحجم ، كالمانيا وكندا والولايات المتحدة واستراليا ، وبالتـالى سيكون لها مكان خاص فى ميزان القـوة السياسية (٢) • ولولا ان أتى الانقلاب الصـناعى بكل أدواته ووسائله لا سيما منها وسـائل النقل فى الوقت المناسب ، أو لو تاخر عقودا ، لما استطاعت بعض هـذه الوحدات الضخمة ـ ربما ـ أن تظهر ، ولظهر بدلا من كل منها عدد اكبر من وحدات أصغر • فلولا القطار وخـط سكة حديد الباسفيك لما دخلت كولمبيا البريطانية ـوربما مقاطعات الوسط أيضا ـ اتحاد كندا • ومثل هذا وأكثر منه يقال عن الولايات المتحـدة • بل لو ان الانقـلاب الصناعي تقدم قليلا فى مجيئه فلربما لم تستقل ، أو لم تستطع أن تنفصل ، الولايات المتحدة عن بريطانيا • ولولا سكة حديد الجنوب لكانت استراليا الغربية ، وهى التى لا تزال تعانى من اتجاهات انفصالية ، دولة منفصـلة عن الاتحاد الاسترالى (٣)

هذا داخل الدولة الواحدة ، أما خارج الدولة الوطنية فان انقلاب المواصلات والصناعة سيمكن للامبراطوريات الماموث والجبارة من الظهور مهما تباعدت أطـرافها فى اركان المعمورة • لا سيما أن الانقلاب الصناعى نفسـه

(١) Fawcett, op. cit., p. 428.
(٢) Mogey, p. 125.
(٣) Harrison Church, Modern Colonisation, p. 86.

خلق مستويات جديدة تماما من القوة المادية والعسكرية لا تقارن البتة بكل ما سبقها · ويكفى على ذلك دليلا أن اول حرب حديثة فى العصر الصناعى ، وهى الحرب الاهلية الامريكية ، تفوق فى حجمها وجيوشها وأهوالها آخر واضخم حرب فى عصر ما قبل الصناعة والتى تحتل مكانه خاصة فى كل التاريخ وهى الحروب النابليونية — حقيقة مذهلة ! (١)

ولهذا فاذا كان الاستعمار فى العصور القديمة والوسطى هو صراع بين الزراع والرعاة ، فانه الآن سيكون صراعا بين صناع ورعاة ، بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، بل بين العصر الصناعى والعصر الحجرى احيانا، وبين المدفعية المدرعة والقوس والسهم بالتالى · ومن ثم فقد كان الفارق رهيبا والنتيجة محتومة · وبهذا وذاك جميعا تستمر الحركة التاريخية الصاعدة النظيمة من اتجاه الامبراطوريات وصراع القوى الى أن يأخذ ابعادا وافاقا اكبر باطراد

ولم يكن مفر كذلك ولذلك من ان يصبح العصر الصناعى مرادفا للعصر الاستعمارى ، وأن يكون الاستعمار « وباء » القرن التاسع عشر · فاذا كان الانقلاب التجارى هو الجد الاعلى للاستعمار الحديث ، فان الانقلاب الصناعى هو أبوه المباشر · وتفسير ذلك أن الانقلاب الصناعى خلق اقتصادا مفتوح الشهية ، بل حاد الشهوة ، ينتج بالجملة ليستهلك بشراهة ، وهو فى النهاية أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ولا يمكن لأى دولة او مجتمع ان يجد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده ، بل حتى داخل اقليمه الجغرافى الطبيعى الرئيسى · وانما هى

(١) Oswald Spengler, Decline of the West, trans., N.Y., 1946, vol. 2, p. 421.

تعتمد اساسا على عملية « استقطاب » تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الاقاليم المتباينة والعروض المتفاوتة والبيئات المتنافرة . انها ببساطة محاولة لاختزال الكرة الارضية ـ اقتصاديا ـ فى نقطة . وكما يتفق ، فان أخطر طرفين فى هذه العملية هما العروض المعتدلة والمداريه

والصناعة بعد هذا لا تخـــرج من حمى البحث عن الخامات وموارد الخامات الا لتدخل فى حمى البحث عن الاسواق لتصريف ما قد انتجت . ولذا فالصناعة محمومة أبدا بتركيبها الذاتى ، وترياقها كما تصورت وكما لازالت تتصور هو الاستعمار ، والاستعمار المدارى بالذات . من هنا انطلقت القوى الاستعمارية الصناعية الى اســـتعمار المدارات الجديدة ، أو تعميق اســـتعمارها للمداريات القديمة . فاذا كان استعمار الكشوف والعصر التجارى كما رأينا « اندفاعا نحو الشرق «Drang nach Osten» (وان كان بعض هـــذا « الشرق » غربا فى الحقيقة) ، فان استعمار الانقلاب الصناعى هو اساسا « اندفاع نحـــو الجنوب «Drang nach. Süden» الاول استعمار خطوط الطول ، والثانى استعمار خطوط عرض كمـــا قد نقول

ليس هذا فحسب ، وانما خلقت الصناعة ايضا المجتمع الذى يحض على، ويؤدى الى ، الاستعمار كواقع وكمثال . فلقد ولد الانقلاب الصناعى فى ارهاصات تغيير اجتمـــاعى من الاقطاع الى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية ، وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير الى ثـــورة اجتمـــاعية ســـياسية كاملة وجـــذرية . فالانقـــلاب الصناعى تمخض عن الراسمالية وخلق المجتمع البورجوازى الراســـمالى الذى هو فى صميمه مجتمع تنافسى تملكى وتوسعى

ولهذا فلم يكن منتهاه وقصاراه خلق طبقات اجتماعية متعارضة متصارعة داخل الدولة ممن يملكون وممن لا يملكون The Haves & Have nots ، من البورجوازية والبرولتارية ، وانما خلق معها طبقات سياسية متنافرة بين الدول المختلفة ممن يملكون وممن يملكون Haves & Hads اى من المستعمرين والمستعمرين . فالاستعمار فعلا أعلى مراحل الرأسمالية . وهو امتداد خارج الحدود للطبقيه داخل الحدود ، والمستعمرات ليست الا « برولتارية السياسة الدولية » . لذلك جميعا فقد كان الانقلاب الصناعى اشارة البدء بسباق محموم معربد نحو الاستعمار ، وعاملا حاسما فى الصراع الدولى ، وكان القرن التاسع عشر هو بالضرورة والامتياز قرن الاستعمار

كذلك لعب الانقلاب الصناعى دورا خطيرا ومباشرا فى التمكين للاستعمار والتعمير ، فقد قدم معا وفى وقت واحد « جسم » التعمير وضواغط التهجير وأداة الحركة وظروف التوطن . فمن ناحية حرك الانقلاب « ثورة ديموغرافية » عارمة لم تعرف البشرية لها مثيلا من قبل ، ففى القرن التاسع عشر ارتفع سكان اوربا من ١٨٧ مليونا فى ١٨٠٠ الى ٤٠١ مليون فى ١٩٠٠ (١) ، واصبحت أوربا متخمه بفائض سكانى تحول بالهجرة الى طفح بشرى خرج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيا فى المستعمرات والاقطار الجديدة

ومن ناحية أخرى كانت النظم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى خلقها الانقلاب الصناعى من أهم الضواغط التى دفعت الى الهجرة من أوربا . فالصراعات الطبقية

(1) J.M. Houston, A. Social Geog. of Europe, Lond., 1953, p. 152; A. Landry, Traité de Démographie, Paris, 1949, p. 66.

والاضطرابات السياسية والثورات العديدة والضغوط المادية والانسانية على البرولتارية الكثيفة المسحوقة كانت عوامل طرد مباشرة ومحققة • وليس من الصدفة أن موجات الهجرة من اوربا تتعاصر زمنيا مع تواريخ الثورات الكبرى التى تنقط مجرى القرن الصناعى ابتداء من ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ (١)

ومع ذلك فلولا ما أحدث الانقلاب الصناعى من ثورة فى وسائل النقل البرى والبحرى بالجملة ومن تسهيلات الحركة التى لم تعرف قط من قبل ، لما استطاع هذا التيار الكاسح أن يتحقق • وبعد هذا فانه الانقلاب الصناعى وحده ، بما أنتج من علوم وفنون وطب ووسائل صحية ومخترعات تدفئة صناعية وتكييف •• الخ ، هو الذى خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطن فى « جبهات الريادة » القارية تلك • باختصار اذن ، لقد جعل الانقلاب الصناعى من الاستعمار حاجة وامكانية فى نفس الوقت

يبقى أخيرا أن الانقلاب نفسه كان عاملا حاسما فى تحديد مصاير الصراع الاستعمارى وصدامات القوى • فقد كان نمط القوة السياسية وتوزيع مواطنها الطبيعية natural seats of power يتحدد فى العصر التجارى ببعدين اساسيين ، هما موارد الزراعة المحلية وموارد الموقع التجارى • ولكن جاءت الصناعة لتضيف بعدا ثالثا وفيصلا ، أعاد تقييم الاوزان الجغرافية للاقاليم والدول المختلفة ، وأحدث انتخابا جغرافيا جديدا للقوى السياسية ، فاستبعد البعض من الصدارة ودفع البعض الى المقدمة وخلق البعض جديدا أو من جديد

(1) E. E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw-Hill. 1955, pp. 251-5.

وتفسير ذلك ان مركب الفحم والحديد - وهو « صدفة جيولوجيه » اما لك واما عليك - قد أصبح اساس القوة الجديدة . ولهذا جاء الانقلاب الصناعى لينهى الى الابد الصراع على السيادة العالمية بين فرنسا وبريطانيا ، ذلك الذى كان ابرز طابع فى القرن الثامن عشر ، وليضع بريطانيا فى الصدارة المطلقة طوال القرن التاسع عشر . ولكنه خلق لها منافسها المقبل - المانيا - ليصبح النصف الاول من القرن العشرين هو عصر الصراع العالمى بين بريطانيا والمانيا ، ثم ليختزله بسرعه ليضعنا مع بداية النصف الثانى من القرن ، فى مواجهة صراع جديد من قدر اضخم واعظم هو هذا الذى نعيشه بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

تلك اذن هى الخطوط العريضة فى الانقلاب الصناعى كمحرك وضابط للاستعمار والصراع الدولى . وعلينا الان ان نتقدم اولا الى دراسة الاستعمار فى هذا القرن المفعم خارج القارة فنبدأ بالتعمير ثم نردفه بالاستعمار ، ثم نعود ثانيا الى القارة لنحلل محاور صراع القوى داخلها ثم خارجها فنتتبع حركة انتقال مركز القوة العالمية وتتابع ظهور القوى الجديدة واحدة بعد الاخرى - بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم اليابان فالمانيا - حتى نصل الى قمة الصراع فى العصر الصناعى وهى الحروب العالمية فى القرن العشرين

تعمير المعتدلات : الاستعمار السكنى

ينبغى لنا ان نميز بين ظاهرتين بارزتين فى القرن التاسع عشر : الاولى هى التعمير ، اى خروج اوربا الى القارات والاقطار الجديدة بقصد السكنى

والاقامة الدائمة فيها داستبدالا لوطن بوطن آخر ، اى بقصد الاستعمار السكنى . والثانية هى الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد استغلالها لا التوطن الدائم فيها ، اى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى

ولعلنا نذكر ان اغلب القارات الجديدة قد استعمر بالغزو فى ظل الانقلاب التجارى ، ولكن تيار الهجره طوال قرون اربعة لم يزد عن بضعة ملايين معدودة . مثلا لم يكن عدد المعمرين البريطانيين فى امريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ليزيد عن ٣٠٠ الف ، ولم يكن عدد البيض فى مستعمرات اسبانيا فى امريكا حتى سنة ١٨٢٠ ليزيد عن ٣٫٢٥ مليون اغلبهم نتيجة للتزايد الطبيعى (١) . أما التعمير الحقيقى فلم يحدث الا فى ظل الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر . اى ان التعمير السكانى قد تخلف طويلا عن الاستعمار السياسى . وعلى العكس من هذا نجد ان ما تم من استعمار سياسى فى ظل الانقلاب الصناعى لم يصحبه او يتبعه تعمير سكانى حقيقى يذكر . وتفسير هذا بطبيعة الحال انه ارتبط بالمداريات الكثيفة السكان أو الماهولة التى لا تشجع طبيعيا على الاستعمار السكنى أو لا تسمح به بشريا

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الاوربى فى القارات الجديدة سواء تعميرا او استعمارا هو وجود ساحلى بحت لا يزيد فى اعمق جبهاته عن شقة ساحلية مضغوطة ، بعدها لا يزيد عن وجود رمزى . اما فى القرن التاسع عشر وبفضل ثورة

(1) Cole, Geog. of World Affairs, p. 40.

المواصلات الجديدة فقد غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارا وتعميرا ، ولا ينتهي القرن حتى يكون كل شبر منها قد احتل . فالاستعمار العالمي من الوجهة الفعالة هو ابن الانقلاب الصناعي واخو القرن التاسع عشر

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من اوربا نحوا من ٦٠ مليون نسمة — ولو ان نسبة كبيرة عادت الى أوربا بعد ذلك (١) — توزعت على القارات الملائمة مناخيا للسكنى الاوربية ، ابتداء من امريكا الشمالية الى امريكا الجنوبية ومن استراليا الى نيوزيلند . تلك اذن اضخم واطول رحلة فى التاريخ عبر القارات والمحيط ، تتضاءل بجانبها كل حركات رعاة الاستبس الرجراج فى العصور الوسطى ، ولا يفوقها الا تيار تهجير الرقيق . هذا اذن ، وليست فترة هجرات الشعوب فى التاريخ القديم ، هو « عصر الهجرة Völkerwanderung » الحقيقى فى تاريخ البشرية

وهو خروج أبيض أولا وقبل كل شيء . فقد صدرت اوربا وحدها هذا السيل لتحقق عالمية الجنس الابيض Universalisation ، او اوربة العالم Europeanisation ، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلقت منها أوربات صغرى Little Europes تدين لاوربا الام ، اوربا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة او بأخرى . ومن الملاحظ ان هذه الشظايا التى انفصلت عن النواة تتحلق حولها من غرب وجنوب وشرق ، تحف بها كاقمار تابعة تدور فى فلك شمس كبرى ، وتحدق فى نفس الوقت بالاجناس البشرية الاخرى غير البيضاء وتطوقها

(١) Carr-Saunders, We Europeans, pp. 201 ff.

كحلقــة خارجيــة متصــلة بدرجــة او باخرى . اما عالمية الجنس الابيض المترتبــة فتنعكس فى انه اصــبح وحده يملك ٤ قارات ، بينما يملك كل من الجنسين الآخرين قارة واحدة

واذن ، فلقد جعل الاســتعمار اوربا قلب العــالم وراســه جغرافيا وسيــاسيا ، وجعــل العالم يتمركز حول قبــلة اوربا Euro-centric ، وفى نفس الوقت جعل الرجل الابيض يحاصر بقيــة الاجناس من خلف ومن قدام ومن خــلاف . بل قــد يمكننا ان نتحدث عن « اوروقراطية » حقيقية ـ حكم اوربا Eurocracy . بمعنى الــكلمة ، وعن عصر الاوروقراطيــة العالميــة ، عصر لعبت فيه هــذه القارة دور ارستقراطية العالم ، وتصرفت فيه كما لو كان الجنس الابيض وحده دون الجنس البشرى كله خليفة الله فى الارض ، واتخذت فيه فى مجال السياسة والحضــارة عقليــة وفلسفة اشــبه ما تكون بعقليــة العصــور الوســطى فى الفلك والــكوزمولوجيــا حــين كانت تحسب الارض مركز الــكون ومحور المجموعة الشمسية !.. واذا كان لهذا التشبيه مغزى فهو ان اوربا كانت تحتقر الجغرافيــا وتحتكر التاريخ ، اى كانت ضــد الطبيعــة ، ومن هنا ستكون سقطتها وانهيارها فيما بعد

وانت تطالع ابسط مظهر لأوربة العــالم فى اســمــاء البلاد الجديدة ، فــكثير منهــا او اغلبهــا على مختلف المستويات ، من الاقطار الى المدن ، ليس الا سميــا Homonym لاماكن وبقاع من القارة « الام » ، ابتداء من نيوانجلند ونوفاسكوشيا (اسكتلنــدة الجــديدة) ومن قبلهما فرنسا الجديدة واسبانيا الجديدة ، الى نيوزيلند ونيوســـوث ويلز ونيوبريتن ونيواورليانز

ومن فنزويلا الى هسبنيولا .. الخ .. هــذا بينمــا تحمــل افريقيــا فى كل جنبــاتها اســماء اجنبيــة اوربيــة صرفة كانما هى بصمات اصــابع اللص يتركها على جسم جريمته

وقبــل ان نحلل تيــار الخروج الابيض العرم الى روافده وفروعه ، ينبغى الا نغفــل عن حقيقه هــامة وخطيرة تعــد ـ ربما اكثر من تجارة الرقيق ـ نقطــة ســوداء فاجرة فى صــفحة الاســتعمار الاوربى سكنيا وغير ســكنى . فهــذا التعمــير ، هــذا الاســتعمار السكنى ، ما قام الا على اشــلاء وانقــاض الســكان الاصليين فى قارات المهجر ، فقــد صــحب الهجرة الاوربيــة وتبعهــا عمليــة ابادة رهيبــة ، عامدة او عفوية ، للاهــالى الوطنيــين ، وصلت بهم فى بعض الحالات الى حــد الانقراض . فقد كان على الاستعمار السكنى لينجح ان ينتزع الارض الجديدة والجيــدة ، ومن ثم ان يطرد منهــا اصــحابها الى الاطراف غير الصالحة للسكنى او للزراعة ، وذلك اما بالحرب والافناء واما بالمطاردة حتى الانزواء

يضاف الى هــذا ان دخــول الرجل الابيض الى وســط بيولوجى مختلف وبمركب باتوجينى مختلف ، حمــل معه فى حــد ذاته عديدا من الامراض التى لم تكن معروفة فى المهجر ولم يكن لاهلها ضــدها منــاعة ، ولذلك احــدثت الامراض الوافدة اوبئــة رهيبــة افنت مئات الالاف من الوطنيين . ولا ننسى كذلك دخول الاســلحة النارية والــكحوليات والسخرة الاوربية ، وكلها من عوامل الموت للوطنيين . وبهذا تكون الهجرة الاوربيــة قد اتت للوطنيين بعوامل الموت المباشرة وغير المباشرة . من هنا نجد التعدادات تسجل زيادة مطردة

فى عدد المهاجرين وتناقصا خطـــيرا فى عدد الاهالى ، خطوة بخطوة . وبمعنى آخر فقـد اتى التعمير الاوربى عمليــة دموية ابادية ، وانتهت من احتـلال سيــاسى الى احلال جنسى (١)

ففي استراليــا وصلت عمليــة ابادة الجنس الى حد « صيـــــد رؤوس head-hunting » علنى ومنظم ـ احيــانا كنوع من الرياضـــة !.. بينما فى تزمانيا انقرض الجنس التزماني تماما من عالم الوجـــود ، وفي امريكا الشـــمالية ـ تذكر الشـــعار الامريكى الخالد « الهنـدى الطيب هـو فقط الهنـدى الميت » ! (٢) .. تحول الهندى الاحمر الى شبح واسطورة أو على الاكثر الى عينات متحفية لاجناس بائدة لا يأبه لها او يحتفل بها الا الانثروبولوجيون وهواة الحفريات البشرية وصناعة الافـلام ! .. وقـد كان مصـير هـذه الاجنـــاس مقـدورا منـذ البـداية ، لان اعـدادها الاصليــة كانت ضعيفة جـدا بالنســبة لتيـار المهـاجرين ، كما كان مستواهم الحضارى بدائيــا الى حـد لا قبـل له بمواجهتهم (٣)

والحالات الوحيدة التى نجت من هذا المصير الاسود على يد الجنس الابيض هم ماورى نيوزيلنـد (٩٠ الفا) الذين بدأوا أخــيرا يتزايدون بعد تنـــاقص ، والاستراليون الذين تقلصوا كثيرا (١٥٠ الفا) . ثم هناك ممن افلتــوا من الاحتـــراق بنـــار الاحتـكاك الحضارى وارتطـام الاجنـــاس هنود امريكا الجنوبية

(١) Carr-Saunders, World Population, op. cit.
(٢) Whittlesey, Earth & State, p. 508.
(٣) G. H. Pitt-Rivers, Clash of Cultures & Contact of Races, Lond., 1927.

والوسطى — اللاتينية بعامة — فنظرا لضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا) مع صلاحية القارة فى معظمها للسكنى البيضاء اما بسبب خطوط العرض او خطوط الكنتور ، فقد حل هنا محل الاحلال الجنسى الخلط الجنسى الذى لا مثيل له فى العالم كله ، فهنا يزيد عدد العناصر الخلاسية على العناصر النقية من اى جنس ، ولا يمثل البيض الخلص الا نحو الثلث (١)

ولهذا السبب فان امريكا الجنوبية بوتقة اجناس melting-pot بدرجة أكبر فى مداها وعناصرها الجنسية من امريكا الشمالية . فهى تجمع بين ثلاثة اجناس هى : البيض ، والهنود ، والزنوج ، بينما ان امريكا الشمالية بوتقة انصهار للجنس الابيض وحده اساسا . ومع ذلك فان العالم الجديد ككل يختلف — كنتيجة لسيادة الاستعمار السكنى — عن القديم فى انه بوتقة جنسية الى ابعد مدى

والخلاصة العامة هى ان استعمار المعتدلات السكنى فى القرن التاسع عشر أخذ صورة صراع اجناس اساسا ، اى كان حركة عنصرية ضخمة ، انتهت بابادة اجناس برمتها وابتزاز قارات بأسرها . وهو بهذا يعود بالبشرية الى أحط مراحل البربرية والهمجية الاولى حين كان صراع الجماعات ينتهى بابادة المغلوب . ولن يجدى فى هذا تعلل الاستعمار أو اعتذاره بانه لم يكن من المعقول ان تترك تلك القارات البكر بامكانياتها الهائلة لحضارات قليلة من البدائيين الذين عجزوا عن استعمارها ، فليس هذا الا منطق القوة الغاشمة

---

(١) We Europeans, loc. cit.

ولكم يبدو غريبا شاذا بعد هذا منطق الاستعمار : بدأ بابادة الهنود الحمر فى العالم الجديد ، فلما افتقد اليد العاملة نقل اليه زنوج افريقيا بالجملة ، وحين دخل افريقيا بدأ يهجر اليها الهنود والاسيويين لتملأ الفجوة الناجمة ــ حركة تفريغ ونقل من الشرق الى الغرب باطراد !.. على انه اذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ان الاستعمار السكنى قد اعاد توزيع البشرية ديموغرافيا وانثروبولوجيا على ظهر الارض ، وغير الاوزان والالوان التقليدية للقارات ، ولم يكد جنس يفلت من هذه العملية ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بفعل الاستعمار الابيض ولحساب الجنس الابيض

اما اذا انتقلنا الى جزئيات الهجرة البيضاء وروافد تيارها ، فقد وصلت الهجرة من اوربا فى بعض السنوات الى نحو مليون نسمة ، وكان السبق الزمنى لبريطانيا حتى منتصف القرن ، وبعدها وحتى اواخره اصبح السبق لشمال غرب اوربا عامة ، ثم تحولت بؤرة التصدير الى جنوب اوربا وشرقها . وقد صدرت بريطانيا خلال القرن نحو ٢٠ مليون نسمة ، وايطاليا نحو ١٠ ملايين ، وتأتى بعدهما المانيا (١)

اما عن الاستيراد فقد كانت الولايات المتحدة هى اعظم مستقبل (٣٦ مليونا او ٦٠ ٪) ، كما كان العالم الجديد كله هو المصب الاكبر للتيار (٩٠ ٪) ، وتلى الولايات المتحدة كندا (٧ ملايين) ثم الارجنتين (٦ ملايين) ثم البرازيل (٤ر٥ مليون) ثم استراليا

(1) Maurice Davie, World Immigration; We Europeans, p. 201.

(٣ ملايين) فنيوزيلند (مليونان) ، واخيرا جنوب افريقيا (٥ر١ مليون) (١).

ومن المهم ان ندرك المغزى السياسى لهذه الهجرة . لقد اضافت الى هيبة اوربا السياسية وقوتها الاستراتيجية والاقتصادية الشيء الكثير ما فى ذلك شك ، وبفضلها اصبحت اوربا سيدة القارات ومحور ارتكاز العالم . ولكن هذه البلاد الابناء daughter countries لن تلبث ان تستقل اما تماما واما كدومنيون فى حالة بريطانيا ، ولذا فهى فى النهاية مخصومة من حساب اوربا وعامل ضعف لها هى ذاتيا . ولقد كانت اكثر الدول الخاسرة هى بريطانيا بعكس المانيا مثلا ، وكان لهذا بالفعل انعكاسه المباشر على القوة البشرية لكل منهما وصراع القوة داخل القارة وخارجها (٢)

الاستعمار المدارى

المجال الجديد للاستعمار فى القرن التاسع عشر ، والذى يرمز « لاصالة » الانقلاب الصناعى بالذات ، هو الاستعمار المدارى . فهنا يضرب الاستعمار ارضا جديدة وقف عاجزا عن ولوجها ثلاثة قرون من قبل . وينقسم هذا المجال الى دوائر ثلاث واضحة هى : افريقيا المدارية ، والعالم العربى دون المدارى ، والشرق الاقصى الموسمى . ففى هذا القرن انطلقت اوربا فى موجة مدية عاتية لتبتلع هذه المناطق ، وتم لها ذلك فى وقت قصير نسبيا ، واكثر من هذا فى مراحل متعاصرة الى حد بعيد

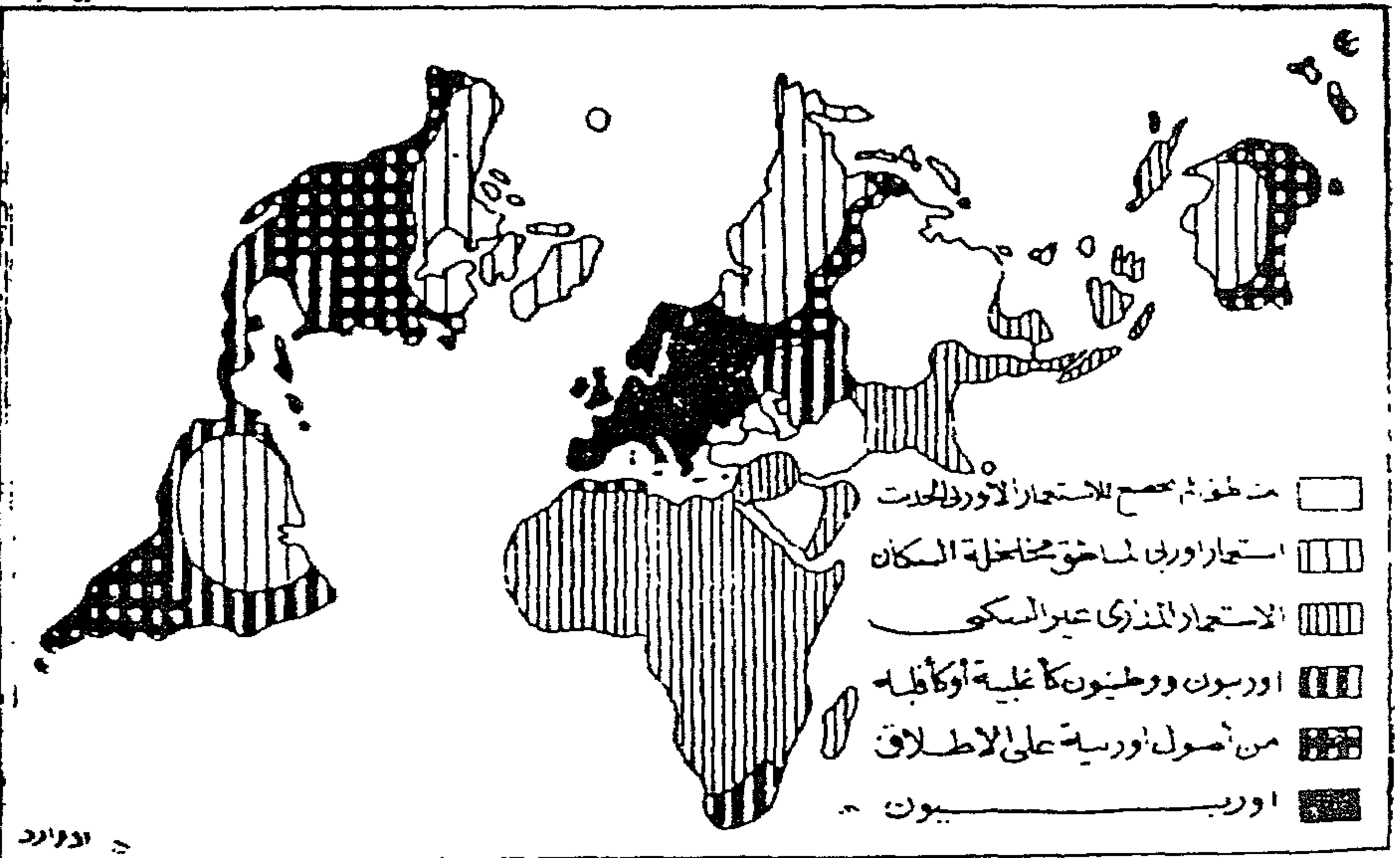
(١) Kimble, World's Open Spaces, pp. ‎،5-6.
(٢) Fitzgerald, The New Europe, pp. 222-3.

والســؤال المدخلى الذى يفرض نفسه منطقيــا هو : لــماذا تأخر اســتعمار المداريات الى هــذا المدى ، ولماذا حــدث ـ حين حــدث ـ بتلك السرعة المثيرة ، واخيرا لــماذا تعــاصرت قطــاعاته فى ســقوطهــا له ؟ .. الذى لاشك فيه ان الاســتعمار قــد طرق ســواحل أو بعض ســواحل هــذه المنــاطق من قبــل ولــكنه ظل يتارجح معلقــا أمامهــا طويلا مكتفيا « بالاستعمار الديموغرافى » فى افريقيا ، او القرصــنة شــبه الصليبيــة على العالم العربى ، او بالتجارة الابتزازية مع الشرق الاقصي . ولــكن حضــارة الانقلاب التجارى ـ وســائل نقــله خاصة ـ لم تكن لتستطيع ان تمرق به الى داخل القارات

ففى افريقيــا المــدارية كانت الطبيعــة تغلف القارة الســوداء بســاحل خطى صــقيل غير مضيــاف تقل فيه المرافىء الجيدة وتتكاثر عليه الامواج الضاربة surf بينما فى اعمــاق القــارة بأبعــادها السحيقة والساحقة معا تسود اما صحراوات قاحلة موحشــة ، واما غطاءات نباتية تتكاثف كالاسلاك الشائكة . وحتى انهار القارة العظيمة هى الاخرى طرق مسدودة او شرايين مقطوعة ، وذلك بحكم تركيب القارة كــكتلة هضبيــــة ، فقرب مصابها تهوى من حالق فى شلالات ومدافع « تشــل » الملاحة والحركة دخولا او خروجا (١)

افريقيــا المــدارية اذن كانت للاستعمار صــندوقا مغلقــا رهيبــا ، يدور حوله جيئة وذهابا ولــكنه لا يملك مفاتيحه ولا يملك ان ينفذ اليه . ولهذا ظلت تستمد كل اهميتها طوال العصر التجارى من انها عقبة

(١) Dudley L. Stamp, Africa. N.Y., 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond., 1950.



شكل (١٣) العالم اليوم كما شكله الاستعمار ووحدته « الاوربة » لاحظ عالمية الجنس الابيض أو أوربة العالم

لا عتبة الى الهند . وبعض هـذا ، مضـافا اليه البعد الجغرافى الشـديد ، يقال عن الشرق الاقصى الموسمى. ولـكن الانقـلاب الصـناعى قلب هـذا الوضـع ، فمد مد اوربا بالمفتـاح الحضارى اللازم لقهر هـذه البيئات الطبيعية الصعبة . اى ان الاسـتعمار عجز عن دخول المداريات بحضارة الانقـلاب التجـارى ولـكنه نجح بحضارة الانقلاب الصناعى

اما العـالم العربى فله فى هـذا التحليـل وضـع خاص . فهو لم يكن ببعيـد عن موطن الاسـتعمار الاوربى ، بل هو الجار المواجه مبـاشرة . وهو ليس بالبيئـة الطبيعية المغلقة او الطـاردة . ولـكن الذى اعجز الاسـتعمار دونه انما هو العـامل الحضارى . فرغم كل شىء ، كان للشرق العربى حضـارة قديمة عريقة وقوة اكبر من هينـة . ومن هنا ظـل صـامدا للضـغوط الاوربيـة المتزايدة التى تهاوت امامهـا – مثلا – حضـارة آسيا الموسمية فى الهند وجزر الهند . الى ان كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة فى الانقلاب الصـناعى ، فكان هـذا ايذانا بعدم جدوى المقاومة . فمرة اخرى ، وكما فى افريقيا وان يكن لاسباب حضارية لا طبيعيـة ، عجزت اوربا عن التغلب على العالم العربى بحضارة الانقـلاب التجارى ولـكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعى (١)

ولعـل هـذا الذى قلنـاه ان يكون ردا ضمنيا على سـؤالنا عن سبب تعاصر توقيت الاستعمار المدارى فى قطـاعاته الثـلاثة : فهو قد تاخر فى العالم العربى رغم الموقع القريب والبيئة المفتوحة ، اساسا بسبب

---

(١) جمال حمدان . الاسـتعمار والتحرير فى العالم العربى ، ص ٢٢ – ٢٣

تماسك وصمود المستوى الحضارى ، اى اساسا بسبب الجغرافيا الحضارية . وهو قد تأخر بنفس الدرجة فى افريقيا المدارية رغم المستوى الحضارى البدائى والعجز المادى المحقق ، اساسا بسبب البعد الجغرافى والبيئة المغلقة المصمتة ، اى اساسا بسبب الجغرافيا الطبيعية . وفى المنزلة بين المنزلتين يأتى الشرق الاقصى

السؤال الآن : ما اغراض الاستعمار المدارى واهدافه ؟ .. وهذه حسمتها الطبيعة مرة واحدة والى الابد . فلم يكن فى هذه العروض المدارية بمناخها المضاد للرجل الابيض anticlimes مجال للاستعمار السكنى او التوطن . ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هى الاستعمار الاستغلالى او الاستراتيجى .. وثمة عامل يعمل فى نفس الاتجاه ويجب كل فرصة للاستعمار السكنى ، ونعنى به العامل السكانى

فهذه كلها مناطق قديمة العمران ، كثيفة السكان ، وبعضها عريق الحضارة ، فليس فيها طاقة او كوة لدخيل يستوطن . وحتى فى ادناها حضارة لم يكن هناك اى احتمال لابادة الجنس والاحلال الجنسى كما عرفت المعتدلات الجديدة او مداريات العالم الجديد . ففى افريقيا كانت حيوية الجنس الزنجى ، وهى التى هزمت تجارة الرقيق والاستعمار الديموغرافى من قبل ، كفيلة بأن تهزم اى مشروع للاستعمار السكنى

ومع ذلك فثمة جيوب من افريقيا المدارية وخارج المدارية معا لم تنج من الاستعمار السكنى : فى افريقيا المدارية جزر الكنتور المرتفع التى تصحح المناخ للأبيض (alticlimes) ، وافريقيا خارج المدارية فى قطاعات المناخ دون المدارى او المناخ المشابه لجنوب

اوربا homoclimes . فالاولى تتحدد فى نطاق المرتفعات الهضبية الممتدة بتقطع من كتلة الحبشة حتى الروديسيتين ، حيث حوله الاستعمار الى « المرتفعات البيضاء » وحاول ان يتوطن فيهما ببضع مئات من الالاف موزعة هنا وهناك لا سيما فى كينيا وروديسيا الجنوبية . اما الثانية فتتحدد فى الشمال بشبه جزيرة المغرب الكبير ابتداء من ليبيا حتى المغرب ولكن الجزائر بالذات . وهنا وصل الاستعمار السكنى فى مجموعه الى المليونين تقريبا . ثم هناك جنوب افريقيا فى طرف القارة حيث زرع الاستعمار ثلاثة ملايين من المستوطنين

وفيما عدا هذا الشذوذ الذى يؤكد القاعدة ، فقد كانت حوافز الاستعمار المدارى اساسا هي الاستغلال او الاستراتيجية او كليهما معا . وبصورة عامة يمكن ان نغلب الاستعمار الاستراتيجي على الاستغلالى فى العالم العربى ، وان لم يلغه مطلقا . والعكس صحيح فى افريقيا المدارية والشرق الاقصى ، فهناك ياتى الاستغلال فى الدرجة الاولى وتتراجع الاستراتيجية الى الصف الثانى

وتغليب الاهداف الاستراتيجية فى العالم العربى لاسيما منه المشرق ، انما يرجع بطبيعة الحال الى موقعه الجغرافى البؤرى الحاسم الذى اصبح مركز ثقل العالم القديم بلا منازع بعد شق قناة السويس فى اواسط القرن . فقد اصبح العالم العربى هو عنق الزجاجة فى طريق الاستعمار الى الشرق الاقصى جميعا وبوابة الامبراطورية ـ اى امبراطورية ـ و«خط الحياة» للامبريالية

فى ضوء هذا التحديد والتوجيه ، اصبح حجر

المغناطيس فى الاستعمار المدارى فى العصر الصناعى هو موارده الخام الثمينة الرخيصة معا ، زراعية ومعدنية ، غابية او سكانية . وبعدها تأتى السوق المحتكرة المضمونة لتصريف منتجاته وخاصة سلعه الرخيصة الرديئة . وسوق المستعمرات وان كانت نفيرة في قدرتها الشرائية فهى تعوض بضخامة حجمها

وتجربة الاستثمار الاستعمارى لم تخرج يوما ، وباعتراف كتابه ، عن اقتصاد هدمى ابتزازى سافر Raubwirtschaft لم يكتف بأن يسرق السكان بل والطبيعة ايضا . فقانونه هو امتصاص زبد الاقليم Skim the cream حتى يتركه زبدا وغثاء احوى . حتى الزراعة الاستعمارية ، الابعاديات التى هى مشروع صناعى بقدر ما هى عملية زراعية ، وصفت بانها زراعة تعدينية .mining agric اى تخريبية هدمية ببساطة (١) . ميكانيكية الاستعمار باختصار انه مضخة ماصة في المستعمرات ، كابسة فى المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك

الاستغلال اذن هو بوصلة الاستعمار المدارى وقبلته . واذا كان هذا الاستعمار قد وجد محركه فى الانقلاب الصناعى ، فانه سرعان ما اصبح وقوده وبخار آلته الضخمة . فمن المحقق انه لولا موارد المستعمرات ومكاسبها الفلكية التى ذهبت لتنصب فى تراكم رأس المال الاوربى ، لما وصل التطور الصناعى — بكل ما يعنيه من تطور حضارى ومعيشي ونمو فى القوة .. الخ — الى ما وصل اليه . فبقدر ما كان الاستعمار

(١) Karl J. Pelzer, Geog. & the Tropics, in Geog. in 20th Century, Lond., 1951, p. 321.

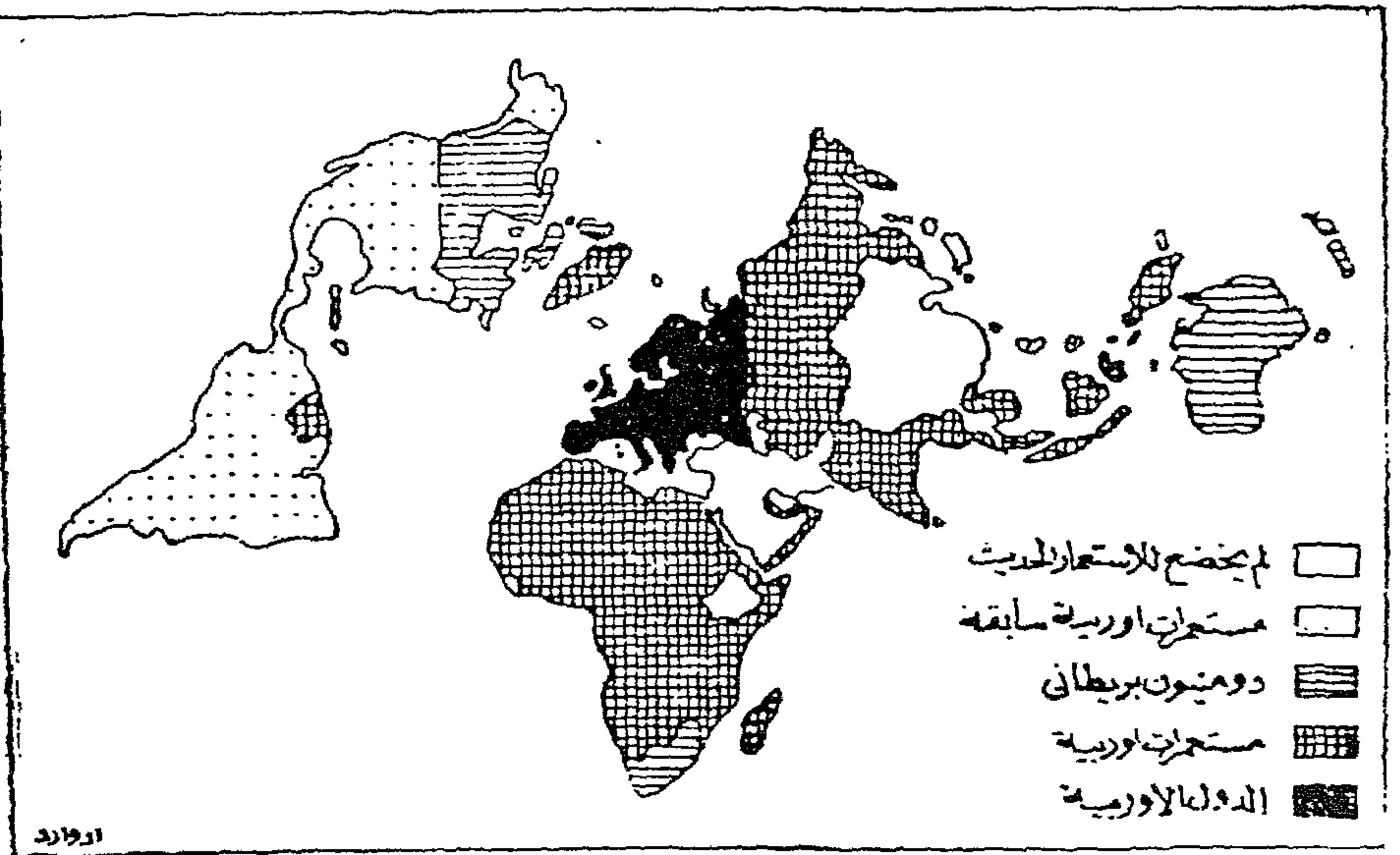
نزيفا اقتصاديا رهيبا اصاب المداريات بالشلل الزاحف ، كان يضخ فى الاقتصاد الاوربى ما لا يمكن حصره بل تخيله من آلاف المليارات من اجنيهات

وقد كان طبيعيا لذلك ان ينتهى الاستعمار الى تقسيم عمل يحتكر فيه الحرف الثانية (الصناعة) والثالثة (التجارة) وهى التى تدر اعلى الدخول ، ويفرض على المستعمرات الحرف الاولية (الزراعة والتعدين) التى لا تكاد ترد من الدخل الا الفتات . وبهذه القسمة غير السليمانية الضيزى احتكرت اوربا لنفسها دور مصنع العالم وابقت على المستعمرات كمزرعة له ، وبه ايضا اصبحت هى مدينة العالم والمستعمرات ريفه . وهذا هو التكامل الاقتصادى الذى زعمه الاستعمار . والحقيقة ان الاستعمار كان ينظر الى المداريات على انها « اقاليم تكميلية «Ergaenzungsraeume » كما سماها الجغرافيون الالمان (١) ، تكمل عروضه المعتدلة ، ومن ثم مجال حيوى لاوربا Lebensraum . وفى افريقيا مثلا كان الاستعمار يتشدق بانه شركة تعاونية بين « العقل الابيض والعضل الاسود White brain & black brawn (٢) . وعلى هذه الدعاوى رتب انه « زواج سياسي » بين المتروبول ، اى الدولة الأم ، وبين المستعمرة التابعة !

ولكن الحقيقة الموضوعية المحايدة هى ان المداريات لم تكن اكثر من سندرلا اوربا ، وان الاستعمار لم يكن الا شركة ابتزازية غير مقدسة ، اما العلاقة

(١) Ibid., p. 314.

(٢) D. Westermann, The African Today & Tomorrow, Lond., 1939, p. 3.



شكل (١٤) الاستعمار العالمي في ذروته ١٩١٤ . مناطق ثلاث فقط نجت من الاستعمار : اليابان ، الصين ، وجزء من الشرق الاوسط

السياسية المفروضة فليست الا اغتصابا سياسيا داعرا . واذا صح ان المداريات كانت المجال الحيوى لاوربا ، فانها فى معنى حقيقى جدا مجال الموت Todesraum لابنائهـا هى (١) . ولئن صح كذلك ان الاستعمار خلق كأمر واقع « اورافريقيا » وغير اورافريقيا ، فانها لم تكن في الحقيقة الا نوعا من « اوربا العظمى » ، لم تكن فيه افريقيا وغيرها الا ظلا اسود للقارة البيضاء ، او ضاحية ضخمة للمتروبول وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة

وهنا نجد ان الاستعمار قد « ارتقى » فى هذه المرحلة عما كان عليه فى مرحلة الموجة الاولى ، فاستبدل بالابادة الاسترقاق ، ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسى ، ثم سنجده مع الاستعمار الجديد يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى . ولكن يظل الجميع على خط النسب المباشر الذى ينحدر من صراع الابادة ، ويظل الاستعمار فى صميمه صراع اجناس Rassenkampf وحركة عنصرية من الناب والظفر برهانها الوحيد

ومن الحقائق الجديرة بالتأمل والتى تؤكد هذا الذى نقول عن عنصرية الاستعمار وصراع الاجناس ، ان الاستعمار كله ما تم الا على يد اوربا وما تم الا خارجها . فلم يحدث فى التاريخ الحديث أن استعمر جزء من اوربا باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجى فى جبل طارق ومالطة وقبرص . وفيما عدا هذا ، فقد تشتعل الحروب الدامية داخل اوربا ، ولكنه

(١) فايفهلد وبيرس ، الجيوبولتيكا ، حـ ١ ص ١٥٧

احتلال عسكرى مؤقت او تسوية حدود داخل اطارات القوميات ، ذلك الذى يحدث . اما ان تستعمر دولة أو شعب اوربى دولة أو شعبا اوربيا آخر فهذا قط لم يحدث . لقد كان الاستعمار - بوضوح - صناعة أوربية مسجلة ولكنها للتصدير الى خارج اوربا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلى بحال

ولقد كان الاستعمار فى اوج بطشه يبرر نفسه - متبجحا - بنظريات القهر والتفوق العنصرى ، حتى اذا استشعر نهايته وطاردته عقدة الذنب بحث - منافقا - عن التبرير فى نظريات الانسانية والاخوة ! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا . فمن نظريات القهر والتفوق بدا بتقسيم حضارى للاجناس او تقسيم جنسى للحضارات ، فزعم مرة ان « الرجل الاصفر يعيش فى الماضى ، والاسود فى الحاضر ، اما الابيض فيعيش فى المستقبل » (١) . ومرة اخرى وضع نظرية « الاجناس الاطفال » ... واخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية الى تصنيف بيولوجى للاجناس يميز بين الاجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، والاجناس الفعلة Hilfenvolk وهم « الملونون » ، وكلا جعل مراتب ودرجات ! (٢)

واذا كانت عنصرية الاستعمار فى عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل ، فهى لم تفعل فى شيخوختها الا ان تقنعت بنقاب الرياء والزيف دون أن تغير جلدها ، فكانت النظريات « الانسانية والابوية Paternalism » فى الاستعمار

(١) G. Montandon, Traité d'Ethnologie, Paris.
(٢) فايفيلد وبيرس ، ج ١ ، ص ١٧٨

(كذا !) مثل « عبء الرجل الابيض ورسالة الحضارة والاب الابيض White Father او الاخ الاكبر Elder Brother ... الخ (١) . ولكن هذا جميعــــا منطق تبــــرير فج لا يبرر اكثر مما يبرىء ، ويظــل الاســتعمار وصمة فى جبين المستعمر اكثر منه فى جبين المستعمرات وعار اوربا اكثر منه عار المداريات ، ويظل فى النهاية ظاهرة عنصرية جنسية بحتة . ويكفى أن يتحدث بعض الكتاب الاوربيين انفسهم عن « السجل الماســــاوى القــــذر لعملية الاوربة » وعن « قصة الاوربة التعســــة » (٢)

(١) N. Sithole, African Nationalism, Cape Town 1959, p. 122.

(٢) Cole, pp. 47, 49

نماذج من الاستعمار المدارى

افريقيا

لننتقل الان بشيء من تفصيل الى تحليل حركة الاستعمار فى كل قطاع من المداريات على حدة . ولنبدأ بافريقيا المدارية . كان مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى اجمعت فيه القوى الاوروبية على ان الادعاءات الاستعمارية فى افريقيا لا تكون الا بالاحتلال الفعلى الواقع ، اشارة البدء بسباق جنونى مسعور على القارة . هذا هو « التكالب » المشهور Scamble for Africa . وجاء الزحف كاسحا بصورة لم تعرف بالقطع فى التاريخ ، حتى فى العالم الجديد . ففى مدى عقد واحد كان قد تحدد كل شيء

ففى سنة ١٨٩٣ ، اى بعد عقد واحد من مؤتمر برلين ، كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الاوروبية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥ ٪ فى سنة ١٨٨٥ الى ٨ ٪ فى سنة ١٩١٠ ! (١) هذا بينما فى آسيا لم يصل الاستعمار الى منتهى رقعته الا على مدى فترة طويلة ، كما انه لم يتعد فيها فى حده الاقصى الا قطاعا معينا من القارة . اما افريقيا فانها تنفرد بين القارات الجنوبية بانها

(١) Stamp, Africa.

الوحيدة التي خضع اغلبها . وفى وقت ما لم يكن دولة مستقلة ـ ولكن شكليا ـ الا ليبيريا . وبهذا كانت افريقيا هى القارة المستعمرة أو المستعمرة القارة بالضرورة ، كانت اكبر مستعمرة منفردة فى العالم واضخم معمل للتجارب الاستعمارية فى التاريخ

والذى شارك فى هذا التكالب هو دول اوربا البحرية بالذات ، لكن مع تخلف واستبعاد بعض القوى القديمة كهولندة والدنمرك ودخول بعض القوى الجديدة كالمانيا وايطاليا وبلجيكا . وقد كان الصراع فى افريقيا انعكاسا للصراع فى اوربا ، وتحددت نتائجه باقدار واوزان تلك القوى فى قارتها ، كما ان هذه النتائج بدورها اكدت تلك الاقدار والاوزان والهيبة فاما ضاعفتها واما اضعفتها . ففازت القوى الكبرى بنصيب الاسد ، وخرجت القوى الصغرى بفتات المائدة

ولقد كان الحد الأقصى من التوسع هو الهدف المباشر للجميع ، يضاف اليه الوصول بقدر الامكان الى الانهار الرئيسية ، وان امكن كذلك تحقيق الاتصال الأرضى بين مستعمرات كل قوة . وفى هذا التوجيه ، بدأ الهجوم على القارة من جميع الجهات تقريبا . وعدا القوة المباشرة ، كان للمقايضات الاقليمية والمساومات ، والمبادلات والتفاهمات دورها مثلما كان للعداوات والتحديات ، والمخالفات والمصادمات

وبوجه عام كانت الصدامات الاكثر خطرا هى تلك التى دارت بين القوى الكبرى كبريطانيا وفرنسا والمانيا ، بينما كانت القوى الصغرى تعتمد اما على نوع من الرعاية او حتى الحماية الصامتة من بعض القوى الكبرى (مثل البرتغال بالنسبة الى بريطانيا) ، واما على « تحييد »

القوى الكبرى لبعضها البعض (مثل بلجيكا بين بريطانيا والمانيا) . وبصفة عامة يمكن أن نقول ان كل الصراع الاستعماري فى افريقيا لم يصل ابدا الى حد الحرب وان اشرف احيانا على المبارزة (١) . والمغزى هام وخطير : فللاستعمار حتى يعيش « وحدته » . وعلى التناقضات ان تتراجع فى النهاية امام وحدة المتآمرين !

وقد بدأ التوغل ببريطانيا ، وبدأت بريطانيا التوغل من قواعدها الساحلية فى غرب افريقيا حيث حققت توسعا « بحريا » يتمثل فى عدة مستعمرات متوسطة الاحجام ولا تتعمق كثيرا فى الداخل فضلا عن انها منفصلة عن بعضها البعض (٢) . كذلك دخلت المانيا باسفينين منفصلين فى توجو والكمرون . أما فرنسا فقد دخلت من الكوة أو البوابة الحقيقية لغرب أفريقيا وهى ذلك الشريط السفانى المحصور بين الصحراء شمالا والغابة جنوبا . وقد قادها هذا الى الشارع الرئيسى للحركة فى غرب افريقيا وهو نطاق السودان (٣)، فاندفعت فيه شرقا واندفعت منه جنوبا لتدخل اقليم غانة من الباب الخلفى ولتملأ الفجوات الارضية الواسعة بين الأسافين البريطانية والالمانية

وبهذا أصبح النمط السياسى متداخلا على التوالى : مستعمرة فرنسية فبريطانية ، ففرنسية فالمانية ، ففرنسية فبريطانية ، وهكذا . وهنا أيضا نرى «قارية» التوسع الفرنسى واضحة كل الوضوح ، لا سيما أن خلف

(١) Whittlesey, pp. 331-341.

(٢) R.W. Steel, Some Problems of Population in British West Africa, in Geog. Essays on British Tropical Lands, Lond., 1956, pp. 27 et seq.

(٣) Fairgrieve, op. cit., pp. 278-9.

ذلك جميعا كانت تترامى لفرنسا امبراطورية عسكرية قارية صحراوية بدأتها من الجزائر من قبل . وكما دخلت فرنسا من شمال غرب افريقيا ، دخلتها بريطانيا من شمالها الشرقى فى مصر حيث اتخذتها قاعدة للتوسع فى سودان النيل

وفى شرق افريقيا بدات بريطانيا بمستعمرة فى كينيا واوغندة ، لم تلبث أن اتصلت بمستعمراتها النيلية فى الشمال · ولم تلبث أن ناظرتها المانيا بمستعمرة واسعة فى تنجانيقا ، بينما اغلقت بلجيكا جذع القارة من الغرب بمستعمرتها الضخمة فى الكنفو . والى الجنوب من هذا كانت البرتغال تتوسع من شريطيها الساحليين القديمين لتكون موزمبيق وانجولا . وفى نفس الوقت كانت بريطانيا ، بعد ان انتزعت الكاب من هولنده فى الحروب النابليونية ، قد اتخذت منها راس حربة للاندفاع الى قلب القارة شمالا على طول العمود الفقرى للمرتفعات والهضاب السفانية . بينما ملأت المانيا الفراغ على الساحل الغربى بين الكاب وانجولا بجنوب غرب افريقيا

وهنا حاولت كل من المانيا والبرتغال أن تصل ما بين اراضيها شرقا وغربا لتغلق الطريق على التوسع البريطانى : المانيا ما بين تنجانيقا وجنوب غرب افريقيا ، والبرتغال ما بين موزمبيق وانجولا . ولكن كانت اليد العليا لبريطانيا ، فنجحت فى أن تتمدد شمالا عبر الروديسيتين . الا ان هذا كان معناه ــ فى الحقيقة وللغرابة ــ « امبراطورية داخلية » لبريطانيا القوة البحرية اساسا وبالضرورة ، وصاحبة الاستعمار الساحلى بامتياز ! (١) على أنها لم تر باسا أن تعتمد على

(١) G. Hamdan, «Political Map of the New Africa» Geog. Review, Oct. 1963, pp. 425-6.

المستعمرات البرتغالية كمخرج ، وذلك لصداقتها التقليدية بل حمايتها الحقيقية للبرتغال . وبعد هذا بدات بريطانيا تتطلع الى حلم ضخم هو طريق الكاب ــ القاهرة في محاولة عظمى لربط مستعمراتها فى أقصى شمال وجنوب القارة على محور طولى هضبى فى الجنوب نيلى فى الشمال

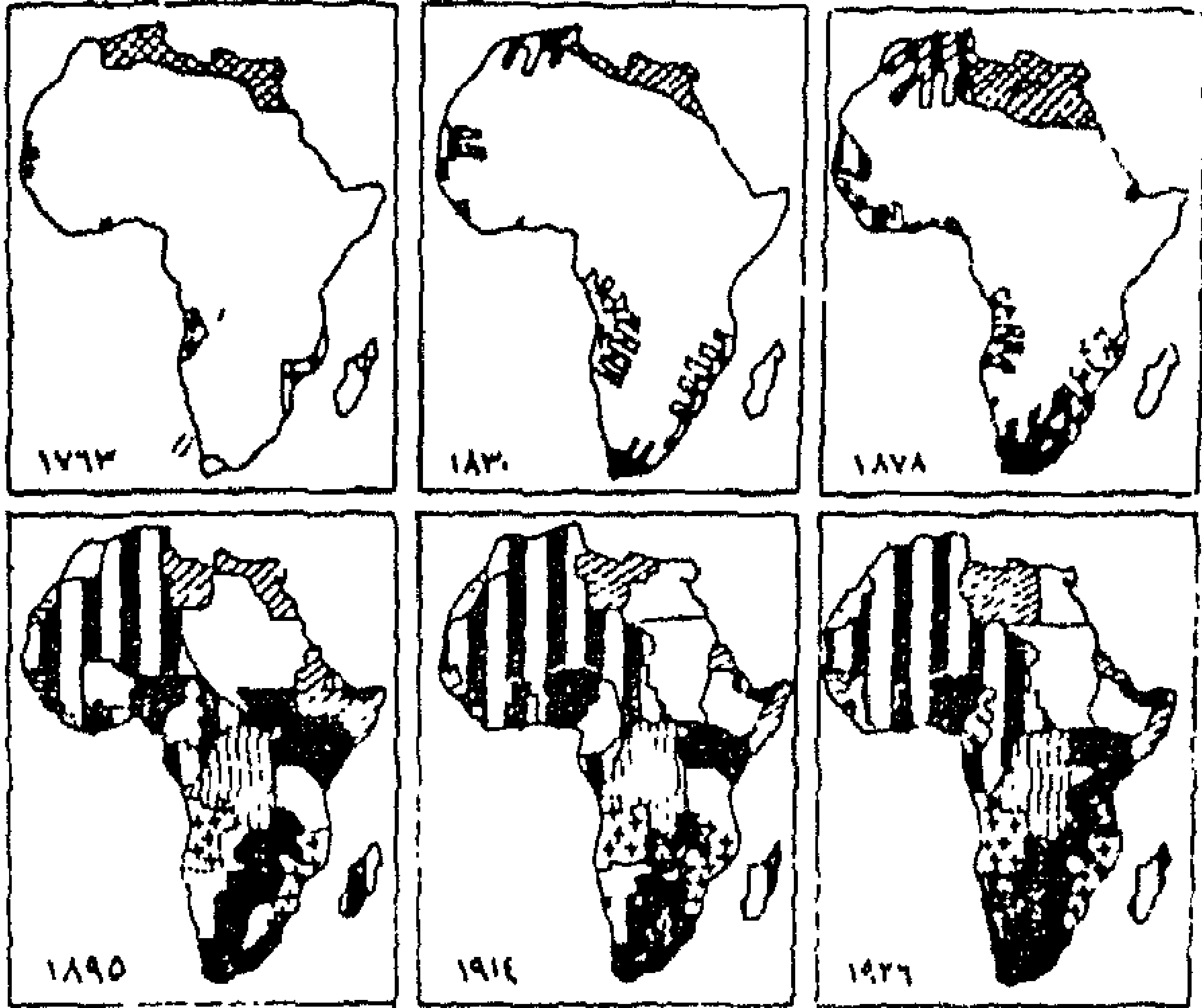
وقد اصطدم هذا المشروع مع مشروع مماثل ــ ولكنه عرضى ــ لفرنسا للتوسع على طول محور السفانا عبر السودان الاوسط حتى يصل عبر سودان النيل الى جيبها الصغير فى الصومال الفرنسى على البحر الاحمر . وكان اللقاء بين الاسد والنمر فى سفانا فاشـــودة ، فكانت « الحادثة » المشهورة التى حسمها فى الحقيقـة توازن الاساطيل الحربية فى الاطلسى اكثر منه توازن الكتائب المتوغلة فى افريقيا (١) ، فتراجعت فرنسا وتحطم المحور العرضى الفرنسى ، ليسود المحور الطولى البريطانى ، الا من حلقة فى شرق افريقيا لم تلبث أن استكملت فى الحرب الكبرى الاولى حين آلت تنجانيقا الى بريطانيـــا التى تقاسمت مع فرنسا مستعمرات المانيا المنهزمة

لم يبق بعد ذلك الا القرن الافريقى الذى تتوســطه وتسوده الحبشة التى استطاعت بنوع من المضـــاربة Stalemate أن تحتفظ باستقـلالهـا الحـرج نتيجـة للصراع المثلث بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا هناك . وقد حدث هنا فى الواقع تكالب صغير يعرف محليا « بالتكالب الثانى Second Scramble (٢) تقاسمت فيه القوى الثلاث الصومالات الثلاثة وارتريا. وحاولت ايطاليا غزو الحبشة ولكنها هزمت فى معركة عـدوة ، حتى عادت فى ثلاثينات

(١) Fairgrieve, p. 279.

(٢) J. Drysdale. The Somali Dispute, Lond., 1964. p. 25.

القرن العشرين ، فسقط آخر معقل مستقل فى افريقيا . الا ان هزيمة ايطاليا الاولى لم تنس قط وكانت صفعة لادعاءاتها الامبراطورية ولهيبتها فى ميدان القوة ، اذ انها كانت اول قوة اوربية تهزم فى العصر الحديث على يد غير اوربية وتسبق فى هذا هزيمة الروسيا على يد اليابان



بريطانيا فرنسا المانيا بلجيكا ايطاليا البرتغال اسبانيا تركيا

شكل (١٥) زحف الاستعمار على افريقيا :
مرحلة طويلة من الاستعمار الساحلى والديموغرافى يصمها ((الرق)) ، ثم مرحلة خاطفة من الاستعمار الداخلى والجغرافى يلخصها ((الاشكالب))

واذا نحن الآن حللنا المحصلة النهائية للصراع كما اخذت شكلها النهائى بعد الحرب الكبرى الاولى ، فسنجد ان بريطانيا هى التى خرجت بنصيب الاسد مسيطرة على

بحو ٤٥ ٪ من سكان القارة وموزعة فى وحدات كلها من اغنى مناطق افريقيا طبيعيا واقتصـــاديا . انهـــا «الامبراطورية الثالثة» لبريطانيا بعد أمريكا سابقا والهند لاحقا . ثم تلى فرنسا بنحو ٢١٪ من السكان (١) فى مساحة مترامية ، لكن رقعة ضخمة جدا منها صحارى واشباه صحارى. هذان اذن هما : «الاستعمار الكبير» ، ينتشر فى كل اركان القارة وفى اغلب اقاليمها الطبيعية ، فى النصف الشمالى والجنوبى ، شرقا وغربا على السواء

اما « الاستعمار الصغير » ــ وهو محلى التـوزيع كقاعدة ــ فتمثله ايطاليا التى خرجت « بصندوق من الرمال » فى الأعم الأغلب ، داخلى بقدر ما هو ساحلى ، ويطل على البحرين المتوسط والاحمر ، ويتألف من اربع وحدات تلتئم فى كتلتين منفصلتين . وتأتى البرتغـال بوحدتين كبيرتين واسفينين قزميين . ولـكن اذا كان الاستعمار الايطالى هو احدث استعمار فى القـــارة ، فالبرتغال اقدمه اطلاقا (خمسة قرون) . واذا كانت مستعمرات ايطاليا لفقرها اعجز من ان تتلقى الاستعمار، فان البرتغال على العكس قوة اعجز من أن تتحمل أو تستثمر مستعمراتهـا . ومن الناحيـــة الاخرى فان امبراطورية اسبانيا فى افريقيا لا تخرج عن امبراطورية جيوب واسـافين هزيلة فقيرة مشتتة ما بين المغرب وخليج بيافرا . هى امبراطورية رمزية بحتة ، وميكروسكوبية عند ذلك

لا يبقى الا دول المستعمرة الواحدة . ثمة منها بلجيكا

---

(١) United Nations, Review of Econ. Conditions in Africa. 1951.

انظر ايضا: جمال حمدان . افريقيا الجـــديدة ، دراسة فى الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦

التى لا تملك فى العالم الا الكنغو ، لكن الكنغو قد يكون اغنى مستعمرة فى افريقيا اقتصاديا (١) ، كما يبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا ! على ان هنا حالة اخرى لقوة صغرى تستعمر ولكنها وحدها اعجز عن أن تستثمر . ثم هناك الولايات المتحدة فى ليبريا ، وكالمالوف مع الولايات، ليس هذا استعمارا رسميا بل علاقة مثل عليا وفروسية سياسية ، ترجع الى محاولة توطين الرقيق الامريكى المحرر العائد ، وتترجم فى الواقع الى استعمار غير رسمى كما يعترف الكتاب الامريكيون أنفسهم (٢) !

الشرق الاقصى

شهد القرن التاسع عشر مسرحا جديدا للصراع الاستعمارى فى الشرق الاقصى فى ثلاث دوائر : الهند الصينية بما فيها الملايو ، والصين لا سيما سواحلها ، وجزر الاوقيانوسية المتناثرة . فأما الهند الصينية فهى ـ ابتداء ـ لم تخضع لأى قوة خارجية من جهة القارة طوال التاريخ فيما عدا بعض فترات من السيطرة الصينية . والفضل فى ذلك يرجع الى طبيعتها الجبلية الغابية المنعزلة . الى أن جاء الاستعمار البحرى : فبدأ يحوم حول المنطقة منذ القرن السابع عشر حين بدأ يعمل فى شبه القارة الهندية ، الا انه لم يتدعم الا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكانت القوى الاستعمارية هنا هى بريطانيا وفرنسا ، وقد بدأ صراعهما المتبادل فى الهند حتى اذا انتهى فيها انتقل الى الهند الصينية ليصبح هو النغمة السائدة فى كيانها السياسى

---

(١) Church, Modern Colonisation, p. p4.

(٢) G.T. Renner, Africa : A Study in Colonialism, in World Political Geog., ed. Pearcy & Fifield, N.Y., 1951, p. 411.

بعد انجهت فرنسا الى الهند الصينيه نتيجه لطردها من الهند وتعويضا عنه ، واستطاعت منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اواخره ان تكون لنفسها مستعمره الهند الصينية الفرنسية باقسامها المختلفة . اما بريطانيا فقد تبعتها امتدادا لوجودها فى الهند . فمن هنـــاك انساحت تلقائيا الى بورما حيث كونت مستعمرة ضمتها الى الهند حتى فصلتها فى اخريات ايامها بها . كذلك توسعت بريطانيا من الجنوب من سنغافورة التى اشترتها فى ١٨١٩ بأبخس ثمن والتى أصبحت قاعـــدة ونواة لاخضاع الملايو حتى اصبحت مستعمرة بريطانية خلال القرن ، لكن دون أن نتصل ارضيا ببورما (١)

وهكذا بقى بين شقى الرحى نواة شبه جزيرة الهند الصينية ـ سيام . فاصبحت هدفا لضغوط توسعيـة عنيفه من الشرق والغـــرب ، حتى اتفقت القـــوتان المتنافستان على « تحييدها » فى آخر القرن التاســع عشر (١٨٩٦) لتكون دولة حاجزة تحفظ التوازن بينهما وتمنع الاصطدام . وبهذا اصبحت ســيام ـ التى لم تستعمر قط من قبل فى التاريخ ـ الوحدة الوحيدة فى جنوب شرق آسيا التى نجت من الاســتعمار الاوربى الحديث ، ومن هنا غيرت اسمها الى تايلاند اى ارض الاحرار . ولكن دور الدولة الحاجزية هو تقليديا دور المضاربة stalemate بين القطبين المتاخمين وذلك حتى تحفظ استقلالها (٢) . وهكذا كان . فقد ظلت تايلاند مسرحا للمؤامرات الاستعمارية والدســائس المزمنـة ، فكانت بمثابة « أفغان موسمية »

(١) Cressey, Asia's Lands & Peoples, pp. 494 ff.
(٢) Ibid., p. 509.

ولا بد ان نشير هنا الى الصين فى مجال النشـــاط الاستعمارى الاوربى فى الشرق الاقصى ، فاستعمار هذا العملاق ـ نائما أو غير نائم ـ لم يكن قط مجال تفكير الاستعمار الاوربى ، وهو فى الواقع احد منطقتين اثنتين فى العالم كله (ثانيتهما هى شرق الشرق الاوسط) افلتتا من الاستعمار بشكله المطلق (١) . ولكن توغل النفوذ الاجنبى كان ممكنا على السواحل ، وبالفعـل أرغمت القوى الاوربية الصين على فتح أبوابها وموانيها للنفوذ والامتيازات الاجنبيـــة . وذلك بعد حرب الافيون فى أربعينات القرن التاسع عشر . وكنتيجة لهذا انتزعت بريطانيا هونج كونج ، وظهرت مناطق الامتيازات المعروفة Extra-territorialities ومنذ ذلك الحين كانت سـياسة القوى الاوربية هى الابقاء على الصين كمجال مفتـــــوح لنفوذها جميعا ، وهى ما تعرف « بسياسة البـــاب المفتوح » (٢)

اما فى الاوقيانوسية ـ هذا الارخبيل السديمى المترام كنهر مجرة فى غرب الهادى ـ فقد كان مجالا ســـــهلا للسيطرة البحرية الاوربية فى القــرن التاســع عشر . فحوالي منتصف القرن كانت فرنسا قد استولت على مجموعة من الجزر اهمها نيوكاليدونيا . . بينما تأخرت نيوهبرديز الى العقد الاول من القرن الحـــالى حين اقتسمتها فرنسا مع بريطانيا . والى الشـــمال كانت اسبانيا قد وضعت يدها على جزر كارولين وماريانا فى العقد السابع من القرن ، بينما استولت المانيا على جزر مارشال فى العقد التالى . ولكن بعد الحرب الاسبانية ـ

---

(١) Cole, p.

(٢) Dorothy Woodman, A.B.C. of the Pacific, Penguin Books, 1943, pp. 34-5.

الامريكية فى نهاية القرن باعت اسبانيا جزرها لالمانيا فيما عدا جوام التى آلت الى الولايات المتحدة . ثم فقدت المانيا بدورها تلك الجزر لليابان بعد هزيمتها فى الحرب الاولى ، الى أن فقدتها اليابان بدورها للولايات المتحدة بعد هزيمتها فى الحرب الاخيرة (١)

العالم العربى (٢)

قبل الاستعمار الحديث ، يحسن ان نذكر حالةخاصة وشاذة من الاستعمار الوسيط عرفها العالم العربى ولم تزل تعشش فى كيانه السياسى حتى اليوم . تلك اعنى جيوب الاستعمار الاسبانى فى سبتة ومليلة التى اقتطعها فى اخريات القرن الخامس عشر ، بل وبالتحديد قبيل خروج العرب من الاندلس ذاتها ! فهذا على شدة ضآلته اقدم استعمار أوربى فى العالم العربى اطلاقا حيث يبلغ الآن خمسة قرون ويعاصر بذلك أقدم استعمار برتغالى فى افريقيا المدارية . وهنا وجه الخطورة ، فقد تحولت اغلبية السكان فى هذين الاسفينين القزميين الى اسبان مسيحيين ، تدعى اسبانيا لذلك أنهما جزء لا يتجزأ من التراب والتراث الاسبانى !

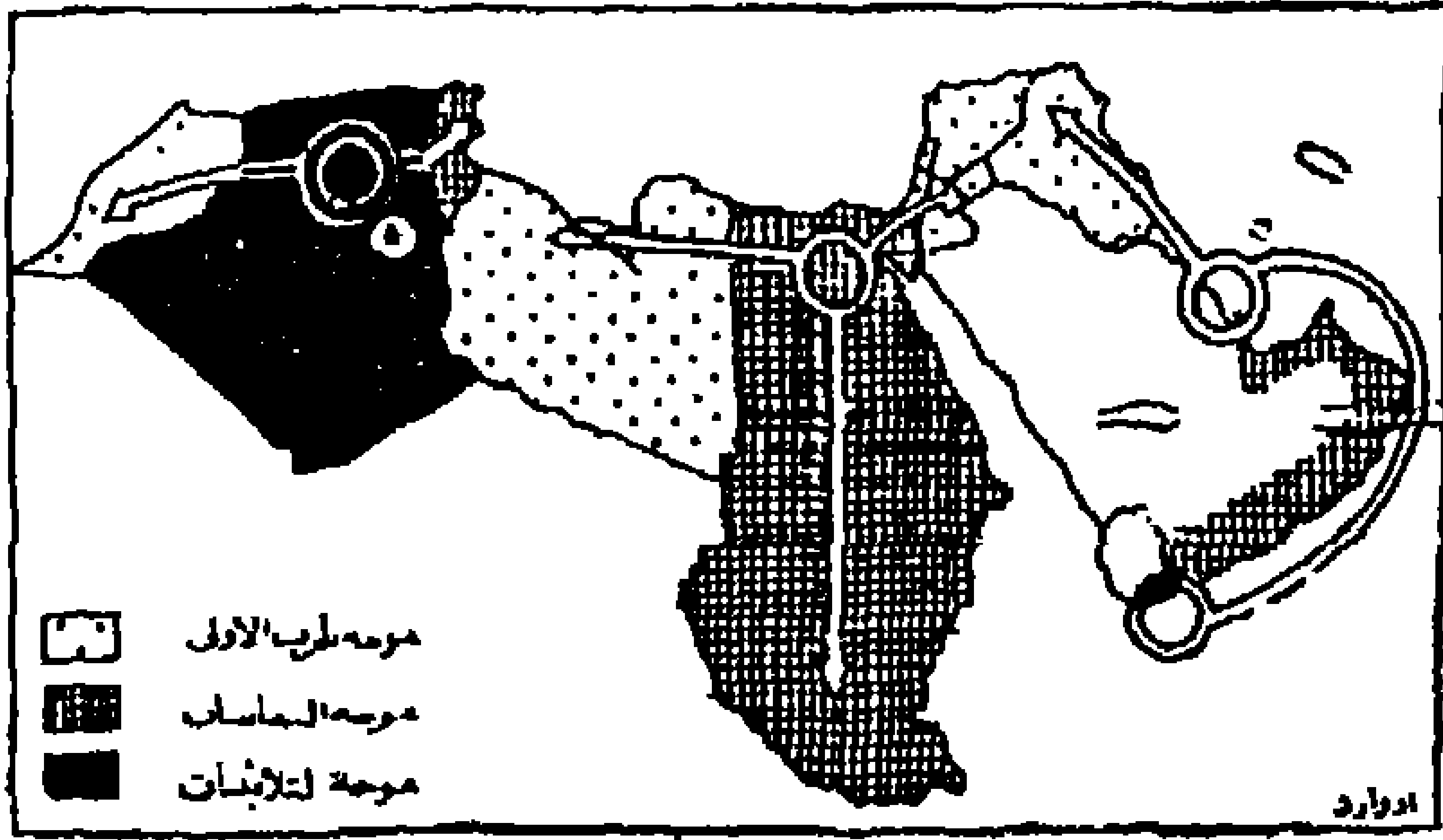
أما عن الاستعمار الحديث ، فان الزحف الاستعمارى فى العالم العربى لم يأت دفعة واحدة ، بل يمكننا بالقياس الى منطقة شاسعة مثل افريقيا المدارية ، ان نقول ان زحف الاستعمار فى العالم العربى كان بطيئا متسكعا . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة الا فى مدى ٩٠ عاما من ١٨٣٠ الى ١٩٢٠ . وقد تم هذا الزحف فى ثلاث

---

(١) الجيوبولتيكا . جـ ٢ . ص ٢٠ ، ١٧٦

(٢) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ص ٢٦ ــ ٣١

موجات رئيسية واضحة التحديد . ولم تنته كل موجة فى تاريخها تماما بل لها ما بعدها من توسيع وتعميق بحيث تؤدى نهايات كل موجة الى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجةلاحقة اوسع انتشارا .ونطاقا من سابقتها



شكل (١٦) موجات الاستعمار فى الوطن العربى
لاحظ نقط الارتكاز كبؤرات للتوسع والتشعع

فاما الموجة الاولى ففى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر فى يد الاستعمار الفرنسى فى ١٨٣٠، وعدن فى يد البريطانى فى ١٨٣٩ . ومنذ ذلك الوقت أخذ الاستعمار البريطانى يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعا حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن

وجاءت الموجة الثانية فى الثمانينات حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر الى تونس فى١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ . وفى العقدين التاليين استطاعت بريطانيا ان تتخذ من مصر قاعدة للتوسع فى السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تماما

الموجة الثالثة والاخيرة فى العقــــد الثانى من القرن

الحالى قبل وفى اثناء الحرب الكبرى الاولى . وقد بدات بانقضاض ايطاليا على ليبيا واقتطاعهـا من « الدولة العلية » العاجزة فى ١٩١١ ــ ١٩١٢ . وفى نفس الوقت بدات فرنسا تتوسع من الجزائر غربا فى مراكش لتنفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤ . أما فى المشرق العربى فقد كانت هذه الموجة اخطر فترة فى تاريخه ، فقد سقط أغلبه ــ الهلال الخصيب ــ للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح . فاستولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والاردن والعراق

من هذه الصورة نرى ان الاستعمار بدأ فى كل موجة ساحليا ثم توسع تدريجا نحو الداخل ، فتلك طبيعة الاستعمار البحرى والضبط الساحلى . وفى كل موجة اتخذ الاستعمار من اول مستعمرة نقطة ارتكاز يتوسع منها دائريا او خطيا : دائريا كما حدث من مصر الى السودان ففلسطين والاردن ثم فيما بعد الى ليبيا ، وخطيا كما حدث من الجزائر الى تونس فمراكش حيث ــ كما قيل ــ أفطرت فرنسا بالجزائر وتغدت بتونس وتعشت بمراكش !

كذلك نرى تناظرا وسمترية نادرة بين الزحف فى المشرق العربى والمغرب . ففى كل موجة يسقط عضو أو اكثر فى كل من القطاعين معا بحيث يصبح لدينا هذه الأزواج المتناظرة على الترتيب الزمنى : الجزائر ــ عدن والجنوب العربى ، تونس ــ مصر والسودان ، مراكش وليبيا ــ الهلال الخصيب

وعدا هذا فسنرى أن العالم العربى الافريقى كان أسبق وقوعا فى مجموعه فى يد الاستعمار من العالم العربى الاسيوى . والجزء الاكبر منه وقع بالفعل فى

القرن الماضى ، بينما لم يسقط نظيره الأسيوى الا فى القرن الحالى . هذا ولم يفلت من الاستعمار فى العالم العربى كله الا قطاع ضئيل فى الجانب الاسيوى هو قلب الجزيرة العربية وقلعة اليمن ، وكل منطقة فقيرة فىذاتها صحراوية او جبلية، وداخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحرى

واخيرا نرى أن الاستعمار اللاتينى فىالمغرب اخذ ترتيبا مناظرا ومقابلا للاوطان « الأم » على الساحل الشمالى للبحر . فالاستعمار الاسبانى فى مراكش الخليفية او الريف يواجه اسبانيا والايطالى فى ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما فى الوسط يقابل النطاق الفرنسى فرنسا فى القارة

اما اذا وضعنا قوى الاستعمار فى العالم العربى فى الميزان ، فان الجدول الآتى يعطى النسبالتى اقتسم بها المنطقةكما كانت حوالىمنتصف القرنالحالى قبيلالتحرير

الاستعمار	المساحة بالكم ٢	٪	السكان بالمليون	٪
البريطانى	٤ر٦٥٤ر٧٠٠	٤١ر٦	٣٨	٤٨
الفرنسى	٢ر٩٢٢ر٠٠٠	٢٦ر٢	٢٧	٣٤
الايطالى	١ر٧٥٩ر٥٠٠	١٥ر٧	١	١ر٢
الاسبانى	٥٠ر٠٠٠	٠ر٤	١ر٧	١ر٤
الوحدات المستقلة	١ر٧٩٥ر٠٠٠	١٥ر٥	١١ر٥	١٥ر٤

وسيبدو أن نحو سبعة اثمان الوطن والشعب العربى (٨٥ ٪) سقطت ضحية للاستعمار ، وبالأخص للاستعمار البريطانى والفرنسى ــ الاستعمار الكبير ــ فكانا معا يسيطران على ثلثى مساحة العالم العربى (٦٧ر٨ ٪) واكثر من ثلاثة أرباع الأمة العربية (٨٢ ٪).

وكانت بريطانيا بالذات هى القوة الاستعمارية السائدة : نصف السكان وخمسا المساحة ، وبذلك تعادل الاستعمار اللاتيني جميعا من حيث المساحة تقريبا ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان

اما الاستعمار الصغير ففيه يتقارب الاسباني والايطالي سكانا ، ولكن يختلفان جدا في المساحة . فالاول شريط كثيف نسبيا ، اما الثاني فبه أعلى نسبة من المساحة الى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك فى العالم العربى مساحة تزيد على مساحة أوربا باسرها ، وفيما عدا اسبانيا فكانت كل قوة استعمارية تملك مساحة تبلغ أضعاف مساحتها هى نفسها عدةمرات!

هذه صورة عامة للاستعمار الغربى فى الوطن العربى كما مارسته القوى الاوربية ، ولكنها لا تكتمل الا بالحديث عن حالة خاصة واخيرة من الاستعمار مكنت له وخلقته فقط تلك القوى ، أما الذى مارسته فطائفة عالمية معينة ، ونعنى بذلك الاستعمار الصهيونى فى فلسطين المحتلة باسم اسرائيل . وليس ها هنا من مجال الا لتحديد الهيكل الاساسى لطبيعة اسرائيل وموقعها بين انماط الاستعمار . ففى ايجاز شديد ، ماذا تعنى اسرائيل علمياوموضوعيا بالنسبةالى طالب الجغرافياالسياسية؟

تتعاصر بدايات الحركة الصهيونية مع آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الاوربى الحديث وهى الموجة المدارية وخاصة منها التكالب على افريقيا ، ولكن تحققها يتعاصر مع نهايات عصر الاستعمار بوجه عام . فلقد تعلقت الصهيونية باذيال الموجة المدارية لتركبها ولتستثمر المناخ السياسى الاستعمارى العام وصولا الى تحقيق أهدافها الخاصة فى انشاء « الدولة اليهودية » . والصهيونية من بدايتها حركة سياسية فى

الحقيقة (الصهيونية السياسية) ، ولكنها تقنعت منذ اللحظة الاولى بالدين (الصهيونية العاطفية) ، لتخلق من « رؤيا العودة الى أرض الميعاد » ايديولوجية تاريخية ودينية تجمع يهود الشتات حولها ، وكذلك قناعا وشعارا تخفى به حقيقة اهدافها عن العالم الخارجى . ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومى فى غير فلسطين

ولقد كان من المستحيل منذ البداية أن يتحقق الحلم الا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، ومن هنا التقت الامبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقه اياه وضمانه لبقائه . وعلى طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالامبريالية بحسب تحرك مركز الثقل فى زعامة الامبريالية ، فكانت بريطانيا هى التى خلقت الوطن القومى منذ الحرب العالمية الاولى ، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية

وقد مر تكوين اسرائيل بمرحلتين : التغلغل ثم الغزو . فبعد عدة موجات من التسلل والتسرب المبعثر حتى ما قبل الحرب الاولى ، فتح الانتداب الباب للهجرة الى الوطن القومى ليبدأ تغلغل حقيقى خلق جسما خطيرا من أقلية يهودية كبيرة وانتزع موطىء قدم بسياسة شراء الاراضى المخططة من قبل . وبهذا وذاك تكونت نواة « اليشوف » اى المجتمع اليهودى فى فلسطين ، ونجح فى خلق دولة داخل الدولة . وقد اتسمت هذه المرحلة بالدموية فى شكل حرب عصابات

يهودية شجعها الانتداب بالسلاح ، فى وجه مقاومة عربية ثورية قاومها الانتداب بالقوة

أما مرحلة الغزو فتم فيها الاغتصاب الشامل بعد انسحاب الانتداب — متواطئا — فى ١٩٤٨ ، وعن طريق حرب ضد العرب يسميها اليهود بحرب الاستقلال (عن الاستعمار البريطانى) أو حرب التحرير (من « الاستعمار العربى » ، كذا ..) . وفى هذه الحرب ، التى حدد مصيرها سياسة التسليح ومناورات السياسة من جانب الدول الاستعمارية ، طرد نحو مليون من العرب الاصليين خارج الارض المحتلة ، بينما تدفقت الهجرة الكبرى لتجمع فى النهاية نحو المليونين من الصهيونيين يمثلون حوالى ١٣٪ من اليهودية العالمية

وقد اعتبرت اسرائيل نفسها منذ ذلك الوقت « اسرائيل الصغرى » فقط ، على اساس أن هدفها المعلن هو « اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات . وفى سبيل تحقيق هذه الخطة ، قامت بحربين عدوانيتين اخريين مع الدول العربية فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، عملت فيهما بالتواطؤ مع دول الاستعمار الغربى ، ولكنها فشلت فى التوسع فى الاولى ، أما الثانية فلازالت المواجهة قائمة

تلك هى الحقائق الاولية البحتة فى قيام ووجود اسرائيل ، منها يمكن للجغرافى السياسى أن يحدد فى اطار موضوعية العلم المطلقة التشخيصات والنتائج الآتية :

فاولا ، اسرائيل — كدولة — ظاهرة استعمارية صرفة . فهى قد قامت على اغتصاب غزاة أجانب لارض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيا أو جنسيا ، وان زعموا عكس ذلك تماما ودواما . دينيا ، لان رؤيا العودة الخرافية والوعد الاسطورى المزعوم لا أساس لهما او سند من الدين والا لجازت نفس العودة لبقية الاديان ، فضلا

عن انه ليس على اصحاب دين اى التزام بدعاوى اصحاب دين آخر . وتاريخيا ، لان علاقة اليهود بفلسطين انقطعت تماما منذ نحو ٢٠ قرنا . وجنسيا ، لان هناك « يهودين » فى التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينهما اى صلة انثروبولوجية مذكورة ، ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين اساسيتين طوال ٢٠ قرنا من الشتات فى المهجر : خروج اعداد ضخمة منهم بالتحول الى غير اليهودية ، ودخول أفواج لا تقل ضخامة فى اليهودية من كل أجناس المهجر . واقترن هذا بتزاوج واختلاط دموى بعيد المدى ، انتهى بالجسم الاساسى من اليهود المحدثين الى ان يكونوا شيئا مختلفا كلية عن اليهود القدامى ، ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى اسرائيل التوراة بأى نسبة ذات بال

وبهذا فعودة اليهود الى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . واسرائيل بالتالى تمثل جسما غريبا ودخيلا مفروضا على الوجود العربى ، أبدا غير قابل للامتصاص ، ولكنه حتى الان غير ممكن اللفظ ، وبين هذا وذاك يبقى عنصر اضطراب وتهييج ومضاعفات سياسية . وبتعبير آخر يبقى بؤرة حرب كامنة ومفجر صدام استعمارى ـ تحريرى مسلح

ثانيا ، اسرائيل استعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة . فهى تقوم على تجميع اليهود ، واليهود فقط ، فى جيتو سياسى واحد ، ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء . واذا كان من الواضح أنها بذلك تمثل شذوذا رجعيا فى الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدول الدينية ، فانها فى الواقع تعيد الى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطق

العصور القبلية المتحجرة . وهى كذلك تفرض من طرف واحد حربا دينية ليس الطرف الاخر مسئولا عنها بل هو يرفضها ، واسرائيل تبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى منطقة لا تعرف الا التسامح الدينى تقليديا

ثالثا ، اسرائيل استعمار عنصرى مطلق . فرغم أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأى مفهوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الاجناس فى العالم كما يدرك أى أنثروبولوجى ، فان فرضهم لانفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسا ، وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية

وتأخذ هذه العنصرية ـ كما تحب اسرائيل أن تراها ، سواء صح ذلك أم لم يصح ـ صورة مليونين من «البيض» وسط بحر من « الملونين » العرب . فهذه ـ مباشرة ـ عنصرية بيضاء . ولكنها أيضا عنصرية بيضاء نازية بالدقة فهى تعد نفسها « الشعب المختار » على غرار « المانيا فوق الجميع » أيام الهتلرية . وبالفعل ، وباعتراف الكثير من المحايدين ، يبدى وجود اسرائيل منذ نشأتها كل ملامح العنصرية النازية . وهنا تتجسد سخرية المفارقات الاستعمارية : فقد تلقت اسرائيل اضطهاد العنصرية النازية فى أوربا بكل مرارة التجربة ، ولكنها انما تعلمت الدرس لتنقله وتعكسه مضاعفا على العرب فى فلسطين ، وهنا تتضاعف المفارقة سخرية لأن العرب ـ وحدهم من بين كل المجتمعات ـ هم الذين لم يضطهدوا اليهود عبر التاريخ

رابعا ، اسرائيل قطعة من الاستعمار الاوربى عبر البحار . فمع أن اسرائيل منصفة عدديا بين اليهود الغربيين

الاشكناز واليهود الشرقيين السفارديم ، فان القيـــــادة والسيطرة المطلقة للنصف الاول ، وهي تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية • ولو حققت اسرائيل أهدافها في تهجير يهود الشتات جميعا ، لاصبحت وجودا غربيا أساسا بحسب الجنس والحضارة وبحسب التطلعات والعلاقات • انهـــا جزيرة أوربية على ضلوع اسيا ، ومستعمرة غربية فيقلب الوطن العربي ، وذلك جنسيا وحضاريا على السواء . وككل دعاوى الاستعمار الاوربي عبر البحار ، وتبريرا لاغتصابها لم تتورع اسرائيل عن أن تدعي رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت نفسها واحة التقدم في صحراء الرجعية العربيـة وجزيرة الصناعة في بحر التخلف الشرقي •• الخ

خامسا ، اسرائيل استعمار سكني في الدرجة الاولى . فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى في القرن التاسع عشر ، الا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد في القرنين الســـابع عشر والثامن عشر وسعى الى التوطن الدائم في بيئات معتدلة شبه اوربية المناخ • ولعل استعمار الجزائر كان اقـــرب سابقة لهـــا تاريخيا ، ولكنها تظل تمثل اخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطاني في العالم كله • واذا صح أن نميز في الاستعمار الســـكنى للمعتدلات بين النمط اللاتيني الذى يضيف المستعمرين الى الاهالي الاصليين بلا ابادة عامة كما في امريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على احلال المستعمرين محل الاهالي الوطنيين بالابادة أو الطرد كما في استراليا وجنوب افريقيا والولايات المتحدة ، فان اسرائيل تقع بالتأكيد في النمط السكسوني

ومع ذلك فهي تتميز عنه بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى ، فهي تجمع

بين اسوأ ما في هذه النماذج ، ثم تضيف اليه الاسوأ منه • هي كاستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من ابادة الجنس ، وهي كجنوب افريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسي ، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنهـــا طردت كل السكان الاصليين خارجها تماما ليتحولوا الى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها • واسرائيل بهذا كله اعلى ــ ام نقول أدنى ؟ ــ مراحل الاستعمار السكنى

شكل (١٧) الخطـــــر الصهيوني حلم اسرائيـــل الكبرى : امبـــــراطورية صـــــهيون : ملـــكوت اسرائيل الثـــــــالث

سادسا ، اسرائيل رغم ذلك تجسيم للاستعمار المتعدد الاغراض ، فهى تمثل استعمارا مثلث الابعاد • فعـــــدا الجانب السكنى ، فانها تمثل أيضا استعمارا استراتيجيا واستعمارا اقتصـــاديا • فوجودها غير الشرعى رهن من البداية الى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى ــ وهذا تدركه جيدا ــ الا بالدم والحديد والنار • ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها ، و « أمن اسرائيل » هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقدتحددفىأن اصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها ، وهو مايعبر عنه «بعسكرة» اسرائيل

أما أنها استعمار اقتصادى ، فهذا أساسى فى كيانهـــا

منذ أن اغتصبت الارض وما عليها من ممتلكات ،فالاستعمار الاسرائيلي عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره · وهي من هذه الزاوية اســـــتعمار طفيلي ابتزازي ابتلاعي بحت بطبيعة الحال · ومن بين تلك الصفة العسكرية وهذه الجذور الطفيلية ، تخرج الصفة الفاشية الواضحة في كيان اسرائيل كنتيجة منطقية للغاية

سابعا ، اسرائيل استعمار توسعي أساسا · واطماعها الاقليميـــــة معلنة بلا مواربة ، وخريطه اسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل Erets Israel » هو شعار الامبراطورية الصهيونية الموعودة · وهدف اسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم في نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم الا بتفريغ المنطقة من اصحابها اما بالطرد واما بالابادة · وبطبيعة الحال ، فلا سبيل الى هذا الا بالحروب العدوانية الشاملة · ونحن بهذا ازاء أخطبوط سرطاني فى آن واحد ، ازاء عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أى آن

وهنا نجد أن الصهيونية تكرر فى الواقع قصة النازية بحذافيرها · فكما كانت المانيا تطالب « بمجال حيوى » ، تتكلم اسرائيل عن اسرائيل الكبرى · وكما كانت المانيا تدعى أنها « شعب بلا مجال » ، لا تخفى اسرائيل منذ وحسب هرتزل انها ترى في المنطقة العربية « مجالا بلا شعب » · وكما كانت المانيا تحث على زيادة النســـــل كمبرر لادعاءاتها الاقليمية ، تحث اسرائيل يهود العالم على الهجرة اليها · وتكتيك افتعال ضغط سكانى متورم متفجر تبريرا للتوسع الاقليمى ،هو تكتيك الامر الواقع Realpolitik كما سمى فى المانيا ، fait accompli كما عرف عن اسرائيل · وفى النهاية وفى النتيجة ، فقد تعين فى حالة اسرائيل كما كانت حالة المانيا ، أن تصبح حدودها هى

جيوشها ، وجيوشها هي حدودها • واذا كان لهذا من معنى ـ أى معنى ـ فهو على الفور أن الشرق العربى لا يمكن أن يتسع للعرب ولاسرائيل معا ، فوجود أحـــدهما نفى لوجود الاخر ، ولكي يبقى أحدهما لا بد أن يذهب الاخر • أما من يبقى ومن يذهب فأوضح ـ علميا ـ من ان يذكر

ثامنا ، واخيرا ، فان اسرائيل من البداية الى النهاية استعمار من الدرجةالاولى والثانيه معا ، استعمار بالاصالة والوكاله فى نفس الوقت • ونقصد بذلك أن اسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى • فبالنسبة الى الصهيونيه العالمية ، فان الدولة اليهودية ملجأ من الشتات وأخطاره المحتملة أو الموهومة ـ بوليصة تأمين كما وصفت ـ ووثيقة لاستثماراتها المالية الاحتكاريه • ولكن تحقيقها فى البداية وبقاءها بعد ذلك لم يكن ممكنا بغير المشاركة الكاملة للاستعمار العالمى الذى تطابقت الى حد التماثل خططه ومصالحه • فهى بالنســـبة اليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ، ورأس جسر ثابت استراتيجيا ، ووكيل عام اقتصاديا ، أو عميل خاص احتكاريا ، وهى فى كل أولئك تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها واسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير • واسرائيل بهذا المعنى دولة مرتزقة لا شك ، تعمل مأجورة فى خدمة الاستعمار العالمى ، بمثل ما هى صنعه وصنيعته وربيبته

هذا الالتقاء والتداخل العميق بين مصـــالح الصهيونية والامبريالية العالميتين هو مفتاح الوجود ـ والمصـــــير ـ الاسرائيلى برمته • وهو الذى يفسر كثيرا من مظاهر الغرابة والتفرد فيه • فالاستعمار العالمى هو الذى خلق اسرائيل

بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا . ولذلك فانها تكاد تكون الحالة الوحيدة فى العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأولى طلائع الاستعمار الجديد . فهى كجسم استعمارى واقع تمثل استعمارا قديما ، ولكنها بدور الاستعمار العالمى فى كيانها وأمنها تمثل أداة وقاعدة للاستعمار الجديد . كذلك فانها ـ اسرائيل ـ تكاد تكون الارض المشتركة الوحيدة تاريخا ولقاء ، مصالح ومصاير ، التى التقى عليها الاستعار القديم والجديد بغير صراع أو تنافر ، فقد كانت بريطانيا (الاستعمارالقديم) هى التى خلقتها ،ولكنهاسلمتها بعدذلكطواعيةلوصاية أمريكا (الاستعمار الجديد). فكانت الاولىبمثابة الأبالبيولوجى ،والثانية بمثابةالأبالاجتماعى

واذا كانت اسرائيل ملتحمة كلية فى الوقت الحالى بالولايات المتحدة ، فانه ليس من الواضح تماما من الذى يستعمر من : فاسرائيل تكاد تبدو اليوم وكأنها أمريكا فى الشرق الاوسط ، أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل ، أو على الاقل قاعدة أمريكيه ـ أكبر قاعدة أمريكية ـ عبر البحار ، الا أنها قاعدة بدرجة دولة والا أن كل طاقمها من اليهود . وفى نفس الوقت تمارس الصهيونيه العالمية لحساب اسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب على الولايات المتحدة ، وأيا ما كان ، فلا شك أن اسرائيل هى أخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى ، ولعلها أعلى مراحله فى الوطن العربى ، بمثل ما أن الصهيونيه العالمية هى أعلى مراحل الامبريالية العالمية

الفصل الثامن

صراع القوى في العصر الصناعي

بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته ، وقد اجتمع انقلابان خطيران : أولهما انتقال السيادة العالمية نهائيا الى بريطانيا بعد ان أزاحت فرنسا الى الابد عن الصدارة ، وثانيهما بدء الانقلاب الصناعي في بريطانيا الامر الذى أكد زعامتها في العالم بلا منافس حقيقي . ومنذ ذلك ولمدة قرن تقريبا ظلت القوة السياسية والمادية في العالم احتكارا لبريطانيا ، وكان القرن التاسع عشر بحق قرن السيادة البريطانية ـ قرن بريطانيا

ورغم ان فرنسا ظلت تناوئها وتتصدى لها ، فلم يكن هذا الا من موضع اليد السفلى ، الى ان اضطرت بعد قرن كامل أن تعترف بالامر الواقع لتسوى خلافاتها معها في الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ولتتحول في النهاية الى شريك ثان لها وحليف ، أو بالاحرى الى صديق لدود ، لا سيما منذ بدأ منافس خطير يهدد الاثنين ، ولكن فرنسا بصفة مباشرة ، ونعنى به ألمانيا

هنالك انطلقت بريطانيا تتفجر وتتواثب ، بل وتعربد حول العالم لتستكمل اضخم واوسع امبراطورية بحرية

عرفها التاريخ . ففى قمة توسعها وصلت الامبراطورية الى ان تغطى ربع مساحة اليـــابس ، وأن تحكم ثلث سكانه ، او نحو اكثر من ١٤ مليون ميل مربع ، ١٠٠٠ مليون نسمة على الترتيب . وابرز حقيقة فى هـــذه الامبراطورية الماموث ، هى بلاشك تبعثرها فى كل اركان العالم فى « جزر » سياسية منفصلة متقطعة تفصلها آلاف الاميال من البحار والمحيطات ، ولا يكاد محيطها يقل ـ عمليا ـ عن محيط الكرة الارضية

ومن هنا فقد كانت امبراطورية عالميـــة بكل معنى الكلمة : لها اعضاء تمثلها فى كل قارة بما فى ذلك أوربا نفسها ، وتكاد تترامى عبر كل خطوط الطول والعرض فى العالم (٣٢٠ درجةطولية × ١٣٠ درجة عرضية !) (١) وتمتد بلا استثناء فى كل المناطق المناخيـــة والانواع النباتية والبيئات الطبيعيةوالاقاليم والانماط الجغرافية، كما انتظمت تقريبا كل الاجناس الرئيسية والديانات والى حد ما اللغات (٢) . باختصار كانت متحفا منثورا لعينات



شكل (١٨) الامبراطورية البريطانية فى اوجها .. النموذج المثالى للاستعمار البحرى : ربع مساحة العالم : الف مليون نسمة : انتشارمطلق حـــول الكرة الارضية : خمسة احزمة بحرية تربط شتاته .

(١) Whittlesey, p. 111.

(٢) البجيربولنيكا ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩

من الكرة الارضية والعائلة البشرية « لا تغيب عنه الشمس »

ومثل هذه الامبراطورية الدائريه المترامية كانت بطبيعة الحال — ولم يكن لها بد من أن تكون امبراطورية قوه بحر فى الدرجه الاولى ، بل الحقيقه انها كانت بالضروره نتج السفينة البخارية وامبراطورية عصر البخار ، بغيرها ما كان يمكن ان تقوم ، واذا قامت فبغيرها ما كان يمكن ان تستمر . ولهذا كانت خطوط الملاحة هى شرايين الامبراطورية وخطوط الحياةبالنسبة لها . وكان الهيكل الذى يمسك بهذه المستعمرات المبثوتة يتألف من خمسة خطوط تسمى احزمة الامبراطورية Girders of Empire اهمها بلا شك طريق السويس البحرى الداخلى الذى يشق قلب الامبراطورية الفعال ، ثم طريق الراس الدائرى البديل . والى الغرب تنبعث الخطوط الثلاثة الاخرى ، واولها خط كندا والولايات المتحدة ولم يكن يقل اهمية عن طريق السويس ، وهو اليوم أهم ما تبقى لبريطانيا . والطريق التالى هو طريق بنما — هاواى — استراليا ونيوزيلند . اما الطريق الاخير فطريق جزر فوكلند بحذاء شرق أمريكا الجنوبيه

وعلى هذه الشبكة الاخطبوطية ترتكز الامبراطورية على مجموعة من القواعد العسكرية البحرية التى تمثل نقط او عقد القوة الاستراتيجية فيها ، والتى تعتمد اساسا على الضبط والاستعمار الساحلى marginal control ومع مقدم عصر الطيران ازدوجت هذه الشبكة فى الواقع بشبكة جوية مركبة فوقها ، كما تكملها فى بعض حلقاتها شبكة طرق وسكك حديدية على القارات (١)

(١) L.M. Alexander. World Political Patterns, Chicago, 1957.

فى هذا الاطار اكتملت سيادة بريطانيا البحرية الى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية فى العالم ، واصبحت عملية مراقبة البحار العليا والاشراف عليها وظيفة بريطانية بحتة ، وتحققت بهذا وحدة المحيط العالمى كاكمل واقوى ما يكون ، ولا نقول أصبح المحيط العالمى بحيرة بريطانية ! ولقرن برمته لم تستطع قوة ما ان تتحداها . غير أن هذا كان فى الواقع دورا « بوليسيا » لا شك فيه (١) ، وفى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم « السلام البريطانى «Pax Britannica » الذى فرضته طوال ذلك القرن وظلت تفخر به طويلا ـ وتضليلا

وفى ظل هذه الاستراتيجية البحرية المدرعة استطاعت بريطانيا أن تصبح تاجر العالم الاول مثلما جعلها الانقلاب الصناعى مصنعه الاكبر . ففى اقتصاديات آسيا وافريقيا كان لها الدور الاحتكارى المطلق ، بينما كانت هى وحدها المسيطر الرئيسى على الاستثمارات والتمويل فى امريكا الجنوبية . وفى النتيجة أصبحت بريطانيا تستمد من هذا الدور الجزء الاكبر من قوتها وثرائها المادى بدرجة تتضاءل بجانبها كثيرا ، مواردها وامكانياتها الذاتية والبحتة

ولم يكن غريبا لذلك أن تضاعف سكانها اربع مرات فى ذلك القرن رغم الملايين التى ارسلت الى ما وراء البحار خاصة امريكا (٢) . وفى حمى هذه القوة العسكرية المطلقة والرخاء الاقتصادى النادر ، لم يكن غريبا ـ اليس كذلك ؟ ـ أن يصل الصلف والغرور الانجليزى الى منتهاه ، وأن يظن الاستعمار البريطانى أن الأرض قد دانت له ، وأن يتصور نفسه مركز الكون . بل لقد تساءل بعضهم أيامها بالفعل ـ كذا ـ عما اذا كان « الله

(١) الجيوبولتيكا ، جـ ٢   (٢) فوست ، ص ٢٧)

بريطانيا ? «Is God British • لقد وصل غرور القوة وعبادة الذات ، ودعك من واجهة النهكم ، الى حد الكفران!

بيد ان المهم ان بريطانيا انما بنت دورها هـذا على اساس نظريات ومدارس اقتصادية معينة تبنتهـا او خلقتها هى حرية التجارة اولا وتخصص الانتاج ثانيا ـ ولو أن المبداين جانبان فى الحقيقة لشىء واحد . على ان الذى لم يعد فيه شك الآن حتى عند عتاة الامبرياليين البريطانيين هو أن تلك المبادىء أبعد شىء عن الحقيقة ، بل قلب صارخ هى للحقيقة . فحرية التجـارة دعوة تتخـفى وراء اعتى انواع الاحتكار القـائم على القوة العسكرية ، وهى كما قال بسمارك «سياسة الاقوى» . اما التخصص فوسيلة لحرمان المستعمرات من التطـور وللابقاء على تخلفها الى الابد بحجة الجغرافيا الطبيعية

والنتيجة ان اقتصاد « عصر بريطانيا » كان فىجوهره اقتصاد حرب ، واقتصـاد قوة ، وبغير الاسـطول وديبلوماسية الزوارق المسلحة ، كان مستحيلا ان تظهر « مدرسة مانشستر فى التجارة الحرة » ، وكانالسلام البريطانى المزعوم سلام قوة ، يقوم على الظلم والقهـر ويعتمد على التهديد بالحرب (١) • ومن هذه الحقيقـة بالذات ستنبعث جرثومة الحرب العالميـة الاولى كما سنرى بعد قليل

الولايات المتحدة

يبدا تاريخ الولاياتالمتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال فى عام ١٧٨٣ اى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقبيـل الثورة الفرنسية . فقد خرجت من هـذه الثورة على

(١) Democratic Ideals, pp. 107.

الاستعمار البريطانى برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة ومحددة بجبال الليجنى ثم فى مرحلة تاليـه بالمسيسبى ، وبقوة بشرية لا تزيد على الاربعة ملايين نسمة . فكانت تلك هى النواة النووية التى لم تلبث أن انفجرت فى نمو عارم لتصل فى النهاية الى ان تصبح اعظم قوة فى العالم . وفى هذا النمو والتاريخ تشبه الولايات المتحدة بعض خطوط عريضة من توسع الروسيا من ناحية ومن تاريخ بريطانيا من ناحية اخرى

فكما بدات الروسيا من النواة الاوربية غرب الاورال ثم انطلقت شرقا على حساب العناصر المغولية حتى الهادى ، انطلقت الولايات المتحدة من نواتها شرق الليجنى والابلاش والتى ظلت قابعة فيها اكثر من قرنين ، انطلقت بسرعة مماثلة ولكن فى اتجاه عكسى كصورة المرآة enantiomorph صوب الغرب حتى الهادى ، وعلى حساب السكان الاصليين من الهنود الحمر Amerinds . ولهذا فلو عد أحدهما « استعمارا » لوجب ان يعد الآخر كذلك . وكلاهما اذن حقق ابعادا قارية هائلة وتوسع توسعا قاريا بكل وضوح ، الا ان الروسيا بعد هذا لم تتعد قاريتها ، بينما قفزت الولايات المتحدة الى البحار والمحيطات المجاورة

أما مع بريطانيا ، فتاريخ الولايات المتحدة القصير يشبه فى مراحل توجيهه الجغرافى تاريخ بريطانيا الاكثر طولا . فقد مرت الولايات المتحدة – كبريطانيا – أولا بالمرحلة الاستعمارية حتى حرب الاستقلال ، ثم بالمرحلة القارية فى ايام لنكولن ، واخيرا بالمرحلة الجزرية حين توحدت تماما وأدركت وضعها بالنسبة للعالم القديم (١)

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦

ويمكن أن نتعرف فى توسع الولايات المتحدة (١) الى حدودها الحالية على ثلاث مراحل واضحة : مرحلة القارة ، مرحلة الهادى ، مرحلة الكاريبى . فالمرحلة القارية ١٧٨٣ ـ ١٨٥٠ ، حوالى النصف الاول من القرن التاسع عشر تقريبا ، بدأت بشراء لويزيانا ١٨٠٣ من فرنسا نابليون ، ثم بالاستيلاء على فلوريدا من اسبانيا فى ١٨١٩ ، ثم بضم تكساس (جمهورية النجم الاوحد) فى ١٨٤٥ من المكسيك (اسبانيا سابقا) . وبهذا وبذاك وصلت الجمهورية المتمددة من المسسبى الى الروكي ومن البحيرات الى خليج المكسيك . وبعد ذلك مباشرة سوت حدودها مع كندا البريطانية بعد صراع طويل حول أوريجون ١٨٤٦ ، ثم بنفس السرعةانتزعت كاليفورنيا من المكسيك فى ١٨٤٨ ، واستكملت آخر حدودها مع المكسيك بشراء رقعة صغيرة هى جيب جاسدن فى ١٨٥٣

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ظلت متقوقعة تتشرنق على نفسها فى حدود نواتها الاطلسية الضئيلة زهاء قرنين ، بينما اكتسحت بقية القارة فى نصف قرن فقط ، بل بالاحرى فى عقد واحد مفعم منذ ضم تكساس فى ١٨٤٥ ! كانما كانت سرعة الانقضاض وظيفة لطول مدة الكمون والاختمار . ومعناه ايضا أن الولايات المتحدة فى حدودها الحالية على القارة لا يزيد عمرها اليوم عن قرن لا اكثر

والمهم انها بذلك وصلت الى الهادى لتصبح دولة محيطين شاسعة الامتداد والرقعة ـ دولة قارة تقريبا . وكان أغلب هذا التوسع أشبه ما يكون فى فراغ ، وكانت

(١) جوبليه ص ٤٤ ـ ٥٢ ، الجيوبولتيكا ج ١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٧

طلائع التعمير الفعلى والهجرة (« اذهب غربا ايهـــا الشـاب » !) غالبا ما تسبق الضم السياسى الرسمى . كذلك سيلاحظ أن أكبر صراع فى هذا التوسع كان مع المكسيك التى تضاءلت وانكمشت رقعتها كثيرا بالتالى، ولهذا ستظل علاقاتها مع الولايات متوترة حتى العقود الاولى من القرن العشرين

ولا شك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم لهو طفـــرة كبرى فى تاريخ التوسعات السياسية . فقد كان من الممكن أن تنتهى الى أن تتقاسمها اكثر من دولة واحدة كما حدث فى أمريكا الجنوبية . بل لقد بدات الدولة اتحادا كونفدراليا قبل أن تتحول الى اتحاد فيدرالى . ومن قبل ذلك شـــك الكثيرون فى امكان قيام دولة واحدة على هذا المقيـاس المديد بل المريد . ولكن بساطة التركيب الجغرافى نسبيا وانفســاح الوحدات الطبيعية كثيرا بالمقـــارنة بأمريكا الجنوبية ، مع اتفاق فترة التكوين الســياسى مع عصر القطار ، هى من العوامل التى تفسر هذه الوحدة القارية النادرة

وفى هذا المعنى ، يصح أن نقرر أن الولايات المتحدة هى من صنع القطار ، وبنت عصر البخار . وليس من الصدفة أن الخطوط الحديدية عبر القارية بدات تظهر ثم تتضاعف فى الولايات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولو قد سبق تكوين وتبـلور الولايات سياسيا عصر السكة الحديدية كما حدث فى دول أمريكا الجنوبية ، أو لو قد تأخر هذا العصر عما حدث بالفعل، فلربما كانت الولايات المتحدة اليوم عدة دول لا دولـة واحدة . ولكن الواقع أن مساحة الولايات التى بدت أكثر مما ينبغى فى البداية ، يتضـــــح اليــوم أنها جاءت

من المقيـــاس الامثل بالنسبة لنظم النقل والمواصـــلات الحديثة (١)

هذا عن مرحلة القارة . أما عن مرحلة الهادى ، فقد اقتيدت الولايات المتحدة تلقائيا الى اضخم محيط بعد ان اصبحت أضخم دولة تطل عليه . وتحتل المرحـلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فبعد الحـرب الاهلية بدات الولايات بشراء آلاسكا وجزر الوشيان من الروسيا فى صفقة بخسة عدت فى ذلك الحين حمـاقة سميت ـ باسم مهندسها ـ حماقة سيوارد Seward Folly ـ على أساس أنها ليست الا « صندوقا من الجليد » . وسنرى فيما بعد مفارقة مثيرة حين يتحول هـــذا الصندوق من الجليد الى صـــندوق من الذهب حقيقة ومجازا ، معدنيا واستراتيجيا !

ثم بدات الولايات تتوسع على طول الجزر الباسيفيكية على طريق الشرق الاقصى ، وذلك على حساب أسبانيا غالبا ، فمن قبل استولت على جزر هاولاند وبيكر فى ١٨٥٧ ، ثم على ميدواى فى ٥٩ ـ ١٨٦٧ ، ثم على جوام ويك وبعض جزر من مجموعة فينكس فى التسعينات . وفى نهاية القرن ضمت هاواى ملتقى طرق الهادى وجزر ساموا ، الى أن وصلت فى خاتمة القرن والمطـــاف الى الفلبين فانتزعت بعد حربها مع اسبانيا وضمتها فى عام ١٨٩٩ لتنقلها فجاة من العصور الوسطى الى القـــرن العشرين (٢) . وستظل الولايات تستعمر الفلبين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين منحتهـــا ـ بمحض ارادتها وكمثال على « فروسية » السياسة الامريكية كما تلح دائما ـ استقلالها فى ١٩٤٦

---

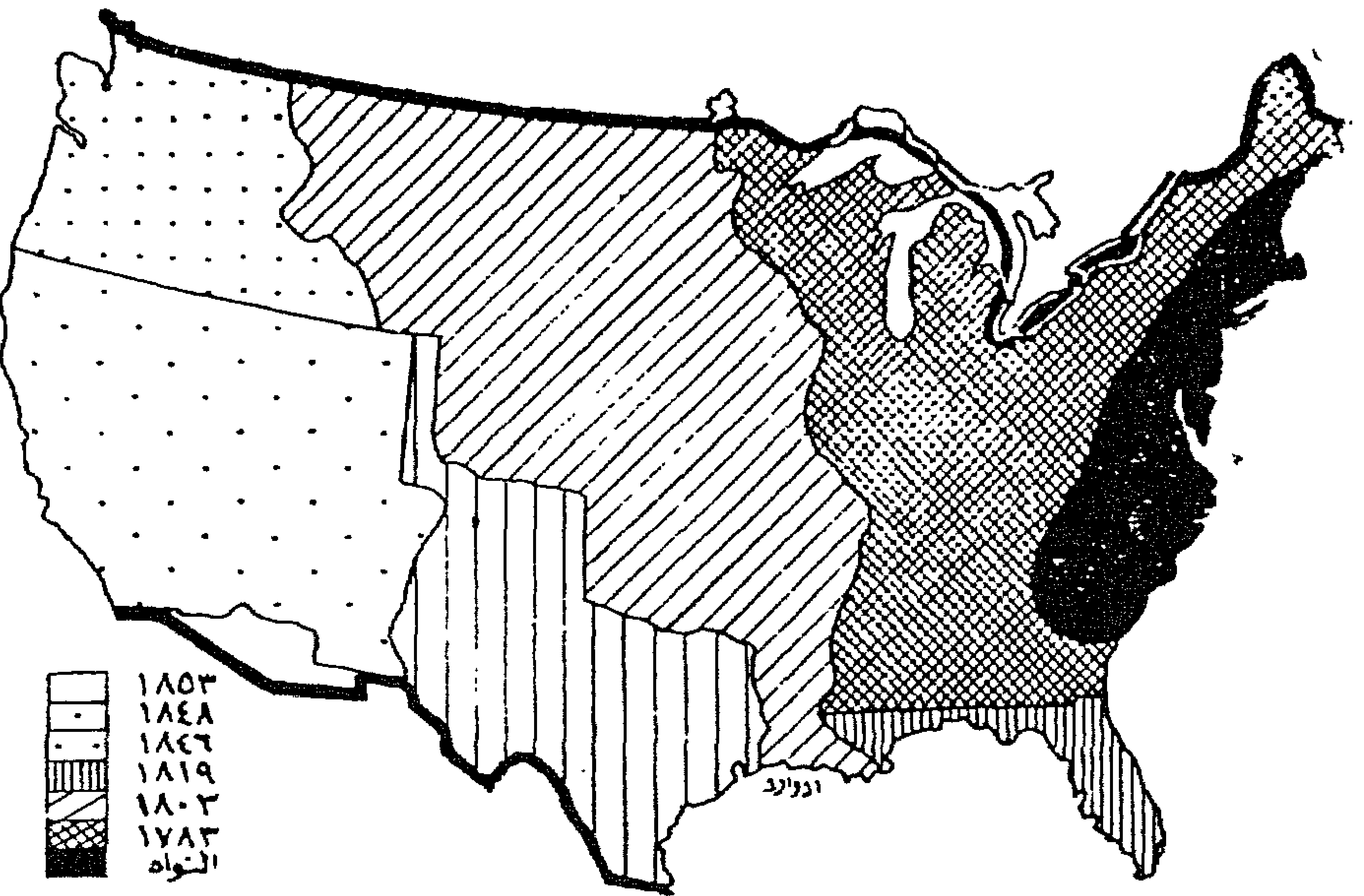
(١) هوريتلزى · ص ١١ ـ ١٢

(٢) جوبليه · ص ٥١

أما المرحلة الثالثة مرحلة الكاريبى فتبدأ مع القرن العشرين لتمتد فى عقوده الاولى . ففى نهاية حربها مع اسبانيا ، استولت الولايات على كل من بورتوريكو وكوبا فى ١٨٩٨ ، ولكنها منحت كوبا استقلالها مباشرة بعد ان احتفظت لنفسها فيها بقاعدة بحرية فى جوانتانامو فى ١٩٠٣ . أما بورتوريكو فقد ظلت تابعة لها منذ ذلك كمستعمرة محمية الى ان اصبحت كومونولث فى ١٩٥٢ (١) . ثم حصلت الولايات على منطقة القنال فى بنما ١٩٠٣ لتشق فيها بعد ذلك القنال الذى اصبح من أخطر النقط الاستراتيجية فى تركيبها كقوة عالمية . وقد استدعت القناة تأمين ضلوعها الشرقية فى جزر الكاريبى فكان شراء جزر فرجين « جبل طارق امريكا » (٢) من الدانمرك ، ومن بقايا الاستعمار البحرى الصغير القديم، فى ١٩١٧ . هذا عدا ضم بعض جزر صغيرة فى الارخبيل واستئجار البعض الآخر من نيكاراجوا

وسنرى من هذا التوسع البحرى الشاسع أن الولايات قد خرجت من الدور القارى الى الدور البحرى المحيطى بصورة حاسمة ، ولم تعد قوة بر بل وقوة بحر ايضا حتى كاد الهادى — الشرقى على الاقل — أن يكون بحيرة امريكية ، بينما تقاسمت السيطرة على الاطلسى مع بريطانيا . وستصبح منطقة الدفاع الغربى عن الولايات تتألف من مثلث رؤوسه هاواى — الاسكا — بنما ، بينما سيصبح الكاريبى برمته خط الدفاع الامامى عن بنما نفسها . كذلك سنلاحظ أن هذا التوسع البحرى هو استعمار لا شك فيه ، واستعمار استراتيجى بالتحديد فى الهادى ، واستراتيجى اقتصادى فى الكاريبى ، هدفه

(١) كول . ص ٢٥٩ (٢) بيكلز ص ٢٤٦



شكل (١٩) نمو الولايات المتحدة على القـــارة ، الموجـــة المدية ، في نصف قرن فقط ، حملت الدولة الجـديدة من المسيسبي الى الهادى ، بعد ان انفقت قرنين في نواتها النووية

ان يضمن نقطا وقواعد بحرية لتكون خطوط الدفاع الامامية عن الدولة . هذا وتبلغ مساحة ممتلكات الولايات المتحدة خارج كتلتها القارية نحو ربع مساحتها الكلية

ولا شك ان هذا التوسع البحرى ـ الهائل بأبعاده وان لم يكن بمساحته ـ هو نتج عصر السفينة البخارية. ولو ان نشأة الولايات المتحدة السياسية قد سبقت بقرون ، فليس من المحتم انها كانت بمستطيعة أن تتوسع مثل هذا التوسع ـ تماما كما رأينا بالنسبة لرقعتها القارية ذاتها . والمغزى الجغرافى والاستراتيجى لهذا التوسع وذاك هو ان أمريكا جزيرة عظمى معزولة بين اعظم محيطين على الكرة الارضية ، مجموع اتساعهما نحو ٨٠٠٠ ميل أى أقل قليلا من ثلث محيط الارض .. وأى تهديد لها انما يأتى من البحر سواء شرقا أو غربا، ولهذا فالدفاع عنها لا يكون الا بالقوة البحرية

وفى نفس الوقت فان مثل هذا الاطار المحيطى السحيق ما كان يمكن لأى قوة أن تسيطر عليه الا أن تكون قوة كبرى ذات قاعدة أرضية هائلة حتى تستطيع ان تجد من الموارد والفائض الحربى ما يمكنها من ذلك. ولو أن أمريكا كانت جزيرة صغيرة المساحة لما زاد دورها كثيرا عن دور هاواى أو غيرها من جزر الهادى الضائعة فى خضمه الشاسع . وتلك جيوبولتيكيا آفة الجزر الصغيرة فى وسط محيطات ضخمة (١) . وانه لمنطقى جدا أن يكون عرض الدولة التى تولد فى رحم بحرى عرضه ٨٠٠٠ ميل ، فى حدود لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل

وفى النتيجة فان الولايات المتحدة تخرج بكيان سياسى

---

(١) جون موجى ، ص ١٢٤

أدنى الى أن يكون وسطا بين طبيعة الاستعمار البحرى البريطانى والتوسع القارى الروسى ، أو قل هو يجمع بين طبيعتيهما معا . فبكتلتها القارية المندمجة المتماسكة وبما تمتاز به من دفاع بالعمق ، تشبه الولايات المتحدة الروسيا من حيث أنها تستطيع أن تنسحب بأى عدو غاز الى نواتها الداخلية غرب الابلاش أو شرق الروكى حتى تشترى الزمان بالمكان . هذا بينما تجعلها مستعمراتها البحرية الجزرية المترامية قريبة من تركيب الامبراطورية البريطانية المفتتة المشتتة عبر البحار

كذلك لا بد أن يسترعى انتباهنا فى توسع الولايات المتحدة سواء فى بيتها القارى أو فى مستعمرتها البحرية ظاهرة فريدة قل أن نجد لها مثيلا فى الدول والقوى الاخرى . تلك أعنى ظاهرة « الشراء والاستئجار » الاقليمى . فجزء كبير جدا من رقعة الولايات المتحدة اكتسب بالشراء أو بالاستئجار ـ شراء الاسكا والوشيان، لويزيانا ، جاسدن ، جزر فيرجن ، واستئجار جوانتانامو، وجزر نيكاراجوا فى الكاريبى ، وحديثا استئجار قواعد عديدة فى الاطلسى . ولعل هذه الظاهرة الغريبة مرتبطة بطبيعة العالم الجديد كجبهة ريادة سياسية ضخمة وكاقليم جيوبولتيكى جديد يعمر ويستقر دوليا لاول مرة

اذا كانت هذه هى السرعة المذهلة التى تم بها توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيا واقليميا ، فان نموها المادى والاقتصادى لم يأت باقل سرعة أو اندفاعا . فقد بدأت باقتصاد زراعى واسع ، وبمجتمع ريفى بحت مخلخل ، وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية أساسا تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم ، حقل أوربا باختصار ، وتمثل حضارة ريفية غير مدنية . ولكن فى النصف الثانى من القرن كانت

الصناعة والمدنية تتور التركيب الاقتصادى والحضارى(١)

حتى اذا ما كان القرن العشرون نجـدنا بازاء أعظم واغنى دولة صناعية واضخم قوة حضارية حـديثة . وهى فى الوقت الحالى تقود العالم بسهولة فى كل مجالات الانتاج وتحتكر الاولوية والصدارة فى اغلب قطاعاته ، كما وصلت أخيرا الى علامة المائتى مليون فى السكان ، وبذلك تكون قد تضاعفت ، فى ١٧٠ سنة منذ ثمانينات القرن الثامن عشر ، أكثر من ٤٠ مرة (٢)

والولايات بحكم رقعتها وامتداداتها تمتـاز بالتنوع الثرى والغنى فى اقاليمها الجغرافية الطبيعية ومن ثم الاقتصادية الانتاجية ، فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية فى أغلب جوانب الانتاج الا أقلها ٠٠ المدارى فى الزراعة، والبترول فى المعادن . ومع ذلك فالكاريبى يعوضها فى الناحيتين الى حد أو آخر . وكنتيجة لهذه الكفـاية الذاتية كثيرا ما نجدها فى عديد من خطوط الانتاج أعظم منتج ، ولكنها ايضا أعظم مستهلك ، ومن ثم فنسبة تجارتها الخارجية محدودة بالقياس الى انتاجها . ومن المدهش ان نعلم ان حجم تجارتها الداخلية يعادل حجم مجموع التجارة الخارجية للعالم اجمع ثلاث مرات ونصف المرة ! (٣) ومع ذلك فتلك النسبة من التجارة الخارجية كفيلة وحدها بان تجعلها مع كثير من الدول أعظم مصدر عالمى أو مستورد !

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية فى

(١) A.P. Brigham, The United States of America, L.U.P., 1927.

(٢) كول ٠ ص ٢٦٠

(٣) E.G. Bowen, «The Geog. of Nations», Geog., Jan, 1963, p. 10.

قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية . فهى أولا قد بدأت حضاريا من حيث انتهت أوربا ، أى انها أخذت عنها نقاط قوتها وتخلصت من مواطن ضعفها . وفى بيئة بكر ، كان هذا جديرا بأن يغل قمة الحضارة الحديثة

وثانيا، ولدت الولايات الحديثة فى ظل الانقلاب الصناعى، فهى لم نعرف عصرا اقطاعيا بمعوقاته واثقاله الاجتماعية والاقتصادية ووقر التقاليد وعدم المرونة الطبقية ، بل تحررت من ثقل الماضى كله واستبدلت بالاقطاع والعبودية الريادة «والفردية العارمة «rugged individualism» والليبرالية باختصار ولدت وفى فمها ملعقة بورجوازية كما عبر البعض

ثالثا ، وأخيرا ، ليست الولايات دولة بالمعنى الاوربى ، بل هى دولة قارة تفوق أوربا مساحة وموارد وان لم يكن سكانا . ومحصلة هذا جميعا ان امريكا بدات ابنة اوربا ، بدات وهى اوربا الصغرى Little Europe فاذا بها تنتهى اليوم الى أن تتفوق على امها قامة وقوة وتطورا ، وان تتحول فى الواقع الى اوربا الكبرى Greater Europe

وفى ضوء هـــذا الكيان العملاق كان لابد أن تتحول الولايات الى قطب غلاب من الاشعاع السياسى والنفوذ الاقتصادى ، يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور فى فلكها كثير من الدول وتقع فى مجالها المغنطيسى جيوبولتيكيا واقتصاديا . وفى اطار التركيب « الجيوديزى » للقارات لم يكن مفر من ان يكون العالم الجديد هو ذلك المجال . فمنذ وقت مبكر نجد الولايات نفسها ككتلة عملاقة وسط مجموعة من الدول الاقزام أو الصغيرة ـ كجليفر فى بلاد الاقزام سياسيا ، أو كسمكة القرش وسط السردين كما قيل . فهى تمثل خير تمثيل تطـــرف « الانحـــدار الجيوبولتيكى » فى العالم الجديد

خذ مثلا جارتيها الشـــمالية والجنوبية : اما دولة صغيرة او متخلفة ، لا تزيد اى منهما فى حقيقتها عن ان تكون دولة حدية حاجزة أو خطوط دفاع أمامية يمكن أن تكون بمثابة ماصة للصدمات shock-aosorber وعمقا استراتيجيا فى الحروب ومجالات نفوذ فى الســـلم . ولذا فان الحـــــدود معهمـــــا حـدود غير مخفورة «Our unguarded frontier» — مثل نادر ! — والحواجز الجمركية عبرها أقل ما يمكن

وليست كندا الا امتدادا شماليا شريحيا بحتا للولايات سواء جغرافيا أو بشريا . وهى اذا كانت تعانى من الصراع بين القصور التاريخى والجاذبية الجغرافية ، فيشـــدها التاريخ الى بريطانيا وتشدها الجغرافيا الى الولايات ، فان المستقبل للجغرافيا . وكندا تنزلق بالتدريج الى فلك الولايات . وأما المكسيك فبعد علاقات متوترة فى القرن التاسع عشر أصبحت اليوم — اقتصاديا — كوكبا يدور بهدوء واستكانة فى فلك الشمس الامريكية

تبقى أمريكا اللاتينية التى فتتت ذريا فى أمريكا الوسطى ومزقتها الجغرافيا المعقدة والتاريخ الاسبانى — البرتغالى المزدوج فى أمريكا الجنوبية على محور طولى بعكس أمريكا الشمالية التى قسمت عرضيا . هنا — سياســـيا — الامبراطورية الامريكية بحق وأن يكن دون الاسم ، وهنا — اقتصاديا — المجـــال الحيوى للولايات ولو رفض التشبيه !

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن مبدأ مونرو فى ١٨٢٣ ليستبعد دول أوربا او العالم القديم من التدخل فى شئون العالم الجديد ، كان هذا بمثابة اعلان بأن هذا الاخير هو منطقة نفوذ الولايات المتحدة . وحين قامت دول أمريكا اللاتينية بالثورة وحرب الاستقلال — على

غرار النمط والمثل الذى قدمته الولايات نفسـها من قبل ـ وارادت القوى الاوربية الاستعمارية ان تجتمع فى « حلف مقدس » لتعيدها الى حظيرتها ، أصـدرت الولايات المبدأ وأعلنت أنها ستمنع المحاولة بالقوة

ومنذ ذلك الحين انفصـلت اللاتينيـة سياسيا عن الدائرة الكهربية للعالم القديم لتكون مع الولايات دائرة أخرى جديدة ، أو بالاحرى لتقع فى دائـرة الولايات . استبدال لوصاية الأم بوصـاية الأخت الكبرى ! ومنذ ذلك الحين تراوح مبدأ مونرو ـ تطبيقا ـ بين سياسة « العصا الغليظة ، وحسن الجوار » . ولطـالما تدخلت الولايات عسكريا فى كل هذه الوحدات بصورة لا تختلف عما تفعل الدول الاستعمارية التقليدية فى مستعمراتها. ولم تكد تفلت وحدة فى امريكا اللاتينيـة من هذا التدخل سواء ديبلوماسيا أو عسكريا عدة مرات على الاقل

ولقد شددت الولايات قبضتها على اللاتينية منـذ وبفضل قناة بنما ، وأصبحت الاستثمارات والاحتكارات الامريكيـة فى دولها هى ـ دون أرقام ـ أسـاس اقتصادياتها المتخلفة ، وابتلعتهـا منطقـة الدولار ، وانتزعتها بذلك من احتكارات الراسماليـة البريطانيـة التى كانت تلعب الدور الاقتصادى الرئيسى فيها خلال القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ودور اللاتينية دور مزرعة أو منجم للولايات بمثل ما ان الولايات مصنع لها ، نفس العـلاقة ـ يعنى ـ بين أوربا مثلا وبين افريقيا

وفى الوقت الحالى لا تزيد اللاتينية ـ موضوعيا ـ عن أن تكون تذييلا أو ذنبا اقتصاديا للولايات (١) تؤلف

---

(١) هويتلزى . ص ٨٣

ما وصف جديا بامبراطورية الدولار ، وتهكما باستعمار الكوكاكولا Coca-Colonisation (١) ، وما تسميه امريكا اللاتينية بامبريالية اليانكى Yanqui Imperialismo اما الوضع السياسى فلعله ليس أفضل بكثير ؛ لاسيما فى ظل منظمه اتحاد الدول الامريكيه Pan-American Assoc

وان من الكتاب والعلماء الامريكيين انفسهم من يعترف صراحة بأن دول أمريكا اللاتينيه عامة ، والكاريبى خاصه، مستعمرات اقتصادية امريكيه وان كانت مستقلة سياسيا . بل هناك منهم من يذهب الى أن تبعية دول الكاريبى بالذات ، والقائمة بصفة فعلية وان لم يكن بصفة اسمية ، انما هى حتم جغرافى لا مفر منه ، بحسبانها اقزاما تعتمد اعتمادا مطلقا على العملاق المتاخم ؛ وان الاستقلال لا يمكن ان يزيد يوما عن خرافة قانونية بحتة (٢) !

ولهذا فلعلنا لا نبالغ أو نتطرف اذا شخصنا علاقة التبعية الاقتصادية والارتباط السياسى بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة بانها نوع مبكر وخاص من « الاستعمار الاقتصادى » أو « الاستعمار الجديد » بمعناه الحديث . ومن هنا فالاستعمار الجديد ليس جديدا تماما كما قد نتصور ، فالنسخة الامريكية منه قد لا تقل اليوم عن القرن سنا . واذا كانت الولايات لا تعترف ولا تسمح دستوريا بامتلاك « مستعمرات » ، فقد نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا انها فى اللاتينية تمارس الامبريالية دون الاستعمار

تلك فى خطوطها العريضة صورة الولايات المتحدة

---

(١) L. Dudley Stamp. Applied Geog., Pelican, 1960, p. 188.

(٢) هويطزى . ص ٤٧٩ ـ ٥٨٤

كقوة عالمية حين خرجت من عزلتها لتظهر على مسرح العالم القديم فى العقود الاولى من القرن العشرين ، لتبدأ فى الحقيقة ما يمكن ان يعد فى تاريخها مرحلة توسع رابعة ، وان تكن سياسيا لا اقليميا ، وامبرياليا وليس كاستعمار بالمعنى الفنى

اليابان (١)

« بريطانيا الشرق الاقصى » هى ، وفى أكثر من معنى ذلك . فهى مثلها أكبر ارخبيل جزرى على رصيف قارة لا يفصله عنها الا مضيق ضيق ، وهى مثلها لا تزيد كثيرا عن المائة الف ميل مربع (١٤٣ الفا) . واذا كانت اليابان تترامى عبر قطاع أكثر امتدادا من بريطانيا واكثر قربا من المدار ، فهما تشتركان جزئيا فى بعض خطوط العرض . وكل منهما بيئة جزرية بحرية مشالية كاملة يفتحها تيار دافىء وتحيط بها الاسماك من كل الجهات . ولان القاعدة الارضية الزراعية فى اليابان أشد ضآلة منها فى بريطانيا ، بينما أن المد السكانى فيها أشد علوا ، فهى تلفظ أبناءها الى البحر بدرجة ملحوظة

كذلك فان كلا منهما تلقى تعميره وحضارته أصلا من القارة » ثم عرف فترة من السيطرة على اجزاء من القارة . فقد غزت اليابان كوريا فى القرن السادس عشر بمثل ما ملك الانجليز غرب فرنسا فى العصور الوسطى . ثم دخلت كل منهما فترة عزلة ، ففى مقابل « العزلة الرائعة » التى عرفتها بريطانيا حينا ؛ فرض الاقطاع اليابانى الحاكم على اليابان « فترة العزلة

(١) الجيوبولتيكا . جـ ٢ ص ٩ ـ ٨٠ ، كريسى . ص ١٦٦ ـ ١٧٩

«Seclusion Period» الشهيرة التى ـ حماية لنفسه ـ حرم فيها على اليابانيين الاتصال بالعالم الخارجى لنحو قرنين تسبق بداية عصرها الحديث

اكثر من هذا ، كان الذى كسر هذه العزلة وتلك عامل لا يخلو من تشابه : غزو الارمادا هناك ، واقتحام الكومودور بيرى هنا . بل اكثر من هذا أيضا ، اذا كانت كشوف اسبانيا للعالم الجديد هى التى أعطت بريطانيا موقعها الجغرافى البؤرى الجديد ، فان ظهور أمريكا على الجانب الاخر من الهادى هو الذى أعطى اليابان موقعها الحاسم الجديد بعد أن كانت مثلها من قبل فى نهاية العالم وعلى هامش المعمور . وفضلا عن هذا فقد وفر الموقع الجزرى الحماية الطبيعية لكل منهما . فكما لم يستطع احد أن يغزو بريطانيا منذ الغزو النورماندى لم يطا أحد ارض اليابان منذ محاولة المغول الفاشلة بقيادة كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر الا فى الحرب العالمية الاخيرة

لا ، ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد . فكما كانت بريطانيا أسبق دول أوربا الى التصنيع وأولاها تمدينا ، فكذلك كانت اليابان أولى دول آسيا الى الاخذ الكامل بالحضارة الحديثة والصناعة المتطورة وبالتالى أدوات القوة الجديدة . وبدأ هذا بعد أن فتح بيرى موانيها للغرب فى ١٨٥٣ م وسرعان ما دخلت عصر الانقلاب الصناعى ، ربما قبل بعض دول من أوربا نفسها . وفى هذا المعنى صح أن يقال أن اليابان هى أكثر آسيا أوربية بمثل ما أن الروسيا أكثر أوربا اسيوية

كذلك تشترك اليابان مع بريطانيا فى أن كلا منهما بصورة عامة أكثف او من أكثف وحدات قارته سكانا ، الا أن اليابان الان ضعف بريطانيا سكانا . وليس غريبا

بعد ذلك ان كلا منهما يعتمد فى اقتصاده الجديد اعتمادا كليا على الاستيراد والتصدير ، استيراد الخام الزراعى والمعدنى على السواء ، وتصدير الصناعات بكل مراحلها وانواعها . ومن ثم فكل منهما أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ويتوقف مصيره على التجارة عبر البحار . بل ان هـذا لأوضح فى اليابان منه فى بريطانيا ، لان الاولى افقر كثيرا فى مواردها الزراعية وكثيرا جدا فى مواردها المعدنية خاصة الفحم والحديد

ومن الطبيعى بعد ذلك جميعا أن تخرج اليابان كقوة بحرية مثالية كاملة الى الاستعمار ، وان تتطلع فى وقت ما الى السيادة العالمية او شبه العالمية . وفى هذا تقف اليابان كالقوة الاسيوية الوحيدة التى – دعك من أن تخضع للاستعمار الاوربى – مارست الاستعمار على قدم المساواة معه ، بل وستهزمه أكثر من مرة لحين او لآخر ، وبهذا كانت أول قوة غير اوربية تهزم قوى أوربية فى التاريخ الحديث هزيمة حقيقية

ولكن اليابان تختلف بعد هذا عن نظيرتها فى نواح عدة . فاليابان ، لأمر ما ، لم تعرف الهجرة بالجملة الى ما وراء البحار ، ولذلك سيظل كل استعمارها محصورا فى دائرة – على سعتها الهائلة – محلية أساسا لا تخرج عن حوض الهادى الغربى ، بعكس الاستعمار البريطانى الذى لف الكرة الارضية لفا . وربما كان جزءا من السبب فى هذا ان اليابان خرجت الى الاستعمار بعد ان كانت أوسع ابوابه قد اغلقت ولم يبق الا فتات المائدة

واخيرا فان التوسع الاستعمارى اليابانى ظل منذ بدايته موزعا بين هدفين اساسيين يتجاذبانه فيما بينهما من وقت لاخر ولكنه جمع بينهما فى النهاية : الاول هو التوسع على القارة ، اى توسع برى . والثانى

هو التوسع فى المحيط ، اى توسع بحرى . وهذا على عكس بريطانيا التى كان جوهر استراتيجيتها السياسية العزلة عن القارة وعدم التدخل او التورط فى صراعاتها . وقد كان على اليابان أن تصطدم فى توسعها هذا المزدوج مع عدد من القوى برا وبحرا

فعلى البر كان الصدام لا مفر منه مع الصين والروسيا، ولهذا لم يكن غريبا ان تعرف منطقة الالتحام بينهما وبينها فى كوريا الشمالية ومنشوريا بحلبة صراع العالم Cockpit of the World أو أن توصف بانها مهد الصراع Cradle of Conflict (١) ، فى حين تعدها اليابان بمثابة بلجيكا وهولندة بالنسبة لبريطانيا ، اى بمثابة مسدس مصوب اليها . وسنذكر هنا — بين قوسين — أن هذا هو نفس تشبيه بريطانيا للاراضى المنخفضة . وكما عملت هذه على ضمان حيادها وتجميدها ستعمل اليابان على تحييد او تجميد كوريا ومنشوريا أولا ثم ابتلاعهما بعد ذلك

أما فى البحر فكان الصدام أساسا وبالضرورة مع بريطانيا والولايات المتحدة . فالحوض الجنوبى الشرقى من الهادى منطقة نفوذ بريطانية تضم مستعمراتها فى الاوقيانوسية واستراليشيا والبحار الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، ومفتاحها الاستراتيجى فى سنغافورة . أما شرق الهادى فهو نطاق الامان للولايات المتحدة وقد جعلت منه بفضل مثلثها الاستراتيجى بنما — الاسكا — هواى بحيرة امريكية الى حد بعيد ، كما كانت الفلبين وبعض جزر الاوقيانوسية بمثابة مواقع امريكية متقدمة تهدد اليابان البحرية كما تهددها هذه . وبالفعل سيكون مسرح

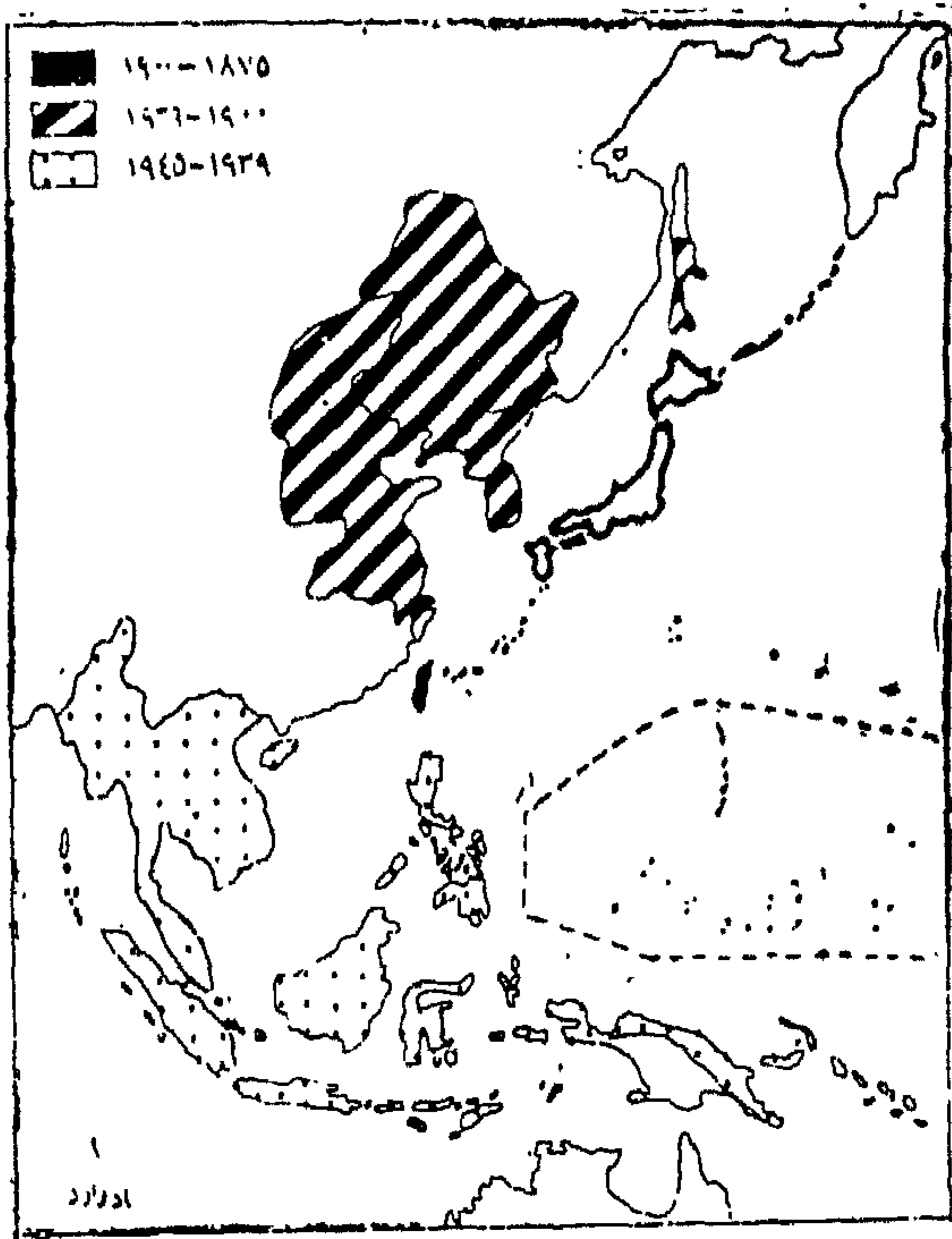
(١) H. Weigert, V. Stefansson, R. Harrison New Compass of the World, N.Y., 1949.

الصراع اليابانى فى الحرب العالمية الثانية هو هـــــذه الجبهة الشاسعة ابتداء من كوريا حتى الاوقيانوسية ، وستكون المعركة برية فى الشمال وبحرية بصورة مطلقة فى الجنوب

السؤال الان : كيف توسعت اليابان ؟ اذا اعتبرنا ان اليابان الاصلية هى الجزر الاربع » فان التوسع لم يبدأ الا فى الربع الاخير من القرن التاســع عشر بعد أن بدأ تحول اليابان الى دولة صناعية حديثة ، ولو أن قليلا من التوسع المحلى المحدود على أطراف هذا الوطن الاب حدث قبل ذلك . ويمكن ان نميز ثلاث مراحل للتوسع: المرحلة القوسية فى القرن التاسع عشر ، والمرحلة القارية ـ الجزرية مع بداية القرن العشرين حتى الحرب الثانية، والمرحلة شــبه الجــزرية ـ المحيطية فى اثناء الحـرب الثانية . ويمكن بصفة عامة ان نعد المرحلتين الاوليين من استعمار المعتدلات ، والثالثة من الاستعمار المدارى ، وبذلك تتكرر هنا الثنائية الاساسية التى رأيناها فىزحف الاستعمار البحرى الاوربى أو الروسى القيصرى

فالمرحلة الاولى ١٨٧٥ ـ ١٩٠٠ ارتبطت بقـــــوس الجزر « الفستونية » الممتد ما بين كمتشكا وفورموزا . فقد بدات اليـــــابان بضم جزر كوريل (تشيشيما) بالاتفاق مع الروسيا فى١٨٧٥ . وبعدها مباشرة استكملوا ضم جزر ريوكيو ، وهو الذى كانوا قد بداوه فى مطلع القرن السابع عشر . وفى العقد الاخير من القرن التاسع عشر دخلت اليابان مع الصــــين فى حرب ١٨٩٥ التى انتهت بأن انتزعت لنفســـها فورموزا وجزر بسكادور ، وكادت أن تنتزع لياو تونج لولا تدخل القوى الغربية فى صف الصين ، كما فرضت عليها استقلال كوريا تمهيدا لضمها لنفسها فيما بعد

اما المرحلة الثانية ١٩٠٠ ـ ١٩٣٩ فقد كان مسرحها ارض القارة بصفة اساسية والجزر بصفة ثانوية . فقد بدات بالحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥ ، وهى التى نشبت منعا لتوغل الروسيا فى منشوريا ونحو الهادى حيث كانت قد توغلت فى لياو تونج ، ذلك المجال الذى كانت تطمع اليابان فيه من قبل فى اثناء حربها مع الصين .



شكل (٢٠) توسع الامبراطورية اليابانية

بمعنى اخر نشبت الحرب تطويقا لسياسة الروسيا من الوصول الى البحار فى هذا الجانب ، وكانت بذلك صراعا مباشرا بين قوة بحر وقوة بر

وفى هذه الحرب التى كانت أول مرة تهزم فيها قوة اوربية امام قوة غير أوربية فى القرون الاربعة الاخيرة ؛ استولت اليابان على النصف الجنوبى من سخالين (كارافوتو) وبعض موانى ومصالح فى لياوتونج ، وفرضت على الروسيا تحييد منشوريا ، أيضا تمهيدا لضمها فيما بعد . وفى ١٩١٠ لم تلبث اليابان أن ضمت كوريا الى امبراطوريتها

حتى اذا كانت الحرب الاولى ووقفت اليابان الى جانب الحلفاء ، انتهزت فرصة سقوط الروسيا وقيام الثورة الشيوعية فيها لتعود الى تطويقها وعزلها عن البحر ، فشاركت بالقسط الاكبر فى حملة سيبيريا حتى بيكال واحتلت شمال سخالين ، الا انها عادت فأجبرت على الانسحاب هنا وهناك . على انها فى الصلح نالت من المانيا كياتشاو ميناءها فى لياوتونج ، وأوشكت أن ترث نفوذها فى شانتونج اولا ضغط الحلفاء . ولكن كانت جزر الهادى الالمانية هى الجائزة الحقيقية التى فازت بها اليابان — كانتداب — فى هذه الحرب : مجموعات ماريانا ، كارولين ، مارشال ، وهى تترامى شرقا بغرب على مدى ٢٥٠٠ ميل وعلى نصف ذلك شمالا بجنوب ، وتمثل استراتيجيا مواقع بحرية امامية للقفز والسيطرة المحيطية

وفى الفترة ما بين الحربين كانت بؤرة الاطماع اليابانية مركزة على القارة ابتداء من منشوريا حتى شمال الصين . وحاولت التوغل بنفوذها فيهما ، حتى اذا كانت « حادثة موكدن » غزت منشوريا واقامت فيها حكومة

منشوكو الصنيعة التابعة . وكانت منشوريا بذلك اكبر توسع برى لليابان حتى ذلك الوقت ، وقدمت مجـــالا للاستعمار الاقتصادي ولكن ليس للاستعمار السكني . ومن منشوريا بدأ الاحتكاك مع الصين وبدات حرب ممطوطة متقطعة ستستمر حتى بداية الحرب الثانية

هذه هي الحرب التى تمثل الحرب الجالسة Sitzkrieg خير تمثيل ، والتي كانت همـزة الوصـل بين المرحلتين التوسعيتين الثانية والثالثة . وحتى بدايه الحرب الثانية كانت اليابان قد استولت فيها على نحو الثلث الشمالى من الصين جميعا بما فى ذلك الجزء الاكبر من ساحلها . ولعلنا نذكر أنه منذ القرن الماضى وسياسة الباب المفتوح ، والدول الغربية تقف فى وجه أطماع اليابان الخاصة فى الصين وتقف الى جانب هذه منعا لتغلغل اليـــابان . ويمكن أن يشبه هذا الوضع بوقوف دول الغرب البحرية الى جانب تركيا العثمانية فى وجه أخطار التوسع الروسى من قبل . واستمرارا لنفس السياسة وقفت القوى الغربية مع الصين ضد الزحف اليابانى فى الثلاثينات وســاعدت حـكومة الصين الحرة في الجنوب لتكون نواة المقاومة حتى قيـام الحرب العالمية الثانية

مع هذه الحرب تبدأ المرحلة الثالثة والاخيرة فى توسع اليابان ، وهى المرحلة شبه الجزرية والمحيطية ، وفيهـا خرجت بلاد الشمس المشرقة فى محاولة عظمى لتجـــد لنفسها مكانا تحت الشمس . وقبل هذه الحرب كانت جيوبولتيكية اليابان تدور حول طرد الاستعمار الاوربى من اسيا تحت شعار « اسيا للاسيويين » ، ولكن ذلك كان اســاسا لكى ترثه هى فيها . فدعت لهذا الى مبدأ « مونرو لليابان » لا يستبعد النفوذ الاجنبى فى شرق آسيا الا لتنفرد هى بها ، واصبحت تتطلع الى شرق آســيا

كمجال النفوذ والمجال الحيوى الطبيعى ، وتبلورت هذه الجيوبولتيكية فى الصيغة المشهورة « نطاق شرق آسيا الاكبر للرخاء المشترك

Greater East Asia Co-Prosperity Sphere

غير أن أبعاد هذا النطاق كانت غامضة مطاطة ، يمكن أن تتمدد حتى تصل حدودها الى الهند واستراليا وكل جزر غرب الهادى ، وأن تستوعب كل ما داخلها • والمهم على وجه التحقيق أن اليابان كانت تتطلع الى امبراطورية مدارية مترامية تكمل اقتصادياتها شبه المعتدلة شأنها فى ذلك شأن الاستعمار الاوربى المدارى • وقد أصبح هذا التوسع جزءا من سياسة أوسع هى سياسة تقسيم العالم الى مناطق نفوذ كبرى بالاشتراك مع المحور

وقد دخلت هذه الاستراتيجية مجال التطبيق حين دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء • وبحكم موقعها الجزرى كانت فى وضع يسمح لها بان تضرب فى كل اتجاه • ولكن السهم المحورى انطلق جنوبا • فبدأت باكتساح شبه جزيرة الهند الصينية ، بما فيها بورما والملايو ، اكتساحا خاطفا يقدر فى بعض وحداتها بالساعات (تايلاند ٥ ساعات !) • وبهذا أصبحت الهند مهددة مباشرة ، بينما تحولت حكومة الصين الجنوبية على ضخامة نطاقها الى اسفين محصور فى بحر السيطرة اليابانية

كذلك لم تصمد هولنده فى جزر الهند الشرقية الا خمسة أيام بعدها انهار الاستعمار الصغير العتيق ! ثم قفزت اليابان الى جزر الفلبين فالجزر المحيطية فى البحار الجنوبية جميعا حتى مشارف استراليا • وبذلك أصبح غرب الهادى برمته بحيرة يابانية فى اقل من شهور •ومن الواضح أن الصراع بين اليابان والحلفاء فى هذه الحرب

كان صراع قوى بحر مطلقة ، اى صراع أشباه بحرية اساسا

وفى أوجه فى ١٩٤٢ ، امتد التوسع اليابانى نحو ٥٠٠٠ ميل طولا وعرضا ، ابتداء من جزر الوشيان الى جزر سولمون ، ومن جزر ويك الى بورما وغطى نحو ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ من الاميال المربعة تضم حوالى ٣٠٠ مليون نسمة . ولم يحدث قط ان توسعت قوة أخرى فى مثل هذه الرقعة فى مثل هذه السرعة فى مثل هذه السهولة كما يقول كريسى

فلقد كان الزمن مؤقتا فى صف اليابان ، واضاف اليها التوسع عنصر الدفاع بالعمق على القارة وفى المحيط . أما اقتصاديا فقد منحتها الامبراطورية ثروة ضخمة من الموارد الاستراتيجية الحيوية ، وفى وقت ما كانت اليابان تقريبا ادنى الى الكفاية الذاتية من الولايات المتحدة ..

ولكن بنفس السرعة التى قامت بها الامبراطورية سقطت وانهارت . ولم تكن المقاومة من الاهالى الوطنيين الذين ، باستثناء تايلاند التى أفقدها الغزو اليابانى استقلالها لاول مرة فى التاريخ ، كانوا جميعا يخضعون للاستعمار الاوربى أو الامريكى . بل ان الاستعمار اليابانى « منح » كل هذه الوحدات استقلالها ، ولعب بهذا ان عفوا أو عمدا دورا خطيرا فى حركة التحرير فيما بعد

وانما جاءت المقاومة من القوى الاستعمارية القديمة ، وفى عكس اتجاه التوسع ، اى من الجنوب والجنوب الشرقى محيطيا والجنوب الغربى قاريا . وفى هذه المرة لم يعد الوقت فى صف اليابان ، ولم تستطع أن تبيع المكان لتشترى الزمان . فبدأ التراجع باطراد شمالا الى اليابان الاصلية حتى سقطت بدورها بعد أن عجلت القنبلة الذرية بالنهاية ، وبذلك انهارت الامبراطورية فى بضع سنين

واذا كانت الامبراطورية اليابانية هي أسرع الامبراطوريات قياما وسقوطا ، فانها تمثل النقيض للامبراطورية البريطانية التى ربما كانت أبطاها نشأة وانهيارا . أو كما عبر البعض ، كان الاستعمار اليابانى مرضا حادا حيث كان الاستعمار البريطانى مرضا مزمنا . واليوم وقد فقدت اليابان جميع مستعمراتها وفتوحاتها ولم يعد لها الا جزرها الاربع الام ، فانها تعود الى النقطة التى بدأت منها منذ نحو قرن تقريبا فى ١٨٧٠ !

لقد عادت سفينة « الداى نيبون » على أعقابها بعد رحلة دموية عاصفة طولها قرن وعرضها قارة الى مينائها الذى بدأت منه . وأسوأ منه ، عادت لتجد نفسها محتلة وتابعة لغريمتها فى الهادى الولايات المتحدة ، وقد ضاع أملها الى الابد فى السيادة العالمية ، بل حتى فى الصدارة الاسيوية ذاتها مع ظهور الصين

ولقد بدانا فقلنا ان اليابان هى بريطانيا الشرق الاقصى جغرافيا ، ولكن يمكننا الان أن نختتم بأنها لعبت فى اسيا دور المانيا فى أوربا استراتيجيا . فهى مثلها دخلت التصنيع وخرجت الى العالم فى السبعينات الماضية ، وهى مثلها انحرفت فى اتجاهات عسكرية فاشستية أو شبه فاشستية ولم تخل من أوهام العنصرية وتفوق الجنس ، وكل منهما وضع لقارته « نظاما جديدا » أداته اليونكرز هنا والساموراى هناك ، وليس صدفة تحالفهما معا بعد ذلك . ولكنها أساسا توسعت مثلها توسعا كاسحا رهيبا ، وبقدر ما كان تالقها كان خبوها ، هذه كتلك

الفصل التاسع

امتداد صراع القوى

المانيا

لم تحقق المانيا وحدتها القومية الا في مرحلة متأخرة للغاية هي السبعينات الماضية ، ولهذا كانت آخر القوى العظمى التى ظهرت على المسرح الاوربى والعالمى • ولقد تاخرت تلك الوحدة لاسباب تاريخية معقدة غذتها من خلف أسباب جغرافية لا تقل تعقيدا • فبحكم موقعها المتوسط فى وسط أوربا تلقت تأثيرات عديدة وأحيانا متعارضة ، أو على الاقل شكلت أجزاءها المختلفة بطوابع وتوجيهات مختلفة • وأكد اللاندسكيب الطبيعى الذى تقطعه الجبال والهضاب والغابات والمستنقعات الى وحدات وأحواض وجيوب منفصلة لا تخلو من عزلة ، أكد تلك الطوابع المحلية المختلفة

ولعل ابسط مظاهر هذه الفروق أن الشمال السهلى ارتبط بالبروتستانتية ، بينما ظل الجنوب الهضبى كاثوليكيا ، مما عمق الصراعات الدينية • والسهل الشمالى نفسه كجزء من «الممر القارى الاوربى العظيم Durchgangsland» أصبح دهليزا تكتسحه الموجات البشرية من هجرات وغزوات جيئة وذهابا ، ذات اليمين وذات الشمال • ومرة اخرى لعل ابسط مظاهر هذه الحركة البندولية ذلك المد

والحزز التاريخى بين السلاف فى الشرق والتيوتون فى الغرب والذى وصل بالسلاف حتى منطقة برلين وبالتيوتون حتى ضفاف الفولجا • وقد كانت النتيجة تداخلا شنيعا فى التوزيعات الاثنولوجية ظهر فى شكل أقليات عديدة فى التخـــوم والاطراف تنتشر كالجزر فى كل شرق أوربا ، ووضع أساس الصراع التاريخى الرهيب بين عالم السلاف وعالم الجرمان ، وهو الصراع الذى سيلعب دورا خطيرا فى استراتيجية المانيا بعد الوحدة الحديثة (١)

وكنتيجة لهـــذا جميعا فقد ظلت المانيـــا بلا قلب وبلا حدود : بلا قلب لانهـــا لم تعرف عاصمة بؤرية غلابة ، بل هاجرت فيها العواصم عبر التاريخ على طول الحدود عامة من الغرب الى الشرق • وبلا حـــدود لان الانسياح والتميع البشرى جعل تخومها مختلطة السكان غير واضحة المعالم . ومثل هذا انما هو نمط مضـــاد للوحدة . والواقع ان المانيا فى هذا الصدد كانت فى وضع اسوأ من ايطاليا التى وصفت بأنها لم تكن الا تعبـــيرا جغرافيا . فاذا كانت ايطاليا بلا قلب سياسى واضح ، فقد كان لها على الاقل حـــدود جغرافية حاســـمة أما المانيا فلم تكن تعبيرا سياسيا ولا جغرافيا

فى هذا الاطار ورثت المانيا الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة الصورية منذ أنشاها شارلمان حتى حطمهـــا نابليون . وقد قلنا صورية لانها لم تكن لأكثر من تجمع متميع شكلى مفكك من مئات من الوحدات السـياسية المنفصلة التى تتراوح بين وحدات ميكروسكوبية ووحدات اقليمية ضخمة : دول مدن قزمية ، مقاطعات اقطاعية ، احلاف تجارية ، أسقفيات كنسية ، ممالك أسرية •• الخ•

(١) ليرجريف • ص ٢٠٠ ـ ٢٢٤

وقــــد ثبتت الصراعات والــــوراثات الاسرية بوجـــه خاص هذا النمط الفسيفسائى الحفرى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الوحدات السياسية الالمانية يزيد عن الثلاثمائة . واذا كان هذا النسيج المهلهل قـــد اختزل فى اوائل القرن التاسع عشر الى نحـــو العشر (٣٩ وحدة) ، فقد ظل أبعد شىء عن الوحدة

غير أنه حدث أن استطاعت بروسيا ، من نواة اولية فى براندنبرج وبعد تاريخ خطر من التمدد والانكماش ، أن تتوسع منذ القرن السابع عشر حتى أصبحت اقوى وأضخم وحدة فى المانيا ، وهذا رغم انها تعد أصـــلا من أراضى التخوم الشرقية الفقيرة جغرافيا marks والتى لم تدخل المحيط الالمانى وفلك الحضارة الا متاخـــرة تاريخيا . فبدأت تجمع المانيا فى اتحـــاد جمـــركى ـ الزولفرين ـ يزيل الحوائط « الصينية » والحواجـــز الاقتصادية غير المعقولة التى تفتتها . وكان الـــزولفرين بهذا خطوة حقيقية نحو الوحدة السياسية التى ستأتى ضد رغبة وفى وجه مقاومة ومناورات كل الدول الاوربية الكبرى القائمة (١)

فمن البداية كانت طفرة بروسيا بســـــمارك نحو الزعامة تحديا للنمســـا ذات التاريخ العريق ، فكان صدام الاقدار بينهما الذى انتهى بهزيمة النمســـــا . ومن ثم انفتح الطريق الى الوحدة الالمانية التى بدأت باتحـــاد فيدرالى للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمســـا . كذلك ظلت كتل ووحدات المانية كثيرة خارج دولة الوحدة ، لانها تبلورت من قبل على تنظيم سياسى منفصل بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية مثل أجزاء من سويسرة والاراضى المنخفضــــة وســـيكون لهـــذه

(١) جوردون ايست . ص ٢٦١ وما بعدها ، ٤٢٧

« الاقليات » وغيرها خارج التاريخ دورها الخطير في تحديد دور المانيا الاستراتيجي فيما بعد

وقد أتفق نمو الوحدة الالمانية مع عدة تطورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وعلى تدعيمها بعده من ناحية اخرى . اولها دخول السكك الحديدية التي جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ . والحقيقة أنه كان على وحدة المانيا أن تنتظر قدوم السكك الحديدية، وهي لذلك والى حد بعيد نتج لها ، وبفضلها ولدت المانيا من مقياس ضخم نسبيا . وهي التي اعطتها قلبا جغرافيا وعقدية اصطناعية مكتسبة . اما العامل الثاني فهو الانقلاب الصناعي الذي وصلها وقد بلغ حدا كبيرا من التطور ، ولذلك ولدت المانيا من البداية وهي « دولة تكنولوجية » بكل معنى الكلمة ــ دولة الكولتور Kultur وسيصبح هذا ملمحا أساسيا في كيانها ومن اخطر مواطن القوة في تركيبها (١)

والمحصلة العامة أن المانيا ولدت عملاقا يتمتع بقاعدة ارضية ضخمة لا تقل كثيرا عن فرنسا وتكاد تعادل ضعف بريطانيا بينما تزيد عن اكثرهما سكانا . قاعدة تجمع بين الانتاج الزراعي الكثيف والانتاج الصناعي الثقيل الذي يعتمد على ثروة معدنية منوعة ضخمة على اي مقياس ، وتكاد تكون اقرب بالقوة واذا لزم الأمر الى الكفاية الذاتية Autarky من فرنسا واقرب بالتأكيد من بريطانيا . قاعدة تحتل موقعا يتوسط قلب القارة ويتاخم عددا كبيرا من دولها ، وفي نفس الوقت يملك جبهة ساحلية كافية على البحر . ومعنى ذلك انها بموقعها وطبيعتها دولة امفيبية تجمع بين قوة البر وقوة

---

(١) فتزجرالد . ص ٩٥ ــ ١٠٩

البحر ، وبمواردها ومقوماتها يمكن أن تتطلع الى الصدارة فى القارة

لم يكن مفر لهذا من ان تصطدم الدولة الجديدة بالقوى الكبرى القائمة . فمنذ اللحظة الأولى كان عليها أن تواجه فرنسا المتاخمة ، الا ان هذه كانت بريطانيا قد حطمت قوتها من قبل فى صراعها من أجل السيادة العالمية وما ظهرت المانيا كقوة الا انتهازا لهذه الفرصة التى لولاها لما سمحت فرنسا لها بذلك بالتأكيد . ولهذا لم يكن من الصعب على المانيا ان تجهز نهائيا على فرنسا فى الحرب السبعينية لتزيحها من صراع القمة

وكما كان على فرنسا فى أثناء صراعها مع بريطانيا أن تواجه أيضا قوة برية على القارة فى الشرق هى النمسا ، فكذلك كان على المانيا أن تواجه أيضا قوة برية اضخم بكثير هى الروسيا . ورغم أن الروسيا كانت مركز الثقل السياسى فى شرق أوربا حينئذ ، واضخم دول القارة مساحة وسكانا ، وتمثل زعيمة السلاف ، فقد كانت متخلفة حضاريا وماديا ، وتشكل بذلك تحديا أقل من التحدى الفرنسى . ولهذا لم يلبث مركز الثقل فى شرق القارة أن انتقل من الروسيا الى المانيا ، من سان بطرسبرج الى برلين . بل ان من المثير أن المانيا بديناميتها وحضارتها واندفاعتها الشابة استطاعت أن تتغلغل بنفوذها فى الروسيا القيصرية دولة وشعبا . ولعل فى الشكل الألمانى لاسم العاصمة الروسية وحده رمزا بليغا لهذا النفوذ (١)

ويجدر بنا ان نلاحظ أن افتتاح الزحف الالمانى من اجل القوة العالمية بالصدام مع أكبر دولتين على القارة

---

(1) Mackinder, Democratic Ideals, p. 105.

بالذات ، وهما فرنسا والروسيا اللتان تحصران المانيا من شمال ويمين ، انما يرجع الى ويؤكد ان مجـــال حركة المانيا كان مرتبطا دائما وأساسا بصلب القارة اكثر منـه بما وراء البحار . ومما له مغزاه فى هذا الصدد أنه أصبح من سياسة المانيا التقليدية ان تشجع هاتين الدولتين على المغـامرات الاستعمارية خارج القارة لتبعـد انظـارهما ولتبعدهما عن القارة نفسها بقدر الامكان لتخلو لها هذه، مجالها الطبيعى الوحيد . فعلى سبيل المثال ، كانت هى سياسة بسمارك الواعية العامدة التى وجهت فرنسـا الى تونس بعد حربهما السبعينيـة ، وكانت هى المانيا التى حثت الروسيا وشجعتها على حربها اليابانية فى بداية هذا القرن

هذا على القارة . غير انه كان على المانيـا من الناحية الاخرى أن تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبـابرة يكرر نفس القصة التى رايناها مرارا من قبل فى غرب أوربا منذ البرتغال حتى بريطانيـــا : قوة اكثر بحرية (بريطانيا) تحطم قوة أكثر قارية (فرنسا) ، فترثهـا قوة أكثر واكثر قارية (المانيا) ، ليبدأ الصراع بين الأولى والأخيرة . . وهكذا ســنجد ان الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا والمانيا

وكما كان كل صراع من الصراعات السابقة ينقلنــا باستمرار الى أبعاد ومستويات أضخم واخطر ، فسنجدنا الآن على أبواب صراع عالمى يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية . فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية فى ظل العصر الصناعى بكل فنـونه التكنولوجية والعسكرية ، وأول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة

وقد خرجت المانيا من وحدتها لتجد نفسها حبيسة بحر الشمال الذي تفلقه بريطانيا تماما بموقعها وبقوتها البحرية ، وسجينة وسط أوربا بما يطوقها من دول من كل ناحية . انها في معنى كالروسيا : رهين المحبسين . فأخذت لذلك تنمي ـ تحت عسكرية اليونكرز ـ قوة برية ضخمة جنبا الى جنب مع اسطول بحرى خطر كانت الفواصة فيه بالذات رمزا لمحاولة الافلات من انفلاقها البحرى ، وتكاد نقول نتيجة جغرافية لموقعها وبيئتها . ولو ان المانيا ولدت وقد ضمت المناطق الجرمانية الساحلية في الاراضي المنخفضة في دلتا الراين سواء في هولندة أو بلجيكا ، لجاء خطرها البحرى ودورها الاستراتيجي مختلفا جدا بالتاكيد

ولهذا فقد كانت بريطانيا ـ مقتبسة نابليون ـ تعد هذه الاراضي المنخفضة ـ شكلا وموضوعا ـ بمثابة مسدس موجه أليها ، بل لقد ذهبت أحيانا الى حد اعتبار الراين « حدودها » الاستراتيجية (١) ! وكان رد فعلها المباشر هو التحالف الدائم مع هولندة وبلجيكا وضمان حيادهما دوليا ووحدة اراضيهما الاقليمية في وجه هذا الخطر . والواقع أن موقع هاتين الدولتين ـ الصغيرتين ـ داخل مثلث القوى الكبرى بريطانيا وفرنسا والمانيا هو الذى حيدهما ووضعهما في نقطة الخمود السياسي والعسكرى في أوربا

ومع ذلك فقد استطاعت المانيا ان تخرج الى المحيط باسطول حربى وتجارى انتشر حول العالم بحثا عن أسواق التجارة وعن ميادين الاستعمار . غير أنها مالبثت أن وجدت الأسواق ـ كل الاسواق ـ احتكارات بريطانية باسم حرية التجارة والافضليات الامبراطورية ، ومن ثم

(1) Reader Bullard, Britain & the Middle East, p. 169.

رفعت سلاح التعريفة الجمركية ومبدأ الحماية لتبدأ الحرب الاقتصادية

وبالمثل وجدت ميدان الاستعمار وقد اغلق أو كاد ولم يبق على مائدته الا الفتات . وبالكاد ، وبصراع استعمارى حاد ، استطاعت أن تنتزع بعض المستعمرات فى أفريقيا وبعض جزر الهادى : فنالت فى « التكالب » مستعمرات اربعا ، وفى الهادى حصلت على أرخبيلها الجزرى بالحرب والشراء ، وتمكنت من ان تجد لنفسها موطىء قدم على ساحل منشوريا فى كياتشاو . وتلك فى مجموعهـــا امبراطورية استعمارية من درجة متواضعة للغايه

من هنا بحثت المانيا عن التعويض فى التوسع البرى على القارة ، وذلك بالتوغل الاقتصادى والنفوذ السياسى فى دول شرق أوربا المتخلفة المفككة والتى تتناثر فى تضاعيفها غالبا اقليات المانية هامة ، ولكن هدفها الأســـاسى كان امبراطورية النمسا ــ المجر واكثر منهـــا الامبراطورية العثمانية العجوز . ورسمت بذلك محورا يندفع من قلب القارة ليصل الى الشرق الاوســـط . ذلك كان مشروع الاتجاه نحو الشرق الشهير Drang nach Osten ، الذى اتخذ بخاصة من مشاريع السكك الحديدية عمودا فقريا يرتكز اليه . ولعل مشروع خط برلين ــ بغـــداد (أو همبورج ــ الكويت) هو أهم تلك المشاريع

وفى رأى البعض ان الهدف الأخير للاتجاه نحو الشرق هو أن تصل المانيا بين نفوذها فى الشرق الأوســـط وبين وجودها فى الشرق الأقصى حتى كياتشاو . ولكن كان معنى المشروع أن تعود مرة أخرى فتصطدم ببريطانيا ــ ومعها فرنسا ــ التى كان لها النفوذ الأكبر فى العثمانية . اخطر من ذلك كان معناه أن تصل المانيا الى الخليج العربى لتضرب بريطانيا فى العراق على طريق الهند مثلما حاولت

فرنسا من قبل فى مصر . ولقد تعاظم النفوذ الألمانى الاقتصادى والسياسى بالفعل فى الدولة العثمانية وانتزعت من الامتيازات والمصالح ما عمق ابعاد الصراع بين القوتين الاوربيتين بل وحتم الصدام بينهما

واذا نحن نظرنا الى الصراع الاستعمارى بينهما عبر البحار جنبا الى جنب مع الصراع الاقتصادى فى الشرق ، فيمكن — مع ماكينـدر — ان نلخص الموقف جميعا فى ان « البريطانيين والالمان اخذوا مقاعد فى قطارات سريعة على نفس الخط ، ولكن فى اتجاهين مضادين . ولعله لم يكن مفر من التصادم منذ حوالى ١٩٠٨ . وقد يمكن ان نحدد الفارق بين المسئولية البريطانية والالمانية كالآتى : السائق البريطانى بدأ أولا ، وسار بلا اكتراث ، مهملا الاشارات ، بينما أن السائق الألمانى قوى عن عمد قطاره وحصنه حتى يتحمل الصدمة ، ثم وضعه على الخط الخطأ ، وفى آخر لحظة فتح صمامات بخاره » (١) .
لقد أصل بسمارك سياسة الدم والحديد داخل حدود المانيا من أجل الوحدة ، ولكن القيصر بعده نقلها الى خارج الحدود من اجل التوسع

وفى هذا الصدام الرهيب لعبت حقيقة جغرافية معينة دورا استراتيجيا حاسما وفاصلا . ان المانيا التى يقع جزء منها فى شرق أوربا وجزء فى غربها ، والتى تضع قدما على البر وقدما فى البحر ، هى اساسا منطقة بينية تنحصر بين قوى البر الكبرى فى شرق القارة وقوى البحر الكبرى فى غربها . انها اليوم « التمساح » الأكبر بين فيل الشرق وحيتان الغرب ! ومن هـذه الحقيقة نبعت كل المواقف والتجمعات والتشكيلات السياسية والاستراتيجية فى الحرب العظمى الأولى

(١) Democratic Ideals, p. 110 1.

فمنذ ما قبل الحرب الأولى كانت فرنسا قد تحالفت مع الروسيا ، وفى الحرب نفسها لم تجد بريطانيا صعوبة فى حشد كل دول غرب اوربا البحرية ابتداء من ايطاليا حتى هولندة ضد المانيا ، ثم فى استكمال الكماشـــة من الشرق بجذب الروسيا الى المعركة . وتفسير ذلك ان دول غرب أوربا البحرية قد شعرت بسرعة بوحدة مصالحهـا الكامنة ، حتى ـ على سبيل المثال ـ لقد ادركت بريطانيا بالندم والأسف خطاها حين تركت فرنسا بلا مساعدة ضد المانيا فى الحرب السبعينية . وبالمثل أدركت الروســيا والغرب وحدة مصالحهما المباشرة أو المؤقتة ضد القــوة البينية ، فما قامت الحرب مباشرة الا لثورة السلاف على قهر الجرمان فى امبراطورية النمسا ـ المجر

اما فى الجانب الاخر ، فقد كانت استراتيجية المانيـا هى ـ كما لو بالغريزة ـ تجميع قوى المنطقة البينية فى شرق اوربا ووسطها : النمسا ـ المجر ،بعض دول البلقان ثم الدولة العثمانية . وكلمة «دول الوسط Central Powers» التى اطلقت عليها تعبير جغرافى واستراتيجى دقيق بالفعل فى هذا الصدد . ومن ثم يبدو النمط الجغرافى للصراع واضحا كل الوضوح وبسيطا الى حد مثير : لقد اجتمعت قوى البر الضخمة فى الشرق مع قوى البحر الســائدة فى الغرب لتهصر ، بين شقى رحى ، المنطقــة البينية المحصورة بينهما

بهذا حاربت المانيا فى جبهتين ، وحققت فى البــداية انتصارات داوية فيهما ، الى أن انهارت القوة الشرقيــة الروسيا وخرجت من المعركة وقد خسرت فى برســت ليتوفسك كل مكاسبها الاقليمية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهى دويلات البلطيق وفنلنــدة وشرق بولندة . فاصبح الصراع حينئذ بين القوى البينية والقوى

البحرية حيث سادت لفترة طويلة حرب الخنـــادق اى الحرب الجالسة ۰ ولكن دخول الولايات المتحدة بثقلها فى صف القوى البحرية قلب كل توازن وجعل النتيجة حتمية أو هو عجل بها . والواقع ان دخول الولايات المتحـــدة البحرية هو وحده الذى حدد مصير الصراع

ومع الهزيمة فقدت المانيا كل مستعمراتها عبر البحار ، وقلمت رقعتها على القارة بلا هوادة فانخفض سكانها فى فرساى من نحو ٦٨ الى ٦٠ مليونا ومساحتها من ٢٠٨ الف ميل مربع الى ١٨١ الفا . اما امبراطورية النمسا ـ المجر فصفيت الى كوكبة كالموزايكو من دول مستقلة ملأت وجه شرق القارة كصف أوسط من القوى الصغرى يفصل بين الروسيا والمانيا . هذا بينما تضاءلت تركيا الى قوقعة الأناضول وورث الحلفاء الامبراطورية العثمانية فى الشرق الاوسط والعالم العربى كاستعمار بالانتداب ، وبهذا ختم نهائيا على مصير دولة الرجل المريض التى عاشت اطول مما ينبغى ومما كان يمكن لها وحدها لولا مضاربات القوى العظمى

ولكن برغم كل قيود فرساى (أم بســـببها ؟) تقفزت المانيا مرة أخرى فى غضون ربع قرن من الهدنة المسلحة فى محاولة أعتى واشد هولا من أجل السيادة العالمية لا اقل . وكان هذا الهدف اشد تحديدا وقطعا منه فى المحــــاولة الاولى بحكم طغيان الايديولوجيــــة العنصرية الآرية على النازية الحاكمة . ولاشك ان النازية كنظام فاشستى كانت ـ جزئيا ـ نتجا للتقليم وذلك الحرمان من المستعمرات الذى نال المانيا . فبعكس الحال فى الحرب الأولى دخلت المانيا الحرب الثانية بلا مستعمرات البتة . وبينما كان فى وسع الدول الغربية أن تتباهى «بديمقراطيتها» فى الداخل، وهى التى بنتها على اساس ديكتاتوريتها فى المستعمرات ،

لم يكن امام المانيا سوى الديكتاتورية العسكرية السافرة

وقد مرت مطالب المانيا فى عدة مراحل . فاولا طالبت بوحدة كل الالمان ـ الالمانية Deutschtum ـ فى دولة الرايخ ، وذلك بضم العناصر والأقليات الألمانية خارج المانيا وهم ما يسمون بالالمان خارج الوطن Auslandesdeutsche وعددهم كان يناهز العشرة ملايين . وقد نجح هتلر بالفعل فى أن يضم اغلب هذه الأقليات قبيل الحرب فوصل بعدد سكان المانيا الى ٨٨ مليونا وبمساحتها الى ٢٥٩ الف ميل مربع

وكانت المرحلة الثانية هى المطالبة بمجال حيوى Lebensraum « للالمان (١) ، على زعم انهم « شعب بلا مجال Volk ohne Raum» . وكان هذا المجال فكرة مطاطة لا تحددها فى الواقع ، وبلغة النازية ، الا « ارادة القوة Will zur Macht» « ، فتتسع أحيانا من وسط اوربا حيث طالبوا « بمبدأ مونرو الماني » الى وسط اوربا وشرقها حتى أوكرانيا والقوقاز والبلقان ! ومن اجل هذا ظهر مشروع جديد « للاتجاه نحو الشرق » ، ولكن هدفه هذه المرة كييف لا بغداد

ولقد قامت الحرب فى النهاية منعا لالمانيا من اطراد التوسع والانطلاق نحو السيادة العالمية ، وتحول الصراع الاستعمارى الى لون من الصرع السياسى .. وكانت تجمعات القوى فيها تختلف فى بعض جزئياتها عنها فى الحرب الكبرى الأولى ، ولكنها لا تخرج أساسا عن جوهر الصراع فيها . والتغيير الهام ان كلا من ايطاليا واليابان ، بانظمتها الفاشستية العسكرية ، وقفت مع المانيا رغم

(1) S.V. Valkenburg Rise & Decline of German Lebensraum, in New Compass of the World, op. cit., pp. 209-14.

انهما قوى بحر . وكان هدف المحور السيطرة على العالم على اساس تقسيمه الى مناطق نفوذ عظمى ـ سياسة Grossraumwirtschaft

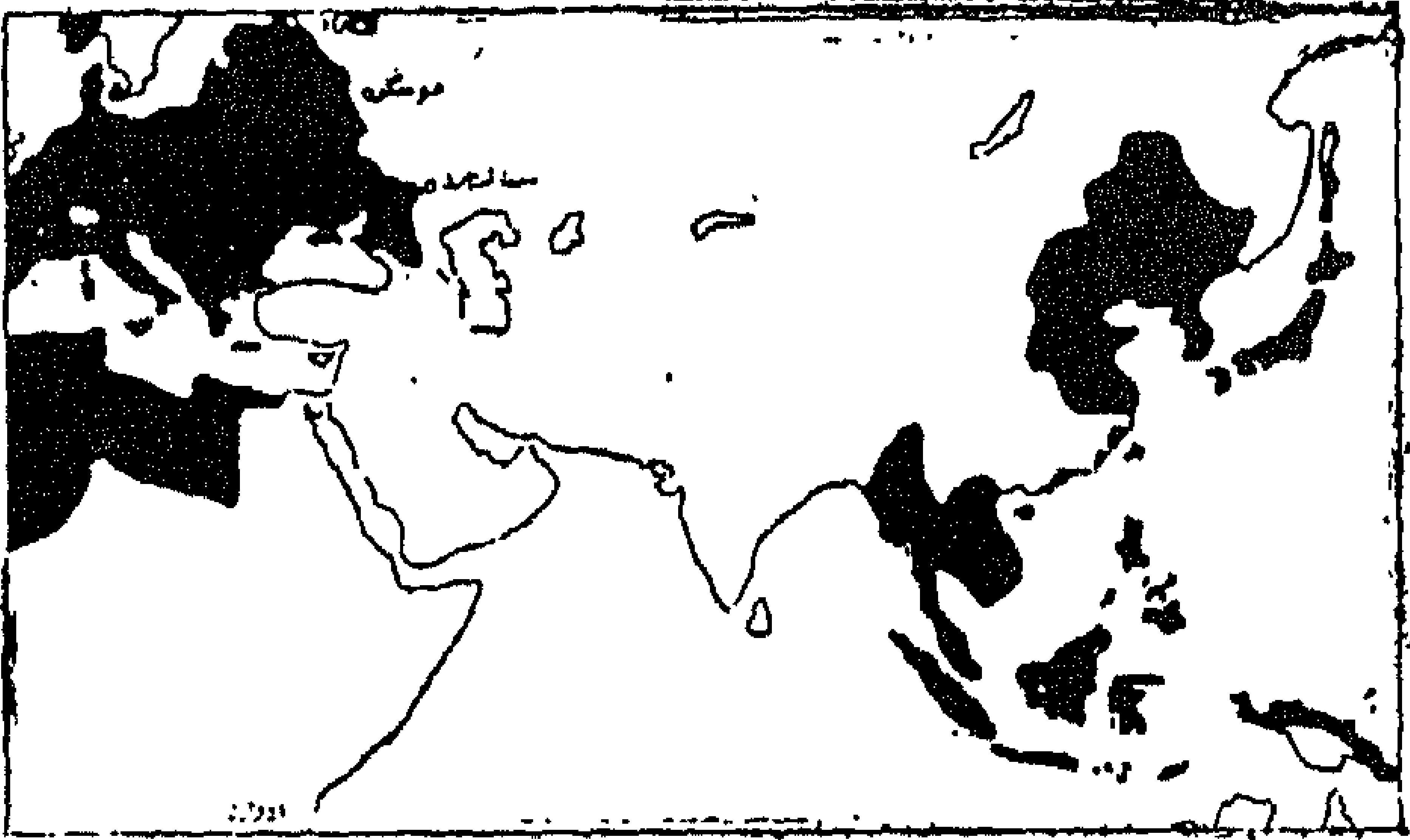
ولكن الحقيقة ان المعركة الأوربية كانت معركة المانيا ، لأن اليابان كانت تعمل فى مجال جغرافى منفصل تماما . اما ايطاليا فلم تكن اكثر من ذنب لالمانيا ودخلت الحرب متاخرة فى انتهازية واضحة وخرجت منها بالانهيار الداخلي كما حدث للروسيا القيصرية فى الحرب الاولى . ورغم كل ادعاءاتها الجوفاء ومظاهرات القوة ، لم تكن ايطاليا الفاشستية قوة عظمى اطلاقا ، ولم يكن حلم « حبيسة البحر المتوسط » باعادة الامبراطورية الرومانية و « بحرنا » الا محاولة لوضع عقارب الساعة الى الوراء وضد الجغرافيا تتجاهل أن ايطاليا فى العالم الرومانى المحلى المحدود شيء يختلف تماما عن ايطاليا فى عالم القرن العشرين بابعاده الكوكبية (١) . وقد جاءت الحرب لتثبت خواءها وتفاهتها بصورة ساخرة .

هذا عن جانب المحور . اما فى الجانب الآخر فقد اجتمعت كل الدول البحرية فى غرب اوربا ابتداء من النرويج حتى فرنسا ، الى أن انضمت اليهم الولايات المتحدة كالعادة ، ومتاخرة كالعادة ايضا ، ثم الى أن انضمت الى الجميع قوة الاتحاد السوفييتى فى الشرق ، وهكذا عدنا الى النمط التقليدى لاستراتيجية الحرب الاولى وهى اجتماع قوتى البحر والبر فى اوربا فى مواجهة القوة البينية الأمفيبية ، او الحوت والفيل فى مواجهة التمساح

واذا كان ثمة فارق فهو أن هناك بعضا من تداخل بين تلك القوى يعقد الصورة نوعا . فقد اجتمعت ايطاليا

(١) W.G. East, Mediterranean Problems, Discussion Books.

البحرية مع المانيا البينية ، بينما فى الشرق اصبحت اليابان البحرية تتصارع مع الولايات المتحدة البحرية . وفيما عدا هذا اذن يمكن ان نقول ان الحرب الثانية استمرار او تكرار للحرب الاولى من الناحية الجيوستراتيجية بوجه عام



شكل (٢١) زحف المحور فى أوجه فى الحرب الثانية. كانت خطة « النظام الجديد » ان تتصل الجبهة الاوربية بالاسيوية فى النهاية !.

واذا كانت الحرب الاولى تتميز بالحرب الجالسة ، فهذه الحرب (١) امتازت بالحرب الخاطفة الكاسحة Blitzkrieg واستراتيجية الرعب . فكانت الدول الصغرى تسقط فى ايام ، والكبرى فى شهور ، والكل فى اقل من سنتين ؛ ففى هذا المدى كانت كل اوربا ابتداء من النرويج حتى اليونان ، ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفييتى الأوربى ، قد سقط لالمانيا اما بالغزو او بالضم

(١) الجيوبولتيكا ، ج ١ ص ١٢١ - ١٩٩

او بالانقلاب . وفى هذا التوسع الكاسح اوشكت حدود المانيا من الناحية العملية أن تكون هى جيوشها

وسيلاحظ ان حركة الغزو ترسم دائرة عكس عقارب الساعة ، فبدأت بالنمسا ثم تقدمت الى تشيكوسلوفاكيا الى بولندة الى النرويج الى هولندة وبلجيكا الى فرنسا الى البلقان . وواضح كذلك أن هذا التوسع الصاعق يتخطى بكثير امبراطورية نابليون امتدادا وسرعة ولم تعرف أوربا له من قبل مثيلا . ولعل هذا هو الفارق العسكرى والاستراتيجى بين آخر حرب فى عصر ما قبل الصناعة وآخر حرب فى عصر الصناعة . كذلك فان الحرب العالمية الثانية أقرب فى بعض النواحى الىالحروب النابليونية منها الى الحرب العالمية الأولى

كيف اذن انهارت « قلعة أوربا » الالمانية هذه وقد سيطرت على كل موارد القارة ؟ لا ، بل السؤال اولا : كيف استطاعت المانيا ومحورها ان يقفوا فى صف ، وبقية العالم بأسره تقريبا فى الصف الآخر ؟ لاشك أن ذلك فى ذاته مقياس لقوة المانيا الذاتية الكامنة فى الموارد والطاقة البشرية والاستراتيجية التى لاسبيل الى التقليل منها ، ولكن من المحقق ان سيطرتها على كل موارد القارة بعد ذلك هى وحدها التى مكنتها من أن تواجه العالم

على ان النهاية جاءت لعدة أسباب . فرغم سيطرتها الجوية الحاسمة ، فقد عجزت المانيا كقوة امفيبية عن أن تعبر البحر الى جزيرة بريطانيا ، مثلما عجز نابليون من قبل رغم سيطرته على القارة برمتها تقريبا . ومن خلف بريطانيا كانت موارد وقوى الكومنولث والامبراطورية . ولكن أهم من ذلك دور الاتحاد السوفييتى البرى والولايات المتحدة البحرية . فقد كانت معركة الاتحاد ـ

كحملة نابليون – هى بداية النهاية : استنفدت طاقة المانيا وامتصت قواها بابعادها القارية الضخمة ، الى ان تحول الجزر الدفاعى الى مد هجومى اكتسح قلب المانيا . ويكفى لكى ندرك دور الاتحاد فى مصير الصراع ان نعرف ان تسعة من كل عشرة المانيين قتلوا فى الحرب الثانية جميعا قتلوا على ارضه

وقد غطى التوغل الالمانى فى الاتحاد فى اقصاه نحو ٧٠٠ الف ميل مربع وصلت الى خط يمتد من لننجراد الى موسكو الى ستالينجراد الى القوقاز ، اى من البلطيق حتى البحر الاسود ، او على جبهة لا تقل عن ٢٠٠٠ ميل طولا ، ولعلها كانت أوسع جبهة حربية فى التاريخ . ولكن هذا بالذات يحدد استراتيجية الاتحاد . فعدا « الشتاءوالوحل » – اصدقاؤه التقليديون – كانت استراتيجية الاتحاد هى الدفاع بالعمق وشراء الزمان بالمكان . فكان ينسحب بعدوه فى «ارض محروقة» ريثما ينقل صناعاته وموارده عبر الاورال فى قلب آسيا ، وحتى يستنفد قوى العدو ويطيل خطوط مواصلاته وتموينه

أما الولايات المتحدة فقد نشرت قواتها المحاربة فى كل اركان الكرة الارضية وصبت مواردها وقواها فى آخر معاقل القوى البحرية فى اوربا بريطانيا وانقذتها من السقوط ، فكانت رأس الحربة أو الجسر الذى بدأ منه أو قريبا منه غزو القلعة . فاطبقت قوى الغرب البحربة على القارة من فرنسا غربا وشمال افريقيا جنوبا الى أن التقى فكا الكماشة السوفييتى والغربى فى برلين

وبهذا اثبتت الحرب ان موقع المانيا فى وسط القارة سلاح ذو حدين . فهى بحكم هذا الموقع تشترك مععديد من الدول فى الحدود ، وبالتالى تستطيع من موضع

القوة ان تضرب فى كل اتجاه ، وهكذا بالتقريب كان . ولكنها لنفس السبب يمكن ــ فى موضع الضعف ــ ان تضرب من كل اتجاه ، وهكذا ايضا بالفعل كان

هكذا فشلت المحاولة الثانية العظمى والاخيرة لالمانيا من اجل انتزاع السيادة العالمية من بريطانيا . بل خرجت منها وهى محتلة مقلمة الحدود مبتورة الاطراف ، برقعة اقل مما خرجت بها من فرساى ، واسوأ منها مقسمة ممزقة بين المانيا شرقية وغربية . لكنها ــ تلك المحاولة ــ كانت فى نفس الوقت نهاية السيادة العالمية البريطانية ، فقد امتصت الحربان العالميتان حيوية بريطانيا ومواردها حتى النخاع . لقد حطم كل من بريطانيا والمانيا الاخر ، فاهتبلت القوى الجديدة الصاعدة الفرصة لتقوم على اشلائهما . واذا بالصراع من اجل السيطرة العالمية ينتقل الى القوى الضخمة هذه ــ القوى الماموث ــ الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

وبهذا مضى الى الابد عصر القوى الكبيرة التى تدور احجامها حول الخمسين والسبعين بل حتى التسعين مليونا من السكان ، وانتهت تماما كل فرصها فى التطلع الى الصدارة او السيادة العالمية . وقصارى تطلعاتها اليوم لا يمكن ان تتعدى دول المرتبة الثانية أو الثالثة . وهى اذا كانت لاتزال تستطيع أن تشعل حربا عالمية فانها لم تعد بقادرة على أن تطفئها . ذلك يصدق على المانيا كما يصدق على كل من بريطانيا واليابان سواء بسواء

وهنا لن يتعذر علينا ان نرى أن انتقال مراكز الثقل الى القوى الجديدة ليس الا استمرارا أمينا لمنطق وحركة وميكانيزم الصراع الذى عرفته قوى غرب أوربا طوال العصور الحديثة . فهذا الصراع الذى بدأ بالبرتغال

واسبانيا فى القرن الخامس عشر ثم انتقل بالتدريج شمالا وفى انفراج مطرد حتى انتهى الى بريطانيا وألمانيا فى القرن العشرين ، قد تمم الان مساره نزحف شـــمالا وازداد انفراجا حتى استقر فى الولايات والاتحاد السوفييتى

واذا أخذنا فى الاعتبار أن الولايات كانت بســـــلاحها الذرى أقوى حربيا من الاتحاد فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة وحتى منتصف القرن ، فيمكن أن نرى ان القوة البحرية كانت الاسبق زمنيا الى وراثة الصدارة العالمية ، ولو ان المنافس البرى لحق بهـــا بسرعة غير عادية . وبهذا يكون نفس الترتيب التقليدى فى حركة مراكز الصراع عبر التاريخ الحديث قد تكرر فى المرحلة المعاصرة

والمهم فى هذه الانتقالة الاخيرة أن مركز الصراع غادر غرب أوربا نهائيا ولم يعد صراعا بين قوى بحر صرفة ، بل بعد ان أصبح صراعا بين قوة بحرية وقوة امفيبيـــة لفترة ما فى القرن العشرين ، انتهى الى ان يكون صراعا بين قوى برية وبحرية مطلقة . وبهذا التدريج الوئيـــد استكملت خطوط الصراعات التاريخية نسيجها لتصل فى النهاية الى قمة التناقض الجغرافى والاســـتراتيجى — والايديولوجى كذلك

فلأول مرة فى التاريخ الحديث لا يخرج صراع القوة عن نطاق غرب أوربا فحسب ، وانما — وقد يكون هذا أشد خطرا وأعمق مغزى — يخرج عن دائرة الصراع بين قوى رأسمالية على الجانبين ليتحول الى صراع بين قوى رأسمالية فى جانب وقوى اشتراكية او شيوعية فى جانب آخر . لقد أصبح صراع الاضداد كاملا فى كل معنى ومنحى . وهو ما ينقلنا الى دراسة هـــذه القـــوى الماموث المتنـافرة والمتناحرة

القوى الماموث :

الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى

ويسميها البعض تهكما بالقوى الدينوصوريه ! ورغم تلك التناقضات الجذرية فى الموقع والاستراتيجيـــــة والايديولوجية ، فان بين الولايات والاتحاد مشـــابهات عديدة . فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى اشـــد حداثة . فقد نما كلّ منهما بصورة غير ملحوظة بل تكاد تكون فى غفلة من العالم ، ثم ظهر فجأة فى مواضـــــع الصدارة ، وعرف العالم بوجـــودهما وعظمتهما فى وقت واحد تقريبا

واذا كان مفكر مثل دى توكفيل (١) قد استطاع فيما يشبه نبوءة عراف ثاقبة ان يتكهن فى القـــرن المـاضى بارتقائهما معا الى الصدارة العالمية ، فان هذا الارتقـــاء جدير بأن يستثير الدهشة مع ذلك . فقد كانت الولايات مخلوقا سياسيا ــ بل بشريا ــ صغير السن للغاية ، وظل حتى نهايات القرن التاسع عشر قوة زراعية ، أما الاتحاد فمخلوق أغرب

ففى أغلب تاريخها الحديث كانت الروسيا تعيش عصورها الوسطى الى حد بعيد ، وكانت فى عزلة راكدة كاملة عن كل تخمرات اوربا التاريخية من نهضة الى اصلاح ، بل كان أثر حملة نابليون عليها حضاريا بمثابة احتكاك الصليبيات مع العرب على اوربا . وحتى عشية الثورة الشيوعيـــة ، كانت الروسيا لم تزل تعيش فى رق واقطاع وبيروقراطية كلها على مستوى بدائى آسيوى اكثر منه أوربيـــا ، حتى شبهت بعملاق متهدل متهالك ينزوى فى استحياء على الطرف القصى من المائدة الاوربية ، وانما بحكم ضخامتها وحدها

(1) Alexis de Tocqeville, Democracy in America, 1835

كانت اوسع من ان يهزمها الاوربيون ولكنها أعجز واكثر تخلفا من أن يأخذوها بجدية

فكيف حدثت هذه التحولات المريدة ؟ فأما الولايات فقد ورثت حضارة وتكنولوجيا اوربا الام بخير ما فيها دون شر ما فيها ، ووجدت في قارتها البكر الهائله بيئات طبيعية ومناخية تذكر ، عموما ، ببيئات أوربا ان لم تكررها أحيانا، وهي على اية حال من أصلح البيئات للنشـــــاط البشرى الكامل . اما الاتحاد فاذا كان قد ورث بيئة حضـــــارية واجتماعية فى اقصى درجات التخلف ، فان بيئته الطبيعية ببرودتها المتجمدة القارسة البالغة القسوة لا يمكن الا ان تكون طاردة ووائدة للنشاط البشرى ، او على الاقل فلم يكن من المتصور قط ـ بقوانين الحتم الجغرافى ، او حتى برغمها ـ ان تقدم فى يوم قاعدة لاحدى اضخم قوتين عالميتين فى التاريخ

والحقيقة ان الذى يستثير الدهشة فى طفرة الاتحـــاد ليس فقط تثوير النظام الاجتماعى بالثورة الشيوعيـــة ، وانما كذلك ثورة البيئة ـ البيئة الطبيعية بالتحديد ـ التى احدثتها تلك الثورة الايديولوجية . فالجغـــرافى لا يملك الا أن يرى ان الثورة الشيوعية تحولت اساسا وفى التحليل والترجمة الاخيرين الى ثورة بيئات خلقت بيئة جديدة ـ وبالذات مناخا جديدا ـ الغت كل معوقات البيئة الطبيعية الغفل . ونحن نشير هنا الى الكهرباء بالدقة ، فليس مما لا مغزى له أن كل الثورة الانتاجية والصناعية والحضارية والاقتصادية الهائلة التى خلقها الاتحاد وخلقته انما يكمن مفتاحها فى كهربة الاتحاد . وهل من الصدفة البحتة ان تكون هذه قيمة الكهرباء فى بيئة مناخية متجمدة بالذات ؟ لقد غيرت بالفعل المناخ الذى تجرى فيه الحياة اليوميـــة للمواطن ، وهى بما اضافته من طاقة أصطناعية بديلا عن

طاقة الشمس كانت بمثابة تغيير بالقوة فى خطوط عرض الاقليم ذاته كما قد نقول ، وما نظن فى هذا كثيرا من المبالغه ، ولا نعنى به بالتأكيد أن نقلل من وزن الايديولوجية لحساب التكنولوجيا ، وحسبنا أنه هو لينين نفسه الذى قال منذ البداية ان « الشيوعية هى كهربة الاتحاد »

والواقع ان تأخر وصول الاتحاد الى الصدارة العالمية حتى آخر مرحلة من التاريخ الحديث ، فى حين ان الروسيا دولة قديمة نسبيا من الناحية البشرية ، انما يعنى انها كان لا بد ان تنتظر وصول التكنولوجيا ووسائل قهر المناخ البارد الى ذروتها القصوى . والامر كله يؤكد ما رايناه من قبل من تحرك مركز ثقل الحضارة والقوة عبر التاريخ من البلاد الدافئة الى الباردة باطراد متصل بدرجة او باخرى

تلك بعض من جوانب التشابه فى بداية وصعود كل من الاتحاد والولايات كقوى عظمى . وعدا هذا ، وبعد هذا ، فهما وحدهما اللذان يشتركان فى ثلاث خصائص هى الاساس الشرطى لمقومات القوة فى العصر الحديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير ، الموارد الطبيعية الهائلة (١)

فأما المساحة الضخمة ، فكلاهما أشباه قارات جبارة على أى تقدير . الاتحاد خرج من الثورة وهو أكبر دولة داخلية عرفها التاريخ على الأرجح ، وأنتهى وهو يحتل سدس مساحة اليابس ويربو على ضعف مساحة اى دولة اخرى او على اى دولتين اخريين فى العالم . والولايات وان كانت أقل كثيرا من نصف الاتحاد مساحة ، فهى تظل الخامسة بين دول العالم فى هذا الصدد

(١) Bowen, op. cit., p. 9.

اما سكانا ، فكلاهما يدور الآن حول علامة المائتي مليون ـ الاتحاد يتعداها بوضوح (٢٣٠) والولايات تقع اليوم عليها بالضبط (٢٠٠) . ولكل منهما نواة عمــــرانية وحضارية واضحة تعد مركز الثقل والقوة الحقيقيــــة فيه ، هى الربع الشمالى الشرقى فى الولايات ، والقطــاع الجنوبى مما غرب الاورال فى الاتحاد . وقد تكون نــواة الاتحاد أكبر قليلا من نواة الولايات ، كما أنها اكثر تجانسا فى كثافتها وأقل تركيزا

ولكل منهما بعد هذا درقة ضخمة كالشرنقة السميكة من الاراضى خفيفة الاستثمار والتعمير تغلف النــــواة وتمنحها عمقا استراتيجيا ودرعا دفاعيا فى الشــــمال وعلى أحد الجانبين . ولعل الخلفية القطبيــــة ودون القطبية التى تدعم نواة الولايات والتى تشمل كندا اعمق واوسع قليلا منها فى حالة الاتحاد . وقد يكون من الاصح أن نقارن الاتحاد مساحة وتركيبا وربما سكانا لا بالولايات المتحدة وحدها وانما بها وبكندا معا (١)

والقوتان بعد هذا تتشابهان فى أن ترامى رقعتهمــــا عبر خطوط العرض والطول منح كلا منهما غنى وتنــوعا فى الاقاليم الطبيعية والنباتية ، وثراء وتعددا فى الانتاج الزراعى والمعدنى ، اقترب بهما من الكفاية الذاتيــــة والاستقلال الاقتصادى الى حد بعيد ، وبالتالى جعــــل تجارتهما الخارجية تمثل نسبة ضئيلة من مجمــــوع انتاجهما الضخم

كذلك فان السكان فى كل منهما عصبــــة امم كاملة : الولايات بوتقة اختلطت فيها كل أجناس العالم ولكن اساسا كل قوميات أوربا بعد أن تخلت جميعا عن أصولها طواعية وطمعا ، والاتحاد مجتمع متعدد العناصر متعدد القوميات

(١) Fawcett, Geog. & Emipre, pp. 429-30.

ولكنه يؤلف بينها فى تماسك نادر وبنجاح ملحوظ بفضل سياسته الثورية فى تنمية القوميات والحضارات المحليه والمحافظة عليها بدلا من كبتها او تنميطها ، وذلك فى اطار الاستقلال الذاتى والحكم المحلى . على ان هناك عنصرا معينا يسيطر عدديا وحضاريا فى الحالين : الانجليز فى الولايات والروس فى الاتحاد . وكل منهما لهذاوذاك دولة اتحادية لا وحدوية ، وان كان حق الخروج من الاتحاد ممنوعا فى الولايات المتحدة ، وغير واضح تماما فى الاتحاد السوفييتى (١)

وعدا هذا فان القوتين تتشابهان فى انهما كانتا فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ؛ ثم خرجتا فجاة الى العالم الخارجى . فالولايات فى ظل مبدا منرو نات بنفسها عن عمد وبمحض ارادتها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، ولم تشارك فيها الا راغمة حين بدت اخطاره تهددها فى الحرب الاولى . وبعدها عادت على أعقابها لتنعطف على نفسها فى عزلتها الاثيرة ، الى أن فرضت عليها الحرب الثانية أن تخرج منها . ومهما يكن ، فانها فى الحالين لم تدخل الحرب الا متاخرة سنة أو سنتين نتيجة لترددها وتأرجحها بين العزلة والخروج

أما الاتحاد فطالما ضربت أوربا حوله « نطاقا صحيا » أيام القيصرية فعاشت فى شبه عزلة ، حتى اذا كانت الثورة وجدت نفسها مطوقة بل مغزية بجيوش أوربا واليابان فى « حرب التدخل » : جيوش رانجل فى القرم ، جيش كولشاك فى سيبريا ، جيش بولندة فى أوكرانيا ، جيش رومانيا ، جيش بريطانيا فى اركانجل ، وجيش اليابان فى شرق سيبريا ، بل لقد وصلت الاخيرة الى بحيرة بيكال!(١)

---

(١) East, New Europe. p. 180-1; Cole. pp. 235 ff.

(٢) ايست . ص ١٦٤

كل اولئك أولاد الثورة في مهدها . وكل أولئك دون جدوى . الا ان الاتحاد بعد ذلك فرضت عليه العزلة المطلقة ، وتجنبه العالم الخارجي كما يتجنب المجذوم ! وكان « الستـــار الحديدي » حقيقة واقعة لا منذ الحرب حين صك الاسم ولكن منذ ثورة اكتوبر

واخيرا فان كلا منهما بلا تاريخ استعماري قوي او محدد شكليا على الاقل ، او هو بحكم التوسع الارضي المتصـــل قد لا يعد ابستعمارا الا في معنى خاص ومن نوع خاص . وعلى اية حال ، فكل منهما ادعى المثالية السياسيـــة في البداية وتبنى مثلا عليا ضد ـ استعمارية ولم يســع الى الاستعمار السياسي السافر ، بل ولا يعترف او يسمح لنفسه به نظريا . وربما كان ذلك لانهما خرجتا الى العالم الخارجي وقد اغلق باب الاستعمار عبر البحار تقريبا

ومع ذلك فان كلا منهما يتهم الاخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو باخرى . فالاتحاد السوفييتي بعد الثورة ورث امبراطورية القياصرة كما هي ولم يتخل عن الاقاليم التى عدت استعمارا كوسط آسيا ، بل اكثر من هذا ضم فيما بعد مزيدا من الاراضي . أما الولايات فقد ضمت عديدا من الجزر في الهادي والكاريبي بالغزو حينا والشراء حينا آخر . واذا كان الاتحاد يتهم الولايات في هذا بالاســـــــتعمار الاستراتيجي كما يدمغها بالاستعمار الاقتصادي في العالم الخارجي كبديل عن الاستعمار السياسي المبـــاشر ، فان الولايات ترد له الاتهام «بالاستعمار المذهبي» والايديولوجي الذي يختفي من السطح ليعمل تحتيا هدما وتخريبا

وقد خرجت الولايات والاتحاد من الحرب الاخــــيرة وهما اقوى قوتين على ظهر الارض ، لا ثالثة لهما . فحتى الامبراطورية البريطانية في مجموعها لم تكن لتقارن في قوتها باي منهما ، فضلا عن تباعد وانتشار اعضائها ولاتم تفككها

واستقلال اغلبها بعد ذلك ثانيا . فكان هذا التكافؤ او التقارب فى القوة مما اذكى الصراع وحدة التناقض بينهما كفرسى رهان

وفى مقابل هذه المشابهات ، بقيت الفروق والاختلافات الايديولوجيــــة والاستراتيجية محــورا عميقــا للصراع والتناقض . فقد اتى الاتحاد بفلسفة شيوعية شموليــة ، ضد راسمالية ، ضد طبقية ، ضد قومية ، وضد عنصرية مبشرا بها كدين جديد يريد ان ينشره فى العالم او يفرضه عليه « بالثورة العالمية » بدلا من الاديان المعروفة . ومحور هذه الفلسفة اولا واخيرا هو ديكتاتورية البروليتاريا

وعلى النقيض من هذا وقفت الولايات المتحــدة كاعلى واعتى رمز للراسمالية الجامحة ، هرمية الطبقات ، تتعصب للقومية الذاتية مثلما تمارس التفرقة العنصرية ضـــــد الاجناس الاخرى فيها . وفى مقابل الايديولوجية التى تقدم بها الاتحاد السوفييتى الى العالم كنقطة قوته ودعوة حياته شرعت الولايات المتحدة التكنولوجيا كنقطة تفوق نظامها ، وقدمت فلسفة مضادة ترى تطور التاريخ والمجتمع فى مراحل التكنولوجيا لا فى مراحل الصراع الطبقى ، وتكاد تعتقد على اية حال ان هذا العصر هو فى النهاية عصر الصراع بين الايديولوجية والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعيــــة والثورة التكنولوجية . أقطاب متنافرة ، وتناقض حياة او موت ، ومن ثم أقدار متصادمة .. وهكذا بالفعل كان . اعتبرت الولايات ومعها أسلافها وحلفــاؤها دول الغرب الصراع ضد الشيوعية حربا صليبية وكفــاحا مقدسا ، وخرجت لمحاصرته ومبارزته

واخذ هذا التناقض صورة جغرافية محددة حــين اصبح الصراع الاستراتيجى هو بين قوى بر مطلقة وقوى بحر مطلقة يكفى لنرمز للفروق بينهما آن نذكر ان الروسيا

او الاتحاد كانت تاريخيا ارض معركه لحروب الكر والفر ، والانسحاب والانقضاض ، بينما ان الولايات المتحدة لم تطأها اقدام الغزاة ولا حتى طائراتهم منذ بداية القرن التاسع عشر (١٨١٢) . وتبلور هذا التضاد الاستراتيجى بعد الحرب حين احتفظ كل منهما بمواقعه ومكاسبه الاقليمية

فالاتحاد من ناحيته ضم منافذ البلطيق وحول دويلاته الى سوفييتات لا تتجزأ منه ، بالاضافة الى قطاع ضخم من شرق بولندة وشريحة من رومانيا . وخارج هذه الحدود الجديدة أصبحت دول شرق اوربا حتى المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، مضافا اليها كل البلقان عدا اليونان ، أصبحت جميعا دولا شيوعية ملتحمة أشد الالتحام ، مصيريا وبقائيا ، اقتصاديا وحربيا ، بالاتحاد. اصبحت كتوابع أو اقمار تدور فى فلك شمس الاتحاد . ويلخص هذه الكتلة سياسيا حلف وارسو ، واقتصاديا منظمة الكوميكون

ولقد كان معنى هذا ان قوه البر العظمى المرتكزة على اوسع قاعدة فى أوراسيا قد تضخمت حتى ابتلعت لاول مرة المنطقة البينية او الامفيبية التقليدية التى تقع فى شرق أوربا حتى وسطها ، ووصلت بذلك الى البحار المفتوحة فى البلطيق وبحر الشمال والبحر الاسود ومشارف البحر المتوسط ، ولم تعد بذلك حبيسة قاريتها . لقد اتحد الفيل والتمساح فى حظيرة واحدة

وبالاضافة الى هذا فلم تلبث كتلة الصين الضخمة ، وقد استيقظت من بياتها الشتوى التاريخى وتجدد شبابها بالثورة ، ان انضمت الى المعسكر الشيوعى ، لتؤكد فيه أكثر وأكثر صفة القارية والامتداد المتصل بلا انقطاع ابتداء من بحر الشمال حتى المحيط الهادى الجنوبى ، ومن

القطبيات حتى المداريات . وكنتيجة لهذه التوسعات المطردة ارتفعت نسبة الكتلة الشيوعية باطراد : فقبل الحرب كانت تضم نحو ١٠٪ من سكان العالم ، وفى ١٩٥٥ بلغت ٢٦ ٠/٠ من مساحة العالم ، ٣٦ ٠/٠ من سكانه ، وتسيطر على ٣٠ ٠/٠ من انتاجه الصناعى . اى انها بوجه عام تزيد اليوم عن ألف مليون نسمة (١)

ماذا عن الجانب المقابل ؟ هنالك التامت كل أوربا الغربية تحت زعامة ـ ولا نقول وصاية او حماية ـ الولايات فى كتلة مضادة تمتد من اشباه جزر البحر المتوسط حتى اشباه جزر اسكندناوة ، بعمق فى الداخل يصل الى المانيا الغربية ويستوعبها . ومعنى ذلك أن قوى البحر فى أوربا جميعا ، ومن ورائها موارد مستعمراتها عبر البحار ، ومن خلف الجميع قوة البحر الكبرى امريكا ، قد تجمعت فى حلف مقدس ضد الاتحاد وكتلته

وعلى الفور تبدو المحصلة الإستراتيجية العامة للموقف وقد استقطب العالمان المتنافران « استقطابا ثنائيا «bi-polarisation» فى كتلتين رهيبتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين كالترسانة ، وتقفان وجها لوجه بغير حاجز ارضي او فاصل اقليمي بينهما . الكتلة الشرقية الشيوعية، والكتلة الغربية الرأسمالية . والنقطة الحيوية انه باختزال المنطقة البينية الفاصلة ، قد تأكد لاول مرة النمط الجيوستراتيجي الجديد للعالم : لقد أصبح العالم سياسيا « نصفى كرة » ، بعد ان ظل قرونا وهو يمثل نظاما واحدا مغلقا بتلع الكرة الارضية بأسرها . غير اننا لن ننسى فى هذا الانقلاب ان « نصف الكرة» الماركسى ماظهر ولا فرض نفسه الى جوار النصف الرأسمالى الا بفضل

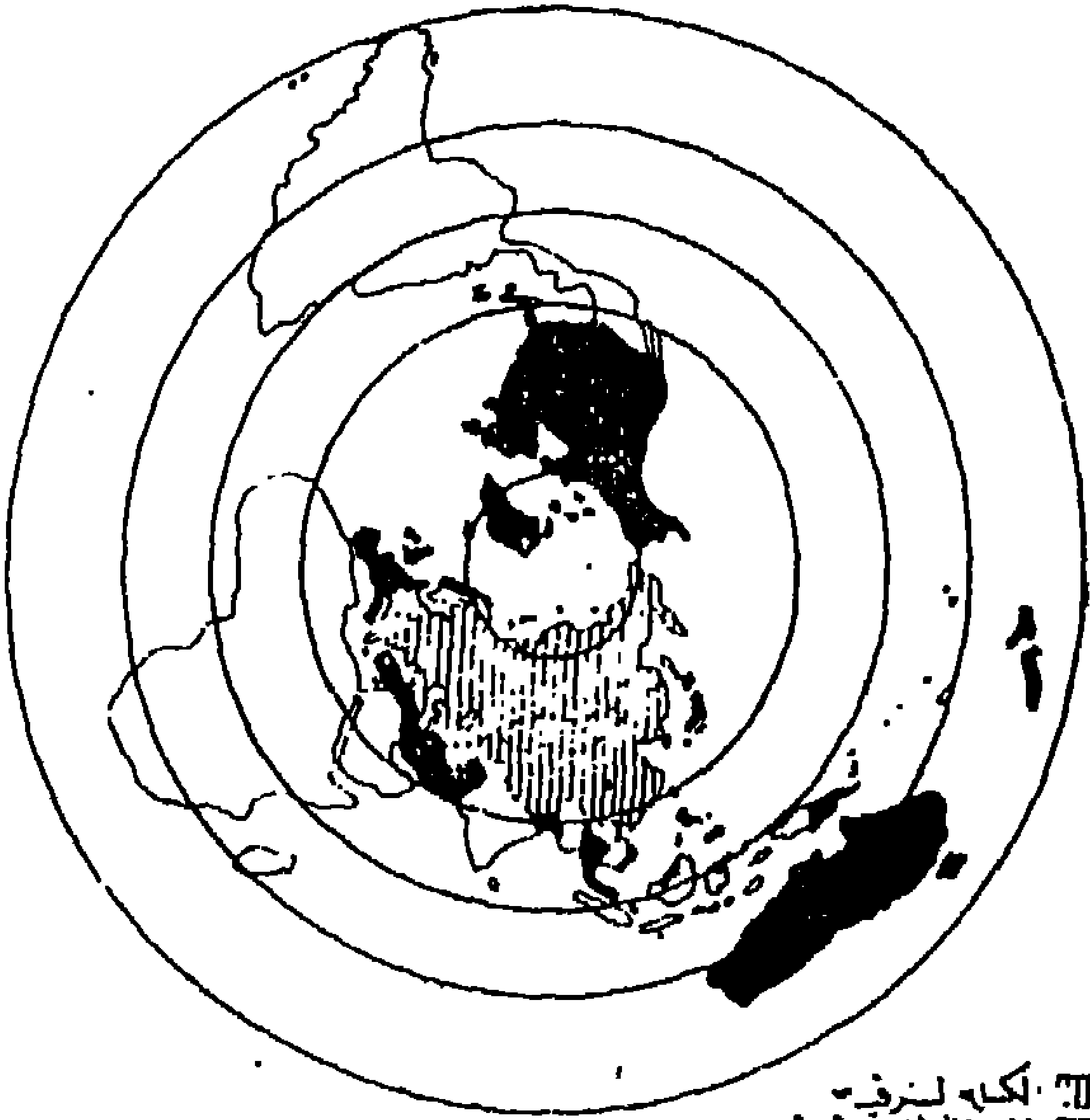
(١) Keith Buchanan, «West Wind, East Wind», Geog. Nov. 1962. p. 334; J.P. Cole, p. 245.

استفادته الى اقصى حد من الصراعات الداخلية والتناقضات الفائرة بين قوى هذا الغرب . وفى النتيجة زال الى الابد احتكار القوة فى يد الغرب الاوربى ، وانتقل العالم لاول مرة فى التاريخ الحديث الى مرحلة ثنائية القوة . وذلك هو المغزى العميق ، والمفعم بالنتائج لاخـــر تطورات الصراع العـــالمى

وسيلاحظ فى هذا النمط الثنائى البتار ظاهرة لهـــا مغزاها . فعلى طول جبهة الالتحام بين المعسكرين تنتشر الدول والوحدات الممزقة التى اخضعها الاستقطاب الثنائى لقسمته السليمانية ـ فى الشرق على محور عـرضى وفى الغرب على محور طولى . فثمة فى الشرق كوريا الشمالية والجنوبية ، والصـين الشعبية والوطنية ، ثم فيتنـــام الشمالية والجنوبية . وفى الغرب يبدأ الانشـــطار من مستوى الدولة حتى يصل الى مستوى المدينة ، على الترتيب اوربا الشرقية والغربية ، المانيا الشرقية والغربية ، وبرلين الشرقية والغربية !

وعنـــد هذا الحد سيلاحظ ان الكتلة الغربية بفضـــل مستعمراتها المترامية حول العالم ، كانت عشيـــة الحرب اكبر مساحة وسكانا من الكتلة الشرقية ، واخطر من ذلك انها كانت تطوقها من الغرب والجنوب والشرق ، بـــل ومن الشمال كذلك حيث تقترب امريكا الشمالية اقترابا شديدا من شمال اوراسيا عبر المحيط المتجمد . وبمعنى اخر فقد كانت الكتلة الشرقية تمثل جزيرة ـ ضخمة حقا ولكن جزيرة فى النهاية ـ فى وسط بحر الكتلة الغربية . ومن هذه الحقيقة الجغرافية نبعت كل استراتيجية الغرب بعد الحرب

الاحتواء containment او الاحاطة encirclement هى جوهر تلك الاستراتيجية ، ومعمارها سلسلة متصلة



شكل (٢٢) الاستقطاب الثنائى ، واستراتيجية الاحاطة والاحتواء .

الحلقات من الاحلاف العسكرية السياسية ، الدفاعية الهجومية ، تتحلق حول الاتحاد وتنقطها نحو ١٠٠ من القواعد الحربية والبحرية والجوية ، أما مهندسها فهو الولايات المتحدة التى تختزن نصف مجموع قواتها المسلحة تقريبا فى تلك القواعد . فهناك من الشمال الغربى حلف الاطلنطى n.a.t.o. - وما هو باسم على مسمى تماما - رأس السلسلة والركيزة الاساسية التى تترامى من النرويج حتى تركيا بلا انقطاع حول أوربا -

ثم يلى حلف بغداد سابقا والحلف المركزى Cento حاليا فى الشرق الاوسط . هـذا عدا حلقة اخرى ـ مفقودة ـ هى منظمة حلف دفاع الشرق الاوسط Medo حاول الغرب أن يفرضها عبثا على العالم العربى . ثم يأتى فى النهاية حلف جنوب شرق آسيا s.e.a.t.o, وبعده تتكفل قوة الولايات المتحدة نفسها بالضلوع الشرقية للمعسكر الشرقى ، لا سيما بفضل وجودها فى اليابان المحتلة وكوريا الجنوبية وصين فورموزا

لقد ضرب الغرب فى مقابل الستار الحديدى الشيوعى نطاقا ناريا او حلقة حديدية راسمالية ! وبين هذا وذاك استعرت « الحرب الباردة » واشتعل السلم المسلح ! ولن يخفى ان الكتلة الشرقية فى هذا كانت عشية الحرب اقرب الى موقف الدفاع بينما ان الكتلة الغربية كانت اقرب الى الروح الهجومية

على انه قد كان من الواضح فى ظل الاستراتيجية التقليدية اى السابقة للذرة ان الفريقين الجبارين اذا ارادا ان يشتبكا فى معركة ، فان ارضها لا يمكن الا أن تكون فى غرب اوربا . لماذا ؟ لان هناك ثلاثة ميادين واتجاهات يواجه فيها كل منهما الاخر مباشرة : الاتجاه القطبى فى الشمال ، ودائرة الهادي على احد الجانبين ، ونطاق غرب اوربا على الجانب الآخر (١)

فاما الطريق القطبى فصحيح انه لم يعد بحرا جليديا مغلقا تماما بفضل التطورات البحرية الحديثة وخاصة جهود الروس فيها ، واهم من ذلك ان الطيران قلب قيمته الاستراتيجية كلية فجعله اقصر طريق بين الاتحاد

---

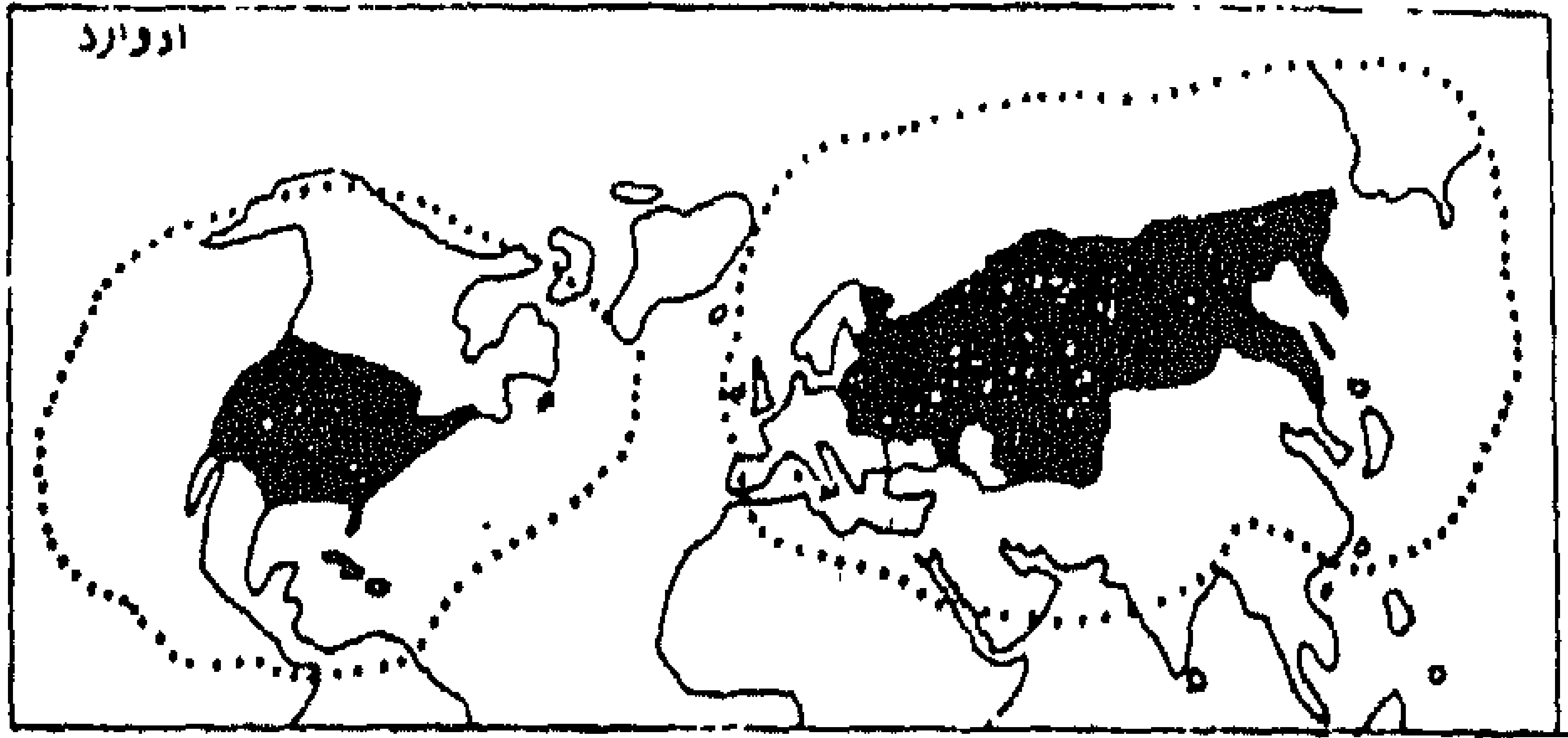
(١) فوست ، ص ٢٣٠

والولايات بل جعله « البحر المتوسط » القطبى الجديد .
ولكنه مع ذلك يظل غير صالح الا للغارات الجوية المداهمة وعمليات التدمير الفجائية stunt flights وليس لحركة الجيوش

اما جبهة الهادى ازاء سيبيريا والاسكا ، حيث يكاد يتماس العملاقان ، فطريق برى طويل جدا ومتطوح عن القاعدة البشرية والعمرانية الكبرى فى كل من الاتحاد والولايات على حد سواء . ولهذا لا يبقى الا جبهة غرب اوربا التى اصبحت بذلك ارض تخوم بكل معنى الكلمة بين الاتحاد والولايات وخط الدفاع الاول عن الأخيرة ، حتى لقد عدها البعض حينذاك اهم منطقة استراتيجية فى العالم . من هنا تاتى اهمية حلف الاطلنطى الحيوية والحرجة معا

وهناك بعد هذا بعض فروق جغرافية بين المعسكرين والقطبين تؤثر فى استراتيجية كل منهما . فبين المعسكرين نجد أن المعسكر الشرقى كتلة أرضية واحدة متصلة بلا انقطاع ، بينما يتالف المعسكر الغربى من جزيرتين كبيرتين هما غرب أوربا وأمريكا الشمالية ، يفصل بينهما كالأخدود المحيط الاطلسى . ومع ذلك فلا ينبغى ان ننسى ان المعسكر الشرقى رغم اتصاله الارضي شكلا ، فهو ينقسم أيضا الى جزيرتين بشريتين عظيمتين هما شرق أوربا والاتحاد فى الغرب ، وكتلة الصين وزوائدها كوريا وفيتنام فى الشرق ، ويفصل بينهما « خط الاستواء الصحراوى » الهائل فى العالم القديم ممثلا فى صحارى ومرتفعات وسط آسيا وسيبريا

ثم ياتى فارق جغرافى آخر بين القطبين . فبحكم الموقع، يستقر الاتحاد فى نصف الكرة « اليابس » ، بحيث يتصل مع أو يقترب من رقعة كبيرة من مسطح الارض وعدد



شكل (٢٢) خط ابعاد ١٥٠٠ ميل حول الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

وفير من الدول ونسبة هامة من البشرية . وهو لهذا يستطيع ان يضرب وأن يتمدد بسهولة وفاعلية فى مدى نطاق ضخم بمجهود أقل . اما الولايات المتحدة فمعزولة فى نصف الكرة « المائى » عن كتلة اليابس وجمهرة الدول واغلبية سكان العالم ، وعليها لكى تصل اليها أن تنفق مجهودا وتتكلف باهظا للانتقال الى مسرح الصراع . ويتضح هذا اذا نحن رسمنا خطوط أبعاد متساوية isostades حول حدود كل منهما وموازية لها . فمثلا خط ابعاد ١٥٠٠ ميل يضع الاتحاد فى احتكاك أو اتصال بمساحة ضخمة من الأرض والناس ، ولكنه لا يكاد يضيف الى الولايات شيئا من ذلك (١)

تلك اذن استراتيجية الصراع الجديد ، فهل تشكل مع الماضى معادلة ما اختزالية مكثفة ؟

(١) جون كول ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

الفصل العاشر

النظريــة العــامة فى الاســتراتيجيــة العالميــة

بمعنى آخر ، أنها نظرية عامة فى الاستراتيجية العالمية . تلك التى آن لنا ان ننشدها بعد أن تتبعنا ، فى موضوعية تقريرية بقدر الامكان ، مراحل التاريخ وأدوار الصراع . ولسوف تكون مثل هذه النظرية بطبيعتها ، وبالضرورة : محاولة شخصية تقديرية أكثر منها موضوعية تقريرية : يجوز ان تكون موضع خلاف أو محل تعديل ، ولكن هذا لن يقلل من خطرها ، لأنها ـ بالاسقاط المستقبلى ـ يمكن دائما أن تخضع للتحقيق والاختبار ، فاذا ما نجحت فيمكن ان تكون بوصلة للمستقبل ومؤشرا للتنبؤ الاستراتيجى . وهى بهذا جديرة بان تكتسب قيمة كبرى فى التطبيق العملى عند الاستراتيجيين والساسة الى جانب قيمتها الأكاديمية للجغرافى والمؤرخ وطالب العلوم السياسية

ونبدأ على الفور فنقول ان الذى[؟] قدم مثل هذه النظرية العلوية الطموح هو الجغرافى السياسى الكبير هالفورد ماكيندر ، الذى طالما اعتمدنا فى بحثنا هذا على كثير من الحقائق والتفاصيل التاريخية التى اوردها فى عرض نظريته . وما نعرف محاولة لوضع مثلها قبله الا اقتصرت على جزئيات ضيقة غير مكتملة ، ولا بعده الا وكانت تعديلا له أو تعليقا عليه . فقبله تكلم الجغرافى الألمانى الكبير راتزل فى ١٩٠٠ كثيرا عن قوة البر ازاء قوة البحر ، وسبق

ماكيندر الى التنبؤ بان النصر النهائي سيذهب الى قوة البر بفضل تفوق مواردها (١)

وقبله كذلك تكلم الاميرال ميهان عن قوة البحر ودورها في التاريخ في كتابه Influence of Sea Power on History وهو ـ الذي كان يكتب في عصر سيادة بريطانيا المطلقة على البحار ـ يرى أن الغلبة في الصراع من اجل السيادة العالمية مقدرة للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها في الحركة وامكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار . وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة الى بناء قوة بحرية ضخمة تتكافأ مع قاعدتها الارضية العظيمة من ناحية ، ومحيطيها الهائلين ، من ناحية اخرى ، وطالب بحفر قناة بنما لتتحول بها من دولة ساحلين الى دولة ساحل واحد ، وحدد مجال نفوذ الولايات البحرى بغرب الاطلسي وشرق الهادى ، واعتبر أن الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحرى ، ورأى ان بريطانيا هي الحليف البحرى الطبيعي للولايات ، وتنبأ بعد هذا باهمية جزر الهادى هاواى والفلبين ، كقواعد امامية متقدمة للدفاع ، كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبى بالنسبة لبرزخ بنما ، واوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك ؛ اى دعا الى الاستعمار البحرى بصراحة (٢)

ومن الواضح أن جميع آراء وتوصيات ميهان قد نفذت بالفعل حوالي دورة القرن في ادارة تيودور روزفلت ، وواضح كذلك أن دعوته متفائلة بالنسبة للقوى البحرية اذ يبشرها بالانتصار ، على أن الأوضح انها لا تقدم نظرية استراتيجية كاملة بمعنى الكلمة وأن فسرت جانبا من الحقيقة . باختصار ، انه قدم آراءه في اطار ومجال

(١) Bowen, «Geog. of Nations», p. 4.

(٢) الجيوبولتيكا . ج ١ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩

أمريكي أولا ، وفي ظل عصر السيادة البحرية القائمة ثانيا

اما بعد ماكيندر فليس ثمة الا تعديلات وتحفظات على النظرية ، تملأ ثغراتها أو توضح معالمها دون أن تهز اركانها على الارجح . ولعل اهم هذه التعليقات ما جاء من اقلام الجغرافيين البريطانيين ايضا ، فوست وفيرجريف وايست ثم العالم السياسي الامريكي سبيكمان . فكان فوست اكثر حذرا في تفسير الحقائق الطبيعية والبشرية ، الامر الذي دعم النظرية اكثر مما قوضها . اما فيرجريف فقد كتب كتابا كاملا عن « الجغرافيا والقوة العالمية » تبدو فيه بلا جدال افادته الكبيرة من ماكيندر مثلما يبدو في نهايته تحديد ادق واوضح لخطوط النظرية أثراها بالتاكيد . بل سنرى أن كتابه هذا سيقرن في الترجمات الاجنبية في الخارج بكتابات ماكيندر . أما سبيكمان فقد أدخل تعديلات جوهرية على صلب النظرية قد تصل الى حد الانتقاض عليها . وسنعرض نحن أولا لنظرية ماكيندر ثم نردفها بتعديلاتها وتفريعاتها المختلفة هذه

ماكيندر والهارتلاند

نشر ماكيندر اساسيات نظريته في ١٩٠٥ في مقال قصير وسعه الى كتاب في ١٩١٩ ، ثم عاد في مقال اخير في أثناء الحرب الثانية ليعدل بعضا من آرائه لتتفق مع تطورات السياسة العالمية (١) . وقد بدأ بالنظر الى العالم ككل ، فوجده يتوسع بالتدريج عبر التاريخ نحو وحدة كوكبية . فمع تطور الحضارة ، ولا سيما منها وسائل

(١) Geographical Pivot of History; Democratic Ideals & Reality; «The Round World & the Winning of Peace», Foreign Affairs, 1943, pp. 595-605.

النقل والمواصلات ، اتسع نفس الحركة البشرية ومدى الترابطات الانســانية ، الى ان كان القرن التاسع عشر فوحدت القاطرة القارات والباخرة المحيطات ، وفى القرن العشرين احكمت الطيارة نسج الجميع فى وحدة كوكبية شامله حتى لم يعد هناك « اقليم كامل متكامل اقل او اكثر من سطح الارض جميعا »

وعلى هذا نظر ماكيندر الى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاثة فصوص ملتحمة يتوسطها اسما وفعلا البحر المتوسط وتضـم ثلثى مســـاحة اليابس ودعاها « الجزيرة العالمية World Island . وتضم الجزيرة العالمية وحدها سبعة أثمان سكان العالم ، بل ١٥ على ١٦ اذا اضفنا الجزر التى تحف بسواحلها . اما القارات الأخرى . الامريكتان وأستراليا ، فلا تزيد مساحة عن ثلث اليابس ، وسكانا عن ١ على ١٦ من البشرية . فهى اذن لا تزيد عن ان تكون اقمارا صغيرة مبثوثة حول الجزيرة العالمية وتدور فى فلكها . والكل يقع فى محيط واحد وان تعددت اسماؤه هو « المحيط العالمى World Ocean »

ثم نظر ماكيندر الى هذه الجزيرة العالمية فوجد لها قلبا يمثل محور ارتكازها ونواة العالم القديم دعاه أولا منطقة الارتكـاز Pivot Area ثم عدله الى قلب الأرض Heartland . وقلب الارض فكرة طبيعية مركبـة ، هى محصلة عنـاصر ثلاثة : سهولة التضـاريس ، الصرف الداخلى ، وسيادة الحشائش . وعلى هذا الأساس الثلاثى يمتد الهارتلاند من حوض الفولجا غربا حتى ســيبيريا شرقا ، وقلب ايران جنوبا . وهو بهذا يضم مساحة ضخمة متصلة بلا انقطاع من أوراسيا تبلغ ٢١ مليون ميل ، وتبتلع كل الاستبس الأسيوى ، فيبدو كما لو كان قارة داخل قارة الجزيرة العالمية

ولأن الهارتلاند سهلى فى مجموعه ، عشبى فى غطائه : فهو منطقـــة الرعاة بالضرورة واقليم حركة الخيـــاله والفرسان بامتياز . ولأن الهارتلاند منطقة صرف داخلى تضيع انهارها فى قلب القارة فى بحار داخليـــة او تنتهى مشلولة الى المحيط المتجمد فى الشمال ، فهى منطقةلايمكن للأساطيل البحرية الساحلية أن تصعد فيها ، وبالتـــالى لا يمكن أن تلجها . انها المنطقة الوحيدة على سطح الأرض التى تترامى مساحتها بما فيه الكفاية لكى تبتعد ابتعادا سحيقا عن البحار والسواحل ، وبالتالى تمتاز بحصـانة طبيعية تامة ضد الغزو البحرى

ومن ثم فهى يمكن ان ترسل تباعا بموجات الفرســان والرعاة على الاقاليم المجاورة ، ولكن يستحيل على تلك الاقاليم أن تتبعها داخل الهارتلاند لترد عليها . وبالفعل فان التاريخ يسجل عشرات الموجات والغزوات التاريخية ، ابتداء من الهون والآفار حتى المغول والأتراك والتتـــار ، خرجت من الهــارتلاند تضرب فى كل اتجـــاه دون رادع حقيقى يتعقبها فى عقر دارها . ومعنى هذا أن الهارتلاند يمكن أن يهاجم لكنه لا يهاجم : انه قلعة دفاعية طبيعية ــ أعظم قلعة دفاعية ــ على الارض ، واضخم معقل لقـــوة البر وامثل نموذج للدفاع بالعمق

وقد ظلت قوة الهارتلاند محـــدودة مابقيت كل قاعدة اقتصادها الرعى وكل قوتها البشرية الرعاة . لكن الأمر اختلف تماما حين تحول الى اقتصاديات الزراعة والصناعة الحديثة ، واستقرت جذور السكان فى الأرض وتضخمت قوتهم البشرية عدديا . وقد حدثت هذه الثورة الحقيقية حين وحد من مســـكوفى ، وورثت الروســـيا امبراطورية المغول ، وحلت حركة القطار محل حركة الخيل . ولعل اثر القطار كان اخطر فى الهارتلاند منه فى اى منطقة اخرى

فى العالم ، فقد اصبح اداة توحيده سياسيا واستراتيجيا وما الضغوط التى مارستها الروسيا والاتحاد السوفييتى فى تاريخهما الحديث على دويلات البلطيق وبولنده وشرق اوربا وتركيا والشرق الأوسط وايران والهند والصين الا الترجمة الحديثة للضغوط التى سبق ان مارسها رعاة الاستبس على جميع حواف الهارتلاند . والآن ـ ولاول مرة فى التاريخ ـ تحتل قلعة الهارتلاند حامية كافية فى العدد وكفء فى العدة

وعلى الطرف النقيض من الهارتلاند تعرف ماكيندر على نطاق ساحلى محيطى بحت ضخم يغلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة او باخرى . ذلك هو « الهلال الخارجى او الجزرى Outer or Insular Crescent » الذى يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا واستراليا واليابان . وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية ويتمتع ، منذ الكشوف الجغرافية ، بحركة وحرية الملاحة على اوسع نطاق فى المحيط العالمى . وهو الذى وضع هيكل الاستعمار البحرى كنظام كامل فى العصر الحديث

واخيرا ، وبين الهارتلاند البرى البحت والهلال الخارجى الجزرى البحت ، يضع ماكيندر نطاقا ثالثا يسميه « الهلال الداخلى Inner Crescent » يضم المانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، والصين . والنطاق بطبيعته برى جزئيا ، محيطى جزئيا . ومن الواضح ان هذا يقابل ما وصفناه من قبل بالمنطقة الامفيبية او البينية . ولكن لعل خير تسمية له هى ماقدم فيرجريف ، اذ دعاه بمنطقة الارتطام او الالتحام Crush Zone (١) . وهى تسمية موفقة للغاية لأنها تعبر عن طبيعته كضحية للتصادم وكارض للمعركة بين الهارتلاند والسواحل

(١) Geography & World Power. p. 334.

وقد تعمق ماكيندر التجربة التاريخية للسواحل الهامشية فى صراعها مع القوى القارية ، فوجد انه رغم سيادة القوى البحرية المطلقة ممثلة فى بريطانيا على البحار ، ورغم ما يبدو فى القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين ، من ان كفة القوى البحرية هى الراجحة ونجمها هو الصاعد ، الا أن هذه نظرة جزئية وللتاريخ فى مجموعه درس آخر . فهو نذير دائم للقوى الساحلية البحرية . وتحذير لها من ان تطمئن تماما الى تفوقها وسيادتها

حقا أن الوحدات الساحلية البحرية تمتاز بنمو مبكر Precocious بفضل ما تتمتع به من حماية طبيعية ، ولها بحكم حركتها الطلقة واتصالاتها وانفتاحها على العالم فضل المبادرة الى التحضر والثروة سواء بالتجارة او بالاستعمار ، وبالتالى فلها فضل السبق الى القوة . ولكنها فى النهاية تعانى من صغر القاعدة الأرضية ان لم تكن ضآلتها احيانا . وفى المدى الطويل لا تلبث الوحدات القارية الضخمة ان تلحق بركب التطور والحضارة ، فتنطلق من قاعدة ارضية فسيحة غنية منوعة نحو السواحل والبحار . وعندها تسقط لها الوحدات البحرية كالثمرة الناضجة كما لو بحكم القدر

وما اكثر الأمثلة فى درس التاريخ : بمجرد أن وحدت ايطاليا تحت روما ، اصبحت صقلية تابعا لشبه الجزيرة ، وبمجرد أن نضجت اليونان سياسيا وماديا ، فقدت كريت لها استقلالها وقوتها وكانت من قبل مركز الحضارة والسيادة . وبمجرد أن ظهرت قوة مقدونيا الأكثر قارية سقطت لها اليونان الاكثر بحرية ، وبمجرد أن ظهرت قوة روما سقطت لها اليونان (١).

---

(١) Democratic Ideals, pp. 50 et seq.



شكل (٢٤) نظرية ماكيندر فى الهارتلاند . لاحظ التركيب الحلقى حول منطقة الارتكاز

هكذا قد تبدأ الغلبة والسيطرة للجزر على اشباه الجزر ، ولأشباه الجزر على الوحدات القارية ، ولكنها تعود في النهاية لتستقر في ايدي الوحدات القارية الضخمة. من هنا يرفع ماكيندر صيحة التحذير للقوى البحرية ، ويقرع نواقيس الخطر بالنسبة للمستقبل ، ويرفض ان يخدعه تفوقها الحالى أو القريب ، ولا يجد مبررا لأن يفترض أن المستقبل يمكن أن يختلف عن الماضي

وفي هذا السياق يعود ماكيندر الى الحاضر فيجد ان « رجحان كفة القوة في صف دولة الهارتلاند جدير بان يؤدي بها الى توسعها على حساب الأراضي الهامشية في أوراسيا وبالتالى يمكنها من أن تجند مواردها القارية الضخمة لبناء الأساطيل البحرية ، ومن ثم تكون الامبراطورية العالمية على مرأى النظر · ومن الممكن ان يحدث هذا لو أن المانيا تحالفت مع الروسيا » (الاتحاد السوفييتى) ، اى اذا اتحد الهارتلاند بصورة أو باخرى مع الهلال الداخلى ، سواء كانت السيطرة في هذا الاتحاد للروسيا أو لألمانيا ، وسواء تم هذا الاتحاد بالغزو او بالاتفاق

وعند هذا الحد يتضح بجلاء أن شرق أوربا هو مفتاح الهارتلاند . وبالتالى يصل ماكيندر الى معادلته الثلاثية الشهيرة التى تلخص كل نظريته التى جاءت أحداث الحربين العالميتين مصداقا لكل فروضها :

من يحكم شرق اوربا يسيطر على الهارتلاند
من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية
من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم

وفي هذا الضوء يرى ماكيندر أن الحرب العالمية الأولى واكثر منها الثانية هي حرب مباشرة بين القاريين

والساحليين . بين قوى البر والبحر بلا ادنى جدال . وفى كلتا الحربين حاولت المانيا أن تخضع الروسيا او الاتحاد السوفييتى لتسيطر على الهارتلاند . واذا كان قد حدث العكس بالفعل ، وانتهت الحرب الأخيرة بسيطرة الاتحاد السوفييتى على كل شرق أوربا بمسا فيه شرق المانيا ، فان هــذا لا يغير من النتيجة فى شىء ، وانمـا يستبدل بالمانيا الاتحـاد السـوفييتى كالقـوة التى تسيطر على الهارتلاند ومفتاحه شرق أوربا ، ومن ثم التى يمكن أن تسيطر بعدها على الجزيرة العالميه ، فالعالم فى التحليل الأخير

وهو يرى أن الاتحاد السوفييتى قد خرج من الحرب وهو اعظم قوة برية على وجه الارض ، واكثر من ذلك ؛ وهو فى أقوى وضع دفاعى استراتيجيا ، بينما يجد ان الجزر البريطانية فى المحيط المتوسط (الأطلسى) اصبحت فى عالم المردة الجديد اشبه شىء بمالطة فى البحر المتوسط ، وليس هناك ما يمنــع لذلك من ان تقــع فى يد قوة قارية بالغزو أو على الأقل أن تزداد التحاما بالقارة فى سياستها ومصيرها . وهذا الوضع برمته يعيد الى الاذهان بقوة درس التــاريخ ما بين القوى البحرية الصغـيرة (ولكن السابقة) والقوى البرية اللاحقة (ولكن الضخمة)

وعلى هــذا فمستقبل العالم يتوقــف على حفظ التوازن فى القوى بين الاقاليم السـاحلية وبين القــوى الداخلية المتوسعة . وفى سبيل هذا التوازن نصـح ماكيندر بخلق نطــاق من الدول الصـغيرة المتماسـكة فى شرق اوربا ــ الصف الاوســط Middle Tier كما دعاه ــ حتى يفصــل بين الهـارتلاند والقوى السـاحلية ويعزله عنهـا . وقد تحقق هــذا بالفعـل منــذ فرســاى ، ولـكن هــذا الصـف الاوسـط

نفســه اصــبح جزءا من الـكتلة الشـرقيـة ، اى ارتبط الهـلال الداخـلى بالهـارتلاند اوثق الارتبـاط ، ولهذا فان التوازن المطلوب لابد ان يأتى الان من جانب الولايات المتحدة ، اكبر وآخر معاقل القوة البحرية

ومع ذلك فينبغى ان نلاحظ ان الولايات المتحـــدة بدورها يمكن نظريا ان تتحول بمنطق ماكيندر الى شىء اشـبه ببريطانيـا فى المحيط الاطلسي . فلو ان هارتلاند الاتحاد السوفييتى الذى يحكم شرق اوربا توصل يوما ما الى السيطرة على الجزيرة العـالمية ، لفان العـــالم الجديد سيصبح محاصرا من الشرق ومن الغرب كجزيرة اقل وزنا وقوة بين ذراعى الجزيرة العالمية . وحينئــذ يكون هــذا قلبـا كاملا للوضـع الذى كان ســائدا قبـل الحرب الاخيرة حين بدا الهارتلاند كجزيرة محاصرة داخل بحر القوى البحرية ومستعمراتها . وحينئذ تكون الامبراطورية العالمية على مرمى حجر او على مراى النظر

واخيرا فان ماكينـــدر يرى ان الصراع بين القوى البرية والبحرية ، الذى يعبر عن حركة القطـــار ضــد حركة السفينة ، لم يتـأثر بمقدم الطيـارة ، بل انها لتؤكده بمثل ما تدعم نظريتــه . ففى رايه ان المـــلاحة الجوية والقوة الجوية هى فى الدرجــة الاولى ســلاح لقوة البر ، انها بمثــابة ســلاح فرسان امفيبى جديد ، فى صف قوة البر اكثر مما هو فى صف قوة البحر ، لان الموقع المركزى المتوســـــــط كهذا الذى يمتلـكه الهارتلاند ميزة كبرى فى الحرب الجوية . كذلك تنبـأ بأن استخدام القوى البحرية لطريق كالبحر المتوســط فى الملاحة لن يكون الا بموافقة او تحت رحمة قوى البر ، لان هــذه تســتطيع من قواعدها البرية ان تغلق هــذا الطريق بالحرب الجوية ، كما حــدد وظيفة بريطانيــا

منـذ القوة الجوية فى انها مجرد « مطـار فى خنـدق » او حاملة طائرات كما قد نقول

ذلك فى اسـاسـياته هو هيكل نظرية ماكيندر فى الاستراتيجيـة العالمية . ويمكن الان ان نحدد فضـله هو وقيمتها هى فى ثلاث . فاولا ، استطاع ان ينظر الى العالم كـكل فى ضـوء وحدة الارض ، وعلى اسـاس ان العالم قد صـار عالما واحدا ، ومن ثم نظاما سياسيا واحدا ـ « نظاما مغلقا » يعنى . وبهذا كان « اول من امدنا بفكرة كوكبية عن العالم » وهو فى هذا قد « جند الجغرافيا فى خدمة السياسة والاستراتيجية » كما عبر البيفير وينانت (١) . وقد كان هدف ماكيندر الاساسى كما قال ان يضع « معادلة جغرافية تستطيع ان تركب فيها اى توازن سياسى » . وبفضل نظرته الـكوكبية الشاملة استطاع ان يرى جوهر هذه المعادلة فى الصراع بين قوى البر والبحر .

ثانيا ، الى جانب النظـرة الكوكبية لم يغفل النظـرة الاقليمية ، ومن هنا اسـتطاع ان يخرج بثلاثيته الاسـاسـية : الهارتلاند ، الهلال الداخلى ، الهلال الخارجي الجزرى . وهذه لا شك هى الاقاليم السياسية الطبيعية الـكبرى والاكثر خلودا فى العالم ، وقد نجح فى ان يتعرف على ملامح وتوجيهـات كل منها . ومن الواضح ان الاقاليم الثلاثة هى فى الحقيقة بنـاء حلقى concentric ، فثمة فى القلب حول القطب الشـمالى يقوم الهارتلاند ، ثم حوله كحلقة وسطى الهلال الداخلى ، وفى النهاية حلقـة اوسـع واكبر محيطا هى الهـلال الخارجي . ولن يخفى ان الاساس الدفين الذى يحدد هذه الاقاليم انما هو فى النهاية الموقع ـ الموقع الجغرافى ـ

(١) Geogr. Journal, 1944, p. 131.

الموقع النسبى ـ الموقع اعنى قربا او بعـــدا من قلب اليابس او ساحل البحر

ثالثا ، واخيرا ، لم يكتف ماكيندر بالتشخيص ولـكن توصل الى التنبؤ مع انه يعلن انه ليس هدفه . فقـد استطاع من البعد التاريخى ان يضع يده على احتمالات ومصاير الصراع بين قوى البر والبحر . فلم تخدعه شهادة تجربة مرحليـــة ، ورأى نذر الخطر على الافق بالنسبة للقوى البحرية ، وذلك رغم انه ـ بل لانه ـ شخصيا كان « استعماريا عتيدا » ، يهمه جدا كيان الامبراطورية البريطانية . وقد جاءت نبوءته ، بعكس ميهان ، تحذيرية متشائمة بدرجة او بأخرى بالنســبة لمستقبل القوى البحرية . وبينما نظر ميهان الى الماضى ليركز على الحاضر ، نظر ماكيندر الى الماضى والحاضر ليركز على المستقبل

والشيء الذى ينبغى ان نلاحظه انه اذا كان ماكيندر قد صنف اقاليم الصراع الاستراتيجى على اســـاس « الموقع » ، فقد نظر فى الحقيقة الى مصـــايرها على اساس « الموضـــع » اى مدى قوة القاعدة الارضيـــة (بمواردها الطبيعية وقوتها البشرية ودرجتها الحضارية والتكنولوجية .. الخ) . فوجـــد ان المستقبل بعامة ليس للمواقع الممتازة ولكن للمواضع الاغنى

نقد النظرية

الســـؤال الان : كيف قوبلت نظرية ماكيندر ؟ من المفارقات التاريخية ان هذه النظرية الخطيرة اهملت فى وطنها ، بينما نالت شهرة داوية وعناية فائقة خارجه فى المـانيا ، والمـانيا النازية بالذات .. فقـــد تلقفتهـــا

مدرسة « الجيوبولتيك » الالمانية ممثلة فى معهد الجيوبولتيك فى ميونيخ برياسة الجنرال كارل هاوسهوفر وترجمتها هي وكتاب فيرجريف ووجدت فيها وثيقة استراتيجية خطيرة ، واصبحت النظرية اساسا فى فلسفتها . وكثيرا ما اعتمد هاوسهوفر فى كتاباته على كتابات ماكيندر واعترف بدينه له رغم انه «عدو بغيض» بل لقد عد مقاله عن « المحور الجغرافى للتاريخ » ، « اعظم النظريات الجغرافية العالمية جميعا » واكد انه « لم ير قط شيئا اعظم من هذه الصفحات القليلة كرائعة جيوبولتيكية » (١) . وقد تلقف هاوسهوفر خشية ماكيندر من ان تتحالف المانيا والروسيا ليقلبها الى دعوة الى مثل هذا التحالف . والمقول أن هذا بالفعل كان المحرك خلف تحالف هتلر وستالين فى بداية الحرب. فقد الهم هاوسهوفر رودلف هس بالكثير من أفكاره ، والهم هذا هتلر بدوره بالكثير منها فى « كفاحى »

ولكن الاتجاه الان هو الى ان تاثير هاوسهوفر على الحكم النازى قد بولغ فيه كثيرا . وبالتالى يكون قد بولغ فى تاثير ماكيندر على السياسة الالمانية (٢) . وايا ما كان فقد كانت النتيجة لهذا كله ان اتهم ماكيندر بانه ساعد على وضع اساس العسكرية النازية ، وهو ما نفاه هو بشدة وغضب — وعلى حق — لانه وضع اسس نظريته قبل قيام النازى بثلاثين عاما

على ان الحرب الثانية ادت الى « اعادة اكتشاف » ماكيندر فى الغرب واعادة تقييمه ، فاشتد الاهتمام به وبآرائه لا فى مدارس الجغرافيا وحدها ولكن فى

(١) Zeitschrift für Geopolitik, 1925.
(٢) G.R. Crone, «A German View of Geopolitics», Geog., Journal, 1948, p. 108.

الاكاديميات العسكرية والمعاهد السياسية كذلك . بل لقد اصبح ماكيندر بفضلها - سواء لحسن الحظ او لسوئه ، كما عبر احد الجغرافيين - اشهر الجغرافيين خارج الدوائر الجغرافية والمهنة ، كما عد كتابه واحدا من اخطر الكتب التي ظهرت في القرن ، فيه من البصيرة والنبوة اكثر مما فيه من السرد والوصف . غير ان البعض يحس ان آراء ماكيندر ربما قد قبلت بروح نقدية اقل ما ينبغي

ويمكن ان نحصر النقد الذي وجه الى نظرية ماكيندر في الشكل والموضوع . فمن حيث الشكل اخذ عليه انه عدل كثيرا في حدود الهارتلاند بصورة مربكة ، ولكنه احتج بان تلك هي طبيعته المركبة التي تقوم على اساس ثلاثي من السطح والنبات والصرف مما لا يسمح بالتحديد الصارم . كما ان تعديله للنظرية في اثناء الحرب العالمية الثانية يعده البعض طفيفا ولكن لا يكاد يتعرف فيه البعض على النظرية الاصلية ! (١)

واخطر من هذا تحديده للهلالين الداخلي والخارجي . فلقد ترك ماكيندر منطقة بلا تحديد بين الهلالين تشمل الاراضي المنخفضة وفرنسا وايبريا وايطاليا ، ولم يضمن الهلال الخارجي في اوربا الا بريطانيا باعتبارها جزرية محيطية بحتة . ولكن هذه الدول الساحلية قوى بحرية بلا شك رغم انها اقل بحرية من بريطانيا . بل ان ماكيندر عالج كثيرا من هذه الوحدات فيما بعد في كتابه على انها قوى بحر . ولهذا ينبغي ان ناخذ مفهوم قوة البحر او البر كمسالة نسبية بالتاكيد . من هنا عدل فيرجريف نطاق القوى البحرية ليشمل تلك

---

(١) Bowen, p. 6.



شكل (٢٥) استراتيجية القوىوالأقاليم الصراع السياسى فى العالم القديم حسب فيرجريف

الدول ، كما يضم اليها مستعمراتها البحرية على سواحل افريقيا وآسيا

وبالمثل فان ماكيندر لايرسم الهلال الداخلى كاملا ،

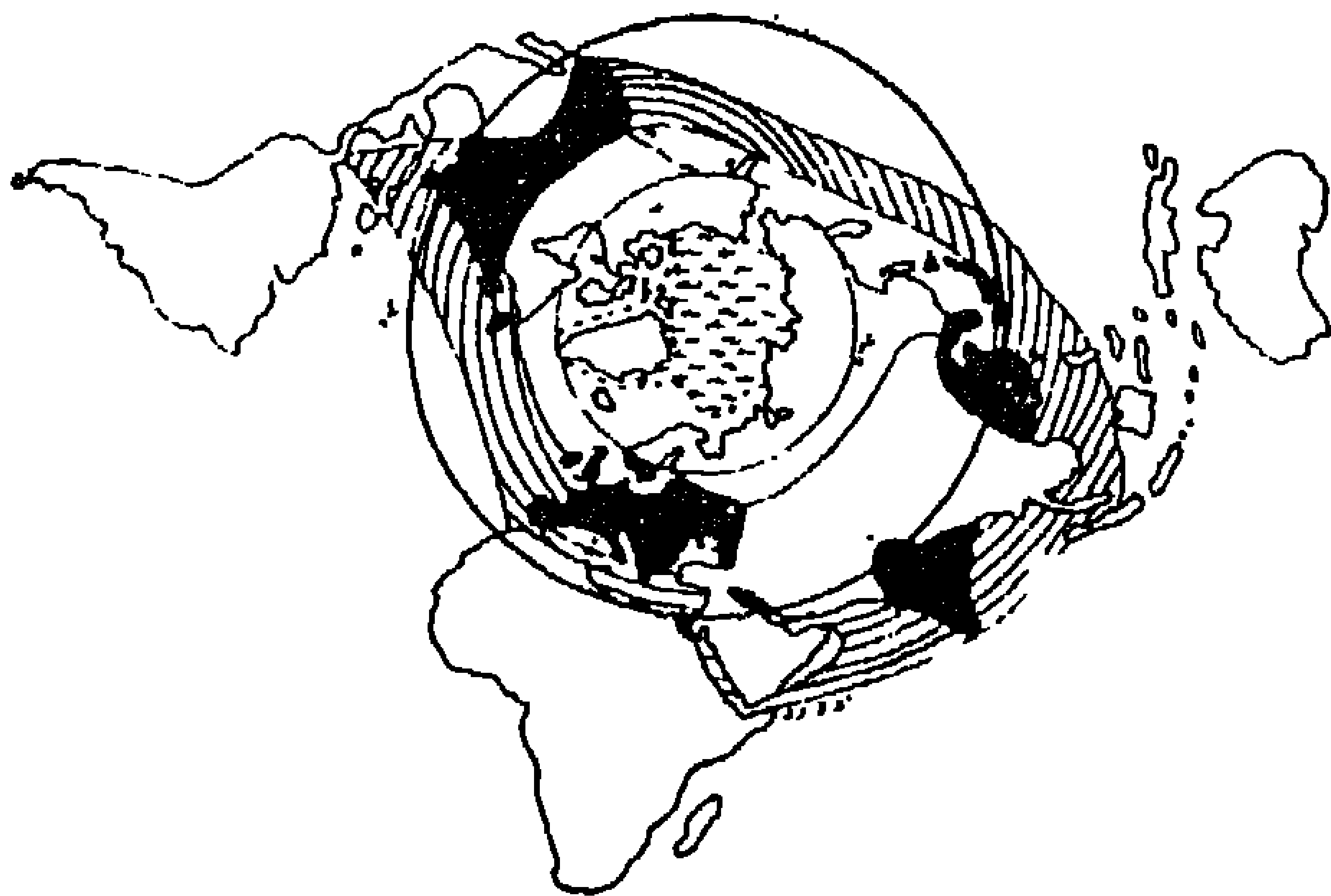
بل يترك ثغرات هي لاشك فى صميمه كوحدات الدانوب والبلقان ، كما يغفل الشرق الاوسط . ومرة اخرى يعدل فيرجريف هذا فيمد « منطقة ارتطامه » من البلطيق حتى الشرق الاوسط فالاقصى بلا انقطاع

اما عن الموضوع ، فقد تساءل البعض عن مدى القوة الحقيقية ـ موارد وسكانا وانتاجا ـ لكل من الهارتلاند والسواحل . وتكفل فوست وايست خاصة بالاجابة (١) فتوزيع السكان فى العالم القديم يرسم نمطا واضحا جدا فى اساسياته . فهناك قاطع محورى كثيف يمتد من غرب اوربا شاملا وسطها وجنوبها ليستمر بدرجة او باخرى فى الشرق الاوسط حتى يستعيد كثافته فى آسيا الموسمية . هذا هو العمود الفقرى فى ديموغرافية العالم كله ساحلى او شبه ساحلى ، ويشمل الجزء الاكبر اطلاقا من البشرية . وعلى هذا النطاق يتعامد قاطع آخر من اللامعمور او شبه اللامعمور ، يبدأ من سيبريا وينتهى بالصحراء الكبرى ، متداخلا مع نطاق المعمور فى منطقة الشرق الاوسط

ومن ثم فالهارتلاند يقع اغلبه فى اللامعمور ، واقله متوسط الكثافة . واذا كان الهارتلاند يستمد وزنه الديموغرافى من قطاعه الاوربى غرب الاورال ، فانه فى آسيا شرق الاورال اما قليل الوزن كما فى التركستان او فاقده كما فى سيبريا . هذا بينما ان السواحل

(١) C.B. Fawcett, «Marginal & Interior Lands of the Old World», Geog., 1947 pp. 1-12; Hans Weigert. Heartland Revisited, in New Compass of the World, 1949, pp. 80-90; W.G. East, «How Strong Is the Heartland ?», Foreign Affairs, 1950, pp. 78-93.

تضم نحو الفى مليون نسمة على الاقل . وبصورة عامة تتبع الموارد والانتاج نفس النسبة . المحصلة النهائية ان الهارتلاند قد يكون قلب اليابس طبيعيا ، ولـكنه قلب ضعيف ـ ولا نقول قلبا ميتا ـ بشريا . اما السواحل فقد تكون هامشية ولكنها متخمة بالحياة والحيوية



شكل (٢٦) نطاق اوحزام العمران والحركة حول نصف الكرة الشمالى. هذا هو العمود الفقرى فى هيكل البشريه

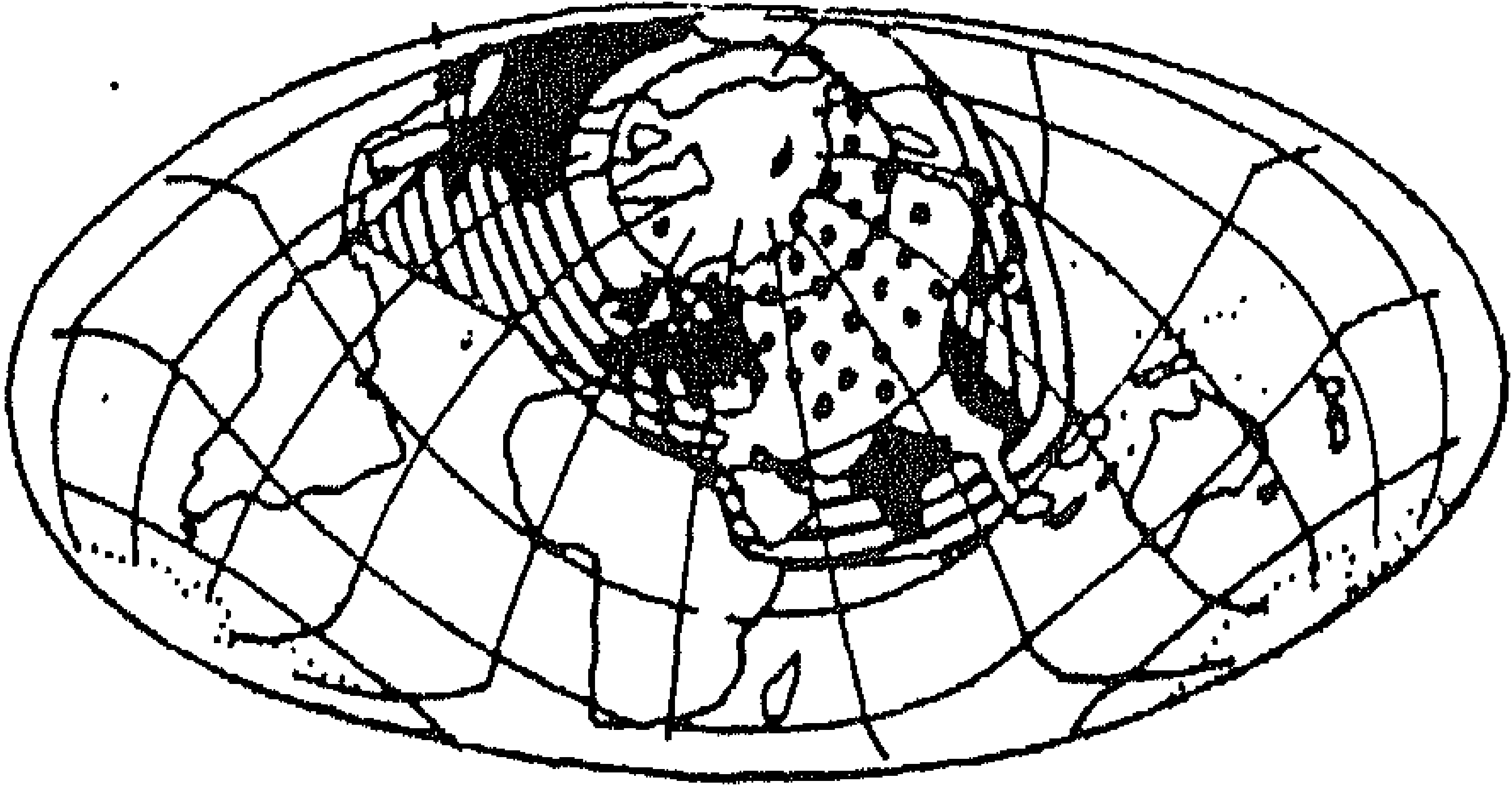
ومن هنا يلتقط العالم السياسى الامريكى نيكولاس سبيكمان الخيط . فهو يناقش معـادلة القوة عنـد ماكيندر ، ولا يرى ان كفة الهـارتلاند ترجح فى القوة البشرية او الموارد المـادية ، وينتهى الى ان « من يحكم المناطق الساحلية يسـيطر على الجزيرة العالمية » . ومعنى هـذا ان سبيكمان يتعارض بصورة مبـاشرة مع انتهاءات ماكيندر ، ويضع المسـتقبل فى صف القوى البحرية وضد البرية

ثمة بعد هذا نقد هام وجه الى النظرية : لقد اغفل ماكيندر ـ او بالدقة قلل ـ من وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم فى كفة القوى البحرية . وحين كتب ماكيندر لاول مرة فلا شك ان قوة الولايات لم تكن قد اكتملت ودورها الطاغى فى سياسة القوه العالمية لم يكن قد بدا الا بالكاد . اما بعد هذا فقد ابدت الولايات المتحدة العالم الجديد بهارتلاند منافس لهارتلاند العالم القديم ، وحددت مصير الحربين العظميين ، الى ان انتقل قطب القوة العالمية اليها نهائيا وبصورة حاسمة ، بينما تحولت القوى التقليدية فى غرب اوربا الى شبه تابع لها

واخيرا ، فان كثرة من النقاد ابتداء من لورد امرى الى الميجور سفرسكى ترى ان الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر . وقد رد ماكيندر على هذا ـ ان صوابا وان خطأ كما يلاحظ جلبرت ـ بأن الحرب الجوية تدعم قوة الهارتلاند وصحة نظريته . والاتهام يقوم على اساس ان الطيران قد كشف الهارتلاند للغزو وسلبه مناعته الطبيعية وعمقه الاستراتيجى ، او انه على الاقل قد حيد الموقف بين قوى البر والبحر

ولقد كان امرى فى تعقيبه على ماكيندر سنة ١٩٠٤ سباقا فى بصيرة ثاقبة الى ان يرى اثر الحرب الجوية على النظرية . فأعلن انه مع مقدم حركة الطيران الى جانب حركة القطار والبحر فان كثيرا من تلك التوزيعات الجغرافية التى رسمها ماكيندر سيفقد اهميته ، وستكون القوى الناجحة هي تلك التى تملك اعظم اساس صناعى ، واضخم قاعدة تكنولوجية . وانتهى الى انه لن يهم ان تكون فى وسط قارة او على جزيرة ؛ وانما اولئك الذين يملكون القوة الصناعية وقوة

الاختراع والعلم سيمكنهم ان يهزموا كل من عداهم



سكل (٢٧) الهارتلاند « بالنقط » قلب العالم القديم ولكنه سكانيا قلب ضعيف . وكتلة السكان فى العالم « بالاسود » ونطاق الحركة والمواصلات حول الارض « بالخطوط » تقع على سواحل القارات

اما سفرسكى ــ من جيل الحرب الثانية ــ فهو اكبر دعاة القوة الجوية بحسبانها السلاح الفيصل فى الحرب الحديثة (١) . ويلخص بوين الموقف فى ان القوة الجوية بمراحلها المختلفة « جعلت من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من ادراكه ان القوة فى المستقبل تكمن مع الامبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها » (٢) . ومعنى هذا النقد جميعا فى الحقيقة ان الطيران قد افقد عامل « الموقع » الجغرافى قيمته الحيوية ، ونقل الاهمية كل الاهمية الى عامل « الموضع » الجغرافى

وعلى هذا يمكن ان نلخص الموقف النهائى من النظرية فى انه تضارب واختلاف : البعض يعدلها بما ينقضها

(١) الجيوبولتيكا ، جـ ١ ص ١٥
(٢) بوين ، ص ٥

او يقلبها على راسها كما فعل سبيكمان . والبعض يقبلها معدلة او غير معدلة كما فعل الميجور جورج فيلدنج اليوت الذى اعلن فى اثناء الحرب الثانية : « انه لا مجال للهروب من منطق ماكيندر » (١) . كما ان هناك من لا زال يعتقد انها قد تكون سليمة حتى اليوم ، هذا بينما يتوسط البعض فيرى انها ان صحت فى الماضى فهى لا تصح فى عصر الحرب الجوية وبخاصة الحرب الصاروخية الذرية

تعديلات جزئية

والذى نراه هنا هو ان النظرية اذا عدلت فى بعض جزئياتها فيمكن ان تقدم بكل تأكيد مفتاحا عاما Passepartout ومعادلة جغرافية سليمة تلخص كل التاريخ السياسى والاستراتيجى وتستوعب كل تفاصيله وتتفق معها حتى — وهذا هو المهم — نهاية الحرب الاخيرة ، اما بعدها فقد حدثت انقلابات هائلة من اخطر ما عرف التاريخ الحديث لابد من تحليلها قبل ان نرى انعكاساتها على النظرية . وعلى هذا الاساس ، وكخلاصة نهائية لدراستنا التاريخية السابقة ، نطرح الان صورة معدلة للنظرية يمكن ان نركب فى معادلتها كل تفاصيل تلك الدراسة وجزئياتها وتقابل فى نفس الوقت النقد الذى وجه الى النظرية

ونقترح لذلك ان تظل الثلاثية الاستراتيجية تتألف من الهارتلاند والسواحل ومنطقة الارتطام ، لكن مع تعديل حدودها . الا ان التعديل الاساسى الذى نقترحه هو ان نحصر هذه الثلاثية فى دائرة العالم

(١) الجيوبولتيكا ، جـ ١ ص ٢٤

القديم وحده اكثر منها العالم ككل . اولا لانه فى هذا الاطار يمكن للنظرية ان تفسر معظم تاريخ الاستراتيجية السياسية فى العالم وان تتفق مع اغلب تفاصيله وجزئياته . وثانيا لان القارات الجديدة بما فى ذلك الولايات المتحدة لم تظهر على مسرح السياسة العالمية الا حديثا واكثر منها لم تظهر كقوة حاسمة فيصل الا حديثا جدا

فى هذا الضوء نجد ان الهارتلاند ـ بحدود ماكيندر ـ وحدة استراتيجية حقيقية فى التاريخ ، وحدة توسعية بطبيعتها السهلية التى تسهل الحركة وتدعو الى الامبراطورية . وقد وحد الهارتلاند ـ بعد صراعات داخلية من نوع صراع الاشباه ـ اكثر من مرة فى التاريخ ومن اكثر من نواة : مرة من التاى ، ومرة من طوران ، ومرة اخيرة وحاسمة من الروسيا (١) . وكلها ـ يلاحظ ـ مراكز هامشية على اطراف الهارتلاند . ولهذا مغزاه الكبير ، وهو ان قلب الهارتلاند نفسه هو اضعف ما فيه بشريا وحضاريا

ومن المهم جدا ان نلاحظ ان سهولة توحيد الهارتلاند فى قوة قارية الابعاد جعلته غالبا وحدة سياسية واحدة لا تعرف التجزئة ، وهو الان برمته يقع فى دولة واحدة او يؤلف دولة واحدة . وفى هذا يتناقض تماما مع السواحل الهامشية التى تتمزق فى عدد ضخم من الدول المنفصلة ، فهناك قوة بر واحدة بالمفرد ولكن قوى البحر تأتى بصيغة منتهى الجموع ! من هذه النقطة يستمد الهارتلاند قوة سياسية واستراتيجية هائلة

ولكنها فى نفس الوقت تجعل منه دولة خلاسية

---

(١) فيرجريف ص ٣٢٨

متعددة القوميات والاجناس مما يمكن ان يمثل خطرا داخليا ، ويعرضه ـ ان خطأ او صوابا ـ للاتهام من جانب الغرب بالاستعمار الداخلى ، بل لقد كانت النازية تنظر الى الاتحاد السوفييتى كامبراطورية اقليات ، وكان من اهدافها ان تمزقها الى وحداتها القومية الطبيعية فى شكل مجموعة دول مستقلة تماما !

ولقد كانت ضغوط الهارتلاند المركزية الطاردة تسعى قديما الى الوصول الى الزراع ، وحديثا الى الوصول الى البحر . وبعد ان كان الصراع بين الهارتلاند وبين المناطق الهامشية يمثل صراعا بين الاستبس والغابة ، اصبح صراعا بين قوة البر وقوة البحر . وفى هذا الصراع لا شك ان الهارتلاند قلعة دفاعية مثالية وغير منفذ لجيوش الزراع قديما وغير مفتوح لاساطيل البحارة حديثا . ولكن مناعته الدفاعية هذه لا تعنى بالضرورة وبالحتم انه القوة الهجومية المثالية

فرغم ضخامة قوته وعظمة موارده التى لا جدال فيها ، فان به نسبة كبيرة من الاراضى غير الصالحة للتعمير والانتاج الا من رصيد معدنى ورصيد عمق استراتيجى . ولاشك ان من نقاط القوة فى الهارتلاند اليوم ان السلاف فى اوربا تنمو بمعدل تزايد سكانى اعلى واسرع بكثير من بقية اجناس اوربا من التيوتون او اللاتين ، مما عده الغرب خطرا شديدا على المستقبل ودعاه بالخطر السلافى (١) . ومع ذلك فان عدد سكان الهارتلاند ـ قديما ايام الرعى وحديثا بعد تحوله الحضارى ـ يظل دائما لا يقارن بمجموع سكان المناطق الساحلية الهامشية

---

(1) F. W. Notestein et al., The Future Population of Europe & the Soviet Union. Geneva, 1944, pp. 18 ff.

اما السواحل الهامشية ـ موطن قوة البحر بامتياز ـ فنحن نرى ان من الضرورى ان تشمل اسكنديناوه والدنمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، عدا الجزر البريطانية ، واشباه جزر البحر المتوسط الثلاث ابتداء من ايبريا حتى اليونان . وكل من هذه لعب دورا بحريا قياديا فى وقت او آخر ، وكل تاريخ القوة البحرية يدور فى محيطها . وينبغى كذلك ـ مع فيرجريف ـ ان نضيف الى مفهوم القوى البحرية فى غرب اوربا الساحلية مستعمراتها عبر البحار فى افريقيا وآسيا ، فقد اصبحت سواحل هذه وتلك امتدادات لقوى البحر

ونقاط القوة فى هذه الوحدة الاستراتيجية واضحة . فهى اذ تقع فى الهوامش المطيرة والخصيبة من القارة كانت شديدة الكثافة سكانا وطاقتها الانتاجية والبشرية عالية ، وهى فى هذا ترجح الهارتلاند على اساس وحدة المساحة بكل تأكيد . ثم هناك الموقع ، الموقع البحرى الحر الذى يوفر الحركة الطلقة خلال المحيط العالمى . وقد راينا كيف كان هذا الموقع البحرى مرادفا فى النهاية للاستعمار البحرى

فقد انتهى هذا الموقع بالقوى البحرية الى الاستعمار، وانتهى بها الاستعمار الى السيطرة على موارد قارات باسرها صبت فيها موارد ومكاسب خيالية لم يعرفها سكان الهارتلاند . ويمكن ان نلخص الاستعمار البحرى جميعا فى انه كان محاولة من القوى البحرية الموجبة فى غرب اوربا للسيطرة على السواحل البحرية السالبة فى افريقيا وآسيا ، وهو بهذا فى النهاية صورة على نطاق شاسع من صراع الاشباه . وبهذا تضاعف الفارق فى الثروة والموارد بين القوى البحرية والبرية . وبفضل هذا الموقع وهذه الموارد قد يمكن ان نفترض أن القوى

البحرية الساحلية فى موضع هجومى قوى الى حد بعيد

ومع ذلك فللقوى الساحلية مواطن ضعف واضحة . فأولا تمثل هـذه القوى قمة التفتت والتجزئة والتعدد السياسى . فهنا عشر وبضع عشر من الدول المستقلة . لماذا ؟ لنفس الاسباب الجغرافية الطبيعية التى جعلتها دولا بحرية مثالية . فنطاق القوى البحرية هـذا لم يصبح بحريا ملاحيا من الدرجة الاولى الا لان البحر قد قطعه بالخلجان العميقـة والبحار الداخليـة الى وحدات طبيعية منفصلة ـ تذكر تعبير شبه جزيرة من اشباه الجزر

ولـكن نفس هـذه الحقيقة انتهت به الى قوميات ووحدات سياسية منفصلة كثيرة العدد صغيرة المساحة. وهذا يفسر اولا تلك الصراعات التاريخية الرهيبة بين هـذه الوحدات بعضها البعض ، فكل التاريخ الدموى الحديث فى العالم تركز فيها ، وكان الصراع الداخلى بينها صراع اشباه ، القصد منه تصفية القوى البحرية الى قوة سائدة بينها . وقد اخذ هـذا الصراع مسارا محددا هو الذى يؤلف هجـرة الحضـارة والقوة من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى فى داخل النطاق . وقد كان هـذا من عوامل ضعف القوة البحرية الـكامنة ككل وباستمرار

هـذا التفكك السياسى والضآلة المساحية فى القوى البحرية تتناقض تماما مع الوحدة السياسـية الطاغية للهارتلاند وضخامته البـالغة . وهـذه الصراعات الداخلية بين اعضاء القوى البخرية لم يعرفها الهارتلاند فيما بين اجزائه ، وحينما كان مسـتوى الهارتلاند الحضارى وقوته العسكرية متواضـعة ونفس الحركة البشرية محدودا ، لم يكن هـذا التناقض يشكل تهديدا

خطيرا للقوى البحرية ، فكان يكفى فى القرن الثامن عشر مثلا ان تتصدى للهارتلاند دولة بحرية واحدة كفرنسا او بريطانيا ، وفى القرن التاسع عشر كان يكفى دولتان بحريتان كفرنسا وبريطانيا معا

ولكن حين وصل الهارتلاند الى قمة القوة ، كما هو الحال الان ، اصبح مجموع القوى البحرية يمثل شقة مساحية ضئيلة بالنسبة لمساحة الهارتلاند تفتقد ميزة الدفاع بالعمق ، وتعانى من التعدد السياسى ، واذا كانت بفضل موقعها البحرى فى موقف هجومى حر فانها فى موقف دفاعى ضعيف ، يضاعف من هذا ان غرب اوربا كدول بحرية لا تملك جيوشا برية كبيرة ، بينما الاتحاد السوفييتى كقوة بر يملك اضخم جيش برى فى العالم

هنا تحتم على الدول البحرية ان تتحد جميعا فى وجه الهارتلاند ، بل ان تلجأ الى سند اقوى على الجانب الاخر من المحيط هو الولايات المتحدة التى هى اصلا امتداد بشرى لغرب اوربا مثلما هى تكملة جغرافية للقوة البحرية . ومن هنا نجد ان حلفا كالاطلنطى ليس فى الحقيقة الا جماع القوى البحرية فى غرب اوربا بالاضافة الى الولايات المتحدة . وما الحديث الملتهب اليوم عن « وحدة اوربا » اقتصاديا او سياسيا او اقتصاديا وسياسيا الا رد فعل مباشر لهذا التناقض المزمن بين وحدة قوة البر فى جانب وتفتت القوة البحرية فى جانب آخر

وعدا هذا ، فان الاستعمار اذا كان من اسباب قوة وتفوق الدول البحرية حينا فهو نقطة ضعف كامنة فيه فى النهاية . فمكاسب المستعمرات المغتصبة موقوتة بالضرورة ، ورهن ببقاء هذا الاستعمار. واذا ما توقف

تدفقها او ضاعت فان القوى البحرية ستجد الارض وقد سحبت من تحت اقدامها وانكمشت قاعدتها الجغرافية والمادية الاقتصادية . ويكون عليهما ان تنكفىء على مواردها الذاتية المباشرة التى لا تقارن بموارد الهارتلاند . وهذا ما حدث الان بالفعل بعد ذوبان الاستعمار . فلم تعد غرب اوربا فى مجموعها بند للاتحاد السوفييتى ولولا قوة الولايات المتحدة من ورائها لما صمدت فى الصراع الجديد

هذا فيما يختص بالهارتلاند والسواحل البحرية ، الفيل والحوت ، وتبقى اخيرا منطقة الارتطام او التمساح ... هذه هى ما دعونا فيما مضى بالمنطقة البينية ، وهى جغرافيا بينية بموقعها بين قوى البر شرقا والبحر غربا ، وتمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال بينهما تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة ، وهى استراتيجيا منطقة ارتطام وجبهة تصادم بين تلك القوى القطبية ومن ثم ارض المعركة الحتمية بينهما ، فلا يستطيع اى منهما ان يصل الى الاخر ويضربه الا بالمرور على هذا الجسر الامفيبى

ونحن نحدد هذه الوحدة الاستراتيجية بنطاق يشمل المانيا وشرق اوربا والبلقان فيما عدا اليونان ثم الشرق الاوسط بما فيه تركيا وايران والمشرق العربى، كما نجد له امتدادات فى الشرق الاقصى بين السواحل والداخل . فهى اذن اشبه بقوس او هلال يحيط بالهارتلاند وتحيط به القوى البحرية ، اى انها تتوسطهما . ولعل مما له مغزاه ان تكون احدى الحلقات الهامة فى هذا النطاق « الاوسط » هى الشرق « الاوسط » ، بل لعل هناك اكثر من صدفة فى ان ماكيندر يطلق على شرق اوربا والبلقان وما فى تخومه

من منطقة الارتطام فى اوربا اسم « الشرق الاوسط الاوربى » (١) تاكيدا لفكرة الارتطام المتاصلة فى الموقع المتوسط

وفى هذا الموقع المتوسط تكمن شدة خطورة المنطقة ــ منطقة الارتطام ــ ودور الجسر بالنسبة لكل من قوى البر والبحر واهتمامها بها او بالسيطرة عليها . وفى الواقع ان كل تاريخ الصراع بين البر والبحر هو محاولة التحكم فى هذه المنطقة بالذات ، فهى تمسك زمام الموقف بين القوى القطبية ويمكن ان ترجح كفة على الاخرى ، وبالتالى فان مصيرها فى النهاية هو الذى يحدد مصير الصراع بين الهارتلاند والسواحل

ولا شك ان هناك قطاعات معينة من هذا النطاق تمتاز بموقعها وبطبيعتها بقيمة استراتيجية حرجة ، ولعل اهمها هو شرق اوربا فى الشمال والشرق الاوسط فى الجنوب . وليس صدفة بالتاكيد ان معظم من حاولوا البحث عن اخطر المواقع الاستراتيجية فى العالم ــ أيا كانت صحة آرائهم ــ وضعوها فى هذا النطاق أولا وفى هذه القطاعات منه بالذات ثانيا .

مثلا كان تاليران يرى ان اخطر نقطة استراتيجية فى العالم هى مصب الدانوب (٢) (أ) ، وكان بسمارك يضعها فى بوهيميا ، من سيطر عليها سيطر على وسط اوربا ثم على اوربا (٣) ، بينما حددها نابليون بمصر ، وبعده ومثله قال اندريه زيجفريد : « قل لى من يسيطر على قناة السويس اقل لك من يسيطر على

---

(١) Democratic Ideals, p. 122.

(٢) East Historical Geog. of Europe, p. 368.

(٣) الجيوبولتيكا ، جـ ١ ص ١٨٥

العالم ؟ (١) . لا ، وليس صدفة كذلك ان المعارك الفاصلة المصيرية فى الحربين العالميتين الاخيرتين حدثت فى شرق اوربا وفى الشرق الاوسط ابتداء من « الجبهة الشرقية » الى « الحملة التركية » ومن ستالينجراد الى العلمين

والمنطقة بعد هذا وفى مجموعها اقل مساحة وسكانا وقوة واكثر تمزقا وتفتتا سياسيا من اى من القوى القطبية . وهى من ثم فى موقف هجومى او دفاعى ضعيف ، محصورة بين فكى كماشة او بين شقى رحى ، وقد يبدو من هذا لاول وهلة ان التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى وانها ضحية موقعها المتوسط وان دورها الاستراتيجى لا يمكن ان يزيد عن دور الدول الحاجزة التصادمية التقليدى

ولكن الحقيقة ان نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن ان تكون عامل قوة لهذه المنطقة اذا ما جمعت قواها فى تكتلات او قطاعات اقليمية كبيرة ، فحينئذ يمكن لها ان تلعب دورا مختلفا تماما . ويمكن من هذه الزاوية ان نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ الى ثلاثة : اما خط خمود سياسى ، واما منطقة رهو سياسى ، واما خط استواء سياسى

خط خمود حين تسقط لاحدى القوتين البرية او البحرية ، وفى الاغلب الاعم كان شرق اوربا بحكم الموقع وطبيعته السهلية من نصيب القوى البرية ، بينما كان الشرق الاوسط من نصيب القوى البحرية . فمنذ فجر التاريخ وشرق اوربا تكتسحه موجات الرعاة المتواترة ابدا ، ومنذ ظهرت الروسيا وكل تاريخ دويلات

(١) Siegfried, Mediterranean.

البلطيق وبولندا وبروسيا والى حد ما الدانوب والبلقان لا ينفصل عنها اما بالخضوع الفعلى او التهديد الشكلى. وكل ماساة بولندا فى التاريخ من تقسيم متكرر ، بل وزوال احيانا لا يخرج تفسيرها عن هذا . وشرق اوربا اليوم ملتحم التحاما عميقا مع الهارتلاند

اما الشرق العربى فقد كان مستعمرة واحدة كبرى للاستعمار البحرى منذ القرن التاسع عشر ، وكان هذا يشدد قبضته عليه بشراسة وضراوة خاصة بحكم حيوية وخطورة موقعه كالطريق الحقيقى الوحيد الى مستعمراته الساحلية فى الشرق الاقصى

اما حين تعجز القوتان القطبيتان عن ابتلاع المنطقة تماما فقد تكتفيان باقتسامها وتنازعها ، القطاعات الاكثر برية للقوة البرية والقطاعات الاكثر بحرية للقوى البحرية . هنا تصبح منطقة الارتطام والتصادم منطقة رهو سياسى ، منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين . هكذا كان الشرق الاوسط القديم بين فارس وورثتها وبين اثينا وروما حين تقاسم الطرفان المنطقة فى توازن حرج متوتر

كذلك ففى هذه الحالة كثيرا ما يفرض التفتيت السياسى على المنطقة ـ سياسة البلقنة ـ حتى تكون سلسلة من الدويلات الحاجزة . وهذا ما فعله الحلفاء بعد الحرب الكبرى بشرق اوربا والبلقان والشرق الاوسط . وعادة ما تلجأ دول النطاق الى لعبة خطرة هى استراتيجية مضاربة الطرفين ببعضهما وذلك بامل ان تضمن بقاءها ، كما فعلت ايران طوال تاريخها الحديث . كذلك انتهت الحرب الاخيرة بتقسيم المانيا الى شطرين يخضع كل منهما لاحد الطرفين

وقد يتفق الطرفان المتصارعان على تحييد جبرى يفرض على دول المنطقة حيث يتوازن نفوذهما ويتعادل ، وبذلك تصبح نوعا من الارض الحرام أو ارضا بلا مالك no man's land ، وخير ما يتمثل هذا فى افغانستان وتايلاند ، فهما تدينان باستقلالهما القلق الباهت لا الى قوتهما الذاتية ولكن الى تعادل قوى الشد والجذب حولهما

واحيانا اخرى قد يؤدى الصراع ـ بمنطق عكسى ـ الى الحفاظ على كيان بعض دول المنطقة ، والمثل الكلاسيكى النادر هو تركيا . ففى وجه الخطر البرى ـ الروسيا ـ الذى هدد اكثر من مرة كيان الامبراطورية العثمانية فى صميمها ، تقدمت القوى البحرية ـ فرنسا وبريطانيا ـ بسرعة الى دعمها ومساندتها حتى عاشت بالفعل أطول مما ينبغى

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد ان ترتفع قوة المنطقة الى مستوى خطورة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر وترغمهما معا على التزام حدودهما ، وتمنع الالتحام بينهما بل وقد تخضع احداهما أو كليهما لسيطرتها هى . ومن المهم ان هذا دور أقل حدوثا فى التاريخ حتى ليوشك ان يكون شذوذا عابرا

ولكن الاهم أن ذلك الدور لم يتحقق الا بعد نوع ما من الوحدة بين أجزاء من المنطقة سواء منبثقة من الداخل او مفروضة من الخارج . وهناك حالات ثلاث ارتفعت فيها منطقة الارتطام الى هذا الدور ، وهى تتراتب تاريخيا كما تتراتب جغرافيا من الجنوب الى الشمال .

ففى الشرق العربى قامت الدولة العربية الاسلامية

فى العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية فى قلب منطقة الارتطام على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت ان تفسد عليهما خططهما فى التحالف ضدها . ولكن كما انها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت لقوى برية المصدر

ثم ياتى بعد هذا تاريخيا والى الشمال جغرافيا ، المثل التركى حيث احتلت الامبراطورية العثمانية رقعة ارتطامية بحتة ابتداء من العالم العربى حتى البلقان ، ومع ذلك استطاعت ان تكون الى حين قطبا من اقطاب القوة فى عالم العصور الوسطى وطلائع العصور الحديثة. واخيرا بتحرك القطب شمالا مع ظهور المانيا الموحدة التى رنت الى السيطرة العالمية ـ لا اقل ـ وكادت تحققها فى حربين عالميتين . ولكن ، وكما حدث فى حالة الدولة العربية الاسلامية ، سقطت المانيا الارتطامية حين اجتمع عليها الهارتلاند والسواحل البحرية معا

وفى الوقت الحالى يقع اغلب القطاع الشمالى من منطقة الارتطام باوربا فى يدالهارتلاند ، وجزء محدود فى يد السواحل البحرية ، بينما فى الشرق الاوسط والاقصى زال الاستعمار البحرى واصبحت المنطقة مستقلة لاول مرة منذ وقت طويل .. وهنا نجد مثلا حيا على استمرارية الخطوط العريضة فى استراتيجية المنطقة . فهى لم تعد خط خمود سياسى ولا هى منطقة رهو ، ولكنها ليست بعد خط استواء سياسى غلاب . غير انها وهى تدرك موقعها الحاسم تحاول اولا ان تحفظ كيانها ادخل فى استراتيجية العالم المعاصر ، وهو ما ينبغى أن نتقدم الان الى دراسته

الفصل الحادي عشر

عالمنا المعاصر

حين يكتب مؤرخو المستقبل تاريخ هذا القرن ، فاغلب الظن انهم لن يملكوا الا ان يعتبروا نهاية الحرب العالمية الثانية ـ قل بالتقريب منتصف هذا القرن ـ خط تقسيم جوهريا وجبهة افتراق عميقة فى التاريخ الحديث جميعا ، لا تقل خطرا ولا مغزى عن فترة الكشوف الجغرافية او الانقلاب الصناعى . ففى تلك الفترة المضغوطة زمنيا المفعمة تاريخيا ، اجتمع ـ كانما على ميعاد ـ انقلابان حافلان مذهلان : ثورة التحرير ، والانقلاب النووى . الاول ثور المناخ السياسى فى العالم برمته ، والثانى قلب قوانين الاستراتيجية الكوكبية راسا على عقب . ونحن فى معنى حقيقى جدا نعيش اليوم فى عالم جديد ـ كدت اقول فى كوكب جديد ! ـ خرج من رحم عالم الصناعة والاستعمار ولكنه بنفس الدرجة خرج عليه

وفى الجيولوجيا والبيولوجيا كما فى التاريخ أن مسار التطور يظل عادة رتيبا تقليديا كالخط المستقيم او كالمنحنى الانسيابى ، ثم اذا به يتفجر فجاة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازناته ويحددها لأمد بعيد ، ومعها يعود ايقاع الحياة رتيبا تقليديا مستقرا ، حتى تبـــدأ الدورة الانفجارية من جديد ، وهكذا . تلك هى النظرية النكبائية

catastrophism في العلم الطبيعي (١) ، والنظـرية الثورية في العلم الاجتماعي . وما نحن بحاجة فيمـا نحسب الى سيسموجراف تاريخي أو بارومتر سياسي لندرك اننـا نركب اليوم قمة موجة عاتية من موجات التاريخ الانفجارية زلزلت تضاريس السياسة العالمية ، وخلقت طبوغرافية جديدة للاستراتيجية الكوكبية . ومن هنا نبدأ ..

الثورة السياسية : جغرافية التحرير

انها لمفارقة من الجغرافيا مثـيرة ان يستطيع مليونان ومائتا الف ميل مربع هي كل مساحة غرب أوربا ان تنشر نفوذها وظلها وان تفرض استعمارها على اكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هي مساحة العالم المعمور وغير المعمور ، وذلك في اقل من خمسمائة عام (٢) ! ولا تقل غرابة عن ذلك جزئيات الصورة : فغداة الحرب الأخيرة كانت بريطانيا تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة ، وفرنسا ٢٢ مرة ، أما هولنده فنحو ٥٧ مرة ، وبلجيكا ٨٠ مرة ، وايطاليا ١٩ مرة

ويمكن على أساس الموقع من منحنى التطور الاستعماري ان نصنف القوى الاستعمارية في ذلك التاريخ الى اربع طبقات أو فئات (٣) . فثمة اولا « القوى العتيقة » ، بدأت الاستعمار في اوائل عصر الكشوف ، ولكنها بقـدر ما تعاظمت في البداية تضاءلت في النهاية وازاغتها القوى الاحدث ، فاصبحت امبراطوريتها حفرية fossil empire ونوعا من الاستعمـار المتخلف residual المفتت .

(1) F. Zeuner. Dating the Past, Lond. 1950; Wooldridge & East, Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950.
(٢) هويتلزى ، ص ٨٦
(٣) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فيالعالم العربي ص ٣٢

ومن المتفـق عليـه انهـا كانت قد اصبحت اعجـز فى حقيقتهـا من ان تلـك امبـراطوريات ، وان كياناتهـا الامبريالية ليست الا سخريات سياسيـة ، بل لقد عد بعضها رجل اوربا المريض الجديد . هنا تاتى البرتغال واسبانيا والى حد ما هولندة

يلى ذلك « القوى العتيدة » ، وهى أحدث من العتيقة دخولا الى الاستعمار ، ولكنها اقدم واخطـر دول اوربا توحيدا وتصنيعا وقوة . ولذا كانت اكبر قوى استعمارية ظهرت فى التاريخ الحديث وتمثل الاسـتعمار الكلاسيكى او الراديكالى بكل ما اصبح يعنى من استغلال ورجعيـة واحتكارات . والواقع أن تاريخ الاستعمار القريب يتحلل اساسا ونهائيا الى تاريخ الصراع بين هذه القوى بعضها البعض ، وبينها وبين من سبقها ومن لحقها من القوى . وتشمل هذه المجموعة دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا

ثم هناك « القوى الوليدة » التى لم تصبح دولا موحدة الا بالامس القريب فقط ، والتى تأخر فيها بدء الانقـلاب الصناعى نسبيا ، وبالتالى تأخر خروجها الى ميـدان الاستعمار فلم تجد الا الفتات . وحتى هذا لم تنعم به طويلا فى اغلب الحالات ، فقد تجمعت ضدها القوى العتيدة لتجردها منه فى اثناء الحربين العالميتين . تحت هذه العائلة تندرج المانيا وايطاليا ، والى حد ما بلجيكا ، وفى معنى خاص اليابان

واخيرا تاتى « القوى الجديدة » ، وهى تلك التى ظهرت متاخرة على مسرح الصراع السياسى الاستعمارى دون ان تكون دولا جديدة فى ذاتها كالقوى الوليدة او ان يكون لها نفوذ سابق كالقوى العتيـدة . ولهذا فهى لم تمـارس الاستعمار بشكله التقليدى بل تنكر صلتها بالاستعمـار وتستنكره . ومع ذلك فهى متهمة من غيرها باشكال خاصة

من الاستعمار اما الاقتصادي واما الايديولوجى . وتتالف هذه المجموعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

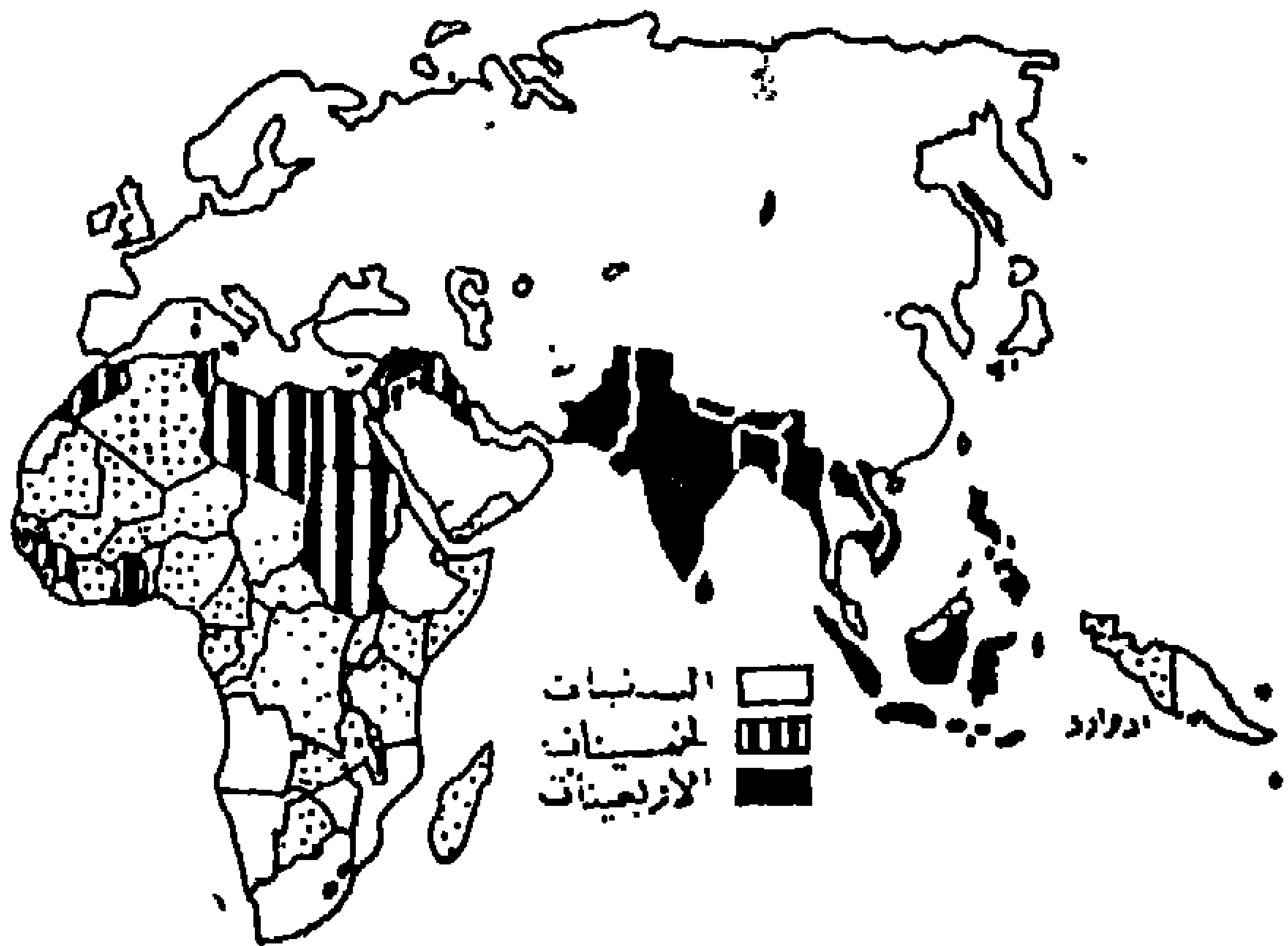
هذا فى خطوط عريضة تصنيف طبقات الاستعمار غداة الحرب الثانية . أما عشيتها فكان الاستعمار المباشر يغطى حوالى ٣٥ ٪ من مساحة العالم ، وكانت أوربا ترى فيه بلسما ودواء كاملا panacea لكل امراض الحرب وجراحها . كانت تحسب نلك العلامة القياسية قمة الاستعمار ، بل وكانت تخطط للبقاء فى مستعمراتها قرونا عديدة (١) ! وما كان يدور بخلدها انها النهاية

اجل ، فانها لمفارقة من التاريخ اشد اثارة مما سبق ، ان ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون هدمه التحرير فى عقدين اثنين . فبين ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥ ٪ من مساحة العالم الى ٤ ٪ ، أى ان معدل سرعة المد التحريرى يعادل عشرات اضعاف معدل الزحف الاستعمارى ، حتى قيل ان الاستعمار اذا كان قد اتم مشرقه فى ساعات فقد عبر خط الزوال وشهد شفقه وغسقه ثم غروبه فى دقائق معدودات . وبينما اتى الاستعمار فى موجتين كبريين لكل منهما بدوره ذبذباته الثانوية ، جاء التحرير فى موجة واحدة طاغية كاسحة . واذا كان البعض قد تحدث فى هذا الصدد ـ تقليلا فى الحقيقة ـ عن « رياح التغيير » ، فاولى بنا ان نقول اعصارا أو هاريكين !

انها بلا ريب ثورة التحرير ، وانه عصرذوبان الاستعمار de-colonisation ما فى ذلك شك ، ونهاية الامبراطورية واوربة العالم dis-Europeanisation . واذا كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، فان القرن العشرين بحق قرن

(١) Karl Pelzer, op. cit., pp. 314-5.

التحرير . ولئن كان الاول وباء القرن الماضى ، فان التحرير اليوم ظاهرة « معدية » كما قيل ، ولكنها عدوى صحية حين تبدأ لا تتوقف وانما تتداعى فى سلسلة من الافعال وردود الافعال حتى تشكل موجة مدية غلابة . ان الاستعمار الذى ولد ولادة غير طبيعية وغير شرعية يموت الآن ميتة طبيعية ، بل لعلنا نكون أقرب الى الصواب إذا قلنا بالسكتة القلبية . ومعهـــا ـ هذه الميتة ـ ينتقل الاستعمار من الجغرافيـــا السياسية الى الجغرافيا التاريخية ، ويصبح من حفريات التاريخ السياسى . لقد تمت دورة كاملة من قيام وسقوط أوربا (١)



شكل (٢٨) زحف موجة التحرير :
فى عقود ثلاثة ، هدم التحرير ما بناه الاستعمار فى خمســة قرون . لاحظ الموجات الثلاثة: الاسيويه فى الاربعينــات ، العربية فى الخمســينات ، والافريقيــة فى الســـتينات

ولنتتبع الآن جغرافية التحرير فى خطوطها العريضـــة

(١) جـون كول ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٩ .

قبل ان نعرض لدوافعها وضوابطها . ومن الصعب أحيانا ان نحدد تاريخ ومسار التحرير الحقيقي ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلي . ولكن أول تحرير حقيقي بدأ في أثناء الحرب في لبنان (١٩٤١) وسوريا (١٩٤٣) ، وذلك كنتيجة لتصادم بريطانيا وفرنسا معا في اللفانت . فقد حاولت فرنسا الحرة أن تعود ، في وجه الثورة الوطنية ، الى السيطرة في الشام ، ولكن بريطانيا تذرعت بظروف الحرب لتطرد فرنسا من المنطقة ـ منطقتها التقليدية ـ وترثها فيها ، فأرغمتها على التسليم للنضال الوطني بالاستقلال . ولكن الشام بداية منعزلة وارهاصة محدودة ، أشبه بنذير النفير . أما العاصفة الحقيقية فلم تجمع قواها الا بعد الحرب ، ومن بعدها يمكن ان نميز بين ثلاث موجات زمنية ـ اقليمية واضحة بما فيه الكفاية

الموجة الاسيوية

الاولى هي الموجة الاسيوية في الاربعينات المتاخرة ، ومركزها الشرق الاقصى . ففي ١٩٤٦ «منحت» الولايات المتحدة الفلبين استقلالها ـ طواعية كما تلح هي وتؤكد دائما . وفي ١٩٤٧ استقلت مع التقسيم كل من الهند والباكستان وبورما ، وذلك بعد نضال وطني طويل بدا سلميا بالمقاومة السلبية المشهورة (الساتيا جراها (Satia Graha) وانتهى عنيفا في أثناء الحرب . وفي ١٩٤٨ جاء دور سيلون في الاستقلال

ثم كانت ١٩٤٩ سنة جنوب شرق آسيا حيث خرجت فرنسا مهزومة بعد حرب عصابات تحريرية مريرة ترمز لها وتلخصها ببلاغة بل تخلدها دين بين فو ، فنالت كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا استقلالها . وبالمثل خرجت

هولندة من اندونيسيا بعد هزيمة قاسية فى حرب عصابات وادغال مماثلة فى نفس التـاريخ ، ولو ان تحرير ايريان الغربية تأخر الى أوائل الستينات (١٩٦٢) . وبهذا لم تبق الا الملايو بغير استقلال فى هذه الموجة ، حتى انتزعته بعد حرب عصابات مطولة فى أواخر الستينات . وكانت آخر القائمة هى جزر ملديف السديمية على أطراف الهند

ولا ينبغى ان نتكلم عن التحرير فى آسيا دون أن نذكر دورا ما غير مباشر وغير مقصود لليابان. فقداكتسح الغزو اليابانى جنوب شرق آسيا فى أثناء الحرب الاخيرة اكتساحا خاطفا ، حطم نهائيا قداسة القوة الاستعمارية الغربية ، وكان له تأثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذى رآه كل الآسـيويين مهزوما مدحـورا على أيدى آسيويين مثلهم (١) . وأيا كانت أهداف الدعاية اليابانية من شعار « آسيا للآسيويين » ، وأيا كانت قيمة الاستقلال الوطنى الذى منحتـه لشعوب تلك المستعمـرات ابان الغزو ، فقد افسد هذا مرة واحـدة والى الأبد التـربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار

كذلك لجا اليابانيون حين اضطروا الى التسليم الى اعطاء الأسلحة للوطنيين ، كما أن الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين . ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده قوميا وعسكريا . ومن هنا بدأ التحرير . وبعده ، فى المعركة نفسـها ، جاء عاملان آخران ليحـاربا فى صف الوطنيين ضد الاستعمار العائد

فأما الاول فهو البيئة الطبيعية ، فان بيئة آسـيا

(1) Ritchie Calder, Dawn over Asia, News Chronicle Publication, 1952, pp. 18. 20.

الموسمية كانت حليفا طبيعيا لابنائها : ادغال واحراش وغابات كثيفة ، ثم انهار ومستنقعات وجبـــال تمثل ـ لاسيما فى الفصل المطير ـ مجالا مثاليا لحرب العصابات ، بدوح الجيوش النظامية ميكانيكية وجوية على السواء . وعلى سبيل المثال فقد كانت الهند الصينية فى الحقيقة مصيدة طبيعية ضخمة لقوات الاستعمار . أما العامل الثانى فهو أن الاستعمار هنا كان استعمارا استغلاليا لاسكنيا ولا استراتيجيا ، ولهذا كان على ضراوته أضعف جذورا واسهل استئصالا

والى جانب هذا وذاك جميعا بقى عامل خارجى على جانب كبـــير من الاهميه ، ونعنى به الموقع الجغـــرافى والسياسى . فمن ناحية كانت آسيا الموسمية أبعد قطاعات الاستعمار عن اوربا ، ومن ثم اصعبها منالا وارتباطا . ومن ناحية اخرى فقد كانت تقع على خط الاستواء السياسى بين الكتلين الشرقية والغربية وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعى وتحارب وظهرها يستند الى اعمــاق الصين . بمعنى آخر كانت أبعــد شيء عن فلك الغــرب الجغرافى وادخل شيء فى فلك الشرق ، ومن هنا تدفقت عليها المساعدات بالاسلحة والتأييد ضد الاستعمار

الموجة العربية

اما الموجة الثانية من موجات التحرير فهى موجة العالم العربى فى الخمسينات ، ولو آن طلائعها ظهرت فى لبنان وســوريا فى الاربعينـــات واواخرها تأخــرت فى الكويت والجزائر الى الستينات الباكرة وفى الجنوب اليمنى الى الستينات المتــاخرة . ففى ١٩٥١ نالت ليبيا استقلالهــا بفضل المناورات الاستعمارية من اجل الوصاية على ارث

الاستعمار الايطالى . فقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا أن تتولى الوصاية على ولايتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب . ولكن اعتراض الاتحاد السوفييتى على عودة ايطاليا ومحاولته ان يحل محلها كان وحده كافيا لان يدفع بالاستعمار الى ان يقرر الاستقلال ، لا حبا فى ليبيا ولكن كرها فى الاتحاد السوفييتى وهلعا من ان « يتسلل » الى الشرق الاوسط (١)

وفى ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيا بعد حرب عصابات ومقاومات مسلحة فى منطقة القنال ، سبقتها سلسلة من التوترات والتحديات الشعبية من قبل ، الى ان توجت فى النهاية بحرب حقيقية كاملة وحاسمة فى ١٩٥٦ . وهذه الحرب ستكون نقطة تحول عظمى فى التحرير لا فى العالم العربى ولكن فى افريقيا وخارجها كذلك . والواقع منذ البداية ان مصر بحكم موقعها ووزنها كانت سباقة الى النضال التحريرى وكانت دائما مركز الوعى ومنبع الوحى فى الكفاح ضد الاستعمار ، فكانت نموذجا للمغرب العربى ومثالا للمشرق ، وحجر الزاوية والقوة الركن موقعا ودورا . باختصار ، كانت مصر واحة العرب سياسيا . فمنذ ثورة يوليو الأم ، رصع العالم العربى بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالاقمار حول الشمس او كالنويات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن

ومرة أخرى كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربى الافريقى ، اذ استقلت فيه ثلاث وحدات هى تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقى . ففى السودان استطاعت

(١) P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, Paris, 1951.

مصر الثورة المستقلة ان توفر له الفرصة لتصفية الحكم الثنائى ليمكنه من طرد الاستعمار البريطانى . وفى المغرب وتونس حدثت مصادمات عنيفة مع الاستعمار الفرنسى حتى اضطر الى الخروج ، ولو أنه بقيت بعد ذلك فى تونس بعض جيوب استعمارية متخلفة فى بنزرت طهرت فيما بعد فى ١٩٦٣ ، وفى المغرب فى الاسافين الاسبانية سبتة ومليلة وافنى وهى ما تزال حتى الان

وبهذا كان العالم العربى الافريقى قد تحرر كله فى ١٩٥٦ فيما عدا الجزائر التى أتى دورها فى ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية سبعية كاملة ـ حرب السنوات السبع العربية ـ كلفت الجزائر مليونا ونصف مليون من الشهداء ، ولعبت فيها المساعدة الحربية والسياسية المصرية دورا خطيرا . ومما له مغزاه أن ثورة التحرير الجزائرية لم تشتعل الا بعد عام من الثورة المصرية ، وفضلا عن هذا فان فرنسا لم تشترك فى حرب السويس الا « لتخضع الجزائر عن طريق القاهرة »

هذا ، وقبل الجزائر وفى ١٩٦١ كانت الكويت قد تحررت على الخليج ، منتزعة استقلالها من بين براثن الاستعمار البترولى فى صميمه . أما بعد الجزائر ـ وعلى نحو نكررها على تصغير شديد ـ فقد سجل الجنوب العربى اخر موجات المد القومى ، حيث ارغم الاستعمار البريطانى على الخروج فى أواخر ١٩٦٧ من « عدن والمحميات » أو « اتحاد الجنوب العربى » كما سماها الاستعمار على التعاقب ، وحيث قامت جمهورية جديدة باسم جنوب اليمن بعد حرب تحريرية حقيقية بدأت منذ ١٩٦٤ ، تحت ايحاء الثورة اليمنية الملاصقة وفى ظل المساعدة المصرية ـ تماما كما بدأت الثورة الجزائرية

وسيلاحظ عند هذا الحد انه بالعالم العربى قد بدات اول عملية تحرير فى افريقيا على طول ضلعى ساحل البحر الاحمر والمتوسط . اما فى آسيا العربية فمن السهل أن نرى سهم الحركة يبدأ من الشمال عموما سواء فى الشام او العراق ثم يرسم قوسا عريضا عكس عقارب الساعة ليصل الى الجنوب اليمنى . وهو لاشك سيمضى فى نفس الاتجاه على طول بقية سواحل الجنوب العربى ثم الى الخليج العربى فى النهاية ، اى على نفس المحور الذى تمدد عليه الاستعمار فى البداية ، بل لقد اعلنت بريطانيا اخيرا وتحت ضغط المد العربى عزمها على الانسحاب من الخليج العربى نهائيا قبل ١٩٧١

والملاحظ بذلك وبعد ذلك أن افريقيا العربية قد تحررت كلية فيما عدا الجيوب والاسافين الاسبانية فى المغرب . هذا بينما ان آسيا العربية ، التى كانت معقل القطاع الوحيد الذى نجا من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، قد أصبحت الآن المعقل الاخير حقا للاستعمار فى العالم العربى . فالاستعمار المتخلف هنا يتوزع فى فلسطين المحتلة فى الشمال وفى الجنوب العربى ابتداء من ظفار حتى البحرين

ومن ناحية المدى الزمنى لكل من المد الاستعمارى والمد التحريرى ، فالظاهرة اللافتة بوضوح هى شدة تضاغط الثانى بالقياس الى الاول ، فما بناه الاستعمار فى ٩٠ سنة ــ باستثناء فلسطين المحتلة ــ هدمه التحرير او هدم معظمه فى أقل من ٢٥ سنة . اما من حيث الترتيب التاريخى وتوقيت التحرير ، فسنلاحظ نوعا عريضا وعاما ــ دون أن يكون مطردا مع ذلك بأى معنى ــ من العلاقة العكسية بين اولوية الاستعمار وأولوية التحرير . فبصورة تقريبية كانت اخر الوحدات العربية

التى سقطت للاستعمار (كسوريا ولبنان وليبيا من ضحايا الموجة الثالثة) هى من ابكرها استقلالا ، بينما كانت اخرها استقلالا هى أولى ضحايا الاستعمار (الجزائر والجنوب اليمنى من ضحايا الموجة الاولى) ، وباستثناء الشذوذ البحت فى فلسطين المحتلة مرة أخرى ، فكل بقايا الاستعمار الان هى ايضا من ضحايا الموجة الاولى . ويترتب على هذا كله ان أولى الضحايا كانت سيئة الحظ مرتين وكان عمر الاستعمار فيها اطول مرتين

واذا نحن توقفنا لنتمعن ضوابط التحرير فى العالم العربى ، فلن نخطىء أثر الموقع الجغرافى ونوع الاستعمار بالاضافة الى البيئة الطبيعية . فمن بين كل مناطق الاستعمار فى العالم القديم يقع العالم العربى أقرب ما يقع الى أوربا بل هو ادخل فى فلكها الجغرافى . وبالتالى فقد كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته هنا دون ان يقابل مواجهة مباشرة من توازن قوى مع معسكر مضاد أو كتلة أخرى

كذلك فقد كانت جذور الاستعمار هنا متغلغلة عميقة لان نوعه السائد كان اما من الاستعمار الاستراتيجى كما فى مصر بوجه خاص واما من الاستعمار السكنى كما فى الجزائر بوجه خاص . كما جاء البترول فى سواحل المشرق العربى ليدعم الجانب الاستراتيجى ويضيف الجانب الاستغلالى فى طبيعة الاستعمار ، ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقاومة الوطنية بمزيد من القوة الضارية . ففى مصر يرمز الكفاح المسلح وحربا القنال الى مدى صعوبة استئصال الاستعمار الاستراتيجى . ولو أن الهند قد استقلت فى وقت مبكر ،

فلربما كان من الراجح ان تنتزع مصر استقلالها منذ ذلك التاريخ

اما فى الجزائر حيث وصل الاستعمار السكنى الى ابشع درجاته واشدها ضراوة حتى اعتبرها جزءا لا يتجزأ من وطنه ، فقد اثبتت التجربة ان مشكلة التحرير مع الاستعمار السكنى مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المتروبوليتانية فقط بل والمستوطنين ايضا . فكلما اشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الاول تحول الثانى الى عصابة ارهابية داخلية « تأخذ القانون فى يدها » وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة « الام » مهددة « بحرب استقلال » (!) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة

ثم حاول ارهاب المتوطنين أن يفرض ، دون جدوى ، التقسيم الى دولتين مستقلتين اوربية على الساحل المعمور ووطنية فى الداخل الصحراوى الى ان قذف به التحرير فى البحر تماما . وفى جبهة المعركة اخذت الطبيعة ، كقلعة جبلية غابية وعرة ، صف الوطنيين ، تهيىء لهم حرب العصابات فى الوقت الذى تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية والجوية ، حتى اصبحت القبائل واوراس رمزا وطنيا وموطنا للتحدى والنضال القومى

ورغم ان الاستعمار فى الجنوب اليمنى لم يكن سكنيا ، فقد استمات فى تشبثه بالبقاء ، وذلك بسبب طبيعته الاستراتيجية ــ وبفضلها ايضا . فمنذ ضياع السويس اصبحت عدن اضخم قاعدة بريطانية بحرية شرق السويس وذلك اساسا فى منطقة مخلخلة السكان

نسبيا . ولكن الارض هنا ـ كما هى القاعدة دائما ـ حاربت مع ابنائها ، وتكررت تجربة الجزائر على مقياس مصغر . فلعبت جبال ردفان ـ كاوراس ـ دور المشعل والمعقل فى حرب العصابات ، بينما لعبت عدن باحيائها الشعبية المكتظة دور مدن الساحل الجزائرى بقصباتها الوطنية الشهيرة ، وكما ناور الاستعمار فى الجزائر بخدعة التقسيم ، ناور فى الجنوب العربى ـ دون جدوى ايضا ـ بمحاولة فصل الجزر الساحلية عن الارض الام ليتخذ منها قواعد او حاملات طائرات لا تغرق تدخل فى فلك استراتيجيته الجديدة العامة ، استراتيجية الجزر المحيطية فى المحيط الهندى

الموجة الافريقية

تبقى الان الموجة الثالثة والاخيرة للتحرير وهى الافريقية ـ بمعنى افريقيا المدارية ـ فى الستينات (١) . ولقد سبقتها فى الواقع بعض حالات معزولة فى اخريات الخمسينات تضم غانا فى سنة ١٩٥٧ وغينيا فى سنة ١٩٥٨ حيث كانتا اولى الدول الافريقية المدارية استقلالا . وكذلك كان هناك من قبل دولتان افريقيتان مستقلتان منذ القدم هما اثيوبيا وليبيريا ـ اثيوبيا لظروفها الطبيعية كقلعة جبلية منيعة لم تسقط للاستعمار الا فى الفترة الايطالية ، وليبيريا لظروف انشائها لتحرير الرقيق الامريكى العائد . فكلاهما « استقلال سلبى » ان صح التعبير

وانما ننتقل الى قلب او قمة الموجة التحريرية الافريقية فى سنة ١٩٦٠ ، فهى علامة كبرى فى تاريخ

(١) حمدان ، أفريقيا الجديدة.

القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها . فالى ما قبل هـذا التـاريخ كان بالقـارة كلها عشر دول مسـتقلة فقط لا تزيد مسـاحتها عن ٣٫٤٧٠٫٠٠٠ ميـل مربع او ٣٠ ٪ من مساحة القارة ، ولا يزيد سـكانها عن ١٠٢٫٣٤٠٫٠٠٠ نسمة او ٤١٫٧ ٪ من سكان القارة . فاذا بسنة ١٩٦٠ ــ سنة افريقيا كما وصفت ــ تضيف الى قائمة التحرير ١٧ دولة جديدة بمجموع مسـاحة قدره ٤٫٥٧٠٫٠٠٠ ميل مربع او ٤١ ٪ من القـارة ، وبمجموع سكان قدره ٨١٫٩٤٥٫٠٠٠ نسمة او ٢٣٫٥ ٪ من القارة

ومعنى هـذا المعدل المذهل استقلال اكثر من دولة كل شهر من ذلك العام . وتشمل هـذه المجموعة كل وحدات افريقيا الاستوائية الفرنسية وافريقيا الغربية الفرنسية السابقتين ، مضافا اليها نيجيريا والـكونغو (كينشاسا) وملاجاش . وبهـذه الموجة تم تحـرير غرب افريقيا كله تقريبا ، كما عبر التحرير خط الاستواء لاول مرة

ومنـذ سنة ١٩٦٠ حتى الوقت الحالى لم يتوقف زحف الحرية . ففى السنوات الخمس الاولى استكملت الثغرات المتخلفة فى غرب افريقيا اسـتقلالها وذلك فى سيراليونى ثم فى جامبيا ، ولـكن مركز ثقل التحرير انتقل اساسا الى شرق القارة ، فهنا نالت ٨ وحدات استقلالها ابتـداء من اوغنـدا وكينـيا حتى ملاوى وزامبيا بلا انقطاع . وبذلك تم تحرير كل حوض النيل من ناحية ، ووصلت طلائع الحرية الى حوالى خط عرض ١٨ درجة جنوبا من ناحية اخرى حيث ارسلت سهما فى صميم كتلة الاستعمار المتخلفة فى افريقيـا الجنوبية . وعدا هذا فمنذ سنة ١٩٦٥ حتى نهاية سنة ١٩٦٧ تم

استقلال بتشوانالند (بوتسوانا) باسوتولند (ليسوتو) كما استقلت جزيرة موريشس فى العام الحالى . وبهذا وصلت طلائع التحرير الى خــط عرض ٢٨ او ٣٠ ° جنوبا ، اى ان التحرير قفز ٣٠ درجة عرضيــة فى ٧ سنين فى النصف الجنوبى من القارة وحده

والمحصلة العامة الان ــ ١٩٦٨ ــ ان عدد الوحدات المستقلة فى القارة الافريقية قد وصل الى ٣٩ وحدة ، مجموع مساحتها نحو ١٠٫٣ ملايين ميل مربع او نحو ٨٨٫١ ٪ من مساحة القارة ، ومحتــواها السكانى لا يقل عن ٢٣٤ مليــون نسمة او حوالى ٩٣٫٥ ٪ من ابناء القارة . وبهذا تكون اكبر حركة تحريرية فى العصر الحديث قد تحققت فى افريقيا ، وذلك من حيث المساحة وان لم يكن من حيث السكان

واذا نظرنا الى افريقيــا ككل فسنرى ان التحرير بوجه عام بدا اولا بساحلى البحر المتوســط والاحمر . ثم يلى زمنيا غرب افريقيا بعامة ، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكنغو . بعد ذلك عبرت قافلة الحرية خط الاستواء ، وزحفت من شرق افريقيا الى وسطها على طول العمــود الفقرى لخط المرتفعات والهضاب الشرقية ، تماما على عكس مســار الاستعمار الابيض هنا فى القرن المــاضى . فسهم التحرير فى القارة بعامة يرسم اذن اتجاها محددا واضــحا من الشمال الى الجنوب

وفى التحرير الافــريقى لا يمكن ان نغفــل اثر نوع الاســتعمار ودور الطبيعة . ففيما عدا جزرا جغرافية معينة من الاستعمار السكنى ، كان الاستعمار الاستغلالى هو الذى يسود القارة المدارية . ففى ظل هــذا الاخير

لم يجد التحرير عقبات مستحيلة . فالجاليات الاوربية رشاش او رذاذ بالغ الضآلة عددا وقوة بفضل المناخ الطارد ، ولا تملك المقاومة الجدية ، ويسهل على المد التحريري اقتلاعها . ولقد قيل على سبيل المثال فى غرب افريقيا « ان بعوضة الملاريا هي المنقذ الحقيقي»

اما فى جزر الاستعمار السكنى حيث يتضخم عدد وقوة الدخيل ، فكان لا بد من التحام دموى ، ومن حسن الحظ ان الطبيعة الجبلية العالية التى كانت فى البدء مغنطيس الاستعمار السكنى ، كانت بعينها فى النهاية عامل طرده ، وان الطبوغرافيا التى كانت عونا له اصبحت عوانا عليه ، وذلك بحسبانها ميدانا مواتيا لحرب العصابات الوطنية . تلك تجربة متواترة عرفتها اثيوبيا ضد الايطاليين ، وخاضتها الكيكويو فى كينيا ، وتعرفها اليوم مرتفعات انجولا . بل قبل هذا جميعا عرفتها قبائل الزولو والماتابيلى فى مرتفعات جنوب افريقيا حيث استمر الكفاح قرنا باكمله على فترات متقطعة فى « حرب الكافير » حتى سميت بجدارة حرب المائة عام الافريقية (١)

واذا نحن نظرنا نظرة مقارنة الى حركة التحرير فى كل من آسيا الموسمية والعالم العربى وافريقيا المدارية ، فقد يمكن ان نقول ان الصراع فى الاولى كان اقرب الى الشكل العسكرى وانتظم حروبا حقيقية عنيفة ومريرة منظمة او بالعصابات ، اما فى العالم العربى فان الحروب المسلحة تتقاسم الصراع مع الكفاح الشعبى بنسب متقاربة . غير ان حركة النضال به كانت اطول مدى وزمنا منها فى آسيا . واما التحرير فى افريقيا المدارية

(١) Macmillan, Africa Emergent, Pelican, 1949.

فهو وان لم يخل من العنصر الحربى فقد كان اقرب الى الكفاح السياسى الشعبى بعامه ، وتحقق بسرعة وسهولة نسبية لا تقارن بأى من المنطقتين الاخريين ، ولا شك ان هذا يرجع جزئيا الى انها قد افادت من ثمار نضالهما العنيف او الطويل

هذه اذن هى موجات التحرير الثلاث فى العالم القديم . ولكن قبل ان نتقدم بعدها ينبغى ان نتذكر ان حركة التحرير لم تقتصر على العالم القديم . بل لقد شهدت الستينات استقلال بعض الجزر فى العالم الجديد ، اهمها ـ اذا استثنينا ايسلند التى انفصلت عن الدانمرك فى سنة ١٩٤٤ ـ هى جميكا وتوباجو فى الانتيل الصغرى بالكاريبى فى سنة ١٩٦٢ . كذلك فقد تم اخيرا استقلال جيانا البريطانية (جويانا) على ساحل امريكا الجنوبية المقابل ابتداء من سنة ١٩٦٦

غير انه يقابل هذا التيار العام العالمى اتجاه محلى عكسى يمثل انتكاسة الى الوراء . ففى الوقت الذى كان الاستعمار الكبير والصغير ينحسر ويتصدع عالميا ، كان استعمار جديد ـ ودنىء ـ قد بدأ فى فلسطين هو الاستعمار الصهيونى حيث كرر قرصنة القرن التاسع عشر ، وجمع بين اسوأ واسود ما فى دموية النازية وعنصرية جنوب افريقيا . غير انه اذا كان هذا الاتجاه التعس يدل على شيء فانما يدل على ان الاستعمار الصهيونى القمىء يأتى ضد كل تيار التاريخ ـ حتى التاريخ الرجعى ، حتى تاريخ الاستعمار نفسه ـ وانه من ثم محكوم عليه قبلا وبحتمية التاريخ بانه قد ولد ليموت

مغزى التحرير

السؤال الان : هذا الزحف التحررى بنمطه التاريخى الواضح ، ماذا يقول للجغرافى ؟ حقيقتين بارزتين . اولاهما ان هناك فارقا زمنيا طفيفا ولكنه دال بما فيه الكفاية بين قطاعات العالم القديم فى توقيت التحرير . فمسار الحركة يرسم قوسا عكس عقارب الساعة يدور مع سواحل المحيط الهندى او موازيا له ، بادئا فى آسيا الموسمية ومارا بالعالم العربى ثم منتهيا بافريقيا المدارية . ومعنى هذا بوجه عام ان التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الاسيوى ، بينما حيث انتهى هو بدأ التحرير الافريقى

الحقيقة الثانية : هى ان هذه الفروق الزمنية لا تنفى ان زحف التحرير جميعا موجة واحدة متعاصرة ملتحمة اساسا وان تعددت شعبا وتتابعت خطوات . ولا ينبغى ان يخدعنا التفاوت الزمنى الدقيق عن ذلك . فالحركة كلها مركزة فى نحو عشرين عاما لا تزيد ، وهى — اذا وسعنا البؤرة قليلا — مجرد لحظة فى مقياس التاريخ السياسى وحياة الامم . فأى معنى اذن لهاتين الظاهرتين ، وهل لهما مغزى نضالى خاص ؟

كثيرا ما تفسر المتابعة الاولى على ان التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الاسيوى . ولكن هذا الترتيب انما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن ان نقول انه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات فى الجزائر والمغرب الكبير وفى مصر والشام والعراق والتى ترصع كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا اوضح

من المحقق تاريخيا ان ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر كان لها صدى هائل فى الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية اخرى فانه اذا اخذنا الناحية الشكلية فان مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٩٢٢ والا فمنذ سنة ١٩٣٦ . والعراق منذ سنة ١٩٣٤ . هذا عدا ان سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل اى وحدة فى آسيا الموسمية . ومعنى هذا ان التحرير وان تاخر ظاهريا فى مجموعه فى العالم العربى عنه فى آسيا الموسمية ، فهو اسبق واقعيا

وهذا هو الترتيب المنطقى للاشياء ، لان العالم العربى ليس اقرب الى اوربا فى الموقع الجغرافى فقط ولكن فى الموقع الحضارى كذلك . وكما ان القوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى اخرت دخول الاستعمار الغربى اليه طويلا عنه فى آسيا الموسمية ، فهى نفسها التى تفسر سبق التحرير الفعلى العربى عن الاسيوى . اما لماذا تاخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى فيرجع اساسا الى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشريان المواصلات الاستعمارية مما جعل الاستعمار اكثر ما يكون تشبثا به وضراوة فيه . لاسيما ان قرب هذا الموقع الشديد من اوربا قد شدد من قبضتها عليه وكبتها له . فموقفه التحريرى اذن ادق واصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر ازاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر ازاء بريطانيا

اما بالنسبة الى افريقيا المدارية فلا شك ان الحقيقة المقررة ، والمعترف بها من الجميع ، هى ان المثل العربى كان مباشرا وحاسما فى تفجير وتحريك الثورة التحررية

على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير الى النطاق العملى بالمساعدة الايجابية حتى كان العالم العربى فى مجموعه بحق « واحة افريقيا » سياسيا . ومن المحقق على وجه التحديد ان حرب السويس الفاصلة فى سنة ١٩٥٦ كانت علامة تاريخية واشارة بدء لافريقيا المدارية بالانطلاق نحو التحرير

والحقيقة اننا يمكن ان نؤرخ لبدء حركة التحرير الفعالة جنوب الصحراء بهذه المعركة ـ ارماجدون افريقيا الجديدة . وليس من الصدفة ان اول نجاح تحققه فى غانا وغينيا كان فى سنة ١٩٥٨ اى بعد عامين من تلك المعركة . والواقع ان اثر معركة السويس فى تحرير افريقيا يشبه ـ الى حد ما ومع الفارق ـ اثر اليابان غير المقصود فى تحرير آسيا . ففيهما شهدت افريقيا مع العالم هزيمة الرجل الابيض والجيوش الاوربية ، ومعها تحطمت اسطورة التفوق التقليدية ، وبها اقتنعت افريقيا بانها قادرة على ان تتحدى الاستعمار وتطارده

وعلى هذا فالخلاصة انه سواء بالنسبة للجناح الاسيوى او الافريقى من العالم المدارى ، يقف العالم العربى موقفا رياديا كنواة للتحرير ، وكان دائما كأقرب اجزاء العالم الثالث الى اوربا موقعا وقامة يمتاز بدينامية جيوبولتيكية فياضة بالاشعاع السياسى فيما حولها . ولعل هذا هو التفسير الصحيح لتتابع مراحل التحرير الحقيقى داخل قطاعات العالم القديم زمنيا

ويبقى الان التعاصر الاسى والقاعدى بينها رغم ذلك . وهذا التعاصر هو الذى يفسر تفاوت عمر الاستعمار بشدة بين تلك القطاعات .. فهناك بدايات مختلفة جدا تاريخيا ، ولكن تاريخ النهاية واحد عموما . فى آسيا الموسمية وصل الاستعمار الى ارذل العمر بالتأكيد ،

حيث عمر الاستعمار الهولندى وحده فى اندونيسيا ٣٥٠ سنة ، وحيث خضرم الاستعمار فى الهند قرنين ، وفى الهند الصينية نحو قرن . على النقيض من هذا افريقيا المدارية حيث ـ باستثناء السواحل ـ لا يزيد عمر الاستعمار عن ٧٠ سنة فى المتوسط . اما فى العالم العربى فالحد الاقصى يزيد قليلا عن المتوسط الافريقى ، ولا يزيد كثيرا عن الحد الادنى الاسيوى ، اما الحد الادنى فيقل كثيرا جدا عن اى منهما

ثم يعود السؤال : لماذا تعاصرت ظاهرة التحرير فى العالم عموما ؟ والرد يكمن ـ فى كلمة واحدة ـ فى روح العصر Zeitgeist . لقد اصبح التحرير هو ايديولوجية الشعوب التى طال كبتها وروح العصر السارية السائدة . وانه هو المناخ السياسى الذى جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية فى العالم كله لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا او هناك ـ دون ان يقلل هذا البتة من دور الكفاح الوطنى نفسه ، وانما هو كان فرصة مواتية استفاد منها هذا الكفاح افادة ذكية شجاعة

ولكن لاشك ان وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا ان نبحث عنها . وفى هذا يمكن ان نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك اولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فحتى يستغل مستعمرته لمصلحته يضطر راغما الى ادخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التى تساعده على ذلك . اى انه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التى تنعكس على الوطنيين نموا فى القوة البشرية وفى الكفاءة الفنية ، فيشتد ساعدهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى

وليس اقل اهميــــة من الناحيــــة المــادية النواحى النفسية . فالاحتكاك الحضــــارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانبهار حضارى وانهيار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار . ولــكن مع تشربهم وتمرســـهم بالحضارة الجديدة ــ والالف يورث الاحتقار ــ يدركون اسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية ازاء المستعمر ويحـــل مركب النقص الحضـــارى . وبمعنى آخر فان كلا من ميــــكانيــــزم وسيكولوجية الاحتكاك الحضارى لا تلبث ان تقوى ساعد التحرير ماديا ومعنويا حتى ينجح فى طرد الاستعمار

والخلاصة ان الاحتكاك الحضارى الذى يصـــاحب الاستعمار لا يلبث ان يضيق الهوة الحضارية ــ التى هى اســاس التفوق العسكرى للاستعمار ــ بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة ديالــكتيكية الى نقيضــــه تماما . تلك متناقضة ساخرة فى فلسفة الاستعمار ، وهى وحــدها تجعل نهايته محتومة بطبيعتـــه ، فهو يهزم اغراضـــه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فنائه . هذا أول

اما العامل الثانى فى تصفية الاستعمار واذابتــه فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى اوربا الاستعمارية. فرغم ان الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا فى النهـــاية فقد كان يطفح بالصراعات الداخلية والتوترات الـكامنة التى لم تزل تصدعه وتمزقه . وبين هذا وذاك استطاعت بعض المستعمرات ان تنتزع استقلالها . وعلى التتابع التاريخى يمكن ان نقول ان كلا من فرنسا وبريطانيـــا كانت تطارد كلا من ايطاليا والمــانيا وراء البحار ، وكانت بريطانيا تطارد الجميع ، الى ان جاءت الولايات المتحدة

محاولة ان ترث الكل فى صورة جديدة . وتمثل هذه المناورات والمطاردات ، كعامل فعال او مساعد فى تحرير المستعمرات ، ابتداء من سوريا ولبنان ، الى ليبيا والجزائر وفيتنام .. الخ

ولكن لا يقل خطرا من ذلك ان تضعضع الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب المتواترة قد ساعد على اعطاء الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة مصادية للاستعمار من حيث المبدأ ، والاشارة هنا الى الدول الاشتراكية الماركسية عامة والاتحاد السوفييتى خاصة. ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش فى سوق سياسية احتكارية تماما تحت رحمة الاستعمار المطلقة ، وانما فى سوق حرة نوعا مما اعطاها على الاقل حرية الحركة والمناورة والمضاربة بينها ، حتى تمكنت من انتزاع حريتها

ولا يتم تحليلنا لثورة التحرير الا باشارة الى ظاهرتين هامتين صاحبتاها ولكل منهما مغزاها وخطرها . هاتان هما الخروج الابيض والتفتيت السياسى . فالخروج الابيض ظاهرة عالمية واكبت التحرير واخذت صورة عنيفة فى بعض الحالات ، اذ اخذت الجاليات والمستعمرات الاوربية تغادر المستعمرات بعد اقامة طالت وازمنت بدرجة او باخرى . وفى الغالب كانت بوادر الخروج تسبق تمام التحرير ، وفى الاعم الاغلب كانت موجة الخروج تتحول الى عملية هروب عاجل ، تصفى به الجالية او المستعمرة نفسها بنفسها فى غضون شهور من استكمال التحرير . فمثلا انتظم تيار الخروج من الجزائر وحدها نصف مليون فى شهر واحد

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هى مصير الاستعمار

السكنى السكيثف ، لان الخروج ياخذ هنا ابعادا مختلفة جدا كما فى الجزائر والى حد ما كينيا . وعادة ما كان الموقف الوطنى معتدلا واقعيا بلا تطرف . فكثيرا ما اعلن التحرير انه لا يبغى طرد الجاليات والمستعمرات الاجنبية اذا ما قبلت مواطنة عادية مخلصة بلا امتيازات ، او ان شاءت فلها ان تبقى كاجانب عاديين . ورغم هذا الموقف السمح ، فقد كان المرجح ان تصفى المستعمرات والجاليات نفسها بنفسها بعد فرض المساواة ومنع الاستغلال ، وهكذا بالفعل كان

وهذا لاشك ابلغ دليل على ان الوجود الاقتصادى للاستعمار كان رهنا بوجوده السياسى ، وبغيره كان لا نجاح له ولا محل . وفى هذه الحالة كثيرا ما كانت العملية تاخذ طابعا انتقاميا تخريبيا بقصد شل جهاز الدولة الجديدة وتعجيزها تشويها للاستقلال والتحرير. وفى الوقت الحالى اصبحت الجاليات الاوربية فى الدول الاسيوية والافريقية الجديدة لا وزن لها عدديا او اقتصاديا بعد ان كانت عنصرا اساسيا فى مركب الاستعمار

ومعنى هذا كله ان مصير الجزر الاوربية فى المحيط الاستعمارى القديم هو كمصير اى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لا يستطيع ان يمتصه ويتمثله فيلفظه فى النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من اكبر المغامرات الملتهبة المحمومة ولرحلة من اطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحى بأن الاستعمار بكل انماطه هو مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية وظاهرة فى الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت ، وهى عابرة لانها غير طبيعية فى النهاية

هل يترك الخروج الابيض « فراغا » حضاريا او

اقتصاديا خطيرا فى المستعمرات المتحررة ؟ ايترك كذلك فراغا سياسيا يهدد التوازن الدولى؟ قضيتان متشابهتان اثارهما الاستعمار دائما وحاول ان يلقى بهما فى طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . بل لقد تنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى ، خاصــة المشروعات الـكبرى ، والاقتصاد التعدينى والتصنيع النامى ، قد تضطرب لسنوات بعد الخروج . وصـــحيح ان بعض الــدول الجديدة لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترج الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من راس المــال والخبرة الفنية . على ان هــذه المشكلة مؤقتة جــدا بطبيعتها ، بل لم تكد تتحقق فى اغلب الحالات ــ على الأقل بالاستعانة بخبراء أجانب غير استعماريين . اما ان يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للدول الجديدة ان ينتكس بعد الخروج فامر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحــرير فى كل مكان لاسيما فى القواعد الطليعية كمصر والعــالم العربى والهند .. الخ

هذا عن ظاهرة الخروج الابيض . اما الظاهرة الثانية التى صاحبت التحرير فهى ظاهرة عكسية ومؤسفة . فقد لجأ الاستعمار عامدا متعمدا قبل خروجه الى تفتيت مناطقه السابقة تفتيتا ميكروسكوبيــا ، وفى افريقيـــا بالذات تفتيتا ذريا ، حتى يضمن وراءه نسيجا سياسيا متهالــكا اقرب الى الامثولة والاعجوبة منه الى الـكيان الجيوبولتيكى الصحى السليم . وكم من مسخ سيــاسى برز فى هذه التقسيمات الجديدة ، وكم من قنبلة موقوتة تكمن فى حدوده العشوائية الشاذة

والشىء الغريب والمخجل معا ان الاســتعمار الذى كان مهندس هذه السياسة الميكافيلية هو نفسه الذى

كان يتحايل ابان وجوده بكل الطرق ليفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات اقليمية مفتعلة ضد ارادة الوطنيين. ويكفي ان نذكر او نتذكر اتحاد وسط افريقيا الدموي الفاشل ومشروع الهلال الخصيب الآثم ومشـــــاريع اتحادات شرق افريقيا وغرب افريقيا .. الخ . ويرى البعض في هـــذه البلقنة المخططة ــ وهم في ذلك على حق ــ أول مظهر من مظاهر « الاستعمار الجديد » . ويلاحظ انه لم ينج من هذه البلقنة السافرة لا آسيــا ولا العرب ولا افريقيا ، لا الوحدات الضخمة ولا الوحدات الصغيرة

الهند الصينية الفرنسية ــ مثـــلا ــ خلفت وراءها ثلاث دول جديدة ، وكل جنوب شرق آسيا اصبح الان « بلقـــان الشرق الاقصى » (١) ، بينما ان الهنـــد التى ظلت تحت الاستعمار وحدة واحدة تركت اربع دول . والعالم العربى ، هذا الذى كان كلا واحدا حتى فى ظل الاستعمار التركي ، اصبح متحفا سياسيا مرصعا بعديد من الدول التى لا يزيد بعضها عن دول جيب أو اسافين

لكن افريقيا بلا شك هى المثل بل الامثولة الساخر . فيها الان نحو ٥٠ وحدة سياسية اى ضعف عدد وحدات اوربا اكثر قارات العالم تجزئة فيمـــا مضى ، او اقل قليلا من نصف دول العالم اجمع ! ولعل المثال الصـــارخ فى التفتيت هو الاستعمار الفرنسى فى افريقيا الاستوائية والغربية حيث اعطت وحدتان اثنتان نسلا سياسيا بلغ ١٦ وحدة

والسواد الاعظم من هذه الدويلات المستحدثة وحدات هزيلة معتلة ومفتعلة قد لا تزيد عن المليون او المليونين

(١) C.A. Fisher. «Southeast Asia : The Balkans of the Orient», Geog., Nov. 1962, p. 374.

سكانا . واذا كان لهذه الكثرة العددية قيمة شكلية ما في المحافل والمنظمات الدولية ، فهي تترك اصحابها بلا وزن حقيقي في مجال القوة السياسية . ومن اسف ان اغلب الدول الجديدة قبلت الحدود ـ الاقفاص الحديدية بالاحرى ـ التي فرضها الاستعمار ، وتمسكت بها كما لو كانت ارثا مقدسا ، الامر الذي اعطى الاعداء الفرصة لاتهام الوطنية فيها بانها ليست اكثر من مجرد رد فعل للاستعمار لا انبثاقا طبيعيا حميما (١)

بقايا الاستعمار

يبقى لنا اخيرا ، حتى نستكمل مسح التحرير ، ان نحصر مخلفات الاستعمار وبقاياه وان نقيم وزنها ونرصد مصيرها . وهنا نجد ان فلول الاستعمار تنزوى اليوم على استحياء ـ ام بلا خجل ؟ ـ في اقصى اطراف الارض واركانه المتطوحة ، اما على هوامش القارات كجيوب واسافين قزمية متناثرة او كارخبيلات وجزر سديمية في البحار القارية ، وفي الاقل ككتل متخلفة relict في سبيلها الي التمزق والزوال ، والكل لايزيد عن ٤ ٪ من مساحة العالم . ومعنى هذا ايضا ان السواحل التي كانت اول مواطىء اقدام الاستعمار البحرى هي اليوم آخر معاقله ، وهي من ثم اطول ما عاني من الاستعمار وخضع له زمنيا

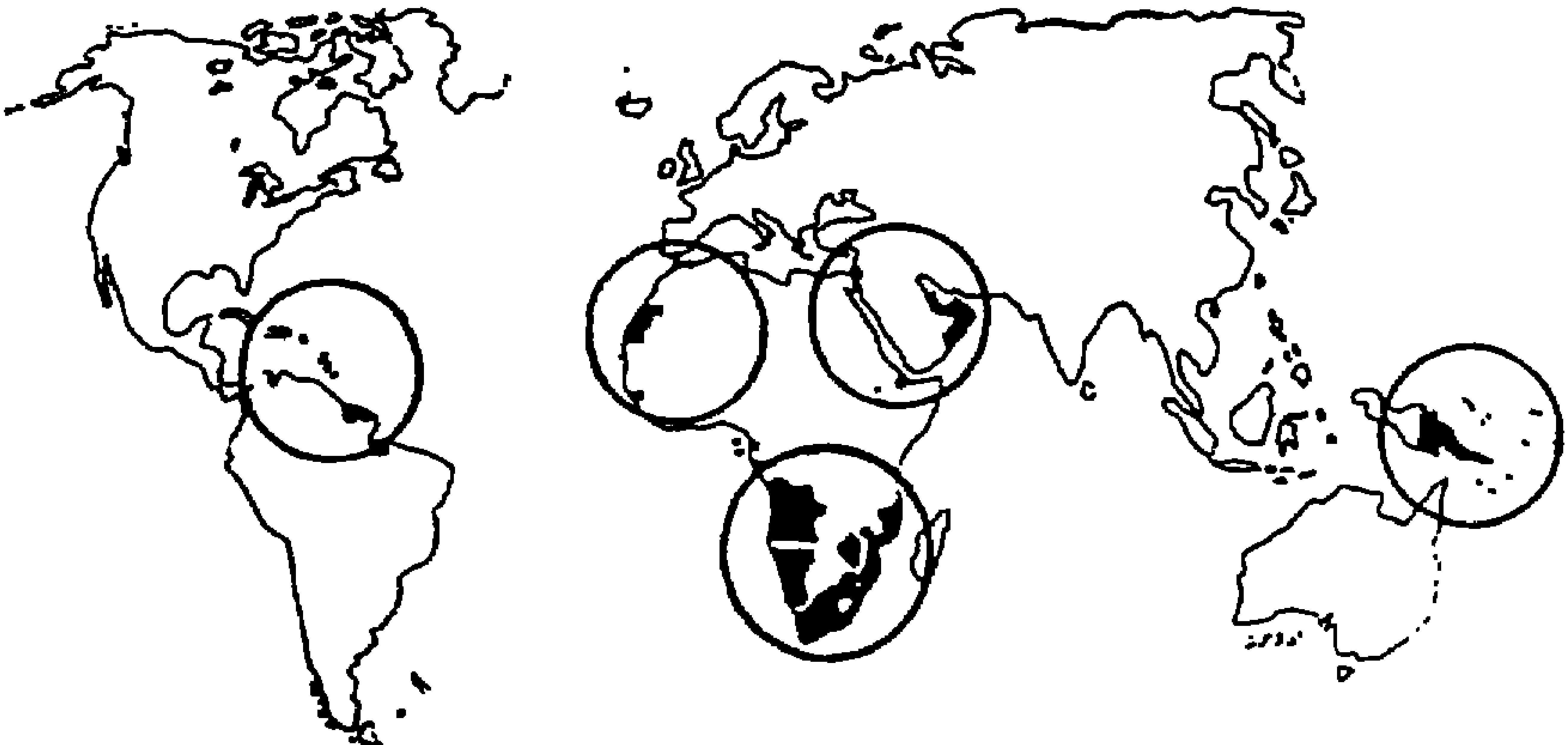
ويرسم النمط الجغرافي العام لفلول الاستعمار اليوم صورة قلب وجناحين : جناح ايمن في الشرق الاقصى ، وايسر في الكاريبي ، اما القلب ففي افريقيا والعالم العربي . فمن الشرق نجد هونج كونج البريطانية ومكاو

(١) R. Calder, p. 3.

البرتغالية وكل منهما جزرى او شبه جزرى يبدو كالبثور على اطراف القارة ، وهى تحت رحمة القوة القارية ــ الصين ــ تماما ، وبقاؤها للآن ليس الا جزءا من سياسة اقتصادية خاصة لتلك القوة ، ولو شاءت لاستردتها فى ساعات . ثم هناك ارخبيل الاوقيانوسية بما فى ذلك نيوجينى او ايريان الشرقية الى الشرق والشمال الشرقى من استراليا حيث لا زال الاستعمار البريطانى والفرنسى يتقاسم هذه الجزر الشتيتة القزمية

وفى اقصى الغرب فى الكاريبى تتناظر صورة مماثلة . فلا زالت كثير من جزر الانتيل الصغرى موزعة بين الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، بينما على ساحل القارة المقابل اثنتان من الجيانات الثلاث ، الفرنسية والهولندية . وبين الطرفين يتقوقع الاستعمار فى عدة جزر محيطية غائرة سحيقة العمق فى المحيطات كبعض جزر المحيط الهندى (سيشل) وكومورو وموريشس وروينيون . وبعض جزر المحيط الاطلسى (اسنشن ، سانت هيلانة) . وقد تقرر اخيرا استقلال موريشس . ولكن يلاحظ فى نفس الوقت ان الاستعمار بدأ يتحصن فى هذه الجزر النائية ويسحب اليها قواعده من أواسط القارات واطرافها كما حدث فى بعض جزر ملديف وكومورو

ولكن دائرة العالم العربى وافريقيا هى بلا شك أكبر معاقل الاستعمار المتخلفة . فهناك مجموعتان من الاشكال الاستعمارية : أسافين وجيوب محلية ، وكتل جذعية ضخمة . فمن الاولى الاستعمار الصهيونى الآثم فى فلسطين المحتلة ، وجيوب سبتة ومليلة وافنى وريو دى أورو حيث يعشش الاستعمار الاسبانى ، ثم هناك فى افريقيا المدارية



شكل (٢٩) بقايا الاستعمار ، ١٩٦٨ نحو ٣ر٥٪ من العالم ممزقة فى جزر متباعدة فى أركان الارض وهوامش القارات فى جناحين وقلب . المعقل الرئيسى الآن للاســـــــــتعمار يتركز فى افريقيـــا الجنـــوبية . .

غينيا البرتغالية وريوموني وساوتومى الاسبانية وكابندا وكلها فى دائرة غرب أفريقيا ، وأخيرا الصومال الفرنسى على الساحل الشرقى · أما الكتل الرئيسية المتخلفة فهى أولا الجنوب العربى ابتداء من البحرين حتى ظفار حيث ظل يتشبث الاستعمار البريطانى في استماتة يائسة يفسرها البترول بكل سهولة ، الى أن أرغمه تقلصه وتدهوره الاقتصادى على اعلان عزمه على الانسحاب منه قبل ١٩٧١

ثمة ثانيا كتلة افريقيا الجنوبية التى تجمع بين انجولا وموزمبيق البرتغالية وبين روديسيا وسوازيلاند ،بالاضافة الى جنوب افريقا البيضاء ومعها جنوب غرب افريقيا التى اغتصبتها . والكتلة فى مجموعها ترسم رقم ٧ ، حيث يرسل التحرير في قلبها سهمه مفتتا وممزقا · وواضح أن هذه ليست أكبر معقل متخلف متبق للاستعمار ، وانما هى ايضا اضخم كتلة متصلة تبقى له فى أى جزء من العالم

وما من شك فى أن مصير الجزر وأشباه الجزر والاسافين الساحلية مقدور ، فهى ــ بحكم الجغرافيا على الاقل ــ الى زوال وأيامها معدودة ، ولن تستطيع أى مقاومه ازاء المد التحريرى ، فان بحر الاستقلال يطوقها تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعريته · وانما المشكلة فى الكتل الجذعية بخاصة ، فهنا يتراص الاستعمار ويتماسك ويبدى « وحدة » جديدة فى وجه التحرير · ومع ذلك فمصيرها أيضا محتوم ، وان طال الامد نوعا . وعلى التحرير أن يضغط بمزيد من القوة والعنف ، وقد لا ينقضى عقد أو بعض عقد حتى يقتلعها ويكتسحها تماما · ولعل السبعينات على أكثر تقدير تشهد عملية دفن اخر فلول للاستعمار فى الارض او فى البحر

واذا نحن أردنا أن نضع قوى الاستعمار اليوم فى

حساب الخسائر والارباح ، فسنجد نتائج بل نقـــائض مثيرة بل غير منطقية ، لعل أغربهـــــا أن « أكبر » قوة استعمارية فى عالم اليوم هى البرتغال القزمية الحفرية ! أجل البرتغال ، فان مستعمراتها اليوم فى افريقيـــا أكبر مساحة وسكانا من مستعمرات أى قوة اخرى فى العالم • ويليها فى الوزن الاستعمار البريطانى ، بينما قد يزيد الاستعمار الاسبانى بدوره ــ وهو امبراطورية جيـــــوب واسافين بحت ــ عن الاستعمار الفرنسى • فالامبراطورية الفرنسية هى بلا شك التى من بين الاستعمار الكبير قد بادت تماما فى عصر التحرير ، وبقـــاياها الان رمزية تذكارية صرفة لا تزيد على الصومال فى افريقيا وجيانا فى أمريكا الجنوبية وبعض جزر قليلة من الاوقيانوســـية ويشبهها فى هذا هولنده ، بينما فقدت بلجيكا مستعمرتها الوحيدة

وتقودنا هذه التطورات الانقلابية فى مصائر الاستعمار الى ظاهرة طريفة فى ترتيب عملية تصفية القـــــوى الاســــــتعمارية • فبوجه عام يمكن أن نقول ان أقدم الامبراطوريات (القوى العتيقة) هى اخرها زوالا اليوم ، واخر من دخل ميدان الاستعمار (القوى الوليدة) هو أول من خرج منه • أى ان العلاقة ــ للغرابة ــ عكسيه • فلقد كانت ألمانيا اخر من خرج الى الاستعمار فى سبعينات وحدتهــــا ، وكانت كذلك أول من خرج منه فى الحرب الكبرى الاولى • وفى السبعينات أيضا دخلت ايطاليا دائرة الاستعمار ومع الحرب الكبرى الثانية كان خروجها • وعلى الطرف النقيض كانت البرتغال واسبانيا أول من افتتح العمل الاستعمارى وهما حتى اليوم اقل من خسر نسبيا • وبين الطرفين تاتى فرنسا وهولنده وبريطانيا بدرجات متفاوتة او مطردة

ماذا تعنى ثورة التحرير بالنسبة للعالم ؟ الشيء الكثير بالتأكيد ، ولكنه باختصار اعادة توزيع الاثقال والقوى السياسية فوق هذا الكوكب • فبالنسبة للدول المتحررة تعنى ظهور قوة جديدة على مسرح السياسة العالميـــة هى العالم الثالث ومجموعة عدم الانحياز • ولكن لهذه حديثها فيما بعد • وانما يعنينا هنا خسائر الجانب الاستعمارى • وهذه تنقسم الى قسمين : تغيير الوزن والقوة النسبية لغرب أوربا ، ثم تغيير الاوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب اوربا

فعن الاولى ، لا شك أن عصر أوربا الغربية قد انتهى تماما ، وقد خرجت زعامة العالم منها الى الابد ، وتضاءل وزنها النسبى فى العالم ككل ، وبدأت تأخذ حجمهـــا الطبيعى بلا مبالغة أو تورم مصطنع فى العالم • ولعلها ـ برمتها ـ لا ترقى الى مستوى الصف الاول من القـــوى العالمية ، وبالتأكيد لا تطاول أيا من القوتين الماموث ، ولا تزيد بوضعها الراهن ، وقد جردت من مستعمراتها ، عن أن تكون منطقة حاجزية تصادمية بينهما ، بل هى الان بالفعل ذيل للولايات المتحدة أو بمثابة برتغال كبرى جديدة بالنسبة الى بريطانيا عظمى جديدة هى الولايات المتحدة ، بينما أصبحت بريطانيا القديمة نفسها رجل أوربا المريض الجديد ! (١)

كذلك فان تقلصها الى قوقعتها الاصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار وألقى بها على مواردها المحلية الضيقة وحدها • من هنا أزماتها المادية والاقتصادية الخانقة التى تتردى فيها تباعا كل دولة من دولها بلا استثناء منذ ما بعد التحرير ، وبقدر ما كانت نسبة المكاسب الاستعمارية فى

(١) Hans. G. Morgenthau, Politics Among Nations, The Struggle for Power & Peace, 1954.

الدخل القومي بقدر ما كانت النكسة . ولا شك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لا زالت تخفى أو تخفف من حـدة الازمة ، كما أن التجارة العالمية لا تزال شبه استعمارية فى هيكلها ، هذا عدا علاقات كومنولث واتحاد فرنسى .. الخ . ولكن ان آجلا او عاجلا ستواجه هذه الدول المزيد من الصعوبات ، وقد يتجمد مستوى المعيشـة فيها أو ينحدر ، أو تصدر الفائض من سكانها الى المهاجر الاوربية والمشاهد أن بعض هذه الدول لم تفق بعد من اثار خمـرة الاستعمار ولم تدرك تماما مواقعها المتواضعة الجديدة ، ومن ثم تبدو فى ميدان السياسة العالمية أدنى الى اقزام تتصرف كعمالقة ، مما اصبح بلا مواربة اما موضع سخرية أو ضيق حتى اصدقائها من القوى الماموث !

هذا التضاؤل النسبى فى الوزن السـياسى والموارد الاقتصادية هو وحده وأساسا الذى يفسر الحملات المحمومة لوحدة أوربا حتى تستعيد بعض المكانة فى عالم متغير . والواقع أنه دفاع عن النفس بقـدر ما هو رد على حركة التحرير وتكتل ضـدها بالذات ، اكثر مما هو رد على القوتين الماموث . واذا كان الاوربيون المتحمسون للوحدة يرونها ضرورة بقائية ، فلا ينبغى من جانبنا أن ننسى أن وراءها مسحة لونية عنصرية ، فما هى فى النهاية الا وحدة الجنس الابيض . ولمشروع الوحدة كما يتصوره دعاته مراحل ثلاث : جمركية ، فاقتصادية ، ثم سياسية. ولكن التطبيق يتعثر حاليا بين كتل وتجمعات متضاربة داخل النطاق

بيد أن المهم فى المدى البعيد أن أوربا اليوم أبعد عن الوحدة مما كانت منذ قرون ، وبالتحديد منذ ما قبل عصر الكشوف والاستعمار البحرى (١) . ذلك أن الاهتمامات

(١) East, An Historical Geog. of Europe, pp. 444-5.

الاستعمارية عبر البحار لم تترك اوروبا فى حركة طاردة لا جاذبة مركزية فحسب ، بل فى صراعات عميقة وسمارات شرسة باعدت بينها اكثر من اى وقت مضى • وليس من الصدفة بالتأكيد انها لم تبدأ تتقارب فيما بينها الا بعد أن فقدت تلك الاسلاب أسباب الصراع • وعلى كل ، فاذاكانت وحدة منطقة كالولايات المتحدة مثلا قد نجحت لانها عمدا تناست كل التاريخ واهملت كل الجغرافيا ، فان وحدة اوروبا تتعثر لانها ـ كما قيل ـ تتذكر التاريخ أكثر مما ينبغى وتتذكر الجغرافيا أقل مما ينبغى

أما عن تغيير الاوزان والقوى النسبية للدول داخل أوروبا الغربية ، فلا شك أنها لا تتضح اليوم تماما بفعل القصور الذاتي والاندفاع التاريخى ، ولكنها جديرة بأن تطفو على السطح ان آجلا أو عاجلا ، ولو أن بعض ارهاصاتها قد بدأت بالفعل • فمع عودة كل دولة الى قاعدتها الارضية الوطنية وتصفية واستهلاك الاثار التراكمية لمكاسب الاستعمار القديمة بالتدريج قد تقترب نوعا أوزانها ومواردها وقواها النسبية من نمط ما قبل الانقلاب الصناعى ، بمعنى أن يصبح لحجم الموضع المحلى وثرائه دور اكبر فى تحديد القوة العامة

واذا صح هذا فألمانيا هى وريثة الصدارة الحتمية فى اوروبا الغربية بدلا من بريطانيا ، كما أنه ليس من المستبعد أن تقترب فرنسا من بريطانيا جدا • ولعل الدور الذى تمارسه فرنسا ، ديجول حاليا ، فى تخضيد شوكة بريطانيا فى القارة هو نذير أو دليل على هذا التطور التدريجى المحتمل • وسيكون على بريطانيا فى النهاية أن تقف صاغرة فى الصف الاوربى كلما تقلص الكومنولث • فدول الكومنولث غير البيضاء ستغادره على الارجح بالتدريج

الفصل الثانى عشر

الانقلاب النووى

هو ثانى انقلابين تعاصرا منذ نهاية الحرب الثانية ، وربما كان اولهما فى خطورته ورهبته . وقد أعلنت عن ميلاده ماساة هيروشيما ونجازاكى ، وكانت هذه البداية كافية لتكون نهاية تلك الحرب . ولكن قنبلة هيروشيما على بشاعتها لم تكن الا طفـــولة العصر الذرى ، قنبلة « بدائية قزمية » ، تطور بعدها السلاح النووى تطـــورا رهيبا ، فانتقل من القنبلة الذرية الى الهيدروجينية وربما بعـــد ذلك الى الكوبالتية . وفى نفس الـــوقت تحولت وسيلة نقله من الطائرة الى الصواريخ الموجهة والصواريخ عابرة القارات ثم أخيرا الى الغواصات الذرية ، أى تحولت قاعدة انطلاقه من الجو الى الارض الى البحر على الترتيب . اضف الى هذا الصواريخ المدارية التى ظهرت أخيرا جدا

أما من حيث الانتشار ، فقد كانت الولايات المتحدة هى الاسبق الى تدشين العصر النووى وذلك فى نهاية الحرب الثانية ، بينما تخلف الاتحاد السوفييتى قليلا حتى لحق بها ـ بعد فترة حرجة ودقيقة ـ فى أول الخمســينات ، وبعد ذلك دخلت بريطانيا المجال ثم فرنسا ولكن ظلتا من مرتبة متواضعة نسبيا ، وأخيرا جدا اقتحمت الصــين « النادى الذرى » لتكون خامسة الـــدول الذرية وأولى الدول غير الاوربية ، وكان قد قدر أنها سوف تظل طويلا

فى المرحلة البدائية التى كانت عليها الولايات المتحدة منذ عشرين عاما ولكنها طفرت بسرعة خارقة حتى سبقت فرنسا هيدروجينيا • والمقدر أن هناك أكثر من عشر دول أخرى ستلحق بالنادى فى غضون السنوات القليلة القادمة

ومعنى هذا أن السلاح النووى ــ مالم يتفق على منعه ــ قد ينتشر فى يوم ما انتشار الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة • بيد أن هذا لا ينفى من الوجهة العملية أن هناك حتى الان احتكارا ثنائيا فعليا وحقيقيا للقوة النووية تتقاسمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ويجعل ــ أكثر من أى شىء اخر ــ مصير العالم رهنا بهاتين القوتين المتصارعتين اللتين وصل الامر الى حد تشبيه كل منهما باله بشرى : قادر على أن يبقى للعالم على حياته أو أن يحرمه كله اياها فى لحظات اى أن ابسط وأوضح نتيجة للعصر النووى انه زاد من عنف تركيز القوة واحتكارها فى حدود الاستقطاب الثنائى الراهن ، وزاد بذلك من اختلال ميزان القوة فى العالم ككل ، وضاعف من رهبة التصادم بين القطبين العملاقين

ومن الواضح على التو أن العصر النووى يمثل طفرة فى تاريخ الاستراتيجية بل البشرية لم تخطر على قلب بشر ، تضع كل مراحل الاستراتيجية الماضية وكل أنواع الاسلحة « التقليدية » فى متحف التاريخ ، ويمكن ببساطة أن تضع البشرية نفسها والنوع الانسانى برمته فى ذمة التاريخ كذلك ! فعلى سبيل المثال قدر أن عشر قنابل ذرية من أكبر ما كان معروفا فى ١٩٥٤ تعادل فى قوتها التدميرية كل ما ألقى جميع المتحاربين فى الحرب العالمية الثانية من قنابل وألغام ومتفجرات (١) • بينما أعلن

---

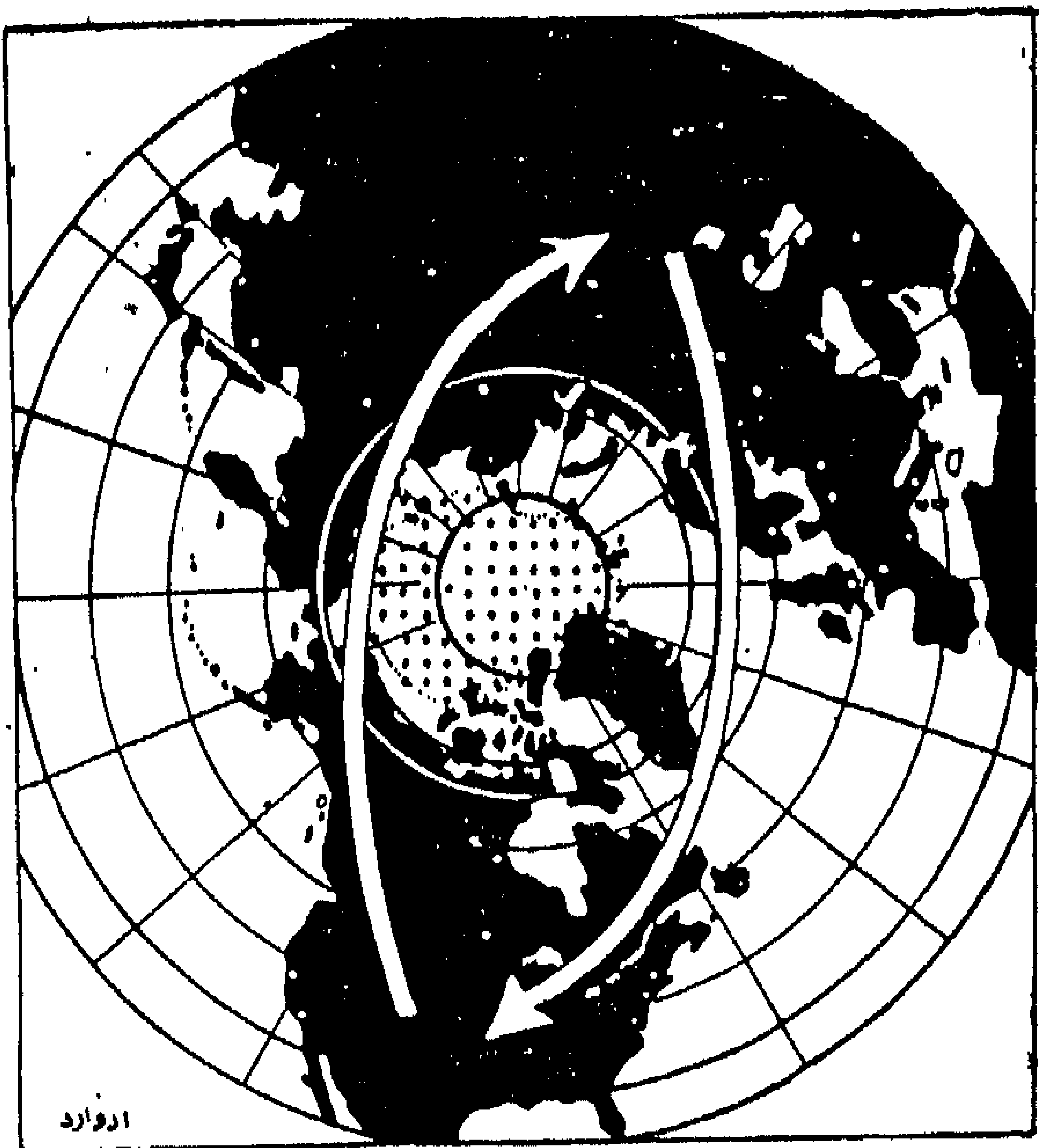
(١) مورجينثاو • المرجع المذكور

الاتحاد السوفييتي من نحو عامين ان راسا ذرية واحدة مما يستطيع ان يقذف تعادل نفس القوة برمتها بل قوة كل ما استخدم من متفجرات في جميع حروب البشرية ! اما بعده فالمقول أن الولايات المتحدة تملك من الرصيد النووى ما يكفى لتدمير العالم بأسره ثلاث مرات(!)، بينما الاتحاد السوفييتي ـ أكثر تفاؤلا ! ـ يكتفى باحتياطى يكفى لتدميره مرة واحدة . وآخر ما يقال فى هذا المجال أن بالعالم مخزونا من الاسلحة النووية يكفى لتدمير الارض جميعا عشرات المرات فالعصر النووى لاول مرة فى تاريخ الصراع البشرى يضع العالم وجها لوجه مع الانتحار أو انقراض الجنس .. اختيار رهيب ، واختبار أشد رهبة

ومن الصعب ، حتى على الاستراتيجيين ، تصور شكل الحرب الذرية الشاملة ، وان كان من المؤكد انها ان وقعت الواقعة ستكون قصيرة الامد الى ابعد حد واشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت • ومن المؤكد كذلك أن الصراع النووى قد قلب كل قوانين الاستراتيجية التقليدية وهزها حتى الصميم ، ولكن السؤال هو الى أى حد ؟ هل هو الغاها تماما ونهائيا أم نحاها جانبا ودفع بها من المقدمة الى الخلفية ؟ لنعرض لضوابط ومقومات الاستراتيجية التقليدية لنرى انعكاسات الصراع النووى عليها ، وأى مغزى جديد يمكن أن تأخذ . ولنبدأ ذلك بالموقع

من المحقق أن الموقع الجغرافى هو أشد ما اهتز وارتج بالاستراتيجية النووية • وطالما كانت قاذفات القنابل هى وسيلة توصيل القنبلة الذرية ، فربما صح أن الموقع لم يفقد كل قيمته ، فقد كان للمواقع المتقدمة والقريبة من العدو أو المحاصرة له ميزة واضحة. ولعل هذا يفسر قيمة القواعد العسكرية التى بثها الغرب حول الاتحاد

السوفييتي على طول نطاق جبهة الارتطام ابتـــــداء من اليابان حتى النرويج • كما أن هـــذا يفسر القيمـــة الاستراتيجية الضخمة التي كانت تعطيها الولايات المتحدة لالاسكا خاصة وكندا عامة باعتبارها ـ كجبهة قطبية ـ اقرب واقصر طريق جوى الى الاتحاد السوفييتى عبـــر المحيط المتجمد الشمالى الذى اصبح بجـــدارة البحر المتوسط القطبى • بل لقد ذهب أحد القـــادة الامريكيين



شكل (٣٠) الطـــريق القطبى لا الاطلسى هو طريق الحرب الصاروخية ، فهو اقصر طريق بين العملاقين، حتى اصبح البحـــر المتوسط القطبى بحق • لاحظ خطورة موقع كندا كخط دفاع اســـاسى للولايات

ـ الجنرال بيلى ميتشل ـ الى حد القول بان الاسكا هى أهم منطقة اســـتراتيجية فى عالم اليوم (١) . كما أن ذلك جميعا يفسر شبكات الرادار الكثيفة المتتـــالية كقرون استشعار ذرية ، وخطوط محطات الصواريخ المتتابعة خطا بعد خط على امتداد تلك الجبهات من الجانبين • والمغزى العام هو أن مركز الثقل الاستراتيجى انتقل الى حد أو آخر من المحيط الاطلسى الى المحيط المتجمد الشمالى

ولكن الموقف لاشك قد تغير بدرجة أو باخرى منـــذ الصواريخ الذرية وتطورها المتصل .. فبالتدريج اتسع مدى الصواريخ التى اخترقت سرعتها حاجز الصوت حتى بات من المفهوم اليوم أن ليس على سطح الكرة الارضـية مكان لا تصله الصواريخ عابرة القارات من اى من الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة • وبعد أن عدت بعض هوامش العالم النائية مثل افريقيا الجنوبية او افريقيـا جنوب الصحراء واستراليا من المعاقل الأخيرة ذات المناعة ضـد الصواريخ (٢) ، زالت هـــذه الميزة واصبح القرب والبعد الجغرافى سيان • وفى نفس الوقت فقدت القواعد العسكرية الغربية المطوقة للاتحاد السوفييتى أغلب قيمتها ان لم يكن كلها ، ونسخ الاتحاد بصواريخه الحلقة النارية المضروبة حوله ، وانكمشت أهميتها لتصبح مجرد قواعد لقمع وكبت الحركات الوطنية فى بلادها

والمعنى واضح للغاية : فاذا كان عصر الطيران التقليدى قد اختزل المسافة وضمر العالم وجعله نظاما مغلقا واحدا الى درجة أن أصبحت الكرة الارضية كلها أصغر « مساحة

(١) الجيوبولتيكا • جـ ١ ص ٢٠٧

(٢) Liddell Hart, «Africa or Middle East», World Review, July 1946, Church, op. cit., pp. 143-5.

زمنية » من ولايات أمريكا الثـــلاث عشرة (١) ، فان الصواريخ قد الغت المسافة تماما وتضـــاغطت الـــكرة الارضية من الوجهة العملية الى مجرد « نقطة » تقاس كل ابعادها بالدقائق ليس الا • أبعد من هذا ، وبعـــد أن أصبحت الغواصات الذرية قواعد صاروخية برمائيـــة او تحت مائية رحالة أو بمثابة يابس متحرك أنى شاء او « قارات » ميكروسكوبية طافية تجوب المحيط العالمى ، نكاد نقول ان الفارق بين الماء واليـــابس ـ من الوجهة الاستراتيجية بطبيعة الحال ـ قد عتم وتحايد حتى درجة التلاشى تقريبا • ومعنى ذلك جميعا أنه لم يكد يصـــبح هناك موقع متوسط وموقع متطرف ، ونوشك مجازيا أن نضيف : ولم يعد هناك يابس وماء

ومحصلة هذا وذاك أننا اليوم بازاء إستراتيجية ثورية جديدة تنقل الصراع من البر والبحـــر الى الجـــو ، من الاستراتيجية الارضية geostrategy الى الاستراتيجية الغازية atmostrategy بل الى الاستراتيجية الفضائية space strategy وبالتـــالى تنقله من المرحـــلة الكوكبية global الى المرحـــلة الكواكبية Planetary لقد وصلنا الى استراتيجية « لامكانية » معلقة فى فراغ ، وحروب بلا « تراب » تمور عليه وتفور ، تماما مثلما وصلت الزراعة العلمية الحديثة ، أو أوشكت ، الى زراعة هوائية بلاتربة

وبديهى ان هذا كله يتخطى المواقع الجغرافية التقليدية ويتجاهل خطوط التضاريس واللاندسكيب ويسقط عامل المسافة من الحساب • باختصار ، ان الاستراتيجية الذرية تبتعد كثيرا عن الجغرافيا وتقترب من الفلك ، وبـــذلك تتحرك فى متصـــــل فضاء ـ زمنى بعد أن كان الوسط التقليدى هو المنقطع البرمائى . انها كالنسبية فى الفيزياء

---

(١) مورجنثاو

تنقل الاهمية الاستراتيجية من المكان الى الزمان او على اقل تقدير تجعل من الزمان البعد الـــــرابع للمــكان الاستراتيجى

ماذا يبقى اذن من فكرة الموقع الجغرافى ؟ القليل قطعا وفى حدود معلومة . فالدول غير الذرية ــ وقد تضـاءل وزنها كثيرا فى عالم القوة ــ هى وحدها التى سيكون عليها أن تفكر فى صيغة الاستراتيجية التقليدية القديمة . كما أن الحروب المحلية والصغيرة التى قد تمارسها الـدول الاستعمارية ستظل تدور فى فلكها

ولعل هذا وحده هو الذى يفسر تمسك الغرب بسياسة الاحلاف الدفاعية وسلسلة القواعد العسكرية التطويقية ، كما يفسر ، حتى قريب ، استماتة استعمار كالبريطانى ببقايا قواعده البحرية «شرق السويس» رغم انها اصبحت بالية تماما فى عصر الذرة . ولكن هذا وذاك من الاعتبارات سيكون عنصرا متنحيا مرحليا باطراد حتى قد يصل يوما ما الى نقطة الانقراض

غير أنه يبقى للموقع الاستراتيجى بعد هذا قيمته على المستوى السلمى خارج الحروب ، أى فى المواصــــلات العادية اليومية والتجارة العالمية ، ولهذا فنحن حين نتحدث عن نسخ العصر النووى للموقع الجغرافى فينبغى أن يكون مفهوما أننا نقصر هذا بوضوح على جانب الحرب والمعركة العسكرية ــ وهو الشذوذ ، بينما تظل فكرة الموقع سليمة لا تهتز فى مجال السلم والتجارة والمواصلات العادية ــ وهو القاعدة

اذا كان هذا نصيب الموقع ، فماذا فعلت الثـــورة النووية بالموضع بما يعنى من حجم ومساحة وقوة بشرية؟ لقد رأينا عبر التـاريخ الحـديث أن الاهمية انتقلت مع الصناعة من الموقع البارز الممتاز الى الموضع الغنى الضخم،

ولكن السلاح النووى يجىء اليوم بدوره لينسخ الكثير من قيمة الموضع وليجعل « العلم » هو وريثه الجديد • كيف؟

بديهى أن محو مساحة محدودة كبريطانيا بالحـــروب النووية أيسر من مسح كتلة ضخمة كالصين مثلا (١) . ولا يعنى هذا أن الدول المترامية الرقعة ســـتظل تتمتع بالدفاع بالعمق ، فقد ضاعت ميزة العمق الاســـتراتيجى ربما الى الابد ، ولكنه يعنى الحاجة الى رصـــيد أكبر من القوة الذرية لتدميرها .

ومثل هذا يقال عن القوة البشرية . فالحرب النووية حرب ابادية رهيبة تحصد الملايين بنفس السهولة التى تحصد بها الحرب التقليدية الالاف. والمقدر رسميا أن حربا ذرية شاملة بين العملاقين النوويين قد يمكن أن تلتهم نحوا من مائة مليون (كذا !) من كلا الجانبين فى الضربات الأولى وحدها . وفى النتيجة ، فانه لم يعد للجيوش البرية او الميكانيكيـــة الضخمة قيمـــة فعالة أو كبـــير خطر فى الاستراتيجيـــة الجديدة ، اذ يمكن أن تسحق فى مكانها قبل أن تتحرك ، وان تحركت قبل أن تسحق فهى ليست بمستطيعة ان تدخل ميدانا تلوث بالاشعاع الذرى القاتل ، ولو أنه لابد فى النهاية بعد أن يتبدد الاشعـــاع من أن تتقدم القـــوات الأرضية لتضع يدها على الارض الخراب كما فعلت أمريكا فى اليابان بعد قنبلة هيروشيما

وترتيبا على ذلك ، فان البعض يتكهن بان الدول المأموث سكانيا كالصين هى وحدها التى قد يمكن أن تأمل فى أن يتبقى لها بعد الحرب النووية بقية معقولة من السكان • • ومع ذلك فلا ننسى أن بالعالم رصيدا من السلاح النووى يكفى كما يقال لمحو العالم جميعا عدة مرات ! اى أن مساحة الدولة وحجم السكان مهما كانت فلن تجدى فى النهاية

---

(١) المرجع السابق

ومعنى ذلك ان آلة الحـرب الجديدة وعدتها لم تعد الجيوش المجيشة بجحافلها الجرارة الضخمة وترساناتها الثقيلة الهائلة ، وانما هي جهاز صغير مكثف اشبه بالأزرار السحرية القتالة ، يحرك العالم دون أن يتحرك من موضعه وينقل الجيوش دون ان ينتقل مكانيا . وانها لمفارقة من التكنولوجيا مذهلة ان تصبح العمليات الحربية موضعيـه الى ادنى حد حين اصبحت الاستراتيجية كوكبيـة الى اقصى حد .. وانها لمفارقة أكبر ان قد وصلت تكنولوجيا الحرب الى مرحلة يمكن الا تتلاقى فيها الجيـوش وجها لوجه ومع ذلك تبيد المدنيين بالجملة بعد ان كان من الممكن للجيوش قديما ان تتلاقى وتتقـاتل دون ان يتـاثر بها المدنيون تقريبا !

أما من حيث المـوارد والطاقات ، فقـد أصابها العصر النووى هي الأخرى . فان دولة صغيرة تملك القوة الذرية تعد اليوم اقوى من دولة ضخمة غنية لاتملكها . ومع ذلك فينبغي أن نستدرك فنقول ان الموارد الغنية شرط لازم لدخـول العصر الذرى وتحقيق القدرة النـووية ، ومن الملاحظ ان اغنى دولتين فى العالم هما أقدر دولتين ذريا ، كما ان أعضاء النادى الذرى حاليا هم أغنى دول العـالم بوجه عام . وهذا ما ينقلنا الى الدرس الهام الذى تعلمه هذه التطورات الثورية

فمناط القوة الحديثة اليوم لم يعد يكمن فى الامتـداد المساحى او القوة العددية أو الموارد الاقتصـادية الخام ، ولكن فى تحويل هذه العوامل جميعا الى قمة العلم الحديث وأعنى بها تكنولوجيا الذرة . ان اركان الاستراتيجيـة الحديثة ومقوماتها لم تعد بعد الجغرافيا وحـــدها او الاقتصاد من بعـدها ، وانما هى التكنولوجيـا فى أعلى مراحلها . وبعبارة اخرى ، لقد انتقلنا من الاستراتيجية

الجغرافية المالوفة او الجيوستراتيجى الى ما يمكن ان نسميه بالاستراتيجية التكنولوجية او التكنوستراتيجى technostrategy . فالعلم - والعلم القمى المطلق - هو الشكل الجديد للقوة . ومن يملك العلم النووى - أكثر من الارض والسكان والموارد - يملك القوة الاستراتيجية، وان كانت الارض والسكان والموارد هى من مقومات او خامات ذلك العلم النووى الفيصل. فاذا ماملكت دولتان قوة العلم النووية المتكافئة ، فقد يمكن حينئذ للفروق الطبيعية فى المساحة والسكان والموارد أن ترجح الميزان فى هذه الكفة أو تلك

مراحل التوازن

تلك اذن هى أبعاد الانقلاب النووى ومغزاه . وعلينا الآن ان نحدد فى ضوئها نمط التوازن الاستراتيجى الكتلى الجديد . وفى هذا الصدد يمكن أن نتعرف على ثلاث مراحل او توازنات . والمراحل الثلاث تمثل اتجاها تدريجيا من الاحتكار المطلق للقوة الذرية لأحد الطرفين الى تكافؤ مطلق بينهما . ومن ثم فلكل منها مغزاه واستراتيجيته - ورعبه

فالمرحلة الاولى هى التى أعقبت الحرب الثانية حتى الخمسينات الباكرة ، حين كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلاح الذرى ولا يملك الاتحاد السوفييتى الا جهازا ضخما من الاسلحة التقليدية . تفوق نووى وتخلف فى الاسلحة التقليدية فى الغرب ؛ وتخلف نووى وتفوق فى الاسلحة التقليدية فى الشرق . ولا جدال انها كانت مرحلة حرجة للغاية بالنسبة للكتلة الشيوعية ، فى وقت كانت الحرب الباردة والصراع المذهبى على أشدهما . وهى بالتالى المرحلة التى كان اغراء الهجوم على أشده

كذلك بالنسبة للغرب ، حيث لم يكن ثمة رادع نووى مضاد . ولعله فى ظل هذا التوازن الكتلى المختل كانت جرثومة سياسة « حافة الحرب » التى مارستها امريكا دلاس بكثير من التهور وقليل من الخوف

كما نستطيع ان نكون فكرة عن المناخ الاستراتيجى والسياسى فى تلك المرحلة من دعوة مفكر مثل برتراند رسل الى شن الحرب الصليبية على الشيوعية على اساس أنها هى اما « الآن أو مطلقا » (١) . وهناك حتى الآن من يأسى فى الغرب على أن هذه فرصة ذهبية ضاعت الى الأبد ولن تتكرر

أما المرحلة الثانية فهى الخمسينات بالتقريب . فيها توصل الاتحاد السوفيتى الى السلاح النووى ، واصبح هناك توازن ذرى رهيب بين القطبين ، والردع متبادل عن طريق الصواريخ الموجهة . ولكن هذا لم يكن يعنى شل احتمالات الحرب او تجميدها . فقد كان المفهوم أن الهجوم المفاجىء هو الاستراتيجية الوحيدة التى تبقت لأى من الطرفين . فلو عجل احدهما بمباغتة الآخر ـ غيلة فى الظهر يعنى ـ فقد دمره الى الابد فى ساعات أو ربما دقائق ، وتحدد بذلك مصير العالم نهائيا . وبتعبير آخر فقد كان شعار هذه المرحلة هى أن اتغدى بك قبل أن تتعشى بى (٢) . انها ببساطة استراتيجية الغدر وأسلوب « بيرل هاربر » ولكن نوويا . والهجوم ، لا الدفاع ، هو بالتالى مفتاح المرحلة . ومن هنا ندرك التوتر والترقب الرهيب الذى كان يرين على المعسكرين . وفى ظل هذا التوازن كان طبيعيا أن تسود استراتيجية «الردع الشامل» فى هذه المرحلة ، بمعنى ان أى استفزاز من الجانب الآخر

---

(١) كول . ص ٢٥٢ (٢) مورجنتاو

يقابل بحرب نووية شاملة

أما المرحلة الثالثة والاخيرة فهى هذه التى نعيشها الآن منذ حوالى الستينات حين دخلت الغواصة الذرية مسرح الصراع . فلأول مرة فى العصر الذرى يصبح التوازن والتكافؤ اكثر حدة ودقة من حد السيف والفارق او هى من خيط العنكبوت . ولم يعد ثمة مجال لاستراتيجية المفاجاة او الغدر . فكما راينا ، فقد اصبح لكل من الجانبين ــ مجازا ــ « يابس أو قارات » عائمة فى المحيطات لها مثل قوة التدمير والردع النووية التى للقاعدة الارضية الضخمة على اليابس الحقيقى تماما

فاذا ما باغت أحد الجانبين الجانب الآخر بهجوم نووى كاسح على أرضه، فهو قد محاه حقا من الوجود ، ولكنه لن يفلت من العقاب فورا بهجوم ماحق مماثل من أسطول غواصاته النووية المنبث المتربص فى اغوار المحيطات . وما يقال عن الغواصات النووية يقال تماما عن الصواريخ المدارية ــ التى ينفرد بها الاتحاد السوفييتى حتى الآن ــ فهى خطر معلق ابدا فى الفضاء كالأولى المتربصة ابدا فى الاعماق ، وكل ينقض حينما وحيثما يراد له . فالتشابه الأساسى بينهما أنهما قد استقلا عن الغلاف الارضى ، اذ بينما توطنت الغواصات الذرية الى الابد فى الغلاف المائى، توطنت الصواريخ المدارية الى مالانهاية فى الغلاف الجوى. وبتعبير آخر فان كلا منهما سلاح يقع خارج حدود المكان والزمان الارضى سياسيا وعسكريا : خارج حدود الرقعة الاقليمية للدولة ، وخارج حدود المباغتة الصاروخية ونتائج المعركة الفجائية ذاتها

وبهذا وذاك اصبح الموقف كله كمبارزات الغدارات فى الماضى حين كانت تتزامن الطلقتان بالصدفة فتردى الطرفين معا ، الا أنه لا صدفة هنا اليوم وانما هو حساب مكتوب وقدر

محتوم . في كلمة واحدة : ان التوازن النووي الراهن هو حكم اعدام مع ايقاف التنفيذ ، أما اذا نفذ فهو انتحار متبادل للكتلتين! وللخروج من أسر هذا التوازن ظهرت في امريكا فلسفة « الرد المرن » كاستراتيجية هذه المرحلة ، ومعناها التقدم الي خوض حروب صغيرة محدودة او اقليمية بالسلاح التقليدي دون ما اثارة للترسانة النووية ودون خوف من الردع النووي الشامل

متي وكيف ويمكن لهذا التوازن المروع ان يختل بحيث يعطي احد الطرفين ميزة الانقضاض بلا خوف من الردع ؟ في حالة واحدة ، ليست هي زيادة فاعلية أو رصيد السلاح النووي ، فان هذا قد وصل من قبل الى درجة ما فوق التشبع من حيث قوة التدمير . وانما حين يصل احد الطرفين الى سلاح دفاعي محقق ضد خطر الهجوم النووي ، هي تلك الحالة . وبمثلها نرتد الى موقف أشبه بالمرحلة الثانية او الأولى ، ومعها ينفتح الباب مرة اخرى لنذر الواقعة . فهل قد فتح ؟

الى وقت قريب كنا نظن ـ خوفا او املا ـ ان أحدا لم يهتد بعد الى هذا الدفاع الكئيب ، وحسبناه من حسن حظ العالم . غير ان السنة او السنتين الأخيرتين تكشفت عن توصل الاتحاد السوفييتي الي الصواريخ المضادة للصواريخ anti-missile missiles ، والى اقامة شبكة كثيفة او فعالة من هذا الدفاع الصاروخي حول المدن الكبرى خاصة موسكو ولننجراد ، يفترض انها ستعمم وتعمق في كل الاتحاد بالتدريج . وأخيرا جدا توصلت الولايات المتحدة كذلك الى مثل هذه الصواريخ المضادة للصواريخ ولا زالت تبحث في انشاء شبكة منها ، ولو ان هذا على مستوى اولي لا يقارن بما وصل اليه الاتحاد السوفييتي

غير ان علينا ان نذكر رأيا له اهميته ، يبدو ان فيه على

الاقل قدرا ما من الصحة ، ويذهب الى انه لا دفاع حقيقى مطلق او رادع تماما ضد الصواريخ النووية مهما تطورت مضاداتها على الجانبين ، وان الخطر النووى سيظل هو هو الخطر النووى ، وان الردع الذرى سيبقى اقرب دائما الى التوازن النسبى منه الى الانقلاب الجذرى لمصلحة احد الطرفين

وايا ما كان الرأى ، فان معنى ذلك التطور ثلاث : اولا ، ان احد الطرفين قد تفوق على الآخر فى الدفاعات النووية، مما هز التوازن الذرى الدقيق ، وخلق اغراءات الهجوم او امكانيات الصدام . وبهذا عدنا الى حد ما الى موقف يذكر بالمرحلة الأولى أو الثانيـــــة . غير أن الاتحـــاد السوفييتى ، ثانيا ، هو الذى تفوق هـذه المرة ، وبذلك عوض ـ تاريخيا ـ عن فترة تخلفه الذرى بعد الحـرب مباشرة . ولعل هذا من حسن حظ العالم ، لأن المهم هنا ان الاتحاد ليس له اليوم الميول العدوانية أو التهـور الاندفاعى الذى كان للولايات فى هاتين المرحلتين ، وليس من المستبعد فى راى البعض انه لو كان هذا التفوق الجديد من قدر الولايات فربمـــا اندفعت فى طـــريق التحرش والصـــدام . ثالثا ، من المرجح مع ذلك أن الولايات لن تعجز فى النهاية عن التوصل الى مستوى مماثل لمستوى الاتحاد ، وأن التوازن النووى خليق بذلك بأن يعود الى ما كان عليه من تكافؤ ، والموقف الاستراتيجى الى ما كان عليه من تجميد عميق

هكذا هى اذن ، فيما يبدو ، الدورة الاستراتيجية فى العصر النووى : سبق مؤقت هنا ينسخ التوازن ، لا يلبث ان يعقبه سبق هناك ينسخه ويعيـــد التوازن ، ثم تبدأ الدورة من جديد . وفى وسط هذا السباق التكنولوجى العرم ، أصبح السلام النووى يتألف كالبركان النائم من

فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت ثم من الخطر المنذر الماثل . والتفوق اليوم ليس لمن يملك الهجوم وحده ، وانما هو لمن يملك الهجوم والدفاع معا ، والاغراء بالهجوم لن يتحدد بمن يضمن هجوما اقوى بل بمن يضمن دفاعا اكمل

وفيما عدا هذا ، فنحن نتقدم خطوة اخرى فى سبيل تحديد نتائج الصدام النووى اذا عرفنا على من ستنصب تلك النتائج أساسا . وليس من الممكن بطبيعة الحال التكهن بمدى حدود الصدام جغرافيا وسياسيا وما اذا كان قد يبتلع العالم كله او جله فى أتونه ، ولكن من المحقق انه اذا اقتصر على المعسكرين المتصارعين فان الانتحار المتبادل الذى أشرنا اليه سيكون على وجه التحديد انتحارا للجنس الأبيض بالذات : السلاف فى الشرق والتيوتون واللاتين فى الوسط والانجلو ساكسون فى الغرب. والمقدر بعامة أنه اذا اتخذت الحرب النووية أبعادا عالمية ، فلن تترك على ظهر الأرض من بقايا البشرية الا « قليلا من الافريقيين وكثيرا من الصينيين » كما عبر مرة خروشوف

وحتى ان لم ينقرض الجنس الاوربى وافلتت من الواقعة بذور له أو « خميرة » ، فلن يكون بعدها الا اقلية مسحوقة عدديا وماديا فى عالم ما بعد الحرب النووية ، وستضيع سيطرته العالمية الى الأبد ، ويرث الارض من بعده من كانوا « عباده المستضعفين » من « ملونين » ومستعمرات سابقة . الخ . وبهذا تبدأ للعالم جغرافية جنسية وسياسية جديدة تماما ومختلفة جذريا عما ألف الأوربى: عالم تتبع فيه المعتدلات المداريات وتخضع فيه العروض العليا للعروض السفلى ، وقد يصبح فيه سادة الأمس توابع الغد وعبيد الامس سادة الغد ، ويكون الجنس الأبيض هو الجنس المغلوب على امره فى العائلة البشرية !

ومعنى هذا على الفور ان التصـــادم النووى لا ياخذ مظهرا استراتيجيا فحسب ولكنه يكتسب قبله مغـزى جنسيا مباشرا ويبدو لأطرافه انتحار الرجل الابيض أكثر منه ، وقبل أن يكون ، انتحار الجنس البشرى ، بحيث يجعلها تعيد النظر فى الجانب الاستراتيجى كلية

هذه اذن هى احتمالات المستقبل : صـــــورة رهيبة للبشرية عامة وحلم مفزع للأوربى خاصة ، ومن هنا جاء رد الفعل العنيف . فلقد جعلت الاستراتيجية النووية ، بحكم « ميزان الرعب الذرى » ، جعلت الحرب مستحيلة، ومن « التعايش السلمى » ضرورة بقائيـــــة . واصبحت الترسانة النووية العالميـــة طاقة مشلولة أو رادعا ذاتيـــا كالبوميرانج الذى يرتد الى صدر صاحبه . وهذا الموقف يحمل فى طواياه ــ كما يقول مورجنتاو ــ أما الشر المستطير الذى لم يسبق له مثيل ، واما الخير الذى لا يكاد يصدق . وفى نفس الوقت تظل الخلافات الايديولوجية والأسية قابعة فى اخاديد عميقة تنفى السلم العالمى مثلما نفيت الحرب العالمية من قبل ، وفى ظل هذا المناخ السياسى ، الذى يشبه الرهو الثقيل الممض ، لم يكن غريبا ان أخذت تتجرثم عدة خطوط جديدة فى السياســة العالميـــة او تتجوهر

نتائج واحتمالات

فاولا ، تراجعت الحرب الذرية الشاملة لتترك الباب مفتوحا على مصراعيه للحروب الصغيرة المحلية وسياسة القوة التى نشطت الكتلة الغربية معربدة الى ممارستها هنا وهناك ، وهى على يقين من استحالة تحولها الى الحرب الشاملة . وقد جاء هذا التطور على حساب الدول الناشئة وحديثة الاستقلال أساسا ، والتى أصبح عليها أن تدرك

ان عليها من الآن فصاعدا أن تعتمد على انفسها في الدفاع وحماية مكاسب التحرير . ومعنى هذا ان هدنة الرعب الذرى لم تساعد قوى التحرير والدول النامية كما قد يظن البعض بل أتت على حسابها وتركتها وحدها تواجه قوى الاستعمار من جديد في لقاء يعيد الى الاذهان شيئا من مناخ القرن التاسع عشر

ثانيا ، بدأ العملاقان المتضادان يتقاربان قليلا وبالتدريج . وينعكس هذا في تزايد التبادل التجارى بين الكتلتين ، وفي محاولات الاتفاق على نزع السلاح ـ والسلاح الذرى بعينه ـ أو ايقاف سباق التسليح وتحويل التنافس الى النواحى السلمية البناءة . كذلك خفتت الى حد ما دعوة الثورة العالمية الشيوعية، ودعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية . على أن الحصاد حتى الآن ضئيل وغير مشجع . ومع ذلك فهناك من يرى ـ ان خطأ أو صوابا ـ في بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى تزحف على كلا الجانبين كالاخذ بلون من التخطيط والتدخل في الغرب الراسمالي واعادة الاعتبار لعوامل الربح والحافز المادى في الشرق الشيوعى مؤشرات اولية نحو تغييرات هيكلية في النظم والايديولوجيات المتناقضة ذاتها

بل ان البعض ليتفاءل حقا الى حد تصور أنه تحت ضغط الرعب الذرى وتحت تهديد انزلاق العنصر الأوربى في مجال القوة العالمية ، سيرغم كل من القطبين المتنافرين على أن يخفف بالتدريج من تطرفه نحو اليمين أو اليسار حتى تلتقى الراسمالية المطلقة والشيوعية الكاملة على أرض اشتراكية مشتركة . . ومن هذا الالتقاء ينتهى هذا البعض الى تصور محور اوربى أبيض يستقطب العملاقين وينهى انقسام العالم الى شرق وغرب ليبرز مكانه انقسامه الى

شمال وجنوب .. ويعزز هذا التصور — الحالم — ما يحدث الآن داخل معسكرى الشرق والغــــرب ، وهو ما ننتقل اليه مباشرة

ثالثا ، بينما يحدث هذا التقارب الذى قد يخفف نوعا من حدة الاستقطاب الثنائى ، بدأت أحجار كل من الكتلتين تتفكك وتتباعد قليلا ، اما ثورة على تبعية الكتل واما مغالاة فى رسالة الكتل ، أى اما بالمناقصة واما بالمزايدة . وتمثل فرنسا ديجول الاتجاه الاول فى المعسكر الغربى حيث تتزعم حركة عظمي لتاكيد وجود أوربا بين العملاقين ، ولتحررها من الوصاية الامريكية ، وتدعو لذلك الى وحدة أوربا من « الأطلسى حتى الاورال » ، وبذلك تقطع عبر الاستقطاب الثنائي وتغلفه بالضباب . كذلك ومن ناحية اخرى تعمل الســوق المشتركة فى اتجاه تدعيم قوة أوروبا الذاتية

اما الاتجاه الثانى فيتجسم فى الصين الشعبيــة التى تدعو الى صيغة منتهي الشيوعية وترفض التعايش السلمى وتطالب بفرض الثورة العالمية فورا وبسحق الرأسمالية . ومن ناحية اخــرى فان دول شرق أوربا تبدى مزيدا من الاستقلال الاقتصادي وغير الاقتصادى عن المعسكر الأب . وفى نفس الوقت أخذ الثائران الغربى والشرقى ، فرنسا والصين ، يتقاربان نوعا بشكل أو بآخر لحسابهما الخاص

والمحصلة النهائية هى تفكك لا جدال فيه فى أحجــار المعسكرين ، هو ما يعبر عنه الآن بظاهرة تفكك التوابع الكتلية Desatellisation والسؤال حتى الان هو الى أى حد يمكن أن تذهب حركة التفكك فى المعسكرين هــذه ، وهل يمكن حقا أن تصل الى حد الذوبان فى المدى البعيد أو الى حد تحول الاستقطاب الثنائى الراهن الى استقطاب متعدد الأطراف ؟ ففى فرنسا لا يبدو الهدف انتزاع زعامة المعسكر بقدر ما هو تأكيد لاعتبار القومية فى الحلف .

وعلى العكس من ذلك فى حالة الصين : لا يبـدو الهدف محاولة معلنة لتاكيد القومية (وان كانت مضمرة ضمنا) داخل المعسكر الذى لا يعترف بالقومية ، بقدر ما يبـدو محاولة غير معلنة لانتزاع الزعامة . . وعمق الأخدود الذى انشق بين الاتحاد والصين يؤكد هذا الفرض ، بينما ان خطة الصين المعلنة لا تنفيه تماما

وهنا يبدو فارق جغرافى هام بين تكوين المعسكرين . فالغرب يتألف من حجر واحد ضخم طاغ يتجاذب حوله عديد من الاحجام الصغيرة والمتوسطة ، فلا مجال حقيقى للتنافس على الزعامة . أما الشرق فقوامه الاساسى حجران ضخمان ندان صنوان أو شبه صنوان حولهما بضعة من الاحجام الضئيلة ، ومن ثم فالتطلعات التنافسية ممكنة . وليس من شك أن الحجر الأكبر مساحة وموارد طبيعية وانتاجا اقتصاديا وثروة مادية وتقدما تكنولوجيا وقوة عسكرية هو الآن الاتحـاد ، ومن الارجح فى تقدير الجغرافيا أن يظل كذلك فى المستقبل على الدوام . ولكن الصين تتطور ــ تطفر فى الواقع ــ بسرعة فائقة واهم من ذلك أنها ، عدا حضـارة أعرق وربما أمتن ، ترى فى عامل سكانها ــ وهى التى تعادل الاتحاد سكانا اكثر من ثلاثة الامثال ــ مبررا غلابا لكى تكون فيما يبدو مركز العالم اجمع لا المعسكر الشيوعى فحسب ! (١)

وليس من شـك فى أنه اذا كان للعملاقين الحاليين من ثالث يلحق بهما فى المستقبل فهذا الثالث هو الصين وحدها ، فهى وحدها التى تملك من الموارد والمقومات والحجم والضخامة ما يؤهلها لان تكون قوة دينوصورية عظمى على مستوى العملاقين . ولعلها كانت نبوءة عراف

---

(١) كول ، ص ٢٥١ ، ٣٠٩



شكل (٣١) مجموعة دول عـــدم الانحياز ، ١٩٦٥
٤٦ دولة اشـــتركت فى مؤتمر القاهرة ١٩٦٤ ،
عدا ١١ دولة مراقبـــة . كل المشتركين العـــاملين
دول نامية أفرو اسـيوية عدا يوغوســلافيا وكوبا

حين تكهن فوست فى وقت مبكر مثل ١٩٥١ بامكان حدوث صدع بين الاتحاد والصين واستقطاب العالم الشيوعى بدوره ثنائيا (١)

ومهما يكن من أمر فيبدو أن المعسكر الغربى يحاول بحذر أن يفيد من التفكك الراهن فيعمق الهوة بين الحجرين ويجذب اليه الحجر الاكبر بالتـدريج مستغـلا فى ذلك الانتخاب الجنسى المعين للحرب النووية والذى يربط بينهما نهائيا فى المصير الذرى . وهم يشيرون الى أن مركز العداء والصراع السياسى فى اوربا تحرك دائما نحو الشرق تاركا

(١) Geog. & Empire, loc. cit., p. 431.

عدو الامس حليف اليوم : ففرنسا كانت عدوة بريطانيا ثم أصبحت حليفتها ، ثم صارت المانيا عدوة الاثنين فاصبحت حليفتهما ، وقد أصبح الاتحاد السوفييتي عدو الجميع اليوم ، فما الذى يمنع بهذا المنطق ــ هكذا يتساءلون ــ من ان يتحول الى حليفهم ؟ وبهــذا تعود نظــرية المحور الشمالى الابيض ضد المحور الجنوبى الملون فتطفو على السطح فى نهايه المطاف .. وبهذا ايضا يتحول الصراع المذهبى بين الكتل البيضاء الى نوع من الصراع العنصرى بين الاجناس البيضاء وغير البيضاء . اى ان يحل صراع اضداد جديد محل القديم

وقد يكون هذا التصور كله رجما بالغيب او من قبيل أحلام التعويض والامانى الطيبــة . فلا شك ان التنبؤ السياسي بالمستقبل ليس امرا بالغ الصــعوبة فحسب ولكنه قبل ذلك امر خطر محفوف بالمزالق العمليــة والشكوك . وصحيح ان الدرس الذى يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية هو ان اعداء الامس هم أصدقاء الغد ، وان اصدقاء اليوم قد يصبحون اعــداء الغد ، وان التشكيلات السياسية فى العالم نمط متغــير بالتدريج او بالطفرة . ولكن من الصحيح ايضــا ان الدرس الاكبر والذى لا ينبغى قط ان ننساه هو انه ليس هناك ما يمنع فى نهاية المطاف من ان يكون كل اعــداء الأمس أصدقاء الغد جميعــا ، وأن يصبح التشكيل السياسي الوحيد فى العالم كله هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية لا حلف الفضول

ماكيندر والعصر النووى

وعند هذا الحد من المناقشة ، لا بد أن يثور أو قد ثار فى الذهن سؤال : أين ماكيندر ونظرية الهارتلاند من

كل هذا الانقلاب النووى الرهيب ؟ أمن الممكن ان نركب الاستراتيجية الجديدة فى معادلته الثلاثية الخالدة قوة البر وقوة البحر ومنطقة الارتطام ؟ هل يجوز بعد اليوم ان نتنبأ مع ميهان وسبيكمان بأن النصر فى الصراع سيكون للقوى البحرية والسواحل ، او مع راتزل وماكيندر بانه سيكون للقوى البرية والقارية ؟ لا ، بل هل هناك اليوم قوى بر وبحر على الاطلاق تتباين تباين الابيض والاسود ؟

من الصعب حقا أن نتفادى الانتهاء الي ان الاستراتيجية النووية قد نسخت جوهر النظرية وقوضت اركانها . فقد « استقلت » الحرب اخيرا وفى النهاية عن سطح الارض الى حد بعيد ، « وارتفت » المعركة من مستوى الارض لتحلق فى الفضاء ، ولم يعد الصراع بين الحوت والفيل بينهما تمساح ، وانما ـ لنقابل التشبيه بتشبيه مماثل ـ اصبح هو صراعا بين « النسر والصقر » ، بين جوارح مجنحة ليس بينها وسيط أو ضحية الا ان يكون « حمامة » سلام

فما دام لم يعد هناك يابس أو ماء نوويا ، فانه لم يعد هناك قوة بر ولا بحر او ارتطام . ثمة فقط قوة نووية او تقليدية . لا ولم يعد الهارتلاند بالضرورة « أقوى قلعة دفاعية طبيعية » على الارض ، فهو اذا كان لا يزال غير مفتوح من خلف أو قدام فقد أصبح مفتوحا من فوق . ومثله صارت الولايات المتحدة : لا عزلة ولا ابتعاد بعد أن استدار الخطر فترك طريقه عبر البحر ليأتى من السماء (١) . كذلك فلم يعد هناك محل للتكهن : لمن ستكون الغلبة والفوز فى الصراع ، قوى البر ام قوى البحر ؟ ـ أولا لأن هذه التفرقة لم تعد سؤالا

(١) بوين . ص ٥

واردا بعد أن أصبح الجميع قوى فضاء ، ثانيا لأنه لن تكون هناك غلبة وتفوق بل اندحار متبادل ان لم يكن انتحارا للطرفين . وهكذا وهكذا

وربما كان من الممكن لنظرية ماكيندر ان تتعايش ـ جزئيا فحسب ـ مع استراتيجية الطيران وقوة الجو ، ولكن مقدم الاستراتيجية الصاروخية وقوة الفضاء space power لم يترك لها شيئا . ان الصواريخ بكل اشكالها وانواعها ومهما اختلفت قواعد اطلاقها ، حرب جوية أساسا ، وهى بهذا امتداد بشكل آخر ، امتداد قمى الى ابعد حد للطائرات . فاذا كانت الطائرة قد سلبت النظرية الجزء الاكبر من محتواها ومغزاها ، فان الصواريخ تنسخها كلية بلا جدال

وهى بذلك تتحول من الجغرافيا السياسية الحية لتستقر ـ مكرمة ـ فى متحف الجغرافيا التاريخية . ونقول مكرمة لان هذا التحول لا يقلل من قيمتها الاكاديمية ، فحسبها انها تفسر بدقة مثيرة اغلب كليات وجزئيات التاريخ ، ابتداء من القرن العشرين قبل الميلاد حتى القرن العشرين بعد الميلاد . وفوق هذا فان العالم اذا اتفق على نزع السلاح النووى ومنع الحرب النووية ، فانه يعود ببساطة وآليا الى استراتيجية ماكيندر ما فى ذلك شك، ويعود للموقع الجغرافى وزنه الاثير ودوره المأثور

ولكن الاقتراح الذى نود ان نطرحه هنا هو ان هناك من الأدلة ما يشير ، فى هذه المرحلة الراهنة التى تتعايش وتتعاصر فيها الاستراتيجية التقليدية جنبا الى جنب مع الاستراتيجية النووية ، الى ان أبعاد نظرية ماكيندر لم تنسخ بعد كلية، ولكنها بدات تأخذ شكلا ومغزى جديدا

ان جغرافيا مثل بوين بحث أخيرا عن نمط سياسى

واضح للعالم ككل يحل محل نمط ماكيندر بعد ان تحررت المستعمرات ، ولكنه يعلن انه عبثا لم يجد اى نمط ، فليس ثمة الا حزمة من الدول المستقلة تغطى وجه القارات ولا تعطى نمطا الا مجرد نمط وجودها هى كرقع الشطرنج ، ومن العبث ان ندخل عليها نظرية شاملة فى توزيع القوة السياسية حاليا كتلك التى قدمها ماكيندر منذ نحو نصف قرن

ولكن احقا ليس هناك نمط عالمى للجغرافيا السياسية المعاصرة ؟ فى تقديرنا انه ثمة نمط ، ونمط مستمد من تصور ماكيندر ، الا انه يتحول حثيثا من مفهوم جغرافى الى مفهوم حضارى ، من فكرة عسكرية الى فكرة مذهبية . كذلك فاذا كان بوين ينتهى الى ان عصر الجو والفضاء قد « جعل من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من ادراكه ان القوة فى المستقبل تكمن مع الامبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها » (١) ؛ فاننا نحسب أن كل الحقائق تجعل الصحيح هو العكس تماما : تفوق الامبراطوريات القارية لم يعد قائما بالضرورة اما النمط العالمى فهو الذى ما زال قائما ! اما كيف ، فهذا ما نتقدم الان الى دراسته فى مناقشتنا لاستراتيجية عدم الانحياز

(١) المرجع السابق . ص ١٣ ، ٥

الفصل الثالث عشر

استراتيجية عدم الانحياز

من بين ثورة التحرير والانقلاب النووى ، وكرد فعل ومواجهة لهما ، انبثقت احدث ظاهرة سياسية معاصرة وهى الحياد الايجابى وعدم الانحياز . فلقد اعطت ثورة التحرير نسلا ضخما من الدول الجديدة الصغيرة النامية التى تتفتح على خضم السياسة العالمية ودوامته كوحدات مستقلة لأول مرة منذ عقود واحيانا منذ قرون . بل ان كثيرا منها لم يعرف شكل الدولة الوطنية الحديثة قبل الاستعمار اطلاقا واكثرها لم يكن يعرف السالم الخارجي الا عن طريق طاقة ضيقة احتكارية محكمة هى دولة المتروبول الاستعمارية . ولما كانت الدول الاستعمارية ترسم لهذه المستعمرات ـ كتوابع صماء ـ توجيهها الخارجي وتقننه فى تيارات بعينها ، فلقد كان هذا التوجيه السياسى يرسم فى النهاية نمطا طاردا مركزيا centrifugal تتباعد به المستعمرات ، وتعطى ظهرها لبعضها البعض فى الوقت الذى تقرب قسرا من المتروبول

ولهذا فان مرحلة ما بعد التحرير كانت بالضرورة مرحلة صناعة السياسة الخارجية الجديدة ، تحاول فيها ان تتلمس طريقها بحذر وان تتحرك بأمان فى غاب السياسة العالمية وأدغالها ، معسكراتها وكتلها . ومنذ

البداية وجدت الدول المتحررة نفسها تخضع لضغوط عنيفة فجة احيانا أو انسيابية ولكنها خطيرة احيانا اخرى تحاول أن تتجاذبها أو أن تأسرها فى فلكها . ولم تكن هذه الضغوط لتخرج فى جملتها وفى التحليل الاخير عن مناورات الحرب البـــاردة ومغناطيسية الاســتقطاب الثنائي

ومنذ البداية ايضا وجدت هذه الدول الصاعدة الرد فى « الحياد الايجابى وعدم الانحياز » ، واخذت تتجاذب وتستقطب فى طريقه حتى اصبح هذا نمطا جاذبا مركزيا centripetal يجمع بينها بعد أن كانت فى ظل الاستعمار شتيتا شعاعا ونمطا طاردا مركزيا ، وحتى أصبحت جبهة عدم الانحياز تمثل عالما قائما بذاته هو العالم الثالث

وبديهى ان تأتى الضغوط الخطيرة حقا على الدول الوليدة النامية من جانب القوى الاستعمارية السابقة : اولا بحكم القصور الذاتى للاستعمار، والتقليد الامبريالى، وثانيا لضمها أو ابتلاعها فى صــفها فى الحرب البـاردة وحرب الكتل المذهبية . فاما عن العامل الاول ، فان القوى الاستعمارية القــديمة اذا كانت قد أرغمت على الخروج فهى لم تغير بعد من عقليتها الاستغلالية وعقدة السيطرة والتحكم

والواقع انها لم تخرج اصلا الا لتعود ، وانما عــودة المحتال الذكى لا اللص الغبى هذه المرة ، ولم تنحن لموجة التحرير الا لتركبها ، وبذلك تدور حول روح العصر دون ان تصطدم به . والشــعارات التكتيكية التى رفعهــا الاستعمار هى وحدها دليل يكشف كل استراتيجيتها : ارحل لتبقى Quit to stay ، الاستقلال داخل الترابط Independence within interdependence ، حلب البقرة دون ملكيتها .. الخ

وجماع هذا ومحصلته هو ما اصبح يعرف بجدارة « بالاستعمار الجديد » . ومحور ارتكازه أن يغير الشكل دون الموضوع ، والاطار لا الصورة . فهو اولا استعمار خبيء غير سافر ولا مباشر ، اقتصادي لا سياسي ، يعتمد على تفتيت الدول المتحررة لا تبعيتها ، وامتصاصها لا امتلاكها ، وادواته الشركات والاحتكارات لا الجيوش والغزوات . واذا كان الاستعمار القديم « يعطى الانجيل ويأخذ الارض » ، فان هذا الجديد يعطى الاستقلال ويأخذ المحصول .. وهو بذلك يستبدل بالاستعمار السياسي الاستعمار الاقتصادي ، ويتبنى النمط اليانكى فى أمريكا اللاتينية بدلا من النمط الانجليزى فى افريقيا . انه باختصار اذكى ـ بعد أعلى ـ مراحل الامبريالية

اما عن مناورات الدول الاستعمارية لاستدراج الدول المتحررة الى جانبها فى الحرب الباردة والصراع الكتلى ، فقد اخذت شكلا عنيفا مكشوفا . فلم يكن كسب العالم الثالث أو ثلث العالم فى هذا الجانب او ذاك بالأمر الذى يمكن التقليل من خطورته فى تحديد نتيجة الصراع العالمى (١) . ولهذا استماتت الكتلة الاستعمارية الغربية فى محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، الى صفها وابتلاعه فى فلكها السياسى والمذهبى ، حتى وان وصل الضغط والاكراه الى حد العنف والقهر . وفى هذا السبيل استهدف الغرب هدفين : الاستراتيجية والايديولوجية ، واتخذ اداتين : الاحلاف العسكرية والنموذج الراسمالى

فاما الاستراتيجية والاحلاف فقد مرت منذ نهاية الحرب الثانية وفى الخمسينات بفترة محمومة ـ اكاد اقول مسعورة ـ حشد المعسكر الغربى فيها كل ضغوطه

(١) مورجنتاو

اولا على العالم العربى ، وثانيا على آسيا الموسمية ، ثم فى النهاية على افريقيا المدارية ، لكى يربطها بسلسلة من الاحلاف التى يصفها « بالدفاعية » موجهة ضد المعسكر الشرقى وما نعته « بالخطر الشيوعى »

وكان منطق الغرب فى هذه الحملة هو أنه مع التحرير قد اصبحت هذه المناطق بلا قوة حربية تواجه ذلك الخطر ، اصبحت يعنى « فراغا » من وجهة نظره ، وادعى أن ملأه من واجبــه . تلك كانت ـ فى الشرق الاوسط مثلا ـ « نظرية ايزنهاور » نظرية الفراغ ، أما تطبيقها فكان مشروع حلف الميــــدو Medo ثم حلف بغداد ، وهكذا بقية السلسلة حتى الشرق الاقصى . ولقد وصلت الضغوط من أجل هذه السياسة الى أقصاها فى منطقة العـــالم العربى بالذات بحكم خطورة موقعهـــا الاستراتيجى ومواردها البترولية بينما كانت أقلها نسبيا فى افريقيا المدارية لتطرفها

ومن نقطة الضغط الأقصى هذه ، وبالذات من نواتها النووية مصر ، تفجر رد الفعل البكر أصيلا وبتارا . فقد عدت المنطقة احلاف الغرب « استعمارا جماعيا » لجأ اليه كبديل للاستعمار الفردى القديم فى آخر مرحلة من مراحل شيخوخته وعجزه وانهياره ، وأعلنت رفضـــها للتبعية الجديدة التى تضعها فى مناطق النفوذ وتربطها بعجلة الاستعمار وبكتـــلة رجعية عدوانيـــة . ورفضت المنطقة مبدأ الفراغ فان قوتها الذاتية هى جديرة بأن تملأه . كما نبذت التلويح بالخطر الشيوعى البعيــــد الموهوم ، فى حين يجثم خطر الاستعمار على انفاسها أو تطاردها أشباحه

وفى وجه هذه المقاومة النضالية الثورية ، ســـقطت سياسة الأحلاف الغربية فى المنطقة واصبح العالم العربى

يمثل الحلقة المفقودة فى استراتيجية التطويق والاحتواء . لقد رسمت مؤشرات المستقبل وتحددت بوصلة الحياد الايجابى وعدم الانحياز .. وان هى الا سلسلة من الافعال وردود الافعال حتى كان هذا النموذج الحيادى ينتشر فى ارجاء العالم الثالث ويصبح دستور التوجيه السياسى للدول المتحررة حديثة الاستقلال . ومن هنا اتى الحياد الايجابى وعدم الانحياز الابن الشرعى لثورة التحرير والعدو الطبيعى للاستعمار والامبريالية

ومثل هذا عن الايديولوجية والنظم الاجتماعية يقال . فقد انطلق المعسكر الغربى الراسمالى ليعرض نموذجه المذهبى على العالم الثالث المتحرر الذى عاش عمره الاستعمارى فى ظل اقتصاد راسمالى او اقطاعى . وحاول ان يستغل وجوده السابق ، وعلاقاته الاقتصادية الاحتكارية مع دوله الجديدة ، فى هذا السبيل . وكان منطقيا ان تفشل خطته ودعايته ، لان هذه الدول وجدت ان نكبتها الاستعمارية المزمنة بدات اصلا كجزء من النظام الراسمالى ، وان الراسمالية الاستعمارية هى وحدها التى نزحت مواردها واستنزفت انتاجها وثروتها

ومن ناحية اخرى فقد وجدت هذه الدول فى تخلفها الرهيب ان عليها ان تقطع شوطا شاقا لتعوض به الماضى ، وان عشوائية والتهازية الاقتصاد الحر واناركية المذهب الفردى لا يمكن الا ان تكون معوقا خطيرا فى هذا السبيل ، وبغير الاقتصاد الموجه والتخطيط الرشيد ستزداد تخلفا على تخلف . وفى نفس الوقت كان امامها نموذج دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد والصين التى ثورت اقتصادها وكيانها بمعدل العاصفة والى مدى يكاد يتعدى حدود الخيال اذا قيس بمدة التجربة

وهى تتلفت حولها فتجد ، على سبيل المثال ، معدل نمو الاقتصاد فى الاتحاد السوفييتى ضعف معدل الولايات المتحدة ، وان معدل نمو الانتاج الصناعى فى الكتلة الشيوعية ثلاثة اضعافه فىالكتلة الراسمالية . وهى تنظر الى الخلف قليلا فترى ان ظروفها تشبه بدرجة او باخرى ظروف روسيا ١٩١٧ او الصين ١٩٤٩ او كوبا ١٩٥٩ (١) ومن هنا كانت حتمية الحل الاشتراكى بالنسبة للدول المتحررة النامية . واذا كان بعض الاقتصاديين مثل هايلبرونر يرى ان اخطر حقيقة فى عصرنا هى اتجاه العالم المتزايد نحو جماعية الاقتصاد collectivization او تشريكه socialisation ، فان الدول المتحررة تؤكد هذا الاتجاه بكل قوة (٢)

بيد انها اذا كانت قد نبذت الطريق الراسمالى اساسا ، فهى فى الأعم الأغلب لم تكن على استعداد لأن تحتذى النموذج الشرقى فى صورته الشيوعية ، بل آثرت طريقا اشتراكيا وسطا معتدلا لا يجنح الى اقصى اليسار . وفى راى البعض ان هذا الطريق الوسط يتمثل فى الجمع بين قطاع عام قائد وسائد وقطاع خاص ثانوى ، وان هذه الوصفة الاقتصادية هى بمعنى ما التعبير الاجتماعى عن عدم الانحياز كمبدأ وكفكرة . وايا كانت صحة هذا التاويل ، فليس من الصدفة بالتاكيد ان السواد الاعظم من دول العالم الثالث تبنت الفلسفة الاشتراكية المتزنة ، ولا تكاد دولة جديدة تتحرر حتى تعلن الأخذ بهذه الايديولوجية . وهكذا ازدوجت الثورة الوطنية بثورة اجتماعية ، وارتبط تحرير الوطن بتحرير المواطن ،

(١) R. Heilbroner, The Future as History, N.Y., 1960, p. 88.

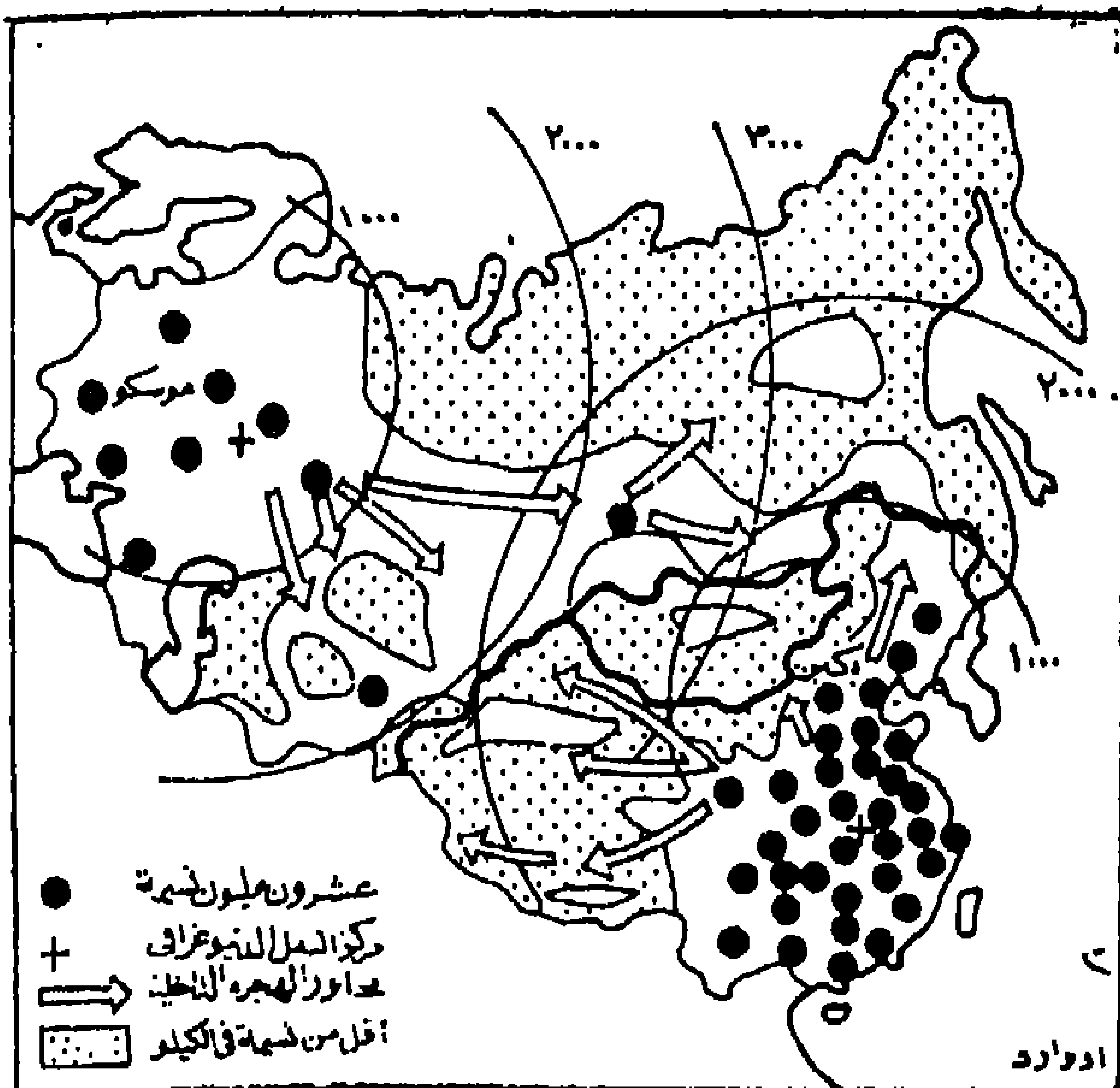
(٢) المرجع السابق . ص ٩٣

واصبحت الثورة الثنائية قانون البلاد المتحرره تقريبا

هدا فى الاستراتيجية السياسية وفى الايديولوجية الاقتصاديه ، تبلورت للدول المتحرره خطوط جديدة اصيله برفض احلاف الغرب ونظمه مثلما ترفض حذافير نموذج الشرق ، وترسم لنفسها طريقا جديده ـ الطريق الثالثه ـ لا غربيه ولا شرقية ، وانما تنبع من طبيعة ظروفها ومرحله تطورها وتتواءم مع مفهومها ومثلها فى التحرر وعدم التبعيه . وهكذا تحددت معالم الحياد الايجابى وعدم الانحياز كخط يضمن للدول النامية استقلالها وسلامتها فى عالم الكتل ويؤمن تنميتها وتطورها خارج عالم التخلف. هذا وقد ضم اخر مؤتمر لدول عدم الانحياز ٥٧ دولة لا يقل مجموع سكانها عن الألف مليون الا قليلا او قل ان العالم الثالث هو ثلث العالم

ولسنا بحاجة ان نقرر ان مثل هذا الاختيار لم يكن بالأمر اليسير لا داخليا ولا خارجيا . فقد حاربه المعسكر الراسمالى بكل عنف وعداوة ، فلسفيا واقتصاديا وعسكريا . فلسفيا حين اعلن ان الحياد ـ ايجاب أو لا ايجاب ـ « لا اخلاقى » انتهازى فى عالم الكتل و « أن من ليس معنا فهو ضدنا » ، وأن عدم الانحياز هو « حلف الضعفاء » ان لم يكن حقا « حلف الرقيق المحرر » (كذا !!) . اما اقتصاديا فقد استعمل كل اسلحته ، الحصار والخنق والضغط والتجويع ، حتى اذا ما استنفدت هذه اغراضها وصل بالفعل الى مرحلة العدوان المسلح كما حدث فى مصر حيث بدأ التحدى الجديد ورفع النموذج الثورى ، فحاول الاستعمار الغربى أن يجهض الأم ويئد الوليد ويجعل من المثل امثولة تردع بقية الدول الجديدة

ولهذا فان هذه المعركة نقطة تحول خطيرة جدا فى



شكل (٣٢) الجاران الضخمان في الكتلة الشرقية رغم الحدود المشتركة يفصل بينهما خط الاستواء الصحراوي في العالم القديم . الاتحاد أكثر من ضعف الصين مساحة ، والغنى في الموارد الطبيعية وابعد تقدما . ولكن الصين أكثر من ثلاثة امثاله سكانا

تاريخ العالم الثالث ، وهى فى تقديرنا تحدد ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ، وبعدها فتح الباب على مصراعيه ليصبح عدم الانحياز والعالم الثالث مرادفين أو شبه مرادفين . وفى المدى التدريجى ، فرض الخط الجديد نفسه فرضا على الغرب الذى لم يملك فى النهاية الا أن يعترف به ويتعامل معه كحقيقة صلبة وامر واقع ليس له من دافع

اما من جانب المعسكر الشرقى فهو لا شك قد بدأ علاقته مع العالم الثالث برصيد لا باس به من الحياد المبدئى او على الاقل من انعدام الروح العدائية . فرغم كل ما فعلته دعاية الغرب ليجعل منه خطرا مخيفا فى اذهان الدول النامية والمتخلفة فمن الواضح انه كان يرجح عندها الغرب فى نقطتين : انه لا تاريخ استعمارى له معها ، وانه بلا تجربة عنصرية ولا عقدة لونية بينها . ويحاول الاستعمار الغربى فى هذا الصدد ان يدس اسفينا بين الشرق والعالم الثالث ، فيرد على النقطة الأولى بان الاتحاد السوفييتى مارس الاستعمار الارضى المتصل وان منعته جغرافيته من ممارسة الاستعمار المدارى عبر البحار ، ويرد على النقطة الثانية بانه يدعى مثل المساواة العنصرية ولا يمارس التفرقة العنصرية لان تجربته اقتصرت على الاحتكاك بالعناصر الصفراء وخلت من الاحتكاك بالجنس الاسود الذى هو المحك الحقيقى للتفرقه (١) . ولكن العالم الثالث لم يكن ليخدع ، وعرف كيف يختار مواقعه الطبيعية من حيث المبدأ من الأعداء وغير الأعداء

وفى هذه العلاقة ينبغى ان نقرر موضوعيا ان موقف المعسكر الشرقى من طريق العالم الثالث تأرجح مرحليا بين اتجاهين تغلب احدهما فى النهاية ليصبح هو السياسة الرسمية له . فمن الناحية النظرية كانت الشيوعية تفترض وتتوقع أن الثورة العالمية ستتم على أيدى بروليتارية الدول الاستعمارية فى غرب اوربا ، ولم تكن تنتظر للمستعمرات دورا مرموقا او غير مرموق فيها . ولكن العكس ما حدث بالفعل ، فلقد أصبح الغرب زقاقا شبه مسدود للاشتراكية ، بينما لم تسجل الاشتراكية أعظم واخطر توسع كاسح لها فى النصف الثانى من القرن

(١) فتزجرالد ، ص ١٨٥ .

العشرين الا فى المستعمرات السابقة ، المتحررة الآن

وتلك لا شك ناتت وثبة طافرة مطلوبة وطفرة ترحب بها الكتلة الشيوعية باعتبارها على اقل تقدير ابتعادة عن الطريق الراسمالى الغربى وحرمانا حقيقيا للمعسكر المضاد من ارض سابقة . ومن هذه الزاوية تقدم سريعا لمساندة قوى التحرر الجديدة فى وجه التربصات الاستعمارية الغربية ، وكانت قمة التعاون هى استجابته لكسر احتكار السلاح بصفقة الاسلحة المصرية التى لا جدال كانت المحك الفيصل فى اختبار القوة بين التحرر والحياد من جهة وبين الاستعمار والتبعية من جهة اخرى

الا ان هذا الانفجار الاشتراكى فى نفس الوقت لم يكن فى نظر الماركسية اللينينية هو كل الطريق ولا نهاية المطاف . بل لعله الى حد بعيد يقطع الطريق على الشكل الراديكالى للشيوعية ويسلبه امكانياته ويقطع عليه خط الثورة اليسارية المطلقة . غير أن الكتلة عادت — ليس قبل مساجلات حادة واختبارات قوة مع قيادة الخط الجديد — فاتخذت موقفا واقعيا واعترفت به بغير مزايدات أو مساومات . بل ان الكتلة الشرقية حتى الآن لا تقبل تسمية نظم دول العالم الثالث الجديدة بالاشتراكية ، بل تسميها احيانا بالطريق غير الراسمالى ، أو تعتبره على الاكثر مرحلة انتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، وتفضل دائما أن تشير الى اصحابها كثورة التحرير الوطنى

والخلاصة أن رحلة الحياد الايجابى وعدم الانحياز لم تكن نزهة سياسية ، بل جاءت على جسر من الصراع ، وبقدر ما لقيت من معوقات داخلية ، بقدر ما تعرضت للشد والجذب والوعد والوعيد خارجيا ، وكما عبرت ثورات داخلية متعددة خاضت معارك خارجية ضارية من

اليمين واليسار على السواء ، ولم تشق طريقها الا بعد ان فرضت نفسها فرضا على العالم عالم الكتل . ولكنها فى هذا افادت الى اقصى حد من مساعده ومساندة المعسكر الشرقى ادبيا وماديا لتقف فى وجه اخطار المعسكر الغربى وتهديداته، وذلك دون ان تقدم اى تنازلات اومساومات للاول

وبمعنى آخر فقد أفادت استراتيجية عدم الانحياز بالقطع من الحرب الباردة ، ولكنها نجحت فى الا تصبح جزءا من تلك الحرب . بل لقد بدا للبعض فى حين ما أن مجموعة عدم الانحياز ، بقدرتها على الحركة الحرة الايجابية وسط الشلل الذى فرضه التوازن الذرى على الكتلتين ، كانت هى ، بمفارقة عجيبة ولكنها مفهومة ، تكاد توجه سياسة العالم وتحركها أو تتحكم فيها الى حد بعيد ، وذلك ـ كما يشبهون ـ على غرار ما يفعل حزب صغير كالاحرار فى بريطانيا حين تتعادل كفتا الحزبين الكبيرين العمال والمحافظين

النمط الجديد

آن لنا الآن ان نتساءل : ما مغزى ظهور عدم الانحياز فى عالمنا المعاصر ، وكيف يعدل من نمط القوى السياسية الكبرى ؟ وما هى خريطة الاستراتيجيه العالمية اليوم فى نظرة كلية كوكبية ؟ لعل اعمق واخطر معنى يبرزه عدم الانحياز هو انه قد اضاف بعدا ثالثا الى الكتلتين الكبيرتين المعروفتين ، وبذلك حول ويحول ابعاد العالم من ثنائية الى ثلاثية واضحة المعالم ، وهذه حقيقة كبرى من حقائق العصر تتضح بجلاء اذا نحن حللنا اصول كل من هذه الابعاد الثلاثة على الترتيب

فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الاستعمار الاوربى

يسيطر ، كما راينا ، على اغلب اجزاء العالم ويفرض عليه بالقهر نظاما سياسيا واحدا مغلقا من صنعه ، وكان ذلك الى ابعد مدى عصر « احتكار القوة » . ورغم الصراعات الدموية بين قوى الاستعمار من اجل هذه السيطرة والاحتكار ، كان الغرب المستعمر يستشعر فى النهاية نوعا من الوحدة فى مواجهة بقية العالم المستعمر ، وفى ظل هذه الدائرة المغلقة كان الاستعمار طليقا يعربد فى العالم دون ردع او قوة مكافئة تعمل على توازن القوى فيه

والى حد كبير ، كانت الثورة الفرنسية ترمز الى ، وتحدد بداية ، هذا النظام الاستعمارى العالمى فهى كثورة قومية ، لم تكن تستهدف « الحرية والاخاء والمساواة » الا للوطن القومي اولا والوطن الاوربى ثانيا ، وذلك رغم ان اوربا الرجعية تكالبت عليها فى البداية لتئدها ، بيد ان المهم انها لم تكن تقصد ان تصدر هذه المبادىء الى خارج الدائرة الاوربية وانما العكس هو الصحيح : ثورة بورجوازية تشرع الاستعمار فى الخارج وتسعى اليه . وعلى هذا فان الغرب الاوربى الراسمالى البورجوازى يستعمر فى الخارج باسم الثورة القومية فى الداخل ، وهو استعمار سياسى اقتصادى سافر ، وهو استعمار القراصنة بلا مواربة ، وهو مهندس الامبراطوريات الامبريالية ، والهدف فى النهاية ان يصل الى احتكار القوة فى العالم ويجعل منه نظاما سياسيا كوكبيا واحدا

ومع الثورة الشيوعية فى الروسيا تبدأ المرحلة الثانية لتكسر احتكار القوة العالمى وتنصفه الى احتكار ثنائى . وقد جاءت هذه ثورة على البورجوازية الراسمالية اى ثورة على الثورة الفرنسية ان صح التعبير ، فهى ليست ثورة قومية ولكنها اساسا تنشد ان تكون عالمية وتعمل

ما وسعها ، بعكس الثورة الفرنسية ، على تصديرها الى الخارج . وهى بعكس الثورة الفرنسية لا ترى القومية ولكن الطبقة ، فتنكر القومية وتستنكر القوميات ولا تعترف بوحدة الا وحدة الطبقة ، والطبقة العاملة البروليتارية

وكما تعرضت الثورة الفرنسية مؤقتا لتالب اوربا الاقطاعية ، فقد تعرضت هذه الثورة لعداء الغرب الراسمالى ولكن الى اعتى حد والى آخر المدى لأنها تنقض وجوده وكيانه من صميمه . وسواء صح الاتهام او لم يصح ، فان الغرب يتهم الشرق بأنه باسم الثورة اللاقومية يستعمر : ليس كاستعماره السياسى السافر ولكن ـ هكذا يقول ـ استعمارا ايديولوجيا مقنعا ، ليس كاستعماره استعمار القراصنة ولكن « استعمار الرفاق» ولا يبنى الامبراطوريات الامبريالية ولكن «الامبراطوريات الطبقية » او « الامبراطوريات البروليتارية »

وايا ما كان ، فليس يعنينا هنا هذا الاتهام ، ولكن الذى يهمنا هو ان هذه الثورة النقيضة قد خلقت لنفسها مجالا ضخما وكتلة عظمى . وهى قد استطاعت ان تظهر وتثبت ـ بجانب قوتها الذاتية المتعاظمة ـ بفضل الاستفادة المنظمة من المتناقضات العميقة بين دول الغرب، سواء فى ذلك تناقضاتها الداخلية الطبقية فى كل دولة ، او تناقضاتها الخارجية الاستعمارية فيما بينها اى توازن القوى داخل دائرة الغرب . وابسط مظهر ودليل فى هذا الصدد ان الاتحاد السوفييتى تحالف مع الغرب ضد المانيا النازية حتى هزمت ، وحتى خرج الغرب مضعضعا وبرزت قوة الاتحاد الى الصدارة

وفى النتيجة خرجت الثورة الشيوعية من الحرب وقد اصبحت كتلة عظمى تنـاظر وتناطح كتلة الغرب

الاستعمارى . وبهذا انكسر احتكار القوة فى العالم ككل لاول مرة وورثه الاحتكار الثنائى ، واصبح العالم يتنازعه سياسيا قطبان متنافران ، أصبح العالم كما قد نقول « نصفى كره » سياسيا بعد ان كان الكوكب كله كرة واحدة مضغوطة مكبوتة

ثم نصل الى المرحلة الثالثة والاخيرة مع عدم الانحياز لنشهد الاستقطاب الثنائى يتحول بدوره الى ثلاثية عريضة ، وليحل محل نصفى الكرة السياسيين مثلث لا نقول متساوى الاضلاع ولكنه على اية حال ذو اضلاع ثلاثة ورؤوس . وكما بدات كل من القوتين السابقتين بثورة تاريخية ، فكذلك بدات القوة الثالثة بثورة عارمة هى ثورة التحرير التى تفتتحها وترمز لها وتلخصها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكما كان للثورة الروسية نسل كبير من الثورات الأقل قدرا ، فكذلك كان للثورة المصرية سلسلة من ردود الافعال والثورات فى العالم الثالث وعالم المستعمرات كأنها الموجات الحلقية المتدرجة حول حجر القيت به فى بركة آسنة

وتماما كما تعرضت الثورتان الأوليان للمحاصرة والضرب من الخارج ، فقد تعرضت الثورة المصرية للانقضاض المسلح عليها من الغرب الاستعمارى الذى كانت هى انتقاضة مباشرة عليه وتحديا لوجوده وكيانه عبر البحار . ولذلك فان حرب السويس كانت بمثابة حرب التدخل بالنسبة لروسيا السوفييتية ، ومعركة بورسعيد كموقعة فالمى بالنسبة لفرنسا الثورة . وكما خرجت الثورتان الأوليان مظفرتين ، خرجت الثورة المصرية بدورها مظفرة لترسم سابقة التحرير فى كل المستعمرات ولتضع علامة بدء عدم الانحياز ولتصك شهادة ميلاد العالم الثالث كقوة جديدة تضاف الى

القوتين القطبيتين القائمتين وتثبت ان ابعاد العالم الجديد ثلاثة لا اثنين

وتماما كما استفادت الثورة السوفييتية فى البداية والكتلة الشيوعية فى النهاية من التناقضات الداخلية والصراعات المزمنة داخل الكتلة الغربية الراسمالية ، فكذلك ــ عدا تفجرها وقواها الذاتية ــ افادت الثورة المصرية فى البداية وثورة التحرير فى العالم الثالث فى النهاية من التناقضات الجذرية بين قوتى الغرب والشرق سواء فى ذلك من مجرد توازن القوى الحرج وانهيار احتكار القوة العالمى القديم ، أو من المناخ المعادى للاستعمار الذى خلقه وجود الكتلة الشرقية ، او بالمساعدة المباشرة عسكريا بالسلاح وسياسيا بالتأييد أو اقتصاديا بالمعونات والقروض

غير انه يبقى فى النهاية ان الثورة المصرية وثورة العالم الثالث تختلف عن اى من الثورة السوفييتية وثورة العالم الشيوعى ، والثورة الفرنسية وثورة العالم الراسمالى . فالاخيرة ــ ثورة الغرب ــ ثورة قومية طبقية ، وثورة الشرق ثورة لا قومية لا طبقية ، وثورة العالم الثالث ثورة قومية لا طبقية . ولهذا فاذا كانت ثورة الغرب باسم القومية والطبقية تستعمر ، وكانت ثورة الشرق باسم اللاقومية واللاطبقية تتكتل ، فان ثورة العالم الثالث بحكم القومية واللاطبقية لا تستعمر ولا تتكتل ولكن تتحرر . ومن هنا حرص العالم الثالث وعالم عدم الانحياز على أن يكون قوة ــ قوة ثالثة ــ دون أن يتحول الى كتلة ثالثة . فعدم الانحياز تجمع لا معسكر ، وتجمع من اجل السلام لا معسكر من اجل الصراع ، لانه بالتعريف لا ينحاز وتكتله فى معسكر ينقض جوهر عدم الانحياز والناظر فى هذه المتتابعة التطورية لا شك يروعه تماثل

ميكانيكيتها المتواترة . فثمة ثورات عالمية كبرى ثلاث هى معا نقط الارتفاع والانقطاع فى التاريخ السياسي الحديث كله ، وثمة كتل أو قوى ثلاث خلقتها فى النهاية تلك الثورات على التوالى . وكل ثورة وكل قوة منها لا تستقر ولا تتدعم الا بعد تجربة نضالية مريرة مع القوى الخارجية . ولكن كلا من القوتين الاخيرتين الشرق والعالم الثالث لم تظهر الا على حساب الاولى الغرب واقتطعت منها بالتدريج جزءا من مجالها ونفوذها ووزنها حتي انكمشت هذه كثيرا وكادت ان تكون اليوم مجرد اسفين فى جسم العالم (١)

ومن ثم فان القوتين الاخيرتين اقرب الى بعضهما موقفا وذلك من حيث انهما تقفان بالضرورة على حذر من اخطار الكتلة الاولى ، ومن حيث أن مصالحها هى مبادئها بينما ان مبادىء الغرب هى مصالحه . وغير انه بعد هذا تختلف مبادىء كل من الشرق والعالم الثالث ، ومن هذا الاختلاف يستمد الاخير اصالته . واخيرا فيمكننا أن نرى ان الثورات الثلاث تمثل تاريخيا وايديولوجيا متتالية هيجلية ديالكتيكية شديدة الوضوح: فاذا كانت الثورة الفرنسية هى « التقرير » اليمينى المتطرف فان الثورة السوفييتية هى « النقيض » اليسارى المطلق ، بينما تاتى الثورة المصرية «كالتركيب» المعتدل الاوسط : thesis, antithesis, synthesis

هذا عن الناحية التطورية ، أما من حيث الصورة النهائية الناتجة فلن يكون من الصعب على الناظر الى نمط مورفولوجية القوة الراهنة فى العالم أن يرى فيها امتدادا — وان يكن معدلا تعديلا جوهريا — لثلاثية ماكندر الكلاسيكية . اما الذين لا يرون نمطا على الاطلاق

(١) Keith Buchanan, op. cit. p. 335.

فى عالم اليوم فانما هم الذين لايريدون ان يروا أو يعترفوا بعدم الانحياز وبالعالم الثالث . فهنـــاك ـ لا يزال ـ الكتلتان النوويتان الغربية والشرقية اللتان ورثتا قوة البحر والبر القديمة ، بينما منطقة الارتطام والالتحام البينية قد ورثتها اليوم قوة عدم الانحياز أو العــالم الثالث . ويمكننا ان نقول ان هـــذا تطور من مفهوم جغرافى بحت للاستراتيجية العالمية الى مفهوم فني أو حضارى ، وهو تطور منطقي وطبيعي اذا ما تذكرنا أن التكنوستراتيجية قد حلت محل الجيوستراتيجية

ولا شك ان قوة عدم الانحياز تعد بين الكتلتين قوة « بينية » بكل وضوح وذلك موقعا ودورا ووظيفة مثلما كان سلفها منطقـــة الارتطام . فأولا ليس من محض الصدفة بالتأكيد ان جرثومة الحياد الايجابى ودعوة عدم الانحياز انما تنشا فى صميم منطقة الارتطام ومنها تنتشر. بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب عدم الانحياز هي ثلاثة من اكثر أجزاء منطقة الارتطام التاريخية حساسية وخطرا : يوغوسلافيا : مصر : الهند ! وكان من الطبيعى جدا أن تنبثق مثل هذه السياسة الاصيلة الجديدة من صميم منطق استراتيجيتها الكامنة بحسبانها قد عاشت مهصورة محصورة بين شقى رحى البر والبحر . لقـد تحول الموقع الجغرافى الى موقف سياسى

ثم ان هذه القوة الثـالثة الجـــديدة « بينية » فى فلسفتها ومثلها ومنظورها الايديولوجى ، حيث لاتتطرف يمينا او يسارا ، وتعترف بالقومية وتحارب الاستعمار . كذلك هى الى حد ما وفى معنى جديد « بينية » بموقعها الجغرافى بين الكتلتين . فرغم أن دول الحياد الايجابى وعدم الانحياز تمتد على جبهة عريضة مترامية فى القارات الجنوبية منساحة فى نصف الكرة الجنوبى ، وتعـــددت

بذلك كثيرا جدا الحدود الجغرافية لجبهة الارتطـــــام الامفيبية القديمة ، فانها فى ظل استراتيجية الفضـــــاء النووية تظل مفتوحة لكل من الكتلتين وفى متناول مداها، واذا كان توزيعها الجغرافى اليوم قد انساح ولم يعد امفيبيا ارتطاميا تماما بالمعنى الجيوستراتيجي فهى تظـــل بينية بالمعنى التكنوستراتيجى

الى هذا الحد ، لاشك أن قوة الحياد الايجابى وعـــدم الانحياز هى الترجمة الحديثة والتطوير المعدل في عصر التحرير والفضاء لقوة الارتطام القديمة .. ولكن هـــذا الإطار الجديد بعينه هو الذي يكسبها دورا جـــديدا فى العالم ويمنحها وظيفتها ورسالتها الاصيلة التى تختلف جوهريا عما الفت منطقة الارتطام . فكقطب موجب للقوة فى العالم متحرر ونام ، لم يعد هم هذه المنطقة مجرد ان تحافظ على كيانها واستقلالها من اخطار القوى الاخرى كما كان شأن منطقة الارتطام فى الماضى ولم يعد من شأنها ان تضاربها ببعضها البعض من موضع الضعف وفى قوقعة العزلة لتضمن بقاءها أو تحصل على مكاسب منها

لقد كانت منطقة الارتطام خط خمود سياسى ومنطقة رهو ، ولكن قوة عدم الانحياز اليوم خط استواء سياسى ينشد ويمكن أن يكون غلابا يحل السلام القائم على العدل محل سلام الرعب الذرى . وبهذا فان مجموعة عـــدم الانحياز اصبح دورها الايجابى أن تكون « جيروسكوب » سياسيا يحفظ توازن سفينة العالم وتوازن القـــوى الكوكبية ويمنع مصير الكرة الارضية من أن تتقـــاذفه وتعصف به الكتلتان الدينوصوريتان

وينبغى أن يكون واضحا أن هذا الدور يختلف عن دور « المرجح » الذى كانت تلعبه بعض القوى الاستعمارية فى توازنات القوى العالمية قديما ، بمعنى أن تنحاز الى أحد

الجانبين المتصارعين (١) . فهذا بالتحديد ما يقوم عدم الانحياز ضده

انها كما عبر اقطابها « ضمير العالم » وصمام امنه : طلق حر من قيود التحيز غير مغرض وغير ملتـــزم الا بالاخلاقيات السياسية ومبادىء التعايش الســلمى . فوظيفة عدم الانحياز اليوم أن يكون همزة وصل لا حاجز فصل بين الكتلتين ، وأن يمد جسرا عبر الاخدود الغائر بينهما . ودوره اذن دور الممر لا دور الخندق ، او بتشبيه جغرافى دور البرزخ لا دور المضيق . باختصـــار ان استراتيجيه عدم الانحياز الجديدة لا تتلخص فى منطقة « ارتطام والتحام » وانما فى « منطقة التئام » بين الكتلتين تحول الستار الحديدى الى ستار حريرى

على انه اذا كان لنا أن نفيـــد من الانتقـــادات والاتهامات التى يقذف بها الاستعماريون عدم الانحياز ، فهذا الدرس هو بوضوح حاجة المجموعة الى القوة ، القوة بمعناها الشامل . فمن البديهى أن العالم الثالث هو اضعف أركان المثلث الاستراتيجى المعاصر وهو مهد التخلف والفقر فى العالم . يكفى أن نذكر أن توزيع الثروة فى العالم اليوم يعطى لنحو ٢٥ ٪ من سكان الارض نحو ٧٥ ٪ من ثروتها ودخلها ، ويترك الربع الباقى لثلاثة أرباعهم ، ومنهم كل أبناء العالم الثالث . ولا مفر له من تثوير نفسه حتى يرقى الى متطلبات دوره الحاسم . فى عصر اصبح للقوة فيه أضلاع ثلاثة : السياسة والاقتصاد والعلم

فاما من جهة القوة السياسية فاولى وسائلها استكمال تصفية الجيوب الاستعمارية المتخلفة فى العالم ، بما فى ذلك فصم علاقات الارتباط بالكومونولث والاتحـــاد .

(١) مورجنتاو.

الفرنسي وهى الارتبـــاطات التى شبهت بمجرد فترة « تعشيش » مريحة تقطعها الدول المتحـررة على طريق الاستقلال التام (١) . وثانية هــــذه الوسائل ضرورة ترابط دول عدم الانحياز ترابطا وثيقا فى نسيج ضام غير منفذ لتسربات الاستعمار . والوحدة الافريقية والتضامن الآسيوى الافريقى وتفاعل القارات الثلاث ، مراحل على هذا الطريق . ولكن الخلافات الثنائية على الحـــدود والأقليات ـ ومعظمها من ارث الاستعمار ـ يجب ان تصفى بعد ان أصبحت خطرا حقيقيا على جبهة عـدم الانحياز سواء فى آسيا او فى افريقيا . والا فهل يجوز مثاليا أن تخضع قوة عدم الانحياز لنفس ظاهرة التفكك والتفسخ التى أصابت الكتلتين المعسكرين ؟ كذلك فان هناك عددا من دول الجبهة اسما ولكنها فعلا ترتبط وثيقا بالقوى الاستعمارية القديمة

وعدا هذا فان الوحدة الدستورية بين المجمـوعات الاقليمية المتجانسة ـ وفى ابعاد واقعية معقولة ـ كالعالم العربى او شرق افريقيا أو غربها .. الخ ، ضرورة ملحة لتصحيح الكيان السياسى للمجموعة . فالعالم الثـــالث اليوم هو بلقان العالم ، ويضم وحده السواد الأعظم من دوله ، بينما لا تزيد الكتلتان عن عدد محدود من مجموع الوحدات السياسية فيه . ومن هنا بتنافر نصفا الكرة الشمالى والجنوبى فىدرجة التمزقاو التماسك السياسى كما يتنافران فى سائر مظاهر الحياة والنمو . هذا فى الوقت الذى لم بعد فيه مكان للدول الضئيلة والصغيرة ، وفى عصر يتجه الى الدول ـ الكتل والاتحادات والتكتلات الاقليمية . ومن المحقق ان منطقة كالعالم العربى مثلا ـ ولها كل مقومات الوحدة ـ لن تقتحم حضارة العصر ولن

(١) بوين . ص ٩

تدخل القرن العشرين حقا ولن تعيش عصر العلم والتكنولوجيا الا كوحدة واحدة أو كدولة موحدة

اما عن القوة الاقتصادية ، فسلاحها الاول التنمية ، والتنمية الكثيفة السريعة . فلا بد من حشد وتجنيد كل الموارد الطبيعية والطاقات البشرية للتحرر من التخلف وللانطلاق فى مدارج التقدم والرفاهية . ورأس الحربة فى هذا كله هو التصنيع ، وهنا نلاحظ ان العالم اليوم يكاد ينقسم الى ثلاثة انماط عريضة من الاقتصاد القومي : دول منتجة للمصنوعات ، ودول منتجة للخامات ، ودول منتجة للغذاء . وقد تجمع دولة بين اكثر من واحد من هذه الانماط ، لكن المهم أن الدول المتحررة النامية يقع معظمها فى النمط الثانى وذلك بعد ان حرمها الاستعمار السابق من الصناعات فى الوقت الذى حرمها أيضا من الكفاية الغذائية بتوجيهها غير المتزن الى الخامات . ومن ثم فهى تكاد أن تكون محاصرة اقتصاديا بين دول النمطين الآخرين

فالتجارة العالمية ــ ولا زالت بهيكلها الاستعماري ــ تتحيز تحيزا صارخا ومتزايدا للمصنوعات ازاء الخامات ، وتعمل الدول النامية الآن على تصحيح هذا الميزان المختل ولكن دون جدوى فيما يبدو ، اذ تشير تقديرات الامم المتحدة الى ان نصيب الدول النامية من صادرات العالم فى تناقص مستمر نسبيا ، حيث هبطت النسبة من ٣٠ ٪ فى ١٩٥٠ الى ٢٥ر٣ ٪ فى ١٩٦٠ الى ١٩ر١ ٪ فى ١٩٦٦

ومن ناحية أخرى أصبح من الجلى تماما ان الغذاء قد صار سلاحا سياسيا تعسا للضغط وحرب التجويع . وبين هذا وذاك ، فقد تحتم على هذه الدول النامية أن تعيد تركيب انتاجها بما يكفل استقلالها الاقتصادى ،

كما ان عليها ان تتجه الى مزيد من التفاعل والتبادل التجاري فيما بينهما للحد من سيطرة الكتلة الاستعمارية على تجاراتها الخارجية

اما قوة العلم فهى اليوم بلا جدال المحور الأسى للقوة المادية والمعنوية ، وتخلف العالم الثالث تاريخيا لم يكن فى جوهره الا تخلفا علميا ، والاستعمار نفسه لم يكن الا تفوقا حضاريا .واذا كان القر ن التاسع عشر هو قرن الذين يملكون والذين لا يملكون ، فان القرن العشرين – أكثر من اى وقت مضى – هو قرن الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فالعلم اذن هو حضارة المستقبل ، ومستقبل العالم الثالث رهن بتطوره العلمى . وفى هذا الاطار يمكن أن ندرك بعمق قيمة الدعوة الحارة التى يطلقها « الميثاق » للحاق بعصر الذرة والفضاء بعد أن فاتتنا عصر الفحم والكهرباء ، وليس ثمة ما يمنع من أن يصبح العالم الثالث من اقطاب الحضارة والقوة اذا خاض الثورة العلمية ، بل ربما اصبح القرن الحادى والعشرون قرن العالم الثالث كما يامل البعض . ومع ذلك فلا ينبغى الاسراف فى التفاؤل بغير عمل شاق ورهيب ، لان العقود الاخيرة شهدت اتساعا مخيفا فى الهوة التكنولوجية التى تفصل بين الدول المتقدمة والنامية

ولقد رأينا فيما مضى كيف أن الحضارة والقوة قد هاجرت بانتظام واطراد من عروض دون مدارية الى العروض الشمالية ، من الدفء الى البرد ، ومن مدار السرطان صوب القطب ، وذلك مع قهر حضارة الانسان المتزايد للمناخ البارد . وهناك يعتقدون أن هذه الحضارة قد وصلت الان الى حد القدرة على قهر المناخ الحار ، وأن ليس هناك بالتالى ما يمنع من أن يعود البندول فيتارجح فى اتجاه عكسى من المناطق الباردة الى

المناطق الحارة ، ومن العروض الشمالية الى العروض المدارية وصوب خط الاستواء . بل ان هناك من يعتقد ان التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التى لحقت بالمداريات انما هى من ارهاصات هذه الحركة الجديدة ، كما انه ثبت ان تكييف المناخ الحار أسهل وارخص من تدفئة المناخ البارد (١)

ومعنى كل هذا ان المستقبل للمداريات ـ للعالم الثالث ـ لقوى عدم الانحياز . والحقيقة أن العالم الثالث اذا كان اليوم فقيرا ضعيفا متخلفا ، فانما هو كذلك بالواقع لا بالامكانيات، بالفعل لا بالقوة . فامكانياته الطبيعية ضخمة ورصيده المادى شبه بكر ، وبينما اقترب العالم الشمالى من نقطة التشبع فى ميدان الاستغلال والتنمية ، لا يزال أمام العالم الثالث مجال فسيح . ويكفى ان ناخذ من امكانيات التحميل بالسكان مؤشرا على ذلك

يقدر ماكيندر مثلا ان افريقيا المدارية وحدها يمكن ان تستوعب فى يوم ما الف مليون نسمة ، ومثل هذا الرقم يعطيه لامريكا الجنوبية (٢) . فاذا اضفنا الى ذلك آسيا الموسمية بكتلتها البشرية العارمة ، فقد يمكن ان تحمل المداريات او العالم الثالث يوما ما مقدار ما يحمل هذا الكوكب اليوم من سكان (+ ٣٣٠٠ مليون) . ومهما يكن من امر ، فلا شك ان الثقل النسبى للعالم الثالث ديموغرافيا سيرتفع بشدة فى المستقبل ، وسيكون هذا جزءا من ، وعلامة على ، عملية اعادة توزيع الاثقال والاوزان بين القوى العالمية التى بدات من قبل

---

(١) Stamp, Applied Geog., p. 149.

(٢) «The Round World & the Winning of Peace», p. 605.

الفصل الرابع عشر

مابعد عدم الانحياز

انتهينا في الفصل السابق الى الصورة العامة النظرية أو الاكاديمية لفلسفة عدم الانحياز فى استراتيجية السياسة العالمية ، وذلك كما تبدو مثاليا وكما كانت قبل ان تصطدم بواقع التجربة الصراعية • غير أن أحداثا خطيرة وحرجة اجتاحت العالم فى السنوات الاخيرة ، تعرض فيها عدم الانحياز خاصة لأول واقسى اختباراته ، بحيث يمكن أن نميز فى تجربته بين عهدين : عصر ذهبى تبلور فى مؤتمره بالقاهرة ١٩٦٤ ، ثم مرحلة حرجة ودقيقة بلغت أقصاها فى١٩٦٧ مع حرب الشرق الاوسط . ففى المرحلة الاولى طغت قوته المعنوية وحدها على الصورة النظرية ، مما فتح الباب لكثير من الحماس المسرف والعاطفية غير الموضوعية • أما فى المرحلة الثانية فقد انقلبت الصورة كثيرا ، وطغت عليها جوانب ضعفه من الناحية التطبيقية ، بل والى حد فتح الباب للمبالغة فى الانهزامية اليائسة

من هنا فنحن بحاجة الى النظرة العلمية السوية التى تميز بين النظرية والتطبيق ، بين التحليل الاكاديمى المتفائل والتجربة الواقعية بعنفوانها • لذا فان علينا الان أن ندرس مورفولوجية السياسة العالمية فى عصر ما بعد الاستعمار أو ما بعد التحرير أو ما بعد الانحياز ـ سمه

ما شئت ـ وذلك بما فيه من مواقف وتوازنات جديدة ، أى أن علينا أن ننظر الى عدم الانحياز فى التطبيق وبغير معزل عن الصراعات العالمية الكبرى وعن اطارها العـــريض ٠ ونقطة البدء المنطقية فى هذا المسح لا يمكن الا أن تكون تحديد وتحليل عامل الاضطراب الجذرى فى عالم اليوم وهو السياسة الامريكية بلا ريب ، وعلاقتها بالقوى المضادة وبالعالم الثالث ، وبعـــدها نستطيع أن نرى الابعـــاد الحقيقية للتعايش السلمى ولعدم الانحياز

الخطر الامريكى

ليس من العسير على طالب الجغرافيا السياسية ان يرى مفتاح التطورات العالميه الاخيرة يكمن ـ موضوعيا ـ فى تحركات ونشاطات وديناميه الولايات المتحدة بصـــفة اساسية ، وهى نشاطات وتحركات وديـــنامية عدوانية بصفة قاطعة ٠ وليس من العسير عليه أيضا أن يرى مفتاح الدينامية العدوانية الامريكية هذه يكمن فى مرحلة تطورها الجيوبولتيكى ، أى فى موقعها على منحنى تطور الـدولة عبر التاريخ. فكما يصنف الجغرافى السياسى فان فالكنبرج تقع الدولة فى مراحل تطور اربع : الطفوله أو النشأة ، الشباب أو التوسع ، النضج أو الاستقرار ، وأخـــيرا الشيخوخة او الانكماش (١)

والذى يحلل تاريخ الولايات المتحدة سيجد القـــرن التاسع عشر فى اغلبه يمثل طفولتها كدولة ، فقد كانت تبدى كل ملامح وأعراض دور النشأة حيث ظلت منهمكة ـ بعد حروب الاستقلال ـ فى صراعاتها الداخليه البحتة وحروبها الاهلية وعمليات الضم الاقليمية او تعميق الاتحاد

(١) S. Van Valkenburg, Principles of Political Geography.

محليا ، باختصار كانت مستغرقة تماما فى عملية ترتيب البيت من الداخل . من هنا كانت « العزلة » بوصلتها وقبلتها السياسية التى يمكنها وحدها أن تتيح لها الحماية من أخطار الخارج ريثما تتكون لها درقة أو صدفة صلبة تغلف قوقعتها الهلامية الناشئة . وقد كان مبدأ مونرو هو أول صيغة للعزلة فى الواقع ، بل من الثابت أنه لم يبدأ الا برعايه وموافقة بريطـــــانيا ولم يتحقق الا فى ظل اسطولها وسيادتها البحرية العالمية

غير ان ظروف الولايات المتحدة الخاصة جدا ، من عزلة طبيعية جغرافية وضخامة فجائية غير مألوفة ، ساعدتها حتى منذ دور النشأة على الاتجاه نحو السيطرة الخارجية . وهذه وجدت مجالها شبه البكر فى أمريكا اللاتينية ، وذلك بطبيعة عزلة العالم الجديد جغرافيا وبذريعة مبدأ مونرو سياسيا . ومن المفارقات اللافتة الساخرة والتى سترسم سابقة دالة للمستقبل ، أن سيطرة الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية انما تمت على حساب النفوذ البريطـــانى بالذات ، وذلك بعد عملية صراع وازاغة حلت بهـــــا الامبريالية الامريكية محل البريطانية

والخلاصة من هذا كله أن الولايات فى عزلة مرحلـــة نشأتها لم تكن تمارس الصوفية أو المثالية السياسية ، وانما كانت منغمسة منذ وقت مبكر فى تجربة جديدة فى فن الاستعمار اتخذت من امريكا اللاتينية حقلا لها ومشتلا ومعملا . وهذا ما ستخرج به الى العالم حين تدخل دور الشباب ليكون « هدية » العالم الجديد الى العالم القديم . .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات قـــد عبرت مرحلة الانتقال من دور النشأة الى دور الشـــباب واقتحمت دور الشباب والفتوة الذى تكون الدولة قـــد استكملت فيه بناء كيانها الداخلى وقوتها الذاتية ماديا ،

وامنت حدودها نهائيا ، وبدات طاقتها تفيض عبر حدودها فتتطلع الى الخارج فى حذر اولا ثم فى اندفاعة مقضة لا تلوى على شىء فى النهاية · انه دور التوسع ، أى الاستعمار بالضرورة ، الدور الذى تمثل فيه الدوله مشكلة خطيرة للسلام العالمى وتحديا للقوى الاقدم والاحدث على السواء

وينمثل هذا فى حالة الولايات فى توسعاتها الاستعمارية بالمعنى المباشر - معنى الاستعمار القديم - فى الكاريبى والهادى ، ثم فى انغماساتها فى حروب العالم القديم الامبريالية التى كانت تتارجح فيها بين تقليد عزلة دور النشأة وبين اغراءات توسع دور الشباب · فبعد أن شاركت اثر تردد طويل فى الحرب العظمى الاولى ، تذبذبت نحو العزلة نوعا فيما بين الحربين ، الى أن تجاذبها من جديد الحرب العظمى الثانية التى وضعتها تماما فى قلب دوامة السياسه العالمية بل وعلى رأس صراع القوى الكوكبة جميعا

واذا كانت الحرب الثانية قد قامت اصلا كصراع استعمارى بين دولة فتية فى دور الشباب (المانيا) تبغى التوسع على حساب دولة أقدم فى دور النضج (بريطانيا) لم تعد تنشد الا الاستقرار وكل همها المحافظة على الوضع الراهن بما لها فيه من مكاسب استعمارية عظمى حققتها من قبل فى دور شبابها ، فان الجائزة الكبرى قد سقطت فى النهاية فى يد الولايات المتحدة · فقد خرجت بريطانيا ، واكثر منها فرنسا ، مضعضعتين من الصراع ، مما مكن لثورة التحرير أن تنطلق فى المستعمرات ، وللولايات المتحدة أن تشارك فى مطاردتهما منها حتى تستطيع أن تحل محلهما ، الى أن انتهت فترة ما بعد الحرب بانتقال بريطانيا وفرنسا كدول من دور النضج الى دور الشيخوخة والانكماش

وفى النتيجة ، فان الامبريالية الامريكية الجديدة لم ترث الامبريالية البريطانية والفرنسية القديمة فحسب كما هو شائع ، وانما ورثت فى الحقيقة كل الراسماليات المتنحية بريطانية وفرنسية والمانية وايطالية ويابانية .. الخ ، اى كل الراسماليات الديمقراطية والدكتاتورية ، الليبرالية والفاشية ، وقوى دور النضج ودور الشباب على حد سواء

اما بالنسبة الى دول التحرير الوطنى التى قامت فى المستعمرات القديمة ، والتى تقف على درجات متفاوتة من دور النشاة والطفولة بكل معالمه ومشاكله التطورية العادية فضلا عن التخلف الحضارى والضعف الجذرى الخطير ، فقد ظهرت الولايات المتحدة امامها فى ازدواجية خبيثة لم تلبث أن صارت سافرة . فقد خدعت بعض هذه الدول فى دورها السياسى تحت أوهام عزلتها القديمة ومثل مرحلة نشاتها المدعاة ، وكذلك تحت تاثير مطاردتها الظاهرية للاستعمار القديم ، حتى توهمت الاولى فيها أملا حقيقيا للتحرير والتعمير . فاذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتى من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والاصيلة فى الاستغلال بدل الاحتلال ، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود ، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الامبريالية بدل الاستعمار . وهذا هو « الاستعمار الجديد » فى مقابل « الاستعمار القديم » ، وتلك كانت بداية خيبة أمل العالم الثالث فى الولايات ، ولكن الاسوأ منه كانت النهاية ، اذ اصبحت الولايات لعنة العالم الثالث بالتحديد كما سنرى

وعند هذا الحد يمكن تشخيص خطر الولايات فى انها اول دولة فى التاريخ اجتمعت فيها ولها كل عناصر القوة ومقوماتها ، ولكن أيضا كل أعراضها وأمراضها ، وذلك

على أنبر مقياس فى التاريخ كذلك : فهى فى كل ذلك «أول اكبر » او « آكبر اول » كما قيل . فهى كقارة او شبه قارة تعد اول دولة تقف على قمة دور الشباب فى مثل هذا الحجم والضخامة والثراء . ويكفى فى هذا الصدد تفوقها العلمي والتكنولوجى المجنح الذى خلق بينها وبين اوربا الغربية نفسها هوة كالهوة التى بين أوربا الغربية والعالم الثالث ! واذا كان أهم ما يميز الدولة فى دور الشباب ان تنضج قوتها المادية يسبق نضج خبرتها وحنكتها السياسية الى درجة مقلقة ، فان هذا يصدق على الولايات كما لا يصدق على دولة اخرى ، بل الى الحد الذى يضع العضل فوق العقل تماما فى السياسة العالمية

وهى بعد ذلك اول دولة راسمالية تتعدى حدود الراسمالية التقليدية وآفاق الراسماليات القديمة الى مرحلة يمكن ان توصف حقا بمرحلةمافوقالرأسمالية super-capitalism فهى اليوم اكبر قلعة للاحتكارات والاستثمارات العالمية . وهى كذلك ولذلك اول دولة تتبنى الديموقراطية وتمارسها شكلا وتعلن نفسها حامية « العالم الحر » والمدافعة عنه ، ولكنها مع ذلكالتى اخذت تنمى لنفسها ملامح فاشية بقدر او آخر ، أكثر من جنينى على أية حال وذلك بتضخم آلة الحرب تضخما رهيبا جعل الحكم فيها ادنى الى شركة مساهمة بين الاحتكارية والعسكرية او بين تجار الاسلحة وتجار الحروب . وهى بهذا ــ موضوعيا ــ اول دولة تعرف اونا جديدا من الفاشية هى الفاشية المقنعة ، تمييزا لها عن الفاشيات السافرة السابقة . ويكفينا شاهدا فى هذا المجال تصريحات بعض الساسة الامريكيين انفسهم ، من اولها ما قاله الرئيس الاسبق ايزنهاور عن التلاحمالوثيق

بين رجال الصناعة والعسكرية وتحذيره من « حصول هذا المركب الصناعي ـ العسكري على نفوذ لا مبرر له » ومن آخرها ما اعلنه مرشح للرياسة الامريكية من ان الولايات « لم تعد قلعة للديموقراطية ، وانما اصبحت معقلا للديكتاتوريات » ، وان « ما يحدث في امريكا الان . . يشبه الى حد كبير المانيا الهتلرية عام ١٩٣٩ »

والولايات بعد كل هذا وقبله وفوقه اول واكبر قوة نووية في التاريخ ، وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق ، الا ان نلاحظ فقط مغزاه في ضوء اجتماع الخصائص السابقة وهو ان ها هنا اول حالة لدولة عظمى في دور الشباب ، فوق راسمالية ، شبه فاشية ، وفي نفس الوقت ذات قدرات ـ أو أنياب ـ نووية

وانه لمنطقي جدا بعد هذا ـ فيما يبدو للولايات ـ أن تتطلع الى السيطرة العالمية المطلقة والا تقنع باقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب . وهناك من يخشى ان تكون الولايات ساعية في معنى حقيقي جدا الى انشاء اول امبراطورية كوكبية في التاريخ الامبريالي وان يكن في شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد . لقد كانت أعظم امبراطوريات الاستعمار القديم مهما تعاظمت تغطي جزءا فقط من هذا الكوكب ، ولكن يبدو الان ان الاستعمار الامريكي الجديد يود ان يعوض عن الكثافة بالمساحة . وهناك من يرى ـ مثل توينبي ـ أن الولايات المتحدة هي روما العصر ، بينما يسجل احد قادة الولايات نفسها « اننا أصبحنا نقوم بالدور الذي كانت تقوم به الامبراطورية البريطانية القديمة »

والولايات تكاد تتصور هذا رسالة قدرها ان لم تتوهمه حقا الهيا مقدسا . غير انه بغض النظر عما قد تتخيله هي أو تدعيه عن مثالياته وفروسيات قوتها ، وبغض النظر

كذلك عما اذا كانت تعتقد ان « الله امريكي » أو انها ظل الله على الارض كما يسخر منها البعض مثلما سخروا من بريطانيا القرن الماضي ، فان الواقع الموضوعي هو أن عناصر القوة قد تحولت في يد الولايات الى اعلى مراحل غرور القوة ، ان لم يكن حقا الى نوع من جنون القوة

ففي راى الكثيرين أنها اذ جعلت من نفسها رجل اطفاء العالم ، تحولت بالفعل الى مفجر حرب العالم ،وان تصورها لدورها كرجل بوليس عالمي انتهى بها الى ان تصبح في الواقع دولة بوليسية ارهابية عظمى وقرصانا او قاطع طريق دولي خطير . كما انها ، وقد جعلت من نفسها وريثة كل الاستعمار ، قد صارت تلقائيا قلعة الرجعية العالمية وزعيمة الثورة المضادة في العالم اجمع . وهذا ما دعا البعض الى أن ينتهى الى ان الولايات أصبحت نقمة وكارثة حقيقية على العالم ومأساة العصر الكبرى . بل هناك من شبهها « بسرطان العالم » من حيث ان السرطان ليس أكثر ولا اقل من نمو شاذ غير متوازن يظل ينضخم في جسم عضوى حتى يدمر خلاياه . واذا كان العالم قد تحدث في مراحل متعاقبة عن الخطر الاصفر والخطر السلافي والخطر الشيوعي .. الخ ، فان البعض يرى اننا اليوم نعيش في عصر « الخطر الامريكي »

وايا كانت النظرة العلمية الى هذه الاراء ، التى قد تكون عاطفية أكثر مما هي خاطئة ، فلا جدال على الاقل ان هناك كثيرا من الموضوعية في نظرة ديجول فرنسا مثلا الذى اعلن كرجل دولة مسئول ان أخطر مايواجهه العالم في القرن العشرين هو تضخم قوة امريكا خارج كل حدود .. ومن الناحية العلمية البحتة يمكن ان نلخص جوهر مشكلة الولايات في العالم في انها بحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية وصلت الى الصدارة

العالمية قبل الاوان ، وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتاريخ والتجربة والنضج . ولعل هذا هو السبب الذى يحدو بمؤرخ مثل توينبى الى أن يتوقع أمد حياة قصيرا للصدارة الامريكية فى العالم ، فلا يتنبأ لها بأكثر من ٥٠ سنة على الاكثر من البداية الى النهاية ، وهو مدى قصير للغاية اذا قورن بالصدارة البريطانية أو الفرنسية فى الماضى .. الخ

اما من الناحية العملية ، فان عناصر القوة الامريكية لم تعد مفتاحا اساسيا من مفاتيح السياسة العالمية فقط ، بل واخطر عناصر الصراع والصدام الدولى المحتمل . فهدف السيادة العالمية كان حريا منذ البداية بان يصطدم مع الاتحاد السوفييتى ومن خلفه الكتلة الشرقية ، كما يستدعى ابتلاع العالم الثالث . وعلينا الان أن نتوقف بشىء من تفصيل عند كل من هذين الاحتمالين على حده

فاما مع الاتحاد السوفييتى ، فان الموقف الآن أقرب من حيث صراع القوة الى الجمود الخطر منه الى التوازن الدقيق . فرغم أن الاتحاد لا يزال متخلفا عن الولايات فى كثير من خطوط الانتاج القومى والاقتصادى والصناعى وفى مستوى المعيشة - يبلغ حجم الانتاج القومى فى الاتحاد الان ٣٥٠ بليون دولار مقابل ٧٤٣ بليونا للولايات - ورغم أن هدف الاتحاد المعلن لا يعدو حتى الان أن يلحق بمستويات الولايات فى القريب ، فان معدلات نموه أسرع كثيرا من الولايات ، والفجوة الكلية بينهما تضيق باستمرار . ولهذا فان العامل الفيصل فى المقارنة حاليا هو القوة العسكرية المباشرة ، ولكن هذه بدورها شلها توازن الرعب النووى الى حد أن حل التعايش السلمى محل الحرب الباردة

فهل وضع التعايش السلمى حـــدا لخطط القوة واهداف السيادة الامريكية فى العالم ؟ لقد وضـعت صيغة التعايش السلمى لتكون بديلا للحرب الباردة بين الغرب والشرق ، على أساس أن يكون التقدم الصـناعى والتكنولوجى والتنافس فى الحضارة وفى مسـتوى المعيشة هو التعبير البليغ والسلمى عن الايديولوجيـة والصراع المذهبى ، وذلك بعد ان أصبحت طفـرة التكنولوجيا الصناعية هى ابرز واوقع انجـازات عصر الاتوميشن والالكترونيات .. الخ ، او بايجاز على أساس ان تحل الحرب الصناعية محل الحرب النووية

ومن الواضح ان الاتحاد السوفييتى ملتزم التزامـا وثيقا بمبدأ التعايش السلمى ، فهو يتبع سياسة سلامية اساسا ، ويعمل على اثبات تفوق نظامه عن طـريق المنافسة فى الحياة لا فى الموت ، ويضع لنفسه هـدفا محددا فى المستقبل القريب هو الوصول الى مسـتوى معيشة وانتاج الولايات ثم تخطيها . ومن الناحيـة الاخرى فهو لم يعد يتهم من أعدائه بتصدير الثورة الى الخارج ، وهو يكتفى فيما يبدو بالمحيط الجغرافى الهائل الذى وصل اليه العالم الاشتراكى وبالمثل والنمـوذج القائم الفاعل فى صمت . وحتى فى اوربا الغربية يسود الاعتقاد بأن خطر الغزو الشيوعى العسكرى لم يعـد مسلطا او كما قال أخيرا سياسى بريطـانى « اننـا مستسلمون لوهم الخطر الروسى الى حـد العجز عن ملاحظـة الاتجاهات الاشـد خطرا فى السياسـة الامريكية ... »

وهناك أسباب عدة لهذا الموقف الجوهرى من جانب الاتحاد السوفييتى ، منها مبادئه الاساسية نفسـها فالسلام مطلب اشتراكى أساسا ، ومنها بلا شـك

الانقسام الخطير الذى أصاب الكتلة الشرقيـــة بالنزاع السوفييتى الصينى فاصابها بضعف دولى ملمـوس . ومنها كذلك انه بعد ٥٠ سنة من الثورة والنضـــال الداخلى والخارجى المرير قد وصل الى بنــــاء مادى عمرانى ضخم يسعى للمحافظة عليه من خطر التدمير . وهنا نصل الى نقطة قد تكون هامة فى تشخيص مرحلة النمو السياسى التى بلغها الاتحاد

فمع التفرقة الواجبة بين طبيعة الدولة الرأسـمالية والدولة الاشتراكية وبين أهدافها ، فان مراحل النمـو السياسي والتطور الجيوبولتيكى العـــام للدولة ككائن عضوى ليس ثمة ما يدعو الى التفرقة فيها . ومن هذه الزاوية فان الاتحاد السوفييتى كدولة يمكن أن يقال أنه تعدى مرحلة الشباب منذ حين ودخل مرحلة النضج . فرغم ان مرحلة الشباب فى الدولة الاشتراكية لا يمكـن اصلاً أن تستهدف أو تتميز بالتوسـع الاستعمارى ـ وقد انفقها الاتحاد بالفعل فى البناء الداخلى وصدالعدوان الخارجى كما حدث حوالى الحرب الثانية ـ ورغم أن هذه الملامح لا زالت أهم معالم العمل السوفييتى ، فان الارجح ان الاتحاد قد بلغ الان مرحلة النضج

ولعل ما أعلنه أخيرا بمناسبة مرور نصف قرن على الثورة من انه الان بدأت مرحلة الانتقـــال من الدولة الاشتراكية الى الدولة الشيوعية بالمعنى الدقيق ، أن يشير الى مرحلة النضج هذه ، وهى المرحلة التى يحرص صاحبها ـ رأسمالى أو غير ذلك لا يهم ـ على المحافظة على مكاسبه وانجازاته ، ولذا يحرص على السلام بنفس الدرجة . بل لعل موقف الاتحاد من الصدع الذى وقع فى الـــكتلة الشيوعية بينه وبين الصين الشعبية ، والذى يتســـم بالحرص على عدم توسيعه مهما كانت الاستفزازات ، ان

يؤكد هذا التشخيص التطورى · وعلى اية حال ، فان دولة الاتحاد السوفييتى اقرب بالتـــــاكيد من دولة الولايات المتحدة الى مرحلة النضج ، سواء ذلك باعتبار تاريخه منذ الثورة أو قبلها

وهنا يبدو على الفور فارق آخر ، فارق مرحـــلى يضاف الى الفارق الامى ، بين موقف الاتحاد والولايات من التعايش السلمى . ففضلا عن طبيعة النزعة المسلحة والامبريالية الكامنة فى النظام الرأسمالى ، فان الولايات المتحدة كما رأينا دولة فى مرحلة الشباب بكل ما يعنى هذا من غرائز توسعيه ونوازع عدوانية ·· الخ · ومن الواضح من كل ما تفعله وتقوله (وما لا تقوله) الولايات، انها تنظر الى التعايش السلمى كهدنة مسلحة مؤقتـــة تكسب بها وقتا أولا وارضا ثانيا ، دون أن تتخلى عن خطتها العليا للسيطرة والسيادة الكوكبية ، بما فى ذلك اساسا واخيرا السيطرة على الكتلة الاشتراكيـــــة المضادة

ومن الصعب عند هذا الحد الا تقفز الى المقــــارنه صراعات وتوازنات ما قبل الحرب الثانية . فمما يفرض نفسه على الباحث الجيوبولتيكى ، ذلك التشابه الكبير بين مواجهات ١٩٣٩ ومواجهات يومنا هذا ؛ رغم عناصر الاختلاف التى لا شبهة فيها كذلك · فمواجهـــة الحرب الثانية بدأت بصدام دولة فى مرحلة الشباب ، متحرشة مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة (المانيا) ، ودولـــة فى مرحلة النضج حريصة اشد الحرص على مزاياهـــا المكتسبة ولم تدخل الحرب الا مترددة مرغمة فى النهاية وبعد وصمة استسلام ميونيخ الشـــهيرة (بريطانيا)

فبغض النظر عن الفروق الجذرية فى النظم الاجتماعية ما بين فاشية المانيا ورأسمالية بريطانيا وكل استعمار ،

وما بين راسمالية الولايات المتحدة الامبريالية واشتراكية الاتحاد السوفييتى ضد الاستعمارية ، فــان تحرش الولايات واستفزازها الراهن وعدوانيتها المســلحة من ناحية ، وحرص الاتحاد بأقصى درجات ضبط النفس على عدم التورط فى الصدام من ناحية اخــرى ، يكرر اساسيات الموقف القديم . ومن أبرز اســـتفزازات الولايات فى صميم المعسكر الشرقى حرب فيتنام ، وحلم الحرب الخاطفة ــ على نحو ما فعلت اسرائيل فى الشرق الاوسط ــ على المانيا الشرقية كجزء من حلم « تحرير ما وراء الستار الحديدى »

ابعد من هذا ، فان محاولة المانيا النازية المساومة مع بريطانيا (أو العكس ربما) على حساب الاتحاد السوفييتى بمشروع هتلر بالانقضاض على الشيوعية ، هذه المحاولة تكرر فى معنى ما محاولة الولايات المتحدة فى أكثر من مناسبة فى السنوات الاخيرة التلويح للاتحاد السوفييتى بالمساومة على اقتسام العالم وتفادى الصدام بين العملاقين، وذلك على حساب العالم الثالث ، كبش الفداء الاساسى فى حالة مثل هذه الصفقة . واذا كان الاتحاد قد فضح العرض الامريكى ورفضه كقطعة مبتذلة من عصر الصـــفقات الاستعمارية المشبوهة ، فان هذا لا يغير من عنـــاصر المقارنة ، كما أن فشل العرض النازى لم يمنع من وقوع الصدام

واذا كانت النازية بعد ذلك قد عادت فعقدت ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، فلم يكن هـــذا الا مناورة لكسب الوقت ريثما تنتهى من بريطانيـــا ، وبذا تتغدى ببريطانيا وبعدها تتعشى بالاتحاد . وهذا أو شىء من هذا يكاد على الارجح أن يكون خط الولايات المتحدة اليوم . فمع استحالة الصدام مع الاتحاد بكل ما يحمل

من اخطار نووية ، ومع استحالة التواطؤ معه على مصير العالم واقتسامه مناطق نفوذ ، تجمدت المواجهة بينهما فى اطار تكتيكى مؤقت هو التعايش السلمى الذى أصبح فى خطتها وسيلة لا غاية ، وانعطفت هى لتتفـدى أولا بالعالم الثالث ، وبعده يمكن للتوازن العالمى الكتلى أن ينقلب تمهيدا للعشاء الاخير والاكبر . وهذا ما ينقلنا الى المواجهة الحالية بين الولايات المتحدة والعالم الثالث

امريكا والعالم الثالث

شهدت السنوات الاخيرة مدا استعماريا متصلا وكاسحا على طول الجبهة الافريقية والاسيوية وعرضها ابتداء من غانا وغينيا حتى فيتنام واندونيسيا ، ومن مصر حتى الهند ، ترتب عليه جزر حقيقى فى حركة التحرير الوطنى لا مفر من الاعتراف به . ومن المسلم به ان انفجار العدوانية الامريكية بهذا العنف والشراسة انما يرجع اساسا الى ما أحست به من تعاظم المد التحريرى والثورة العالمية فى العالم الثالث وانحسار نفوذها فيه انحسارا هدد بان يكون كاملا . غير ان النتيجة تظل واحدة : فتحت مظلة التعايش السلمى المقول ، واستغلالا لتوازن الرعب النووى ، انطلقت الولايات المتحدة معربدة كالعاصفة ، هنا فى أضعف حلقات العالم ، لتصفى سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد

وكما تراوحت امبريالية اليانكى فى امريكا اللاتينية بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت فى العالم الاسيوى الافريقى بين سياسة ذهب اليانكى وسيفه ، أعنى بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات المخابرات والانقلابات والغزو من الداخل . وقد نجحت

سياسة الاغراء والمعونات بالفعل فى اقتطـــاع بعض دول القارتين المتخلفتين الهشتين من فلك عدم الانحياز ،ولكن هذه الدول لم تكن منتمية حقيقة وباخلاص الى الخـــط التحررى الاستقلالى الا كشعار انتهازى ميسور

لكن الضربة الحقيقية التى نالت عدم الانحياز جاءت عن طريــق العمل التخـــريبى والسرى تحت الارض ، حتى اصبحت الانقلابات الرجعية ، وبالتحديد العسكرية ، ابرز ملامح الفترة الاخيرة ، وكانت افريقيا خاصة هى موطنها الاساسى حيث شهدت سنة ١٩٦٦ وحدها ١٢ انقـــلابا معظمها يتركز فى غرب القارة ثم يقل فى وسطها ثم يزداد قلة فى شرقها ، حتى ليصح فى معنى ان يقال ان ١٩٦٦ هى سنة نكسة افريقيا حيث كانت ١٩٦٠ هى « ســنة افريقيا » الاولى ــ بلغة الفلك ــ كانت فصل الانقلاب حيث كانت الثانية فصل الاعتـــدال . وبذلك نجحت الولايات المتحدة فى ان تصدر الثورة المضادة بالجملة وان تجعل من افريقيا فى هذا الصدد امريكا اللاتينية الاخرى

اما حيث لم تجد سياسة المعونات أو الانقلابات ، فقد التجات الولايات الى اسلحة الضغط الاقتصادي والتجويع او الحرب النفسية والحملات الدعائية دائما ،والى العدوان المسلح المقنع احيانا . وكان تحديد استخدام هذه الاسلحة يتناسب تناسبا طرديا مع ضراوة الكراهية الامريكيـــة والمقاومة الوطنية ، فوقفت عند حد الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلا بينما وصلت الى حد العدوان العسكرى فى الشرق العربى حيث تخفت النجمة الخماسية (الولايات) وراء النجمة السداسية (اسرائيل) كما قيل

وهنا نلاحظ ان من يتتبع خطط الولايات المتحـــدة للسيطرة على العالم الاسيوى الافريقى أخيرا يكاد لا يملك الا أن يرى مبدأ مونرو يتوسع ويزحف ليشـــمل العالم

غير الشيوعي جميعا . فلقد بدات الولايات مبـــدا مونرو محليا ثم أخذت توسعه تدريجيا حتى طوق العالم الجديد ، وحين بدات تتغلغل في العالم القديم وتطوق الشيوعيــة لم تكن خطواتها اكثر من توسيع مستتر لنفس المبدأ . فلم يكن حلف الاطلنطي او مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط او سلسلة احلاف آسيا ، ولم يكن مبدأ ترومان ومن بعده مبدأ ايزنهاور واخيرا خطة جونسون الاسيوية ، لم تكن هذه جميعا ـ نكاد نقول ـ الا حلقات مكشــــوفة في سلسلة خفية هي عالمية مبدأ مونرو في الواقع . او على الاقل فانه يكاد يلوح ان الولايات تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقي « فراغا » ضخما بالفعل والقــوة ، وان « عبء الرجل الامريكي » هو ملء هذا الفراغ . ومهمــا يكن الراى ، فالامر المؤكد ان الولايات اصبحت نقمة العالم الثالث ، وان المواجهة بينهما اصبحت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وعدم الانحياز على وجه التحديد، وهي مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة

وحين وصل المد الاستعماري الى ذروته بضرب طليعة عدم الانحياز في مصر والوطن العربى ، بلغت صدمة العالم المتحرر اقصى مداها ، مما وضع على الفور كل فلسفــة عدم الانحياز في ازمة مصير بل وطرح للمناقشة والتساؤل كل اساسيات ومسلمات التوازن العالمي الراهنة . فمغزى ما حدث أكبر بكثير من مجرد سلسلة من الانتكاســـات اصابت حركة التحرير الوطني . فجـــوهر الموقف ان الولايات المتحدة قد استغلت التوازن النووى لصالحها الى ابعد حد ، اذ بينما كف الاتحاد السوفييتى يده تعقـــلا وانضباطا ، أطلقت الولايات المتحدة يدها بلا رادع أو خوف لكى تبتز الجنس البشرى نوويا ولكى تحول السلام الذرى الى السلام الامريكى

واذا كان من الصعب ان نقول ان الاتحاد السوفييتي ياخذ الان موقف الدفاع ، فالذي لاشك فيه ان الولايات على جانب الهجوم دائما . وبينما لا يملك الاتحاد ان يغامر بالرد النووي بالردع الشامل ، وجدت الولايات فرصتها الذهبية وسلاحها الفعال فى استراتيجية الرد المرن والحروب المحدودة الصغيرة المحلية او الاقليمية . ويساعد الولايات على ذلك وجودها العسكري المنتشر فى عشرات القواعد حول العالم واساطيلها حاملة الطائرات في كل المحيطات، ولقد وصفت هذه الجزر الامريكية العائمة او الثابتة حول العالم بانها بحق الارمادا الامريكية او انكشارية العصر الحديث

والحقيقة ان الولايات المتحدة بوجودها العسكرى من قواعد واساطيل اصبحت جغرافيا وسياسيا « جارا » — غير مرغوب فيه — تشترك حدوده مع حدود كل دول العالم تقريبا ، ان لم تكن حقا قد صارت « شريكا » — طفيليا — لها فى وجودها ، وذلك بمخابراتها السرية وعملائها وتكنولوجيات التجسس .. الخ ، حتى قال البعض — يأسا او سخرية — أينما تكونوا تدرككم الولايات المتحدة !

والمهم أن لهذا كله عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة ، أولها ان العالم الثالث أصبح يواجه عدوانية الامبريالية الامريكية المسلحة وحيدا شبه أعزل ، وذلك رغم مساعدة ومساندة الدول الاشتراكية القيمة سياسيا واقتصاديا . وبهذا عدنا أو كدنا بدرجة أو اخرى الى منطق وواقع القرن التاسع عشر واستراتيجية عصر الاستعمار التقليدى القديم . وفى هذه المواجهة بدات علامات تحول هام ، ولكنها غير ملحوظة بما فيه الكفاية وهى ان الاستعمار الجديد بدأ يأخذ بعض ملامح

الاستعمار القديم رغم انه ما قام اصلا الا ليدور حولها ، ونعنى بذلك استخدام القوة والاحتلال والجيوش والحروب السافرة كما فى فيتنام والشرق الاوسط

وهذا يؤدى بنا الى نتيجة اخرى مثيرة وخطيرة ، وهى أن أكبر المنتفعين بالاستعمار الجديد اليوم هى بقايا الاستعمار القديم المتخلفة والتى يقع اغلبها فى حلقة الاستعمار العنصرى ابتداء من جنوب إفريقيا الى المستعمرات البرتغالية الى اسرائيل ، بل ان اسرائيل بخاصة وبالذات هى أكبر منتفع فى العالم بهذه المواجهة بين الاستعمار الجديد والعالم الثالث . لقد اصبحت هذه البقايا المتخلفة من الاستعمار القديم بمثابة النويات الصلبة أو العقد فى النسيج الغامر الخفيف للاستعمار الجديد

ثالثا ، اننا مع أسلوب الحروب المحدودة والاقليمية قد عدنا ـ فى صميم العصر النووى ـ الى منطق ماكيندر وعصر قوة البر والبحر . وهذا ان دل على شىء فانما يدل على ان الاستراتيجية المتنحية القديمة لم تزل تتعايش وتتعاصر مع الاستراتيجية الجديدة السائدة . نحن نعيش حاليا ورغم كل شىء فى ظل استراتيجية مختلطة بين رواجع الماضى وطلائع المستقبل بدرجة أو باخرى ، بين قطاع تقليدى وقطاع نووى ، أى بين ماكيندر وما بعد ماكيندر

وحين اعلن احد زعماء الاتحاد السوفييتى من بضع سنين انه لم يعد للطائرات والاساطيل البحرية « فى عصر الصواريخ الذرية ، من مكان الا المتاحف الحربية ، فيمكننا الان أن نرى أنه كان يتكلم من منطق الردع الشامل ، دون ان يتنبأ بامكانية الرد المرن . لقد ظننا ان الاستراتيجية النووية قد نسخت الى الابد

الاستراتيجية التقليدية ، فاذا بتوازن الرعب النووي يضع الاولى في التجميد العميق كما قيل ، واذا بالثانية تعود ولو مؤقتا لتحتل الصدارة فى العمل العسكرى الحالى

والمعنى الرابع للموقف الحالى هو ان المد الاستعمارى يمكن ان ينطلق الى ما لانهاية حتى يبتلع العالم الثالث كله دون أن يصطدم بما يوقفه عند حد . وبهذا فان العالم الثالث هو "أول ضحايا العصر النووى" وهذا ابعد ما يكون عن الفكرة المبسطة التى تتوهم ـ هكذا على الاطلاق ودون تحفظ ـ أنه كسب من عصر الصراع الكتلى استقلاله وكيانه . وعلى اية حال ، فليس ثمة شك فى أن من سوء حظ العالم الثالث أن العصر النووى لم يتأخر بضعة عقود عما حدث بالفعل ريثما يكون قد استكمل قواه الذاتية قبل ان يحاصر بين شقى رحى الشلل النووى من ناحية والابتزاز النووى من الناحية الاخرى . فمن المؤسف بالتأكيد ان عصر التحرير الوطنى لم يكد يبدا بعد انتهاء عصر احتكار القوة فى العالم حتى كان العصر النووى ـ بمصادفة تاريخية بحتة ـ قد بدأ ، فما لبث أن القى بظلاله واخطاره على حركة التحرير الوطنى فأصابها بالجمود والاضطراب ولا نقول الشلل

المعنى الخامس والاخير هو اننا قد وصلنا الى مفارقة صارخة للغاية ، وهى انه فى العصر الذى ظننا فيه استراتيجية السياسة العالمية ثلاثية الابعاد والاركان لاول مرة فى التاريخ بحيث زال احتكار القوة المطلق الذى عرفته كل المراحل السابقة على القرن الحالى ، فى هذا الوقت أصبح أحد هذه الاركان ، وبالتحديد قطبه الامريكى ، يتمتع بسيادة عالمية أحادية شبه مطلقة ترجع كثيرا كل ما عرفته بريطانيا مثلا فى أوج عصر احتكار القوة ، فاذا به بالفعل أو بالقوة يحكم من العالم

امله ويحكم تقريبا فى أغلبه

ولابد للباحث الموضوعى ان يعترف ، مؤقتا او ظاهريا على الاقل ، اننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش او نكاد نعيش منذ الحرب الثانية قرن الولايات المتحدة ، واننا نكاد نشهد الان عصر « أمركة » العالم ـ سياسيا كما هو حضاريا ـ بعد أن عشنا عصر « الاوربة » فى القرن الماضى . وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم فى غرب أوربا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم فان ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن كما يبدو الى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب . والخطر الكامن فى هذاانه اذا استمرت الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية القائمة بلا توقف ـ هذا مجرد فرض بحت ، سنرى حالا أنه مستحيل عمليا مع ذلك ـ فان عصر السيادة العالمية للامبريالية الامريكية ـ ستكون كما ينذر البعض على مرمى البصر

عدم الانحياز فى التطبيق

من كل هذه الحقائق الخطرة والنتائج المقلقة ، جاء رد الفعل فى صورة تفكير راديكالى وحاسم فى حقيقة ودور العمودين الفقريين فى بناء استراتيجية السياسة العالمية الراهنة وهما التعايش السلمى وعدم الانحياز . وهناك تداخل بينهما وثيق ، لكنه انساح الى حالة من الخلط الفضفاض . فالتعايش السلمى نشا كصيغة حياة modus vivendi بين نظامين ايديولوجيين متنافضين فى معسكرين سياسيين جبارين ، وذلك منعا للتصادم القاتل بينهما . أما عدم الانحياز فنشا كصيغة عمل m. operandi لتنسيق التعامل معهما من جانب طرف ثالث صغير يعتبر نفسه محايدا بينهما حيادا ايجابيا

ومن حيث التوزيع الجغرافى قد يمكن ان نميز بينهما ـ تبسيطا ـ فنقول ان التعايش السلمى يتوطن العروض المعتدلة ويكاد يتقاسمها مناصفة ، اما عدم الانحياز فظاهرة مداريه أساسا ويكاد يغطى المداريات عموما . اما تاريخيا فقد نشأ عدم الانحياز فى ـ وبفضل ـ مناخ اشتدت فيه الحرب الباردة ، وفى هذا المناخ وبفضله ايضا استطاع ان يلعب دورا هاما فى مخاض التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الاصل فى كل من التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الاصل فى كل من التعايش وعدم الانحياز ، تاريخيا ومبدئيا

ولكن الذى حدث الان أننا فيما يرى البعض ـ ونحن هنا نعرض لكل الاراء موضوعيا ـ وصلنا الى صورة معكوسة كثيرا او قليلا ، ظاهريا او مؤقتا . فبدلا من التناقض بين طرفى التعايش السلمى ، بدا التناقض كما لو كان بين التعايش السلمى وعدم الانحياز ، حتى ليظن أن التعايش السلمى انما يعيش اليوم على حساب عدم الانحياز أو ان التضحية بعدم الانحياز هى الثمن الوحيد لبقاء التعايش السلمى . وبدلا من العكس ، عوقب عدم الانحياز من جانب التعايش السلمى على دفعه له ، واصبح وسيط السلام هو جبهة الصدام وضحية العدوان ، وبدل ان يوجه نطاق الاحلاف العسكرية الغربية المضروب حول المعسكر الشرقى اصبح باستثناء وحيد فى جنوب شرق آسيا (فيتنام) يوجه الى ضرب دول عدم الانحياز (الشرق الاوسط خاصة)

اكثر من هذا ، وبعد أن كان العالم الثالث يأخذ موقف عدم الانحياز بين طرفى التعايش السلمى ، بدا كما لو كان احد هذين الطرفين يأخذ ـ من وجهة النتائج العملية على الاقل ـ موقف عدم الانحياز بينه وبين الطرف الآخر

بمثل ما ان الطرف الاخر قد نقل بالفعل حربه البـــاردة بل الساخنة من نظيره المقابل الى العالم الثالث وعــــدم الانحياز . وبهذا وذاك بدا كما لو ان تعايش الكبار انمـا يتم على حساب الصغار . بل ذهب البعض الى حـــد القول بانه لولا عدم التكافؤ المطلق فى الحجم والوزن ،ولولا ان العالم الثالث جسم غير متجانس متفكك ومبعثر ،لجاز اعتبار الاستقطاب الثنائي الراهن استقطابا بين الامبريالية او بالدقة الامبريالية الامريكية وبين عدم الانحياز ، بـين « العالم الحر » وبين العالم الثالث

واذا نحن تمعنا هذهالنظرة ـ التى دفعهاواشاعها بقوة وحدة عدوان يونيو الصهيونى الامبريالى على العـرب ـ لوجدناها سلاحا ذا حدين فى الحقيقة ، فجانب منهــــا بالتاكيد صحيح الى حد بعيد ، ولكن جانبا آخر ادخـل فى بابالسياسة الدعائية منه فيعلم السياسة . فالامبريالية الامريكية وعملاؤها تريد ان تثبت بعدوانها عجز عــــدم الانحياز الذاتى وخواءه وتهافته الشديد ، وفى نفس الوقت تريد ببعض هذا التفسير ان تثبت اما عجز واما تخـلى الاتحاد السوفييتى عن حمايته ، وبهذا تدق اسـفينا فى العلاقات بينهما حتى يعزل الاول عن الثانى فيعود العالم الثالث الى حظيرة السيطرة الغربية كالثمرة الناضجة . وعقدة السياسة الامريكية الحاكمة اليوم ـ وهذا قمـة غرور القوة ـ هى انها تريد ان تثبت للعالم كله ، وتريد للعالم الثالث خاصة ان يدرك ، انها وحدها هى التىتمنح أو تمنع ، وهى وحدها لا شريك لها التى تمســك بزمام ومصير كل أزمة وموقف

هذا تفسير ممكن ولكنه مرفوض للمناقشة الحـادة السابقة عن التعايش وعدم الانحياز . وبالمثل فان بعض هذه المناقشة يمكن ان يؤول على انه لا امل للعالم الثالث

فى مساندة الكتلة الشرقية له مساندة كاملة فى وجه الاخطار التصادمية الا بالقاء نفسه فى احضانها ، وبذلك يتخلى عن عدم انحيازه اصلا واساسا. وهذا المنطق كله وان اعترف ابتداء بعدوانية الغرب وصداقة الشرق ، يصور الموقف فى الحقيقة على ان الخيار امام عالم عدم الانحياز هو اما بين عدو قادر وصديق عاجز فى الحالة الاولى ، واما بين عدو قادر وصديق طامع فى الحالة الثانية . فهل هذا صحيح علميا وموضوعيا ؟

ثمة ــ ابتداء ــ عدة مسلمات . لا احد يود لاى سبب ان يرى « القيامة النووية » ــ كما يسمونها ــ وهى لن تقوم على اية حال حتى لو سقط العالم الثالث كله فى قبضة الاستعمار الجديد . ولهذا لا يجوز ان يعد الانضباط ازاء اخطارها تخليا أو عجزا ، وليس لهذا الاتهام اذن اساس علمى او واقعى . ومن هذه الزاوية ، فليس هناك من يدعو الى انهاء التعايش السلمى . ولكن التعايش السلمى لا يمكن ان يكون من طرف واحد ، كما انه اذا كان مفهوما بين الاشتراكية والراسمالية فانه لا يمكن ان يكون بين الاشتراكية والاستعمار . وأهم من ذلك أن التعايش السلمى لا يمكن ولا يجب أن يتحول الى تعايش استسلامى

ثانيا ، لاشك فى عدوانية الامبريالية الراسمالية ، وبخاصة الامبريالية الامريكية الباطشة الطامعة . ولا شك ــ بالمقابل ــ فى صداقة الدول الشرقية ، وعلى راسها الاتحاد السوفييتى ، صداقة مخلصة بلا اطماع . وقد اثبتت ذلك التجربة بما لايدع مجالا لشك او خوف . ومن هنا ، فان سياسة عدم الانحياز لم تستنفد اغراضها ولم تتجاوزها المرحلة ولابد ان تبقى ، غير انه يتعين عليها اساسا ان تفرق بحسم قاطع بين الاعداء والاصدقاء

ثالثا ، وفى النتيجة : فان هناك وحدة كفاح اساسية

ومصيرية بين دول الثورة الاشتراكية ودول التحـــرير الوطنية والصراع النهائى اذن هو بين الثـــورية العالمية فى جانب والامبريالية العالمية فى الجانب الاخر . ومن ثم فلا تعارض حقيقى بين عدم الانحياز وبين التعايش السلمى، الا ان من الضرورى ايجاد صيغة عملية فاعلة للترابـــط والتنسيق بينهما فى وجه الخطر المشترك الذى يهددهما معا . ومن هنا ينبغى ان نبدأ ، وسنبدأ

ان من الواضح ان الامبريالية الامريكية تزحف بالتدريج على العالم الثالث ، وهناك من يرى انها بحروبها الاقليمية المحدودة هنا وهناك تمارس فى الحقيقة حـــــربا عالميه « بالقطاعى » ، بل هناك من يخشى ان تكون الحرب الثالثة قد بدأت دون أن نشعر (أ) وان الصراعات والغـــزوات الاستعمارية الراهنة ليست الا مدخلها ، مثلما كانت الحرب الاسبانية مدخلا الى الحرب الثانية

ومن الواضح كذلك ان « العالم الثالث » اذا كان هدفا مباشرا لضربات « العالم الاول » الان ، فانما هـــو جسر ومرحلة على الطريق الى الهدف الاكبر والاخير وهــــو « العالم الثانى » . وهنا نجد من يعود الى التشبيـــــه بمقدمات الحرب الثانية فيخشى ان الامبريالية الامريكيـــة انما تستغل التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى كهدنة مسلحة وكخدعة سياسية ، مثلما نظرت المانيا النازية الى ميثاق عدم الاعتداء معه هو نفسه من قبل . بل هنـــاك من يتمنى ــ ابعد من ذلك ــ الا تكون قصة المواجهـــة ابتداء من كوبا الى فيتنام الى الشرق الاوسط تذكرة بماساة ميونيخ من قريب أو بعيد . ولذا فهم يلحون على انه لايجوز ان تتكرر التجربة المريرة

وسواء كان التشبيه سطحيا خداعا ــ وما اكثر ماتخدع المقارنات التاريخية ــ او كان ممعنا فى التشاؤم ، فالذى

لاشك فيه انه لابد من وحدة العالمين الثانى والثالث فى وجه الاطماع الكوكبية للعالم الاول . وهى وحدة حرب اساسا وحرب دفاعية بصورة مباشرة ، وقائية فى حقيقتها فى النهاية . واذا كان العالم الثانى سيدافع فيها عن العالم الثالث ، فهو انما يدافع عن نفسه فى الحقيقة ، وانما اليوم بدل الغد · ان سقوط العالم الثالث ـ فرضا ـ فى قبضة الاستعمار الجديد اليوم هو بمثابة عودة الى نمط وتوازن ١٩٤٥ حين كان المعسكر الشرقى وحيدا معزولا يسهل تطويقه وضربه

ولكن ، هل يمكن ان تعد مثل هذه الوحدة الاستراتيجية بين العالم الثالث والعالم الثانى ـ كما يرجف البعض أعداء وعملاء ـ انحيازا من جانب عدم الانحياز ، اى نفيا لجوهر عدم الانحياز ذاته ؟ الرد العلمى بالنفى ، فان هى الا وحدة عمل استراتيجية ، وليست وحدة أيديولوجية ، ليست وحدة ايديولوجية اكثر مما كانت وحدة الصراع بين الشيوعية والراسمالية ضد النازية فى الحرب الثانية . . واذن ، فليس هناك اعتراض ايديولوجى على العمل الموحد ضد الاستعمار

اما صيغة العمل الموحد هذا بين العالمين الثاني والثالث ، فلا تخرج عن احدى وصفتين : اما الحروب الاقليمية المحدودة ، واما حروب التحرير الوطنى · فاما الحروب الاقليمية فان هناك ما يدل ـ هذا أعلن بالفعل ـ على أن الاتحاد السوفييتى بدأ أخيرا يبلور لنفسه استراتيجية جديدة تقابل الحروب المحدودة بمثلها ، وذلك فى ظل استحالة الردع الشامل · ولقد كانت الولايات المتحدة اسبق من الاتحاد الى اكتشاف حل المعادلة الصعبة هذه والى «اختراق الحاجز النووى» يدفعها الى ذلك طبيعة الاستعمار الجديد العدوانية ، ويشجعها عليه استهتارها

باخطار التصعيد فى الصراع ، ويمكن لها امتيازاتها العسكرية الجاهزة من قبل والتى تتمثل فى قواعدها حول العالم

فمنذ أوائل الستينات ادركت الولايات تماما ان توازن الرعب النووى قد جمد استراتيجية الردع الشامل ، فسارعت وتبنت استراتيجية الرد المرن والحرب المحددة، باعتبارها استراتيجية الاستعمار الجديد بالضرورة والامتياز فى العصر النووى . ولهذه الاستراتيجية نمت كل اسلحتها الطبيعية التى تعتمد اساسا على اقصى تكنولوجيات الكفاءة ولوجستيات السرعة ، والتى تتمثل فى القوات الامفيبية (مشاة الاسطول) وقوات المظليين (فرسان الجو) الى جانب القواعد الثابتة (حاملات الطائرات التى لا تغرق) والقواعد العائمة (حاملات الطائرات والغواصات)

ولقد سجلت السنوات الاخيرة زيادة هائلة فى قوات الولايات من هذه الطرز المتخصصة ، فى الوقت الذى كان الاتحاد السوفييتى لا يزال يعتمد أساسا ـ الى جانب الترسانة النووية بالطبع ـ على أسلحة الحرب البرية التقليدية التى تلائم استراتيجيته الكلاسيكية الدفاعية الخاضعة كما نعرف لجغرافيته القارية الاوراسية المتصلة والحبيسة ، وبهذا كانت تنقصه أساسا الاسلحة التقليدية غير النووية لاستراتيجية حروب ما وراء البحار . وهذا وان اتفق تماما مع طبيعته غير الاستعمارية ، فانه لم يعد يتفق الان مع صراعاته ضد الاستعمارية . وتلك بالدقة هى الفجوة التى استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية فى العالم الثالث ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذى بلغ أوجه فى معركة الشرق الاوسط

غير أن الاتحاد اكتشف اخيرا وبدوره المصل المضاد لاستراتيجية الرد المرن : فلا يفل الحرب المحدودة الا

الحرب المحدودة . ومن هنا اتجه بوضوح تام ومرونة وسرعة نادرتين الى الاستعداد للحروب الصغيرة عبر البحار ، باعداد قوة بحرية للتدخل السريع فى العمليات الخارجية ، تشكل قواعد عائمة عبر البحار كبديل عن القواعد الثابتة التى تميز الاستعمار

وقد بدات أولى ارهاصات الخروج البحرى فى الحقيقة منذ نهاية الحرب الثانية حين أخذ الاتحاد السوفييتى ينمى لنفسه قوة بحرية قياسية لم يعرفها من قبل ، حتى وصل اليوم الى المرتبة الاولى فى الاسطول التجارى والثانية فى الاسطول الحربى ، وفى هذا الاخير وصل باسطول الغواصات بالذات ــ ولهذا مغزاه الجغرافى الكبير ــ الى ضعف قوة الولايات المتحدة أو مايربو على كل قوة حلف الاطلنطى مجتمعة . اما اولى علامات التحول الاستراتيجى الدال الجديد ، فقد ظهرت أخيرا منذ بعض الوقت فى بناء حاملات الطائرات لاول مرة ، ثم فى تشكيل مشاة البحرية لأول مرة كذلك ، ثم فى تنمية فرسان الجو على اوسع نطاق ، مع كل ما يعنى هذا من تكنولوجية ولوجستية . وقد انعكس هذا كله فى خروج الاسطول السوفييتى الى البحر المتوسط حيث اصبحت له نواه متنامية فى حوضه الشرقى يتعامد على ، وتقطع فى صميم ، نطاق أحلاف الغرب . وتوازن الاسطول الامريكى السادس وتلغى احتكاره وتنفى عنه صفة « البحيرة الامريكية »

والشىء الجدير بالملاحظة فى هذا كله ان هذه الاستراتيجية الجديدة تتجه بالاتحاد ــ كما تنبأ ماكيندر من قبل ــ الى أن يكون قوة برمائية اكثر من اى وقت مضى . كذلك فان هذا الاتجاه يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة الى الحرب المحلية المحدودة فى ظل الشلل

النووى ، يعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما الى نمط ومنطق ماكيندر القديم المتنحى اساسا . واخيرا فالمرجح ان عصر الدينامية العدوانية الامريكية بلا رادع قد حانت نهايته . وربما يصنف مؤرخ المستقبل الاستراتيجي تاريخ الصراع العالمى فى العقود الاخيرة الى ثلاث مراحل : مرحلة حروب عالمية تقليدية انتهت بالحرب الثانية ، مرحلة شلل نووى عام ، ثم مرحلة حروب تقليدية ولكنها غير عالمية بل محدودة ومع ذلك لا حد لها وذلك حين يضع الاتحاد السوفييتى استراتيجيته الجديدة موضع التنفيذ

هذا جميعا عن الحروب الاقليمية المحدودة كخط فى صيغة العمل ضد المد الاستعماري . اما عن حروب التحرير الوطنى ، فهذه مسئولية دول العالم الثالث نفسها أساسا بالاشتراك مع حلفائها الطبيعيين . وعليها هنا أن تعمل أساسا لكى لا تفلت قضاياها التحريرية من قبضتها وسيطرتها هى لتصبح موضع تسويات القوى الكبرى او كجزء من كشف حساب الحرب الباردة عامة . وتقسيم العمل فى هذا النضال واضح بما فيه الكفاية : الحد الأقصى من السلاح الشرقى ، فى يد الحد الاقصى من القوات الوطنية . فمن الواضح ان اخطر مناطق العدوانية الامبريالية فى العالم الثالث هى فى الحقيقة اخطر مناطق التسليح الغربى كما أثبتت حرب الشرق الاوسط حيث ظهرت اسرائيل كترسانة امريكية مسلحة حتى الاسنان . ويمكن بغير مبالغة فى هذا الصدد أن نضع معادلة عالمية تتالف من عدة متتاليات اقليمية تختزل اساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/اسرائيل

وتفصيل هذا او تفسيره ان العالم الثالث يمثل اليوم نقطة الارتكاز fulcrum بين ذراعى القوة والمقاومة فى الصراع العالمى بين الغرب والشرق ، فاذا امكن صد المد الامبريالى فى العالم الثالث وانحسر عنه الى جزر نهائى ، فان الميزان سيتارجح وينقلب نهائيا ضده او فى غير صالحه . ولكن العالم العربى هو الجبهة الامامية والطليعة الحرجة فى العالم الثالث ، ونتائج الصراع فيه تنعكس عليه مباشرة ان سلبا أو ايجابا . واخيرا فان محور الصراع وبؤرة الحرب ومعقل الامبريالية فى العالم العربى بدوره انما هى القاعدة الاستعمارية الصهيونية . وقد كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ هى بلا شك قمة الزحف الاستعمارى فى العالم الثالث كله ، سعى اليها بالتدريج من اطرافه حتى وصل الى قلبه ، وانكسار هذه القاعدة الاستعمارية يمكن بالمقابل ان يكون نقطة الانكسار فى كل مسار الزحف الامبريالى فى العالم الثالث . ونفس انكسار تلك القاعدة هو وحده الذى سيفتح الطريق الى الوحدة العربية التى — وحدها ايضا — ستثبت قيادة العالم العربى فى العالم الثالث .

ولذلك كله فنحن نعتقد أن مصير اسرائيل الصهيونية سيحدد فى نهاية المطاف مصير الامبريالية العالمية ، فما دامت اسرائيل باقية فان الامبريالية ستظل مقيمة لا تريم فى العالم الثالث ، ولكن يوم تزول اسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للامبريالية . وما نظن ذلك من المبالغة فى شىء ، بل لعله ان يفسر وحدة المصالح والمصير المطلقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، بل لعل شيئا لا يؤكده كما تؤكده تصريحات زعماء الولايات المتحدة نفسها من أن ضمان بقاء اسرائيل يمثل مصلحة بقائية للولايات نفسها ، وهو ما يؤكد كذلك ما قلناه من قبل من ان

الصـــهيونية أعلى مراحل الامبريالية والاستعمار ، وهو ما يتفق اخيرا مع الحقيقة المسلم بها وهى ان مشكلة فلسطين هى اعقد واخطر مشكلات عصرنا جميعا

ومن المنطقى بعد هذا كله ان نقول انه لما كان مصـير الصراع العربى ـ الاسرائيلى سيتوقف اساسا على قوة مصر خاصة من بين العرب ، بمثل ما أن مصير الامبريالية العالمية سيتوقف على مصير اسرائيل ، فان مصير عـدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى التحليل الاخير على مصير مصر بالدقة . وليس فى هذا غرابة ولا جديد ، اذ من المسلم به ان مصر كانت منذ البداية القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك الخط ـ دون ان يقلل هذا، مع ذلك ، من الدور النضالى الذى يمكن ويجب أن تلعبه كل وحداته ومناطقه . ويوم تنجح مصر والعرب فى ازالة الاستعمار الاسرائيلى ، فسيكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحيـاز ، وفى نفس الوقت صـك زعامتهم فيهما

ويترتب على هذا ايضا ان القطبين النهائيين فى الصراع بين الامبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد ايضا ولا غرابة فى هذا ، فكل منهما يلخص زعامة مجموعته ، الى جانب انه يفسر تركيز العدوانية الامريكيـة على مصر بالذات . وهـذا العداء الضارى ، اذ يقوم بين أقدم دولة هامة فى التاريخ وبين احدث دولة هامة فى التاريخ ، كان من الممكن ان يعد مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير متكافىء ، لولا أن قـد فرضته الاخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل . ولكن هذا التحدى ومثله يؤكد لنا ويعود بنا الى ماسبق ان اشرنا اليه عن مسئولية العالم الثالث كله نحـو نفسه ، وان الضمـان الحقيقى والاخير لاستقلاله وبقاء عدم الانحياز ، فى وجه

اى خطر حقيقى او مزعوم غربا كان او شرقا ، هو القوة الذاتية القادرة بمستويات العصر ومقاييسه

ثم سؤال هام يثور هنا : هل يؤدى هذا الصدام والعداء ، كما روج وتخوف الكثيرون منذ حرب الشرق الاوسط خاصة ، الى قطيعة نهائية وعداء ابدى بين العالم الثالث والغرب او بين العالم العربى والولايات المتحدة ، والى تكريس للحقد والانتقام الامريكى بخاصة ، بما يعنى ذلك من احتمال فقدانهم مستقبلا كمصادر للمعونة فى عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا كما لم يحدث من قبل ؛ ويحكمون هم ناصيته كما لم يحدث ايضا من قبل ؟ التساؤل فى ذاته وجيه بعيد النظر ، وجدير بكل اهتمام ، ولكن الاستغراق فى مثل هذا المنطق وتغليبه فى مرحلة مصيرية تحدد وتهدد الوجود ذاته يمكن ان يكون مدمرا ، كما أن مثل هذه المخاوف تجهل او تتجاهل طبيعة العلاقات الدولية الحاكمة

ولتوضيح هذا نقول ان الاستسلام للعدوان لا يزيد المعتدى الا طغيانا وانتقاما ، بينما أن المواجهة الصلبة الى أن تتكسر موجته ترغمه فى النهاية على التعقل واعادة العلاقات على أساس الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء ، لا سيما مع وجود منافسين — من الغرب نفسه — على استعداد دائما لملء الفراغ . وتطور علاقة الاستعمار البريطانى والفرنسى فى العالم العربى مثلا بعد خروجهما منه ورغم تاريخهما المفعم فيه ، دليل قاطع

ان القلق من طغيان الولايات المتحدة ومن سياسة القوة التى تفرضها على العالم ، قد بدأ يمتد الى حلفائها فى غرب أوربا أنفسهم ، وبدأت تستشعر باطراد نوعا ما من العزلة الباردة فى سياستها العالمية ، ولا يستبعد بعض المفكرين أن يكون رد فعل الولايات اذا تفاقمت موجة

الكراهية والرفض ضدها ان تنسحب الى قــدر ما من العزلة ، ليست كعزلتها التاريخية بالتاكيد ، ولكن بمــا يتسق مع العصر النووى . والواقع أن العالم القديم لم يكن أحوج منه اليوم الى مبدأ مونرو عكسى يبعد العــالم الجديد عن التدخل فى شئونه !

والخلاصةباختصار ان احتمالات المستقبل فى العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الثالث ، وبينها وبين العالم العربى خاصة ، لا يمكن التنبؤ بهــا بدقة وقطع فى المدى البعيد ، ولكنها فى جميع الحالات لا يمكن ان تؤرق الثورة على الامبريالية اليوم ، ولا ينبغى لها ان تدفع بها الى ان تبيع واقــع الثورة التحــريرية من اجل وهــم الثورة التكنولوجية . فمثل هذه المساومة او الصفقة لن تعنى فى الظروف الراهنة سوى الاستسلام وبالتالى فقدانالتحرر والتكنولوجيا معا والى الأبد ، بينما ان الصمود والمقاومة الآن جديرة بكسبهما معا والى الابد

فهرس

رقم الايداع ٩٩/٣١٧٨
I. S. B . N
977 - 07 -0638- 8

روايات الهلال تقدم

أطياف

بقلم

رضوى عاشور

تصدر ١٥ فبراير ١٩٩٩

نموذج الاشتراك فى كتاب الهلال

يمكنكم الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى كتاب الهلال بارسال هذا الكوبون مرفقا به حوالة بريدية غير حكومية داخل (ج.م.ع) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

	داخل ج.م.ع. جنيه	البلاد العربية دولار	آسيا - أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٥٤	٢٧	٣٦	٣٦	٤٥
اشتراك ٦ شهور	٢٧	١٤	١٨	١٨	٢٣

هذا الكتاب

"استراتيجية الاستعمار والتحرير كتاب للمفكر الموسوعى الدكتور جمال حمدان الذى أثرى المكتبة العربية بكثير من القضايا الجادة والفكر البناء المتميز بالتحليل والرؤية الثاقبة.

والكتاب إهداء للكاتب والروائى يحيى حقى.. ويقدم الكتاب صورة للصراع الذى يعيشه عالم اليوم. هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة وقوى التحرير الفوارة، ورواجع الماضى المتربصة، ما نمطه الإقليمى وما أصوله التاريخية ؟

وهذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والأوزان السياسية بين الدول والكتل والقارات وهذه الانقلابات الكاملة في الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر الذرى هل هى تحولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما أم هى طفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ إلى أين يتجه نمط توزيع القوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل سيخلو من الأمبراطورية، واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الأسلحة الذرية، انتشار الحضارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟

وما احتمالات المستقبل بالنسبة لسياسة وليدة كعدم الانحياز ولقوة جديدة كالعالم الثالث والحقيقة أن التاريخ هو معمل الجغرافى كما قيل وهو كذلك مخزن الاستراتيجى الذى لا ينضب وكل منهما يستمد من الآخر خامته ويجرى عليها تجاربه. وبالنسبة للجغرافى بالذات، فإن التاريخ إذا كرر نفسه - وهو قد يفعل - فهذا التكرار هو الجغرافيا وليس التاريخ كما عبر البعض إلا جغرافية متحركة بينما الجغرافيا تاريخ توقف وهما معا أشبه بقرص الطيف وعلى هذا الأساس يقوم البحث، فهو دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبيها التاريخى والمعاصر .. يتتبع مورفولوجية التاريخ داخل اطار او اطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا.

وفى هذه الدراسة ننبه إلى تداخل بعدين او عنصرين لا انفصام لهما فى الواقع، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء او تضخم .. وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل القوة..

ولأهمية الكتاب نعيد طبعه للمرة الثانية فى سلسلة كتاب الهلال.